المنار

١٣١٥

مجلة اسلامية تبحث في جميع شؤون الاصلاح الديني والمدني والسياسي

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

﴿ عنوانها البريدي : دار المنار بشارع الانشاء بمصر عدد ١٤ ﴾

﴿ التلغرافي « المنار بمصر » . التليفون : ١٥ — ٧٧ بستان ﴾

فهارس المجلد الثلاثين

لسنة ١٣٤٨ هـ

(قيمة الاشتراك في المنار جنيه مصري في القطر المصري والحجاز)

وفي غيرهما ١٢٠ قرشا (او ٢٥ شلنا ذهبا)

[الطبعة الأولى]

مطبعة المنار بمصر

فهرس عناوين أجزاء المجلد الثلاثين

(الجزء الاول)

الجزء الثاني

فتاوى المنار

(باب المقالات)

الجزء الثالث

باب الفتاوى

باب المقالات

الجزء الرابع

باب الفتاوى

﴿الاستفتاء في حقيقة الربا﴾

﴿باب المقالات﴾

الجزء الخامس

﴿باب الفتاوى﴾

«باب المقالات»

باب الفتاوى

باب المقالات

تقاريظ

الجزء الثامن

باب الفتاوى

باب المقالات

(باب المراسلة والمناظرة)

﴿أنباء العالم الاسلامي﴾

الجزء العاشر

بقية التفسير

(فتاوى المنار)

باب المقالات

(تم فهرس عناوين الاجزاء ، ويليه فهرس المواد العام المرتب على حروف المعجم)

فهرس المواد العام المرتب على حروف المعجم

ب

خ

د — ذ

ش

م

تصحيح ما عثرنا عليه في اثناء مراجعة هذا المجلد من غلط الطبع

س ١١ ص ١١٣ نشأ في النساء : فشا في النساء ـ س ١٣ منها يجب العمل : (١٤) يجب العمل ـ س ١٦ منها (س ١٤) : (س ١٥) ـ س ١ ص ١١٥ الجمع بين مسألة : مسألة الجمع بين (وآخر س ١٦ منها : غريزة ـ وآخر س ١٧ نهاية ـ وآخر س ١٨ أو اعلى) ـ س ٢ ص ١١٧ بتأثير : بإيثار ـ س ١٣ و ٢١ ص ١٢٨ مورثيز : موريتز ـ س ٢١ ص ١٥١ دعوك : دعونك ـ س ٥ ص ١٥٥ تجد : تجعل س ١٧ ص ١٧٣ نفس : انفس ـ س ٢٢ ص ١٧٤ (ثانيها) : (ثانيتها) ـ س ٤ ص ١٧٥ (ثالثها) : (ثالثتها) س ٢٣ ص ٣٦٣ من شرح تفيد : يفيد س ٢٤ ص ٣٦٣ غيرهم : غيره ـ س ٣ ص ٣٧٦ اعتراض : اعتراض عليه

﴿ تنبيه ﴾ في رسالة الربا الهندية أغلاط كثيرة في الاصل المطبوع كنا ار كنا أكثرها اذ نشرناها في المنار ثم جمعناها في نسخة ضلت عنا الآن ولعلنا نصححها فيما طبعناه وحده .

المنار

نبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

أنشئ ١٣١٥

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صُوًى « ومناراً » كمنار الطريق

المحرم سنة ١٣٤٨ هـ ٢٠ برج الجوزاء سنة ١٣٠٨ هـ ش ٧ يونيه سنة ١٩٢٩

فاتحة المجلد الثلاثين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، الذي ختم به النبيين ، وأكمل به الدين ، وأرسله رحمة للعالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الهادين المهديين ، ومن تبعهم في هديهم إلى يوم الدين

أما بعد فان العدد الاول من مجلتنا هذه قد صدر في العشر الأخير من شوال سنة ١٣١٥ الموافق لشهر مارس (آذار) سنة ١٨٩٨ ميلادية ، بشكل صحيفة أسبوعية ذات ثماني صفحات كبيرة ، وفي السنة الثانية جعلناها مجلة أسبوعية بشكلها الذي هي عليه الآن وأصدرنا أول جزء من السنة الخامسة في أول المحرم سنة ١٣٢٠ (١٠ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٢) واستمر ذلك الى السابعة عشرة فقد صدر الجزء الثاني عشر منها بتاريخ

ذي الحجة سنة ١٣٣٢ (نوفمبر سنة ١٩١٤) وكانت قد أضرمت نار الحرب المدنية الكبرى فاختل في أثنائها نظام صدور المنار في أوائل سنيه وأواخرها، وجعلنا اجزاء السنة عشرة ، لأن الورق والحبر غلا سعرهما حتى تضاعف أضعافاً، وامتنع وصول الصحف المصرية الى كثير من الممالك والاقطار ، وساءت معاملات الناس ، ومن سنة ١٣٣٣ الى سنة ١٣٤٧ لم يصدر من المنار الا ١٢ مجلداً ، في ١٥ سنة ، فنقص من مجلداته ثلاثة أدمجت أو أدغمت في هذه السنين ، ولولا ذلك لوجب أن يكون المجلد الذي نفتتحه اليوم المجلد الثالث والثلاثين .

ولكننا اذا اعتبرنا في تاريخه السنين الشمسية يكون هذا المجلد هو الحادي والثلاثين ، فالذي نقص من مجلدات المنار عن سنيه القمرية ثلاثة ، وعن سنيه الشمسية اثنان فقط ، ونحمد الله تعالى أن قدرنا على استمرار اصداره في تلك السنين النحسات ، فمن المعلوم أن أكثر قرائه المؤدين لحقوقه هم خيار المسلمين المستنيرين، الذين يشعرون بشدة الحاجة إلى إصلاح حال أمتهم بالجمع بين سعادة الدنيا وهداية الدين وهم قليلون ومتفرقون، والموسرون منهم هم الاقلون، ومن عداهم لا يؤدي الحق إلا مادمت عليه قائماً ، وكان المتقاضي له ملازما ، (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا)

ونرجو من فضل الله تعالى أن نثبت على هذا التاريخ في اصداره مادمنا متمتعين بالصحة ، بعد ان من علينا بدار صالحة للسكنى وللمطبعة، وقد تأخر صدور بعض أجزاء المجلد الماضي لما عرض لنا من المرض في أول عامه والنقلة في آخره .

وأما الذي نذكر به القراء في فاتحة المجلد الثلاثين من الشؤون الاسلامية على عادتنا في هذه الفواتح - فهو أن الحملة على الاسلام قد اشتدت في هذا العهد من خصومه في الداخل والخارج ، أعني من قبل دول الاستعمار ودعاة النصرانية وهم طلائعها وحداتها ، ومن أعوانهم وأنصارهم وتلاميذهم في البلاد الاسلامية نفسها ، ولست أعني بهؤلاء من يستخدمهم المبشرون من نصارى القبط والسوريين والارمن وغيرهم ، بل أعني من هم أشر منهم وأضر ، وأدهى وأمر ، من ملاحدة المسلمين ، من الترك والايرانيين والافغانيين ، ودعاتهم وأخدانهم من المصريين ، وأشباههم من السوريين والعراقيين ، ومن الهنود والافريقيين ، وسائر الشعوب الاسلامية ، الذين سممتهم التربية الافرنجية ، وأفسدتهم الآراء المادية ، وخنثهم الاسراف في الشهوات البدنية ، ونحن نطلق لقب الالحاد على كل من يسمي خطة هؤلاء الكماليين في نبذ الشريعة الاسلامية برمتها من حكومتهم ، والتمهيد لمحو عقائد الاسلام وآدابه وعباداته من نابتة شعبهم ، بمنع اللغة العربية من جميع بلادهم ، وترجمة القرآن بما لا يؤدي حقائق معانيه من لغتهم ، وكتابته كغيره بالحروف اللاتينية ، للاجهاز على ألفاظه وأساليبه المعجزة - بل كل من يسمي هذه الخطة إصلاحا ويحسنها ويدعو اليها فهو عدو للاسلام وولي لاعدائه ، وعداوة الاسلام أعم من الارتداد عنه ، والكفر به ، فان كان مع هذا زنديقاً يدعي الاسلام ويخفي الكفر ، فإفساده أعم وأكبر من افساد الكافر الاصلي والمرتد ، لان الجاهلين بحقائق الاسلام من المسلمين يغترون بكلامه ، فيفتنهم عن دينهم أو يشككهم فيه

واننا نرى ملاحدة بلدنا هذا طبقات بددا ، تسلك طرائق قددا :

(الطبقة الاولى) المجاهرون بالكفر والصد عن الدين، والطعن في عقائده، وإلقاء الشكوك والشبهات فيها، بما يكتبون في الجرائد والمجلات المختلفة، ومنهم صاحب مجلة ومطبعة في مصر معروف. وفي حاب مجلة حديثة مثلها يظهر أن صاحبها مقلد ينقل أقوال أشهر الكتاب من ملاحدة مصر، وقصائد شيخ ملاحدة العراق وأمثالهم، ويثني عليهم وينوه بآرائهم، ولكنه لا يتجرأ على التصريح بكل ما يصرحون به بامضائه.

ومنهم أحد محرري الجرائد اليومية المأجورين، الذي كتب مقالات في تقبيح النص في الدستور المصري على جعل الدين الرسمي للحكومة المصرية الاسلام، وطلب أن تكون حكومة معطلة (لا دينية)، ومقالات في سن قانون مدني للاحوال الشخصية، لا يتقيد فيه بشيء من الاحكام الشرعية الاسلامية، وقد كان من أركان محرري السياسة ويقال إن له صلة وعلاقة ببعض جمعيات اليهود. وأفراد هذه الطبقة لا يدعون التدين ولا يمتعضون لوصفهم بالتعطيل، بل منهم من يفتخر بذلك.

(الطبقة الثانية): الزنادقة الذين يظهرون الاسلام، ويمتعضون إذا وصفوا بالزيغ والالحاد، وهم مع ذلك يطعنون في أصوله، ويجحدون بعض ما هو مجمع عليه ومعلوم بالضرورة منه، ويشككون في بعض آيات القرآن، وهم لافراد من الطبقة الاولى اخوان، وأخدان واعوان، ويسمون الترك الكماليين، ومقلدتهم مصلحين، ويدافعون عنهم بألسنتهم وأقلامهم، أو أقلام أفراد الطبقة الاولى

ورأي هؤلاء في الدين أنه رابطة اجتماعية سياسية يجب أن يكفى في الاعتراف لاهلها به موافقتهم للجمهور في بعض الشعائر والمشخصات العامة،

كالتجمل والزيارات في الاعياد وإن لم يصل صاحبها صلاة العيد، واحتفال الجنائز ومآتمها، وقراءة القرآن فيها، وان اشتمل ذلك على أعمال كثيرة يحرمها الدين، وكزيارات ليالي رمضان وطواف المسحرين فيها، ولكن الصيام نفسه ليس ركنا من هذه الشعيرة ولا شرطا لها، وكذلك الصلوات الخمس - حتى الجمعة - والزكاة لا يدخلان في هذا الدين الرسمي من باب ولا طاق، فانهما عندهم من الامور الشخصية، وتعد كاستباحة السكر والقمار وغيرهما من المنكرات والفواحش مما تتناوله الحرية الذاتية، كما أن ماتقدم من الطعن في الدين وخلفائه وأئمته مما تتناوله حرية الافكار، ويباح الخوض فيه للالسنة والاقلام، ونشره في الكتب والرسائل، والمجلات والجرائد، قال بعضهم ما معناه: إذا تكلمت بلسان الدين أقول ان ما في القرآن من كذا وكذا صحيح مسلم، واذا تكلمت بلسان العلم والعقل أقول إنه غير صحيح وغير مسلم، يعني أن هذا الذي يثبته القرآن صحيح في اعتقاد المسلمين ومسلم عندهم بمحض التقليد، ولكنه غير صحيح ولا ثابت بدليل عقلي ولا علمي بل ربما يبطله الدليل.

ولولا أن قائل هذا زنديق ذو لسانين يسر الكفر بوحي الله وإن قال أحيانا قال الله قال رسول الله، لما استباح التشكيك فيه بمثل هذا من قوله، بل لكان اثبات كتاب الله تعالى للشيء أقوى برهان عنده على ثبوته في نفسه، وان لم يثبته أحد من خلقه بنظريات فكره، وما وصلت اليه مباحث علمه، فان علم الله محيط بكل شيء من خلقه، ولا يحيطون بشيء من علمه الا باذنه، اي بما وهبهم من اسباب كسبه من الحس والعقل.

ومن المعلوم الذي لا مراء فيه ان كل ماثبت عند البشر من هذين الطريقين

المكسبين لهم، كان مجهولا قبل ذلك عندهم، وذلك لا يقتضي عدم ثبوته في نفسه ولو لم يثبته الوحي الصحيح فكيف اذا أثبته .

(الطبقة الثالثة) الغماليج الإمعون من مرضى القلوب المقلدين، الذين يشايعون المؤمنين اذا كانوا معهم، ويجارون الملاحدين اذا وجدوا بينهم، فلا يعرف لهم رأي ثابت مستقر ينصرونه ويردون ما خالفه، وأماسيرتهم في العمل فهي تابعة لتربيتهم في بيوتهم، وحال عشرائهم من لداتهم وأترابهم، ورفاقهم في المدارس وجيرانهم، فتراهم يجمعون بين الكفر والاسلام، ومنهم من يصلي الصلوات الخمس لانه تربى على ذلك، ثم يقر ماهو كفر باجماع المسلمين، وينصر الملاحدة القائلين به، فاسلامهم تقليدي، وإلحادهم تقليدي، والغالب على أمرهم، من يكون أكثر معاشرة وارتباطا بهم، ومساعدة لهم على أهوائهم ورغائبهم، ومنهم منهوم المال، ومفتون الجاه، وثم طبقات أخرى مدغم بعضها في بعض، فيعسر الحكم عليها بالقطع، على تفاوت الافراد فيها في العمل والفكر.

وطالما ضربت مثلا لمسلمي الامصار المتفرنجة وطبقات الملاحدة: اختلاط الماء الحلو بالماء الملح، في مثل شط العرب من جهة البصرة، وساحلي رشيد ودمياط من مصر، فما كان بين العذب الفرات والملح الاجاج من المائين يتفاوت على نسبة القرب والبعد من كل منهما، وهكذا ترى بعض هؤلاء المسلمين المتفرنجين، منهم ما غلب عليه أجاج الكفر، فصار من أهله مسرا له أومعلنا، ومنهم المزّ بين عذوبة الايمان، وملوحة الالحاد، والمزازة فيه على درجات، بعضها مقطوب لا تكاد تشربه الا مقطبا، وبعضها مغلوب اذا تجرعته لا تكاد تسيغه إلا متهوعا

ومما ثبت عندنا بالخبر المستفيض ، والخُبْر الطويل العريض، أن من أفراد أولئك الملاحدة دعاة للكفر، وسعاة للصد عن الاسلام، وان منهم من يأخذ على ذلك جعلا من جمعيات التبشير بالنصرانية، ومنهم من يتقاضى مكافأة من بعض جماعات اليهود البلشفية أو الصهيونية ، ومنهم من يخدم الدول الاستعمارية ويأخذ أجره منها ، وأعظم هذه الاجور المناصب والوظائف في البلاد المسيطرة عليها، ومنهم من لذته في ذلك التشبه ببعض فلاسفة الافرنج وكتابهم الاحرار ، والحظوة عندهم ، والثناء عليهم في كتبهم وصحفهم ، وهم لا يثنون إلا على من كانوا عونا لهم على اقوامهم؛ ألم تر الى المستعمرين والمبشرين ، من السكسون واللاتينيين، كيف نوهوا وينوهون بعلي عبد الرازق وكتابه المعلوم كما رأيت في البرقيات العامة في ابان ظهوره ، وكما ترى في المقال الاول من مقالات هذا الجزء مترجما عن كتاب افرنسي جديد ، ألف للاغراء بهدم الاسلام وتنصير المسلمين .

كان المرحوم الاستاذ الشيخ محمد مهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي أول من أنبأني بأنه وجد في مصر جماعة تتعاون على الصد عن الاسلام، بالطعن في شريعته ، وفي حكومته ، وفي لغته ، وفي أئمته، وفي كل من نوه بهم التاريخ من الخلفاء ، وكبار العلماء والادباء ، وفي جمهور سلفه في أرقى العصور ، ثم ظهرت آثارهم الخفية في بعض الصحف العامة ، وفيما نشروا من المصنفات الخاصة ، وكان تعاونهم بمقتضى تعارفهم وتوادهم ، وانتماء بعضهم الى حزب سياسي ينصرهم

ألم تر أن الوزارة الائتلافية كادت تسقط ويتمزق نسيج وحدة الامة بانتصار أعظم أركانها لمؤلف ذلك الكتاب الرجس الذي جهر ملفقه

بالطعن في القرآن ، ترجيعا لاصوات بعض أعدائه من المبشرين بالانجيل؟

وقد أخبرنا من خبر حالهم، وعاشر رجالهم، بطرق الدعوة التي يفتنون بها الشبان عن دينهم، ولا سيما الاذكياء الفصحاء منهم، وسنبينها في مقال آخر، ومما بلغنا من أمرهم أنه لم يكن لهم نظام للدعاية الى عهد غير بعيد ثم وضعوه.

وقد علم الجمهور أنه كان قد تألف في مصر حزب لحرية الفكر، كان الملاحدة هم المؤسسين له بالطبع، من حيث لا يدري كثير ممن انتظم في سلكه، أو جعل نوتيا لتسيير فلكه، ولكن بعضهم تجرأ فيه على كلام ساء بعض من حضره من النصارى، فانتصروا لدينهم بالفعل، وكان ما كان من التشاجر الذي أفضى الى القضاء على ذلك الحزب،

وقد نشرت جريدة السياسة الاسبوعية في مارس من سنة ١٩٢٨ مقالا لأحد أركانهم صرح فيه بأنه يوجد في مصر تعصب ديني (اسلامي) ضار، وان جماعة كانوا الفوا حزبا لمقاومته وتوطيد دعائم الحرية، وهذه الجماعة لا تزال تعمل لهذه الغاية

ولما الفت في مصر جمعية الشبان المسلمين، عارضوها بتأليف (جمعية الشبان المصريين) لاجل القضاء عليها بدعاية الوطنية، قبل ان تشب عن الطوق، وتشب نارها فلا يكون لهم بها طوق، ولكنهم لم يقاوموا جمعية الشبان المسيحيين بقول ولا عمل، بل وجد فيها من يكبر شأنها، ويلقي المحاضرات في ناديها.

وليس الالحاد في مصر بحديث العهد، بل نبت قرنه مع التفرنج منذ أكثر من قرن، وما زال يرتفع ويقوى حتى طمع أهله باطفاء نور الدين، وقد استباحه من استباحه باسم الحرية، وفند الاستاذ الامام جهالتهم ببعض مقالاته

في الوقائع الرسمية ، كان غربيا غريبا ، فأصبح شرقيا قريبا ، او كان سيلا أتيا ، فأمسى ينبوعا وطنيا ، وكان شر مظاهره وأشدها خطرا مافاه به بعض ملاحدة المسلمين في مجلس النواب ، من الطعن في الشرع وفي نفس القرآن ، اذ فاه فض الله فاه ، وسل لسانه من قفاه ، ولا رحمه ولا رحم مجلسه الموؤد ، بتلك الكلمة تقشعر منها الجلود ، : انه لا يحترم أو قال يحتقر كتابا يبيح تعدد الزوجات ، ولكن ذلك الملحد الاباحي لا يحتقر قانونا يبيح الزنا للرجال والنسوان ، وتعدد البغايا والاخدان ، دع اعتراض آخر منهم على من طلب وقف الجلسة بضع دقائق لاجل اداء فريضة المغرب ، وتصريحه بأنهم لا يبغون الصلاة مطلقا أو في ذلك المجلس ، وافقه الجمهور على ذلك ، فكان الافراد الذين يحافظون على الصلاة على قلتهم يتسللون من الجلسات فيصلون فرادى ويعودون اليها

وانما الحديث عندنا هو تأليف الاحزاب وتعاون الجماعات ، على بث الدعوة الى الاباحة والالحاد ، ونشر الجرائد والمجلات لمقالاتهم المسمومة ، وإلقاء المحاضرات في ذلك ونشر الكتب الملعونة ، حتى انني كتبت في المنار انه لا فرق بين ملاحدة الترك الكماليين ، وملاحدة هذه البلاد المفتونين المقلدين ، الا ان أولئك أولو قوة عسكرية ، ينفذون إلحادهم بالقوة القهرية ، ولا سلاح هنا الا بيد السلطة الاجنبية ، ولقد كان بمجلس النواب في الاستانة مسجد خاص يصلي فيه الاعضاء وتقام فيه الجماعة ، كما كان يوجد في دور الحكومة مساجد يصلي فيها أهلها جميع الصلوات التي تدركهم فيها .

تجديد ملاحدتنا وتجديد الافرنج

إن مافعله ملاحدة الترك من هدم معالم الاسلام من حكومتهم، وماظهر في حكومتي الافغان والايران من بوادر الاقتداء بهم، وماذكرنا القاريء به مما حدث في مصر، بل سرت عدواه الى كل قطر، — هو الذي أطمع المستعمرين ودعاة النصرانية في أوربة بالاجهاز على الاسلام، والتذفيف على مابقى من مظاهر الحكم الاسلامي في جميع بلاد المسلمين، وتجديد النصرانية وتعزيزها في الغرب والشرق. وهاك اشارة الى بعض مافعلوا في تجديد دينهم مما يعد أكثره ذريعة للتعدي على ديننا

(١) عقد دعاة البروتستانتية من الانكليز وغيرهم مؤتمرا بعد آخر في القدس مهد النصرانية للتشاور في تعميم تنصير المسلمين، ونشرت جمعية لهم في لندن بيانا ذكرت فيه انه لم يبق للاسلام رسوخ ولا ثبات إلا في جزيرة العرب، وانها تحتاج الى مائة مبشر من المجاهدين لنشر النصرانية في هذه الجزيرة والقضاء عليه في مهده الاول، ومعقله ومأرزه الأخير

(٢) أعادت الدولة الفرنسية للجمعيات الكاثوليكية ماكانت صادرته من أموالها وأوقافها تنشيطا لها على نشر النصرانية في مستعمراتها الافريقية وسورية

(٣) الفت كتب جديدة باللغة الفرنسية وغيرها في الطعن على الاسلام، والحث على تنصير المسلمين ولو بالقهر والاكراه، وقد نشرنا فصول بعض هذه الكتب في هذا الجزء وفيما قبله، وسننشر بعضها فيما بعده،

(٤) صالحت الدولة الايطالية، دولة الفاتيكان الكاثوليكية، واعادت للبابا سلطانه السياسي في دائرته ومئات الملايين مما كانت اختانته من أموال دولته؛ فتجدد للكنيسة الرومانية بعض سيادتها وسياستها، وهذا بدء

انقلاب جديد في تجديد النصرانية في الشرق والغرب ، وذلك لايضيرنا الا اذا اعتدوا علينا ، وهو أهون من التعطيل والالحاد عندنا

(٥) نشطت الجمعيات التي تدعو الى توحيد كنائس المذاهب النصرانية في الشرق والغرب وسارت في سعيها خطوات الى الامام

(٦) إن حركة تجديد الدين في انكلترة تلي في العناية حركة إيطالية وقد اشتهر ماكان من اقتراح تعديل كتاب الصلاة المتبع في الكنيسة الرسمية ورد مجلس الامة (البرلمان) له المرة بعد المرة . وقد ألفت جمعيات أخرى للبحث في العقائد المسيحية وتقاليد الكنيسة وتقريب ذلك من العلم واستعداد العصر

(٧) تبارت الامتان الايطالية والانكليزية في الرجوع الى آداب الدين في أزياء النساء وعاداتهن ، ومقاومة ما أحدثن من الاسراف في التبرج والخلاعة المفضية الى الاباحة ، فكتب بعض كبار الكتاب من الانكليز في ذلك مقالات نشرت بعضها الجرائد المصرية

واما ايطالية فقد منع رجلها المجدد ووزيرها الاكبر كثيرا من هذا الاسراف في الازياء والرقص والسباحة - تجديدا للدين والاخلاق لتجديد قوة الامة وعظمتها ، وذلك مما يحمده كل فاضل له ولها

العبرة في تجديد اوربة وتجديد ملاحدتنا

وأما ملاحدة بلادنا ودعاة الكفر والاباحة فيها ، فالتجديد الذي يدعون اليه هو هدم كل ماربط الامة ويشد أزرها ، ويجمع كلمتها ، ويهذب أخلاقها ، من روابط الدين ، والمحافظة على العرض ، ويسمون الكفر والفجور واباحة الاعراض تجديدا طريفا ، ومدنية وتقدما وترقيا ، ويسمون مايقابل ذلك من التقوى والعفة والصيانة قديما باليا ، وقد استشرى عيثهم وفسادهم ،

وعظم خطرهم بكثرة الجرائد والمجلات التى ينفثون فيها سمومهم، على صغر شأنهم، وسوء سيرتهم الشاف عن خبث سريرتهم، فانه لا مزية لاحد منهم في علم نافع، ولا عمل صالح، وانما هي خلابة الالفاظ، التي وافقوا فيها اهواء كبار الفساق وصغار الاحداث، وان اهل الرأي والبصيرة عندنا يجزمون بان جل زعزعة العقائد وفساد الاعراض وإباحة النساء، يناط بفساد اكثر الجرائد والمجلات، فياحسرتا على جريدتي المؤيد واللواء، ويا حسرتا على شعب يعد من أرقى شعوب الشرق ثروة وحضارة وعلما ووطنية، تعجز الاكثرية الساحقة فيه عن ايجاد جريدة يومية، تدافع عن عقائده وشريعته وآدابه الملية، على حين نرى لكل الاقليات الملية المتعددة فيه جرائد متعددة تقوم بهذه الوظيفة حق القيام وهذه الاقليات بجملتها لا تبلغ عشر هذه الاكثرية الساحقة لها، وانما تفوقها في ثروتها النسبية وجامعتها،

خطر إباحة النساء أو تحريرهن

ان مسألة فوضى النساء التي يعبر عن دعايتها بتحرير المرأة وبتفضيل تهتكها المعبر عنه بالسفور، على صيانتها وعفتها المعبر عنها بالحجاب، قد هبطت بالقطر المصري وغيره من شعوب الشرق المتفرنجة إلى مهواة من اشد المهاوي خطرا على أعراضها، وتكوين بيوتها (عائلاتها)، وعلى ثروتها وصحتها، وان سمى المفسدون دعاة الاباحة والدياثة هذا الخطر تجديدا وتمدينا، فقد صار النساء من ربات البيوت والامهات، ومن العذارى المتعلمات، يمشين في الشوارع بالليل والنهار، مخاصرات للرجال، ويغشين الملاهي والمتنزهات، وهن كاسيات عاريات، مائلات مميلات ومنهن من يسبحن

في البحر حيث يسبح الرجال أو معهم ، وحيث يراهن المارون بقرب الشواطئ منهم ، ومنهن من يختلفن الى المراقص المشتركة فيرقصن معهم ، وهن اشد من الاجنبيات عريا وتهتكا وخلاعة ومجونا ورقاعة ومنهن من يدخلن في خلوات الحلاقين حيث يقصون لهن شعورهن ويحلقون لهن اقفيتهن ، ويزينون لهن نحورهن وصدورهن ، وهنالك يلتقين بأخدانهن ، ولا تسل عن حديثهما جهراً ، وتواعدهما سراً ، دع ذكر تعدد المواخير السرية ، على كثرة الجهرية ، ومن المخادنات الشخصية ، والجرائد والمجلات الكثيرة تغري بهذا أو تذكر من وقائعه مايجرئهن عليه

وكان أول ماأعقبه هذا الفساد من الخطر قلة الزواج ، المهدد للامة بالوقوف عن النماء ، فالانقراض والفناء ،

ان خصوم الاسلام القاعدين له كل مرصد يضحكون سرورا مما اصابه من الخزى بأهله ، الذين يمهدون لهم السبل لاستعبادهم ، والاستعمار لسائر بلادهم ، ويرقبون كل نبأة للاصلاح تخرج من فم احد حكمائهم ، أو حركة للتجديد الحق يختلج بها بعض أعضائهم ، فيبادرون الى تحذير دولهم منها ، وحضهم على تلافي مايخشى من تأثيرها ، ثم انهم يطعنون فيمن صدرت عنه لصد المسلمين الغافلين عنها . كما ترى في مقال (مايقال عن الاسلام في أوربة) من هذا الجزء نقلا عن (جول سيكار) العسكري الفرنسي ، و (الاب لامنس) القس الجزويتي ، والدكتور (سنوك) السياسي الهولندي ، من كلامهم في الاستاذ الامام وصاحب المنار ، وما قاما به من دعوة الاصلاح ، ورأيهم في المجلة وتفسيرها ، ورسالة التوحيد وتحقيقها ، وتعزية انفسهم بان حركة التفرنج العصرية ، قد أخذت تنتقص الاصول

الدينية، وبأن افكار الشيخ محمد عبده التي تغلغلت في عقول المفكرين، وكان لها المجال الواسع لدى الشبان المسلمين، تلقى اشد الانكار من أرباب العمائم الجامدين، قالوا « ولهذا تجد مريدي الشيخ عبده متضائلين لا يقدرون ان يجهروا بأفكارهم، لقلة عددهم، ولشدة مقاومة الجامدين لهم » !!

بشائر الاصلاح

واننا نبشر هؤلاء الشامتين، الذين يتربصون ريب المنون بالاسلام والمسلمين، معتمدين على مساعدة الملاحدة المتفرنجين، بأن طلائع النصر قد رفعت أعلامها على رءوس المصلحين، وانتهت رياسة علماء الدين الى أحد تلاميذ الاستاذ الامام، ونوابغ مريديه الاعلام، وهو الاستاذ الاكبر، الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر، وقد لقي من جلالة ملك مصر وحكومته من المساعدة، بقدر ما كان يلقى الشيخ محمد عبده نفسه من المناهضة والمعارضة، فصارت ميزانية الازهر تبلغ مئات الالوف من الجنيهات، وصار للمتخرجين فيه نصيب في مصالح الحكومة. فنكس الجامدون على رءوسهم، وارتكست فتنهم بين جرائيم شيوخهم، وانطلقت في المعاهد الدينية ألسنة العلماء المستقلين، وصارت رسالة التوحيد تدرس في الازهر للقسم العالي من الطلبة النظاميين، وتفسير المنار هو المرجع لمدرسي التفسير فيه، وكتب شيخ الاسلام ابن تيمية متغلغلة فى أحنائه ومناحيه، بل صارت مرجعا للفتاوى الرسمية، وأخذ ببعضها في اصلاح الاحكام الشخصية للمحاكم الشرعية

هذا وان مفتي القدس ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين،

معدود من هؤلاء المريدين، وكذلك رئيس المجلس الاسلامي الذي أنشيء أخيراً في بيروت

وهنالك بشارة أخرى في تحول الاحوال، ونصر حزب الله على أحزاب الشيطان، من الشيوخ الجامدين، والمتصوفة الخرافيين، والمتفرنجين الملحدين الفاسقين، وهو تأليف جمعية الشبان المسلمين، وتعدد فروعها في الاقطار العربية من شرقية وغربية، وفوق ذلك كله يقظة الامة العربية في جزيرتها، وشروعها في تنظيم قوتها، واتفاق إماميها في الجنوب والشمال، على شد أواخي وحدتها باليمين والشمال. والامم اذا عرفت نفسها، وتعارفت شعوبها، تعذر على غيرها القضاء عليها والاستبداد فيها، فلا يستعجلن سيكار الفرنسي وسنوك الهولندي وأمثالهما باغراء دولهما بسرعة القضاء على المسلمين، فربما كان هذا الاستعجال قضاء على سلطان مجترحيه فيهم لا عليهم ولو بعد حين، وربما كانت محاسنتهم، والتوسعة عليهم، في حرية دينهم، ومساعدتهم على تنمية ثروتهم، أقرب الى طول العهد على الاستفادة منهم.

وليعلموا أن المنار ليس عدواً لدولة من الدول، ولا خصما لشعب من الشعوب ولا لعلوم الغرب وفنونه المنزهة عن فسقه ومجونه، ـ كما يقول سيكار وأمثاله ـ وانما هو صديق لامته ولمن يصدق في ودها. وليسأل ان شاء مسيو (روبير دوكيه) اشد خصم للمسلمين في سورية واقوى داعية الى استعمارها، عما نصحت به له ودللته عليه في سنة ١٩٢٠ من الطريق المعقول لكسب فرنسة مودة المسلمين عامة والعرب خاصة، وسورية بالاخص: بما يعلي نفوذها الادبي والاقتصادي في الشرق كله، وعن قوله لي ان هذا مشروع معقول لا خيالي، وانه يمكن تنفيذه اذا وجدنا ومنكم من يقوم به.

ثم ليسأل مسيو (هانوتو) عما كتبته اليه بهذا المعنى في جنيف سنة ١٩٢١ فاذا علم هذا وعقله حكم بانه يوجد فيمن يعدوهم اعداء لفرنسة من هم خير لها من بعض ضباطها وقسوس جزويتها ، الذين يسخرون نفوذها لمنافعهم دون مصلحتها - والعاقبة للتقوى . والسلام على من اتبع الهدى

هذا واننا على ماعهد قراء المنار منا وهو ماعاهدناهم عليه منذ سنته الاولى من النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم . وهم اول من يتلقاها منهم ، ويدخل في ذلك الدفاع ببيان حقائق التنزيل . وما بينه من سنة الرسول ، ومقاومة البدع والخرافات . وابطال شبهات الزندقة والالحاد والتحذير من أخطار الاستعمار . والدمدمة على ضلالات المبشرين . وفضيحة مخازي المتفرنجين . وتزييف مغالطات الماديين . وتأييد حزب الاصلاح والمصلحين والاصغاء لانتقاد المخلصين . ونرجو من اهل الغيرة على الامة والحرص على احياء مجد الملة من اخواننا العلماء . وسائر افراد القراء . ان يشدوا أزرنا . ويؤدوا لنا حقنا فقد آن لهم أن يعتبروا بتعاون الملحدين والمفسدين على باطلهم ، وتظاهرهم على من يرد على احد منهم ، بل آن لحزب الاصلاح ، الوسط بين حزب الجمود والتقليد ، وحزب التفرنج الملقب بالتجديد ، أن يجمعوا كلمتهم . ويوحدوا شتيتهم . ويتعارف شرقيهم بغربيهم وجنوبهم بشماليهم . فان يد الله على الجماعة . وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية وارجو ان يكون آخر المنار خيراً من أوله . وان يزيده الله توفيقا باحسانه وفضله . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب م ؟

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

سورة التوبة أو براءة

٩

﴿ هي السورة التاسعة وآيها ١٢٩ عند الكوفيين و١٣٠ عند الجمهور ﴾

هي مدنية بالاتفاق قيل إلا قوله تعالى (١١٣ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) الآية لما روي في الحديث المتفق عليه من نزولها في النهي عن استغفاره (ص) لعمه أبي طالب كما سيأتي تفصيله في تفسيرها. ويجاب عنه بجواز أن يكون نزولها تأخر عن ذلك وبما يقوله العلماء في مثل هذا المقام من جواز نزول الآية مرتين مرة منفردة ومرة في أثناء السورة

واستثنى ابن الفرس قوله تعالى (لقد جاءكم رسول) إلى آخر الآيتين في آخرها فزعم أنهما مكيتان، ويرده مارواه الحاكم وأبو الشيخ في تفسيره عن ابن عباس من أن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن، وقول الكثيرين إنها نزلت تامة . وما يعارض هذا مما ورد في أسباب نزول بعض الآيات يجاب عنه بان أكثر ماروي في أسباب النزول كان

يراد به أن الآية نزلت في حكم كذا، أعني أن الرواة كانوا يذكرونها كثيراً في مقام الاستدلال وهذا لا يدل على نزولها وحدها ولا على كون النزول كان عند حدوث ما استدل بها عليه كما قلنا آنفا فى احتمال نزول آية استنكار الاستغفار للمشركين فى المدينة، وان كان ما ذكروه من سببها حدث بمكة قبل الهجرة،

ولم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة في أولها لانها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور. هذا هو المعتمد المختار في تعليله، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الانفال سورة واحدة، والمشهور أنه لنزولها بالسيف ونبذ العهود، وقيل غير ذلك مما في جعله سببا وعلة نظر، وقد يقال إنه حكمة لا علة، ومما قاله بعض العلماء في هذه الحكمة إنها تدل على أن البسملة آية من كل سورة أي لان الاستثناء بالفعل كالاستثناء بالقول معيار العموم

وقد ورد لها أسماء كثيرة هي صفات لأهم ما اشتملت عليه فمنها سورة الفاضحة لما فضحته من سرائر المنافقين وإنبائهم بما في قلوبهم من الكفر وسوء النيات. وهذا الاسم روي عن عمر وابن عباس (رض) ومنها المنفرة والمعبرة والمبعثرة والمثيرة والبحوث (كصبور) لتنفيرها وتعبيرها عما في القلوب وبحث ذلك وإثارته وبعثرته، وكذا المدمدمة والمخزية والمنكلة والمشردة، ومعاني هذه الالقاب ظاهرة في معنى فضيحتها للمنافقين وما يترتب عليها من الدمدمة عليهم والخزي والنكال والتشريد بهم. ومنها المقشقشة قال الزمخشري وهي تقشقش من النفاق أى تبرىء منه. وأشهرها الثابت التوبة وبراءة، وسائر الاسماء ألقاب لبيان معانيها. وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك وهي آخر غزواته (ص) وفي حال الاستعداد

لها في زمن العسرة والخروج اليها في القيظ. وفي اثنائها ظهر من آيات نفاق المنافقين ما كان خفياً من قبل

وقد صرحوا بأن أولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة فأرسل النبي صلوات الله وسلامه عليه علياً عليه السلام ليقرأها على المشركين في الموسم كما يذكر مفصلا في محله،

وفي صحيح البخاري وغيره عن البراء قال: آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة. وهو رأي له لا رواية مرفوعة ويحمل قوله في الآية على أنها آخر ما نزل في الكلالة فهي بعد آيات المواريث وفي السورة على بعضها أو معظمها. وارجح ما ورد في آخر آية نزلت أنه قوله تعالى (٢: ٢٨١ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) أو ما قبلها من آيات الربا من دونها، والارجح أن يقال معها. وتقدم تفصيل المسئلة في آخر سورة البقرة (ص ١٠٥ ج ٣) وأما آخر سورة نزلت تامة فالارجح أنه سورة النصر وقد عاش (ص) بعدها أياما قليلة

وأما التناسب بينها وبين ماقبلها فانه أظهر من التناسب بين سائر السور بعضها مع بعض فهي كالمتممة لسورة الانفال في معظم ما فيهما من أصول الدين وفروعه والسنن الالهية والتشريع — وجله في أحكام القتال وما يتعلق به من الاستعداد له وأسباب النصر فيه وغير ذلك من الامور الروحية والمالية — وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضي له وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض والكافرين بعضهم مع بعض، وكذا أحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب فما بدىء به في

الاولى اتم في الثانية. ولولا ان أمر القرآن في سوره ومقاديرها موقوف على النص لـكان هذا الذي ذكرناه مؤيداً من جهة المعاني لمن قال إنهما سورة واحدة كما يؤيده من ناحية ترتيب السور بحسب طولها وقصرها، وتوالى السبع الطول منها، ويليها المئون، والانفال دونها

مثال ذلك (١) ان العهود ذكرت في سورة الانفال وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الـكلام فيها ولا سيما نبذها الذي قيد في الاولى بخوف خيانة الاعداء

(٢) تفصيل الـكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب في كل منهما

(٣) ذكر في الاولى صد المشركين عن المسجد الحرام وأنهم ليسوا بأوليائه (إن أولياؤه إلا المتقون) أي من المؤمنين وجاء في الثانية (١٧ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) الخ الآيات

(٤) ذكر في أول الاولى صفات المؤمنين الكاملين وذكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين — ثم ذكر في آخرها حكم الولاية بين كل من الفريقين كما تقدم وجاء في الثانية مثل هذا في مواضع أيضا

(٥) ذكر في الاولى الترغيب في انفاق المال في سبيل الله وجاء مثل هذا الترغيب بأبلغ من ذلك وأوسع في الثانية، وذكرت في الاولى مصارف الغنائم من هذه الاموال وفي الثانية مصارف الصدقات

(٦) ورد ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض في الاولى في آية واحدة وفصل في الثانية أوسع تفصيل حتى كانت أجدر بأن تسمى سورة المنافقين من سورة (إذا جاءك المنافقون) لو كانت تسمية السور بالرأي.

التفسير

(١) بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٢) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٣) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٤) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

من المشهور القطعي الذي لاخلاف فيه أن الله تعالى بعث محمداً رسوله وخاتم النبيين بالاسلام الذي اكمل به الدين، وجعل آيته الكبرى هذا القرآن المعجز للبشر من وجوه كثيرة ذكرنا كلياتها في تفسير (٢ : ٢٣ص ١٩٠ — ٢٢٨ ج١) واقام بناء الدعوة اليه على اساس البراهين العقلية والعلمية المقنعة والملزمة، ومنع الاكراه فيه والحمل عليه بالقوة كما بيناه في تفسير (٢ : ٢٥٦ص ٣٦ — ٤٠ ج٣) فقاومه المشركون وفتنوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصدهم عنه، وصدوه (ص) عن تبليغه للناس بالقوة، ولم يكن أحد ممن اتبعه يأمن على نفسه من القتل او التعذيب، الا بتأمين حاف اوقريب. فهاجر من هاجر منهم المرة بعد المرة، ثم اشتد ايذاؤهم للرسول (ص) حتى ائتمروا بحبسه الدائم أو نفيه اوقتله علنا في دار الندوة، ورجحوا في آخر الامر قتله، فأمره الله تعالى بالهجرة، كما تقدم في تفسير (٨ : ٣٠ واذ يمكر بك الذين كفروا ـ ص ٦٥٠ ج ٩) فهاجر (ص) وصار يتبعه من قدر على الهجرة من أصحابه

الى حيث وجدوا من مهاجرهم بالمدينة المنورة انصاراً لله ولرسوله يحبون من هاجر اليهم، ويؤثرونهم على انفسهم ، وكانت الحال بينهم وبين مشركي مكة وغيرهم من العرب حال حرب بالطبع ، ومقتضى العرف العام في ذلك العصر ، وعاهد (ص) أهل الكتاب من يهود المدينة وما حولها على السلم والتعاون فخانوا وغدروا ، ونقضوا عهودهم له بما كانوا يوالون المشركين ويظاهرونهم كما حاربوه، كما تقدم بيان ذلك كله في تفسير سورة الانفال من هذا الجزء (ص ٤٨ ـ ٦٠)

وقد عاهد (ص) المشركين في الحديبية على السلم والامان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيها منتهى التساهل عن قوة وعزة، لا عن ضعف وذلة، ولكن حبا بالسلم ونشر دينه بالاقناع والحجة ، ودخلت خزاعة في عهده (ص) كما دخلت بنو بكر في عهد قريش ، ثم عدا هؤلاء على اولئك واعانتهم قريش بالسلاح فنقضوا عهدهم، فكان ذلك سبب عودة حال الحرب العامة معهم ، وفتحه (ص) لمكة ، الذي خضد شوكة الشرك واذل أهله ، ولكنهم مازالو يحاربونه حيث قدروا، وثبت بالتجربة لهم في حالي قوتهم وضعفهم، أنهم لا عهود لهم ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم ، كما يأتي قريبا في قوله تعالى من هذه السورة (٧ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله — الى قوله في آخر آية ١٢ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) اي لا عهود لهم يرعونها ويفون بها. والمراد أنه لا يمكن ان يعيش المسلمون معهم بحكم المعاهدات المرعية فيأمن كل منهم شر الآخر وعدوانه مع بقائهم على شركهم الذي ليس له شرع يدان به ، فيجب الوفاء بالعهد بايجابه ، كيف وقد سبقهم إلى الغدر ونقض الميثاق، ماكانوا أجدر بالوفاء وهم أهل الكتاب ،

هذا هو الاصل الشرعي الذي بنى عليه ماجاءت به هذه السورة من نبذ عهودهم المطلقة وإتمام مدة المؤقتة لمن استقام منهم عليها ، واما حكمة ذلك فهي محو بقية الشرك من جزيرة العرب بالقوة وجعلها خالصة للمسلمين، مع مراعاة الاصول السابقة في قوله تعالى (٢: ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) وقوله (٨: ٦١ وان جنحوا للسلم فاجنح لها) بقدر الامكان، وان قال الجمهور بنسخ هذا بآية السيف من هذه السورة ونبذ عهود الشرك وسيأتي تفصيله في تفسيرها

قوله تعالى ﴿ براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ البراءة مصدر برىء (كتعب) من الدّين اذا اسقط عنه ومن الذنب ونحوه اذا تركه وتنزه عنه اي هذه براءة واصلة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين، كما تقول هذا كتاب من فلان

الى فلان. قال الراغب أصل البرء والبراء والتبري التفصي مما يكره مجاورته أي أو ملابسته. أسند التبري الى الله ورسوله لأنه تشريع جديد شرعه الله تعالى وأمر رسوله بتبليغه وتنفيذه، وأسند معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذي عقده، فانه إنما عقده بصفة كونه الامام والقائد العام لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه، كما يسند تعالى الى الجماعة أكثر الاحكام العامة حتى ماكان الخطاب في أول آياته له ﷺ كقوله تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) الخ فجمهور المؤمنين هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات ولقوادهم من أهل الحل والعقد وأمراء السرايا الاجتهاد فيما لا نص فيه منها، ومن أحكام الحرب والصلح وغيرها، ولا ينسب ذلك في تفصيله الى الله ورسوله، اذ لا يمكن احاطة النصوص بفروعه، وقد نهى النبي (ص) القواد إذا نزلوا حصناً فطلب أهله منهم النزول على حكم الله ورسوله أن لا ينزلوهم على حكمهما وذمتهما وأمر بأن ينزلوهم على حكمهم وذمتهم، كما رواه مسلم من حديث بريدة (رض)

والمعاهدة عقد العهد بين الفريقين على شروط يلتزمونها وكان اللذان يتوليانها منهما يضع أحدهم يمينه في يمين الآخر وكانوا يؤكدونها ويوثقونها بالايمان ولذلك سميت أيماناً كما قال تعالى في المشركين (انهم لا أيمان لهم)

قال ناصر السنة البغوي في تفسير الآية: لما خرج النبي (ص) الى تبوك كان المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله (ص) فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) يعني أنه (ص) انما عمل في نبذ عهودهم بآية الانفال التي تقدمت وليس تشريعاً جديداً لنبذ عهود المشركين مطلقاً

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: اختلف المفسرون هنا اختلافاً كثيراً فقال قائلون هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله الى مدته مهما كان لقوله تعالى (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) ولما سيأتي في الحديث «ومن كان بينه وبين رسول الله (ص) عهد فعهده الى مدته» وهذا أحسن الاقوال وأقواها وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد. اه

(فسيحوا في الارض أربعة أشهر) خطاب للمؤمنين مرتب على البراءة مبين لما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برىء الله ورسوله من عهودهم، ويجوز أن

يكون خطابا للمشركين أنفسهم بطريق الالتفات. والسياحة في الارض الانتقال والتجوال الواسع فيها ورجل سائح وسياح، وهو مجاز من ساح الماء سيحاً، وسيح الماء نهراً. والمراد من الامر بالسياحة حرية السير والانتقال مع الامان مدة أربعة أشهر لا يعرض المسلمون لهم فيها بقتال، فلهم فيها سعة من الوقت للنظر في أمرهم والتفكر في عاقبتهم، والتخير بين الاسلام، وبين الاستعداد للمقاومة والصدام، اذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم. وهذا من غرائب رحمة هذا الدين، وإعذاره الى أعدى أعدائه المحاربين، ولولاه لأمكن ان يقال إنه أخذهم على غرة، ودانهم بما كانوا يدينونه عند القدرة، فان كان هذا من العدل، فأين ما امتاز به من الفضل؟

وهذه الاربعة الاشهر تبتدىء من عاشر ذي الحجة من سنة تسع وهو عيد النحر الذي بلغوا فيه هذه الدعوة كما يأتي وتنتهي في عاشر ربيع الآخر من سنة عشر. وقال الزهري فقال انها الاشهر الحرم لان البراءة نزلت في أول شوال سنة تسع وتنتهي بانتهاء المحرم أول السنة العاشرة. وهو غلط يقتضي ان تكون مدة الاربعة الاشهر بعد التبليغ شهرين لما سيأتي من كون تبليغهم البراءة كان يوم النحر في منى، ولا يعقل أن يحاسبوا بالمدة قبل العلم بها

﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ اي وكونوا على علم قطعي بأنكم لا تعجزون الله تعالى بسياحتكم في الارض ولا تجدون لكم مهربا من رسوله وعباده المؤمنين اذا أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ولرسوله، بل هو يسلطهم عليكم، ويؤيدهم بنصره الذي وعدهم، كما نصرهم في كل قتال لكم معهم بدءا أو انتهاء، والعاقبة للمتقين

﴿وان الله مخزي الكافرين﴾ اي واعلموا كذلك ان الله تعالى هو المخزي لجميع الكافرين منكم ومن غيركم في معاداتهم وقتالهم لرسله وعباده المؤمنين، يخزيهم في الدنيا بذل الخيبة والفضيحة، ثم يخزيهم في الآخرة ايضا، فتلك سنته تعالى فيهم كما قال في مشركي مكة ومن اقتدى بهم (٣٩: ٢٥ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ٢٦ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون) وقال في عاد قوم هود (٤١: ١٥ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون) والظاهر ان المراد بالخزي هنا ما يكون لهم في الدنيا للتصريح بعذاب الآخرة في آخر قوله:

﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من

المشركين ورسوله ﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها مصرحة بالتبليغ الصريح الجهري العام للبراءة من المشركين أي من عهودهم وسائر خرافات شركهم وضلالاته ، ومبينة لوقته الذي لا يسهل تعميمه إلا فيه ، وهو يوم الحج الاكبر وفي تعيينه خلاف سيذكر مع ترجيح انه عيد النحر الذي تنتهي فيه فرائض الحج وأركانه ويجتمع الحاج فيه لاتمام واجبات المناسك وسننها في منى. والاذان النداء الذي يطرق الاذان، بالاعلام عما ينبغي ان يعلمه الخاص والعام ، وهو اسم من التأذين ، قال تعالى (فأذن مؤذن بينهم ايتها العير انكم لسارقون) ومنه الاذان للصلاة . واذن بها اعلم ، وآذنه بالشيء إيذاناً اعلمه به . واذن بالشيء (كعلم) علمه ، واذن له (كتعب) استمع .وأعاد التصريح في هذا الاذان بكونه من الله باسم الذات ومن رسوله بصفة التبليغ الذي تقتضيه الرسالة كما صرح بهما في البراءة،وصرح في الموضعين بذكر المشركين بعنوان الشرك ووصفه،وذلك لتأكيد هذا الحكم وتأكيد تبليغه من جميع وجوهه . ثم أكد ما يجب أن يبلغوه من ذلك عما أوجب أن يخاطبوا به من غير تأخير بقوله ﴿ فان تبتم ﴾ أي قولوا لهم: فان تبتم بالرجوع عن شرككم وما زينه لكم من الخيانة والغدر بنقض العهود ، وقبلتم هداية الاسلام ﴿ فهو خير لكم ﴾ في الدنيا والاخرة لان هداية الاسلام هي السبب لسعادتهما ﴿ وإن توليتم ﴾ أي أعرضتم عن إجابة هذه الدعوة الى التوبة ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ أي غير فائتيه بان تفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله والمؤمنين بالنصر كما تقدم آنفاً ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ وهذا خطاب للنبي (ص) لانه نبأ عن الغيب ، الذي لا يمكن علمه إلا بوحي الله عز وجل ، وقد تقدم في هذا التفسير أن البشارة ما يؤثر في البشرة من الانباء إما بالتهلل واشراق الوجه وهو السرور الذي تنبسط به أسارير الجبهة وتتمدد ، وإما بالعبوس والبسور وتقطيب الوجه ، من الكدر أو الحزن أو الخوف . وغلب في الاول حتى ذهب الاكثرون الى كونه حقيقة فيه وان استعماله فيما يسوء ويكدر انما يقال من باب التهكم .

ثم استثنى من هؤلاء الذين تبرأ من عهودهم ، وأمر بوعيدهم وتهديدهم ، وضرب لهم موعد الاربعة الاشهر ، من حافظوا على عهدهم بالدقة التامة والاخلاص فقال ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم

أحداً فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم) قال الحافظ ابن كثير : هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح في الارض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله الى مدته المضروبة التي عوهد عليها وقد تقدمت الاحاديث : ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده الى مدته المضروبة . وذلك بشرط أن لا ينقص المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أي يمالىء عليهم من سواهم . فهذا الذي يوفى له بذمته ، وعهده الى مدته اه .

وقال البغوي : المراد بهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى بنو ضمرة وحي من كنانة . وقال السدي : هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج حيان من بني كنانة كانوا حلفاء النبي ﷺ في غزوة العسرة من بني تبيع . وقال مجاهد كان لبني مدلج وخزاعة عهد فهو الذي قال الله (فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) . وقال محمد ابن عباد بن جعفر : هم بنو خزيمة بن عامر من بني بكر بن كنانة . ولكن قال ابن عباس (رضي) هم مشركو قريش الذين عاهدهم النبي (ص) زمن الحديبية وكان قد بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر فأمر النبي (ص) أن يوفي لهم بعهدهم هذا الى مدتهم . ذكر هذه الاقوال في الدر المنثور . والصواب أن هذا اللفظ عام ، وتعيين المراد منه باسماء القبائل لا يتعلق به عمل بعد ذلك الزمان .

والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الاسلام مادام العهد معقوداً ، وعلى أن العهد المؤقت لايجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وان شرط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره ، من نص القول وفحواه ولحنه ، المعبر عنها في هذا العصر بروحه . فان نقص شيئاً ما من شروط العهد واخلّ بغرض ما من اغراضه عد ناقضاً له ، إذ قال (ثم لم ينقصوكم شيئاً) ولفظ شيء أعم الالفاظ وهو نكرة في سياق النفي ، فيصدق بأدنى اخلال بالعهد . وقرىء في الشواذ (ينقضوكم) بالضاد المعجمة والمهملة أبلغ — ومن الضروري أن من شروطه التي ينتقض بالاخلال بها عدم مظاهرة أحد من أعدائنا وخصومنا علينا وقد صرح بهذا للاهتمام به وإلا فهو يدخل في عموم ماقبله ، وذلك أن الغرض الاول من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر وحرية التعامل بينهما ، فمظاهرة احدهما لعدو الآخر أي معاونته ومساعدته على قتاله وما يتعلق به ، كمباشرته للقتال وغيره بنفسه ، يقال ظاهره إذا عاونه (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم) وظاهره

عليه اذا ساعده عليه. وتظاهروا عليهم تعاونوا. وكله من الظهر الذي يعبر به عن القوة ومنه بعير ظهير، ويحتمل أن يكون من الظهور.

﴿ ان الله يحب المتقين ﴾ أي لنقض العهود وإخفار الذمم، ولسائر المفاسد المخلة بالنظام، والعدل العام.

وقد ورد في تنفيذ أمر الله تعالى بهذه البراءة والأذان بها، أي التبليغ العام العلني لها، أحاديث في الصحاح والسنن وكتب التفسير المأثور فيها شيء من الخلاف والتعارض نقتصر على أمثلها وأثبتها، وما يجمع بين الروايات ويزيل تعارضها. فجملة تلك الروايات تدل على أن النبي (ص) جعل أبا بكر (رض) اميراً على الحج سنة تسع وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ثم أردفه بعلي (ع. م) ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة واعطائهم مهلة أربعة اشهر لينظروا في أمرهم وان العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها. ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لمسألة نبذ العهود وما يتعلق بها من أول سورة براءة وهي ٣٣ آية وماذكر في بعض الروايات من التردد بين ٣٠ و٤٠ فتعبير بالاعشار، مع إلغاء كسرها من زيادة ونقصان، وذلك لان من عادة العرب أن العهود ونبذها انما تكون من عاقدها أو احد عصبته القريبة، وان علياً كان مختصاً بذلك مع بقاء امارة الحج لابي بكر الذي كان يساعده على ذلك ويأمر بعض الصحابة كأبي هريرة بمساعدته.

اما الشيخان فقد اخرجا في هذا الباب حديث ابي هريرة الذي رواه عنه حميد بن عبد الرحمن بن عوف في كتاب الحج، وكرره البخاري في كتب الطهارة والحج والجزية والمغازي والتفسير فنذكر لفظه في تفسير (فسيحوا في الارض أربعة أشهر) الآية: عن حميد أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى: أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف رسول الله (ص) بعلي بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان اه.

قال الحافظ في الفتح عند قوله قال أبو هريرة فأذن معنا علي ما نصه: هو موصول(١) بالاسناد المذكور وكان حميد بن عبد الرحمن حمل قصة توجه علي

---

(١) يعني هذا القول تتمة للكلام الموصول قبله خلافا لما يوهمه قول البخاري قال حميد فانه يعبر به عادة عن الروايات المعلقة او المنقطعة الاسناد

من المدينة الى ان لحق بأبي بكر عن غير ابي هريرة وحمل بقية القصة عن ابي هريرة . وقوله : فأذن معنا علي في منى يوم النحر الخ قال الكرماني فيه اشكال لان علياً كان مأموراً بأن يؤذن ببراءة فكيف يؤذن بأن لا يحج بعد العام مشرك؟ ثم اجاب بأنه اذن ببراءة ومن جملة ما اشتملت عليه ان لا يحج بعد العام مشرك من قوله تعالى (٢٨ انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ويحتمل ان يكون امر ان يؤذن ببراءة وبما امر ابو بكر ان يؤذن به ايضاً (قلت) وفي قوله : يؤذن ببراءة - تجوز لانه امر ان يؤذن ببضع وثلاثين آية منتهاها عند قوله (ولو كره المشركون)(١) فروى الطبري من طريق ابي معشر عن محمد بن كعب وغيره قال : بعث رسول الله (ص) ابا بكر اميراً على الحج سنة تسع وبعث علياً بثلاثين أو اربعين آية من براءة . وروى الطبري من طريق ابي الصهباء قال سألت علياً عن يوم الحج الاكبر فقال ان رسول الله (ص) بعث ابا بكر يقيم للناس الحج وبعثني بعده بأربعين آية من براءة حتى اتى عرفة فخطب ثم التفت الي فقال يا علي قم فأد رسالة رسول الله (ص) فقمت فقرأت اربعين آية من براءة (٢) ثم صدرنا حتى رميت الجمرة فطفقت اتتبع بها الفساطيط اقرؤها عليهم لان الجميع لم يكونوا حضروا خطبة ابي بكر يوم عرفة

ثم قال الحافظ : وأما ماوقع في حديث جابر فيما أخرجه الطبري واسحاق في مسنده والنسائي والدارمي كلاهما عنه وصححه ابن خزيمة وابن حبان من طريق ابن جريج : حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم حين رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج فأقبلنا معه حتى اذا كنا بالعرج (٣) ثوّب بالصبح فسمعنا رغوة ناقة رسول الله (ص) فاذا علي عليها فقال له : أمير أو رسول ؟ فقال : بل أرسلني رسول الله (ص) ببراءة أقرؤها على الناس ، فقدمنا مكة فلما كان قبل يوم التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس بمناسكهم حتى إذا فرغ منها قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها ، ثم

---

(١) وهي الآية ٣٣ (٢) الآية ٤٠ هي قوله تعالى (الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار) الخ فاذا كان العدد على ظاهره ففي كلمته التنويه بمقام ابي بكر (رض) وتوجيه تأميره (ص) اياه على الحج (٣) العرج بالفتح موضع بين مكة والمدينة قيل إنه على ثلاثة أميال من المدينة وقيل أكثر

كان يوم النحر كذلك ، ثم يوم النفر كذلك — فيجمع بأن علياً قرأها كلها في المواطن الثلاثة وأما في سائر الاوقات فكان يؤذن بالامور المذكورة : ان لايحج بعد العام مشرك الخ وكان يستعين بأبي هريرة وغيره في الأذان بذلك

«وقد وقع في حديث مقسم عن ابن عباس عند الترمذي أن النبي (ص) بعث أبا بكر — الحديث — وفيه فقام علي أيام التشريق فنادى : ذمة الله وذمة رسوله بريئة من كل مشرك فسيحوا في الارض أربعة أشهر ، ولايحجن بعدالعام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة الا كل مؤمن . فكان علي ينادي بها ، فاذا بح قام أبو هريرة فنادى بها

« واخرج احمد بسند حسن عن أنس ان النبي (ص) بعث ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال « لايبلغها الا أنا او رجل من أهل بيتي » فبعث بها مع علي قال الترمذي حسن غريب . ووقع في حديث يعلى عند أحمد عن علي : لما نزلت عشر آيات من براءة بعث بها النبي (ص) مع ابي بكر ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال «ادرك ابا بكر فحيثما لقيته فخذ منه الكتاب . فرجع ابو بكر فقال يارسول الله نزل في شيء فقال «لا » الا انه لن يؤدي عني — اولكن جبريل قال لايؤدي عنك الا انت اورجل منك » قال العماد ابن كثير ليس المراد أن أبا بكر رجع من فوره بل المراد رجع من حجته (قلت) ولامانع من حمله على ظاهره لقرب المسافة . واما قوله : عشر آيات فالمراد أولها (انما المشركون نجس) اه

هذا ماالخصه الحافظ من الروايات وأقول ان ابن كثير قال في حديث علي في نزول عشر آيات المذكور أخيراً — وقد ذكر اسناده عن عبد الله بن احمد — هذا اسناد فيه ضعف .

وأزيد عليه انتقاد متنه اذ لا يصح أن يكون نزل منها عشر آيات وأنه ﷺ بعث أبا بكر ثم علياً بها ، فهذا مخالف لسائر الروايات المتضافرة المتفقة التي أطلق في بعضها أول سورة براءة — وفي بعضها ثلاثين أو أربعين آية منها — أي بالتقريب ، وفي بعضها سورة براءة ، وهي لا تنافي بينها ، فقد نزلت سورة براءة كلها أو أكثرها عقب غزوة تبوك وقد كانت في رجب سنة تسع من الهجرة . وقد قال ابن اسحاق إن النبي (ص) أقام بعد أن رجع من تبوك رمضان وشوال وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج ، وذكر أن ابا بكر خرج في ذي القعدة . فان أمكن حمل ما رواه ابن سعد عن مجاهد من أن حج أبي بكر كان في ذي القعدة على هذا كان صحيحاً والا فلا

وأما ضعف اسناده الذي ذكرها ابن كثير فمن حنش بن المعتمر الكناني الكوفي قال ابن حبان كان كثير الوهم في الاخبار ينفرد عن علي باشياء لا تشبه حديث الثقات حتى صار ممن لا يحتج بحديثه وقال البزار: حدث عنه سماك بحديث منكر، وقال ابن حزم في المحلى ساقط مطرح، ولأئمة الجرح في تضعيفه أقوال أخرى. ولعل الحديث المنكر الذي رواه عنه سماك هو هذا، على أن سماك بن حرب هذا لم يسلم من جرح وان روى عنه مسلم ومما قيل عنه أنه خرف في آخر عمره. والعجيب من الحافظ ابن حجر كيف سكت عن ضعف اسناد هذا الحديث مع تذكر عبارة ابن كثير فيه

وأما اختلافهم في تعيين يوم الحج الأكبر ففيه ما رواه البخاري في تفسير (إلا الذين عاهدتم من المشركين) من رواية صالح بن كيسان عن ابن شهاب أن حميد بن عبد الرحمن اخبره عن أبي هريرة انه أخبره أن أبا بكر (رض) بعثه في الحجة التي أمره رسول الله (ص) عليها قبل حجة الوداع يؤذن في الناس أن لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان، فكان حميد يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر، من أجل حديث أبي هريرة. وتقدم الحديث في كتاب الجزية عن شعيب عن الزهري بلفظ: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر. وإنما قيل الاكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر. فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج في حجة الوداع التي حج فيها النبي (ص) مشرك اه

قال الحافظ في الكلام على رواية صالح من الفتح بعد أن ذكر رواية شعيب ما نصه: وقوله: ويوم الحج الأكبر يوم النحر — هو قول حميد بن عبد الرحمن استنبطه من قوله تعالى: (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الاكبر) ومن مناداة أبي هريرة بذلك بأمر أبي بكر يوم النحر. وسياق رواية شعيب يوهم أن ذلك مما نادى به أبو بكر (١) وليس كذلك فقد تضافرت الروايات عن أبي هريرة بأن الذي كان ينادي به هو ومن معه من قبل أبي بكر شيئان: منع حج المشركين، ومنع طواف العريان. وأن علياً أيضاً كان ينادي بهما وكان يزيد: من كان له عهد فعهده الى مدته، وأن لا يدخل الجنة إلا مسلم. وكان هذه الأخيرة كالتوطئة لان لا يحج البيت مشرك. وأما التي قبلها فهي التي اختص علي بتبليغها، ولهذا قال العلماء ان الحكمة في ارسال علي بعد أبي بكر أن عادة العرب

(١) أي أبو هريرة بأمر أبي بكر وتلقينه

جرت بأن لا ينقض العهد الا من عقده أو هو منه بسبيل من أهل بيته فأجراهم في ذلك على عادتهم ، ولهذا قال ﷺ : « لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل من أهل بيتي » . وروى أحمد والنسائي من طريق محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع علي حين بعثه رسول الله (ص) إلى مكة ببراءة فكنا ننادي أن لا يدخل الجنة إلا كل نفس مسلمة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله (ص) عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج بعد العام مشرك . فكنت أنادي حتى صحل صوتي .

ثم قال الحافظ : وقوله : وإنما قيل الاكبر الخ في حديث ابن عمر عند أبي داود وأصله في هذا الصحيح رفعه : أي يوم هذا ؟ قالوا هذا يوم النحر ، قال « هذا يوم الحج الاكبر »

«واختلف في المراد بالحج الاصغر فالجمهور على انه العمرة وصل ذلك عبد الرازق من طريق عبد الله بن شداد أحد كبار التابعين ووصله الطبري عن جماعة منهم عطاء والشعبي وعن مجاهد الحج الاكبر القران والاصغر الافراد وقيل يوم الحج الاصغر يوم عرفة ويوم الحج الاكبر يوم النحر لان فيه تتكمل بقية المناسك، وعن الثوري أيام الحج تسمي يوم الحج الاكبر كما يقال يوم الفتح وأيده السهيلي بان عليا أمر بذلك في الايام كلها وقيل لان أهل الجاهلية كانوا يقفون بعرفة وكانت قريش تقف بالمزدلفة فاذا كان صبيحة النحر وقف الجميع بالمزدلفة فقيل له الاكبر لاجتماع الكل فيه ، وعن الحسن سمي بذلك لاتفاق حج جميع الملل فيه ، وروى الطبري من طريق أبي جحيفة وغيره ان يوم الحج الاكبر يوم عرفة ، ومن طريق سعيد بن جبير انه يوم النحر . واحتج بان يوم التاسع وهو يوم عرفة اذا انسلخ قبل الوقوف لم يفت الحج بخلاف العاشر فان الليل اذا انسلخ قبل الوقوف فات ، وفي رواية الترمذي من حديث على مرفوعا وموقوفا « يوم الحج الاكبر يوم النحر » ورجح الموقوف . وقوله فنبذ أبو بكر الخ هو أيضاً مرسل من قول حميد بن عبد الرحمن (١) والمراد أن أبا بكر أفصح لهم بذلك وقيل انما لم يقتصر النبي ﷺ على تبليغ أبي بكر عنه ببراءة

(١) ظاهر اكثر روايات البخاري لحديث حميد عن ابي هريرة الارسال لانه يقول فيها قال أبو هريرة دون سمعت او اخبرني ولهذا صرح الحافظ في بعضها بارسالها ولكن روايته عن صالح بن كيسان صريحة في ان ابا هريرة اخبره بذلك فلعل الحافظ نسيه عند كتابة ما ذكر وسبحان من لا يضل ولا ينسى

لانها تضمنت مدح أبي بكر فارادان يسمعوها من غير أبي بكر وهذه غفلة من قائله حمله عليها ظنه ان المراد تبليغ براءة كلها وليس الامر كذلك لما قدمناه وانما أمر بتبليغه منها أوائلها فقط وقد قدمت حديث جابر وفيه ان عليا قرأها حتى ختمها وطريق الجمع فيه، واستدل به على ان حجة أبي بكر كانت في ذي الحجة على خلاف المنقول عن مجاهد وعكرمة بن خالد وقد قدمت النقل عنهما بذلك في المغازي ووجه الدلالة ان ابا هريرة قال بعثني أبو بكر في تلك الحجة يوم النحر وهذا لا حجة فيه لان قول مجاهد ان ثبت فالمراد بيوم النحر الذي هو صبيحة يوم الوقوف سواء كان وقع في ذي القعدة أو في ذي الحجة نعم روى ابن مردويه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كانوا يجعلون عاما شهراً وعاما شهرين يعني يحجون في شهر واحد مرتين في سنتين ثم يحجون في الثالث في شهر آخر غيره قال فلا يقع الحج في أيام الحج الا في كل خمس وعشرين سنة، فلما كان حج ابي بكر وافق ذلك العام اشهر الحج فسماه الله الحج الاكبر اه كلام الحافظ في تلخيص الروايات والجمع بينها

وقد أورد ابن كثير روايات أخرى في يوم الحج الاكبر منها عدة أحاديث مرفوعة نقلها من تفسير ابن جرير وابن ابي حاتم لكنها ضعيفة لا اصل لشيء منها في الصحيح إلا الحديث الذي أشار اليه الحافظ ابن حجر فيما تقدم نقله عنه آنفاً في خطبة النبي (ص) يوم النحر من حجة الوداع وله عدة روايات في الصحيحين، (قال ابن كثير) وفي بعض الروايات باسناد صحيح عند ابن جرير وغيره (اليس هذا يوم الحج الاكبر؟) وقد نقله ابن جرير بسنده عن ابن جرير وقال: وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح. وذكر حديثاً آخر مثله عن أبي الاحوص. ثم ذكر اقوالا اخرى شاذة منها ان الحسن البصري ذهب الى ان الحج الاكبر هو حج أبي بكر سنة تسع ومنها قول ابن سيرين وقد سئل عنه: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله (ص) وحج أهل الوبر وقد كان يوم عرفة عام حجة الوداع يوم الجمعة. اه والعوام يسمون كل عام يكون فيه الوقوف بعرفات يوم الجمعة بالحج الاكبر.

وأقول روى البخاري تعليقا عن ابن عمر ان النبي (ص) يوم النحر بين الجمرات في الوداع وقال «هذا يوم الحج الاكبر» ورواه ابو داود وابن ماجه موصولا عنه وسنده صحيح وهو القول الفصل (للتفسير بقية)

مايقال عن الاسلام في أوربة

(ووجوب اطلاع المسلمين عليه)

لأمير البيان ، ومدره سلائل عدنان وقحطان ، الأمير شكيب ارسلان

سبق لنا مقالة في المنار عن بعض الكتب التي أخرجت حديثا في أوربة بشأن الاسلام والمسلمين ومن جملتها كتاب لرجل يقال له « جول سيكار » من كبار تراجمة الجيش الفرنسي في المستعمرات الفرنسية سماه « العالم الاسلامي في المستملكات الفرنسوية »

وقد رددنا على شيء مما تضمنه هذا الكتاب ووعدنا باكمال البحث ونشر ماقاله المؤلف المذكور عن الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله وعن خلفه الاستاذ الحجة صاحب المنار أمتع الله ببقائه

قال في الصفحة ٧٣ تحت عنوان « الطور الديني الجديد » مايأتي :

« إن المسلمين الحاضرين هم من حيث السواد الاعظم على مذهب السنة والجماعة الا أن روح الحرية والنزوع الى المبادىء العصرية قد ظهرا في أكثر من نقطة واحدة من العالم الاسلامي

وقد كان مبدأ هذه الحركة في الهند ثم في فارس ومنهما سرت الى مصر والى السلطنة (العثمانية) المنحلة . وسواء أكان هناك أم هنا يجتهد المسلمون الاحرار أن يثبتوا الوئام الواقع بين الاسلام والترقي وبين العقيدة القرآنية والمقتضيات العصرية ، ومن سمع كلامهم خال أنه ليس ثمة الا سوء فهم أدى الى التناقض ، وأنه من الخطأ البين الاهتمام ببعض جزئيات ليست لها الا مكانة ثانوية ، وأن يظن أن بعض الاصول التي أولدها

الاحتياج في وقت معين تعد قواعد سرمدية، وأن يغفل عن سنة التحول التي عليها مدار الاجتماع البشري

وهؤلاء المصريون modernistes الذين يليق بهم اسم «المتزلة الجدد» ينتقدون انتقاداً لاغبار عليه شدة جمود المقلدين وعماية هؤلاء، ويحاولون تخليص قواعد الاسلام الاساسية وتطبيقها على مقتضيات الحياة والعلم الحديث. وقد امتاز في هذا المشرب رجلان أحدهما أمير علي في الهند والآخر وهو الأهم الشيخ محمد عبده الطائر الصيت في جميع شمالي أفريقية مؤلف رسالة التوحيد

فالشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) مفتي مصر الاكبر هو أنبغ تلاميذ المحرك الافغاني جمال الدين (١٨٩٧ - ١٨٣٩) باعث فكرة الجامعة الاسلامية. وله طريقة خاصة به في تحقيق مصدر العقيدة وهي طريقة صارمة في ذاتها كما يقر هو بذلك لانه لا يسلم بصحة شيء من مصادر الدين «الا ما كان في القرآن مع عدد قليل من الاحاديث المتعلقة بحياة الرسول» وخلاصة مذهبه وجوب التسامح بين جميع مذاهب الاسلام المختلفة

وأما فلسفته الادبية فمستمدة من المذاهب الحرة لاسيما مذهب الغزالي المتكلم الكبير المتوفى سنة ١٢٧٧ (مسيحية) الذي له أكثر اليد في التسامح بين مذاهب الاسلام المختلفة. وهذه الفلسفة مشتقة من الاعتزال الذي هو وليد المحاكمة العقلية في علم الكلام الاسلامي والذي يقول بالاختيار المطلق لكنه مذهب اضمحل أخيراً على أثر المصارعة الهائلة التي وقعت بين حزب المفكرين وبين الجماعة المتشددة التي كان لها الغلبة في نهاية الامر

«والشيخ محمد عبده كان أبصر الخطر الذي أحدق بعقيدة المسلمين من جراء زحف العلوم الغربية (نقل المؤلف هذه العبارة بنصها عن الاب لامنس المستشرق اليسوعي) فنشط الى اجراء تمييز ينقذ به مذهب السنة والجماعة وشرع بالقاء دروس في الازهر استجلبت الانظار أولا الا أنه توقف عنها على أثر مقاومة العلماء الجامدين. فعند ذلك أسس بمساعدة تلميذه المقدم السوري السيد محمد رشيد رضا طريقة إصلاحية لسان حالها مجلة شهرية اسمها «المنار» ومنزع هذه الطريقة في الدين هو تجديد المذهب الوهابي الذي لا يزال رشيد رضا يؤيده بمقارنته بالسنة. وأما في السياسة فهي مبنية على الجامعة الاسلامية والجامعة العربية وبالحريّ على عداوة الاجانب ولك أن تقول على مقاومة الغرب

وهي تميل الى فكرة المصريين بتعديل الشريعة الاسلامية على ما يوافق ضرورات الوقت ولكنها تنشد اعتدادها في مسامحة الوهابيين وتستمد من مذهبهم حججها على «المتفرنسين» فمن الوهابيين تأخذ مقاومة الخرافات الحشوية والتدمير على المعتقدين بتأثير الاولياء وعلى الطرق الصوفية والمنار تطبع وتعيد طبع تآليف ابن تيمية التي كانت منسية والتي هي أشد الكتب تهييجا. هذا ورشيد رضا هو سيد أي من ذرية محمد ﷺ وهو نفسه يعلن كونه عربيا قرشيا

والمنار في استمساكه بالجامعة العربية مقيم على إيجاب اعادة الخلافة كما انه في مخالفته للمنازع القومية التي تخالف برنامجه الاسلامي العربي يشير بتوحيد مذاهب الفقه الاربعة في مذهب واحد وضم شتات الفرق الاسلامية لى جماعة كبرى يمكنها أن تقاوم أوربة وأن تقاتل ثقافتها المتقدمة

وهو يعترف بانحطاط الاسلام لكنه يزعم معالجة دائه بالرجوع الى عقيدته الاصلية على أن يفهمها الناس حق الفهم مستمدة من الكتاب والسنة . ويقول : لماذا نلجأ الى علم الغرب الموجب للشبهات فكل شيء هو في القرآن . والمنار ينشر تفسيراً لا بأس به فيقول مثلا عند مايشير كتاب الله الى الصاعقة : يلزم أن نفهم منها الكهربائية . كذلك المنار يشير بالاهتداء بأشعة رونتجن لتقوم مقام « العدة » وهي مدة الثلاثة الاشهر التي يأمر بها القرآن أن تكون فاصلة بين طلاق المرأة وزواجها من غير زوجها الاول (هذا غير صحيح) ولما كانت العلوم العصرية لا تستغني عن التصوير اللازم في التعليم وفي ادارة الجيش وفي ادارة الامن العام فالمنار يستنتج جواز ذلك للمسلمين . وهو يوجب على الطرق الصوفية الاشتغال بالمصالح العامة من مؤاساة وتعليم الخ وبهذه الافكار الجريئة الشاذة (تأمل أيها القارىء) تزعم مجلة القاهرة (أي المنار) متابعة طريقة المصلح الذي هو الشيخ محمد عبده وصرف النظر عن تعصبها الوهابي وشنآنها للاجانب . فهذا هو التجديد بالمقلوب (تأمل أيضا)

فالاسلام اذا هو على ملتقى الطرق ، ونراه غير شاعر كثيراً بأنه أصبح مضطراً أن يطرح من وسقه لينجو . فأما ما كان من أمر الخلافة فالذي ألحظه أن التضحية بها تمت بدون ضوضاء ومثل ذلك تم العدول عما كان الهنود المسلمون يطالبون به من الامور المتعلقة بهذه الفكرة الجبروتية

بقيت الاحوال الشخصية (تعدد الزوجات والميراث والعقود) فهذه هي التى تمنع المسلمين في البلدان غير الاسلامية من الاستفادة من المساواة التامة المفروضة عليهم . فكتاب الشيخ المصري علي عبد الرازق يشير

عليهم بان يتقدموا براحة وجدان الى قبول تشريع جديد بناء على كون النبي لم يلاحظ جميع الامكنة ولا جميع الازمنة . وهذا هو رأي كثير من مفكري الاسلام . فهل يتغلب رأي هذه الطبقة المفكرة فيجر معه جماهير الاسلام أم يبقى دون بلوغ الغاية ؟ الجواب ان أوربة تخطىء بعدم مراقبة سير هذه الحركة عن كثب . وقد تجد اوربة في هذا الرأي ما يساعدها على سياسة اسلامية ذات فائدة حقيقية . ولو لم يكن منها سوى الاستغناء عن سن قوانين مأخوذة من شريعة الاسلام لكفى . وهي المسئلة التي تورطت فيها فرنسة في افريقية ونشبت منها منشب سوء (انتهى ما نقله سيكار عن المستشرق اليسوعي لامنس)

ولنذكر هنا رأي المستشرق الشهير سنوك هورغرونجه الهولاندي (١) الذي قال في هذه المسألة قوله الفصل

« ان الشريعة الاسلامية سواء من جهة النص او من جهة الروح تعتمد على القهر والاكراه في نشر العقيدة (تأمل أيها القارىء) لان هذا الدين يعد كل الناس غير المؤمنين اعداء لله . ويوجد اليوم عصابة صغيرة من المسلمين تحاول تطبيق الاسلام على الافكار العصرية لكن هؤلاء النفر تمثيلهم للدين الذي ولدوا فيه لا يزيد على تمثيل « المجددين » modernistes للدين الكاثوليكي . والحقيقة أنه لا يوجد فرق في هذا الموضوع بين فقهاء المذاهب المختلفة »

---

(١) المنار : هو الذى كان ادعى الاسلام وجاور في مكة المكرمة يطلب العلم في الحرم الشريف عدة سنين لاختبار بواطن المسلمين لتكون دولته على بصيرة في معاملة عشرات الملايين منهم وهو ممن يفترون الكذب على الاسلام وهم يعلمون

ماهية اصلاحات الشيخ محمد عبده

يقول أحد مادحيه إن المزية التي اشتهر بها الاستاذ هو الدقة النادرة التي يميز بها بين ماهو في الديانة جوهري وما هو عرضي أو طارىء عليها الدين . وهو في أشد افتراحاته جرأة لم يتعرض بشيء للقسم الجوهري من العقيدة ولا ترك نفسه يهاجم اركان الدين الاساسية نظير كبار مصلحي القرن التاسع عشر كميرزا علي محمد « الباب » المولود في فارس سنة ١٨٢١ مؤسس البابية وبهاء الله مؤسس البهائية في تركيا الذي صلبته الحكومة الفارسية سنة ١٨٥٠ (هذا خلط عظيم فالذي صلبته الحكومة الفارسية هو الباب لا بهاء الله وهذا قد توفي حتف أنفه في عكا منذ نحو أربعين سنة) أو ميرزا غلام أحمد في الهند . بل الشيخ محمد عبده بقي دائما ضمن حظيرة الاسلام بل ضمن مذهب السنة والجماعة(١) وانما كان عمله الوعظ والحث على التسامح الديني والدفاع عن حقوق العقل واحياء فضائل الدين وتطبيق الاسلام على العلم الحديث

ومما لا جدال فيه أن الشيخ محمد عبده قد دافع عن الاسلام دفاعا شديداً ذاهبا الى حد ترجيحه على النصرانية . فهو ينتقد مافي النصرانية من الحث على الغلو في حب القريب وأماتة الحواس والزهد في الدنيا غافلة عن طبيعة الانسان والغرائز التي هو مفطور عليها

وهو يقول : « انه لما جاء الاسلام خاطب العقل والادراك وأشركهما في العواطف والحواس آخذاً بيد الانسان الى سعادة الدنيا والاخرى »

(١) هذا هو الذي أسخط المستشرقين الهولندى والفرنسي على اصلاح الاستاذ الامام وكانا يودان كأمثالها خروجه عن الاسلام كالباب والبهاء أوعن بعض اصوله كالقادياني

ولكن الشجرة تعرف بثمارها . وهذه الجملة تكفي في هذا المختصر على الاقل لتنفيد انتقادات الشيخ محمد عبده . فهل مآثر الاسلام تتحمل القياس مع مآثر النصرانية ؟ لاشك أن التاريخ الذي لاضلع له يجاوب جوابا فصيحا على هذه المسئلة . وان أراد القراء المسلمون الادلة والوثائق فما عليهم الا أن يختاروا . فان الكتب الحديثه المنوهة بمآثر النصرانية جديرة بالاعتبار (وذكر المؤلف سيكار في الحاشية اسم كتاب في تاريخ الاديان وكتاب آخر في بيان فضائل الدين الكاثوليكي ولكن الجواب عن هذه القضية — وهي أن الشجرة تعرف بثمارها والتي معناها عزو تقدم أوربة الى النصرانية وعزو تأخر المسلمين الى الاسلام — هذا الجواب سهل علينا وسنذكره بعد الانتهاء من ترجمة هذا الفصل ، وهما قد رأيا فيه حجج الاستاذ الامام)

ولم يغب عن الشيخ ان حالة المسلمين الحاضرة هي بعيدة جداً عن الصورة التي يعطيها هو عن الاسلام . وفي الفصل الذي عنوانه « إيراد سهل لا يراد » نجد منه أمرّ انتقاد لهذه الحالة الا أنه يعزو هذا الانحطاط الى انحراف المسلمين عن جادة دينهم ويقول : انهم طيلة ما كانوا سائرين بمقتضاه كما يجب كانت جيوشهم لا تعرف الا الغلبة والظفر وكان سلطانهم فائقا في العمران كل ماتقدمه من المدنيات وكان مفكروهم في مقدمة الحركة الفكرية التي كانت في عصرهم »

صدى الحركة العصرية في شمالي أفريقية

ان الحركة العصرية قد أخذت تنتقص المبادىء الدينية ولكن انتقاصا محدودا وبمقدار مختلف بين تونس والجزائر ومراكش . فأفكار الشيخ عبده تغلغلت في عقول المفكرين ووجدت مجالا واسعا لدى الشبان على حين

نرى أرباب العمائم منكرين لها أشد الانكار ، ولهذا تجد مريدي الشيخ عبده متضائلين لا يقدرون ان يجهروا بأفكارهم نظراً لقلة عددهم واشدة مقاومة الجامدين لهم (لكن نفوذهم هو الغالب حتى غلب على الازهر ولله الحمد)

وهؤلاء الجامدون(١) بعداوتهم لكل ماليس به نص صريح في القرآن ينقمون أشد النقمة على اتباع الطرق الصوفية تقديس الاولياء والطواف حول قبورهم . وكل مقصدهم هو تطهير الدين من جميع الخرافات ومن جميع الشعائر التي يعدونها نصف وثنية والتى قد شوهت عقيدة الاسلام الاصلية وهي التى نجاحها قد كان بسبب شدة تنزيهها الباري تعالى عن مشابهة مخلوقاته فالشيخ محمد عبده يقول : إنه إذا كان لا يجوز لمسلم ان يتشكك في النبوة والمعجزات التى ثبت وقوعها على يد النبي ﷺ فانه حر ان يعتقد او ان لا يعتقد كرامات الاولياء »

ثم انه يضاف الى ماتقدم من الملاحظات كون مسلمي شمالي أفريقية لا يبرحون أمناء للاسلام وان كان بعض الفتور قد بدأ يظهر في عقيدتهم نفسها وهذا الفتور ان هو لم يخالط العقيدة فقد ظهر في الشعائر . مثال ذلك صوم رمضان الذي كان يتمسك به أقلهم تحمسا بالدين قد مالت اليوم حباله الى الارتخاء »

ثم ان سيكار صاحب الكتاب عقد فصلا نحو صفحتين لخص فيه كتاب الشيخ علي عبد الرازق في أصول الحكم والخلافة ، ولما كان هذا الكتاب معروفا عند القراء لم نجد حاجة الى ترجمة كلامه . ثم انتقل الى موضع آخر أهم من كل ماتقدم وهو تنصير المسلمين وهل هو مستحب أم لا ؟

---

(١) كذا وهو مخالف للاصلاح فان المصلحين هم الذين ينقمون من أهل الطرق خرافاتهم الوثنية وأما الجامدون فيتأولون لهم بل يوافقونهم على أكثرها

وهل هو ممكن أم لا ؟ وقد كانت النتيجة التي وصل اليها بعد مباحث أخذت ١٥ صفحة ان تنصير المسلمين مستحب وفيه من الفوائد الدينية والسياسية مالا يخفى . كما أنه ممكن ايضا خلافا لما يذهب اليه بعضهم من استحالته وان كان في حد نفسه أصعب من تنصير الوثني ، وفي كلامه لوم ظاهر للحكومة الفرنسوية التي لم توجه الى هذا الامر الجلل العناية الكافية بزعمه .

هذا ماذكره هذا الضابط الفرنساوي المسمى جول سيكار المترجم الكبير في الجيش الافرنسي في افريقية الذي ليس بقس ولا راهب بل هو من مأموري حكومة تعلن انها لادينية أو «لاييكية» ... فتأمل

ونرسل الفصل المتعلق بتنصير المسلمين الى المنار لاجل البحث فيما تضمنه لانه يحتوي مباحث كلامية أو على رأيهم لاهوتية صاحب المنار أولى بالحكم فيها . أما انا فاني أعلق على الفصل الذي ترجمته الملاحظات الآتية

أولا - ليس لسيكار وبخاصة ليس للراهب لامنس اليسوعي أن يتكلم عن قضية جمود الاسلام ولا عن مخالفة نصوص كتابه للعلم الحديث فليس في القرآن ولا في الشريعة ما يخالف العلم الحديث . بل القرآن ملآن بالحث على العلم مطلقا لا يختص به نوعا من الانواع وليس في الدنيا كتاب دعا الى النظر والسير وتدبر أسرار الكون مادعا اليه القرآن فهل يقدر ان يقول لامنس اليسوعي والضابط سيكار شيئا من ذلك عن الكتب المقدسة عندهما ؟ وهي التي الف علماء من المسيحيين مؤلفات ذات أجلاد ضخمة على تناقض نصوصها وقواعدها مع قواعد العلم الطبيعي الحديث ؟ أيريان القذى في أعين غيرهما ولا يريان الخشبة التي في أعينهما ؟

أيتكلمان في الجمود ونسيان كل ما أورده المسيحيون من تاريخ الكنيسة في محاربة العلم؟ لم نكن نود التعرض الى هذا الموضوع لو لم يحرجانا فيخرجانا اليه لان الذي يقرع الباب يسمع الجواب

ثانيا ـ قضية ان الشجرة تعرف من ثمارها لا تنطبق على ما نحن فيه فنحن لا يخطر لنا على بال أن ننكر ما في الانجيل الشريف من مبادىء سامية وفضائل بمثلها يرتفع قدر الانسانية وان المسلمين يجب عليهم دينا ان يقدسوا الانجيل المنزل ومباديه الثابتة ويؤمنوا بصاحبه ﷺ كما يؤمنون بمحمد وابراهيم وموسى ونوح صلوات الله عليهم جميعا، ولكن نسبة تقدم أوربة وتفوقها على غيرها في الاعصر الاخيرة الى ثمرات الدين المسيحى ونسبة انحطاط العالم الاسلامي الحاضر الى ثمرات التعليم الاسلامي كلاهما محض خطأ فلو كان ذلك كذلك للزم أن تتقدم أوربة وتترقى منذ دانت بالنصرانية والحال أنه كان مضى عليها الف وخمسمائة سنة ـ مدة نظنها كافية للتأثر والتأثير ـ وهي دائنة بالدين المسيحى وكانت لا تزال متأخرة متقهقرة لا بل قسم منها كان يعد متوحشا فأين كانت ثمار تلك الشجرة طيلة الف وخمسمائة سنة ؟ ومن الغريب ان أوربة لم تبدأ بالترقي ـ وهو رقي لا يعدو في الحقيقة المادة والصناعة ـ الا بعد ان تراخت فيها حبال العقيدة المسيحية بخلاف الاسلام الذى كان راقيا فائزا يوم كان أهله شديدي الاعتصام به واصبح متقهقراً ضعيفا عند ما قعد أهله عن القيام بعزائمه .

ثم ان المدنية اليونانية قبل النصرانية كانت أعلى جداً من المدنية اليونانية بعد ان تنصر اليونان . فهل يريد سيكار ولامنس ان ينسبا ذلك الى تأثير الديانة ؟ إذا تكون الميتولوجيا اليونانية أعلى من النصرانية ! وهذا غير

معقول وان مدنية رومة كانت لعهد وثنيتها أرقى جداً من مدنيتها بعد ان تنصرت . لا بل كان دخول رومة في النصرانية موافقا عهد بداية انحطاطها، أفنقول كما قال بعض مفكري أوربة ومنهم أناتول فرانس : ان ظهور النصرانية كان وقفا لسير المدنية في العالم وان بوار الدولة الرومانية كان من آثار ديانتها الجديدة ؟ نحن لا نعتقد ذلك بل نذهب إلى ان لانقراض الدولة الرومانية عوامل اخرى . كما ان انحطاط المدنية الاوربية في القرون الوسطى لم يكن المسؤول عنه الانجيل . وكما أن انحطاط الاسلام الحالي ليس بالمسؤول عنه القرآن بل هناك عوامل كثيرة وان نسبة درجة رقي الامم الى تأثير الديانة تفضي بنا الى القول بأن ترقي اليابان الحالي هو من ثمرات مذهب شينتو . هذا ما عدا المدنيات القديمة كمدنية الصين والهند والمدنيات البائدة نظير مدنية بابل ونينوى والنبط والفينقيين وكل هؤلاء كانوا وثنيين فهل نجعل الوثنية مصدر هذه الثمرات؟ إذاً لم يبق فضل للنصرانية على الوثنية

اذا البرهان على انحطاط الاسلام من جهة انحطاط المسلمين اليوم هو برهان ساقط بأدنى تأمل . وليس الاسلام بمسؤول في القرون الاخيرة عن انحطاط المسلمين أكثر مما كانت النصرانية مسؤولة عن سقوط رومة وانحطاط الاوربيين في القرون الوسطى . ولو عمل المسيحيون حق العمل بمقتضى مبادىء الانجيل ، ولو عمل المسلمون حق العمل بأوامر القرآن ونواهيه لافلحت كل من الامتين في الدنيا والعقبى ونالتا سعادتي المادة والمعنى

(ثالثا) الكلام المنسوب الى سنوك هوركرونجه المستشرق الهولاندي مستغرب من جهة الزعم بأن الاسلام يعتمد في نشر عقيدته على الاكراه

وذلك أن قاعدة الاسلام النظرية والتي جرى العمل بها من صدر الاسلام هى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » نعم قاتل النبي ﷺ لاول الامر المشركين لانه نهاهم عن الشرك بالله وعن عبادة الاصنام فلم ينتهوا عنها وكان دعاهم الى ذلك بالحسنى والقول اللين فلم يستمعوا له بل ثاروا به وقاتلوه فاضطر أخيراً ان يقاتلهم بالسيف دفاعا وأن يحطم أصنامهم بالسيف حتى يكون الدين كله لله . ومن المصائب أن بعض الناس يقرءون القرآن فتمر بهم آيات لا يفهمون معناها أو يؤولونها بغير معناها الحقيقي إما عن ضعف ملكتهم بالعربية وهى ملكة لا بد منها لمن أراد أن يفهم القرآن العزيز أو لعدم اطلاعهم على أسباب النزول والوقائع التى من أجلها وقع الوحي . وهذه المعرفة ضرورية لمن أراد أن يفهم كتاب الله حق الفهم فينشأ من جهل هؤلاء بهذين الامرين خلط كثير رأيناه في أكثر التآليف التى صنفها غير المسلمين في امر القرآن

أما المستشرق الهولاندي سنوك هورکرونجه فهو من أعرف الاوربيين بالكلام العربي والشرع الاسلامي فاذا كان صدر كلام كهذا عنه فهو عن تجاهل لا عن جهل ومن تعام عن الحقيقة لا عن عماية . فسنوك هوركرونجه يريد قبل كل شيء أن يخدم سياسة هولاندة التى من مقتضاها لاجل استتباب سلطتها على الجاوى وسومطرة توهين العقيدة الاسلامية واستئصالها ان أمكن . ولكن سنوك هوركرونجه يذهب في ايهانها أو استئصالها مذهب الحيلة لا مذهب البطش فيقول ان من الخطل العظيم أن تسن الدول الاستعمارية للمسلمين الذين استولت على بلادهم قوانين مستمدة من الشريعة الاسلامية بمعنى أن هذه الشريعة

فيها من المرونة ما تسع معه احتياجات هذا العصر . بل يجب على الدول الاستعمارية أن تعدل عن هذه الخطة وتجتهد في اقناع المسلمين بان شريعتهم أصبحت ثوبا باليا لا يقيهم حراً ولا برداً، فان أرادوا أن يعيشوا كسائر الامم المتمدينة لم يكن لهم مندوحة عن طرح الاسلام تدريجا . وبذلك تكون دول أوربة الغالبة اليوم على الاسلام اتقت خطر انتقاض المسلمين عليها وأمنت مستقبل سلطتها عليهم .

وفي كلامه هذا الذي لخصناه في حواشي « حاضر العالم الاسلامي » شيئان جديران بالتقييد (أحدهما) ان سن قوانين عصرية مستمدة من الشريعة الاسلامية غير موافق لا من جهة عدم مرونة هذه الشريعة أو عدم اتساعها لذلك بل من جهة أنه لا ينبغي أن تسن لادارة أمور المسلمين أنظمة عصرية يوقنون بها ان شريعتهم قد تتلاءم مع العصر الحالي فيزدادون بها تمسكا وعليها عضا بالنواجذ . والحال أنه يجدر بالدول المستعمرة أن تبذل كل جهدها في اقناع المسلمين بأن شريعتهم أصبحت لا تصلح أصلا لهذا الزمان فهم بين أمرين لا ثالث لهما : اما أن يموتوا واما أن ينبذوا شريعتهم ! فالمسألة اذاً ليست حقيقة علمية بل حيلة سياسية .

(والامر الثاني) هو في كلام هذا الرجل الاعتراف بأن الخطر الوحيد الذي يتهدد الاستيلاء الاوربي ليس روح القومية بل روح الاسلام . فاذا ذهبت روح الاسلام من الامم المسلمة هان عليها خنوعها للاجانب ولم يتكاءدها فقد استقلالها .

وبعبارة أخرى ان رابطة الاستقلال في العالم الاسلامي متوقفة على حياة الدين الاسلامي . فان ذهب الاسلام ذهب الاستقلال وأمن

المستعمرون شر الانتقاض في المستقبل . فهذا الاعتراف من مستشرق عظيم نظير سنوك هوركرونجه ثمين جداً يزيد قيمته اعتباراً أنه لسان حال دولة أوربية مستضعفة له ٤٥ مليونا من المسلمين

بقي نقطة ثالثة في كلام هذا المستشرق الهولاندي وهي قوله «ان بعض المجددين الذين عندهم أفكار عصرية من المسلمين لا يمثلون الدين الاسلامي أكثر مما تمثل فرقة "العصريين modernistes في النصرانية الكنيسة الكاثوليكية» يريد أن يقول ان التعاليم الكاثوليكية مخالفة للمبادىء العصرية وإن الذين يحاولون هذا الامر من الكاثوليك يحاولون المحال تقريبا

فليس اذاً لسيكار ولا للامنس أن يتكلما في عدم انطباق الدين الاسلامي على العلم الحديث وعلى الاوضاع العصرية . ويكونان قد احتجا بكلام رجل شهادته جاءت على الكاثوليكية كما جاءت على الاسلام أو أشد. ولهذا قلنا انه ليس لهذين وأمثالهما أن ينعتا الاسلام بالجمود وحب التقليد

ونضيف الى ذلك أنه ليس لسنوك هوركرونجه أيضاً ولا للهولانديين ولا للبروتستانت أن ينبزوا المسلمين بالجمود . فان البروتستانت المتبخرين على الكاثوليك بالاخذ بالمبادىء العصرية وبالعمل بالعلم الحديث لا يفترقون عن الكاثوليك في شيء من جهة أساس العقيدة المسيحية وان أكثر ما بين الفريقين من الخلاف انما هو في عقائد ثانوية . ولسنا الآن في حاجة الى تفصيل هذه الامور . اذاً هذه الفرقة مثل تلك الفرقة من جهة الجمود على القديم وحب التقليد . ولكنهم أولعوا بنقد الاسلام والمسلمين ونسوا أنفسهم

وفي هذا الفصل الذي ترجمناه مظان أخرى تركنا الملاحظة عليها لفهم القارىء

شكيب أرسلان

السنة والشيعة - أو - الوهابية والرافضة

— ٤ —

نموذج من نقوله في الطعن على ابن تيمية

أول شيء نقله الرافضي العاملي في طعن العلماء على شيخ الاسلام ابن تيمية كلمة للفقيه أحمد بن حجر الهيتمي المكي وهي دعوى التجسيم

فنقول في الكلام عليها (أولا) هل يعد الرافضي العاملي كلام ابن حجر هذا في الدين ورجاله حكما صحيحا مع علمه بما قاله في كتابه الصواعق وفي كتابه مناقب معاوية في بدع الشيعة وتضليلهم الخ أم يقبل قوله في ابن تيمية وحده دون معاوية ودون الشيعة كلهم كما هي عادة أمثاله من المتعصبين الذين لا يقبلون الا ما يوافق أهواءهم ؟

نحن لا ننكر أن ابن حجر الهيتمي طعن في ابن تيمية، وما هو من طبقته في علم من العلوم لا علوم الحديث ولا التفسير ولا الاصول والكلام ولا الفقه أيضا فابن حجر هذا فقيه شافعي مقلد لمذهب الشافعي غاية شأوه بيان ما قاله من قبله في المذهب وبيان الراجح من المرجوح والصحيح وغيره، وأما ابن تيمية فمن أكبر حفاظ السنة ومع كون طبقته في فقه الحنابلة أعلى من طبقة ابن حجر في فقه الشافعية فهو حافظ لفقه الأئمة ومن أهل الترجيح بينها بل هو مجتهد مطلق كما اعترف له أهل الانصاف من علماء عصره ومن بعدهم وان أنكر عليه بعضهم بعض المسائل المخالفة لمذاهبهم وما من امام مجتهد إلا وقد أنكر عليه المخالفون بعض أقواله وهم خير ممن

تقلدونه ويعدونه كالمعصومين في عدم مخالفته في شيء مما ثبت عنه

ومع هذا نعتقد أن ابن حجر الهيتمي هذا لم يطلع على كتبه وانما قال فيه ماقال اعتماداً على ما أشاع عنه خصومه من المبتدعة ومتأولة الاشاعرة ومغروري المتصوفة ، فمن أعظم سيئاته عند هؤلاء رده على الشيخ محي الدين بن عربي وبيانه لضلالة وحدة الوجود المشهورة عنه وعن أمثاله

وأما قوله باظهاره للعامة على المنابر دعوى الجهة والتجسيم فهو مقلد فيه لأولئك الخصوم في تسميتهم إثبات العلو لله تعالى جهة مستلزمة للتحيز والتشبيه للتنفير والتشهير بشناعة الالفاظ كتسميتهم لاثبات الاستواء على العرش والنزول الى سماء الدنيا ونحوهما تجسيماً أي بطريق اللزوم ، فان كان يلزم من اثبات نصوص الكتاب والسنة ماذكروا كما زعموا فهل يترك المسلمون نصوص الكتاب والسنة لأجل نظرياتهم في هذه اللوازم ؟ ثم هل يقولون بضلال سلف الامة وحصر الهداية بالمبتدعة المتأولين ، مع العلم بأن مذهب السلف ونصيرهم ابن تيمية نفي هذه اللوازم كلها ؟

وهذا عين ماناظره فيه العلماء الذين شكوا أمره الى سلطان مصر : قالوا إنه يذكر للعوام آيات الصفات وأحاديثها من غير تأويل وطلبوا منه هو عدم التصريح بذلك للعوام فأبى عليهم ذلك لأنه كتمان لما أنزله الله والله تعالى يقول في كتابه (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وأي طعن في الدين وجناية عليه أعظم من القول بوجوب كتمان صفات الله المنزلة في كتابه بناء على أن المبتدعة ومغروري المتكلمين قالوا بوجوب تأويلها

وقد قال الرافضي العاملي بعد نقل ماذكر عن ابن حجر الهيتمي:

وقال ابن حجر أيضا في (الدرر الكامنة) على ماحكي إن الناس افترقت في ابن تيمية فمنهم من نسبه الى التجسيم الخ

ونقول في هذه الكلمة (أولا) إن ابن حجر صاحب الدرر الكامنة ليس ابن حجر الهيتمي المكي كما يدل عليه قوله «أيضا» بل هو الحافظ ابن حجر العسقلاني وكتابه (الدرر الكامنة) تاريخ له في اعيان المائة الثامنة وهو مشهور وان جهله الرافضي العاملي المدعي - فما أجهل هذا الرافضي برجال أهل السنة وكتبهم!

(وثانيا) إن الحافظ ذكر في تاريخه هذا ماتقوله الناس على ابن تيمية وما طعنوا به عليه كما يذكر هو وغيره من المؤرخين مثل ذلك في غيره من الائمة حتى المعصومين عند الشيعة ولكنه هو يثني عليه أجل الثناء. وقد رأيت كلامه في الانتصار لمذهب الحنابلة وهو مذهب السلف في الصفات الالهية ومنها صفة العلو وكذا في مسألة الحرف والصوت في شرحه للبخاري الذي نقلناه آنفا ولكن الرافضي يعمى عن رؤية ذلك ويوهم قراء كتابه ان الحافظ ابن حجر شيخ الاسلام وأستاذ أشهر العلماء والحفاظ في عصره يطعن في ابن تيمية ويقول بكفره، لعدم تأويله للايات والاحاديث الواردة في صفات الرب تعالى، كما أوهم مثل ذلك في الحافظ الذهبي اذ قال بعد ماتقدم نقله عنه في ص ١٣٢ من كتابه مانصه:

« ورد أقاويله وبين أحواله الشيخ ابن حجر في المجلد الاول من الدرر الكامنة والذهبي في تاريخه وغيرهما من المحققين »

(وثالثا) ننقل من ترجمة الحافظ ابن حجر لابن تيمية ومن ترجمة الحافظ الذهبي فيها مايعرف به الحق من الباطل في مزاعم هذا الرافضي الكذاب فنقول

ترجمة

شيخ الاسلام ابن تيمية

قدس الله سره

للحافظ ابن حجر في تاريخه الدرر الكامنة (١)

هو أحمد بن عبد الحكيم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي تقي الدين أبو العباس بن شهاب الدين بن مجد الدين

ولد سنة احدى وستين وستمائة وتحول به أبوه من حران سنة سبع وستين وستمائة فسمع من ابن عبد الدائم والقاسم الاربلي والمسلم بن علان وابن أبي عمر والفخر في آخرين . وقرأ بنفسه ونسخ سنن أبي داود ، وحصل الاجزاء ، ونظر في الرجال والعلل ، وتفقه ، وتمهر ، وتميز ، وتقدم ، وصنف ، ودرس ، وأفتى وفاق الاقران ، وصار عجيبا في سرعة الاستحضار ، وقوة الجنان ، والتوسع في المنقول والمعقول ، والاطلاع على مذاهب السلف والخلف

وأول ما أنكروا عليه من مقالاته في شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وستمائة: قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية وبحثوا معه ومنع من الكلام ، ثم حضر القاضي امام الدين القزويني فانتصر له وقال هو وأخوه جلال الدين : من قال عن الشيخ تقي الدين شيأ عزرناه

(ثم ذكر ماوقع له من الاضطهاد والحبس والاطلاق بتواريخه مفصلا فعلم منه أن سببه سعاية بعض الجامدين على التقاليد الاشعرية والفقهية والمتصوفة الى السلطان في انتصاره لمذهب السلف وفي انكاره على الصوفية ولا سيما ابن عربي وفي مسئلة الطلاق الثلاث حتى أتهموه بطلب الخلافة كما سيأتي ، ذكر وان جميع الحنابلة كانوا يضطهدون معه وكان بعض المنصفين ينتصرون له لما امتازوا به من الاستقلال في العلم .

(١) كان عندنا أصل من هذه الترجمة منقول من نسخة من الدرر الكامنة في بغداد كثيرة التحريف والتصحيف صححناه على نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الازهر

حتى إن الحكومة أكرهت الحنابلة كلهم على الاقرار بأنهم على معتقد الامام الشافعي. وذكر أن ابن تيمية نفسه كتب بخطه أنه على معتقد الشافعي. وهذا تخلص حسن إن صح ان الشافعي كان على مذهب السلف في اعتقاده بلا شك. وذكر أن ممن انتصر لابن تيمية في دمشق قاضي الحنفية شمس الدين الحريري أنه توفي معتقلا في القلعة لعشرين ليلة خلت من رجب سنة ٧٢٨ ثم قال:

قال الصلاح الصفدي كان كثيرا ما ينشد

تموت النفوس بأوصابها ... ولم يدر عوادها ما بها
وما أنصفت مهجة تشتكي ... أذاه الى غير أحبابها

وأنشد له على لسان الفقراء:

والله ما فقرنا اختيار ... وانما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى ... وأكلنا ماله عيار
يسمع منا اذا اجتمعنا ... حقيقة كلها فشار

وسرد أسماء تصانيفه في ثلاثة أوراق كبار وأورد فيه من امداح أهل عصره كابن الزملكاني قبل ان ينحرف عليه وكابن الوكيل وغيرهما، قال ورثاه محمود بن علي الدقوقي ومجير الدين الخياط وصفي الدين عبد المؤمن البغدادي وجمال الدين بن الاثير وتقي الدين محمد بن سليمان الجعبري وعلاء الدين بن غانم وشهاب الدين بن فضل الله العمري وزين الدين بن الوردي وجمع جم، واورد لنفسه فيه مرثية على قافية الضاد المعجمة

قال الذهبي ما ملخصه: كان يقضي منه العجب اذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه قال وما رأيت اسرع منه انتزاعا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها ولا اشد استحضار اللمتون وعزوها منه كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه

بعبارة رشيقة لا يسبقه بها غيره وعين مفتوحة وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسع فيه

واما اصول الديانة ومعرفة اقوال المخالفين فكان لا يشق غباره فيه هذا مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة والفراغ عن ملاذ النفس ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر . وكان قوالا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم (ثم قال) ومن خالطه وعرفه قد ينسبني الى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني الى التغالي فيه ، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده

وكان أبيض أسود الرأس واللحية قليل الشيب ، شعره الى شحمة أذنيه ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت ، فصيحاً سريع القراءة ، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم (قال) ولم أر مثله في ابتهاله واستغاثته بالله وكثرة توجهه . وأنا لا اعتقد فيه عصمة بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية فانه كان مع سعة علمه وفرط شجاعته وسيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدين بشراً من البشر تعتريه حدة في البحث وغضب وسطة للخصم تزرع له عداوة في النفوس وإلا لو لاطف خصومه لكان لهم اجماع ، فان كبارهم خاضعون لعلمه ، معترفون بتفوقه ، مقرون بندور خطئه ، وأنه بحر لا ساحل له ، وكنز لا نظير له ، ولكن ينقمون عليه أخلاقا وأفعالا ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك من قوله إلا رسول الله (ص)

(قال) وكان محافظاً على الصلاة والصوم معظما للشرائع ظاهراً وباطناً ، لا يؤتى من سوء فهم فان له الذكاء المفرط ، ولا من قلة علم فانه بحر زاخر ، ولا كان متلاعبا بالدين ، ولا ينفرد بمسئلة من التشهي ، ولا يطلق لسانه

عما اتفق ، بل يحتج بالقرآن والحديث والقياس ويبرهن ويناظر أسوة من تقدمه من الائمة فله أجر على خطئه وأجران على اصابته

الى أن قال: تمرض أياما بالقلعة بمرض حاد الى أن مات ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة وصلي عليه بجامع دمشق وصار يضرب بكثرة من حضر جنازته المثل وأقل ماقيل في عددهم أنهم خمسون ألفا

قال الشهاب بن فضل الله لما قدم ابن تيمية على البريد الى القاهرة في سنة سبعمائة نزل عند عمي شرف الدين وحض أهل المملكة على الجهاد وأغلظ القول للسلطان والامراء ورتبوا له في مدة اقامته في كل يوم ديناراً ومخفقة طعام فلم يقبل من ذلك شيئا، وأرسل له السلطان بقجة قماش فردها (قال) ثم حضر عنده شيخنا أبو حيان فقال مارأت عيناي مثل هذا الرجل ثم مدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهة وأنشده إياها

لما أتانا تقي الدين لاح لنا | داع الى الله فرد ماله وزر
على محياه من سيما الأُلى صحبوا | خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهره حبراً | بحر تقاذفُ من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا | مقام سيد تيم اذ مضت مضر
واظهر الحق إذ آثاره اندرست | وأخمد الشر اذ طارت له شرر
يامن يحدث عن علم الكتاب أصخ | هذا الامام الذي قد كان ينتظر (١)

قال ثم دار بينهما كلام فجرى ذكر سيبويه فأغلظ ابن تيمية القول في سيبويه فناظره أبو حيان وقطعه بسببه ثم عاد ذاماله وصير ذلك ذنبا لا يغفر

---

(١) وفي نسخة

كنا نحدث عن حبر يجيء بها | انت الامام الذي قد كان ينتظر

(قال) وحج ابن المحب سنة ٢٤ فسمع من أبي حيان أناشيد فقرأ عليه هـذه الابيات فقال قد كشطتها من ديواني ولا أذكره بخير فسأله عن السبب في ذلك فقال ناظرته في شيء من العربية فذكرت له كلام سيبويه فقال يفشر سيبويه، قال أبو حيان وهذا لا يستحق الخطاب. ويقال ان ابن تيمية قال له: ما كان سيبويه نبي النحو ولا معصوما بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعا ما تفهمها أنت. فكان ذلك سبب مقاطعته اياه وذكره في تفسيره البحر بكل سوء وكذلك في مختصره النهر. ورثاه شهاب الدين ابن فضل الله بقصيدة رائية مليحة وترجم له ترجمة هائلة تنقل من المسالك إن شاء الله تعالى ورثاه زين الدين بن الوردي بقصيدة لطيفة طائية

وقال جمال الدين السرمري في أماليه: ومن عجائب ماوقع في الحفظ من أهل زماننا أن ابن تيمية كان يمر بالكتاب يطالعه مرة فينتقش في ذهنه وينقله في مصنفاته بلفظه ومعناه.

وقال الاقشهري في رحلته في حق ابن تيمية: بارع في الفقه والاصلين والفرائض والحساب وفنون أخر وما من فن إلا له فيه يد طولى وقلمه ولسانه متقاربان. قال الطوفي سمعته يقول من سألني مستفيداً حققت له، ومن سألني متعنتا ناقضته فلا يلبث أن ينقطع فأكفى مؤنته: وذكر تصانيفه وقال في كتابه ابطال الحيل: هو عظيم النفع. وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث فيورد في ساعة من الكتاب والسنة واللغة والنظر مالا يقدر أحد أن يورده في عدة مجالس كأن هذه العلوم بين عينيه فيأخذ منها مايشاء ويذر منها مايشاء.

ومن ثم نسبت أصحابه الي الغلو فيه واقتضى له ذلك العجب بنفسه

حتى زها على أبناء جنسه ، واستشعر انه مجتهد فصار يرد على صغير العلماء وكبيرهم ، قديمهم وحديثهم ، حتى انتهى الى عمر فخطأه فى شيء فبلغ الشيخ ابراهيم الرقي فأنكر عليه فذهب اليه واعتذر واستغفر . وقال في حق علي أخطأ في سبعة عشر شيئا (كذا) ثم خالف فيها نص الكتاب منها اعتداد المتوفى عنها زوجها أطول الأجلين

وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الاشاعرة حتى إنه سب الغزالي فقام عليه قوم كادوا يقتلونه. ولما قدم غازان بجيوش التتر إلى الشام خرج اليه وكلمه بكلام قوي فهم بقتله ثم نجا واشتهر أمره من يومئذ

واتفق ان الشيخ نصراً المنبجي كان قد تقدم في الدولة لاعتقاد بيبرس الجاشنكير فيه فبلغه ان ابن تيمية يقع في ابن العربي (١) لانه كان يعتقد فيه انه مستقيم وان الذي ينسب اليه من الاتحاد أو الالحاد من قصور فهم من ينكر عليه ، فأرسل ينكر عليه وكتب اليه كتابا طويلا نسبه واصحابه الى الاتحاد الذي هو حقيقة الالحاد فعظم (٢) ذلك عليهم واعانه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة وقعت منه في قواعده وفتاويه فذكر أنه ذكر حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين وقال كنزولي هذا (٣) فنسب الى التجسيم ورده على من توسل بالنبي ﷺ واستغاث . فأشخص من دمشق في رمضان سنة ٦٩٨ فجرى عليه ماجرى وحبس مرارا فأقام على ذلك نحو اربع سنين او اكثر وهو مع ذلك يشتغل ويفتي

(١) لعله سقط من هنا شيء (٢) قد نشرنا في المنار كتاب ابن تيمية للشيخ نصر هذا من قبل (٣) الصحيح انه قال : لا كنزولي هذا ـ كما نقله بعض المؤرخين وهو الموافق لما صرح به في مواضع من وجوب الجمع بين امرار النصوص ونفي التشبيه . فحرف كلامه اعداؤه ولعل بعضهم لم يسمع حرف « لا » فنقله مثبتاً

الى أن اتفق ان الشيخ نصراً قام على الشيخ كريم الدين الآيلي شيخ خانقاه سعيد السعداء فاخرجه من الخانقاه وعلى شمس الدين الجزري فأخرجه من تدريس الشريفية فيقال ان الايلي دخل الخلوة بمصر اربعين يوما فلم يخرج حتى زالت دولة بيبرس وخمل ذكر نصر. وأطلق ابن تيمية الى الشام

وافترق الناس فيه شيعا(١) فمنهم من نسبه الى التجسيم لما ذكر في العقيدة الحموية والواسطية وغيرها، من ذلك قوله في اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله وانه مستوعلى العرش بذاته، فقيل يلزم من ذلك التحيز والانقسام فقال انا لا نسلم ان التحيز والانقسام من خواص الاجسام، فألزم بانه يقول بتحيز في ذات الله تعالى

ومنهم من نسبه الى الزندقة لقوله: النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يستغاث به، وان في ذلك تنقيصا ومنعا من تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وكان أشد الناس عليه في ذلك النور البكري، فانه لما عقد له المجلس بسبب ذلك قال بعض الحاضرين: يعزر، وقال البكري: لا معنى لهذا القول فانه إن كان تنقيصا يقتل وإن لم يكن تنقيصا لم يعزر

ومنهم من ينسبه الى النفاق لقوله في علي ما تقدم ولقوله انه كان مخذولا حيثما توجه، وأنه حاول الخلافة مراراً ولم ينلها، وانما قاتل للرياسة لا للديانة، ولقوله انه كان يحب الرياسة، وان عثمان كان يحب المال، ولقوله في أبي بكر أسلم شيخا يدري مايقول، وعلي أسلم صبيا والصبي لا يصح

---

(١) اقتصر الرافضي العاملي من هذه الترجمة الحافلة على ذكر هذه المطاعن المنقولة التي سيأتي فيها مايدل على بطلانها من كلام العلامه العمري وقد شاهدنا في عصرنا مثلها في شيخنا الاستاذ الامام وشيخه السيد جمال الدين

اسلامه على قول، وبكلامه في قصة خطبته بنت أبي جهل وما بها من الثناء وقصة أبي العاص بن الربيع وما يؤخذ من مفهومها فانه شنع في ذلك فألزموه بالنفاق لقوله صلى الله عليه وسلم « لا يبغضك إلا منافق »

ونسبه قوم الى أنه يسعى في الامامة الكبرى فانه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه، وكان له وقائع شهيرة. وكان اذا حوقق وألزم يقول لم أرد هذا وانما أردت كذا فيذكر احتمالا بعيداً

(قل) وكان من أذكياء العالم وله في ذلك أمور عظيمة منها أن محمد ابن بكر السكاكيني عمل أبياتا على لسان ذمي في إنكار القدر أولها

أيا علماء الدين ذمي دينكم تحير دلوه بأعظم حجة
اذا ماقضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي

فوقف عليها ابن تيمية فثنى إحدى رجليه على الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتا أولها

سؤالك ياهذا سؤال تعنت يخاصم رب العرش باري البرية

وكان يقول أنا ماقرأت في الاقفاص

وقال شيخ شيوخنا الحافظ أبو الفتح العمري في ترجمة ابن تيمية : حدا بي يعيش المزي على رؤية الشيخ الامام شيخ الاسلام تقي الدين فألفيته ممن أدرك من العلوم حظا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظا، ان تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، او حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه. كان يتكلم في التفسير،

فيحضر مجلسه الجم الغفير ، ويروون من بحر علمه العذب النمير . ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير ، الى أن دب اليه من أهل بلده داء الحسد ، وألب أهل النظر منهم على ماينتقد عليه من امور المعتقد ، فحفظوا عنه في ذلك كلاما ، اوسعوه بسببه ملاما ، وفوقوا لتبديعه سهاما ، وزعموا أنه خالف طريقهم ، وفرق فريقهم ، فنازعهم ونازعوه ، وقاطع بعضهم وقاطعوه ، ثم نازع طائفة أخرى ينتسبون من الفقر الى طريقة ، ويزعمون أنهم على أدق ناظر منها وأجلى حقيقة ، فكشف تلك الطرائق ، وذكر لها على زعم بوائق ، فآضت الى الطائفة الاولى من منازعيه ، واستغاثت بذوي الضغن عليه من مقاطعيه ، فوصلوا بالامراء أمره ، وأعمل كل منهم في كفره فكره ، فرتبوا محاضر ، والبوا الرويبضة(١) للسعي بها بين الاكابر ، وسعوا في نقله الى حضرة المملكة بالديار المصرية فنقل ، وأودع السجن ساعة حضوره واعتقل ، وعقدوا لاراقة دمه مجالس ، وحشروا لذلك قوما من عمار الزوايا وسكان المدارس ، مابين مجامل في المنازعة ، ومخاتل في المخادعة ، ومجاهر بالتكفير مبادر بالمقاطعة ، ليسومونه ريب المنون ، وربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون ، وليس المجاهر بكفره ، بأسوأ حالا من المخاتل وقد دب اليه عقارب مكره ، فرد الله كيده في نحره ، ونجاه على يد من اصطفاه والله غالب على أمره ، ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة ، ولم

---

(١) العبارة غير واضحة وهي اشارة الى حديث ورد في امارات الساعة منه « وإن تنطق الرويبضة » قيل وما الرويبضة يارسول الله ؟ قال الرجل التافه ينطق في أمر العامة » قال في النهاية والتافه الخسيس الحقير . والمراد ان ادعياء العلم المقلدين الحاسدين صاروا يتكلمون في ذم امام كشيخ الاسلام نابغة الاعصار

يزل ينتقل طول عمره من محنة الى محنة، الى أن فوض أمره إلى بعض القضاة فتقلد ماتقلد من اعتقاله ، ولم يزل بحبسه ذلك الى حين ذهابه الى رحمة الله تعالى وانتقاله ، والى الله ترجع الأمور ، وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكان يومه مشهوداً ضاقت بجنازته الطريق ، وأتى لها المسلمون من كل فج عميق ، يتقربون بشهده يوم يقوم الاشهاد، ويتمسكون بسريره حتى كسروا تلك الاعواد »

قال الذهبي مترجما له في بعض الاجازات: قرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ ، وبرع في العلوم والتفسير وأفتى ودرس وهو دون العشرين ، وصنف التصانيف وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه، وتصانيفه نحو أربعة آلاف كراسة وأكثر

وقال في موضع آخر: وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلا عن المذاهب الاربعة فليس له نظير

وفي موضع آخر وله باع طويل في معرفة أقوال السلف وقل أن يذكر مسألة الا ويذكر فيها مذاهب الائمة وقد خالف الائمة الاربعة في عدة مسائل صنف فيها واحتج بالكتاب والسنة

ولما كان معتقلا بالاسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز له بعض مروياته فكتب له جملة من ذلك في عشرة أوراق بأسانيده من حفظه بحيث يعجز أن يعمل بعضه أكبر من يكون وأقام عدة سنين لا يفتي بمذهب معين

وقال في موضع آخر: بصير بطريق السلف واحتج له بادلة وأمور لم يسبق اليها ، وأطلق عبارات أحجم عنها غيره ، حتى قام عليه خلق من العلماء المصريين فبدعوه وناظروه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي بل يقول الحق اذا

أداه اليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته فجرى بينهم حملات حربية، ووقعات مصرية وشامية، ورموه عن قوس واحدة، ثم نجاه الله تعالى، وكان دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوي التوكل رابط الجأش، له أوراد وأذكار يديمها يومية وجمعية

وكتب الذهبي الى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه ومن جملة الجواب: وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبر قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم العقلية والنقلية، وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل فن، ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائما وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ماجمعه الله له من الزهادة، والورع والديانة، ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض في هذا سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه بذلك المأخذ الأوفى وغرابة مثله الزمان بل من أزمان.

وقرأت بخط الحافظ صلاح الدين العلائي في بيت شيخ شيوخنا الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد بن خليل مانصه: وسمع بهاء الدين المذكور على الشيخين شيخنا وسيدنا وامامنا فيما بيننا وبين الله تعالى شيخ التحقيق، السالك بمن اتبعه أحسن الطريق، ذى الفضائل المتكاثرة، والحجج القاهرة، التي أقرت الامم كافة أن هممها عن حصرها قاصره، متعنا الله تعالى بعلومه الفاخره، ونفعنا به في الدنيا والآخرة، وهو الشيخ الامام العالم الرباني، والحبر البحر القطب النوراني، امام الائمة، بركة الامة، علامة العلماء، وارث الانبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، شيخ الاسلام، نخر الاعلام، قدوة الانام، برهان المتكلمين، قامع المبتدعين، سيف المناظرين، بحر العلوم، كنز

المستفيدين ، ترجمان القرآن ، أعجوبة الزمان ، فريد العصر والاوان ، تقي الدين ، امام المسلمين ، حجة الله على العالمين ، اللاحق بالصالحين ، والمشبه بالماضين ، مفتي الفرق ، ناصر الحق ، علامة الهدى ، عمدة الحفاظ ، فارس المعاني والالفاظ ، ركن الشريعة ، ذو الفنون البديعة ، أبو العباس ابن تيمية

وقرأت بخط الشيخ برهان الدين محدث حلب قال اجتمعت بالشيخ شهاب الدين الاذرعي سنة ٧٩ لما أردت الرحلة الى دمشق فكتب لي كتبا إلى الباسوقي والحسباني وابن الجابي وابن مكتوم وجماعة الشافعية اذ ذاك فحصل لي بذلك منهم تعظيم وذكر لي في ذلك المجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية وأثنى عليه وذكر لي شيئاً من كراماته وذكر أنه حضر جنازته وأن الناس خرجوا من الجامع من كل باب وخرجت من باب البريد فوقعت سرموذتي فلم أستطع أن أستعيدها وصرت أمشي على صدور الناس ، ثم لما فرغنا ورجعت لقيت السرموذة وذلك من بركة الشيخ رحمه الله تعالى انتهى

(يقول ابو محمد شفيع صاحب المنار) هذا ماقاله الحافظان الذهبي وابن حجر وما نقلاه من ثناء الحفاظ والمؤرخين المنصفين في شيخ الاسلام احمد تقي الدين ابن تيمية وما نقلاه من تقولات حساده وخصومه من المشايخ المقلدين الجامدين ، وما حققه بعضهم من اسبابها . ومنه يعلم كنه كذب السيد محسن العاملي الرافضي وتعصبه وجهله ، فانه أوهم قراء كتابه الملفق ان الحافظين الذهبي وابن حجر كانا يطعنان في عقيدته ، وأنه لم يوجد في المسلمين من زكاه الا تلاميذه ثم الشيخ محمد عبدالوهاب ثم صاحب المنار ، وحسبنا هذا في بيان كذبه وافترائه عليه وعلى العلماء وعلى الوهابية عن عمد وعلى جهل . ومازال غلاة الشيعة أكذب الفرق وأبعدها عن طلب الحق في خلافها لغيرها كما قال احد علماء الالمان المستشرقين

وأما طعنه علينا فاننا نفوض الى الله تعالى أمر جزائه عليه (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لايحب كل مختال فخور)

(تمت الرسالة الاولى)

العيد الذهبي

لشيخ الشعراء ونادرة الادباء ونابغة الفقهاء عبد الحميد بك الرافعي

نشرنا في ص ٢٣٨ م ٢٩ الاذاعة التى نشرتها اللجنة التي الفت في طرابلس الشام للاحتفال بهذا العيد الادبي الوطني، وكنا ننوي حضوره لما تقضي به علينا الحقوق الشخصية الموروثة، علاوة على الحقوق الوطنية والقومية والادبية، فشاعرنا الكبير في مقدمة أصدقائنا الاوفياء بالتعارف الروحي الادبي والتوارث عن الآباء والاجداد

كان والده الشيخ عبد الغني يكرمني تكريمه لاعز أنجاله وأنجب تلاميذه، ويثني علي في بداية طلبي ثناء كنت أخجل من ذكره، وكانت الزيارات والمودة متصلة من قبل بين الآباء والاجداد، وعهدته مصطافا بدارنا في القلمون مع أهل بيته عندما كان سيد الدار وكبير الاسرة

ثم قد بلغت بيني وبين الشيخ محمد كامل الرافعي الشقيق الاكبر لعبد الحميد بك درجة الكمال كما ذكرت ذلك في ترجمته رحمه الله تعالى، وكان نادرة المثال في هذا العصر في الاشتغال بالعلوم العالية، والتخلق بالاخلاق السامية، حتى انني لما زرت الوطن في عام الدستور العثماني (سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م) لم يكن يسمح لي أن أبيت عند والدتي الا ليالي قليلة فكنت في معظم المدة التي أقمتها في طرابلس أبيت عنده في حجرة نومه، وكان جل حظنا من هذا المبيت المذاكرات العلمية فالاجتماعية والسياسية قبل النوم وبعد صلاة الفجر في أول وقتها بالجامع الكبير المجاور لدارهم. دع تلك المسامرات والمساجلات الجميلة، في تلك الليالي الشتائية القصيرة الطويلة،

في تلك الدار التي كان عبد الحميد بك نجم سمائها المتألق، وغيث آدابها المتدفق

وكنت لما اقترن عبد الحميد بك نظمت وأنا تلميذ مبتدىء موشحا كالموشحات الاندلسية في تهنئته أنشدته بنفسي في حفلة الزفاف وهي أول تهنئة نظمتها، وأول قصيدة أنشدتها، في أرقى محفل، وأكرم منزل، أذكر بعض ما أحفظ منها، وتشفع لي البداية في ضعفها

أسقيط الطل في نبت الحمى   أم لآل فوق بسط السندس
أم نجوم تتراءى في السما   أم ثغور زينت باللعس

***

يا أعريبا تخذوا نبت اللمى   عند فقد الحرث منه بدلا
وبقلبي قد تركتم ألما   لم يغادر انجاحي أملا
لي منكم غادة لم يدرما   بفؤادي طرفها قد فعلا
حيث قالت حين زارت ريثما   تقف الأنجم بعد الغلس
احذر الانس بنيري إنما   كنت إنسانا لفرط الانس

***

ان نجم الكأس فيما قد حوى   هز منها العطف إذ تغتبق
غربت شمس الطلا لما هوى   فبدا في وجنتيها الشفق
وبجفنيها لارباب الهوى   ان تأملت عدو أزرق
دائما يفخر في سفك الدما   ويباهي بهلاك الأنفس
يسلب الروح برفق مثلما   تسلب الراحة عقل المحتسي

ومنه في مدحه :

لسن ان نظم الشعر غدا   يتراءى فوق طوق البشر

تنصت الناس إذا ما أنشدا كيف تصغى لاستماع السور
كلما كرر يحلو مورداً وهو لم يهجر لفرط الخصر
ما أبو الطيب إما نظما وابن هاني شاعر الاندلس
ليس يهنئك اذا شعرهما وبه لم تلق طيب الانفس

فاذا كانت باكورة شعري في التهاني قد انشدت في عيد زفافه فأجدر بي أن أكون أول السابقين الى حضور حفلة عيده الذهبي، وأول الساجعين بمناقبه، ومناقب أبيه وأخيه وبيته، ولكن أحكام القدر القاهرة غلبتني على أمري، - وما زالت غالبة لكل الخلق -، فحالت دون ما تصبو اليه نفسي، ويوجبه على روحي وعقلي، وما كان الا خيراً يعذرني به أخي وصديقي. فقد أنعم الله تعالى علي بشراء دار بل قصر، في حي الانشاء من مصر، وكان من قضائه وقدره أن انتقل اليها بالعيال والمطبعة والمكتبة في الشهر الذى أقيمت فيه حفلة العيد الذهبي له، وان أجدد بجانبها بناء للمطبعة، ولا أزال حتى كتابة هذه السطور في العشر الاخير من ذي الحجة مشغولا بذلك، وقد اعتذرت للجنة الاحتفال ببرقية تليت عقب افتتاحها هذا نصها:

لجنة يوبيل الرافعي (بطرابلس المدينة)

أساهمكم بروحي وجناني، وقلبي ووجداني، ماحال القدر القاهر دون السعي له بجثماني، من الاحتفال بيوبيل شاعرنا الاسمى، وصديقي الأوفى، محيي أدب العرب، ووارث مجد العلم عن خير أب وجد

رشيد رضا

خبر الوفد المصري للعيد

هذا وإنى كنت قد اتفقت مع امير الشعراء احمد شوقى بك وشاعر القطرين خليل بك المطران ثم مع احمد شفيق باشا وكيل الرابطة الشرقية على تأليف وفد منا وممن يرغب السفر الى طرابلس معنا للاشتراك في هذا الاحتفال ، وجعله في نظامه الحلقة الثانية من حلقات مؤتمرات الادب العربي اذ كانت حفلة شوقي هي الاولى منها ، وانا الذي اقترحت بالاتفاق مع هؤلاء تأخير موعد الاحتفال من شهر كانون الثاني (يناير) الى شهر نيسان ، لان السفر فى عنفوان الشتاء مما يشق على كل انسان ، ثم عرض لي من العذر ماأشرت اليه من قبل وعرض مثله لاحمد شفيق باشا ، فقد انتهت اجارته للدار التى كان يسكنها وتجتمع فيها الرابطة الشرقية ، وتم بناء الدار التى أنشأها فى روضته من شبرا على ضفة النيل ، واحتاج الى الانتقال اليها فى شهر ابريل ، كما انه استأجر مكانا للرابطة الشرقية نقلت اليه فيه ، وعرض لخليل بك المطران عذر يتعلق بوظيفته الرسمية . وكنت كلمت أيضا نصيري العرب والادب احمد زكي باشا ومحمد الباسل باشا فاظهرا لي الرغبة القلبية فى السفر ، ولكن فاجأني خبر تحديد السابع من الشهر للحفلة فى اليوم الثالث منه فتعذر تأليف الوفد فى بقية الاسبوع ممن لم تمنعهم الاعذار القاهرة . وكان أحمد زكي باشا قد شرع فى الدعوة الى حفلته الشرقية الغربية التي اشتهر خبرها ، وبقي الى يوم الجمعة وهو اليوم الخامس منه يرجو أن يتمكن من السفر فلم يتح له ، وتأخر أحمد شوقي بك في نظم قصيدته فلم يدرك بها الاحتفال فنشرت في الجرائد —

فهذا عذر مصر وعذر عارفي فضل الرافعي وآل الرافعي من المصريين في تقصيرهم
ثم رأيت من الواجب علي أن أنوه بهذا العيد السعيد في المنار، وأبلغ خبره ما يبلغه من الاقطار، فأذكر فيه شيئا مما كنت أحب أن اقوله فيه، وأحسن ما أنشد الشعراء في مناقب صاحبه وذويه، ولولا انني تركت نظم الشعر منذ ثلث قرن بالتقريب فلم أنظم بعد أن هاجرت من طرابلس قصيدة ولا مقطوعة، فلا مطمع لي الآن في وصل ما قطعته بعد طول هذه القطيعة، لأديت هذا الواجب بقصيدة أودعها ما أستطيع بيانه من شعوري، وأحملها ما استطيع حمله من آيات سروري، وكنت وعدت بأن أقول هنالك كلمة في تاريخ الاسرة الرافعية ومكان بيت الشيخ عبد الغني منها، تعريفا لمن يجهل من وفود عيد هذا الكوكب الدري من كواكبها، بعض ما أعرفه دونهم من غرر مناقبها، والآن فات المقتضي لذلك التفصيل، والموانع الشواغل لا تأذن من الاجمال الا بالقليل

مكانة الرافعية وبيت شاعرنا منها

الاسرة الرافعية أشهر بيوتات العلم في ديار الشام ومصر. فهى اذا أشهرها في الامة العربية، والاقطار الاسلامية، وكان جل شهرتها في فقه الحنفية، وقد تولى كثير من رجالها مناصب القضاء والافتاء في الديار المصرية والممالك العثمانية، واشتهر بعض شيوخها بالارشاد والصلاح، ولكن بيت الشيخ عبد الغني قد اجتمع فيه من المناقب والفضائل مالم يتفق لاحد منهم، وقلما اتفق مثله لغيره من غيرهم

كان الشيخ عبد الغني آية في الذكاء والزكاء، والهمة والمضاء، طلب العلوم العربية والشرعية ففاق فيهما الاقران، وسلك طريق الصوفية ففات أهل

العرفان، وانما سلكها بالمجاهدة العملية، دون الرسوم والمظاهر الصورية، فكان من أولي الفرقان في درجات العرفان، بعد أن قطع المراحل، متنقلا في المنازل، حتى ذاق طعم الفناء وبلغ حال الجمع، ثم ارتقى الى مقام الفرق بحكم الشرع. كما أنه اشتغل من تلقاء نفسه بآداب اللغة كآداب النفس، وراض جواد يراعه في ميداني النثر والنظم، وقد سمعت منه أنه قرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي ثلاثين مرة. وقرأ احياء العلوم للغزالي مراراً كثيرة، ـ وناهيك ببلاغة عبارتهما، وحسن انشائهما، فكان كاتبا يستخرج الدرر من أعماق البحور، كما كان شاعرا ينظمها كالعقود في نحور الحور، ولا أدري أي دواوين الشعراء كان يحفظ، وانما أعهد أنه كان حسن الاختيار، لكل مايراجع ويطالع من الدواوين والاسفار.

وقد ولي منصب القضاء في ولاية صنعاء اليمن وأقام فيها عدة سنين عاشر في أثنائها علماء الزيدية وناظرهم، ورأى مالم يكن يعرف من المصنفات في خزائن عاصمتهم، فعاد الى طرابلس الشام بعلم جديد كانت تصبو اليه سلامة فطرته، وينبو عنه أو يحول دونه حال وطنه ودولته، ألا وهو الاستقلال الاجتهادي في العلم وفقه الحديث، وكان الذي هداه الى هذا كتاب نيل الاوطار للامام الشوكاني الصنعاني يظهر أنه جاء به من اليمن وهو مطبوع في مصر، وكان يقرؤه درسا في بهو داره فيحضره المنتهون من طلاب العلم من أنجاله وغيرهم، وقد حضرت بعض دروسه بالاتفاق، وكان ذلك قبل شروعي في طلب العلم، ولم أنس جرس صوته ولا اشارة يده عند نطقه بالكلمة التي يكررها الشوكاني في التعبير عن الترجيح بين الاقوال المتعارضة في المسائل، بعد المعادلة بين

الدلائل، أعني كلمة « وهو الحق » إذ كان الشيخ يرفع بها صوته ويخفض يده اقراراً لها واستحسانا .

نعم كان مستعداً بفطرته الذكية واخلاصه في طلب العلم للاستقلال في الفهم واتباع الدليل ، وزادته قراءة الاحياء فكتب الشيخ عبد القادر الجيلي استعدادا له ونفورا من التقليد ، ثم كمل له ذلك بقراءة نيل الاوطار في فقه الحديث، فكان في آخر عهده محدثا فقيه النفس، صوفيا مصفى من من آفات النفس ،ولم يكن في يوم من الايام صوفي تقاليد وحلقات أذكار، وسماع دفوف أو أوتار ، وإنما تصوفه علم وأخلاق

كان من أزهد الناس في الدنيا بقلبه ، واصدقهم توكلا على ربه، على كونه أطيبهم عيشا في مطعمه ومشربه ولباسه وزينة داره . وكان أشد الناس تواضعا للفقراء والمساكين ، على كبر جاهه ورفعة مقامه عند الحكام المتكبرين ، والكبراء المفنقين المتأنقين. فكان يضع يده في يد من يعاشرونه من الفقراء كالشيخ صديق الافغاني ويماشيه في السوق ، ويذاكره في آفات النفس والمعرفة وفلسفة الاخلاق ، مذاكرة الاقران للاقران، وقد سبق لي ذكر غير هذا من مناقبه وفضائله في المنار

وقد ورث كل نجل من أنجاله ، ماشاءالله أن يرث من شمائله وخلاله . واقتبس من أدركه منهم من معارفه وأدبه وحكمته. ماهو مستعد له بعقله وذوقه وغريزته . كما أشرت الى ذلك في رثائه :

فالمعارف والارشاد كاملهم من حالف العلم فيه الهدي والعملا
وفي البلاغة كم عبد الحميد سما وللتحدي بها آي البيان تلا

ولم أر مثلا لامتياز بيت عبد الغني في رافعية سورية إلا امتياز بيت

عبد اللطيف في رافعية مصر، فهو قد أنجب عالمين سياسيين حقوقيين كاتبين بليغين مؤلفين، خدما مصر في صحفها ومصنفاتها التاريخية السياسية اجل خدمة. وهما أمين بك صاحب جريدة الاخبار رحمه الله، وعبد الرحمن بك صاحب المصنفات المشهورة حفظه الله، وكل منهما حافظ على شرف اسرته، بقوة عقيدته، والمحافظة على عبادته، فتم بهما للاسرة الرافعية، خدمة أمتهما العربية، في وطنيهما مصر وسورية، من جميع الطرق الدينية والدنيوية

عبد الحميد الرافعي

امتاز عبد الحميد الرافعي بحب الفصاحة، وعشق البلاغة، على ذوق في البيان دقيق، وأسلوب في الشعر رشيق، وسليقة كانت تنبجس من عين غريزته، وتستمد من بحر والده، وكانت كتب الادب وفنونه، والشعر ودواوينه، لا ترتقي في عهد طلبه للعلم عن كتاب الجوهر المكنون الى شرحي التلخيص للسعد إلا قليلا، ولا تتجاوز خزانة ابن حجة ودواوين البهازهير وابن الفارض وأمثالهما الا نادرا. فهو أول من عني ثم بديواني المتنبي والبحتري، ومارس ديواني الشريف الرضي وتلميذه مهيار الديلمي. ولكن مجال الشعر في عصر نشأته كان ضيق الساحة، وحرية الكلام كانت في الدولة التركية قليلة المساحة. والباعث على إجادة المنظوم، كان في حكم المعدوم، ولم يكن أحد من كبراء الدنيا مغرما به، مغرى باستمالة اربابه، إلا الشيخ ابا الهدى الصيادي، ولم يكن يرضيه منه إلا ما مزج بالخرافات، وانتحال الكرامات، وقد ابتلي به أديبنا فحاول احتكاره لنفسه، وقصر أكثر شعره على مدح الرفاعي ومدحه، حتى كان يستحي من نشر ديوانه من بعده، ولو نشأ عبد الحميد في مصر، لفاق جميع شعراء العصر، في جميع مناحي الشعر،

فبذ البارودي في الفخر والحماسة ، وشوقي في السياسة والكياسة ، وحافظا في الاجتماعيات، وخليلا في المدنيات، ورافعي مصر في الخياليات . كيف وهو على ماذكرنا من معارضة الزمان والمكان والسلطان ، مصداق لقول الغزالي: ليس في الامكان ابدع مما كان .

كان والده يفضل الشيخ عبد القادر الجيلاني على جميع شيوخ الصوفية، وكان الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني من شيوخ والده في العلم. فأراد عبد الحميد أن يرضي روح والده بنظم قصيدة في مدح الجيلاني، فكانت قصيدته بما بعث عليها من روح الاخلاص، أعلى من كل مامدح به الرفاعي والصيادي بباعث القهر والاكراه، وكان من أبياتها التي لا أنكر معانيها قوله

أجل رجال الله في منتدى العلى ... مقاما وخذ مني على ذلك الفتوى
تزاحم وفد العارفين بنهجه ... سراعا ولم يبلغ له أحد شأوا
مآثره في جبهة الدهر غرة ... فلاذكرها يبلى ولاصحفها تطوى
تطيب بذكراها المسامع واللهى ... فدونك ماشئت الحلي أو الحلوى
سليل بني الزهرا ولله نسخة ... لقد قربلت بالأصل في اللفظ والفحوى

فلما بلغت هذه القصيدة أبا الهدى كاد كجهنم يتميز من الغيظ . وكتب الى الناظم أبياتاً يهدده فيها بطعنة من حربة الرفاعي المسمومة ، أراد بها سعيه الى عزله من عمله في الحكومة . وكان يومئذ مستنطق لواء طرابلس (أي قاضي التحقيق) فاضطر الى السفر الى الاستانة لاسترضائه ، وتقرب اليه بالقصيدة الدالية الشهيرة التي نظمها في وصف سفره ومدحه

قعد الحظ به حتى اقتعد ... غارب السعي ومن جد وجد
سامه الدهر خمولا فنبا ... ولقد يخمل في الغاب الاسد

فلما دخل عليه كان أول ما خاطبه به قبل رد السلام: أصرت تفني ياعبد الحميد؟ يشير إلى البيت الاول من هذه الابيات التي هاجت حسده، فأحرق كبده، وفرض عليه أن يكفر ذنب هذه القصيدة بنظم ديوان في مدح الرفاعى من جميع حروف الهجاء ففعل

صفة الاحتفال

كان الاحتفال بهذا العيد الادبي الوطني العربي في يوم من أجمل أيام الزمان، وهو السابع من شهر نيسان، إذ الشمس في برج الحمل، والدنيا تزدان من سندس الربيع بابهج الحلل، قد تفتحت أزهارها، وتفاوحت أنوارها، وتناوحت اطيارها، وصفت من كدورة الشتاء أنهارها، ورقش بساطها الاخضر، بالشقيق الاحمر، والعرار الاصفر، والبنفسج الازرق، والاقاح الابيض الخ وطرابلس الفيحاء، تعطر جواء الارجاء، باريج رياضها الغناء، وجنانها التى تضرب بها الامثال، وتشد اليها الرحال، وناهيك بها في زمن البرتقال، وقد أخرجت في هذه الايام أزهارها، وادخرت للضيوف بقية من ثمارها، فكانت أشجارها كالقبب، قد تدلت فيها قناديل الذهب، وعلاها من الزهر مايشبه اللهب، ممتدة بين البحر الابيض، وجبل لبنان الانضر، في سهوب لايحيط بها الطرف، ولا يدرك دقائق محاسنها الوصف

كانت الفيحاء في ذلك اليوم كسوق عكاظ: تزاحمت فيها وفود الادباء، وتبارت في عيد شاعرها فحول الشعراء، وقد جلس في صدر المحفل رئيس الاحتفال. صاحب السماحة الشيخ محمد الجسر وهو رئيس

مجلس نواب البلاد ، وبجانبه الاستاذ المحتفل به وهو رئيس الادباء ، فافتتح الجلسة بما يناسب المقام من الثناء على صاحب العيد بما هو أهله ، وجدارته باحتفاء الامة العربية به . ثم قال : إن فخامة رئيس الجمهورية الاستاذ دباس كان مزمعا ان يؤم الفيحاء ليرأس حفلة اليوبيل لولا موانع قاهرة ، وقد أناب عنه حضرة وزير المعارف والصحة والاسعاف الدكتور أبو الروس ، وذكر أنه أهدى إلى السيد عبد الحميد الرافعي وسام الاستحقاق اللبناني وشكر للحكومة ذلك . وحينئذ نهض وزير المعارف فقلده الوسام ، مع كلمة ثناء تليق بالمقام .

ثم تلا الرئيس برقيات التهاني والاعتذار، الواردة من مختلف البلاد والاقطار ، ثم أذن للادباء والشعراء، بانشاد مالديهم من القصائد الغراء ، فانشد أحد الادباء قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران ، فقصيدة أمير البيان الامير شكيب أرسلان ، وهما غنيان عن وصفهما، وعن بيان مزايا شعرهما

ثم أنشد الاستاذ أبو الاقبال اليعقوبي شاعر فلسطين وعميد وفدها قصيدة حافلة الري ، متينة الروي، قيل إنها تزيد على مائة بيت ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد ، وهو فيها بيت القصيد :

انما العرب في الوجود قصيد فيه عبد الحميد بيت القصيد

وتلاه وفد حماه فانشد قصيدة شاعرهم الاستاذ الشيخ طاهر النعساني ، فكان فيها خير موقظ يقظان ، فقصيدة الاديب بدر الدين حامد

وفي خلال ذلك عزف بعض المطربين بالبيانو بما يطرب كالبيان ، ويروح الانفس ويرهف الاذهان، ثم أنشدت قصائد أدباء طرابلس نفسها، وقد قدمت اللجنة ضيوف البلد على أبنائها .

فصل هزلي غير مضحك

ثم قد قام في أثر الجميع محمود أفندي عزمي الصحفي المصري أحد دعاة الالحاد والتفرنج ، وإباحة التهتك والتبرج ، الذي يروجه هو وأمثاله بعنوان التجديد ، خلابة للنساء والاحداث المفتونين بالتقليد ، وكل ما يدعون اليه قديم في جنسه ونوعه ، وإنما بعضه حديث في صنفه ووصفه ، قام فقال :

أيها السادة

- وسكت هنيهة متكلفا متعمداً - ثم قال : أعذروني إذا أرتج علي فلقد كنت أريد ان أقول : أيها السيدات والسادة - يعرّض بتقصير اللجنة ، أو بتقصير البلد فيما كان يجب عليها بزعمه من الجمع بين الرجال والنساء في هذه الحفلة ، ثم إنه لم يقف عند هذا الحد ، في التعريض بالغميزة في النقد ، بل صرح بما مؤداه أنه جاء ليقتحم أو ليفتح معقلا من معاقل المحافظة على القديم ، ليبني بأنقاضه مسرحا من مسارح التجديد ، فبدت على وجوه الحاضرين كآبة الامتعاض ، ومنعهم أدب الضيافة وكرامة المجلس من الرد عليه جهراً ، بما تهامس به بعضهم سراً ، ولو أنه أطال ، لشوه رونق الاحتفال

ولم يكتف بما فعل هنالك بل عاد الى مصر فنشر في جريدة الاهرام مقالات سخيفة تجاوز بها ما يليق بالبلاد ، الى النيل من بعض الافراد ، ولعل بعض الاسباب التي خرجت به عن صوابه ، إلى ما لا يعهد من آدابه ، أنه ذهب الى طرابلس لحضور يوبيل الرافعي موفداً من جريدة العلم الغراء ، وأخذ نفقة لسفره من إدارتها أربعين جنيها مصريا ليرسل إليها أخبار الاحتفال

بلسان البرق ، فتسبق غيرها من الجرائد الى نشرها، وتعطير جو مصر بنشرها . فرأته قد خدعها وذهب ليدعو الى رأيه السقيم ، وينعي على المعتصمين بعروة الدين مايسميه جموداً على القديم. ومن مناقب آل الرافعي المحتفل بأكبر أدبائهم ، أنهم أنصار الدين ، وحملة لواء الشرع الحكيم ، وهم في مصر من أعلام الحزب الوطني الذى تمد جريدة العلم من أعلامه المرفوعة للدين والوطنية معاً . لذلك عزلته إدارتها من قلم تحريرها، فلجأ الى جريدة الاهرام فنفث نفثته المسمومة على صفحاتها

(انتهى الفصل)

ثم ختم الاحتفال بانشاد الاديب سمير الرافعي نجل صاحب اليوبيل لقصيدة والده فى شكر المحتفلين فكانت مسك الختام

وقد ذكرت الصحف من مناقب عبد الحميد المحتفل به وشممه أن بعض الفضلاء ومحبي الادب تبرع له بسبعين ألف قرش سوري بمناسبة اليوبيل الذهبي ، فأبى أن يأخذها ، وعهد الى لجنة الاحتفال بأن تنفقها في خدمة الادب بالطريقة التي تستحسنها ، فأكبر الناس ذلك من اريحيته ، وابائه وعفته، فلا زال قدوة لامته ، في أدبه وبلاغته . وكرم نفسه وعلو همته .

وسننشر في الجزء التالى قصيدة أحمد شوقي بك أمير الشعراء فانها من آيات بيانه ، التي فاق بها على أقرانه . وقصيدة الشيخ اسماعيل الحافظ شيخ الفقهاء، وأستاذ الادباء ، وشاعر العلماء ، فانها غرة القصائد ، وأجمعها لسمو المناقب وعلو المقاصد، وقصيدة الاستاذ عبد الحميد ، صاحب العيد . وهي الرحيق المختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

مسألة قتل اليهود الانبياء بغير حق

وطريقة الازهريين في المناقشات والفهم

أخطأنا بتحكيمنا مدرسي التفسير بالازهر في هذه المسألة إذ فتحنا للازهريين وأمثالهم باب المناقشة الازهرية فيها فقد كتب الينا اثنان من طلاب قسم التخصص فيه رسالتين في ذلك إحداهما طويلة والثانية قصيرة . وعاد الاستاذ المنتقد الاول لعبارة تفسيرنا فأرسل الينا رسالة أخرى في الانتصار لنفسه

قرأت من هذه الرسالة بضعة اسطر ومن رسالة الطالب الازهرى مثلها الاول أو أكثر فرأيت انني أسفه نفسي اذا قرأت امثال هذه الرسائل كلها ، واكون جديرا بأن يحكم علي بالخرف أو الجنون اذا نشرتها ورددت عليها ، فقد كان مذهبي منذ انشأت المنار الى اليوم تخطئة الازهريين والتشنيع عليهم بجعل جل حظهم من طلب العلم المناقشات في عبارات الكتب وايراد الاعتراضات عليها والاجوبة عن هذه الاعتراضات، وقد قلت مرارا ولا أزال أقول عن علم وبصيرة ان هذه الطريقة العوج هي التي اضاعت العلم في الازهر ، ونقلت عن شيخنا الاستاذ الامام رحمه الله تعالى انه كان يقول : انهم يتعلمون كتبا لا علما . وقال في درس رسالة التوحيد في الازهر انه لا يسمح لاحد ان يشرحها ولا يكتب لها حاشية ومن فعل ذلك فلا سامحه الله ، دع ما يثيره الرد ، من ضغن وحقد ، ولاسيما الرد على المنتقد الاول الذي كبر عليه أن أقول انه لم يفهم عبارتي التي أراد اثبات كفري بسوء فهمه لها :

وقد لقيت أمس أخانا الاستاذ الفاضل الشيخ علي محفوظ من كبار المدرسين في قسم التخصص من الازهر وقد مضت عدة سنين لم القه فيها فتذكرنا ايام تلاقينا في دروس الاستاذ الامام رحمه الله وأطراني الاستاذ وهضم نفسه تواضعا عن رفعة . ثم اثنى على تفسير المنار وذكر من مزايا مؤلفه لصديق له حيث كنا من دار الكتب المصرية (١) أنه لم يحاب أحداً حتى استاذه فيه فتعقبه في مواضع (٢) أنه شديد الانكار على التقليد لا يترك سانحة من التأويل تساعده على إبطاله والنعي على أهله إلا اغتنمها (٣) أنه يذكر من معاني الالفاظ ونكت البلاغة فيها ما يساعد على فهم الآيات ويجعل كل همه بيان المعنى وما فيه من الهدى الذي هو المراد من كتاب الله بخلاف جماهير المفسرين الذين يشغلون القارىء لتفاسيرهم بالمباحث اللفظية الصارفة عن فهم القرآن و عن هدايته (٤) تحاميه ذكر الاسرائيليات والروايات التى لا تصح فيه (٥) بيانه لما فيه من المسائل والسنن الاجتماعية وقد انفرد بهذا دون جميع التفاسير . ذكر الاستاذ هذه المعانى كلها بعبارة مجملة مدمجة، والغرض من ذكرها الامر الثالث ولولاه لم نذكرها على قرب العهد بسماعها . فاذا نحن فتحنا باب الجدل والمراء في عبارة تفسيرنا لآية قتل الانبياء بغير حق نكون قد أضعنا مزية من أهم المزايا الاصلاحية التي يعرفها لنا أهل البصيرة والاستقلال ، بيد أنني أذكر في الموضوع بعض المسائل التي يتجلى بها الحق لطالبه مخلصاً فيه فأقول :

(١) ليفهم كلمة الحق معرّفة ومنكرة من شاء كما يشاء، وليفهم معنى التشبيه في قولنا «إن قتل الانبياء لا يكون إلا بغير حق كما يقول المفسرون»

كما يشاء - فنحن نصرح بأن مرادنا من العبارة في جملتها أن نكتة البلاغة في تقييد قتل الانبياء بكونه بغير حق هي تعظيم شأن الحق، وانها من قبيل قوله تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه) فانه تعظيم لشأن البرهان وكون المدار عليه في اثبات الدعاوي بصرف النظر عن موضوعها، وقوله تعالى (وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما) فانه تعظيم لشأن العلم كذلك، ومن المعلوم بالعقل والنقل ان دعاء غير الله تعالى لايكون عن برهان، وان الشرك به لايكون مبنيا على علم بل هو محض الجهل، فاذا كانت عبارتنا تؤدي ماأردنا ا كما نعتقد فالفضل لله تعالى وان كانت لا تؤديه فالجهل والتقصير منا ونستغفر الله تعالى

(٢) خطر ببالي عند كتابة هذا التنبيه أن أراجع تفسير الامام فخر الدين الرازى لآية آل عمران وآية البقرة فانه يوجد فيه من أمثال هذه الدقائق مالا يوجد في غيره أحيانا فراجعته فاذا هو يحيل في الثانية على الاولى لتقدمها فأكتب ماأورده فيها من سؤال وجواب في موضوعنا وهو السؤال الثاني قال رحمه الله تعالى

(السؤال الثاني) لم قال بغير الحق وقتل الانبياء لا يكون إلا على هذا الوجه؟ الجواب من وجهين[1] (الاول) أن الاتيان بالباطل قد يكون حقا لأن الآتي به اعتقده حقا لشبهة وقعت في قلبه، وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلا. ولا شك أن الثاني أقبح. فقوله (ويقتلون النبيين بغير الحق) أي أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقا في اعتقادهم

(١) قال من وجهين وجاء بثلاثة فلعل كلمة وجهين من غلط الطبع

وخيالهم بل كانوا عالمين بقبحه ومع ذلك فقد فعلوه (وثانيها) ان هذا التكرير لاجل التأكيد كقوله تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به) ومستحيل أن يكون لمدعي الاله الثاني برهان (وثالثها) أنه تعالى لو ذمهم على مجرد القتل لقالوا أليس أن الله يقتلهم؟ ولكنه تعالى قال القتل الصادر من الله قتل بحق ما ومن غير الله قتل بغير حق.

ذكر في آخر تفسير الآية ما رآه في نكتة تعريف الحق في موضع وتنكيره في آخر ما نصه:

(فان قيل) قال ههنا (ويقتلون النبيين بغير الحق) ذكر الحق بالالف واللام معرفة. وقال في آية آل عمران (ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق) نكرة، وكذلك في هذه السورة (ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ليسوا سواء) فما الفرق؟

(الجواب) الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل قال عليه السلام «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بأحدى معان ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنى بعد إحصان، وقتل نفس بغير حق» (١) فالحق المذكور بحرف التعريف إشارة إلى هذا. وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم

(١) هكذا أورد الحديث ولا أذكر هذا اللفظ لاحد من مخرجيه وهو قد ينقل الاحاديث بالمعنى إذ ليس من رجال الحفظ والرواية ومن أنكر ألفاظه «ثلاث معان» وهو في الصحيحين والترمذي من حديث ابن مسعود بلفظ «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة» ولمسلم نحوه عن عائشة ورواه أبو داود والنسائي والحاكم عنها بلفظ «لا يحل قتل مسلم إلا في احدى ثلاث خصال: زان محصن فيرجم ورجل يقتل مسلما متعمداً فيقتل ورجل يخرج من الاسلام فيحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الارض»

أي لم يكن هناك حق لا هذا الذي يعرفه المؤمنون ولا غيره البتة اهبحروفه

وما ذكره من تقسيم الحق الى ما كان حقا في شرعنا وما كان حقا في اعتقادهم وخيالهم فهو في معنى تقسيمنا اياه الى ماكان حقا في الواقع وما كان حقا في العرف وان لم يكن حقا في الواقع، وهو يرد زعم من يقول ان الحق لا ينقسم وماقلناه اوجه . ويبقى ان يقال ان الحق عند اليهود ماوافق شريعة التوراة لا ما وافق شريعتنا وهو ما نبينه في الفائدة الثالثة وهي

(٣) بينا في مقالنا الدقيق الذي نشرناه في المجلد التاسع من المنار في تحقيق معاني الحق والباطل والقوة ان الحق يدخل في معان منها المعنى الشرعي وهو يختلف باختلاف الشرائع ـ وان لم يعقل هذا من لا وقوف لهم على الشرائع ولا على العلوم والحقائق ـ وقدكان القتل عقابا في شريعة التوراة التي كان يدين بها اليهود الذين ذمهم القرآن بقتل الانبياء بغير حق على ذنوب لا يقتل فاعلها في شريعتنا . ففي الفصل ٢١ من سفر الخروج مانصه:

« ١٢ من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا ١٣ ولكن الذي لم يتعمد بل اوقع الله في يده فأنا اجعل له مكانا يهرب اليه ١٤ واذا بغى انسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحي تأخذه الموت (١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا ١٦ ومن سرق انسانا وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا ١٧ ومن شتم اباه وأمه يقتل قتلا » الى ان ذكر في عدد ٢٩ ان الثور « ان كان نطاحا واشهد على صاحبه فلم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه ايضا يقتل » الخ فما يقول في هذا من يزعمون ان القتل بحق لا يكون الا واحدا في كل زمن وكل امة وكل شريعة فيجعلونه كالحق في الايمان بالله وصفاته مثلا ؟

(٤) اننا قد صرحنا في تفسير (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق) في الآية ١١٢ من سورة آل عمران بمعنى ماقاله الرازي في آية البقرة وذكرناه آنفا من تحريهم الباطل وتعمدهم إياه مع مخالفتنا إياه في كون الحق المنفي فيها ماوافق شريعتنا واعتمادنا انه ماوافق شريعتهم لانهم مؤاخذون بها لا بماجاء بعدها. وهذا نص عبارتنا (ص ٢٩ ج ٤ من التفسير) «أى ذلك الذى ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم بسبب كفرهم وقتلهم الانبياء بغير حق تعطيهم اياه شريعتهم. وفي التنصيص على كون ذلك بغير حق مع العلم به تغليظ عليهم وتشنيع على تحريهم الباطل وكون ذلك عن عمد لا عن خطأ» اه وهو صريح في اعتقادنا في المسألة لا يحتمل المراء.

﴿ اعتذار عن قلة مباحث هذا الجزء ﴾

قد اضطررنا الى جمع أكثر مواد هذا الجزء من حرف ٢٤ لانها جمعت قبل اتمام تنظيم المطبعة في مكانها الجديد، واضطررنا الى كتابة فصل طويل في الاحتفال بالعيد الذهبي لصديقنا الرافعي ونشره كله في هذا الجزء لان لجنة الاحتفال ألحت علينا بطلبه لتنشره في كتابها الذي جمعته في شأن هذا الاحتفال وما قيل وكتب فيه، وجاءت فاتحة المجلد الثلاثين ضعفي المعتاد في أكثر فواتح المجلدات — فلهذا اختصرنا في التفسير ولم نفتح باب الفتاوى وأرجأنا مقالات ورسائل أخرى ومباحث العالم الاسلامي منها كلمة في الدستور المصري وكون البرلمان الذي عطل كان مخالفاً للاسلام ومصلحة المسلمين في شخصه الصوري لا المعنوي وهو ماأشرنا اليه في الفاتحة

تعزية في مصاب زميل كريم

توفي في فترة احتجاب المنار الزميل الكريم ابن الكريم الاستاذ راغب المدهون صاحب جريدة النذير البيروتية الغراء فكانت وفاته في عنفوان الشباب والقدرة على الجهاد خسارة على صحائف البلاد، لا يجهل كنهها، من عرف قلة الاكفاء من المنتحلين لها. فنعزي والده الجليل والامة بأسرها، ونحمد الله تعالى ان الجريدة لا تزال تصدر، فأطال الله عمرها

يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب

المنار

أنشئ ١٣١٥

فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى « ومناراً » كمنار الطريق

صفر سنة ١٣٤٨ هـ ١٦ (* برج السرطان سنة ١٣٠٨ هـ ش ٨ يوليه سنة ١٩٢٩

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

شبهة للشيعة في المسألة

ان بعض الشيعة يكبرون هذه المزية لعلي عليه السلام كعادتهم ويضيفون اليها مالا تصح به رواية ، ولا تؤيده دراية ، فيستدلون بها على تفضيله على ابى بكر رضي الله عنهما وكونه أحق بالخلافة منه ، ويزعمون أن النبي (ص) عزل أبا بكر من تبليغ سورة براءة لان جبريل امره بذلك وانه لا يبلغ عنه الا هو أو رجل منه ولا يخصون هذا النفي بتبليغ نبذ العهود وما يتعلق به بل يجعلونه عاما لأمر الدين كله مع استفاضة الاخبار الصحيحة بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافة كالجهاد في حمايته والدفاع عنه ، وكونه فريضة لا فضيلة فقط ، ومنها قوله (ص) في حجة الوداع على مسمع الالوف من الناس « الا فليبلغ الشاهد الغائب » وهو مكرر في الصحيحين وغيرهما ، وفي بعض الروايات عن ابن عباس : فوالذي نفسي بيده انها لوصيته الى أمته « فليبلغ الشاهد الغائب » الخ وحديث « بلغوا عني ولو آية » رواه البخاري في صحيحه والترمذي ،

*) جعل اول المحرم في الجزء الاول ٢٠ الجوزاء والصواب ١٧

ولولا ذلك لما انتشر الاسلام ذلك الانتشار السريع في العالم ، بل زعم بعضهم كما قيل أنه (ص) عزل أبا بكر من إمارة الحج وولاها علياً ، وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسئلة عملية عرفها الخاص والعام . والحق أن علياً كرم الله وجهه كان مكلفاً بتبليغ أمر خاص وكان في تلك الحجة تابعاً لأبي بكر في إمارته العامة في إقامة ركن الاسلام الاجتماعي العام حتى كان أبو بكر يعين له الوقت الذي يبلغ ذلك فيه فيقول: ياعلي قم فبلغ رسالة رسول الله (ص) كما تقدم التصريح به في الروايات الصحيحة كما أمر بعض الصحابة بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدم في حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما

ولقد كان تأمير النبي (ص) أبا بكر على المسلمين في إقامة الحج في أول حجة للمسلمين بعد خلوص السلطان لهم على مكة ومشاعر الحج كلها كتقديمه للصلاة بالناس قبيل وفاته (ص) كلاهما تقديم له على جميع زعماء الصحابة في إقامة أركان الاسلام التي كان يقوم بها (ص) وعدها جمهور الصحابة ترشيحاً له لتولي الامامة العامة بعده ، فالواقعة دليل على خلافة أبي بكر لا على خلافة علي رضي الله عنهما وقد علم الله أن كلا منهما سيكون إماما في وقته. قال الآلوسي بعد ذكر شيء في هذا المعنى :

وقد ذكر بعض أهل السنة نكتة في نصب أبي بكر أميراً للناس في حجهم ونصب الامير كرم الله تعالى وجهه مبلغا نقض العهد في ذلك المحفل وهي أن الصديق رضي الله تعالى عنه كان مظهراً لصفة الرحمة والجمال كما يرشد اليه ما تقدم في حديث الاسراء وما جاء من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر» أحال اليه عليه الصلاة والسلام أمر المسلمين الذين هم مورد الرحمة ، ولما كان علي كرم الله تعالى وجهه الذي هو أسد الله مظهر جلاله فوض اليه نقض عهد الكافرين الذى هو من آثار الجلال وصفات القهر، فكانا كعينين فوارتين يفور من احداهما صفة الجمال، ومن الاخرى صفة الجلال، في ذلك المجمع العظيم الذى كان انموذجا للحشر ومورداً للمسلم والكافر انتهى. ولا يخفى حسنه لو لم يكن في البين تعليل النبي صلى الله عليه وسلم اه واذا كان تعليله (ص) لتبليغ علي نبذ العهود عنه بكونه من أهل بيته ينافي أن تكون النكتة المذكورة علة ، فهو لا يأبى أن تكون حكمة ،

ورأيت في مصنف جديد لبعض الشيعة المعاصرين ضربا آخر من المبالغة والتكبير لهذه المسألة كما فعل بغيرها من مناقبه كرم الله وجهه من حيث يصغر مناقب الشيخين ان لم يجد شبهة أو وسيلة لانكارها ، حتى انه جعل تنويه كتاب الله عز وجل بصحبة الصديق الأكبر للرسول الاعظم في هجرته ، وإثبات معيته عز وجل

لهما معاً في الغار مما لا قيمة له ولا يعد مزية للصديق (رض) ولولا أنهم قد نشطوا في هذه الايام لدعاية الرفض والبدع والصد عن السنة واعلامها لما جعلنا شبهة التبليغ تستحق أن تذكر ويبين وهنها

ذلك بانه اقتصر من روايات المسألة على ما نقله عن ابن جرير الطبري عن السدي من قوله: لما نزلت هذه الآيات إلى رأس الاربعين — يعني من سورة براءة — بعث بهن رسول الله (ص) مع أبي بكر وأمره على الحج فلما سار فبلغ الشجرة من ذي الحليفة أتبعه بعلي فأخذها منه. فرجع أبو بكر إلى النبي (ص) فقال يارسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء؟ قال «لا، ولكن لا يبلغ عني غيري أو رجل مني» ثم استنبط من هذه الرواية انها تدل على أن نفس علي من الرسول (ص) منزلة نفسه وأنه خير أصحابه وأفضلهم عند الله وأكرمهم عليه فان من كان بهذه الصفة هو الذي يمثل شخص النبي ويقوم مقامه ويكون بمنزلة نفسه الشريفة. ثم قال: ودل هذا القول منه (ص) على أن كون علي من رسول الله (ص) ونفسه نفسه أمر محقق ثابت لاريب فيه عند أبي بكر ولهذا لم يحتج (ص) لذكره، وذلك ظاهر عند العارف بطريق الاستدلال، وترتيب الاشكال، وقد عمد بعض النواصب الى الحط من هذه الكرامة فزعم أنه (ص) إنما أراد بانه نفسه ومنه هو القرب في النسب دون الفضيلة مدعياً أن من عادة العرب إذا أراد أحدهم أن ينبذ عهداً نبذه بنفسه أو أرسل به أقرب الناس اليه—الخ ما غالط به وبنى على زعمه هذا أن العباس أقرب إلى النبي (ص) من علي نسباً فلماذا لم يرسله بهذا التبليغ؟ مع علمه بأنه لم يقل أحد من اهل السنة بانه لابد من الاقرب بل قالوا ان التبليغ في مثله لعاقد العهد أو لاحد عصبته الاقربين، ولا بأن الرواية بمعنى ما زعمه

وأقول في قلب شبهته هذه حجة عليه (أولا) ان هذا الشيعي المتعصب اختار رواية السدي من روايات في المسألة لانها تحتمل من تأويله وغلوه مالا يحتمله غيرها

(ثانياً) إن السدي قال هذا القول من عند نفسه ولم يذكر له سنداً الى أحد من الصحابة

(ثالثاً) ان ماذكرناه من الروايات الصحيحة عن علي وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة يخالف قول السدي هذا من بعض الوجوه وهي أولى بالتقديم والترجيح

(رابعاً) ان هذا الشيعي الذي يدعي التحقيق لم يذكر قول السدي كله بل أسقط منه قول النبي (ص) المروي عن غير السدي أيضاً «أما ترضي يا أبا بكر ان كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض؟» قال بلى يارسول الله. فسار

أبو بكر على الحاج وعلي يؤذن ببراءة فقام يوم الأضحى فقال: لا يقربن المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله (ص) عهد فله عهده إلى مدته. وان هذه أيام أكل وشرب، وان الله لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما. فقالوا: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب. فرجع المشركون فلام بعضهم بعضاً وقالوا ماتصنعون وقد أسلمت قريش؟ فأسلموا اهـ نص رواية السدي هذه في تفسير ابن جرير (ص ٢٧ ج ١٠ من الطبعة الأميرية)

فاذا كان هذا الشيعي يعتمد هذه الرواية كما هو الظاهر من اختياره لها على غيرها فهي حجة عليه فيما تقدم بيانه، ومنه كون الآية الاربعين من سورة براءة هي قوله تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

ولا يظهر لامره (ص) بتبليغها للناس فيما يبلغه من نبذ عهود المشركين وهي ليست من موضوعها إلا بيان فضل أبي بكر ومكانه الخاص من الرسول (ص) وحكمة جعله نائباً عنه (ص) في اقامة ركن الاسلام الاجتماعي العام وجعل علي نفسه على قربه وعلو مكانته تحت امارته حتى في تبليغه هذه الرسالة الخاصة عنه (ص) فقد تقدم في الروايات الصحيحة أن أبا بكر كان يأمره بذلك، ولهذا أسقط الرافضي بقية الرواية على كونه ينكر على الصديق الأكبر مزية اختيار الرسول (ص) اياه بامر الله على مرافقته له وحده في أهم حادثة من تاريخ حياته، وهي الهجرة الشريفة التي كانت مبدأ ظهور الاسلام، وانتشار نوره في جميع العالم. ولو كانت هذه الصحبة أمراً عاديا أو صغيرة لما ذكرت في القرآن المجيد مقرونة بتسمية الصديق صاحباً لسيد البشر واثبات معية الله تعالى لهما معاً، وفرق بين وصف الله تعالى لشخص معين بهذه الصحبة وبين تعبيره (ص) عن اتباعه بالاصحاب تواضعاً منه (ص)

ثم ان قوله (ص) للصديق «وصاحبي على الحوض» يدل على ما سيكون له معه من الخصوصية والامتياز على جميع المؤمنين في يوم القيامة ولو كان شأنه فيه كشأن غيره ممن يرد الحوض لما كان لهذا التخصيص في هذا المقام مزية، وكلام رسول الله ﷺ غيره ينزه عن العبث

(خامساً) ان قوله (ص) «أو رجل مني» في رواية السدي قد فسرتها الروايات الاخرى عند الطبري وغيره بقوله (ص) «أو رجل من أهل بيتي» وهذا النص

الصريح يبطل تأويل كلمة «مني» بأن معناها أن نفس علي كنفس رسول الله (ص) وأنه مثله وأنه أفضل من كل أصحابه

(سادساً) ان ما عزاه إلى بعض النواصب هو المعروف عن جميع العلماء من أهل السنة الذين تكلموا في المسألة ولكن لم يقل أحد منهم بأن علياً كرم الله وجهه لا مزية له في هذا الامر ولا أن سبب نوطه به القرابة دون الفضيلة وأنه تبليغ لا فخر فيه ولا فضل، بل هذا كله مما اعتاد الروافض افتراءه على أهل السنة عند نبزهم بلقب النواصب، فان كان يوجد في النواصب من ينكر مزية علي في هذه المسألة ففي الروافض من ينكر ما هو أظهر منها من مزية أبي بكر في نيابته عن الرسول (ص) في امارة الحج وإقامة ركنه وتعليم الناس المناسك وتبليغ الدين للمشركين ومنعهم من الحج بعد ذلك العام تمهيداً لحجة الوداع، إذ كان يكره (ص) أن يحج معهم ويراهم في بيت الله عراة نساؤهم ورجالهم يشركون بالله في بيته، وما يتضمن هذه الامارة مما تقدم بيانه. واهل السنة وسط يعترفون بمزية كل منهما رضي الله عنهما وعن سائر آل رسول الله (ص) وأصحابه، وعن المتبعين لهم في اتباع الحق والاعتراف به لأهله، ومحبة كل منهما بغير غلو ولا تقصير، وقاتل الله الروافض والنواصب الذين يطرون بعضاً وينكرون فضل الآخر ويعدون محبته منافية لمحبته

---

(٥) فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦) وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ

هذا شروع في بيان ما يترتب على الاذان بنبذ عهود المشركين على الوجه الذي سبق تفصيله في الموقت منها وغير الموقت، وهو مفصل لكل حال يكونون عليها بعد هذا الاذان العام من ايمان وكفر، ووفاء وغدر، ينتهي بالآية الخامسة عشرة. وانسلاخ الاشهر انقضاؤها والخروج منها وهو مجاز مستعار من انسلاخ الحية وهو

خروجها من جلدها ويسمى بعد خروجها منه المسلاخ، يقولون سلخ فلان الشهر وانسلخ منه (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) وقال الشاعر

إذا ما سلخت الشهر أهلكت مثله كفى قاتلا سلخي الشهور وإهلالي

والحرم بضمتين جمع الحرام (كسحاب وسحب) وهي الاشهر التي حرم الله فيها قتالهم في الاذان والتبليغ الذي بينت الآية ما يترتب عليه من الاحكام بقوله (فسيحوا في الارض أربعة أشهر) أي آمنين لا يعرض لكم أحد بقتال فيها فالتعريف فيها للعهد، ولولا هذا السياق لوجب تفسير الاشهر الحرم بالاربعة التى كانوا يحرمون فيها القتال من قبل إذا لم يستحلوا شيئاً منها بالنسيء، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب كما سيأتي بيانه في تفسير الآيتين ٣٦و٣٧ على أن بعض المفسرين قال انها هي المرادة هنا وتقدم أن بعضهم قال ان الاربعة الاشهر التى ضربت لهم لحرية السياحة في الارض هي من شوال إلى المحرم. والتحقيق ما قلناه هنا وهناك وقد رواه ابن جرير عن السدى ومجاهد وعمرو بن شعيب وابن زيد وابن اسحاق ولكنه اعتمد قبله أن المراد بها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم

قال تعالى ﴿ فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أي فاذا انقضت الاشهر الاربعة التي حرم عليكم قتال المشركين فيها فاقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه من حل وحرم لأن الحالة بينكم وبينهم عادت حالة حرب كما كانت وانما كان تأمينهم مدة أربعة أشهر منحة منكم، ومن قال ان الآية مخصوصة بما عدا أرض الحرم فهو غالط

﴿ وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ أي وافعلوا بهم كل ما ترونه موافقاً للمصلحة من تدابير القتال وشؤون الحرب المعهودة، وأهمها وأشهرها هذه الثلاثة وأولها أخذهم أسارى فكانوا يعبرون عن الاسر بالأخذ ويسمون الأسير (أخيذا) والأخذ أعم من الاسر فان معنى الثاني الشد بالاسار كما تقدم في سورة الانفال، فالاسير في أصل اللغة هو الأخيذ الذي يشد. وقد ابيح هنا الاسر الذي حظر بقوله تعالى في سورة الانفال (ما كان لنبي أن يكون له اسرى حتى يثخن في الارض) لحصول شرطه وهو الأثخان الذي هو عبارة عن الغلب والقوة والسيادة، فمن يسمي مثل هذا نسخا فله ان يقول به هنا

والثاني الحصر وهو حبس العدو حيث يعتصمون من معقل وحصن بأن يحاط بهم ويمنعوا من الخروج والانفلات إذا كان في مهاجمتهم فيه خسارة كبيرة

إلى أن يسلموا وينزلوا على حكمكم بشرط ترضونه أو بغير شرط

والثالث قعود المراصد أي الرصد العام وهو مراقبة العدو بالقعود لهم في كل مكان يمكن الاشراف عليهم ورؤية تجوالهم وتقلبهم في البلاد منه . فالمرصد اسم مكان وخصه بعضهم بطرق مكة والفجاج التى تنتهي اليها لئلا يعودوا اليها لاخراج المسلمين منها، أو للشرك في البيت والطواف فيه عراة . والصواب أنه عام وهذان أهم أفراده . ولعل القائل بهذا التخصيص لم يذكر المدينة وهي العاصمة لأنه لا خوف عليها يومئذ من المشركين بعد أن عجزوا عنها في عهد قوتهم وكثرتهم .

وهذه الآية هي التى يسمونها آية السيف واعتمد بعضهم أن آية السيف هي قوله الآتي (٣٨ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال بعضهم إنها تطلق على كل منهما أو على كلتيهما. ويكثر في كلام الذين كثروا الآيات المنسوخة أن آية كذا وآية كذا من آيات العفو والصفح والاعراض عن المشركين والجاهلين والمسالمة وحسن المعاملة منسوخة بآية السيف. والصواب أن ماذكروه من هذا القبيل ليس من النسخ الاصولي في شيء ، قال السيوطي في أقسام النسخ من الاتقان مانصه :

(الثالث) ما أمر به لسبب ثم يزول السبب كالامر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح ثم نسخ بايجاب القتال وهذا في الحقيقة ليس نسخاً بل هو من قسم المنسأ كما قال تعالى (أو ننسأها) فالمنسأ هو الامر بالقتال الى أن يقوى المسلمون وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الاذى ، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف وليس كذلك بل هي من المنسأ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم بل ينتقل بانتقال تلك العلة الى حكم آخر وليس بنسخ إنما النسخ الازالة للحكم حتى لايجوز امتثاله ، وقال مكي ذكر جماعة أن ماورد من الخطاب مشعراً بالتوقيف والغاية مثل قوله في البقرة (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بامره) محكم غير منسوخ لانه مؤجل باجل والمؤجل بأجل لانسخ فيه اه

وقال بعضهم وعزاه الالوسي إلى الجمهور: ان الآية تدل بعمومها على جواز قتال الترك والحبشة كأنه قيل فاقتلوا الكفار مطلقاً. يعنون أنها ناسخة أو مخصصة لحديث « اتركوا الترك ما تركوكم فان أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود كما في الجامع الصغير . وفي فتح الباري أنه رواه من حديث معاوية، قال الحافظ وكان هذا الحديث مشهوراً بين الصحابة.

وقتال المسلمين للترك ثابت فى الصحيحين . وروى أبو داود من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً « اتركوا الحبشة ما تركوكم فانه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة » وقال العلماء ان هذا يكون قبيل قيام الساعة اذ يبطل امن الحرم . وروى أبو داود والنسائي عن رجل كان من أصحاب النبي (ص) عن النبي (ص) قال « دعوا الحبشة ماودعوكم واتركوا الترك ما تركوكم »

قال الخطابي ان الجمع بين قوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وبين هذا الحديث أن الآية مطلقة والحديث مقيدفيحمل المطلق على المقيد ويجعل الحديث مخصصاً لعموم الآية كما خص ذلك في حق المجوس فانهم كفرة ومع ذلك أخذ منهم الجزية لقوله (ص) « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » قال الطيبي ويحتمل أن تكون الآية ناسخة للحديث لضعف الاسلام

وأقول قد غفل هؤلاء الذين حاولوا الجمع بين الحديث والآية عن كون الآية في مشركي العرب الذين لا عهد لهم والذين نبذت عهودهم وضرب لهم موعد الاربعة الاشهر، والحبشة نصارى من أهل الكتاب وفيهم نزل قوله تعالى (و لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) الآيات ومن المجمع عليه التفرقة بين المشركين وأهل الكتاب، والترك كانوا وثنيين عند نزول هذه الآيات كمشركي العرب ولكنهم لا يدخلون في عموم الآية ، ثم ان الامر بترك قتال الترك والحبشة جاء تحذيراً من بدئهم بالقتال لما علم النبي (ص) أن خطراً على العرب وبلادهم سيقع منهم ، والامر بقتال مشركي العرب في هذه الآيات مبني على كونهم هم الذين بدؤا المسلمين ونكثوا عهودهم كما سيأتي قريباً في قوله (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة) وعلى كون قتالهم كافة جزاء بالمثل كما قال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فكيف يدخل وثنيو الترك ونصارى الحبشة في عموم هؤلاء المشركين الموصوفين بما ذكر حتى يحتاج الى الجمع بين الآية والأحاديث المذكورة ؟ ولا تأتي هنا قاعدة كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو ظاهر لان المراد بها أن اللفظ العام يتناول كل ما وضع له سواء وجد ما كان سببا لوروده أو لم يوجد ، ولفظ المشركين في هذه الآيات لم يوضع لاهل الكتاب المعروفين بالقطع ولا لامثالهم كالمجوس مثلا وقد بينا تحقيق هذه المسألة في مواضع أبسطها تفسير (٢: ٢٢١ ولا تنكحوا المشركات) الآية (ص ٣٥١ ج ٢) ثم تفسير (٥: ٥ وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم) الآية (ص ١٧٧ـ١٩٦ ج ٦) ويليه مباحث في

موضوع الاية . ولولا أن هؤلاء المفسرين وشراح الاحاديث ينظرون في كتاب الله وحديث رسوله من وراء حجب المذاهب الفقهية لما وقعوا في أمثال هذه الاغلاط الواضحة ، ولكننا في غنى عن الاطالة في التفسير لبيانها

(فان تابوا) أي فان تابوا عن الشرك وهو الذي يحملهم على عداوتكم وقتالكم ، بان دخلوا في الاسلام - وعنوانه العام النطق بالشهادتين . وكان يكتفي منهم باحداهما - ، (وأقاموا الصلاة) المفروضة معكم كما تقيمونها في أوقاتها الخمسة ، وهي مظهر الايمان ، وأكبر أركانه المطلوبة في كل يوم من الأيام ، ويتساوى في طلبها وجماعتها الغني والفقير ، والمأمور والامير ، — وهي حق العبودية لله تعالى على عباده ، وأفضل مزك لأنفسهم يؤهلهم للقائه ، وأفعل مهذب لأخلاقهم يعدها للقيام بحقوق عباده ، (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر) (وآتوا الزكاة) المفروضة في أموال الاغنياء للفقراء والمصالح العامة ، وهي الركن المالي الاجتماعي من أركان الاسلام ، التي يقوم بها نظامه العام (فخلوا سبيلهم) فاتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم اذا كانوا مقاتلين ، وعن حصرهم ان كانوا محصورين ، وعن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره حيث يكونون مراقَبين (ان الله غفور رحيم) يغفر لهم ما سبق من الشرك وأعماله ، ويرحمهم فيمن يرحم من عباده المؤمنين ، لان الاسلام يجب ماقبله

والآية تفيد دلالة اقامة الصلاة وايتاء الزكاة على الاسلام وتوجب لمن يؤديهما حقوق المسلمين من حفظ دمه وماله الا بما يوجبه عليه شرعه من جناية تقتضي حداً معلوما ، أو جريمة توجب تعزيراً أو تغريماً ،

واستدل بها بعض أئمة الفقه على كفر من يترك الصلاة ويمتنع عن أداء الزكاة . وذلك أنها اشترطت في صحة اسلام المشركين وعصمة دمائهم مجموع الثلاثة الاشياء : ترك الشرك واقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، فاذا فقد شرط منها لم يتحقق الاسلام الذي يعصم دم المشرك المقاتل . ومفهوم الشرط من ضروريات اللغة ، ومراء بعض الجدليين من الاصوليين فيه مردود لاقيمة له ، وقال بعضهم بل يكفر تارك الصلاة دون مانع الزكاة لامكان أخذها منه بالقهر ، ووجوب قتال مانعيها كما فعل ابو بكر

وقد عززوا هذا الاستدلال بالاحاديث الصحيحة فى معناها كحديث عبدالله ابن عمر مرفوعا « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ، وان

محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله » رواه الشيخان ، وحديث أنس عند البخاري وأصحاب السنن الثلاثة « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » ولم تذكر فيه الزكاة ولكن اشترط فيه أن يذبحوا ذبيحتنا والمراد لازمها وهو ترك ذبائح الشرك يعني ان ذبحوا وجب أن يذبحوا باسم الله دون اسم غيره من معبوداتهم التي كانوا يهلون باسمائها عند الذبح

وقد ورد معنى هذا الحديث في الصحاح والسنن بالفاظ مختلفة منها الاقتصار على الشهادتين كحديث أبي هريرة المتفق عليه بل صرحوا بتواتره كما في الجامع الصغير وهو « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » وفي بعضها الاقتصار على كلمة « لا إله إلا الله » ومن ثم اختلف الفقهاء في المسألة فقال بعضهم ان ترك الصلاة ومنع الزكاة من المعاصي لا يخرج تارك إحداهما ولا كلتيهما من الاسلام ، كما يقتضيه هذا الحديث وهو أصح من حديثي ابن عمر وأنس وقال الآخرون ان فيهما زيادة على ما في حديث أبي هريرة وزيادة الثقة مقبولة، والمطلق يحمل على المقيد

والتحقيق أن المراد من الآية والاحاديث المختلفة الالفاظ في معناها واحد وهو ترك الكفر والدخول في الاسلام، وللدخول في الاسلام صيغة وعنوان يكتفى به في أول الامر ولاسيما مواقف القتال وهو النطق بالشهادتين . وقد يكتفى من المشرك بكلمة «لا إله إلا الله » لانهم كانوا ينكرونها وهي أول مادعوا اليه ، بل أنكر النبي (ص) على خالد بن الوليد قتل من قتل من بني جذيمة بعد قولهم «صبأنا» وقال «اللهم إني أبرأ اليك مما فعل خالد » وذلك أنهم كانوا يعبرون بهذه الكلمة عن الاسلام فيقولون صبأ فلان إذا أسلم ، والحديث في مواضع من صحيح البخاري وغيره

وقد كان النبي (ص) يقول في كل مقام ما يناسبه والمراد واحد يعلم من جملة أقواله علماً قطعياً وهو ما ذكرنا من ترك الكفر والدخول في الاسلام الذي لا يتحقق بعد النطق بعنوانه من الشهادتين أو احداهما في بعض المواضع إلا باقامة أركانه والتزام أحكامه بقدر الاستطاعة بحيث إذا ترك شيئاً منها بجهالة من سورة غضب أو ثورة شهوة أو كسل تاب إلى الله تعالى واستغفره

ومن المعلوم أن اليهود من أهل الكتاب كانوا يقولون «لا إله إلا الله» فالنطق بها وحدها من أحدهم لا يدل على قبول الاسلام كما يدل قول أحد مشركي العرب لها ووجدت طائفة منهم كانت تقول ان محمداً رسول الله الى العرب وحدهم، وقد اتفق علماؤنا بحق على أن من قال منهم «لا اله الا الله محمد رسول الله» لا يعتد باسلامه الا اذا اعترف بعموم رسالته (ص) لقوله تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً) وما في معناه

فالاسلام هو الاذعان العملي لما جاء به محمد (ص) من أمر الدين فعلا كان أو تركا ولا يكون الاذعان بالعمل اسلاماً صحيحاً مقبولا عند الله تعالى الا اذا كان اذعانا نفسيا وجدانيا يبعثه الايمان بصحة رسالته. فان المنافقين كانوا يقولون للنبي (ص): نشهد انك لرسول الله، ويصلون ويزكون ويجاهدون (والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) ومتى كان الايمان يقينيا، كان الاذعان نفسيا وجدانيا، وتبعه العمل بالضرورة في جملة التكاليف وعامة الاوقات، ولا ينافيه ترك واجب في بعض الاوقات لصارف عارض، أو فعل محظور لعارض غالب، بحيث اذا زال السبب ندم المخالف ولام نفسه واستغفر الله كما تقدم آنفا، وذلك قوله تعالى (٤: ١٦ انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) الخ، فمن ترك صلاة أو أكثر لبعض الشواغل وهو يستشعر أنه مذنب ويرجو مغفرة الله تعالى وينوي القضاء بتقصيره لا يكون تركه هذا منافيا لاذعانه النفسي لاصل الامر والنهي الذي يقتضيه الايمان اليقيني، وان كان هذا الرجاء مع عدم العذر يعد من الغرور، كما سنبينه قريبا. وأما عدم المبالاة بالصلاة وغيرها من فرائض الاسلام وأوامره وعدم الانتهاء عن الفواحش والمنكرات من نواهيه - فانه ينافي الاذعان الذي هو حقيقة الاسلام، ولا يعقل ايمان صحيح بغير اسلام، ولا اسلام صحيح ظاهره كباطنه بدون إيمان، فهما متلازمان في حال الامكان. فمن نطق بالشهادتين من الكفار وأبى أن يلتزم فرائض الاسلام وترك محرماته القطعية مصرحا بذلك لا يعتد باسلامه ومن لم يصرح ولم يفعل فهو مخادع قطعاً، وقد يظهر القيام ببعضها نفاقا، كما ثبت عن كثير من الافرنج السياسيين، لدخول الحجاز واختبار المسلمين.

وجملة القول أن المراد من اشتراط الثلاثة الاشياء للكف عن قتال المشركين بعد بلوغ الدعوة، وظهور الحجة، هي تحقق الدخول في جماعة المسلمين بالفعل، فان التوبة عن الشرك وحدها وهي الشرط الاول لا تكفي لتأمينهم واباحة دخول المسجد

الحرام والحج مع المسلمين وسائر المعاملات التي تثبت لمن يقيم في الحجاز وسائر جزيرة العرب ، وإن كان التعبير عن هذه التوبة بالنطق بكلمة التوحيد أو الشهادتين كليهما كافياً في موقف القتال للكف عنه كما تقدم آنفا ولكنه لا يكفي بعد ذلك لمعاملة من ينطق بهما معاملة المسلمين في عامة الاوقات ، بل لا بد من التزام شرائع الاسلام وإقامة شعائره ، فمقتضى الشهادة الاولى لمن كان صادقا في النطق بها ترك عبادة غير الله تعالى من دعاء أو ذبيحة أو غيرهما ، ومقتضى الشهادة الثانية طاعة الرسول فيما يبلغه عن الله تعالى ، فاذا لم يكن العمل الذي تقتضيه الشهادتان مؤيداً لهما كانتا خداعا وغشا ، ولما كانت شرائع الاسلام القطعية من فعل وترك كثيرة وكان الكثير منها لا يتعلق به التكليف في حال الدخول في الاسلام كالصيام والحج من الاركان اكتفي باشتراط الركنين الاعظمين وهما الصلاة التي تجب خمس مرات في كل يوم وليلة وهي الرابطة الدينية الروحية الاجتماعية بين المسلمين ، والزكاة وهي الرابطة المالية السياسية الاجتماعية . ومن أقامهما كان أجدر باقامة غيرهما

ومن المعلوم بالضرورة أن من قبل من المشركين أن يسلم ويصلي ويؤدي الزكاة وامتنع من الاذعان لصيام رمضان والحج مع الاستطاعة لا يعتد باسلامه أيضا ، وكذلك إذا كان لا يحرم ما حرم الله ورسوله قطعا ، فالنبي (ص) لم يقبل من الاعرابي ما شرطه في اسلامه من إباحة الزنا ، ولكن بين استباحة الذنب وعدم الاذعان لحكم الله فيه وبين فعله مع الاذعان والايمان فرقا واضحا وبونا بينا ، ولكن ذهب بعض أئمة العلم إلى أن للصلاة والزكاة شأنا ليس لغيرهما من أركان الاسلام وشرائعه حتى المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة ، ومنه أن تركهما يعد كفراً بمعنى الخروج من الملة بعد الدخول في الاسلام أو النشوء فيه حتى مع الاعتراف بحقيته وكونهما من أركانه ويقول بعضهم بان تاركهما يقتل حداً لا كفرا ، وقال بعضهم بذلك في الصلاة وحدها ، وان صيام رمضان وحج البيت على المستطيع لا يكفر تاركهما إلا إذا استحل هذا الترك او جحد وجوبهما بعد العلم الذي تقوم به الحجة ، أي لأن الاستحلال عبارة عن رفض الاذعان النفسي والفعلي وهو كنه الاسلام ، والجحود عبارة عن عدم الاعتقاد أو الاستكبار عنه وهو كنه الايمان .

والآية وحديث ابن عمر في معناها لا يدلان على أن المسلم اذا ترك بعض الصلوات لكسل أو شاغل لا يعد عذراً شرعياً يكون بذلك مرتداً عن الاسلام تجري عليه أحكام المرتدين اذا لم يتب عقب أول فريضة تركها أو الثانية ان كانت تجمع معها ، بأن يجدد اسلامه

ويصليها، ولا يدلان كذلك على وجوب قتله حداً كقتل من قتل مؤمناً متعمداً، لا يدلان على ذلك بمنطوقهما ولا بمفهوم الشرط على القول الحق بحجيته ، فان موضوع كل منهما بيان ما يشترط للكف عن قتال المشركين المحاربين لا بيان لجملة الاسلام وما ينافيه ويعد ارتداداً عنه بعد الدخول فيه .

فان قيل ظاهر لفظ الحديث أنه مطلق عام في قتال كل الكفار لا في المشركين كالآية (قلت) - أولا - إن الله تعالى جعل لقتال أهل الكتاب في هذه السورة غاية اخرى غير هذه الغاية العامة وهي إعطاء الجزية وهي ليست ناسخة ولا مخصصة للآية والحديث لاختلاف موردهما ، وهذا يعارض عموم الحديث فيترجح حمله على قتال المشركين ليكون معناه صحيحاً محكماً ، وكان من فقه البخاري في أبواب صحيحه ايراده تابعاً للآية في باب واحد من كتاب الايمان - ثانياً - إنه على كل حال وارد في بيان الغاية التي ينتهي اليها قتال من يقاتلنا من الكفار فلا يدخل في معناه بيان ما يصير به المؤمن كافراً - ثالثاً - إن قتال الكافرين غير قتل من عساه يستحق القتل من المسلمين ، كما بينه في المسألة بعض العلماء المدققين ، فالقتال فعل مشترك بين فريقين، والقتل الشرعي تنفيذ حكم على مجرم ثبت عليه - رابعاً - من أراد جعل هذا الحديث دالا على غير ماتدل عليه الآية من حكم ردة أو حد بقتل مسلم يرد عليه إعلاله بما ينزل به عن درجة الصحة التى يثبت بها مثل هذه الاحكام العظيمة الشأن، وهو أن في اسناده من الغرابة المضاعفة ما استغرب معه بعض نقاد الحديث تصحيح الشيخين له مع امتناع الامام أحمد عن ايراده في مسنده على سعته وإحاطته بأمثال هذه الاحاديث، وقد صرح قوم من العلماء باستبعاد صحته كما قال الحافظ في شرحه من الفتح (١) وهو مخالف لحديث أبي هريرة الذي خرجه الجماعة كلهم

(١) قال الحافظ : وهذا الحديث غريب الاسناد تفرد بروايته شعبة عن واقد قاله ابن حبان وهو عن شعبة عزيز تفرد بروايته عنه حرمي هذا (يعني الذي عبر عنه البخاري بابي روح الحرمي وإنما أبو روح كنيته وحرمي اسمه) وعبد الملك بن الصباح وهو عزيز عن حرمي تفرد به عنه المسندي وابراهيم بن محمد بن عرعرة ، ومن جهة ابراهيم اخرجه أبو عوانة وابن حبان والاسماعيلي وغيرهم وهو غريب عن عبد الملك تفرد به عنه أبو غسان مالك بن عبد الواحد شيخ مسلم فاتفق الشيخان على الحكم بصحته مع غرابته وليس هو في مسند أحمد على سعته وقد استبعد قوم صحته الخ وذكر السبب وأجاب عنه

وقال بعضهم بتواتره وليس فيه زيادة الصلاة والزكاة وهو أولى بالترجيح ، ثم انه يعارضه نصوص أخرى من الكتاب والسنة وهي التي أخذ بها الجمهور فثبت ان القول بدلالته على ما ذكر اجتهادية ولا نكفر مسلما الا بنص قطعي لا خلاف في روايته ولا في دلالته

هذا — وان القائلين بكفر تارك الصلاة من العلماء يحتجون بأحاديث اخرى هي أظهر في المسألة من تكلف الاستدلال عليها بهذه الآية وهذا الحديث ومع هذا رأينا جمهور الفقهاء المتقدمين والمتأخرين يخالفونهم فيها . أصرح هذه الاحاديث ما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث جابر مرفوعاً « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » وفي رواية الشرك ، وما رواه أحمد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم من حديث بريدة مرفوعا « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » يعني بيننا وبين الكفار . وأصرح منهما حديث أنس « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر » رواه الطبراني في الاوسط والصواب أنه مرسل كما قال الدارقطني ،

وقد ذهب الى كفر تارك الصلاة من فقهاء الامصار أحمد بن حنبل وعبدالله بن المبارك واسحاق بن راهويه ويروى عن علي كرم الله وجهه ، ولكن العترة وجماهير السلف والخلف ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي على أنه لا يكفر بل يفسق فيستتاب فاذا لم يتب قتل حداً عند مالك والشافعي وغيرهما ، وقال أبو حنيفة وبعض فقهاء الكوفة والمزني صاحب الشافعي لا يقتل بل يعزر ويحبس حتى يصلي ، وحملوا احاديث التكفير على الجاحد أو المستحل للترك وعارضوها ببعض النصوص العامة وحديث « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله واني رسول الله إلا باحدى ثلاث : الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » متفق عليه من حديث ابن مسعود ورواه مسلم وبعض أصحاب السنن من حديث عائشة بما يفسر أو يخصص معنى المفارق للجماعة بالخارج المقاتل وهو « ورجل يخرج من الاسلام فيحارب الله ورسوله فيقتل أو يصاب أو ينفى من الارض » وقد يقال ان ترك الصلاة كفر ومفارقة للجماعة فتاركها لا يدخل في عموم المستثنى منه فالحق في الجواب ما تقدم آنفا في سياق بيان حقيقة الاسلام . ولكن هؤلاء يقولون انه يكفر بترك صلاة واحدة ويزعم بعض أنصارهم حتى من المستقلين كالشوكاني أن ترك الصلاة يصدق بترك صلاة واحدة وهو مردود فان المعنى الكلي كالجنس لا ينتفي بانتفاء فرد من أفراده فمن أفطر في يوم من أيام رمضان لا يعد تاركا لفريضة الصيام مطلقاً ،

ومن ترك بعض الدروس من طلاب العلم لا يعد تاركا لطلب العلم .

(فان قيل) ان من ترك صلاة واحدة وصلى ما بعدها يكفر بترك ما ترك ويعود إلى الاسلام بأداء ما أدى، (قلت) اذا كان ترك الأولى كفراً بمعنى الخروج من الاسلام فلا يصح من فاعله التلبس بالثانية إلا اذا جدد اسلامه بالتوبة من الكفر والنطق بالشهادتين، ويترتب على القول بكفره أحكام عظيمة الخطر منها حبوط جميع ما عمل من خير وبر ، واستحقاق القتل ، وأنه اذا مات لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين ويكون ماله فيئاً لا يرثه ورثته . وناهيك بقول من قال لا يشترط في قتل المرتد استتابته وهي رواية عن أحمد كما أنه روي عنه أنه لا يكفر ، وقد ذكر السبكي في طبقات الشافعية أن الشافعي وأحمد تناظرا في تارك الصلاة فقال الشافعي يا أحمد أتقول انه يكفر ؟ قال نعم، قال اذا كان كافراً فبم يسلم؟ قال بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قال الشافعي فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه ، قال يسلم بأن يصلي، قال صلاة الكافر لا تصح ولا يحكم بالاسلام بها ، فانقطع الامام أحمد (رحمهما الله تعالى)

وجملة القول أن الذي يطمئن به القلب ويقتضيه فقه الدين وكونه رحمة لا نقمة، ومنحة لا محنة ، أن من كان صحيح الايمان والاسلام لا يخرج من الدين بترك صلاة أو أكثر بعذر أو كسل فيحبط عمله ويستحق الخلود في النار، كما أنه لا يعقل أن يترك الصلاة دائماً أو غالبا بأن يجعلها من العادات القومية الاجتماعية يوافق عليها المعاشرين أحياناً ويتركها أحياناً، بحيث إذا صلى لا يقيم الصلاة بباعث الامر الالهي ونية القربة والجزاء في الآخرة ، وإذا تركها يتركها غير مبال ولا متأثم كما يترك عادة من العادات المألوفة بين أهله وقومه ، هذا شأن من ليس له من الاسلام إلا اللقب الموروث من الملاحدة والزنادقة الذين لا يؤمنون بالوحي ولا بالبعث والجزاء . وقد وصف الله المنافقين بقوله (واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) فهل يكون مؤمنا صادقا من هو دونهم في هذا ؟

ويوجد من مسلمي التقاليد الجاهلين بحقيقة الدين وما شرعه الله له من اصلاح الافراد والجماعات من يترك الصلاة أياماً وشهوراً وربما عمر السنة والسنين لا يصلي فيها إلا بعض الجمع والاعياد وقليلا من الفرائض، وهو يؤمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء ايمانا تقليدياً ناقصاً مشوباً بشيء من الجهل والخرافات، فهو في تركه للصلاة وفي غيره من المخالفات يعتقد انه آثم ولكنه يتكل على مغفرة الله ورحمته أو على مكفرات الذنوب من حج وغيره أو على شفاعات الشافعين، وقد ورد في هذه

الثلاث أحاديث كثيرة منها الصحيح والضعيف والموضوع ، وهي تذكر في بعض الكتب المتداولة ، وخطب الجمعة المطبوعة ، التي يختارها على غيرها خطباء الفتنة الجاهلون ، والوعاظ الخرافيون ، يتقربون بها الى العوام ، ليهونوا عليهم ارتكاب الآثام . وناهيك بحديث عتقى الملايين فى رمضان وهو افتراء على رسول الله (ص) وماذا تقول في حديث السجلات الذي عني بعض المحدثين باثباته وهو اشد المجرئات على ترك الفرائض وارتكاب الموبقات ؟ فهؤلاء العوام الذين يغترون بهذه الروايات معذورون في عدم التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ، وعدم الجمع بين ما يصح منها وما يعارضها نصوص الكتاب والسنة الواردة فى الترهيب والنذر ، كتقييد الآيات والاحاديث الواردة في المغفرة بقوله تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقوله حكاية لدعاء الملائكة المؤمنين (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم - وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) وقوله تعالى في التوبة المقبولة (٤ : ١٦ انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧) وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما) وأمثال هذه الآيات ، وقد بينا هذه المسألة من قبل في مواضع من أوسعها وأهمها تفسير آيتى التوبة هاتين من سورة النساء (في ص ٤٤٠ — ٤٥٢ ج ٤) ومنها تفسير (٤ : ١٣ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالدا فيها (٤٣١ ج ٤ أيضاً) كما بينا جهل المتكلين على الشفاعة في تفسير الآيات الواردة فيها من سورة البقرة وسورة الانعام

والعلماء يخصون ما ورد في مكفرات الذنوب ومغفرتها بالصغائر بأدلة منها قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقوله (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة) أي لهم

ومهما يكن من عذر للجاهل بما ورد في المغفرة وكفارات الذنوب - فلا عذر له في ترك الصلاة وهي عمود الاسلام الذي يقوم عليه بناؤه ، وأعظم المكفرات للذنوب وقد صحت الاخبار النبوية والآثار عن الصحابة بكفر تاركها ، ومن هذه الآثار مارواه الترمذي والحاكم من أن اصحاب رسول الله (ص) لم يكونوا يعدون شيئا من المعاصي كفراً الا ترك الصلاة . وما اعتمدناه في تأويلها لا يدخل فيه من يتركها في عامة أوقاته بحيث لا يصليها إلا قليلا لأسباب عارضة ، وإنما هو فيمن يترك

صلاة أو صلوات قليلة متفرقة لأمر عارض ثم يتوب الى الله تعالى . فيجب على الوعاظ والخطباء أن يبينوا لهؤلاء العوام خطر ترك الصلاة ، وأن كل من يصدق عليه أنه تارك للصلاة فهو كافر كما ورد في أخبار وآثار كثيرة اكتفينا في أول هذا البحث بذكر بعضها ، وليراجع جملتها من شاء في كتاب الصلاة من كتاب الزواجر فهي مخيفة جداً

﴿ وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾
الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم وهي مخصصة لما في قوله تعالى قبلها (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الخ من معنى العموم فهي تستثنى منهم من طلب منهم الأمان ، ليعلم ما أنزله الله وأمر به من دعوة الاسلام ، ذلك بأن بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغا تاما مقنعاً ، ولم يسمعوا شيئا من القرآن - وهو الآية المعجزة للبشر الدالة بذاتها على كونه من عند الله لا من كلام محمد الأمي (ص) - أو لم يسمعوا منه ماتقوم به الحجة ، وإنما أعرضوا وعادوا الداعي وقاتلوه لأنه جاء بتفنيد ماهم عليه من الشرك وما كان عليه آباؤهم منه ، وقد طبعوا على نعرة العصبية لهم والنضال دونهم ، حتى انه لو لم تتضمن الدعوة الحكم بجهلهم وتسفيه أحلامهم ، لما احتموا عليها كل ذلك الاحتماء ، وقابلوها بكل ذلك العداء ، ويليها في ذلك تحقير آلهتهم ، وأما اختلاف العقيدة وحده فلم يكن يقتضي عندهم كل ذلك ، وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ودوا لو تدهن فيدهنون) وإذ كان تبليغ الدعوة هو الواجب الأول الأهم المقصود من الرسالة - وإنما كان وجوب القتال لحمايتها والحرية في تبليغها والعمل بما تتضمنه ، ومنع أهلها وصيانتهم من الفتنة والاضطهاد لأجلها - وجب التبليغ قبله وكف القتال عمن يظهر الرغبة في سماع كلام الله تعالى للعلم بمضمونها ، والوقوف على مانهى وأمر ، وبشر وأنذر ، وتأمينه في مجيئه إلى الرسول (ص) ثم العودة إلى دار قومه حيث يأمن على نفسه ويكون حراً فيما يختار لها ، وبهذا يكون المشركون الذين بلغوا نبذ عهودهم أو انتهاء مدتها ثلاثة أقسام (١) مصر على الشرك وعداوة المسلمين ، و(٢) مسترشد طالب للعلم وسماع القرآن ، و(٣) تائب يدخل في الاسلام .

الاستجارة طلب الجوار ، وهو الحماية والامان ، فقد كان من أخلاق العرب حماية الجار والدفاع عنه ، حتى صاروا يسمون النصير جاراً ، ومنه (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) ومعنى الجملة :

وإن استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ماتدعو اليه ، أو ليلقاك مطلقاً وإن لم يذكر سبباً، فيجب أن تجيره وتؤمنه لكي يسمع أو الى أن يسمع كلام الله، فان هذه فرصة للتبليغ والاسماع ، فاذا اهتدى به وآمن عن علم واقتناع فذاك ، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن به على نفسه، ويكون حراً في عقيدته ، حيث لا يكون للمسلمين عليه سلطان قهر ، ولا إكراه على أمر ؟ وتعود حالة الحرب الى ما كانت من غير غدر

وسماع « كلام الله » يحصل بالقليل والكثير منه ، ولكن المراد الذي يقتضيه المقام أن يسمع منه تعالى ما يراه هو ونراه نحن كافياً للعلم بدعوة الاسلام، أو القدر الذي تقوم به الحجة منه ، وهو ما يتبين به بطلان الشرك وحقيقة التوحيد والبعث وصدق الرسول ﷺ في تبليغه عن الله عزوجل، وكان العربي منهم يفهم القرآن ويشعر من نفسه بأنه معجز للبشر ، ويفهم حججه العقلية والعلمية على التوحيد، والرسالة ، والبعث ، فاذا ألقى اليه السمع وهو شهيد لا يلبث أن يظهر له الحق في هذه الاصول ، فان لم تصده العصبية والتزام العداوة للداعي لا يلبث أن يؤمن، فان لم يفعل كان له شأنه وحريته ، ولكنه يمنع من مساكنة المسلمين في دار الاسلام والحال والدار ماعلمنا. وقيل إن المراد بالقرآن آيات التوحيد منه، وقيل سورة التوبة خاصة أو مابلغوه منها في الموسم إذ لم يكن كل مشرك سمعه، والظاهر ماقلناه .

وقد قال بعضهم ان هذا منسوخ بقوله تعالى في الآية الآتية (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ، وقال بعضهم بل محكم وهو الحق، قال الحسن هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة ، واعتمده ابن جرير وعليه الجمهور، والقول الاول مما لا يصح أن يحكى إلا لرده وابطاله ، لانه يتضمن عدم وجوب تبليغ الدعوة حتى لطالبها ، بل منع طالبها من سماعها والعلم بها .

وقد ذكر الرازي وأبو السعود وغيرهما عن ابن عباس أنه قال إن رجلا من المشركين قال لعلي : إذا أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله أو لحاجة قتل ؟ قال : لا ، لان الله تعالى يقول (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره) الآية . فان صحت هذه الرواية كانت دليلا على أن طلب المشرك للامان والجوار يقبل وإن لم يكن لاجل سماع كلام الله تعالى وان قال بعض المفسرين إن الحاجة في الرواية لا تعدو غرض الدين لان لقاء الرسول ﷺ لايكون إلا لذلك ، أي فلا يجاب طلبه ان علم أنه لحاجة دنيوية ،

وهذا القول غير مسلم فقد كانوا يطلبون لقاءه (ص) لأجل الكلام في الصلح وغيره من مصالح دنياهم، والمتبادر من قوله تعالى (حتى يسمع كلام الله) أنه غاية أو تعليل للاجارة لاتصاله بها وحدها، وأن الاستجارة على اطلاقها.

وقول أبي السعود: إن تعلق الاجارة بسماع كلام الله بأحد المعنيين يستلزم تعلق الاستجارة أيضاً بذلك أو بما في معناه من أمور الدين، غير مسلم، ولكنه محتمل إذا جاز أن تتعلق «حتى» بفعلي الاستجارة والاجارة معاً، والذي عليه النحاة في باب تنازع العاملين ان العمل يكون لاحدهما، والمختار عند البصريين الثاني وعند الكوفيين الاول.

ويترتب على جعل «حتى» للتعليل انه لا يجب على النبي ﷺ أن يؤمن مشركاً الا لاجل سماع كلام الله وتبليغه الدعوة به. وغيره من أئمة المسلمين وقواد جيوشهم أولى وأجدر أن لا يجب عليهم ذلك، وحاصل معناها أن المستجير يجار ويؤمن مهما يكن غرضه من الاستجارة، ويمتد جواره الى أن يسمع كلام الله وتقوم عليه الحجة به فيكون وجوده في دار الاسلام فرصة لتبليغه دعوته على أكمل وجه، ولا يأبى هذا المعنى الامر بابلاغه مأمنه بعد ذلك كما ادعى بعضهم، ولا يظهر جعل الامر بالاجارة والامان للوجوب الا بهذا القصد، وفيما عداه يكون جائزاً يعمل فيه الامام بالمصلحة. ويجوز الجمع بين الغاية ومعنى التعليل على القول بجواز الجمع بين معنى المشترك. وقد كان النبي ﷺ يؤمن الرسل التي ترد من قبل الاعداء وهذا مجمع عليه. وكان يجير من أجاره أي مسلم أو مسلمة، وذكر من مزايا المؤمنين أنهم «تتكافأ دماؤهم ويجير عليهم أدناهم» كما ثبت في الصحيح، ولا يبعد أن يقال ان حكم المشركين في تقييد اجارة مستجيرهم في ذلك العهد خاص بهم، والامر في معاملة غيرهم من الكفار بعد ذلك أوسع وهو كما يذكر في كتاب الامان من الفقه.

قال العماد ابن كثير في تفسير الآية: والغرض أن من قدم من دار الحرب الى دار الاسلام في اداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الاسباب وطلب من الامام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً، مادام متردداً في دار الاسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الاقامة في دار الاسلام سنة، ويجوز أن يمكن من الاقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الامام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى اه.

وأقول إن ما ذكره هو المعروف عن أصحابه الشافعية . وفي الترغيب من كتب الحنابلة : ويشترط لصحة الامان عدم الضرر علينا ، وأن لا نزيد مدته على عشر سنين ، وفي جواز إقامتهم بدارنا هذه المدة بلا جزية وجهان اه من كتاب الفروع . والتحقيق أن مثل هذه الاحكام التي لا نص فيها من الشارع تناط بالمصلحة وتفوض إلى أولي الامر من الائمة والسلاطين وقواد الجيوش

قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ أي ذلك الامر باجارة المستجير من المشركين ليسمع كلام الله أو إلى أن يسمع كلام الله بسبب أنهم قوم جاهلون لا يدرون ما الكتاب وما الايمان ، فأعرضوا عن دعوة الاسلام بجهل وعصبية وكانوا مغترين بقوتهم ، مصرين على جفوتهم ، فاذا كان شعورهم بضعفهم لصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم قد أعدهم للعلم بما كانوا يجهلون وطلبوا الامان لاجل ذلك ، أو لغرض آخر يترتب عليه امكان تبليغهم الدعوة واسماعهم كلامه عز وجل ـ وهو الحجة البالغة والشفاء لما في الصدور لمن سمعه باستقلال فكر ـ أجيبوا اليه لانه هو الطريقة المثلى لتعليمهم وهدايتهم ، وانما بعثت أيها الرسول مبشراً ونذيراً ، ورؤفاً رحيما .

وتدل الآية على أن الاعتقاد بأصل الدين يجب أن يكون علماً يقينياً لاشك فيه ولا احتمال وان لم يكن منطقيا . ولا يكتفى فيه بالظن الراجح كالفروع العلمية ولا بالتقليد لانه ليس بعلم ، والآيات المفرقة بين العلم والظن متعددة كقوله تعالى ﴿ إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا * وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا * وما لهم به من علم ان هم إلا يظنون ﴾

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية : اعلم أن هذه الآية تدل على أن التقليد غير كاف في الدين وأنه لابد من النظر والاستدلال ، وذلك لانه لو كان التقليد كافيا لوجب أن لا يمهل هذا الكافر بل يقال له اما أن تؤمن واما أن نقتلك ، فلما لم يقل له ذلك ، بل أمهلناه وأزلنا الخوف عنه ووجب علينا أن نبلغه مأمنه ، علمنا أن ذلك إنما كان لاجل أن التقليد في الدين غير كاف بل لابد من الحجة والدليل ، فأمهلناه وأخرناه ليحصل له مهلة النظر والاستدلال ، إذا ثبت هذا فنقول ليس في الآية مايدل على مقدار هذه المهلة كم يكون ولعله لايعرف مقداره إلا بالعرف فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أمهل وترك ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالأكاذيب لم يلتفت اليه والله أعلم . اه

فتاوى المنار

أسئلة من أوروبه

(س ١ – ٥) من صاحب الامضاء أحد علماء المسلمين في (إيبك – يوغوسلافيا)

حضرة العالم الفاضل، شيخ الاسلام، مرشد الأنام، قطب المحققين، غوث المدققين، سيدي الشيخ رشيد رضا أدام الله بقاءه ونفعنا به وبعلومه والمسلمين آمين

(١) كيف كان السلف الصالح يصلون الجمعة ؟ يعني كم ركعة من الرواتب للجمعة ؟ يصلون قبل فرض الجمعة أربع ركعات، هل هذه من تحية المسجد أو من سنة الجمعة ؟ وهل من السنة المؤكدة أن تصلي شيئاً بعد فرضها ؟ أنا أريد منكم أن تتفضلوا بالجواب بالقرآن والسنة لا من أقوال أصحاب المذاهب

(٢) ما قولكم في رجل لم يكن مستطيعاً للحج فحج بدلا عن غيره قبل أن يحج عن نفسه، لانه ما كان مكلفاً به عند الحنفية، ثم رجع بعد الحج الى وطنه وما أقام في مكة لاداء مناسك الحج في السنة الآتية عن نفسه، فهل يكون مأموراً البتة ومكلفا به عن نفسه أم لا ؟

(٣) أربع ركعات قبل العشاء، هل لها حديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي هذه ؟

(٤) الاحتقان في رمضان هل يفسد الصوم أم لا ؟

(٥) ما حكم الجعة في الشرع وهل تعد من الخمر أم لا ؟

أقدم لفضيلتكم هذه الاسئلة راجياً الجواب عنها بأسرع ما أمكن وأسترحم جنابكم العالي قبول تحياتي واحتراماتي الفائقة الخالصة ؟

يحيى سلامي

(أجوبة المنار)

(١) هل للجمعة راتبة قبلها وبعدها؟

سبق لنا بحث في هذه المسئلة طال عهده ونقول الآن إنه لم يرد نص عن الشارع بطلب عدد معين من الركعات قبل الجمعة والمعروف في الصحاح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخرج من بيته لصلاتها فيبتدر المنبر فيؤذن بين يديه فيخطب فينزل

فيصلي فينصرف إلا أن يتأخر لسبب غير الصلاة . ولكن وردت الآثار في التنفل قبلها . فكان السلف من الصحابة ومن بعدهم يبكرون في السعي إلى المسجد قبل الزوال فيصلي كل مابدا له لما ورد في السنة من الترغيب في التبكير إلى المسجد وصلاة ماتيسر فيه ، وكانوا إذا خرج الامام إلى المسجد يقطعون الصلاة لما تقدم الا تحية المسجد لمن دخله فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أنه ﷺ أمر بهما من دخل المسجد وهو يخطب رواه الجماعة كلهم وقال ﷺ « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والامام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيها » رواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث جابر (رض) وفي رواية « وقد خرج الامام » بدل « والامام يخطب » متفق عليها .

وجملة القول أن صلاة النفل قبل الجمعة مأثور ، ومن كرهه من العلماء بعد الزوال فليس له عليه دليل خاص ، وكون النبي ﷺ كان يخرج عند الزوال فتنقطع الصلاة بخروجه إلا تحية المسجد ليس نصاً في اطراد ذلك . ومن قال إن لها راتبة معينة كراتبة الصبح والظهر بحيث يستحب قضاؤها إذا فاتت لا يمكنه أن يأتي بنص يثبته أيضا وانما قصاراه قياس الجمعة على الظهر

وأما الصلاة بعدها ففيه حديث أبي هريرة المرفوع « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربع ركعات » رواه مسلم وأصحاب السنن — وحديث ابن عمر « أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته » رواه الجماعة كلهم . وكان ابن عمر يفعل هذا لشدة تتبعه لآثاره ﷺ إلا اذا كان في المسجد الحرام فانه كان يصليهما فيه وعلل بان سببه رغبته في البقاء في المسجد مثلا . وورد أنه ﷺ كان يطيل هاتين الركعتين بعد الجمعة . فالافضل لمن ينصرف من الجمعة إلى بيته أن يصلي فيه ركعتين ، أو أربعا ، وقال بعض الصحابة وفقهاء الأمصار : بل له أن يصلي مايشاء ولكنه ينوي بالركعتين الاستنان به ﷺ ، وبالاربع امتثال أمره الذي هو هنا للندب ، وان نشط للزيادة كان عاملا بالترغيبات العامة في صلاة النفل

(٢) من حج عن غيره ولم يكن حج عن نفسه

في هذه المسألة أقوال أقواها قول الجمهور : من حج عن غيره ولم يكن حج عن نفسه وقعت حجته عن نفسه دون غيره سواء كان قبلها مستطيعا أم لا ، ودليلهم حديث ابن عباس فيمن سمعه رسول الله ﷺ يقول : لبيك عن شبرمة . قال « من شبرمة ؟ » قال أخ لي أو قريب لي . قال : « حججت عن نفسك ؟ » قال لا . قال « حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة » رواه احمد وابو داود

وابن ماجه وصححه ابن حبان والبيهقي والراجح عند أحمد وابن المنذر والطحاوي وقفه . ولا محل على هذا القول لبقية السؤال فان هذا الرجل قد سقطت عنه فريضة الحج ، وقال أصحابه انه يجب عليه رد ماعساه أخذه من المال أجرة ممن حج عنه .

وقال بعض الفقهاء من الحنفية وغيرهم إن حجه عن غيره صحيح فعلى هذا يجب عليه أن يحج عن نفسه إذا استطاع الحج بعد عودته الى وطنه

(٣) راتبة العشاء

روى أحمد وأبو داود والنسائي من حديث عائشة (رض) قالت : ما صلى النبي (ص) صلاة العشاء قط فدخل عليّ الا صلى أربع ركعات أو ست ركعات ، ومن حديث ابن عباس في حديث صلاة النبي (ص) في الليل عند البخاري أنه قال : بت في بيت خالتي ميمونة الحديث وفيه فصلى النبي (ص) العشاء ثم جاء إلى منزله فصلى أربع ركعات ، وفي المسألة أحاديث أخرى ضعيفة يقويها تأييد الصحيح لها

(٤) الحقن في رمضان

الحقن في رمضان إذا كان تحت الجلد في اليد أو الرجل أو غيرهما كما هو المعهود في طب هذا العصر فلا وجه للقول بافطار الصائم به

وأما الحقن في البطن وهو المعهود من زمن لا نعرف أوله فمقتضى قواعد الفقهاء أنه يفطر الصائم بل غلا بعضهم كالشافعية فقالوا ان كل ما يدخله الصائم في جوفه أو غيره باذنه من منفذ أو غير منفذ كالمسبار فانه يفطر به ، ومن المعلوم ان الصيام الشرعي عبارة عن الامساك عن الاكل والشرب والوقاع وفي معناه الاستمناء ، وقد يكون امتصاص الدخان في معنى شرب الماء ونحوه لان الاجسام الدخانية (الغازية) قريبة من الاجسام السائلة ولذلك يسمى امتصاصها بالفم شربا في العرف العام . وهي تؤثر في الاعصاب كتأثير السائلات المخدرة كالقهوة والشاي والمنبهة كالخمر ، وتفيد متعاطيها شيئاً من قوة الغذاء ، وحقن السائلات في الامعاء معروف وهو يكون تارة لتطهيرها من الفساد ، وتارة لازالة مايعرض لها من القبض والجفاف ، وقد يكون للتغذية والتقوية اذا كان في المعدة مرض يمنع من قبولها الطعام والشراب فهو يقوم مقامهما في التغذية

وجملة القول ان الصيام الشرعي معروف ، والغرض منه معروف ، ومفسداته معروفة ، وكل مايستحدثه الناس مما ينافيه ويكون كالطعام والشراب في إزالة الجوع

والظمأ في حكمه حكمهما، وليس منه فيما أرى ما يكون من الحقن تحت الجلد لتقوية المريض على مرضه أو ضعفه إذا لم تكن هذه التقوية كالتغذية والري فان كانت مزيلة للجوع والظمأ كالطعام والشراب فالقول بافسادها للصيام وجه ظاهر، وان كان الحقن لاجلها يباح للمريض كما يباح له الاكل والشرب وعليه القضاء ، وقد يقال إنه لما لم يكن هذا الحقن أكلا ولا شربا ولا وقاعا في حقيقته ولا في صورته ولا لذته، فهو لا ينافي حقيقة الصيام ولا حكمته والغرض من فرضه وهو الامساك عن هذه الشهوات الغالبة تعبداً واحتسابا لوجه الله تعالى ومايترتب عليه من تربية الارادة واكتساب ملكة التقوى المشار اليها بتعليل فرض الصيام بقوله تعالى (لعلكم تتقون)

(٥) الجعة خمر يحرم شربها

الجعة هي الخمر الذي يتخذ من نقيع الشعير المسماة عند الافرنج (بالبيره) والمشهور أنها من الاشربة التي يسكر كثيرها دون قليلها ، والتحقيق ان ما اسكر كثيره فقليله حرام ، وان كان لا يسمى قبل بلوغه درجة الاسكار خمراً كنبيذ التمر والزبيب ونحوهما (أي ماينقع منه بالماء ليحلو) فانه متى صار يسكر كثيره دخل في عموم معنى اسم الخمر على التحقيق الذي بيناه في تفسير آيات المائدة في تحريم الخمر القطعي ، وان قلنا إنه لا يدخل في عموم اسمها كان تحريمه من باب سد الذريعة كتحريم ربا الفضل الذي هو ذريعة لربا النسيئة الذي من شأنه ان يتضاعف وهو الربا القطعي المحرم بنص القرآن كما بيناه في تفسير آية آل عمران فيه

وقد بلغنا أنهم يصنعون في بعض البلاد جعة (بيرا) لاجل ادرار البول لا تسكر لخلوها من الغول (الكحول)، فهذه لا وجه للقول بتحريمها، إذ هي كنبيذ التمر والزبيب (أي ماينقع منهما في الماء) الذي كان يشرب منه النبي (ص) والصحابة (رض) حتى اذا ماتغير طعمه بطول المكث وخشي تأثيره واسكار كثيره تركوه . وهو الذي صار الفساق من الملوك والامراء والاغنياء يشربونه بعد تغيره ووصوله الى درجة الاسكار لمن أكثر منه ، ووجدوا من شذوذ بعض فقهاء الكوفة ماجرأهم عليه إذ قالوا إن ما يسكر كثيره لا يحرم منه الا القدر المسكر، وتفلسف بعضهم فقال انما المحرم الجرعة او الحسوة التي يحدث بها السكر دون ماقبلها، فاغتر بذلك المتهاونون حتى وقعوا في السكر إذ لا يمكن لاحد ان يعرف الجرعة التي يحدث بها السكر، بل السكر لا يحدث بالجرعة الأخيرة وحدها لانها في ذاتها كالجرعة الاولى وانما يحدث بالمجموع فهو كله حرام وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في تفسير آيات المائدة فيراجعها من شاء (ص ٥١ــ٥٥ ج ٧ تفسير)

أسئلة في اهداء قراءة القرآن للموتى وبالأجرة

(س من ٦ الى ١٠)

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، محمد بن عبد الله (وبعد) فمن محمد أحمد عبد السلام مؤسس الجمعية السلفية المؤلفة لاحياء السنة المحمدية بعزب فابريقة السكر بالحوامدية الى حضرة صاحب الفضل والفضيلة مفتي الانام، وشيخ مشايخ الاسلام، وامام الأئمة الاعلام، محيي السنة وآثار السلف، ومميت البدعة وآراء الخلف، سيدي ووالدي الشفيق بأبنائه المسلمين الذي أرجو من ربي وأتمنى عليه يريني وجهه قبل مماتي والذي يصير الاسلام بعده يتيم الابوين، المجتهد الكبير، والعلم الشهير، الذي جعل الله الحق على لسانه (السيد محمد رشيد رضا)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فاني سائل فضيلتكم عن الآتي وأرجو التكرم علي بالاجابة في أول عدد ينشر من مناركم وعدم احالتي على مجموعتكم لاني عار منها ولاني شارع في طبع كتاب اسمه المنحة المحمدية في بيان العتاقة الشرعية من البدعية وأريد اثبات فتواكم بهذا الكتاب (وصورة المسألة)

١ — هل قراءة القرآن واهداء ثوابها للاموات مشروعة أم لا ؟

٢ — هل كان النبي (ص) عند زيارته للقبور أو عند موت أحد أصحابه يقرأ له القرآن أو يعمل له ختمة أو عتاقة أو سبحة أم لا؟ بين لنا ما كان عليه النبي (ص)

٣ — هل ما أورده عبد الحق الازدي في كتاب العامة عن أبي بكر أحمد ابن محمد المروزي أنه سمع أحمد بن حنبل يقول (إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لاهل المقابر فانه يصل اليهم) وما رواه النسائي والرافعي في تاريخه وأبو محمد السمرقندي في فضائل سورة الاخلاص من حديث علي (رض) (من مر على المقابر وقرأ قل هو الله أحد احدى عشرة مرة ثم وهب أجره للاموات أعطي من الاجر عدد الاموات) كما في شرح الاحياء ـ ج ١٠ ص ٣٧١ ـ وما ذكره القرطبي في تذكرته عن ابن عمر (رض) أنه أوصى أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها. وما روى عنه (ص) أنه قال: من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف عنهم وكان له بعدد من فيها حسنات. وما يروى عن عبد الله بن عمر (رض) (أنه أمر ان يقرأ عند قبره

سورة البقرة) كما في رسالة جلاء القلوب للبركوي المطبوعة على هامش شرح شرعة الاسلام (ص ٩٤) هل ياسيدي كل هـذا وما شاكله صحيح أو موضوع لا يعمل به ؟ وإذا قلتم بالوضع فمن الذي قال به من علماء المحدثين أو غيرهم وفي أي الكتب نجد ذلك ؟

٤ — هل يوجد في الكتاب أو السنة دليل صحيح قطعي ينافي الاحاديث المتقدمة فى وصول القراءة للاموات ؟ ان قلتم يوجد فاذكروا لنا ما نقتنع به ويقطع لسان المبتدعة .

٥ — ماحكم الله فيمن يقرءون القرآن بالاجرة فى المآتم وفى ليالي رمضان والذين يقرءونه بالقرص والرغفان والبرتقان والملابس والنياكل. أدركني ياسيدي بالفتوى لعلي أدرك اثباتها فى مؤلفي فى موضعها أوالحقها به قبل اتمام طبعه جعلك الله ذخراً للمسلمين وأرانى وجهك قريبا في خير والسلام عليكم ورحمة الله

٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٧

«أجوبة المنار»

الحمدلله ،وعليكم السلام ورحمة اللهوبركاته. وبعد فاني اعتذرللقراء عن نشر اطراء هذا السائل ومن قبله لي بما لست أهلا له ولا لجزء منه ، وارجو أن لا يعودا إلى مثله ، ولولا ما بينته في مجلد سابق من أسباب التزام نشر الاسئلة بنصوصها ومنه الاقتداء بمثله من كتب فتاوى جميع العلماء لما نشرتها ، ثم أقول :

٦ — أما الجواب عن السؤال الاول فهو النفي وقد فصلت أدلته فى آخر تفسير سورة الانعام (من ص ٢٥٥ — ٢٧٠ ج ٨ تفسير) فيراجع فيه اذ لا يمكن اعادته

٧ — وكذلك الجواب عن السؤال الثاني وهو يدخل فى تفصيلنا المشار اليه آنفاً وأزيد عليه انني لا أعلم أن احداً ادعى أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن على القبور عند زيارتها أو يعمل ختمة أو عتاقة أو سبحة على كثرة الروايات الموضوعات والواهيات التي يدعيها أصحاب أمثال هذه البدع

وأما كان يفعله (ص) عند زيارة القبور ويأمر به فهو معروف في دواوين السنة وهو السلام عليهم ودعاء الزائر لهم وله بالعافية وغير ذلك مما لا حاجة الى ذكره لشهرته

٨ — إن من اضاعة عمر الانسان ان يبحث عن كل مايراه فى كتب المتأخرين من الاخبار والآثار الشاذة والمنكرة المخالفة للاصول العامة المقررة فى القرآن المجيد والسنن الثابتة ليعلم ماعسى أن يكون لها من رواية وماذا قيل فى اسنادها وذلك

مثل كتب المروزي والسمرقندي والبركوي المذكورين في السؤال وأضرابهم

فأما حديث علي في قراءة قل هو الله أحد فلا نعرفه في سنن النسائي ولم نجده فى فضائلها من كتاب فضائل القرآن ولا كتاب الجنائز من كنز العمال الذي جمع فيه مؤلفه أحاديث الجامع الكبير كلها والرافعي والسمرقندي يرويان كثيراً من الاحاديث الواهية والموضوعة وكتاباهما ليسا فى أيدينا لننظر أسانيدهما له ان وجد فيهما وكذلك حديث «من دخل المقابر فقرأ سورة يس الخ لم نجده فى فضائلها من كنز العمال وأما حديث النسائي في قراءتها على المحتضر فقد ذكرناه في بحثنا المشار اليه آنفاً. ولم يذكر العلامة الحافظ ابن القيم هذين الحديثين فيما اورده من الاحتجاج على وصول ثواب القراءة للموتى، وناهيكم بسعة اطلاعه، ولا ذكرهما غيره من العلماء الذين يعتد بنقلهم في استدلالهم على ذلك، ولا وصفها الزبيدي بصحة ولا حسن كعادته. وأما سائر ما ذكرتم من الآثار فان ثبت لا يعد حجة. وقد صرح ابن القيم أيضاً بأنه لم يصح شيء عن السلف في القراءة على الموتى وأجاب عنه باحتمال إخفائهم لهذا العمل حتى لم يعلم به رواة الآثار وقد بينا ضعفه في بحثنا المذكور ونقلنا أقوال فقهاء الحنابلة في المسألة. ومن المقرر عند العلماء أنه لا يجوز لاحد الاخذ ولا العمل بحديث لا يعرف صحة سنده وموافقة متنه للقطعيات من الكتاب والسنة، ومن احتج علينا بامثال هذه الروايات نجيبه بالقاعدة الآتية :

(٩) القاعدة عند أهل العلم أن يطالب الدليل ممن يدعي اثبات الشيء لا ممن ينفيه فانهم يكتفون من النافي بالمنع . والذي بيناه من قبل وفاقا لأئمة الفقه أن آية الانعام التي ذكرنا هذا البحث في سياق تفسيرها وآية سورة النجم (أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وان ليس للانسان الا ما سعى) تدلان على عدم وصول ثواب قراءة القرآن الى من يهدي ثوابها لهم من الموتى أو الاحياء، وقد بينا هنالك وجه الدلالة بالتفصيل وما يؤيدهما من الآيات الكثيرة في كون جزاء كل أحد بعمله لا بعمل غيره له ثوابه وعليه عقابه، وكون المدار في ثواب الاعمال على تأثيرها في تزكية النفس وهذه نصوص قطعية تؤيدها الاحاديث الصحيحة فان فرضنا أن الحديثين اللذين أوردتموهما في السؤال الثالث في فضل سورتي الاخلاص ويس مرويين فانهما لا يصلحان لمعارضة هذه النصوص وهذه القاعدة المأخوذة من قوله تعالى (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها)وان صح سندهما فكيف وهما لا يعرفان في شيء من دواوين السنة ؟

(١٠) قراءة القرآن عبادة كالدعاء والتهليل والتسبيح وغيرهما من الاذكار، ومن المعلوم من الاسلام للخاص والعام أنه لا يجوز أخذ الانسان أجرة على العبادة المحضة ولاأن يؤدي العبادة لاجل غيره، ولاسيما إذا كان على عمل غير مشروع كجعله للموتى وناهيك بأخذ أجرة خسيسة حقيرة تنافي مايجب من تعظيم القرآن. وقدمنع الحنفية أخذ الاجرة على تعليم القرآن بناء على أنه عبادة أيضا وأجازه الجمهور ومما استدلوا به حديث تزويج النبي (ص) المرأة التي وهبت نفسها له لمن لم يجد مالا يصدقها به بما معه من القرآن على ان يعلمها ذلك وبحديث إباحة أخذ الاجرة على الرقية بالفاتحة مع حديث « احق ما أخذتم عليه اجرا كتاب الله » وكلاهما في صحيح البخاري وغيره، وما ورد في سنن أبي داود من الوعيد على أخذ الاجرة على تعليم القرآن لايرتقي الى الصحة التي يعارض بها هذا وهو غير صريح في المسألة. ولا يبعد أن يعد من قبيل التعليم الارشادي للقرآن ماجرت به العادة من اختلاف بعض الحفاظ كل يوم الى بعض البيوت في رمضان وغيره يقرءون فيها شيئا من القرآن ليسمعه أهلها، وسماع القرآن مفيد في تقوية الايمان ومن السامعين له من يستفيد منه علما وأدباً بقدر استعداده. فاذا قصد القارىء ذلك مع التعبد والانماظ بنفسه أرجو ان يباح له أخذ مايعطى في كل شهر وهو يكون بغير عقد خسيس يخل بقدر حافظ القرآن، ولعل أكثر الاغنياء لايسمعون القرآن الا بهذه الوسيلة، وهو هجر له وناهيك به من مصيبة.

هل يكفر تارك الصلاة؟ حكم التوسل بالرسول ﷺ. الوهابية

(س ١١ — ١٢) من محمد افندي جمعه الزيلع التاجر في ميناء طرابلس الشام

مولاي الاستاذ المعظم السيد رشيد افندي رضا الافخم

انني لمست منـاركم الأغر فوجدته يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. لقد أضاء منارکم على الشرق والغرب فأصبحتم بنعمة الله حكيمها، لازلتم مصدراً للعلم والعرفان، مكللا بالنصر المؤزر من الرحمن الرحيم.

مولاي: سؤالين أعرضهما على سماحتكم أيها البحر الزاخر علماً، وأسترحم بيانهما على صفحات مجلتـكم الغراء لتعم الفائدة والله ولي التوفيق:

(١١) انني كلما أرتل هذه الآية الـكريمة قوله تعالى (منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصـلاة ولا تكونوا من المشركين) وعندما أتلو هـذه الاحاديث

الشريفة التي منها قوله عليه السلام «ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة فاذا تركها فقد أشرك» عن أنس صححه في الجامع الصغير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال حماد بن زيد: ولا أعلمه الا قد رفعه إلى النبي ﷺ قال «عرى الاسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الاسلام من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان» رواه أبو يعلى باسناد حسن، ورواه سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد عن عمر ابن مالك النكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس مرفوعا وقال فيه: من ترك منهن واحدة فهو بالله كافر ولا يقبل منه صرف ولا عدل وقد حل دمه وماله.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف» رواه احمد باسناد جيد والطبراني في الكبير والاوسط وابن حبان في صحيحه.

فيرتعش فؤادي عندما أريد تطبيق ما ذكر على حالتنا الحاضرة معشر المسلمين فأجدنا غافلين عن الاسلام وتعاليمه فحسبنا الله تعالى، وبعد هذا فيعترض البعض على قوله تعالى (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) فأين المؤمنون ياترى؟ فما قول مولانا في صحة ماتقدم فان كان صحيحا هل يجوز شرعا أن نعقد زواج بنتنا على الرجل الذي يترك الصلاة؟ وهل برئت الذمة منه؟

(١٢) الدعاء إلى الله تعالى بالتوسل هل فيه شك أو ريب إذ دعوت الله قائلا: اللهم اني أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يامحمد انني قد توجهت بك الى ربك في حاجتي هذه لتقضى، اللهم فشفعه في واقض حاجتي هذه بجاهه عندك وصلى الله على سيدنا محمد وآله؟

أريد أن أزجر بهذا السؤال بعض الافاكين الذين يقولون عن اخواننا المؤمنين القائمين بالكتاب والسنة كبني نجد الكرام، وامامهم العظيم خادم العلم الصحيح ونابذ البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، فكثير من الناس يقولون مالا يعلمون عن هذا الامام المعظم أدامه الله ذخراً للاسلام فيقول البعض إن الامام وقومه يمنعون ذكر الرسول وتعظيمه عليه السلام، وهذا مالا أعتقده فان أمثال الامام الكريم القائم بأمر الله وسنة نبيه لا يكون إلا محباً للرسول عليه

السلام حيث قال تعالى (فاتبعوني يحببكم الله) اذاً محبة الله ورسوله هي القيام بما أمر الله ورسوله لا بنشر البدع التي عمت وأصبحت من الاسلام بنظر الجاهلين حقيقة الدين وتعاليمه فحسبنا الله.

نسأل الله ان يلهمنا الرشد انه سميع مجيب وأقبل أيادي مولاي في البدء والختام.

المخلص — محمد جمعه الزباع

(١١) الكفر بترك الصلاة

يرى السائل في تفسير القرآن الحكيم من هذا الجزء بحثاً مستفيضاً في مسألة الكفر بترك الصلاة والزكاة والصيام وخلاف العلماء في ذلك وأن التحقيق في المسألة أن من ترك الصلاة وكذا غيرها من أركان الاسلام جاحداً أو مستبيحاً لذلك غير مبال بالدين فهو كافر باجماع المسلمين وان من ترك بعض الصلوات دون بعض يكفر في قول بعض الأئمة دون بعض، ومن لا يكفر بترك الصلاة لا يكفر بترك غيرها لانها عمود الاسلام وأعظم أركانه، وقد بينا أنه لا يعقل أن يتركها مؤمن صحيح الايمان مذعن صحيح الاسلام إلا أن يكون جاهلا مغروراً بالاعتماد على المغفرة والشفاعة. ومثل هذا لم يكن يعد عذراً شرعياً أيام كان الاسلام اسلاماً معروفاً وقد يعد صاحبه في هذا الوقت ممن لم تبلغهم دعوة الاسلام على الوجه الحق التفصيلي لعموم الجهل ، والاحاديث التي استدلوا بها على كفر تارك الصلاة كثيرة ذكرنا في هذا البحث أصحها، وما ذكره السائل منها لا يصح كله.

فمن علم من رجل أنه لا يصلي ولا يصوم لفساد عقيدته الدينية، وعدم مبالاته بما أوجب الله وما حرم ، فليس للمسلم أن يزوجه ابنته أو موليته . ولكنه إذا علم أنه مؤمن مغرور متكل على المغفرة أو الشفاعة مثلا فليس له أن يجزم بكفره، بل ينصح له ويعلمه ما يجهله من ضروريات الدين وكونه بدون اقامة أركانه لاوجود له

وطالما أقمنا الدلائل وبينا الآيات في اثبات أن الكثيرين من مسلمي البلاد الاسلامية ، ليس لديهم من الاسلام الحقيقي إلا الاسم ، واطلقنا عليهم لقب « المسلمين الجغرافيين »

(١٢) التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم

واما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم باللفظ الذي ذكرتم فله اصل في حديث الاعمى الذي طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره وأرشده

صلى الله عليه وسلم الى أن الصبر على مصيبته خير له في الآخرة فأبي الا أن يدعو له صلى الله عليه وسلم فدعا له صلى الله عليه وسلم وعلمه أن يدعو الله تعالى بهذه الالفاظ أو ما يقرب منها فدعا ورد الله عليه بصره بدعاء نبيه ودعائه هو بان يشفعه الله تعالى فيه . والحديث في سنن الترمذي والنسائي وغيرهما من حديث عثمان بن حنيف الصحابي (رض) وله روايات عند غيرهما ، والتحقيق أن هذا توسل بدعائه (ص) لا بشخصه ولا يتأتى مثله لاحد بعد وفاته فغير مشروع أن يطلب منه (ص) بعد وفاته دعاء لم يصح عن أحد من الصحابة ذلك بل صح في حديث توسلهم بالعباس في الاستسقاء ما يدل على امتناع التوسل بمثل ذلك بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه إذ قال عمر : اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا . والحديث في صحيح البخاري ولو كان التوسل بشخصه (ص) أو بدعائه بعد موته مشروعاً معروفاً عندهم (رض) لما عدلوا عن الاستسقاء به (ص) الى الاستسقاء بدعاء العباس رضي الله عنه

ولكن بعض العلماء المتأخرين لم يفطنوا لهذا الفرق بين التوسلين فاستدلوا بحديث الاعمى على جواز التوسل بشخص النبي صلى الله عليه وسلم وبطلب دعائه وشفاعته بعد وفاته فهم معذورون باجتهادهم وان كان خطأ ، وقد بينا تحقيق هذه المسألة من قبل في المنار وهي مفصلة بأدلتها ومنها روايات حديث الاعمى ماصح منها وما لم يصح في كتاب التوسل والوسيلة لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فليراجعها من شاء وما ذكرتم من التقول والبهتان على الوهابية وملكهم امام السنة ومحييها فهو من غرائب افتراء أناس يدعون الاسلام ، وقد عرف كذبهم في هذا العصر الملايين من الناس باختبار الحجاج الصادقين واخبارهم وما تنشره الجرائد منها

﴿ حكم من تبرأ منهن النبي صلى الله عليه وسلم كالنائحات، ومدة الحداد ﴾

(س ١٣ — ١٤) من صاحب الامضاء في مزارع أولاد عليوه (برديس)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة المحترم الفاضل الشيخ السيد رشيد رضا

بعد السلام وواجبات الاحترام

نعرف حضرتكم أنه استشكل علينا الامر فيما يأتي :

(١) في صحيح البخاري حديث « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية ، واني بريء من الصالقة والحالقة والشاقة جيبها والداعية بالويل

والثبور(*) واختلف الناس في ذلك فمنهم من قال ان الفاعلة ذلك طالقة من زوجها لا تحل له الا من بعد أن تستتاب وبعد عقد جديد، ومنهم من قال بطريقة التوبة فقط فنرجو منكم بيان ذلك بياناً شافياً في عدد من أعداد مجلتكم الغراء قريباً ولكم منا الشكر ؟

(٢) وأيضاً في حديث الحدة المروي في البخاري « لا تحد امرأة فوق ثلاثة أيام الا على زوج فانها تحد أربعة أشهر وعشراً » (١)

منهم من أجاز الاحداد لسبعة أيام على الاب ومنهم من منع ذلك . فنرجو من فضيلتكم البيان الشافي في ذلك وما الحكم في المحدود مع ما ذكر لان الناس استغرقت في هذ الامر استغراقا كثيراً حتى قل من ينهى زوجته وأقاربه عن ذلك

فلهذا نرجو من فضيلتكم كل الاهتمام في هذا الامر ولنرى ما نتبع في ذلك وسلامنا على جميع من يسأل عنا وعنكم والسلام على من اتبع الهدى ودين الحق

أحمد محمود أبو ستيت السافي السني

جواب المنار :

(١٣) وردت أحاديث كثيرة في الزجر عن المعاصي والرذائل وفي التقصير في الفضائل بلفظ ليس منا من فعل كذا وبلفظ البراءة، منها ما ذكر في السؤال (ومنها) « ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولا من تشبه بالنساء من الرجال » رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بسند صحيح (ومنها) « ليس منا من غش » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم بهذا اللفظ، ورواه الترمذي بلفظ « من غش فليس منا » كلاهما صحيح من حديث أبي هريرة (ومنها) « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » رواه البخاري من حديثه وغيره عن غيره، (ومنها) « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا » رواه احمد والترمذي من حديث عبد الله بن عمر والترمذي بلفظ « ويوقر كبيرنا » من

(*) قوله واني بريء حديث آخر رواه البخاري عن أبي موسى (رض) بلفظ اني ابرأ ممن بريء منه محمد (ص) ان رسول الله (ص) بريء من الصالقة والحالقة والشاقة وليس في هذا الحديث ذكر الويل والثبور ولكنه ورد في حديث آخر، والصالقة التي ترفع صوتها بالبكاء أو التي تضرب وجهها والحالقة التي تحلق رأسها عند المصيبة والشاقة التي تشق ثوبها (١) لفظ الحديث « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث الا على زوج أربعة أشهر وعشرا » وفيه ألفاظ أخرى

حديث انس وكلاهما صحيح (ومنها) « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » رواه ابو داود من حديث جبير ابن مطعم بسند حسن ولا يقول أحد يعرف أصول الاسلام وفروعه ويفهم نصوصه إن هـذه الاعمال أو التروك كفر وارتداد عن الاسلام وانما اتفقوا على أن هـذه الصيغة وأمثالها للتغليظ والتشديد في هذه الامور التي هي من أعمال الجاهلية وشؤونها فترى شراح البخاري يقولون في « ليس منا » ان معناه ليس من أهل سنتنا وطريقتنا وليس المراد به اخراجه عن الدين وانما المراد به المبالغة في الردع . وقال بعضهم في حديث التبري انه وعيد للمتبرأ منه بأنه (ص) لا يدخله في شفاعته . فمن قال إن المرأة المسلمة ترتد عن الاسلام وتبين من زوجها بالنواح والندب ونحوهما من أعمال الجاهلية المحرمة فهو جاهل ، وانما ينبغي للمسلم الحريص على دينه وعلى زوجه أن يختبر عقيدتها فيما يخل بتوحيد الله تعالى مما نشأ في النساء والرجال من عقائد الوثنية كدعاء غير الله تعالى والذبح لغير الله تعالى وغير ذلك مما شرحناه في المنار والتفسير مراراً كثيرة

(١٤) يجب العمل في الحداد بما صح في الحديث وعدم الالتفات الى من أجاز مخالفته بهواه (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)

النفس الواحدة التي خلق منها الناس

(س ١٥) من صاحب الامضاء في (زنجبار) في ذيل كتاب خاص

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)

ماقولكم في معنى النفس الواحدة هل هي نفس آدم ؟ وهل حواء من تلك النفس ؟ وهل هي من تلك الطينة التي هي نفس آدم ؟ أو هي من ضلعه الايسر على مايزعمون ؟ افيدوا بالجواب الشافي ولكم مني جزيل الشكر والسلام .

محمد عبد الله قرح

(ج) يطلق لفظ النفس فى اللغة على روح الانسان وعلى ذاته وعلى الدم. قال في المصباح المنير : والنفس انثى ان اريد بها الروح قال تعالى (خلقكم من نفس واحدة) وان أريد الشخص فمذكراه ولا تطلق النفس على الطينة مطلقا . فالفيومي صاحب المصباح فسر النفس في الآية بالروح بدليل وصفها بواحدة ويظهر

انه يريد بها جنس النفس كأنه يقول انه خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة فأصلكم واحد فلا ينبغي لكم ان يتكبر بعضكم على بعض ويفتخر عليه بنسبه وأما قوله تعالى (وجعل منها زوجها) فهو كقوله تعالى (فاطر السموات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا) أي جعل لكل جنس من الاحياء زوجين لاجل التناسل كما قال (ومن كل شيء خلقنا زوجين) والذي عليه جمهور المفسرين ان المراد بالنفس الواحدة هنا آدم عليه السلام، وهو تفسير مراد مبني على الاعتقاد أن أبا البشر هو آدم عليه السلام لا تفسير بمدلول اللغة ولا بنص مأثور عن الشارع وما صح في الحديث من كون آدم أبا البشر لم يرد تفسيراً للآية، وتفسير النفس بآدم في هذه الآية لا يظهر في آية الاعراف (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به) الآية - فان النص يقتضي ان النفس الاولى هي الانثى وان زوجها الذي خلق منها هو الذكر بدليل تغشيه إياها وحملها بالولد، دع ما فيها من الحكم بالشرك عليهما وعلى ولدهما. وتجد في هذا الموضوع بحثا طويلا في تفسير الآية وهي أول سورة النساء في الجزء الرابع من تفسيرنا.

وأما قوله تعالى (وخلق منها زوجها) فهو على القول بان النفس الواحدة آدم لا يدل على أنها خلقت من ضلعه ولا من طينته بل معناه على كل حال ان هذا الزوج من جنس هذه النفس كما قال في سورة الروم (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها) فليس معناه ان زوج كل واحد من البشر بضعة من جسمه بل المعنى أنها من جنسه الذي هو علة سكون كل من الزوجين الى الآخر الذي هو مقدمة الاختلاط الذي يكون سبب النسل بمقتضى سنة الله تعالى في خلقه كما بيناه في التفسير وفيه أن جمهور المفسرين الذين قالوا إن المراد بالنفس آدم عليه السلام يقولون: ان المراد بزوجها حواء وأنها خلقت من ضلعه الايسر وهو نائم، وان هذا قول مأخوذ من الفصل الثاني من أسفار التوراة الذي لا يعرف أحد كاتبه على سبيل القطع وما ورد في حديث الوصية بالنساء من الصحيح من خلقهن من ضلع فالتحقيق أنه من قبيل قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) كما بيناه في المنار من قبل، وفي لفظ للحديث من البخاري انه (ص) قال «انما المرأة كالضلع» الخ بالتشبيه، ونحن نقول بان آدم عليه السلام أبو البشر وان حواء عليها السلام أم البشر كما هو المشهور عندنا وعند أهل الكتاب وانما نقول إن الآية ليست نصاً في هذا المعنى ولا هو المعنى الظاهر المتبادر منها بحسب مفهوم اللغة والله أعلم بمراده

الجمع بين مسألة الذكران والاناث في المدارس

﴿ ومسألة التجديد والتجدد ﴾

﴿ مجمل محاضرة ألقيناها في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ﴾

إن مسألة جمع البنات مع البنين في مقاعد التعليم الثانوي والعالي من أعظم الاغراض التي يرمي اليها دعاة الثورة الدينية المدنية باسم التجديد المراد به هدم القديم من مقوّمات الامة من دين وتشريع وأدب وسياسة، ومشخصاتها من العادات والازياء وغير ذلك ، والتجديد سنة من سنن الاجتماع ، كما أن التجدد من مقتضى الفِطر والطباع ، ومثلهما مقابلهما من المحافظة على القديم ولكل منهما موضع فلا تناقض بينهما ولا تضاد ، اذا وضع كل منهما في موضعه بغير تفريط ولا إفراط

من التجدد في نظام الفطرة أن كل أحد يخالف خلق والديه وأخلاقهما بعض المخالفة - ولولا ذلك لم يكن ما نرى من التفاوت العظيم بين البشر - ومن حفظ الاصل مالا يجهل من إرثه لهما وشبهه بهما في بعض صفاتهما الجسدية والنفسية ، ولولا ذلك لوقع من التباين بين أفراد الناس ما يكاد يكون به كل منهم نوعا مستقلا بنفسه

ومن حفظ القديم في الاعمال وراء سنة الوراثة ما تقتضيه غريزة التقليد من محاكاة الانسان لمن يعيش بينهم من أول سن التمييز الى نهاية أجل الشيخوخة ، ثم تقليد الجماهير لمن يرونهم أوسع منهم علما ، أو أعلى مكانة وقدراً - ولولا هذا لما تكونت البيوت والفصائل والشعوب والقبائل ، بما يربط بعضها ببعض من المشاركات في الأعمال ، التي تطبع في

الانفس ملكات الاخلاق والعادات ، فتكون رابطة الوحدة ، التي تجتمع بها وشائج الكثرة ، فتكون بها الفصائل قبيلة والبيوت أمة

ومن التجديد في الاعمال البشرية ماتهدي اليه غريزة الاستقلال المقابلة لغريزة التقليد ، والميل إلى الاستنباط والاختراع ، ولولاه لكانت جماعات البشر كأسراب الطير ، ومساكنهم لا ترتقي عن خلايا النحل وقرى النمل

التجديد الاجتماعي والسياسي والمدني والديني كل منها حاجة من حاج الجماعات البشرية بمقتضى غرائزها واستعداد نوعها ، به يرتقون في مدارج العمران ، ويصعدون في معارج العلم والعرفان ، حتى إن الدين الالهي الذي يستند الى وحي الرب الحكيم بمحض فضله ، لبعض من أعدّ أرواحهم القدسية لذلك من اصفياء خلقه ، قد سار مع غرائز الجماعات البشرية في ترقيها من طور الى طور حتى اكمله تعالى لهم بالاسلام عندما وصل مجموعهم الى سن الرشد والاستقلال ،

ومع هذا الإكمال يروي لنا المحدثون عن خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، انه قال « ان الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه ابو داود في سننه والحاكم في مستدركه والبيهقي في المعرفة وغيرهم من حديث أبي هريرة وأشار السيوطي في جامعه الصغير الى صحته. والمراد بتجديد الدين تجديد هدايته ، وبيان حقيقته وحقيته ، ونفي ما يعرض لأهله من البدع أو الغلو فيه او الفتور في إقامته ، ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع والعمران في شريعته . وبهذا المعنى أعد نفسي داعية تجديد ديني مدني ، وعدواً مجاهداً

بايثار

للجمود على التقليد، والاصرار على ما ثبت بطلانه أو ضرره من القديم، فلا يحسبن احد من شباننا انني احكم في موضوعنا بتأثير الجمود على كل قديم،

أول شاهد لي على هذا مقدمة العدد الاول من صحيفتي المنار التي كتبتها في مثل هذا الشهر (*) (شوال) أي سنة ١٣١٥ منذ ثلاث وثلاثين سنة، فقد أشرت في أولها الى الجديد والتجديد المدني بهذه الكلمة:

«أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيذ أحلامه، حسبك حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء أو موتا زؤاما

«تنبه من رقادك، وامسح النوم عن عينيك، وانظر الى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الارض غير الارض، ودخل بها الانسان في طور آخر خضع له به العالم الكبير»

ثم أشرت فيها الى جملة المخترعات الصناعية، وما تجدد في العلوم الطبيعية، وانتقلت من ذلك الى بيان اغراضي من إنشاء الصحيفة، مبتدئا بقولي «وغرضها الاول الحث على تربية البنات والبنين» هكذا بتقديم ذكر البنات على البنين، فأنا داعية الى تجديد من اهم قواعده ترقية مدارك النساء بالتربية والتعليم، وفي المنار مقالات كثيرة وفتاوى في ذلك من اشهرها مقالات (الحياة الزوجية) التي أودع بعضها الاستاذ الاجتماعي الاقتصادي محمد طلعت بك حرب الشهير كتابه (تربية المرأة) فأنتم ترون انني كنت منذ ثلث قرن داعية تجديد، وذلك قبل

(*) كنت كتبت هذا بطلب الجامعة المصرية في شوال العام الماضي ليكون موضوع مناظرة فيها فمنعتها الحكومة لسبب سياسي عارض، ثم ألقيته في جمعية الشبان المسلمين في المحرم الماضي مع زيادات تناسب المقام

شيوع هذا اللفظ في هذه السنين ، وقد تفضل علي بلقب (المجدد) بعض الكتاب والمحبين ، قبل أن ينتحله ويريد احتكاره بعض المعاصرين ، ولكنني أسير في كل من التجديد والمحافظة على سنن الطبيعة التي أشرت اليها آنفا ، فأقول في الدين بقاعدة الامام مالك رحمه الله تعالى وهي الوقوف في العقائد والعبادات عند نصوص القرآن وبيان السنة النبوية له وسيرة السلف الصالح فيه قبل حدوث الآراء والبدع — ومراعاة مصالح الامة العامة في الاحكام الدنيوية من مدنية وسياسية وغيرها

وأما ما فوضه الشارع إلى الناس من أمور دنياهم ، ووكله إلى علمهم وتجاربهم في قوله ﷺ «أنتم أعلم بأمور دنياكم» وقوله صلوات الله وسلامه عليه «انما انا بشر مثلكم اذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشر» رواهما مسلم في صحيحه ، أما هذا فأنا أدعو فيه إلى أحدث ما انتهت اليه علوم البشر وفنونها ، وإلى ما لا يعرف له حد من الزيادة عليها ، بقصد إعزاز الامة واعلاء شأن الملة بها. ولا بد فيه من المحافظة على مقومات الامة ومشخصاتها التي كانت بها أمة في وسائلها ومقاصدها .

أومأت الى هذا التجديد في مصالح الدنيا وهداية الدين ، ومقاومة التقليد الديني للكتب والمؤلفين ، بقولي في تلك الفاتحة بعد الحث على تربية البنات والبنين «واصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتنشيط على مجاراة الامم المتمدنة في الاعمال النافعة وطروق ابواب الاقتصاد ، وشرح الدخائل التي مازجت عقائد الامة ، والاخلاق الرديئة التي أفسدت الكثير من عوائدها ، والتعاليم الخادعة التي لبست الغي بالرشاد ، والتأويلات الباطلة التي

شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر توحيداً ، وانكار الاسباب ايمانا وترك الاعمال المفيدة توكلا ، ومعرفة الحقائق كفراً والحاداً ، وايذاء المخالف في المذهب دينا ، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً ، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفانا ، والذلة والمهانة تواضعاء والخنوع للذل والاستبدال للضيم رضى وتسليما ، والتقليد الاعمى لكل متقدم علماً وايقانا »

وعلى هذا الاساس المتين ، أبني رأيي في موضوع تعليم البنات والبنين ، فأقول

تقليدنا للافرنج وما يجب نظره فيه

اني أرى أن مايقال في فائدة الجمع بين الذكران والاناث في مقاعد التعليم في جميع درجاته أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وانه ناشيء عن تقليد للافرنج ، لا عن خبرة تامة واستقلال في الرأي ، ولا موازنة بينه وبين مايعارضه في الضر والنفع ، ولا نظر دقيق في الفروق بيننا وبين أولئك القوم . واني خصم للتقليد الديني والدنيوي معا ، وقد كان من أول نظمي للشعر في عهد طلب العلم في طرابلس الشام قصيدة هذا مطلعها

ليس التمدن تقليد الاوربي فيما انتحاه من العادات والزي
إن المقلد لاينفك مرتكسا في الضعف يخبط في ليل دجوجي
بل التمدن ملزوم التقدم مد عاة الرفاهة منفاة الألاقي(١)
روح شريف به تحيا الشعوب بما يبث فيها من العلم الحقيقي
حتى ترى كثرة الآحاد راجعة لوحدة والفرادى كالاثاني (٢)
والاختلاف بآراء الرجال لاجـ ل الاتفاق على نيل الاماني

(١) الألاقي جمع ألقية وزان أمنية وهي الشدائد والدواهي (٢) الاثاني الجماعات الكبيرة

نعم ان الباعث الاول على التقليد هو احتقار المقلد لنفسه ، وتعظيمه لشأن من يقلده ، سواء أكان المقلد فرداً أو جماعة كبيرة أو صغيرة وهي الامة . فمن وطن نفسه أو أمته على التقليد فقد حكم عليها بالذل ، وأن تكون تابعة لا متبوعة ، مستعبدة لا مستقلة ، قاصرة لا رشيدة ، وقد عقد حكيمنا العربي الاجتماعي ابن خلدون في مقدمته الشهيرة فصلا خاصا في بيان « أن المغلوب ، ولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر عوائده »

فيجب علينا أن نتقي هذا الخطر في حكمنا الاستقلالي على ماندعى اليه من اتباع غيرنا ، مما أشار اليه حكيمنا ، وأن نكون على حذر في كل تغيير في مقومات أمتنا ومشخصاتها ، وأن نعتبر في ذلك بسير الامم العزيزة في كل انقلاب حدث فيها ، ونوازن بين نفعه وضره ، وماينطبق ومالا ينطبق علينا منه ، ولا يجب مثل هذا فيما نحتاج اليه من الفنون الصناعية والزراعية والاقتصادية والعسكرية ونحوها لأن الحاجة اليها في جميع الامم واحدة مهما تكن أديانها وآدابها ولغاتها وتقاليدها

وأول مثل يجب أن نعتبر به الامة الانكليزية التي هي أعز أمم الافرنج وأعظمها حضارة وسلطانا ، فاننا نراها أشد الامم اعتصاما بكل مايتعلق بروابطها الملية والقومية ، من دينية ودنيوية . ومن أهم ذلك مسألة التغيير في كتاب الصلاة التي كثر الخوض فيها أخيراً . ورفض البرلمان قبول اقتراح التغيير فيه مع العلم بانه من وضع الكنيسة وتقاليدها ، وكون تنقيحه عما يحتج به المقترحون من المصلحة الدينية العامة لا يتضمن تغيير شيء من كتب العهدين القديم والجديد التي هي عندهم ينابيع الدين

ودون هذا مايصر عليه الانكليز من مقاييسهم وموازينهم لانه

انكليزي وعدم قبولهم مايخالفه من المقاييس والموازين العشرية على أفضليتها وتسهيلها لوسائل التعامل العام بين البشر - لانها من صنع اللاتين لا من صنع الانكليز

ولنلق نظرة عجلى على تعليم النساء عندهم نجدهم الى منتصف القرن التاسع عشر قلما كانوا يَعُدُّون في تعليم البنات الابتدائي شغل الابرة والرقص والعزف بالبيانو — ثم زادوا في منهاج تعليمهن الدين والاخلاق وتدبير المنزل . وفي ذلك العهد أسست في انكلترة مدارس البنات الابتدائية ، وفي العشر الأواخر منه بدىء بتأسيس مدرستين كليتين لهن وتلاهما غيرهما — ونجد ان مدرستي كمبردج واكسفورد الجامعتين كانتا تمتنعان عن إعطاء البنات الدرجة العلمية التي يستحققنها بالامتحان ، الا ان الثانية رجعت عن هذا الحرمان لهن في سنة ١٩٢٠ أي بعد ان عظم سلطان النساء في أوربة كلها بما أبلين في عهد الحرب الكبرى ، وبقيت الثانية مصرة عليه الى العام الماضي على مارأيت في بعض المجلات العلمية ، ولا أذكر انني رأيت نصا في رجوعها عنه

ومما يجب ان ينظر فيه في مسئلتنا نظرة تدقيق واعتبار ما بين نسائنا ونساء الافرنج من الاختلاف في العلم والعمل والتقاليد ، ومن أهمه مشاركة النساء للرجال عندهم في الكسب ، وهو يسوغ من مشاركتهن لهم في التربية والتعليم مالا يسوغه حال نسائنا

حجة القائلين باختلاط الجنسين

ان الذي أعلمه ان اقوى حجج القائلين باختلاط الجنسين في جميع مراحل التعليم وزعمهم أنه خير وسيلة للتربية الصحيحة هو ان كلا منهما يختبر

الآخر حق الاختبار، فيقف على اخلاقه وآدابه وآرائه ومقاصده من الحياة، فيكون من فوائد ذلك ان تبنى البيوت (العائلات) التي تتكون منها الامة على اساس ثابت صحيح لا تقوضه أهواء جهل كل منهما بما ذكر وما ينجم عن هذا الجهل من خلاف وشقاق

والذي أراه ان هذه نظرية خيالية، تنقضها الخبرة والتجارب العملية، ولو ثبتت من بعض الوجوه لكان ما يعارضها من غوائل الاختلاط في امتنا أحق وأولى بالترجيح عليها، وهو ما سأشير اليه بالاختصار بعد نقضها

أقول في هذا النقض (أولا) إن كلا من الفريقين الشقيقين يعرف في بلادنا ماعليه الفريق الآخر في جملته من الاخلاق والآداب والعادات والتقاليد العامة وأغراض الحياة ومنازعها بما يسمعه كل منهما ويراه ويبلوه من معاشرة الاقربين والجيران وغيرهم، وأما معرفة كل فرد منهما لكل فرد من الآخر فلا سبيل اليه بالاختلاط في المدارس، ولا فيما سيكون عاقبة له من الاجتماع في المحافل والمجامع.

(ثانياً) كانت هذه النظرية مسلمة عند جماهير المتفرنجين وكثير من غيرهم فيمن يريدان التزاوج وقد بينا بطلانها في مقالات الحياة الزوجية بما يؤيده مافشا في هذه السنين من قلة الزواج وكثرة الطلاق في العالم الافرنجي القديم والجديد وفي الشعوب المقلدة له وفي مقدمتها شعبنا المصري، وانني في غنى عن ايراد الشواهد وسرد الاحصاءات المخيفة في هذا بما تنشره الصحف منها في هذه الأيام نقلا عن صحف أوربة والولايات المتحدة الاميركانية (*)

(*) يراجع قراء المنار ما نشرناه من احصاء الطلاق في الولايات المتحدة الامريكانية في ص ٣٠٨ من المجلد ٢٩

(ثالثاً) ان من المعلوم بالاختبار أن كلا من الجنسين يتجمل ويرائي الآخر في معاشرته له منذ يشعران بالميل الغريزي الذي جعله الخالق الحكيم داعية التناسل فيهما، فيخفي كل منهما عن الآخر مايعهد أو يظن أنه يكرهه أو يستنكره، ويتوخى اظهار مايرجو أن يحبه ويؤثره، ولا سيما اذا كانا يميلان الى الاقتران، وقد شرحت هذا في مقالات الحياة الزوجية

وإننا نرى علماء الافرنج الاحرار يصرحون بأنه قلما يوجد عندهم زوجان يعيشان كل عمرهما أو جله متحابين متوادين كما يصوره كتاب القصص الخيالية التمثيلية وغيرها ، ومنهم من قال إن الاتفاق الودي بين الزوجين لا يكاد يزيد عن ثلاث سنين ، ومنهم من مدّ في أجله الى خمس سنين، ولعل كثيرا من السامعين لهذه المحاضرة قد وقفوا على ما كتبه ذلك الحكيم الالماني الذى صور فقد السعادة الزوجية من بيوت عاصمتهم بطرق أبواب كل بيت منها قائلا لاهله : انني سمعت أن السعادة هبطت على الارض ودخلت بيتكم فأرجو أن تأذنوا لي بالدخول لزيارتها، وبان جواب أهل كل بيت منهم كان واحداً : ان السعادة لم تدخل بيتنا ولم نرها وقد نشرت جريدة السياسة من عهد غير بعيد اقوالا لبعض الرجال والنساء من الانكليز في الحياة الزوجية تؤيد هذا

والذي نعلمه عن الحياة الزوجية في الشعب الالماني أنها خير منها في غيره من شعوب أوربة ، كما حدثنا بذلك صديقنا المرحوم الدكتور الشيخ حامد والي الذى تزوج ألمانية رزق منها بعدة اولاد وكان مغتبطا بها كما كانت مغتبطة به

ويظهر لي أن فضلاء الافرنج ولا سيما القائمين بحقوق الزوجية بما

يرضاه كل من الزوجين من الآخر إنما يعملون بحكمة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وان لم يقفوا عليها، ذلك أن امرأة كانت تختصم اليه مع زوجها فغلبها الغضب على الجهر بأنها لا تحبه. فقال عُمر: اذا كانت احداكن لاتحب الرجل منا فلا تخبره بذلك فان أقل البيوت مابني على المحبة، وإنما يتعاشر الناس بالحسب والاسلام. والمراد بالحسب الشرف ولا سيما اذا كان موروثا ـ والمعنى أن شرف الزوجية والاسرة يدعو كلا من الزوجين لحفظ كرامة الآخر وشرفه وان العمل بما تدعو اليه أحكام الاسلام كاف لهناء المعيشة من فرضه المعاشرة بالمعروف والمساواة في الحقوق بين الزوجين إلا رياسة الاسرة الخاصة بالرجل، واحصان كل منهما للآخر الذي يمنع بطبعه تطلعه الى غيره، وكذا توزيع الاعمال بينهما بجعل الخارجية للرجل والداخلية للمرأة

وأما غير الفضلاء منهم فلا يطيق الزوجان منهم الصبر على الحياة الا باطلاق كل منهما الحرية للآخر حتى في اتخاذ الاخدان، واتباع خطوات الشيطان، وقد سرت عدواهم في بلادنا الى بعض المتفرنجين، المجردين من هداية الدين

بعد هذه الاشارة الى تفنيد نظرية التماس السعادة الزوجية بالاختلاط بين الجنسين في المدارس أشير الى غوائله الشخصية والملية فأقول

غوائل الاختلاط بين الجنسين

(الغائلة الاولى) من المعلوم أن الشعور بالميل الفطري في كل من الجنسين الى الآخر يبتدىء في سن المراهقة ويقوى بعد البلوغ، والقرب يذكي ناره، والمعاشرة تضرم أواره، فاذا جمع بينهما في مقاعد التعليم

كان لكل منهما من شغل القلب ومسارقة النظر ، ومساوقة الحديث الشاغل للفكر، مايكون صارفا له عن توجيه قوة الذهن كلها الى العلم

ولعل هذا هو السبب في اباحة اليابانيين للجمع بينهما في التعليم الابتدائي، والمنع منه في التعليم الثانوي، على انه ليس عندهم من صيانة الحجاب ولا من شدة المحافظة على الاعراض ماعندنا بوازع الدين والوراثة والوجدان، فنحن أولى بمنعه في جميع الاطوار والاحوال

(الغائلة الثانية) ان قرب السَّواد من السواد ، يدعو الى المناجاة وطول السِّواد ، ويثير فيهما ذكرى الوساد(١) فيفضي إما الى التبكير بالزواج ان تيسر وفيه من الصد عن العلم مافيه ، دع ما يذكره الاطباء وغيرهم من المضار الاخرى له، وإما الى مفاسد أخرى من دينية وصحية واقتصادية واجتماعية، بدأ الباحثون يشكون بوادرها، ونعوذ بالله مما يتوقع من عواقبها

وإنا لنعلم أن من دعاة ثورة التجديد، والاباحة المعنية من التحرير ، من لا يبالون هذه العواقب ، وان منهم من يكابر الحس، ويماري في غرائز النفس، فيدعي أن اختلاط الجنسين أقوى وسائل العفة والصيانة، يكسب كل منهما حصانة أي حصانة ، يعنون أنه كالتلقيح بمصل بعض الادواء المعدية والتسمم بميكروبها ، يكسب صاحبه مناعة تقيه من العدى بوبائها . وهذا قياس مع الفارق فان ما نحن فيه هو أشبه بالتعرض لعدوى الوباء في عنفوان شدته، منه بالتلقيح ببعض ميكروبه مع البعد عنه

---

(١) السواد بالفتح هنا الشخص وشبح انسان والسواد بالكسر المسارة في الكلام فهو مصدر ساوده أي ساره وبالضم اسم منه. والوساد بالكسر بل بالتثليث المخدة والمتكأ وهو هنا كناية عن الفراش ظاهرة المعنى

ولو شئنا لسردنا ماعلمناه من الشواهد التي نقرؤها في الجرائد، أو نسمعها من كل مختبر او مشاهد، على ما منيت به بلادنا من شرور الاباحة، وضروب التهتك والوقاحة، وما أراني إلا من أقل السامعين لمحاضرتي علما بها

واني أذكر من تنفعه الذكرى بأن تأثير هذا الاختلاط في مثل أمتنا أدهى وأمر من مثله في أوربة بقدر ما بيننا وبين أهلها من التفاوت في العقائد والتقاليد والعادات، وناهيكم بسرعة الانتقال من طور الى طور وما تقتضيه من غلو وإسراف، وقد ثبت أن الذين ابتلوا بعصبية السكر من المسلمين في الكبر، كانوا أشد اسرافا فيه ممن اعتادوه وكانوا يستحلونه من أول النشأة، وهذا يرجع الى السنة المعروفة في الطبيعة والاجتماع بناموس رد الفعل

ومنه ماحدثني به عالم اجتماعي مؤرخ في سورية قال: اننا نحن النصارى لما هتكنا ما كنا نجاري فيه اخواننا المسلمين من حجاب النساء لم يبق في مدينتنا امرأة منا إلا ولها خدن أو أخدان، وقد هبط هذا الاسراف الآن. قال هذا منذ عشرات من الاعوام، ولا بد أن يكون الاسراف قد عم وطم بما تجدد من حرية الاباحة بعد الاحتلال الاجنبي.

(الفائدة الثالثة) أن الجمع بين الجنسين في مقاعد التعليم في جميع مراحله واسنانه، هو مبدأ ماظهرت بوادره من اباحة الاختلاط بجميع صوره وأشكاله، من رقص وسباحة وسفر مع الاجانب ومخادنة لهم وتزوج بهم، وفي ذلك من المفاسد والمضار الادبية والاجتماعية والصحية والمالية ما لا يمكن بيانه الا في محاضرة مستقلة أو رسالة طويلة

(الفائدة الرابعة) أنه هدم لكثير من أحكام الدين وآدابه، وقطع لاقوى

الروابط المعنوية في الامة، فهو جناية على الافراد وعلى البيوت وعلى الامة بجملتها، ولا سيما أمة كالامة الاسلامية استولى على نظام التربية والتعليم فيها أناس من خصومها في دينها وفي سياستها . فلم يبق لها من القوى الروحية والادبية مايقاوم فتك هذه المفاسد فيها، ولم يوجد فيها من السروات والزعماء ولا من رجال الدين من يتلافى شيئا من شر منع السيطرة الاجنبية على المدارس الاميرية والاهلية ، دع شرور المدارس التبشيرية، وانما كان الباقي لها من صيانة الدين بعض تقاليده الموروثة ، وكانت كافية لحكم المختبرين بأن المسلمين اطهر أهل الملل أعراضا، واصحهم أنسابا

ودعاة التجديد الاباحي يريدون التذفيف على هذه الجروح العميقة التي أحدثتها هذه المدارس التي صرح لورد سالسبوري بأنها الخطوة الاولى لاستعمار البلاد التي تنشر فيها، لان أول تأثيرها أنها تحدث الانقسام والتفريق بين الامة فتجعل بعضها لبعض عدوا — فهؤلاء الدعاة أعداء لامتهم ووطنهم أعوان لاعدائها ، فاذا لم تقو على القضاء عليهم قضوا عليها اهـ

هذا ما كان كتب في المسألة وقد وضحنا بعضه باللسان ، وقد قام بعدنا الاستاذ الدردير فأثنى على المحاضرة وملقيها ، وقال إنه موافق له على كل ماقاله فيها ، ولكن بقيت مشكلة زواج الرجل بمن لا يعرفها . . . وقد أجبته عن ذلك بما أقنعه وأقنع غيره بعد بحث ومراجعة . ثم سألني بعض الشبان مسائل كثيرة في الموضوع وما حوله وكان من سرورهم واقتناعهم ما حمل جماعة منهم على المشي معي الى الدار لاطالة المذاكرة

تاريخ حروف الكتابة

(ومكان العربية منها)

(أول من وضع الكتابة فى العالم عرب اليمن وعنهم أخذ الفينيقيون الذين هم من عرب البحرين وما جاورها وعنهم أخذ اليونان . والحروف اللاتينية لا تصلح للغة العربية و لا للشعوب العربية والاسلامية أبدا)

بحث وتحقيق للامير شكيب أرسلان

كان أمير البيان قد كتب مقالا في تفنيد ما انخدع به بعض كتاب العربية المتفرنجين من استحسان تقليد الترك الكماليين في شر ماجنوا به على لغتهم وثقافتهم، ومدارسهم وصحافتهم، إتماما لما جنوه على دينهم وآداب ملتهم، وهو كتابة التركية بالحروف اللاتينية، ونشر هذا المقال في جريدة العهد الجديد التي هي من أخلص الجرائد العربية لأمتها ووطنها وأقدرها على خدمتها . ثم استزاده بعض المعجبين بتحقيقه لأمثال هذه المباحث فراجع فيه قبل اتمامه بعض كبار المحققين من علماء اوربة ذلك وفي مقدمتهم الاستاذ (مورتيز) الالماني المعدود من أشهر علماء هذا الفن في العالم كله وله فصل طويل في الكتابة العربية نشر في دائرة المعارف الاسلامية - والاستاذ (هس) السويسرى مدرس الألسن الشرقية فى جامعة (زوريخ) وهو من أصحاب القدم الراسخة في تاريخ الخطوط عامة والخط العربي خاصة وقد تلقى عنه أستاذنا الامام الخط المسند في سويسرة . كتب اليه الامير في ذلك وتلقى عنه مقدمة لجوابه مع وعد بتتمتها . وكتب أيضا إلى الاستاذ ليتمان الالماني العلامة الشهير يستوري زنده في الموضوع فلم يجده في برلين لانه كان بمصر

وكان ذا كره في هذا البحث مرارا

ثم جاء برلين وبحث مع الاستاذ مورتيز في المسألة زهاء ساعتين وشرع بعد ذلك في كتابة خلاصة هذه المباحث وأرسل ما كتبه إلى جريدة العهد الجديد فنشرته متفرقا في شهر شوال الماضي

المقالة الاولى

قال الامير بعد مقدمة ذكرنا خلاصتها آنفا :

الاستاذ موريتز يرى ما يراه هذا العاجز وما كان سبق لي ذكره في مقالة بهذه الجريدة وفي مقالات أخرى من قبل وفي تصريح صرحت به في أيام الحرب لاحدى الجرائد الالمانية وهو أن الخط العربي الحالي الذي يسميه علماء الخطوط بالخط النسخي هو نوع من الاختزال «الستينوغرافيا» وان العرب لم ينتقلوا اليه من الخط المسند الحميري الذي كانت حروفه منفصلة إلا حبا بالسرعة ومن بعد أن استبحر العمران وكثرت العلائق التجارية عند العرب

والاستاذ موريتز موافق لي على القول بأن طريقة العرب في الخط النسخي هي الطريقة التي يجدر أن يقال لها طريقة عصرية وإن فيها اختصاراً لائقاً بكتابة الأمم التي ازدحمت أشغالها وتناهت مدنيتها وإن فيها أيضاً توفيراً من الوقت ومن القرطاس

ثم إن الاستاذ موريتز يصرح تصريحاً لا مجال معه لادنى مراجعة بأن الحروف اللاتينية لا تصلح أبداً للسان العربي وأن اللسان العربي بالحروف اللاتينية لا يمكن أن يعرف

ومن بعد أن قررنا هذا نقلا عن هذا العلامة الشهير المشار اليه بالبنان في المشرقيات لا سيما علم الكتابات السامية يحسن أن نذكر خلاصة آرائه في تاريخ الخط البشري

فالاستاذ موريتز يذهب إلى ما هو معروف عند جميع العلماء من أن الكتابة وقعت بالتدريج وأنها كانت في البداية صوراً تامة فاذا أريد التعبير عن الاكل مثلا رسم الكاتب صورة رجل يأكل واذا أريد

التعبير عن النوم رسم صورة رجل نائم على فراشه وإذا كانت العبارة عن الضرب رسم رجلا يضرب رجلا آخر وهلم جرا ، وهذا الخط التصويري الذي يسمى بالهيروغليف في مصر وبالمسماري في العراق والذي منه آثار عند قدماء سكان أمريكا قد مست الحاجة إلى اختصاره . وفي الصين لا يزال التصوير غالبا على الخط

يقول البروفسور موريتز إن أول واضع للكتابة على شكلها الحالي منتقلا من الصور التامة الى الاشارة الجزئية يجب أن يكون رجلا عربيا من أهل اليمن

ويقول إن الاستاذ ليتمان يرى هذا الرأي نفسه

ويضرب مثلا فيقول : كانوا في عهد الكتابة بالصور إذا أرادوا ذكر العين صوروها كما هي أي هكذا (.) ثم عندما أرادوا الكتابة بالاشارات المختصرة عن الصور جعلوا حرف العين بصورة العين الباصرة فجعلوا حرف العين هكذا « ٥ أو ع » ثم إن الباء مختصرة من صورة البيت فالبيت صورته هكذا D كما لا يخفى لان الاصل في البناء يكون مكعبا فعندما أرادوا الاختصار رسموا البيت هكذا ب وتجد أن هذه هي صورة حرف الباء المشتقة من البيت ، أما نقط الباء فهو متأخر العهد والعلماء مجمعون على أن النقط في العربي لم يقع الاصطلاح عليه إلا في القرن الاول للهجرة

ويستدل الاستاذ على أن بداية الخط وقعت عند عرب اليمن بما يأتي :

ان المدنية البابلية ترجع الى ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . واذا رجعنا الي حفريات الانكليز والامريكيين الحديثة في «اور» الكلدانية نجد أن مدينة بابل كانت زاخرة مستبحرة العمران قبل المسيح بأربعة آلاف سنة والقرائن تدل على أن مدنية بابل جاءت إلى بابل من بلاد العرب

ووجدت في بابل أسماء « حموراني » و « عميصادق » وهي هذه الاسماء نفسها وجدت في اليمن بلفظ « عمي رانع » و « عمي صادق » . وانما تحرفت في بابل قليلا . ومن هذا وغيره استدل علماء الآثار على أن أصل المدنية البابلية هو من اليمن

وأما « الالف باء (Alphabet) فقد وجدت في اليمن بل في الدنيا كلها قبل المسيح بألفي سنة . وأقدم خط عربي وجد في اليمن ويقال له المسند . وقد أخذه الفينيقيون وأدخلوا عليه بعض تغييرات ، هذا هو رأي المحققين الذي عولوا عليه أخيراً بعد أن كان العلماء يظنون أن الفينيقيين هم الذين سبقوا الأمم كلها إلى الكتابة

ولعل الذي حمل علماء أوربة على نسبة إيجاد الكتابة إلى الفينيقيين هو كون اليونان أخذوا الكتابة عن هؤلاء . وكان ناقل الكتابة من الفينيقيين الى اليونان رجلا اسمه « قدموس » ومعناه « شرقي »

فاليونان يعلمون أن الكتابة وصلت اليهم من الشرق وهم نشروها في الغرب . وكان اليونان يكتبون نظير الشرقيين من اليمين إلى الشمال ولم يكتبوا من الشمال إلى اليمين إلا فيما بعد ، ولم يكن عند اليونان بادىء ذي بدء سوى عشرين حرفا ، ثم صاروا يزيدون عليها :

وأما الخط الأقدم وهو المسند الذي هو أصل الخطوط كلها فهو ثلاثة أنواع ، وكلها كانت حروفها منفصلة كالحروف الافرنجية الآن . وهذه الأنواع الثلاثة هي الخط اللحياني والثمودي والصفاءلي (نسبة الى حرة الصفاة التي وجدت فيها كتابات بهذا الخط)

ومن الخطوط العربية الخط السباءلي قيل انه وجد قبل المسيح

بستمائة سنة إلا أن العلامة موريتز يقول انه وجد قبل المسيح بألفي سنة

ومن الخط السبآءلي نوع جديد وجد منه كتابات في الرحبة شرقي جبل الدروز ترجع الى مابعد المسيح بثلاثمائه سنة . ووجدت خطوط سبائية بين الكتابات اليونانية التي وجدت هناك .

والخط الثمودي هو قبل السبآءلي وهو والصفاءلي مختصران من المسند . ومن هذه الخطوط جاء الخط النبطي الذي هو أول خط وصلت فيه الحروف بعضها ببعض (Corsif) والخط النبطي هذا هو أصل الخط العربي الموصول المسمى بالنسخي . وقد تسنى للعلماء بحسب ماحققوه الى هذا اليوم تتبع سير الخط العربي منذ أول إيجاده الى أن تقرر الخط النسخي الحالي . وان هذه الآراء هي نتيجة ماانكشف الى الآن . وستبقى معولا عليها الى أن يجد في الحفريات ما يغايرها أو يعدلها

المقالة الثانية

تقدم لنا في « العهد الجديد » ذكر آراء بعض العلماء المستشرقين المتخصصين في أمر الكتابات السامية ومنهم الاستاذ موريتز الالماني الذي هو مجمع على أن أقدم من كتب على وجه الارض هو رجل عربي من اليمن ، وعلى أمر آخر وهو أن اللغة العربية لايجوز أن تكتب إلا بالحروف العربية

واني لناشر غدا مادار بيني وبينه من المباحثات الشفوية هذه المرة جوابا بعث به الي الى لوزان منذ نحو شهرين . وسأنشر له خلاصة بحثه عن الكتابة العربية في « الانسيكلوبيديا الاسلامية » التي بدأت بها لجنة من العلماء قبل الحرب ولما تكمل . أما نص كتابه الاخير فهو هذا (بعد الترجمة) :

« الف شكر لك على كتابك اللطيف وعلى ما تمنيته لي بمناسبة دخول السنة الجديدة التي ننتظر منها الاستمتاع بصحة جيدة والعون في إيصال أشغالنا الى غاية حسنة

في الفصل الذى حررته في « اسيكلوبيدية الاسلام على الكتابة العربية قد فاتني بعض تفاصيل لم يتسع لها المقام فالكتابة النبطية التي تشتق منها الكتابة العربية (يريد الكتابة الحالية) هي ذات شكلين : (أحدهما) الشكل العادي الاقدم الذي منه كتابات على المباني الباقية من الأعصر الاولى ومنه الكتابات الرسمية ، وحروف هذا الشكل ليست متصلة بعضها ببعض . (والثاني) الشكل المتصل وهو الشكل الذي اختير له الاختصار والبساطة لاجل الكتابات اليومية وقد وصلوا فيه الحروف بقدر الامكان حبا بالسرعة

ولا شك في أن هذه الكتابة الموصولة قد جرى الاصطلاح عليها في المدن التجارية الكبرى مثل بترآء ومكة حيث كانوا يشعرون بالاحتياج الشديد الى أن يكتبوا سريعا وكثيراً . وانه يوجد كتابات حجرية من القرن الثالث والقرن الرابع قبل المسيح ليست من الكتابات الرسمية يتجلى لك فيها هذا الشكل الجديد بكل وضوح

وأما من القرن الخامس قبل المسيح فلم توجد كتابة من هذا الشكل كما أن كتابة زيد بقرب حلب وكتابة حران هي من الخط العربي الكوفي . وأما أصل تسمية هذا الخط بالكوفي فلا أزال من أمره في ظلمات . ويحتمل أن تكون دولة لخم الصغيرة في الحيرة قد اصطلحت على خط مشتق من الخط السوري وقد أعطي هذا الخط اسم الخط

الكوفي لان الكوفة هي خلف الحيرة كما لا يخفى فكأنهم أرادوا إعطاءه اسما يميزه عن الخط السوري إلا أن هذا الافتراض لا يزال محتاجا إلى أدلة من كتابات على الحجر أو في الورق وهذه لما توجد

وأما النقط فلم تظهر إلا في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة وذلك على كتابات المباني والمسكوكات المضروبة وعلى البردي . وكان الباعث اليها حس الاحتياج الى الفرق بين بعض أحرف الخط المتصل التي يوصلها بعضها مع بعض تشابهت كثيراً . ويظهر أن أقدم النقط هي نقطة الباء ب ونقطة الذال ذ وقد وجدت مؤخراً قطعة سكة قديمة من مجموعة البارون أو بنهايم عليها الكتابة الآتية هكذا (ضرب هذا الدينار سنة سبع ومائتين) انتهى

واليكم هذا المكتوب الآخر من الاستاذ هس المستشرق الشهير الذي يدرس الالسن الشرقية في جامعة زوريخ ، وهو ممن أقاموا مدة مديدة في مصر وعرفوا بلاد العرب وكانت له صحبة متينة العرى مع المرحوم الشيخ محمد عبده ، وعند ماساح الاستاذ الامام في أوربة نزل ضيفا على البروفسور هس في منزله في فريبورغ . ولقد تمكنت الصحبة بيني وبين الاستاذ المشار اليه منذ نحو عشر سنوات ، ففي هذه المدة استطلعت رأيه في بعض مسائل تتعلق بالكتابة العربية فصادف كتابي اليه أنه كان ملتاثا فكتب إلي ما يأتي :

« يا أميري العزيز لم أكن قويا أصلا عندما وردني بهذا الصباح كتابك الثاني واني مع ذلك أسألك العفو فمنذ ثمانية أيام أنا عليل بالنزلة الوافدة وعند ماجاءني كتابك الاول لم أظفر بالوقت الكافي لاجاوبك إذ كانت

الاسئلة التي ألقيتها علي تقتضي لجوابها لا أقل من نصف نهار وسأجاوبك عليها قريبا وإنما أكتفي الآن بالجواب على نقطتين : الاولى هي أن جميع العلماء يذهبون الى أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا الكتابة وحروف الهجاء السامية وساعطيك البراهين على أنه ليس الامر كذلك ، فاما الكتابة العربية فيجب التمييز جيداً بين الكتابة المعينية والسبائية مما يسميه علماء العرب الخط المسند أو خط حمير والكتابة العربية الشمالية المسماة بالنسخي فانه لا تعلق لاحدى الكتابتين بالاخرى. وليس عندنا شيء من العلم عن أصل الالف باء السبائية التى فيها عدة من الحروف لا توجد فى الفينيقية أما الحروف الهجائية الشمالية التى أقدم أشكالها تشابه تماما النسخي الحالي (بدون تنقيط كما لا يخفى) فهي مشتقة من حروف الهجاء النبطية . وان أقدم كتابة عربية بلغة عرب الشمال التي عندنا في القرآن هي المنسوبة الى مر القيس (امرىء القيس) بن عمرو التي وجدت في « عارة » بقرب دمشق . وتاريخها سنة ٣٢٨ بعد المسيح وحروفها نبطية والخط النبطي حروفه موصولة مثل النسخي

وأنت تدري أن الكوفي هو مشتق من النسخي (وبعضهم ذهب الى أن النسخي مشتق من الكوفي) وقريبا أكتب اليك مطول الخ » انتهى

فمتى وردني كتاب الاستاذ (هس) الثاني أبادر الى نشره ، وقد يصيب الانسان في نشر منقوله أكثر مما يصيب في نشر مقوله لاسيما اذا كان لا يتوخى شيئا سوى الفائدة وتجلية الحقيقة ، وهذا لا يمنعنا من تعليق ملاحظاتنا الخاصة عند اللزوم

شكيب ارسلان

الخريدة العصماء ، لاشعر العلماء ، وشيخ الفقهاء والادباء ،

الاستاذ العلامة الشيخ اسماعيل الحافظ

عضو محكمة الاستئناف الشرعية في فلسطين

في عيد الرافعي الذهبي

لمن القريض صغت اليه الهام؟ ... وأحاطه الاعجاب والاعظام
لم أدر حين بدت طلائع آيه ... فكر يجود بهن أم إلهام
سارت مواكب نظمه وكأنها ... جيش من الدر اليتيم لهام
يتألق الابداع فيه وفوقه ... من هدي أعلام الهدى أعلام
لا تلمح الاحلام سر بيانه ... حتى تفيء برشدها الاحلام
رقت حواشيه فهن مناهل ... ورست قوافيه فهن إكام
وافترّ عن حر المعاني مثلما ... تفتر عن أزهارها الأكمام
تمليه من (عبد الحميد) قريحة ... عزت مناهجها فليس ترام
فياضة بجوامع الكلم التي ... يبقى لهن على الدام دوام
دانت أساليب البيان لربها ... وأطاعه الابداع والاحكام
وأقام في الفيحاء صرح بلاغة ... تعشو لضوء مناره الأقوام
سام يجدد للعروبة سؤددا ... يُزهى به جد العروبة سام
يهدي المشارق ضوؤه بروائع ... شغفت بها الاسماع والافهام
من كل شاردة كأن بديعها ... قطع الرياض يجودهن غمام
جوابة الآفاق يُرقب نجمها ... في كل أفق أشرقت ويرام
كملت محاسن نظمها وسما بها ... طبع عليه وضاءة ووسام
والشعر هندام وطبع مشرق ... والبعض لا طبع ولا هندام

***

لك في مجال الفضل يا ابن زعيمه ... سبق وفي أوج العلى استعصام
جددت من عهد القريض محاسنا ... ذهبت بها الاعصار والاوهام
ألقى عليك شعاع فكرك رونقا ... للسحر في جنباته إلمام
وكسوته من صفو طبعك حلة ... أضحى بها في الناس وهو غلام

فلبسته ثوباً قشيباً مونقاً — والشعر فوق حماته أهدام
وجلوت منه منهلا مستعذباً — يغشاه من فطن العقول زحام
شعر عليه من الجديد ملاحة — ومن البراعة والنبوغ وسام
نسقان، منه عبرة وهداية — مثلى، ومنه صبابة وغرام
لولا احتشام فيه صان رواته — إذ أنشدوه وسامعيه لهاموا
هو في النفوس كواكب مشبوبة — تهدي النفوس وفي الرءوس مدام
غزل كمعتل النسيم وحكمة — صحت بها لاولي النهى أحكام
وقلائد المدح لو هي قلدت — للبدر تاه البدر وهو تمام
ولكم له آيات وصف وحيها — جهر، ولمح بيانها أعلام
يجلو الحقيقة ربها وضاحة — لا الشك يعروها ولا الابهام
فتكاد إذ يصف المعاني أن ترى — للعين أو يبدو لهن قوام
وتكاد لا تدريه هل هو شاعر — بلغ المدى في الوصف أم رسام؟

***

لا بدع أن سبق الرجال فانه — كساب كل فضيلة غنام
صاغت يد الخلاق جوهر نفسه — وأجاد صقل طباعه الاسلام
فبدا وفيه مناقب علوية — وله من الخلق العظيم ذمام
وغدا وفي برديه نفس برة — تنبو عن الاسواء حين تسام
تخفى لفرط صفائها فاذا انجلت — للناس فهي محاسن ونظام
طبعت على الادب الرفيع فمالها — فيما سوى الحسن البديع مرام
فالكون شعر عندها، وضروبه — أحداثه، ولغى الورى أنغام
والارض ناد والزمان قصيدة — أبياتها الآناء والأيام
والنجم نور والظلام خمائل — والصبح وجه مليحة بسام
والافق بهو والبروج هياكل — هي للشموس منازل وخيام
والنور لوح فيه من صور الورى — نقش، ومن أعدادهم أرقام
والضوء ما بين العوالم صبغة — كسيت به ألوانها الاجسام
والكائنات جواهر منثورة — نظمت بها الاشكال والاقسام

فاعجب لها فطناً تناهت في العلى سبقاً فليس أمامهن أمام
واعجب لها نفساً صفا لألاؤها فلها بآثار الفنون هيام
لو شاءت الاقلام وصف جمالها عيِّت بوصف جمالها الاقلام

***

لئن اصطفت منك القوافي مبدعا أحيا رفات الشعر وهي رمام
فأبوك بحر العلم جدد نهجه وجرى مع الشعراء وهو إمام
ونمتك في عليا عدي سادة لهمُ بأندية البيان مقام
من كل غطريف كأن جنانه قبس ، ومتن يراعه صمصام
عمر أمير المؤمنين يقودهم يوم الفخار وشبله العلام
شرف أشم لو استقر ضياؤه لم يبق لا ظلم ولا إظلام
شرف صحبت المجد تحت ظلاله وجفوت ما فيه عليك ملام
ورغبت عن زهو الحياة زهادة إذ قل أكفاء وعز كرام
فلرب منزل رفعة طالت له الأعناق وازدحمت به الاقدام
سحبت بساحته الاماني وانجات فى أفقه الآمال وهي وسام
أعرضت عن أفيائه متذمما والمجد يأبى أن ينالك ذام
لاخير في نيل الفخار إذا استوى يوم المفاخر منسم وسنام

***

ياشاعر الاوطان ذُد عن حقها فلقد يصادر حقها ويضام
أنت البصير بما يصون كيانها ويصد عنها الخطب وهو جُسام
نافحت عنها والحفائظ تلتظي والعدل جور والضياء ظلام
وصوارم السفاح تحت شفارها حتف لأحرار البلاد زؤام
في فتية غرّ سمت بنفوسهم همم تخوض الهول وهو ضرام
كرهوا الحياة على الهوان فأزمعوا والعيش في ظل الهوان حِمام
فقضيت حقاً لا يقوم بمثله اذ ذاك الا الاروع المقدام
وسُقيت فيه النفي صاباً علقما والسجن، وهو على الليوث حرام
لك بين جلق والحجاز منازل جثم البلاء بها وعنّ السام

وافيتها ثبت الجنان مشيعاً ... بالصبر والصبر الجميل عصام
ولو أن جزعت لكنت أخلق جازع ... لكنه لا يجزع الضرغام
والمرء لا يُبقي عليه نفسه ... جبن ولا يودي به الاقدام
حتى نزلت بقر كليسة وانجلى ... عن وجه تلك المعجزات قتام
أطلقت من أبكارهن خرائداً ... جذب القلوب لحسنهن زمام
وبعثت في الاوطان صوتاً مشجياً ... مصر لقد طربت له والشام
فأعد على الاوطان من ألحانه ... نَدَبُه فقد نَمَتْ وطال مقام
وأجل مقالك للنضال مناهضاً ... فمن المقال أسنة وسهام
وأهب بقومك المعالي إنهم ... نهض الورى للمكرمات وناموا
عصف الزمان بهم وهم في غفلة ... شغلتهم الاحلام والاوهام
وأزالهم عن خيمهم وقديمهم ... سيل من البدع الجديد عُباب
يتزاحمون على متاع زائل ... (فهمو قعود حوله وقيام)
نزعوا إلى الخلف الذميم فأركسوا ... والخلف داء في الشعوب عُقام
والخلف إن ينقض قضية معشر ... يوما فليس لنقضه إبرام
ولكم خلت من قوة موفورة ... ذهبت بها الاشياع والاحزام (١)
أولى الشعوب بعيشة مرهوبة ... شعب حمته ألفة ووئام
وأذل مفعول على حكم الهوى ... بين الرجال تخاذل وخصام
فابعث لمن بعثوا الخلاف ملامة ... حرّى تذوب ابرحها الاوغام (٢)
وأنض عليهم من شعورك إنه ... نعم الشعور محبة وسلام
وأدر سلافا من بيان طالما ... تلفت على نبراته الاخصام
واهنأ بعيدك انه عيد له ... أيد على الادب الصميم جسام
خمسين عاما جزتها وكأنها ... من حسن ما غذت القرائح عام
أهديت للفصحى بهن قلائدا ... لا عمرو أهداها ولا همام
واسلم يتيه بك القريض ويعتلي ... ويحوطك التكريم والاكرام

---

(١) الاحزام كالاحزاب وزنا ومعنى
(٢) الاوغام الاحقاد الثابتة في القلوب

باب الرسائل

شهادات علماء الغرب المنصفين، للاسلام والنبي والمسلمين (١)

﴿ الشهادة الاولى ﴾

من كتاب استعداد الاسلام لقبول الثقافة الروحية للاستاذ هورتن الالماني المستشرق

صحيفة ٥ — كانت العرب في القرون الوسطى (الى سنة ١٥٠٠ تقريباً) أساتذة أوربا

صحيفة ٨ — لم ينشأ ظن الاوربيين بأن الدين الاسلامي لا يتمشى مع المدنية الا من جهلهم بهذا الدين وعدم تعمقهم فيه بل لتعلقهم بالقشور التي لا يفهمون منها الا ما يكتبون .

صحيفة ٩ — في الاسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم ، فهو الدين الوحيد الذي يوحد بينهما فتجد فيه الدين ماثلا متمكنا في دائرة العلم، وترى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متعانقتين ، فهما واحدة لا اثنتان

صحيفة ٩ ـ ١٠ — كان في القرن العاشر في قرطبة زاهد يسمى (ابن مسرة) وكان هذا الزاهد يشعر هو وتلاميذه أنه من الاسرة الاسلامية ·

صحيفة ١٠ — ابن رشد الفيلسوف الطائر الصيت في القرون الوسطى كان إيمانه بالله عظيما وكان معتصما بالقرآن حتى يبجل كل كلمة في القرآن ومع ذلك لم يمنعه دينه والقرآن الذي يعتصم به من مطالعة الفلسفة اليونانية والاخذ من آثار أرسطوطاليس والبناء عليها .

صحيفة ١٢ — لا تجد في الاسلام سداً يمنع نفوذ الثقافة الغربية عنه ، بل ترى أن له استعداداً غير محدود لقبول الثقافة .

صحيفة ١٧ — استعداد الاسلام لقبول ثقافة غير إسلامية لا حدود له .

---

(١) أرسل الينا شذرات الشهادات الآتية صديقنا الدكتور زكي كرام الدمشقي المقيم في (برلين) ووعد بترجمة غيرها من كتب علماء أوربة من كل شعب منهم على ضيق وقته واشتغاله بالعلم والمعاش فنشكر له جهاده واجتهاده وما قصد به من تبكيت المبشرين وأعوانهم من ملاحدة المسلمين عبيد المستعمرين وخدمهم وأعداء أمتهم ووطنهم

﴿ الشهادة الثانية ﴾

من مقدمة ترجمة القرآن للعلامة منني المستشرق

صحيفة ٩ – كان محمد صلى الله عليه وسلم أميناً وأعدل رجل

صحيفة ٣١ – إن مرشد المسلمين هو القرآن وحده. والقرآن ليس بكتاب ديني فقط بل كتاب علم وآداب، وتجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية، حتى إنه يرشد الانسان إلى وظائفه اليومية. والاحكام الاسلامية التي لا توجد في القرآن توجد في السنة، والتي لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد في الفقه الواسع الذي هو علم الحقوق.

صحيفة ٣٦ — إن العربي الذي أدرك خطايا المسيحية واليهودية وقام بمهمة لا تخلو من الخطر بين أقوام من المشركين يعبدون الاصنام يدعوهم الى التوحيد ويغرس في أفكارهم عقيدة أبدية الروح لا يستحق أن يعد بين صفوف رجال التاريخ العظام فقط بل يستحق أن يدعى نبياً. (١)

﴿ شكوى المنار الى المنار ، من أحد علماء مليبار ﴾

رسالة من زميلنا الاستاذ الفاضل المولى محمد عبد القادر المليباري الهندي

إلى فضيلة السيد الامام، حجة الاسلام، صاحب مجلة المنار بالقاهرة – أدامه الله للمسلمين ذخراً ، وزاده شرفا وقدراً

من أحد مريديه في الغيب المستفيدين من فيوض قلمه المهتدين بنور مناره محمد عبد القادر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مولاي الجليل ، أرجوكم أن تتفضلوا ببذل بضع دقائق من دقائقكم الثمينة لسماع شكواي التي طالما كنت أردت أن أرفعها الى فضيلتكم ولم أتمكن منه الا الآن لما كان يتوارد علي من نوائب الدهر

أهم ما أشكوه وأبث حزني منه الى فضيلتكم هو انقطاع المنار عني منذ ثلاث سنوات ، وحزني على هذا عظيم لاني صرت منذ انقطاعه عني كمن يعيش في الظلام، لان المنار كان لي مناراً بالمعنى الحقيقي.

---

(١) المنار : ان بعض المستشرقين وغيرهم من علماء أوربة الذين اطلعوا على تاريخ الاسلام لم يروا ملتحدا ولا مفراً من الاقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع حفظ كرامتهم العلمية الا وصفه بأنه من الرجال العظام . وأما هذا العلامة المنصف فقد أبى عليه استقلاله واحترامه للعلم والحق الا أن يقول لهم إنه ليس عظيما فقط بل هو نبي أيضا.

كنت قارئاً للمنار تسع سنوات متوالية لكن لا على سبيل الاشتراك بل بمحض فضلكم ومنكم، ذلك أنه لما بلغني نبأ المنار حين كنت مباشراً لعمل جريدتي «المسلم» سنة (١٣٣٤) بادرت إلى طلبه من ادارته فلم تجبني ثم أردفت بطلب آخر مع خمس روبيات ثم بآخر، هكذا كنت أوالي الطلب بعد الطلب الى مدة تزيد على ثمانية أشهر . ولم ألق من الادارة الا السكوت . وأخيراً تفضل علي المرحوم السيد صالح مخلص رضا بأجزاء من المنار مع كتاب قال فيه بعد الاعتذار عن تأخر الاجابة « ... إن شقيقي السيد محمد رشيد عند ما قرأ كتابك الاخير المؤرخ ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٣١ استاء جداً وأمر باجابة الطلب وأن يقدم اليكم المنار لا على جهة الاشتراك بل مبادلة أو مساعدة لمجلتكم فاقبلوا ذلك كرما منكم واحسبوا ما أرسلتم من ثمن ما تطلبونه في المستقبل من المطبوعات وهو يهديكم عاطر السلام»

هكذا كنت منتظما في سلك قراء المنار. لا أستطيع أن أعبر عما أنا متلبس به من الشكر على هذا الاحسان الجسيم كما أني لا أستطيع الغفلة عنه ولو لحظة في حياتي من أجل نعم الله علي أن وفقني لان أكون من قراء المنار إذ نفخ في روحا جديداً جعلتني بصير القلب وحيّ النفس . أنشأت لنشر مبادىء المنار مجلة باسم «الاسلام» بلغة بلدي (اللغة المليبارية) فلما رأى الناس ضوء المنار منعكساً منها استغربوه وعلت من بينهم جلبة وضوضاء ونسبوني الى الزيغ والضلال ونبزوني بلقب الوهابي، ولكن نور الحق لم يعدم قلوبا تنزل فيها أشعته فتنبهت أفكار واستيقظت نفوس . وبالجملة فتح المنار في الديار المليبارية التي كانت متصلبة في الجمود باب فكرة «الاصلاح الديني» ولكن الجماهير ممن انتسبوا الى العلم أخذوا يقاومون هذه الفكرة ويمنعون الناس عن قراءة مجلتي ويحذرونهم أيضاً من المنار مع أنهم لم يكونوا حينئذ رأوه حتى ولا غلافه وذلك لانهم كانوا قد أساءوا الاعتقاد فيه من قبل بسوء تأثير مؤلفات يوسف النبهاني (١) ولهذا لم أنجح في سعيي لان أجد أحداً يرغب في الاشتراك فيه فكنت أعير لبعض أصدقائي الذين آنست فيهم سلامة الفطرة وحسن الاستعداد بعض أجزائه للقراءة رجاء أن يوفقهم الله للاهتداء بنوره فلم أخب في

(١) هو الدجال الخرافي الشاعر البيروتي وكان استأجره رجل كبير بمصر للطعن في الاستاذ الامام وخطته فلم يجد بداً من الطعن في أستاذه الحكيم السيد الافغاني ومريده صاحب المنار لان الاصلاح الذي يعاديه قام بهم وكان قبل ذلك يطري الاستاذ الامام قولا وكتابة

رجائي ذلك . فان الذين لم تفسد فطرتهم في هذه البلاد قد أخذوا يعرفون قدر المنار ولو في الجملة حتى ظهر من بعضهم في الايام الاخيرة رغبة في الاشتراك فيه فطلبوه بأنفسهم من ادارته كعبد القادر بكننور ، ومحمد سيدي . بكر انكنور بكوشي ، ومحرر مجلة الارشاد ، ومحرر جريدة يولوكم بكاليكوت ولكن من غرائب الزمن أن صرت بعد ذلك أستعير منهم أجزاءه بعد ما كنت أعيرها لهم . ومما يوجب المسرة بالنسبة الى المنار أن أرى منهم الآن في الاعطاء ما كنت رأيته منهم من قبل في الاخذ من الكراهة . ولكن ذلك يؤلمني نظراً الى ماصرت اليه من الحالة في أمر المنار

فالمرجو من فضيلتكم أن تتفضلوا علي بأن تأمروا إدارة المنار أن ترسل إلي المنار تباعا . وانما انقطع عني من الجزء الثاني من المجلد السابع والعشرين ولكن لا أرى من الصواب أن أسألكم أن ترسلوا إلي جميع ماصدر منه الى الآن فسأطلبها مع تقديم الثمن عند مايتيسر لي ذلك وانما أرجو الآن أن ترسل لي من الجزء الاول من المجلد الجاري (٢٩) .

هذا وإني لأستحيي أن أسألكم أن تواصلوا علي ذلك الكرم الذي غمرتموني به تسع سنوات ، ولهذا فاني مستعد لان أدفع اليكم مبلغاً ترضونه لي ثمناً للمنار ، أو كله على ما أنا عليه من ضيق اليد . وعلى كل حال فاني واثق بأني لا أكون محروما من قراءة المنار فان حب المنار قد امتزج بدمي ، وصارت قراءته قوت روحي ، حتى لا أستطيع فراقه ولا يطيب لي العيش بدونه ، ولولا أنه يأتي لأصدقائي المذكورين وتمكنت من استعارة أجزاء منه منهم أحياناً لضقت ذرعا

أود أن أفيدكم - للنشر في المنار - ببيانات عما أحدث المنار في المليبار من الشعور بالحاجة الى الاصلاح الديني وما يجري فيها من السعي وراء ذلك الاصلاح ومن المقاومة له ممن يعرفون بعلماء الدين بادعائهم أنه «الوهابية» وما قد حدث في هذه الايام من قيام فريق يرأسه شاب عاد من مصر قبل سنة بعد أن أقام بين المتفرنجين فيها مدة بالطعن في الامام ابن سعود وأنصاره وقومه الذين يعرفون بالوهابيين انتصاراً للاخوين محمد علي وشوكت علي وسأرسل الى فضيلتكم هذه البيانات بصورة مقالة إن شاء الله اهـ

(المنار) إننا نحيي أخانا وزميلنا بأحسن من تحيته ، من السلام ورحمة الله وبركاته ونعمته ، وسيطبع عنوانه المرسل باللغة الانكليزية ويرسل اليه المنار هدية دائمة ، مع المجلدات الثلاثة التي فقدها تامة ، لا نطلب منه جزاء ولا شكرا عليها الا نشر دعوة

الحق وجهاد الباطل وأهله، والله في عونه ونصره، كما نصرنا على الدجالين، ونصر إمام السنة عبد العزيز آل سعود وقومه على الباغين ومكن له في خير الارض ومهد الاسلام، وأنطق بالثناء عليه جميع الاقوام

ميزانية الازهر

وافق مجلس الازهر الاعلى برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر في اجتماعه بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٩ شوال الموافق ٩ إبريل سنة ١٩٢٩ على مشروع ميزانية الازهر عن السنة المالية المقبلة وقد قدرت الايرادات والمصروفات بنحو ٣٢٠٠٠٠ جنيه وهي تتضمن المشروعات الجديدة التالية :

١ — ٧٠٠٠ جنيه لارسال بعثة أزهرية مؤلفة من عشرين طالباً الى الجامعات الأوربية لتلقي العلوم التي تناسب التعليم في الازهر والمعاهد الدينية

٢ — ٦٠٠٠ جنيه لانشاء مكتبة لتعريب الكتب التي لها ارتباط بالتعليم بالازهر والمعاهد الدينية وإنشاء مجلة دينية تدعو الناس إلى الدين وتحببه الى نفوسهم بنشر فضائله وإذاعة محاسنه وتمكين عقائده من القلوب حتى لا تزعزعها الشبهات العصرية ومقاومة دعوة الملحدين ودفع أضاليلهم

٣ — زيادة ٢٥٠٠ جنيه على الاعتماد الخاص بمكافأة أعضاء امتحان الشهادات لتكون متفقة مع المكافآت التي تمنح لامثالهم بوزارة المعارف

٤ — ٥٠٠ جنيه تمنح جوائز لتأليف كتب في العلوم التي تدرس بالازهر والمعاهد الدينية وتتقرر فائدتها للتعليم بهذه المعاهد

٥ — ٥٠٠ جنيه ثمن أدوات وعقاقير للعيادات الطبية الصغيرة التي ستنشأ بالمعاهد وانتداب الاطباء اللازمين لها

٦ — ٥٥٠٠ جنيه لاستئجار أماكن صحية لطلاب القسمين العالي والاولي بالازهر وهم الذين يتلقون دروسهم بالمساجد على الطريقة القديمة ولتجهيز هذه الاماكن بالادوات الحديثة

٧ — رفع مرتبات هيئة كبار العلماء من ٣٦ جنيها في الشهر الى ٤٠ جنيهاً في الشهر

٨ — جعل درجات العلماء المدرسين بالمعاهد ثلاث درجات خامسة وسادسة وسابعة أسوة بدرجات مدرسي المدارس الاميرية التابعة لوزارة المعارف

٩ — ضم مصروفات قسم الوعظ والارشاد الى مصروفات قسم التخصص العالي

الحالة السياسية العامة في مصر

بيان حر للعبرة والحقيقة والتاريخ

منذ سنة كاملة حدث في مصر انقلاب في شكل الحكومة اذ اقتضت إرادة جلالة الملك تعطيل مجلسي النواب والشيوخ (البرلمان) الى مدة ثلاث سنين ، ووقف العمل ببعض مواد الدستور التي تقيد الحكومة بالمجلس وتتعذر مراعاتها بدونه — واقتضى ذلك إقالة أو إسقاط وزارة مصطفى باشا النحاس البرلمانية وهو رئيس الوفد المصري ذو الاغلبية في البرلمان ، ونوط رياسة الوزارة بمحمد محمود باشا سليمان الذي كان وكيل الحزب الحر الدستوري ثم صار رئيسه . وكان ذلك عاقبة اضطراب في أعمال الوزارة البرلمانية بتدخل السلطة البريطانية المحتلة في شؤونها ، ووضعها العواثير في طريق كل عمل من أعمالها ، ومحاولة السيطرة على كل من السلطتين التشريعية والتنفيذية فيها ، وتهديد الجرائد الانكليزية لها من بعد وفاة سعد باشا زغلول ورفض الحكومة الوفدية للمشروع الخزي الذي اتفق عليه عبد الخالق ثروت باشا مع وزارة المحافظين البريطانية ، وهو شر من الحماية السابقة بما كان يجعل به سلطان الانكليز في مصر والسودان شرعياً باقرار برلمان الامة له ،

كانت الوزارة البرلمانية من أول عهد دورتها الجديدة بعد تعطيل الدورة السابقة بضغط السلطة المحتلة وزارة ائتلافية تتمثل فيها قوى الاحزاب المصرية كلها ، وكان سعد باشا هو الضليع بجمع كلمتها وحفظ وحدتها في البرلمان والحكومة معاً ، بما آتاه الله تعالى من النفوذ الاعلى في البلاد المؤيد بالبصيرة والذكاء والعزم والحزم وقوة العارضة ، بعد أن ألانت قناته أحداث الزمان ، حتى خضعت له الاقران التي كانت تنافسه في الزعامة ، واعترفت له بالتفوق والامامة .

وقد كان من المقرر لدى جميع العارفين بحال مصر من أهلها ومن الاجانب عامة والانكليز خاصة أنه لا يوجد في مصر رجل ذو مكانة عالية يمكن أن يملأ الفراغ الذي حدث بموت سعد باشا ، صرح بذلك كبار محرري الجرائد الانكليزية كغيرهم وظهر مصداقه بعد وفاته بقليل ، فكان أول صدع حدث بعده في البرلمان أن الاحزاب المنافسة للوفد صارت تنقم منه أثرته في مجلس النواب ثم تصرف أعضائه في الحكومة ، ونقم كثير من جماعات الامة وأهل الرأي من أفرادها أثرة القبط

فيهما معا ، (أي في المجلس والحكومة) فقد أسرفوا في ذلك حتى كادوا يكونون أو كانوا كحزب البرامكة من موالي الفرس في حكومة الرشيد العباسية ، أخذوا من الوظائف فيهما أضعاف مايناسب عددهم القليل وظلوا يطلبون المزيد . وقد عجز خليفة سعد في الوفد عن القيام ببعض ما كان مضطلعاً به سعد من حفظ الوحدة ومنع الشطط، لانه على ما أوتي من علم بالحقوق ، واعتدال في الاخلاق ، وصدق في الوطنية ، وما نعتقد فيه مع الجمهور من حسن النية ، لم يؤت بعض ما أوتي سعد من قوة الارادة ، وسحر البيان ، وقوة السلطان ،

هذا الضعف هو الذي أطمع السلطة المحتلة في اسقاط الوفد بعد اليأس من تطويعه ونيل أربهم من مصر به ، وزاد في طمعهم شقاق الاحزاب له ، ولعله لو قلد محمد محمود باشا رئاسة مجلس الوزراء وقنع مصطفى باشا النحاس برئاسة مجلس النواب لأمكنهما بالتعاون أن يحفظا تلك الوحدة التي كان سعد باشا يحرص على بقائها حتى إنه ليفتديها بكل ماير اه معارضا لها من آرائه ومقاصده ، فان محمد محمود فيما نرى أقوى رجال مصر عزماً وأمضاهم ارادة بعد سعد وثروت ، ولقوة الارادة في هذه المواقف ماليس لغيرها من صفات الرجولية وقوة التأثير وإمضاء الامور

لايرجى ثبات أمر من أمور الامم العامة يتوقف اتمامه على كفاية رجل واحد الا اذا عاش ذلك الواحد عمراً طويلا أمكنه فيه أن يربي جماعة يقرب استعدادهم من استعداده فينمّوا مابدأه بالتعاون والثبات ، حتى ان الامور العامة التي يكون مبدؤها من الاختصاص الرباني لا من الكسب الانساني (كالدين) تدخل في عموم هذه السنة الالهية في الاجتماع البشري ، فلولا الخلفاء الراشدون وأعوانهم من عظماء الصحابة (رض) الذين رباهم النبي صلى الله عليه وسلم في مدة عشرين سنة لضاع الاسلام كما ضاعت أديان أخرى من أديان الانبياء المرسلين الذين لم يستطع أصحابهم ضبط ما جاءوا به من الوحي وحفظه في الصدور والسطور، ونشره في الصحف والدعوة في أنحاء المعمور، كما حفظ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القرآن في المصاحف الرسمية، وضبط التابعون لهم السنة النبوية، ونشر ذلك في العالم مؤيداً بقوة البرهان، وقوة السلطان، وإقامة الميزان

ولقد كان بدء هذه النهضة المصرية السياسية المدنية والعلمية العملية دعوة السيد جمال الدين الافغاني، ولكنه نفي من البلاد قبل أن يتم تربية حزبه الوطني ، ونفي من بعده زعيم أصحابه الشيخ محمد عبده الذي قال هو يوم نفيه إنه هو الذي عمله يتم في مصر، واستولى على البلاد الاجانب ، فلما عاد الشيخ محمد عبده لم يجد

أدنى منفذ للعمل السياسي لضعف حزبه، وضعف الامة أو عدم تمام تكوينها ووحدتها، وقد كان يقول في هذا الامر « ياويح الرجل الذي ليس له أمة » وقال لي في الامر الذي قبله: « والله لو أن في مصر مائة رجل لما أمكن للانكليز ان يقيموا فيها، أو لما أمكن ان يعملوا فيها ما أقاموا عملا. لا أعني أنه لا يوجد فيها من يعلم ما يجب أن يعمل ولا من يستطيع أن يعمل، فان فيها كثيراً من المتعلمين القادرين على الاعمال، ولكنهم ضعفاء الارادة لاعزيمة لهم » وقد أظهرت الايام من بعده صحة قوليه ولهذا انصرف بكل جهده الى الشق الثاني من الاصلاح الذي كان نهض مع السيد جمال الدين به وهو الاصلاح العلمي الديني. وقال في الشق الآخر بل كتب ما نصه « أما أمر الحكومة فقد تركته لقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لانني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الامة من غراس تغرسه، وتقوم على تنميته السنين الطوال، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن »

صدق الامام في قوله فانه مقتبس من قوله عز وجل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد قدر سبحانه للشعب المصري ان يغير ما كان عليه من التفرق والانقسام، والخنوع الذي يشبه التعبد للحكام، وظهر في جمهور دهمائه مبدأ الوحدة التي تسمى بالرأي العام، وإنما كان هذا بتأثير أحداث الزمان، وشطط رجال الاحتلال وإسرافهم في احتقار المصريين، وسوء استعمالهم للسلطة العسكرية العرفية في زمن الحرب، وعدم وقوفهم في إرهاف الحد عند حد، كما شرحناه في مقالنا التاريخي عن القضية المصرية سنة ١٩٢١ (ص ٤٩٦ - ٥٢٢ ج ٧ مجلد ٢٢) فبذلك الارهاف تم تكوين الشعور القومي الوطني في الشعب المصري، وظهر ظهوراً جليا في ثورة سنة ١٩١٩ وهو ما كان ينوط به الاستاذ الامام العمل السياسي المنتج لمصر، ولما كان هذا الطور الجديد لابد له من زعيم سياسي قد أوتي من المواهب ما يمكنه به أن يوجهه الى السعي لاستقلال البلاد - لم يوجد في مصر من قدر على ذلك الا بقية أعضاء حزب السيد جمال الدين السياسي وربيب خليفته الاستاذ الامام وهو سعد زغلول

ولكن سعدا كان شيخا كبيراً لم يرب أحداً على الغرار - أو المبدأ - الذي وضعه السيد جمال الدين قبل نيل هذه الزعامة لان القضاء كان قد شغله عن التربية الاخلاقية والسياسية، ولابعدها لقصر الوقت وكثرة الشواغل العملية عن هذه التربية، ولكن آراءه ومنازعه الاستقلالية وسيرته في الجهاد دونها قد تمكنت في أنفس كثير من رجال الوفد الذين جاهدوا معه وثبتوا على الجهاد والجلاد فاستطاعت الثقة الادارية

له أن تحافظ على اتحاد الكثرة الساحقة في مجلسي الشيوخ والنواب وعلى تأييد السواد الاعظم من الامة له

فلما رأى المندوب السامي البريطاني هذا ناجز الحكومة المصرية العداء في كل من هيئتيها التشريعية والتنفيذية ، وقعد لها كل مرصد ، وشرع يعاقبها على كل قول وفعل، ولاسيما تبرمها باستبداده ، وحكومة لوندرة وهي بيد حزب المحافظين تؤيده في كل مايقرره ، وتجيبه إلى كل مايطلبه ، حتى أرسلت بطلبه أسطولا ضخما إلى الاسكندرية لتأييد معارضته في مسألة داخلية صغيرة لاتدخل في معنى التحفظات الاربعة التي قيدوا بها الاستقلال المصري بنص ولا فحوى ، ولا يمكن أن يستدل بها عليها بطريق من طرق الدلالة الثلاث : المطابقة والتضمن والالتزام.

فثبت بهذا أن الحكومة البريطانية تريد أن تسخر الحكومة المصرية لمشيئتها بالقوة القاهرة إن لم تذل وتستخذ لارادة مندوبها السامي وتنفذ أوامره الشفوية والتليفونية بدون أدنى معارضة من البرلمان وغيره ، فهو قد عارض البرلمان في وضع بعض القوانين وتقرير بعض الاصلاحات الداخلية، كقانون الجمعيات والاصلاحات العسكرية، وأكره الحكومة على اعادة من شاء من موظفي الانكليز الذين خرجوا منها بمقتضى قانون التعويضات الذي غبنت به مصر غبنا فظيعا، فعاد من شاء منهم بعدما أخذوه من ألوف الجنيهات تعويضا عما بقي لهم من سني الخدمة، إلى غير ذلك مما ليس احصاؤه من موضوع مقالنا هذا، وهو من الجزئيات التي نعنى بمعناها الكلي دون أفرادها.

لم يتجرأ اللورد جورج لويد المندوب السامي على هذا الاستبداد كله الا لما ثبت عنده وعند حكومته من زوال الوحدة المصرية السعدية التي ألجأت دولتهم الى إلغاء الحماية والاعتراف لمصر بالاستقلال التام، ولو مع تلك التحفظات التي كان ينكرها سعد باشا والرأي العام. ولم يكن لمصر من سبيل الى وقف هذا التعدي عند حده الا المحافظة على تلك الوحدة في البرلمان والحكومة ،فكان أكبر ماخسرت بموت سعد أنه لم يوجد له خلف يستطيع أن يحل محله في جمع الكلمة كما قلنا، ولم تكن وطنية زعماء الاحزاب قد ارتقت بهم الى حيث يحلون النظام محل نفوذ ذلك الزعيم الكبير فيؤيدون خليفته في المصلحة العامة، ويتسامحون فيما ينكرون من أنانية الوفد، ويحكمون فيما يختلفون فيه معه مايقضي به الشرع والعقل . فاشتعلت نار الخلاف الحزبية في البرلمان ، وانصدعت وحدة الحكومة باستقالة بعض الوزراء ، واندلعت ألسنة الكتاب والخطباء بالهجر والبذاء ، وشرعت أسنة الاقلام في ميادين الجرائد

للطعن الهراء ، والافك والافتراء ، فأحبط كبراء الامة أفضل ما كانوا قد عملوا فكان هباء منثوراً ، وهذا هو الذي اطمع المحتلين فيهم ، فعادوا الى شر ما كانوا عليه من العبث بهم ، ويتعذر على المؤرخ المنصف حصر التبعة في حزب أو شخص منهم،

وفي تلك الاثناء أثيرت شبهات في قضية الامير سيف الدين، وما كان من دفاع مصطفى النحاس باشا وغيره من كبار رجال الوفد عنه بالوكالة إذ كانوا من المحامين، وذلك قبل تقلد النحاس منصب رياسة الوزراء ، فأسرفت الجرائد المناصبة للوفد في الطعن على رئيسه ورفاقه المحامين برميهم بالطمع واستخدام مناصبهم ونفوذهم في الحكومة والمجلس لتوفير منافعهم وتحقيق مطامعهم

في أثناء هذه الزعازع صدرت إرادة جلالة الملك بما بدأنا بذكره في هذا المقال من إقالة الوزارة المصطوفية البرلمانية وتعطيل البرلمان واسناد منصب الرياسة الى محمد باشا محمود سليمان ، فأراد إشراك بعض رجال الوفد في تأليف وزارته فأبوا كل الاباء، فألف الوزارة من رجال حزبه، وأعلن أن عناية وزارته ستتوجه الى الاصلاحات الادارية من زراعية وصحية وغيرها ، دون الاعمال السياسية التي استغرقت أوقات الوزارات السابقة كلها ، وأن تراعي مقاصد الدستور وأغراضه بقدر الامكان حتى في أحكامه التي قضت الارادة الملكية بوقفها

كان وقع هذا الانقلاب في الامة أشد من وقع الصاعقة إذ ظهر لها أن الحكومة الدستورية النيابية التي كانت كل ما ربحته من جهادها الطويل، ومن ثورتها الدموية منذ عشر سنين، لم تكن الا امرا باطلا خادعا ليس له ثبات في الداخل، فبحترمه الاجنبي من الخارج ، ولولا الاحتلال الاجنبي لثارت له ثورة لاتنطفيء حذوتها الا باعادة سلطانه وتوطيد أركانه وزيادة حقوقها فيه ، ولكن لا يجهل أحد من أهل الطبقات العليا ولا الوسطى أن الانكليز يفترصون هذه الثورة لزيادة جيش الاحتلال ، والسيطرة العسكرية على البلاد، بحجة المحافظة على أموال الاجانب وأنفسهم وتأمين ديونهم.

وكان الاكثرون من الناس يظنون أن وزارة محمد باشا محمود تعجز عن ادارة أمور البلاد والسواد الاعظم على ما يعلمون من السخط عليها والاسف على دستورها فبدا لهم منه مالم يكونوا يحتسبون، من ارادة نافذة، وعزيمة ماضية، وحزم كالمبنيات في النحو يعمل ولا تؤثر فيه العوامل، فكان كاحد الرجال الذين سادوا أقوامهم وأخذوا حكوماتهم من فوق رقبتها فجعلوا ادارتها رهن ارادتهم، وتصرفوا فيها كما يتصرفون في بيوتهم ورقبة أرضهم، حتى صار يلقب في الجرائد الاوربية بالدكتاتور كموسوليني ودريفيرا ومصطفى كمال

ألجم الجرائد بعد أن عاقب بعضها بالنذر فالتعطيل الاداري ، ومنع اجتماعات التظاهر والاحتجاج على الحكومة ، حتى اجتماع أعضاء الوفد وأعضاء البرلمان ، واستبدل بها الاجتماعات لتأييده والهتاف له بنفوذ الحكومة ، وطفق حزبه (الحر الدستوري) يعقد الاجتماعات في العاصمة وسائر المدن لانشاء لجان جديدة له تمهيداً لانتخابات البرلمان الآتية بعد تعميمها ، إذا اقتضت الحال اعادتها مع الثقة بفشل الوفد فيها

فالوفد هو الخصم السياسي للحزب الحر الدستوري فلا يرجى له نجاح في أي انتخاب مادام الوفد هو صاحب النفوذ في البلاد ، وكذلك الحزب الوطني وحزب العهد ، ومن المعلوم بالضرورة ان الوفد هو الخصم الالد للانكليز وأنهم لا يرجون أن ينالوا من مصر ما يؤملون مادام للوفد الاغلبية في البرلمان ، ومن المشهور أيضاً أن الوفد لم يوفق لنيل العطف الملكي الذي لم يكن له بد منه

ومما يجب أن يذكر ولا ينسى أن حكومة مصر آلة منظمة ذات سلطان على الشعب يمكن لكل من تولى أمرها بالحزم أن يخضعه لارادته وتصرفه ، وان الشعور القومي في الشعب لما يرتق الى الدرجة التي تضطر الحكومة الى مراعاته ، وليس من موضوع هذا المقال شرح ذلك وبيان شروطه وأسبابه ، وقد أشرنا الى بعضها فيه ، وانما ذكرناه لنقول إن من فضل الله تعالى علينا في هذا البلد الآمن المطمئن أن تكون القوة المسلحة التي تعتمد عليها الحكومة في حفظ الأمن وتنفيذ الاحكام خاضعة لرؤسائها خضوعاً تاماً لا تدخله السياسة ولا آراء الاحزاب ، ومن فضل الله علينا أيضاً أن كان مستخدموا الحكومة في جميع الوزارات خاضعين لرؤسائهم كالشرطة والشحنة وان خالفوهم في العقيدة السياسية ، وبهذا وما قبله نقيم الحجة على الاجانب بقدرتنا على ادارة شؤوننا بأنفسنا ، وانما الطريقة الامينة لايقاف الحكومة عند ارادة الامة هي جعلها شورى بالدستور

قد سبق لنا بيان كنه سياسة الوفد وكنه سياسة حزب الاحرار الدستوريين في مقالنا التاريخي الممتع الذى أشرنا اليه آنفاً كما بينا فيه مزايا كل من سعد باشا وعدلي باشا موزونين بالقسطاس المستقيم ، في وقت كان فيه كل حزب يذم زعيم الحزب الآخر منهما ويضعه في اسفل سافلين

وقد ذكرنا في سياق هذا المقال بعض مزايا صاحبي الدولة مصطفى باشا النحاس ومحمد باشا محمود سليمان . وأما الموازنة بينهما فالحكم بالحق فيها أن كلا منهما وطني صميم ، ولكن الاول رجل قضاء والثاني رجل إدارة ، وكل منهما يصطنع رجال

حزبه والمواتين له في حكومته كدأب من قبلهما، وإنما يختلفان في السياسة بحسب اختلاف حزبيهما، فسياسة الوفد قائمة بمناصبة الانكليز بقوة الامة الى أن تنال حقها تاماً كاملا، وسياسة الاحرار الدستوريين قائمة باستمالتهم وفي كل من السياستين خطر على البلاد، فمناصبة الضعيف للقوي تنتهي دائماً أو غالباً بفلج القوي وربحه وخسارة الضعيف، وكذلك استمالة الضعيف الخاشع للقوي الطامع لا تزيد القوي الا طمعاً وجشعاً، وانما الانفع للبلاد أن يتعاونا ويتحدا ولو في الباطن، ويرتقبا الفرص للانتفاع بهذا التعاون، كما فعلوا في فرصة الائتلاف الاخيرة التي كان لمحمد محمود باشا اليد البيضاء فيها .

فاذا عجز الآن أن يعيدها سيرتها الاولى فالذي أراه أن من الجناية على الامة أن يستخدم قوى الحكومة في إضعاف الوفد ، فان الوفد هو الامة فاذا ضعفت عجز هو وغيره عن إدراك ماتطلبه من الاستقلال المطلق ، بل عجز عن حفظ ما نالته بالفعل من الاستقلال الاداري كما عجز من قبله ، وهو يعلم أن زميله في الحزب وسلفه في الوزارة الدستورية عبد الخالق ثروت باشا ما نال في عاقبة الثورة الوطنية التصريح المعهود بالغاء الحماية البريطانية الشؤمى على مصر والاعتراف لها بالاستقلال التام المقيد بتلك التحفظات التي انتقصته من جميع أطرافه الا بسبب قوة الوفد، ووحدة الامة بزعامة سعد ، كما صرحت بذلك الجرائد الانكليزية حتى التيمس في تأبينها لسعد ، وقد رأينا ذلك الخزي العظيم الذى رضي به ثروت بعد موت سعد ، وكان الفضل الاكبر في رفضه للوفد .

ولا يخفى عليه ايضاً أن مايظهره رجال الانكليز من الرضى عنه والثقة به، وما ينشرونه من الثناء عليه والاشادة بأعمال وزارته – لا يزيده عند السواد الاعظم من الامة ثقة ولا حباً، بل هو من قبيل تعظيم الحسان للرجل بتسميته والداً لهن أو عماً

وإذا دعونك عمهن فانه	نسب يزيدك عندهن خبالا

على أن اهل البصيرة والرأي من المصريين وغيرهم يعلمون أن ثقة كبار الرجال من الانكليز برجل من غيرهم ذات قيمة عظيمة اذ يمكن أن تكون رأس مال كبير في السياسة لمن يقدر على استغلالها عند سنوح الفرصة له، وقد ذكرت للاستاذ الامام مرة طعن المؤيد واللواء على مصطفى فهمي باشا واشتهاره بين الوطنيين بالاخلاص للانكليز والخيانة لوطنه ، فقال مامعناه : إن هذا الرجل مهذب الاخلاق نزيه النفس محب لوطنه، ولعله لا يوجد أحد من العارفين ينكر نزاهته وترفعه عن الرشوة والتجارة بمصالح الحكومة، ولكنه عيبه الكبير هو ضعف الارادة مع اعتقاده أن الانكليز

قد استولوا على هذه البلاد بضرب من ضروب الفتح السياسي العصري، والانكليز يجلونه ويثقون به فلولا ضعف إرادته لامكنه أن ينفع البلاد بهذه الثقة نفعاً عظيماً في أمور كثيرة جليلة فهم لا يكادون يخالفونه في شيء يقترحه عليهم، ولكنه هو لايدري هذا ولا يدرك كنهه، فهو كما يقول العوام في الولي الذي لايعرف نفسه

وأقول إن لمحمد محمود باشا عندهم الآن مثل تلك المنزلة أو أعظم ولكنه يدرك كنه هذا وهو على إدراكه له قوي الارادة واسع الحيلة، وقد يعلم من حوادث الزمان وقواعد الحقوق وسنن العمران أن مصر لم تصر مستعمرة بريطانية ولاسما يسمونه املاك التاج ولعل الفرصة قد سنحت له بوزارة العمال البريطانية الجديدة لخدمة وطنه أجل خدمة، فان ما تتسامح به الدولة البريطانية مع صديق لهامو روث، وربيب لمدارسها شكور، لاتتسامح به مع غيره، كما علمنا من إعراض وزارة العمال الاولى عن سعد باشا بعد نواده مع رئيسها وبعض رجالها قبل تسنمها غارب الوزارة، لما هو معروف من عناد الانكليز وكبريائهم

وهي إن تسامحت معه فلن تتسامح معه إكراما لخاطره، ولا مكافأة له على صداقته، بل لاجل حل عقدة المسألة المصرية بما يرجى أن يرضى الشعب المصري من غير طريق الوفد المعروف بمناوأة الدولة البريطانية، ومالا يرضي الشعب المصري ان يتم إذ لا يمكن أن يكون اتفاقاً قانونيا يرضى به الشعب البريطاني، إذن لا يمكن الاتفاق القانوني بين الدولتين الا إذا أعيد البرلمان المصري ووافق على مشروع الاتفاق بما يصير به قانونياً؟ وكيف يكون ذلك؟

الوفد يرى أن البرلمان قائم وأن تعطيله غير قانوني، والوزارة وحزبها يريان أن تعطيله صحيح وأن سببه أنه كان ضاراً بالبلاد مضيعا لمصالحها، لان أكثر أعضائه لم يكونوا إلا أرقاما يتم بها العدد القانوني للاعضاء الذين لا رأي لهم ولا إرادة مع أركان الوفد، والمشهور على ألسنة العارفين المعتدلين أن الوفد يرضى باعادة الانتخاب اذا كان قانونيا حراً لاتبذل الحكومة نفوذها وأموالها للعبث به كما فعل اسماعيل صدقي وزير الداخلية في وزارة زيور باشا سنة ١٩٢٥، بل يقول الكثيرون أن الفاج مضمون للوفد في الانتخاب مهما تفعل الحكومة. وقد يصح هذا اذا لم يأت محمد محمود بما يرضي الامة، والامة لا تجهل مصلحتها، ولا تكفر صنع من أحسن اليها

وقد آن لي أن أصرح هنا برأيي في البرلمان الاخير الذي هو رأي جميع أهل البصيرة في الدين إيضاحا لكلمتي التي جاءت عرضاً في فاتحة المجلد الثلاثين من من الجزء الماضي (الاول) فأقول إنه كان شراً مما يقول فيه كتاب الاحرار الدستوريين

وانما نختلف في هـذا وجهة النظر بيننا وبينهم ، فهم انما يذمون أكثر الاعضاء بانقيادهم للوفد فذمهم موجه للاكثرية الوفدية لانها وفدية ، ونحن أنصار الدين انما نذم ملاحدتهم اعتقاداً أو تقليداً وهم أمشاج من الدستوريين والوفديين فالحق أن المجلس السابق كان يغلب فيه نفوذ الملاحدة كما علم من مسألة رد اقتراح من اقترح إيقاف الجلسة عدة دقائق لاداء صلاة المغرب وتأييد من جاهر منهم بانهم لايريدون الصلاة ، وكما علم من طعن أحدهم في كتاب الله وصرح بتحقيره في المجلس ولم يرد عليه هذا الجهر بالكفر والارتداد عن الاسلام أحد - وكما ظهر في مناقشاتهم في قضية الدكتور طه حسين من الدفاع عنه بعد تصريحه بالطعن في القرآن - وفي مسألة الخلافة وغيرها من احتقار العلماء والطعن فيهم

فأهل الدين يعلمون أن الحكومة الدستورية أقرب إلى الاسلام من الحكومة الشخصية الاستبدادية بشرط أن لا يكون نوابها من الملاحدة الذين يحاولون هدم الدين الذي تهدم بهدمه الفضيلة وتباح الاعراض وتستحل المحرمات وتهلك الأُمة بفساد أخلاقها . فلا أعاد الله ذلك المجلس ، وعلى جميع أهل الدين اذا أعيد الانتخاب لمجلس آخر أن لاينتخبوا احداً من هؤلاء الملاحدة المفسدين من أي طائفة كانوا

تطور الاصلاح في الحجاز

حديث إيراني كبير عن الحجاز

جاء في جريدة العهد الجديد البيروتية الغراء تحت هذا العنوان ما نصه :

تمهيد : بعد انقلاب الحجاز الخطير الذي أدى الى سقوط الدولة الهاشمية وتبوء صاحب الجلالة الملك ابن سعود عرش الحجاز كانت حكومة إيران قد قطعت علاقاتها مع ابن سعود تحت تأثير الدعايات المؤلفة التي قام بها فريق من الرجعيين ساءهم مايشاهدونه في الحجاز من اصلاح وتقدم فعملوا على تنفير القلوب وإيغار الصدور بين العرب والفرس .

على أن صاحب الجلالة ملك إيران رضا خان بهلوي أدرك أخيراً سوء نية المفسدين وان ماأشاعوه فأقلقوا باله به لايستند الى ركن صحيح ، فحسن ظنه بحكومة الحجاز وسمح لرعاياه بحج بيت الله الحرام في هذا العام كما أنه أرسل الى مكة المكرمة ممثلا سياسياً لدولته هو الميرزا حبيب الله خان عين الملك معتمده السابق في بيروت .

وكان بين حجاج هذا العام حضرة الميرزا اقبال شاه آزاد خان نائب مقاطعة شيروان في المجلس النيابي الايراني ، وقد وصل أمس الى الثغر قادما من مكة

ونزل في افندق العربي فأوفدنا أحد محرري (العهد) لمقابلته واستطلاع ما أحدثته في نفسه زيارة الحجاز فوافانا بما يلي :

كانت الساعة الرابعة بعد ظهر أمس الاول حينما قابلت حضرة النائب إقبال خان وهو في أواسط العقد الرابع من عمره طويل القامة معتدل الجسم أسمر الوجه حليقا يتكلم التركية والافرنسية ماعدا لغته فحييته باسم العهد وسألته أن يتفضل ببيان ما أحدثته في نفسه زيارته للاراضي الاسلامية المقدسة فقال سعادته:

انتدبني مجلس الامة الايراني بصفة خاصة لدرس حالة الحجاز وما قيل عن تلاعب الحكومة بالاماكن المقدسة فقمت بمهمتي هذه دون أن أشعر الحكومة وقد دلني البحث الدقيق الذي قمت به بنفسي أن الحكومة السعودية وجلالة الملك شديدا التمسك بالدين الاسلامي ونصوصه لا يدخران وسعاً في سبيل المحافظة على المخلفات الاسلامية (١) وان مارأيته في الحجاز من وسائل الاصلاح ومن العناية التامة براحة الحجاج والمحافظة على صحتهم وسلامتهم لم أر مثله في البلاد التي سبقتها مراحل في ميدان المدنية

وقد كان بعض المصادر المعادي لابن سعود يحاول إيهام الناس بان الامن مختل في الحجاز صرفا لهم عن الحج واذا الامر خلاف ذلك تماماً واليك حادثة جرت لي تثبت مبلغ استتباب الامن في الربوع العربية الحجازية فقد أضعت محفظة بين مكة وعرفة وبالرغم من أنها تحوي مبلغاً كبيراً من المال فان أحد الحجازيين وجدها وأرسلها إلى الحكومة وهذه أعادتها إلي دون ان تنقص منها بارة واحدة وهذا مالا يمكن ان تشهد مثله في أعظم البلاد رقياً

تقرير مندوب النواب الايراني

هل أتمكن من معرفة التقرير الذي ستقدمه الى البرلمان الايراني؟

تقريري لايخرج عن حد افهام زملائي حقيقة الوهابية وبيان فساد الشوائع التي كانت مثاراً لشعور الايرانيين ويمكنني أن أؤكد لكم بانني سأكتبه بامانة وصدق وتجرد .

أليس لكم ما تنتقدونه على الحكومة الحاضرة ؟

بالعكس إنني محبذ كل الاجراءات التي قامت بها حكومة صاحب الجلالة الملك ابن سعود

(١) المنار: يريد بالمخلفات المعاهد الاثرية التي يعبر عنها بعض علماء الحجاز بالمآثر كالبيت الذي ولد فيه الرسول (ص) ودار خديجة (رض) وقبور آل البيت عليهم السلام وقد منعت الحكومة السعودية ما كان يجرى فيها من الخرافات فاذيع أنها هدمتها وجعل اصحاب الاهواء والبدع هذه الاذاعة وسيلة لصد الشيعة وغيرهم عن الحج

وهل يتضمن تقريركم بحث حالة الحجاز من الوجهة السياسية ؟

كلا وإنما سأقتصر فيه على الوجهة الاقتصادية فقد تبين لي أن الحكومة الحاضرة تريد أن تقوم ببعض المشاريع الاقتصادية والعمرانية والزراعية ولكن ينقصها بعض المال للقيام بها وهي لا تريد أن تستمد حاجتها من رءوس الاموال الاجنبية لانها تعتقد ان ذلك يؤدي حتما الى توطيد النفوذ الاجنبي ولهذا فهي تنوي أن تضع يدها بيد أصحاب رءوس الاموال الاسلامية بشرط أن لا تكون هناك أية صبغة أجنبية فيها وترى أيضاً ان المساعدة الوحيدة التي يمكن أن تحصل عليها هي من إيران وتركيا (١)

ونحن كنا في حاجة الى رءوس الاموال لاصلاح اقتصادياتنا وزراعاتنا في ايران الا أن بيننا أغنياء عديدين يستصعبون القيام ببعض هذه الاعمال وأنا سأعمل على تشجيعهم للاقدام على هذا العمل الذي يفيدنا ويفيد الحجاز معاً . وأما المساعدات الفنية فأعترف بأننا لا نستطيع تقديمها فعلى الحكومة الحجازية أن تستمدها من تركيا (٢)

مهمة مندوب الشاه في الحجاز

وهل تعتقدون أن المفاوضات ستدور بهذا الصدد ؟

لا أعرف ذلك في الوقت الحاضر ولا سيما وان علاقتنا السياسية لم توطد مع ابن السعود ومن الواجب وضع الاسس العمومية أولا للاتفاق السياسي (٣) ثم يباشر وضع اتفاقات اقتصادية وتجارية وخلاف ذلك

وماذا عمل حبيب الله خان حتى الآن في مكة ؟

لقد قابل جلالة ابن سعود وسلمه كتاب صاحب الجلالة الشاه الذي يعترف فيه بملكيته على نجد والحجاز وقد تقبل جلالة الملك كتاب جلالة الشاه وسفيره وأبرق اليه معرباً عن استعداده للقيام بكل ما يقدر عليه في سبيل توطيد العلاقات الودية بين أمته والامة الايرانية . كما شكر له دعوته لسمو نجله الامير فيصل لزيارة إيران قائلا بأن نجله سيغتنم أقرب فرصة لزيارتها وأنا أعتقد أن سمو الامير سيزور بلادنا في هذا الصيف

---

(١) المنار : هذا رأي غريب لا نظن ان صاحبه مصيب

(٢) ان مصر وسورية اقرب الى الحجاز واقدر من الترك على هذه المساعدة

(٣) المنار قد علمنا عن ثقة بأن أسس الاتفاق السياسي قد وضعت واتفق عليها وستمضى وتعلن في فرصة قريبة

الامير أرسلان

هل قابلتم جلالة الملك ابن السعود؟

نعم اجتمعت بجلالته لاول مرة في المأدبة التي أقامها للامير شكيب أرسلان وقد سبق لي التعرف الى هذا الامير في أوربا حيث كان يدافع عن القضية السورية ثم اجتمعت بجلالة الملك مراراً على انفراد فلاقيت منه كل إكرام وقد طلب إلي أن أبلغ الامة الايرانية تحيته بواسطة مجلسها النيابي وسأقوم مسروراً بهذه المهمة عند عودتي الى بلادي

الرابطة بين الحجاج

كيف وجدتم الرابطة الاسلامية في الحجاز؟

اقول إن الرابطة الاسلامية مفقودة بين الحجاج الذين يؤمون البلاد المقدسة وسبب ذلك فقدان التجانس بين طبقات المسلمين فمثلا ترى الهنود في مقر منعزل لايختلطون بغيرهم لانهم يجهلون لغتهم وكذلك الايرانيون والعرب والروس والترك وغيرهم من الاقوام الاسلامية وأرى أنه يتحقق ذلك بان يلقى محاضرات بكافة اللغات وأن يصدر بهذه اللغات نشرات في موسم الحج وبذلك يكون تقرب نوعا ما بين الجميع وقد عرضت هذه الفكرة على جلالة الملك وكبار حجاج المسلمين فلاقت كما أعتقد استحساناً وارجو أن تنفذ في العام القادم

والرابطة الاسلامية إذا توحدت يمكنها ان تؤدي نتائج حسنة تهم الجميع

رأي في الخلافة

ما رأيكم في الخلافة ؟

أقول لكم بصراحة تامة إن الخلافة بدعة وقد جرب المسلمون الخلافة فماذا استفادوا منها اللهم الا أنها آلة يديرها الاجانب في الاتجاه الذي يريدونه؟ وكفى المسلمين مالاقوه فعليهم الآن ان يلتفتوا الى اللباب لا إلى القشور(١) انتهى الحديث

---

(١) المنار : ان هذا الرأي خطأ من وجوه فالخلافة عند أهل السنة هي الامامة العظمى التي يعدها الشيعة من أصول الدين في المرتبة التي تلي النبوة وعند أهل السنة من فروع الشريعة المهمة ، وقد استفاد المسلمون منها فوائد عظيمة على كون أكثر دولهم لم تقم بها كما يجب ولاسيما خلافة التغلب المحض كخلافة الترك ، وقد كانت دول أوربة تخشى أن يجيء يوم يعرف المسلمون كيف يستفيدون منها على علاتهم وعلاتها وهم يعدون إلغاء مصطفى كمال لها خدمة جليلة لسياستهم الدينية الاستعمارية

أداء الامير شكيب لفريضة الحج

كان قلب الامير شكيب يحن إلى أداء فريضة الحج منذ سنين ، كما هو شأن كل مسلم ، وان كان أمثال الامير شكيب في تربيتهم المدنية والسياسية والاجتماعية ، صار يقل فيهم من يحج كما يقل من يصلي ويصوم إذا لم تقرن تلك النشأة المصرية بمعارف دينية صحيحة راسخة كالطود لا تؤثر فيها أمواج الشبهات، ولا تنال منها عواصف الشهوات، ولكن شكيباً تلقى عقيدته من الاستاذ الامام وغذاها بالعلم الصحيح والعمل. وقد كان لكبراء الرجال السياسيين من موانع الحج في السنين الخالية ماليس لغيرهم

عزم شكيب على الحج في موسم السنة الماضية (١٣٤٧) وكان يحب أن يسافر من أوربة قبل موعد الحج ، فيعرج على مصر فيقيم فيها مدة مع صديقه الحميم صاحب المنار بداره التي يعدها بحق داره ، وكتب إلي بذلك ، وأنه لقي في برلين معالي وزير خارجية مصر الدكتور حافظ بك عفيفي — وكان بينهما صداقة سابقة — فكاشفه بعزمه ، فتبرع الوزير بوعده بأن يمهد سبيل الاذن الرسمي له بزيارة مصر في طريقه لعلمه بأنه كان ممنوعا من دخولها بعد الحرب الكبرى ، ومن المعلوم بالبداهة أن المرجع الرسمي في هذا الامر لوزارة الخارجية ، ولكن الوزير نفسه رأى أن الاذن له به يحتاج إلى تمهيد وسعي!!.

ثم أزمع الامير السفر وخرج من داره في لوزان قاصداً البحر من طريق إيطاليا ، وطفق يراسل وزير الخارجية ثم يراسل بعض أصدقائه في مصر ، سائلا هل تأذن له الحكومة المصرية بالالمام بمصر ولو بمينائي بورسعيد والسويس لينتقل من الباخرة التي يسافر فيها إلى باخرة من البواخر التي تنقل الحجاج ؟ وكانت هذه الرسائل برقية، فعلمنا بعد البحث أنه لا يزال ممنوعا من ذلك، وبعد بذل السعي من بعض المهتمين بالأمر لدى صاحب الدولة رئيس الوزارة ، اقتنع بان اللائق بحكومة مصر بصفتها الاسلامية الرسمية أن لا تمنع أحدا من الالمام ببعض ثغورها بقصد السفر إلى الحج من غير إقامة تزيد على مدة الانتقال من باخرة إلى أخرى، فأصدر أمره بالاذن في آخر وقت أدرك به الامير آخر باخرة تحمل الحجاج في آخر وقت يمكن ادراك الحج فيه، وقد علمنا أن الامير بذل في أجور البرقيات أكثر من ثلاثين جنيهاً ، وانه لو كان يعلم هذا لفضل أن يسافر في باخرة ايطالية الى مصوع أو عدن ثم يسافر منها الى جدة

في أثناء هذه المساعي وتبادل البرقيات شاع بين الناس أن الامير شكيبا

مسافر الى الحجاز وأنه سينزل من الباخرة التي تقله من أوروبا في بورسعيد وينتقل منها الى السويس ، فعزم كثير من أصدقائه ، وممن يحبون الحظوة بمعرفته ، لشهرته الشريفة في عالم العلم والادب والسياسة ، والجهاد الاسلامي والوطني ، على السفر الى بورسعيد للقائه فيها ، وطفقوا يتحدثون بتأليف الوفود لذلك في مصر وفلسطين وسورية ونشر ذلك في الجرائد ، ولكن بعضها ذكر خبر منعه من الالمام بالثغور المصرية ، فلم يعلم بموعد وصوله الى بور سعيد الا بعض أصدقائه في مصر فسافر بعضهم اليها في ذلك اليوم ، وبعضهم قبله بيوم ، وقد نزلت مع بعض السابقين في زورق بخاري فاستقبلنا باخرته في البحر عقب وقوفها واذن طبيب الحجر بمخالطة ركابها للناس ، وسبقنا ابن عمه الامير أمين فصعد الى الباخرة مع الطبيب الرسمي ، ولما تلاقينا لم أملك دمع السرور من حيث جرى ، ولا تسل هناك عما قد جرى . ووصل في ذلك اليوم الى بورسعيد الاستاذ المربي المصلح والزعيم الوطني الشهير الشيخ محمد كامل قصاب من حيفا لاجل استقباله وأخبرنا أن وفد حيفا ووفد القدس قد انفض جمعهما اذ نشرت جريدة الجامعة العربية برقية من مصر بعدم الاذن له وهو انما جاء للاجمال . وقد جاءت الامير برقيات كثيرة ، وعاد بعض المستقبلين له الى القاهرة ، وبات بعضهم في بور سعيد بعد الحاحه على الجميع بالعودة الى أعمالهم ، الا كاتب هذه السطور فقد قال له : انت تبقى معنا من البحر الابيض الى البحر الاحمر .

وقد سافرنا في اليوم الثاني الى السويس فوجدنا بعض المستقبلين في الاسماعيلية من طريقنا وبعضهم في محطة السويس نفسها ، وممن جاءها بالسيارات الخاصة أحمد زكي باشا وعبد الحميد بك سعيد . وقد بلغ الامير فى المحطة أمر الحكومة المصرية اياه بالانتقال منها الى باخرة الحجاج الاخيرة التى تبحر فى ذلك اليوم ٢٩ ذي القعدة الى جدة وانها أمرت شركة بواخر البوستة الخديوية التابعة لها بتخصيص مخدع له (قمرة) في الدرجة الاولى منها وكان يريد السفر في باخرة البريد في ٢ ذي الحجة ، فركب الامير ومن كان ثم من المستقبلين المودعين السيارات الى الباخرة تواً ، وذهبت أنا الى السوق فأخذت له منه ثياب الاحرام لانني علمت منه أنه لم يحمل من أوروبا شيئاً من ذلك

الامير شكيب أكبر رجال السياسة من زعماء الامة العربية وأشهر كتابها الذائدين عن حوضها والمناضلين عن حقوقها ، والعاملين لمصالحها ، فالمجاهدون الخاصون منهم يسرون بلقائه لمجدد ملك العرب ، ومجد العرب ، وقبلة آمال العرب ، الملك عبد العزيز آل سعود وتناجيهما فى المصالح العربية ، السياسية والمدنية ، ويرجون من ذلك خيراً كثيراً

وللامير شكيب مكانة اسلامية سامية عند طلاب الاصلاح الديني المدني

الذي يقتضيه هذا العصر من عرب المسلمين وشعوب عجمهم الكثيرة ولاسيما الترك والهنود لما له من خدمة الدولة العثمانية عندما كانت تمثل الزعامة الاسلامية ، ثم ما جاهد به ملاحدة الترك بعد جهرهم بنبذ الاسلام ومعاداته بالقول والفعل ، ولما له من الدفاع عن الاسلام والمسلمين في مواقع أخرى كثيرة قد كان آخر ما نشر منها مقاله الممتع الذي رآه القراء في جزء المنار الماضي ، ومن الدلائل على مكانته الاسلامية اجماع أعضاء المؤتمر الاسلامي العام من جميع الشعوب بمكة المكرمة في موسم سنة ١٣٤٤ على اختياره لامانة السر العامة (السكرتارية) للمؤتمر الدائم ولم أكن أنا أشد تقريراً وعناية بهذا الاختيار من الوفود الهندية ولاسيما الزعيمين محمد علي وشوكت علي ، المناوئين لملك الحجاز ونجد لعدم اتباعه لهواهما — فأهل الرأي من مسلمي الاقطار المختلفة يسرون برحلة الامير شكيب الى الحجاز لاداء فريضة الحج ولقائه للامام المجدد للاسلام ، في رحاب تلك المشاعر العظام ، لان شخوص زعماء المسلمين السياسيين وعلمائهم المصريين الى الحجاز مفيد بما فيه من القدوة والاسوة الحسنة لامثالهم المقصرين في أداء هذه الفريضة ، ومفيد بما يرجى من ورائه من التعاون على المصالح الاسلامية ، ومن هذا الباب انه لما شاع في السنة الماضية أن الامام يحيي حميد الدين سيحج في موسمها تناقلت هذا الخبر ألسنة المسلمين وصحفهم وتلقته بالاكبار والاعظام لامرين (أحدهما) أن ملوك المسلمين قد تركوا أداء هذه الفريضة منذ قرون عديدة (وثانيهما) حرص مسلمي العالم كله على اعتصام إمامي الجزيرة العربية وملكي الاسلام المستقلين بعروة التحالف والاتحاد الوثقى ، ورجاؤهم أن يكون تلاقيهما في بيت الله تعالى متمما لما مهدا له السبيل من ذلك بالوفود والمكاتبات والهدايا. ومن فضل الله على صاحب هذه المجلة أن كان هو الساعي الاول الى ذلك بالمكاتبات والوفود من قبل الحرب الكبرى ومن بعدها ، ويليه فيه صديقه الامير شكيب .

ومن دلائل اهتمام أهل الرأي والخدمة العامة من مسلمي الشعوب المختلفة ، وعرب الملل المختلفة ، بحج الامير شكيب ورجائهم الخير فيه للملة وللامة ، أنه ساء دعاة الالحاد في المسلمين ودعاة الاستعمار في العرب ولا سيما السوريين من الفريقين فنشروا في بعض الجرائد مقالات سخيفة طعنوا فيها على الامير في دينه وفي سياسته وفي غرضه من أداء الحج . وكان الذي تولى كبر هذه الاراجيف ذلك القناف النفاج الحسود المدعي للزعامة السورية ولكن بامضاء ألصق الناس بخدمته ، ولم يصده عن ذلك اشتهاره هو بالدعوة الى الالحاد ونبذ الدين وتهتك النساء وغير ذلك ، ومما أتهمه به أنه يسعى بحجه الى حمل الملك عبدالعزيز اياه سفيراً له في أوروبا !! وربما كان هذا

الملك أشد احتقاراً لهذا التشفي الدنيء فانه صار من أعرف الناس بفضائل الرجل، ورذائل حاسده. وقد احتفى جلالته بضيافته احتفاء يسعر نار الحسد في كبد الحسود

استقبلت الحكومة السعودية ووجهاء الحجاز الامير شكيب في جدة ثم في مكة أحسن استقبال فقد خف الى لقائه في الباخرة الحاكم الاداري (القائمقام) وغيره من الموظفين والوجهاء وفي مقدمتهم عين أعيان الحجاز الشيخ محمد نصيف ثم قابله جلالة الملك في جدة إذ كان فيها، وبعد أن تعشي مع جلالته سار معه في سيارته الملكية الى مكة المكرمة فكانت هذه أول فرصة واسعة للمذاكرة في المصالح العامة. وقد كتب إلي جلالته عن هذا التلاقي مانصه:

« وقد أنسنا بلقاء صديقكم وصديقنا الامير شكيب أرسلان وهو كما وصفتم إخلاصاً وعلماً وأدباً » ويعني جلالته بهذا الوصف ما كتبته اليه اخيراً من انني لم أثن له على أحد وهو فوق ما أثنيت ووصفت من كل جهة الا الامير شكيب

وقد علمت علم اليقين ان جلالته رغب اليه ان يبقى لديه في الحجاز دائماً أو ماشاء وطابت له الاقامة ليقوم بما لا يستطيع غيره أن يقوم به من أعباء الاصلاح في حكومته، فاعتذر اولا بوجود اهل بيته في أوربة، فقال نحضرهم الى الطائف، فاعتذر بأنه لا بد له من البقاء في أوربة لاجل القضية السورية وبأنه يخدم القضية العربية هنالك بما شاء جلالته إلا الوظائف الرسمية فان فكرة المناصب الرسمية قد خرجت من فكره فهو لا يقبل منصباً لا في الحجاز ولا في اوربة كالسفارة في بعض العواصم.

بعد هذا زار الملك جدة فذكر في مجلسه الحافل ما نشر في المقطم من اتهام الامير شكيب بالسعي الى نيل سفارة في اوربة ــ وهو ما اشرنا اليه في هذا المقال ــ فغضب الملك وقال من هذا ــ يعني صاحب مقالة المقطم وإيش يكون ؟ ؟ ثم أثنى على الامير شكيب ثناء عظيما قال في سياقه: والله ان السفارة التي يريدها في اوربة تكون له بشرط ان يرضى

ومن اخبار الامير في الحجاز التي تسر محبيه الذين لا يحصيهم الا الله تعالى ان هواء الطائف قد وافق مزاجه فزال هنالك ما كان اصابه في اوربة من مرض الصدر الذي كان فيما يظهر من اسباب ما انكرته عليه من استطالته لعمره ونعيه لنفسه، ويسرنا ان ما رأينا عند تلاقينا الاخير في وجهه من الاشراق والبهجة، وفي حديثه من جرس الصوت وقوة اللهجة، وفي مشيته من النشاط وخفة الحركة، وفي أكلته من زقم اللقم، وجودة المضغ في غير نهم، ليبشرنا بأنه مستعد لحياة طيبة طويلة الاجل، اذا لم يجن عليها بالافراط في الانكباب على العلم والعمل، وفقنا الله واياه للقصد والاعتدال، والتوفيق لما يحب تعالى ويرضى من الاقوال والاعمال

المنار
أنشئ ١٣١٥

نبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى « ومناراً » كمنار الطريق

ربيع الاول سنة ١٣٤٨هـ ١٣ برج الأسد سنة ١٣٠٨هـ ش ١٦ أغسطس سنة ١٩٢٩

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري ارشادي اجتماعي سياسي

(٧) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ؟ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٨) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ

برىء الله ورسوله من المشركين الذين عاهدهم المسلمون على ترك القتال وأمهلهم أربعة أشهر يسيحون في الارض أحراراً آمنين ، وأمر تعالى بالأذان العام الى الناس في يوم عيد النحر من الموسم العام ببراءة الله ورسوله من المشركين، ودعوتهم

الى التوبة من الشرك وعداوة الاسلام ، وإنذارهم سوء عاقبة الاعراض ، واستثنى من المعاهدين الذين نبذت اليهم عهودهم من وفوا بعهدهم ولم ينقصوا منه شيئاً ولم يظاهروا على المؤمنين أحداً من أعدائهم فأمر باتمام عهدهم الى مدتهم ، ثم أمر بما يترتب على النبذ والتوقيت فيه وعود حالة الحرب معهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم التي وقتت بها العهود وهو مناجزة المشركين بكل نوع من أنواع القتال المعروفة في ذلك العصر من قتل وأسر وحصر وقطع طرق المواصلات ، واستثنى منهم من يستجير الرسول (ص) وأمره باجارته حتى يسمع كلام الله

ومن المعلوم من قواعد الاسلام العملية تعظيم شأن العهود على اختلاف أنواعها وعد الوفاء بها من أصول البر ومقتضى الايمان كما قال تعالى في آية البر وأهله من سورة البقرة(٢:١٧٧)بعد ذكر الايمان والصلاة والزكاة(والموفون بعدهم إذا عاهدوا)وكما قال في الوصايا الاساسية لهذا الدين من سورة الاسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) الى آيات أخرى ذكرنا قارىء تفسيرنا بها في مواضع منه بمناسبة ذكر العهد – والمناسب منها لما هنا ما ورد في سورة الانفال من وجوب الوفاء بالعهد وتحريم الخيانة كالآية ٥٦و٥٨ (*- وفي معناها أحاديث كثيرة حسبك منها حديث «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا

ولما كان للوفاء بالعهد كل هذا الشأن في الاسلام كان نبذ عهود المشركين مما قد يظن بادي الرأي أنه مخل به أو مما قد يظن قليل العلم بالقرآن والجمع بين نصوصه بالفهم الصحيح أن هذا النبذ ناسخ لوجوبه كما زعم بعضهم أو ان ذلك التعظيم للوفاء بالعهد وتأكيده كان مقيداً بحال ضعف المسلمين كما قال آخرون مثل هذا في آيات العفو والصفح عن المشركين — بل لما كان هذا النبذ مما يفتح باب الدس أو الطعن للمنافقين والتأويل للمرجفين في عصر التنزيل وقد يعظم على بعض المسلمين ويخفى عليهم الجمع بينه وبين تلك الآيات الكثيرة التي هي نصوص في أن الوفاء بالعهد من فضائل الدين الاساسية — لما كان كل ماذكر كما ذكر — بين الله تعالى لنا في هاتين الآيتين وما بعدهما كون هذا النبذ وما يترتب عليه لاينافي ولا يجافي شيئاً من

---

*) راجع ص ٤٦و٥٧ من هذا الجزء (أي العاشر — تفسير)

تلك النصوص المحكمة وإنما هو معاملة للاعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين أو بدونه فقال

﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ﴾ هذا الاستفهام للانكار المشرب لمعنى التعجب، والخطاب للمؤمنين الذين رسخ خلق الوفاء في قلوبهم وكان بعضهم عرضة لقبول كلام المنافقين في إنكار النبذ، والمعنى: بأية صفة وأية كيفية يثبت للمشركين عهد من العهود عند الله يقره لهم في كتابه وعند رسوله (ص) يفي لهم به وتفون به اتباعاً له — وحالهم الذي بينته الآية التالية تأبى ثبوت ذلك لهم — ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ استثنى تعالى هؤلاء قبل ان يبين وجه انتفاء ثبوت العهد لغيرهم بأية صفة تثبت بها العهود بين الناس وهم الذين استثناهم في الآية الرابعة وقد تقدم ذكر الخلاف فيهم في تفسيرها، وزاد هنا « عند المسجد الحرام » أي بجواره في الحديبية وهو مما يقتضي تأكيد الوفاء بذلك العهد بشروطه المبينة هناك وهنا.

وقد ذكر أبو جعفر ابن جرير الروايات المختلفة في تفسير هذه الآية، ومنها قول ابن اسحاق (كيف يكون للمشركين) الذين كانوا وأنتم على العهد العام، بان لا تمنعوهم ولا يمنعوكم من الحرم ولا في الشهر الحرام — (عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) وهي قبائل بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية الى المدة التي كانت بين رسول الله (ص) وبين قريش فلم يكن نقضها إلا هذا الحي من قريش وبنو الديل من بكر، فأمر باتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده من بني بكر الى مدته.

ثم قال أبو جعفر: وأولى هذه الاقوال بالصواب عندي قول من قال هم بعض بني بكر من كنانة ممن كان أقام على عهده ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله (ص) وبين قريش يوم الحديبية من العهد مع قريش. وانما قلت ان هذا القول أولى الاقوال بالصواب لان الله أمر نبيه والمؤمنين باتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم. وقد بينا ان هذه الآيات انما نادى بها علي في سنة تسع من الهجرة وذلك بعد فتح مكة بسنة فلم يكن بمكة من قريش ولا من خزاعة كافر يومئذ بينه وبين رسول الله (ص) عهد فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده لان من كان منهم من ساكني مكة كان قد نقض العهد وحورب قبل نزول هذه الآيات اهـ وهو رد للرواية التي تقدمت عن ابن عباس

﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ أي فمهما يستقم لكم هؤلاء فاستقيموا لهم،

أو فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم، إذ لا يجوز ان يكون الغدر ونقض العهد من قبلكم، (إن الله يحب المتقين) الذين يجتنبون قطع ما أمر الله به ان يوصل وغير ذلك من محارمه ومن أعظمها الغدر ونقض العهود كما تقدم في تفسير الآية الرابعة فالظاهر الذي جرى عليه المفسرون ان هؤلاء المعاهدين المذكورين هم المذكورون هنالك، وانما أعيد ذكر استثنائهم لتأكيده بشرطه المتضمن لبيان السبب الموجب للوفاء بالعهد وهو أن تكون الاستقامة عليه مرعية من كل واحد من الطرفين المتعاقدين الى نهاية مدته، وهذا زائد على ما هنالك من وصفهم بأنهم لم ينقصوا من شروط العهد شيئاً ولم يظاهروا على المسلمين أحداً، وتمهيد لبيان استباحة نبذ عهود الذين لا يستقيمون للمعاهد لهم إلا عند العجز عن الغدر حتى إذا ما قدروا عليه نقضوا عهدهم أو نقصوا منه كما فعلت قريش في نقض عهد الحديبية بمظاهرتهم لحلفائهم من بني بكر على خزاعة أحلاف رسول الله (ص) فقوله تعالى (إلا الذين عاهدتم) الى آخر الآية اعتراض بين قوله تعالى (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) وقوله المفسر له:

(كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة) والمعنى كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جربهم وفاؤهم عهد مشروع عند الله مرعي بالوفاء عند رسوله والحال المعهود منهم المعروف من أخلاقهم وأعمالهم أنهم ان يظهروا عليكم في القوة والغلب لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة. فالاستفهام واحد ووجه إنكار العهد ونفيه فيه مقيد بهذه الحال وانما أعيدت أداة الاستفهام للفصل المذكور.

يقال ظهر عليه — غلبه وظفر به، وأصله علاه، وأظهره عليه أعلاه عليه وجعله فوقه، ومنه (ليظهره على الدين كله) وكذا أعلمه به. ورقب الشيء رعاه وحاذره وانتظره، قال في الاساس: ورقبه وراقبه — حاذره لان الخائف يرقب العقاب ويتوقعه، ومنه: فلان لا يراقب الله في أموره — لا ينظر الى عقابه فيركب رأسه في المعصية. وبات يرقب النجوم ويراقبها كقولك يرعاها ويراعيها اه والال القرابة. والذمة والذمام العهد الذي يلزم من ضيعه الذم كما في الاساس، وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار، هذا أشهر الاقوال المأثورة في تفسيرهما هنا وهو مروي عن ابن عباس من عدة طرق عند ابن جرير وغيره. وروي عن مجاهد ان الال اسم الله عز وجل، والمعنى أنهم لا يرقبون الله في نقض عهدهم، وقد ورد لفظ إل وإيل من أسماء الله تعالى في العربية وشقيقتيها السريانية والعبرانية، وهو اسم إله من آلهة

الكلدانيين كما بيناه بالتفصيل في فصل المسائل المتممة للآيات التي وردت في محاجة ابراهيم لقومه في أربابهم وشركهم (ص ٥٦٥ ج ٧ تفسير) وروي عن قتادة تفسير الال بالحلف والعقد والعهد وهي متقاربة المعنى

وقد ذكر أبو جعفر ابن جرير الروايات في هذه المعاني ثم قال: وأولى الاقوال في ذلك بالصواب ان يقال ان الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المشركين الذين أمر نبيه والمؤمنين بقتلهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم وحصرهم والقعود لهم على كل مرصد — أنهم لو ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم إلا، والال اسم يشتمل على معان ثلاثة وهي العهد والعقد والحلف والقرابة وهو أيضاً بمعنى الله، فاذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى فالصواب ان يعم ذلك كما عم بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة فقال لا يرقبون في مؤمن الله ولا قرابة ولا عهداً ولا ميثاقاً. ومن الدلالة على أن يكون بمعنى القرابة قول ابن مقبل:

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الال وأعراق الرحم

بمعنى قطعوا القرابة، وقول حسان بن ثابت:

لعمرك إن إلك من قريش كإل السقب من رأل النعام(*)

وأما معناه إذا كان بمعنى العهد فقول القائل:

وجدناهم كاذباً إلهم وذو الال والعهد لا يكذب

وقد زعم بعض من ينسب الى معرفة كلام العرب من البصريين ان الال والعهد والميثاق واليمين واحد، وان الذمة في هذا الموضع التذمم ممن لا عهد له والجمع ذمم. وكان ابن اسحاق يقول عنى بهذه الثلاثة أهل العهد العام اهـ

وأقول ان الفاظ الال والعهد والميثاق واليمين يختلف مفهومها اللغوي وقد تتوارد مع هذا على حقيقة واحدة بضروب من التخصيص، فالعهد ما يتفق رجلان أو فريقان من الناس على التزامه بينهما لمصلحتهما المشتركة، فان أكداه ووثقاه بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به سمي ميثاقاً وهو مشتق من الوثاق بالفتح وهو الحبل والقيد، وان أكداه باليمين خاصة سمي يمينا، وقد يسمى بذلك لوضع كل من المتعاقدين يمينه في يمين الآخر عند عقده، واليمين في الاصل اليد المقابلة

---

*) السقب بالفتح ولد الناقة الذكر حين يعلم عقب وضعه، والرأل ولد النعام، يعني ان قرابتك في قريش ليست ثابتة

للشمال والخلف . والظاهر ان من استعمل الال بمعنى العهد أراد به المطلق منه، ومن هذه الالفاظ الحلف بالكسر وهو المحالفة أصله من مادة الحلف أي اليمين. وقول ابن اسحاق ان الكلام هنا في أهل العهد العام أراد بهم غير من استثناهم الله تعالى في الآية السابقة والآية الرابعة ، والصواب أنه يشمل أهل العهد الذين غدروا و يشمل من لا عهد لهم من المشركين بالاولى لأنهم لشدة عداوتهم للمؤمنين لم يريدوا في وقت من الاوقات ان يقيدوا أنفسهم معهم بعهد سلم مطلق ولا موقت ، فان لم يشملهم بالنص شملهم بالحكم .

﴿ يرضونكم بافواههم ﴾ أي يخادعونكم في حال الضعف بما ينبذون به من الكلام العذب الذي يرون أنه يرضيكم سواء كان عهداً أو وعداً أو يميناً مؤكدة لهما ﴿ وتأبى قلوبهم ﴾ المملوءة بالحقد والضغن ان تصدق أفواههم، (يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم) فهم ان ظهروا عليكم نكثوا العهود ، وحنثوا بالايمان ،وفتكوا بكم جهد طاقتهم ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ أي خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، فالفسق على معناه في أصل اللغة وهو الخروج والانفصال يقولون فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ويفسر في كل مقام بما يناسبه ، وانما وصف أكثرهم بالفسوق لأنهم هم الناكثون الناقضون لعهودهم وأقلهم الموفون وهم الذين استثناهم الله تعالى ، وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم

---

(٩) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ

هذا بيان مستأنف لمن عساه يستغرب غلبة الفسق والخروج من دائرة الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم حتى مراعاة القرابة والوفاء بالعهد الممدوحين عندهم، ويسأل عن سببه، وجوابه: ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ﴾ أي إنهم استبدلوا بآيات الله الدالة على وجوب توحيده بالعبادة ، وعلى بعثه للناس وجزائهم على أعمالهم وعلى الوحي والرسالة ومافيها من الهداية، ثمناً قليلا من متاع الدنيا وهو ماهم

فيه من أسباب المعيشة ، وكثيره عند كبرائهم قليل بالنسبة الى ماعند غيرهم من أمم الحضارة ، وما عند أغنى هؤلاء قليل بالاضافة الى ماوعد الله تعالى المؤمنين في الدنيا وان ما وعدهم به في الآخرة لهو خير وابقى . وقيل ان المراد بآيات الله تعالى العهود والايمان أو مادل على وجوب الوفاء بها من كتابه ، وروي ان أباسفيان لما أراد حمل قريش وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعاماً استمالهم به فاجابوه اليه فهو المراد بالثمن القليل ، وعن ابن عباس ان أهل الطائف امدوهم بالمال لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والاول هو الظاهر وهو المناسب لما بعده المعطوف عليه بفاء

السببية من قوله تعالى (فصدوا عن سبيله) الخ وصد يستعمل لازماً فيقال صد فلان عن الشيء صدوداً بمعنى أعرض عنه وانصرف فلم يلو عليه ، ومتعدياً فيقال صده عنه إذا صرفه ولفته عنه وزهده فيه اومنعه منه بالقوة ، ويصح ارادة المعنيين هنا أي فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس وأعرضوا عن سبيل الله وهو الاسلام وما يقتضيه من الوفاء

بالعهود وصدوا غيرهم وصرفوهم عنه أيضاً ، (انهم ساء ماكانوا يعملون) أي انهم ساء عملهم الذي كانوا يعملونه من اشتراء الكفر بالايمان والضلالة بالهدى ، والصدود والصد عن دين الله وماجاء به رسوله من البينات والحق

(لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) أي من أجل هذا الكفر والصدود والصد عن الايمان لا يرعون في مؤمن يظهرون عليه ويقدرون على الفتك به ربا يحرم الغدر ، ولا قرابة تقتضي الود ، ولا ذمة توجب الوفاء اتقاء الذم ، لان ذنب المؤمن في هذا عندهم كونه مؤمنا ، وقد علموا انه لا ينقض عهداً ، ولا يستحل غدراً ، ولا يقطع رحماً ، وهذا أعم من قوله (انهم إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) لانه غير مشروط بالظهور والغلب ، ولانه يشمل كل مؤمن من المخاطبين وغيرهم من حيث انه مؤمن ، وذاك خاص بالمخاطبين الذين كان بينهم وبين المشركين ما كان من

الحروب والدماء ، وربما كان فيهم بقية من المنافقين . (وأولئك هم المعتدون) لحدود العهود من دونكم والبادئون لكم بالقتال كما فعلوا فيما مضى ، وكذلك يفعلون فيما يأتي ، والعلة في اعتدائهم وتجاوزهم هو رسوخهم في الشرك ، وكراهتهم للايمان وأهله لا لكم وحدكم ، فلا علاج لهم إذاً إلا الرجوع عن كفرهم والاعتصام معكم بعروة التوحيد والايمان ، وما تقتضيه من الاعمال الصالحة وفضائل الاخلاق

(١١) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٢) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ

هذا بيان لما سيكون من أمر هؤلاء المشركين بعد تلك العداوة للاسلام وأهله وهو لايعدو أمرين فصلهما تعالى وبين حكم كل منهما في هاتين الآيتين ، قال ﴿ فان تابوا ﴾ عن شركهم وصدهم عن سبيل الله من آمن به بالفعل ومن يريد الايمان أو يتوقع منه ، وما يلزم ذلك من نقض العهود وخفر الذمم ﴿ واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ بدخولهم في جماعة المسلمين الذي لايتحقق بعد الشهادتين إلا باقامة هذين الركنين من أركان الاسلام ، كما تقدم تفصيله في تفسير الآية الخامسة ﴿ فاخوانكم في الدين ﴾ أي فهم حينئذ اخوانكم في الدين لهم مالكم ، وعليهم ماعليكم ، وبهذه الاخوة يهدم كل ما كان بينكم وبينهم من عداوة . وهو نص في ان أخوة الدين تثبت بهذين الركنين ولا تثبت بغيرهما من دونهما ، والثاني مقيد بشرطه وهو ملك النصاب مدة الحول ، والكلام في جملة المشركين وفيهم الغني والفقير ، وهل يتعارف الاخوان في الدين إلا باقامة الصلوات في المساجد وسائر المعاهد ، وباداء الصدقات للمواساة بينهم ولاقامة غيرها من المصالح ؟ وهذه الاخوة أول مزية دنيوية للاسلام فان المشركين كانوا محرومين من هذه الاخوة العظيمة ، بعضهم حرب لبعض في كل وقت إلا ما يكون من عهد أو جوار قلما يفي به القوي للضعيف دائما ﴿ ونفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي ونبين الآيات المفصلة للدلائل ، الفاصلة بين الايمان والكفر وبين الحق والباطل ، والمفرقة بين الفضائل والرذائل ، لقوم يعلمون وجوه الحجج والبراهين ، فهم الذين يعقلونها دون الجاهلين من متبعي الظنون والمقلدين.

روى ابن جرير في تفسير الآية عن ابن عباس قال : حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة . وروي عن ابن زيد قال : افترضت الصلاة والزكاة جميعا لم يفرق بينهما ، وقرأ (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) وأبى ان يقبل

الصلاة إلا بالزكاة ، وقال رحم الله أبا بكر ما كان افقهه . وروى عن عبد الله (أي ابن مسعود) قال : أمرتم باقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له. اهـ وروى غيره عنه أنه قال كما قال ابن زيد بعده : رحم الله أبا بكر ما كان افقهه . يعني بهذا قوله : والله لا افرق بين شيئين جمع الله بينهما

وفي تفسير هذه الآية مباحث (الاول) أن الشرط فيها كالشرط في الآية الخامسة وانما اختلف الجواب لمناسبة السياق : وردت تلك الآية تالية تلو الامر بقتل المشركين فناسب ان يكون جواب الشرط فيها الامر بتركه وهو قوله تعالى (فخلوا سبيلهم) ووردت هذه الآية تلو إثبات رسوخ المشركين في كفرهم وضلالهم وصدهم عن سبيل الله وكونه هو الباعث لهم على قتال المؤمنين ابتداء ثم على نقض عهودهم فناسب ان يذكر في جواب شرطها (فاخوانكم في الدين) وهذه أجلب لقلوبهم وأشد استمالة لهم الى الاسلام كما قال بعض المفسرين

(المبحث الثاني) استدل بعضهم بها على كفر كل من تارك الصلاة ومانع الزكاة ، ذلك بانه تعالى اشترط فيها لتحقق أخوة الايمان والدخول في جماعته ثلاثة أشياء : التوبة من الكفر واقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فانتفاء أحد هذه الثلاثة يقتضي انتفاء ما جعلت شرطاً له وهو الاسلام ، وتفصى بعضهم من هذا بادعاء ان العبارة انما تدل على حصول الاسلام بحصول هذه الثلاثة فقط دون انتفائه بانتفائها فهذا يحتاج الى دليل خارجي ، وأرجع ذلك الى مازعمه من ان التعليق بكلمة «ان» انما يدل على استلزام المعلق للمعلق عليه حصولا لا انتفاء فهو لا يقتضي انعدامه بانعدامه لجواز ان يكون المعلق لازما أعم فيتحقق بدون ماجعل ملزوما له . وهذا من الجدليات اللفظية الباطلة فليس في المقام إلا مسألة الاحتجاج بمفهوم الشرط وهو من ضروريات اللغة كما بيناه في هذه المسألة نفسها من تفسير الآية الخامسة ، وما أوردوا على اطراده من بعض النصوص التي لا يظهر فيها القول بالمفهوم فمنه ما سببه ضعف الفهم ومنه ماله سبب خارج عن مدلول اللغة ، فمن ذلك قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا) بناء على ان مفهومه عدم النهي عن اكراههن ان لم يردن التحصن — وهو غفلة ظاهرة عن كون الاكراه انما يتحقق عند إرادة التحصن ولا يعقل عند عدمها وهو بذل العرض وبيع البضع ، ومنه قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) استشكل الاشاعرة القول بمفهومه على مذهبهم ، وما هو بمشكل إلا من حيث يكون حجة لخصومهم المعتزلة على عدم مغفرة

الكبائر، وما زال المتعصبون للمذاهب يجنون على اللغة وعلى نصوص التنزيل لابطال حجج خصومهم، على ان المعلق على اجتناب الكبائر هنا أخص من المغفرة وهو أمران: تكفير السيئات والمدخل الكريم . وان هذا وذاك مما نحن فيه من اشتراط شروط للانتقال من أمر الى ضده المساوي لنقيضه أي من الكفر الى الايمان؟ هل يعقل أن يقال ان الايمان يحصل بحصول شروطه وإقامة أعظم أركانه ولا ينتفي بانتفائها؟ ألا انه لا يعقل في حال النظر الى الحقيقة نفسها وهي ظاهرة لا حجاب عليها، ولكنه وقع بالفعل ممن صرف بصره عنها وأراد معرفتها بالاصطلاحات الجدلية، والتعصب للمذاهب الكلامية أو الفقهية

والحق في أصل المسألة ما حققناه في شرط الآية السابقة وانما ذكرنا هذا هنا لان الذي أورد التفصي المذكور بهذه القاعدة هو إمام الجدليين فخر الدين الرازي، أورده مختصراً ونقله الآلوسي عازياً إياه إلى «بعض جلة الافاضل» وفصله بأوسع مما قاله الرازى فأردنا ألا يغتر به من يغترون عادة بكل مباحث هؤلاء الافاضل، والذي دعا الرازي وغيره الى التفصي من دلالة الآية على انتفاء أخوة الاسلام بانتفاء اداء الزكاة استشكاله إياه بالفقير الذي لا تجب عليه ولا تقع منه، وبالغني قبل وجوبها عليه بمرور الحول، واجابوا عنه في حال عدم تسليم تلك القاعدة بأن من لم يكن أهلا لوجوب الزكاة عليه يجب عليه ويكتفى منه بأن يقر بحكمها ويلتزمه عند وجوبه. وقد بينا من قبل ان الكلام في هذا المقام فيما يشترط على جماعة المشركين في خروجهم منها ودخولهم في جماعة المسلمين وهو الاذعان لشرائع الاسلام بالاجمال ولفريضتي الصلاة والزكاة بالتعيين والتفصيل ، وأما افراد المشركين فانما يطالبون بكل من فريضتي الصلاة والزكاة بالفعل عند تحقق فرضيتهما على كل منهم ، ومنهم من لا تفرض عليه الزكاة مطلقاً ومنهم من تفرض عليه بعد حول أو أكثر، ومثله من أسلم بعد طلوع الشمس لا تجب عليه الصلاة إلا بدخول وقت الظهر، ويكفي في أخوة الاسلام من كل من الفريقين قبل افتراض الصلاة والزكاة عليهما التوبة من الكفر والاقرار بالشهادتين مع الاذعان لما يقتضيانه من عمل بدني ونفسي بالاجمال كما فصلناه في تفسير الآية الخامسة وما هو ببعيد

(المبحث الثالث) وهو لغوي محض أن لفظ أخ يجمع على اخوة واخوان وكل منهما يستعمل في أخوة النسب وأخوة الدين وأخوة الصداقة خلافا لعامة البصريين كما قيل ، وقد نطقت هذه الاية باستعمال لفظ الاخوان في أخوة الدين ومثلها في الموالي (فاخوانكم في الدين) وفي اخوة الكفر (ألم تر الى الذين نافقوا

يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) الخ وأما استعمال جمع إخوة في أخوّة الدين ففيه قوله تعالى من سورة الحجرات (انما المؤمنون اخوة) ولكن لم يرد في التنزيل استعمال لفظ اخوان في أخوة النسب

(المبحث الرابع) هذه الاخوة الدينية مما يحسدنا عليه جميع أهل الملل فهي لاتزال أقوى فينا منها فيهم، وعاصمة لنا من فوضى الشيوعية وغيرها من مذاهب الغلو، على مامنيت به شعوبنا من الضعف واختلال النظام، واختلاف الجنسيات والاحكام، ولقد كانت في عصر السلف الصالح اشتراكية إختيارية أوسط أحوالها مساواة المسلم أخاه بنفسه، وأعلاها ايثاره على نفسه وأهله وولده، قال تعالى في انصار رسوله ﷺ ومعاملتهم للمهاجرين من أصحابه (يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وأما المواساة بما دون المساواة فقد كانت عامة في خير القرون، ثم صارت تضعف قرنا بعد قرن، ولا يزال لها بقية صالحة بين أصحاب الاخلاق المحمودة ولله الحمد

﴿وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ هذا بيان للأمر الثاني من أحوال المشركين. نكث الغزل أو الحبل ضد ابرامه، وهو نقض فتله وحل الخيوط التي تألف منها وارجاعها الى أصلها، ومنه (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) والايمان العهود، يضع كل من العاقدين للعهد يمينه في يمين الآخر، أومايوثق منها بالقسم كما تقدم، ونكث الايمان هنا يقابل فيما قبله استقامتهم عليها، والطعن في ديننا في الجملة التالية يقابل فيما قبله فرض توبتهم من الكفر به بدخولهم في جماعته، والمعنى وان نكث هؤلاء المشركون ما أبرمته أيمانهم أو ما أقسموا عليه أيمانهم من الوفاء بعد عهدهم الذي عقدوه معكم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوه وثلبوه بالاستهزاء به وصد الناس عنه وهو الذي عابه عليهم في الآيات المقابلة لهذه، ومنه الطعن في القرآن وفي النبي ﷺ كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم، فهذا العطف بيان للواقع وإيذان بأن الطعن في الاسلام، ضرب من ضروب نكث الايمان، ونقض السلم والولاء، كالقتال ومظاهرة الاعداء، فهو من عطف الخاص على العام، وليس المراد به تقييد حل قتالهم بالجمع بين الامرين، بل هو كقوله (ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا) ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم فهم أئمة الكفر أي قادة أهله وحملة لوائه، فوضع الاسم الظاهر المبين لشر صفاتهم موضع ضميرهم، وقيل ان المراد

بأئمة الكفر رؤساء المشركين وصناديدهم الذين كانوا يغرونهم بعداوة النبي ﷺ ويقودونهم لقتاله ، وذكر بعض من قال هذا منهم أباسفيان وأباجهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف ممن كان قتل في بدر أو بعدها ، وذلك من الغفلة بمكان لان السورة نزلت بعد غزوة تبوك وبعد فتح مكة (وفي أثنائه أسلم أبو سفيان) وهذه الاحكام انما تثبت بعد أربعة أشهر من تاريخ تبليغها في يوم النحر من سنة تسع كما تقدم.
وحملها بعضهم على الخوارج وبعضهم على فارس والروم وبعضهم على المرتدين بجعل الضمائر فيها راجعة إلى الذين تابوا وأقاموا الصلاة الخ واختاره الزمخشري اذ قال في تفسير (فقاتلوا أئمة الكفر) فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم اشعاراً بأنهم اذا نكثوا في حال الشرك تمردا وطغيانا وطرحا لعادات الكرام الاوفياء من العرب ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا اخوانا للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الاسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الايمان والوفاء بالعهود ، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيء ، – فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه ، لا يشق كافر غبارهم ، وقالوا اذا طعن الذمي في دين الاسلام طعنا ظاهراً جاز قتله لان العهد معقود معه على أن لا يطعن فاذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة اهـ
ولا أدري ما الذي حمل هؤلاء المفسرين على اخراج الآية عن ظاهرها حتى إنهم رووا عن علي وحذيفة (رض) أنهما قالا ما قوتل اهل هذه الآية بعد ، يعنون أنها نزلت في قوم يأتون بعد ، وزعم بعضهم أنهم الدجال وقومه من اليهود ، والحق أنها صريحة في مشركي العرب أصحاب العهود مع المؤمنين من بقي منهم ، ويدخل في حكمها كل من كانت حاله مع المؤمنين كحالهم . فكل من يجمع بين عداوتهم بنكث عهودهم والطعن في دينهم فيجب عده من أئمة الكفر ولهم حكمهم ، ومن لم يرهم أهلا لعقد العهد معه على قاعدة المساواة فهو أعدى وأظلم ممن ينكثون الإيمان ، وذلك ما نشاهده من الجامعين بين الاعتداء على شعوبنا وبلادنا وبث الدعاة فيها للطعن في ديننا لصدنا عنه واستبدال دينهم به أو جعلنا معطلين لا دين لهم

وقد علل تعالى الامر بقتالهم بقوله (إنهم لا أيمان لهم) أي ان عهودهم كلا عهود ، لانها مخادعة لسانية لم يقصدوا الوفاء بها (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) فهم ينقضونها في أول وهلة يستطيعون فيها ذلك بالظهور أو المظاهرة عليكم ، وقرأ ابن عامر إيمان بكسر الهمزة على أنها مصدر آمنه ايمانا بمعنى اعطاه الامان . وقرأ هو وعاصم وحمزة والكسائي وروح عن يعقوب (أئمة) بتحقيق الهمزتين على الاصل والباقون بتليين الثانية.

وأما قلبها ياء فليس قراءة ولا لغة بل هو لحن لا يجوز كما قالوا ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ أي قاتلوهم راجين بقتالكم اياهم أن ينتهوا عن كفرهم وشركهم وما يحملهم عليه من نكث أيمانهم ونقض عهودهم والضراوة بقتالكم كلما قدروا عليه، وهو يتضمن النهي عن القتال اتباعاً لهوى النفس أو ارادة منافع الدنيا من سلب وكسب وانتقام محض بالاولى، وتقدم نظيره في تفسير (٨: ٥٧ فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون) وهذا مما امتاز به الاسلام على جميع شرائع الامم وقوانينها من جعل الحرب ضرورة مقيدة بارادة منع الباطل وتقرير الحق والفضائل

واستدل الحنفية بالآية على أن يمين الكافر لا تنعقد، ولو كان كذلك لما وجب علينا الوفاء لمن وفى بها منهم واستقام على وفائه والآيات صريحة في الوجوب، وانما نفاها عن الناكثين، واعلمنا أنهم كانوا عازمين على النكث من أول وهلة وهو علام الغيوب، ولو لم يكن لهم أيمان على الاطلاق لما كان لهم نكث وقد أثبتهما لهم الآية التالية.

---

(١٣) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٥) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

لعل الله علم أن في أنفس جماعة من المؤمنين كرهاً لقتال من بقي من المشركين بعد فتح مكة وظهور الاسلام لأنهم من ظهورهم عليهم ورجائهم في ايمانهم، وعلم أنهم يعتذرون لانفسهم في سرائرهم بما ليس بحق ولا مصلحة للاسلام، وعلم الله أنه يوجد فيهم من المنافقين ومرضى القلوب من يزين ذلك لهم. والله يريد بهذه الاحكام تطهير جزيرة العرب من الشرك وخرافاته وتمحيص المؤمنين من النفاق ودناءاته - لهذا أعاد الكرة الى إقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين المعتدين منهم بهذه الآيات الجامعة. فقال عز وجل

﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة﴾

هـذا تحريض على قتالهم بأوجه وجوه الادلة وأقواها ، وأوضح أساليب البيان وأسماها . وهو أن الاستفهام للانكار الذي يحيل النفي اثباتاً كما يحول الاثبات الى النفي ، وقد دخل هنا على نفي القتال فكان دليلا على اثباته ووجوبه ، وأقام على هذا الوجوب ثلاث حجج

(إحداها) نكثهم لايمانهم التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ وأصحابه في الحديبية — أو لعهدهم الذي عقدته أيمانهم — على ترك القتال عشر سنين يأمن بها الناس من الفريقين على أنفسهم ويكونون أحراراً في دينهم، فلم يلبثوا أن نكثوا بمظاهرة حلفائهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبي ﷺ كما تقدم وكان ذلك ليلا بالقرب من مكة على ماء يسمى الهجير فكان نكثهم هذا من أفظع ما عهد من الغدر كما يدل عليه الشعر الذي أنشده عمرو بن سالم الخزاعي وهو واقف على رسول الله (ص) اذ كان جاءه لينبئه بذلك وهو قوله :

لاهمّ إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنت لنا أبا وكنا ولدا ثُمت اسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أيداً وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا في فيلق كالبحر يجري مزبدا(١)
أبيض مثل الشمس يسمو صعداً إن سيم خسفا وجهه تربّدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالهجير هجَّدا وقتلونا ركعا وسجدا
وزعموا أن لست ترعى أحدا وهم أذل وأقل عددا

فقال رسول الله (ص) « لا نصرت إن لم أنصركم » وتجهز الى مكة سنة ثمان من الهجرة . هكذا رواه ابن إسحق ونقله عنه البغوي وغيره

(ثانيها) همهم باخراج الرسول ﷺ من وطنه أوحبسه حيث لا يرى أحداً ولايراه أحد حتى لايبلغ دعوة ربه ، أوقتله بأيدي عصبة مؤلفة من شبان بطون قريش كلها ليتفرق دمه في القبائل فتتعذر المطالبة به . ائتمروا فيما بينهم بذلك في دار ندوتهم فكان هو الحامل له على الخروج الى دار الهجرة ولذلك اقتصر هنا على ذكر همهم باخراجه دون همهم بحبسه وهمهم بقتله الذي كان هو الراجح عندهم كما مر تفصيله في تفسير قوله تعالى (٨ : ٣٠ وإذ يمكر بك الذين كفروا

(١) المعروف أن الفيلق من أسماء الجيش مؤنثة والبيت دليل على صحة تذكيره

ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) (١) بل أسند اليهم اخراجه واخراج من هاجر من المؤمنين في أول سورة الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم)

(ثالثها) كونهم كانوا هم البادئين بقتال المؤمنين في بدر إذ قالوا بعد العلم بنجاة العير التي كانوا خرجوا لانقاذها : لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه ونقيم في بدر أياماً نشرب الخمر وتعزف على رءوسنا القيان، وكذا في أحد والخندق وغيرها ، ثم بغدرهم بعد صلح الحديبية كما تقدم « والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين » كما قال الرسول (ص) في جوامع كلمه متفق عليه من حديث أبي هريرة. ومن المقرر في قواعد العدل العامة أن الجزاء واحدة بواحدة وان البادىء أظلم

ثم قال بعد بيان هذه الحجج (أتخشونهم ؟) أي أتتركون قتالهم خشية لهم وجبناً منكم؟ ان كانت الخشية هي المانعة لكم من قتالهم (فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين) فان المؤمن حق الايمان لا يخاف ولا يخشى الا الله تعالى لعلمه بأنه هو الذي بيده ملكوت كل شيء ، فان خشي غيره بمقتضى سننه تعالى في أسباب الضر والنفع فلا يرجح خشيته على خشية الله تعالى بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره ، بل يرجح خشيته تعالى على خشية غيره، بل لا يخشى غيره حق الخشية

قيل إن هذا الاستفهام للانكار والتوبيخ للمؤمنين ،وهذا لا يصح الا إذا كان تعالى قد علم منهم أنهم يريدون الامتناع عن قتال المشركين خوفا منهم على أنفسهم، وهذا غير معقول ولا سيما في الحال التي أنزلت فيها هذه الآيات بعد فتح مكة وهدم دولة الشرك ، وقد كانوا يقاتلونهم بغير جبن ولا احجام وهم قليل مستضعفون والمشركون في عنفوان قوتهم دولة وكثرة وثروة . وانما هذا احتجاج آخر على جماعة المسلمين الذين لا يخلون من المنافقين ومرضى القلوب والسماعين لهم من المؤمنين الذين كانوا يعظمون ما عظم الله ورسوله من أمر الوفاء بالعهد ، ويكرهون القتال لذاته اذا لم توجبه الضرورة كما قال تعالى فيهم (٢ : ٢١٦ كتب عليكم القتال وهو كره لكم) الآية(٢) أو لرجاء انتشار الاسلام بدونه بعد فتح مكة والطائف وهدم دولة الشرك - فهذا الذي اقتضى كل هذه الحجج والبينات على كون نبذ عهود جمهور المشركين دون من وفى منهم بعهده حقاً وعدلا، لا يتضمن خيانة ولا غدراً ، وان بقاءهم على حربيتهم

---

(١) فيراجع في ص ٦٥٠ ج ٩ تفسير (٢) براجع تفسيرها في ص ٣١٩ ج ٢ تفسير

وهذه حالهم خطر لا تؤمن عاقبته. فهو تعالى يقول للمؤمنين بعد سوق تلك الحجج الثلاث التي تكفي كل واحدة منها لايجاب قتالهم: إنه لم يبق بعد قيام هذه البينات من سبب يمنع من قتالهم الا أن يكون الخشية لهم والخوف من قوتهم، وخشية الله أحق وأولى من خشيتهم، فان كنتم موقنين في إيمانكم فاخشوه وحده عز وجل وقد رأيتم كيف نصركم عليهم في تلك المواطن الكثيرة اذ كنتم ضعفاء وكانوا أقوياء. وفيه دليل على ان المؤمن حق الايمان يكون أشجع الناس وأعلاهم همة لانه لا يخشى إلا الله عز وجل

ثم إنه بعد إقامة هذه الحجج البينة على وجوب قتالهم ودحض شبهة المانع منه صرح بالامر القطعي به مع الوعد القطعي باظهار المؤمنين عليهم أكمل الظهور وأتمه، وهذا الوعد من أخبار الغيب التفصيلية في حال معينة فهو ليس كالوعد العام المجمل في نصر الله لرسله وللمؤمنين الذى يراد به ان العاقبة تكون لهم ولا يمنع ان تكون الحرب قبلها سجالا لتربية المؤمنين، وقد صدق وعده تعالى مجملا ومفصلا. فقوله ﴿ قاتلوهم ﴾ معناه باشروا قتالهم كما أمرتم فانكم ان تقاتلوهم ﴿ يعذبهم الله بأيديكم ﴾ بتمكينها من رقابهم قتلا، ومن صدورهم ونحورهم طعنا، يعقبهم في قلوبهم يأسا، لا يدع في أنفسهم بأسا، فالظاهر انه تعالى أسند التعذيب الى اسمه لانه أمر زائد على اسبابه من الطعن والضرب، وما يفضيان اليه من القتل والجرح، وكل قوم يقاتلون فانهم يصابون بالطعن والضرب، ويقتل بعضهم ويجرح بعض، ولا يسمون معذبين بذلك وحده فان الغالب والمغلوب فيه سواء، وانما يدل هذا الاسناد على انه تعالى سيحدث في أنفس المشركين في هذا القتال ألما نفسيا لعل اظهر اسبابه اليأس وسلب البأس ولذلك قال ﴿ ويخزهم ﴾ بذل الأسر والقهر والفقر لمن لم يقتل منهم ﴿ وينصركم عليهم ﴾ أكمل النصر وأتمه بحيث لا يعود لهم بعد هذه المرة قوة ولا سلطان يعودون به الى قتالكم كما كان شأنهم بعد نصركم عليهم في بدر وغيرها ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ كان هؤلاء المشركون قد نالوا منهم ما نالوا في سلطانهم فكان في صدورهم من موجدة القهر والذل مالا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم وهؤلاء المؤمنون هم الذين غدر بهم المشركون كخزاعة والذين كانوا في دار الشرك عاجزين عن الهجرة ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ الذي كان وقر فيها الى هذا العهد من غدر المشركين، ومن ظلمهم لمن لم يكن له مجير من المسلمين، فشفاء الصدور بعز الاسلام بالنصر العام الشامل لهؤلاء ولغيرهم هو غير ذهاب ما في قلوبهم من الغيظ والحقد على من غدرهم وظلمهم

ولما كان من أسباب كراهة المؤمنين لقتالهم حرصهم بعد ظهور الاسلام بفتح مكة على إيمانهم بالاقناع كما تقدم قريبا أخبرهم الله تعالى بأن هذا التعذيب والخزي الذي سينزله بهم لا يعمهم وإنما هو خاص بمن استحوذ عليهم الكفر وأحاط بهم حتى لم يبق فيهم استعداد للايمان وان غيرهم سيتوب من شركه ويقبل الله توبته فقال ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ منهم فيوفقه للايمان ويقبله منه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ يعلم مالا تعلمون من استعدادهم في حالهم ومستقبل أمرهم، ويشرع لكم من الاحكام فيهم ما تقتضيه حكمته في إقامة دينه واظهاره على الدين كله، فمشيئته في التائبين والمصرين تجري بمقتضى علمه المحيط بشؤون خلقه وحكمته البالغة في السنن التي وضعها لسير الاجتماع البشري وفي الاحكام التي شرعها لهداية الناس. ومن سننه تفاوت البشر في العقائد والاخلاق والاعمال، وقابلية التحول من حال الى حال، كدرجات تأثير الشرك في أنفس الافراد من قوة يترتب عليها الاصرار الى الممات، وضعف قابل للزوال في بعض الاوقات، بما يطرأ على أصحابها من الاسباب والمؤثرات، وليست مشيئته تعالى في التوبة على من يتوب عليه منهم اكراها لهم على الايمان كما تزعمه الجبرية، ولا من الخلق الأُنف الذي تزعمه القدرية. بل هو بحسب المقادير الالهية الثابتة بآيات التنزيل ونظام الاجتماع، فلو كان بالجبر والاكراه لما كان لهم فيه اختيار، يستحقون به دخول الجنة والنجاة من النار، ولو كان بالخلق المستأنف لكان من قبيل المحاباة في التفضيل الالهي المحض لبعضهم على بعض وذلك ينافي العدل والحكمة. وحاش لله من ذلك، ما كان لله ان يحابي أعدى أعداء رسوله وأبغضهم اليه (ص) كوحشي قاتل حمزة أخيه في الرضاع وعمه، وأبي سفيان المحرض الاكبر للعرب على قتاله، وعكرمة بن أبي جهل فرعون هذه الامة، فيخلق لهم الايمان ويجبرهم عليه، من حيث يحرم منه أبا طالب عمه وناصره بعصبة النسب وهو أحبهم اليه

وقد استدلت الجبرة ومنهم جمهور الاشعرية بهذه الآية على الجبر ونفي الاختيار فيما هو أظهر مما ذكر وهو إخباره تعالى بأنه هو الذي يعذب المشركين فيقتل بعضهم ويجرح آخرين بأيدي المؤمنين، فهذا يدل بزعمهم على أن أيديهم كسيوفهم ورماحهم ليست إلا آلات لا تأثير لها البتة، وأن الكسب الذي هو مناط التكليف اسم لا مسمى له، ودلالة هذه الجملة عندهم أقوى في المسألة من دلالة قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فان في هذا إثباتاً لاسناد الرمي إلى النبي

صلى الله عليه وسلم من جهة مباشرته لأخذ التراب من الارض وإلقائه على المشركين أو في جهتهم مع نفيه عنه ثم اسناده إلى الله تعالى من جهة أثره وهو وصول التراب إلى وجوههم، وأما ههنا فقد اسند التعذيب إلى الله وحده وأنه يفعله بأيدي المؤمنين. وقد بينا آنفاً أن لهذا التعذيب معنى وراء القتل والجرح الذي هو كسب المؤمنين وعملهم هو فعل الله وحده، على أن الحق فوق المذهبين وان أريد بالتعذيب القتل والجرح كما تعلم من قول كبيري نظارهم وما نقفي به عليه تأيداً المأثور عن السلف:

أجاب الجبائي امام المعتزلة عن الآية بحتجا على المجبرة بأنه لو جاز أن يقال إنه تعالى يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين، لجاز أن يقال إنه يعذب المؤمنين بأيدي الكافرين، ولجاز أن يقال انه يكذب أنبياءه على ألسنة الكفار، ويلعن المؤمنين على ألسنتهم، لانه تعالى خالق لذلك، فلما لم يجز ذلك عند المجبرة علم أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد وانما نسب ما ذكر إلى نفسه على سبيل التوسع من حيث إنه حصل بأمره وألطافه كما يضيف جميع الطاعات اليه بهذا التفسير اه

حكى عنه هذا الجواب الرازي مدره الاشاعرة في تفسيره للآية وقال إن أصحابه يجيبون عنه بما خلاصته أنهم يلتزمون كل ما ألزمهم إياه اعتقاداً، وإن كانوا لا ينطقون به أدباً مع الله تعالى، والرازي جبري قح ولا يلتزم كل الاشاعرة ما يلتزمه ويسنده اليهم، فهذا البيضاوي من فحولهم يفسر تعذيب المشركين بأيدي المؤمنين بتمكينهم منهم، وقد سبق لنا في مواضع من هذا التفسير تفنيد المذهبين وبيان ان خلقه تعالى لكل شيء لا ينافي خلقه الارادة والاختيار للعباد فيما اقدرهم عليه من الافعال. وانما أعدناه هنا لأن شبهة الجبرة في جملة (يعذبهم الله بأيديكم) أقوى منها في كل ماسبق من الآيات التي يستدلون بها على الجبر وسيأتي مثلها في قوله تعالى من سورة الواقعة (أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وفهم القرآن لا يكون صحيحاً إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الوجوه والاعتبارات التي ضلت الفرق بنظر كل منها إلى إحداها دون الاخرى مطلقاً أو جعلها ماوافق مذهبها أصلا يرد غيره اليه بالتأويل قريباً كان أو بعيداً، ومثل الجبرية مع القدرية هنا كمثل المرجئة مع الوعيدية من الخوارج وغيرهم في آيات الوعد والوعيد، فهؤلاء كلهم من «الذين جعلوا القرآن عضين» وضربوا بعضه ببعض

والذي حققناه في مسألة أفعال العباد مراراً أنه قد ثبت بالحس والوجدان، وبالمئات من آيات القرآن، أن للناس أفعالا يأتونها بارادتهم وقدرتهم واختيارهم

تسند اليهم ويشتق منها صفات لهم ، ويستحقون الجزاء عليها في الدنيا والآخرة ، وان الله تعالى الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الذي أعطاهم القدرة والارادة والاختيار ، كما أعطاهم الاعضاء والحواس ، وهو الذي سخر لهم ما تتعلق به أعمالهم في معايشهم ومنافعهم ، وهو يسند اليهم هذه الاعمال ويصفهم بها في مواضع كثيرة في المقامات التي تقتضي هذا الاسناد أو الوصف ، ويسند بعضها الى ذاته والى مشيئته ويصف نفسه بما يليق به وصفه منها في المقامات التي تقتضي ذلك ، فكما قال في سورة الواقعة (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) قال في سورة الفتح (يعجب الزراع) ولكل مقام مقال . ووصف الزارع لم يرد في أسماء الله الحسنى ولا في صفاته مستقلا كما أنه لا يوصف تعالى بأمثاله من صفات أفعال العباد ولا تسند اليه كالاكل والشرب والقيام والقعود وأخص أفعال الضعف والنقص كالنوم والتعب والالم ، وانما يسند اليه تعالى بعض أعمالهم التي لا نقص فيها بأسلوب إقامة الحجة وتقرير بعض المسائل كقوله في الاستدلال بخلقهم على قدرته على بعثهم من سورة الواقعة (افرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون) الخ الآيات فاستدل اولا بخلقه المني الذي يولدون منه فأسند اليهم فعل اخراجه بالجماع والى ذاته خلق مادته ، ثم استدل بالنبات فاسند اليهم حرثه واسند اليه زرعه اي إنباته وجعله حبا وثمرا يؤكل فيتولد ذلك المني منه بدون فعل لهم فيه ، ثم بالماء فاسند اليهم شربه واسند اليه انزاله ، ثم بالنار التي يعالجون بها طعامهم المؤلف غالبا من النبات والماء فاسند اليهم ايراءها وايقادها بحك الزندين من شجرتها واسند اليه إنشاء الشجرة . فعلم من السياق كله ان المراد بالزرع في قوله (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) الانبات لما يزرع حتى يصير حبا وثمرا يؤكل ، ولم يفهم أحد من العرب الذين نزلت هذه الآيات لتقرب من عقولهم ما كانوا يستبعدونه من البعث بعد الموت أن الله تعالى ينفي عنهم فعل زرع الحبوب في الارض التي يحرثونها ويثيبها لذاته وحده أو يريد أنه هو الذي يحرك أيديهم بفعل الزرع بدون ارادة لهم ولا اختيار فيه كما يحرك الدم في أجسادهم ، ويحرك أعضاء الجهاز الهضمي من المعدة والامعاء في هضم طعامهم ، وإنما كانوا يفهمون منه أنه هو الذي جعل الارض منبتة لما يبذرونه فيها ، بل هو الذي خلق الارض والحب والماء والهواء ، وسخر هذه الاسباب لهم ولولا ذلك كله لما أمكنهم أن يزرعوا ، ولولا أنه يزيل موانع الانبات والآفات التي تفسد الزرع لما أمكن أن يستفيدوا منه بعد زرعه ونباته ، ولذلك قال بعده (لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون * :

انا لمغرمون بل نحن محرومون) ويستحيل أن يكون فعلهم في الحرث والزرع مما يجعل حطاما فانه عرض زائل ، وانما المراد الحاصل منه الذي يؤكل

وقد روي عن مجاهد تفسير تزرعونه بقوله تنبتونه ، وبه أخذ البغوي وابن كثير ، وهو تفسير له بما لولاه لم يكن له فائدة . وقال ابن جرير في تفسيره أأنتم تصيرونه زرعا أم نحن نجعله كذلك ؟ اه . فأنت ترى أن أهل التفسير المأثور ورواته لم يقولوا إن في الآية كلمة تدل على الجبر، وكذلك فحول المفسرين بالمعقول، وحاصل كلامهم أن الزرع أطلق على غايته وهو اخراج نبته وسلامته من الهلاك ، لا على بدئه الذي هو شق الارض وإلقاء البزر فيها .

ويقال مثله في قوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وهو أن المراد بالتعذيب غاية القتال وفائدته وهو فعل الله وحده ، لا مبدؤه وهو كسب المؤمنين من قتل وجرح ، فهو كقوله تعالى في النصر يوم بدر (٨ : ١٧ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقد تقدم أنه لا دليل فيه على بدعة الجبر التي لم تكن تخطر في بال أحد من الصحابة رضي الله عنهم (راجع ص ٦٢٠ — ٦٣٤ ج ٩ تفسير) على أن معنى التعذيب إيجاد العذاب الذى هو الشعور بالألم ، وهو من فعل الله لا من كسب البشر ، فهذه الآية أبعد من آية الانفال عن الجبر وأهله ، وللعذاب هنا معنى آخر غير الشعور بالالم خطر لنا الآن وهو أن ما يصيب الجماعات والامم من الآلام والشدائد يكون لبعضها تربية وتمحيصا تتهذب به أفرادها ، ويرتقي بمجموعها ، وهو جدير بأن يسمى رحمة لا عذابا ، ويكون لبعض آخر نقمة وقصاصاً عادلا يمحى به باطل الجماعة ويمحق به طغاتها الفاسدون والمفسدون ، وهو الجدير باسم العذاب ، الذى وعد الله هنا بجعله عاقبة القتال لمن يقتل فقط ، دون من يتوب ويؤمن ، والحمد لله أنه كان الاكثر . وهو لا يتعارض مع وصف اكثرهم بالفسق في هذا السياق نفسه فانما كان ذلك حال اكثرهم عند نزول الآيات، وهذا ما انتهى اليه أمرهم بعد تربية مجموعهم بالقتال

واستشكل بعض المفسرين تعذيب الله إياهم مع قوله تعالى من سورة الانفال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وأجاب عنه بأن المراد بالعذاب المنفي هنالك عذاب الاستئصال ، ونقول إنه لا محل للاستشكال لانه ﷺ لم يكن في هؤلاء الذين وعد تعالى هنا بتعذيبهم كما كان في مكة بين مشركيها حين قالوا (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) يعنون عذابا كعذاب أقوام الرسل الذين كذبوهم جحوداً وعناداً وخوفهم الله تعالى

بمثله في كتابه ، وهو العذاب الذي نفى الله وقوعه كما قال المستشكل هنا حيث لا مجال للاستشكال . فان التعذيب هنالك نقمة محضة ، وما كان ليقع على قوم نبي الرحمة ، وأما هنا فانه انتقام من بعضهم بما هو رحمة لمجموعهم ، فهو كقطع العضو المجذوم من الجسد لاجل سلامة جملته ، كما قال في حكمة مالقوا من الشدائد في غزوة احد (٣: ١٤٠ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) ألم تر أن الباقين من أولئك القوم قد صاروا سادة البشر في الارض ، ولولا ذلك الجهاد الذي ذاقوا شدته وآلامه طوعا او كرها لما صاروا اهلا لذلك كما يعلم من قوله تعالى

---

(١٦) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

هذه الآية خاتمة هذا السياق في الحث على جهاد المشركين لتطهير جزيرة العرب من الشرك وطغيانه وخرافاته واصرار الراسخين فيه على عداوة الاسلام والمسلمين ، وقد كان الكلام في الآيات التي قبلها في بيان حال المشركين في مواصلة ما بدؤا به من قتال المؤمنين لاجل دينهم وقتال هؤلاء لهم الى حد الفصل التام بين الفريقين على الوجه الذي قامت به الحجج الناصعة على كون المؤمنين على الحق في هذا القتال التي لو عرضت على المنصفين من أهل كل ملة لحكموا للمؤمنين عليهم ؛ وقد بسطت في الآيات السابقة بالتفصيل المسهب الذي ليس وراءه غاية ، وانني لا أذكر أنه يوجد في الكتاب العزيز سياق فيه من الاسهاب والتأكيد والتكرار مثل ما في هذا السياق ، ولم أر فيما اطلعت عليه من التفاسير من سبق إلى هذا ونقى تعالى له من بيان نكتته ، والافصاح بحكمته ، والتكرار الذي يقتضيه المقام أعظم أركان البلاغة لانه أعظم أسباب اقناع العقل والتأثير في الوجدان . وأما الكلام في هذه الآية فهو في بيان حال جماعة المسلمين وشأنهم في الجهاد الحق الذي يتوقف عليه تمحيصهم من ضعف الايمان ، والهوادة في حقوق الاسلام ،

ويقول الجمهور إن «أم» في مثل هذه الجملة هي المنقطعة التي تفيد معنى الاضراب والاستفهام ، والمراد بالاضراب هنا تحويل سياق الكلام عن بيان ما يوجب على المؤمنين قتال الكافرين من بدئهم بالقتال لمحض عداوة الايمان وأهله ، ومن نكثهم للايمان والعهود بعد ابرامها وتوثيقها وغير ذلك مما تقدم - والانتقال

منه الى ما يتعلق بحال المؤمنين أنفسهم وما لهم من الفائدة العظيمة في الجهاد الحق للمشركين . وتقدم في تفسير آية (٢: ٢١٤ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) من سورة البقرة (١) أن شيخنا رحمه الله تعالى قال إن «أم» فيها لمحض الاستفهام، مراعى فيها معادلته لاستفهام آخر يؤخذ من سياق الكلام، وليس فيها من معنى الاضراب شيء. ثم فصلنا القول في المسألة في تفسير آية آل عمران (٣: ١٤٢ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (٢) ورأينا أبا جعفر ابن جرير قد جرى في تفسيره على أن الاستفهام في هذه الآيات في مقابلة استفهام آخر. ونفي العلم الالهي في هذه الآيات يراد به نفي المعلوم الذي هو متعلقه بالطريقة البرهانية كما تقدم تحقيقه في تفسير آية آل عمران. والوليجة ما يلج في الامر أو القوم مما ليس منه او منهم كالدخيلة، وهو يطلق على الواحد والكثير، وقد يجمع على ولائج، ويشمل السريرة الفاسدة والنية الخبيثة، وبطانة السوء من المنافقين والمشركين وهو المراد هنا لأنه هو الذي يتخذ. والخطاب لمجموع المسلمين الذين كانوا لا يخلون من بقية من المنافقين ومرضى القلوب الذين يثبطون عن القتال. والمعنى على هذا: هل جاهدتم المشركين حق الجهاد وأمنتم عودتهم الى قتالكم كما بدؤكم أول مرة، وأمنتم نكث من عاهدتم منهم لأيمانهم كما نكثوا من قبل؟ وهل علمتم أنهم تركوا الطعن في دينكم وصد الناس عنه كما هو دأبهم منذ ظهر الاسلام؟ وهل نسيتم ما اعتذر به المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ الى تبوك من الاعذار الملفقة الباطلة، وما كان من خبث الذين خرجوا معكم اليها وتثبيطهم إياكم عن القتال وغير ذلك مما فضحتهم به هذه السورة؟

﴿ أم حسبتم أن تتركوا ﴾ وشأنكم بغير امتحان ولا افتتان ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ أي والحال انه لم يظهر فيكم الى الآن ما يمتاز به أولئك الذين جاهدوا منكم في الله حق جهاده من المنافقين ومرضى القلوب ﴿ ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أي ولم يتخذوا لانفسهم دخيلة وبطانة من المشركين الذين يحادون الله تعالى بالشرك به، ويحادون رسوله بالصد عن دعوته، ويقاتلون المؤمنين أنصار الله ورسوله، يطلعون أولئك الولائج على أسرار الملة، ويقفونهم على سياسة الامة، كما فعل ويفعل المنافقون ومرضى القلوب فيكم. فهو بمعنى قوله

(١) راجع ص ٣٠٢ ـ ٣١٢ ج ٢ تفسير (٢) ص ١٥٤ ج ٤ تفسير

تعالى (٣: ١١٨ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) عبر عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين الصادقين وتميزهم من المنافقين وضعفاء الايمان بعدم علمه بهم لان عدم علمه تعالى بالشيء برهان على عدم ثبوته أو وجوده، ولا يوجد هؤلاء ممتازين ظاهرين الا بما مضت به السنة في الاجتماع من الابتلاء بالشدائد كما قال في أول سورة العنكبوت (الم. احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

وقد ثبت في الصحيح أن حاطب بن أبي بلتعة وهو من أهل بدر قد تودد الى مشركي مكة وكتب اليهم كتابا يخبرهم به بما عزم عليه النبي ﷺ من قتالهم بعد نقضهم لعهده الذي كان في الحديبية ليكافئوه على ذلك بعدم الاعتداء على ما كان له لديهم في مكة من أهل ومال، فما القول في المنافقين، ومن دون مثل حاطب من ضعفاء المؤمنين؛ ان ماوقع بين المسلمين في ذلك العهد من كراهة قتال المشركين لم يكن كل سببه ما تقدم من كراهة بعض المؤمنين للقتال بنية صحيحة، بل كان من أسبابه دسائس يلقيها المشركون الى أصدقاء لهم أو أولي قربى من المنافقين وضعفاء الايمان، حتى قال بعض المفسرين ان هذه الآية خطاب لهم من دون المؤمنين الصادقين، والصواب أن الخطاب لجماعة المسلمين كما تقدم، ذكر به الغافل، وأنذر به المنافق، فبين لهم أن منهم من يتخذ وليجة من أعدائهم، وأنه لا بد من التمييز بين الخبيث والطيب منهم، بما دل عليه النفي بلما الدال على توقع المنفي لقرب وقوعه، وأكد هذا الاخبار والانذار بقوله (والله خبير بما تعملون) أي عالم بخفايا ما تعملون الآن وبعد الآن محيط بدقائقه، وقد مضت سنته بأن يكون التكليف الذي يشق على الانفس هو الذي يمحص ما في القلوب ويطهر السرائر ويزكي الانفس بقدر استعداد معدنها، وأنه هو الذي يبرز السرائر الخبيثة ويظهر سوء معدنها، والواو في الجملة حالية أي أحسبتم وظننتم أن تتركوا قبل أن يتم هذا التمحيص والتمييز بين الذين صدقوا في جهادهم والكاذبين من فاسدي السريرة، ومتخذي الوليجة، وهو إلى الآن لم يعلم هؤلاء المجاهدين منكم لانهم لم يتميزوا من غيرهم بالفعل، وإن مالا يعلمه الله هو الذي لا وجود له، لانه لايخفى عليه شيء من أمركم، وكيف ذلك والله خبير بما تعملون

فهذه الآية بمعنى آيات أول سورة العنكبوت وآيتي البقرة وآل عمران اللتين أشرنا اليهما والى ما تقدم من تفسيرهما فليرجع اليه من شاء الوقوف على مافيهما من العلم والعبرة،

والموازنة بين مسلمي عصرنا ومسلمي العصر الاول. وقد ثبت بالاختبار أن للحروب على ما يكون فيها من العدوان والشرور فوائد عظيمة في ترقية الامم ورفع شأنها بقدر استعدادها ، وناهيك بالحرب اذا التزم فيها ما قرره الاسلام من احقاق الحق وابطال الباطل، ومراعاة قواعد العدل والفضيلة ،كاحترام العهود ، وتحريم الخيانة ، وتقدير الضرورة فيها بقدرها ، ووضع كل من الشدة والرحمة في موضعها، كما تقدم بيانه في تفسير آيات هذه السورة وآيات سورة الانفال قبلها ، وكذا آيات القتال من سورتي البقرة وآل عمران ، وكذلك كان المسلمون الاولون في جميع حروبهم على تفاوت بين سلفهم وخلفهم ، وقد شهد لهم بذلك علماء التاريخ والاجتماع من الافرنج المنصفين على قلتهم حتى قال حكيم كبير(١) منهم: ماعرف التاريخ فاتحا اعدل ولا ارحم من العرب

فتاوى المنار

﴿ أسئلة من الشيخ محمد علي اليماني في بيروت ﴾

وكان مجاورا في الازهر الشريف — مقرونة بأجوبتها

(س ١٦ — ٢٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الأستاذ الجليل السيد محمد رشيد أفندي رضا صاحب مجلة المنار الغراء حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :وبعد فاني أرفع لفضيلتكم ما يأتي راجياً التكرم بالاجابة عليه

(١) هل يجوز للمرأة أن تظهر صوتها ووجهها ويديها وغيرها أمام الرجال الاجانب والاطباء وغيرهم أم لا ؟

(الجواب) يجوز للحاجة المشروعة بقدرها كالتطبب والشهادة والعقود التي

(١) هو الدكتور غوستاف لوبون حكيم الامة الفرنسية وصاحب كتاب حضارة العرب

تصح منها، ويجب كشف الوجه والكفين في الاحرام بالحج أو العمرة، ويحرم عند توقع الفتنة، ويباح فيما وراء ذلك

(٢) هل يجوز للمسلمين أن يرسلوا أولادهم الى المدارس الاجنبية مع وجود مدارس اسلامية نظامية مستعدة لتعليم أبناء الأمة حسب مبادىء الدين الاسلامي الحنيف أم لا ؟

(الجواب) لا يجوز الا لطالب راشد متمكن من عقائد الاسلام وهدايته لان هذه المدارس الاجنبية تفسد عقائد الاحداث والجاهلين

(٣) ما قولكم دام فضلكم فيمن يرى عدم لزوم تدريس العقائد والعبادات وغيرها في المدارس الابتدائية وغيرها ويرى تدريس الحكايات والقصص كقصص الانبياء وأخلاقهم وغيرها فقط هل هو مصيب أم لا ؟

(الجواب) لا، فان قصص الانبياء ولا سيما السيرة المحمدية مفيدة جدا ولكنها لا تغني عن معرفة اصل الاسلام وهو عقائده وعباداته وحكمه وآدابه

(٤) أي الكتب الدينية الاسلامية أكثر فائدة في التفقه في المسائل الشرعية الدينية كالعقائد والعبادات وغيرها مع ملاحظة الشكل التام وسهولة اللفظ والمعنى لتلاميذ المدارس الابتدائية وغيرها ؟

(الجواب) لا أدري فان الحكم بهذا التفضيل يتوقف على الاطلاع على ماذكر وقلما رأيت منها شيئاً وأحسن ما أعرفه منها (خلاصة السيرة المحمدية) الخ وكتاب (الدين الاسلامي) لطلاب المدارس الثانوية وقد طبع الجزء الاول منه وكتاب (التعريف بالنبي والقرآن الشريف) اقتبس اكثره منه

(٥) هل يجوز تحكيم العقل في المسائل الشرعية الدينية المنصوص عنها في الكتاب والسنة والاجماع والقياس المعتبرين لان كثيراً من الناس يحاولون تحكيم العقل في المسائل الدينية فيقبلون منها ما يوافق عقولهم وينبذون ما يخالفها ولو كان في ذلك نص أو اجماع أو قياس فهل هذا يجوز أم لا ؟

(الجواب) لا يجوز تحكيم العقل في النصوص القطعية وانما وظيفة العقل فهم العقائد واقامة دلائلها، والآداب الشرعية ومنافعها، والترجيح بين الادلة في الاحكام الاجتهادية التي ليس فيها نصوص قطعية عند المستعد لذلك

(٦) هل يجوز حمل ساعة الجيب واليد وغيرها لاجل ضبط أوقات الصلاة والاشتغال كالمدارس والتجارة وغيرها أم لا ؟

(الجواب) يجوز بلا شبهة والسؤال عنه مستغرب

(٧) هل يجوز اعتقاد عمل المندل وضرب الرمل وتعليق التمائم وكشف الضمائر وقراءة الكف وعمل السيمياء وجميع أنواع السحر من أعمال الطلاسم وغيرها أم لا ؟

(الجواب) لا يجوز شيء من ذلك لأنها خرافات ومفاسد

(٨) هل يجوز التنويم المغناطيسي وتحضير الارواح ومخاطبتها شفاهياً أو كتابياً وهل هذا ثابت أم لا ؟

(الجواب) يجوز اذا لم يكن فيه ضرر ولا معصية ولا خداع لأحد كما يفعل كثير من الممارسين لذلك ، والتنويم ثابت لا مراء فيه . وأما تحضير الارواح أو مخاطبتها فله أصل ثابت ، وأكثر ما يقال فيه خداع باطل

(٩) هل يجوز التقليد والتلفيق من مذاهب الأئمة الاربعة وغيرها في العقائد والمعاملات والعبادات وغيرها كالوضوء والغسل والصلاة وغيرها أم لا ؟

(الجواب) ان جمع الاقوال الملفقة من المذاهب المختلفة للعمل بها تقليداً لاهلها عبث بالدين واتباع للهوى ولكن الذي يتبع قوة الدليل إذا وافق استدلاله بعض الائمة في بعض الاقوال، ومن يخالفه منهم في قول آخر — ولو في موضوع واحد — لا يعد ملفقاً ولا مقلداً

(١٠) ما الادلة النقلية والعقلية على افتقار الطبيعة الكونية الى صانع مختار وما الطبيعة ؟ لان كثيراً من المسلمين تجردوا من الدين واعتقدوها

(الجواب) الطبيعة الخليقة وهي مؤلفة من مواد ذات خواص وقوى، وفيها من السنن والنظام الدقيق ما يدل دلالة ظاهرة على أن لها خالقا قادرا عليما حكيما اذلا يمكن أن يكون ما ذكر قد وجد بالمصادفة ولذلك اتفق جميع البشر ومنهم العلماء والحكماء من الشعوب القديمة والحديثة على وجود خالق للخلق وانما شك أو شكك في ذلك أفراد من الماديين بضروب من الشبهات والجدل وحسبك من الادلة قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فهو أصح النقل، وموافق لأصح براهين العقل

(١١) ما الروح وما أدلة وجودها النقلية والعقلية

(الجواب) الروح من عالم الغيب لا تعرف الا بآثارها وباخبار الرسل عنها . وأقوى الادلة العلمية العصرية عليها أن جسم الانسان ومنه دماغه يفنى مراراً ثم يتركب من مواد جديدة ومع هذا تظل معلوماته ووجداناته الكثيرة التي أدركها قبل هذا الانحلال والفناء المكرر محفوظة ثابتة في نفسه ، فلو كان الادراك من وظائف الدماغ كما زعم الماديون لزال بزواله في كل مرة ما كان انطبع فيه . ومستحضرو

الارواح ومدركوها من افراد البشر قد أدركوا من آثارها ما لا يدركه غيرهم وقد كثروا في هذا العصر والمصدقون لهم يزدادون في كل يوم بحيث يقل المنكرون الى أن يضمحلوا

(١٢) ما الدليل على وجود الجنة والنار والثواب والعقاب والبعث الجسماني نقلا وعقلا ؟

(الجواب) العقل لا يمكنه أن يستدل على وجود هذه الاشياء وكلها من عالم الغيب الا من طريق كونها مما يقتضيها عدل الله وحكمه بين عباده وحكمته في خلقهم مستعدين لحياة ابدية. وأما أدلتها النقلية فهي النصوص الكثيرة في كتاب الله تعالى

(١٣) ما حكم من استخف واستهزأ بالعبادات كالصلاة والمصلين ولو على سبيل المزاح

(الجواب) الاستخفاف والاستهزاء بالعبادات القطعية كالصلاة لا يكون له سبب في الغالب الا عدم الايمان بها ، فحكم فاعله ان كان مسلماً في الاصل حكم المرتدين ولكن بعض المزاح في ذلك لا يقصد به الاستخفاف والاستهزاء. والعبرة في الحكم المذكور قصد فاعله ، وأقل ما يقال في المزاح المشتبه أنه مكروه أو حرام

(١٤) المرجو بيان أسماء الكتب التي خصصت في بيان حكمة التشريع الاسلامي مما يناسب عصرنا الحاضر لا سيما في معترك الضلالات والزيوغ ، وتفضلوا بالجواب

(الجواب) لم أطلع على كتاب يعجبني في ذلك مما يوافق حاجة هذا العصر ولكن في المنار وتفسيره الشيء الكثير من ذلك ، ولعلنا نوفق لجمعه ، او تأليف كتاب مستقل طالما فكرنا فيه

﴿ أسئلة أخرى من صاحب الامضاء في بيروت ﴾

(من س ٣٠ — ٣٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الاستاذ الجليل السيد محمد أفندي رشيد رضا صاحب مجلة المنار الغراء حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فاني رافع لفضيلتكم ما يأتي راجياً التكرم بالاجابة عليه :

١. هل تحسين الثياب والهندام والتطيب بالروائح الزكية مع التواضع وحسن الخلق ينافي الزهد والتقوى أم لا ؟

٢. هل يجوز تعليم النساء دق العود والبيانو وغير ذلك من أنواع آلات الموسيقى أم لا ؟

٣. هل يجوز للرجل أن يسمع الغناء وصوت العود والبيانو وغير ذلك من المرأة الاجنبية أم لا ؟

٤. هل تقبل توبة التائب اذا تاب من الذنوب الصغيرة والكبيرة كالقتل والزنا واللواط وشرب الخمر والديون والسرقة والخيانة والكذب والغش والظلم وغير ذلك ولا يعذب في القبر ولا في الآخرة أم لا ؟

٥. أرجو من فضيلتكم أن تبينوا لنا لفظ التوبة وهل تصح بكل لفظ أم لا ؟ تفضلوا بالجواب ولكم الاجر والثواب عبد القادر البعلبكي — بيروت

(ج س الاول وهو ٣٠ من باب الفتوى) تحسين الثياب والهندام والتطيب من أمور العادات المستحبة اذا لم يكن فيه محرم كثوب الحرير الخالص أو مكروه كثوب الشهرة ، وهو لا ينافي الزهد لانه عمل قلبي ولا التقوى لانه لا معنى لها في هذا الباب الا اتقاء الحرام

(ج ٣١) من يعتقد أن العزف بما ذكر من المعازف محرم تقليداً لمن يقولون بذلك وهم جماهير فقهاء المذاهب المتبعة يلزمه تحريم تعليمه للمرأة ، ومن لا يعتقد تحريمه لعدم صحة الدليل عليه عنده او لترجيحه رأي من اباحه من فقهاء الحديث والصوفية بشرطه لا يرى بأساً بتعليمه لامرأته أو محرمه لاجل ترويح النفس به في بيته مثلا ، وظاهر أنه يحرم تعليمه لامرأة تريد أن تكون مطربة للسكارى والفساق أو يظن ذلك فيها ، ومثل ذلك تعلم المرأة الاجنبية المستلزم للخلوة بها أو رؤية ما لا يحل للرجل رؤيته منها وكل ماهو سبب للافتتان بها .

(ج ٣٢) في الجواب عن السؤال الذي قبل هذا ما يعلم منه جوابه ، ومنه ان حضور معاهد الغناء والعزف والسكر المشهورة في مثل مصر وبيروت حرام

(ج ٣٣) التوبة واجبة من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها ومتى كانت صحيحة نصوحا كانت مرجوة القبول ، ولكن حقوق العباد لا تغفر بالتوبة وحدها بل لا بد معها أو لصحتها من ردها الى أصحابها ان كانت أعياناً أو ارضائهم في مثل الغيبة .

فعلم من هذا أن من كان لأحد عليه مال أخذه منه بغير حق كالسرقة والخيانة والغش والدين الربوي وغيره فان توبته لا تصح من هذه الذنوب الا اذا أرجع هذا المال الى صاحبه أو لورثته من بعده ، فان تعذر ذلك بانقراضهم او عدم العلم بهم فليتصدق بذلك المال والا كان غاشا نفسه وخادعا لها بدعوى التوبة . ولا يمكننا في جواب هذا السؤال أن نبين حقيقة التوبة وشروطها بالتفصيل ، فعلى الصادق فيها ان يراجع هذه

الاحكام في الكتب الخاصة بذلك ومن اهمها كتاب الزواجر لابن حجر المكي الهيتمي واول الجزء الرابع من الاحياء للغزالي ومدارج السالكين لابن القيم

(ج ٣٤) التوبة ليست امراً لفظياً فيصح السؤال الاخير: هل تصح بكل لفظ ام لا ؟ وانما هي اعمال نفسية وبدنية من فعل وترك، والمشهور عند العلماء في تعريفها انها مركبة من ثلاثة اشياء (١) الندم على ما كان من اقتراف الذنب في الماضي (٢) تركه في الحال (٣) العزم على عدم العودة اليه في المستقبل . والغزالي يقول انها حقيقة مركبة من علم وحال وعمل، اما الاول فالعلم بما ورد من الوعيد على الذنب وكونه سبباً لسخط الله وعقابه ، واما الثاني فهو الحال الوجدانية التي يوجبها هذا العلم اي الخوف من سخط الله وعقابه، واما الثالث فهو العمل الذي يوجبه هذا الحال وهو ترك الذنب او الذنوب ان كانت متعددة مع العزم على عدم العودة اليه ، والاجتهاد في ازالة اثره من النفس بالعمل الصالح المضاد له الخ

﴿ الجمع بين آيات القرآن والاحاديث واخبار الدول في الكتب ﴾

(س ٣٥) من صاحب الامضاء في دبي — على خليج فارس

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة الفاضل العلامة الذاب عن الدين، طعن الزنادقة والملحدين، والناقد للمرويات عن سيد المرسلين ، السيد محمد رشيد رضا (رضي الله عنه وأرضاه) السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد لازال يخطر ببالي وتجول في فكري من جمعكم في المنار الاغر بين الآيات الكريمة والتفسير والأحاديث النبوية، وبين اخبار دول أوربا وحوادث أمريكا فهل الجمع بين ذلك يؤدي للاهانة بالقرآن (كذا) العظيم وكلام النبي الكريم أم كيف ؟ الرجاء كشف ذلك . السائل مسترشد والسلام

المشترك — أحمد بن حسن

(ج) هذا السؤال غريب جداً ، وتوجيهه إلي من هذا السائل الذي وصفني بما وصفني به قبل السؤال أغرب ، وأقول في جوابه (أولا) إن إهانة القرآن والاحاديث النبوية لاتقع من مؤمن بكتاب الله وبرسوله ﷺ وان وقع منه مع اعتقاده بأنه إهانة حكم بكفره ، فكيف يقع ممن نصب نفسه للدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والذب عنهما ؟ (ثانيا) إن الجمع بين الآيات والاحاديث واخبار

الأمم مؤمنها وكافرها موجود في القرآن نفسه وفي كتب الحديث والتفسير والتاريخ التي ألفها كبار علماء الاسلام ، ولم ينكر ذلك أحد في يوم من الأيام بل نجد بعض كبار المفسرين حتى أنصار السنة منهم كالبغوي يذكرون في تفاسيرهم من الخرافات الاسرائيلية الموضوعة والضعيفة ما هو أولى بالانكار من ذكر أخبار الدول والامم الصحيحة. وقد كان عملهم هذا ضاراً ولكن لاوجه لعده إهانة لكتاب الله (ثالثاً) إن ما نذكره نحن في المنار من اخبار دول أوربة وغيرها نختار منه الصحيح الذي فيه عبرة للمسلمين أو دفاع عنهم وعن بلادهم أو تأييد للاسلام نفسه أو ذب عنه — كما يرى السائل وغيره في هذا الجزء — وكل ذلك مما نرجو أن يثيبنا الله عليه

﴿ هل المجذوب ولي أو مجنون ﴾

(س ٣٦) من أحمد محمد ثابت بالبطن تبع ابي عموري

الى حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد رشيد رضا

التمس من فضيلتكم البيان الشافي في عدد من أعداد مجلتكم الغراء عن أمر لبس علينا سمعنا كثيراً من الناس يجزمون بان المجذوب ولي بغير عمل لانه جذب من صغره في حب الله وقد صح حديث « رفع القلم عن ثلاث النائم حتى يستيقظ والمجنون حتى يفيق والصبي حتى يبلغ » وقال تعالى (إلا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون)

فلذا اشتبه علينا لهذه الآية الكريمة ولهذا الحديث الشريف أمر المجذوب هل هو في حكم المجنون أم لا ؟ وهل هو ولي أم لا ؟ مع كونه رفع عنه التكليف ؟ وإنا نرى ان الولاية مقام كبير فلهذا لا نعترض خوفا من الخوض ، وهل عند أرباب الطرق شيء صحيح ورد فيه شيء عن النبي أم لا ؟ افتونا في ذلك مأجورين بارك الله فيكم وعليكم ودمتم .

أحمد محمد

(ج) الولي في عرف الشرع المؤمن المتقي لله تعالى، والآية التي ذكرتموها نص في ذلك. وفي اصطلاح الصوفية تفصيل لهذا الاجمال في تعريفات السيد الجرجاني: الولي فعيل بمعنى الفاعل وهو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان، أو بمعنى المفعول وهو من يتوالى عليه إحسان الله وإفضاله. والولي هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات اه وقد عرفوا الجذب الخاص عندهم بانه جذب الله تعالى عبداً إلى حضرته .

وقالوا المجذوب من ارتضاه الحق تعالى لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه ، فحاز من المنح والمواهب ، ما فاز به بجميع المقامات والمراتب ، بلا كلفة المكاسب والمتاعب اه يعنون بهذا ان الاحوال والمقامات التي تنال بسلوك طريق المعرفة بالتدرج والتنقل في المنازل قد تحصل لبعض الناس دفعة واحدة من غير طول مجاهدة للنفس بالرياضة والاوراد ، وهذا أمر ممكن وواقع إلا أنه نادر، وانني أعرف رجلا كان ملحداً بشبهات طرأت عليه من اشتغاله بالفلسفة فمرض مرضاً لم يشف منه إلا وقد شفي من داء الالحاد ، فصار صحيح الاعتقاد محافظاً على الصلوات ، متورعا عن الشبهات ، أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر ، رحمه الله تعالى.
وأكثر من كانوا يعدون من المجاذيب عقلاء علماء حكماء ، وإنما كان من غلو بعضهم في الزهد والعبادة والقشف ان عراهم من الشذوذ ومخالفة جماهير الناس في آدابهم ومجاملاتهم مايعد وسوسة وخللا أو جنونا « والجنون فنون » وكانوا يسمونهم الموسوسين ، ويعبرون عنهم بعقلاء المجانين ، لما يصدر عنهم من الحكم والمواعظ المعقولة أحياناً ، ومن الشذوذ أحياناً . وقد يصل بعضهم الى درجة الجنون المطبق بحيث يؤذي الناس فعند ذلك يشد ويلقى في البيمارستان

وقد غلا بعض ناشري الخرافات من المتصوفة كالشيخ الشعراني فصار يطلق اسم المجذوب الالهي والولي على المتوهين في أصل خلقتهم وعلى الدجالين الادعياء المتباهين، واشهر هذا بين الناس فصار سمت الولي وشعاره عندهم الوساخة والقذارة والهذيان وكشف العورة وفحش القول، كالذين نراهم يطوفون حول الاضرحة المعبودة وهياكل الوثنية المشهورة ، وانما هؤلاء مجاذيب الشيطان ، واولياؤه لا اولياء الرحمن.

﴿ يوسف نجم : علمه وأين تعلم ؟ ﴾

(س ٣٧) من تاجر مسلم في هفانا

ذكرنا في ص ٨٠٠ من المجلد التاسع والعشرين ان تاجراً مسلماً كتب الينا كتاباً من هفانا يذكر فيه ان رجلا اسمه يوسف نجم يكتب مقالات متتابعة في جريدة مرآة الشرق العربية السورية التي تنشر في (نيويورك) يطعن فيها على الاسلام ومذاهبه وأئمته وأشهر رجاله المصلحين في هذا العصر . وقد سألنا هذا الكاتب : هل تعلم يوسف نجم هذا في الجامع الازهر أوفي غيره من المعاهد الاسلامية ومادرجة معارفه الدينية الخ وقد وعدنا في خاتمة ذلك المجلد بان ننشر سؤاله في باب الفتاوى

ونجيب عنه، ولكننا نسينا ان نضع الكتاب في أضبارة كتب الاسئلة لانا كنا نعده من الرسائل الخاصة فصار يشق علينا البحث عنه في أنواع الكتب الاخرى من أدبية وسياسية وشخصية وغيرها. ولما كان السؤال والمسؤل عنه ليس بذى بال ولا شأن كالاسئلة العلمية والدينية رأينا ان نفي بالوعد بالقدر الذي نرى انه يفي بالفائدة فنقول

اننا قرأنا من تلك المقالات ماعلمنا به ان كاتبها عامي لم يتعلم في المدارس الدينية كالازهر ولا في المدارس المدنية وانما جل ماحشي به دماغه أمشاج من الصحف المنشرة وبعض القصص والرسائل التي يخلط فيها العلم بالجهل والحق بالباطل، وقد حفظت قصاصات من مقالاته لاأرى الآن حاجة إلى مراجعتها.

والدليل على ذلك كثرة الغلط الفاحش واللحن الناضح في عبارته والتعارض والخلط في موضوعاته. مثال ذلك أنه يذكر الخلاف بين امام اليمن والسيد الادريسي حاكم عسير بما يدل على أنه لا يعرف مذهب كل منهما ولا مركزه ولا وجه الخلاف بينهما وينكر على صاحب المنار أمورا يعزوها اليه وفي تفسيره ومجلته ضد ما يعزوه اليه كزعمه أنه يتعصب لمذهب الاشعرية على ما اشتهر به من الدعوة الى مذهب السلف الذي كان عليه علماء الصحابة والتابعين قبل وجود الاشعري ومذهبه، وعلى ما في تفسيره من الرد على الاشعرية وامام نظارهم فخر الدين الرازي، ولكن هذا العامي لم يقرأ ما كتبنا ولو قرأه لما فهمه

فيوسف نجم هذا عامي جاهل بالاسلام ومذاهبه وتاريخه وهو بغيره أجهل وهو يكتب ما تمليه عليه خواطره من غير علم ولا فهم ويزعم أنه يدعو فيما يكتبه إلى مقاومة التعصب الديني والمذهبي والاتفاق بين أهل الاديان والمذاهب المختلفة وهي دعاية فلسفية اجتماعية دعا اليها بعض الحكماء وكبار الكتاب على علم وبصيرة يرجى تأثيرها في المستعدين لها، وانما حظ هذا العامي المسكين منها التقرب إلى المتعصبين من النصارى بالطعن في الاسلام وكبار علماء المسلمين وكتابهم وزعمائهم لمنافع له يرجوها من هؤلاء المتعصبين فيما يظهر

وقد كان كتب الينا بعض الفضلاء يوجبون علينا أن نرد عليه ولو فيما يفتريه علينا وما كنا نجيب طلبهم لقلة الاهتمام بمثل طعنه الجهلي، والرد عليه يرفع قيمته إلى جعله مناظراً يرد عليه. ولكننا لما رأينا هذا التاجر السليم الفطرة يظن أنه على شيء من العلم كتبنا هذا. ولعلنا نجد فرصة أخرى نراجع فيها بعض قصاصات مقالاته من مرآة الغرب وننشر للقراء نموذجا منها للعبرة والفكاهة.

هل هذه النهضة خاضعة لسلطان العلم؟

محاضرة ألقاها الاستاذ عجاج نويهض في مدرسة النجاح الوطنية بالقدس

ونشرتها جريدة الجامعة العربية فبها وهي جديرة بأن يتدبرها كل مسلم ولا سيما المغرورين بالصحف المصرية لالحادية، ومقلديها في البلاد العربية، ولذلك نشرناها برمتها مع تصحيح لفظي قليل فيها، قال نفع الله به:

جدير بنا، ونحن في دور انقلاب عظيم لم يشهد له فيما مضى تاريخنا مثيلا، أن نقف ونتفكر قليلا على نور العلم الصحيح، هل مازاه اليوم من تبدل في جميع أوضاعنا الاجتماعية والدينية، هو تبدل جار على سنته الطبيعية، ومشتق من الحاجة الحقيقية في نفوسنا، تحركه عوامل سليمة، وتدفع به نحو غاية معينة، بحيث نستطيع أن نعرف ونحن وسط هذا الانقلاب ما كنا عليه البارحة وما نحن عليه اليوم، وما سنصير اليه في الغد؟ أم ان هذا الانقلاب يرافقه طغيان من على جوانبه، وتتخلله عناصر سقيمة، لا هي وليدة الحاجة بالذات، ولا هي مما ترمي البصائر الصحيحة اليه؟

فان أمماً كثيرة اجتازت مثل هذا الدور قبلنا، وبلت من أمر الانقلاب أموراً وافرة حتى استطاعت أن تعلم بالخبرة واليقين مايتمشى مع مصلحتها ويتلاءم مع غرضها، فحري بنا أن نأخذ العبرة من تاريخ تلك الامم، وهذا يفرضه علينا العلم على كل حال، لان نهضة تناوحت رياحها في جميع الاجواء واتسع مجالها حتى شمل جميع مناحي الحياة، تدعونا إلى أن ننظر فيها نظرة سليمة حتى نمكن الدلالة على الخير منها فيؤخذ ويثابر عليه، وعلى الشر فينهى عنه ويتنكب الناس طريقه.

والحالات السياسية التي قامت في فلسطين وسورية والعراق والجزيرة بعد الحرب العامة، لايجب أن تكون مانعاً يمنع توحيد المصلحة العامة في الأمور الاجتماعية والدينية والثقافية لجميع الامة العربية على محور واحد، لان القوة التي نراها اليوم تتبدد وتتلاشى في الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية، هي قوة عامة مشتركة بين جميع الامم الاسلامية، فبفقدانها يفقد المجموع قوته، ثم تفقد الفروع قوتها لانقطاعها عن الاصول، ولانفرادها في العناصر الحيوية التي تستمد من المجموع قوتها وسبب حياتها.

وهذا يعرف ويسلم به لانه هو الامر الواقع . فكل قوة من قوى الاسلام ، اذا عراها الضعف اليوم وتسلط عليها الانحلال ، تصبح قوة الاسلام من حيث مجموعها ضعيفة ، ثم لابد بعد ذلك من أن ينزل الضعف بالامة العربية نفسها ، فتندم ولات ساعة مندم .

ولعله من المفيد أن يشار ، ولو على وجه الاجمال والتقريب ، الى مواطن الانفعال في هذا الانقلاب فنقول فيه :

أولا — الانقلاب في مصر ، وما يكون له من الصدى والاثر في نفوس الاقوام العربية شرقي مصر وغربيها في الدرجة الاولى ، وفي سائر الامم الاسلامية القاصية والدانية في الدرجة الثانية ، ووسائل الكتابة والنشر والمواصلات ، كل ذلك مما يسهل بلوغ ذلك الصدى والاثر الى أقصى حد . فيظهر في القاهرة رأي شاذ مثلا يحمل صبغة الخروج على سنة من سنن الاسلام ، أو على عقيدة من عقائده ، أو على وضع من أوضاعه ، أو على ثقافته العامة ، أو على تاريخه ، فلا يلبث ذلك الرأي أن ينتشر في الآفاق ، ويقبل عليه جمهور المقلدة من النشء المتعلم ، وينتحله على وجه التباهي به ، ثم يأخذ بعرضه على الناس من قبيل حب الظهور ، حتى إنكم تجدون فريقاً من المنتمين الى الدين — ولكنهم على جمود مطلق — يصطفون مع فريق المقلدين من المتعلمين ويغترفون من ذلك الرأي المطير من القاهرة ، باحدى الجرائد اليومية ، أو بمجلة أسبوعية أو شهرية ، أو بكتاب يحمل سمة جديدة وكلمة تدل على مايفيد أنه قد كتب بروح (العلم) فالمنزلة التي تتبوءها مصر اليوم في هذا الانقلاب بمطابعها وجرائدها ومجلاتها منزلة عظيمة قوية سواء كانت للشر أو للخير(١) .

ثانياً — في كل بقعة اقليمية موضعية ، كفلسطين لوحدها ، وسورية لوحدها ، والعراق لوحده ، جو انقلابي مستمدة قوته من الروح الموضعية بطبيعة الحال ، ومن التأثير الذي يأتي من مصر ، وهذه النزعة الموضعية اذا نظر فيها على حدة في كل بلد من البلاد المذكورة ، وجدت انها تمثل حالة في الانقلاب الاجتماعي والديني والثقافي على نسق « ملوك الطوائف » ولان حركة النشر والطباعة في هذه الاقطار الثلاثة من سورية وفلسطين والعراق ، ليست متوفرة كتوفرها في

(١) المنار أكثر الناشرين لهذه الافكار هم من فساق هذه البلاد وسفهائها ولكن الجرائد جعلت لهم قيمة لان الناس هنا يحذرونهم لسفاهتهم وفي الخارج لا يعرفون حالهم

مصر ، ولأن البيئة الموضعية ليست زاخرة بالعمران الاجتماعي كما في مصر ، فلذلك لا ترى عناصر التقاليد عاملة بنشاط كما في مصر من الجهة المحسوسة ، ولكنك تجد في النفوس استعداداً ليس بالقليل للسير على منهج التقاليد ، ويتجلى هذا بأحاديث المجالس ، وتبادل الرأي ، والمشاورة ، والابحاث التي تسقط عليك مصادفة ومن غير قصد .

ثالثاً — هناك جو عام يوحي بالجديد في كل شيء ، وهذا الجو ينتشر تارة من انقرة ومن فيها ، وطوراً من كابل ، وأخرى من طهران ، وأخرى من الينابيع الاجنبية الواردة في اكياس البريد التي تحملها البواخر الاجنبية وتفرغها في المرافيء كل يوم أو كل اسبوع ، ومن المدارس الاجنبية المشيدة في نقاط معينة في البلاد .

***

الخوف على الاسلام والرجاء فيه

من الضروري أن يشار الى نوع القضية التي يراد علاجها . وهذه القضية هي : ان الاسلام بقواه الاجتماعية والدينية في مأزق حرج ، وهناك قوى آخذة بدفعه من على جرف هار الى الهوة السحيقة ، وهناك قوى أصلية أولية آخذة بتمكينه في الارض من جهة ورد العادية عنه من جهة أخرى ، وهذه العادية كان ينظر اليها حتى زمن قريب انها آتية من الخارج ، ولكن ظهر الى اليوم انها نشأت في الداخل أيضاً ، وأصبح الجسم عليه أن يقاوم ما به من ميكروب يسري فيه داخلا ، وأن يطرد عنه ما ينزل به من شر خارجي ، واذا أريد تحديد الزمن الذي عرف فيه ان للاسلام أعداء منه في الداخل ، فيمكن أن يقال ان فكرة الاسلام ظلت قوة مجموعة تعمل لحفظ ذاتها وتقوية وجودها ، إلى أول الحرب العامة ، أو بتعبير آخر الى انهيار السلطنة العثمانية .

ففي أقل من عشرين سنة ظهرت أفكار وآراء من المسلمين الخارجين على الاسلام ، هي من التطرف وحب الهدم ، والانتقاض ، والتخريب ، بحيث تمثل من هذه الروح أضعاف ما ظهر من هذا النوع من التطرف في الثورات الاوربية التي جاوزت الحد تطرفا وغلواً ، كالثورة الفرنسية مثلا ، حتى ان البلشفية نفسها أخذت أخيراً تتلمس طريق الاعتدال شيئاً فشيئاً ، فالمسلم الخارج على الاسلام وتاريخه وثقافته ولغته ، ترى في نزعته من الغلو أكثر مما ترى في عشرة أو عشرين أو مائة من الذين أظهروا الغلو في «دور الرعب» من الثورة الافرنسية ، أو في هذا الدور البلشفي الحاضر .

وإذا أريد حصر القضية في أضيق الحدود، أمكن أن يقال «هل يستمر ضعف الاسلام الحالي أو تنقلب حاله الى القوة الصحيحة» ؟

وإذا أريد حصر أسباب التأثير وعناصره في أقل الكلام، أمكن أن يكون ذلك على هذا الوجه:

١: مطبوعات مصر على اختلاف أنواعها ودرجاتها

٢: المطبوعات الاجنبية التي ترد من أوربة بطرق شتى. وهذا النوع من المطبوعات (وإن كان يرد بلغات أجنبية ويطالعه فريق قليل من أبناء هذه البلدان) تأثيره واسع المدى لاقبال النشء على الكتب الاجنبية والنظر فيها والنقل والاقتباس منها، زد على هذا ان هذا الفريق يجري على طريقة التلقيح الفكري أي انه متى قرأ شيئاً في كتاب أجنبي أو اطلع على رأي غريب، ولا سيما متى كان لتلك المادة علاقة بالشعوب الاسلامية، أو بالاسلام، او بالتاريخ الاسلامي، او بالانقلاب الحالي، سارع الى نشرها في الجمهور، تحت ستار العلم والمعرفة.

٣: «روتر» و «هافاس» وما ادراك ماروتر وهافاس؟ هما الوسيلتان اللتان تجبران القارىء أن يتلو بلهفة وتعطش نبأ سباق الكلاب في بلاد الانكليز، ونبأ الفرقة التي فازت في لعبة الفوتبول، ونبأ خروج القطار عن الخط الحديدي في أقصى شمال اوربة، من حيث تحرمان القارىء، أن يطلع على كل شيء فيه اظهار الحقيقة من ظهور حركات صالحة في الاسلام وقيام جماعات أو افراد أو زعماء بنهضة قومية أو وطنية على وجهها الصحيح، واذا نخلت جميع الانباء التي يطيرها روتر وهافاس من الشرق الى الغرب، وجد أن الكثرة المطلقة من تلك الانباء قلبت رأساً على عقب أو شوهت او صرفت عن معناها الحقيقي، او ألبست لباساً غير لباسها.

٤: المدارس الاجنبية، وخبر هذه المدارس والقائمين بأمورها والعاضدين لها خبر طويل معلوم عند الجميع، وسيأتي شيء من الكلام على هذا.

***

النقد العصري وتأثيره في العالم

ومن الضرورة بمكان من الوجهة العلمية الصرفة ان نلم بحقيقة كبيرة منتشرة في ارجاء العالم بعد الحرب العامة، وهي ان النقد بجميع ضروبه ومختلف انواعه، هو على الاكثر نقد هادم ناقض، لا نقد انشائي بنائي. ويراد بكلمة (نقد)

جميع مايخرج من الآراء في المطبوعات المتنوعة ، وما يجاهر به جماهير الكتاب السياسيين وغير السياسيين ، مما يدل على السخط والنقمة والتبرم ، ومما يبعث في جو العالم روح الانتقاض وطلب التبديل والتغيير ، ومما ينفث في شرايين الفكر الانساني حب التطور على وجه السرعة والانفلات من الماضي .

إن هذا النوع من النقد الهادم الناقض على هذا الوجه ، قد تفشى في اكثر مناحي الحياة الاجتماعية والادبية بعد الحرب فضلا عن السياسة . حتى ان الامم التي هي أعرق أمم الارض في التقاليد الموروثة ورعاية السنن القديمة في أصول حياتها ، قد هبت عليها عواصف كثيرة من هذا النوع واجتاحت من قواها الاجتماعية ماليس بالقليل .

والسبب الاول في حصول هذه الظاهرة الكبيرة من النقد الهادم بعد الحرب العامة ، هو ان الحرب الكونية قد أورثت نفسية الامم شيئاً كثيراً من الكرب والضعف ، وخرجت نفسية الفرد من الحرب وهي على نصيب وافر من التمرد والعصيان على النظم القديمة التي كانت منذ زمن بعيد ولم تزل هي الاصول التي تتغذى منها الامم في حياتها الاجتماعية ، ولم يقتصر أمر التأثر بهذه الروح الهادمة على الامم التي اشتركت في الحرب واكتوت بجمرة مصائبها . بل شملت تلك الروح أغلب العالم على الاطلاق ، ولكن على تفاوت بين أمة وأخرى .

وليس من الصعب أن يلمس الانسان روح هذا النقد الهادم في كثير مما تخرجه المطابع في الشرق والغرب ومما ينشره كثير من المتطفلين في سلك رجال الفكر والرأي في العالم . والامم من حيث حب تقليد ضعيفها لقويها في مناحي الحياة ، تجري على سنة اجتماعية كما وصفها ابن خلدون وأسهب في الكلام عليها .

وليس من الصعب أن تدرك السبب الحقيقي فيما ظهر الى اليوم وفيما قد يظهر في مصر من آراء التطرف الهادمة وضروب النقد المناقضة لاصول القديم برمته ، والداعية على وجه الغلو الشديد الى قلب النظام الاجتماعي في مصر والعالم العربي المجاور . على ان الفرق الجوهري بين ما ظهر في جو مصر من هذا النوع من النقد الملبس لباس العلم على غير سداد وحكمة ، وبين النقد الذي في أوربة ، هو أن النقد المصري يجب أن يعتبر فيه شيئان وهما :

(أولا) ان هذا النقد ولا سيما الذي ظهر ثورة وانتقاضاً على تراث المدنية الاسلامية بوجه الوضوح والصراحة ، هو نقد تقليدي في مصر ، ونشاط العاملين

على هذا النقد هو نشاط تقليدي للنقد الشائع في العالم عامة ، فكما ظهر في البلدان التي ليست هي في المرتبة الاولى من المدنية والحضارة جماعات دعت الى الهدم بدعوى فناء القديم ووجوب مماشاة الجديد ، فكذلك ظهرت في مصر دعوات مثل تلك وعلى غرارها . أضف إلى هذا ان جمهرة المتعلمين من المصريين يحملون نزعة الثقافة الفرنسية موسومة بذلك الميسم الخاص. ومن المعلوم ان الامة الفرنسية تختلف عن غيرها اختلافات جوهرية لا محل لذكرها الآن .

(ثانياً) ان الجماعات الداعية الى الهدم والنقض في البلدان الاوربية وغيرها هي على الاكثر منغمسة في درس ماضيها وحاضرها ومستقبلها بمعنى ان الجديد الذي يطلبونه والنظم التي يريدون نقضها وإحلال غيرها محلها ، كل ذلك يقولون فيه انه مكسب لهم القوة والملاءمة العصرية لحياتهم هذه لان نظمهم التي يثورون عليها قد بلي أكثرها أو بليت كلها بحيث ان الحياة اليوم لا بد لها من خلع القديم وارتداء الجديد ، وهم في ذلك على تفاوت ودرجات .

وأما النقد الذي ظهر في مصر الى اليوم انتقاضا على الموروث من الثقافة العربية الاسلامية أدباً وتاريخاً واجتماعا ، فهو انتقاض مذهب للقوة في مجموع الأمة المصرية نفسها والامم التي تقلدها في العالم العربي الاسلامي . حتى ان الغالين من الناقدين المصريين يدعون الى الثورة فوراً على النظم الاجتماعية وعلى قتل الثقافة الموروثة، فهم بهذا عاملون على افناء القوة التي في الأمة المصرية وفي الامم الأخرى دون أن يكون من الممكن ايجاد قوة أخرى تحل محل القوة المنتقض عليها، وهذا النوع من الانتقاض تنافيه مصالح هذه الامم في حياتها الاجتماعية والثقافية، ثم ان العلم نفسه لم يظهر الى اليوم أنه معوان لأولئك الناقدين فيما يدعون اليه ويعملون له .

***

بعد هذا ينبغي لنا أن نسأل في وسط هذا الانقلاب ، هل هو واصل الى الروح الدينية فيحدث فيها ايلاماً وجروحا وثغرات في مواضع، ويصادمها مصادمة عنيفة في مواضع أخرى ، جرياً مع التيار الانقلابي الحادث في أوربة ؟

من الواجب أن نتدبر بغاية العناية حقيقة الانقلاب الروحي في أوربة وأمريكا، وأن نعرف مسيره ، ونستشف من ذلك مصيره ، بما يظهر في التيارات الحالية من نزعات واتجاهات ظاهرة فيها الادله والبراهين . وأما المسارعة الى الاكبار والاعظام لكل نزعة ينشرها مقلد تارة تحت لباس العلم ، وأخرى لحب الشهرة والظهور ،

وأخرى انسياقا بعامل حب الهدم والتخريب ، فهذا ليس من شأنه أن يجعل الانقلاب الحالي في هذه البلاد والبلاد المجاورة يسير سير صحة وسلامة الى مستقر الخير والنجح . والحكمة تحتم علينا أن نزداد خبرة وتبصرة بالحال، فكما ان المريض الذي يتثاقل عن الأخذ بأسباب علاجه يسبب لدائه تمكينا، فكذلك السكوت والصمت والتهاون والجبن في هذه الايام إزاء الاضرار التي تدس في نواحي النهضة الحالية ،وجب لاستشراء الداء ، وسيحل بكثير من الاقوام الندم ولات ساعة مندم .

ونظرة عامة تلقى على الحالة الانقلابية الروحية اليوم في أوربة وأمريكا — على شريطة أن تلقى هذه النظرة على ضوء العلم ومصباح الحقيقة بعيدة من المكابرة وبريئة من العاطفة الكاذبة — تكون معوانا كبيراً لنا في أن نتفهم الحقيقة كما هي ، فيسهل علينا بعدئذ القياس ووضع الشيء في محله .

العالم النصراني وتأثير الحرب فيه

إن تقسيم العالم المسيحي اليوم الى كاثوليكي أو لاتيني، وبروتستانتي، وأرثوذكسي، ليس تقسيما مسلحاً بحدود منيعة تمنع انسياب العوامل الجديدة من قسم الى آخر، بحيث ترى النزعات الجديدة في المسيحية تهب في بلد ثم تنتشر في كثير من اصقاع العالم المسيحي دون تهيب الحدود الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الارثوذكسية .

لما فتقت ريح الحرب العامة ، وهاجت في أوربة روح الدفاع الوطني، وجدت الكنيسة نفسها أمام تيار جارف يدعو الى الحرب والقتال ، وهي تدعو الى السلم والوئام . ولكن سرعان ما طأطأت الكنيسة رأسها الى نفير الحرب فتحولت منابرها عن الدعوة الى عبادة الله، الى دعوة التجند والدفاع عن الحدود الاقليمية للوطن.

ولما ألقت الحرب بكلكلها ، وصارت الالوف والملايين تجندل في الأراضي الاوربية ، صارت الكنيسة ترافق الجيش وتذكي فيه القوة الروحية ، فأصبح الجندي يقاتل وأكثر ايمانه انه يقاتل في سبيل غاية قدسية هو مجاهد فيها، وعدوه كافر مبطل . ولكن على كل حال مالبثت الكنيسة أن وجدت أن القوة الروحية في الجيش واهية متزلزلة الى حد بعيد ، فقامت «الكنائس الحرة» في بلاد الانكليز بامتحان واسع النطاق في الجيش، لتعلم مقدار مافي نفوس الجنود من ايمان وعقيدة ، فكانت النتيجة ان تلك القوة ضعيفة وأن ضعفها كان قد بدا من قبل الحرب العامة : ثم قامت الكنيسة سنة ١٩١٦ بتأليف لجان كنسية سمتها « لجان التوبة والامل » لتمتحن القوة الروحية في الشعب أيضاً فكانت النتيجة فيه مثلها في الجيش، وقد أصدرت

الكنائس كتابا في نتائج عملها هذا ضمنته تفاصيل ماقامت به من العمل والامتحان .

ثم لما وضعت الحرب أوزارها ، وصار الناس يتوقون الى أن يعودوا الى حالة الاستقرار الروحي والنفسي ، رأوا انهم طلبوا الزيادة فوقعوا في النقص ، فاذا بظواهر الضعف الروحي تتفشى في أوربة وأمريكا ولم يكن الامر مقصوراً عند هذا الحد بمعنى ان هذا الضعف الروحي كان عارضاً لم يحدث أثراً سيئاً في العالم ، بل رافقه ماهو أكثر هولا ، وهو ان ظواهر الضعف الروحي رافقتها ولم تزل ترافقها حالات الضعف الخلقي مرافقة قوية الفعل والعمل ، كأن ظواهر الضعف الروحي اذا وجدت وصارت تعمل في المجتمع عملها المطلق بلا قيد ، لابد أن تكون ظواهر الضعف الخلقي والأدبي متفرعة عنها أو مبنية عليها بناء النتيجة على المقدمات . وقد ذكرت الكنائس الحرة في بلاد الانكليز أن من اكبر الاسباب في هذه الظواهر بنوعيها - الضعف الخلقي والضعف الروحي - هي أولا : الهجرة من الاقاليم الى المدن ، فتحمل هذه الهجرة أربابها على الانغماس في ملذات ماألفوها من قبل ، فيعكفون عليها ويغترفون منها ماشاءت شهواتهم واحتملت أجسامهم وأطاقت أبدانهم . أضف الى هذا ماهنالك من ضائقات اقتصادية بضيق الخلق منها ، ولاسيما اهل الطبقات الوسطى والعاملة ، وضيق الخلق يدفع بصاحبه الى ماهو شر من ضيق الخلق . ثانياً : كثرة الملاهي وتنوعها وانتشارها على وجه كثير الاغراء والاستمالة بحيث لايحتاج الناس الى كثير من ضبط النفس عند مقاومتها فيقبلون عليها وتكون صارفة لهم عن رعاية الحرمات والاخذ بحالة الاقتصاد . ثالثاً : ماسمته الكنائس الحرة « روح العصر » وهو جميع مافي هذا الدور من أسباب ووسائل وحالات تسهل حصول ظواهر الضعف الروحي والخلقي في الشعوب الاوربية .

***

في سنة ١٩٢٦ وضعت جريدة الناشن « The Nation » وجريدة الديلي نيوز « Daily News » أربعة عشر سؤالا بمعرفة أربعة من فحول العلماء الانكليز ، منهم برنارد شو الذائع الصيت ، ونشرت الجريدتان هذه الاسئلة طالبة من القراء الاجابة عليها . فأجاب عن أسئلة الناشن ١٨٤٩ قارئا ، وعن أسئلة الديلي نيوز ١٤٠٤٣ قارئا ثم استخرجت النسبة المئوية من الاجوبة فكانت النتيجة تدل على ان الاعتقاد بالمسيحية اعتقاداً خالياً من الالحاد ، والاعتقاد بألوهية المسيح ، لم يزل قائما في نفوس الكثرة من الامة الانكليزية . وقد كانت هذه الكثرة

سبعين بالمائة. وقال الذين تولوا هذا العمل انه لو وجهت هذه الاسئلة منذ خمسين سنة أو عشرين سنة على الاقل لكانت الكثرة مطلقة لا تقل عن تسعين بالمائة. وقالوا أيضاً انه مع بقاء الكثرة من الامة على العقيدة في الدين، فان الضعف الروحي ملحوظ جداً وهو يزداد ذيوعا وانتشاراً. ولما كانت هذه الاسئلة التي وجهت الى الامة الانكليزية بلسان جريدتين من أهم الجرائد الانكليزية، وكان الذين أجابوا عليها ليسوا من سواد القوم، بل هم من صفوة الامة الذين يقام لهم وزن، كان من المفيد أن نعلم هذه الاسئلة بالضبط لندرك منها حقيقة من اكبر الحقائق الساطعة وهي ان الضعف الروحي في أوربة دليل على المرض والعلة، لا على الصحة والسلامة، وان الامم التي ظهر فيها هذا الضعف بعد الحرب أخذ القلق يساورها، والمشكلات الخانقة تزداد استفحالا فيها، ومن ذكر بعض المذاهب الناشطة للعمل اليوم في أوربة وأمريكا تزداد هذه الحقيقة وضوحا.

(الاسئلة)	(الاجوبة) الناشن نعم	لا	فراغ	الدايلي نيوز نعم	لا	فراغ
١ - هل تعتقد بإله مجرد؟	٤٠	٥٥	٤	٧١	٢٦	٢
٢ - هل تعتقد بقوة مجردة غير مجسمة لها قصد وغاية ولها استطاعة الخلق والابداع بحيث ان المخلوقات المشهودة هي من آثارها؟ وهل تعتقد ان الحياة كناية عن قوة نشوئية؟	٣٩	٤٨	١٣	٣٣	٤٦	٢٠
٣ - هل تعتقد أن المادة هي أساس الحقيقة؟	٢٧	٥٧	١٥	٢١	٥٩	١٨
٤ - هل تعتقد بخلود النفس؟	٤٣	٤٧	٨	٧٢	٢٢	٥
٥ - هل تعتقد ان المسيح ذو ألوهية بمعنى أنه لا يمكن أن يقال إن جميع الناس هم ذوو ألوهية كألوهيته؟	٣٥	٦١	١	٦٨	٢٩	٢
٦ - هل تعتقد بشكل ما من أشكال الكنيسة؟	٥١	٤٣	٥	٧٥	٢٠	٤
٧ - هل تعتقد بمذهب الرسل أي تلاميذ المسيح؟	٢١	٧١	٧	٥٣	٣٦	١٠
٨ - هل تعتقد بالمذهب الذي ترسمه الكنيسة؟	٢٤	٦٨	٧	٥٢	٣٧	١٠

	الناشن نعم	الناشن لا	الناشن فراغ	الدايلي نبوز نعم	الدايلي نبوز لا	الدايلي نبوز فراغ
٩ - هل أنت عضو عامل في إحدى الكنائس؟	٤٣	٥٥	١	٦٢	٤٣	٢
١٠ - هل تذهب الى الكنيسة ذهابا مداوماً من تلقاء نفسك؟	٤٣	٥٥	١	٧١	٢٧	١
١١ - هل تعتقد ان الاصحاح الاول من سفر التكوين تاريخي؟	٦	٩١	٢	٣٨	٥٣	٨
١٢ - هل تعتقد أن التوراة موحى بها بمعنى انه لا يمكن أن يقال ان كتب الادب في بلادك موحى بها كالتوراة؟	٢٩	٦٨	٣	٦٣	٣٣	٣
١٣ - هل تعتقد باستحالة العشاء الرباني الى لحم ودم كأنه من جسد المسيح؟	٤	٩٣	٢	١٠	٨٦	٣
١٤ - هل تعتقد ان الطبيعة لا تبالي بما عندنا من معالي الافكار والمثل العليا؟	٥٨	٢٣	٤٨	٤	٣٥	٢٣

فظهر من هذه الاسئلة والاجوبة على معدل النسبة المئوية ان عدد المعتقدين بالمسيحية إجمالا هم أكثر من الذين على مذهب خاص من مذاهبها. على حد قول من قال، ان المتدين لا يتمذهب.

***

المذاهب الدينية الحديثة والقديمة في الغرب

والآن لابد لنا من أن ننظر الى التيارات الكبيرة، والمذاهب الكبيرة العاملة في الانقلاب الديني في أوربة وأمريكا، ونعلم على وجه الحقيقة والضبط ما يبيد كل مذهب من تلك المذاهب من قواعد وأسس، وما يرمي اليه من غاية وقصد، كل ذلك مضافا الى المسيحية قربا وبعداً. وهذه التيارات والمذاهب كما يلي:

أولا — العصريون Modernists

ثانياً — الاصوليون Fundamentalists

ثالثاً — الروحانيون Spiritualists

رابعاً — أهل العلم المسيحي Christian

خامساً — الكاثوليكية البابوية Scientists

١ — ﴿ العصريون ﴾

هم فريق كثير العدد والانتشار والذين ينتحلون عقائده يزدادون على التوالي، وهذا المذهب كان قبل الحرب العامة، ولكن بعد الحرب تجددت قواه كثيراً وهو أكثر انتشاراً في الولايات المتحدة الاميركية وبلاد الانكليز. والقواعد الجوهرية في هذا المذهب هي:

ا — إن الحياة تزداد قيمتها من حيث هي حياة ذات جهاز حي، ويجب أن تكون قيمة الدين ظاهرة من الوجهة العملية المحسوسة لا من وجهة العقيدة فقط

ب — ان قيمة الحياة الدنيا انما هي من أجل الحياة الدنيا نفسها غير معلقة على أمل الحياة الاخرى.

ج — ان العقل من الوجهة الدينية كان مقيداً فيما مضى، أما اليوم فيجب أن يكون مطلقاً حراً عاملا في نطاق الشخصية الانسانية.

وأصحاب هذا المذهب يتخذون الوسائل الآتية لنشر مذهبهم واعزاز قواعده في الناس:

ا - نشر البر والاحسان في جميع الطبقات ايماء الى أن الدين هو في العمل لا في القول.

ب - عضد الكنيسة في تحريم المسكرات.

ج - الوساطة في حل المشكلات العامة التي تمني بها الطبقات العاملة مثلا.

د - الاستيلاء على الطبقات العاملة بطريق الاشتراك معها في تمريضها وحل مشكلاتها

ه - الاستعانة بالوعظ الكنسي العام لنشر هذه المبادىء والتبشير بها.

٢ — ﴿ الاصوليون ﴾

أصحاب هذا المذهب هم في الولايات المتحدة أكثر منهم في بلاد الانكليز. وهذه الحالة هي عكس حالة العصريين الذين هم في بلاد الانكليز أكثر منهم في الولايات المتحدة. وأهل هذا المذهب يختلفون عن العصريين اختلافا بيناً، لا بل يمكن أن يقال ان الفريقين على حدين متقابلين بعيد ما بينهما، وهذا يتضح بايراد ماعندهم من قواعد وأسس وهي:

ا — قبول التوراة بحوادثها التاريخية كما وردت فيها.

ب — أخذ التوراة بمعانيها الظاهرة بلا تأويل.

ج — رفض الآراء المناقضة للتوراة كرأي النشوء والارتقاء.

د — الرجوع الى عقيدة الاسلاف أهل القرن السابع عشر الذين هاجروا

من انكلترا الى أمريكا أيام الضغط الديني. ويظهر من إمعان النظر في القواعد التي عليها أهل هذا المذهب انهم أصحاب رجعة الى العقائد المسيحية دون أن يقبلوا تسليط أي قوة من القوى العلمية الحادثة على تفسير ماورد في التوراة من أنباء وأخبار. وهم يعضدون مذهبهم هذا بشيء من الرأي الفلسفي اكتسب قوة بعد الحرب، فهم يقولون ان استناد الانسان الى العقائد الثابتة، في وسط كثرت فيه المصائب وعمت البلايا، هو أهنأ للنفس والروح، وأنشط للقلب والعزيمة، وأطرد للجزع والخوف، فالرجل يجد في اعتصامه بالعقيدة الثابتة ذلك النوع من الطمأنينة العذبة والاستراحة المنعشة، وأما اذا استولت على المسيحي الشكوك والريب في مثل هذه السنوات بعد الحرب، والشدة والازمة ماهما، فيزداد قلبه اضطرابا ونفسه هلوعا، فيحل به التلاشي والانحلال. ولذلك هم يقولون بأنه خير للمسيحي أن يحتفل على اعتناق العقيدة آخذاً بها صبرة واحدة، فاذا أخضع هذه العقيدة لقوى التفسير والتأويل بما يناقضها أحيانا ويضعفها أخرى يزداد أمره بلوى وحيرة

والوسائل التي بيد أهل هذا المذهب كادوا يكونون فيها متفردين، والى نوعها سابقين، إذ هم فيها يشبهون أصحاب الاحزاب السياسية التي تود الاستيلاء على الحكم والسلطان من طريق تكثير السواد والحصول على كثرة نيابية، كذلك يفعل هؤلاء الاصوليون فهم يسعون الى تكثيف سوادهم، وتكوين كثرة نيابية في الولايات التي كثرت فيها جموعهم، ثم هم بعد ذلك يريدون استنان الشرائع والقوانين الرسمية المؤيدة لمذهبهم، والمقاومة لمخالفيهم، وهم الذين قاموا منذ سنتين تقريباً بمحاولة منع تدريس رأي النشوء والارتقاء في إحدى الولايات الاميركية.

٣ — ﴿ الروحانيون ﴾

كان علم الروح في أول هذا القرن ضئيل الشأن جداً، حتى ان الجمهرة من علماء النفس ما كانوا يحفلون به ولا يقيمون له كبير وزن. ففي سنة ١٩٠٤ نشرت طائفة من الصحف الكبرى أسئلة طلبت فيها من الجمهور أن يبدي رأيه فيما كان وقتئذ لعلم الروح من مباحث سيارة وآراء منتشرة، فكانت الاسئلة دالة على ان الجمهور لا يعبأ كثيراً بذلك العلم وما اليه. ثم ان سير هذا العلم بعد مفتتح القرن العشرين كان ضعيفاً بطيئا حتى جاءت الحرب العامة فوراً، ووقع تأثير ماجرته من المصائب والبلايا موقعاً عميقا في نفوس الامم الاوربية. فذهل الناس، واشتدت الحيرة وساد القلق، وكانت الالوف وعشرات الالوف تنقلب من على ظهر الارض

الى جوفها ما بين عشية وضحاها، فوقعت النفس البشرية في ضنك ماروى له التاريخ مثلا . وقد كان من طبيعة الحال أن صار الناس يتساءلون ما الموت؟ وكيف يحدث؟ وما حقيقته؟ وهل تلك الالوف المؤلفة من الرجال ماتت حقيقة ميتة لا رجوع بعدها؟

هذه صفة الحال في وسط الحرب سنة ١٩١٦ فاذا بالسير أوليفر لودج شيخ علماء الروح في هذا العصر - وهو عالم كبير في ضروب العلوم الكونية على الاطلاق - يباغت أوربة بكتابه الذي أخرجه تلك السنة موسوماً ب « ريموند » . وفي هذا الكتاب جال صاحبه في عالم الروح والمخاطبات الروحية جولة كبيرة لم يظهر مثلها من غيره بعد . وهو كان له ابن تجند في الجيش وقتل ، وذكر السر أوليفر لودج في كتابه ان روح ابنه خاطبته بواسطة الوسيطة مسز ليونارد ، ثم تجدد لعلم الروح شأنه الكبير ولم يزل يعلو وينتشر كما نرى الى هذه الساعة . والاحوال التي يذكر الاصوليون أنها هي السبب لجعل الانسان يستند الى العقيدة الثابتة ، هي الاحوال المفعمة بالضنك والضيق ، التي ساعدت علم الروح في انتشاره الحديث ، لما صادف هذا العلم في النفوس المضطربة القلقة على إخوانها المفقودة ، من ارتياح الى تعليلاته في إمكان مخاطبة الارواح الغائبة .

هذا ما يقال على الاجمال في نشأة هذا العلم ومسيره . أما مؤتمر الاساقفة سنة ١٩٢٠ فقد أعلن الحرب على هذا العلم بلسان أساقفة كنتربوري ، بدعوى أنه ضلال شديد لانه يخضع العقل والارادة لقوة مجهولة .

٤ — أهل العلم المسيحي

العلم المسيحي - وهو مذهب يبدو اسمه غريباً لاول وهلة - هو طريقة حديثة في المسيحية قائمة على أساس مشترك بين التصوف وتعاطي العلاج النفساني والجسماني بوسيلة العقيدة فحسب ، دون الالتجاء الى شيء من العقاقير الطبية ، أو تشخيص الطب لماهية العلل والامراض . وقد سمي بالعلم المسيحي لان من أساس العقيدة فيه التوسل بمعرفة التوراة والانجيل الى الفناء في المسيح طلباً للخير والشفاء من العلة والاقتداء به في حياته .

إن الذي أسس هذا المذهب هو سيدة أميركية اسمها مسز ماري بيكر كلوفر أيدي .

Mrs. Mary Baker Glover Eddy

ولدت في اماريكة سنة ١٨٢١ وتوفيت سنة ١٩١٠ وفي سنة ١٨٤٣ تزوجت من الكولونيل كلوفر الذي توفي بعد سنة من زواجهما . وفي سنة ١٨٥٣ تزوجت

من دانيال باترسون ودامت حياتهما الزوجية عشرين سنة ، ثم طلقها سنة ١٨٧٣ ، وفي سنة ١٨٧٧ تزوجت لثالث مرة من الدكتور آسا جيلبرت أيدي وكان هذا الرجل آخر رجل تزوجته ومات سنة ١٨٨٣ . هذا ملخص حياتها الزوجية وقد عاشت حياة طويلة ، تسعين سنة .

وفي سنة ١٨٦٧ أظهرت للناس مذهبها وهو الشفاء بواسطة العقيدة العقلية بانية تعاليمها على التوراة وعلى أساس أن جوهر طبيعة الانسان هو جوهر روحاني ، وان روح الله هي المحبة والخير ، وان الشر المعنوي والشر المحسوس هما ضدان مقاومان لروح الله ، ووجودهما في الانسان دليل على ان نفسه خالية من الروح الحقيقية التي كانت في المسيح .

وهي تقول ان ليس هناك إلا عقل واحد وإله واحد ومسيح واحد ، وليس هناك مايعد حقيقة إلا العقل . وإن المادة والمرض هما عارض موهوم يمكن إزالته إزالة تامة بقيام العقل قياماً حسناً بمعرفة الله والمسيح ، ومن هنا غلبت تسمية هذا المذهب بالعلم المسيحي . وفي سنة ١٨٧٦ بعد أن كان هذا المذهب قد عرف أمره وشاع ذكره ، وعمت أصوله ، وأقبل جمهور كبير من الناس عليه ، أسست صاحبته « جمعية العلم المسيحي » ودعت الناس الى الدخول فيها والسير على مبادئها وكانت المؤسسة قبل ذلك التاريخ بسنة واحدة قد وضعت كتابها الموسوم ب« العلم والصحة » وهو الكتاب الذي أصبح اليوم الانجيل المرعي عند أهل هذا المذهب ، وطبع عدة مرات ، وقرأه كثير من الناس ، وفيه فصلت مسز أيدي أصول المذهب تفصيلا كافياً .

وانتشار هذا المذهب كان سريعاً جداً كما يدل على هذا الاحصاء التالي :

سنة ١٩١٠ كان لهذا المذهب ١٢٠٧ كنيسة منها ١٠٧٢ في أمريكا و٥٨ في بلاد الانكليز
« ١٩٢٠ « « ١٨٠٤ « ٤٥٩٠ « و٩٨ « «
« ١٩٢٦ صار مجموع الكنائس في البلادين ٢٢٥٠ كنيسة
« ١٩١٤ التي ٥٠٠ خطاب على ١٦٠٠٠٠٠٠ من الناس
« ١٩٢٦ التي ٣٤٢٣ خطاباً على ٢٦٦٩٨٨٩ من الناس

ومما هو جدير بالنظر والمقارنة بين العلم المسيحي والمذهب الروحاني ، ان العلم المسيحي نشط من أول الحرب في الوقت الذي عمت فيه البلوى الجمهور من كثرة الموت في ساحات القتال ؛ وكان نشاط هذا المذهب ولم يزل معاصراً لنشاط

المذهب الروحاني وبينهما فرق بعيد . فالمذهب الروحاني يقول ان الموت لا يذهب بالروح الى حيث لا تعود بل من الممكن ان تخاطب الروح عن طريق الوسيط ، فتجد النفس القلقة شيئاً من الارتياح الى هذا . ويقول العلم المسيحي ان هذا الموت الذي تحارون فيه لا قيمة له وليس هو بحقيقة وإنما هو عارض ، فاذا اعتقدتم في حياتكم ان المرض والالم وهمان يزولان بالاستمساك بالعقيدة الانجيلية ومعرفة المسيح ، فالموت الذي تلاقونه بعدئذ لا تنالون منه ضراً ، وليس هو بشيء يهلع له قلوبكم .

وقد انتشر هذا المذهب انتشاراً كبيراً في فرنسا والمانيا وإيطاليا والدانيمرك واسوج ونروج واسبانيا والروسية وهولاندة واليونان . وسنتا ١٩٢٣ — ١٩٢٥ كانتا زمن الفوز الاكبر لهذا المذهب .

٥ — الكاثوليكية البابوية

ذكرنا قبل الآن ان الكنيسة الاوروبية على الاجمال انقلبت عندما نادى منادي الحرب سنة ١٩١٤ من منابر وعظ وإرشاد ، الى منابر الدعوة الى الكفاح والجهاد ، والمعني بالكنيسة الاوروبية على الاغلب في هذا القول ، الكنيسة البروتستانتية وغير البروتستانتية مما انكمش ضمن الدائرة الاقليمية ، وخضع خضوعاً تاماً لفكرة الدفاع الوطني ، وصار يبث روح الحرب في الجند بداعي ان القضية التي جرت المدافع من أجلها واستلت السيوف من أغمادها ، انما هي قضية مقدسة من جهة ذلك الوطن . وأما الكرسي البابوي فقد اتخذ نهجاً سلمياً لسياسته ازاء الحرب وويلاتها ، وسارع البابا الى إظهار الدعوة التي ينادي هو بها من زمن طويل وهي السلم المسيحي وتأييد الاخوة . ولم يتخذ الكرسي الرسولي لفكرة الدفاع الاقليمي عن الاوطان الاوربية بمعنى استعمال السلطة الكنسية لتأييد القوة الروحية الحربية في الجيوش الاوروبية .

ومذ انقلبت الارض الاوربية الى حفرة من النار وساحة من الدماء ، أخذ البابا ينادي السلم السلم ، فلا يسمع له صوت ، فينادي الصلح الصلح ، فلا يفلح ، فينادي الرفق بالاسرى ، حجب الدماء ، اغاثة الملهوف ، وما الى هذا من تخفيف البلاء اذ لا سبيل الى إزالة البلاء .

حتى ان الدولة الايطالية لم تستفد من الكرسي الرسولي في الحرب كما استفادت انكلترا من كنائسها ولا كما استفادت كل بلاد محاربة من السلطة الكنسية أو الروحية التي فيها .

فلما انجلت الحرب، فاذا بالكرسي البابوي تنتشر هيبته، لا في أصقاع العالم الكاثوليكي فقط بل في البروتستانتي ايضاً. واذا بتلك المبادئ السلمية التي كان يدعو اليها البابا وقت الحرب تصبح من المثل العليا في أعين الامم الاوروبية التي صارت تتوق بملء نفسها وجوانحها الى تحقيق الطمأنينة والعودة الى السكينة. ثم بعد الحرب ايضاً أعاد الكرسي الرسولي نظره فيما له من أوضاع، وقصاد، ومرسلين في الداخل والخارج، فافرغ على كل هذا جلباباً جديداً ملؤه النشاط وطلب السعة والانتشار، فازدادت هيبته، وعلا مقامه، وقاربت القواعد الأصلية في الكاثوليكية ذلك الشوق المستكن في نفوس الامم المسيحية المتألمة الى الراحة والسكون.

زد على هذا ان الرأي الفلسفي الذي يعتضد به الاصوليون أصحاب المذهب الآنف الذكر، هو رأي يطابق بمعناه القاعدة الكبرى في الكاثوليكية، من الاعتصام بالعقيدة، والاخذ بها على ما هي عليه، دون ان يسلط عليها عامل التفسير والتأويل والتضييق والتوسعة، فاجتمع للكرسي الرسولي من كل هذا شيء جديد، هو القوة المعنوية والادبية، منتشرة في غالب اصقاع العالم المسيحي. والذي يدعو الى الدهش، هو ان الكاثوليكية من حيث هي دين، أصبحت عاملة، مستميلة، آخذة بالدعوة. حتى ان كثيراً من البروتستانت في بلاد الانكليز يدخلون فيها. وعدد الداخلين في الكاثوليكية يزداد سنة فسنة، يؤيد هذا احصاء يركن اليه وهو ان في سنة ١٩١٤ كانت نسبة الداخلين في الكاثوليكية من البروتستانت في بلاد الانكليزية سنوياً ٦٥١ نفساً. وفي سنة ١٩٢٧ كانت النسبة السنوية للداخلين في الكاثوليكية في بلاد الانكليز ايضاً ١١٠٦٤. وقد رأى الكرسي الرسولي ماحصل لمقامه من شأن حتى بلغ هذه الذروة العالية، فتوسع في سد الحاجات التي في نفوس الامم الاوربية ولاسيما الكاثوليكية، فاخذ يدعو الى الاصلاح الاجتماعي ومكافحة التدارف الضار في الاجتماعية. وقد مر القول ان الضعف الروحاني الذي بدأ في العالم بعد الحرب العامة رافقته ظاهرة الضعف الخلقي الادبي، حتى أصبحت مملكة الآداب الخلقية منذرة باخطار هائلة وقد هتك سياجها في مواضع عديدة.

وكل ما نسمعه في هذه الايام من ظهور جهود في إيطالية ترمي الى الاخذ بدرجة الاعتدال في الحرية الاجتماعية، والاستقرار على الصحيح من العادات

الاجتماعية ، كمحاربة الازياء الفاحشة وما أشبه ، كل ذلك ان لم يكن من الكرسي البابوي مباشرة فهو صادر بوحي منه وتدبير .

وأكبر السبب الذي حدا بالدولة الايطالية الى عقد المعاهدة الرومانية مع الكرسي البابوي هو أنها رأت ما للبابوية من ذلك المقام الرفيع في العالم ، فتاقت نفس موسوليني الى أن يعتضد بتلك القوة ان استطاع الى ذلك سبيلا وان يجعل له من توسله بذلك الكنف الحصين طريقا الى الفائدة والمنفعة في إيطالية وخارجها

بعد كل هذا البيان ، المعزز بالارقام الاحصائية والادلة الواقعية ، يتبين لنا أجلى تبيان ان العالم الغربي على الجملة مصاب بمحنة الازمة الروحية ، ونزلت به جائحة عامة هي ضعف القوة الروحانية ، للاسباب التي سردناها ، وبعضها كان قبل الحرب فجاءت الحرب وزادته فعلا وعملا ، وبعضها الآخر ولدته الحرب وأورثته الامم جميعاً . وتبين لنا أيضاً أن هناك في أوروبا وأميركا نزعات متنوعة ، ومذاهب عديدة ، كلها يسارع إلى العمل على النحو الذي تمكن به مؤاساة النفس الاوروبية الجريحة ورد الطمأنينة اليها بحيث تذهب عنها حالات انقلق والاضطراب . وغالب تلك النزعات والمذاهب نشأ من الروح المسيحية ليواسي النفس المسيحية بالوسيلة المسيحية . وإذا استثني علم الروح لكونه لا يحمل شارة المسيحية الخاصة فهو من جهة أخرى يطلب الاتصال بالروح ولا ينادي بأن المادة هي كل شيء في العالم .

وإذا كانت جميع هذه الحركات الرامية إلى الاصلاح في حالات النفس والروح والدين تنشأ في الاقطار الاوروبية والاميركية ، فمعنى ذلك أن القائمين بتلك الجهود وأصحاب تلك المذاهب هم يعتقدون أن مداواة النفوس بطريق الدين أنجع ما يمكن عمله . وهم لم يطرقوا في جهودهم هذه أبواب رجال السياسة ، ولا الملوك والامراء ، ولا طلبوا من حزب سياسي شيئا ، بل انقلبوا بمجموع ما في أيديهم من قواعد وأصول ومبادىء إلى النفس المسيحية يداوونها ويعالجونها على النحو الذي تقدم .

فهل الحركات التي طغت في بلادنا — ولها مريدون وعمال ووسائل وطرق وأساليب ، هي من حيث استقرارها على برهان علمي — ملاءمة لنفسية هذه الامم التى تقطن مصر وسورية والعراق وفلسطين والجزيرة ؟ أوهي تصادم ما في نفسيات هذه الامم من دين وعقيدة وإيمان ؟ الجواب : إن تصادم ذلك لا يكون عسيراً

وحالتنا الحاضرة يجب أن يظهر فيها منطق اجتماعي يأمر بالمعروف فيما هو مبق لهذه الامم في هذه البلدان قوتها الروحية وكيان ثقافتها وتاريخها ولغتها .

***

افساد المدارس الاجنبية في البلاد العربية

شر القوى المسلطة على النفسية العامة في هذه البلدان هي المدارس الاجنبية بمختلف علاماتها وأنواع جمعياتها التي تنتمي اليها ، ولا فرق بين التبشيري منها وغير التبشيري ، والسواد الاعظم منها هو تبشيري على كل حال .

هذه المدارس هي مراكز مسلحة بأحدث آلات الافساد ، وعملها في الغارة على الامة ونشئها لا يقل بوجه من الوجوه عن الغارة العسكرية الحربية ، بل غارة المدارس الأجنبية أقتل وأنفذ ، واستر عن العين ، وأخبث وسيلة ، وأكبر شراً ، فاذا كان ابن الثلاثين أو الاربعين فما فوق يؤدي للاجنبي الضريبة المالية الفاحشة ، والاعشار من نتاج الارض ، ويخنع للقوانين الجائرة ، (فهو) يفعل كل هذا ولكن يبقى له دينه وتقاليده ، وما ورثه من آبائه وأجداده من عزة نفس ، وكرامة ، وشمم ، وإباء . وهو يرى هذا العصر قد طغت فيه الخبائث وغارت الفضيلة لشدة ما رميت به البلاد من المهالك الاجنبية ، السالبة لكل عزة وكرامة ، ولكنه عندما يجول في خاطره مظهر الشرف القومي الكامل ، يصعد الزفرات من بين حنايا ضلوعه ، وينتفخ وجهه حسرة وألماً ، هذا ما يفعل اليوم ابن الثلاثين أو الاربعين :

أما الناشيء ، والحدث ، والشاب ، الذي لم يشب عن الطوق بعد ، أو شب عنه بعد الحرب العامة ، والذي يدخل المدارس الاجنبية ، المجهزة بكل الوسائل المدرسية للاستيلاء على عقول الطلاب ، فهو عندما يدرك الثلاثين أو الاربعين ، أو هو من اليوم وهو لم يزل على مقعد التحصيل في هذه المدارس ، قد انقلب ليس إلى أن يكون عاملا مسخراً للاجنبي يؤدي للمسيطر عليه الضريبة والعشر وما إلى ذلك فقط ، بل هو مسلوب الدين والعقيدة ، فاقد الانفة العربية الصحيحة ، بريء من الثقافة القومية ، تاريخ العرب في نظره قطعة بالية ، وتاريخ الاسلام في رأيه ساقط مكذوب ، والتقاليد القومية يراها ضحكا وسخرية :

على مثل هذا النوع من النشء تعمل المدارس الاجنبية وتعتني بتخريج الطلاب من أبناء هذه الامة ، والمدارس التبشيرية الموزعة في البلاد مرتبط بعضها ببعض

ارتباطاً وثيقاً محكماً، بحيث إنك ترى في غاياتها ومراميها ومجالات أعمالها وجهودها مقصداً واحداً وهدفا واحداً لا يتغير.

والمدارس التبشيرية لها من الانظمة ورءوس الاموال، مايحير العقول والافكار، وبعد الحرب العامة دخلت جهود هذه المدارس في دور لم يسبق له مثيل في التنظيم وكثرة الوسائل والارتباط.

وصار أكثر ماتخرجه مطابع الجمعيات التبشيرية الكتب والنشرات والمقالات في استصراخ العالم التبشيري للحملة على هذه الديار حملة صادقة، والمدارس الاجنبية من هذه الوسائل، وهي في المقام الاول، لحرام أن يسلم الوالد ولده والاخ أخاه إلى المدرسة التبشيرية، انها تأخذه عدة سنوات، فتتسلمه ولداً صحيحاً بعقيدته وثقافته ودينه، ثم بعد حين ترده إلى أهله وأمته وبلاده ولداً مزيفاً، ما كان فيه قد أخذ منه، وما أعطيه ففاسد لا جدوى منه ولا منفعة.

« المحاضرة بقية »

ماذا يقال عن الاسلام في أوربة

— ٢ —

نشرنا في الجزء الأول تحت هذا العنوان ماترجمه لنا الامير شكيب ارسلان من كتاب (العالم الاسلامي في المستعمرات الفرنسية) للضابط (جول سيكار) وننشر هنا ترجمة الفصل الثاني منه وموضوعه للتلميذ النجيب صاحب الامضاء وهذا نصها

احتكاك الاسلام بالمسيحية

(١) هل تنصير المسلم ممكن؟ وهل هو مرغوب فيه؟

إن البراهين مهما تكن قوية جلية الدلالة على تفوق المسيحية تفوقا كبيراً فهي ستلاقي أمامها حتى عند المسلمين الذين لا يستنكفون عن المناظرة (وعددهم قليل جداً) هذا الجواب البسيط: « هذا مخالف لما جاء في القرآن. ومن المعلوم أن « الكتاب الكريم » فوق كل مجادلة لانه كلام الله ذاته »

ومع ذلك نقول بأن تنصير المسلم باختياره ممكن خلافاً للرأي الغالب وإن كان أصعب بكثير من تنصير الوثني

واننا نجد لذلك أمثلة قاطعة في الماضي أثبتها التاريخ، وأنا لا أتردد في قبول

النظريات التي بنى عليها رونيه بازان (Bazin) مقدمته القيمة لكتابه (حياة الاب فوكو) : إن الانسان في جملته وعامة أمره يصعب عليه من طبيعته أن يعيش بدون دين ، أو لسنا نرى في كثير من الاحيان تلك العقول التي تتبجح بأنها تحررت من الاعتقاد وصارت تراه وهماً باطلا تسقط ـ طال الزمان أو قصر ـ في الشك المطلق أو تحبس في نوع من التصوف الضار كالبلشفيكية أو الشيوعية الثورية ؟ فاذا افترضنا أن المسلم المترقي وصل يوماً ما إلى هذا الحد وصار لا يستمد من إيمانه مايرضي عقله وقلبه ، فلماذا لا نعتقد أن تفوق المسيحية سيستغويه كما استغوى كثيراً من الشعوب ، وينتهي بالميل اليها من نفسه فيعتنق باختياره ديناً كثير الفضل ساعد على المدنية إلى درجة عظيمة ؟ ومن الوجهة الوطنية المحضة أليس الاحسن ترك المسلم يتجه في هذا الطريق من أن نراه يسقط في أحضان المذاهب السلبية أو الضارة (١)

ولا محيد لنا عن الاعتراف بأن أكثر نصارى اليوم ليسوا نصارى إلا بالاسم ، هذا إذا لم يتظاهروا بالردة والكفر ، فلهذا هم لا يؤثرون التأثير المطلوب لجلب اخواننا المسلمين إلى المسيحية (٢)

قال أحد أعيان وهران السيد محمد بن رحال : « إن الاضرار التي يحدثها

(١) المنار : ملخص هذه النظرية فى إمكان تنصير المسلمين بعد أن ثبت بالتجارب الطويلة أنهم لا يقبلون ديناً يخالف القرآن هي السعي لايقاعهم فى الكفر والتعطيل بالتعاليم العصرية ، وبما أن الدين المطلق من الحاجات الفطرية اللاصقة بالانسان وجداناً وعقلا ، وبما أن فقده يوقعه فى ضروب من الحيرة والشكوك المظلمة ويهوى به فى مهاوي المذاهب الضارة كالبلشفية أو السلبية كاللاأدرية — فاذا وقع المسلم فى هذه المضايق المظلمة بعد فقده للاسلام وجهله لتعاليم القرآن الهادية المعقولة يسهل عليه أن يقبل الديانة النصرانية باستغوائه بمزاياها الصورية والمدنية الملزوزة بها لزاً قهريا التي سماها الكاتب تفوقاً. فلخص النظرية أن المسلم لايمكن أن يصير نصرانياً مادام يعرف هداية القرآن أوشيئاً منها . وهذا حق سببه أن صاحب الحق الجلي الموافق للعقل والفطرة لا يمكنه أن يتركه بايثار الباطل غير المعقول عليه

(٢) يعني أن النصارى الذين يراد أن يستهووا المسلمين للدخول فى جماعتهم ليسوا نصارى إلا بالاسم ومنهم من يتبرأ من هذا الدين « وفاقد الشيء لايعطيه » فكيف يمكن أن ينصروا المسلمين ؟

عند الاوروبي انحلال العائلة ، وانحطاط الاخلاق ، وشرب الخمور ، ومزاولة الميسر ، والانهماك في الملذات ، والفوضي ، ومحبة المال محبة لا حد لها ، والاباحية — إلى أضرار أخرى — تجعلنا نتساءل : أي الفريقين أشد مرضاً ؟ أو أيهما المريض ؟ ولماذا لا يصير الاسلام ملجأ لاوروبا وطريقاً لنجاتها ؟ وهل يمكن للاوروبي أن يتحمل كالمسلم وهو ليس له ذلك السند القوي الذى لا يؤثر فيه شيء ألا وهو « الايمان » ؟ (١)

هذا وان العقبة الكئود في سبيل تنصير المسلم هي العداوة والاحتقار الذي يلاقيه المتنصر في وطنه فالمتنصرون المغمورون في أوساطهم يظلون عرضة للتعصب المحيط بهم ، وهم بلا شك يكونون مرغمين لسلامة أنفسهم على أن ينزحوا عن بلادهم ، هذا إذا لم يصل الضغط عليهم إلى حد إرجاعهم عن اعتقادهم الجديد

على كل حال يجب أن نترك لمبشرينا حرية تامة في أعمالهم ، على أنها يجب أن تكون مجردة عن كل ضغط وإرهاق ، لان ذلك ينافي روح المسيحية . فاذن يجب ألا يجد المبشرون في أعمالهم سواء الخيرية أو التبشيرية عقبات من حقد بعض موظفي الادارة الملحدين أو المعادين للكنيسة فقط ، الذين يغتنمون مثل هذه الفرصة لاظهار عداوتهم للدين . وكذلك يجب ألا تجد الاعمال التبشيرية قيداً من حذر بعض الموظفين الجبناء أو القليلي الدراية الذين في خشيتهم انفجار التعصب الاسلامي قد يستنتجون من هذه الحركة الاختيارية الروحية المحضة نتائج غير مرضية لسلطتنا .

فالنتيجة التى يمكن أن تحصل هي ضد ما يعتقدون ، نعم إن من قلة المعرفة عدم الاعتراف بأن المسلم (إلا ما قل) يجد حتما في تعاليم علمائه حاجزاً لا حد له في سبيل التقارب التام بين القلوب

وإذا تنصر الاهلي (٢) كان تنصيره سبباً في جعله من أنصارنا نهائياً ، هذا

---

(١) المنار : اننا نحن علماء الاسلام ودعاته نعتقد اعتقاداً جازما أن فساد العقائد المسيحية والاخلاق والفوضى المادية والفلسفية لا علاج لها في أوروبة وأمريكة إلا الاسلام الصحيح : اسلام القرآن والسنة التي كان عليها مسلمو العصر الاول لانه هو الدين الوحيد المعقول الذي لا ينقضه العقل والعلم ولا تعارضه قواعد العمران

(٢) «الاهلي» لقب المسلم الوطني في افريقية الفرنسية وهو عنوان الاحتقار عند الفرنسيين الواضعين له

بقطع النظر عن الواجب الذي يحتمه عليه وجدانه من احترام النظام والسلطة الموجودة كما تقتضيه روح الانجيل (١)

ولتعضيد هذه النظرية نقتبس من بحث كان نشر في مجلة افريقية الافرنسية (عدد ١٠ اكتوبر سنة ١٩٢٦) باسم كافيه (Cavê) قوله :

« لابد من بيان أن تنصير أبناء العرب في تونس وكذا في الجزائر ودخولهم في الجيش الفرنسي واتباع أبنائهم أيضاً هذه الطريقة يفتح طريقا سهلا للتفرنج ولو لم يتجنسوا بالجنسية الفرنسية فكأننا نخلق نوعا من الماطين الذين لا هم لهم إلا أن يذوبوا فينا ، ويجب أن نعترف بأن الاندماج الديني على الطريقة التي اتبعت فيه ينتج عند الأهالي من كل وجهة نتائج تفوق الاندماج المدني الذي كان أعلن (أي في مجلس النواب) ولكن لم ينفذ بمرسوم للتجنيس ، ومن جهة أخرى نرى أن النزاع الديني الذي يمكن أن يستحيل إلى عداء وسوء تفاهم حتى في أوروبا يضمحل ، والنتيجة الاخيرة أن تبديل الاعتقاد يتبعه تبديل العقلية كلها » .

وما أصدق هذا القول أيضاً : « لو أن مجهودات رجال مثل الكردينال لفيجري لم تعترض لكنا نجد في شمال افريقية بضعة ملايين من المدغمين فينا بدلا مما هو الواقع إلى اليوم من وجود بعض آلاف من الفرنسيين في وسط عشرة ملايين من السكان الاهليين (أي المسلمين) وأخص بهذا الادغام والاندماج البربر سكان البلاد الاصليين أبناء القديس أغستينوس والقديس بولي من غير أن يشعروا فكان يمكنهم اليوم أن يتكاتفوا معنا تحت العلم الفرنسوي ضد أعمال التفرقة التي يسعى لها منذ بضع سنين بعض دعاة وطنية مضطربة ذات لهجة معادية للاجنبي »

فحينئذ أصرح بدون تردد أنه يجب على رجالنا السياسيين وكذا على الرجال المكلفين بحكم الاهالي (أي المسلمين) أن يعضدوا حركة التبشير بطريق مباشر أو غير مباشر على أن تكون مجردة عن كل ضغط ، نعم يجب تعضيدها عوضاً عن خنقها . ويجب أن ينظروا في ذلك بعين المصلحة الوطنية وانتشار السلطة الفرنسوية . فهاك نتيجة تستحق البحث بكل امعان من طرف الذين يقبضون على زمام حكمنا والذين لا غاية لهم إلا عظمة فرنسا .

---

(١) المنار : لماذا لم يوجد هذا الاحترام عند نصارى الدولة العثمانية الذين ثاروا عليها في كل قطر كثروا فيه ؟

٢ — موقفنا في المسألة السياسية الدينية

انني أريد بهذا العنوان بيان الموقف الذي أقترحه في هـذا الطريق الوعر مما لدي من التجارب الشخصية ، محرراً فـكري من كل حكم سـابق ، ومن كل احترام انساني ، ومن كل تملق نحو الافـكار التي كانت معتبرة منذ زمان قليـل ، ولا يهمني إلا شيء واحد هو المصلحة الفرنسوية :

إذا احترمت الدين والعادات والتقاليد وتسامحت في بعض الافـكار الباطلة عند المسلم ، وإذا لم تتكلم عن النبي إلا باحترام تكون قد أحسنت الادب وتـكون قد أحسنت السياسة.

ومن آيات التسامح التي يمكن أن نظهرها لاخواننا المسلمين ما يجب علينا اتقاؤه من جرح عواطفهم. مثال ذلك أنك إذا كنت معهم في شهر رمضان فليس من الذوق أن تدخن وخصوصاً إذا كنت في مكان مغلق لانه يكفي استنشاق رائحة الدخان لابطال الصيام(١) وكذلك يجب ألا تأكل لحم الخـنزير بحضرهم في أي وقت كان. وهم يعترفون لك بجميلك هذا. ولـكن ، لا تبالغ .

ليس من الاوفق أن تشجع الاسلام ، ولا أن تحاربه ، فتشجيعك إياه علامة ضعف يؤسف لها كثيراً . ومحاربتك له قد توقظ التعصب ، وفي هذا المعنى قال كاتب فأجاد في قوله : « إن الاسلام في أصله قوة معاكسة لرغائبنا وأمانينا وميولنا ، وتلك القوة يمكن أن تخمد وتسكن ، ولـكن لا يمكن أن تقهر أبداً ، ومن الواضح أن من مصلحتنا أن نعمل جهدنا في عدم انتشاره عند الشعوب التي تحت سلطتنا ، وهذه السياسة التي أبانت التجربة حكمتها لم تـكن متبعة دائما »

وقال الجنرال بريمون (Bremond) المعروف باختباره للعالم الاسـلامي : مما لا شك فيه ولا ريب أن الاسلام لا يمكن أن يكون موالياً لمن هو غير مسلم ، إذن فليس معقولا أن نجعل أنفسنا في مقام حماته ، فاذا احترمناه وإذا أعطيناه جميع الحريات الممكنة كان ذلك من جنس السياسة ، ولـكن من الخطأ الـكبير أن ننشر الاسلام بين قبائل البربر ، وأن نجبرهم على اللغة العربية والشريعة الاسـلامية ، وأن تكون معاملتنا للمسلمين أحسن من معاملتنا لغيرهم : إن للعربية مزاياها

(١) المنار: قوله ان المسلم الصائم يستاء من تدخين جليسه صحيح ولكن تعليله إياه غير صحيح

وجمالها ، ولـكنها كثيرة التعقيد فلا تصلح أن تكون أداة بسيطة واضحة سهلة التعليم للحياة العصرية » (١)

انه لمن خطل الرأي أن تكون نية بعض الـكتاب والرجال السياسيين الحسنة قد فاتت خبرهم ، ذلك بأنهم كثيراً ما يظهرون أمام المسلمين أنهم يعتقدون تفوق الاسلام ، فالمتعصبون من المسلمين أو أولئك الذين لا يزالون يعتقدون علوية دينهم منهم — وأعني الاغلبية الساحقة — يغتنمون مافي مدحنا من مبالغة ويظنونه احتراماً منا للحقيقة دفعنا اليه بارادة الله الذي يدفع الانسان لاظهار خضوعه بارزاً ماثلا أمام ما يعتقدونهم أنه الدين الحقيقي

إن خيلاء المسلمين الذي لا حد له ينبغي ألا يشجع ، على أن عقليتهم قابلة للتطور ، وإذا كان المسلمون — حتى أحرار الفكر منهم أو من يزعمون ذلك — لا يقبلون أن يمس اعتقادهم المحترم ككل اعتقاد مخلص فان المسلمين المتنورين(٢) يزيد عددهم يوماً فيوماً ، والتعصب يضمحل أمام مصلحة حسن فهمها ، وبعض الآيات القرآنية التي تعارض روح العصر معارضة عنيفة أو تعارض العقل فقط(٣) تسقط بسهولة وسيزيد سقوطها كما دلت على ذلك السوابق

ويجب أن نعترف بأن روح التسامح مع الديانات المخالفة كثيراً ما تقع من المسلم أو يتظاهر بها على الاقل .

فاذا كان احترام عقلية محكومينا الخاصة هو محور سياستنا فذلك لا يقتضي

---

(١) هـذا كلام كله رياء فالجنرال يعلم أن البربر مسلمون وأنه ليس لهم لغة علم ودين غير العربية وأن فرنسة تجتهد في الحيلولة بينهم وبين الاسلام ولغته لاجل تنصيرهم والمسلمون لا يطلبون منها إلا أن تدع لهم ولغيرهم حريتهم في دينهم ولغتهم ، فلا تجبرهم على شيء . (٢) يعني بالمتنورين المتفرنجين من الملاحدة ومرضى القلوب (٣) ليس في القرآن شيء يعارض حكم العقل الصحيح القطعي وطالما تحدينا العالم المدني بهذا في المنار وصرحنا بأننا مستعدون للرد على كل شبهة عليه وأما معارضته لروح العصر فهي خاصة بما فشا في هذا العصر من مفاسد الافكار المادية والاجتماعية كالشيوعية ومفاسد الاسراف في الشهوات فقط ، وأما المسيحية الحقيقة فلا تتفق مع روح العصر مطلقاً لان ما فيها من الغلو في الزهد وغيره كان شريعة مؤقتة إلى أن يأتي روح الحق محمد (ص)

المبالغة فيها أكثر مما يجب في الخضوع إلى هذا المبدأ لاننا إذا فعلنا سنؤخر إلى مالا نهاية كل إصلاح وكل تقدم في كل مرفق من مرافق الحياة خوفاً من جرح عواطف المسلمين وذلك لان عندهم أوهاما لا تتفق والتقدم

إياك وان تخوض في أمر الدين مع المسلمين، فالرجل ذو التربية الحسنة سيترك لك الكلام ويتحاشى جرح عاطفتك، وفي كثير من الاحيان يكتفي بابتسامة ويخرج بالحديث عن موضوعه، وأما إذا كان الكلام مع رجل بسيط أو متعصب فستتعرض لجواب قاس منه.

انك إذا تكلمت عن الاسلام لتمدحه أو لتذمه فانك في الحالة الاولى تستفيد الظنة والشك في اخلاصك، وفي الحالة الثانية تلقي في القلوب حقداً كبيراً، وكذلك مدح المادية أو الالحاد أو ذم الديانة المسيحية ضلال محض، وكثيراً ما يقف بعض الاشخاص هذا الموقف، فهم يريدون إظهار اختيارهم للاسلام ولكن في الحقيقة هم إنما يستسلمون لدافع فيهم إلى إظهار عدائهم للدين المسيحي أولاي حركة لرجال الكنيسة.

المسلم تشمئز نفسه من عدم الدين وإذا كان من المتنورين فانه يرى أن محاربة الاوربي لعقيدته وهدمه بهذا العمل للركن الاصيل في مدنيته الخاصة غير معقول

وعند كلام فيو Veuillot عن أولئك السياسيين الذين يجتهدون في إخفاء البقية الباقية لنا من الدين بحجة عدم إيقاظ التعصب الاسلامي قدامهم بانهم يرتكبون أعظم خطيئة وسوس لهم بها الشيطان فلا شيء يكرهه التعصب الاسلامي كشعب بلا اعتقاد ولا إله (١)

وبهذه المناسبة نقول بأنه لا بأس بتبديد بعض الاوهام وبعض الجهالات المتمكنة من الاهالي (أي المسلمين) فقلما نجد كثيراً منهم لايزالون يعتقدون أنه ليس من عقائد المسيحية خلود الروح وإثبات الحياة الاخرى، ويتخيلون أيضا بان الصور والتماثيل التي تزين الكنائس يعبدها المسيحيون عبادة وثنية، مع أنهم انما يحترمونها كرمز لايمانهم أو لمحبتهم، كما يحترم العلم الوطني رمز الوطن وكما يقبل الانسان صورة شخص عزيز عليه (٢)

---

(١) المنار: هذا مكر ديني سياسي من الكاتب بأحرار قومه يريد به أن لا يظهروا عدم تدينهم بالنصرانية أمام المسلمين (٢) هذا تأويل لا يقبله المسلم الذي يفهم حقيقة التوحيد فاذا كان مع هذا يعرف دينهم فانه يرى فيه نصوصا صريحة في عبادتها ولا سيما السيدة مريم التي يسمونها والدة الآله، وإلا فما معنى وضعها في المعابد

٣ — عقيدة التثليث

ان لعقيدة التثليث في قلوب المسلمين عداوة شديدة جديرة بالاهتمام بما لها من النتائج المهمة في التفريق بيننا وبينهم . والفكرة التي يتصورونها من هذا الاعتقاد تضرنا كثيراً حتى عند من يتجملون منهم باظهار حرية الفكر . مع ان التثليث كما يقول علماء الكلام عندنا ليس إلا مظهراً من مظاهر الوحدة الإلهية خضع أمامها أكثر العقول تكبراً ودعوى . وهذا علامة على ما يسمونه بساطة التفكير (وبالالمانية Die Eiseitig Keit) في الشعوب السامية

فهم لايفهمون أو على الاقل أغلبيتهم بان كلمات « اب » « ابن » لا تطلقها المسيحية بكيفية مادية ولكن روحية محضة ويجب ان نقف عند هذا الحد في كل مناظرة في هذا الموضوع (١)

قال مسلم صديق في كلامه — وقد كنت بينت له ماتقدم — إن هذا الايضاح كشف له سراً ، وان هذا الايضاح يمكن ان يبدد مايتقده المسلمون ضد المسيحية وبذلك تضعف كراهتهم للاجانب

(١) المنار : ان التوحيد الخالص عند المسلمين يقتضي اعتقاد بطلان الشرك بجميع أنواعه ومنها التثليث وتعظيم الصور والتماثيل واتخاذها كما هو صريح وصايا التوراة التي هي أساس عقيدة الانبياء كابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام . واذا سمي اعتقاد البطلان عداوة فالنصارى يعادون كل مافي الاسلام من العقائد الصحيحة وأولها التوحيد الخالص . ومن الغباوة أن يظن الكاتب انه بهذه الكلمة المبهمة المجملة التي قالها في تقريب التثليث يخدع أحداً من المسلمين : أما عوامهم فيكتفون في إبطاله بقول النصارى إن الثلاثة واحد . وأما عارفوهم فيعلمون ان هذه العقيدة بتفصيلها من عقائد قدماء الوثنيين ، وقد ألف بعض المتأخرين منهم كتابا سماه (العقائد الوثنية في الديانة المسيحية) ذكر فيها النصوص الصريحة من كتب البوذيين وغيرهم في هذه العقيدة فلم تستطع مجلة المشرق الجزويتية أن ترد عليه إلا بالاعتراف بأن الوثنيين قد سبقوا النصارى الى عقيدة الثالوث وقولها ان ذلك ثالوث نجس وان ثالوث النصارى مقدس!!! واننا نعلم بالاختبار من أحرار النصارى أن علماء اللاهوت المستقلين أنفسهم لا يؤمنون بهذا التثليث ولكنهم لو بينوا الحقيقة للشعب ومنها أنه عقيدة وثنية أدخلها الرومانيون في العقيدة لبطلت ثقته بالدين كله وتعذر إقناعه بالفضائل الدينية . فليفهم هذا صديق الكاتب الذي زعم أنه أعجبه ذلك الابهام الذي سماه ايضاحاً

٤ — ﴿ الاتفاق في مسألة الاعتقاد ﴾

يعتقد المسلمون ان كل من لا يشاركهم في الاعتقاد سيخلد في العذاب قال بوتجان وأحمد ضيف في كتابهما المسمى « منصور » : « والتقينا في الاسكندرية بصبيان أوربيين وهم في جمالهم كالملائكة ، فقلت ان هؤلاء الصبيان سيكونون خدما لنا في الجنة ، وفكرت في الكفار الذين سيذهبون إلى جهنم وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. إذاً فقد حان الوقت لنبين لهم الى أي حد بلغ تسامح المسيحية واتساع صدرها مع الديانات الأخرى

ونحن نقتبس هنا كلاما في القضاء والقدر ورد في نشرة البابا بيوس التاسع بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٣ : إن أولئك الذين يحملون جهالة مظلمة عن ديننا المقدس يتبعون بكل خضوع القوانين الطبيعية التي وضعها الله في قلوب الجميع .وهم مستعدون لخضوع لله واتباع حياة شريفة قويمة ، لذلك يمكنهم ان يحصلوا على الحياة الخالدة بواسطة النور الابيض والرحمة الالهية (التي يجهلونها لان الله الذي لاحد لرحمته لا يتحمل ان يخلد عبداً في النار إذا لم يكن مسؤلا عن ذنب اختياري) (١)

وقد كتب أغريغوريوس السابع وهو أحد كبراء البابوات في القرون الوسطى إلى أحد امراء المسلمين. نحن أقرب الناس اليكم لان الاله الذي تعبدونه نعبده نحن ايضا. (٢)

---

(١) ان هذا البابا وجميع البابوات يعتقدون أن كل من ليس بكاثوليكي فهو كافر خالد في جهنم وإن كان مسيحياً. وان كلامه في رحمة الله تعالى لا تدنو ولا تقرب في تعظيم شأنها من قوله تعالى في كتابه القرآن (ورحمتي وسعت كل شيء)وهو قد قيد عدم الخلود في النار بمن لم يكن مسئولا عن ذنب اختياري ويدخل في هذا القيد ما كان من الذنوب دون الكفر بالله وكتبه ورسله. ورحمة الله أجل من ذلك وأوسع.

(٢) هذه كلمة تودد واستمالة لذلك الامير المسلم هو غني عنها بقول الله تعالى في القرآن (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) وباباحته تعالى للتزوج منهم مع قوله في الازواج (وجعل بينكم مودة ورحمة) مع العلم بأنهم لا يعبدون الله الذي نعبده كما نعبده فانا نعبده وحده وهم يعبدون المسيح وأمه وغيرهما من القديسين وقد أمرنا تعالى بأن ندعوهم إلى الاسلام بقوله (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)

ان الاحترام العميق الذي تكنه قلوب المسلمين لاسم الله يذكرنا بايمان القديسين المسيحيين القوي، وقد شاهدت ذلك وأثر في نفسي

من جهتهم ليسوا كلهم متفقين على كراهتنا كراهة بالغة فهم يعلمون ان الله سيحكم يوم القيامة فيما فرق بين الناس في هذه الدنيا وخصوصا الديانات المختلفة على أنه إذا كان هناك بيننا وبين المسلمين خلاف في الاعتقاد الاساسي فهناك نقط نتفق عليها ويجب ان نتشبث بما يوحد لا بما يفرق

قال الدكتور اريكو انساطو الايطالي: ان الشرقي في وقت يجده رجل على الفطرة فعدم الفهم يبعده ويعاوه حذراً وهو كثير الحذر مما لا يفهمه، والمسلم الذي يتأمل في الازل واللانهاية (الابد) لا يمكنه أن يكون عدوا المسيحي الذي يعمل بمثل أعلى في العدل والحرية، وانما يجب على اوربة المسيحية ان تنير العالم الاسلامي وان تعلم كيف تعطيه النور.

واذا ابعدنا من الطرفين الآراء المتطرفة للمتعصبين أو المتشددين الذين لا يقبلون أي تنازل فيمكن القول بأن الاتفاق على محايدة دينية يمكن الوصول اليه بسهولة نسبية.

ومن الواضح ان التعصب لا يخشى من جهتنا(١) ان التحامل الوراثي في الاهلي علينا لا يزال قوياه وان كان هناك بعض الشواذ، واذا كان الاهلي لم يصل بعد إلى محبتنا (وأنا لا أستثني الاهلي الذي اسبغ عليه نظامنا وأخذ ثقافتنا ويتمتع بمدنيتنا) فالسبب الاصلي في ذلك راجع الى الشقة التي حفرها الاسلام بين أهله وبين الخارجين عن عقيدته (٢)

قال رونيه بازان: هل الاهالي أقرب (أي المسلمون) منا الآن بفكرهم من أول الاحتلال الجزائري وهم صاروا يستعملون عن طيب خاطر كثيراً في الخيرات التي أتت بها مدنيتنا؟ فهل قبلوا هذه المدنية؟ وهل يمكن ان نقول بانهم يعتبرون أنفسهم رعايا مخلصين لفرنسا الى الابد؟ يكفي ان نعرف شيئا من تاريخ الثلاثين أو أربعين

---

(١) اذا كان مثل هذا الكتاب الباحث عن وسائل الاتفاق محشواً بالتعصب فماذا يقال في غيره؟ (٢) كل دين من الاديان يحفر شقة خلاف بين أهله والمخالفين لهم وفي الانجيل نص صريح بأن المسيح جاء ليفرق بين المرء وأبيه وأمه واخوته. ولكن الشقة التي حفرتها معاملة فرنسة المسلمين في دينهم ودنياهم هي أوسع وأعمق مما تقتضيه العقيدة، في الشريعة الاسلامية السمحة التي تأمر بالعدل والبر والاحسان للمخالف غير المحارب للمسلمين وتحرم ظلمه وكذا خيانته وإن كان حربيا

سنة الاخيرة — لا تاريخ النواحي التي ضمت الينا قريباً ولكن تاريخ المقاطعات الثلاث القديمة الجزائر ووهران وقسنطينة ليكون الجواب: لا. بل يكفي أقل من ذلك مجرد فسحة مدة ساعة في وسط الجماهير الاسلامية ومعرفة قراءة ما في عيونهم: لاشك أنه في مدة الحرب الكبرى جاءت الالوف من رعايا فرنسا من عرب وبربر ليحاربوا مع جنودنا جنبا لجنب، وكثير منهم ماتوا لسلامتنا، وهذا برهان على الاخلاص لاينسى أبدا. ولكن كثيراً من الشعوب والقبائل منذ كان العالم حاربت لا ليدافعوا عن قضية لهم، ولكن ليرضوا شجاعتهم ومصلحتهم وكبرياءهم. فمن الخطأ ومن الخطر ان نعتقد بانه منذ سنة ١٩١٤ اندمج فينا مسلمو افريقية أو تقربوا منا أو بيننا وبينهم تفاهم واعتبار ومودة وتلك هي الصلات المتينة (١).

والخطأ راجع الى الرجال (المختلفين في الاصل والمواهب المتشابهين في الوهم والحكم الباطل) الذين تولوا الاعمال الافريقية في القرن السابق وفي أول هذا القرن فانهم لم يفهموا أن مدنيتنا مسيحية قبل كل شيء.

ولكن لتكن لنا الثقة بالمستقبل، وفي اثناء الانتظار يجب ألا نضيع الفرص: فرص التقرب، ولا شيء أثمن منها في الوقت الحاضر بعد التأثير الادبي الناتج عن اشتراك المصالح، وكلما نمت العلائق الفردية اضمحلت الاوهام وزاد الرخاء المادي وتكونت اجيال مستعدة للتفاهم وراغبة في العيشة المشتركة.

والنظر الى قوتنا المادية والعسكرية والاختراعات العصرية سواء الجدية أو الهزلية يستهوي خيالهم وان لم يظهروا الاعجاب بها، ووسائل الراحة التي يوجدها التقدم وخصوصا نظرهم الى اتحادنا وتكاتفنا، كل هذا يمكن ان يقرب بين الجنسين (٢)

---

(١) لعله لا يوجد في البشر من الاثرة والغلو في استعباد البشر أطغى ولا أبعد عن الحق والعدل ممن يغمط قوماً بذلوا دماءهم في الدفاع عن المضطهدين لهم في دينهم السالبين لثروتهم وأوقافهم ويعدهم مقصرين وغير مخلصين في خدمتهم لاحتمال تلذذهم بشجاعتهم واعجابهم بها - فهو يطلب من مسلمي أفريقية أن يكونوا مخلصين في بذل دمائهم في الدفاع عن فرنسة كاخلاصهم في عبادة الله تعالى بل يوجب عليهم أن يكونوا لها أشد إخلاصاً لانهم يرجون من الله الثواب ولا يجوز لهم أن يطلبوا من فرنسة ثواباً ولا رفع شيء من الظلم والعقاب !! (٢) لعله يعني أنه يلجئهم إلى التنصر

٥ — التأثير الادبي

إن على الاوربيين الذين يعيشون بالقرب من المسلمين أن يشغلوا وظيفة المربي ، ان خير خدمة يؤدونها لهم إعطاؤهم طرقا للعمل والتعمير ، ومثلا للصبر والمثابرة والجهد الذي لا يعرف الكلل والملل ، وخير القدوة التي يمثلونها لهم هي الحياة الشريفة التي لا عيب فيها ، والفضائل العائلية ، والاستقامة التامة والوفاء بالعهد ، والشرف في المعاملات ، والصدق في كل المناسبات — تلك كلها خصال يحتاجها مسلمونا أشد الاحتياج ، فينبغي أن تنمّى فيهم وتقوى

وتزيد على تلك الاخلاق المثل العالي للاخلاق الانجيلية وتجدها ممثلة في جماعات التبشير في أفريقية الشمالية (!!)

وينبغي لنا نحن الافرنسيين أن لا نشارك في هذا المدح جماعات التبشير الاجنبية لانها في كثير من الاحيان تعمل لغرض سياسي لخير دولتها أكثر مما تعمل لغرض ديني (١)

وأكون ملوماً إذا أنا لم أشارك جميع الرجال المنصفين الذين يظهرون اعجابهم بالآباء البيض والاخوات البيض التابعين للكردينال لفيجري لما قاموا به من الاعمال ، وقد شاهدت ذلك مدة توظيفي الطويل فى الجزائر وتونس ، فتبشيرهم ينحصر فى اعطاء المثل بواسطة الاحسان والانقطاع الكلي لمساعدة أصحاب العاهات الاخلاقية والمادية من الاهالي ، وبواسطة مدارسهم يعملون على رفع مستوى المسلمين الفكري المنحط وتحسين حالة معيشتهم

ومنذ احتلال المغرب الاقصى ما انفك الآباء الفرنسيسكان والاخوات يقتدون بهم بانقطاع واخلاص يستحقان الشكر من فرنسة كما يستحقانه من الكنيسة ، وإن في المثل الشريف الذي يضربونه ما يشرف بلادنا أعانهم الله .

وفى الختام يجب بواسطة حكومة حازمة عادلة محسنة أن نقطع الطريق على أخطار الشيوعية والاشتراكية الثورية التي تجد مذاهبها عند سكان افريقية الشمالية أهل الفكر الخفيف المعادي لسلطتنا غالباً أرضا خصبة (٢) (المترجم)

أحمد عبد السلام بلافريج

---

(١) المنار: لعل المؤلف نسي دعواه من ان كل ما ارتآه ووصى به فانما غرضه منه خير دولته فرنسة ومصلحتها (٢) ان اقرب الاسباب لقبول المسلم لهذه المذاهب ما اقترحه المؤلف فى اول الفصل من افساد دينه عليه

تعليق المنار على جملة الكتاب

وخطاب إسلامي حر إلى العقل الفرنسي الحر — ان أمكن ان يبلغه الخطاب

قد أطلعنا على كتب كثيرة لكتاب فرنسة المختلفي الافكار والآراء في بيان حال مسلمي مستعمراتها الافريقية (ما يريدون جعله منها كسورية) وما ينبغي ان يعاملوا به، وقد رأينا كل كاتب يتبع هواه، ويغني على ليلاه، دون ليلى حكومة فرنسة الجمهورية الحرة، ويبغي مصلحة نحلته أو فرقته دون مصلحتها، فالكاثوليكي المتعصب يرمي في كل ما يكتبه إلى اقناع الحكومة بمقاومة دين الاسلام نفسه ومحاولة إفساده على الاهالي بحجة ان المسلمين لا يمكن ان يخلصوا لفرنسة ويحبوها ويؤمن انتقاضهم عليها ماداموا مسلمين، ومن هؤلاء جول سيكار مؤلف هذا الكتاب ومن يؤيد كلامه بالنقل عنهم من قسوس الجمعيات الدينية ومبشريها، والمالي المفتون يحصر همه في اقناع هذه الحكومة بسلب ثروة المسلمين بالوسائل النظامية — كما تفعل الآن في المغرب الاقصى من انتزاع ملكية الفلاحين والقبائل لارضهم — والحيلولة بينهم وبين العلم العصري بحجة أنه لا يمكن ان يدوم خضوعهم لها إلا بالفقر والجهل، والعسكري الذي لا يرى وسيلة لترقيته ونيله المكافآت المالية والرتب العسكرية إلا بوجود العداوة بينهم وبين فرنسة فهو يحاول اقناعها دائماً برسوخ هذه العداوة ويتمنى دائماً حدوث الثوارث والفتن التي يظهر فيها الحاجة الى الجند واقناع الحكومة بانها مدينة لهم

لقد انسلخ على استيلاء فرنسة على الجزائر قرن كامل ولا يزال هؤلاء الكتاب يقولون لها إن المسلمين لم يزدادوا في هذا القرن بطوله إلا بغضاء لها ويلفقون الأدلة الخطابية والمغالطات الجدلية لاقناعها بمعالجة هذا الداء، والذي جزم به موسيو جول سيكار ان العلاج محصور في مداراة المسلمين في الظاهر وافساد دينهم عليهم بالالحاد المادي العصري توسلا بذلك إلى تنصيرهم الذي هو العلاج الاخير الممكن عنده، ويصح ان يقال فى كل هؤلاء الكتاب ماقاله معروف أفندي الرصافي الشاعر العراقي الشهير في وزراء الدولة العثمانية الثلاثة الذين تولوا منصب الصدارة العظمى عقب إعلان الدستور.

مضى (كامل) من قبل (حلمي) وان جرى   كما جريا (حقي) فمثلهما حقي
ألا لم يبصروا للحق غير طريقهم   فان طريق العدل من أوضح الطرق

سبحان الله ! أيستذل شعب ويهان وتسلب ثروته وأوقافه ويفضل غيره عليه في بلاده بل يؤمر بترك دينه ويحال بينه وبين العلم والنور ولا يكتفى منه مع هذا كله بالطاعة بل يؤمر فوقها بالشكر والمحبة

ولم أر ظالماً مثل هضم ينالنا يساء الينا ثم نؤمر بالشكر

إن وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات في فرنسة يحيط بهما نفوذ الجمعيات الدينية ورجال المال ورجال العسكرية : ثلاثة أسوار تمنع من وصول أي رأي حر يخالفها ، ولو وجد في فرنسة زعيم حر واسع الفكر كبير الهمة قوي الاراده كالسنيور موسوليني في إيطالية لامكنه حين يضع مصلحة الدولة والامة فوق كل مصلحة مع عدم التعصب الديني ان يعرف الطريقة المثلى لارضاء مسلمي افريقية في ممالكهم الثلاثة وما به تعمر بلادهم ويرتقي مجموعهم ، وتستفيد فرنسة من ثروتهم وقوتهم أضعاف ماتستفيده الآن من غير ان تخسر هذه الملايين التي تنفقها لتوطيد الامن وقمع الثورات وايقاع الرعب والارهاب في القلوب لحفظ الهيبة

ولو شاء مثل هذا الرجل أوغيره من كبار الرجال ان يستشير في هذه المسألة كبار أهل الرأي من مسلمي هذه البلاد وغيرها لامكنه ان يعرف من مصلحة فرنسة مالا يمكن ان يعرفه من هؤلاء الكتاب الفرنسيين وأمثالهم من المسلمين كالسي قدور بن غبريط مثلا ، ولو وجد هذا الرجل لاقترحنا عليه ان يعقد مؤتمراً للنظر في هذه المسألة تحت رياسة رجل فرنسي حكيم حر كالدكتور غوستاف لوبون يدعو اليه من يشاء من الرجال المستقلين منهم ومنا ، ولكن لا سبيل لنا والحالة في فرنسة كما نعلم الى ان نبلغ أولي الامر فيها ما نجزم بانه خير لفرنسة مما هي عليه في سياسة المغرب وسياسة سورية

إنني كنت عرضت على موسيو روبير دوكيه أشد غلاتهم في هضم حقوق سورية ماأراه خيراً لها في سياستها وتجارتها ونفوذها الادبي مما تجري عليه في ذلك ، فقال ان هذا أمر معقول غير خيالي وقابل للتنفيذ ان وجد منا ومنكم من يقوم بتنفيذه . وإنني إلى الآن أضمن وجود من يقوم بتنفيذه منا إذا رضيت فرنسة به ، ومن ذا الذي يستطيع إيصاله اليها واقناعها به وموسيو روبير دوكيه لم يفعل ذلك؟

إذن يجب ان تنظر فرنسة ما يفعل الزمان في أطواره في سورية والمغرب والزمان أبو العجائب

أنباء العالم الإسلامي

العالم الاسلامي تتنازعه في هذا العصر الاحداث المتعارضة، وتتناوبه فيه الاطوار المختلفة، وما دخل العام الماضي إلا وعوامل الخطر فيه أقوى من عوامل الظفر، ودواعي الغي والفساد، أكثر من دواعي الصلاح والرشاد، ولكنه كما قال الشاعر:

كلما ذاق كأس يأس مرير جاء كأس من الرجا معسول

فقد حدث قبل انسلاخه مايقوي أسباب الرجاء، ويبشر بضروب من الفلاح، أعظمها في الاصلاح الديني تولية الاستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الازهر ورئاسة المعاهد الدينية وقانونه الجديد الذي نوهنا به في فاتحة هذا المجلد وأفضنا في بيان فوائده في أجزاء من المجلد ٢٩

اتفاق إيران مع حكومتي العراق والحجاز ونجد

وأعظمها في الاصلاح السياسي اعتراف حكومة إيران بحكومة جارتها العراق، بعد ما كان من خلاف وشقاق. ثم إرسال جلالة الشاه مندوبا سياسيا الى جلالة ملك الحجاز ونجد لعقد ميثاق المودة والاتفاق بين حكومتيهما. بعد ماكان من خصام مذهبي وسياسي بينهما. وقد تم ذلك ولله الحمد. وهذا يدلنا على أن جلالة شاه إيران أبعد رأيا وأكبر عقلا من جاره في الافغان، الملك المهزوم أمان الله خان، وأكبر من هذا دليلا تمكنه من كبح جماح الذين ثاروا على حكومته من القبائل والعصائب، والذين عارضوها من حملة العمائم وسكنة الاثواب العباعب. ولعمري ان انتصار كل

من هؤلاء الجامدين ، وخصومهم الجاحدين ، مما يفضي الى الاضطراب والفوضى، والخطر على الوحدة السياسية والاستقلال من ناحيتي الدين والدنيا، كما أن اندحار علماء الدين وسقوط مكانتهم الدينية، مدعاة لخطر الالحاد وانفصام عروة الرابطة الملية، فعسى أن يلتزم كل من الرؤساء السياسيين والعلماء المجتهدين موقف الاعتدال، فهو الذي يقي البلاد خطر الاختلال والانحلال، ولنا فيما بدا من حكمة الشاه أوسع الآمال، إلا تقليده في البرنيطة لمصطفى كمال، على أنه متهم بغيرها من تلك البدع والاعمال ، فبلاده تتمخض بالثورة الدينية والسياسية ، ويتربص به الدوائر أشياع أسرة الملك القاجارية

بلاد نجد وغلاة البدو

وقد حدث في العام المنسلخ نزغة ثورة بدوية عصبية في نجد، كانت قد طال على تمخض البلاد بها العهد ، وكان آخر ما عرفه العالم المدني من طغيان زعمائها غزوهم للكويت وأطراف العراق ، بدون إذن ولا رضى من ملك البلاد ، لجريانهم على ما اعتاده جفاة الاعراب أمثالهم من الغزو، لانه أقرب السبل عندهم للكسب، وقد يكون أحيانا للتلذذ بالقتل والسلب

ولكن الامام عبدالعزيز المجدد قد ساسهم سياسة إسلامية حضرية أبطل بها البداوة وتقاليدها، ووضع تحت قدميه ما وضعه النبي ﷺ تحت قدميه من دماء الجاهلية وثاراتها ، وجعل الحكم لشرع الله في كل تنازع وتشاجر ، عملا بقوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فحسنت الاحوال ، وراجت الاعمال، بعد أن عم الامان ، وبطل البغي والعدوان ، على غلو في الدين بقي عند كثير من (الاخوان) ، كانوا به شبهة أو حجة لمن يطعنون في الوهابية ، ويذهبون الى أنهم فرقة غير الحنابلة السلفية

وقد ظهر من شذوذ هؤلاء الغلاة ماظهر من القسوة في غزوة الطائف أخذاً بثأر من قتلهم الشريف عبد الله الحجازي منهم في الخرمة لما هجم عليهم في المسجد ، فقد جروا في ذلك على عرف البدو في غزوهم لا على عرف الوهابيين الذين يجرون في قتالهم على أحكام الشرع كما شهد لهم بعض أهل البصيرة ممن قاتلهم في الحملة المصرية التي ساقها اليهم محمد علي باشا بأمر الدولة التركية ونقله لنا المؤرخ الصادق الجبرتي

ولقد ساء عملهم هذا الامام عبد العزيز وان قابله كعادته بالحلم ، والمطاولة في تربيتهم باحكام الشرع ، ولكنهم زادوا إسرافا وغلوا بتعرضهم لما لا يعنيهم من إدارة الحجاز الداخلية ، وتحريمهم لما أحل الله تعالى من المنافع الآلية والصناعية ، بل لما يعد بعضه أوكله من فروض الكفاية في هذا العصر ، كآلات المواصلات والمخاطبات التى تشتد الحاجة اليها في أوقات الحرب . وغير ذلك مما هو من خصائص ولي الامر ، وهذا التحريم شرع لم يأذن به الله ، وكذب وافتراء على الله ، فهو كفر وشرك بنص القرآن ، أشد مما يرمون به من لا يعرفون من الناس بحق او بغير حق ، لان الشرك بالتشريع ضرره متعد يعم كثيراً من الناس ، والشرك بدعاء غير الله مثلا ضرره قاصر على فاعله

ثم افتات بعضهم على الامام في الاغارات المعروفة على العراق والكويت ، فانتهى الحلم الواسع بالامام عبد العزيز أن جمع في العام الماضي جميع من في بلاد نجد من أهل الحل والعقد من العلماء والقواد والزعماء وجماهير الوجهاء وألف منهم مؤتمر الرياض المشهور وعرض عليه تنصله من حكم البلاد وأن يختاروا لها غيره .. فكبر ذلك عليهم وجددوا مبايعته ، وكاشفوه بما لا يرضيهم من حكومته ، وكونه لا يبيح لهم نزع اليد من طاعته ، كمسألة الحدود بين

نجد والعراق وما أحدثته حكومة العراق هنالك من المخافر العسكرية الضارة بهم وهو أهم ما يهمهم - وغير ذلك مما فصلناه في المجلد الماضي

ولكن كل ذلك لم يرجع اولئك الغلاة عن غيهم وجهلهم ، ومنهم الفرقة المشهورة بلقب الغطغط الذين كانوا يؤذون بعض الحجاج وينبزونهم بلقب المشرك ، وروي أنهم كانوا يضربون الذين يشربون الدخان ، وهذا افتئات على الامام ولي الامر ، زائد على المشروع من إنكار المنكر ، فلكل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بما يعلمه ، ولكن العقاب خاص بالسلطان ونوابه بغير خلاف ، وبهذا كانوا سبب تجديد الطعن في الوهابية بعد أن ظهر لحجاج العالم فضل الامام ابن سعود في العدل والامن العام ، وقد دعوا الى تحكيم علماء الشرع فيما ينكرونه فلم يقبلوا ، فاضطر الامام الى تأديبهم بالسيف ففعل وكان موفقا منصورا

كتب إلي أيده الله تعالى في ٢٢ شوال من العام الماضي كتابا خاصا فيما وقع له معهم قال فيه ماخلاصته « ان بعض الاخوان من أهل الغطغط والدويش وقسم من الغلاة » يظهر منهم منذ ثلاث سنين تعصبات وأمور مخالفة للشرع ، وقد كانوا مغرورين ومعهم بعض المهاجرين من البادية ويرون ان أمرهم حق لاجل محبتهم للدين ، ولكن الحمد لله انكشف الغطاء عن كثير من المسلمين ، ورأوا أن الجماعة بين فرقتين واحدة تعبد على جهل وواحد (١) له بعض المقاصد السيئة مثل طمع وغيره ويجعل الدين له حجة (وذكر هنا جمع الناس في الرياض وما كان من تأثيره وأنه ظهر لاغلب الناس حال هؤلاء غلاة وانهم ليسوا على حق » ثم قال)

(١) كذا في الاصل فهل هو سبق قلم أو عمد قصدت به الاشارة إلى فيصل الدويش وابن حميد

ثم بعد ذلك أكثرنا عليهم النصائح والدعوة لاجل براءة الذمة عند الله ثم النصح للرعية ولكن لم يفد ذلك فاجتمعوا في هذه الايام وأشاعوا عند أهل نجد أنهم غزاة وأن قصدهم القصور وأهل القصور التي في حدود العراق — يريدون بذلك خديعة أهل الحق ، وبعد ذلك تبين أمرهم أنه فاسد وأخذوا بعض الرعايا ولما تحقق ذلك وثب المسلمون وثبة رجل واحد جزعا من أمرهم واجتمعوا لوضع حد حازم لهذه الامور

فلما تكامل الجمع دعوناهم لتحكيم الشريعة في جميع أمرهم فأبوا، فأرسلنا اليهم الشيخ عبد الله العنقري والشيخ أبو حبيب فدعوهم فلم يقبلوا ، فلما رأينا ما بهم من الفساد وعدم الامتثال للشريعة والولاية استعنا بالله عليهم وأمرنا المسلمين بالزحف عليهم ، والحمد لله أخذهم الله وقتل منهم جملة ، والمسلمون من فضل الله لم يصابوا إلا بخسارة قليلة جداً لا تعد بالاصابع وبعد ذلك رجعوا وطلبوا العفو ، وتبين للقوم الذين كانوا معهم أنهم كانوا ضالين الطريق : وجميع من كان معهم وسلموا من القتال عفونا عنهم الا الدويش وابن حميد ما رضينا إلا بتحكيم الشريعة فيهم لأنهم أساس الفساد وقد قبلوا الأمرين (احدهما) ترك الناس لهم (والثاني) أنه لا ملجأ لهم ، والدويش جريح الله أعلم يموت أو يحيا

والحقيقة أننا ما كنا نحب أن يصير بين المسلمين قتل رجل واحد ولكني امتثالا لأمر الله في قتال الباغين والسعي وراء راحة المسلمين أجبرت على ذلك والعاقبة من فضل الله حميدة للاسلام والمسلمين اه

هذا ما تفضل جلالة ملك الحجاز ونجد بكتابته الينا باختصار قليل وانما نشرناه على خلاف عادتنا في المكتوبات الخاصة لما فيه من التصريح الرسمي بان في الاخوان النجديين غلاة في الدين وقساة تغلب عليهم طباع البداوة وقساوتها ،

وان الامام كان يريد أن يربيهم بالعلم والشرع ، لان سبب غلوهم وقساوتهم الجهل إلا بعض رؤسائهم المغرورين الذين زين لهم الشيطان استغلالهم بسوء قصد ، – وتصريحه بأنهم منذ ثلاث سنين قد ظهر من غلوهم مالم يكن له مظهر من قبل ، يعني انهم بعد استيلائه على الحجاز وما تجدد لحكومته من العلاقات مع البلاد المجاورة قد حدث من الاسباب ما ظهر به ما كان خفيا من استعدادهم وجهلهم :

رأينا أن نثبت هذه التصريحات الرسميه ليعلم من لم يكن يعلم أن كل ما كان ينسب من الغلو والقسوة الى النجديين بعنوان الوهابيين لم يكن إلا من فئة قليلة ينكر عليها غلوها امامهم وملكهم ، وينكره علماؤهم وزعماؤهم ، بل ينكره كذلك دهماؤهم . ولكن براءة الدهماء منه وإنكارهم له وهم السواد الاعظم كان مجهولا حتى عند الباحثين الذين يعرفون ان الذنب فيما ينتقد عليهم ، لا يمس أهل العلم والمعرفة منهم .

سمعت السيد محمد بن عقيل بن يحيى المشهور وهو من أشد خصوم الوهابية لماله من نزعة التشيع ودعايته يقول مراراً انه سمع أستاذه السيد أبابكر بن شهاب يقول ما معناه ان من يحدث اهل العلم والمعرفة من الوهابيين يجزم بأنهم ليسوا فرقة مستقلة دون أهل السنة ولكن عامتهم كغلاة الخوارج بلا فرق

هذا وان الدويش قد سلم من جرحه وحدث بعد عودة الملك من نجد الى الحجاز لحضور موسم الحج أحداث جديدة منها انتفاض بعض قبائل العجمان وقد نكل بهم أمير الحسا ابن جلوي الشهير تنكيلا ما كان ليقع لو كان جلالة الملك في نجد لسعة حلمه وتحاميه سفك الدم ، وإرهاف الحد إلى هذا الحد ، والمرجو أن ينهي جلالته في رحلة هذا الصيف الى

نجد جميع مشاكلها الداخلية والخارجية والله الموفق(١)

حالة الافغان ، وهزيمة أمان الله خان

مابرحت أنباء القتال بين أمان الله خان والخارجين عليه الذين قرروا ثل عرشه متناقضة متعارضة تعبث بها أهواء الناقلين لها الى ان انكشف الغبار عن هذا الملك المغرور ، الذي غرته الاماني وغره بالله الغرور ، موليا دبره ساحات النزال ، مؤثرا للهزيمة على القتال ، فارا بزوجه وولده ، ومن كان ثم من اسرتها واسرته ، قاصدين الحج الى اوربة للتمتع بما رأوا فيها من الحرية ، متكلين على القبائل المناوئة لحبيب الله بجه سقا (أي رئيس السقائين) الذي انتزع منه ملكه ، ولاسيما التي يقودها نادر خان القائد الافغاني الشهير واخوه واعوانهما ، راجيا أن يتم لهم الفلج فيعيدوه الى عرش بلاده عزيزاً كريما ، بعد ان خرج منها مذؤما مدحورا .

ولقد حزن عليه دعاة الالحاد واعداء الاسلام وحجتهم حب الحضارة والتجديد وانقاذ الشعب الافغاني الجاهل من الهمجية القديمة ، وهل يمكن ذلك التجديد عند هؤلاء السفهاء ، الا بالبرانيط وسائر انواع اللباس الافرنجي وإلقاء العمائم وحلق اللحى وتهتك النساء ؟ ولكن كثيراً من مسلمي الهند حزنوا عليه لانه يكره الانكليز . كما ان جماهير المسلمين قد سروا بسوء عاقبة سياسته التركية الانقروية : وهم لا يشكون في أنها سياسية إلحادية إفسادية

وأما أنا كاتب هذا - فانني لم أكن اشك في سوء عاقبة أمان الله خان اذا هو جرى على ما كانت تدل عليه بوادر سياسته قبل سياحته ثم أكدتها

---

١) كتب هذا الفصل لينشر في الجزء الاول ثم اضطررنا الى تأخيره وقد سافر الملك عبد العزيز أول هذا العام الى نجد وكان من امره معهم ماسننشر المهم منه بعد

سياحته، ولذلك نصحت له وأنذرته هو ووزيره، صهره - المغري الاكبر له - أنذرته خسارة الملك بتقليد مصطفى كمال (وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) وكتبت لهما هذا كتابة صريحة كما عرف قراء المنار ، فلاغرو أن أسرّ بصحة علمي وصدق رأيي، وان اتمثل بقول استاذينا الحكيمين في العروة الوثقى اذ قالا في مثل هذه الحالة : اننا نتكلم عن طبائع الامم وحقائق السياسة . ولا غرو أن اسر بفشل السياسة الالحادية في الافغان، التي تحاول تنفيذ ماعجزت عنه أقوى الحكومات ودعاة الاديان ، من محو دين الاسلام من الارض بعد محو حكم الاسلام

وكان يسرني اضعاف ذلك أن يرعوي اماز الله خان ويزدجر، ويسلك في اصلاح بلاده الصراط المستقيم وهو هدي الاسلام الجامع بين مصالح الدارين، والفوز بالحسنيين، ويستعين على جمود علماء بلاده بالمستنيرين من علماء هذه البلاد وغيرها، وقد ضمنت له ولرجاله اقناعهم بكل مايشتبهون في منع الشرع له من الترقيات العسكرية والادارية ونحوها ، كما اقنع قبلهم كثير من علماء العرب والترك حتى علماء نجد الذين لا يجهل احد شدة اعتصامهم بالدين وقوة شكيمتهم فيه ، وهاهو ذا ملكهم واماهم قد وجد منهم خير الاعوان الناصحين لغلاة قومهم الذين استنكروا منه استعمال التلفون والتلغراف اللاسلكي ونحوهما ، ظنا منهم انه من السحر وعمل الشيطان

وانه ليسوءني أن تبذل الامة الافغانية العزيزة النفس الشديدة البأس كل تلك الدماء الغزيرة في سبيل انقاذ بلادها العزيزة من الالحاد ، وفشو الفسق والفساد ، وأخشى أن يغلو من يتولى امرها في مقاومة المشروع من الاصلاحات المدنية والعسكرية كما غلا امان الله في مقاومة الهداية الدينية

الرحيق المختوم

وهي خاتمة المهرجان الذهبي للرافعي في شكره للمحتفلين به والذكرى الخالدة لقومه

خذ جبهة البدر عند اللم قرطاسا ... واجعل سواد عيون العين أنقاسا
ومن أشعة نور الشمس خذ قلما ... واقبس لنفسك من حسان أنفاسا
وانظم نجوم السما واشمخ بشعرك عن ... جواهر الارض إن دراً وإن ماسا
عساك تبلغ ما يرضي العلى بثنا ... أكارم بثناهم نرفع الراسا
أقطاب مجد أقاموا للعلى فلكا ... تسبيك أنجمه سرجاً وحراسا
وأوات الأدب العالي فضائلهم ... روحاً أعادته نضر الغصن مياسا
تواضعوا لك بالتكريم عن كثب ... شأن الكريم يرجو الندى واسى
ومن نأى جاد عن بعد بعاطفة ... تدمي المعنى من الايام ماقاسى
واشكر حكومة لبنان فقد جمعت ... أسد أحوت شرف الاخلاق اخياسا (*)
رئيسها الندب قد أولاك عارفة ... أضحت حيال سناها الشهب اخناسا
والبس الوطن الغالي بغيرته ... عزاً على الفلك الدوار دواسا
وأنت إن لم تكن أهلا لفضلهم ... فالغيث يسقى الربى خضراً وأيباسا
هم كرموا اللغة الفصحى لانهم ... أبناء مجدتها ذوقا وإحساسا
ومن لنصرك ياأم اللغات سوى ... أبنائك الغر أجواداً وأحماسا
أنت العروس التي تهنا بعزتها ... منا النفوس وتقضي العمر أعراسا
والله أغناك باللفظ الرشيق وبا ... لمعنى الرقيق فكنت الراح والكاسا
وقد أمدك من نور الجلالة ما ... تود منه لغات الكون أقباسا
والشعر لولاك لم تعشق لطافته ... ولا غدا في خلال النفس جواسا
فرب نظم تفوق الراح رقته ... به سكرنا وعفنا الكاس والطاسا

(*) المنار: أسقطت بعض جرائد بيروت الوطنية شكر الناظم لحكومة لبنان ورئيسها لعدم رضاها عنها وكذا جمهور المسلمين المهضومي الحقوق فيها ولكن الناظم معذور في شكره ما أحسن به الرئيس وحكومته اليه

ورب بيت نديّ الروح ذي عظة ... سلى الحزين ومكلوم الحشى آسى
ورب قول تخال النور يسطع من ... خلاله كان للالباب مقباسا
يُزهى اليراع اذا ماخط حكمته ... وتستقل له الافلاك أطراسا
سحر البيان تجلى فيه فاقلبت ... بسره وحشة الاقوام إيناسا
حمى القبيلة من خوف ومن حذر ... فليس تحتاج أسيافا وأتراسا
هذا هو الشعر شعر الروح إن صلحت ... أبدت صلاحا يصد الشر والباسا
وإن تسؤ صيرت ماء الصفا لهباً ... والسلم حربا ودور العز أرماسا
هو القريض على أفق الجمال سما ... وفضله جاوز الجوزاء واجتاسا
شادت به العرب الاجواد بيت على ... سامى العلى ورسا في المجد آساسا
إذ كان مفخرة الاجيال عندهمُ ... وبهجة النفس إصباحا وإغلاسا
فكم معلقة منه لها سجدوا ... عرفان فضل به عطف النهى ماسا
وكم رقائق أجرى العرب سلسلها ... يُنبتن في الجلمد الريحان والآسا
كانوا ملوك الفلا يحمى الذمار بهم ... ويرتجى العون فيما سر أو ماسا
تسنموا من متون الخيل ضامرة ... عرشاً على كل عرش في الورى داسا
وما عليهم وهم أهل الشجاعة إن ... تخيروا من أسود الغاب جلاسا
سر الفراسة فيهم زادهم شرفا ... عنه التوت أعين الحساد أنكاسا
وبالفصاحة زان الله ألسنهم ... سادوا بها الخلق أجناسا فأجناسا
والقول كالفعل منهم كان ممتلئاً ... صراحة لم تدع في الصدر وسواسا
وعزمهم إن دعا داعي الهياج بهم ... يذلل الاسد مهما كن أشراسا
وهم رجال القرى والغوث من قدم ... ولن يزالوا مجاويداً وأشواسا
لهفي على زمن عمت سيادتهم ... به وكانوا لأهل الارض سواسا
ليت الليالي التي مذ ثار ثائرها ... أردت كليباً وغالت بعد جساسا
أبقت مشاهير أهل الجود من جمعت ... لها المفاخر أقطاباً وأحلاسا
وأخلفت كالموالي من بني مضر ... وآل قحطان أقيالا وأكياسا
ممن أفادوا بني الدنيا هدى وندى ... ومن أقاموا بها للعدل قسطاسا
توارثوا المجد عن أسلافهم وسروا ... مسراهم فزكوا زهراً وأغراسا
وصاحبوا العلم نضراً والتقى أرجا ... والحلم أزهر والاخلاق أقداسا
أولئك القوم لولا ذكرهم أبدا ... يبني قصور الرجا أصبحن ادراسا

***

يا ابن العروبة جدد مجدها وأقم　　له العماد بعزم يطرد الياسا
اسلك اليه سبيل العلم مجتهداً　　طول الحياة تنل جاهاً وأرغاسا
وخل نهج الكسالى إن تكن فطنا　　فالنصل تكسبه الاصداء أدناسا
أهل البطالة أوهى الذل أنفسهم　　ولم يدع في ديار العز أحلاسا
والجهل إن ساد في الاقوام بدلهم　　من السعود - وقاك الله - اتعاسا
ناج الحقيقة واهجر كل مختبل　　يدق للوهم أبواقا وأجراسا
ولا تمد لغير المستطاع يداً　　فضارب الصلد يوهي الزند والفاسا
وإن ضربت بسهم في سبيل على　　فكن معداً لها بالحزم أقواسا
كم ذلل الحزم صعباً كان أمنع من　　صيد أقر عليه الليث أضراسا
أخو الحصافة يلقى الهول مبتسما　　كأنما شد للافراح أفراسا
وعادم الرأي لاينفك مبتئساً　　حيران يضرب للاسداس أخماسا
واذكر مآثر أسلاف حضارتهم　　كانت لدى ظلمة التاريخ نبراسا
في كل علم وفن طال باعهم　　حتى جلوا عن طريق النجح أغلاسا
وألبسوا الوطن الغالي بسؤددهم　　عزاً على الفلك الدوار دواسا
سادوا وشادوا صروح المجد واكتملوا　　عدلا وفضلا وكانوا خير من ساسا
وأصبحوا قدوة للخلق نافعة　　والناس خيرهم من ينفع الناسا
فاعمل لاحياء ماشاد الجدود ولا　　تقم على الجهل إما كنت حساسا
عسى مع العالم الراقي يكون لنا　　حظ يميد حواشي العيش أملاسا
واصرف جهودك طول العمر منتحياً　　مجد العروبة أثرى الحظ أو خاسا
ولا تعش يائساً في الدهر من أمل　　قد يبسم الدهر مهما كان عباسا
وليس ينساك من نجاك من زمن　　قسا وشد على الاعناق أمراسا
وما رميت ولكنّ الاله رمى　　وليس يخطيء سهم الله برجاسا

عبد الحميد الرافعي

مشروع الاتفاق الجديد بين انكلترة ومصر

ذهب صاحب الدولة محمد باشا محمود سليمان إلى انكلترة مصطافاً ولم يكن يخطر بباله أن الفرصة سانحة لعقد اتفاق جديد بين انكلترة ومصر ولكن فاجأه فيها أن وزارة العمال الجديدة أكرهت المندوب السامي (لورد لويد) على الاستقالة من منصبه كراهة وانكاراً لما كان من استبداده بمصر وافتئاته عليها ثم فاجأه أن فتح له وزير الخارجية البريطانية باب المفاوضة في المسألة المصرية على مصراعيه فولجه ووقع ما توقعناه في مقالنا الماضي فانتهت هذه المفاوضة بعرض وزير الخارجية الاقتراحات التالية لاجل أن تعرض على الامة المصرية في برلمان قانوني فان قبلها عرضتها الحكومة البريطانية على برلمانها وأوصته بقبولها . وهذا نص ترجمتها على ضعف فيها :

اقتراحات وزير خارجية انكلترة

لتسوية العلاقات الانجليزية المصرية

١ — ينتهي احتلال مصر عسكريا بجيوش ملك بريطانيا العظمى

٢ — تعقد محالفة بين الدولتين المتعاقدتين توطيداً لصداقتهما والتفاهم الودي وحسن العلاقات بينهما .

٣ — أن مصر رغبة منها في أن تصبح عضواً بجمعية الامم ستقدم طلباً للانضمام إلى تلك الجمعية طبقاً للشروط التي نص عليها في المادة الاولى من عهد الجمعية وتتعهد حكومة جلالته البريطانية بتأييد هذا الطلب .

٤ — إذا قام أي نزاع مع دولة ثالثة نشأت عنه حالة تنذر بخطر قطع العلاقات مع تلك الدولة فان الفريقين المتعاقدين يعملان معاً بقصد تسوية ذلك النزاع بالوسائل السلمية طبقاً لنصوص عهد جمعية الامم ونصوص أي تعهد دولي يمكن تطبيقه على تلك الحالة .

٥ — يتعهد كل من الفريقين المتعاقدين أن لا يقف في البلاد الاجنبية موقفاً لا يتفق مع هذه المحالفة أو ينشيء صعابا للفريق الآخر . وعملا بهذا التعهد لا يقاوم أحدهما سياسة الآخر في البلاد الاجنبية ولا يعقد مع دولة ثالثة أي اتفاق سياسي قد يكون مجحفا بمصالح الآخر .

٦ — تعترف حكومة جلالته البريطانية بان تبعة المحافظة على أرواح الاجانب

في مصر وأملاكهم تقع من الآن فصاعداً على عاتق الحكومة المصرية . ويتكفل جلالة ملك مصر بتنفيذ تعهداته بهذا الشأن .

٧ — إذا اشتبك أحد الفريقين المتعاقدين في حرب رغم نص الفقرة ٤ الواردة آنفاً فان الفريق الآخر يبادر لمعونته مع مراعاة نص الفقرة ١٤ التي ستذكر فيما بعد وذلك بصفته حليفاً . وبوجه خاص فانه في حالة وقوع حرب أو خطر وقوع حرب يقدم جلالة ملك مصر إلى جلالته البريطانية في الاراضي المصرية جميع التسهيلات والمساعدات التي في وسعه ومن ذلك استخدام موانئه ومطاراته ووسائل مواصلاته .

٨ — نظراً إلى الرغبة في توحيد نظام التعليم والاساليب في الجيشين المصري والبريطاني يتعهد جلالة ملك مصر بانه إذا رأى من الضروري الالتجاء إلى مدربين عسكريين أجانب فانهم يختارون من الرعايا البريطانيين

٩ — تسهيلا وضماناً لمحافظة جلالته البريطانية على قناة السويس بصفة كونها طريقاً ضروريا للمواصلات بين أجزاء الامبراطورية المختلفة يجيز جلالة ملك مصر لجلالته البريطانية أن يبقي على الاراضي المصرية وفي مواقع يتفق عليها فيما بعد شرقي الدرجة ٣٢ من خطوط الطول : القوات التي يراها جلالته البريطانية لازمة لهذا الغرض . ووجود هذه القوات لا يعتبر احتلالا بأية حال من الاحوال ولا يمس حقوق سيادة مصر .

١٠ — نظراً إلى الصداقة بين الدولتين وإلى المحالفة المرجو عقدها بهذه الاقتراحات فان الحكومة المصرية عند احتياجها لخدمات موظفين أجانب تستخدم رعايا بريطانيين كقاعدة عامة .

١١ — يعترف جلالة ملك بريطانيا العظمى بان نظام الامتيازات القائم في مصر الآن لا يلائم روح العصر ولا حالة مصر الحاضرة . وعليه فان جلالته البريطانية يتعهد ببذل كل ماله من نفوذ لدى الدول ذوات الامتيازات في مصر لنقل اختصاص المحاكم القنصلية الحالي إلى المحاكم المختلطة ، وتطبيق التشريع المصري على الاجانب بشروط تضمن مصالحهم المشروعة .

١٢ — نظراً إلى الصداقة بين الفريقين المتعاقدين وإلى المحالفة المراد عقدها بموجب الاقتراحات الحاضرة يمثل جلالة ملك بريطانيا العظمى لدي بلاط جلالة ملك مصر سفير يعتمد بالطرق المرعية ، ويحفظ جلالة ملك مصر أسمى مركز سياسي في بلاطه لممثل جلالته البريطانية .

ويمثل جلالة ملك مصر سفير لدي بلاط سانت جيمس

١٣ — مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة في المستقبل تعديلا لاتفاق سنة ١٨٩٩ يتفق الفريقان المتعاقدان على ان تكون حالة السودان هي الحالة المترتبة على الاتفاق المذكور . وعلى ذلك يواصل الحاكم العام استعمال السلطة المخولة له بموجب الاتفاق المذكور بالنيابة عن الفريقين المتعاقدين .

١٤ — لا يقصد بهذه الاقتراحات ولا يمكن أن ينبني عليها الاخلال بالحقوق والالتزامات المترتبة أو التي يمكن أن تترتب لاحد الطرفين المتعاقدين أو عليه بمقتضى عهد جمعية الامم أو ميثاق نبذ الحرب الموقع عليه في باريس في ٢٧ أغسطس سنة ١٨٢٨

١٥ — يتفق الفريقان المتعاقدان على ان أي خلاف ينشأ بينهما في تطبيق نصوص هذه الاقتراحات أو تفسيرها مما لا يتسنى لهما تسويته بالمفاوضات مباشرة يعالج بمقتضى نصوص عهد جمعية الامم .

١٦ — في أي وقت بعد انقضاء خمس وعشرين سنة من نفاذ معاهدة تبنى على الاقتراحات المار ذكرها . يجوز إجراء أي تعديل في شروطها يرى من الملائم عمله وفقاً للظروف القائمة وقتئذ وذلك بالاتفاق بين الفريقين المتعاقدين .

﴿ المذكرات المفسرة لهذه المقترحات ﴾

الجيش

المذكرة البريطانية

حضرة صاحب الدولة :

في خلال محادثاتنا الأخيرة نشأت بعض مسائل عسكرية وتم النظر فيها بأتم العناية ، وتنقسم هذه المسائل بطبيعتها إلى قسمين :

أولهما — ما يتعلق بقوات الجيش المصري التي قد يمكن أن تدعى لمعاونة القوات البريطانية المحالفة معاونة فعلية فيما لو نشأت لسوء الحظ أحوال من التي أشير اليها في الجملة الاولى من الفقرة السابعة من الاقتراحات

وثانيهما — المسائل الخاصة بالقوات البريطانية التي سيكون مقامها بجوار قنال السويس طبقاً للفقرة « ٩ » لضمان الدفاع عن ذلك الشريان الحيوي من طريق المواصلات البريطانية الامبراطورية .

فأما فيما يتعلق بالقسم الأول فقد اتفقنا على ما يأتي :

١ — ينتهي النظام الحالي الذي يقوم بموجبه المفتش العام وأركان حربه بتأدية بعض الوظائف ويسحب الموظفون البريطانيون من الجيش المصري

٢ — على أن الحكومة المصرية ترغب وفقاً للفقرة الثامنة من الاقتراحات في الانتفاع بمشورة بعثة عسكرية بريطانية . وحكومة جلالة ملك المملكة المتحدة وشمالي أرلندا تتعهد بتقديم بعثة كهذه .

وترسل الحكومة المصرية موظفي الجيش المصري لتدريبهم في بريطانيا العظمى فقط . وتتعهد حكومة جلالته من جانبها بقبول جميع الموظفين الذين تريد الحكومة المصرية إرسالهم إلى بريطانيا العظمى لهذا الغرض .

٣ — لمصلحة التعاون الوثيق المشار اليه آنفاً يجب أن لا يختلف نوع الاسلحة والمهمات في الجيش المصري .

وتتعهد حكومة جلالته بالتوسط لتسهيل الحصول على تلك الاسلحة والمهمات من بريطانيا العظمى كلما أرادت الحكومة المصرية ذلك .

أما فيما يتعلق بالقوات البريطانية المشار اليها في الفقرة « ٩ » من الاقتراحات

١ — فان الحكومة المصرية تقدم مجاناً لحكومة جلالته الاراضي والثكنات الخ . . . في الاماكن التي يتفق عليها وتكون معادلة لما تشغله القوات البريطانية في مصر في الوقت الحاضر

وعند إكمال المحال الجديدة تنقل تلك القوات اليها وتسلم الاراضي والثكنات الخ . . . بعد إخلائها إلى الحكومة المصرية .

ونظراً إلى العقبات الفنية التي تعترض اجراء النقل تدريجياً فانه ينتظر إكمال المحال الجديدة ثم يؤخذ في النقل .

ونظراً لطبيعة المنطقة الواقعة شرقي درجة ٣٢ من خطوط الطول فتتخذ التدابير لتقديم وسائل الراحة المعقولة بزراعة أشجار وحدائق وهلم جرا للجنود ومدهم أيضاً بمورد للماء العذب يكون كافياً في الاحوال الطارئة

٢ — تستمر الامتيازات التي تتمتع بها الجيوش البريطانية في مصر في المسائل القضائية والمالية ويجوز تعديل ذلك في المستقبل بالاتفاق بين الحكومتين

٣ — تمنع الحكومة المصرية مرور الطيارات فوق الاراضي الواقعة على كلتا ضفتي قناة السويس إلى مدى عشرين كيلو متراً منها إلا في حالة الاتفاق بين بين الحكومتين على عكس ذلك ؛

على أن هذا المنع لا يتناول قوات الحكومتين أو الخطوط التي تقوم بتسييرها هيئات بريطانية أو مصرية حقيقية تعمل تحت سلطة الحكومة المصرية .

وقد اتفقنا أيضاً على أن تقدم الحكومة المصرية جميع التسهيلات اللازمة للطيارات الحربية البريطانية وموظفيها ومهماتها المتجهة إلى المطارات الموضوعة تحت تصرف القوات البريطانية طبقاً للفقرة «٩» من الاقتراحات أو القادمة من تلك المطارات .

وتقدم حكومة جلالته التسهيلات الملائمة للطيارات الحربية المصرية وموظفيها ومهماتها في الاراضي الواقعة تحت مراقبتها .

(هذا نص ترجمة المذكرة البريطانية في المسألة العسكرية وقد أجاب عليها رئيس الوزارة المصرية بالموافقة التامة . ويليها مذكرات متبادلة في مسائل المستشارين المالي والقضائي ، والبوليس الاجنبي ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية والموظفين الاجانب كلها في الدرجة الثانية من عظم الشأن)

﴿ المذكرات في مسألة السودان ﴾

مسألة السودان أهم مسائل هذا الاتفاق على الاطلاق لأن مصر لا حياة لها بدون السودان فهو منها بمنزلة القلب من البدن ، والنيل الآتي منه بمنزلة الدم الذي يغذي الجسد ويحفظ حياته . وقد ورد في شأنه ثلاث مذكرات بريطانية أجاب عن كل منها وزير مصر بالموافقة (إحداها) مسألة الديون التي على مصر وقد اتفق الفريقان « على أن تفحص مسألة الديون التي على السودان في الوقت الحاضر بقصد تسويتها على أساس العدل والانصاف » (الثانية) مسألة « جعل الاتفاقات الدولية منطبقة على السودان » وقد اتفقا على أن هذه الاتفاقات ستكون « فنية أو إنسانية » وان الاتفاق عليها سيكون بين مندوبين عن الحكومتين ، وفي هذا من الابهام والغموض ما يخول انكلترة تفسيره كما تريد (الثالثة) مسألة عود الجنود المصرية إلى السودان ـ وفي المذكرة البريطانية أنه إذا نفذت المعاهدة بالروح الودية التي تفاوض فيها الفريقان في هذه الاقتراحات فان الحكومة البريطانية « تكون مستعدة لأن تفحص بروح العطف الاقتراح بشأن عودة أورطة مصرية إلى السودان في الوقت الذي تستحب فيه القوات البريطانية من القاهرة » !!

وقد أجمع الناس هنا وفي أوربة على أن هذه المقترحات وتفاسيرها أعظم تساهل وسماح صدر عن حكومة بريطانية مع مصر وسنتكلم عليه في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

المنار

نبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

أنشئ ١٣١٥

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى « ومناراً » كمنار الطريق

٣٠ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هـ ١٠ برج الميزان سنة ١٣٠٩ هـ ش ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري حديث عصري إرشادي اجتماعي سياسي

(١٧) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٨) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَآتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ

للتناسب والاتصال بين هاتين الآيتين (وما بعدهما الى الآية ٢٢) وما قبلهما وجه وجيه واضح وان غفل عنه الرازي وأبو السعود وأمثالهما ممن يعنون بالغوص على التناسب بين الآيات، وهاك بيانه:

قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين) وقال (وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقص علينا تعالى في سورة البقرة خبر بناء ابراهيم واسماعيل لهذا البيت وما كانا يدعوان به عند رفع قواعده من جعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وبعث رسول منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وقد استجاب الله تعالى دعاءهما كله فكان من ذريتهما أمة مسلمة موحدة له تعالى تقيم دينه في بيته وفي غيره كما أمر، ثم طال عليهم الامد فطرأت عليهم الوثنية ، وترك جماهيرهم ملة ابراهيم الحنيفية، حتى بعث فيهم منهم محمداً رسول الله وخاتم النبيين ، تكملة لدعوة جده ابراهيم ، فقاوم المشركون دعوته ، وصدوه ومن آمن به عن المسجد الحرام وأخرجوهم من ديارهم بجواره، ثم مازالوا يقاتلونهم في دار هجرتهم إلى أن صدق الله وعده، ونصر عبده ، وأعز جنده ، ومكنهم من فتح مكة ، وأدال للتوحيد من الشرك ، وللحق من الباطل ،

فلما زالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام ، وطهره الرسول ﷺ مما كان فيه من الاصنام، بقي أن يطهره من الدبادة الباطلة التي كان المشركون يأتونها فيه ، وأن يبين لهم الوجه في كون المسلمين احق به منهم، فلما آذنهم بنبذ عهودهم وأمر علياً كرم الله وجهه أن يتلو أوائل سورة براءة على مسامع وفودهم في يوم الحج الاكبر من سنة تسع للهجرة كان من مقاصد هذا البلاغ العام أن يعلموا ان عبادتهم الشركية ستمنع من المسجد الحرام بعد ذلك العام بالتبع لزوال ولايتهم العارضة عليه ، فكان علي وأعوانه ينادون في يوم النحر بمنى: لايحج بعد هذا العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان. وإنما أمهلهم إلى موسم السنة التالية لفتح مكة لسببين فيما يظهر (أحدهما) انه كان فيهم أصحاب عهد مع المسلمين من قبل الفتح كان من شروطه أن لايمنع من المسجد الحرام أحد من الفريقين ، والوفاء بالعهد من أهم أحكام الاسلام فأمهلهم إلى انقضاء عهودهم بنبذ ماجاز نبذه ، وإتمام ماوجب إتمامه، ولم يمكن إعلامهم بذلك إلا في موسم السنة التاسعة كما امر الله تعالى (وثانيهما) انه كان يتعذر منع من لا عهد لهم في موسمي العامين الثامن والتاسع بدون قتال في أرض الحرم لانهم

كانوا بمقتضى التقاليد يأتون للحج من كل فج وهم كثيرون ولا يمكن التمييز بين المشرك والمسلم ولا المعاهد وغير المعاهد إلا بعد وصولهم إلى البيت وشروعهم في الطواف فيه فكيف السبيل إلى منع المشرك منهم بعد ذلك بغير قتال فيه فضلا عن سائر الحرم — والقتال محرم فيه؟ وقد قال عليه السلام يوم فتح مكة انها أحلت له ساعة من نهار ولم تحل لأحد قبله ولن تحل لأحد بعده ؟ فعلم من هذا ان منع عبادة الشرك من المسجد الحرام وإبطال ما كان المشركون يدعونه ويفخرون به من حق عمارته الحسية وإيئاسهم من الاشتراك فيها كان يتوقف على ماذكر من نبذ عهودهم ومن العدل الواجب في الاسلام إعلامهم بذلك قبل تنفيذه بزمن طويل يكفي لعلم الجماهير منهم به، وهذا المنع هو ما تضمنته هاتان الآيتان على أكمل وجه ، وفسره علي كرم الله وجهه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم من الجهة الخاصة ، فحسن أن يوضع هو وما يتلوه بعد آيات ذلك النبذ والأذان ، وما تلاه من التهديد بالقتال بعد عود حالته الى ما كانت عليه قبل العهود . وهو المقصود بالذات بقسميه السابي والايجابي . وسيأتي النهي عن تمكينهم من القرب من المسجد الحرام ايضاً في الآية (٢٨) قال تعالى

﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ النفي في مثل هذا التعبير يسمى نفي الشأن كما سبق بيانه في نظائره مع بيان انه أبلغ من نفي الفعل طبعاً اوشرعاً لانه نفي له بالدليل. والمساجد جمع مسجد وهو في اللغة مكان السجود وقد صار اسماً للبيوت التي يعبد فيها الله تعالى وحده كما قال تعالى (وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) قرأ أبو عمرو ويعقوب وابن كثير (مسجد الله) بالافراد وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وهم أكبر مفسري السلف. وقرأ باقي السبعة وآخرون (مساجد الله) بالجمع . والمتبادر من الافراد إرادة المسجد الحرام لانه المفرد العلم الاكمل الافضل من المساجد وكلها لله ، وان كان المفرد المضاف يفيد العموم في الاصل ، والمراد من المساجد جنسها الذي يصدق بأي فرد من أفرادها كما يقولون فلان يخدم الملوك وان لم يخدم إلا واحداً منهم، وفلان يركب البراذين أو الحمير وان لم يركب إلا واحداً منها ومنه (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) على ان بعضهم زعم أن المراد بالجمع المسجد الحرام أيضا وعللوه بقول الحسن : انما قال مساجد لانه قبلة المساجد

كلها، وهو ضعيف وركيك ويقتضي ان النفي وما يتضمنه من المنع خاص به وهو باطل اجماعا . وتفسير المفرد بالجمع لافادته العموم بالاضافة اصح لفظا ومعنى لولا انهما تكرار لاتظهر له فائدة ، فالحق ان كلا من القراءتين مقـ ـود وفائدة ذكر المفرد مع الجمع التنويه بمكانته وكونه محل النزاع وسبب القتال بين المؤمنين والمشركين

وعمارة المسجد في اللغة لزومه والاقامة فيه للعبادة أو لخدمته بالترميم والتنظيف ونحوهما، وعبادة الله فيه ، وزيارته للعبادة ، ومنها الحج والعمرة ، قال في اللسان عمر الرجل ماله وبيته يعمره (بالضم) عمارة وعموراً وعمرانا لزمه . . . ويقال لساكن الدار عامر والجمع عمار (وهنا ذكر البيت المعمور وما روي في تفسيره وقال :والمعمور المخدوم) ثم ذكر : عمر الرجل الله بمعنى عبده قال: والعمارة (بالكسر) مايعمر به المكان ،والعمارة (بالضم) أجرة العمارة (قال) والعمرة (بالضم) طاعة الله عز وجل، والعمرة في الحج معروفة مأخوذة من الاعتمار وهو الزيارة والقصد ... وهو في الشرع زيارة البيت الحرام بالشروط المخصوصة المعروفة. قال الزمخشري ولم يجيء فيما أعلم عمر بمعنى اعتمر، ولكن عمر الله إذا عبده ، وعمر فلان ركعتين إذا صلاهما ، وهو يعمر ربه . يصلي ويصوم اه ملخصاً

وقال الراغب :العمارة نقيض الخراب يقال عمر ارضه يعمرها عمارة . وقوله (انما يعمر مساجد الله) إما من العمارة التي هي حفظ البناء او من العمرة التي هي الزيارة أو من قولهم : عمرت بمكان كذا أي أقمت به ، لانه يقال عمرت المكان وعمرت بالمكان انتهى. وظاهره انه يقال عمر بمعنى اعتمر فليحرر

فعلم من هذه النصوص ان عمارة المسجد تطلق على عبادة الله فيه مطلقا، وعلى النسك المخصوص المسمى بالعمرة وهي خاصة بالمسجد الحرام(١) ، وعلى لزومه والاقامة فيـه لخدمته الحسية ، وعلى بنائه وترميمه . وكل ذلك مراد هنالان اللفظ يدل عليـه والمقام يقتضيه . والمختار عندنا استعمال المشترك في معانيه التي يقتضيها المقام تبعاً للشافعي وابن جرير

(١) يراجع معناها وحكمها في تفسير (٢:١٩٦ وأتموا الحج والعمرة لله) في ص ٢١٢ ج ٢ تفسير

روي عن ابن عباس انه لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ علي له القول ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له علي (رض) ألكم محاسن؟ فقال نعم اننا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ، فأنزل الله عز وجل رداً على العباس (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) الخ والمراد انها تتضمن الرد على ذلك القول الذي كان يقوله ويفخر به هو وغيره من كبراء المشركين أيضاً، لا انها نزلت عند ماقال ذلك القول لاجل الرد عليه في أيام بدر من السنة الثانية من الهجرة بل نزلت في ضمن السورة بعد الرجوع من غزوة تبوك كما تقدم

ومعنى الجملة: ماكان ينبغي ولا يصح للمشركين ولا من شأنهم الذي يقتضيه شركهم او الذي يشرعه او يرضاه الله منهم او يقرهم عليه أن يعمروا مسجد الله الأعظم وبيته المحرم بالاقامة فيه للعبادة أو الخدمة له والولاية عليه، ولا ان يزوروه

حجاجاً أو معتمرين ولا شيئاً من سائر مساجده كذلك ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي ما كان لهم ذلك في حال كونهم كافرين شاهدين على أنفسهم بالكفر قولا وعملا لان هذا جمع بين الضدين ، فان عمارة مساجد الله الحسية انما تكون لعمارتها المعنوية بعبادته فيها وحده ، ولا تصح ولا تقع إلا من المؤمن الموحد له وذلك ضد الكفر به، وأي كفر بالله أظهر وأشد من الشرك به ومساواته ببعض خلقه في العبادة ؟ وهو ماكانوا يفعلونه من عبادة الاصنام بالاستشفاع بها ، والسجود لما وضعوه في البيت منها عقب كل شوط من طوافهم فيه ، وأي اعتراف به أصرح من نص تلبيتهم له تعالى وهي قولهم بأفواههم : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وماملك. وكانوا يكفرون بالبعث والجزاء أيضاً ، ولما بعث فيهم محمد رسول الله وخاتم النبيين كفروا به وبما جاء به من البينات والهدى ، كفر سادتهم وكبراؤهم جحوداً وعناداً ، وتبعهم دهماؤهم خضوعا لهم وتقليداً . ومن النصوص الدالة على جحودهم آية (٦ : ٣٣ فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)ومن الأدلة على عنادهم آية (٨ :٣٢ وإذ قالوا اللهم

ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)
فقوله تعالى (شاهدين) الخ قيد للنفي قبله مبين لعلته والعلة الحقيقية هي نفس الكفر لا الشهادة به ، ونكتة تقييده بها بيان انه كفر صريح معترف به لا تمكن المكابرة فيه . وقد قيل انه لا يجوز للمسلمين ان يستخدموا الكفار في بناء المساجد لانه من العمارة الحسية الممنوعة ، وفيه نظر لان الممنوع منها انما هو الولاية عليها والاستقلال بالقيام بمصالحها كأن يكون ناظر المسجد وأوقافه كافراً . وأما استخدام المسلمين للكافر في عمل لا ولاية فيه كنحت الحجارة ، والبناء والنجارة ، فلا يظهر دخوله في المنع ، ولا فيما ذكر من نفي الشأن ، فان نفي الشأن المذكور دليل على التشريع في هذه المسألة وكونه حقاً مبنياً على اساس ثابت في فطرة البشر وليس تشريعاً لها . والدلالة فيه عقلية علمية كما علم من تفسيرنا له

(فان قيل) قد وقع من بعض الحكام والافراد من غير المسلمين أن بنى مسجداً للمسلمين ومنهم من اوصى بمال لعمارة مسجدهم لمصلحة له في ذلك (قلت) ان هذا لا يعارض مافسرنا به نفي الشأن ، ولا مابني عليه من الحكم ، وللمسلمين ان يقبلوا مثل هذا المسجد وهذه الوصية بشرط ان لا يكون فيهما ضرر آخر ديني ولا سياسي ، لانه حينئذ يكون كمسجد الضرار الذي يأتي ذكره في هذه السورة ، فلو عرض اليهود على المسلمين في هذا العصر ان يعمروا المسجد الأقصى بترميم ما كان تداعى او ضعف من بنائه ، او بذلوا لهم مالا لذلك لما جاز لهم أن يقبلوا هذا ولا ذاك وان لم يتول اليهود العمل ، لما علم من طمعهم في الاستيلاء على هذا المسجد والتوسل له بما يجعلونه ذريعة لادعاء حق ما لهم فيه ، على كفرهم بعيسى ومحمد (ص) وكتابيهما وقولهم على مريم بهتانا عظيما

﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم قد حبطت أعمالهم التي يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وغيرهما من أعمال البر كقرى الضيف وصلة الرحم أي بطلت وفسدت حتى لم يبق لها ادنى تأثير في صلاح أنفسهم مع الشرك والكفر ومفاسدهما ،

وأصله من الحبط وهو بالتحريك أن تأكل البهيمة حتى تنتفخ ويفسد جوفها . قال تعالى (﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ ٣٩:٦٥ ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ ٦ : ٨٨ ١٨:١٠٥ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا)

﴿ وفي النار هم خالدون ﴾ أي وهم مقيمون في دار العذاب التي تسمى النار دون غيرها إقامة خلود وبقاء لكفرهم المحبط لأعمالهم الحسنة حتى لا أثر لها في تزكية أنفسهم وإحاطة خطيئاتهم بها وتدسيتها لها . فلم يبق فيها أدنى استعداد لجوار الله تعالى في دار الكرامة — وما ثمة إلا الجنة أو النار (فريق في الجنة وفريق في السعير)

﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ بعد أن بين عدم استحقاق المشركين لعمارة مساجد الله أثبتها للمسلمين الكاملين وجعلها مقصورة عليهم بالفعل لا بمجرد الشأن والاستحقاق، وهو الذي يقتضيه مقام الإيجاب، وهم الجامعون بين الإيمان بالله على الوجه الحق الذي بينه في كتابه من توحيده وتنزيهه واختصاصه بالعبادة والاستعانة والتوكل، والإيمان باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد ويجزي كل نفس ما كسبت، وبين إقامة الصلاة المفروضة بأركانها وآدابها وتدبر تلاوتها وأذكارها التي تكسب مقيمها مراقبة الله تعالى وحبه والخشوع له والإنابة إليه - وإعطاء زكاة الأموال من نقد وزرع وتجارة لمستحقيها من الفقراء والمساكين والغارمين وغيرهم ممن يأتي ذكرهم في هذه السورة - وبين خشية الله دون غيره ممن لا ينفع ولا يضر كالأصنام وسائر ما عبد من دون الله خوفا من ضرره أو رجاء في نفعه، فالمراد بالخشية الديني منها دون الغريزي كخشية أسباب الضرر الحقيقية، فإن هذا لا ينافي خشية الله ولا يقتضي خشية الطاغوت. والدليل عليها طاعة الله تعالى فيما أمر به ونهى عنه رضي الناس أم سخطوا

﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ أي فأولئك الجامعون لهذه الخمس من أركان الإيمان والإسلام التي يلزمها سائر أركانها هم الذين يرجون بحق أو يرجى

لهم بحسب سنن الله في اعمال البشر وتأثيرها في إصلاحهم أن يكونوا من جماعة المهتدين الى مايحب الله ويرضى من عمارة مساجده حساً ومعنى، واستحقاق الجزاء عليها بالجنة خالدين فيها ، دون غيرهم من المشركين الجامعين لأضدادها من الايمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله ، الذين دنسوا مسجده الحرام بالاصنام ، والاستقسام بالأزلام، وصدوا المسلمين عن الحج والاعتمار والصلاة فيه. ولم تكن صلاة هؤلاء المشركين عنده إلا مكاء وتصدية كعبث الاطفال ، وكانوا ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله ومنع الناس من الاسلام. وتقدم في هذا المعنى من سورة الانفال (٨ : ٣٤ — ٣٦)فشرور هؤلاء وضلالهم وطغيانهم التي هي لوازم الشرك تحبط كل عمل حسن عملوه كما تقدم

كلمة عسى تفيد الرجاء دون القطع ، وقال الواحدي وغيره انها للتقريب والاطماع ثم استعملت بمعنى «لعل» أي للرجاء . وقال سيبويه لعل كلمة ترجية وتطميع أي للمخاطب بها. فالرجاء هنا مايكون للمتصفين بما ذكر من الامور الخمسة من الامل والطمع بالفعل أو الشأن في الوصول إلى مقام المتقين الكاملين بالثبات عليها وما يترتب عليه من الثواب كما قررناه ، ولا يصح هنا كون الرجاء من الله عز وجل فانه هو الذي يرجى ولا يرجو ، وحقيقة الرجاء ظن بحصول أمر وقعت أسبابه واتخذت وسائله من مبتغيه ، ولم يبق لحصوله إلا أن تكون وقعت على وجهها المؤدي إلى الغاية ، وأن لاتعارضها الموانع التي تكون راجحة على المقتضي ، كالزارع يحرث الارض ويبذر الحب في الوقت المناسب ويتعاهد زرعه بما يحتاج اليه من عذق وسقي وسماد فيكون من المظنون الراجح أن يأتي بثمرة طيبة ، ولكن لايمكن القطع بذلك لما يخشى من وقوع الجوائح المهلكة له مثلا

وكذلك من يطيع الله تعالى بفعل المستطاع مما أمر به وترك ما نهى عنه فانه حقيق بأن يرجو بذلك تزكية نفسه ورفعها إلى مقام المتقين أولياء الله تعالى ومايترتب على ذلك من مثوبته ورضوانه في دار كرامته، ولكنه لايمكن أن يجزم بذلك لما يخشى على نفسه من التقصير وشوائب الرياء والسمعة، أو عدم الثبات على الطاعة حتى يموت عليها ، وغير ذلك مما يحبط الاعمال أو يمنع من قبولها ، والخير المؤمن أن

يكون بين الخوف الذي يصده عن التقصير ، والرجاء الذي يبعثه على التشمير ، وأن يرجح الخوف في حال الصحة والرجاء في حال المرض ولا سيما مرض الموت . ومن اراد نعيم الآخرة ولم يسع لها سعيها الذي جعله الله سبباً لها فهو من الحمقى اصحاب الاماني لا من اصحاب الرجاء فهو كمن احب ان تنبت له ارضه غلة حسنة كثيرة ولم يزرعها الخ. فسنة الله في الدنيا والآخرة واحدة كما قال ابو حامد الغزالي رحمه الله تعالى

ومن قال ان عسى هنا وعد من الله تعالى قالوا انها منه تعالى للايجاب والقطع ، وهو منزه عن التوقع والظن وعن الاطماع في الشيء واخلافه بعد تقريبه . ورووا هذا المعنى عن ابن عباس (رض) في الآيات الصريحة في وعد الله تعالى وخبره كقوله تعالى (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) وقوله (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) فكل من هذين وعد قطعي عنده تعالى ، فعلى هذا تكون نكتة التعبير عنه بعسى ابهامه وعدم إعلام المخاطبين بالوقت الذي يقع فيه ، ومن أمعن النظر رأى ان هذا قد يرجع الى ما فسرنا به عسى هنا وهو ان كلا من الاتيان بالفتح او امر آخر يترتب عليه ندم المشركين ومن وقوع المودة بين المؤمنين ومن عادوهم من المشركين قريب الوقوع فهو مرجو ومتوقع في نفسه بوقوع أسبابه ومقدماته ، فينبغي ان يعدوا له عدته ويحسبوا له حسابا في معاملاتهم ، وفي معنى هذا ما اختاره شيخنا من ان معنى لعل في كلام الله تعالى الاعداد لمتعلقها وتقدم تفصيله (راجع ص ١٨٦ ج ١ تفسير)

وقد استشكل بعضهم وصف عمار المساجد بايتاء الزكاة لانه ليس من الاعمال التي تشرع في المساجد ، وأجاب عنه الفخر الرازي بقوله : واعلم أن اعتبار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في عمارة المسجد كأنه يدل على أن عمارة المسجد الحضور فيه وذلك لأن الانسان اذا كان مقيما للصلاة فانه يحضر في المسجد فتحصل به عمارة المسجد ، واذا كان مؤتياً للزكاة فانه يحضر في المسجد طوائف الفقراء والمساكين لطلب أخذ الزكاة فتحصل عمارة المسجد به . وأما اذا حملنا العمارة على مصالح البناء فايتاء الزكاة معتبر في هذا الباب أيضاً لان إيتاء الزكاة واجب

وبناء المسجد نافلة، والانسان مالم يفرغ عن الواجب لايشتغل بالنافلة ، والظاهر أن الانسان مالم يكن مؤديا للزكاة لم يشتغل ببناء المساجد اه بنصه

والذي نراه أن المراد بهذه الصفات بيان الاسلام الكامل الذي يقوم أهله بعمارة المساجد الحسية والمعنوية بالفعل كما انهم هم اصحاب الحق فيها ، وهذه أسسه التي دعا اليها جميع رسل الله تعالى وعليها مدار النجاة كما قال تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وقد ذكر هنا من العمل الصالح أعظم أركانه التي كان المشركون مجردين منها، واشترط في صحة إسلامهم قبولها كلها أو ماعدا الباطن منها وهو الخشية كما تقدم. وهي الصلاة أعظم العبادات البدنية الروحية الاجتماعية ، والزكاة أعظم العبادات المالية الاجتماعية — وخشية الله وحده أعظم ثمرات الايمان والعبادات النفسية، ولم يذكر الايمان بالرسل لان رسالتهم وسيلة إلى هذه المقاصد ولا تحصل على الوجه الصحيح بدونها فهي تستلزمها، وإقامة الصلاة تتوقف عليها لان الشهادتين من فرائضها ، ومن كلمات الأذان لها . وقول الرازي إن مانع الزكاة لايبني المساجد حق كقول بعض الناس ان الذي يزكي لايسرق ، وانما يصح هذا وذاك فيمن يعمل عمله خالصاً لوجه الله ، ولكن من الناس من يبني مسجداً بالمال الحرام وهو لايصلي وانما يبنيه رياء وسمعة، أو ليجعل فيه او في قبة بجانبه قبراً له يذكر به اسمه من بعده ، ومنهم من يتصدق على الفقرا. ويساعد الجمعيات الخيرية والعلمية بالمال الحرام ويأكل الحرام ، ولا يؤدي جميع مايجب عليه من الزكاة ، لانه مراء يبتغي بانفاقه السمعة والصيت الحسن ، لا مثوبة الله ومرضاته

وقد ورد في عمارة المساجد الحسية والمعنوية أحاديث كثيرة منها في المعنى الاول مارواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه من حديث عثمان (رض) أنه لما بنى مسجد رسول الله ﷺ ولامه الناس قال: انكم أكثرتم واني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة » وهو يدل على أن توسيع المسجد كابتدائه

وروى احمد عن ابن عباس مرفوعا « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة » وسنده صحيح ، وروي مثله بدون وصف للمسجد وروي بلفظ « بنى الله له بيتاً أوسع منه » وبألفاظ أخرى . وروى احمد والترمذي وصححه من حديث سمرة بن جندب قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتخذ المساجد في ديارنا وأمرنا أن ننظفها ، وفي معناه من حديث عائشة ـ وأن تطيب ـ وفي الصحيحين وسنن ابي داود وابن ماجه أن امرأة كانت تقمُّ المسجد أي تكنسه فماتت فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقيل له ماتت فقال « أفلا كنتم آذنتموني بها ؟» أي أعلمتموني بموتها لأصلي عليها « دلوني على قبرها » فأتى قبرها فصلى عليها وفي الصحيحين وبعض السنن أيضاً أن البزاق في المسجد خطيئة ، وانه صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في المسجد فحكها ورؤي الغضب في وجهه ونهى عن ذلك. فازالة القذر من المساجد وتطهيره واجب وإتباع أثر القذر بالطيب مستحب

ومنها في المعنى الثاني مارواه الشيخان وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث أبي هريرة مرفوعا « صلاة الجميع — وفي رواية — الجماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمساً وعشرين درجة[1] فأن أحدكم اذا توضأ وأحسن الوضوء وأتى المسجد لا يريد الا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه خطيئة، حتى يدخل المسجد ، واذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت تحبسه ، وتصلي عليه الملائكة مادام في مجلسه الذي يصلي فيه : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه مالم يؤذ بحدث » أي يحدث له رائحة كريهة ، ومنه رائحة الثوم والبصل ونحوهما كالدخان المعروف في هذا الزمان ، فقد روى احمد والشيخان من حديث جابر مرفوعا « من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا فان الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » واستدل العلماء به على منع من أكل الثوم ونحوه من دخول المسجد وإن لم يكن فيه أحد، إلا أن يزيل الرائحة قبل ذلك، والظاهرية يحرمون أكل ما ذكر لأنه يمنع من صلاة الجماعة وهي عندهم فرض عين كالحنابلة. والصواب أن فرضيتها لا تقتضي تحريم ما ذكر مطلقاً لأنه يمكن أكلها في الاوقات

(١) وفي حديث آخر انها تفضلها بسبع وعشرين درجة

التي لا جماعة فيها كأول النهار وبعد العشاء إذ تزول الرائحة في الغالب قبل الظهر في الحالة الاولى وقبل الفجر في الثانية ، ويمكن إزالتها قبل ذلك بتنظيف الفم بالسواك ونحوه وأكل بعض الاشياء المعطرة كأقراص النعنع المعروفة في هذا الزمن وغيرها من الحبوب العطرية التي تمتص لتطييب الفم.

وجماهير أئمة السلف والخلف على إباحة أكل الثوم والبصل . ومن أدلتهم ما رواه الشيخان وابو داود والنسائي أن النبي ﷺ أتي بقدر فيها خضرات من بقول فوجد لها ريحاً فسأل فأخبر بما فيها من البقول فقال «قربوها» (وأشار) الى بعض أصحابه كان معه فلما رآه كره أكلها قال «كل فاني أناجي من لا تناجي» وفي بعض الروايات عند مسلم وغيره أن هذا الطعام صنع له ﷺ عند مقدمه المدينة ، وان المراد بالصاحب الذي أمره بأكله هو ضائفه ابو أيوب الانصاري (رض) وفيه ان الطعام كان فيه ثوم (لم تذهب رائحته) وانه قال: أحرام هو يارسول الله ؟ قال «لا ولكن أكرهه» ومنها حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم أيضاً قال : لم نعدُ أن فتحت خيبر فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة «الثوم» والناس جياع فأكلنا منها أكلا شديداً ثم رحنا الى المسجد فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئاً فلا يقربنا في المسجد» فقال الناس : حرمت ، حرمت ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «أيها الناس انه ليس لي تحريم ما أحل الله لي ولكنها شجرة أكره ريحها»

وروى احمد والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ «اذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان» وتلا (انما يعمر مساجد الله) الآية. وهو نص في العمارة المعنوية ولكن الحافظ الذهبي أنكر على الحاكم تصحيحه . وهنالك أحاديث أخرى ضعيفة ومنكرة في الرواية وإن كان معناها صحيحاً . وسيأتي حكم دخول المشركين وغيرهم من الكفار المساجد في تفسير (انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا)

(١٩) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٠) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢١) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢٢) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

هذه الآيات تكملة لموضوع الآيتين اللتين قبلها في بيان كون الحق في عمارة المسجد الحرام بنوعيها للمسلمين دون المشركين وكون إيمانهم وإسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارته وسقاية الحاج فيه وان قام بهما المسلمون أنفسهم خلافا لما توهم بعضهم في الاعمال التي بعد الاسلام، فقد روى مسلم وابو داود وابن حبان وبعض رواة التفسير المأثور من حديث النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملا بعد الاسلام الا ان أسقي الحاج، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم – وذلك يوم الجمعة – ولكن اذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. [فدخل بعد الصلاة فاستفتاه] فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج — الى قوله — لا يهدي القوم الظالمين) وروى الفريابي عن ابن سيرين قال قدم علي بن ابي طالب مكة فقال للعباس: أي عم ألا تهاجر ؟ ألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أعمر المسجد وأحجب البيت ، فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية . وروى ابن ابي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال :

قال العباس حين أسر يوم بدر: ان كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني (اي الاسير) فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج)

وروى أبو جعفر بن جرير عن كعب القرظي قال افتخر طلحة بن شيبة من بني عبدالدار وعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب - فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بت فيه، وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد، فقال علي (رض) ما أدري ماتقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد. فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية كلها. فهذه الروايات في اسباب النزول وقائع في تفسير الآيات وإن لم تكن أسبابا

والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها في المفاضلة والمساواة بين خدمة البيت وحجاجه — من أعمال البر البدنية الهينة المستلذة — وبين الايمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهي أشق العبادات النفسية البدنية المالية، والآيات تتضمن الرد عليها كلها. وفي أثر علي ان العباس ذكر حجابة البيت وهي لم تكن له دون السقاية التي كانت له، وأثر ابن عباس فيه تقدم معناه في تفسير الآيتين السابقتين

تقدم تفسير عمارة المسجد في اللغة والاصطلاح. والسقاية في اللغة الموضع الذي يسقى فيه الماء وغيره، وكذا الاناء الذي يسقى به؛ ومنه (جعل السقاية في رحل أخيه) سميت سقاية لانها يسقى بها، وصواعا لانها يكال بها كالصاع وهو يؤنث ويذكر. قال في اللسان (كغيره) والسقاية الموضع الذي يتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها (ثم قال) وفي الحديث «كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت» هي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والاسلام اهـ والحديث الذي ذكره ورد في بعض روايات خطبته ﷺ في حجة الوداع

وقال النووي في الاسماء واللغات مانصه: سقاية العباس رضي الله عنه موضع بالمسجد الحرام زاده الله تعالى شرفا يستقى فيها الماء ليشربه الناس وبينها وبين زمزم أربعون ذراعا، حكى الأزرقي في كتابه تاريخ مكة وغيره من العلماء ان السقاية حياض من أدم كانت على عهد قصي بن كلاب توضع بفناء الكعبة ويستقى فيها الماء العذب من الآبار على الابل ويسقاه الحاج فجعل قصي عند موته أمر السقاية لابنه عبد مناف ولم تزل مع عبد مناف يقوم بها فكان يسقي الماء من بئر كرادم وغيره إلى أن مات[1] ومن حصون خيبر اه

أقول وقد بني هذا المكان المسمى بسقاية العباس ولا يزال ماثلا الى الآن وهو حجرة كبيرة في جهة الجنوب من بئر زمزم وصف مؤرخو مكة مساحتها وبُعدها عن زمزم وعن الكعبة المشرفة

ويؤخذ من استعمال الكلمة أنها صارت اسم حرفة وكذا الحجابة وهي سدانة البيت وهما أفضل مآثر قريش[2] ولذلك أقرهما الاسلام، ومن المعلوم بالبداهة أن قول العباس: أناصاحب السقاية، وقول الناس فيه كقوله لايراد به أنه صاحب الموضع الذي كان يوضع فيه الماء المحلى بالزبيب أو التمر المنبوذ فيه، ولا ذلك الماء، انما المراد به أنه هو الذي يتولى ادارة هذا العمل وهو الاتيان بالزبيب او التمر ونبذه بالماء ووضع أوانيه في المواضع التي يردها الحجاج فيشربون منها، ومن العجب أن يغفل أي لغوي أو مفسر عن هذا المعنى ويقول بعضهم انها اسم لمكان السقي وبعضهم انها مصدر سقى او أسقى الخ

قال عز وجل ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ ﴾ مقتضى حديث النعمان بن بشير أن الخطاب هنا للمؤمنين الذين تنازعوا أي هذه الاعمال أفضل؟ ومقتضى حديثي علي

---

١) هكذا في نسخة بزيادة قوله: الى أن مات وباقي النسخ تحذف هذه الجملة فتنبه

٢) كالرفادة والسفارة والمنافرة والمفاخرة والايسار أي الاستقسام بالازلام والاموال المحجرة للاصنام

وابن عباس أن الخطاب للمشركين ، والاستفهام فيه للانكار ، وتشبيه الفعل بالفاعل والصفة بالذات كاسناد كل منهما إلى الآخر من ضروب الايجاز المعهودة في بلاغة القرآن كقوله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة) الخ وطريقة المفسرين في هذا معروفة وهي تحويل أحدهما الى الآخر ليتحد المشبه والمشبه به ، والمسند والمسند اليه ، فيقولون هنا : أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل العمارة للبيت أو فاعل كل منهما ومتوليه كمن آمن بالله واليوم الآخر الخ وهو الموافق لبقية الآية وما بعدها ، أو يقولون : أجعلتم هذه السقاية والعمارة كالايمان بالله واليوم الآخر الخ ؟ والاستفهام للانكار المتضمن لمعنى النهي. أي لا تفعلوا ذلك فإنه خطأ ظاهر كما بينه ما بعده . ونكتة هذا التعبير بيان أن هذا الفعل ليس كالفعل الآخر وأن الفاعل لكل منهما ليس كالآخر بل بينهما من التفاوت والدرجات ما بينه تعالى بياناً مستأنفاً بقوله ﴿لا يستوون عند الله﴾ إلى قوله (أجر عظيم) أي لا يساوي الفريق الاول الفريق الثاني في صفته ولا في عمله في حكم الله ولا في مثوبته وجزائه عنده في الدنيا ولا في الآخرة فضلا عن أن يفضله كما توهم بعض المسلمين وكما يزعم كبراء مشركي قريش الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس به كما قال تعالى (مستكبرين به سامراً تهجرون) على القول بأن الضمير في (به) للبيت وإن لم يسبق له ذكر في الآيات التي قبل هذه الآية ، قالوا لان اشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنهم قوامه وسدنته وعماره أغنى عن سبق ذكره ، وكانت العرب تدين لهم بذلك لامتيازهم عليهم به وبسقاية حجاجه وكذا ضيافتهم وإن لم تكن عامة كالسقاية لان الحاجة اليها لم تكن عامة اذ من المعلوم أن الحجاج كانوا ومازالوا أحوج إلى الماء في الحرم من الزاد لان كل حاج كان يمكنه أن يحمل من الزاد ما يكفيه مدة سفره الى الحرم وعودته بعد أداء المناسك ولا سيما العربي القنوع القليل الأكل ولكن لا يمكنه أن يحمل من الماء ما يكفيه كل هذه المدة ولا نصفها ، ولذلك كان أول شروط استطاعة الحج الزاد لامكانه مع كفالة أولي الامر في الحرم لتوفير الماء فيه ، وحكومة السنة السعودية في هذا العهد تزداد عنايتها في كل سنة بتوفير الماء ونظافته لمئات الالوف من الحاج . وأما سقيهم الماء المحلى فقد بطل منذ قرون كثيرة لانه صار

متعذراً لكثرتهم ، ولو كان ريع اوقاف الحرمين في الاقطار الاسلامية يضبط ويرسل الى حكومة الحجاز لامكنها إعادته ووضع نظام لتعميمه في مكة أو منى هذا — وان فضيلة البيت الحقيقية التي بني لاجلها هي عبادة الله وحده فيه بما شرعه كما يحب ويرضى ، وقد جنى عليه المشركون ودنسوه بعبادة غيره فيه، ثم بصد المؤمنين الموحدين له عنه، كما قال (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله) ثم اخراجهم إياهم من جواره لايمانهم بربوبيته وألوهيته تعالى وحده دون ما اشركوه معه كما قال للمؤمنين (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) وقال فيهم (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) فأي مزية تبقى مع هذه الجرائم لخدمة حجارته واحتكار مفتاحه وسقاية المشركين من حجاجه ؟ وأي ظلم أشد من هذا الظلم في موضوعه ؟

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ إلى الحق في أعمالهم ، ولا إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم، أي ليس من سنته في أخلاق البشر وأعمالهم أن يكون الظالم مهديا الى ماهو ضد صفة الظلم ومناف لها وهو الحق والعدل، لانه جمع بين ضدين بمعنى النقيضين،والقوم الظالمون أشد إسرافا في الظلم من الافراد وأبعد عن الهدى بغرورهم بقوتهم وتناصرهم . ومن أقبح هذا الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت وحفظ مفتاحه وسقاية الحاج على الايمان بالله وحده المطهر للأنفس من خرافات الشرك وأوهامه - والايمان باليوم الآخر الذي يزعها أن تبغي وتظلم ويحبب اليها الحق والعدل،ويرغبها في الخير وعمل البر، ابتغاء رضوان الله لا للفخر والرياء — وعلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس لاحقاق الحق وإبطال الباطل وترقية شؤون البشر في مدارج العلم والعمل . ومن المعلوم ان هذا الجهاد يشمل القتال والنفقة فيه وغيرهما من أنواع مجاهدة الكفار ، ومجاهدة النفس لابلاغها مقام الكمال . وهذه الجملة ظاهرة في الرد على المشركين، وإبطال تبجحهم وفخرهم على المؤمنين

ولما كان نفي استواء الفريقين ونفي اهتداء الظالمين إلى الحكم الصحيح في موضوع المفاضلة بينهما — وان اقتضيا بمعونة السياق تفضيل فريق المؤمنين المجاهدين على فريق

السدنة والسقائين — لا يعرف منهما كنه هذا الفضل ولا درجة أهله عند الله تعالى وكان ذلك مما يستشرف له التالي والسامع، بينه تبارك اسمه بيانا مستأنفاً يتضمن الرد على المؤمنين الذين تنازعوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال بعد الاسلام أفضل؟ فقال

﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ﴾ هذه العندية حكمية شرعية ومكانية جزائية أي أعظم درجة وأعلى مقاما في الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة في جوار الله، من اهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، الذين رأى بعض المسلمين ان عملهم افضل القربات بعد هداية الاسلام، ومن غيرهم من أهل البر والصلاح، الذين لم ينالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه المالي والنفسي. يدل على هذا العموم في التفضيل عدم ذكر المفضل عليه

(فان قيل) ان هذا التفسير يدل على ان مايفتخر به المشركون على المؤمنين من السقاية والعمارة له درجة عند الله تعالى ولكن درجة الايمان مع الهجرة والجهاد أعظم — وقد سبق في الآيتين اللتين قبل هذه الآية خلاف ذلك (قلنا) لامراء في كون هذين العملين من اعمال البر التي يكون لصاحبها درجة عند الله تعالى إذا فعلا كما يرضى الله، ولذلك أقرهما الاسلام دون غيرهما من وظائف الجاهلية، ولكن الشرك بالله تعالى يحبطهما ويحبط غيرهما من اعمال البر التي كانوا يفعلونها كما تقدم

﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ اي وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله الفضلى وكرامته العليا المبينة في الآية التالية دون من لم يكن مستجمعاً لهذه الصفات الثلاث، وان سقى الحاج وعمر المسجد الحرام، فثواب المؤمن على هذين العملين، دون ثوابه على الهجرة والجهاد المذكورين، ولا ثواب للكافر عليهما في الآخرة فان الكفر بالله ورسله وباليوم الآخر يحبط امثال هذه الاعمال البدنية، وان فرض فيها حسن النية، وقلما يفعلها الكافر إلا لأجل الرياء والسمعة

وههنا تستشرف النفس لمعرفة هذا الفوز المجمل فبينه تعالى بقوله ﴿ يبشرهم ربهم ﴾ في كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل، ثم على لسان ملائكته عند الموت ﴿ برحمة منه ﴾ أي رحمة عظيمة خاصة من لدنه عز وجل ﴿ ورضوان ﴾ أي نوع من الرضى التام الكامل

الذي لايشوبه ولا يعقبه سخط . يدل على هذا المعنى زيادة لفظ رضوان في المبنى على لفظ رضىً مع تنكيره ويؤيده الحديث الصحيح الآتي : ﴿ وجنات ﴾ تجري من تحتها الانهار في دار الكرامة وجوار الرحمن ﴿ لهم فيها نعيم مقيم ﴾ اي لهم فيها نعيم عظيم خاص بهم دون من لم يؤمن ولم يهاجر هجرتهم ولم يجاهد جهادهم ، مقيم دائم لايزول على عظمه وكماله الذي يدل عليه تنكير لفظه في هذا السياق ايضاً

﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي مقيمين في تلك الجنات إقامة دائمة أبدية ، أكد الخلود بالابدية لان معناه اللغوي طول المكث والاقامة كما قال (عطاء غير مجذوذ) وتقدم تفسير الخلود والابد في مثل هذا اللفظ مراراً

﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ أي لان ما عند الله تعالى من الاجر على الايمان والعمل الصالح واعظمه وانفعه واشقه الهجرة والجهاد عظيم جداً لا يقدر قدره غيره جل جلاله وعم نواله ، وناهيك بالايمان الكامل الباعث على هجر الوطن ، ومفارقة الاهل والسكن ، وانفاق المال الذي هو مناط رغائب الدنيا ونعيمها ، وبذل النفس التي هي العلة الغائية للبشر من وجودهم ، جهاداً في سبيل الله وهي الطريق التي شرعها ، والسنن التي سنها لاعلاء كلمته ونصر رسوله ، وإقامة ماشرعه من الحق والعدل لعباده ، فلا غرو ان يبشرهم بجميع أنواع الاجر والجزاء الروحية والجسدية . فالاجر الروحاني قسمان ، عبر عنهما بالرحمة والرضوان ، وهما رتبتان او درجتان ، نكرهما للدلالة على التنويع والتعظيم الذي نطقت به الآية الثانية ، فهذه الرحمة الخاصة ، تشمل مايخصهم به من العطف والاحسان في الدنيا والآخرة ، مما هو فوق رحمته العامة لكل الخلق ، التي وسعت كل شيء ، واما الرضوان وهو الاسم لكمال الرضاء كما تقدم فهو فوق نعيم الجنة كله ، فان الله يرحم من رضي عنه ومن لم يرض عنه ، وإن كانت رحمته لمن رضي عنه أعلى وأعظم ، والدليل على ان هذا الرضوان أعلى النعيم وأكمل الجزاء ، وانه يكون في الجنة أكبر نعيمها قوله تعالى في هذه السورة (٧٢ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم) فقد عطف الرضوان على ما قبله عطف جملة لاعطف مفرد للدلالة

على انه فضل مستقل فوق الجزاء الذي تقدمه في الوعد وهو الجنات وما فيها ـ فهذه الآية أبلغ في تعظيم شأن الرضوان الالهي في الجنة من آية هذا السياق ومن آية آل عمران التي أنزلت قبلهما (٣ : ١٥ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) ويؤيد ما قلناه من أن رضوان الله تعالى في الجنة فوق نعيمها كله ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي سعيد الخدري (رض) قال قال رسول الله ﷺ « ان الله يقول لأهل الجنة: يا اهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا يا ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»

ومن تنطع بعض الصوفية في فلسفتهم أنهم لا يطلبون من الله النجاة من النار ولا الفوز بالجنة وانما يطلبون النعيم الروحاني الاعلى فقط ، وهو لقاؤه ورضوانه ورؤيته عز وجل، وانها لفلسفة جهلية من نزغات منكري البعث الجسماني، مخالفة لنصوص كتاب الله تعالى وهدي رسوله ﷺ كما تقدم بيانه في غير هذا الموضع

وأكبر العبر للمسلم في هذا السياق أن البدع الطارئة على الدين يقصد بها في أول امرها ان تكون مزيد كمال في الدين تقوي اصوله وما شرع لأجله ثم ينتهي ذلك بهدم اصوله وما شرع له واقامة البدعة مقامها كما يعلم مما رواه البخاري عن ابن عباس في سبب عبادة قوم نوح لود وسواع ويغوث ويعوق ونسر من انهم كانوا قوما صالحين فصوروهم بعد موتهم لأجل الذكرى والاتباع ، ثم عبدوهم وعبدوا صورهم بالتعظيم والدعاء والتوسل والاستشفاع وغير ذلك، ثم صارت عبادة الله وحده منكرة عندهم ثم سرى ذلك الشرك في العرب وغيرهم، حتى آل الامر الى منع عبادة الله تعالى وحده في بيته الحرام ومنع المسلمين من دخوله لعبادته وحده كما تقدم ـ وهكذا شأن كل بدعة : يؤول امر أهلها إلى محاربة السنة وعداوة من يعتصم بها، وينكر البدع المحدثة التي لعن الرسول ﷺ أهلها، كما فعل ويفعل المبتدعون في تكفير الوهابية وغيرهم من دعاة السنة والمعتصمين بها او تضليلهم ،وقتالهم عند الامكان

فتاوى المنار

﴿ مسألة انشقاق القمر ﴾

(س ٣٨) من الشيخ عبد الرحمن الجمجمون بكفر مجر وغيره

(مقدمة للسؤال) كتب صاحب السعادة احمد زكي باشا الشهير مقالا في بعض الجرائد اليومية أنكر فيه انشقاق القمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأنكر ماروي في انشقاقه وادعى أنه من رواية كعب الاحبار وأمثاله من رواة الاسرائيليات، وأول آية أول سورة القمر بمثل ماأولها به بعض السلف والخلف خلافا للجمهور من كون الفعل الماضي فيها (وانشق القمر) بمعنى المستقبل كقوله تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) إذ اتفقوا على أنه بمعنى (سيأتي) ومثله كثير في التنزيل، ولكن كتابة احمد زكي باشا في المسئلة جاءت في سياق بحث تاريخي ولم تكتب بالاسلوب العلمي الاسلامي عند أهل الحديث والاصول ولا بما اعتاده هو من تحرير المسائل التاريخية والجغرافية فكان فيها مؤاخذات غير أصل المسألة، فتصدى للرد عليه كثير من علماء الازهر وغيرهم في صحف مصر وسورية، وكتب الينا كثيرون يسألوننا الرد عليه في الجرائد اليومية والمنار، ومنهم من كتب شيئاً ورغب الينا في نشره، ولكنه ليس من التحقيق الذي يليق نشره في المنار مع السكوت عنه، ولا يحسن نشره للرد عليه. وأول من طلب منا ذلك صديقنا الشيخ عبد الرحمن الجمجموني من كفر مجر وذكرنا بما كنا نشرناه في اثبات المسألة في المجلد السادس من المنار. ولما كان كل ما اطلعنا عليه من الردود على الباشا بمعزل من التحقيق في المسألة كما كان الذي كتبه في انكارها بمعزل من التحقيق أيضاً، رأينا أن الواجب علينا ان نكتب تفصيلا لما اجملناه في المجلد السادس فيها ونبنيه على سؤال الجمجموني، ونبدأ بعبارتنا هنالك وهذا نصها:

ورد ذكر هذه المسألة في الجزء الثاني من المجلد السادس المؤرخ في ١٦ المحرم سنة ١٣٢١ في جواب استفتاء من علي افندي مهيب الذي كان مفتشاً في إدارة مصلحة

التلغراف وهو الآن سكرتير وزارة المواصلات سأل فيه عما صح من معجزات نبينا ﷺ لاختلاف الناس فيه وهذا نص المسألة من تلك الفتوى (ص ٦٨ م ٦)

« ومن المروي في الصحيحين خبر انشقاق القمر روياه كغيرهما عن جماعة من الصحابة ، ودفع العلماء ما أعترض به من أن ذلك لو وقع لعرفه أهل الآفاق ونقلوه بالتواتر وان لم يذكروا سببه : بأنه كان لحظة وقت نوم الناس وغفلتهم ، وان القمر لا يرى في جميع الاقطار في وقت واحد لاختلاف المطالع ، وإن بعض المشركين لما قالوا : هذا سحر ابن أبي كبشة فانتظروا السُّفّار — وانتظروهم جاؤا فأخبروا بأنهم رأوا القمر من ليلتهم قد انشق ثم التأم — وبأنه يجوز أن يكون رآه غيرهم وأخبر به فكذبه من أخبرهم و خشي أن يكذبوه فلم يخبر ، وليس بضروري أن يراه في تلك اللحظة علماء الفلك على قلتهم في الجهة التي رؤي فيها

« ولكنني لا أذكر أن أحداً أجاب عن كون هذه المعجزة كانت مقترحة مع أن النبي ﷺ لم يعط الآيات المقترحة لانها سبب نزول العذاب بالامم إذا لم يؤمنوا . وقد روي أن انشقاق القمر كان بطلب كفار قريش ؛ ولا أذكر لهم أيضاً جمعاً بين آية (اقتربت الساعة وانشق القمر) وآية (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون) ولا بد من تأويل إحداهما وقد أول بعضهم الاولى فقط . وليس المقام مقام التطويل في هذه المباحث » اه

هذا ما كتبناه في تلك الفتوى وموضوعها ما صح سنده من الروايات في معجزاته ﷺ وهو خلاصة اصح الروايات في هذه المسألة وما اعترض عليها وما أجيب به عن الاعتراضات وما فيها من إشكال لم يجيبوا عنه . من غير مراجعة ولا نقل

وإذ قد اقتضت الحال الآن تحرير المسألة رواية ودراية فاننا نبدأ بالرواية فنقول

(١) الروايات في انشقاق القمر وعللها

زعم بعض العلماء المتقدمين أن الروايات في انشقاق القمر بلغت درجة التواتر وهو زعم باطل كقول ابن عبد البر الآتي انه نقله جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وان تلقاه الكثيرون بالقبول حرصاً على إثبات مضمونه كعادتهم في الفضائل والمناقب ودلائل النبوة . فأما الشيخان فالذي صح عندهما مسنداً على شرطهما انما هو عن

واحد من الصحابة (رض) يخبر عن رؤية وهو عبد الله بن مسعود (رض) وقد أخرجاه عنه كأحمد وغيره من طريق سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر ومن طريق الاعمش عن ابراهيم عن أبي معمر . وصح عندهما مرسلا من حديث أنس ابن مالك (رض) من طريق قتادة فقط ومن حديث ابن عباس (رض) من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة . وانما كان هذان الحديثان مرسلين لان الحادثة وقعت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين ولم يكن ولد عبد الله بن عباس ، وأما أنس فكان في المدينة ابن خمس سنين . والخلاف في الاحتجاج بالمرسل معروف ومن يحتج بمراسيل الصحابة مطلقاً يبني احتجاجه على انهم يروون عن مثلهم ولكن ثبت أن بعضهم كان يروي عن بعض التابعين حتى كعب الاحبار وعلى كل حال لا يصح في مراسيلهم ما اشترط في التواتر من الرواية المتصلة إلى من شاهد المروي . ورواية الشيخين المتصلة من طريقين فقط

ورواه مسلم من طريق شعبة عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عمر وهي احدى الطريقين عن ابن مسعود ، وليس فيها انه حدث عن رؤية وقد تردد الحافظ في هذه الرواية هل هي اسناد آخر عند مجاهد « أو قول من قال ابن عمر وهم من أبي معمر » ؟ . وقد روى الحافظ ان ابن عمر هاجر وهو ابن عشر سنين وفي رواية أخرى انه كان سنة الهجرة ابن ست

ورواه الامام احمد وتبعه ابن جرير والبيهقي عن جبير بن مطعم (رض) من طريق سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه فأما جبير فقد أسلم بعد عام الحديبية وقبل فتح مكة وقيل في الفتح . وقد كان مع المشركين في غزوة بدر وأسره المسلمون فسمع النبي ﷺ يقرأ سورة الطور قال: فكان ذلك أول ما دخل الايمان في قلبي ، وليس في حديثه انه رأى ولكن ظاهره انه كان مسلماً ، ولم يكن مسلماً ، ولو رأى ذلك في حال شركه لعده بعد اسلامه مما أثر في نفسه

وأما السند اليه فضعيف فسليمان بن كثير ضعفه ابن معين كما ضعف ولده محمداً الذي روى هذا الحديث عنه . وقال ابن حبان كان يخطئ كثيراً . وأما حصين بن عبد الرحمن فقد كان ثقة إلا انه تغير في آخر عمره

هذا أقوى ماورد من الاحاديث في هذه المسألة وعليها اقتصر الحافظ ابن كثير في تفسيره ورواها الترمذي في جامعه وغيره . ولها ألفاظ أخرى في التفسير المأثور وكتب الدلائل غربلها الشيخان واختارا ماأشرنا اليه وسنذكره بنصه، وذكر السيوطي في الدر المنثور سائر مخرجيها وألفاظهم وزيادتهم على الصحيحين فيها وزاد ماأخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: خطبنا حذيفة بن اليمان بالمدائن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (اقتربت الساعة وانشق القمر) ألا وان الساعة قد اقتربت، ألا وان القمر قد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا وان الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وان اليوم المضمار وغداً السباق اه . وابن جرير لم يذكر ان ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والراوي عن ابي عبد الرحمن عطاء بن السائب وعنه شعبة وابن علية واتفقوا على ان عطاء بن السائب قد اختلط في آخر عمره وتغير فلا تقبل رواية احد عنه في آخرته ولكن شعبة من قدماء الرواة عنه . وقد روى ابن المنذر انه أي حذيفة قرأ « وقد انشق القمر » والرواية تدل على ان هذا خطأ فانه قرأ الآية في خطبته كما رواها القراء بالتواتر ثم قال : ألا وان الساعة قد اقتربت ألا وان القمر قد انشق . وهذا من كلامه على انه تفسير . على ان امثال هذه الروايات الآحادية الغريبة لايثبت بها القرآن بل لابد من تواتره

(ب) اختلاف المتون في هذه الاحاديث

(١) في بعض روايات ابن مسعود في الصحيحين أنه قال انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى . وفي رواية اخرى انه قال انشق القمر بمكة وهو الموافق لرواية انس – وكذا جبير بن مطعم – فانه قال : ونحن بمكة . وفي رواية ثالثة لم يذكر المكان . قال الداودي ان بين الحديثين تضاداً . وأجاب الحافظ ابن حجر بان التضاد يدفع بارادة انهم كانوا عند انشقاقه بمكة أي قبل ان يهاجروا إلى المدينة . ومنى من جملة مكة لانها تابعة لها . وذكر في رواية ابن مردويه عنه انه قال : ونحن بمكة قبل ان نصير إلى المدينة . ولكن هذا اللفظ لايقال الا اذا كان ذلك قبيل الهجرة . وفي الدر المنثور : اخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في

الدلائل عنه أنه قال رأيت القمر منشقا شقتين بمكة قبل ان يخرج النبي ﷺ شقة على ابي قبيس وشقة على السويداء .

ثم قال الحافظ : والجمع بين قول ابن مسعود تارة بمنى وتارة بمكة إما باعتبار التعدد إن ثبت (نقول وهو ينفيه) واما بالحمل على انه كان بمنى ومن قال كان بمكة لا ينافيه لان من كان بمنى كان بمكة من غير عكس . ويؤيده ان الرواية التي فيها بمنى قال فيها ونحن بمنى والرواية التي فيها بمكة لم يقل فيها « ونحن » وانما قال انشق القمر بمكة . يعني ان الانشقاق كان وهم بمكة قبل ان يهاجروا الى المدينة . وبهذا تندفع دعوى الداودي ان بين الخبرين تضادا والله أعلم . اه

وقوله رحمه الله إن ابن مسعود لم يقل في رواية مكة « ونحن بمكة » انما يصح في رواية الصحيح التي كان يشرحها وقد ذهل عما ذكره هو قبل ذلك في شرحه من رواية ابن مردويه عنه وفيها أنه قال « ونحن بمكة » على أن لفظ « نحن » لا ينقض ما ذكره من التأويل . وانما يبعده أن المتبادر من قوله « قبل أن نصير الى المدينة » انه كان بالقرب من الهجرة والمنقول أنه كان قبلها بخمس سنين كما ذكره الحافظ وغيره

(٢) ان البخاري أسند قول ابن مسعود : انشق القمر بمكة من رواية ابراهيم عن أبي معمر ثم قال وتابعه محمد بن مسلم عن ابن أبي نجيح عن أبي معمر عن عبدالله . وذكر الحافظ في شرحه أن هذه الطريق وصلها عبد الرزاق في مصنفه والبيهقي من طريقه في دلائل النبوة بلفظ : رأيت القمر منشقا شقتين شقة على أبي قبيس وشقة على السويداء - والسويداء بالمهملة والتصغير ناحية خارج مكة عندها جبال . اه وفي الصحيحين والترمذي وغيرهم عنه : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه . وفي رواية احمد وعبد بن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم عنه : رأيت القمر على الجبل وقد انشق فأبصرت الجبل من بين فرجتي القمر . وفي رواية ابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل من طريق علقمة عنه : كنا مع النبي ﷺ بمنى فانشق القمر حتى صار فرقتين فتوارت فرقة خلف الجبل فقال النبي ﷺ « اشهدوا »

وفي حديث ابن عمر عند مسلم والترمذي وغيرهما من طريق مجاهد وقد

تقدم: انشق فرقتين فرقة من وراء الجبل وفرقة دونه. والحافظ شك في صحة هذه الرواية عنه كما تقدم. وفي حديث جبير بن مطعم: حتى صار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل. وفي حديث أنس في الصحيحين وابن جرير — وتقدم — فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. وفي رواية عن ابن عباس عند أبي نعيم أن ذلك كان ليلة أربع عشرة قال فانشق القمر نصفين نصفا على الصفا ونصفاً على المروة.

فهذه بضعة ألفاظ يخالف بعضها بعضاً وقد تكلف الحافظ في الفتح الجمع بين قول ابن مسعود: شقة على أبي قبيس وهو بمكة وكونهم كانوا في منى فقال: يحتمل أن يكون رآه كذلك وهو بمنى كأن يكون على مكان مرتفع بحيث رأى طرف جبل أبي قبيس. ويحتمل أن يكون القمر استمر منشقا حتى رجع ابن مسعود من منى الى مكة فرآه كذلك وفيه بعد. والذي يقتضيه غالب الروايات أن الانشقاق كان قرب غروبه، ويؤيد ذلك اسنادهم الرؤية الى جهة الجبل، ويحتمل أن يكون الانشقاق وقع في أول طلوعه فان في بعض الروايات أن ذلك كان ليلة البدر — أو التعبير بابي قبيس من تغيير بعض الرواة لان الفرض ثبوت رؤيته منشقا احدى الشقتين على جبل والاخرى على جبل آخر. ولا يغاير ذلك قول الراوي الآخر: رأيت الجبل بينهما — أي بين الفرقتين، لانه اذا ذهبت فرقة عن يمين الجبل وفرقة عن يساره مثلا صدق أنه بينهما، وأي جبل آخر كان من جهة يمينه أو يساره صدق أنها عليه أيضا اه

وفي هذا الجمع ضعف من جهات أغربها دعوى احتمال رؤية جبل أبي قبيس من منى في الليل وناهيك بغرابة هذا القول في حال طلوع البدر من الشرق ومكة في جهة الغرب من منى؟ ثم ماذا يفعل بسائر الروايات

أبو قبيس هو الجبل المشرف على مكة من شرقيها وهي من جهة منى ويقابله قعيقعان من غربيها. وحراء هو الجبل الذي يرى في داخل مكة ويسمى الآن جبل النور وفيه الغار الذي كان يتعبد به النبي ﷺ وهو في الجهة الشمالية من مكة على يسار الذاهب منها الى منى فعرفات يبعد عن الطريق زهاء ميل ويبلغ ارتفاعه زهاء مائتي متر. ولا يرى من منى ورواية أبي نعيم عن ابن مسعود «رأيت

جبل حراء من بين فلقتي القمر » وأما السويداء فلا يعلم مكانها من تفسير الحافظ لها وفي معجم البلدان وكتب اللغة أنها موضع تابع للمدينة وفي المعجم أنها على بعد ليلتين منها، والحافظ ثقة في النقل. ومنى أعلى من مكة والمسافة بينهما ثلاثة أميال

وجملة القول أن الروايات الواردة في كون القمر انشق وهم في مكة لاتتفق مع الروايات المصرحة بأنهم كانوا في منى لان كل ماذكر في بعضها من التفصيل والبيان للجبلين اللذين أبهما في البعض الآخر يفيد انه لايمكن أن يراهما من كان في منى . فقول الداودي بتناقض الروايتين ظاهر، وما اعتمده الحافظ من الجمع بينهما مردود، ولذلك لجأ بعضهم الى تعدد الانشقاق وقد أبى الحافظ قبوله على إغماضه وتساهله في الجامع بين الروايات المتعارضة لان مدار اثباته على النقل ولم ينقل الا في رواية ضعيفة فيها لفظ مرتين وقالوا ان صوابه شقتين أو فرقتين وفاقا لسائر الروايات .

والقاعدة المشهورة عند العلماء في الادلة المتعارضة التي يتعذر الجمع بينها تساقطها ومن الدائر على السنتهم في المتعارضين كذلك « تعادلا فتساقطا » والقطعيان لايتعارضان . والافاضة في هذه المباحث ليست من موضوع هذه الفتوى

(ج) استشكال الرواية بعدم تواترها

ذكر علماء الاصول أن الخبر اللغوي مايحتمل الصدق والكذب لذاته وان أقسامه العقلية ثلاثة مايقطع بصدقه بالضرورة أو بالنظر الذي يؤدي اليها – وما يقطع بكذبه كذلك وما لا يقطع بصدقه ولا كذبه . . وذكروا أن مما يقطع بكذبه الخبر الذي لو كان صحيحا لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر اما لكونه من أصول الشريعة واما لكونه أمراً غريباً كسقوط الخطيب عن المنبر وقت الخطبة

ومن المعلوم بالبداهة أن انشقاق القمر أمر غريب بل هو في منتهى الغرابة التي لايعد سقوط الخطيب في جانبها غريباً لان الاغماء كثير الوقوع في كل زمن ومتى وقع سقط صاحبه خطيبا كان أو غير خطيب، وانشقاق القمر غير معهود في زمن من الازمان فهو محال عادة وبحسب قواعد العلم مادام نظام الكون ثابتاً، وان كان ممكنا في نفسه لايعجز الخالق تعالى ان أراده . فلو وقع لتوفرت

الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الامم ، ولو كان وقوعه آية ومعجزة لاثبات نبوة النبي ﷺ لكان جميع من شاهدها من أصحاب النبي ﷺ نقلها وأكثر الاستدلال والاحتجاج بها حتى كان يكون من نقلتها في رواية الصحيحين قدماء الصحابة الذين كانوا لا يكادون يفارقون النبي ﷺ ولا سيما في مثل هذه المواقف كالخلفاء وسائر العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم (رض) وقد علمت أنه لم ينقل فيهما مسنداً الا عن عبدالله ابن مسعود (رض) وأنه لم يقل ان ذلك كان آية بطلب كفار قريش وانما روى هذا أنس بن مالك وروايته مرسلة ليست عن مشاهدة كما تقدم ، وعلمت ما في الروايات في غير الصحيحين من العلل

وقد ذكر الحافظ هذا الاشكال في الفتح وأجاب عنه بما نصه :

« وأما قول بعضهم لو وقع لجاء متواتراً واشترك اهل الارض في معرفته ولما اختص بها اهل مكة (فجوابه) ان ذلك وقع ليلا وأكثر الناس نيام والابواب مغلقة وقل من يرصد السماء إلا النادر ، وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها، ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم » اه

تضمن جواب الحافظ عن هذا الاشكال جوابا عن إشكال آخر في معناه ذكره بعده مع الجواب عنه نقلا عن الخطابي أحد قدماء شراح صحيح البخاري وسيأتي.

ونقول في جوابه عن مسألة نقل التواتر (اولا) ان وقوعه في الليل وأكثر الناس نيام لا ينافي نقله بالتواتر ، إذ لا بد أن يكون رآه عدد يحصل بهم نقل التواتر ولو من اهل مكة انفسهم ولا يمكن ان يختص برؤيته بعض الافراد كما بيناه في توجيه الاشكال. وقد علم من بعض الروايات انه وقع في منتصف الشهر والقمر بدر ولا بد ان يكون ذلك في اول الليل كما ذكره الحافظ احتمالا وبه تظهر رواية كونه كان آية على صحة نبوته ﷺ . والظاهر من رواية التصريح بانهم كانوا في منى انه

ذلك كان في الموسم اذ لا يجتمع الناس في منى إلا في ايام التشريق وهي الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، وصرح بعضهم بانه انشق في الليلة الرابعة عشرة ، ولا يعقل أن يضرب للذين طلبوا منه (ص) الآية من كفار قريش آخر الليل موعداً ، على أنه لا فرق بين أول الليل وآخره من جهة اجتماع الناس من المسلمين والمشركين لانه لاقامة الحجة وهي لا تكون بالسر والاخفاء .

(ثانياً) ان المعلوم من عادة الناس في جميع البلاد أن يكونوا مستيقظين في اول الليل ولاسيما في الليالي البيض التي يكون القمر فيها بدراً يطلع من اول الليل وانهم يكثرون النظر اليه لجماله وخاصة في الاماكن الخلوية كمنى . وقد علمت انهم قالوا ان انشقاقه كان قبل الهجرة بخمس سنين . ومن راجع حساب السنين في ذلك لذلك العهد علم ان موسم الحج قبل الهجرة بخمس سنين كان في فصل الصيف

(رابعاً) ان التنظير بين انشقاق القمر والخسوف في غير محله لان الخسوف من الامور الكثيرة الوقوع التي لا يعنى جماهير الناس بذكرها وانما يهتم بها علماء الفلك دون غيرهم وهي ترى في بعض البلاد دون بعض ،وأصحاب التقاويم الفلكية السنوية المألوفة في هذه البلاد يذكرون في كل سنة ما لعله يقع في اثنائها من خسوف القمر وكسوف الشمس ويحددون وقته بالدقائق والثواني ويذكرون البلاد التي يرى فيها والتي لا يرى فيها لأن سببهما من الامور المعلومة بالقطع، ومنه يعلم انهما ليسا من الامور التي تعرض لجرم القمر والشمس، وانما سبب خسوف القمر ان الارض تقع بينه وبين الشمس فتحجب نورها عنه بقدر مايقع من ظلها عليه ، وسبب كسوف الشمس وقوع جرم القمر بينها وبين الأرض. وأما انشقاقه فهو صدع لجرمه يفصل بين أجزائه ، فاذا كان هذا الفصل واسعاً كالذي تصفه لنا الروايات السابقة فلا بد ان يراه كل من نظر اليه في كل قطر

(خامساً) ان قوله : ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض اهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم — لا يفيد في دفع الاشكال فان كل من يراه في المنزلة التي انشق فيها لا بد ان يراه منشقا بخلاف الخسوف كما علم مما قلناه آنفا

(د) إشكال خفاء الحادثة على جميع الاقطار

هذا الاشكال في معنى الذي سبقه او مؤكد له وقد أفرده علماؤنا بالذكر وأجابوا عنه وقد كفانا الحافظ رحمه الله مؤونة مراجعة ما كتبوه فجاء باحسنه وهاك ما أورده في هذه المسألة عقب ما نقلناه عنه فيما قبلها :

«وقال الخطابي انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الانبياء وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجا من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فليس مما يطمع في الوصول اليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر وقد أنكر ذلك بعضهم فقال : لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لانه أمر صدر عن حس ومشاهدة فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم اذ لا يجوز اطباقهم على تركه واغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره ، والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الامور التي ذكروها لانه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلا لان القمر لا سلطان له بالنهار ، ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياما ومستكنين بالابنية ، والبارز بالصحراء منهم اذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولا بما يلهيه من سمر وغيره ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين اليه لا يغفلون عنه فقد يجوز انه وقع ولم يشعر به أكثر الناس وانما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه ولعل ذلك انما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر.

« ثم أبدى حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن بما حاصله : ان معجزة كل نبي كانت اذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية فاختص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الافهام . ولو كان ادراكها عاما لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم ،

«وذكر أبو نعيم في الدلائل نحو ما ذكره الخطابي وزاد : ولا سيما اذا وقعت

الآية في بلدة كان عامة أهلها يومئذ الكفار الذين يعتقدون أنها سحر ويجتهدون في إطفاء نور الله (قلت) وهو جيد بالنسبة إلى من سأل عن الحكمة في قلة من نقل ذلك من الصحابة ، وأما من سأل عن السبب في كون أهل التنجيم لم يذكروه فجوابه أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نفاه وهذا كاف فإن الحجة فيمن أثبت لا فيمن يوجد عنه صريح النفي حتى إن من وجد عنه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الاثبات

«وقال ابن عبد البر قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم امثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير الى ان انتهى الينا ويؤيد ذلك بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر . ثم اجاب بنحو جواب الخطابي وقال وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين وأيضاً فان زمن الانشقاق لم يطل ولم تتوفر الدواعي على الاعتناء بالنظر اليه ومع ذلك فقد بعث اهل مكة الى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفار واخبروا بانهم عاينوا ذلك وذلك لان المسافرين في الليل غالباً يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك . وقال القرطبي : الموانع من مشاهدة ذلك إذا لم يحصل القصد اليه غير منحصرة . ويحتمل ان يكون الله صرف جميع اهل الارض غير أهل مكة وماحولها عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة ليختص بمشاهدته اهل مكة كما اختصوا بمشاهدة اكثر الآيات ونقلوها إلى غيرهم . اه وفي كلامه نظر لان احداً لم ينقل ان احداً من اهل الآفاق غير اهل مكة ذكروا انهم رصدوا القمر في تلك الليلة المعينة فلم يشاهدوا انشقاقه فلو نقل ذلك لكان الجواب الذي ابداه القرطبي جيداً ولكن لم ينقل عن احد من اهل الارض شيء من ذلك . فالاقتصار حينئذ على الجواب الذي ذكره الخطابي ومن تبعه اوضح والله اعلم اه

أقول قد علم مما تقدم آنفا ضعف الجواب عن هذا الاشكال كسابقه ونزيد عليه ما أرجأناه عمدا وهو قول الخطابي ومن تبعه لعل انشقاق القمر انما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر » فهذا الاحتمال هو الذي يمكن ان يعقل به احتمال عدم رؤية أهل الاقطار له حتى أهل مكة وكذا من كان في منى ولذلك

ذكرناه في تلخيص المسألة في المجلد السادس ، واذا أضيف إليه احتمال وقوع الرؤية في آخر الليل يزداد قوة - وقد يكون كل من الاحتمالين معقولا اذا اعتمدنا في المسألة ظاهر حديث ابن مسعود المسند المتصل في الصحيحين وماوافقه من أن انشقاقه لم يكن إجابة لاقتراح المشركين على النبي (ص) ان يريهم آية تدل على صدق دعواه ، ولا يعقل على رواية انس المرسلة في الصحيحين ومافى معناها فى غيرهما كما تقدم من أن ذلك كان آية مقترحة لان الله تعالى اذا اراد ان يؤيد رسوله (ص) بآية كونية عظيمة كهذه تكون حجة له على الناس فانه لايجعلها كطارفة عين يراها افراد قليلون فى آخر الليل وقد ران السكرى على اجفانهم بحيث يعذرون فى اتهام أبصارهم بهذه الرؤية كما ورد في بعض الروايات انهم قالوا ذلك . وجاء في بعض التفاسير انه وقع مثل ذلك ببعض المتأخرين فزعم انه رأى القمر قد انشق ومن المعلوم بالضرورة ان هذا تخيل، بل يجعلها آية مبصرة كناقة صالح لايمكن الشك ولا المراء الظاهر فيها

واما ماورد في غير الصحيحين من انتظار اهل مكة للسفار واخبارهم برؤيته منشقا فهو لايصح ولو صح لكان مؤيدا لاشكال توفر الدواعي على نقله متواترا أما الحديث فقد رواه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وكذا أبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة كلهم من طريق مسروق عن ابن مسعود وفي سنده عند ابن جرير المغيرة بن مقسم (بكسر الميم) الكوفي الفقيه وهو مدلس وقد عنعن فلايحتج بروايته. وأما تاييده لما ذكر من الاشكال فظاهر لان رؤية اولئك السفار له دليل على رؤية غيرهم من مسافر ومقيم وهم كثيرون وحينئذ لابد أن يرويه الكثيرون. ومن غرائب الاحتمالات التي تخيلها بعض المجيبين عن هذا الاشكال قول القرطبي الذي نقلناه عن الحافظ آنفا فحاصله مع ماقبله ان هذه الآية العظيمة جعلها الله تعالى في لحظة من آخر الليل وصرف عن رؤيتها أبصار جميع الخلق غير الذين كانوا مع النبي (ص) ليلتئذ وكذا بعض سفار المكيين على رواية شاذة !!!

الاستفتاء في حقيقة الربا

يعلم قراء المنار أن مسألة الربا أعظم المشكلات الاسلامية المدنية التي شغلت بال الحكام والزعماء والعلماء في هذا العصر. ولدينا أسئلة كثيرة في معاملات المصارف المالية (البنوك) والشركات والعقود التي فيها شيء مما يعده الفقهاء من المعاملات الربوية، وردت في تواريخ مختلفة وكنا نرجيء الجواب عنها الى فرصة يتاح لنا فيها حل هذه المشكلة بتفصيل يشمل هذه الفروع او يبنى عليه بيان حكمها. وقد فتحت لنا هذا الباب حكومة حيدر أباد الدكن الهندية الاسلامية منذ أشهر قليلة اذ نشرت في الامصار الاسلامية الكبرى رسالة في حقيقة المسألة وهي فتوى لبعض العلماء هنالك في محاولة تحرير الموضوع طبعتها الحكومة الآصفية ووزعت بأمر الصدارة العالية والمحكمة الشرعية فيها على العلماء المشهورين في الاقطار الاسلامية طالبة منهم بيان آرائهم فيها بالدليل الشرعي وإرسال الاجوبة بعنوان (معين صدر الصدور — محكمة الصدارة العالية) في تلك العاصمة. وقد أرسلت الينا ثلاث نسخ من هذا الاستفتاء واحدة خاصة بنا والاخريان لصاحبي الفضيلة شيخ الازهر والشيخ محمد بخيت أرسلناهما اليهما. وها نحن أولا ننشر نص الاستفتاء بحواشيه وبعد نشره نبين رأينا فيه ثم نشرع بعد ذلك في نشر تلك الاسئلة أو ما يغني منها عن غيره ونجيب عنها اجوبة مختصرة يغنينا تحرير حقيقة الربا عن الاطالة فيه ان شاء الله تعالى

وليعلم القراء اننا ننشر هذه الفتوى الطويلة مع حواشيها بنصها المطبوع

ولا نعني بتصحيح شيء منها ولا بالتعليق على مانراه منتقدا من عباراتها او معانيها في اثناء نشرها الا الفاظا قليلة للكاتب عذر فيها كرسم الربا برسم المصحف « الربوا » وكذا رسم الصلاة والزكاة بالواو وهي طريقة إخواننا مسلمي الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

(حامداً ومصلياً)

(ان اريد الا الاصلاح مااستطعت وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب)

وبه نستعين

اعلموا ان الله حرم الربا في القرآن بقوله جل ثناؤه (أحل الله البيع وحرم الربا) قال ابن كثير في تفسيره باب الربا من اشكل الابواب على كثير من اهل العلم اه. فلو لم يفسره الفقهاء المجتهدون — شكر الله مساعيهم — لما اتضح لنا حقيقته فعلينا ان ننقل ماروي عن ائمتنا في تفسيره :

قالوا ان الامة اتفقت على ان المعنى اللغوي ليس مراداً (١) في الآية لان الربا في اللغة الزيادة مطلقاً وهي اعم من كل زيادة . وظاهر ان كل فرد من افراد الزيادة ليس بحرام بل بعضها حرام . وبعد اتفاقهم عليه تشعبوا فرقتين فالائمة

---

(١) قال فخر الاسلام البزدوي في كشف الاسرار - أما المجمل فما لا يدرك لغة لمعنى زائد ثبت شرعا - قال شارحه البخاري - كالربا فانه اسم للزيادة وهي بنفسها ليست بمرادة اه (ص٤٣ - ج١) وقال في موضع آخر - ثم المجمل وهو ما ازدحمت فيه المعاني واشتبه المراد اشتباها لا يدرك بنفس العبارة بل بالرجوع الى الاستفسار ثم الطلب ثم التأمل وذلك مثل قوله تعالى (وحرم الربا) فانه لا يدرك بمعاني اللغة بحال وكذلك الصلاة والزكاة وقال شارحه - فان مطلق الزيادة التي يدل عليها لفظ الربا وكذلك الدعاء والنماء اللذان يدل عليهما لفظ الصلاة والزكاة لم يبقيا بمرادين بيقين ونقلت هذه الالفاظ الى معان أخر شرعية امامع رعاية المعنى اللغوي أو بدونه

وجمهور العلماء عينوا هذه الافراد بالسنة وهو الفضل الذي وردت السنة بكونه ربا فهو حرام عندهم اعني الفضل في البيع فالربا عندهم منحصر في البيع لاغير. وذهب البعض الى ان اللام في الربا للعهد والمراد به ربا الجاهلية، فالمآل على هذا التفسير ان القرآن حرم ربا الجاهلية ولما لم يثبت صورة ربا الجاهلية من حديث مرفوع متصل الى الآن لم يلتفت الائمة والجمهور اليه وقالوا ان ربا القرآن مجمل والحديث مفسر له. قال القاضي سناء الله في تفسيره المظهري: قال جمهور (١)

فلا يوقف عليه الا بالتوقيف كما في الوضع الاول (ص١٥٥-ج-١) وقال أيضاً لان المجمل ثلاثة أنواع نوع لا يفهم معناه لغة كالهلوع قبل التفسير ونوع معناه مفهوم لغة ولكنه ليس بمراد كالربا والصلاة والزكاة (شرح كشف ص ٥٤ ج - ١ وغاية التحقيق شرح الحسامي) ثم قال شارح الحسامي: كآية الربا فانها مجملة إذ الربا عبارة عن الفضل لغة والفضل نفسه ليس بمراد بيقين اذ البيع لم يشرع الا للاسترباح وتحصيل الفضل فان كل واحد من المتبايعين ما لم ير فضلا في البدل المطلوب له لا يبذل ملكه بمقابلته (غاية التحقيق) قال العيني في البناية: وليس المراد مطلق الفضل بالاجماع وان فتح الاسواق في سائر بلاد المسلمين للاستفضال والاسترباح اه (شرح هداية كتاب البيوع) وقال الجصاص الرازي بعد تصريح اجمال الربا لا يصح الاحتجاج بعمومه وانما يحتاج الى أن يثبت بدليل آخر أنه ربا حتى يحرمه بالآية اه أحكام القرآن (ص٤٦٤ ج - ١) *

(١) واليه مال الامام الشافعي رضي الله عنه والشافعية وأكثر المالكية قال الجصاص الرازي- وظن الشافعي أن لفظ الربا لما كان مجملا أنه يوجب اجمال لفظ البيع (أحكام ص٤٦٩-ج١) قال الامام الرازي في تفسيره الكبير: مذهب الشافعي أن قوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) من المجملات التي لا يجوز التمسك بها - ثم قال - وهذا هو المختار عندي فوجب الرجوع في الحلال والحرام الى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم (ص ٥٣٥ - ج ٢) قال العلامة التفتازاني في التلويح: والمجمل وهو ما خفي المراد منه لنفس اللفظ خفاء لا يدرك الا ببيان من المجمل سواء كان ذلك لتزاحم المعاني المتساوية الاقدام كالمشترك أو لغرابة اللفظ كالهلوع أو لانتقاله من معناه الظاهري الى ما هو غير معلوم كالصلاة والزكاة والربا - قال البغوي في معالم التنزيل: واعلم أن الربا في اللغة الزيادة قال الله تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال

العلماء هذا مجمل لان طلب الزيادة بطريق التجارة غير محرم في الجملة فالمحرم انما هو زيادة على صفة مخصوصة لاتدرك الا من قبل الشارع فهو مجمل وماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التحقه بياناً . قال الجصاص الرازي الحنفي : وهو (اي الربا) يقع على معان لم يكن الاسم موضوعا لها في اللغة — وبعد سرد الادلة على اجمال الربا قال — فثبت بذلك ان الربا قد صار اسماً شرعياً لانه لو كان باقياً على حكمه في اصل اللغة لما خفي على عمر لانه كان عالما بأسماء اللغة لانه من اهلها اه ثم قال : واذا كان ذلك على ماوصفنا صار بمنزلة سائر الاسماء المجملة المفتقرة الى البيان وهي الاسماء المنقولة من اللغة الى الشرع لمعان لم يكن الاسم موضوعاً لها

الناس - أي ليكثر في أموال الناس - فلا يربو عند الله) فطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام في الجملة انما المحرم زيادة على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا الحديث - وأورد في تفسير اجماله حديث عبادة ابن الصامت وقال في آخره : وهذا في ربا المبايعة - قال الشيخ عبد القادر الجرجاني في درج الدرر: الذين يأكلون الفضل في المداينات ، والربا في اللغة عبارة عن الزيادة والنماء وفي الشرع عبارة عن عقد فاسد بصفات معهودة والاصل فيه حديث أبي سعيد الخدري «الذهب» - الخبر - تلقته الفقهاء بالقبول فدخل في حيز التواتر اه وكذلك نقل السيوطي اجمال الربا . قال ابن رشد الفقيه المالكي في المقدمات قد اختلف في قوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة * ولله على الناس حج البيت * كتب عليكم الصيام) هل هي من الالفاظ العامة المجملة ؟ فمن أهل العلم من ذهب الى أنها كلها مجملة لا يفهم المراد بها من لفظها وتفتقر في البيان إلى غيرها (ص١٢١ -ج٣) وفي موضع آخر : وقد اختلف في لفظ الربا الوارد في القرآن هل هو من الالفاظ العامة يفهم المراد بها وتحمل على عمومها حتى يأتي مايخصها أو من الالفاظ المجملة التي لا يفهم المراد بها من لفظها أو تفتقر في البيان إلى غيرها ؟ على قولين والذي يدل عليه قول عمر بن الخطاب : كان من آخر ما أنزل الله تعالى على رسوله آية الربا فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفسرها لنا أنها من الالفاظ المجملة المفتقرة الى البيان والتفسير (ص٤١ - ج٣) *

في اللغة نحو الصلاة والصوم والزكاة اه[١] وفي جواب استدلال الشافعية عن كون علة الربا مأكولا قال الجصاص الرازي : فهذا عندنا لايدل على ماقالوا من وجوه (أحدها) ماقدمنا من اجمال لفظ الربا في الشرع وافتقاره الى البيان فلا يصح الاحتجاج بعمومه وانما يحتاج الى ان يثبت بدلالة اخرى انه ربا حتى يحرمه بالآية انتهى . وقال صدر الشريعة الحنفي : والمجمل كآية الربا فان قوله تعالى (وحرم الربا) مجمل لان الربا في اللغة هو الفضل وليس كل فضل حراما بالاجماع ولم يعلم ان المراد اي فضل فيكون مجملا ثم لما بين النبي صلى الله عليه وسلم الربا في الاشياء الستة احتيج بعد ذلك الى الطلب والتأمل ليعرف علة الربا في غير الاشياء الستة[٢] وكذا في شرح التحرير لابن الهمام وفي المسلم وفواتح الرحموت ومرقاة الوصول وشرحه مرآة الاصول وغيرها من كتب الاصول .

قال العلامة النسفي في كشف الاسرار : وكذلك آية الربا مجملة لاشتباه المراد وذا لايدرك بمعاني اللغة بحال فهو في اللغة الفضل ولكن الله تعالى ماأراده وقال العلامة نظام الدين الشاشي: المجمل وهو مااحتمل وجوهاً فصار بحال لايوقف على المراد الا ببيان من قبل المتكلم، ونظيره في الشرعيات قوله تعالى (وحرم الربا) قال ابن نجيم في فتح الغفار: وليس المراد أن كل مجمل بعد بيان المجمل يحتاج الى الطلب والتأمل فالصلاة بيانها شاف فلم تحتج الى تأمل بعده وبيان الربا غير شاف صار به المجمل مؤولا وهو يحتاج الى الطلب والتأمل كما في الكشف فالرجوع الى الاستفسار في كل مجمل والطلب والتأمل انما هو في البعض[٣] قال صاحب فصول البدائع في حكم المجمل : هو التوقف الى الاستفسار مع اعتقاد حقية ماهو المراد حالا ثم الطلب والتأمل ان احتيج اليهما كما في الربا فان حديث الاشياء الستة الحاصل من الاستفسار معلل بالاجماع[٤] قال عبد العزيز البخاري في شرح الاصول للبزدوي : والحاصل ان المجمل قسمان :ماليس له ظهور اصلا كالصلاة والزكاة والربا او ماله ظهور من وجه كالمشترك[٥]

---

(١) أحكام القرآن ص ٤٦٤ – ج ١ * (٢) توضيح قسم ثالث ص١٢٥ *
(٣) قلمي ص٧٩ * (٤) ج ٢ * (٥) ص ٤٣ – ج ١ *

واذا ثبت من هذه النقول ان الربا الذي وقع فى القرآن مجمل وثبت ايضاً أنه لايثبت منه حكم بدون تفسير الشارع عليه السلام فحينئذ علينا ان نحرر التفسير الذي ورد عنه عليه السلام وهو ماروى عبادة وابوسعيد وابوهريرة وعمر وغيرهم في بيع الاشياء الستة بصورة مخصوصة وقد جعله الفقهاء ايضاً بيانا للربا كما قال ابن عابدين في نسمات الاسحار: كبيان الربا بالحديث الوارد في الاشياء الستة. وفي نور الانوار: كالربا في قوله تعالى (وحرم الربا) فانه مجمل بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «الحنطة بالحنطة» الحديث. قال ابن امير الحاج في شرح التحرير لابن الهمام: كبيان الربا بالحديث الوارد في الاشياء الستة في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يداً بيد، فاذا اختلفت هذه الاصناف فبيعوا كيف شئتم اذا كان يداً بيد» ورواه مسلم عن ابي سعيد الخدري لفظه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يداً بيد فمن زاد [1] او استزاد فقد اربى الآخذ والمعطي فيه سواء» وكذلك يلحق في تفسير اجمال الآية حديث أسامة بن زيد «الربا في النسيئة» اخرجه مسلم

ولا يصح تفسيره بالحديث الذي روي عن جابر وعمرو بن الاحوص بلفظ «ان ربا الجاهلية موضوع واول ربا اضعه ربانا ربا عباس بن عبد المطلب» لانه لم يظهر تفسير ربا الجاهلية من حديث مرفوع متصل الى الآن حتى يكون بيانا له وكيف وهو مجمل كربا القرآن؟

*
* *

فعلى هذا حقيقة الربا الفضل الذي يكون في البيع سواء كان فضل عين او أجل فاذا بيع شيء من هذه الستة وما في حكمها من جنسه فالفضل والأجل كلاهما ربا واذا بيع منها شيء بغير جنسه فالاجل فقط ربا وهو ربا النساء وكذلك الزيادة على الثمن المؤجل اذا لم يقض الثمن عند حلول الاجل ربا وهو ربا النسيئة

(١) وفيه دلالة على أن الفضل مطلقاً رباً ولو من غير شرط *

ففي الاولى اي اذا وقع بيع جنس بجنس فلابد لجواز البيع من امرين : الاول المساواة في الكيل اوالوزن والثاني قبض البدلين في المجلس

وفي الثانية اذا كان الجنسان من هذه الاشياء الستة وما في حكمها مختلفين فلا يشترط ههنا الا القبض في المجلس ولا يشترط المساواة كيلا او وزناً

(وفي الثالثة) اي اذا كانت الاشياء من غير هذه الستة وما في حكمها لا يجوز الفضل على الثمن المؤجل بعد حلول الاجل ان لم يقض هذا الثمن بمقابلة الاجل

والاصل فيه ان المتبايعين يريدان المساواة في البدلين وعليه مدار عقد البيع فلهذا وضع لها الشارع عليه السلام اصولا وقوانين يعرف بها المساواة والفضل الذي يحكم عليه الشرع بأنه ربا (الاول) ان للنقد مزية على النسيئة (والثاني) اذا كان البدلان كيلياً او وزنياً فلا بد ان يكونا متساويين في الكيل اوالوزن (والثالث) اذا كان احد البدلين غير المكيل والموزون فما تراضى عليه العاقدان فهو بدل الآخر ومساو له .

ومن هذه الاصول يعلم ماجعل الشارع عليه السلام من الفضل ربا في البيع والشراء فالفضل والاجل كلاهما ربا في بيع المكيل بالمكيل والموزون بالموزون من جنسه لانه فضل حقيقة او حكما ولا دخل فيه لتراضي العاقدين والبيعين فان تراضى البيعين في امثال هذا البيع بالفضل او الاجل او بكليهما لا يصحح هذا البيع ويكون الفضل والاجل كلاهما ربا لقول النبي ﷺ «من زاد » أي اعطى الزيادة «او استزاد» اي طلب الزيادة «فقد اربى» وفي المدونة ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه راطل ابا رافع فوضع الخلخالين في كفة فرجحت الدراهم فقال ابو رافع هو لك انا احله لك فقال ابو بكر ان احللته لي فان الله لم يحله لي سمعت رسول الله ﷺ يقول « الذهب بالذهب وزناً ، بوزن والورق بالورق وزناً ، بوزن الزائد[1] والمزاد في النار»[2]

(١) فيه دلالة على أن الزيادة في القرض ليست بربا لانه لو كانت رباً لحرمت بدون شرط أيضاً ولم يقل به الفقهاء على أنه ثبت بالاحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم زاد وقت الاداء في القرض وأثنى على هذا كما سيأتي ان شاء الله تعالى ، وقال ابن عابدين في الدر المختار : فان الزيادة بلا شرط رباً أيضاً الا أن يبيحها على ما سيأتي (باب الربا كتاب البيوع ص ٢٧٤ — ج ٤ * (٢) (ص ١١٠ ج ٣) *

وعند اختلاف الجنس من هـذه الاشياء لم يجعل الشارع المساواة باعتبار التساوي كيلا ووزناً حتى لم يحرم في هذه الصورة الفضل كيلا أو وزناً لانه امر غير معقول بل جعل المساواة المطلوبة ماتراضى عليها العاقدان والبيعان من كون أحدها مساويا للآخر، نعم جعل للنقد مزية على النسيئة فيكون الاجل ربا ولا يعد التراضي فيه شيئاً بل يصير ملغى. واذا اختلف جنس البدلين من غير هذه الستة بأن يكون المكيل في طرف وغيره في طرف آخر فالمساواة المطلوبة هي ماتراضى عليها العاقدان ولم يكن الاجل ربا في هذه الصورة لانه خلاف القياس ونحوه ينحصر فيما ورد فيه النص بشرط ان يكون الاجل من احد المتعاقدين لامن كليهما لنهي النبي ﷺ عن بيع الكالىء بالكالىء واذا عين الاجل بالتراضي ، فاذا حل الاجل ولم يقض المديون وطلب النظرة وزاد بها في الثمن فتكون هـذه الزيادة ربا ايضاً لانه فضل على ماتراضى عليه البيعان اولا وجعلاه مساويا للآخر فهذه الزيادة لامحالة تكون بمقابلة الاجل ولا قيمة للاجل مستقلا عند الشارع فتكون هذه الزيادة فضلا محضاً وهو عين الربا

الحاصل ان هذه الاحاديث المفسرة لربا القرآن تدل على ان في بيع احد المتجانسين من الاشياء الستة وما في حكمها الفضل والاجل كلاهما ربا وفي بيع احد المتجانسين منها بخلاف جنسه الاجل فقط رباً لا الفضل وهو ربا النسيئة وفي البيع بثمن مؤجل ما يزاد على النسيئة اي الثمن المؤجل عند حلول الاجل بمقابلة الاجل ربا وهو الربا في النسيئة ، وجميع هذه الاقسام تنحصر في البيع. فالربا ثلاثة أنواع وكل منها حرام بالقرآن لان المجمل من الكتاب اذا لحقه البيان كان الحكم بعده مضافا الى الكتاب لا الى البيان في الصحيح (١) الاثنان منها ما يفسره حديث عبادة بن الصامت وابي سعيد وغيرهما . والثالث ما يفسره حديث اسامة بن زيد

قال القسطلاني في شرح البخاري: وهو (اي الربا) ثلاثة انواع ربا الفضل

---

(١) كذا في رد المحتار باب صفة الصلاة مبحث القعود الاخير (ص ٤٧٠)*

وهو البيع مع زيادة احد العوضين على الآخر وربا اليد وهو البيع مع تأخير قبضهما او قبض احدهما وربا النساء [١] وهو البيع لاجل وكل منها حرام [٢] قال صاحب تفسير السراج المنير : وهو لغة الزيادة وشرعا عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد او مع تأخير في البدلين او احدهما وهو ثلاثة انواع : ربا الفضل وهو البيع مع زيادة احد العوضين على الآخر وربا اليد وهو البيع مع تأخير قبضهما او قبض احدهما وربا النساء وهو البيع الى اجل . وفي هذه الاقوال دلالة واضحة على ان الانواع الثلاثة للربا منحصرة في البيع . فعلى هذا لا يوجد الربا في عقد خلا البيع . قال ابن كثير في تفسير سورة الروم: وقال ابن عباس الربا رباآن فربا لا يصح يعني ربا البيع وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها واضعافها [٣] وفيه تصريح منه رضي الله عنه على ان الربا الذي لايجوز هو ربا البيع فقط وماخلا ربا البيع فلا بأس به. قال العلامة العيني في شرح الهداية : ولما فرغ عن بيان ابواب البيوع التي امر الشارع بمباشرتها بقوله (وابتغوا من فضل الله) مع انواعها صحيحها وفاسدها شرع في بيان ابواب البيوع التي نهى الشارع عنها بقوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا) اه ثم قال وقال علماؤنا هو نوع بيع فيه فضل مستحق لأحد المتعاقدين خال مما يقابله من عوض شرط في هذا العقد . اه وكذا في العناية ولذا قال العلامة السرخسي في حده: وفي الشريعة هو الفضل الخالي عن العوض المشروط [٤] في البيع (مبسوط) وما قال صاحب الهداية اعني : الربا هو الفضل المستحق لاحد المتعاقدين في المعاوضة الخالي عن عوض شرط فيه ـ

---

(١) المراد به الربا في النسيئة بقرينة أنه سمى ربا النسيئة بربا اليد فلا محالة أن يسمى هذا بربا النساء وهو البيع نسيئة الى أجل ثم الزيادة عند حلول الاجل وعدم قضاء الثمن بمقابلة الأجل (٢) (كتاب البيوع ص ٢٢ — ج ٤) *

(٣) (ص ٣٤٨ — ج ٧) * (٤) قال ابن عابدين في شرح الدر تحت قوله (مشروط) تركه أولى فانه مشعر بان تحقق الربا يتوقف عليه وليس كذلك لان الزيادة بلا شرط ربا أيضاً اه ملخصاً ـ باب الربا

فيؤول اليه . قال شارحه : الربا هو الفضل الخالي عن العوض المشروط في البيع (عناية) وفي الملتقى : الربا فضل مال خال عن عوض شرط لأحد العاقدين في معاوضة [١] مال بمال . وفي العالمكيرية : الربا في الشريعة عبارة عن فضل مال لايقابله عوض في معلوضة مال بمال

قال صدر الشريعة في التوضيح : واما المخصوص بالكلام فعند الكرخي لايبقى حجة اصلا معلوما كان او مجهولا كالربا حيث خص من قوله (وأحل الله البيع) اه يعني ان البيع عام يشمل الربا وغيره وخص منه الربا فلو لم يكن الربا فرداً من افراد البيع وداخلا تحته كيف يصح تخصيصه من البيع ؟ قال فخر الاسلام البزدوي : وخص الربا من قوله (واحل الله البيع وحرم الربا) اه وقال ابن عابدين الشامي: كالربا خص من (احل الله البيع) بقوله تعالى (وحرم الربا) (نسمات)

قال الملا احمد جيون — نظير الخصوص المعلوم والمجهول قوله تعالى (واحل الله البيع وحرم الربا) فان البيع لفظ عام لدخول لام الجنس فيه وقد خص الله منه الربا وهو في اللغة الفضل ولم يعلم اي الفضل يراد به ؟لان البيع لم يشرع الا للفضل فهو حينئذ نظير الخصوص المجهول ثم بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « الحنطة بالحنطة والشعير بالشعير . والتمر بالتمر » الحديث (نور الانوار)

*
* *

خلاصة الكلام ان القرآن حرم الربا وكان لفظ الربا فيه مجملا والسنة الصحيحة فسرته بالاقسام التي كلها تندرج في البيع ولهذا خصص الفقهاء الربا بالبيع . قال العلامة الشاشي في حده : الربا هو الزيادة الخالية عن العوض في بيع المقدرات المتجانسة — وفي النقاية — الربا هو فضل خال عن عوض بمعيار شرعي بشرط احد المتعاقدين في المعاوضة (منح الغفار شرح تنوير الابصار)

قال محمد رحمه الله — والربا انما يتحقق في البيع لافي التبرع بعد قوله لان القرض اسرع جوازاً من البيع لانه مبادلة صورة تبرع حكماً اه (نشر العرف) قال شيخ الاسلام المرغيناني : وهو الربا يعمل في المعاوضات دون التبرعات

(١) وسيأتي أن القرض ليس بمعاوضة مالية

(كتاب الهبة) قال ابن عابدين ناقلا عن الزيلعي وهو (اي الربا) مختص بالمعاوضة المالية دون غيرها من المعاوضات والتبرعات (١)

وقال العلامة الشيخزاده في مجمع الأنهر في شرح ملتقى الابحر — وهو مختص بالمعاوضات المالية دون غيرها من غير المالية والتبرعات . وقال ملك العلماء العلامة الكاساني : فلا يتحقق الربا اذ هو مختص (٢) بالبياعات وعليه يدل ما مر عن المبسوط والهداية وغيرهما

فحينئذ ظهر ان النفع المعين المشروط في القرض ليس من الربا المنصوص لان الآية كانت مجملة لايفهم منها المراد والاحاديث المفسرة لها كلها في البيع لا في غيره ولهذا صرح فقهاؤنا بأن الربا يتحقق في البيع لا في التبرع ولعلهم انكروا (٣) كونه ربا نصياً كما يدل عليه ماقال ملك العلماء في البدائع . ولان

---

(١) (ص ٢٧٣ ج — ٤) كما سيأتي وظاهر أن القرض من التبرعات عند الفقهاء *

(٢) بدائع (١٩٣ ج — ٥) لان الربا هو الفضل والفضل والمماثلة اضافتان تقتضيان الطرفين فلا تحقق لهما بدونهما كسائر النسب والاضافات والطرفان لايوجدان بدون المعاوضة فلا يوجد الربا بدون المعاوضة أي بدون البيع وظاهر أن الطرفين لا يوجدان في القرض لان حكم رد المثل في القرض حكم رد العين كما صرح به الفقهاء والأصوليون قال العلامة الشامي ثم للمثل المردود حكم العين كانه رد العين اه (ص ٢٦٣ ج — ٤) واذا لم يتحقق الطرفان في القرض لا يتحقق الفضل فلا يوجد فيه الربا لان الربا هو الفضل *

(٣) وكذا أنكر ابن رشد الفقيه المالكي كونه ربا منصوصاً حيث قال في المقدمات : إن رجلا أتى عبدالله بن عمر فقال له يا أبا عبدالرحمن اني أسلفت رجلا واشترطت افضل مما أسلفته فقال عبدالله بن عمر ذلك الحديث بطوله — وقال رضي الله عنه : من أسلف سلفا فلا يشترط أفضل منه وان كان قبضة من علف فهو ربا اه — فهذا الفقيه ينكر كونه ربا منصوصاً حيث يقول : وتفسير ذلك (أي قول ابن عمر فانه ربا) إنه مقيس على الربا المحرم بالقرآن (ص ١٤٩ ج — ٣) وكذا العلامة البغوي ينكر كونه ربا نصياً حيث ذكر تحت آية الربا حديث عبادة ثم قال وهذا في ربا المبايعة ومن أقرض شيئاً بشرط أن يرد عليه أفضل منه فهو قرض

الزيادة المشروطة تشبه الربا[1] فلا يكون الشبيه بالربا عين الربا وايضاً يظهر من كلام العلامة العيني ان هذا النفع عنده ليس هو الربا المنصوص لانه يظهر من كلامه الذي سيأتي انه لم يظفر بحديث صحيح في هذا الباب بعد تجشمه وتفحصه مع سعة نظاره وكثرة اطلاعه على الحديث وطرقه ولو كان منصوصاً لم يحتج الى هذا التجشم والتفحص

والحديث الذي اخرجه صاحب (بلوغ المرام) عن علي وجرى على ألسنة العوام والخواص بلفظ «كل قرض جر منفعة فهو رباً» لا يجوز ان يقع تفسيراً للقرآن لانه غير ثابت ولا اصل له . قال ابن حجر فيه الحارث بن اسامة واسناده ساقط وقال الحافظ جمال الدين الزيلعي في نص الرواية : ذكره عبد الحق في احكامه في البيوع واعله بسوار بن مصعب وقال انه متروك . وكذا نقل عن ابي الجهم في جزئه ان اسناده ساقط وسوار متروك الحديث . قال البخاري في كتاب الضعفاء الصغير سوار بن مصعب منكر الحديث . وقال يحيى يجيء الينا وليس بشيء ، وقال النسائي وغيره متروك وكذا قال ابن الهمام في الفتح ولذا قال : أحسن ماههنا عن الصحابة [2] وعن السلف ، لان هذا الحديث عنده كان غير صالح للاحتجاج . وعلم منه انه ليس في الباب حديث صحيح قابل للاحتجاج

ونقل الحافظ ابن حجر في التلخيص عن عمر بن بدر انه قال في المغني لم

جر منفعة الخ مراده أن الآية في ربا البيع ، والنفع المستحصل بالقرض خارج عن حكم الآية فهو داخل تحت « كل قرض جر منفعة » وكذا العلامة الصوفي الشهير بالخازن ينكر كونه رباً منصوصاً حيث يقول - (المسئلة الرابعة) في القرض وهو من أقرض شيئاً بشرط أن يرد عليه أفضل منه فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو رباه - فانه لم يدخل النفع المعين للقرض تحت ربا القرآن بل أدخله في القرض الجار منفعة يعني أثبت له حكماً آخر بدليل آخر ولو كان عند هؤلاء الأعلام ان نفع القرض هو الربا المنصوص لم يحتاجوا إلى التأويل وأدلة أخرى وسيأتي الكلام عليه مفصلا ان شاء الله تعالى *

(١) (بدائع الصنائع ص ٣٩٥ ج - ٧)

(٢) واتفقوا على كراهته وهو دليل على عدم كونه ربا وإلا كان حراما

يصح فيه شيء اه . واما ما قال الغزالي وشيخه : انه صح ، قال الشوكاني في النيل لاخبرة لهما بهذا الفن — ويدل على هذا المعنى ماقال المفسر الخازن : (المسئلة الرابعة) في القرض وهو من اقرض شيئاً وشرط عليه ان يرد عليه افضل منه فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو ربا ويدل عليه ماروي عن مالك قال بلغني ان رجلا اتى ابن عمر الخ (١) لانه لو كان عنده حديث «كل قرض» صحيحاً قابلاللحجة لم يعدل عنه الى اثر ابن عمر . وكذا العلامة العيني نقل اولا تضعيف هذا الحديث عن غير واحد من الائمة ثم قال : قال الاترازي مع دعاويه العريضة : والاصل فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قرض جر نفعاً وسكت عنه . وكذا قاله الاكمل وسكت عنه مع انه (٢) كان في ديار الحديث وكتبه المنوعة والله اعلم (شرح هداية) وفيه دلالة على ان [هذا] الحديث ليس له طريق صحيح والالاتى به و كذا لو كان في معناه حديث صحيح لم يترك ايراده في هذا المقام . وكذا لا يصح (٣) تفسير اجمال الآية بالحديث (٤) الموقوف على عبد الله

(١) (ص ٢٠٤) (٢) غرضه منه أن هذا الحديث ضعيف لانه لو كان صحيحاً في طريق أو كان شيء من الاحاديث في الباب صحيحاً لاطلع عليه وأورده لانه كان في ديار الحديث وكتبه المنوعة *

(٣) قال السيد الجورجاني في رسالته : الموقوف وهو مطلقا ماروي عن الصحابي من قول أو فعل متصلا كان أو منقطعاً وهو ليس بحجة على الاصح اه *

(٤) أخرج البخاري هذه الرواية عن سليمان بن حرب وعن شعبة عن سعيد بن بردة عن أبيه واخرجه أيضاً عن أبي كريب عن أبي أسامة عن بريد عن أبي بريدة وليس فيه ذكر القرض ولا ذكر الربا ولكن قال ابن حجر : ووقعت هذه الزيادة في رواية أبي أسامة أيضاً كما أخرجه الاسماعيلي من وجه عن أبي كريب شيخ البخاري لكن باختصار عن الذي تقدم (فتح ص ٢٦٢ ـ ج ١٣) وأخرج البيهقي عن أحمد بن عبدالحميد عن أبي أسامة عن عبدالله بن أبي بردة عن أبيه وزاد فيه عن رواية البخاري ولفظه فقال : انك في أرض الربا فيها فاش وان من أبواب الربا أن أحدكم يقرض القرض إلى أجل فاذا بلغ أتاه به وبسلة فيها هدية فاتق تلك السلة وما فيها وأخرجه أيضاً عن شعبة باختلاف يسير ولفظه

ابن سلام الذي رواه بردة عند البخاري بلفظ : قال اتيت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال ألا تجيء فأطعمك سويقاً وتمراً وتدخل في بيت ؟ ثم قال انك بأرض الربا فيها فاش اذا كان لك على رجل حق فأهدى اليك حمل تبن او حمل شعير او حمل قت فلا تأخذه — لانه لابد للتفسير من بيان الشارع عليه السلام. وهذا الحديث [1] الموقوف ليس في حكم المرفوع وثانياً انه متروك العمل باتفاق الامة وثالثا تعارضه الاحاديث الصحيحة ورابعاً لما قال العلامة عبد العزيز البخاري في شرح كشف الاسرار للبزدوي في تفسيره البيان القاطع الذي يلحق المجمل : احتراز عما ليس بقاطع ثبوتاً او دلالة حتى لايصير المجمل مفسراً بخبر الواحد وان كان قطعي الدلالة ولا ببيان فيه احتمال وان كان قطعي الثبوت — وكذا اثر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي رواه يونس وخالد بن سيرين عن عبد الله بن مسعود انه سئل عن رجل استقرض من رجل دراهم ثم ان المستقرض افقر من المقرض ظهر دابته فقال عبد الله: ما اصاب من ظهر دابته فهو ربا ـ لما بينا ولما قال البيهقي: قال الشيخ احمد هذا منقطع (ازالة) لو قيل لم لا يجوز ان يكون هذا الاثر الموقوف في حكم الحديث المرفوع ؟ قلنا له شرط وهو ان لا يكون مدركا بالقياس وههنا هو مدرك بالقياس كما صرح العلماء بذلك . قال ابن رشد الفقيه المالكي في المقدمات : ان رجلا أتى عبد الله بن عمر فقال له يا ابا عبد الرحمن اني اسلفت رجلا واشترطت أفضل مما اسلفته .فقال عبد الله بن عمر: ذلك الحديث بطوله وقال رضي الله عنه من اسلف سلفاً فلا يشترط افضل منه وان كان قبضة من علف فهو ربا . اه فهذا الفقيه انكر كونه رباً منصوصاً وجعله رباً قياسياً كما يدل عليه قوله :وتفسير

على رجل دين فاهدى اليك حبلة من علف أو شعير أو حبلة من تبن فلا تقبله فان ذلك من الربا ـ قال ابن حجر: في رواية أبي أسامة ذكر الربا لكن فيه اختصار عن رواية شعبة وما روي البيهقي عن أبي أسامة فيه زيادة على رواية شعبة فافهم *

(١) قال ابن عابدين لان قول الصحابي اذا كان لايدرك بالرأي أي بالاجتهاد له حكم المرفوع (رسم المفتي ص ٤١) وسيجيء ان في هذا الحديث مجال القياس أكثر *

ذلك (اي قول ابن عمر فهو ربا) انه مقيس على الربا المحرم بالقرآن ربا الجاهلية اما ان تقضي واما ان تربي لان تأخيره الدين بعد حلوله على ان يزاد له فيه سلف جر منفعة [١] على ان الفقهاء لم يتمسكوا بهذا الحديث والاثر من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى زماننا هذا ولم يفتوا بحرمة امثال هذه المنافع مطلقاً بل اتفقوا على انها لا تكون ربا الا ان تكون مشروطة في العقد وهذا خلاف مادلت عليه هذه الآثار والاحاديث الواردة في هذا الباب لانها تدل على حرمة كل منفعة سواء شرطت او لم تشترط مع انها بدون الشرط جائزة بالاتفاق . قال العيني : وفيه مايدل ان المقرض اذا أعطاه المستقرض افضل مما اقترض جنساً أو كيلا أو وزنا ان ذلك [٢] معروف وانه يطيب له اخذه منه لانه صلى الله عليه وسلم اثنى فيه على من احسن القضاء واطلق ذلك ولم يقيده (قلت) هذا عند جماعة العلماء اذا لم يكن عن شرط منهما حين السلف وقد اجمع المسلمون نقلا [٣] عن النبي صلى الله عليه وسلم ان اشتراط الزيادة في السلف ربا .اه [٤]

قال ابن حجر في باب استقراض الابل تحت حديث ابي هريرة : وفيه جواز وفاء ماهو افضل من المثل المقترض اذا لم تقع شرطية ذلك في العقد فيحرم حينئذ اتفاقا وبه قال الجمهور اه ولما كان هذا الاثر من عبد الله بن سلام مخالفاً لما عليه الجمهور تأول ابن حجر قوله رضي الله عنه : فانه ربا وقال يحتمل ان يكون ذلك رأي عبد الله بن سلام والا فالفقهاء على انه يكون ربا اذا شرط نعم الورع تركه اه . وايضاً لما اخرج البخاري هذا الحديث بطريق آخر وليس فيه

---

١) (ص ١٤٩ ج ٣) * (٢) هذا دليل على أن الزيادة فى القرض ليست بربا ولو كانت ربا لم يفترق حكمها حين الاشتراط وعدمه كما مر عن العلامة ابن عابدين ، وأيضاً هذا مقتضى اطلاق الاحاديث فى هذا الباب حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم « الفضل ربا » مطلقاً بدون تقييد شرط وعدمه *

٣) واعلم أن العلامة العيني بعد شرحه للبخاري بكثير من الزمان شرح الهداية حين بلغ من عمره تسعين سنة واعترف فيه بأنه لم يثبت فى هذا الباب النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المعتبر لانه آخر أقواله ويؤيده الدليل * (٤) (عمدة القارى ص ٦٨٩ ج ـ ٥)

ذكر الربا فهناك قال ابن حجر: زاد البخاري في مناقب عبد الله بن سلام ذكر الربا، وهنا فسر الربا المراد في قوله رضي الله عنه بقوله: وان من اقترض قرضاً فتقاضاه اذا حل فأهدى اليه المديون هدية كانت من جملة الربا (١)

فثبت من هذه الاقوال انه لم يقل احد من العلماء: ان الفضل والزيادة اذا كانت غير مشروطة في القرض عند العقد انه ربا سواء كان في صورة الهدية أم في صورة العارية ام في غيرهما فهذا الاثر وما ورد نحوه غير معمول به عند الامة

وقد ذهب الجمهور الى جواز ما كان بدون شرط في العقد لما دلت عليه الاحاديث الصحيحة والحسان المحتج بها باعطاء الزيادة في ديون البيع والقرض أخرج الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لبلال «اعطه اوقية من ذهب وزده» فأعطاني اوقية من ذهب وزادني قيراطاً (٢)

ولفظ البخاري: فوزن لي بلال فأرجح في الميزان — قال النووي في شرحه: فيه استحباب الزيادة في اداء الدين وارجاح الوزن، وقد روى هذا الحديث فوق عشرة عن جابر. وايضاً قد صح عن النبي ﷺ اعطاء الزيادة في قرض الحيوان كما في حديث ابي رافع: قال استسلف رسول الله ﷺ بكراً فجاءته ابل من الصدقة قال ابو رافع: فأمر لي ان اقضي الرجل بكره فقلت لا اجد الا جملا خياريا رباعيا فقال رسول الله ﷺ «اعطه اياه فان خير الناس احسنهم قضاء» اخرجه مالك ومسلم والاربعة وكما في حديث ابي هريرة اخرجه الشيخان والترمذي مختصراً ومطولا: ان رجلا تقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغلظ له فهم به اصحابه فقال «دعوه فان لصاحب الحق مقالا واشتروا له بعيراً فأعطوه اياه – قالوا لا نجد الا افضل من سنه قال – اشتروه فأعطوه اياه فان خيركم احسنكم قضاء»

وايضاً قد صح عن النبي ﷺ انه اعطى الزائد في قرض الاموال الربوية أعني المكيل والموزون كما روى ابو هريرة قال: اتى النبي ﷺ رجل يتقاضاه

(١) هذا التفسير خلاف ما عليه الجمهور فلا بد له من بيان *

(٢) مسلم ص ٢٩ – ج ٢ *

قد استسلف منه شطر وسق فأعطاه وسقاً فقال «نصف وسق لك ونصف وسق من عندي» ثم جاء صاحب الوسق يتقاضاه فأعطاه وسقين فقال رسول الله ﷺ « وسق لك ووسق من عندي » اخرجه المنذري في الترغيب وقال رواه البزار واسناده حسن

ومن حديث ابن عباس قال : استسلف النبي ﷺ من رجل من الانصار اربعين صاعا فاحتاج الانصاري فأتاه فقال رسول الله ﷺ « ماجاءنا من شيء » فقال الرجل واراد ان يتكلم فقال ﷺ «لاتقل الا خيراً فأنا خير من تسلف» فأعطاه اربعين فضلا واربعين اسلفه فأعطاه ثمانين . قال البزار لم اسمع الا من احمد وهو ثقة . واخرجه المندري وقال اسناده جيد وقال الهيتمي رجاله رجال الصحيح خلا شيخ البزار وهو ثقة

ومن حديث ابي هريرة اخرجه البيهقي برجال الصحيح في السنن الكبرى قال : اتى رجل رسول الله ﷺ بسلف فاستسلف له رسول الله ﷺ شطر وسق فأعطاه اياه فجاء الرجل يتقاضاه فأعطاه وسقاً وقال « نصف لك قضاء ونصف لك نائل من عندي » وهذه احاديث صحيحة يحتج بها فلا يعارضها مثل حديث السوار المتروك والآثار الغير المرفوعة . واما كونه ربا عند الشرط فهو لايصح ايضاً لما روي من ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه راطل ابا رافع فرجحت الدراهم فقال ابو رافع هو لك انا احله لك فقال ابو بكر ان احللته فان الله لم يحله لي سمعت رسول الله ﷺ يقول «الزائد والمزاد في النار» او هكذا لان فيه دلالة على ان الزيادة بغير شرط ايضاً حرام اعنى ان الزيادة التي هي الربا شرعا حرام شرطت أو لم تشترط فلو كانت الزيادة في القرض ربا لكانت حراما بدون شرط ايضاً مع ان الزيادة في القرض بدون الشرط مباح باتفاق الامة فثبت انها ليست بربا

قال ابن نجيم في البحر : اذا لم تكن (١) المنفعة مشروطة فلا بأس به، وفي البزازية من كتاب الصرف مايقتضي ترجيح الثاني قال ولا بأس بقبول هدية الغريم واجابة دعوته بلا شرط . وكذا اذا قضى اجود مما قبض يحل بلا شرط اه كتاب الحوالة .

واما ماقيل انه لاحجة في اعطاء النبي ﷺ الزيادة في الديون والقرض لانه مخصوص به وهو امام وللامام حق العطاء فيكون مايعطي الامام حلالا، ففيه ان النبي ﷺ بعث ليقتدى به في كل فعل حتى يقوم دليل على اختصاصه به وليس هنا دليل على اختصاصه به ﷺ

وكذا لايصح تفسير اجمال الآية بحديث انس والآثار المروية عن ابي بن كعب وابن عباس، اما اولا فلانه ليس فيها ذكر الربا فلا يتعين ان النهي والامر بالاجتناب لكونه ربا، واما ثانياً فلما مر عن شرح كشف الاسرار بأنه لابد ان يكون مفسر اجمال القرآن قطعي الدلالة وقطعي الثبوت، وحديث انس وآثار ابي بن كعب وابن عباس لسن بهذه المثابة لا باعتبار الدلالة ولا باعتبار الثبوت

اما حديث انس فأخرجه ابن ماجه بلفظ « اذا أقرض احدكم قرضاً فأهدى اليه او حمله على الدابة فلا يركبه ولا يقبلها الا ان يكون جرى بينه وبينه قبل ذلك » والراوي فيه عن انس مجهول، وكذا فيه عتبة بن حميد الضبي البصري قال ابو طالب عن احمد هو ضعيف ليس بالقوي، وفيه اسماعيل بن عياش الحمصي وهو مختلف فيه وضعيف بالاجماع اذا روى عن غير أهل بلده، واخرجه ابن تيمية في المنتقى بلفظ «اذا أقرض الرجل الرجل فلا يأخذ هدية» وقال اخرجه البخاري في تاريخه فما ظفرت على سنده حتى احكم على جودته وصحته ليثبت منه الحرمة وليس ببعيد ان يكون مختصراً من حديث ابن ماجه فيعود الجرح والتعديل مع هذا هو خلاف ماعليه الامة من لدن رسول الله ﷺ الى يومنا هذا

(١) فيه أنه ثبت عن النبي ﷺ الزيادة في القرض وليس فيه أنه كان مع شرط أو بدون شرط فمن ادعى الحرمة بالشرط لا بد عليه من بيان لان الاحاديث في هذا الباب مطلقة ولا يجوز تقييدها بدون مخصص*

اما اثر ابي بن كعب أنه قال لزر بن حبيش : انك بأرض الربا فيها كثير فاش فاذا اقرضت رجلا فأهدى اليك هدية فخذ قرضك واردد هديته . ففيه كلثوم بن الاقمر مجهول، وكذلك ماروى ابن سيرين ان ابي بن كعب اهدى الى عمر بن الخطاب من تمر ارضه فردها فقال ابي لم رددت علي هديتي وقد علمت اني من اطيب اهل المدينة تمرة فخذ عنى ما ترد علي هديتي - وكان عمر أسلفه عشرة آلاف درهم - قال البيهقي هذا منقطع اي ليس بمتصل الى ابي ايضاً

وكذلك ماروى ابوصالح عن ابن عباس قال في رجل كان له على رجل عشرون درهما فجعل يهدي اليه فجعل كلما يهدي اليه هدية باعها حتى اذا بلغ ثمنها ثلاثة عشر درهما فقال ابن عباس لا تأخذ منه الا سبعة دراهم ، لان ابا صالح لم يسمع من ابن عباس فالرواية منقطعة . وكذلك ماروى سالم بن ابي الجعد كان لنا جار سماك عليه لرجل خمسون درهما فكان يهدي اليه السمك فأتى ابن عباس فقال قاصه بما اهدى اليك ، وأثر[1] فضالة بن عبيد مع ضعفه ايضاً ليس فيه لفظ الربا حتى يفسر به الاجمال بل لفظه: كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا، فظاهره يدل على نه ليس بربا بل له شبه من الربا وهذه الآثار والاحاديث كلها اخرجها البيهقي في السنن (للفتوى بقية)

---

١) أخرجه البيهقي بسند ابراهيم بن سعد عن ادريس بن يحيى عن عبد الله ابن عياش، وعبد الله بن عياش منكر الحديث وابراهيم لم يعرف حاله وكذا حال ادريس ويمكن أن يكون ادريس بن يحيى الخولاني ذكره ابن حبان في ثقاته وقال له مستقيم الحديث ان كان دونه ثقة وفوقه ثقات

هل هذه النهضة خاضعة لسلطان العلم

محاضرة الاستاذ عجاج نويهض في مدرسة النجاح الوطنية

(تابع ماقبله)

لأجل الوقوف إجمالا على شدة الحملة الحالية التي يقوم بها المبشرون على هذه الأمة اذكر لكم هذه الكتب، أرجوكم أن تنظروا اليها ، وهي هذه الرزمة الضخمة التي تباع في مكتبة واحدة من المكتبات . ونظرة عامة على اسم كل كتاب وروحه والغرض منه وعدد الطبعات التي طبعها كافية لكي تجعلنا نتصور وخامة العاقبة وهذه الكتب هي :

١ — (العالم الاسلامى اليوم)

The Moslim World Of To-day

وهو كتاب ضخم جمع ثلاثاً وعشرين مقالة مستفيضة لأشهر الكتاب التبشيريين، وهذه المقالات هي بصدد الانقلاب في العالم الاسلامى وان الفرصة سانحة لاخضاع المسلمين وسط هذا الانقلاب الى السلطة التبشيرية . وقد جمع هذا الكتاب ووضع له مقدمة وخاتمة الدكتور موط رئيس (المجلس التبشيري الدولي) ورئيس المؤتمر التبشيري العالمي الديني الذي عقد على جبل الزيتون منذ زهاء سنة ونيف وأمره لم يزل معروفا . وفى نهاية الكتاب المقررات التي كانت سرية أولا، وهي مقررات مؤتمر سنة ١٩٢٥ فى القدس التي نشرت وأذيعت واطلع عليها الناس . وكان لها في العالم الاسلامي ذلك الصدى البالغ . عدد صفحات هذا الكتاب (٤٢٠) صفحة . وهذه النسخة التي بيدي من الطبعة الأولى سنة ١٩٢٥

٢ — (العالم الاسلامي في الثورة)

The Moslim World in Revolution

مؤلف هذا الكتاب هو معاون القس الاكبر للحملة المصرية وقت الحرب، وقد كان مقيماً بمصر قبل الحرب ، وهو يقرأ و يكتب اللغة العربية ، ولما كان في الحملة المصرية كان يراقب تأثير الحرب في المسلمين وكيف كانوا يخضعون للسلطة الاجنبية العسكرية المتسلطة عليهم

ولب لباب كتابه في الباب السابع الموسوم بـ « الفرصة الجديدة للكنيسة » وقد طبع هذا الكتاب لتتولى توزيعه (ثماني جمعيات) تبشيرية هي أكبر الجمعيات من نوعها في العالم . وطبع هذا الكتاب سبع طبعات كما يلي :

الطبعة الاولى في مارس ١٩٢٥	أربع طبعات في سنة واحدة بل في ثمانية أشهر
الطبعة الثانية في يونيو ١٩٢٥	
الطبعة الثالثة في يوليو ١٩٢٥	
الطبعة الرابعة في نوفمبر ١٩٢٥	
الطبعة الخامسة في فبراير ١١٢٦	
الطبعة السادسة في يوليو ١٩٢٦	
الطبعة السابعة في نوفمبر ١٩٢٦	

هذا عدا الطبعات التي تلت نوفمبر ١٩٢٦ الى هذا التاريخ وعدد صفحاته ١٦٠ صفحة

٣ — (انتشار الاسلام)

The Expansion of Islam

مؤلف هذا الكتاب هو مؤلف الكتاب السابق (العالم الاسلامي في الثورة) والنسخة التي بيدي هي من أول طبعة لسنة ١٩٢٨

والغرض من هذا الكتاب لا يختلف في الجوهر عن سابقه ، غير أنه يطرق الموضوع من نواح أخرى ، ويتوسع في درس عوارض الاسلام الحالية العصرية ، وسوق نتيجتها إلى وجوب الاعتقاد ان الاسلام منحل متلاش وينطوي هذا الكتاب على ثلاثة عشر فصلا ، أخبث هذه الفصول (الفصل الثاني : الرجل محمد) وعدد صفحاته ٣٠٤ وفيه مصور جغرافي للعالم الاسلامي .

وفي هذا الكتاب مقدمة كتبها المستشرق مرغليوث، صاحب المؤلف المعنون ب(محمد) الذي ذكر فيه من النيل وسوء القصد ما يعلمه الذين يطالعون لهذا المستشرق كتاباته عن الاسلام ، واما الذين يظنون أن مرغليوث من (أهل الخبر) من المستشرقين بدليل ماطبعه من بعض كتب الادب والتاريخ فظنهم في غير محله . وفي هذا الكتاب الذي نحن في صدده الآن (انتشار الاسلام) قال مرغليوث مفتتحاً كلام مقدمته :

« لما اعلن مؤسس الاسلام ان مهمته ترمي إلى جعل نظامه (ظاهراً على الدين كله) فهو بلا شك قد عنى ان يكون ذلك الظهور غلبة ونصراً سياسياً على

الانظمة السياسية الاخرى التي كانت في الوجود في ذلك العصر » . ومرغليوث هو كما يعرفه الناس صاحب النظرية ان الشعر الجاهلي موضوع ، ويعرف الناس ايضاً ماكان لهذا الرأي في مصر من أثر .

٤ — (الاسلام الفتي في طريق السفر)

Young Islam on Track

هذا الكتاب يبحث في اصطدام الاسلام وحضارته وجهازه الاجتماعي بالحضارة المسيحية ، ويبين كيف تتخلل عناصر الحضارة المسيحية الحضارة الاسلامية وتلاشيها . وهو يتضمن سبعة فصول مشبعة اضرها الفصل الموسوم ب (ما هي الغاية ؟) وفي هذا الفصل يعلق المؤلف (باسيل مثيو) أهمية كبرى على انقلاب الازهر إلى جامعة إسلامية منظمة راقية ويخشى من وراء ذلك تجديد قوى الاسلام ، كما أنه قد انتقد حالة الازهر اليوم ووصف طرق التدريس فيه ونال منها كثيراً . وعدد صفحات الكتاب ٢٠٨ وفيه مصور جغرافي للعالم الاسلامي . أول طبعة منه كانت ١٩٢٦ وطبع بعد ذلك طبعتين في سنة ١٩٢٧ و١٩٢٨ ، والنسخة التي بيدي هي من الطبعة الاخيرة لسنة ١٩٢٨

٥ — The Story of Islam (سيرة الاسلام)

مؤلفه لنت تيودور السكرتير العام (لجمعية نشر التبشير في السودان من الناس) وكان سابقاً السكرتير التعليمي (للجمعية الكنسية التبشيرية) C.M.S. التي لها فرع في القدس وغير القدس في فلسطين

وهذا الكتاب طبع للمرة الثالثة سنة ١٩١٦ وهذه النسخة التي بيدي هي من طبعة ١٩١٦ . والغريب في أمر هذا المؤلف انه مقدم إلى جهة لم تخطر على بال أحد من أهل هذه البلاد ، وهذه عبارة التقديم بالحرف :

« مقدم إلى طلاب المدارس العامة في بلاد الانكليز ، الذين عليهم ان يقوموا إلى الآن بالدور المتعين عليهم القيام به في تبديل مستقبل سيرة الاسلام »

وفي هذا الكتاب ٢١٦ صفحة موزعة على ١٢ فصلا كلها سم ناقع . ومن بعض عناوين الفصول تعلم روح الكتاب ، فهناك الفصل الاول وعنوانه (النشء وكيفية تعليمه) وغاية هذا الفصل مربوطة بما جاء في عبارة التقديم المذكورة . وهناك الفصل الثالث عنوانه (نبي بلاد العرب) والفصل الخامس عنوانه (السيف المسلول) والفصل الحادي عشر عنوانه (الاسلام وكنيسة المسيح) وقد كتب

هذا المؤلف على طريقة خاصة قريبة من الطريقة المتبعة في تأليف كتب التدريس للصفوف الابتدائية في المدارس . وفي نهاية كل فصل اسئلة واجوبة لتمكين الطالب أو القارئ من (الحقائق) الموردة في ذلك الفصل

٦ — The Rebukeof Islam (توبيخ الاسلام)

قال صاحبه انه يعني بتوبيخ الاسلام مايلي : (ان الاسلام هو ابداً مذكر المسيحية بأنها عاجزة عن تمثيل الرب، اذ لو لم يكن هذا لكان يجب ان يكون محمد مسيحياً ، اما الآن فيجب رفع هذا العجز بالمبادرة إلى العمل لان العالم كله قد أصبح للمسيح)

وصاحب هذا الكتاب ينتمي إلى (الجمعية التبشرية الكنسية) التي تقدم ذكرها ولها فروع في هذه البلاد . ويقول المؤلف ان هذا الكتاب هو الطبعة الخامسة منقحة والنسخة التي بيدي طبعت سنة ١٩٢٠ .

وفي آخر الكتاب بيان للبلاد التي تنتشر فيها الجمعية المذكورة وهي كما يذكر البيان على الاجمال :

١ — الشرق الادنى

٢ — بلاد فارس

٣ — بلاد الهند وبلوخستان

٤ — البلدان الافريقية حيث يسكن المسلمون والوثنيون معاً كبلاد سيراليون، ونيجيريا ، وأوغنده .

وعند ما جاء ذكر نصيب فلسطين من «خير» هذه الجمعية قال البيان : (فلسطين انه وان كان في فلسطين عدد من الجمعيات العاملة فان الجمعية التبشرية الكنسية C. M. S. واضعة بالاكثر نصب عينها بذل الجهود للوصول إلى الاهالي المسلمين ، وقد كان للجمعية قبل الحرب سبعة مراكز كبيرة ، اما الآن فقد استؤنف العمل في غزة ، بناء على طلب السلطة العسكرية ، وفي القدس، والناصرة ، والسلط ، ويافا ونابلس، وعدد الموظفين المسلمين يبلغ ٤٢ موظفاً ، منهم الاطباء والممرضات »

وعند ماجاء ذكر مصر قال البيان :

(للجمعية خمسة مراكز في مصر ، والاعمال الطبية سائرة في مصر القديمة ومنوف ، وأم درمان . ودخل المستشفيات في مصر القديمة سنة ١٩١٨ (٨٠٠) مريض

ماعدا عدداً كبيراً من النساء . وفي السنة التي قبل شملت أعمال الجمعية أكثر من ٥٠٠ بلدة وقرية في مصر السفلى ، و ٤٥٠ بلدة وقرية في مصر العليا ، والكثرة المطلقة من هؤلاء المرضى كانوا يبقون في المستشفى يعالجون لا أقل من أسبوعين . وفي القاهرة مدرسة للصبيان فيها ١٨٠ طالبا ومدرسة للبنات يزداد الاقبال عليها و كثرة طالباتها من المسلمات ، ويزداد افتتاح مراكز التبشير على التوالي ، وفي مصر القديمة صارت السيدات المبشرات من الاستطاعة بحيث يتمكن من القيام بالدروس المسيحية توا بلا تهيب حتى بحضور شيوخ المسلمين)

ويقول البيان ان نتيجة التبشير في فارس كانت كما يلي :

من سنة ١٨٩٣ — ١٩٠٢ تنصر ٦٥ بالغاً ومن سنة ١٩٠٣ — ١٩١٣ تنصر ١٤٥ بالغاً والفرص تزداد سنوحاً وصار العمل اجدى نفعاً وأقرب ثمراً . عدد صفحات هذا الكتاب ٢٤٨ صفحة .

٧ — The Moslem Mentality (العقلية الاسلامية)

مؤلفه ل . ليفونيان مدير المدرسة اللاهوتية في اثينا سابقاً ، وكان قبل ذلك صاحب عمل في الاستانة . طبع هذا الكتاب لاول مرة سنة ١٩٢٨ وهو ضخم يقع في ٢٤٨ صفحة ، وقال مؤلفه ان الغرض منه البحث في كيفية تقريب المسيحية إلى ذهنية المسلمين . والمؤلف يعرف التركية ، وقد أسرف كثيراً في الطعن والقذف واعتدى على التاريخ اعتداء فظيعاً بايراده مسائل واموراً ليس لها ظل من الصحة

ويقول المؤلف قبل مقدمة الكتاب ، في الصفحة الاولى ، هذه الملحوظة وهي

لفت نظر

« حين كان هذا الكتاب يطبع ، حصلت أحداث هائلة في دستور الجمهورية التركية ، وأهم هذه الاحداث الغاء المادة التي تقول ان الاسلام دين الجمهورية التركية . وبالتالي تم فصل الدين عن الدولة بعد ما كانا نسيجاً واحداً لحمة وسدى وكان هذا الالتحام من فجر التاريخ الاسلامي اول مظهر تجلى به شكل الاسلام أنه عقيدة وعمل »

بيان الى العالم الاسلامي

(من جمعية حراسة المسجد الاقصى والاماكن الاسلامية المقدسة بالقدس)

اليهود يثيرون الفتنة الدموية في فلسطين طمعاً في البراق الشريف والمسجد الاقصى المبارك

ان «جمعية حراسة المسجد الاقصى والاماكن الاسلامية المقدسة» في القدس الشريف قياما بواجبها ازاء الفتنة الحالية التي سببها اليهود بتوالي اعتداآتهم على البراق الشريف - فجروا البلاد الى البلاء الشامل والخسارة العظيمة في النفوس والثمرات - تثابر على خطتها من الاخذ بكل الوسائل المشروعة الجائزة للدفاع عن البراق الشريف والمسجد الاقصى المبارك وسائر الاماكن الاسلامية المقدسة لصد كل طمع عنها يحاوله الطامعون، والجمعية تقوم بهذا من حيث تظل على صلة بالعالم الاسلامي وملوكه وامرائه واممه وصحفه وزعمائه واهل الغيرة والحمية من المسلمين بمواصلة ارسال الانباء عن الحالة وعما يجدُّ من الامور المهمة والحوادث الخطيرة . ليقف العالم الاسلامي على ذلك ويعمل وسعه لصيانة مقدسات المسلمين ودرء الاخطار عنها

وهذا موجز ماحصل الى اليوم في الاسابيع الاخيرة

١ — ضاعف اليهود في فلسطين جهودهم في الاسابيع الستة الاخيرة لامتلاك البراق ثم ليتدرجوا منه الى امتلاك المسجد الاقصى بحجة ان أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين هو هيكل سليمان . وبحجة ان الوطن القومي اليهودي يظل ناقصاً حتى يملك اليهود مكان الهيكل ، وبهذا يصرح كبار زعمائهم

٢ — عقد يهود العالم «المؤتمر الصهيوني العالمي السادس عشر» في زوريخ في اواخر شهر تموز (يوليو) واوائل آب (اغسطس) من هذه السنة وقد كان من محور المناقشات الحادة والمقررات الاجماعية في هذا المؤتمر استئناف العمل

وتحريض يهود العالم على بذل كل ما يستطيعون من قوة لاستعادة الهيكل ولو كلفهم ذلك كل عظيم

٣ — اعلن اليهود باسان مؤتمر زوريخ وبلسان زعمائهم السياسيين والدينيين وصحفهم وجمعياتهم انهم لا يرضون بما حدده لهم «الكتاب الابيض» الذي اصدرته منذ نحو عشرة اشهر الحكومة البريطانية من ان يظل القديم على قدمه، بحيث لا يجاوز اليهود زيارة الحائط الزيارة المعتادة، والبراق واقع في ملك الوقف الاسلامي البحت. ثم اعلن اليهود سخطهم على «الكتاب الابيض» واخذوا يجهدون بكل قواهم لحمل الحكومة البريطانية للعدول عن العمل بمقتضاه، وهي قد وضعته بعد درسها القضية درساً مدققاً استغرق عدة اشهر فضلا عما كان قد سبق لها ملاحظته ومشاهدته من عدوان اليهود على البراق اثناء السنوات الاخيرة

٤ — اثناء انعقاد مؤتمر زوريخ وبعده ظهر اليهود في فلسطين بمظهر المتعنت الطامع المحاول الباطل مما دل دلالة قاطعه وايدته الوقائع ان هناك خطة مدبرة وصلة وثيقة محكمة بين مقررات مؤتمر زوريخ والحوادث التي اقتحمها اليهود على اثره .

٥ — في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٤٨ — ١٥ آب (اغسطس) ١٩٢٩ سمحت الحكومة لليهود بأن يقوموا بمظاهرة فقاموا بها وكانت مظاهرة ظاهرها زيارة البراق ومرماها محاولة اظهار القوة لامتلاكه فمشوا من الحي اليهودي الذي يبعد من الحرم عدة كيلومترات الى البراق الشريف فاحتشدت المئات منهم عنده ورفعوا هناك العلم الصهيوني وخطب فيهم خطباؤهم خطباً هائجة عنيفة شتموا فيها المسلمين كثيراً . وحرضوا جماهيرهم على امتلاك البراق تدرجاً لاستعادة الهيكل .

٦ — وصدرت الصحف اليهودية ومناشير الجمعيات الصهيونية وكلها تحريض ونداء نحو هذه الغاية واصدرت حكومة فلسطين بعدئذ بلاغاً رسمياً بينت فيه ان القصد من مظاهرة اليهود المذكورة لم يكن كله لزيارة «المبكى» اي البراق زيارة دينية مجردة

٧ — في ١١ ربيع الاول — ١٦ اغسطس. قام المسلمون بمظاهرة كبيرة مقابلة لمظاهرة اليهود في اليوم السابق، فمشوا من المسجد الاقصى الى البراق الشريف اعلانا لتصميمهم انهم متمسكون بما لهم، مدافعون عن حقهم، وطيرت البرقيات الى الحكومة البريطانية وقدمت الاحتجاجات الى حكومة فلسطين شجباً لاعمال اليهود ومحاولاتهم المتكررة التي لا تنتهي الا بسوء العاقبة اذا سمح لهم بالمثابرة عليها

٨ — في ١٢ ربيع الاول — ١٧ اغسطس يوم مولد الرسول (ص) اعتدى اليهود على العرب المسلمين بالقرب من الحي اليهودي فجرحوا ١٣ عربياً ودافع العرب عن انفسهم ثم انقلب اليهود يغدرون بالمارة من العرب في حيهم يترصدونهم للايقاع بهم ليل نهار

٩ — في ١٦ ربيع الاول — ٢١ اغسطس كان اليهود ذاهبين بموكب كبير لدفن احد موتاهم الذي مات في مستشفى الحكومة متأثراً من جراحه التي أصيب بها في حادثة اعتداء اليهود السابقة فاجتمعوا مئات عديدة وخطبوا اخطباً مهيجة وشتموا المسلمين ولما وصلوا بالميت الى قرب دائرة البريد خارج المدينة القديمة عدلوا عن السير في الطريق العامة المعتاد سلوكهم فيها الى مقبرتهم وحاولوا ان يحدثوا حدثاً عظيما فأرادوا ان يدخلوا بالميت الاحياء الاسلامية كلها ويأتوا الى البراق قبل ان يدفنوه تحويلا لجنازة الدفن الى مظاهرة لم يسبق لها مثيل نوعا وشكلا، فصدهم البوليس البريطاني بالقوة وجرح منهم (٢٣) شخصاً كما افاد بلاغ الحكومة الرسمي.

وكان اليهود بعملهم هذا يرمون الى الفتنة صراحة. اذ من تقاليدهم التي يراعونها بحسب دينهم مراعاة شديدة انهم لن يؤخروا دفن ميتهم الى الصباح اذا كان مات قبل نصف الليل. غير انهم في هذه الحادثة ابطلوا العمل بتقاليدهم الدينية فأخروا دفن الميت الى قبيل ظهر اليوم التالى وكان موته عصر اليوم السابق طلباً لاسباب الشر والفتنة

١٠ — فهال اهالي فلسطين المسلمين ما اخذوا يرون في اليهود من التحكك

بنار الفتنة ومن الجرأة الغريبة في محاولتهم اقتحام البراق وامتلاكه والتصرف به تصرف المالك فاحتجت «جمعية حراسة المسجد الاقصى» و «جمعية فرسان البراق» و «جمعيات الشبان المسلمين» في فلسطين والهيآت الدينية على اعمال اليهود ومصارحتهم العرب العدوان مصارحة منافية للحق والقانون ومعرضة الامن العام في البلاد الى خطر كبير

١١ — في ١٨ ربيع الاول — ٢٣ اغسطس خرج المسلمون من صلاة الجمعة من المسجد الاقصى حسب العادة فلما وصلت زرافاتهم الى باب الخليل ذاهبين في طريقهم الى منازلهم واعمالهم وجدوا اليهود هناك على حالة مريبة جداً وكانت جماهير المسلمين التي خرجت الى جهة باب العامود قد رأت مثل ذلك من اليهود الساكنين في حي ميشوريم القريب . فسبق احد اليهود في باب الخليل الى الاعتداء بالقاء قنبلة، ثم اطلق اليهود الطلقات النارية على المسلمين فوقع المحذور ،وحصل اصطدام قرب باب العامود في الوقت عينه، فاتقدت الفتنة ولم يكن بايدي المسلمين الا بعض العصي يحملها الواحد منهم على عادته ،فأخذ الرصاص يدوي ولم تكن قوة البوليس كافية فاستمانت باطلاق النار على المسلمين فقتلت وجرحت منهم، واحتشد اليهود في مبانيهم الكبيرة في حي ميشوريم واخذوا يطلقون النار من النوافذ على العرب واستمرت الفتنة على اشدها عدة ساعات واقفلت المدينة وتوالى اطلاق الرصاص في اماكن عديدة. وفي العصر حلقت الطيارات وجيء بقوات البوليس من الخارج وفي الساعة السادسة اعلنت الحكومة منع التجوال من السادسة ونصف مساء الى السادسة صباحا وانقضى الليل والرصاص لم يهدأ حتى الصباح

ولم تزل الحالة في القدس الى هذا التاريخ غير اعتيادية رغم تكاثر القوة العسكرية وتحليق الطيارات يومياً فحوادث القتل والاعتداء يوالي مزاولتها اليهود في اطراف الاحياء التي يسكنونها ولم تنقض ليلة الى الآن منذ ١٨ ربيع الاول دون أن يثابر على اطلاق النار الليل كله اومعظمه في ضواحي المدينة

وبلغ عدد شهداء المسلمين في القدس العشرات ولم يمكن احصاء الاصابات احصاء مضبوطاً الى الآن وبلغ عدد الجرحى في القدس مبلغاً كبيراً

امتداد الفتنة الى انحاء فلسطين

في الخليل : وامتدت الفتنة الى الخليل يوم السبت ٢٩ ربيع الاول — ٢٥ اغسطس فقتل من المسلمين ثمانية وجرح عدد لم نعرف صحته بعد

في يافا : وحصل اصطدام عنيف في يافا يوم الاحد ٣٠ ربيع الاول — ٢٥ اغسطس فقتل وجرح من المسلمين برصاص الجنود البريطانية عدد لم يعرف بعد .

في حيفا : قام اليهود وباشروا مهاجمة العرب بالسلاح فدافع العرب عن انفسهم وعائلاتهم . وفي اليوم التالي وصلت البارجة البحرية «برهم» تحمل الجنود والطيارات والاعتاد الحربية فكان العرب بقرب الرصيف يشاهدونها وبينما هم على هذه الحال فاذا بجنود الدراعة يطلقون عليهم النار بغتة بلا سبب ولا انذار فقتل ٢٧ عربياً وجرح ٥٩

في بيسان وضواحيها : ووقع قتال في بيسان والاماكن المجاورة ولم تعرف تفاصيل الحوادث وعدد الاصابات بعد

في صفد : وحصل اصطدام شديد في صفد بين المسلمين واليهود مساء ٢٤ ربيع الاول — ٢٩ اغسطس لم تعرف تفاصيله بعد

في غزة والرملة : اشتد الاضطراب في غزة وقامت المظاهرات فنقلت الحكومة اليهود من هناك الى تل أبيب المستعمرة اليهودية الكبيرة قرب يافا وهاج مسلمو الرملة واللد والسبع هياجا كبيراً

في نابلس : ووقع اصطدام كبير في نابلس بين الاهالي والبوليس فجرح ٩ من المسلمين

في سائر أنحاء البلاد : وعم الاضطراب جميع انحاء البلاد من بئر السبع جنوباً الى الحولة شمالا .

(الشهداء والجرحى)

أخذت حكومة فلسطين تصدر نشرات رسمية منذ نحو اسبوع في بيان الحالة العامة في البلاد . وجاء في النشرة المؤرخة في ٢٩ اغسطس ان عدد الاصابات لغاية الساعة الثامنة من صباح ٢٨ آب حسب انباء المستشفيات مايلي :

	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
القتلى	٦٣	٤	٩٧	١٦٤
الجرحى الذين في المستشفيات	١١٣	٩	١٥٠	٢٧٢

الجرحى الذين خارج المستشفيات — لم يرد نبأ عن عددهم بالضبط

غير ان شهداء المسلمين وجرحاهم يفوق العدد الذي جاء في النشرة الرسمية المؤرخة في ٢٩ اغسطس لانه لم يمكن الى الآن القيام باحصاء دقيق لاصابات المسلمين . وقد قالت النشرة المذكورة ان هذه الارقام التي ذكرتها لا تشمل الاصابات التي اوقعتها القوات المسلحة في اخماد الاضطراب والتي لم تصل الى المستشفيات .

١٣ — ومع ان القوات العسكرية قد ازدادت بوصول النجدات من مصر ونزول قوات عسكرية من البارجتين اللتين رست احداهما في يافا والاخرى في حيفا فالحالة العامة في البلاد تسير باضطراب

(الفظائع تنزل بالمسلمين)

ثبت ان كثيراً من اليهود مسلحون وان كثيراً منهم في القدس كانوا يرتدون الالبسة العسكرية . ويتقلدون البنادق ، ويتصيدون العرب في الطرق والاماكن المنعزلة . وقد راع العرب تسلح اليهود وتخطفهم للعرب تحت هذا الزي وبعد الاحتجاج للحكومة عثرت الحكومة على بعض المتسلحين منهم

وتوزع الحكومة القوات العسكرية في البلاد بنشاط كبير . وقد كانت هائلة جداً الخطة التي باشرت القوات العسكرية العمل عليها من رمي المسلمين بالنار

رمياً بلغ حد الفظائع الرائعة بلا سبب وبلا انذار بل بحجة التفتيش دون ان يعثروا على اي شيء مما تفتش القوات عليه . وقد سقط اكثر شهداء المسلمين وجرحاهم برصاص الجيش البريطاني والبولس البريطاني ففي قرية (صور باهر) الواقعة في الضاحية الجنوبية في القدس ذهبت حملة عسكرية باكرا صباح ٢٨ اغسطس مجهزة بالرشاشات والدبابات والطيارات فأحاطت بالقرية واخذت تطلق النار من جميع الجهات فقتلت ثمانية منهم النساء والاطفال وجرحت تسعة وحصل شبه هذا في قرية قالوتيا في الضاحية الشمالية

ويجري من قبل المسلمين احصاء مدقق للشهداء والجرحى الذين يذهبون ضحية رصاص الجند البريطاني ويجري ايضا احصاء لاصابات العرب على العموم وسترسل اليكم التفاصيل بوقت قريب

١٣ طيارة فوق المسجد الاقصى

١٤ — وقد حلقت البارحة (٣٠ اغسطس) وقت صلاة الجمعة حين خروج المسلمين من المسجد الاقصى (١٣) طيارة وقامت بحركات مختلفة فوق الحرم القدسي الشريف اكثر من ساعة

المسلمون والمسيحيون يشتركون في الدفاع

١٥ — وتشكر جمعية حراسة المسجد الاقصى لاخواننا المسيحيين العرب وقوفهم واخوانهم المسلمين موقف المؤازرة والاتحاد الوطني في هذه الفتنة . فالبلاد لاهلها مسلمين ومسيحيين على السواء

اعانة عائلات الشهداء والجرحى

استنجاد العالم الاسلامي

ان (جمعية حراسة المسجد الاقصى والاماكن الاسلامية المقدسة) تدعو المسلمين بصفة عامة وأرباب الحمية والغيرة منهم بصفة خاصة والمهاجرين العرب الكرام في ديار المهجر الى ان يسعفوا عائلات الشهداء والجرحى الشهداء الذين ذهبوا

في سبيل اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين والجرحى الذين سالت دماؤهم في هذا السبيل المقدس في حين تستنجد الجمعية العرب والمسلمين عامة ليسارعوا الى الاحتجاج المتوالي على جناية اليهود في هذه الفتنة على ماتنزله القوات العسكرية البريطانية بالمسلمين الابرياء من الضربات العظيمة الذاهبة بالارواح بلا حساب

وسيظل المسلمون في فلسطين معتصمين بشرف السدانة الصادقة والحراسة الامينة للمسجد الاقصى المبارك والبراق الشريف وسائر الاماكن الاسلامية المقدسة (ان الله عزيز ذو انتقام) وهو (نعم المولى ونعم النصير)

جمعية حراسة الاماكن الاسلامية المقدسة

بيت المقدس ٢٦ ربيع الاول سنة ١٣٤٨ — ٣١ أغسطس ١٩٢٩

منشور المندوب السامي في فلسطين

حدثت الفتن الاخيرة في فلسطين والمندوب السامي البريطاني مصطافا في بلاده بالاجازة وقد تعجل العودة ولم يلبث بعد وصوله الى القدس أن نشر في البلاد بلاغا دل على تحيزه الى اليهود والصهيونيين هذا نصه)

عدت من المملكة المتحدة فوجدت ، بمزيد الاسى، أن البلاد في حالة اضطراب، فأصبحت فريسة لأعمال العنف غير المشروعة

وقد راعني ما علمته من الاعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الاشرار ، سفاكي الدماء ، عديمي الرأفة ، وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت في أفراد من الشعب اليهودي خلواً من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم وعما إذا كانوا ذكوراً أو اناثاً والتي صحبتها — كما وقع في الخليل — أعمال همجية لا توصف ، وحرق المزارع والمنازل في المدن وفي القرى ونهب وتدمير الاملاك

ان هذه الجرائم قد أنزلت على فاعليها لعنات جميع الشعوب المتمدنة في أنحاء العالم قاطبة

فواجبي الاول أن أعيد النظام الى نصابه في البلاد وان أوقع القصاص الصارم

حاولئك الذين سوف يثبت عليهم أنهم ارتكبوا أعمال العنف، وستتخذ التدابير الضرورية لانجاز هاتين الغايتين، وبناء عليه أطلب من جميع سكان فلسطين أن يساعدوني على القيام بهذا الواجب. ووفاقاً لتعهد أعطيته للجنة التنفيذية العربية قبل مغادرتي فلسطين في شهر حزيران المنصرم تباحثت في أثناء وجودي بانكلترة مع وزير المستعمرات بشأن اجراء تغييرات دستورية في فلسطين غير أني سأؤجل هذه المباحثات مع حكومة جلالته بسبب الحوادث الاخيرة.

ولكي أضع حداً للاخبار الملفقة التي ذاعت أخيراً حول موضع حائط المبكي (البراق) أعلن لعموم الاهالي بأنني عازم - وحكومة جلالته موافقة - على تطبيق المبادىء التي ينطوي عليها الكتاب الابيض الصادر في ١٩ تشرين سنة ١٩٢٨ بعد تقرير الطرق لتطبيقها

صدر هذا اليوم الاول من شهر ايلول سنة ١٩٢٩

المندوب السامي والقائد العام

ج. ر. تشانسلور

احتجاج اللجنة التنفيذية

للمؤتمر الفلسطيني على منشور المندوب السامي

على أثر المنشور الذي أصدره فخامة المندوب السامي مساء يوم أول أيلول الجاري أبرقت اللجنة التنفيذية العربية في فلسطين البيان التالي تعربيه الى فخامته.

اطلع عرب فلسطين بدهشة عظيمة على منشور فخامتكم الصادر في ١ أيلول ١٩٢٩ ولم يكن أحد منهم يتوقع أن يرى (اغفال) الحقائق التي عرفها القاصي والداني والتي اعترفت بها الحكومة وهي:

١ — أن أكثر اليهود كانوا مسلحين من أنفسهم.

٢ — أن الحكومة قد سلحت عدداً منهم

٣ — أنه لم يوجد في قتلى اليهود تمثيل أو تشويه حتى في الخليل كما يؤيد هذا تصريح ادارة الصحة العامة البريطانية في فلسطين.

٤ — أن بعض قتلى العرب قد مثل اليهود بهم.

٥ — أن جموع اليهود قد قتلت نساء وأطفالا من العرب على الانفراد.

٦ — أن اليهود هم الذين بدأوا في قتل النساء والاطفال من العرب .

٧ — أن الجنود البريطانية النظامية قتلت النساء والاطفال والرجال من العرب في بيوتهم وعلى فرشهم في قرية صور باهر وغيرها .

٨ — ان اضطرابات فلسطين السابقة والحالية انما هي ناشئة مباشرة عن السياسة البريطانية الصهيونية التي ترمي الى افناء القومية العربية في وطنها الطبيعي لكي تحل محلها قومية يهودية لاوجود لها.

كل هذه الحقائق لم يكن أحد من العرب يتوقع اغفالها في منشور صادر على عجل وسابق لأوانه، وتعلمون فخامتكم أن عرب فلسطين قد خسروا كل شيء من جراء هذه السياسة الصهيونية فلا يهمهم أي زيادة في الخسارة وعليه فان الجنود البريطانية ستجدهم عزلا من السلاح عندانزال أي ضربة بهم، فاذا كان لم يزل ثمة عدالة يحق للعرب أن يطلبوا انصبيهم منها، فهم يلحون بطلب اجراء تحقيق نزيه من قبل أشخاص من خارج فلسطين ، لايتأثرون أثناء قيامهم بواجبهم نحو العدالة بالنفوذ الصهيوني .

وان التحقيقين اللذين أجريا في فلسطين في ظروف مماثلة سابقة من قبل لجان بريطانية قد أظهرا للملأ مطالب العرب الحقة ومقاصدهم القومية النبيلة ، كما أظهرا مصائبهم السياسية .

ان العرب يعتقدون كل الاعتقاد أن تحقيقات نزيهة كتلك ستروي للعالم حكاية حالهم الآن في هذه الاضطرابات الحاضرة رواية أكثر صدقا مما صورتموه للعالم في منشوركم الصادر قبل اعطاء العرب فرصة لاستماع صوتهم . وعندئذ يرى العالم أن اليهود الذين تجاوزوا التحرش السياسي الى الديني، والذين أصبح تحرشهم في المدة الاخيرة مما لا يحتمل - كما صرحت بهذا الحكومة - والذين كانت أعمالهم الفظيعة في هذه الاضطرابات ينطبق عليها كلام فخامتكم في منشوركم بحق العرب، هم المسئولون أولا عن الاضطرابات الحالية السياسية التى تؤيد ثانياً .

وإن مثل هذا المنشور كان ينبغي اصداره بعد اجراء التحقيقات التي ينشدها العرب وليس قبل اجرائها، فلذلك نحن نتأكد أنكم لوأعدتم النظر في الحالة الحاضرة لوصلتم الى حكم عادل؟ في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣٤٨ الموافق ١٢ ايلول ٩٢٩

رئيس اللجنة التنفيذية العربية : موسى كاظم الحسيني

الامناء : مغنم الياس مغنم . عوني عبد الهادي . جمال الحسيني

احتجاج جمعيــة حراسة المسجد الاقصى والاماكن الاسلاميـة المقدسة

وجوابها على منشور فخامة المندوب السامي

جمعية حراسة المسجد الاقصى والاماكن الاسلامية المقدسة بالقدس تتلقى بمزيد الدهشة والاسف استعجال فخامتكم في اصدار منشور ١ ايلول سنة ١٩٢٩ الذي يحمل على العرب حملة غير عادلة مغفلا ما اقترفه اليهود في يافا والقـدس وغيرها وقام به الجنود البريطانيون في صور باهر وقالونية وحيفا من الفظائع والقتل في الاطفال والنساء والشيوخ من العرب وهم عزل من السلاح بعضهم عابر سبيل وبعضهم في بيته أو في صلاته وهي تلفت نظر فخامتكم الى ما يأتي:

١ — ان اصدار الحاكم في المنشور بناء على دعاية اليهود فقط ومن غير أن تسمعوا الطرف الآخر أو قبل أن يجري التحقيق من قبل هيئة عادلة غير متحيزة ولا متأثرة من النفوذ الصهيوني ، هو ليس من العدل .

٢ — إن تغاضيكم في المنشور عما اقترفه اليهود والجنود البريطانيون من الفظائع في هذه الفتنة وعدم تحميلكم المسئولية على المسببين والبادئين سيتلقاه العرب خاصة والعالم الاسلامي عامة بمزيد الدهشة والاستياء .

٣ — يخشى أن تكون لهجة المنشور قد فهم منها اليهود تحريضهم واغراءهم لانهم لم يكادوا يتلقون هذا المنشور حتى قاموا في ذات الساعة بالتعدي على أحمد محمد عوض من لفتا أثناء مروره في الطريق وهجموا عليه مئات يتناولونه بما في نفوسهم من غل لكماً وضرباً حتى قضى نحبه في ذات الليلة متأثراً من تلك الضربات الهمجية .

٤ — إن التسرع في الحكم القاسي يخشى أن يكون له أثره في الهيئات القضائية والهيئات التحكيمية مما يتنافى مع الرغبة في أن يأخذ العدل مجراه .

٥ — إن تهمة التمثيل في قتلى اليهود في الخليل ثبت لدى موظفي دائرة الصحة العامة من الانكليز بطلانها وفسادها وهي بلا ريب من أنواع دعايات اليهود الباطلة .

٦ — إن العرب عاشوا هم واليهود الوطنيين في هذه البلاد قرونا طويلة من غير أن يتعدى بعضهم على بعض أو يسعى فريق منهم لأن يجعل البلاد المقدسة التي هي مقر الاديان ومهبط الانبياء ميدانا لاثارة الفتن وإراقة الدماء ، فلا يصح أن يوصم فريق العرب الذي اعتدي عليه جهاراً وتحرش به علناً كما تعترف الحكومة فقام يدافع عن نفسه وعن نسائه وأطفاله الذين قتلوا ومثـل بهم وهم عزل من

السلاح ، فلا يصح أن يوصم هذا الفريق المدافع المعتدى عليه بالهمجية والتوحش وحب سفك الدماء ، وهذه القرون الماضية الطويلة شاهدة .

فكان من واجب العالم المتمدن الذي صبتم لعناته على غير مستحقيها أن يفتش عن السبب الذي جعل مهبط الانبياء ومقر الاديان ميدانا واسعاً للفتن فيسعى في ازالة هذا السبب باسم المدنية والانسانية وبذلك تعود فلسطين الى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة والاطمئنان .

٧ — نستغرب جداً أن يحمل المنشور في أمر التخريب والاحراق على العرب فقط ويغفل ما قام به اليهود من هذا القبيل وحرقهم ونهبهم بيوتاً كثيرة وتعديهم على مقام الصحابي المشهور (سيدنا عكاشة) وهدم قبره وقبر المجاهدين حوله واحراقها بعد تمزيق الستائر .

٨ — إن اليهود الذين أثار حماسهم وهاج هائجهم مقررات المؤتمر الصهيوني الذي عقد مؤخراً في زوريخ ، هم البادئون في الاعتداء والمثيرون لهذه الفتنة بالمظاهرة العنيفة التي قاموا بها في مكان البراق الشريف يوم ١٤ آب لأسباب لا تنحصر بالصلاة العادية وهم يحملون العلم الصهيوني ويخطبون الخطب كما جاء في بلاغ الحكومة الرسمي ، وكانت خطبهم تحمل أنواع السباب والشتائم للمسلمين ، ومن جهة أخرى ابتداؤهم في الاعتداء يوم ١٦ و ١٧ و ١٨ منه على العرب المنفردين في الاحياء اليهودية من رجال ونساء وأطفال ، وإن حوادث قتل النساء والاطفال بدأت منهم

٩ — إن العرب الذين لم تبق لهم السياسة الحاضرة ما يأسفون عليه من حق سيتلقون مسلمين بصدرهم وهم عزل من السلاح رصاص الجنود البريطانيين فيما إذا رأت الحكومة أن سياسة الوطن القومي تقضي بالبطش بهم وازهاق نفوسهم وإزالتهم من الوجود .

فالعرب مع احتجاجهم الشديد على هذا المنشور يطلبون أن تقوم هيئة عادلة من الخارج لا يجد النفوذ الصهيوني إلى وجدانها ازاء واجب العدل سبيلا بتحقيق دقيق في هذا الامر ، وحينئذ سترون فخامتكم أن لعنات العالم المتمدن ستنصب على المسببين وحدهم ، كما أنهم يأملون اصدار منشور آخر بعد اطلاعكم على فظائع اليهود في يافا والقدس وغيرها .

ونحن واثقون بأن كل تحقيق عادل يجري بهذا الصدد سيكون حتما لصالح العرب وسيظهر أن المسئول عن هذه الفتنة اثنان لا ثالث لهما :

الاول — اليهود الذين تجاوزوا بمطامعهم واعتداءاتهم كل حد حتى المقدسات والحقوق الدينية .

الثاني — السياسة غير العادلة وغير الطبيعية التي تعضد اليهود في مطامعهم واعتداءاتهم والتي قضت بتأخير تنفيذ الكتاب الابيض الصادر منذ عشرة أشهر . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

في ٢٩ ربيع الانور سنة ١٣٤٨ في ٣ ايلول سنة ١٩٢٩

جمعية حراسة المسجد الاقصى والاماكن الاسلامية المقدسة

[المنار] اذا كنا نعتقد اعتقاداً جازما عن بحث وروية أن الانكليز قلما اقدموا على عمل استعماري على جهل وقصر نظر كاقدامهم على جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود وانه لم يعرف في تاريخهم ظلم مشوه مفضوح كظلمهم في فلسطين . وأن هذا العمل الذي قصدوا به إضعاف الامة العربية وتقطيع أوصالها والحيلولة بين أقطارها المستعدة للوحدة لتسهيل استعبادها - هو الذي يرجى أن يأتي بضد كل ماارادوه من السوء والشر بالعرب . كما نعتقد اعتقادا دينيا واستدلاليا أن اليهود لن ينالوا ما يبغون من إعادة ملك اسرائيل في هذه البلاد - ونظن ظنا راجحا قويا ان الانكليز يعتقدون اعتقادنا هذا ، وأنهم يخدعون اليهود ليتخذوهم قوة لهم يهددون بهم العرب ويهددونهم بالعرب ، وانما كنا نخشى من دهاء الانكليز ومكر اليهود ان يسيروا في خطتهم المشتركة بالحكمة والصبر والرفق والمداراة الى أن يسلبوا من عرب فلسطين جل رقبة الارض ويجعلوهم كالاجراء فيها ، ولكن الله سلم ورحم العرب بهذا الظلم المفضوح من الانكليز ، وهذا العدوان الاحمق من اليهود ، فكان كل منهما مؤيدا لاعتقادنا ، وخاذلا للفريقين ومحبطا لكيدهما ومكرهما بنا ، فقد نبهت هذه الثورة الفلسطينية ما كان نائما من العصبية العربية والجامعة الاسلامية في الشرق والغرب وفي القلب الذي هو جزيرة العرب ، ولو قتل ألوف من العرب في سبيل هذه الغاية لكان قليلا . وقد كنا كتبنا في هذا الموضوع فصلا طويلا نرجئه للجزء التالي إذ لم له يتسع هذا الجزء

الآراء في مشروع الاتفاق الجديد

(بين مصر وانكلترة)

اتفقت الآراء على أن هذا المشروع الذي جاء به صاحب الدولة محمد محمود سليمان باشا هو أمثل من كل مشروع رضيت به الدولة البريطانية من قبل ، واتفقت أيضاً على أنه ليس بالاستقلال التام المطلق الذي ينشده الشعب المصري ، وكثر المؤيدون له في الصحف والمجالس من أفراد الشعب على اختلاف مشاربهم ومشاهدهم في السياسة ، وقل الناقدون له منهم

وأما الاحزاب فاختلفت أقوالها فيه : قبله الحزب الحر الدستوري بالطبع لالأنه يعده ثمرة لمفاوضة رئيس هذا الحزب للدولة البريطانية فقط ، بل لأن سياسة هذا الحزب مبنية على أساس الاتفاق مع هذه الدولة والقناعة منها باستقلال اداري واسع النطاق بقدر الامكان ، وما زال كبار رجاله موضع ثقة رجالها منذ أسس إلى هذا اليوم

قبله الحر الدستوري بعجره وبجره ، ووعد الحزب الوطني ببيان ماينطوي عليه من المضار والخطر ، وقرر حزب الاتحاد أنه صالح لأن يكون قاعدة لوضع معاهدة بين الدولتين . وكثير من الافراد المنكرين يقول بذلك بشرط أن يبين في المعاهدة مافيه من اجمال ، ويفسر ماأودعه من ابهام ، ويقيد بعض ماتضمنه من اطلاق . ووجوب تضمن صيغة المعاهدة لهذه الثلاث هو الذي أعقله وأراه

وأما الوفد أو الحزب السعدي الذي يمثل سواد الشعب الأعظم فأمسك عن بيان رأيه فيه وقال ان الحق في الحكم فيه للبرلمان المصري الذي يمثل الشعب التمثيل الصحيح الذي قرره قانونه الاساسي ، فهنالك تحت قبة البرلمان نبين رأينا فيه ، فتبارت أقلام حزب الوزارة وأقلام أشياعها في الطعن على الوفد وزعمائه ، وعاد السباب والقذع بأفحش الشتائم إلى شر مما كان في عهد الشقاق الاول بين السعديين والدستوريين الذي استمر الى عهد الائتلاف المعلوم

لقد كنت أخشى هذا وأحاذره متوقعاً له اذا وفق محمد محمود باشا بافتراص

سياسة وزارة العمال في انكلترة لاقناعها بانصاف مصر والاتفاق معها على ما يرضاه الشعب المصري ويحفظ به المصالح البريطانية ، فكتبت مقالة (الحالة السياسية العامة في مصر) التي نشرتها في الجزء الثاني الذي صدر بتاريخ غرة صفر (٨ يوليو) راجياً أن تكون بما قررته من الحقائق الناصعة المبرأة من الهوى والتشيع تمهيداً لائتلاف جديد نهائي يسعى له سعيه بعض الامراء والكبراء لخير مصر ومصلحة حاضرها ومستقبلها

وقد كان حاضر مصر إلى وقت كتابة تلك المقالة شر حاضر ينذر شر مستقبل: أمة مغلوبة على أمرها بالاستبداد البريطاني الذي سلبها ما اعترف به لها من الاستقلال بقرار الوزارة البريطانية وتصديق البرلمان البريطاني، وحكومة (دكتاتورية) عطلت الحكومة الدستورية وفضت برلمانها ، ورضيت أن تكون خاضعة لسيطرة أطغى مستبد بريطاني عرفته مصر لا يرضى أن يحل فيها ولا أن يعقد أمر من الامور الداخلية المحضة إلا برضاه ، دع ما يمس التحفظات من قرب، أو يومي، اليها من بعد ، تؤيده دولة معروفة بنقض العهود ، واخلاف الوعود ، ونكث الايمان بالتأويل ، الذي تتبرأ منه جميع اللغات والشرائع والقوانين . طردت الموظفين المصريين والجنود المصريين من السودان ، وانفردت بادارته وسياسته وحدها، من بعد ان كان ادعاؤها حق المشاركة لمصر في ادارته ظلماً واستبداداً لا مسوغ له ، فماذا عسى أن يكون مستقبل بلاد هذا حاضرها ؟

كان ذنب محمد محمود عند الوفد وسواد الامة من ورائه أنه رضي في هذه الحال السوءى التي تنذر المستقبل الاسوأ أن يتولى الوزارة ويقبض على عنق البلاد بيد من حديد ، وأن يتحلى بلقب (دكتاتور) وهو يعلم أن القوة السلبية في الامم الضعيفة تفعل ما لا تفعل القوة المادية التي يفوقها الخصم فيها أضعافا ، ويعلم أن أعظم مظهر لهذه القوة السلبية في مصر ما كان من امتناع رجال الحكومة كبيرهم وصغيرهم من ادارة الاعمال تحت سيطرة الحماية الانكليزية في ابان الثورة — وبهذا وحده علم الانكليز يومئذ أنه يتعذر عليهم إدارة أمور البلاد كما كانوا يديرونها في السنين الخالية باسماء الوزراء الوطنيين الجبناء الذين أطلق الاستاذ الامام على مجلس نظارهم

لقب (جمعية الصم البكم) وأنه كان يريد بهذه الوزارة القضاء على وحدة الامة المعتمدة على وفدها في السير الى الاستقلال المطلق كما قضى على حكومتها، وأن يقوي حزبه المشايع للبريطانيين في ثلاث سنين مقدرة ليكون صاحب الاكثرية في البرلمان الموعود به بعدها فيعمل للانكليز مايريدون

وكان عذر محمد محمود عند نفسه كما قال مراراً وعند المؤمنين بصدق وطنيته أنه لم يكن في ذلك الحين بد من الخروج من تلك الحالة السوءى بحكومة تتزاور عن ذلك الضغط البريطاني المرهق وتتحامى الوقوف في وجهه في إبان طغيانه، لانه يجرف كل مايصادفه أمامه لامحالة، وأنه كان يرجو أن يشاركه رجال الوفد في هذه الوزارة التي تألفت للنهوض باعباء الاصلاح الداخلي بمعزل من ميدان المناطحة مع الانكليز الى أن تتحول تلك الحال - ودوامها من المحال - وأنه لما خاب أمله وبرز الوفد لمكافحته اضطر إلى الكفاح كارهاً له، وقد سمعت من بعض هؤلاء المحسنين للظن فيه من يقول في أول العهد بهذا الكفاح إنه لو علم أن سيعجز عما كان يؤمل ويضطر إلى هذا النضال لما أقدم على تأليف الوزارة ... والله أعلم

من أجل ماذكرت هنا وهناك من الرأي في رجولة محمد محمود باشا ووطنيته مع العلم بقلة الرجال كنت أحب أن يقوم بماله من الحظوة عند الانكليز التي كانت تزداد مظاهرها آنا بعد آن بآخر تجربة في التوفيق بين مصلحتهم الاساسية في مصر واستقلالها المطلق مع سودانها مع عقد محالفة مرضية بينهما، وأن يتفق مع الوفد على ذلك سراً ان لم يكن جهراً، وان يعلق بقاءه في الوزارة على هذه المحالفة بان يستقيل إذا لم يقبلوا، ثم يتفق مع الوفد سواء قبلوا أو لم يقبلوا، وهذا هو الذي أملى علي تلك المقالة التي نشرتها في الجزء الثاني من منار هذا العام عالما انها لاترضي جمهور حزب الوزير ولاجمهور حزب الوفد لكراهة كل من الفريقين لانصاف الآخر والاعتراف باي مزية أو فضيلة له، وانما ترضى بالطبع محبي الحق والعدل والانصاف من كل منهما ومن غيرهما، ولا يعنيني بعد تحري مرضاة الله تعالى الا مرضاة من يحبون مايحب الله من الحق والعدل، والرجاء في سعيهم للاتفاق والصلح

وقد علمت أن بعض الكتاب من انصار الوفد انتقد المقالة في بعض

صحفهم على انني كنت فيها أقرب الى تأييد سياستهم الاساسية في المسألة المصرية كما انني كذلك في نفسي على انتقادي لبعض تصرفهم . ثم رأيت هذا المنتقد في النادي السعدي في أثناء إلمامة لي به، فبهتني بأنني صرحت في المقالة بعدم الحاجة الى مجلس النواب مطلقاً !! ولم يمنعه إنكاري لذلك وتأييد بعض قراء المنار من أعضاء الوفد الحاضرين لي في الانكار من الاصرار عليه، ولكنني علمت من غير واحد منهم ان النائب الذي طعن على القرآن في مسألة تعدد الزوجات لم يفه بذلك في المجلس كما قلت في المقالة وانما ذكره في مقالة نشرها في جريدة الاهرام ، قال بعضهم ولو قاله في المجلس لأقمنا عليه النكير ، فأنا استغفر الله من هذا الخطأ الذي كان عالقا بذهني مما قرأت من الرد على ذلك النائب الملحد ، ولو ظهر لي خطأ آخر لرجعت الى الصواب بعد ظهوره بكل ارتياح ، ولا أبالي من لا يرضيهم الا اتباع اهوائهم ، ومتى كان طالب الحق لذاته مقلداً للافراد، أو متعصبا للجماعات ؟ وانما أكتب احيانا في المسائل السياسية لاجل ان اسمع من استطعت من الناس صوت الحق فيها انْ لم من يقوله ، عسى ان أكون من الصديقين والشهداء

أعود بعد هذا الى مسألة الصلح بين الوفد ومحمد محمود باشا فأقول اخبرني بعض من قرأ مقالتي في الجزء الثاني انه قد وجد من سعى لها سعيها واجاهم عدلي باشا يكن فما افاد ذلك السعي نجاحا ولما حمل مشروع الاتفاق محمد محمود باشا في لندن ارسل بلاغا الى الجرائد قال فيه انه نال ما نال من النجاح بجهاد الامة وقوة الامة لا بحوله وقوته ، وانه يدعو الامة كلها الى النظر فيه بعيني المصلحة لمصر لا بالأعين الحزبية ، وانه لوح للمخالفين المعارضين له بغصن الزيتون فان جنحوا للسلم والاتفاق جنح لها ، والا فلا لوم لهم الا على انفسهم ـ او ما هذا معناه ـ وقام اناس آخرون يسعون للصلح، ولكن الجرائد المنتصرة لكل فريق قد إسرفت في الطعن وتوسيع مسافة الخلف ، وظل الوزير نفسه معتصما بعصبية حزبه ، فصار معنى الاتفاق خضوع الوفد له وقبوله ان تتولى وزارته امر انتخاب اعضاء البرلمان الجديد الذي له الحكم الفصل في مشروع الاتفاق المعروض من قبل الحكومة الانكليزية ليكون لها باستخدام نفوذ الحكومة وأموالها اعضاء

كثيرون من الدستوريين وغيرهم يشدون أزرها، ويمنحونها من الثقة مايرجى ان تثبت به وتكون هي التي تعقد المعاهدة مع الدولة البريطانية وتتولى تنفيذها ، فيتم بذلك مجدها ومجد أنصارها، ولعلهم بقوة نفوذ الوفد في الامة يريدون أن تضع هذه الوزارة قانونا للانتخاب يكون فيه على درجتين وتلغي القانون الذي وضعه البرلمان المقرر للانتخاب من قبل الامة مباشرة لان السواد الاعظم من الامة لايثق الا بالوفد، وتأثير نفوذ الحكومة في الافراد المعدودين المعروفين أدنى من تأثيره في الدهماء

والوفد يأبى أن تتولى هذه الوزارة (الدكتاتورية) المطلقة السلطان ،إعادة بناء ماهدمت من حكم الدستور والبرلمان ، بعد أن كان منها مايعدونه عليها من الاعمال ، ويصر على إسقاط هذه الوزارة ونوط أمر الانتخاب بوزارة حيادية تنفذ القانون الذي وضعه مجلس النواب الاخير، ويقول ان هذا المشروع الذي حمله محمد محمود من لندن لم يكن ثمرة مفاوضته ولا أثر سعيه، فانه صرح بأنه لم يذهب إلى أوربة لاجل المفاوضة في المسئلة المصرية وانها لم تكن تخطر له ببال، وانما المشروع ابتداع أتى من وزارة العمال الجديدة التي أخذت على عاتقها حل جميع المشكلات البريطانية الخارجية، أعطي له ليعرضه على الامة المصرية لانه صاحب الصفة الرسمية لا لأن له يداً فيه ، ويقول بعضهم إن الوزارة البريطانية عرضت عليه ثلاث صور للاتفاق اختار هذه الصورة منها، ومن المعقول أنه اقترح بعض التعديل والتنقيح فيها فقبل

وقد اقترح بعض أنصار هذه الوزارة أن تستفتي الامة في المشروع بجمع جمعية وطنية لهذا الغرض وحده ولكن الحكومة البريطانية لاترضى بهذا الاستفتاء لان شرطها أن تعرض على برلمان مصري قانوني فيكون له الحكم فيه، والذي استقر عليه حزب الوزارة وأنصارها أخيراً أن تؤلف وزارة ائتلافية من جميع الاحزاب والمستقلين ويبنى الانتخاب على قبول المشروع أو رفضه ،ويأبى الوفد هذا ويعده غير قانوني لانه يقيد حرية الامة ويفرض عليها أن تقبل المشروع أو ترفضه بنفس الانتخاب لا برأي البرلمان المنتخب

وجملة القول أن الوفد لم يصرح برأيه في مشروع الاتفاق وأنه يصر على رأيه الذي بيناه آنفاً ، وحزب الوزارة وأنصار مشروع الاتفاق منهم ومن

غيرهم يخشون في هذه الحالة أن ينتهي الامر برفض الاتفاق لان المنتظر أن يكون البرلمان الجديد وفديا كما سبق وأن يرد الاتفاق لان الفضل فيه لمحمد محمود باشا ، ولانه دون الاستقلال المطلق الذي أسس الوفد للسعي له، حتى ان رضاه بمادونه يعد سقوطا له . ويقال انه يرى أنه يمكنه الاتيان باتفاق خير للبلاد منه ، ومن الناس من يظن كما نظن أن البرلمان الوفدي لا يرده رداً ، ولكنه يتوخى خدمة البلاد بما يبين به ما فيه من اجمال ، ويوضح ما فيه من ابهام ، ويقيد ما تخشى مغبته مما فيه من اطلاق .

ولا يزال أكثر كتاب الانكليز يطعنون على الوفد ويؤيدون وزارة محمد محمود باشا وحزبه ، ومنهم من يتمنون فشل المشروع بالرد ، أو تأخير عرضه واستمرار هذه الوزارة على ماجرت عليه الى نهاية الاجل الذي ضربته لتعطيل الدستور وهو ثلاث سنين تبقى بها البلاد تحت سلطان الاحتلال عسى أن تأتي احداث الزمان بما يزيده قوة ورسوخا ، وان جمهور الجالية الانكليزية في مصر ومنهم مراسلو جرائد بلادهم على هذا الرأي أو الميل ، قد كبر عليهم انتهاء أجل الاحتلال واستقلال مصر في إدارتها الداخلية ، واعتزازها برفع ذل السيطرة الاجنبية عن رءوسها على ما يقيدها به المشروع الجديد من احتلال ضفة القنال ، وما في تقييد قوتها الحربية بالدولة البريطانية من سلاسل وأغلال ، ولكن الوزارة الانكليزية نفسها لا تظهر مثل هذه المحاباة ولا تضمر مثل هذا المكر

هذا واننا نرى رجال السياسة من الشعوب الاوربية وكتاب صحفها قد أكبروا مشروع هذا الاتفاق، وعدوه تسامحاً من الانكليز لم يكن في الحسبان ، وانه لولا رغبة وزارة العمال الصادقة في حل جميع الاشكالات الخارجية لما عرضت على مصر مثل هذا بعد أن كانوا يعدونها من مستعمراتهم وإن لم تسم بذلك

وأما مستقبل المعاهدة التي تعقد على أساس هذه التصريحات البريطانية فهو رهين بالطور السياسي الذي تكون عليه الدولة البريطانية ، فان عاد النفوذ الأعلى في برلمانهم الى حزب المحافظين على التقاليد الصليبية والاستعمارية الذين يطمحون إلى استعباد جميع الشرق ، والسيادة العليا على دول الغرب ، فستكون هذه المعاهدة «قصاصة ورق» فيخلقون من أحداث الزمان ما يستبيحون به نقض حبلها ، ونكث

قتلها ، كدأبهم فيما وصفهم به البرنس بسمارك من التفصي من المعاهدات بالتأويل وإن ثبت عندهم ان شعوب الشرق قد دخلت في طور جديد عرفت به نفسها، وانه لم يعد في الامكان أن تتصرف الدول القوية فيها كما تتصرف في العجماوات، وان الوسيلة الوحيدة لاستغلال ثروة بلادها أن يكون بالتراضي معها... فستكون هذه المعاهدة نافذة بحسن النية ، ووسيلة لمعاهدة تكون خيراً منها إما بعد انتهاء مدتها وإما قبل ذلك

هذا مانراه في مستقبل الاتفاق والمعاهدة التي تبنى عليه من الوجهة البريطانية وحدها. وأما الرأي فيه من الوجهة المصرية فهو يتوقف على أخلاق الشعب المصري وحالته النفسية ودرجة تأثيره في حكومته المستقلة عندما تكون تحت سيطرته وحده دون احتلال اجنبي، قبل توقفه على ماأوتي من علم بشؤون السياسة والادارة وسائر مايحتاج اليه الحكومة في هذا العصر . ولامجال للبحث في هذا الموضوع الآن

والخلاصة ان الذي يعتصر من آراء الوطنيين والاجانب في شأن المشروع يثبت أنه يجب قبوله على علاته بالقيد الذي أشرنا اليه في هذا المقال من بيان وتوضيح وتحديد في مسائل السودان والعسكرية وغيرها، وان قبوله أقرب وسيلة إلى نيل خير منه من رده ، وأمره موقوف على خطة الوفد وفقه الله تعالى لمافيه خير البلاد

الازهر الازهر والدين في هذا العصر

نشر في المقطم مقال لصاحب السمو الأمير محمد علي عنوانه (الدين في هذا العصر والجامع الازهر) كان له تأثير حسن في الجمهور الاسلامي بموضوعه ومكانة صاحبه فان كل مسلم يسره أن يرى من أمرائنا من يعنى بأمر الدين في هذا العصر الذي شغلت الامراء زينة الحياة الدنيا ولذاتها عن الدين ، لذلك أكبر المسلمون مقال الأمير محمد علي في الدين والأزهر وأثنوا بما يليق بمقام سموه ولم ينتقده في الجرائد إلا قليل منهم ولكن بما يليق بذلك المقام من حسن الأدب

بدأ الأمير مقاله بما رآه في ممالك أوربة « من الجنوب الى الشمال » من

الهمم المبذولة والعزم الصادق في اصلاح مافسدته الحرب العالمية من تجارة وصناعة وعلم وعمل ولاسيما الاستعداد للحرب ... وانتقل من ذلك الى ماهو أهم منه وأخفى على جماهير المسلمين في هذه البلاد وغيرها وهو مارآه في بلاد أوربة من التيار الديني الجديد الذي «يرمي الى ما كان للدين من شوكة وسلطان، وناهيك بما يبذله رجال الكنيسة وطوائف المبشرين العديدة ومن تبعهم من ارباب الملل والعلم والقلم لاستعادة نفوذ الدين وسيطرته على ولاة الحكم ومعاهد التعليم، بل على الأسر والناشئة الجديدة» الخ

ثم ذكر سموه ان هذه الحالة النفسية الجديدة التي رآها في بلاد الغرب هذه المرة حملته الى إنباء اخوانه في الشرق «بما يجري ويدور هنا من فاتحة القرن العشرين ليكونوا على بينة من الأمر فيعتبروا ويتقوا الله في دينهم ولا يصغوا لضلالات فرقة ظهرت بينهم تريد أن تضلهم عن سبيل الله باسم العلم العصري والمدنية العلمية»

وقنى على هذا بقوله «ان هذا الموقف الجديد الذي أحرزه العامل الديني بين الجماعات الأوربية، ونموه السريع، بهذا الشكل المريع(؟)في مدة قصيرة من الزمن ساقاني الى التفكير فيما يجري في هذه الآونة فى بلاد الشرق من الاضطراب في الافكار بشأن هذا العامل، فبينما نرى طائفة ظهرت حديثاً تسعى في محاربة الدين وهدمه نجد المتمسكين بدينهم من عقلاء المسلمين ومتنوريهم جامدين كالأموات لايتحركون، وأما السواد الأعظم من المسلمين فهم في ظلمات الجهل والخرافات يعمهون، حالة والله تبكي من بقي في قلبه ذرة من الايمان» الخ

كل هذا حسن، وهو الذي أعجب به المسلمون وأكبروا صدوره عن أمير من أشهر أمرائهم، ثم استطرد الأمير الى ذكر الازهر وتساءل عن علماء الازهر وطلابه، قائلا «ألا يجب على الأزهريين أن يكونوا في هذه الظروف العصيبة في مقدمة من يتتبعون الحركة الدينية في العالم؟» الخ ولكن كانت نتيجة ماذكره سموه من تفكيره الطويل في حال الجامع الأزهر وما أوجبه على الحكومة المصرية وعلى كل مسلم «لانقاذ هذا المعهد الجليل مما أصابه من الامراض» مباينة لجميع تلك المقدمات من كل وجه

تكلم في تاريخ الجامع الأزهر منذ تأسيسه الى الآن بما يخالف الواقع إلا قليلا ، وارتأى في اصلاحه آراء يتعسر تحديدها وتمحيصها ، ويتعذر تنفيذها ؛ ولئن نفذت على الوجه الذي ذكره لتكونن من أكبر الكوارث على الأزهر وعلى الدين الاسلامي الذي يغار عليه سمو الأمير بحق ، ولا يمكن بيان هذا كله بالتفصيل إلا بكتابة رسالة طويلة أو مقالات كثيرة لا حاجة بنا الى أكثرها الآن، ولاسيما القسم التاريخي منها ، كالغرض من بناء الشيعة الباطنية للأزهر وحالهم في دينهم وسياستهم ، والعلوم التي كانت تقرأ فيه في عهدهم، والاطوار التي مرت عليه من بعدهم ، وكذلك الذين وقفوا عليه الاوقاف وهل هم أهل لأن نعمل بما كانوا يفهمون من العلوم وطرق التعليم والانتفاع به في مثل هذا العصر كما اقترح سمو الامير؟ ثم هل يتفق ذلك وما تمناه وندب اليه من وجوب جعل الأزهريين في مقدمة من يتتبعون الحركة الدينية التي يهتز لها العالم الغربي في هذا العهد ؟

قال سمو الأمير في آخر مقاله انه يعرض رأيه الذي أملاه عليه حبه للاسلام والاخلاص لأزهره الشريف على من يشاركه في هذا الشعور من جمهور المسلمين ليفكروا فيه طويلا ويدرسوه بما يستحق من العناية واستحلف من يقبله منهم بالله ورسوله(١) أن يتناصروا في سبيل اخراجه الى حيز الفعل، وقد فكر فيه كاتب هذه السطور كما أمر الامير وهو ممن يبحث في شؤون الأزهر وشؤون الاصلاح الاسلامي منذ ثلث قرن ، وله في موضوع اصلاحه وبيان ماضيه وحاضره وفي الرد على الملاحدة مباحث كثيرة منشورة في مجلدات المنار الثلاثين ،

وأكتفي في هذا المقال الوجيز بتوجيه نظر الأمير وغيره الى بعض القضايا التي يجب التفكير فيها مع التفكير في مقترحاته لعل سموه يرى فيها ما يتوقف عليه الحكم الصحيح فيها وهي :

(١) من المعلوم ان جده الأعلى الذي يتحلى هو باسمه قد أدخل هذه البلاد في طور الحضارة الغربية ، من غير اعتداء على مقوماتها الاسلامية العربية، وان جده الأدنى (اسماعيل) هو الذي احدث فيها التفرنج بالتشريع المدني والجنائي والتربية

(١) المنار : ان الحلف بالرسول لا يجوز بل هو محرم والاستحلاف فرع الحلف

والتعليم والحرية الشخصية . . . وقد وصلت البلاد بهذا التفريج الى مايشكو سمو الأمير وغيره منه من فشو الالحاد والاباحة والفسق ، فليتأمل في تاريخ الازهر في كل هذه المدة قبل البدء في دعوة اصلاح الازهر التي ينكرها وبعده ولينظر ماذا كان من تأثير شيوخ الازهر وخطبائه في مقاومة ما يخالف الاسلام ولا سيما الالحاد الذي فشا في هذا العهد، وفي إيجاد مايوافق هدايته ويعلي شأنه ؟ أظن انه لا يجد لأحد منهم أثرا له قيمة أو تأثير في الدفاع عن الاسلام وبيان حقيته إلا لطلاب الاصلاح للازهر ودعاته وإمامهم الشيخ محمد رحمه الله تعالى ، ولو اطلع سموه على الخطب الجمعية التي كانت تلقى على منبر الازهر وغيره من المساجد فى مصر لرأى ان اكثرها اما منفر عن الاسلام ؛ واما غير مؤد لحاجة المسلمين فى هذا الزمان، ولو اطلع على الخطب والمواعظ التي يلقيها أعضاء حزب الاصلاح فى هذا القرن لأعجب بها وقرت عينه بأهلها

(٢) إن اهم مقترحات سموه ترك الحكومة المصرية للأزهر ليكون مستقلا بشأنه ، واستقلال المدارس العالية أصل من أصول استقلال العلم ونزاهة أهله عن تأثير السياسة واهواء أهلها ، وأحوج العلم الى الاستقلال علم الدين، ولكن الازهر طرأ عليه ضعف الدين والعلم واللغة فى عهد استقلاله دون الحكومة لا بعد تدخلها فى أمر إدارته ، وقد كان من اهم قواعد الاصلاح له فى رأي الشيخ محمد عبده ان يكون برأي شيوخه واقتناعهم وان لايكون للحكومة نفوذ فيه ، وقد نقلت عنه فى المنار مراراً انه قال اني مادمت فى هذا المكان لا ادع للحكومة نفوذاً فيه، وكذلك كان فان نفوذ الوزارة لم يتسرب اليه إلا بعد خروج الشيخ منه، بل كان رحمه الله يعارض نفوذ الامير الشخصي فيه إذا كان مخالفا للقانون كما بينا في ترجمته. وكان هذا من اسباب سخط الامير عليه وإلجائه إياه اخيراً الى الخروج منه ولم يكن له من شيوخه نصير يحب الاستقلال الا السيد علي الببلاوي شيخ الازهر الذي استبدل الامير به الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ عبد الكريم سلمان، وكان غرض الامير المصري من هذا التبديل ارجاع الازهر الى ما كان قبل النظام الحديث : ولكنه لم يرجع ولم ينتظم أمره ، بل كانت سياسة الامير هي السبب في تدخل الحكومة فيه ايضا . فهل

يوجد اليوم في كبار شيوخه من ينهض بهذا الاستقلال له دون نفوذ الحكومة ؟ ذلك ما نتركه للبرلمان المصري الآتي والى ماسيكون للمصلحة الاسلامية من المنزلة فيه

(٣) ان أغرب مافي مقال الامير تصويبه قول من يقول « ان الحكومة ترى من الضروري تخريج نشء جديد من رجال الدين يكون لهم اطلاع واسع على اللغات أو على بعض العلوم التي لاوجود لها في الازهر » وإجابته عنه بقوله : « الاوفق اذا للحكومة ان تنشيء كلية للعلوم الدينية ملحقة بالجامعة المصرية تؤسسها على ماترغب من الاسس وتنظمها كيفما تشاء ، ولا بأس حينئذ من الاستغناء عن مدرستي القضاء الشرعي ودار العلوم وادماجهما في هذه الكلية الجديدة »

الغرابة في هذا الرأي الذي لا أظن أنه يوجد واحد في الالف من شيوخ الازهر وطلابه يوافق سموه عليه هو جعل التعليم الديني لتخريج رجال الدين قسمين (احدهما) يناط بالجامعة المصرية تبعا لوزارة المعارف ويكون من خريجيه رجال القضاء الشرعي ومعلمو المدارس الاميرية وكل من قد يحتاج الحكومة اليهم من علماء الدين (وثانيهما) الازهر ويقصر التعليم فيه على ما كان يدرس فيه من العلوم الشرعية قبل نصف قرن ويكون الغرض منه التعبد وإرادة وجه الله تعالى ومن لوازمه ارجاع راتب علماء الازهر الى ما كانت عليه وهو قلما يزيد على راتب خادم أو بواب في هذا العهد ومنع الحكومة عنه هذه المئات من الألوف التي خصصت لميزانيته ! ! وحرمانهم من الوظائف الشرعية كغيرها فياليت الامير يعلم رأي أهل الازهر في اقتراحه هذا

(٤) إن قانون الاستاذ المراغي الحديث للازهر يجمع بين التعليمين اللذين اقترحهما سمو الامير إلا أنه يجعل كلا منهما تابعا لادارة واحدة هي إدارة المعاهدة الدينية ، ولا شك أن هذا اضمن او ادنى الى جعل الاول دينيا اسلاميا من ادارة الجامعة المصرية له ، وهي هي التي أعلن بعض أساتذتها الالحاد في تعليمها اعلانا برضاء مديرها ووزير معارفها وغيره من وزرائها وحمايتهم ، كما ظهر ذلك للخاص والعامي في قضية الدكتور طه حسين ، وندع مالا يعرفه الا الخواص من الالحاد والملحدين ، ومن اهمال وزارة المعارف لامر الدين في مدارسها حتى انه صار يقل في طلاب مدرسة دار العلوم من يصلي فما القول في غيرها ؟

المنار

أنشئ ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صُوى « ومناراً » كمنار الطريق

٢٩ جمادى الاولى سنة ١٣٤٨ هـ ١٠ برج العقرب سنة ١٣٠٩ هـ ش ١ نوفمبر سنة ١٩٢٩

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

(٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٤) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

قد علم مما تقدم انه لما أعلن الله تعالى براءته وبراءة رسوله من المشركين، وآذنهم بنبذ عهودهم وبعود حالة القتال بينهم وبين المؤمنين كما كانت، بعد أن ثبت بالتجربة أنهم لا عهود لهم يوفى بها، ولا أيمان يبرونها، بل يعقدونها عند الخوف، وينقضونها عند الشعور بالقدرة على الفتك - كما تقدم شرحه مفصلا - عز ذلك على بعض المسلمين، وفتح به باب لدسائس المنافقين وتبرم ضعفاء الايمان، وكان أكثرهما من الطلقاء الذين أعتقهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان هو السبب لما تقدم من تكرار الامر بقتال المصرين على الشرك، الناقضين للعهد، وتأكيده، وإقامة الدلائل على وجوبه، وكونه مقتضى الحق والعدل والمصلحة، وإنما كان موضع الضعف من بعض المسلمين في ذلك نعرة القرابة، ورحمة الرحم، وبقية عصبية النسب، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولو قربى من المشركين يكرهون قتالهم، ويتمنون إيمانهم، ويرجونه اذا تركوا وشأنهم، بل كان لبعض ضعفاء الايمان منهم بطانة ووليجة منهم، فبعد أن بين الله تعالى لهم ما تقدم مما أشرنا اليه آنفا وقفى عليه بفضل الايمان والجهاد والهجرة، وحبوط أعمال المشركين حتى ما كان منها خيراً في نفسه كسقاية الحاج والعمارة الصورية للمسجد الحرام - بعد هذا - بين لهم ان ماذكر من فضل الايمان والهجرة والجهاد، وما بشر الله به أهله من رحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، لا يتم إلا بترك ولاية الكافرين، وإيثار حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب الوالد والولد، والاخ والزوج والعشيرة والمال والسكن، فقال

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء ﴾ أي لا يتخذ أحد منكم أحداً من أب او أخ ولياً له ينصره في القتال، أو يظاهر لاجله الكفار، بأن يتخذه بطانة ووليجة يخبره بأسرار المؤمنين، وما يستعدون به لقتال المشركين، كما علم في هذا السياق من آية (٦ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) ﴿ إن استحبوا الكفر على الايمان ﴾ أي إن أصروا على الكفر وآثروه على الايمان بالحب

وما يقتضيه هذا الحب من قتال المؤمنين وعداوتهم، كما علم من شأنهم منذ ظهر الاسلام إلى نزول هذه السورة بعد فتح مكة ولا سيما جموعهم في حنين الآتي ذكرها . وقد علم من قبل فتحها ان حاطب بن أبي بلتعة وهو من أهل بدر قد استخفته نعرة القرابة فكتب الى مشركي مكة سراً يعلمهم فيه بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم من قتالهم ليتخذ له بذلك يداً عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة، وفي ذلك نزلت سورة الممتحنة في نهي المؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم وعن موادتهم ، فتراجع فكل ما فيها من تعليل وتقييد للنهي عن المودة والموالاة فهو معتبر هنا ، وقيل إن هذه الآية نزلت في قصته، وقيل فيما تقدم من امتناع العباس من الهجرة لما دعي اليها، وقيل في كل من ثقلت عليه الهجرة عندما دعوا اليها ، ولا يصح من ذلك شيء ، وقيل في الذين شكوا مما أوجبته هذه السورة من البراءة من المشركين وتحدثوا باستنكاره، والصواب ما تقدم من نزولها مع ماقبلها ومابعدها، وانهم استثقلوا ذلك ولم يصح انهم شكوا منه

﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ أي ومن يتولهم منكم والحال ماذكر فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لانفسهم ولجماعتهم ، العريقون في الظلم الراسخون فيه بوضع الولاية في موضع البراءة والمودة في محل العداوة ، دون من لم تستخفه نعرة القرابة وحمية الجاهلية النسبية إلى أن تحمله على ولاية أعداء الله ورسوله والمؤمنين بنصرهم ومظاهرتهم في القتال ومايتعلق به . فهو بمعنى قوله تعالى في سورة الممتحنة (٦٠ :٨ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين (٩) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) فانما النهي عن ولاية الحرب والنصرة للكافرين المحاربين لنا لاجل ديننا . ومثله النهي عن تولي أهل الكتاب في سورة المائدة (٥ : ٣٥) وقوله فيها (ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) فالظلم في الآيات الثلاث واحد والولاية واحدة ، وذكر بعض المفسرين ان ابن عباس فسر الظلم في آية براءة بالشرك لان متولي القوم منهم كما قال ابن جرير في آية المائدة وانما يتحقق هذا في الولاية التامة دون مثل مافعل حاطب متأولا

ثم انتقل من بيان هذه الدركة من الاخلال بحقوق الايمان ومقتضياته الى الدركة التي من شأنها أن تكون سبباً لها فقال ﴿ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾

وجه الله عز وجل الخطاب في النهي عن الجريمة الكبرى وهي ولاية الكافرين المعادين لله ورسوله الى المؤمنين بعنوانهم مباشرة ، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم في أمر الجريمة الثانية والوعيد عليها على فرض وقوعها منهم ، ولم يشأ أن يعطف هذا على ماقبله فيكون خطابا منه بعنوان صفة الايمان المنافي لمضمونه ولذلك عبر عنه باداة الشرط التي من شأن شرطها ان يكون مشكوكا في وقوعه أو من شأنه أن لا يقع وهي « ان » ولم يرتب هذه المؤاخذة على أصل الحب لما ذكر في الآية من مجامع حظوظ الدنيا ولذاتها لانه غريزي ، بل رتبه على تفضيل هذه الحظوظ والشهوات الدنيوية في الحب على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله الموعود عليه بما تقدم آنفا من أنواع السعادة الابدية في الآخرة ، و كذا مادونه كما يدل عليه تنكير كلمة جهاد هنا. وذكر الابناء والازواج هنا دون آية النهي عن الولاية لان من شأن الانسان أن يتولى في الحرب من فوقه كالاب ومن هو مثله كالاخ ، دون من هو دونه ومن شأنه أن يكون تابعاً له كابنه وزوجه، ولكنها في المرتبة الاولى في الحب، واننا نبين مراتب هذه الاصناف الثمانية في الحب ونقفي عليها بمعنى حب الله ورسوله ، وكون المؤمن الصادق لا يؤثر عليهما شيئاً منها ، ولا يعلو حبهما عنده حب شيء سواهما:

(١) حب الابناء للآباء له مناشىء من غرائز النفس وشعورها وعواطفها وعوارفها ومعارفها وطباعها ، ومن عُرف الاقوام وآدابهم الاجتماعية وشرائعهم ودينهم ، فالولد بضعة من ابيه يرث بعض صفاته وطباعه وشمائله من جسدية ونفسية وعقلية ، وأول شيء يشعر به، وينمي في نفسه بنماء تمييزه وعقله، إحسان والديه اليه، واقتران صورتهما في خياله بكل محبوب له . ويتلو هذا شعوره بما هما عليه من الحنان والعطف والحدب عليه والحب الخالص له الذي لا يشوبه رياء ولا تهمة — وللوالدة

القدح المعلى في هذين — ويفوقها الوالد بما يحدث للولد بعد هذا من شعور الاعجاب بالعظمة والكمال والقدرة وهو من الغرائز ، والطفل يشعر بأن أباه أعظم الناس وأحقهم بالاجلال والتعظيم. وهذا الشعور إما ان ينمي ويزداد في الكبر إذا كان الوالد مستحقاً له ولو من بعض الوجوه، وإما أن يضعف، ولكنه قلما يزول عيناً وأثراً وان كان في غير محله . وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم في اسواقهم وفي معاهد الحج حتى قال الله تعالى (٢٠٠:٢ فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) يتلو ذلك شعور عزة الحماية والصيانة له من والده والذود عنه والانتقام له إذا ضيم ، وفوق هذا شعور الشرف فهو يشرف بشرفه ويحقر بضعته وخسته. فان أهين بقول أو فعل ترجف اعصابه ويتبيغ دمه ، ولا تكاد تهدأ ثائرته الا بالانتقام له.

تؤيد هذه الانواع من الشعور والغرائز ملكات تطبعها الحقوق العرفية والآداب الاجتماعية والشرائع الدينية، فالله تعالى قد قرن الاحسان بالوالدين بتوحيده وعبادته وحده بمثل قوله (٢٣:١٧ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) الخ وقرن شكرهما بشكره في قوله (١٢:٣١ ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير) ثم إنه أمر بمعاملتهما بالمعروف وان كانا مشركين مع نهيه عن طاعتهما اذا دعواه إلى الشرك فقال (١٣ وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا)

فهذه مجامع نوازع حب الولد الوالد ، والوالدة تفوقه في بعضها وتتخلف عنه في بعض . ولما كان الوالدون هم الذين يقاتلون ويحتاجون الى الموالاة والمناصرة دون الوالدات اقتصر على ذكرهم ، تبعاً لنهيه عن موالاتهم ، لان موالاتهم لهم من قبيل طاعتهم في الشرك الذي نهاهم عنه ، ونصر الشرك وأهله لأجله شرك ، بل اتفق العلماء على أن الرضاء بالكفر كفر ، فكيف بنصر الكفر على الايمان بموالاة الكافرين ونصرهم على المؤمنين؟ ولكنه لم ينههم عن حب آبائهم المشركين بل حذرهم أن يكونوا أحب اليهم من الله ورسوله وجهاد ما في سبيله، لان هذا لا يجتمع مع الايمان الصحيح كما سيأتي ، كذلك نهاهم في سورة المجادلة عن موادة من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم اواخوانهم اوعشيرتهم اذا كانت لاجل المحادة كما يفيده

ترتيب النهي على فعلها ، فان المودة هي المعاملة الحبية ، والمحادة شدة العداوة والبغضاء ، فاشتراك المؤمن المحب لله ورسوله مع المحاد لله ولرسوله في المودة المرتبة على صفتيهما جمع بين الضدين ، فهو في معنى موالاتهم بل أخص منها

(٢) حب الآباء للابناء له جميع تلك المناشىء الغريزية والطبيعية ، وانواع الشعور والعواطف النفسية ، وبعض تلك الحقوق العرفية والآداب الاجتماعية والاحكام الشرعية لاجميعها ، ولكن حب الوالد للولد أحر وأقوى وأنمى وأبقى من عكسه ، وهو أشد شعورا بمعنى كون ولده بضعة منه ، وكون وجوده مستمدا من وجوده ، ويشعر مالا يشعر من معنى كونه نسخة ثانية منه يرجى لها من البقاء ما لا يرجى للنسخة الاولى ، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه من كثير من الطيبات إيثاراً له بها في حاضر أمره ومستقبله ، ويكابد الاهوال ويركب الصعاب وكثيرا ما يقترف الحرام في سبيل السعي والادخار له ، وقد بينا في تفسير (٦ : ١٥١ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً) الآية ان عاطفة البنوة ونعرتها من اقوى غرائز الفطرة ، وناهيك بما ينميها في النفس من قيام الوالد بشؤون الولد من التربية والتعليم وما يحدثه ذلك من العواطف في الحال ، والذكريات في الاستقبال ، وكونه مناط الآمال ، قال الله تعالى (١٨ : ٤٦ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) قالوا المعنى ان الاعمال الصالحة التي يبقى ثوابها للانسان بعد الحياة الدنيا خير من زينة المال فيها ثواباً ، وخير من البنين فيها املا ، فهو نشر على ترتيب اللف . وقد بينا اسباب حب الآباء للبنين بالتفصيل في تفسير (٣ : ١٣ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين) الخ [1]

(٣) حب الاخوة يلي في المرتبة حب البنوة والابوة ، والاخوان صنوان في وشيجة الرحم ، فالاخ الصغير كالولد ، والكبير كالوالد ، ويختلفان عنهما بشعور المساواة في المنبت وطبقة القرابة . وقد يماري فيه بعض الذين أفسدت فطرتهم نزغات الفلسفة المادية فيزعمون انه من التقاليد العادية لا منشأ له من غرائز النفس ولا مقتضيات الطبع ، بل يقول بعضهم إن عداوة الاخوة أعرق في الغريزة من محبتها ، ويستدلون عليه بما ورد في الكتب

(١) يراجع في ص ٢٤١ ج ٣ تفسير

الالهية من قتل أحد ولدي آدم لأخيه في اول النشأة ، وعهد سلامة الفطرة من تأثير التنازع في شؤون الحياة ، ومن فعلة إخوة يوسف به وهم من اسلم الناس أخلاقاً وخيرهم وراثة

والحق فيما قصه علينا الوحي من قتل قابيل لأخيه هابيل انه بيان لما في استعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطرة بالتعارض بين عاطفة وشيجة الرحم وحب العلو والرجحان والامتياز على الاقران في رغائب النفس ومنافعها ، وما قد يلد من الحسد، وما قد يتبع الحسد من البغي والعدوان . فضرب الله لنا مثلا لبيان هاتين الحقيقتين ليرتب عليه بيان كون غريزة الدين بل هدايته هي المهذبة للفطرة البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر ، فكان قابيل مثلا لمن غلبت عليه النزعة الثانية وهابيل مثلا لمن غلبت عليه الاولى بترجيح هداية الدين ،وذلك قوله تعالى حكاية عنه (٥: ٣١ لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك إني اخاف الله رب العالمين ٣٢ اني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) والدليل على محبة الاخوة ووشيجة الرحم في نفس قابيل وتنازعها مع حب العلو والرجحان على أخيه أو مساواته وحسده لتقبل قربانه دونه قوله تعالى (٣٣ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) فان التعبير عن ترجيح داعية الشر المتولدة من الحسد العارض على عاطفة حب الاخوة ورحمة الرحم «بالتطويع» من أبلغ تحديد القرآن لدقائق الحقائق باللفظ المفرد فان معنى صيغة التفعيل التكرار والتدريج في محاولة الشيء كترويض الفرس الجموح وتذليل البعير الصعب ،فهي تدل على أن قابيل كان يجد من نوازع الفطرة في نفسه الامارة بالسوء مانعاً يصدها عما زينه له الحسد من قتل أخيه ،وانها مازالت تأمره ويعصيها حتى حملته على طاعتها بعد جهد وعناء . وقد شرحنا هذا المعنى شرحا واسعاً في تفسير الآيات (ص٣٤٥ ج ٦ تفسير)

وقد وقع مثل هذا الحسد من إخوة يوسف: كبر عليهم اقبال أبيهم يعقوب بكل وجهه وكل نفسه على هذا الابن الصغير الذي لم يبلغ أن ينفعه او ينفع الاسرة بخدمة ولا حماية ولا غيرها من مواضع آمال الآباء في الابناء ،واعراضه عنهم

على قوتهم وقيامهم بكل مايحتاج اليه الاب والاسرة ، فزين لهم الحسد أن يقتلوه او يغرّبوه ليجتمع الشمل ويخلولهم وجه أبيهم بالاقبال عليهم، ويكونوا بذلك قوما صالحين بزوال سبب الشقاق والفساد فيهم ، ولـكنهم بعد التشاور رجحوا تغريبه وابعاده عن أبيه عند ما أشار به بعضهم ، ولولا عاطفة الرحم وهداية الدين لما رضي العشرة برأي الواحد في ترك قتله. ولماذا نحفظ هذه الوقائع الشاذة وننسى الامر الغالب الاعم وهو تواد الاخوة وتعاونهم وتناصرهم بباعث الغريزة ولوازمها ؟ ومنه ما كان من إحسان يوسف إلى اخوته ثم عفوه عنهم ثم معيشته معهم ؟

بعد هذا أذكر القاريء الذي أخاف عليه فساد الافكار المادية المغرية بعداوة الاخوة للجهل بالدين والحرمان من هدايته، بما هو معهود في هذه البلاد من إهمال تعليمه وتربيته ـ أذكره بما لا يستطيع العالم المادي انكاره او المكابرة فيه من منشأ حب الاخوة في النفس ، وما تقتضيه من التواد والتناصر في نظام الاجتماع البدوي والمدني، وهو أن المعهود من أخلاق البشر وآدابهم وعاداتهم المنبعثة عن طباعهم وغرائزهم أن المحبة والعطف فيما بينهم يكون على قدر ما بين أفرادهم وجماعاتهم من الاشتراك في صفات النفس الموروثة وعواطفها المكتسبة بالتربية والمعاشرة وفي شؤون الحياة من طبيعية واجتماعية وفي الحقوق والآداب الشرعية والعادية، وللاخوة من جملة هذه الامور ما ليس لمن دونهم من الاقارب ، بله من بعد عنهم من الاجانب، فالاخ صنو أخيه، منبتهما واحد، ودمهما واحد، ووراثتهما النفسية والجسدية تتسلسل من أرومة واحدة، وان تفاوتوا فيها ، وكل منهما يشعر بالاعتزاز بعزة الآخر الا أن يفسد فطرته الحسد، ويحفظ من ذكريات الطفولة والصبا ما له سلطان عظيم على النفس، وتأثير كبير في آصرة الرحمة والحب ، وما زال أهل الوسط من بيوت الناس الذين سلمت فطرتهم ، وكرمت أخلاقهم ،يحبون إخوتهم كحبهم أنفسهم وأولادهم، ويوقرون كبيرهم توقيرهم لابيهم، ويرحمون صغيرهم رحمتهم لابنائهم، ويكفلون من يتركه والده صغيراً فيتربى مع أولادهم كأحدهم ،وقد تكون العناية به أشد . وما أطلت في هذا وما قبله هذه الاطالة النسبية إلا ليكون تفسير كتاب الله الذي انزل لهداية الناس واصلاح أمورهم مشتملا على ما يحتاجون اليه في هذا الزمان من درء مفاسد

الفلسفة المادية القاطعة للأرحام، المفسدة للاجتماع

(٤) حب الزوجية ضرب خاص من شعور النفس ليس له في أنواعها ضريب، فهو هو الذي يسكن به اضطراب النفس من ثورة الطبيعة التي تهيجها داعية النسل، وغريزة بقاء النوع، وهو الذي يتحد به بشران فيكون كل منهما متمما لوجود الآخر ينتجان باتحادهما بشراً مثلهما، وقد بيناه في تفسير (٣: ١٣ زين للناس حب الشهوات من النساء) إلى آخره [1] وفي مقالات (الحياة الزوجية) من المنار (المجلد الثامن) وإنما قدمه هنالك على حب البنين لأن الكلام في الآية على حب الشهوات، وهو أقوى الشهوات البشرية على الاطلاق، وأخره هنا لأن الكلام في الحب المعارض لحب الله ورسوله والجهاد في سبيله وما يخشى من حمله على موالاة أهل الكفر في الحرب على المؤمنين، وقلما تكون زوج الرجل معارضة له في دينه وولاية من يدين لله بولايته، كما يعارضه ابوه وابنه واخوه من أهل الحرب دون امرأته. وروعي الترتيب الطبيعي في علاقة هذه الاصناف الخمسة بالمرء ودرجات لصوقها به في الحياة على طريقة الترقي في قوله تعالى: (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) وهذه الفروق في الترتيب بين الاشياء واختلافها في المقامات المختلفة هي من دقائق بلاغة القرآن، التي تند عن سلائق البشر ومعارفهم في بلاغة الكلام

(٥) حب العشيرة [2] حب عصبية وتعاون واعتزاز، وولاية ونصر في القتال، ويكون على أشده في اهل البداوة. ومن على مقربة منهم من أهل الحضارة، وقد أضعف الاسلام هذا النوع من الحب والولاية بالمساواة بين المسلمين في اخوة الاسلام كما بيناه في تفسير (فاخوانكم في الدين) من الآية الحادية عشرة من هذه السورة، وبتحريم الدعوة إلى عصبية والقتال على عصبية، كما أضعفته الحياة الحضرية التامة التي توكل فيها حماية الافراد إلى دولة الرجل دون عشيرته وقبيله، وتجمع العشيرة على عشيرات كما في المصباح المنير وبه قرأ ابو بكر وعاصم

---

(١) يراجع في ص ٢٣٩ ج ٣ تفسير (٢) العشيرة قبيلة المرء كما في المصباح والمختار أن المراد بها من يعاشر من أولي القربى الذين من شأنهم التعاون والتناصر لأنها في الاصل مؤنث العشير وهو المعاشر

(٦) حب الاموال المقترفة – أي المكتسبة – طبيعي أيضا وهو أقوى في النفس من حب الاموال الموروثة لان عناء الانسان في اقترافها يجعل لها في قلبه من القيمة والمنزلة ماليس لما جاءه عفواً، كما هو مشهور بين الناس علماً وعملا، وقد بينا أسباب حب المال من حيث هو في تفسير آية آل عمران (٣: ١٣) المشار اليها آنفاً

(٧) حب التجارة التي يخشى كسادها، يراد به والله أعلم عروض التجارة التي يخشى كسادها في حالة الحرب. وقد كان بعض المسلمين من أهل مكة تجاراً كما ورد، وكان لدى بعضهم شيء من عروض التجارة يخشى كساده في أوقات الحرب لان أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين، وكانت أسواقها تنصب في أيام موسم الحج وقد منع منه المشركون بمقتضى الآيات السابقة واللاحقة من هذه السورة، وناهيك بحب ابي سفيان وولده للمال وولوعه بالتجارة، وما كان من تأليبه المشركين على قتال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر لاجل تجارته، وقد أظهر الاسلامَ يوم الفتح، ثم روي عنه أنه كان من الشامتين بهزيمة المؤمنين يوم حنين، فتألفه النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة العطاء من غنائم هوازن، كما استماله يوم الفتح بقوله «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» رواه مسلم

(٨) حب المساكن المرضية طبيعي أيضاً، فكم ممن لا يملك مسكنا يأويه، أو يملك قصراً لا يرضيه، والمراد هنا فيما يظهر والله أعلم ما كان لبعض المسلمين في مكة والمدينة من الدور الحسنة التي كانوا يرضونها للاقامة والسكنى بما فيها من المرافق وأسباب الراحة ويكونون في مدة خروجهم للجهاد محرومين منها – وما كان لبعض آخر في مكة يعدونها للاستغلال في أيام الموسم اذ يظهر من طبيعة الاحوال ان ذلك قديم، وهذا النوع يكون معطلا بمنع المشركين من الحج وهو ما بلغوه من هذه السورة

فهذه ثمانية انواع من حب القرابة والزوجية والمنافع والمرافق التي عليها مدار معايش الناس، قد كان من شأنها أن تجعل القتال مكروها فوق الكره الذي تقتضيه ذاته الوحشية ومايلزمه من مفارقة هذه المحبوبات كلها أو بعضها، ولذلك لم يشرع إلا للضرورة التي يرجح بها الاقدام عليه على الاحجام عنه، كما قال تعالى

(٢ : ٢١٦ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) الآية [١] وكقوله (٢ : ٢٥٠ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) [٢] وغيرهما مما تقدم في تفسير هذه السورة وماقبلها من حكمة تشريع القتال، وكونه بحسن القصد والشروط التي يوجبها الاسلام اعظم مزيل للفساد ، ومصلح لامر العباد ، فراجعه ان كان غاب عنك فهو يفيد في فهم ما هنا . وزد عليه مايجب إيثاره من حب الله ورسوله على كل حب ، وتقديم كل جهاد في سبيله على كل منفعة في الارض

أما حب الله تعالى — أي حب عبده له — فهو الذي يجب أن يكون فوق كل حب لانه سبحانه وتعالى هو المتصف وحده بكل ماشأنه أن يحَب من جمال وكمال ، وبر وإحسان، وكل من يحَب ومايحب في الوجود فهو من صنعه وفيض جوده وإحسانه ، ومظهر أسمائه الحسنى وصفاته، فمن الطبيعي المعقول أن يكون حب الوالد للولد، ومايتضمنه من عطف وأمل، شعبة من حب واهبه ، ومودع العطف والرحمة في قلب والديه له. وأن يكون حب الولد لوالده ومربيه عندمايعقل جزءاً من حب ربه الذي سخره له، وساقه بغريزة الفطرة وحكم الشريعة لتربيته، وهو عزوجل رب كل شيء، المربي الحق لكل حي، بسننه في الغرائز والقوى والاخلاق، وما يترتب عليها من الاعمال، وهو جل ثناؤه الخلف والعوض من كل والد ليتيمه ، ومن كل ولد لأبيه وأمه، ومن الطبيعي المعقول أن يكون حب الاخ لأخيه كذلك بالأولى ، وكذلك حب الزوج للزوج لايشذ عن هذه القاعدة فهو الذي خلق الزوجين الذكر والانثى، وهو الذي أودع المحبة الزوجية في الأنفس ، ولم يخصها بفرد معين (٣٠ : ١٩ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) وحب العشيرة احق وأولى بالدخول في عمومها، فان الباعث عليه التعاون والتناصر بوشيجة القرابة، وقد حل محلها في الاسلام ما هو أقوى وأعظم ، وهو تناصر أهل الملة الكبيرة بمقتضى أحكام الشريعة، والله ولي المؤمنين ونصيرهم بوجه أخص: (وما النصر إلا من عند الله) بالوجه الأعم

---

(١) راجع ص ٣١٧ (٢) ص ٤٨٢ و ٤٨٨ كلاهما ج ٢ تفسير

وكذلك الاموال بجميع أنواعها، ومنها عروض التجارة التي يرجى رواجها ويخشى كسادها، كلها من جوده وعطائه وتسخيره، وحبها يجب ان يكون دون حبه بل هو دون ما تقدمه من الحب وان فتن به أكثر الماديين، وكثير من الذين حرموا تهذيب الدين، فصارت أموالهم من أسباب شقائهم في دنياهم، حتى ان منهم من يبخل بها عن نفسه وأهله وولده. والمساكن دون الاموال لان صاحب المال يمكنه أن يبني منها مثل ما يفقده أو خيراً منه. وقد أغنى الله المؤمنين الصادقين عن كل ما فقدوا أو خافوا ان يفقدوا بنبذ عهود المشركين وعودة حال الحرب بينهما، وكذّب وهْم ضعفاء الايمان، وإيهام المنافقين لهم بأن الجهاد في سبيل الله سبب الكساد والخسران، وصدق وعد الله للمؤمنين باستخلافه إياهم في الارض وتمكينهم فيها وجعلهم أغنى أهلها ما داموا مهتدين به، كما وعدهم في قوله (٢٤: ٥٤ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الخ ولو عادوا الى تلك الهداية، لعادت اليهم تلك الخلافة،

وان فوق جميع هذه الانواع من حبه تعالى لفضله وإحسانه بالايجاد والامداد في الدنيا وتسخير قواها ومنافعها للناس — وحبه لما وعد به مما يشبهه ولكنه يعلوه ويفوقه من الثواب في الدار الآخرة، نوعاً آخر هو حب العبادة المحضة والمعرفة العليا. وقد بينا معناه وسببه في تفسير (٢: ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) وبينا خطأ المشركين في إشراك أندادهم معه فيه لتوهمهم انهم وسيلة اليه وشفعاء عنده يقربون من توسل بهم اليه زلفى، وكون المؤمنين اشد منهم حباً لله، لانهم اعلم بما يجب العلم به من صفات جلاله وجماله وكماله، ومن توحده بالربوبية، — ومن آثارها التدبير والنفع والضر بالاسباب التي هو خالقها ومسخرها وبغير الاسباب ان شاء — وانفراده بالألوهية وهي كونه هو المعبود الحق وحده، فحبهم إياه مجتمع ثابت كامل لا شائبة للاشراك فيه، وبينا في مقابلة هذا كون حب المشركين للانداد بسبب ذلك الاعتقاد نهباً مقسما على معبودات متعددة[(١)]

ثم ان حب المؤمن العارف لله تعالى له درجات تتفاوت بتفاوت معارفه بآيات الله في خلقه الدالة على صفات جماله وكماله، ومقدار إدراكه لما فيها من الابداع والاتقان

(١) راجع ص ٧١ — ٧٤ ج ٣ تفسير

كما قال (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وقال (الذي أحسن كل شيء خلقه) وقد بيناهذا في تفسير قوله عز وجل (٣: ٣١ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم كما بينا فيه معنى حبه تعالى لعباده الموحدين المتبعين لما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم من النور والهدى والفرقان. وقد جهل علماء الالفاظ والتقاليد كنه هذا الحب فتأولوه كما تأولوا غيره من صفات الله تعالى وشؤونه الكمالية ، توهماً منهم انها تعارض تنزهه عن مشابهة الناس في صفاتهم البشرية ، فكان حظهم من معرفة ربهم وإلههم التعطيل بشبهة التنزيه الذي هو معنى سلبي محض [٢] ثم أعدنا بيان ماذكر في تفسير قوله تعالى (٥: ٥٧ ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) [٣]

وأما حب رسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله فهو دون حبه عز وجل ، وفوق حب تلك الاصناف الثمانية وغيرها ممن يحب من الخلق ، كالعلماء العاملين ، والمرشدين المربين ، والفنانين المتقنين ، والزعماء السياسيين ، والاغنياء المحسنين ، فانه صلى الله عليه وسلم كان المثل البشري الأعلى ، والاسوة الحسنة المثلى ، في اخلاقه وآدابه وفضائله وفواضله وسياسته ورياسته وسائر هديه ، قد خصه الله بجعله خاتم النبيين ، وإرساله رحمة للعالمين ، وجعل اتباعه هو الدليل على حب متبعه لله عز وجل ، وجعل جزاءه عنده حبه تعالى لمتبعه ، ومغفرته لجميع ذنوبه ، وذلك نص آية (٣: ٣١) آل عمران التي ذكرناها آنفا ، وسنزيد هذا الحب وحب الله تعالى بيانا في هذا المقام ، وقد عطف عليهما الجهاد في سبيله منكرا لانه أظهر آياتهما ، ونكتة تنكيره وإبهامه إفادة أن كل نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله قل أو كثر فان تاركه لأجل حب شيء من تلك الاصناف الثمانية وتفضيلها عليه يستحق الوعيد الذي في الآية. والجهاد أنواع رجع إلى جنسين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس والقتال نوع من أنواع الجنس الثاني ومنها أنواع أخرى علمية وعملية ، فمهندس الحرب الحق العادلة مجاهد في سبيل الله ، وواضع الرسوم لمواطنها وطرقها كذلك الخ

(١) راجع ص ٢٨٤ — ٢٨٧ ج ٣ تفسير أيضاً (٢) راجع ص ٤٣٨ ج ٦ وقد كتب في حرف ح من فهرسه ص ٣٣٨ وهو غلط

واذا كان الامر كذلك —وهو كذلك— فلاريب أن من كان ماذكر من الاصناف الثمانية كلها او بعضها احب اليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله فهو غير تام الايمان او غير صحيحه كما تشير اليه آية المائدة [٥: ٥٧] التي استشهدنا بها آنفا. فقوله عز وجل (فتربصوا حتى يأتي الله بامره) وعيد أبهم لتذهب انفسهم فيه كل مذهب، واقرب ما يفسر به قوله في وعيد المنافقين من هذه السورة (٩: ٥٢ قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وما كان أولئك الذين يؤثرون حب أهلهم وأموالهم على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله الا من المنافقين، فهم الذين كانوا يثبطون المؤمنين عن الجهاد ويوحون اليهم زخرف الاعراض على نبذ عهود المشركين، وإعلان حالة الحرب بينهم وبين المؤمنين، كما بيناه مراراً. وما روي عن مجاهد ان المعنى حتى يأتي الله بالامر بالهجرة وان هذا كله كان قبل فتح مكة — فما أراه يصح عنه وقد تقدم نقل الاتفاق على نزول هذه الآيات (وكذا السورة جلها أو كلها) بعد فتح مكة وغزوة حنين وتبوك وانها مما بلغ للمشركين في موسم سنة تسع بعد سقوط فريضة الهجرة بنص حديث «لاهجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» رواه البخاري من حديث مجاشع بن مسعود مرفوعاً. ورواه في مواضع أخرى بلفظ «بعد الفتح» من حديث ابن عباس (رض) والوعيد هنا على ترك الجهاد دون الهجرة

﴿ والله لايهدي القوم الفاسقين ﴾ الفسق في اللغة خروج الشيء أو الشخص عما كان فيه او عما من شأنه أن يكون فيه بحسب الخلقة او العرف او الشريعة قال في المصباح ويقال أصله خروج الشيء من الشيء على وجه الفساد، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وكذلك كل شيء خرج عن قشره فقد فسق قاله السرقسطي، وقيل للحيوانات الخمس فواسق استعارة وامتهاناً لهن لكثرة خبثهن واذاهن حتى قيل يقتلن في الحل وفي الحرم وفي الصلاة ولا تبطل الصلاة بذلك اه (١) وهو في الاستعمال الخروج من حدود الدين والشريعة بالكفر

(١) يشير الى حديث «خمس فواسق تقتلن في الحل والحرم: الحية والغراب الابقع والفأرة والكلب العقور والحديا» رواه مسلم والنسائي من حديث عائشة والحديا بتشديد الياء تصغير الحدأة. ورواه ابو داود من حديث أبي هريرة وفيه الغراب دون الحدأة واحمد من حديث ابن عباس وفيه العقرب وليس فيه الحدأة

المخرج من الملة او فيما دونه من الكبائر، وفي اصطلاح الفقهاء تخصيصه بالاخير، وقد يستعمل في القرآن بمعنى الخروج من سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ومن نور العقل الى ظلمة الجهل والتقليد كما بيناه في تفسير (٢ : ٩٩ ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) [١] بحيث يكون متمرداً لا يقبل هداية الدين، والمعنى هنا: وقد مضت سنة الله تعالى في القوم الفاسقين المارقين من الدين بعد معرفته كالمنافقين أن يكونوا محرومين من الهداية الفطرية التي يعرفها الانسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح، فلا يعرفون ما فيه مصلحتهم وسعادتهم من اتباعه، فيؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد المفروض في سبيله، ويصح تفسيره بمقابله وعكسه فيقال وقد مضت سنته تعالى في القوم الفاسقين من محيط الفطرة السليمة ونور العقل الراجح اتباعاً للهوى او التقليد أن يحرموا من فقه هداية الدين فلا يعقلونها، وأهمها العلم بما في إيثار حب الله وحب رسوله والجهاد في سبيله من الصلاح والاصلاح، والفوز بسعادة الدارين، بما يقتضيه الولاء والاتحاد بين المؤمنين من إزالة خرافات الشرك ومفاسده، وإقامة الحق والعدل، وما يستلزمهما من ثبات الملك.

وصل في كمال حب الله ورسوله وطريق اكتسابه

من رحمة الله تعالى في دين الفطرة أنه لم يذم حب الاهل والاقارب والازواج، ولا حب المال والكسب والاتجار، ولم ينه عنهما وانما جعل من مقتضى الايمان إيثار حب الله ورسوله على حب ما ذكر، وكذلك الجهاد في سبيله إذا وجب، كما كانت الحال بين المؤمنين والمشركين وتقدم شرحها في تفسير هذه السورة وغيرها وهذا منتهى التسامح في الدين دون تكليف بغض ما ذكر، فكيف وقد أباح الاسلام معه بر المخالف في الدين والعدل والقسط في معاملته في سورة الممتحنة (٦٠ : ٨ و ٩) وتقدم الاستشهاد به في آخر تفسير الآية السابقة، وخاطب المؤمنين في سورة آل عمران بقوله بعد النهي عن اتخاذ بطانة من الكفار الذين

(١) راجع ص ٣٩٥ ج أول

لا يألونهم خبالا الخ (٣ : ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) وأباح لهم نكاح الكتابيات على مافطر عليه القلوب من حب الزوجية وقوله (وجعل بينكم مودة ورحمة)

ومن الاحاديث في الحب المشروح في الآية مارواه الشيخان في صحيحيهما — وكذا الترمذي والنسائي — من حديث أنس مرفوعاً «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما — وأن يحب المرء لايحبه الا لله — وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » ومارواه الشيخان من حديث أنس أيضاً « لايؤمن أحدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس أجمعين » وما رواه البخاري من حديث عبد الله بن هشام قال كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : يارسول الله لأنت احب إلي من كل شيء الا نفسي التي بين جنبي ، فقال النبي ﷺ « لا والذي نفسي بيده حتى اكون احب اليك من نفسك » فقال له عمر : فانه الآن والله لأنت احب الي من نفسي، فقال له النبي ﷺ «الآن ياعمر »

وقد حملوا هذه الاحاديث على الايمان الكامل بناء على ان المراد حب الطبع الذي لايملكه الانسان إذ من المعلوم بالضرورة ان حب الايمان والعبادة والاجلال شرط أو شطر من الايمان بالله وبرسالته صلوات الله وسلامه عليه. وأما صيرورته وجدانا من قبيل حب الطبع، وغلبته على حب كل شيء حتى النفس ، فهو كمال لايحصل الا بعد الرسوخ في الايمان وهو ليس ببعيد، فكثير من العشاق للحسان يصلون الى هذه الدرجة، وأكثر هؤلاء الحسان غير أهل لعشر هذا الحب، لولا انه من أمراض النفس، فأين منه حب من هو مصدر لكل جمال وكمال وحسن وإحسان، يتجلى في كل ماعرف البشر من نظام الاكوان: وهم لم يعرفوا منه إلا القليل

والطريق الى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر، وتدبر القرآن مع التزام سائر أحكام الشرع، وانما الذكر ذكر القلب، مع حسن النية وصحة القصد، وتأمل سننه وآياته في الخلق، بأن تذكر عند رؤية كل حسن وجمال وكمال في الكون انه من الله عز وجل، وأن تذكره عند سماع كل صوت من ناطق مفهوم، وصامت معلوم، كخرير المياه، وهزيز الرياح ، وحفيف الاشجار، وتغريد الاطيار، وكذا نغمات الاوتار، وتتذكر أنها

تسبح بحمد الله. ومن صنع الله الذي أتقن كل شيء ، كما قال تعالى في تسبيح نبيه داود عليه السلام في زبوره (٣٨: ١٧ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق (١٨) والطير محشورة كل له اواب)

والمحفوظ عند أهل الكتاب في خاتمة الزبور وهو المزمور المائة والخمسون: « سبحوا الله في قدسه، سبحوه في فلك قوته، سبحوه على قواته ، سبحوه بصوت الصور ، سبحوه برباب وعود، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج التصويت، سبحوه بصنوج الهتاف، كل نسمة فلتسبح الرب ، هللويا » اه

وفي المزامير كثير من هذه التسابيح في المعازف وكان من شريعة موسى عليه السلام ، ولكنه ليس من ديننا وشعائر شريعتنا ، والتحقيق ان شرع من قبلنا ليس شرعا لنا ، ولم يأذن الله تعالى لنا أن نحدث شيئا في دينه بآرائنا وأهوائنا، وهو قد أكمل لنا الدين ، وبلغنا رسوله صلى الله عليه وسلم ان « كل بدعة ضلالة » وقال « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه ، وقد ابتدع بعض الصوفية إدخال المعازف والرقص في ذكر الله بما يجتمعون له فيجعلونه من قبيل الشعائر ، وإنما الذي نطق به كتاب الله ، إثبات تسبيح كل شيء لله، قال تعالى (١٧: ٤٣ تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

فالذي ينبغي لنا ان نستفيده من ذلك ان نذكر في قلوبنا عند رؤية كل شيء من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله ، انه يسبح بحمد الله ، بدلالته على تنزيهه عما لا يليق به، وعلى قدرته وحكمته ومشيئته ورحمته ، وان لها تسبيحاً آخر غيبياً لا نفقهه بحسبنا لاننا لا ندرك حياتها (راجع ص ٤٠٠ ج ٧) وقد يكون إدراكه ثمرة روحية لمن زكت انفسهم بذكر الله وتسبيحه ، وخرجوا به من ظلمات الاهواء والشهوات الى نور قدسه ، (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا * هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما)

ومن اقام فرائض الله تعالى كما أمر ، وترك معاصيه كما نهى ، وداوم على

التقرب اليه بالنوافل كما ندب ، وأكثر من ذكره كما أحب ، فانه يصل بفضل الله الى المقام الذي أشار اليه الحديث القدسي « وما تقرب إلي عبدي بشيء احب إلي مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » الحديث ، تفرد به البخاري وفي سنده كمتنه غرابة

ومن المعلوم بالبداهة أن ذات الله تعالى لا تكون صفة أو عضواً لغيره — ولا ذات المخلوق أيضا — وإنما المعنى المتبادر من الحديث انه تعالى يكون هو الشاغل الأعظم لسمع من أحبه إذا سمع وبصره إذا أبصر الخ ولهذا مراتب (اولها) انه لا يوجه سمعه إلا لما يعلم انه يحبه ويرضيه (ثانيها) انه يذكره تعالى بقلبه ولسانه عند كل إدراك وكل عمل فيزداد به معرفة وعلماً ، وهو ما كان موضوع كلامنا في السماع آنفا (ثالثها) انه يكون موضوع عناية الله وتصرفه فيما يسمعه على حد (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أي انه تعالى يخلق له عند سماع ما يسمع ورؤية ما يبصر من العلم بصفاته وسننه في خلقه ما لم يكن يعلمه فيطلبه ويقصد إليه فيكون من كسبه كما هو شأنه في المرتبتين الاوليين الكسبيتين (رابعها) ما يسمونه الفناء في الله وهو أن يغيب العبد عن شهود نفسه ، والشعور بارادته وحده ، ويبقى له الشعور بأنه مظهر من مظاهر بعض صفات ربه ، وموضع تجلي ما شاء من اسمائه وصفاته ، حتى يكون عز وجل هو الغالب على أمره ، كما قال تعالى في يوسف عليه السلام (والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون) وهذا الفناء والشعور لا يحصل لمن صار من اهله ، بقطع المراحل والتنقل في المراتب التي من قبله ، إلا اللمحة بعد اللمحة ، والفينة بعد الفينة ، وهذه المرتبة هي وحدة الشهود ، وما يذكرونه من مرتبة وراء هذه تسمى وحدة الوجود ، وهي عبارة عن كون وجود الخلق عين وجود الحق ، وكون ذات العبد ، هي ذات الرب ، أو لا عبد ولا رب ، وما ثم إلا شيء واحد له مظاهر وأطوار ، كظهور الماء في صور الثلج الجامد والسائل والبخار ، وقد يحتجب بالانحلال الى عنصرية (الاكسجين والادرجين) عن الابصار ، فهذه فلسفة مادية باطلة ، اخترعتها مخيلات صوفية البوذية والبراهمة ، وهي كفر بالله ، وخروج من مال جميع رسل

الله ، وقد فتن بها بعض صوفيـة المسلمين ، ولهم فيهـا من الشعريات المنظومة والمنثورة، وتأويل بعض الآيات والاحاديث المأثورة ، ما أضل كثيراً من الناس بهم وبها ، كما ضل آخرون بالفلسفة العقلية والطبيعية والاعجاب بأهلها، وقد كشف شبهات الفريقين وفندها بالأدلة العقلية والنقلية،شيخ الاسلام ابن تيمية، وبين تلميذه المحقق ابن القيم حقائق التصوف الموافقة للكتاب والسنة في كتابه (مدارج السالكين) الذي شرح به كتاب (منازل السائرين) تأليف شيخ الاسلام في الحديث والتصوف أبي اسماعيل الهروي قدس الله أرواحهم أجمعين

وانما نتم فائدة هذا البحث بالتنبيه الى أكبر الاسباب لزيغ بعض الصوفية، عن صراط الكتاب والسنة النبوية ، مع اعتراف جميع أئمة شيوخهم بأنهما أصل طريقتهم ، والبحر الذي تستخرج منه جميع درر حقائقهم ، وهو أن من اشتغل بكثرة ذكر الله التي هي اقرب الطرق الى معرفة الله وحبه يحصل له في اثناء ذلك من كشف اسرار الكون والمشاهدات والأذواق الروحية ما يفتنه نفسه وبخواطره وذوقه، فيتوهم ان كل مايشعر به ويتخيله حقيقة أثبتها الكشف، كما يفتتن المشتغلون بالفلسفة النظرية بما يظهر لهم من النظريات في هـذه الموجودات فيظنون انها حقائق أثبتها العقل ، وكل من الفريقين المفتونين يظن أن ماعنده هو الحقيقة ، وان خالف نصوص الشريعة ، فاما أن يتركها فيكون من الكافرين ، وإما أن يتأولها فيكون من المبتدعين، والحق ان كلاً منهما يخطيء ويصيب ، وأن كلامهم يناقض بعضه بعضا، حتى مايسمونه كشفا، أو تلقياً من ملك الالهام، أو من النبي (ص) في اليقظة أو المنام . وقد أبطلت العلوم العصرية، أصول فلسفتهم المادية والروحية

وللصوفية الشرعيين في حب الله منازل عالية، ومقامات راسخة، ومعارف واسعة، في حب كل شيء يحب الله ، مع إعطاء الشرع حقه فيما يبغض الله وما يحب الله. قالت رابعة العدوية رحمها الله :

أحبـك حبين حب الهوى ... وحباً لانك أهـل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشيء شغلت به عن سواكا
وأما الذي أنت أهــل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا

والذي نفهمه من هذا الشعر ان الحب الاول هو حب العبودية وهي حيرة شاغلة عن كل ماعداها ، والثاني حب المعرفة وغايتها رفع الحجب الكثيرة المانعة من كمالها الى أن تكمل بكرامة الرؤية في الآخرة. وقد بينا هذا المعنى وهذه الحجب في تفسير آية الرؤية من سورة الاعراف [١] وقد روي عن الامام عبد القادر الجيلاني رحمه الله انه كان كلما ولد له ولد يكبر اربع تكبيرات كتكبيرات صلاة الجنازة ويقول مامعناه انه بعده كالميت حتى لاينازع حبه حب الله تعالى في قلبه . وإذا أحببت ان تعرف الصحيح الشرعي من هذا الحب فعليك بمدارج السالكين للمحقق ابن القيم رحمه الله تعالى

هذا — وان لهم من المعاني الرقيقة في صفات المثل الأعلى للكمال البشري في هذه الخليقة ، والمدد الاكمل في الشريعة الشاملة للطريقة والحقيقة ، خاتم النبوة والتشريع السماوي ، ومشرق الانوار الالهية للعرفان الالهي ، الرحمة المرسلة للعالمين ، محمد رسول الله وخاتم النبيين ، مايجعل حبه هو المعراج الأعلى الى حب العبد لله ، واتباعه هو الوسيلة الوحيدة الى نيل مقام الحب من الله ، بنص (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) مع التفرقة التامة بين حقيقة الربوبية والالوهية ، وحقيقة الرسالة التي هي أعلى مقامات العبودية ، فلا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم مالا يطلب إلا من الله ، لانهم يعلمون انه عبد لا ند لله ، بل لا يسألون الا الله ، كما ورد في مناقب الصديق الاكبر انه لم يسأله صلوات الله وسلامه عليه شيئا لنفسه ولا الدعاء

واذا صح للانسان حب الله وحب رسوله وكمل فيهما ، صارت سائر أنواع الحب الحيواني والنفسي والمادي تابعة وممدة لهما ، حتى تغرق او تفنى فيهما ، فهو يعطى كل ذي حق حقه من الحب الشرعي الفطري ، ويسهل عليه بذل ماله ونفسه في سبيل الله ، توسلا به الى لقاء الله . وكذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم. وتأمل ما كان من تحريض الخنساء (رض) لأولادها على الجهاد بشعرها حتى قتلوا واحداً بعد واحد ، فقالت وهي التي يضرب المثل بحزنها على أخويها في الجاهلية: الحمد لله الذي أكرمني بشهادتهم . وما فقد المسلمون السيادة في الدنيا والاستعداد لسعادة الآخرة الا بالحب المادي لانفسهم ولشهواتهم ، وإيثاره على حب الله

(١) راجع ص ١٤٠ ج ٩

ورسوله الذي هو مناط سعادتهم ، والجهاد في سبيله الذي كان مناط سيادتهم ، وكان من عقابهم على ذلك ابتلاؤهم ببذل أنفسهم وأموالهم في سبيل أعدائهم . ولا نجاة لهم الا بتربية أنفسهم على توطينها على الموت في سبيل الله. فمن لم يتح له الموت في جهاد العدو، فعليه بطلب الموت الارادي في جهاد النفس، فلا حياة الا بعد موت، والموت آية الحب الصادق

فان شئت أن تحيا سعيداً فمت به شهيداً وإلا فالغرام له اهل

وله من العبرة في الآيات التالية ، ما يجعل هذا المعاني المعقولة مشاهد ماثلة ، والدلائل الشرعية، وقائع حسية ، في آثار النبي المختار ، وإيثار الانصار ، والفرق بين المؤمنين الراسخين منهم ومن المهاجرين ، وبين المؤلفة قلوبهم والمنافقين ، فيما كان من خذلان وهزيمة، ومن نصر وغنيمة.

---

(٢٥) لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٦) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ (٢٧) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هذه الآيات تذكير للمؤمنين بنصر الله لهم على أعدائهم في مواطن القتال الكثيرة معهم إذ كان عددهم وعتادهم قليلا لا يرجى معه النصر بحسب الاسباب والعادة ، وابتلائه إياهم بالتولي والهزيمة يوم حنين على عجبهم بكثرتهم ورضاهم عنها، ونصرهم من بعد ذلك بعناية خاصة من لدنه - ليتذكروا ان عنايته تعالى وتأييده لرسوله وللمؤمنين بالقوى المعنوية ، أعظم شأنا وأدنى الى النصر من القوة المادية ، كالكثرة العددية وما يتعلق بها ، وجعل هذا التذكير تاليا للنهي عن

ولاية آبائهم واخوانهم من الكفار ، وللوعيد على إيثار حب القرابة والزوجية والعشيرة (ولو كانوا مؤمنين) والمال والسكن على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، تفنيداً لوسوسة شياطين الجن والانس - من المنافقين ومرضى القلوب - لهم واغرائهم باستنكار عودحالة الحرب مع المشركين وتنفيرهم من قتالهم لكثرتهم، ولقرابة بعضهم ، ولكساد التجارة التي تكون معهم، وذلك بعد إقامة الدلائل على كون ذلك من الحق والعدل والمصلحة العامة في الدين والدنيا، وفي هذه الغزوة من العبر والحكم والاحكام ماليس في غيرها وسنبين المهم منه في إثر تفسير الآيات. قال عزوجل

﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ﴾ الظاهر ان هذا الخطاب مما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لجماعة المسلمين بالتبع لما قبله وفيهم بقية من المنافقين وضعفاء الايمان، ولم يعطف عليه لانه بيان مستأنف لاقامة الحجة على صحة ما قبله من نهي ووعيد، وان الخير والمصلحة للمؤمنين في ترك ولاية أولي القربى من الكافرين ، وفي إيثار حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب أولي القربى والعشيرة والمال والسكن مما يحب للقوة والعصبية وللتمتع بلذات الدنيا ، فان نصر الله تعالى لهم في تلك المواطن الكثيرة لم يكن بقوة عصبية أحد منهم، ولا بقوة المال، وما يأتي به من الزاد والعتاد ، وقد ترتب عليه من القوة والعزة والثروة مالم يكن لهم مثله من قبل ، ثم ترتب عليه من السيادة والملك بطاعة الله ورسوله ماهو أعظم من ذلك فيما بعد ، ثم يكون له من الجزاء في الآخرة ماهو أعظم وأدوم . وانما ذلك من فضل الله عليهم بهذا الرسول الذي جاءهم بهذا الدين القويم .

والمواطن جمع موطن وهي مشاهد الحرب ومواقعها، والاصل فيه مقر الانسان ومحل اقامته كالوطن . ووصفها بالكثيرة لانها تشمل غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وأكثر سراياه التي أرسل فيها بعض أصحابه ولم يخرج معهم . ولا يطلق اسم الغزوة - ومثلها الغزاة والمغزى - الا على ماتولاه صلى الله عليه وسلم بنفسه من قصد الكفار الى حيث كانوا من بلادهم او غيرها

روى البخاري ومسلم في كتاب المغازي من صحيحيهما عن ابي إسحاق السبيعي انه سأل زيد بن أرقم: كم غزا النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة ؟ قال تسع عشرة .

وسأله : كم غزا معه ؟ قال سبع عشرة ، قال الحافظ في شرح الحديث من اول الكتاب عند قوله تسع عشرة : كذا قال ومراده الغزوات التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سواء قاتل او لم يقاتل لكن روى ابو يعلى من طريق ابي الزبير عن جابر ان عدد الغزوات إحدى وعشرون وإسناده صحيح وأصله في مسلم . فعلى هذا ففات (١) زيد بن أرقم ذكر ثنتين منها ولعلها الابواء وبواط وكأن ذلك خفي عليه لصغره اه

ثم ذكر الحافظ عن موسى بن عقبة أنه صلى الله عليه وسلم قاتل بنفسه في ثمان : بدر ثم أحد ثم الاحزاب ثم المصطلق ثم خيبر ثم مكة ثم حنين ثم الطائف (قال) وأهمل غزوة قريظة لانه ضمها إلى الاحزاب لكونها كانت في أثرها وأفردها غيره لوقوعها منفردة بعد هزيمة الاحزاب . وكذا وقع لغيره عد الطائف وحنين واحدة لتقاربهما . فيجتمع على هذا قول زيد بن ارقم وقول جابر . وقد توسع ابن سعد فبلغ عدد المغازي التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين وتبع في ذلك الواقدي وهو مطابق لما عده ابن اسحاق الا انه لم يفرد وادي القرى من خيبر ، اشار الى ذلك السهيلي ، وكأن الستة الزائدة من هذا القبيل .. الخ ووضح الحافظ هذا البسط من جانب وتدخل بعض المغازي المتقاربة في بعض من جانب آخر فكان خير جمع بين الاقوال

ثم قال : وأما البعوث والسرايا فعند ابن إسحاق ستا وثلاثين (٢) وعند الواقدي ثمانياً وأربعين (كذا) وحكى ابن الجوزي في التلقيح ستا وخمسين وعند المسعودي ستين ، وبلغها شيخنا زيادة على السبعين ، ووقع عند الحاكم في الاكليل أنها تزيد على مائة فلعله اراد ضم المغازي اليها . اه واختار بعض العلماء أن المغازي والسرايا كلها ثمانون

ومن المعلوم أنه لم يقع فيها كلها قتال فيقال انه تعالى نصرهم فيها كما ان من

---

(١) الصواب حذف الفاء هنا او ان يقال : ففات زيد بن ارقم على هذا الخ

(٢) كذا في النسخ المطبوعة بمصر ولعل أصله : فبلغت عند ابن اسحاق الخ وكذا يقال فيما بعده

المعلوم انه تعالى نصرهم في كل قتال إما نصراً عزيزاً مؤزّراً كاملا وهو الاكثر، ولا سيما بدر والخندق وغزوات اليهود والفتح ، وإما نصراً مشوبا بشيء من التربية على ذنوب اقترفوها كما وقع في أحد إذ نصرهم الله أولا ثم أظهر العدو عليهم بمخالفتهم أمر القائد الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في أمر من أهم أوامر الحرب وهو حماية الرماة لظهورهم كما تقدم تفصيله في سورة آل عمران وتفسيرها ـ وكما كان في حنين من الهزيمة في أثناء المعركة والنصر العزيز التام في آخرها وهو مابينه تعالى بقوله

﴿ ويوم حنين ﴾ أي ونصركم يوم حنين [1] أيضا وهو واد الى جنب ذي المجاز قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات ، هذا ما اعتمده الحافظ في الفتح وغيره، وقيل إن بينه وبين مكة ست ليال وعن الواقدي ثلاث ليال . وفي روح المعاني للآلوسي انه على ثلاثة أميال من الطائف . وتسمى هذه الغزوة غزوة أوطاس وغزوة هوازن. وأوطاس كما في معجم البلدان واد في أرض هوازن كانت فيه وقعة حنين للنبي صلى الله عليه وسلم ببني هوازن ومثله في القاموس ، وقد عقد البخاري في صحيحه بابا لغزوة أوطاس بعد سوق الروايات في غزوة حنين . وقال الحافظ في الكلام على هذه الترجمة : قال عياض هو واد في دار هوازن وهو موضع حرب حنين . اه وهذا الذي قاله ذهب اليه بعض أهل السير والراجح ان وادي أوطاس غير وادي حنين . ويوضح ذلك ما ذكر ابن اسحاق أن الوقعة كانت في وادي حنين وأن هوازن لما انهزموا صارت طائفة منهم إلى الطائف وطائفة الى بجيلة وطائفة إلى اوطاس، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عسكراً مقدمهم أبو عامر الاشعري الى من مضى الى أوطاس كما يدل عليه حديث الباب ثم توجه هو وعساكره الى

(١) عطف ظرف الزمان على ظرف المكان جائز كعكسه كما حققه ابو علي الفارسي ومن لم يجزه يتأول مثل هذا التعبير بتقدير مضاف .وقال الزمخشري : انه منصوب بفعل مضمر وهو معطوف على ماقبله عطف جملة على جملة وانما يصح الخلاف في اعرابه وأما استعماله فلا محل للخلاف في جوازه ولا في فصاحته وهو في القرآن

الطائف . وقال أبو عبيد الله البكري أوطاس واد في دار هوازن وهناك عسكروا هم وثقيف ثم التقوا بحنين اهـ

وقال ابن القيم في الاسمين : وهما موضعان بين مكة والطائف فسميت الغزوة باسم مكانها وتسمى غزوة لانهم هم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ اهـ والاولى ان يقال انها سميت باسمهم لانها وقعت بأرضهم ولانهم هم الذين جمعوا جموع العرب من القبائل الاخرى لقتاله ﷺ وكانوا هم الموقدين لنار الحرب والمقصودين بها

وقوله تعالى ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ بدل من يوم حنين أو عطف بيان له وحاصل معناه مع ما سبقه انه نصركم في مواطن كثيرة ما كنتم تطمعون فيها بالنصر بمحض استعدادكم وقوتكم لقلة عددكم وعتادكم ، ونصركم أيضا في يوم حنين وهو اليوم الذي أعجبتكم فيه كثرتكم إذ كنتم اثني عشر الفا وكان الكافرون أربعة آلاف فقط فقال قائلكم معبراً عن رأي الكثيرين الذين غرتهم الكثرة : لن نغلب اليوم من قلة ، وقد زعم بعض رواة السيرة أن النبي ﷺ هو الذي قال هذا القول ورده الرازي بأنه غير معقول ، ونرده أيضا بأن المنقول الصحيح خلافه وهو ما رواه يونس بن بكير في زيادات المغازي عن الربيع بن أنس قال قال رجل يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة . فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة . اهـ أي وقعت بأسبابها فكانت عقوبة على هذا الغرور والعجب الذي تشير اليه الكلمة ، وتربية للمؤمنين حتى لا يعودوا الى الغرور بالكثرة ، لانها ليست إلا احد الاسباب المادية الكثيرة للنصرة ، وما تقدم بيانه من الاسباب المعنوية في سورة الانفال اعظم[١] وقد قال تعالى حكاية عن المؤمنين الكاملين الذين يعلمون قيمة أسباب النصر المعنوية كالصبر والثقة بالله والاتكال عليه (٢ : ٢٤٨ قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وكذلك وقعت الهزيمة باسبابها في يوم أحد عقوبة وتربية كما تقدم في محله[٢]

---

(١) راجع ذلك في ج ٩ وهذا الجزء مستعيناً بكلمة نصر في الفهرس العام

(٢) راجعها في ج ٤

﴿ فلم تغن عنكم شيئا ﴾ اي فلم تكن تلك الكثرة التي اعجبتكم وغرتكم كافية لانتصاركم بل لم تدفع عنكم شيئا من عار الغلب والهزيمة ﴿ وضاقت عليكم الارض بما رحبت ﴾ أي ضاقت عليكم الارض برحبها وسعتها فلم تجدوا لكم فيها مذهبا ولا ملتحدا ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ أي وليتم ظهوركم لعدوكم مدبرين لا تلوون على شيء.

﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ السكينة اسم للحالة والهيئة النفسية الحاصلة من السكون والطمأنينة، وهي ضد الاضطراب والانزعاج، وتطلق كما في المصباح على الرزانة والمهابة. الوقار. والمعنى ان الله تعالى افرغ من سماء عزته وقدرته سكينته اللدنية على رسوله بعد ان عرض له ما عرض من الاسف والحزن على اصحابه عند وقوع الهزيمة لهم، على انه ثبت كالطود الراسي نفسا، ولم يزدد إلا شجاعة واقداما وبأسا، وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه وأحاطوا ببغلته وقليل ما هم في ذلك الجيش اللهام كما يعلم هذا وذاك من الروايات الصحيحة الآتية، ثم على سائر المؤمنين الصادقين فأذهب روعهم، وأزال حيرتهم واضطرابهم، وعاد اليهم ما كان زال أو زلزل من ثباتهم وشجاعتهم، ولا سيما عند ما سمعوا نداءه صلى الله عليه وسلم ونداء العباس يدعوهم إلى نبيهم بأمره كما يأتي، وانما قال (وعلى المؤمنين) ولم يقل وعليكم لأن الخطاب للجماعة وفيهم بقية من المنافقين وضعفاء الايمان كما تقدم وستأتي شواهده في الروايات الصحيحة. فيا لله العجب من هذه الدقة في بلاغة القرآن

﴿ وأنزل جنودا لم تروها ﴾ أي وأنزل مع هذه السكينة جنوداً روحانية من الملائكة لم تروها بأبصاركم، وانما وجدتم أثرها في قلوبكم، بما عاد اليها من ثبات الجأش، وشدة البأس ﴿ وعذب الذين كفروا ﴾ بالقتل والاسر والسبي، وذلك منتهى الغلب والخزي ﴿ وذلك جزاء الكافرين ﴾ في الدنيا بكفرهم ما داموا يستحبون الكفر على الايمان ويعادون اهله ويقاتلونهم عليه، كما وعدكم فيمن بقي منهم بقوله من هذا السياق أو البلاغ (١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية.

ويدخل في هذا الجزاء من كان حاله مثل حال اولئك الكافرين في قتال من كان على هدي أولئك المؤمنين إلى يوم الدين .

﴿ ثم يتوب الله على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم الى الاسلام، وهم الذين لم تحط بهم خطيئات جهالة الشرك وخرافاته من جميع جوانب انفسهم، ولم يختم على قلوبهم بالاصرار على الجحود والتكذيب، أو الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد ، والله غفور لمن يتوب عن الشرك والمعاصي رحيم بهم . ونكتة التعبير عن هذه التوبة ، وما يتلوها من المغفرة والرحمة ، بصيغة الفعل المستقبل « يتوب » اعلام المؤمنين بان ما وقع في حنين من ايمان اكثر من بقي من الذين غلبوا وعذبوا بنصر المؤمنين عليهم ، سيقع مثله لكل الذين يقدمون على قتال المؤمنين بعد عودة حال الحرب بينهم. فان من سنة الله في الاجتماع البشري ان يميز الخبيث من الطيب بمثل ذلك. وما من حرب من حروب المسلمين الدينية الصحيحة إلا وكان عاقبتها كذلك . ولما صار الاسلام جنسية، وحروب أهله أهواء دنيوية فقدوا ذلك

(فصل في أصح الروايات ، المفسرة لاجمال هذه الآيات)

الخروج الى حنين والقتال والهزيمة

قال الحافظ في اول الكلام على هذه الغزوة من الفتح : قال أهل المغازي خرج النبي صلى الله عليه وسلم الى حنين لست خلت من شوال . وقيل لليلتين بقيتا من رمضان . وجمع بعضهم بانه بدأ بالخروج في اواخر رمضان وسار سادس شوال ، وكان وصوله اليها في عاشره. وكان السبب في ذلك ان مالك بن عوف النضري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون وقصدوا محاربة المسلمين فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم ، قال عمر بن شبة في كتاب مكة : حدثنا الحزامي يعني ابراهيم بن المنذر — حدثنا ابن وهب عن ابن ابي الزناد عن ابيه عن عروة أنه كتب الى الوليد : اما بعد فانك كتبت الي تسألني عن قصة الفتح — فذكر له وقتها — فاقام عامئذ بمكة نصف شهر ولم يزد على ذلك

حتى اتاه ان هوازن وثقيفا قد نزلوا حنينا يريدون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا قد جمعوا اليه ورئيسهم عوف بن مالك . ولابي داود باسناد حسن من حديث سهل بن الحنظلية أنهم ساروا مع النبي صلى الله عليه وسلم الى حنين فاطنبوا السير فجاء رجل فقال اني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فاذا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشاءهم قد اجتمعوا الى حنين ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « تلك غنيمة المسلمين غدا ان شاء الله تعالى » وعند ابن اسحاق من حديث جابر مايدل على ان هذا الرجل هو عبد الله بن أبي حدرد الاسلمي اهـ

وقد أخرج البيهقي في الدلائل حديث الربيع بن أنس المتقدم عن يونس ابن بكر وزاد فيه انهم أي المسلمين كانوا اثني عشر الفاً منهم الفان من أهل مكة أقول وأما العشرة الآلاف فهم أصحابه الذين فتح بهم مكة . وفي البخاري من حديث هشام بن زيد عن أنس عبارة مبهمة بل غلط في هذا العدد قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم ومع النبي عشرة آلاف من الطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداءين لم يخلط بينهما فقال « يا معشر الانصار » فقالوا لبيك يا رسول الله نحن معك . ثم التفت عن يساره (فذكر مثل ذلك) الخ فقوله من الطلقاء غلط ، وفي رواية له: ومن الطلقاء . وهي مبهمة كما يعلم من رواية مسلم وهي « ومعه الطلقاء » الخ . ومن رواية البيهقي التي تقدمت آنفا . وهؤلاء الطلقاء كانوا ألفين . وكان حال بعض الألفين وخفة بعض الشبان هما السبب الاول للهزيمة اذ كان بعضهم منافقاً أظهر الاسلام لما غلب على أمره ووطنه ومهد دينه ومعهد عزه وكبريائه ، وبعضهم ضعيف الايمان وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتألفهم الى أن يظهر لهم نور الاسلام وفضله بالعمل ومعاشرته صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين الصادقين ، ويزول ما كان في قلوبهم من ألفة الشرك وعداوة الاسلام ، حتى ان بعضهم اظهر الشماتة بل الكفر عند ما وقعت الهزيمة وكان منهم من ينوي قتل النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمكنته الفرصة ، كما يعلم من الروايات الصحيحة الآتية في القصة

وأما السبب الثاني للهزيمة فهو مثل ماسبق في وقعة أحد من ظهور المسلمين على

المشركين واقبالهم على الغنائم واشتغالهم بها عن القتال وعند ذلك استقبلتهم هوازن وبنو نصر بالسهام و كانوا رماة لا يكاد يخطىء لهم سهم

روى الشيخان وغيرهما من حديث البراء بن عازب (رض) وسأله رجل من قيس : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة وانا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء - وان أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها - وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وفي رواية لمسلم قال جاء رجل الى البراء فقال أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة ؟ فقال اشهد على نبي الله ﷺ ما ولى. ولكنه انطلق اخفاء من الناس وحسر الى هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة فرموهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد (١) فانكشفوا فأقبل القوم الى رسول الله ﷺ وابو سفيان بن الحارث يقود به بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول (٢)

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

« اللهم انزل نصرك » قال البراء كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به وان الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ (٣)

---

١) قوله أخفاء وحسر بالتشديد فيهما جمع خفيف وحاسر أي مستعجلون وليس عليهم دروع . ورشق النبل رمي الجماعة له دفعة واحدة والرجل من الجراد بكسر الراء الجماعة الكثيرة منه فهو كسرب الطير وقطيع الغنم

(٢) تمثله ﷺ بهذا البيت من الرجز لا يقتضي كونه شاعراً، لا لانه ليس من الشعر وأنه أقرب إلى السجع ، ولا لأن أصله لغيره خاطبه به ، ولا لقلته ولا لانه لم يقصد به الشعر كما قالوا، بل لان الشعر ملكة يقدر صاحبها على نظم الكلام بأوزان وقوافي ملتزمة ملتزما فيه التخييل والايهام وضروب الاغراق والغلو وتصوير الاشياء بغير صورها ، وهذه الملكة تكون بالسليقة وهي أقوى وتكون بالممارسة والصنعة ، ولم تكن له ﷺ هذه السليقة ولم يمارس الشعر ولم يظهر لها أثر في كلامه ﷺ قبل النبوة ولا بعدها (٣) احمرّ البأس: اشتد القتال. ويحاذي به يحاذيه في الاقدام

وروى مسلم أيضا من حديث سلمة بن الاكوع قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلني رجل من العدو فارميه بسهم فتوارى عني فما دريت ما أصنع ونظرت إلى القوم فاذاهم قدطلعوا من ثنية أخرى فالتقوهم وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم فولى صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وأرجع منهزما وعلي بردتان متزراً باحداهما مرتديا بالاخرى فاستطلق ازاري فجمعهما جميعا ومررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزما وهو على بغلته الشهباء فقال رسول صلى الله عليه وسلم « لقد رأى ابن الاكوع فزعا » فلما غشوا رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الارض ثم استقبل به وجوههم فقال «شاهت الوجوه » فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين اه

عدد من ثبت معه صلى الله عليه وسلم في حنين

قال الحافظ في شرح حديث البراء من فتح الباري عند قوله : وأبو سفيان ابن الحارث آخذ برأس بغلته البيضاء بعد بيان أن الحارث هذا هو ابن عبد المطلب عمه صلى الله عليه وسلم مانصه : وعند ابن أبي شيبة من مرسل الحكم بن عتيبة قال لما فر الناس يوم حنين جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول * أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب * فلم يبق معه الا أربعة نفر ثلاثة من بني هاشم ورجل من غيرهم : علي والعباس بين يديه ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بالعنان ، وابن مسعود من الجانب الأيسر ، (قال) وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل

وروى الترمذي من حديث ابن عمر باسناد حسن قال: لقد رأيتنا يوم حنين وان الناس لمولون وما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة رجل (١) وهذا أكثر ماوقفت عليه من عدد من ثبت يوم حنين . وروى احمد والحاكم من حديث عبد الرحمن

(١) الذي في نسخة الترمذي المطبوعة في الهند : وان الفئتين لموليتان - والباقي سواء . وقال حديث حسن صحيح غريب من حديث عبيدالله لا نعرفه من هذا الا الوجه والمراد عبيدالله بن عمر عن نافع عن عبدالله بن عمر

ابن عبدالله بن مسعود عن أبيه قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلا من المهاجرين والانصار فكنا على اقدامنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة . وهذا لا يخالف حديث ابن عمر فانه نفى أن يكونوا مائة ، وابن مسعود أثبت انهم كانوا ثمانين . وأما ماذكره النووي في شرح مسلم انه ثبت معه اثنا عشر رجلا فكأنه أخذه مما ذكره ابن إسحاق في حديثه انه ثبت معه العباس وابنه الفضل وعلي وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة وأسامة بن زيد وأخوه من أمه أيمن بن أم ايمن ، ومن المهاجرين أبو بكر وعمر — فهؤلاء تسعة ، وقد تقدم ذكر ابن مسعود في مرسل الحاكم فهؤلاء عشرة ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب ان الذين ثبتوا معه كانوا عشرة فقط وذلك قوله

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا
وعاشرنا وافى الحمام بنفسه لما مسه في الله لا يتوجع

ولعل هذا هو الثبت ومن زاد على ذلك يكون عجل في الرجوع فعد فيمن لم ينهزم ، وممن ذكر الزبير بن بكار وغيره انه ثبت يوم حنين جعفر بن أبي سفيان ابن الحارث وقثم بن العباس وعتبة ومعتب ابنا أبي لهب وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وشيبة بن عثمان الحجبي فقد ثبت عنه انه لما رأى الناس قد انهزموا استدبر النبي صلى الله عليه وسلم ليقتله فأقبل عليه فضربه في صدره وقال له « قاتل الكفار » فقاتلهم حتى انهزموا . اه

ونقل ابن القيم عن ابن إسحق بسنده إلى جابر بن عبدالله (رض) قال : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من اودية تهامة اجوف حطوط انما ننحدر فيه انحداراً قال وفي عماية الصبح ، وكان القوم قد سبقونا الى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأجنابه ومضايقه قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فوالله ماراعنا ونحن منحطون الا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد منهم على احد . وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ثم قال « الى أين أيها الناس ؟ هلم إلي انا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله » وبقي مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم نفر من المهاجرين وأهل بيته وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن اهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن ام أيمن -وقتل يومئذ-

ظهور شماتة المنافقين بالهزيمة

قال ابن اسحق: ولما انهزم المسلمون ورأى من كان مع النبي صلى الله عليه وسلم من جفاة اهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في انفسهم من الطعن فقال ابو سفيان ابن حرب لاتنتهي هزيمتهم دون البحر، وان الازلام لمعه في كنانته. وصرخ جبلة بن الجنيد — وقال ابن هشام صوابه كلدة — ألا قد بطل السحر اليوم — فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا اسكت فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من ان يربني رجل من هوازن

وذكر ابن سعد عن شيبة بن عثمان الحجبي قال لما كان عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة، قلت أسير مع قريش الى هوازن بحنين فعسى ان اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأثأر منه فأكون انا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول لولم يبق من العرب والعجم احد إلا اتبع محمدا ما اتبعته ابداً، وكنت مرصداً لما خرجت له لايزداد الامر في نفسي الا قوة. فلما اختلط الناس اقتحم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بغلته فأصلتُّ السيف فدنوت أريد ما أريد منه ورفعت سيفي حتى كدت أشعره إياه، فرفع لي شواظ من نار كالبرق يكاد يمحشني، فوضعت يدي على بصري خوفا عليه، فالتفت إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداني «ياشيب (١) ادن مني» فدنوت منه فمسح صدري ثم قال «اللهم اعذه من الشيطان» قال فوالله لهو كان ساعتئذ احب إلي من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي. ثم قال «ادن فقاتل» فتقدمت أمامه أضرب بسيفي — الله اعلم اني أحب ان أقيه بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة ابي لو كان حياً لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون فكروا كرة رجل واحد

(١) هذا ترخيم أصله ياشيبة وأريد به التحبب والاستمالة

وقربت بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها وخرج في اثرهم حتى تفرقوا في كل وجه ، ورجع إلى معسكره فدخل خباءه فدخلت عليه ما دخل عليه احد غيري حباً لرؤية وجهه وسروراً به ، فقال « ياشيبَ ! الذي اراد الله بك خير مما اردت لنفسك » ثم حدثني بكل ما أضمرت في نفسي مما لم اكن اذكره لأحد قط (قال) فقلت أشهد ان لا إله الا الله وأنك رسول الله . ثم قلت استغفر لي ، فاستغفر لي فقال « غفر الله لك » اه وروي نحو من هذا عن النضر أو النضير بن الحارث من انه خرج الى حنين وهو كافر يريد أن يعين على النبي ﷺ ان كانت الحرب عليه ثم صرح له النبي ﷺ في الجعرانة بما كان في نفسه فحسن إسلامه . ذكر الحافظ هذا في ترجمة نضير من الاصابة . وذكر شيئاً في هذا المعنى عن أبي سفيان صخر بن حرب لم يذكر تاريخه

تراجع المسلمين ونصر الله لهم

روى مسلم من حديث العباس (رض) قال شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت انا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي ، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار ، قال عباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ اكفها إرادة ان لاتسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « اي عباس ناد اصحاب السمرة » (١) فقال عباس [وكان رجلا صيتاً] فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ قال فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على اولادها ، فقالوا يالبيك يا لبيك ، قال فاقتتلوا والكفار ، والدعوة في الانصار يقولون يا معشر الانصار يامعشر الانصار . قال ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج فقالوا يا بني الحارث بن الخزرج يابني الحارث ابن الخزرج ، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم

(١) السمرة بفتح فضم الشجرة التي بايع الصحابة النبي ﷺ تحتها يوم الحديبية

فقال رسول الله ﷺ هذا حين حمي الوطيس» (١) قال ثم اخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال « انهزموا ورب محمد» قال فذهبت أنظر فاذا القتال على هيئته فيما ارى ، قال فوالله ما هو الا أن رماهم بحصياته فما زلت ارى حدهم كليلا وأمرهم مدبراً اه وفي رواية له عنه زيادة حتى هزمهم الله تعالى وكأني انظر الى رسول الله ﷺ يركض خلفهم

قال النووي في شرح كلمة العباس قال العلماء: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيداً وانه لم يحصل الفرار من جميعهم ، وانما فتحه عليهم من في قلبه مرض من مسلمة أهل مكة المؤلفة ومشركيها الذين لم يكونوا أسلموا. وانما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الايمان في قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر ، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة الخ وفي السير أن خبر الهزيمة بلغ مكة فشمت منافقوها

وفد هوازن وإسلامهم وغنائمهم وسبيهم

روى البخاري من حديث عروة بن الزبير أن مروان والمسوّر بن مخرمة أخبراه ان رسول الله ﷺ قام حين جاء وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد اليهم اموالهم وسبيهم فقال لهم رسول الله ﷺ « معي من ترون ، وأحب الحديث إلي اصدقه ، فختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم» وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف . فلما تبين لهم ان رسول الله ﷺ غير رادّ لهم إلا إحدى الطائفتين قالوا فانا نختار سبينا ، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال « أما بعد فان إخوانكم قد جاءونا تائبين واني قد رأيت ان ارد اليهم سبيهم ، فمن احب ان يطيّب ذلك فليفعل ، ومن احب منكم ان يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل» فقال الناس قد طيبنا ذلك يارسول الله . فقال رسول الله ﷺ « إنا لا ندري من أذن في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا

(١) كذا في مسلم والمشهور « الآن حمي الوطيس» وحمي كرضي والجملة كناية عن اشتداد الحرب وأول من قالها رسول الله ﷺ كما قالوا ثم صارت مثلا لبلاغتها

عرفاؤكم امركم» فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه انهم قد طيبوا وأذنوا . هذا الذي عن سبي هوازن اه وقائل هذا القول الاخير هو الزهري راوي الحديث كما صرح به البخاري في كتاب الهبة؛ وتطبيب ذلك معناه إعطاؤه عن طيب نفس بلا مقابل ، والعرفاء جمع عريف وهو الذي يتولى امر طائفة من الناس ويتعرف أمورهم ليخبر بها من فوقه من امرائهم وأئمتهم وفعله من باب نصر وحسن. وانما أخر النبي صلى الله عليه وسلم قسمة الغنائم لاجل عتق السبي

قال الحافظ في شرح هذا الحديث من الفتح ساق الزهري هذه القصة من هذا الوجه مختصرة وقد ساقها موسى بن عقبة في المغازي مطولة ولفظه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف في شوال الى الجعرانة (١) وبها السبي - يعني سبي هوازن - وقدم عليه وفد هوازن مسلمين فيهم تسعة نفر من اشرافهم فأسلموا وبايعوا ثم كلموه فقالوا يارسول الله ان فيمن اصبتم الامهات والاخوات والعمات والخالات وهن مخازي الأقوام (٢) فقال « سأطلب لكم وقد وقعت المقاسم فأي الامرين احب اليكم ؟ آلسبي ام المال ؟ » قالوا خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال فالحسب أحب الينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير . فقال «اما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف اكلم لكم المسلمين فكلموهم وأظهروا إسلامكم» فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الهاجرة قاموا فتكلم خطباؤهم فأبلغوا ورغبوا الى المسلمين في رد سبيهم . ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغوا فشفع لهم وحض المسلمين عليه وقال «لقد رددت الذي لبني هاشم عليهم » فاستفيد من هذه القصة عدد الوفد وغير ذلك مما لا يخفى اه

ثم ذكر الحافظ رواية ابن اسحاق ولفظه: وأدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا فقالوا يارسول الله إنا اهل وعشيرة قد اصابنا من البلاء مالم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك . وقام خطيبهم زهير بن صُرد فقال يا رسول الله ان اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك وأنت خير مكفول . ثم أنشد الابيات المشهورة اولها

(١) الجعرانة بكسر الجيم ماء قريب من مكة من جهة عرفات والطائف (٢) يعنون أن في سبيهن عارا وإهانة لأقوامهن

امنن علينا رسول الله في كرم فانك المرء نرجوه وندخر

ويقول فيها : امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

ثم ساق القصة نحو سياق موسى بن عقبة اه ويعني الشاعر الخطيب بما ذكر من قرابة السبايا للمصطفى صلى الله عليه وسلم قرابة الرضاع فقد كان بنو سعد من هوازن وكان في السبايا أخته الشيماء وقد أكرمها وحياها، وقيل كان فيهم حليمة مرضعته أيضاً، وكان من رجال الوفد عمه من الرضاعة أبو مروان ويقال ثروان وبرقان، كما كان هذا الخطيب منهم أيضاً

وفي طبقات ابن سعد ان رجال الوفد كانوا أربعة عشر رجلا وان مما قاله خطيبهم زهير بن صرد في السبايا: وان أبعدهن قريب منك، حضنك في حجورهن، وأرضعنك بثديهن، وتوركنك على اوراكهن، وأنت خير المكفولين

قسمة غنائم حنين

﴿ وإيثار قريش ولا سيما المؤلفة قلوبهم وحرمان الانصار ﴾

كان السبي ستة آلاف نفس من النساء والاطفال الذين قضى عرف الحرب يومئذ استرقاقهم، وأعتقهم النبي صلى الله عليه وسلم باسترضاء المستحقين من الغانمين فجمع بين سياسة الاسلام في التوسل الى تحرير الرقيق بجميع الوسائل واتقاء تنفير المسلمين ولا سيما حديثي العهد بالاسلام . وكانت الابل أربعة وعشرين ألفا والغنم اربعين الف شاة وقيل اكثر ، والفضة أربعة آلاف اوقية . وسبب هذه الكثرة ان مالك بن عوف النضري الذي جمع القبائل للقتال ساق مع المقاتلة نساءهم وأبناءهم ومواشيهم وأموالهم لاجل أن يثبتوا ولا يفروا فكان ذلك تسخيراً من الله تعالى ليكونوا غنيمة للمسلمين ، فلما قسمها وأفاض في العطاء على المؤلفة قلوبهم من طلقاء يوم الفتح وجد الانصار وتحدث بعضهم بذلك فجمعهم النبي صلى الله عليه وسلم وخطب فيهم فأرضاهم وذلك مروي في الصحاح والسنن والمغازي فنذكر اصح الروايات فيه

روى احمد والبخاري ومسلم من عدة طرق واللفظ هنا للبخاري من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الانصار شيئا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب

الناس ، فخطبهم فقال « يامعشر الانصار ! » ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ . قال « ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله كلما قال شيئا ؟ » قالوا الله ورسوله أمن . قال « لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا ، ألا ترضون ان يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم الى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار ، ولو سلك الناس واديا وشعباً لسلكت وادي الانصار وشعبها ، الانصار شعار ، والناس دثار ، انكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض »

وللشيخين من حديث أنس واللفظ للبخاري : قال ناس من الانصار حين افاء الله على رسوله ما أفاء من اموال هوازن فطفق النبي صلى الله عليه وسلم يعطي رجالا المائة من الابل فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم (قال انس) فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقالتهم فأرسل الى الانصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم غيرهم . فلما اجتمعوا قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ماحديث بلغني عنكم ؟ » فقال فقهاء الانصار أما رؤساؤنا يارسول الله فلم يقولوا شيئا وأما ناس منا حديثة اسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فاني اعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم ، أما ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم الى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » قالوا يارسول الله لقد رضينا فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فاني على الحوض » قال انس فلم يصبروا اه وفي رواية فلم نصبر ، لانه منهم وفي رواية اخرى عنه قال : جمع النبي صلى الله عليه وسلم ناساً من الانصار فقال « ان قريشاً حديث عهد (كذا فيهما) بجاهلية ومصيبة واني اردت ان اجبرهم وأتألفهم » الخ

ولهما من حديث عبد الله بن مسعود (رض) واللفظ للبخاري وهو أخصر قال لما كان يوم حنين آثر النبي صلى الله عليه وسلم ناساً : اعطى الاقرع مائة من الابل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى ناساً فقال رجل ما أريد بهذه القسمة وجه الله فقلت والله لأخبرن النبي صلى الله عليه وسلم فقال « رحم الله موسى قد اوذي بأكثر من هذا فصبر » وفي رواية

له عنه فقال رجل من الانصار . قال الحافظ في رواية الاعمش اي عنه فقال رجل من الانصار ، وفي رواية الواقدي انه معتب بن قشير بن عوف وكان من المنافقين

وروى احمد ومسلم وغيرهما من حديث رافع بن خديج قال اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اباسفيان بن حرب وصفوان بن امية وعيينة بن حصن والاقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الابل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك . فقال عباس بن مرداس

أتجعل نهبي ونهب العبيـ د بين عيينة والاقرع (١)

فما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع (٢)

وما كنت دون امرئ منهما ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة اه وقد نقل الحافظ في الفتح اسماء هؤلاء المؤلفة الذين اجزل لهم العطاء فبلغوا اربعين ونيفا

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث زيد بن عاصم المتقدم « لو شئتم لقلتم جئتنا كذا وكذا » انما ابهمه الراوي ادبا معه صلى الله عليه وسلم وقد فسر في حديث أبي سعيد ولفظه فقال « اما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : اتيتنا مكذّبا فصدقناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فواسيناك » ورواه احمد باسناد صحيح من حديث انس بلفظ « افلا تقولون جئتنا خائفا فآمناك ، وطريداً فآويناك ، ومخذولا فنصرناك ؟ » فقالوا بل المنّ علينا لله ولرسوله . اه واقول هذا من عجائب تواضعه ولطفه ودقائق حكمته وسياسته (ص) ذكرما لعله يختلج في مثل تلك الحال في قلوب بعضهم بعد ذكر بعض مامن الله تعالى به عليهم من النعم بهدايته وما كانوا قبلها إلا قبيلتين من قبائل العرب المتعادية المتباغضة لاهمّ لاحداهما إلا الفتك بالاخرى فصاروا اعز العرب ومفخر الاسلام والمسلمين ونزل فيهم (٤: ١٠٢ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) الآية . وأثنى عليهم في آيات اخرى يتعبد الملايين من جميع الشعوب بتلاوتها الى

---

(١) المراد بالنهب الغنيمة . والعبيد (مصغر) اسم فرسه وكان يكون للفرس سهم

(٢) بدر جد أبي عيينة وكان ينسب اليه تارة وإلى أبيه حصن تارة وإنما تفعل العرب ذلك في الجد المشهور كما كان ينسب النبي صلى الله عليه وسلم الى جده عبد المطلب

يوم القيامة. وروي انه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من خطبته بكى القوم حتى اخضلت لحاهم بالدموع رضي الله عنهم. وقد بين المحقق ابن القيم في الهدي ما في هذه الغزوة من الحكم والاحكام فنذكر منها ما يتعلق بتفسير الآيات من العبرة والحكمة وهو قوله نفع الله بعلمه وحكمته:

﴿ فصل في الاشارة إلى بعض ماتضمنته هذه الغزوة ﴾

(من المسائل الفقهية ، والنكت الحكمية)

كان الله عز وجل قد وعد رسوله وهو صادق الوعد أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دينه أفواجا ودانت له العرب بأسرها فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته تعالى ان أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الاسلام وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ليظهر أمر الله وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر الله سبحانه رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين ، ذ قتضت حكمته سبحانه أن اذاق المسلمين اولا مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم ، ليطأمن رءوساً رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً رأسه منحنياً على فرسه ، حتى ان ذقنه تكاد أن تمس سرجه ، تواضعاً لربه ، وخضوعا لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمه وبلده ، ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : لن نغلب اليوم عن قلة ، أن النصر إنما هو من عنده وانه من ينصره فلا غالب له ، ومن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه لا كثرتكم التي أعجبتكم فانها لم تغن عنكم شيئاً فوليتم مدبرين.

فلما انكسرت قلوبهم ارسلت اليها خلع الجبر، مع بريد النصر، (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها) وقد اقتضت حكمته ان خلع النصر وجوائزه انما تفيض على اهل الانكسار (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الارض ونري فرعون

وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

ومنها أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ولا متاعا ولا سبياً ولا ارضاً كما روى أبو داود عن وهب بن منبه قال: سألت جابراً هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال لا وكانوا قد فتحوها بإيجاف الخيل والركاب وهم عشرة آلاف وفيهم حاجة الى مايحتاج اليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم وقذف في قلوبهم إخراج اموالهم ونعمهم وشياههم وسبيهم معهم نزلا وضيافة وكرامة لحزبه وجنده، وتمم تقديره سبحانه بأن اطمعهم في الظفر ، وألاح لهم مبادئ النصر ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا، فلما انزل الله نصره على رسوله وأوليائه وبردت الغنائم لأهلها، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل لاحاجة لنا في دمائكم ولا في نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله سبحانه الى قلوبهم التوبة والانابة ، فجاؤا مسلمين، فقيل ان من شكر إسلامكم وإتيانكم أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم، و(ان يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

ومنها أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين. ولهذا يقترن بين هاتين الغزاتين بالذكر فيقال بدر وحنين ، وان كان بينهما سبع سنين ، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، والنبي صلى الله عليه وسلم رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فالاولى خوفتهم وكسرت من حدهم، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله

ومنها ان الله سبحانه جبر بها اهل مكة وفرحهم بما نالوه من النصر والمغنم، وكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وان كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فانه لم يكن لهم بهم طاقة وانما نصروا عليهم بالمسلمين، ولو أفردوا عنهم لأكلهم عدوهم. الى غير ذلك من الحكم التي لايحيط بها الا الله تعالى اه

ثم عقد فصولا أخرى لما فيها من احكام الفقه

فتاوى المنار

﴿ بقية الكلام في أحاديث انشقاق القمر ﴾

تتمة إشكال عدم رؤية اهل الآفاق له

وأما قولهم انه لم ينقل الينا عن أهل الارض انهم رصدوا القمر في تلك الليلة فلم يروه انشق، ففيه ان رؤية انشقاقه لاتتوقف على رصده لان من شأنه أن يراه كل ناظر اليه وان الذين ينظرون اليه في ليالي تمه كثيرون

وأما قولهم « ان الحجة فيمن أثبت لافيمن يوجد عنه صريح النفي حتى ان من وجد منه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الاثبات» ففيه انه ليس في موضع النزاع لان الواقع انه وجد مثبت فقط ولكنه يدعي شيئاً لو صح لرآه من لا يحصى من اهل الاقطار المختلفة ، ولنقل عنهم بالتواتر ، وإذ لم يحصل هذا فيكون خبره غير مقبول كما تقدم تقريره من كلام علماء الاصول والمنطق في الخبر الذي يقطع بعدم صحته (دع كونه معارضاً بآيات القرآن المحكمة كما يأتي قريبا)

وقد بالغ القاضي عياض في الاعتماد على هذا الجواب أو الدفع فجعل نقل النفي للشيء بالخبر المتواتر المفيد للعلم القطعي مرجوحا يرد بما يعارضه من إثباته بخبر الواحد الذي لا يفيد الظن عندهم إلا بشروط منها أن لا يكون مخالفاً لسنة الله في الوجود ونظام العالم، وان لا يكون مما تتوفر الدواعي على نقله بالتواتر، وأن لا يكون معارضاً بنص قطعي كآيات القرآن الصريحة في عدم إعطاء الله رسوله ﷺ آية باقتراح الكفار (وسيأتي تقرير هذا في الاشكال الاصولي «و»)

وهذا نص عبارة القاضي « ولو نقل الينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب لما كان علينا به حجة » يعني اننا نصدقهم بأنهم رصدوه طول الليل ولم يروه انشق ولا يكون حجة علينا مع قطعنا بصدقهم ، وعلل هذا بقوله « اذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الارض فقد يطلع على قوم قبل ان يطلع على

الآخرين، وقد يكون من قوم بضد ماهو من مقابليهم من اقطار الارض، أو يحول بين قوم و بينه سحاب وجبال، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض» الخ ماسبقه اليه الخطابي وغيره وتقدم

وفيه ان التعليل الذي ذكره يصح في بعض الاقطار دون جميعها، ولكن لايجوز عقلا أن ينشق ولا يرى في شيء منها، وتقدم الجواب عن اختلاف المطالع والخسوف والكسوف

على ان الحافظ المزي نقل عن شيخ الاسلام ابن تيمية ان بعض المسافرين ذكر انه رأى في بلاد الهند بناء قديماً مكتوبا عليه انه بني ليلة انشق القمر، وأذكر انني رأيت في بعض الكتب او الصحف ان هذا رؤي في بلاد الصين. ولكن مثل هذا الخبر الغريب عن مسافر مجهول لا يعده احد من أهل العلم حجة في مسألة علمية ولو لم تكن كمسئلتنا، لعدم الثقة بعدالته ولانه يروي ما لو صح لوقف عليه المسلمون الفاتحون للهند، وجعلوا لذلك البناء شأناً يشتهر به ويزار، ولدون خبره في كتب التاريخ، ولم يوجد شيء من ذلك. على انه لو وجد بهذا الابهام والاجمال لما كان حجة في موضوعنا لجواز أن يكون سببه أسطورة أو اشاعة حدثت عند الذين بنوه وربما كانوا من الوثنيين. وقد نقل الحافظ في سياق هذا المبحث ان العلامة الحليمي المشهور، قال كما نقل عنه البيهقي في البعث والنشور مانصه

« ان من الناس من قال ان المراد بقوله تعالى [وانشق القمر] اي سينشق [قال الحليمي] فان كان كذلك فقد وقع في عصرنا فشاهدت الهلال ببخارى في الليلة الثالثة منشقا نصفين عرض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع أو خمس ثم اتصلا فصار في شكل أترجة الى أن غاب، وأخبرني من اثق به انه شاهد ذلك في ليلة أخرى .اه وقد صرح الحافظ ابن حجر بتعجبه من إقرار البيهقي لهذا مع حديث ابن مسعود. ونحن نصدق ماذكره الحليمي عن نفسه وعمن يثق به ونجزم انهما تخيلا خيالا، أو عرض لبصرهما ماصور لهما ذلك، ومن العلل العارضة للبصر أو الدائمة مايصور لها الواحد اثنين، وهذا معروف مشهور

﴿ هـ ﴾ الاشكال الفلكي

استشكل بعض النـاس خبر انشقاق القمر بما هو مقرر في أصول علم الفلك (القديم) كذا قال الحافظ « وانهم احتجوا بأن الآيات العلوية لايتهيأ فيها الخرق والالتئام » وعزاه الى الفلاسفة ونقـل عن الزجاج عزوه الى « المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة » وأجاب عنه بأن القمر مخلوق لله يفعل فيه مايشاء . أقول وهذا حق لاينكره مؤمن بالله ، ومسألة عدم قبول الافلاك للخرق والالتئام، من أوهام فلاسفة اليونان ، وقد كشفها وأبطلها علم الهيئة الحديثة . ولـكن لايشك عاقل من المؤمنين وغيرهم ان خلقه تعالى للسموات وأجرامها في غاية الابداع والنظام لاتفاوت فيه ولا خلل ، وان سنته تعـالى في الخلق لاتتبدل ولا تتحول ، فلا يصدق خبر وقوع تغير فيها إلا بخبر قطعي ثابت مثل ثبوتها وثباتها ، كآيات الرسل التي أخبر الله تعالى بها، ومن دونها آيات أرضية لايتضمن وقوعها مايتضمنه انشقاق القمر ورجوع الشمس بعد غروبها من مخالفة نظام الكون العام، ومعارضة قوله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقول رسوله ﷺ « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لاينكسفان لموت أحد ولا حياته » متفق عليه وذلك كنبع الماء من بين أصابعه ﷺ فمثل هذا يقبل في خبره ماصح وإن لم يتواتر ويصير قطعياً . ونحن انما نذكر مثل هذه الدقائق لغرض شرعي صحيح سنذكره بعد .

﴿ و ﴾ الاشكال الاصولي الاعظم

قد ثبت بآيات القرآن المحـكمة الـكثيرة القطعية الدلالة ان آية الله تعالى وحجته على صحة نبوة خاتم رسله محمد ﷺ التي تحدى بها الـكفار ولم يحتج عليهم بغيرها هي كتاب الله المعجز للبشر ولغيرهم من الخلق وثبت بالحديث الصحيح الصريح أيضاً فقد قال (ص) « ما من الانبياء نبي إلا أعطي مامثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيتـه وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » رواه الشيخان والنسائي فقوله (ص) « وانما كان » من شرح تفيد الحصر وقد تأولوه بانه لما كان القرآن أعظم معجزاته وأدومها كان غيرهم منها

كأنه غير موجود ، ولا حاجة إلى هذا التأويل اذا اشترط في المعجزة التحدي فانه (ص) لم يتحدّ العرب ولا عيرهم إلا بالقرآن . وقد بين العلماء حكمة ذلك بما هو معلوم مشهور بناء على انه هو اصل العقيدة القطعي الذي لانزاع فيه ، وثبت بالآيات المحكمة الكثيرة القطعية الدلالة ان الكفار طالبوا النبي ﷺ بآية من الآيات الكونية التي اوتي مثلها الرسل على الابهام ، وانهم اقترحوا عليه آيات معينة ايضاً فلم يجابوا إلى طلبهم ، وفي بعض هذه الآيات مايدل على انه ﷺ كان يحب هو وأصحابه ان يؤيده الله بآية مما اقترحوه لعلهم يؤمنون ، وان الله تعالى لم يؤته ذلك بل بين له في بعض تلك الاحوال ان طلبهم الآيات انما يقصدون به التعجيز وانهم لو اعطوها لايؤمنون ، وان سنته قد مضت بان ينزل عذاب الاستئصال بكل قوم اقترحوا آية على رسولهم ولم يؤمنوا باجابتهم الى ذلك ، وامره في احوال اخرى بان يخبرهم بان الآيات عند الله وبيده وحده ، وانه هو بشر لايستطيع شيئاً مما لايستطيعه البشر ، الا ان الله تعالى أوحى اليه ما امره ان يبلغه الناس من البينات الهدى والايمان ، وصرح في بعضها بان آيته الكتاب العزيز المشتمل على آيات كثيرة في آية الله الكبرى ، وصرح في بعض آخر ببعض تلك الآيات فيه

ففي سورة يونس (١٠ : ٢٠ ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه قل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين) وفي سورة الرعد (١٢ : ٨ ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه انما انت منذر ولكل قوم هاد) وفيها (٢٨ ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي اليه من اناب)

وفي سورة طه (٢٠ : ١٣٣ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ؟ اولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى ؟) أي اخبار كتب الانبياء في القرآن وهي إحدى معجزاته

وفي سورة العنكبوت (٢٩ : ٥٠ وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه : قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين (٥١) اولم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

وفي سورة الانعام (٦ : ٨ وقالوا لولا انزل عليه ملك ؟ ولو انزلنا ملكا

لقضي الامر ثم لاينظرون) أي لقضي الامر بهلاكهم واستئصالهم ثم لاينظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون بعد نزوله

وقال في سورة الاسراء (١٧: ٦٠ وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً)

وقال في سورة الانعام لرسوله صلى الله عليه وسلم مسلياً إياه عن إعراضهم ومؤيساً اياه من اعطاء الآية الكونية المقترحة (٦: ٣٩ وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقاً في الارض او سلماً في السماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٤٠) انما يستجيب الذين يسمعون . والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون (٤١) وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه؟ قل ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون)

ثم قال فيها مؤيساً لأصحابه صلى الله عليه وسلم من إيمانهم اذا أوتوا آية (١١٠ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون (١١١) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة .ونذرهم في طغيانهم يعمهون (٩١٢)ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون) وليراجع من شاء تفسير كل ما ذكرنا من هذه الآيات التي في سورة الانعام في الجزء السابع وأول الثامن من تفسيرنا هذا وفي غيره

بعد التذكير بهذه الآيات المحكمة القطعية كيف يمكننا أخذ رواية أنس ابن مالك [رض] في الصحيحين بالقبول فنصدق أن المشركين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر ، ولم يدع غيره من رواة الحديث في الصحيحين هذه الدعوى مع العلم بأن روايته له مرسلة لانه انصاري كان عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ابن عشر سنين وعند انشقاق القمر ابن خمس سنين في المدينة، ولا يعلم أحد إلا الله ممن سمع هذا الخبر ، واحتمال سماعه له من ابن مسعود بعيد لانه لم يأت في شيء من الروايات الصحيحة عن ابن مسعود ان المشركين اقترحوا على النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. وفي رواية عنه مرتين وهي

غلط من الرواة كما بينه ابن القيم وابن حجر ويراد بها الشقين ، ولم يصح ذلك عن أحد ممن رووا عنه هذا الحديث ، وانما روى نحوه أبو نعيم في الحلية ببعض اسانيده الواهية عن ابن عباس [رض] وروى عنه ما يعارضه وهو أن الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية ليؤمنوا فأراهم انشقاق القمر هم بعض اليهود ، وهي رواية شاذة على شدة ضعفها لم يقبلها أحد من العلماء الذين يقبلون الاحاديث الضعيفة في الفضائل والدلائل لمعارضتها للأولى ولان مكة لم يكن فيها اليهود وسورة القمر مكية بالاجماع

قال الحافظ في شرح حديثه في [باب انشقاق القمر] من البخاري : ولم أر في شيء من طرقه ان ذلك كان عقب سؤال المشركين الا في حديث انس فاعله سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ثم وجدت في بعض طرق حديث ابن عباس صورة السؤال وهو وان كان لم يدرك القصة لكن في بعض طرقه مايشعر بانه حمل الحديث عن ابن مسعود كما سأذكره فاخرج أبو نعيم في الدلائل من وجه ضعيف عن ابن عباس قال : اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والاسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، فسأل ربه فانشق اه والحافظ حجة في النقل ضعيف في إيراد الاحتمالات وتوجيهها في الغالب ولا سيما الاحتمالات المؤيده لما يراه صحيحاً أو حسناً في نفسه كالفضائل والمناقب، وما يعد من دلائل النبوة منها أولى

وأول مايخطر في بال مستقل الفكر ان الذين رووا الحديث عن ابن مسعود نفسه عند الشيخين وغيرهما لم ينقل أحد عنه ان انشقاق القمر كان إجابة لطلب الكفار آية من النبي صلى الله عليه وسلم وذلك معارض لنصوص القرآن فكيف نلصق به احتمال تحديث ابن عباس بذلك في رواية لم تصح عن ابن عباس ، مع أن رواية ابن عباس في الصحيحين مرسلة يحتمل أن يكون سمعها من بعض التابعين حتى كعب الاحبار الذي ثبت انه روى عنه بعض إسرائيلياته في التفسير وغيره

هذا مجمل مايقال في رواية كون انشقاق القمر كان آية مقترحة من الكفار

خلافا لما يقتضيه ماذكرنا من آيات القرآن وما لم نذكر منها ، ولم نر أحداً من العلماء عني ببيان الاشكال والجواب عنه ، إلا أن الخطابي قرر في مسألة انشقاق القمر حكمة عدم بلوغ شيء من المعجزات المحمدية مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن — بما حاصله كما تقدم عن الحافظ ابن حجر « ان معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس ، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية » الخ ماتقدم وهو تلخيص الحافظ لكلامه أو لما فهم أو أراد منه، على أنه لم يرض منه إلا تعليله لمناسبة إيتاء كل نبي مايناسب حال أمته من الآيات كما تقدم . ولكن الشيخ علياً القاري نقل عبارته نفسها في شرحه للشفا وهي:

«قال الخطابي: الحكمة في وقوعها ليلا ان من طلبها من الرسول صلى الله عليه وسلم بعض من قريش فوقع لهم ذلك ليلا ، ولو أراد الله تعالى أن تكون هذه المعجزة نهاراً لكانت داخلة تحت الحس قائمة للعيان بحيث يشترك فيها الخاصة والعامة لفعل ذلك ولكن الله تعالى بلطفه أجرى سنته بالهلاك في كل أمة أتاها نبيها بآية عامة يدركها الحس فلم يؤمنوا ، وخص هذه الامة بالرحمة فجعل آية نبيها عقلية وذلك لما أوتوه من فضل الفهم بالنسبة إلى سائر الامم والله سبحانه وتعالى اعلم » اه

وهذه العبارة تفيد مالم يفده تلخيص الحافظ لها وإنما يلخص كل إنسان من كلام غيره مايفهمه مما يتعلق بغرضه وما كل إنسان يفهم كل مراد غيره من كلامه، وما كل ماخص يؤدي كل مافهمه كما فهمه ، وكل من العبارتين قاصر عن تحقيق الحق في الموضوع ، وقد بيناه في مواضع من تفسيرنا ، ومنه أن الله تعالى جعل آيته على صدق رسالة خاتم النبيين عقلية علمية دائمة لاتنقطع لتكون حجة قائمة على العقلاء ببقاء أمة الدعوة وامة الاجابة أي الى يوم القيامة لأن الآيات الكونية لابقاء لها، ويحصل المراء في نقلها وفي دلالتها

ومنه انه مضت سنة الله تعالى بأن الامة التي تقترح على رسولها آية ثم تكفر به بعد تأييد الله إياه بها فان الله تعالى ينزل بها عذاب الاستئصال العام عاجلا لا عذاب المكذبين وحدهم ، ولما كان خاتم النبيين قد أرسل رحمة للعالمين كان

تعذيب قومه بعذاب الاستئصال منافياً لهذه الرحمة ومستأصلا لجميع البشر او لقومه في الجنسية النسبية وهم العرب عامة ، لا من رآها منهم وكذبها خاصة ، ولو استأصل العرب ، لما آمن بالقرآن شعوب العجم ، (ولو نزلناه على بعض الاعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) وانما أعد الله لفهمه وفقهه العرب ، وقدر أن يكونوا هم الدعاة والهداة للعجم ، بما يرون من تأثير هدايته فيهم بالسيادة والعدل في الأمم ، كما بيناه في فاتحة التفسير . فعبارة الخطابي قاصرة . ومن الغريب انه يزعم أن وقوع انشقاق القمر ليلا يخرجه عن كونه آية حسية ، ليدفع به استشكاله بعدم نزول العذاب بهم لعدم ايمانهم بها ، وهو ما اشترطه هو دون غيره لعذاب الأمة اذا لم تؤمن عقب رؤية الآية ، - وهو زعم مخالف للحس

وجملة القول أنه لو صح ان قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وسلم آية تدل على صدق نبوته وان الله تعالى أجابهم الى طلبهم فجعل انشقاق القمر آية كما هو نص حديث أنس في الصحيحين وغيره في غيرهما لعذب الله أمته وقومه باستئصالهم على حسب القاعدة الصحيحة الثابتة بالنص القطعي ، أو لعذب من رأوها وكذبوا بها على رأي الخطابي ومن وافقه ، ولكن لم ينقل ان الله تعالى عذب أحداً منهم عقب ذلك التكذيب بل نقل خلافه وان منهم من مات بعد ذلك ، ومنهم من قتل ببدر بعد بضع سنين ، ومنهم من آمن بعد إصراره على التكذيب بعد رؤيتها بضع عشرة سنة كالنضر بن الحارث من مسلمة الفتح الذين شهدوا حنيناً وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم مائة بعير تأليفاً له . وقيل انه أخ له اسمه نضير بالتصغير وراجع الاسمين في الاصابة

ومن غريب الذهول ان الحافظ ابن كثير لم يعرض لهذه المسألة في تفسير أول سورة القمر بل أورد حديث أنس وسكت عليه ولكنه أشار اليها في تفسير بعض الآيات الصريحة في عدم إجابة الكفار الى ما كانوا يقترحونه على النبي صلى الله عليه وسلم من المجيء بأية أي آية او بآية معينة ، قال في تفسير آية يونس (١٠ : ٢٠ وقالوا لولا يأتينا آية من ربه) بعد أن أورد بعض الآيات في معناها مانصه:

يقول تعالى ان سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ماسألوا فان آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين إعطائهم ماسألوا فان آمنوا وإلا

عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ الى الجواب عما سألوا (فقل انما الغيب لله) أي ان الامر كله لله وهو يعلم العواقب في الامور (فانتظروا اني معكم من المنتظرين) أي ان كنتم لاتؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله في وفيكم . هذا مع انهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرهم الى القمر ليلة إبداره فانشق باثنتين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الارضية مما سألوا ومما لم يسألوا اه المراد منه وقد أورد بعده بعض الآيات الناطقة بأنهم سألوا ذلك عناداً وتعنتاً وانهم لايؤمنون إذا أجيبوا إلى ماطلبوا وإلى ماهو أعظم منه. وظاهر عبارته هنا في مسألة انشقاق القمر انه لم يكن عن طلب واقتراح منهم، وإلا كان مناقضاً لماقبله ولما بعده من الآيات هنا ولما قاله كغيره في تفسيرها وفي مواضع أخرى من التفسير

وماذكره (ابن كثير) من تخيير الله تعالى لنبيه ﷺ هو المروي فيماذكر من اقتراحاتهم في سورة الاسراء (١٧: ٩٠-٩٣) وقال في تفسير (١٧: ٥٩ ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أي نبعث بالآيات ونأتي بها على ماسأل قومك منك فانه سهل علينا، يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الاولون بعد ماسألوها، وقد جرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم انهم لايؤخرون ان كذبوا بها بعد نزولها الخ

وقال البغوي في هذه الآية: (وما منعنا أن نرسل بالآيات) التي سألها كفار قريش (الا أن كذب بها الاولون) فاهلكناهم، فان لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم، لأن من شأننا في الامم اذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بامهال هذه الامة في العذاب فقال تعالى (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) اه وتكررت أقوال المفسرين بهذا المعنى في تفسير الآيات الكثيرة التي ذكرنا بعضها في أول بيان هذا الاشكال

فهذه أدلة قطعية إجماعية على بطلان متن حديث أنس (رض) المرسل الصحيح السند الذي لم يجد الحافظ مايقويه به على سعة اطلاعه وحفظه إلا حديث ابن عباس

عند أبي نعيم الذي اعترف بضعفه ، وأقول ان في سنده عنده بكر بن سهل وكان يروي الموضوعات وهو من طريق الضحاك عن ابن عباس واتفقوا على أنه لم يره فهو منقطع وضعفه بعضهم وطريق ابن جريج عن عطاء عنه وابن جريج مشهور بالتدليس فلا تقبل عنعنته بالاتفاق دع ماتقدم من ارساله و بطلان متنه

وإذا بطل كون الانشقاق كان آية طلبها كفار قريش فأعطوها زال السبب الذي جعل أكثر العلماء الذين تكلموا في المسألة شديدي الحرص على تصحيح الحديث حتى تجرأ بعضهم على ادعاء تواتره والاجماع عليه، ورد الأكثرون هاتين الدعويين، ولله الحمد أن أكرمهم بعدم قبول مثلهما ، وقد كان من حرص بعضهم على تصحيحه - مع الغفلة عن معارضة القرآن لكونه آية مقترحة - أن طعنوا في دين من أنكر صحته وأبى تفسير الآية الكريمة به وعدوهم من المبتدعين، وان كان لهم سلف من أكبر علماء التابعين ، كعادتهم في نبز كل من خالف المشهور أو الجمهور في كل زمن بلقب الابتداع، ولو تذكروا آيات القرآن الكثيرة المعارضة له لما حرصوا كل هذا الحرص على تصحيح مايخالفها ، بل لما استحلوه ، وإلا كانوا أحق بلقب الابتداع ممن رموهم به أو بما هو شر منه ، وان كان إكباراً لآية انشقاق القمر التي تصغر وتتضاءل دون كل آية من آياته ، فان نوره اقوى وأوضح من نور الشمس التي يستمد القمر نوره منها ، على انهم لم يجدوا بداً من تصغير هذا الانشقاق في سبيل دفع الاعتراضات عليه، حتى قال بعضهم انه وقع في آخر الليل في لحظة من الزمان ، ولذلك لم يره إلا من كان مع النبي (ص) في تلك اللحظة ، وأي برهان على النبوة في مثل هذه اللحظة من آخر الليل أو أوله أو وسطه؟ وكل إنسان يتهم نظره في مثلها وإن لم يكن ثمة تهمة في أنها من تخييل السحر ، وقد وقع مثلها للحليمي وغيره كالثقة الذي حدثه بمثل مارأى؟

وأما معارضة جملة هذه الروايات بما استشكله العلماء ونقلناه عنهم مع أجوبتهم والبحث فيها فالذي نقرره فيها ان من قبل تلك الروايات في أن القمر قد انشق ومن لم يقبلها لعدم اقتناعه بتلك الاجوبة عن تلك الاشكالات سواء في كون كل منهما لم يرد به شيئا من كتاب الله ولا من سنة رسوله ولا مما صح من حديثه

[فان قيل] اننا رأيناك ذكرت كل الروايات عن أولئك الصحابة الكرام في حديث انشقاق القمر إلا حديث علي رضي الله عنه فلم تذكر لنا لفظه ولا سنده لنعلم درجته ودلالته فما سبب ذلك؟ [قلت] انهم ذكروا اسمه كرم الله وجهه في رواته ولكننا لم نر أحداً منهم ولا من غيرهم ذكر لفظه ولا ذكر من خرجه لنراجعه في كتابه إن كان من الكتب المشهورة المتداولة. ولكننا رأينا في شرح الشفاء لملاً علي القاري عند ذكر المتن لعلي في رواته ما نصه: قال الدلجي: لا يعرف مخرجه اه

(ز) الخلاصة الاصولية لأحاديث انشقاق القمر

خلاصة القول في أحاديث انشقاق القمر [١] انها آحادية لا متواترة، [٢] وانها متعارضة مختلفة، لا متفقة مؤتلفة، [٣] وانه ليس فيها حديث مرفوع الى النبي صلى الله عليه وسلم كالاحاديث الناطقة بخصائصه [٤] وانه ليس في الصحيحين منها إلا حديث واحد مسند الى من صرح بأنه رأى ذلك وفيه من الاختلاف ما أشرنا اليه في محله ولكن ليس فيه ان انشقاقه كان بطلب من كفار مكة [٥] وان حديث أنس الذي صرح فيه بذلك مرسل، والاصل في المرسل انه من المردود غير المقبول، على ما فيه من التفصيل المشهور، وروايته عندهما كلها عن قتادة بالعنعنة، إلا لفظ للبخاري «عن قتادة عن أنس انه حدثهم أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر» وقتادة كان على فضله وسعة حفظه مدلساً، فيحتمل أن يكون سمع هذا الخبر عن أنس ممن لا يوثق به، وكلمة حدثهم ليست في قوة حدثنا وحدثني وسمعته وما في معناهن، وكما يحتمل أن يكون قتادة رواه عن أنس بواسطة يحتمل أن يكون أنس سمعه ممن لا يوثق به من التابعين أيضا كما تقدم [٦] وانه على ذلك معارض بنص القرآن وسنة الله في الرسل وأقوامهم والحديث المرفوع المتفق عليه في حصر آية نبوته صلى الله عليه وسلم في القرآن كما تقدم

وغرضنا من هذا أن ما دلت عليه الدلائل القطعية من الآيات الكثيرة والحديث المتفق عليه في حصر آية نبوته في الوحي الذي أوحاه الله تعالى اليه وهو القرآن لا تقتضي الطعن في صدق أنس ولا في صدق قتادة لما ذكرنا من الاحتمال، وهي مقدمة على مضمون حديثهما على كل حال، بل لو وجد فيها حديث صحيح

السند مرفوع إلى النبي ﷺ لكانت مقدمة عليه عند عدم إمكان الجمع بينها وبينه ، وكان هذا دليلا على انه موضوع في الواقع ، وإن عدلوا رجال سنده في الظاهر

وإذ لم يصح هذا الحديث الذي انفرد به أنس في مراسيله على تقدير سماع قتادة منه فسواء عندنا أصح غيره مما رووه في انشقاق القمر أم لا ، فان غرضنا الاول من هذا البحث كله انه لا يوجد فيها حديث صحيح مخالف للقرآن ، لا لأجل المحاماة عن القرآن فان القرآن فوق كل شيء ، وكل ما خالفه فهو باطل قطعا . وانما غرضنا الدفاع عن أنس فقتادة ثم عمن روى عنهما ما ذكر وسكت عليه ، ولا يهمنا بعد هذا أمر من قبيل الرواية واحتج بها وجعلها من دلائل النبوة ، لغفلتهم عن هذه الحقائق القطعية

(ح) تفسير الآية

إن لعناية المفسرين وغيرهم بتصحيح الروايات في انشقاق القمر سببين [أحدهما] تكثير دلائل النبوة بالمعجزات الكونية كما تقدم [وثانيهما] تفسير (اقتربت الساعة وانشق القمر) بها ، وان أكثرهم ليتجرد من كل فهم ورأي وعلم باللغة وغيرها أمام مادون هذه الرواية في تعدد طرقها ، وجلالة رواتها ، كما ترى في تفسير محيي السنة البغوي فمن دونه في العلم بالرواية خضوعا وتسليما لكثير من الروايات الاسرائيلية الواهية والموضوعة

فاذا أنت رجعت إلى لغة القرآن في معاجمها لتفهم الآية منها دون هذه الروايات وجدت في لسان العرب ما نصه : والشق الصبح وشق الصبح يشق شقا إذا طلع . وفي الحديث « فلما شق الفجر ان أمرنا باقامة الصلاة » يقال شق الفجر وانشق — إذا طلع ، كأنه شق موضع طلوعه وخرج منه [1] وانشق البرق وتشقق انفلق ، وشقيقة البرق عقيقته وهو ما استطار منه في الافق وانتشر اهـ فعلى هذا يقال انشق القمر بمعنى طلع وانتشر نوره ، ويكون في الآية بمعنى ظهر الحق ووضح كالقمر يشق الظلام بطلوعه ليلة البدر ، وقال

(١) نقل صاحب اللسان هذه العبارة في تفسير الحديث عن النهاية في شرح غريب الحديث

الراغب في مفردات القرآن (وانشق القمر) قيل انشقاقه في زمن النبي عليه السلام وقيل هو انشقاق يعرض فيه حين تقرب القيامة، وقيل معناه وضح الامر اه ونقله عنه صاحب التاج. وهذا الاخير هو المتبادر من الآية بنص اللغة ومعونة السياق لان صيرورة القمر شقتين منفصلتين لا دخل لها في انذار المشركين الذي هو موضوع السورة ولم يسبق أن عد من آيات الساعة كانشقاق السماء وانفطار الكواكب فلم يبق الا انه بمعنى ظهور الحق ووضوحه بآيات القرآن

والقول بأن معناه انه سينشق عند قيام الساعة مروي عن الحسن البصري وعن عطاء من التابعين، والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي في القرآن كثير جداً في أخبار الساعة والآخرة وغيرهما، وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس قال كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا سحر القمر فنزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر) الى قوله (مستمر) فهذه رواية ثالثة حملها بعضهم على انشقاق القمر وهو بعيد

وقد رد الالوسي هذه الوجوه اللغوية او بعضها بقوله: وزعم بعضهم ان انشقاق القمر عبارة عن انشقاق الظلمة عند طلوعه وهذا كما يسمى الصبح فلقا عند انفلاق الظلمة عنه وقد يعبر عن الانفلاق بالانشقاق كما في قول النابغة

فلما أدبروا ولهم دوي دعانا عند شق الصبح داعي

وزعم آخر ان معنى انشق القمر: وضح الامر وظهر. وكلا الزعمين مما لا يعول عليه، ولا يلتفت اليه، ولا أظن الداعي اليهما عند من يقر بالساعة التي هي أعظم من الانشقاق، ويعترف بالعقائد الاسلامية التي وقع عليها الاتفاق، سوى عدم ثبوت الاخبار في وقوع ذلك على عهده عليه الصلاة والسلام عنده، ومنشأ ذلك القصور التام، والتمسك بشبه هي على طرف الثمام. ومع هذا لا يكفر المنكر بناء على عدم الاتفاق على تواتر ذلك وعدم كون الآية نصا فيه، والاخراج من الدين أمر عظيم فيحتاط فيه ما لا يحتاط في غيره والله تعالى الموفق اه

وقد فاته قول أهل اللغة: انشق البرق وانشق الصبح بمعنى طلع وبمعنى استطار نوره وانتشر في الافق، ومثله القمر في ذلك. فما أنكره وسماه مزاعم هو من

نصوص اللغة وما صرفه هو عنها إلا اغتراره بالروايات في كون الانشقاق كان آية معجزة اقترحها الكفار فأجيبوا اليها ، ومنشأ ذلك غفلته عن كون الحديث في ذلك مرسلا شاذاً عن مدلس وكونه مع هذا معارضا بنصوص القرآن القطعية وما يؤيدها من الاحاديث المسندة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كون آيته التي جعلها الله تعالى حجة نبوته وأمره بالتحدي بها في جملتها تارة وبعشر سور مثله وبسورة من مثله وبالاحتجاج ببعض ما اشتملت عليه تارات أخرى هي القرآن وحده وما كان صلى الله عليه وسلم يرجو بهذا أن يكون أكثر الانبياء تابعا يوم القيامة إلا لان هذه الآية أعظم وأظهر وأبهر وأقهر من كل آيات الانبياء إجمالا وتفصيلا ، وقد فهم هذا المعنى وأدرك هذه الحجة بعض حكماء الافرنج فصرح بأن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن ، كانت أقوى من كل معجزات الانبياء جذبا إلى الايمان

وقد زعم الالوسي وغيره ان قوله تعالى (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) حجة على ان المرد بالآية انشقاق القمر ، ولو كان كذلك لقال : فاعرضوا وقال سحر مستمر. وأما الشرط فللاستقبال أو لبيان الشأن .ولا علاقة بين انشقاق القمر ودعوى النبوة فيكون آية عليها. ولفظ الآية يطلق في القرآن على كل مايدل على وجود الله ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وقدرته ورحمته وحكمته وعلى مايؤيد به رسله، وأكثر مايذكر فيه الاعراض عن الآيات في القرآن يراد به هذه الدلائل أو آيات القرآن كقوله تعالى في النوع الاول (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) وقوله في النوع الثاني (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) وأما قولهم (سحر مستمر) فأول ماقالوه في القرآن وهو ماحكاه عنهم في سورة المدثر (إن هذا إلا سحر يؤثر) وهي ثالثة سورة نزلت بمكة أو الرابعة على القول بأن الفاتحة أول مانزل، وفي معناها آية سبأ (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) وآية الزخرف (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون)

وإنك لترى أوائل سورة الانبياء بمعنى أوائل سورة القمر وهي (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * ماياتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا

استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتاتون السحر وأنتم تبصرون ؟)

(ط) تأييد الاسلام في هذه المسألة وأمثالها

إننا نختم هذا البحث بتنبيه قراء المنار لأمر عظيم الخطر والشأن وهو ان العلماء الذين تساهلوا بقبول روايات انشقاق القمر وجعلها آية كونية حسية جعلت حجة على كفار مكة عند ما اقترحوها ، وتمحلوا في الاجوبة عن الاعتراضات العقلية الاصولية عليها ، فجاؤا بما لا يقبله العاقل المستقل — إنما حملهم على ذلك حب تكثير المعجزات النبوية كما تقدم وتفنيد منكريها ، لان العوام يفهمون من إعجازها مالا يفهمون من إعجاز القرآن ، وقد تغيرت الحال في هذا الزمان الذي كثر فيه استقلال الفكر ورفض التقليد في أكثر المتعلمين ، فصارت هذه الروايات تعد طعناً في علم المسلمين وعلمائهم ، ويخشى أن تعد طعنا في الاسلام نفسه ، والحق أنها ليست من أصول الاسلام ولا من فروعه ، فأصول العقائد الاسلامية لاتثبت إلا بدليل قطعي ، وهذا أمر مجمع عليه بين المسلمين ، والدليل القطعي إما عقلي وإما نقلي ، والنقلي هو النص القطعي الدلالة عن الله ورسوله ، والآية ليست قطعية الدلالة على كون الانشقاق هو صيرورة القمر فلقتين منفصلة إحداهما عن الاخرى كما اعترف بذلك الذين فسروها بذلك وآخرهم الالوسي ، وقد بينا نحن ان دلالتها على ماذكر مرجوحة ، فما كانت لتخطر على بال أحد لولا تلك الرواية المنقوضة بنص القرآن والحديث المرفوع المتفق عليه . وسائر الروايات ليس فيها شيء يصلح لتفسير الآية به إلا من وجه بعيد لايعد نصاً ولا ظاهراً فيه ، وهو عد انشقاق القمر من علامات قرب الساعة بالتبع للآيات في انشقاق السماء وانفطار الكواكب أو الدخول في عموم الثاني ، إذ لم يذكر القمر في آيات الساعة الا في قوله تعالى (فاذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر) الخ

ومن الدفاع عن الاسلام وعلماء المسلمين بحق ان يقال لهؤلاء المستقلين في الفكر ان الاسلام لايكلفكم أن تؤمنوا برواية انفرد بها قتادة المدلس عن

أنس في خبر قد علم باليقين انه لم يحدث فيه عن رؤية ومشاهدة بل عن سماع من مجهول يجوز أن يكون كذابا ، ولا يكلفكم الاسلام أن تؤمنوا بأن الاصل في مرسل الصحابي أن يكون مقبولا لان هذا انما يكون عند قائليه فيما لا اعتراض ولا علة في متنه ولا شذوذ، وحديث أنس خالف جميع الروايات عن غيره . بل الاسلام ينهاكم أن تقبلوا حديث أي إنسان عن صحابي وغيره يخالف نص القرآن ، وسنن الله في الاكوان

ومن اطمأنت نفسه من المسلمين بقبول سائر تلك الروايات على علاتها وكان ممن يرى مخالفة النقل القطعي والعقل ، أهون من مخالفة زيد وعمرو ، وصدق عقله أن تقع هذه الآية ولا يحدث احد من الخلفاء الراشدين ولا غيرهم من قدماء الصحابة برؤيتها والاحتجاج بها فضلا عن تواترها ، فليس له أن يجعلها من عقائد الاسلام وينفر مستقلي الفكر ومتبعي الدليل من المسلمين وغير المسلمين منه

(ي) ذيل في مسألة الثقة بالروايات

قد يحيك في صدور بعض الناس بعد ماتقدم مسألة الثقة بالروايات وعدم الثقة بها ، يقول بعض الناس إذا بطلت الثقة بهذه الروايات في هذه المسألة على كثرتها ، بطلت الثقة بسائر روايات كتب السنة في غيرها

ونقول لهذا القائل [أولا] إن تحقيق الحق بالدليل هو مقدم في الاسلام على توثيق الرواة وتقليد العلماء [وثانياً] إن كثرة هذه الروايات إلى قلة بعد ماعلمت من اضطراب أسانيدها ومتونها وعللها ، ورب حديث واحد مروي من طريق واحد أقوى دلالة منها ، — كحديث «انما الاعمال بالنيات» مثلا . فجملة القول ان عدم الثقة بها لا يقتضي عدم الثقة بغيرها ، وإنما يقتضي أن في كل ماعدا القرآن من الكتب مسائل تحتاج إلى التمحيص مصداقا لقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [ثالثا] ان جملة الروايات انما تدل على ان بعض الصحابة وبعض الكفار رأوا القمر قد انشق فصار فرقتين في لحظة من الزمان، ولا ضرر في تصديق ذلك مهما يكن سببه ، وانما الضرر أن يجعلوه آية مقترحة جعلها الله حجة على صحة نبوة رسوله ﷺ وانه يجب على كل مسلم أو كافر يريد الاسلام ان يؤمن بذلك (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)

ترجمة جديدة للقرآن الكريم

(رسالة للأمير شكيب ارسلان)

من المستشرقين الكبار الذين يليق ذكرهم ويصح الاستشهاد بأقوالهم الاستاذ أدوار مونته Edouard Montet مدرس الالسن الشرقية في جامعة جنيف، وهو مشهور بين الاوربيين من جميع الاجناس، فتجد مؤلفيهم يستشهدون بكلامه في المسائل الشرقية والاسلامية ويقدرون آراءه قدرها

والاستاذ مونته هو من القسم المنصف بين المستشرقين لا يتحامل على الاسلام ولا يقصد في مباحثه إظهار عورات ومثالب للاسلام كما يفعل غيره، بل يحاكم عقيدة الاسلام وتاريخ الاسلام وكل شيء عائد للاسلام محاكمة من ينظر إلى الاشياء كما هي لا كما تخيلها الوهم، أو كما يصورها الضلع، مما هو دأب كثير من الاوربيين الذين يخوضون في هذه المباحث وصدورهم ملأى بالضغن وسوء النية. وليس المسيو ادوار مونته مع ذلك بمسلم ليقال انه في أحكامه وآرائه هذه متأثر بالتربية الدينية الاسلامية، أو انه اقتنع بالاسلام فاتخذه دينا، وأصبح لا يجد فيه عيباً ولا يقبل عليه مطعناً. لا. ان المسيو مونته لم يتخذ الاسلام دينا، وربما كان غير معتقد بكل ما في النصرانية أيضاً، فهو يقول فيهما آراءه بكل صراحة، ويحسّن منهما ما يراه بحسب نظره هو حسنا ويتنقد ما يراه خليقا بالانتقاد، وقد بدرت منه انتقادات ومؤاخذات في كلامه على تاريخ الاسلام تدل على كونه غير دائن بدين محمد صلى الله عليه وسلم لكنها تدل أيضا على انه غير مضمر سوءاً ولا متعمد ثلبا. ولهذا آثرنا أن ننقل بعض كلامه لانه لا يمكن أن يؤتى من قبل تعصب للاسلام ولا أن يقال عنه انه مسلم يدافع عن عقيدته

وقد نضطر إلى تصحيح بعض معلومات ناقصة جاءت في كلام الاستاذ المذكور أو إلى بيان رأينا في المسائل التي تختلف وجهتنا عن وجهته فيها

فمن الكتب التي صنفها الاستاذ ادوار مونته كتاب جليل اسمه الاسلام Lislam أخرجه سنة ١٩٢٣ وطالعناه وأشرنا على مواضع كثيرة منه لنقلها إلى اللسان العربي، وكانت تعوقنا عن ذلك كثرة الاشغال. وكتاب آخر أخرجه في السنة

الماضية يحتوي على ترجمة القرآن المجيد بتمامه إلى اللغة الفرنسية طالعنا جانباً منه وقابلنا الترجمة بالاصل فوجدنا الترجمة حرية بأن توضع في الطبقة الاولى من تراجم القرآن الكثيرة . وقد صدَّر الاستاذ مونته هذه الترجمة القيمة بمقدمة نفيسة سننقل إلى قراء المنار عدة انموذجات منها . وها أناذا أنشر الترجمة الحرفية لديباجة مقدمته لها كما يلي:

«القرآن في الحقيقة هو ذو قيمة خارقة للعادة، فهو بين الكتب الدينية من أعظمها شأنا . وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الانساني يقدَّر بمائتين وخمسين مليونا على الاقل . ومن أهم ما في القرآن استقاؤه من المنابع اليهودية والمسيحية : التوراة العبرانية والتقاليد اليهودية من جهة، والانجيل والتقاليد النصرانية من أخرى (١)

فالعقيدة القرآنية إذاً هي ذات علاقة وثيقة مع العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية، والآثار التاريخية اليهودية المتعلقة بالانبياء والآباء، وكذلك الآثار النصرانية المتعلقة بالمسيح هي موضوع صفحات عديدة من القرآن فهذا التشابه في الفكرة الدينية بين الاسلام والنصرانية هو واصل إلى الحد الذي لا يفهم معه الانسان لماذا وجد المسيحيون والمسلمون أعداءً إلى هذه الدرجة (٢) مدة هذه الأعصر الطويلة، وقام بعضهم على بعض بمصارعات هي في الواقع مصارعات اخوان لاخوان ، لكنها صبغت القرون الغابرة بالدم الغزير؟

على انه لا ينبغي أن يفهم من هذا الاتحاد في أصليْ الاسلام والنصرانية أن الاسلام القرآني فاقد للاستقلال وانه ليس ذا صفة خاصة أصلية، فالامر بالعكس والاسلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الاديان السامية فهو دين سامي تحت صورة عربية خاصة تتجلى فيه روح اللغة العربية

---

(١) المنار : ان جميع المسلمين يخالفون المترجم في هذا الرأي ، ويؤمنون بأن جميع ما في القرآن من عقائد اليهود والنصارى وأحوالهم وتاريخهم هو وحي من الله تعالى وافق ما عندهم من الحق ، وأبطل ما ابتدعوا من الباطل ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً هو وقومه كما قال تعالى (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) (٢) سبب هذا نزغة الحرب الصليبية التي أشعلت نارها الكنيسة الكاثوليكية ولا تزال تراعى فى التربية العامة في مدارس أوربة وبيوتها كما صرح به الدكتور غوستاف لون الحكيم الفرنسي الشهير . وقد وجد الساسة الاستعماريون أن في مصلحتهم بقاء هذه النار مستعرة

ولا ينبغي لقارىء القرآن أن يعجب من التكرار الذي يجده فيه فان مثل هذا التكرار معهود في أعظم الكتب الدينية مثل التوراة ومثل كتاب الاقتداء بالمسيح الذي هو الغذاء الروحي للنفوس المسيحية[١] والقارىء يجد في القرآن صفحات في غاية الابداع سواء من جهة الفكر، أو من جهة القالب الذي وضع فيه الفكر، وكذلك يجد فيه لآلئ فريدة في علم لروح معروضة في آيات هي أعلى ما يمكن من لاسلوب الشعري[٢] وهو فيه أسلوب قائم بذاته، وفي القرآن منازع دينية ذات سعة مدهشة لاسيما بالنسبة إلى العصر الذي عاش فيه ذلك المصلح العربي، فالابداع يتلألأ في هاتيك القطع الباهرة تلألؤ الكواكب الكبرى، ولا غرو أن ينظر اليها القارىء كمثال أعلى للاسلوب الشعري الشرقي

ومما يجعل للقرآن هذه الاهمية انه الكتاب الديني للامم الاسلامية التي تمثل في شرقي أوربة وفي العالم الاسيوي وفي ماليزيا وفي افريقية دوراً ليس مهما وحسب بل دوراً ذا صلة شديدة بالامم الغربية المسيحية

وتظهر عظمة هذا الدور بزيادة في المستعمرات الاوربية التي هي في مختلف أقسام العالم الشرقي والافريقي وفي البلدان التي تحت الحماية الاوربية والبلدان التي تحت الانتداب المتولد من الحرب الكبرى

فأوربة مكافلة في وجودها اليومي للامم الاسلامية التي هي تحت حكومتها أو هي ذات علاقة شديدة معها، ولقد ثبت هذا الامر ثبوتاً كل أحد يعلم مقداره في الحرب العالمية من ١٩١٤ إلى ١٩١٨

وأخيراً نقول ان الذي يجعل للقرآن هذه الاهمية الخاصة التي نشير اليها هو المستقبل المدخر للشعوب الاسلامية إذ لا ينكر أن مستقبلا فخما ينتظر هذه الشعوب على مقدار ما يقتبسون من الحضارة الاوربية

فتركيا وسورية وبلاد العرب وفارس وأفغانستان وشعوب شمالي افريقية

---

(١) المنار: لا ترسخ العقائد ولا الآراء العامة في الانفس الا بتكرار ورودها عليها والتكرار في القرآن من أساليب بلاغته المعجزة للبشر كما هو مبين فى محله

(٢) المنار: يريد الكاتب بالاسلوب الشعري التعبير المؤثر في النفس من التشبيه والتمثيل والاستعارات الجميلة والكنايات اللطيفة لا صناعة نظم الشعر التي نزه الله القرآن والنبي عنها

والثمانون مليون مسلم الذين في الهند الانكليزية والثلاثون مليون مسلم الذين في الصين والشعوب الاسلامية التي لاتكاد تحصى في ماليزيا (جاوى سومطره الخ) هي كلها على مراحل متفاوتة من قبول الحياة الاقتصادية والصناعية والفكرية التي عليها اوربة

وإن هذه النتيجة قد تكون غير منتظرة عند من يجهل هذه الامم أو من لم يقدر ان يفهمها حق الفهم او لم يوفق لفهم عقيدتها التوحيدية التي هي أعلى صورة روحية وجدت في دين بشري سواء عند الامم السامية أو الآرية» انتهى

ولابد لنا ان نعقب على هذه الديباجة ببعض ملاحظات، منها ان المؤلف قال عن عدد المسلمين انه ٢٥٠ مليوناً على الاقل، ولقد اصاب جداً في قوله [على الاقل] لان المسلمين على التحقيق يزيدون على ٣٠٠ مليون نسمة وربما كانوا ٣٣٠ مليونا

واما قوله « ان للمسلمين مستقبلا عظيما على قدر مايقتبسون من الحضارة الاوربية فليس معناه ما تذهب اليه ملاحدة تركيا وما يقلدهم فيه هذا النفر القليل الملحد المتفرنج في مصر والعراق وسورية من أنه يجب عليهم نبذ العلم الديني الاسلامي وأن يستبدلوا به تعليما لا دينياً مارقا من كل صبغة دينية إسلامية . لا ، هذا لم يخطر ببال الاستاذ العلامة مونته ولا هو من أبحاثه في كثير ولا قليل ، ولو كان هذا مقصده لما كان معجباً إلى ذلك الحد بأكثر مبادىء الاسلام وأصوله، ولما كان ألف فيه هذه التآليف المتعة ولما قال « انه أعلى صورة روحية وجدت في دين بشري سواء عند الامم السامية أو الامم الآرية» (أي الاوربية)

وإنما كان مقصد الاستاذ مونته العلوم الاقتصادية والصناعات التي تفوقت بها أوربة اليوم والاساليب الصحيحة التي تسير عليها في حضارتها ، وهذه يندب شرعا الاطلاع عليها والتحقق بها، حتى لايفوت المسلمين شيء من اسباب القوة والمنعة، وحتى لا يكونوا مقصرين فيها عن شأو أعدائهم أو أندادهم ، وهي لعمرى مما يقترن بالتعليم الديني الاسلامي، بل مما تزداد الرغبة فيه بقوة هذا التعليم وتأثيره كما ان الامم الاوربية واليابانية قد بلغت هذه المبالغ القاصية من هذه العلوم الحديثة والصناعات الناشئة عنها ولم تزل متمسكة بأديانها وعقائدها، ولم يبرح التعليم الديني عندها سائراً جنباً إلى جنب مع التعليم الطبيعي والروح فيها متآخية مع المادة

لوزان ١٩ أكتوبر ١٩٢٩ شكيب أرسلان

قواعد الصحة في الاسلام منذ ١٣٤٨ سنة

﴿ وقواعد الصحة في أوربا بعد ١٣٤٨ سنة ﴾

(بقلم الدكتور زكي كرام العربي الدمشقي في برلين وتصحيح المجلة)

ذهب بعض أدعياء العلم الى ان العلة الوحيدة التي حرم الاسلام من أجلها أكل لحم الخنزير هي عدم وجود مجاهر (آلات مكبرة للاجرام) لفحص جرثومة الخنزير المسماة باللاتينية [تريخينا سبيرالي] (Trechina Spirali) وتسميها العوام على الاطلاق تريخين معناه بالعربية [الدود الشعري] وقد ادعت تلك الفئة المضللة ، التي هي لكل حرام بل لكل مضر محللة ، انه لو ولد عليه الصلاة والسلام في الممالك الباردة لما منع شرب الخمور ، وبهذه الاضاليل والترهات يريدون أن يضلوا عباد الله ، بتجرئتهم على ماحرم الله ، وقبل أن نخوض في البحث العلمي نقول إذا كانت حكمة الاسلام في تحريم لحم الخنزير هي عدم وجود مجهر لفحص اللحم والتريخين من الخنزير فهذا لعمري من قول الحق [1] الذي يؤيد رسالة هذا النبي العظيم وبأنه لا ينطق عن الهوى ، وإنما هو وحي يوحى

إنني ممن يؤيدون تلك القواعد والاوامر والنواهي السامية لانطباقها على العلم والمنطق وعليه أقول مع ذلك انه لو كان لدى الرسول ﷺ مجهر أو لو كان لهذه الدودة القتالة علائم تظهر على الحيوان الموجودة فيه فيتجنبه الناس لما كان ذلك كافياً لاباحة أكل لحم الخنزير حتى الخالي من تلك الدودة ، فثم أسباب صحية أخرى

---

(١) المنار : الحق ان علة تحريم أكل الخنزير ضرره لا عدم وجود الآلة التي يرى بها الدود الذي يتولد منه معظم الضرر الخاص به . فان هذه الآلة قد وجدت في هذا العصر في بعض بلاد الحضارة الآلية ولكن أكثر بلاد الدنيا خالية منها والتشريع العام يجب أن يكون موافقا لمصالح جميع البشر فى كل مكان وكل حال ولا يجوز تقييده بحال بعض البلاد ، ولا أن تتفاوت فيه الجماعات ولا الافراد ، والله تعالى هو المحرم للخنزير في التوراة والقرآن ، لا موسى ولا محمد عليهما الصلاة والسلام

لتحريمه فقد أثبت علماء هذا الفن من أطباء العصر أن المنهمكين المواظبين على أكل لحم الخنزير يصابون بتشحم القلب والكبد وبالتشحم العام أيضا. ومرض التشحم القلبي والكبدي والتشحم العام ومضراته معلومة لدى الجميع فنضرب عن بيانه صفحاً ونكتفي بما دلت عليه الاحصاءات الامريكية والاستقراءات الطبية بألمانيا من توقف حفظ الصحة على الكف عن أكل لحم الخنزير لان ذلك التشحم هو السبب لموت الكثيرين في عنفوان الحياة وسن الرجولية الحقيقية من ٤٠ — ٥٠

واليك أيها القارئ نسبة الوفيات التي تثبت هذا المدعى: قرر البروفسور غرافه في مستوصفه الخاص وكذا الاحصاءات الاميركية اننا لو قسمنا الذين في سن الاربعين إلى سمين ونحيف لوجدنا انه لا يصل إلى سن الستين من السمان أكثر من ستين في المائة ومن النحفاء أقل من تسعين. وأما الذين في سن الخمسين فلا يصل من السمان منهم إلى الستين أكثر من ٣٠ في المائة ويقابل ذلك ٥٠ في المائة من النحفاء، وإذا انتقلنا في هذه النسبة إلى سن الثمانين نرى انه لا يصل اليها الا ١٠ في المائة من السمان يقابلهم ٣٠ في المائة من النحفاء. فلهذا ينصح الاطباء العقلاء بالكف عن أكل لحم الخنزير الذى هو أعظم الاسباب لعلة التشحم

الخمور

وأما الخمور فقد كنت كتبت منذ بضع سنين شيئا في مضارها وبما اني رأيت ان الوقت بحاجة إلى مواصلة البحث والتنقيب فسأنتهز ان شاء الله كل فرصة أغتنمها من وقتي الضيق لبيان مضرات هذه الآفة وأرى من الضروري الآن أن أكتب كلمة في الموضوع الذي أنا بصدده فأقول

مضرات الخمر ثبتت للعالم الفني العلمي الذي يتوسل بكل مالديه لافهام الشعوب مضراتها ليستريح البشر مما يعانيه من تلك الآفة، إن كثيراً من التجار الفجار، ومن الجواسيس المناحيس، ومن اللصوص الافاكين، ومن الجناة المحتالين، لايفتكون بحياة صيدهم أوعدوهم وهو [الفكر الصحيح] ولا يأخذون

منه بحق أو باطل إلا بالخمر . فالحرارة التي يحدثها الكحول المؤثر في الخمر لا تدوم إلا ثواني أو دقائق يعقبها برودة لا يتحملها الجسم، فيتطلب الحرارة مرة أخرى بالشرب، ولا يلبث أن يعقبه رد الفعل، وهكذا تكون الحرارة بين طلوع ونزول إلى أن يغمى على المدمن ولا يعرف أين هو وما تجني يداه من الآثام، وكثيراً ما يصفون الكحول للمصابين بالحمى فيشعر المريض بعد بضع ثواني من تعاطيه بسقوط الحرارة ولكن هذا الشعور ليس ناشئا عن سقوط درجة الحرارة سقوطا حقيقياً بل هو شعور كاذب يحدثه الكحول

وأما النشوة التي يتلذذ بها المدمن فسببها طروء خلل على وظائف الخلايا، ونتيجة الاستدامة على تعاطي تلك الآفة هي الجنون أو مادونه من اختلال العقل وكثيراً ما تحدث أمراضاً تحار الاطباء في تشخيصها، ولذا نرى أوربة اليوم تحاول اتخاذ وسائل تدريجية لانقاذ الشعب من هذه الآفة كما ان الاسلام حرم الخمر تحريماً تدريجياً بقوله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) وقوله فيها وفي القمار (وإثمهما أكبر من نفعهما) ولما اعتاد بعض المسلمين تركها في بعض الاوقات وبعضهم تركها البتة بعد ذلك نزلت آية التحريم القطعي (فاجتنبوه لعلكم تفلحون) وأوربا بدأت اليوم بمنع الخمر منعاً تدريجياً [أي بعد أن منعتها الولايات المتحدة الامريكية منعاً عاما قطعياً] وبصورة اختيارية مبنية على حفظ الصحة

واليك أيها القارىء نشرات صحية تصدرها جمعيات الالعاب الرياضية بأوربا: جاء في مقدمة نشرة جمعية السباحة المسماة [ويكينجر بوته] مانصه: يجب على الذي يريد أن يشترك في السباق ويكون من أبطاله أن يعتني قبل كل شيء بصحته ويكون صحيح الجسم ولاجل أن يكون صحيح الجسم [والعقل] يجب أن يتبع النصائح الآتية:

١ - يجب الانقطاع عن تعاطي جميع المشروبات الكحولية أياً كان جنسها [يعني الامتناع عن البيرا أيضا]

٢ - يجب الاهتمام بترك التدخين تماما أياً كان نوعه، وجميع المواد النار كوتيكية

٣ - التباعد عن الزنا بكل ما يدخل في الامكان (هذا بمعنى قوله تعالى [ولا تقربوا الزنا] الآية).

ويقول في السطر ٥١ و٥٢ من تلك النشرة الصحية « أحسن شيء يروي العطش وينفع الجسم هو المـاء الزلال الصافي البراق غير المغلي » وفي سطر ٦٢ «يجب على كل منتسب الى الجمعية أن يكون مثـال الاخلاق الحسنة بتحاميـه كل شيء فيه ضرر للجسم»

وانني اطلعت على التقارير التي تنشرها البعثات للبلاد الباردة وأخصها بعثات القطب الشمالي ان أكثر الذين يموتون من تأثير البرد هم الذين يدمنون الخمر ، وأما الذين لا يدمنون الخمر فهم أكثر صحة ومقاومة للبرد

فهل بعد ذلك للملحدين الذين يتوسلون بالحجج الداحضة والاقوال الفارغة لتحليل ما حرم الله أن يقولوا انه لو بعث سيد الخلق في البلاد الباردة لما حرم الخمر ؟ (وانما الذي حرم الخمر هو الله الذي خلق البلاد الباردة والحارة)

أم عندكم ايها الملحدون مابه تحيلون النور ظلاما والظلام نوراً ؟ ام تريدون فوق كل ذلك جعل الفضيلة رذيلة والرذيلة فضيلة ؟

انما التجدد أيها الاخوان بنقل العلوم والفنون التي هي غذاء الابدان والارواح لا بتسميم الجسم والعقل والتجريد من الفضائل

[حاشية] سنأتي ان شاء الله قريباً بنبذة على التريخين

الدكتور زكي كرام

[المنار] ان قول هذه الجمعيات أن افضل ما يشرب هو الماء النقي ذكرني مالا أنساه من قول المقتطف لمن سأله عما يقال في الجعة (البيرا) من تغذية وتحليل: ان لقمة من الخبز اكثر تغذية من كوب من البيرا ، وإن جرعة أو كوبا من الماء أحسن او أشد تحليلا من قدح من البيرا . وأما شربها للذة فذلك شيء آخر . أي فلماذا يكذب عبد الشهوة على نفسه وعلى الناس كما يفعل الآن دعاة التجديد الالحادي في الترغيب في لبس البرنيطة وتهتك النساء وغير ذلك باختلاق منافع للرذائل أو لمحاربة المشخصات القوميـة والملية التي يراد بها جعل الامم الشرقية غذاء سهل الهضم على معدة الدولة المستعمرة

ثورة فلسطين - أسبابها ونتائجها

﴿حقائق في بيان حال اليهود والانكليز والعرب والرأي في مستقبل العرب والشرق﴾

(١)

حقيقة حال اليهود

(١) من الحقائق التي أثبتها التاريخ أن الشعب الاسرائيلي أو اليهودي من أشد شعوب الارض شكيمة ، وأقواها عزيمة ، وأثبتها وحدة ، وأعمها تكافلا ، ومن ثم كان أشدها أثرة وعصبية ، وكانت جامعته النسبية الملية المزدوجة غير قابلة للذوبان ولا للاندغام في أية جامعة أخرى من الروابط البشرية كالوطنية واللغوية وغيرها ، فهم يشاركون كل قوم في أوطانهم ويزاحمونهم على منافعها المادية والمعنوية ويظلون مع ذلك يهودا ، كما ان جامعتهم لاتقبل شعباً آخر أن يندغم فيها ، ومن المعروف من تاريخهم انهم لما احتلوا بلاد فلسطين ظلوا يقاتلون اهلها حتى غلبوهم عليها وصار لهم ملك فيها ، ثم كانوا يقاتلون جيرانهم من حولها ، ومن قواعد شريعتهم (التوراة) أن يستأصلوا القوم الذين يغلبونهم على أمرهم (حتى لايستبقوا منهم نسمة ما) ومن أثر تهم انهم لايعترفون لغيرهم بمثل الحق الذي انتزعوا به فلسطين من اهلها ، بل يدعون انها صارت ملكا لهم الى الابد

(٢) من الحقائق التي أثبتها الوحي مع التاريخ ان الله تعالى بعث فيهم أنبياء وربانيين ، وأئمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، وعباداً صالحين ، وان الله أراهم من آياته وآتاهم من نعمه مالم يؤت أحداً من العالمين ، ولكنهم كانوا يتمردون على موسى كليمه ويؤذونه في حياته ، وقتلوا بعض أنبيائهم من بعده ، وفسقوا عن امرهم وأمره ، وعثوا في الارض مفسدين ، حتى انهم عبدوا الاوثان مراراً ، وتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستحلوا ظلم غيرهم وأكل اموالهم بالربا وغيره — فسلب الله ملكهم ومزقهم في الارض كل ممزق ، وسلط عليهم الامم

تضطهدهم وتستذلهم ، قال الله تعالى فيهم (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس) فالذلة فقد الملك والسلطان، وحبل الله ماحباهم به شرعه من حقوق العدل بدخولهم في ذمة الاسلام ، وحبل الناس مالقوه من حماية المسلمين من قبل ومايلقونه من حماية بعض الدول الآن

اليهود والاسلام والمسلمون

(٣) من الحقائق الثابتة المعروفة في السيرة النبوية والتاريخ الخاص والعام ان النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر من مكة الى المدينة أقر من كان في أرضها من قبائل اليهود على دينهم ، وآمنهم على أنفسهم وأموالهم ، على أن لا يوالوا ولا ينصروا عليه مشركي مكة وغيرهم من قومه ، وكتب بينه وبينهم كتابا في ذلك كانوا به أهل عهد وميثاق ، ولكنهم كانوا (ينقضون عهدهم في كل مرة) وينصرون المشركين عليه في القتال ، والمساعدة بالمال ، حتى اضطر الى قتالهم وإخراجهم من جواره ، ولكن أصحابه ومن بعدهم من قومه لما فتحوا البلاد ، وسادوا العباد، أنقذوا اليهود من الاضطهاد ، وما كانت تسومهم الدول والامم من الظلم والاستعباد ، فلم يذوقوا من طعم العدل في القرون الماضية بعض ماذاقوا في ظل الحكومات العربية ، وغيرها من الدول الاسلامية ، فقد كانوا مساوين للمسلمين في الحقوق وكانوا يتلقون ما يشاؤن من العلوم في المدارس والمساجد ببغداد والأندلس في صفوف المسلمين وحلق دروسهم كأنهم منهم

اليهود وسلطان الكنيسة

(٤) من الحقائق الثابتة المعروفة في تاريخ القرون الاخيرة ان اليهود الذين تلقوا العلوم في الأندلس ولا سيما تلاميذ الفيلسوف ابن رشد كانوا من حملتها الى أوربة ومن اسباب انتشارها فيها، وانهم استطاعوا بتكافلهم وكيدهم أن يثأروا لأنفسهم ولأساتذتهم العرب من سلطان الكنيسة الكاثوليكية التي اضطهدتهم هم والعرب في الأندلس بالتقتيل والتشريد والاكراه على النصرانية، وذلك بما ألفوه من العصبية للعلوم وحرية الفكر التي ناصبت الكنيسة العداء في اوربة، وأثارت عليها القتال حتى ثلت عرشها وقوضت سلطانها السياسي من العالم

اليهود والماسونية والمال

(٥) من الحقائق الثابتة الخفية ان الجمعية الماسونية التي ثلت عروش الحكومات الدينية من أمم اوربة والترك والروس هي من كيد اليهود وهم اصحاب السلطان الاعظم فيها، وان كان ذلك يخفى على كثير من اهلها او أكثر المنتمين اليها ، ومن غرائب كيد اليهود وقدرتهم التي فقوا بها جميع شعوب البشر ان الغرض السياسي النهائي لهم من هذه الجمعية هو تأسيس دولة يهودية دينية في مهد الدولة الاسرائيلية التي اسسها داود وأتمها سليمان باني هيكل الدين اليهودي في اورشليم على جبل صهيون ، ولهذا سموها جمعية البنائين الاحرار، ويريدون بهم الذين بنوا هيكل سليمان، وأكثر أفراد هذه الجمعية يجهلون السبب الصحيح لهذه التسمية . فهل وجد في العالم أعجب وأغرب من قوم يهدمون ما عند غيرهم من سلطان ديني لاجل بناء مثله لأنفسهم ، ويسخرون أولئك الاغيار بمكرهم في الاجيال الكثيرة والقرون العديدة لما لا يعلمون ولا يعقلون؟

(٦) من الحقائق الاجتماعية التاريخية ان اليهود هم الذين وضعوا النظام المالي الذي هو قطب رحى المدنية الغربية الحاضرة في العالمين القديم والجديد، وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والامم «الرأسمالية» كما يقال في عرف هذا العصر، ومن عجائب كيدهم واقتدارهم أن اخفوا أنفسهم بصفتهم المالية ان تظهر في مملكة المال ظهوراً تمكن به لغيرهم ان يسلبوا ثروتهم ، أو يغلبوا عليها بعصبية دينية او وطنية ، كما امكنهم إخفاء شخصيتهم الملية في الجمعية الماسونية السياسية السابقة، وكذا الرمزية اللاحقة،

الجزويت والماسونية

(٧) من الحقائق الثابتة التاريخية أيضاً انه لم يوجد جماعة من جماعات البشر الدينية والسياسية عرفت كنه كيد اليهود ومكرهم في الامم ومقاصد الماسونية وأهلها وتصدت لمقاومتهم وإسقاط نفوذهم الا جمعية الجزويت الكاثوليكية ، وذلك ان الكاثوليك يدينون بوجوب الخضوع الديني والسياسي لأحبار رومية رؤساء الكنيسة المعصومين عندهم، ويعلمون ان اليهود هم الذين ثلوا عرشها بنفوذ الجمعية الماسونية التي

انتظم في سلكها الملايين من النصارى ومن غيرهم وأكثرهم لا يشعرون، لذلك بذلوا جهدهم في السعي لكشف الاستار عن أسرارها، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لصد تيارها، بتتبع عوارها، وتقليم أظفارها، وتحريم الدخول فيها على من يدينون دينهم الكاثوليكي، ويقلدونهم في فهمهم وعملهم به، وقد توسلوا إلى معرفة أسرارها بعقيدة الاعتراف الديني الذي استباح به كثير من الكاثوليك الحنث بالأيمان المغلظة، ونقض العهود الموثقة، بترجيح العقيدة الدينية، على ما عاهدوا عليه الجمعية، ولا سيما وقت الاحتضار، حيث يغلب خوف النار على ذل العار،

من خفي عليه نفوذ اليهود في أحرار أوربة الغربية والوسطى وملاحدتهم وما كان من حربهم للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى فلا أراه يخفى عليه ما كان من نفوذهم في ملاحدة الروس الذين أضعفوا سلطة الكنيسة الارثوذكسية بمجلس الدوما، ثم اسقطوها بثل عرش القياصرة دعاتها وحماتها، وتأسيس حكم البلشفية في تلك الممالك الواسعة، وما كان من نفوذهم في ملاحدة الترك باسقاط نفوذ الخلافة التركية العثمانية، ثم بهدم الشريعة الاسلامية من المملكة التركية، وجعل حكومتها الحادية تسعى لمحو الاسلام من الشعب التركي ومن الشعوب الاعجمية الاسلامية التي كانت تابعة لها كالالبان والبوشناق وغيرها كالايرانيين والافغانيين

وهم — أعني اليهود — لايزالون يدينون الله تعالى بتأسيس ملك ديني مدني في فلسطين، يكون ملكهم فيه المسيح الذي ينتظرونه منذ ألوف السنين، كما ينتظر جماعة النصارى والمسلمين المسيح الحق عيسى بن مريم عليه السلام، الذي ورد في الاحاديث انه سيقتل مسيح اليهود الدجال، اي الذي ينصبونه في فلسطين - فعقائد الملل الثلاثة في هذه المسألة متعارضة، ولكن المسلمين والنصارى فيها متفقان على تكفير اليهود بجحود المسيح الحق وهو عيسى بن مريم البتول عليه وعليها السلام والطعن فيهما، وكل منهما يؤمن به، على الاختلاف المعروف بينهما في صفته، وانما نقول هذا لبيان الواقع المعروف لا لتحريض الفريقين عليهم على انهم استخدموا دول النصارى فظاهرتهم على المسلمين

(٨) كان اليهود متكلين على ما في كتب أنبيائهم من الانباء بمجيء مسيح [مسيا] يعيد ملك اسرائيل سيرته الاولى ويجمع اشتات أسباطهم ... ويعتقدون ان

مجيئه سيكون بقوة إلهية فوق قوى البشر، كما يعتقد أكثر المسلمين في المسيح والمهدي المنتظر، فلهذا لم يكونوا يستعدون لاستعادة الملك بسعي الشعب، فلما طال عليهم الامد، وكثر فيهم أحرار الفكر الذين لا يؤمنون بهذا الوعد كما انتشر واستقر، أسسوا الجمعية الصهيونية للسعي الى ذلك بقوة الشعب اليهودي المالية والمعنوية، وبجعل الاعتقاد التقليدي حادياً لهم في هذا السعي وقوة روحية تؤيد سائر القوى الكسبية، وهذا ما نبهنا له المسلمين في أمر المهدي في كتابنا (الحكمة الشرعية) ثم في المنار، وأين المسلمون من علم اليهود وحزمهم وتكافلهم؟

تأسيس الصهيونية ومؤسسها

ان المؤسس للصهيونية كاتب من يهود بلاد المجر كان من علماء القانون (اسمه ثيتودور هرزل) أنشأ في سنه ١٨٩٦ صحيفة باسم [دولة يهودية] للدعوة الى تأسيس هذه الدولة في فلسطين، فتقبلها الكثيرون من اليهود في أقطار العالم بالبهجة والامل، وارتاب كثيرون منهم في نجاح هذا العمل، وتأسست الجمعية الرسمية لها في العام التالي لانشاء الصحيفة، وطفقوا يجمعون لها الاموال ويؤسسون الفروع ويعقدون المؤتمرات، حتى انهم أسسوا لها مصرفاً مالياً خاصا وصنفوا لها (دائرة معارف) خاصة. وقد قرر المجمع أو المؤتمر الصهيوني الاول ما وضعه (هرزل) من غرضها وغايتها وعبر عنه بانه انشاء وطن شرعي للشعب اليهودي في فلسطين تعترف به الدول فيكونون فيها كالانكليز في الجزائر البريطانية والفرنسيين في فرنسة الخ فيؤسسون الدولة اليهودية (استعداداً لمجيء مسيا المنتظر، الذي تخضع له شعوب البشر) وقرر الوسائل لذلك وهي البدء باستعمار فلسطين (١) بامتلاك الارض وعمارتها بالزراعة والصناعة وسائر الاعمال الاقتصادية والمهن الحرة، و(٢) بجمع كلمة الشعوب اليهودية في الشرق والغرب واتحادهم للتعاون على هذا العمل لتلك الغاية، بانشاء الجمعيات في كل قطر بما لا يخالف قوانين حكومته، و(٣) باحياء الشعور الاسرائيلي الملي وتقوية آماله في ماكه، و(٤) بالسعي لدى الدول لنيل عطفها على الصهيونية ومساعدتها على تحقيق أمنيتها

وقد افترص الصهيونيون انفجار براكين الحرب العامة في العالم فكان من

دسائسهم فيها مابيناه من قبل من خدمة الدولة البريطانية وحملها مع حلفائها على مكافأتهم على ذلك بالتأييد الرسمي لمقصدها ففعلت . وهذه ترجمة الوثيقة الرسمية بذلك المعروفة بوعد بلفور مثير الفتن ، وموقد نار الثورة ، وموقظ الامة العربية والشعوب الاسلامية من رقادها ، كما بلغه لزعيم اليهود المالي الاكبر :

عهد بلفور الجائر

« نظارة الخارجية في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧

« عزيزي اللورد روتشيلد

« اني بملء المسرة أنقل اليكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح التالي المفعم بالشعور مع مطامح اليهود الصهيونية والذي طرح على هيئة الوزارة وصدق عليه

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين الرضى الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وهي ستبذل الجهد لتسهيل السبل الموصلة الى تلك الغاية على شرط أن لا يحدث ثم شيء يؤدي الى الاجحاف بحقوق بقية السكان غير اليهود دينياً ومدنياً أو يعبث بالحقوق والسنن السياسية التي يتمتع بها اليهود في أية بلاد أخرى

« وأكون في غاية الامتنان إذا تفضلتم باطلاع الاتحاد الصهيوني على هذا التصريح

لكم باخلاص

ارثور جيمس بلفور

اليهود والهيكل في حكم النصارى فالاسلام

(٩) كانت الحكومات المسيحية قد طردت اليهود من مدينة المسيح الحق واضطهدتهم أشد الاضطهاد وجعلت مكان الهيكل الذي دمره طيطس أخيراً مزبلة حتى غمرت الصخرة المقدسة في أعلاه بالاقذار ، فلما جاء الاسلام المكمل لدين الله الذي شرعه على ألسنة أنبيائه وآخرهم موسى وداود وسليمان والمسيح برسالة محمد خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام ، أعاد المسلمون تشريف ذلك المكان الذي سماه الله تعالى في كتابه بالمسجد الاقصى ، وأسرى بعبده ورسوله اليه في

أوائل بعثته ، وقبل ظهور أمره ، فنظفوه من الاقذار ، وبنى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رض) مسجده هنالك ثم كان ما كان من أمر تشييد بني أمية للمسجد الكبير ولقبة الصخرة ، وأنفقوا عليه خراج مصر كله بضع سنين فكان ذلك البناء ان من أعظم مفاخر الصناعة والهندسة في الارض ، وكان المسجد الاقصى اول القبلتين وثالث الحرمين ، وسيبقى كذلك مادام الاسلام والعرب في الارض

وكان من عدل المسلمين ورحمتهم ان رفعوا الاضطهاد عن رءوس اليهود وعاملوهم بالعدل والرحمة ، حتى انهم صاروا يأذنون لبعضهم بالاقامة في بيت المقدس مع تحديد العدد القليل وكذا بزيارة الجانب الغربي من سور المسجد الاقصى [البراق] بطلبهم ، وكانوا لا يستحلون تجاوزه بمقتضى تقاليدهم ، الى أن يجيء المسيح الذي ينتظرونه لاعادة الهيكل كله اليهم ، وإقامة الشعائر والقرابين الموسوية فيه باعادة ملك سليمان لهم ، بالرغم من أنوف جميع المسلمين والنصارى في العالم ، وإنما كانوا يأذنون لأفراد قلائل منهم بما يتخذون لذلك من الوسائل حتى المالية ، فيقفون امام ذلك الجدار للذكرى وإحياء الشعور الملي مع البكاء والندب ... فقوي أملهم بالتكاثر والتملك في المدينة المقدسة وفي سائر بقاع فلسطين ، تمهيداً لامتلاكها ؛ واستعداداً لظهور المسيح مجدد ملك اسرائيل فيها ولكنهم استعجلوا الشيء قبل أوانه ، فعوقبوا بحرمانه

الصهيونية والعرب

(١٠) ما زال هذا الامل يقوى ويضعف ، ويطفو ويرسب ، حتى طمعوا في عهد السلطان عبد الحميد باباحة الهجرة والامتلاك بلا شرط ولا قيد ، ثم طمعوا على عهد دولة جمعية الاتحاد والترقي (التي أسقطت هذا السلطان وملكت على من بعده الامر بمساعدتهم) في شراء فلسطين من الجمعية ببضعة ملايين من الجنيهات ، ولما علمنا بهذه المساعي توخيت أن ألقى معتمد الجمعية الصهيونية بمصر فأستعرف له وأعترفه الحقيقة وأعرفه برأي الجمعيات العربية في الامر ، واهتديت إلى ذلك بسعي بعض معارفي من اليهود - وكان مما كاشفت به المعتمد الصهيوني أن عزم جمعيتهم على شراء فلسطين من اخوانهم في الماسونية زعماء جمعية الاتحاد والترقي قد بلغ زعماء العرب المشتغلين بالسياسة وترقية الامة العربية وقرروا فيما بينهم انه إذا تحقق هذا النبأ ووقع

بأي شكل من الاشكال فلا وسيلة عندهم لمقاومته إلا تأليف العصابات المسلحة من البدو وغيرهم لمقاومة هذا الاعتداء على بلادهم بكل ما يمكن من وسائل المقاومة المعهودة عند الشعوب الاخرى في أوربة باغراء دولها الكبرى وإرشادها - وانه خير لليهود إذا كانوا يريدون أن يكثروا في البلاد العربية (فلسطين وغيرها) ويكونوا فيها أحراراً آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية والشخصية أن يتفقوا مع زعماء العرب أنفسهم على ذلك من وسائل ومقاصد، وأرى ان ذلك ممكن ... ولما فصلت له هذا الرأي أعجبه وبلغه لجمعيتهم وظهر له أثر في مؤتمر (بال) الصهيوني إذ صرح بعض أعضائه بالخطر الوحيد الذي يستقبلهم من قبائل العرب البدوية

ثم ذاكرت في هذا الموضوع زعيم الصهيونية الكبير الدكتور [وايزمن] بعد الحرب العالمية والشروع في تنفيذ عهد بلفور في اثر مذاكرات أخرى مع بعض رجال الجمعية في مصر والقدس وقف هو على تفاصيلها كلها . وكان يريد المجيء إلى مصر قبل الحرب للبحث فيه معي . ومما قاله لي ان رأيي في اتفاق العرب مع أبناء عمهم العبرانيين ممكن غير خيالي بشرط أن يرضى به أمراء العرب وحكامهم المستقلون ... ثم انقطعت المذاكرة في هذه المسألة لاعتماد الصهيونيين على قوة الانكليز في اعادة ملك اسرائيل لهم وكل منهما يمكر بالآخر

خلاصة القول في قوة اليهود وضعفهم

(١١) خلاصة القول في اليهود انهم شعب من أعظم شعوب البشر يمتازون بخصائص في العلم والعمل والاقتصاد والاتحاد والتكافل والتعاون والحزم والعزم ونظام خاص في عمل البر والمعروف والمكر والدهاء والصبر والثبات واحتمال المكاره وعدم اليأس من مقصدهم الأسمى وهو الملك وان تعذرت أسبابه، وعظمت صعابه، واذا كانوا لم ييأسوا في أشد العصور اذلالا لهم، وأعتى الاعاصير في تمزيق شملهم، فكيف ييأسون في هذا العصر وهم سدنة هيكل المعبود الاكبر للامم والدول العظمى وهو المال، وهم الذين استعبدوهم له، وما لهم بهذا المال في العالم المدني من النفوذ والصحف والقدرة على الدعاية التي تقلب الحقائق، وتلبس الحق بالباطل؟

ولكنهم على كل ما أوتوا من هذه القوى المعنوية ، ليسوا بأولي قوة حربية، لانهم كما قال الله تعالى فيهم (احرص الناس على حياة) وقد فقدوا ملكات الملك والاستقلال ، وليس لهم من البراعة في الزراعة واستغلال الأرضين عشر معشار ما لهم من استغلال النقود، فهم يعتمدون فيما يرومون من الاستقلال في الوطن القومي في فلسطين على قوة الانكليز تحميهم ، وعلى استغلال أهلها العرب في تعمير ما يسلبونهم من رقبتها بجعلهم أجراء فيها ، ولا يهولن أحداً طلب عشرة آلاف من شبانهم الامريكيين إذن حكومتهم لهم أن يذهبوا إلى فلسطين لقتال العرب لان الذي جرأهم على هذا هو ظل الدولة البريطانية ، لا ظل الدولة اليهودية والراية الصهيونية ، ولاشك ان الامة العربية الحربية بالطبع اقوى منهم مهما يكن جمعهم وهجرتهم،وقد جمع غرور اليهود وعدوانهم أشتات الشعوب العربية في اوطانها ومهاجرها فاتفقوا على الدفاع عن عرب فلسطين وحفظ وطنهم لهم،واجتمعت كلمة العالم الاسلامي كله على تأييدهم، بل الامر أعظم من ذلك،ولا قبل للدولة البريطانية بعداوة العرب والمسلمين،وان كانت لاتزال مصرة على ظلمها في فلسطين،

(١٢) لقد كان الخطر الصهيوني على هذه البلاد عظيما لو جروا فيه على النهج الذي أشرنا اليه من أعمالهم في الامم، من دس السم في الدسم ، والصبر الطويل، مع إخفاء القصد البعيد، بنصب الحبائل الاقتصادية لابتياع الارض بالتدريج ، وجعل الهجرة اليها بالسير البطيء ، ولكنهم استعجلوا، وقد يكون مع المستعجل الزلل ، واغتروا باستخدام القوة الانكليزية وضمها إلى قوتهم وقد يحبط الغرور العمل ، وناهيك بغرور الماديين منهم بالمال ،وغرور المتدينين منهم ببشارات الانبياء، وغرور السياسيين منهم بما أوتوا من المكر والدهاء ، ثم ناهيك بتأييد الدولة البريطانية لهذه القوى كلها بقوتها العظمى قوة التصرف في الامم ، والنفوذ في الدول ، إذ أعطتهم بها وطناً من أوطان الامة العربية التي تعدها من ميراثها ، وعند هذه الامة من بشارة نبيها في الظهور على اليهود ما هو أصرح من بشارات أنبياء اليهود المبهمة كما صرحنا به في العام الماضي وسنعود اليه بالتفصيل

(وسنبين في الفصل الثاني من هذا المقال كنه حال الانكليز وسياستهم مع العرب واليهود)

الفتنة في نجد

﴿ أسبابها ونتائجها ﴾

قد صار من المعروف عند جماهير الواقفين على شؤون الاقطار العربية وأهلها ان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود قد عمل في جزيرة العرب عملا لم يسبق له نظير إلا في صدر الاسلام من تحويل الاعراب عن عصبية جاهلية وثنية وأمية الى التوحيد والعلم والحضارة بالتدريج، جدد بذلك ما كان قد رث واخلولق من الاصلاح الديني والنهضة العلمية التي قام بها الشيخ محمد عبد الوهاب، وأعاد بناء ما كان قد تهدم من دولة أجداده بعداوة الدولة العثمانية لهم ومجاهدتهم إياهم بالسيف والنار، ثم بالدعاية المنفرة عن إمارتهم بدعوى كونها ناصرة لمذهب مبتدع جديد مخالف للسنة، خوفا من تجديدها لملك الامة العربية، وانتزاعها منها ماتدعيه من منصب الخلافة الاسلامية، بل وسع تلك الدولة حتى استقام له الامر في معظم الجزيرة العربية، فأقام فيها الدين، وأحيا سنة الخلفاء الراشدين، بما نصب من قسطاس العدل المستقيم، ومد من ظل الامان الوارف الظليل، فأغنى الحاج عن الحرس والبذرقة(١) وهيأ لهم وسائل الصحة والراحة

وكان مما حاوله، ولما يدرك فيه كل ما أمله، إبطال البداوة من نجد وملحقاتها، وازالة جهالاتها ومنكراتها، فبنى لهم المهاجر، وهيأ لهم فيها أسباب الزراعة والعمران، بقدر مافي الامكان، ولقد كان كل ما في الامكان قليلا، لم ينتزع من قلوبهم مارسخ فيها من جفوة البداوة، ولم يثقف من طباعهم ما ورثته من حمية الجاهلية، وانما صبغها التعليم الناقص بصبغة دينية، فصار ماألفوه من الغزو لاجل السلب والنهب، واستباحة سفك الدماء لاخذ الثأر، او شفاء حفائظ الصدر، مشوبا بقصد نشر التوحيد وازالة الشرك، ولا يتم هذا الا بمعرفة مايتوقف عليه من أحكام الشرع.

---

(١) البذرقة الجماعة تتقدم القافلة للحراسة، معربة او مولدة، وبالمعجمة او المهملة اوبهما معا ؟ اقوال كما في المصباح

وهم لم يعرفوا كلهم من تلك الاحكام وجوب طاعة الامام في المنشط والمكره ، وتحريم الاثرة عليه والاستبداد دونه في الجهاد والامان ، واقامة الحدود وتقرير العقوبات ، فظل الراسخون في البداوة الجاهلية ، والعصبية العمية ، يخضع كل لرئيس قبيلته ، ويقاتل تحت رايته ، ويطيع الامام صاحب البيعة بطاعته ، لا بأمر الله واتباع شريعته ، وهذا عين العصبية التي نهى عنها النبي ﷺ وتبرأ من فاعلها بقوله « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم (رض) ولم يعلموا أيضاً بحظر الغلو في الدين ، ولانهم كانوا من الغالين ، بتكفير من لم يثبت كفره ، أو عقاب من لم تشرع عقوبته ، ولا أن حق إقامة الحدود وعقوبات التعزير للامام أو نائبه ، وكذلك ازالة المنكر والنهي عنه إذا لم يكن من المجمع عليه . وأما اهل الحضر منهم فيعلمون أكثر هذه الاحكام

وقد علم قراء المنار ما كان من أمر فيصل الدويش وقومه في غزو أطراف العراق والكويت بدون أمر الامام ، ومن اصرارهم على ذلك بعد نهيه اياهم عنه ، ومن عقده مؤتمر الشورى العام في الرياض عاصمة نجد في العام الماضي واقتراحه عليهم أن يبايعوا غيره اذا لم يكونوا راضين بحكمه ، وحثهم على انتقاد كل ما يرونه من أعماله مخالفاً لشرع الله أو لمصالحهم ، وما كان من مصارحة بعضهم إياه بما أنكروه من أخذه ببعض مستحدثات الصناعة المدنية كالسيارات والتلفون لجهلهم بحقيقتها ، ومن اقتناعهم بعدم حظر ذلك وأمثاله كما افتى بذلك علماؤهم ، ومن اجماعهم على انكار مافعلته حكومة العراق من اقامة الحصون في مراعي نجد ودون مياهها ، وتفويضهم الامر اليه في السعي لازالة هذه الحصون بكل وسيلة ممكنة حتى القتال ، وماتلا ذلك من تجديد مبايعته ، وإيجاب طاعته ، وشذ عن ذلك غلاة المعتدين باغواء زعيمين من شيوخهم هما فيصل الدويش وسلطان بن بجاد ، وأذاعوا ان الامام عبد العزيز بن سعود أبطل فريضة الجهاد وقتال المشركين فوجب عصيانه ، حتى أضطر الى قتالهم واخضاعهم في العام الماضي بالقوة ، ولكن فيصل الدويش هذا فر واختفى حتى ظن انه قتل

ولما عاد الامام الى الحجاز بعد هدوء الحال في نجد عاد هذا الخارجي المتعصب الى بث الدعوة لعصيانه ، وثبت عند حكومة نجد والعارفين من اهلها ان اعداء ملكهم افترصوا هذه الفتنة فأرسلوا دعاتهم من العراق والكويت الى نجد يحملون الألوف الكثيرة من الريالات والروبيات لمساعدة العصاة وتعميم الدعاية الى الخروج عليه فانتشرت في القبائل والهجر أو المهاجر التي لاتزال تغلب على إهلها أخلاق البداوة وعاداتها ، ولكن باسم الدين ودعوى مخالفة الامام عبد العزيز لأحكامه بموالاة المشركين من أهل العراق والانكليز حماتهم ، ومنع المسلمين من مجاهدتهم (ويعنون بالمسلمين انفسهم) وكذا اقراره مشركي الحجاز وغيرهم من أهل الامصار على ماهم عليه ، وسماحه لهم بالحج من غير أن يستتيبهم من الشرك ، ويلقنهم التوحيد الخالص ... وحاولوا نشر هذه الدعاية في بدو الحجاز كما نوه بذلك ناشرها في مصر ، وبنوا على ذلك الدعوة الى ترك الحج في هذا العام وللمسلمين في هذه الفتنة عدة عبر :

(١) ان سيئي النية من النجديين في هذه الفتنة هم افراد من الزعماء كفيصل الدويش هذا الذي منعه الامام ابن السعود من استغلال قوته في السلب والنهب ، والتلذذ بما ألفوا من الغزو ، وقد ذكر الملك في كتاب ارسله الي في العام الماضي أنهم اثنان فقط (يعني الدويش وابن بجاد) ولعلهم زادوا في هذا العام فكان منهم بعض شيوخ عتيبة والعجمان وغيرهم ممن أظهروا الخروج على الامام ، وهذا من الأدلة على ماهو مقرر في الشرع وجميع قوانين الامم من وجوب توحيد السلطة ، وحظر وجود زعماء في المملكة ، يمكنهم الانفراد بالحرب أو أي عمل من أمور الدولة ، بدون أمر الممثل للسلطة العليا من امام أو ملك او رئيس

(٢) ان العلم الناقص المعبر عنه بالجهل المركب قد يجني على الافراد والامة ما لا يجني عليها الجهل البسيط ، فان عوام القبائل النجدية التي خدعت بدعاية رؤسائها الطامعين ، وأعدائها الدساسين ، لاتعلم ان الاسلام الذي تحبه وتتفانى في الدفاع عنه يحرم عليها الخروج على الامام ، وتفريق كلمة الامة وان لم يفض الى القتال ، فكيف إذا جعل وسيلة لسفك الدماء ، وقتل المسلمين الموحدين بعضهم

لبعض؟ كما فعل الدويش وأمثاله في نجد، فالدويش يدعي ان الامام ابن سعود أخطأ وعصى الله تعالى في منعهم من قتال أهل العراق والكويت، وان علماء نجد شايعوه على ضلاله وعصيانه، ولو كان لخواص قومه — ولا أقول لكل قومه — علم بشريعة الاسلام، لعرفوا انه هو المخطئ لا الامام، وانه لا يمكن أن يكون أعلم من علماء نجد الموافقين للامام بالشريعة، ولعرفوا أن مذهب أهل السنة انه لايجوز الخروج على الامام بمثل هذا الخطأ ان صح انه خطأ.

ولو كان لهم عقل ورأي لعلموا أنه ليس من الدين ولا من العقل ولا من مصلحة أمتهم وبلادهم ان يقتتلوا لخلاف وقع بين إمامهم وشيخ قبيلتهم لان هذا يفضي الى ضعف أهل التوحيد كلهم، وتمكين الكفار من إزالة ملكهم أو إضعافه

(٣) انما منع الملك عبد العزيز آل سعود هؤلاء الغزاة من أهل بلاده ان يغزوا العراق والكويت وشرق الاردن حباً في السلم وحرصاً على الوحدة العربية والجامعة الاسلامية فكان جزاؤه من رءوس هذه البلاد أن يغروا هؤلاء الغزاة أنفسهم بقتاله، ويساعدوهم على ايقاع الاختلال في بلاده، أملا في ثل عرشه، وعودة الحجاز إلى عشاق الملك من بيت حسين بن علي بمساعدة الانكليز الذين ولوهم ملك العراق وشرق الاردن ويرجون أن يفوا بوعدهم إياهم بسائر البلاد العربية. وقد تناقل المشتغلون بالقضية العربية عن بعض أفراد هذا البيت وأشدهم صراحة في عداوة ابن السعود انه قال جهراً عندما تجددت فتنة نجد في الصيف الماضي وقبل علم الجمهور بها: ان عبد العزيز بن سعود لن يعيش أكثر من شهر بعد هذا اليوم، فعلم من ذلك انه كان من جملة الدسائس السعي لاغتياله.

وتناقلوا أيضاً أن عليا ملك جدة الغابر، وعبد الله ملك شرق الاردن الحاضر، لم يزورا والدهما حسينا ملك العرب او الحجاز السابق، إلا لاقناعه بالانتقال إلى العراق حيث فيصل ملكها اللاحق، أو معان التي سلخها نجلاه من المملكة الحجازية، ووضعاها تحت تصرف الجلالة البريطانية، الا ليتولى ادارة هذه الفتنة، وأنهما سعيا لدى الانكليز للاذن بهذه النقلة

وتناقلوا أيضاً ان سفر الامير عبد الله من شرق الاردن الى بغداد لعقد

المؤتمر السري مع أخويه الملكين علي وفيصل في وقت اشتعال فتنة فلسطين وتهييج عرب شرق الاردن لمساعدة اخوانهم في القدس على اليهود — انما كان لاجل التدبير الذي يجب التعاون عليه في مسألة نجد ، ولا شك عندنا في براءة حكومة العراق وزعماء العراق من هذه الاعمال والدسائس وفي كراهتهم لها لانهم من أخلص زعماء العرب لأمتهم ، وأكبر رجائها في تأسيس وحدتهم

وقد صرح داعية هؤلاء الحجازيين في مصر أمام بعض من كانوا فيما يذيعه من تكبير أمر هذه الفتنة بأنهم متفقون مع فيصل الدويش فيها

وأما شيخ الكويت الغني (المصحَّف) فهو يحمل غلاً وإحنة على ملك الحجاز ونجد لانه أمر بتحويل تجارة نجد عن ثغر الكويت الى ثغور بلاده في الحساء هرباً من المكس (الجمرك) الذي تأخذه حكومته عليها ، وهو حق شرعي قانوني لا يختلف فيه اثنان ، وهذا منتهى شوطه في الانتقام ، إلا أن يريد الانكليز تضحيته في هذا الميدان ، كما ضحوا بكثير من الملوك والامراء في الشرق والغرب كانوا أقوى منه وأغنى ، وأعلم بالسياسة وأدرى .

(٤) لم تكتف الدعاية الشريفية الحجازية ، بما ذكر من الاعمال السياسية ، لاستعادة ملك الحجاز الى الامبراطورية البريطانية ، بل نشط عمالها لاعادة الدعوة الى ترك الحج التي كانوا ابدؤا بها في السنة الاولى لاستيلاء ملك نجد على الحجاز ، وقد بثوا هذه الدعوة في جميع الاقطار التي لهم أعوان وعمال فيها . ولو وصلت فتنتهم الى الحجاز ، وأمكنهم اثارة بعض بدوها للقتال والاعتداء ، لراجت دعوتهم ، بدعوى الخطر على الحجاج ، وأما احتجاجهم السابق عليها بالطعن في مذهب أهل نجد وما لكهم فلم يعد له أدنى تأثير عند احد من المسلمين ، بعد ما تواتر بنقل مئات الالوف من حجاج جميع الاقطار في هذه السنين ، ان الحجاز في عصر ابن السعود خير مما كان في عصور الدول السابقة من الامويين والعباسيين إلى الترك العثمانيين ، أماناً وراحة وصحة وحرية شرعية لجميع المذاهب الاسلامية ، بل لا يسئل هنالك أحد عن مذهبه

الآراء في هذه الفتنة

ان الناس قد اضطربوا في أخبار هذه الفتنة لتعارض أخبارها باختلاف مصادرها ، فأهل الغيرة على الاسلام ودعاة الوحدة العربية ، ومحبو الرابطة

الشرقية، وأعداء السياسة الاستعمارية ، وخصوم الدولة البريطانية منهم خاصة — كلهم يتمنون النجاح لابن السعود في القضاء على هذه الفتنة بمنتهى السرعة ، لان كل فريق منهم يعلم حق العلم انه الركن الركين لمصلحتهم وسياستهم ، وما قرأت لأحد ولا سمعت من أحد ولا عن أحد منهم غير ذلك ، إلا عن شيخ واحد من أكبر سدنة القبور المعبودة أظهر التمني لانتصار الخارجي على إمامه الشرعي ، جاهلا أن ذنب إمامه عنده انه منعه هو وغلاة أتباعه من قتال القبوريين وأنه يسمح لهم بالحج والعمرة ، ويقتصر على نشر دعوة الاسلام بالعلم والحجة ، والعمل بالكتاب والسنة دون القوة ، وجاهلا بما يخشاه أولئك المسلمون من عرب وعجم ، والعرب من مسلمين ونصارى ، من أن تكون الدسائس الانكليزية هي المحركة أو المغذية للخوارج على ابن السعود بعد فشلها في محاولة الايقاع بينه وبين عرب العراق وشرق الاردن — وبعد أن اظهر العطف على عرب فلسطين وأعلن رسمياً انه يسره ما يسرهم ويسوءه ما يسوءهم ، وساعدهم بالمال ، وخشي ان يساعدهم بالرجال ، وانني ارى المتمرسين بالسياسة والملمين بها في بلدنا هذا لا يشكون في هذا ، ويعدون من آياته ما ذاع من سعي بعض الانكليز لنصب الامير عبد الله ملكا على فلسطين في ظل الانتداب البريطاني ، المقيد بالوطن القومي اليهودي الصهيوني ، ولم يعتبر أحد من الذين يعرفون كنه هذا الامير وأسرته بما أنذر به السلطة الانكليزية في القدس من عاقبة هيجان عرب شرق الاردن على اليهود ، ورغبتهم في الزحف لمساعدة اخوانهم في فلسطين بالسلاح — وبدوهم لا يزالون مسلحين — وغرضه من هذه السلطة التي هو موظف تحت سيادتها إما التعجيل باطفاء نار الفتنة وإما إرسال جيش انكليزي إلى شرق الاردن لصد قبائله المسلحة عن الزحف الى فلسطين لقتال اليهود . فان من المعلوم بالبداهة عند العارفين ان الباعث على هذا الانذار والاقتراح هو خوف الامير عبد الله المذكور على إمارته وعلى نفسه اذا استمرت الثورة ، وعجز عن الاستمرار على صد هذه القبائل عن الزحف كما فعل اول مرة .

وقد كثر سؤال الناس إياي عن رأيي في الفتنتين ، وعاقبة الثورتين ، حتى انه جاءني في ذلك بعض الكتب من الشرق الادنى والمغرب الاقصى ، فأما ثورة

فلسطين فقد فضحت أسرار اليهود ومكرهم ، وشوهت دسائس الانكليز وظلمهم، وأيقظت شعور الجامعة الاسلامية، وأحيت عصبية الامة العربية ، فاتحد المسلمون والنصارى لأول مرة في جميع البلاد التي يقيمون فيها من أوطانهم ومهاجرهم ، وأما اليهود فلم يتفقوا على تأييد الاوهام الصهيونية ، بل كثر المنكرون عليها، إرضاء لأوطانهم التي يتمتعون بالنعيم فيها ، وقد شرعنا في كتابة مقال طويل في المسألة نشرنا الفصل الاول منه في هذا الجزء وسيأتي الرأي الناضج فيما بعده

وأما ثورة نجد فقوة الثائرين فيها لا تذكر تجاه قوة حكومة البلاد ونفوذ ملكها الديني والشخصي، الذي عرف العالم من أمره في حادثة المحمل المصري، ما كان مثار عجب وإعجاب ومدعاة ثناء باطناب، إذ خرج عبد العزيز آل سعود ليلا مع بعض آل بيته فصاح بالنجديين، وهم ثمانون ألفاً أو يزيدون، وقد ثاروا للانتقام من حرس المحمل الذي أطلق النار عليهم بر عونة من أميره، فردهم بكلمة منه عما كان يتوقع من قطع دابر ذلك الحرس الضعيف ، بقوة ذلك الحشد النجدي الكثيف، وطالما انتصر قليلهم على الجيش العثماني القوي الكثير

نعم ان هذه الثورة كانت عليه نفسه، لاجل زلزال هذه السلطة الروحية له أو إزالتها من قومه، وانها تغلغلت في احشاء البلاد لما تقدم وكما تقدم في صدر هذا المقال، ولكنه قضى على ما كان منها في داخل البلاد ، ولم يبق الا اللاجئون الى الكويت يعتصمون بحماية الانكليز لها، ويستمدون الميرة والسلاح والكراع منها ، لولا عجزهم وخوفهم لما آووا اليها، لعلمهم بأنه مقيد في المعاهدة بينه وبين الدولة البريطانية بعدم الاعتداء عليها، على انهما مقيدان معاً بأن لا يقع في البلاد الخاضعة لنفوذ كل منهما أي دعاية أو عمل عدائي للآخر . ولهذا يجب التفاوض بين الحكومتين في هذه المسألة قبل تحكيم السلاح فيها

وأنا لا اظن كما يظن الكثيرون ان الانكليز ينقضون عهدهم مع ملك الحجاز ونجد بما اعتادوا من تاويل العهود ، ونقض العقود ، واخلاف الوعود، عند ما يرون ذلك من مصلحتهم، إذ لا اظن ان هذا من مصلحتهم الآن . وأما الدسائس الخفية التي اشتهر رواتها، فلا استطيع ان انفيها ولا ان اثبتها، ومقتضاها القضاء على سلطان ابن السعود قبل استكمال قوته، وتجديد وحدة العرب بحكمته، فان لم يقدروا لم يكن لهم مندوحة عن استبقاء مودته، والاكتفاء من الطمع في البلاد العربية، بالمنافع الاقتصادية والادبية.

المنار

نبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب

أنشئ سنة ١٣١٥

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى « ومناراً » كمنار الطريق

٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٨ هـ ٩ برج القوس سنة ١٣٠٩ هش ١ ديسمبر سنة ١٩٢٩

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

افتراء الروافض في غزوة حنين

(والطعن في جميع الصحابة وحفاظ السنة)

ملخص غزوة حنين ان جيش المسلمين كان ثلاثة أضعاف جيش المشركين ولكن كان فيه الفان من الطلقاء أهل مكة منهم المنافق المصر على شركه ، الذي يتربص بالمؤمنين الدوائر ليثأر منهم ، والذي يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، ومنهم ضعفاء الايمان ، والشبان الذين جاءوا للغنيمة لا لاعزاز الحق بالجهاد

وانه لما وقع عليهم رشق النبال كرجل الجراد فر هؤلاء وأدبروا فذعر الجيش وفر غيرهم اضطرابا كما هي العادة في مثل هذه الحال لا جبناً ، وكانت حكمة الله في ذلك تربية المؤمنين كما تقدم شرحه . وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كعادته وثبت معه

من كان قريبا منه من أهل بيته وغيرهم من كبار المهاجرين الذين لم يكونوا يفارقونه كأبي بكر وعمر وابن مسعود رضي الله عنهم . وقد صرح ابن مسعود ان الذين ثبتوا معه ﷺ كانوا ثمانين رجلا كما تقدم، ومن عدهم أقل من ذلك فانما عد من رآه بالقرب منه ومن حفظ حجة على من لم يحفظ . وليس معنى هذا ان سائر الجيش قد انهزم جبناً ، وترك الرسول وهو يعرف مكانه عمداً ، بل ولى الجمهور مدبرين بالتبع للطلقاء والاحداث الذين فروا من رشق السهام، وأكثر هذه الالوف لا يعرف مكانه عليه الصلاة والسلام ، كما عرف هؤلاء الذين كانوا حوله ﷺ ولما علم سائر المسلمين ولاسيما الأنصار بمكانه ﷺ من نداء العباس (رض) أسرعوا في العطف والرجوع . هذا مارواه المحدثون والمؤرخون

وأما الروافض فانهم يطعنون كعادتهم في جميع أصحاب رسول الله ﷺ ويزعمون انهم فروا كلهم جبنا وعصيانا لله وإسلاما لرسوله إلى الهلكة ، واستحقوا غضبه تعالى ووعيده الذي تقدم في سورة الانفال ،إلا نفرا قليلا لا يتجاوزون العشرة يزعمون انهم ثبتوا بالتبع لثبات علي كرم الله وجهه ، وانه هو الذي ثبت وحده بنفسه ، وانه لولاه لقتل النبي ﷺ وزال الاسلام من الارض ،

ذكرنا في تفسير الآيتين ٥ و ٦ من هذه السورة كتابا لبعض علماء الشيعة المعاصرين كبر فيه مسألة تلاوة علي اوائل هذه السورة على المشركين سنة تسع وصغر إمارة ابي بكر على الحج وفندنا شبهه في ذلك .

وقد كبر صاحب هذا الكتاب ثبات علي مع النبي ﷺ في حنين أضعاف ذلك التكبير ، وحقر سائر الصحابة اقبح التحقير، وزعم ان عمر بن الخطاب قد فر في ذلك اليوم مع الفارين ، وهم بزعمه جميع المسلمين ، إلا علياً وثلاثة رجال « وقيل تسعة » ثبتوا بثباته

أما زعمه ان عمر قد فر وهو مالم يقله أحد من المحدثين ولا أصحاب السير فقد تأول به رواية لأبي قتادة عند البخاري ذكر فيها هزيمة المسلمين وانه انهزم معهم ،وانه قال: فاذا عمر بن الخطاب في الناس، فقلت ماشأن الناس؟ قال أمر الله. ثم تراجع الناس إلى رسول الله ﷺ .اه فوجب أن نبين مافي كلامه من الجهل

والافتراء لانه جعله تفسيراً لهذه الآية لئلا يضل بعض المطلعين على كتابه في فهمها

قال: روى البخاري في صحيحه باسناده عن أبي قتادة الخ والمتبادر من قوله روى باسناده. انه رواه مسنداً موصولا والصواب ان هذه الرواية فيه معلقة بدأها البخاري بقوله وقال الليث حدثني يحيى بن سعيد الخ قال الحافظ في شرحه من الفتح: وروايته هذه (يعني يحيى بن سعيد) وصلها المصنف في الاحكام عن قتيبة عنه لكن باختصار. اهـ ويريد بهذا الاختصار ذكر الحديث المرفوع منها وهو قوله ﷺ «من اقام بينة على قتيل قتله فله سلبه» وليس فيها ذكر عمر (رض) ولذلك لم يذكرها الرافضي لان غرضه محصور في قول أبي قتادة «فاذا عمر بن الخطاب في الناس» ليفسره بأنه في الناس الفارين فان العبارة محتملة لو لم يثبت ان عمر كان فيمن ثبتوا، ولذلك فسره القسطلاني بأنه كان في الناس الذين لم ينهزموا. ومتى كان عمر جباناً يفر من القتال؟ وهو الذي كان رسول الله ﷺ يدعو الله بأن يعز به الاسلام. وفي بعض الروايات «يشد به الدين» فاستجاب الله دعاءه حتى قال عبدالله بن مسعود ماعبدالله جهرة حتى أسلم عمر

وقد طعن الرافضي في جميع الصحابة ولاسيما أصحاب بيعة الرضوان، الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن، وأقسم انه رضي عنهم، وجعل ذلك مما يتعبد به المسلمون الى آخر الزمان، إذ قال عزوجل (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) ثم قال فيهم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع، ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما)

وهذا الكتاب وسائر كتب الروافض يدل على انهم أشد غيظا بهم من جميع الكفار، فان هذا الرافضي زعم أن جميع المسلمين فروا في أثر المؤلفة قلوبهم من أهل مكة، قال «ولم يبق مع رسول الله ﷺ الا ثلاثة: علي (ع) يضرب بالسيف بين يدي

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعباس آخذ بلجام بغلته صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب آخذ بركابه . قيل وابن مسعود الى جانبه الايسر ، وقيل ثبت معه تسعة من بني هاشم وهو الذي اعتمده الشيخ المفيد في الارشاد » اه

وهو لم يعتمد على إرشاد مفيده وهو من شيوخهم وكبار مصنفيهم في تأييد نحلتهم ، فذكر ما اعتمده بصيغة التمريض بعد جزمه هو بثبات الثلاثة فقط

ثم زعم ان قوله تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) خاص بهؤلاء الذين ثبتوا معه صلى الله عليه وسلم فيقال له ولماذا عطف على ماقبله بثم الدالة على التراخي؟ أليس دليلا على أن الرسول والذين ثبتوا معه كانوا قد اضطربوا عند اضطراب الجمهور في تلك الهزيمة ؟ أوليس نزول السكينة لازما أو ملزوما لعودة المهاجرين والانصار من أهل بيعة الرضوان تحت الشجرة إلى القتال ؟ وهل عادوا إلا بعد أن زال ذلك الاضطراب واختلاط الامر الذي عرض لهم بفرار المؤلفة قلوبهم ؟ وهل زال ذلك إلا بما أنزل الله عليهم من السكينة لما سمعوا نداء الرسول صلى الله عليه وسلم ونداء العباس (رض) وعلموا مكانه صلى الله عليه وسلم ؟ وهل يكون أصحاب هذه الكرة الناهضة ، بعد تلك الفرة العارضة ، وهم أصحاب المواقف السابقة ، والفتوحات اللاحقة ، من الجبناء المستحقين لغضب الجبار ، ويكون فرارهم خذلاناً للرسول وتعمداً لاسلامه للكفار ، كما افترى هذا الرافضي الكفار ؟

وخلاصة المعنى الذي يدل عليه عطف انزال السكينة بثم الدال على تأخره عن تولي الادبار أن الاضطراب المنافي للسكينة بانهزام الطلقاء كان عاماً اذ تبعه انهزام السواد الاعظم على غير هدى وهو أمر طبيعي في مثل هذه الحال ، فان اختلف سببه فقد اتفق المآل ، فالجيش اضطرب لهزيمة عدد كثير منه ، والرسول صلى الله عليه وسلم اضطرب باله حزنا على المسلمين . ثم بعد أن تمت حكمة الله في ابتلائهم بذلك أنزل سكينته على رسوله فأمر عمه العباس بنداء المهاجرين والانصار فناداهم فاستجابوا لله والرسول صلى الله عليه وسلم إذ انزل الله السكينة عليهم بدعوته والعلم بمكانه

ان الرافضي عمد بعد أن ذكر مجمل القصة بما وافق هواه من نقل ، وما مزجه به من تأويل باطل — إلى تحريف الآيتين في هذه الغزوة فزعم انهما توبيخ

لجميع الصحابة (رض) ماعدا الذين ثبتوا وهم في زعمه ثلاثة، بل واحد في الحقيقة وخص أصحاب بيعة الرضوان بالذكر، بل بالذم المقتضي للكفر. فقال بعد أن زعم انهم أسلموا صاحب الدين «لجفاة الاعراب وطغام هوازن وثقيف» ما نصه:

«فأين ما بايعتم به الله سبحانه وما أعطيتموه من العهد والميثاق يوم بيعة الرضوان على أن لاتفروا عنه، ومن فر فهو في النار، ومن قتل فهو شهيد؟ فما وفيتم ببيعكم الذي بايعتم به سبحانه (كذا) إذ يقول (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً) أنقضتم العهد؟ أم استقلتم البيع؟ (ثم وليتم مدبرين) غير متحرفين لقتال ولا متحيزين إلى فئة (ومن يفعل ذلك فقد باء بغضب من الله) اهـ بحروفه وتحريفه لكلام الله تعالى إذ جعل ذلك كله تفسيراً لآية يوم حنين التي لم تكن إلا تذكيراً للمؤمنين بعناية الله تعالى بهم ونصره إياهم على ماوقع فيهم من الاضطراب والتولي في أول المعركة. وقد أراد بهذا التحريف أن يهدم كل ما للصحابة الكرام من الثناء في كتاب الله، ويجعلهم من شرار الخلق عندالله، ويحول رضوان الله عنهم إلى غضبه ووعدهم إياهم بالجنة إلى وعيدهم بالنار.

أرأيت هذا الرافضي كيف لم يتم آية الشراء لانها حجة عليه ومبطلة لتأويله وهو قوله تعالى (ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) فلو علم الله تعالى أنهم ينقضون العهد أو يستقيلون هذا البيع لما أمرهم بالاستبشار به ولما عبر عنه بانه هو الفوز العظيم أي دون غيره. وقد أشار بقوله: أم استقلتم البيع، إلى قول الانصار (رض) عند بيعة العقبة للنبي ﷺ على منعه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، ووعده لهم بالجنة — إذ قالوا: لا نقيل ولا نستقيل، وقد شهد الله ورسوله لهم بالوفاء، وشهد عليهم الرافضي بالخيانة والغدر، واستقالة البيع!!

وقد أعاد بعد هذا القول ذكر مازعمه من فرار عمر بن الخطاب الذي أعز الله به الاسلام، وأنزل بموافقته القرآن، وكان أعظم ناشر له في الارض بعد رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم فسر السكينة « بتثبيت القلب وتسكينه وإيداعه الجرأة والبسالة » وقال « وانما أنزلها الله على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين وهم الثلاثة او العشرة الذين مر ذكرهم » وقد جهل أن هذا التفسير طعن فيهم لأنه نص على أن هذه المعاني من السكينة لم تكن لهم في أول القتال ، لعطف نزولها على تولية الادبار بثم المفيدة للتراخي . والصواب اللائق به ﷺ وبأصحابه المؤمنين (رض) ما ذكرنا

ثم انه بعد هذا الطعن في جميع الصحابة رضي الله عنهم - والاستثناء معيار العموم على أنه حصره بعد في علي وحده - قال « فإذا تدبرت حالة المسلمين وماقرعهم فيه وعاتبهم به سبحانه وكيف باهى الله سبحانه بأمير المؤمنين ذلك العسكر المجر ، والجحفل الحاشد بأعلام الصحابة وأكابر المهاجرين والانصار وصناديدهم ، ومن اليهم الايماء والاشارة - ظهرت لك عظمته ومكانته من الله ورسوله ، ومبلغه من الدفاع عن الدين والدولة » إلى آخر ما أطال به وأسهب من المعاني الشعرية في تحقير جميع المؤمنين ، حتى خص بالذكر الزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة ، وخالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وفاتح العراق والشام ، ورافع لواء الاسلام ، وابي دجانة وسهل بن حنيف وسعد بن عبادة والحارث بن الصمة وابي أيوب وأمثالهم من صناديد الاسلام الاعلام ، فزعم كاذبا مفتريا أن تلك الصدمة « أطارت أفئدتهم وشردت بهم في كل واد » ليقول في علي « وكيف قام في وجهها وانتصب لصدها وأقدم على ردها بصدر أوسع من الفضاء وقلب أمضى من القضاء » وزعم بل أقسم انه « لقد فاز من بين أصحاب رسول الله بأجرها ، واستولى على فضلها وطار بفخرها » كأنه يشعر شعوراً خفياً لا يدركه عقله بأنه لا يتم له اثبات غلوه فيه إلا بافتراء مناقب له مقرونة بتحقير سائر إخوانه أصحاب رسول الله ﷺ وبالكذب على الله في الأمرين كزعمه أنه تعالى قرعهم وباهى به تعالى الله عن ذلك

ثم ذكر انه يقول هذا غير مزدر لتلك العصبة الهاشمية وهم التسعة الذين ثبتوا معه ﷺ أيضاً - أي كما ازدرى سائر الصحابة - وانما استثناهم من الازدراء لنسبهم لا لشجاعتهم ، وفضلهم وذلك تحقير لهم ، فقد قال بعده : « فوالله الذي لا إله غيره ماثبت أولئك إلا بثباته ، ولا ركنوا إلا لدفاعه ومحاماته ، علماً منهم بكفايته

لحمايتهم والذب عنهم ، فان كل من ألم بالتاريخ وقرأ اليسير علم ان أولئك الهاشميين لم يكن لهم قبل ذلك موقف مشهور ، ولا مقام مذكور ، ولا دون لهم التاريخ قتل أحد » — إلى ان قال — غلواً في الاطراء والمدح ، وإسرافا في الازراء والقدح ، وتهويلا للأمر :

« بربك دع التكلف وخبرني منصفاً لو فر أمير المؤمنين (ع) من بين أولئك التسعة مع مايعلمونه من بأسه وشجاعته أكان يثبت منهم أحد ؟ كلا والله. وحينئذ تكون الطامة الكبرى والقارعة العظمى بقتل رسول الله ﷺ ويذهب الدين والدولة ، وفي ذلك هلاك الامم بعد نجاتها ، وانقراضها بعد حياتها ، فثبات أمير المؤمنين ومحاماته عن رسول الله ﷺ إلى ان ثابت اليه تلك الفئة التي لم تتجاوز مائة (؟) مقاتل هو السبب في حياة رسول الله ﷺ وبقاء الدين والدولة ، ونجاة الخلق من الهلكة »

ثم فرع من هذه التخيلات الشعرية ، والتهويلات الخطابية ، والمفتريات الرافضية ، تخطئة الامة الاسلامية في تولية أمرها (يعني الامامة العظمى) غير صاحب هذه المنة عليها وعلى الدين والدولة وعلى ...... من أستغفر الله من الاشارة اليه وان كان حاكي الكفر ليس بكافر

ثم قفى على تخطئة الامة بتخطئة الشيخين البخاري ومسلم وأمثالهما من رواة صحاح السنة لانهما لم يفتريا في القصة مافتراه هو وأمثاله على الله في كتابه ، وعلى رسوله في سنته ، وعلى خيرة أصحابه من المهاجرين والانصار ، فقد بدأ طعنه في الشيخين بقصد هدم السنة وصرف المسلمين عنها بقوله « واعجب للشيخين في صحيحيهما كيف لم يذكرا لأمير المؤمنين (ع) من ذلك الموقف العظيم والنصر الباهر شيئاً وقد نطق بذلك الذكر الحكيم » وسنرد طعنه على الشيخين في نحره في المنار ، وانما غرضنا في التفسير الدفاع عن كتاب الله والكذب عليه

إن الله تعالى لم يذكر في القرآن أن علياً رضي الله عنه هو الذي نصر المؤمنين في حنين لا بمنطوق ولا مفهوم ، وانما أسند ذلك إلى نفسه عز وجل فقال (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين) وقال (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين)

ولم يقل (وعلى علي) وحده ، ولا على الثلاثة أو التسعة الذين زعم الشيعة انه لم يثبت معه ﷺ غيرهم . وقد مر انه ثبت معه ثمانون رجلا عرفوا بأسمائهم وهو لا ينفي ثبات غيرهم ايضاً لان العدد لامفهوم له . وقال (وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا) ولم يقل ان علياً هو الذي عذبهم وهو الذي هزمهم ولم يقل ذلك أحد من المحدثين ورواة السيرة النبوية .

فان زعم أنهم كتموها لأنهم كانوا يكتمون فضائل علي وحده (قلنا) انهم لم يرووا من مناقب أحد من الصحابة بقدر ما رووا من مناقبه رضي الله عنه وعنهم ، ومما رووه ثباته مع النبي ﷺ وتخصيص الشيخين عباساً وأبا سفيان بن الحارث بالذكر لانه ثبت عندهما بشروطهما المعروفة ، كما انهما لم يذكرا ابا بكر وعمر ايضا وهو قد نقل عن البخاري رواية معلقة زعم انها تدل على أن عمر رضي الله كان من المدبرين ، ولم يرو البخاري في صحيحه حديثاً ما في مناقب معاوية وروي الاحاديث الكثيرة في مناقب علي كرم الله وجهه

واذا كان البخاري ومسلم قد تركا الرواية عمن لا يثقان بعدالته من الروافض فهل يلامان ونحن نرى مثل هذا المؤلف يفتري الكذب على الله ورسوله ويحرف كلام الله تعالى غلواً في علي (كرم الله وجهه وأغناه بمناقبه الكثيرة الصحيحة عن ذلك) وإزراءاً وقدحاً في خيار أصحاب رسول الله ﷺ وطعناً فيهم بالباطل ؟

ليس في التزام الشيخين للصدق مثار للعجب وانما العجب من هذا الرافضي كيف لم يستح من الله حيث أسند إلى كتابه ما ليس فيه بل ما فيه خلافه أيضاً من رضاه عن المهاجرين والانصار ، وحيث أقسم به انه ما ثبت أحد في حنين إلا علي و ٣ أو ٩ ثبتوا بثبات علي رضي الله عنه لا بشجاعتهم ولا بايمانهم ولا بحرصهم على حياة رسول الله ﷺ

ثم كيف لم يستح منه تعالى ومن رسوله وسيد خلقه، الذي لم يكن لعلي فضل إلا من فضله، حيث زعم انه لولاه لقتل رسول الله ﷺ وذهب الدين والدولة ، وهلكت الامم وانقرضت ؟ فجعل له المنة وحده على رسول الله وعلى دينه وعلى جميع خلقه بما افتراه من ثباته وحده معه ! ولو ثبت ثباته وحده لما اقتضى كل هذه المنن فان النصر لم يكن بمن كان معه ﷺ أولا بل بفضل الله ثم تأييده وبعود المهاجرين والانصار

الى القتال، وإنزل ملائكته لتثبيتهم في مواقف النزال ،

ألم يؤمن بقول الله تعالى له ﷺ (يأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فكيف يسلط عليه من يقتله ؟

أولم يعلم بأن أفراداً وجماعات قصدوا قتله ﷺ مراراً فعصمه الله منهم ولم يكن علي معه ؟

ألم يؤمن بما ثبت في الكتاب والسنة من وعد الله لرسوله بالنصر واظهار دينه على الدين كله ، ومن ايعاد أعدائه بالخذلان ؟ ومن ذلك جزمه ﷺ بان ماجمعته هوازن لقتاله ﷺ في حنين غنيمة للمسلمين - فكيف يقول انه لولا علي لقتل رسول الله ﷺ وزالت دولة الاسلام وهلكت الامم ؟ وهل كانت هوازن قادرة على ما عجز عنه سائر العرب مع أن المسلمين كانوا أقوى منهم في كل شيء، ونصر الله فوق ذلك ؟

ألم يكتف بجعل ماجاء به من الغلو والافتراء ذريعة للطعن في جميع أصحاب رسول الله ﷺ حتى الثلاثة أو التسعة الذين اعترف بفضلهم لنسبهم وإنزال السكينة عليهم، وفي أجل رواة السنة الصحيحة وممحصيها من الكذب ، حتى جعل المنة لعلي على رسول الله وخاتم النبيين في حياته وبلوغ دعوته وتأييد الله ونصره له وبقاء دينه وأمته ؟؟

أبمثل هذا تكون دعاية المسلمين إلى الرفض وتحقير الصحابة ورجال السنة؟

والذي يعلمه بالبداهة كل صحيح العقل مستقل الفكر مطلع على تاريخ الاسلام ان أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والانصار رضي الله عنهم لم يكونوا جبناء بل كانوا أشجع خلق الله، وأن الله تعالى أيده ﷺ بنصره وبهم في جملتهم لا بعلي وحده ، كرم الله وجوههم ووجهه ، كما قال عز وجل (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين والف بين قلوبهم) الآية ، وان الذين ثبتوا معه ﷺ في بدر وهم أذلة جائعون، حفاة راجلون، قليل مستضعفون ، فنصرهم الله على صناديد قريش وفرسانها الذين هم ثلاثة أضعافهم ، ماكانوا ليجبنوا عن قتال هوازن وهم على النسبة العكسية من مشركي بدر معهم، ولكن الله تعالى ابتلاهم بما تقدم ذكره مع بيان سببه تمحيصاً لهم ليزدادوا إيماناً به وبعنايته برسوله ﷺ وتأييده بنصره ، ولايغتروا بالكثرة وحدها

ولو أقسم مقسم بالله تعالى على خلاف ما أقسم عليه هذا الشيعي الذي ملك عليه الغلو أمره ، وسلب التعصب عقله، فقال: والله الذي لا إله غيره: ان الله تعالى ما بعث محمداً خاتما للنبيين ، ومكملا للدين، ورحمة للعالمين ، إلا وهو قد كفل نصره على أعدائه الكافرين ، وعصمته من اغتيال المغتالين، بفضله وحده ، لا بفضل علي ولا غيره ، وانه لولم يخلق علي بن أبي طالب او لم يكن في جيش رسوله في حنين لما قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زال دين الله من الارض، ولا هلكت الامم والشعوب، ولوفى الله تعالى بوعده لرسوله بنصره على أعدائه كلهم ، لو اقسم السني المحب لجميع اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القسم الموافق لكتاب الله وسنة رسوله وللتاريخ الصحيح وللمعقول من سنن الاجتماع ، لكان قسمه أبر وأصدق وأرضى لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولعلي عليه السلام والرضوان من قسم ذلك الشيعي على جهله وتعصبه المخالف لكل ماذكر (ومن يضلل الله فما له من هاد)

(٢٨) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

تقدم ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر رضي الله عنه إذ أمّره على الحج سنة تسع ان يبلغ الناس انه لا يحج بعد ذلك العام مشرك ، ثم أمر علياً رضي الله عنه أن يتبع أبا بكر فيقرأ على الناس أوائل سورة براءة يوم الحج الاكبر، وأن ينادي بان لا يحج بعد ذلك العام مشرك . وقد كانت هذه الآية من الآيات الاربعين التي أمر علي كرم الله وجهه بالنداء بها وهي أبلغ من منع المشركين من الحج كما سيأتي

ولفظ (نجس) فيها بالتحريك مصدر نجس الشيء (من باب تعب) فهو نجس بكسر الجيم — اذا كان قذراً غير نظيف والاسم النجاسة . والوصف بالمصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والمثني والجمع من كل منهما، ويراد به المبالغة في الوصف بجعل الموصوف كأنه عين الصفة . وإذا وصف الانسان بأنه نجس

أريد به انه شرير خبيث النفس ، وان كان طاهر البدن والثوب في الحس .
واذا وصف به الداء أو صاحبه أريد به انه عضال لا يبرأ ، ولم يذكر هذا اللفظ ولا كلمة من هذه المادة في غير هذه الآية من التنزيل ، وهو يستعمل في اللغة بمعنى القذر والخبيث حساً أو معنى كالرجس الذي تكرر ذكره فيه كما تقدم في تفسير آية تحريم الخمر من سورة المائدة (ص٥٧ ج٧ تفسير)

وفي لسان العرب : النجس والنجس (بالفتح والكسر) والنجس بالتحريك القذر من الناس ومن كل شيء قذرته ، ثم قال وداء نجس وناجس ونجيس عقام لا يبرأ منه . وقد يوصف به صاحب الداء . والنجس اتخاذ عوذة للصبي وقد نجّس له ونجّسه عوذه (قال) الجوهري والتنجيس شيء كانت العرب تفعله كالعوذة تدفع بها العين (وقال) الليث المنجس الذي يعلق عليه عظام او خرق. ويقال للمعوذ منجّس وكان اهل الجاهلية يعلقون على الصبي ومن يخاف عليه عيون الجن الاقذار من خرق المحيض ويقولون الجن لا تقربها اه ملخصاً بحروفه وفيه ان المراد من التنجس رفع النجس يعني ضرر الجن كالتحرج والتأثم والتحنث وهو الفعل الذي يخرج به فاعله من الحرج والاثم والحنث

وقال الراغب النجاسة القذارة وذلك ضربان ضرب يدرك بالحاسة وضرب يدرك بالبصيرة . والثاني وصف الله به المشركين فقال (انما المشركون نجس) ويقال نجسه إذا جعله نجساً ، ونجسه أيضاً أزال نجسه . ومنه تنجيس العرب وهو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبي ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان .
والناجس والنجيس داء خبيث لا دواء له اه

أقول لا تزال سلائل العرب في البدو والحضر يقولون فلان نجس بمعنى خبيث ضار مؤذ . كما ان الجاهلين منهم بالاسلام لا يزالون يعلقون التناجيس والتعاويذ على الاولاد لوقايتهم من الجن والعين الخبيثة من الانس. وكذلك العبرانيون يسمون الداء العضال نجساً وصاحبه نجساً وشفاءه طهارة

وظاهر كلام الراغب وغيره ان إطلاق النجس على القذر والخبث الحسي والمعنوي حقيقة فيهما وهو الذي أفهمه ومنه المعاصي والداء العضال وقد ذكرهما الزمخشري

في قسم الحقيقة ونقل قول الحسن في رجل تزوج امرأة كان قد زنى بها: هو أنجسها فهو أحق بها. وقولهم في الداء وذكر منها شاهداً في البيت قول ساعدة بن جؤيّة:

والشيب داء نجيس لا دواء له للمرء كان صحيحاً صائب القُحم

وفسره بقوله أي هو داء عياء للرجل الصحيح الجلد الذي إذا تقحم في الشدائد صاب فيها ولم يخطيء

(قال) ومن المجاز الناس أجناس، وأكثرهم أنجاس، ونجسته الذنوب (إنما المشركون نجس) وتقول لاترى أنجس من الكافر، ولا انحس من الفاجر اه

هذا تحقيق معنى النجس والنجاسة في اللغة. وأما في عرف الفقهاء فالنجس ما يجب التطهير لما يصيبه سواء أكان قذراً في الحس كالبول والغائط أم لا كالخمر والخنزير والكلب عند من يقول بنجاسة أعيانها وهم الاكثرون. ومن ثم قال بعضهم بنجاسة أعيان المشركين ووجوب تطهير ماتصيبه أبدانهم مع البلل. وحكي هذا القول عن ابن عباس والحسن البصري ومالك وعن الهادي والقاسم والناصر من أئمة العترة وهو مذهب جمهور الظاهرية والشيعة الامامية. وجمهور السلف والخلف على خلافه ومنهم أهل المذاهب الأربعة، والآية ليست نصاً ولا ظاهراً راجحاً فيه، والسنة العملية لاتؤيده بل تنفيه، ولاسيما قول من يجعل أهل الكتاب كالمشركين كالامامية فان إباحة طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم نزل في سورة المائدة وهي آخر مانزل فهي بعد سورة التوبة بالاجماع، وإباحتهما تستلزم طهارتهما

ومن المعلوم القطعي لكل مطلع على السيرة النبوية وتاريخ ظهور الاسلام بالضرورة ان المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم ولا سيما بعد صلح الحديبية إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لاعصبية له ولاجوار يمنعه منهم، وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبي ﷺ ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحد أحداً منهم معاملة الانجاس ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم، بل روي عنه مايدل على خلاف ذلك مما احتج به الجمهور على طهارة ابدانهم من الاحاديث الصحيحة، ومنها انه ﷺ توضأ من مزادة مشركة، وأكل من طعام اليهود، وربط ثمامة بن أثال وهو مشرك بسارية من سواري المسجد، ومنها

إطعامه هو وأصحابه للوفد من الكفار ولم يأمر ﷺ بغسل الاواني التي كانوا يأكلون ويشربون فيها ، وروى أحمد وأبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا

وقد استدل القائلون بنجاسة الكافر بمفهوم حديث « إن المؤمن لا ينجس » وقد رواه الجماعة كلهم من حديث ابي هريرة وجاء بلفظ « المسلم » من حديث حذيفة رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي ، وهو مفهوم لقب وليس بحجة ، عند الجمهور القائلين بمفهوم المخالفة وابو حنيفة لا يقول به . واستدلوا أيضاً بحديث الامر بغسل آنية أهل الكتاب والأكل فيها ان لم يوجد غيرها وهو في الصحيحين من حديث أبي ثعلبة وقد بين ابو داود علته وهو قوله انهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر . وكذا حديث إنقاء أواني المجوس غسلا والطبخ فيها وهذا كله من الامر بالنظافة ولا دلالة فيه على نجاسة أعيان الناس بمعنى القذر الذي يزال بالغسل

وجملة القول أن لفظ النجس في القرآن جاء بالمعنى اللغوي المعروف عند العرب لا بالمعنى العرفي عند الفقهاء ، وكانت العرب تصف بعض الناس بالنجس وتريد به الخبث المعنوي كالشر والاذى وإلا لما وصفوا به بعض الناس دون بعض ، كما تقدم في قول الاساس : الناس أجناس ، وأكثرهم أنجاس . ولا يطلقون النجس بمعنى القذر الذي يطلب غسله فاذا زال سمي طاهراً إلا فيما يدرك قذره وخبثه بالحس كالرائحة القبيحة.

هو الحق الظاهر . وما أفك عنه من أفك إلا بتحكيم الاصطلاحات الفقهية وغيرها في استعمال اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن ، ومن الغريب أخذ الرازي الشافعي المذهب بالقول الشاذ المخالف للحس واستعمال اللغة في نجاسة المشركين بعد بيان الشافعي العربي وأصحابه لبطلانه ، وقد تبعه الألوسي في ذلك على سعة اطلاعه في الفقه واللغة وكان شافعياً ثم صار مفتياً للحنفية . وما أطلت في هذا البحث اللغوي ، إلا لتفنيد رأيهما حتى لا يغتر به أحد في هذا العصر الذي صار فيه الكثيرون من الشعوب غير الاسلامية أشد عناية من المسلمين بالنظافة التي جعلها المقلدون أحكاما تعبدية يكابرون فيها الحس واللغة والقياس وحكمة الشارع . ويوقعون مقلديهم

في اشد الحرج في السفر ، وفي عدوة البشر . إذا فهمت هذا فهاك تفسير الآية

﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ أي ليس المشركون كما تعلمون من حالهم إلا أنجاسا فاسدي الاعتقاد ، يشركون بالله مالا ينفع ولا يضر ، فيعبدون الرجس من الاوثان والاصنام . ويدينون بالخرافات والاوهام ، ولا يتنزهون عن النجاسات ولا الآثام ، ويأكلون الميتة والدم من الاقذار الحسية ويستحلون القمار والزنا من الارجاس المعنوية ، ويستبيحون الاشهر الحرم . وقد تمكنت صفات النجس منهم حساً ومعنى حتى كأنهم عينه وحقيقته ، فلا تمكنوهم بعد هذا العام أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم فضلا عن دخول البيت نفسه وطوافهم عراة فيه ، يشركون بربهم في التلبية ، وإذا صلوا لم تكن صلاتهم عنده إلا مكاء وتصدية – وقيل المراد بنجاستهم تلبسهم بها دائما لعدم تعبدهم بالطهارة كالمسلمين ، وقول الجمهور بأن المراد النجاسة المعنوية أظهر ، والجمع بين القولين أولى لأنه أعم

وأما القول بنجاسة أعيانهم فهو لا معنى له في لغة القرآن إلا قذارتها الذاتية ونتنها وذوات المشركين كذوات سائر البشر بشهادة الحس ، ومن كابر شهادة الحس كابر دلالة النظر العقلي واللغوي بالأولى . ولا يصح ان تكون نجاسة تعبدية الا بنص صريح في ايجاب غسل ما اتصل بها مع البلل ، وهو لا وجود له وانما الموجود خلافه كما تقدم . وقد اتبع القائلون به سنن بعض وثني الهند وبعض متعصبي النصارى الذين يعدون كل من لم يتعمد نجساً وما هذا بمذهب ، ولكنه من سخافات التعصب ، وقد كان هؤلاء ولا يزالون يرون ان هذه المعمودية (١) تغني صاحبها عن الغسل من الجنابة او مطلقا ، وحكي لنا عن كثير منهم انه تمر عليه الشهور والاحوال ولا يغتسل فيها لأجل ذلك ، ويعلل بعض قسوسهم المتعصبين عناية المسلمين بالطهارة من الاحداث والأنجاس بأن أبدانهم يخرج منها الدود دائما لعدم تعمدهم ، وقد حدثنا بعد فضلاء المصريين

(١) في المعجم المسمى بالمنجد لليسوعيين : اعتمد قبل المعمودية . وفيه : المعمودية أول اسرار الدين المسيحي وباب النصرانية وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الآب والابن والروح القدس اه ولم يذكر تقديس كهنتهم لهذا الماء !

انه كان في فرنسة فرأى أن غلاما لصاحب الفندق الذي كان فيه ينظر في الماء الذي يتوضأ فيه الوضوء الشرعي او اللغوي ثم يذهب إلى والدته فيوشوشها ، فلما تكرر ذلك منه سأل والدته عن ذلك وما يقوله لها؟ فتمنعت فألح فأخبرته أنه يقول لها ياأمي انني لا أرى في الماء الذي يغسل فيه هذا المسلم وجهه ويديه دوداً كما قال لنا معلمنا القسيس !!!

وقد اختلف الفقهاء في دخول غير المشركين من الكفار المسجد الحرام وغيره من المساجد وبلاد الاسلام وقد لخص اقوالهم البغوي في تفسير الآية ونقله عنه الخازن ببعض تصرف وبغير عزو فقال :

وجملة بلاد الاسلام في حق الكفار ثلاثة أقسام (احدها) الحرم فلا يجوز لكافر أن يدخله بحال ذمياً كان او مستأمناً لظاهر هذه الآية وبه قال الشافعي وأحمد ومالك فلو جاء رسول من دار الكفر والامام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج اليه بنفسه او يبعث اليه من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز ابو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم (١)

(القسم الثاني) من بلاد الاسلام الحجاز وحده مابين اليمامة واليمن ونجد والمدينة الشريفة قيل نصفها تهامي ونصفها حجازي ، وقيل كلها حجازي (٢) وقال الكلبي حد الحجاز مابين جبلي طيء وطريق العراق، سمي حجازاً لانه حجز بين تهامة ونجد وقيل لانه حجز بين نجد والسراة ، وقيل لانه حجز بين نجد وتهامة والشام . قال الحربي وتبوك من الحجاز . فيجوز للكفار دخول ارض الحجاز بالاذن ولكن لايقيمون فيها أكثر من مقام المسافر وهو ثلاثة أيام

(روى مسلم) عن ابن عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها الا مسلما - زاد في رواية لغير مسلم وأوصى فقال «اخرجوا المشركين من جزيرة العرب» فلم يتفرغ لذلك ابو بكر وأجلاهم عمر في خلافته وأجل لمن يقدم تاجراً ثلاثاً . عن ابن شهاب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

---

(١) يعني باذن الامام اي الخليفة أو نائبه في الحكم (٢) وهو الصحيح في عرف الاسلام وانما الخلاف في شكل البلاد الذي سمي الحجاز لاجله حجازا ونجد نجدا

« لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » أخرجه مالك في الموطأ مرسلا (وروى مسلم عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم » قال سعيد بن عبد العزيز جزيرة العرب ما بين الوادي إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر ، وقال غيره حد جزيرة العرب من أقصى (عدن أبين) إلى ريف العراق في الطول ، ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشأم عرضاً

(القسم الثالث) سائر بلاد الاسلام فيجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان وذمة[١] ولكن لا يدخلون المساجد إلا باذن مسلم اهـ

وقد ذكرنا الاحاديث الصحيحة في امر النبي صلى الله عليه وسلم باخراج المشركين وأهل الكتاب من جزيرة العرب وان لا يبقى فيها دينان مع بيان حكمة ذاك في خاتمة الكلام على معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لليهود في السلم والحرب وإجلائهم من جواره في المدينة واجلاء عمر ليهود خيبر وغيرهم ونصارى نجران عملا بوصيته في مرض موته صلى الله عليه وسلم (ص ٥٩ ج ١٠)

﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ العيلة الفقر يقال عال الرجل يعيل عيلا وعيلة (ككال يكيل) إذا افتقر فهو عائل ، وأعال كثر عياله وهو يعول عيالا كثيرين أي يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم . ونكر العيلة لان المراد بها ضرب من ضروبها التي يخشاها أهل مكة وهي ما يحدث من قلة جلب الارزاق اليها والمتاع بالتجارة وإنما كان يجلبها المشركون من تجارها وممن حولها من أصحاب المزارع في شعابها ووديانها وما يقرب منها من البلاد ذات البساتين والمزارع كالطائف وكذا ما كانوا يسوقونه من الهدي للحرم ويتمتع به فقراؤه ، فأزال تعالى ما كانوا يخافون من العيلة بقلة مواد المعيشة إذا منع المشركون من المجيء اليها بوعدهم بأن يغنيهم من فضله إن شاء ، وفضله كثير فقد صاروا بعد الاسلام ومنع

١) أي بأحد هذه الثلاثة فالمعاهد هو الاجنبي الذي بينه وبين الحكومة الاسلامية معاهدة سلم ، والمستأمن الحربي الذي يدخل بأمان كالرسل ، والذمي التابع للحكومة الاسلامية

المشركين من الحرم أغنى مما كانوا قبل ذلك، وقد جاءهم الغنى من طرق كثيرة ، اسلم اهل اليمن فصاروا يجلبون لهم الميرة ، بل أسلم أولئك المشركون ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم ولا من المسجد، ثم تفجرت ينابيع الغنى والثروة من كل جانب كما سيأتي

قال ابن عباس كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله (وإن خفتم عيلة) الخ قال فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم . وفي رواية عنه : ألقى الشيطان في قلوب المؤمنين فقال من أين تأكلون وقد نفي المشركون وانقطعت عنكم العير ؟ قال الله تعالى (وان خفتم عيلة) الخ فأمرهم بقتال أهل الكفر وأغناهم من فضله اه ويعني هنا الغنائم، وفي معناه عن سعيد بن جبير وقال أغناهم الله تعالى بالجزية الجارية .

وليس المراد أن الجملة الأولى نزلت وحدها فلما قالوا ماقالوا وخافوا ماخافوا من عواقبها نزلت الجملة الشرطية التالية لها . بل نزلت الآية كلها مع ماقبلها وما بعدها دفعة واحدة (كما تقدم في غيرها) وكان الله تعالى يعلم ماتوسوس به أنفسهم وما يلقيه المنافقون والشيطان في قلوب بعضهم من ذلك إذا لم يكن النهي مقروناً بهذا الوعد فلم يدع لذلك مجالا

وأما الغنى من فضل الله فهو أعم مما ورد في الروايات معينا ومبهما فقد أغنى الله المؤمنين من العرب السابقين الى الاسلام ثم من سائر المسلمين جميع انواع الغنى ، فتح لهم البلاد ، وسخر لهم العباد ، فكثرت الغنائم والخراج ، ومهد لهم سبل الملك والملك، وبسط لهم في الرزق ، من امارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة نفسها من ذلك عظيما بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بقوله (فسوف يغنيكم الله من فضله) للدلالة على ان هذا الوعد انما يكون اكثره في المستقبل لا في الحال، وعلى انه واسع بسعة فضله تعالى وغيب لايخطر لهم أكثره ببال، وقد صدق وعده به فكان من معجزات القرآن. وقيده بمشيئته التي لايشك مؤمن في حصول كل ماتتعلق به ، وان ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن —

لتقوية ايمانهم ، ونوط آمالهم بربهم ، واتكالهم عليه دون مجرد كسبهم ، وإن كانوا مأمورين بالكسب ، لأنه من سننه تعالى في الخلق ، ولكن لا يجوز ان ينسيهم توفيقه وتاييده لهم ، فهو الذي نصرهم وأغناهم فيما مضى كما وعدهم ، وسيزيدهم نصراً وغنى إذا هم وفوا بما شرطه عليهم بمثل قوله (ان تنصروا الله ينصركم) وما في معناه مما سبق التذكير بمواضعه في تفسير سورة الانفال وغيرها

وانما كان قيد المشيئة بالجملة الشرطية المصدرة بان – والاصل فيها عدم الجزم بوقوع شرطها – لأن متعلقها مما مضت سنته تعالى فيه ان يكون بأسباب كسبية لابد من قيامهم بها ، وتوفيق منه تعالى لاتتم بدونه مسبباتها ، وكل من الامرين مجهول عندهم لا يمكنهم القطع بحصوله ، وحكمة إبهامه أن توجه همتهم الى القيام بما يجب عليهم لاستحقاقه . ولما كانت مشيئته تعالى تجري بمقتضى علمه وحكمته جعل فاصلة الآية قوله

﴿ ان الله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر ، حكيم فيما يشرعه لكم من نهي وأمر ، كنهيه عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد ذلك العام (تسعة من الهجرة) ونهيه قبله عن اتخاذ آبائكم واخوانكم منهم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، وأمركم قبل ذلك بقتال المشركين بعد انقضاء عهودهم بأربعة أشهر ، وعلمه بمصالحكم ومنافعكم ، وحكمته فيما يشرع من الامر والنهي لكم ، تامان كاملان متلازمان ، فاذا علمتم ذلك وعلمتم ماشرعه لكم ، وما قيد به وعده بالجزاء عليه والمزيد من فضله ، رأيتم مشيئته عز وجل موافقة لذلك كله

﴿ تصحيح غلط في تفسير واخوانكم في الدين ﴾

قد أخطأنا في كلمة زلّ بها القلم سهواً في ص ١٧١ من الجزء ٣ من المنار وهي « ولكن لم يرد في التنزيل استعمال لفظ اخوان في اخوة النسب » فينبغي اصلاحها هكذا « ولكن لم يرد في التنزيل غيرها الا في اخوة النسب » وقد طبعت في التفسير مصححة بغير هذا اللفظ (ص ١٩٠ ج ١٠)

الاستفتاء فى حقيقة الربا

(لبعض كبار علماء الهند)

تابع مانشر في الجزء الرابع

لبعض الاعلام ههنا كلام فلابد علينا ان نذكره مع ماله وما عليه . وهو ان القرض ليس غير البيع ومباينا له بل داخل فيه، لان القرض مبادلة انتهاء كما صرح به بعض الفقهاء فهو قسم من اقسام البيع لاغير ،وانما جوز فيه النسأ مع كونه من الاموال الربوية للضرورة ودفع حاجة الفقراء وهذا لا يخرجه عن البيع قال القاضي ابن رشد الحفيد المالكي : فان العقود تنقسم اولا بقسمين قسم يكون معاوضةوقسم يكون بغير معاوضة كالهبات والصدقات والذي يكون معاوضه ينقسم ثلاثة اقسام (احدها) يختص بقصد المغابنةوهي البيوع والاجارات والمهور والصلح والمال المضمون بالعقد وغيره (والقسم الثاني) لا يختص بقصد المغابنة وانما يكون على جهة الرفق وهو القرض (١) (والقسم الثالث) فهو مايصلح ان يقع على الوجهين جميعاً اعني قصد المغابنة وعلى قصد الرفق كالشركة والاقالة والتولية(٢) قال الشاه ولي الله في حجة الله البالغة في ذيل البيوع المنهي عنها: وكذلك الربا وهو القرض(٣) على ان يؤدي اليه أكثر وأفضل مما أخذ سحت(٤) باطل فان عامة(٥) المقترضين بهذا النوع هم المفاليس

---

(١) لما جعل القاضي القرض قسما للبيع فهو دليل على ان القرض عنده غير البيع فلا يصح به الاستشهاد على كون القرض بيعاً لكن أوردناه ههنا لانه صرح بأن المعاوضة تكون في القرض أيضاً ويمكن أن يتوهم منه ان كل عقد تكون فيه المعاوضة هو قسم من أقسام البيع

(٢) (بداية المجتهد ص ١٢١ ج ـ ٢) * (٣) هذا حد للربا غير مأثور عن السلف ولا دليل عليه بل هو خلاف القرآن والسنة الصحيحة وجهور العلماء * (٤) لا بد أن يقوم عليه دليل من الشارع عليه السلام والاداء أكثر وأفضل مما أخذ ثبت عن النبي ﷺ بطرق صحيحة مطلقا * (٥) لايكفي أمثال هذه التدقيقات الفلسفية لاثبات حكم شرعي بل لا بد أن يكون عليه نص عن الشارع عليه السلام*

المضطرون وكثيرا ما لايجدون الوفاء عند الاجل فيصير أضعافا مضاعفة لايمكن التخلص منه ابداً ،وهو مظنة لمناقشات عظيمة، وخصومات مستطيرة، واذا جرى الرسم باستنماء المال بهذا الوجه أفضى الى ترك الزراعات والصناعات التي هي أصول المكاسب ولا شيء في العقود أشد تدقيقاً واعتناءً بالقليل وخصومة من الربا، وهذان الكسبان [أي الميسر والربا] بمنزلة السكر مناقضان لأصل ماشرع الله لعباده من المكاسب وفيهما قبح وشناعة . والامر في مثل ذلك الى الشارع إما أن يضرب له حداً يرخص فيما دونه ويغلظ النهي عما فوقه ، أو يصدعها رأساً ، وكان الميسر والربا (١) شائعين في العرب وكان قد حدث بسببهما مناقشات عظيمة لا انتهاء لها ومحاربات ،وكان قليلها يدعو إلى كثيرهما ، فلم يكن أصوب ولا أحق من أن يراعى حكم القبح والفساد موفراً فنهى عنهما بالكلية [واعلم] أن الربا على وجهين حقيقي (٢) ومحمول عليه أما الحقيقي فهو في الديون (٣) وقد ذكرنا أن فيه قلباً لموضوع المعاملات وأن الناس كانوا منهمكين فيه في الجاهلية أشد انهماك وكان حدث (٤) لأجله محاربات مستطيرة وكان قليله يدعو إلى

(١) لاشك ان الربا كان شائعاً في العرب لكن الكلام في تعيينه ولم يظهر عن الآثار المنقولة عن التابعين إلا انه كان في البيع أو الدين ولا أثر عن أحد منهم انه كان في القرض والفرق بين البيع والقرض والدين سيأتي ان شاء الله * (٢) والعجب أن مايدعى انه ربا حقيقي فلا ذكر له على لسان الشرع وأما المحمول عليه والمشبه به فهو مروي عن جماعة من الصحابة وكذلك الفقهاء لا يذكرون الربا الحقيقي إلا تبعاً واستطراداً ويأتون جميع الفروع والتفاصيل في باب الربا الغير الحقيقي *

٣) لا انكار من أن ربا الجاهلية كان في الديون كما يدل عليه بعض روايات التابعين لكن المراد من الديون في كلامهم ديون البيع أي اذا ابتاعوا نسيئة فما ثبت في ذمتهم من الثمن المؤجل هو الدين كما جاء مصرحا في بعض الروايات وكما صرح بها الامام الشافعي والبيهقي والزرجاني حيث حملوا الدين المطلق على ديون البيع كما سيأتي مفصلا انشاء الله * (٤) لم نر له أثراً في أيام العرب ووقائعهم لا في الجاهلية ولا في الاسلام ووقائع هذه الأيام لا تعرض علينا لان أعظم أسباب الخلاف والمناقشة هو نظام السياسة الحالية ولذا ترى أن كثرة الوقائع والمقدمات لا تختلف بهذا الباب*

كثيره فوجب أن يسد بابه بالكلية ولذلك نزل في القرآن في شأنه مانزل (والثاني) ربا الفضل والأصل فيه الحديث المستفيض «الذهب» ـ الحديث ـ هو [أي ربا الفضل] مسمى بربا تغليظاً وتشبيهاً [١] له بالربا الحقيقي على حد قوله عليه السلام [المنجم كاهن] وبه يفهم معنى قوله ﷺ «لا ربا إلا في النسيئة» [٢] ثم كثر في الشرع استعمال الربا في هذا المعنى حتى صار حقيقة شرعية فيه أيضا [٣] والله اعلم انتهى [٤]

وكذا قال العلامة الامام ابن الهمام الحنفي بعد مافسر الربا بقوله هو من البيوع [٥] المنهي عنها قطعا قال ـ بقوله تعالى [يأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا] أي الزائد [٦] في القرض [٧] والسلف على القدر المدفوع والزائد في بيع الاموال الربوية عند بيع بعضها بجنسه وسنذكر تفصيلهما ويقال لنفس الزيادة اعني بالمعنى المصدري ومنه [أحل الله البيع وحرم الربا] أي حرم ان يزاد في القرض والسلف على القدر المدفوع، وان يزاد في بيع تلك الاموال بجنسها قدراً ليس مثله في الآخر [٨] ـ وذلك الكلام الى في كتاب الصرف بحديث عمر «الذهب بالورق ربا الاهاء وهاء» ثم قال ـ وقيل معنى قوله ربا اي حرام باطلاق اسم الملزوم على اللازم

---

(١) قال ذلك تبعاً لابن القيم من أن الربا الثابت بالحديث ربا غير حقيقي وهذا ليس بصحيح لان جمهور العلماء قالوا باجمال الآية وبكون الحديث مفسراً للآية فهذا يكون رباً حقيقياً لانه ليس في القرآن ربا سوى ما ثبت كونه ربا بالسنة فلا نجترىء على أن نقول إنما ثبت كونه رباً من القرآن والحديث هو ربا غير حقيقي والذي لم يرد فيه حديث ولا أثر خال عن العلة يكون ربا حقيقياً *

٢) لعله أراد بها القرض وليس بصحيح لان النسيئة في اللغة هي الثمن المؤجل لا كل ما يكون في الذمة من الدين أو القرض * (٣) لفظ أيضاً ليس على محله لان في الشريعة ليس ربا إلا ماثبت كونه رباً من الحديث * (٤) ص ٩٩ ج ـ ٢

٥) هو موافق لما عليه الجمهور من أن الربا داخل في البيع *

٦) هـذا خلاف ماقال أولا من أن الربا بيع وأيضاً هو صرح بنفسه في التحرير أن الآية مجملة والحديث يفسرها فكيف يصح منه هذا القول ؟ *

٧) وكذا فسر الآية الشيخ سناء الله في تفسيره تبعاً له *

٨) فتح القدير باب الربا *

ولا مانع من حمله في حقيقته شرعا وان اسم الربا تضمن الزيادة من الاموال الخاصة في أحد العوضين في قرض أو بيع اه الظاهر من مجموع كلامه ان الزيادة في القرض ربا والربا من البيوع المنهي عنها فيفهم منه أن القرض من البيوع

وفي الملتقى: الربا هو فضل مال خال عن عوض شرط لاحد العاقدين في معاوضة مال بمال - وذكر العلامة الشيخ زاده في شرح العاقدين: أي البائعين أو المقترضين[١] فعلى هذا يكون الربا في القرض ايضاً فيكون بيعاً. وكذلك الفقهاء بأجمعهم يذكرون الربا في كتاب البيوع والربا في القرض أيضاً فيكون القرض بيعاً قال العلامة العيني في شرح البخاري واختلف في عقد الربا هل هو منسوخ لايجوز بحال أو هو بيع[٢] فاسد اذا ازيل فساده صح بيعه؟ فجمهور العلماء على على أنه بيع منسوخ وقال أبو حنيفة هو بيع[٣] فاسد اذا ازيل فساده انقلب صحيحاً[٤] قال شيخ الاسلام المرغيناني في باب البيوع الفاسدة من فتاوى التجنيس والمزيد: رجل طلب من آخر قرض عشرة دراهم بأكثر لايجوز لان فيه ربا اه[٥] يمكن أن يتوهم من هذه العبارات ان القرض بيع لان القرض فيه الربا ولا ربا في غير البيع

والجواب عنه اولا تصريح العلماء والفقهاء بان القرض غير البيع قال الشيخ ولي الله عليه رحمة الله في شرح المؤطأ الفارسية: معنى قرض تمليك شيء است بآن شرط كه رد كنند بدل اوو آن بيع نيست بلكه عقد يست كه ابتداء معنى تبرع دارد واخرا معنى مبادلة[٦] قال ابن الهمام ان القرض تبرع لانه صلة في الابتداء واعارة حتى يصح القرض بلفظ اعرتك اه (فتح القدير) قال الشاه ولي الله

---

١) زاد بعضهم في تفسير العاقدين تحت حد الربا لفظ المقرضين لكن هذه الزيادة خلاف ماعليه المحققون ولا دليل عليها ويأباها قولهم في معاوضة مال بمال *

٢) لايصح به الاستشهاد بل هو دليل على ان الربا بيع ويؤيده صنيع العلماء أعني ذكر الربا بأحكامه في البيوع لا في القرض * (٣) هذا يدل على ان أبا حنيفة رضي الله عنه ذهب الى ان الربا بيع * (٤) «كتاب البيوع ص٤٣٥ ج ٥»

٥) ليس فيه انه ربا منصوص فيمكن انه أراد به ربا قياسياً لان الفقهاء لايذكرون الاحكام الثابتة عن القياس مفصولة عن الاحكام الثابتة بنص القرآن أو بنص الحديث *

٦) مسوى «ص٣٥٧ ج ٢»

رحمة الله عليه : مبنى القرض على التبرع من اول الامر وفيه معنى الاعارة [١]

قال ملك العلماء في البدائع : لان القرض للحال تبرع الا ترى انه لا يقابله عوض للحال ؟ فكان تبرعا فلا يجوز الا ممن يجوز منه التبرع ، وكذا قال في مبحث تأجيل القرض : لان القرض تبرع الا ترى أنه لا يقابله عوض للحال وانه لا يملكه من لا يملك التبرع ؟ وقال الحداد في شرح القدوري في هذا المبحث : لانه (القرض) اصطناع معروف وفي جواز تأجيله جبر على اصطناع المعروف ، وقال الحداد في البيوع : والبيع في اللغة مبادلة مال بمال آخر وكذا في الشرع لكن زيد فيه قيد التراضي لما في التغالب من الفساد (والله لا يحب الفساد) ويقال هو في الشرع عبارة عن ايجاب وقبول في مالين ليس فيهما معنى التبرع. وهذا قول العراقيين كالشيخ (أي أبي الحسن القدوري) وأصحابه ، وقيل هو عبارة عن مبادلة مال بمال لا على وجه التبرع وهو قول الخراسانيين كصاحب الهداية واصحابه . اه -

فالقرض على رأي الجمهور عقد تبرع كما مر بخلاف البيع فانه ليس فيه تبرع على كلا الحدين ، فغير التبرع لا يكون تبرعا بل هما متباينان وأحكامهما مختلفة فالقرض معروف وصدقة وتبرع وعبادة ، والبيع ليس كذلك ؛ والقرض عارية في الابتداء والبيع ليس بعارية لا في الابتداء ولا في الانتهاء ، فالقرض شبيه بالعارية من حيث الابتداء وشبيه بالبيع من حيث الانتهاء . ووجه الشبه المبادلة لكن تكون في البيع ابتداءاً وانهاءاً وفي القرض حين الاداء وبه لا تخرجه عن كونها تبرعاً قال السرخسي في شرح السير الكبير [٢] هو كلام يحتمل القرض ويحتمل الصدقة فكل واحد منهما تبرع والقرض اقل التبرعين لانه يوجب البدل . اه ففيه تصريح ان البدل لم يخرج القرض عن كونه تبرعا .

والحق أن المبادلة في البيع ركن وفي القرض ليست بركن نعم تستلزمه وفرق ما بين الالتزام واللزوم لان مقصود المشتري هو المبيع ومقصود البائع هو الثمن وغرض كل منهما اخراج ما في ملكه وتحصيل عوضه والاحكام تترتب على الالتزام لا على اللزوم قال ملك العلماء ان البيع مبادلة شيء مرغوب فيه بشيء مرغوب فيه [٣] وقال في (كتاب البيوع)

---

(١) حجة الله «ص ١٠٥ ج ٢» * (٢) «ص ٢٦٨ ج ٤» (٣) بدائع كتاب الاشربة ص ١١٥

امار كن البيع فهو مبادلة شيء مرغوب بشيء مرغوب وذلك قد يكون بالقول وقد يكون بالفعل اه وظاهر ان القرض ليس فيه مبادلة شيء بشيء مرغوب فيه بل الغرض الاصلي الذي وضع له القرض هو انجاح حاجة المحتاج إليه ولذا قال الشيخ ولي الله رحمه الله ان القرض تمليك الشيء ليسترد (١) مثله وهو ليس ببيع بل هو عقد في أوله تبرع وفي آخره مبادلة (٢) قال ابن عابدين (رح) ههنا أصلان (أحدهما) ان كل ما كان مبادلة مال بمال يفسد بالشرط الفاسد كالبيع ومالا فلا (٣) كالقرض (٤) وأيضاً قال العلامة المذكور في نشر العرف في دليل محمد (رح) لان القرض اسرع جوازا من البيع لانه مبادلة صورة وتبرع حكما (٥) فهذا تصريح منه ان القرض ولو كان مبادلة صورة لـكن ليس له حكم المبادلة شرعاً قال القاضي سناء الله في تفسيره لان الشرع اعتبره عارية كأن المؤدى عين المدفوع ـ ولعله باعتبار مقاصد العاقدين لان الاعتبار في العقود للاغراض والمعاني لا للصورة ومن ذهب الى انه مبادلة انتهاء فهو صرح أيضاً أنه تبرع في الابتداء والبيع مايـكون مبادلة في الابتداء كما هو مبادلة في الانتهاء قال شيخ الاسلام (رح) إنه اعارة وصلة في الابتداء حتى يصح بلفظ الاعارة ولا يملـكه من لا يملك التبرع كالوصي والصبي ، ومعاوضة في الانتهاء ، وكذا قال الحداد في شرح القدوري والقرض ليس هو بمبادلة في الابتداء ـ اه فعلى هذا لا يـكون بيعاً لان الفقهاء صرحوا أن البيع مبادلة ابتداء كما هو مبادلة انتهاء واذا فات عن أحد الطرفين كونه مبادلة يفوت كونه بيعا قال ملك العلماء في البدائع في دليل قول الامام إن ولي الصغيرة لا يملك الهبة بالعوض بدليل أن الملك فيها يقف على القبض وذلك من أحكام الهبة وانما تصير معاوضة في الانتهاء وهو لا يملك الهبة فلم تنعقد هبة فلا يتصور أن تصير معاوضة

---

(١) فيه دلالة على ان المبادلة ليست فيه * (٢) معربا عن المسوى شرح الموطأ الفارسية ص ٣٥٧ ج ٢ * (٣) فيه دلالة على ان القرض ليس فيه مبادلة والالزم فساده بالشرط الفاسد مع انه لا يفسد بالشرط الفاسد بل يلغو الشرط ويبطل * (٤) رد المحتار باب مايبطل بالشروط الفاسدة ولا يصح تعليقه *
(٥) ص ١٢٢ حكم الشارع عليه السلام على كونه تبرعا ولم يحكم بأنه مبادلة ولم يعتبرها *

بخلاف البيع لانه معاوضة ابتداء وانتهاء وهو يملك المعاوضة (١) اعلم أن ملاك العلماء اخرج الهبة بالعوض عن البيع بدليل أنها ليست بمعاوضة في الابتداء فبعين هذا الدليل يخرج القرض أيضاً من البيع لانه ليس بمعاوضة في الابتداء بالاتفاق كما مر عن العلامة الشامي أن القرض وإن كانت صورته صورة المبادلة لكن هو في حكم التبرع شرعاً قال العيني في شرح الهداية والمعول على النكتة الاولى (٢) لا على النكتة الثانية (٣) لان على النكتة الثانية يلزم أن لا يصح القرض اصلا اه قال صاحب العناية وهذا يقتضي فساد القرض لكن ندب الشرع إليه وأجمعت الامة على جوازه فاعتمدنا على الابتداء (٤) وقلنا بجوازه بلا لزوم (باب المرابحة والتولية)

والحق في هذا الباب مانقل القهستاني عن النهاية وغيره لانه موافق للدراية وهو أن القرض ليس فيه مبادلة اصلا لا في الابتداء ولا في الانتهاء بل في كليهما عارية . لفظه : الا أن التعويل على انه عارية ابتداء أو انتهاء (٥) قال الشلبي إن بدل القرض في الحكم كأنه عين (٦) المقبوض إذ لو لم يجعل كذلك كان مبادلة الشيء بجنسه نسيئة وهو حرام واذا كان كذلك يكون عارية ابتداء وانتهاء (٧) ويحصل من هذه أن الأصل في البيع أن يكون غرض العاقدين التزام المبادلة ولا يكون القصد والغرض من طرف إلا المبادلة وأما العقود التي لا يكون غرض المتعاقدين فيها التزام المبادلة بل يلزمها المبادلة فهي ليست ببيع كما في القرض لان فيه ليس غرض المقرض ليتبادل دراهمه بدراهم المستقرض ولا غرض المستقرض أن يأخذ دراهم المقرض ليتبادل دراهمه بدراهمه بل غرض الطرفين انجاح الحاجة فقط ولزوم المبادلة من غير قصد والتزام فلا يصير من هذا اللزوم

---

(١) (ص١٤٣ ج ٥) * (٢) هي العارية * (٣) هي المبادلة * (٤) أي العارية *
(٥) (جامع الرموز ص ٤٠٦ ج ٢) (٦) فلا يتصور الربا في القرض لان الربا هو الفضل والفضل والمساواة اضافة تقتضي الطرفين بحيث لا يمكن وجودها بدون الطرفين ولما كان في القرض رد المثل في حكم رد العين كما صرح به الفقهاء لا يتحقق في القرض الطرفان فلا يتحقق الفضل (٧) حاشية تبيين الحقائق شرح كنز قبيل باب الربا

بيعا كذا صرح ابن القيم في الاعلام لفظه : وأما القرض فمن قال إنه خلاف القياس فشبهته انه بيع ربوي بجنسه مع تأخر القبض وهذا غلط فان القرض من جنس التبرع بالمنافع كالعارية ولهذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم منيحة فقال « أو منيحة ذهب أو منيحة ورق » وهذا من باب الارفاق لا من باب المعاوضات فان باب المعاوضات أن يعطي كل منهما أصل المال على وجه لا يعود إليه وباب القرض من جنس العارية والمنيحة وافقار الظهر لما يعطى فيه من أصل المال لينتفع فيه أصل المال بما يستخلف منه ثم يعيده إليه بعينه ان أمكن وإلا فنظيره ومثله فتارة ينتفع بالمنافع كما في عارية العقار، وتارة بمنحه ماشية ليشرب لبنها ثم يعيدها أو شجرة ليأكل ثمرها ويسمى عريَّة فانهم يقولون اعاره الشجر وأعاره المتاع ومنحه الشاة وافقره الظهر وأقرضه الدراهم واللبن والتمر ولما كان يستخلف شيئاً بعد شيء كان بمنزلة المنافع ولهذا كان في الوقف يجري مجرى المنافع وليس هذا من باب البيع في شيء بل هو من باب الارفاق والتبرع والصدقة، وإن كان المقرض قد ينتفع أيضاً بالقرض كما في مسئلة السفتجة ولهذا كرهها من كرهها والصحيح انها لا تكره لان المنفعة لا تخص (١) المقرض بل ينتفعان بها جميعاً (٢) فالعلامة ابن القيم صرح فيه باشياء (الاول) من شبه القرض بالبيع فقد غلط فاذا كان تشبيهه بالبيع غير صحيح فكونه بيعاً أولى أن يكون غير صحيح (والثاني) أنه تبرع (والثالث) أنه ليس من باب المعاوضات (والرابع) أن المعاوضة أصلها أن يعطي شيئاً على وجه لا يعود إليه والقرض ليس على هذا الوجه ، فظهر بهذا تسامح ابن رشد حيث عد القرض من باب المعاوضات *

وثانياً بان جمهور (٣) الفقهاء يستدلون على حرمة منافع القرض بحديث سوار

---

(١) يوهم ظاهره ان المنفعة لو تخص المقرض لا تجوز ففيه انها كما تجوز فيما لم يخص المقرض كذا تجوز اذا خصت بالمقرض ومن فرق فلا بد عليه من فارق*

(٢) « ص ١٤٥ ج ١ »* (٣) وكذا العلامة البغوي والمفسر الصوفي الشهير بالخازن قد أخرجا حكم نفع القرض عن ربا البيع وأثبتا له حكما من دليل لكنه غير دليل ربا البيع فتفريق الدليلين يدل على ان القرض عندهما أيضاً ليس ببيع *

المتروك (كل قرض جر منفعة فهو ربا) فلو كان القرض بيعاً لم يحتاجوا الى هذا الدليل الضعيف بل الطريق الواضح والحجة المستقيمة أن القرض بيع والزيادة في بيع الاموال الربوية ربا فاستدلالهم بهذا الحديث الضعيف وعدولهم عن الصراط السوي دليل على أن القرض ليس ببيع ولو كان بيعاً عندهم ما تركوا هذا الدليل القوي والحجة المستقيمة وأيضاً يعلم من استدلالهم بهذا الحديث الضعيف انه ليس في هذا الباب حديث صحيح يحتج به وهو أحسن وأقوى من هذا كما مر بيانه

وثالثاً بأن العلامة الكاساني قد استدل على حرمة المنافع بدليلين الاول حديث سوار المتروك والثاني ان لهذا شبه بالربا حيث قال - واما الذي يرجع إلى نفس القرض فهو ان لا يكون فيه جر منفعة فان كان لم يجز لما روي عن النبي ﷺ انه نهى عن قرض جر نفعاً ولان الزيادة المشروطة تشبه الربا لانه فضل لا يقابله عوض والتحرز عن حقيقة الربا وعن شبهة الربا واجب [1] فان كان القرض بيعا فكان الفضل (أي نفعه) ربا حقيقة لا شبيها له *

وقد سلم بعض الاعلام لما شافهتهم في هذه المسئلة ان القرض المطلق ليس ببيع لكن اذا زيد فيه شرط النفع يصير بيعاً لانه حينئذ يفوت فيه كونه تبرعاً وصدقة فاذا يكون بيعاً واذا صار بيعاً يجري فيه جميع احكام بيع الاموال الربوية فيكون الفضل أيضاً ربا ، أما قولنا : فاذا يكون بيعاً فلان القرض معاوضة حقيقة لكن لكونه تبرعاً في الابتداء خرج عن حكم المعاوضات فاذا اشترط فيه النفع من أول الامر فلم يبق اذاً التبرع فيعود إلى حقيقته فيصير بيعاً لانه يصدق عليه اذاً أنه معاوضة ابتداءاً وانتهاءاً *

وفيه (أولا) انا لا نسلم أن يصدق عليه انه معاوضة ابتداء وانتهاء لانه لا عوض له في الحال كما مر عن ملك العلماء وقد اخرج ملك العلماء الهبة بالعوض عن البيع بدليل انها ليست بمعاوضة في الابتداء وإن كانت معاوضة في الانتهاء فهذا الدليل يجري ههنا أيضاً ويخرج القرض عن البيع بعين هذا الدليل قال : بدليل أن الملك فيها يقف على القبض وذلك من أحكام الهبة وانما تصير معاوضة في الانتهاء

(١) بدائع الصنائع «ص ٣٩٥ ج ٧» *

وهو لايملك الهبة فلم تنعقد فلا يتصور أن تصير معاوضة بخلاف البيع (١)

(وثانياً) أن ملك العلماء قد ذكر : اما ركن البيع فهو مبادلة شيء مرغوب بشيء مرغوب اه وفي القرض الطلب والرغبة عن(؟) الطرفين مفقودان البتة فلا يمكن أن يوجد البيع عند فوات ركنه على أن في القرض يعطي المقرض ولا يريد ألا يعود اليه ما أعطى بخلاف البيع لان كلا منهما يريد وينوي أن لا يعود إليه ماخرج عن يده *

(وثالثاً) أن القرض وإن اشترط فيه الزيادة فلا يصير بيعاً أيضاً لامور (الاول) أن هذا الشرط خلاف مقتضي العقد لان مبنى القرض على التبرع واذا اشترط فيه الزيادة فات عنه كونه تبرعاً ومن الاصول ان الشرط اذا كان خلاف مقتضى العقد يفسده ولكن القرض من العقود التي لاتفسد بالشروط الفاسدة بل الشرط يصير ملغى والعقد صحيحا فاذا بقي القرض على صحته لم يصر بيعاً قال الشاه ولي الله رحمة الله عليه : وجائز نيست اقراض بشرط زيادة يارد صحيح عوض مكسر آنكه در شهر ديگر بدهد درين صورتها شرط لغوشود زيراكه عبد الله بن عمر بابطال شرط فرمودند نه ببطلان عقد (٢) قل شيخ الاسلام في الهداية : لان الشرط الفاسد في معنى الربا وهو يعمل في المعاوضات دون التبرعات (كتاب الهبة) قال الامام السرخسي في المبسوط : لو قل أقرضني عشرة دراهم بدينار فأعطاه عشرة دراهم بدينار فعليه مثلها ولا ينظر الى غلاء الدراهم ورخصها ، وكذلك كل مايكال ويوزن ، فالحاصل هو ان المقبوض على وجه القرض مضمون بالمثل وكلما كان من ذوات الامثال يجوز فيه الاستقراض ، والقرض لايتعلق بالجائز من الشروط فالفاسد من الشروط لايبطله ولكن يلغو شرط رد شيء آخر فعليه أن يرد مثل المقبوض (٣) فهذا تصريح منه ان الشروط الفاسدة لاتبطل القرض بل يكون القرض باقياً على أصله وتبقى قرضيته ولا تزول أي لاينقلب بالشروط الفاسدة الى البيع . وقال في موضع آخر : ولو استأجر منه ألف درهم أو مائة بدرهم أو ثوب لم يجز قال لانه ليس بناء ويريد ألا ينتفع به مع بقاء عينه ومثله لايكون محلا للاجارة وانما يرد عقد الاجارة على ماينتفع به مع

(١) بدائع «ص١٥٣ ج٥» * (٢) مسوى ص ٣٥٧ - * (٣) «ص ٣٠ ج ١٤» *

بقاء عينه ، وقد بينا ان الاعارة في الدراهم والدنانير لاتتحقق ويكون ذلك قرضاً فكذلك الاجارة[١] فاذا لم تنقلب إجارة الدراهم والدنانير بشرط النفع الى البيع فالقرض أولى بل لاينقلب اليه وإن اشترط فيه النفع *

(والامر الثاني) ان الفقهاء يصرحون ان النفع المشروط في القرض شبيه بالربا فلو يستحيل القرض بشرط النفع الى البيع لصار هذا النفع ربا حقيقة لا شبيهاً به *

(والامر الثالث) لو صار القرض بشرط النفع بيعاً لكان بيع الصرف ، وبيع الصرف اذا لم يكن فيه تقابض البدلين في المجلس أو يكون فيه شرط الزيادة يفسد ويتعين النقد في الصرف اذا فسد بيع الصرف فلا تكون هذه الدراهم والدنانير ملكا للمستقرض فلا يكون الربح والمنفعة الحاصلة منه طيبا مع ان الفقهاء صرحوا بأنه طيب. في العالمكيرية: من استقرض من آخر ألفا على أن يعطي المقرض كل شهر عشرة دراهم وقبض الالف وربح فيها طاب له الربح[٢] *

(والامر الرابع) ان القرض اذا اشترط فيه النفع يكون مكروهاً عند الفقهاء قال محمد رحمة الله عليه في كتاب الصرف ان أبا حنيفة رضي الله عنه كان يكره كل قرض جر منفعة قال الكرخي هذا اذا كانت المنفعة مشروطة في العقد بأن أقرض غلة ليرد عليه صحاحا أو ما أشبه ذلك فان لم تكن المنفعة مشروطة في العقد فأعطاه المستقرض أجود مما عليه فلا بأس به (عالمكيري) ـ وأخرج الزيلعي عن عطاء: كانوا يكرهون كل قرض جر منفعة اه فلو ينقلب القرض من شرط النفع الى البيع لكان نفعه حراما لكونه ربا لامكروهاً لان المكروه غير الحرام ودليلاهما متغايران ، قال العيني : أجمع المسلمون على تحريم الربا وعلى انه من الكبائر[٣] قال ابن الهمام وأحسن ماهنا عن الصحابة والسلف مارواه ابن أبي شيبة في مصنفه حدثنا خالد الاحمر عن حجاج عن عطاء قال كانوا يكرهون كل قرض جر منفعة[٤] أي الصحابة يكرهون النفع المستحصل من القرض فهذا دليل على ان الصحابة أيضاً يفرقون بين النفع المستحصل من القرض وبين الربا حيث يجعلون الاول

(١) «ص ٣٩ ج ٤ »* (٢) «٢٧٤ ج ٣»* (٣) عمدة القاري «ص ٤٣٤ ج ٥ »*
(٤) فتح القدير كتاب الحوالة *

مكروهاً والثاني حراما * هذا ومن ادعى ان القرض مطلقاً بيع أو بشرط النفع فلا بد عليه من البيان ودعوى البداهة في موضع الخلاف غير مسموعة * وقد ﴿ظن بعضهم﴾ ان بيع خمس ربابي بست ربابي يكون ربا بالاتفاق لكن اذا أقرض خمس رباني بشرط أن يرد عليه ست ربابي كيف لايكون هذا ربا مع انه لا فرق بينهما إلا في اللفظ ؟ ﴿ويزال﴾ بأنه لا مجال للقياس فيما ورد به النص لأن الشارع عليه السلام[1] جعل الاول بيعاً وربا لا الثاني قال ابن قيم الجوزية وكذلك صورة القرض وبيع الدراهم بالدراهم الى أجل صورتهما واحدة وهذا قربة صحيحة وهذا معصية باطلة بالقصد[2] *

وكذا ﴿ماظن﴾ ان نفع القرض ربا حقيقة وداخل في نص القرآن وهو أمر بديهي لايحتاج الى البيان ﴿مدفوع﴾ بأنه لو كان أمراً بديهياً لايمكن أن يخفى على الأئمة والفقهاء دخول هذا النفع في نص القرآن ولم يحتاجوا الى الاستدلال عليه بالحديث الضعيف تارة وبالقياس على ربا البيع تارة وبالقياس على ربا الجاهلية مرة وبالآثار حيناً . وكذلك مايختارون في حده ومسائله يعارض هذه الدعوى فهذا كله دليل على انه ليس بمندرج في نص القرآن عندهم ويؤيده أيضاً عدم ورود النقل عن واحد من الائمة بأن هذا النفع هو ربا منصوص *

وهذا المسلك أعني ان آية الربا مجملة هو ماعليه الائمة المجتهدون والفقهاء المحققون لكن في الآية مسلك آخر وهو ان الآية ليست بمجملة حتى تحتاج الى التفسير بل هي مفصلة واللام في الربا للعهد وأشير بها الى ماهو المتعارف عند نزول القرآن بينهم أي ربا الجاهلية

وفي هذا المسلك (أولا) انه لم يتبين الى الآن بسند صحيح مرفوع ربا الجاهلية في أي شيء كان فهو مجهول ولعل هذا اوجه عدول الائمة والمحققين عن هذا المسلك . نعم آثار التابعين تدل على تعيين ربا الجاهلية فبعضها يدل على انه كان في البيع كما روى الطبري عن

---

(١) مثاله كمن باع خمس ربابي بخمس ربابي نسيئة لايجوز بخلاف من اقرض خمس ربابي ليعيدها بعد أيام فالاول بيع وفيه ربا وهو حرام ومعصية والثاني ليس ببيع وليس فيه ربا بل هو قربة وصدقة * (٢) اعلام ص ٥٣ ج ٢ *

بشر عن يزيد عن سعيد عن قتادة[١] ان ربا أهل الجاهلية أن يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى فاذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاد وأخر عنه فقال جل ثناؤه (الذين يأكلون) الخ قال السيوطي في الدر المنثور أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد[٢] قال كانوا يتبايعون الى أجل فاذا حل الأجل زادوا عليهم وزادوا في الاجل فنزلت (يأيها الذين) الخ وفيه أيضاً أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن[٣] الضحاك في قوله تعالى (اتقوا الله وذروا مابقي من الربا) قال كان رباً يتبايعون به في الجاهلية فلما أسلموا أمروا أن يأخذوا رءوس أموالهم اهـ قال ابن جرير سمعت الضحاك يقول في قوله (فنظرة الى ميسرة) هذا في شأن الربا وكان أهل الجاهلية بها يتبايعون فلما أسلم من أسلم منهم أمروا أن يأخذوا رءوس أموالهم. قال الامام الشافعي في تفسير أخذ رءوس الاموال إنه يكون فسخاً للبيع الذي وقع على الربا[٤] وقال الزرقاني في شرح الموطأ وهو أيضاً يشبه حديث زيد بن أسلم[٥] في بيع أهل الجاهلية انهم كانوا اذا حلت ديونهم قالوا للذي عليه الدين إما أن تقضي وإما أن تربي فان قضى أخذوا وإلا زادوهم في

---

(١) قال احمد قتادة أعلم بالتفسير وباختلاف العلماء وأحفظ اهل البصرة ووصفه بالحفظ والفقه وأطنب وقال قل من تجد أن يتقدمه قال الثوري أوكان في الدنيا مثل قتادة قال الذهبي مع حفظ قتادة وعلمه كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب * (٢) الامام المكي المقري المفسر الحافظ لزم ابن عباس مدة وقرأ عليه القرآن وكان أحد أوعية العلم قال عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت؟ وكيف كانت؟ قال قتادة وخصيف: أعلمهم بالتفسير مجاهد وقال ابن جريج لان أكون أسمع من مجاهد أحب إلي من أهلي ومالي. قال مجاهد ربما أخذ لي ابن عمر بالركاب * (٣) قال سفيان خذوا التفسير عن أربعة عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك «إتقان» قال الذهبي لولا تأخر موته لذكر مع وكيع بل مع ابن المبارك روى عنه البخاري وخلق ولنبله وعقله يلقب بالنبيل قال ابن شبة والله مارأيت مثله * (٤) كتاب المعرفة للبيهقي باب الربا ـ قلمي * (٥) الفقيه المدني كان له حلقة للعلم بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم *

حقوقهم وزادوهم في الاجل ، وقال السيوطي في الدر المنثور عن سعيد[١] بن جبير يعني الذين نزل فيهم أنهم (قالوا إنما البيع مثل الربا) كان الرجل إذا حل ماله على صاحبه يقول المطلوب للطالب زدني في الاجل وأزيدك على مالك فاذا فعل ذلك قيل لهم هذا ربا قالوا سواء علينا إن زدنا في أول البيع او عند محل المال فهما سواء اه في قوله قالوا سواء علينا إن زدنا في أول البيع او عند محل المال دليل على ان المراد بالمال ههنا هو ثمن المبيع وإلا كان الجواب منهم: سواء علينا اشتراط الزيادة في أول العقد اوعند محل المال . في الفتح : ان ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع إلى أجل مسمى فاذا حل الاجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاد وأخر عنه*

و (أما ماقال) الجصاص الرازي الحنفي : والربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجل بزيادة ما استقرض على ما يتراضون به ولم يكونوا[٢] يعرفون البيع بالنقد ومتفاضلا إذا كان من جنس واحد هذا ما كان المتعارف المشهور بينهم اه وقال أيضاً فأبطل الله تعالى الربا الذي كانوا يتعاملون به وأبطل ضروبا أخر[٣] من البياعات وسماها ربا اه وقال أيضاً انه معلوم ان ربا الجاهلية انما كان قرضاً مؤجلا بزيادة مشروطة اه وقال أيضاً فمن الربا ماهو بيع ومنه ماليس ببيع وهو ربا اهل الجاهلية وهو القرض المشروط فيه الأجل وزيادة مال على المستقرض[٤] (فلم يرد بها أثر) ولا دليل عليه بل في

---

١) الفقيه الكوفي المقري احد الاعلام إذا حج اهل الكوفة وسألوه يقول أليس فيكم سعيد بن جبير؟ ويقال له جهبذ العلماء قال ميمون مات سعيد بن جبير وما على الارض الا وهو محتاج الى علمه قال قتادة كان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير *

(٢) هذه قرينة على أن المراد بالقرض ههنا هو الدين لا القرض الذي يوجد من غير بيع لان الدراهم المثمنة في بيع النسيئة دين على ذمة المشترين وليست بقرض وكذلك التأجيل قرينة على ذلك كما سيأتي

(٣) علم منه ان ههنا أنواعا باطلة من البيوع فكونه بيعا قرينة على ان المراد بالدراهم هي الدراهم المثمنة وبالقرض الدين

(٤) (أحكام القرآن ج ١ ص ٤٦٤ الى ٤٦٩)

قول هذا الامام مايخالفه وهو دليل على أن المراد بالقرض هو الثمن المؤجل

وخالفه المفسرون أيضا ـ صراحة ـ كما قال ابن العربي المالكي — اختلفوا هل هي عامة في كل تحريم ربا او مجملة لا بيان لها إلا من غيرها؟ والصحيح انها عامة لأنهم كانوا يتبايعون ويربون وكان الربا عندهم معروفا يبايع الرجل الرجل إلى أجل فاذا حل الاجل قال أتقضي أم تربي؟ يعني أم تزيدني على مالي عليك واصبر أجلا آخر؟ اه ثم أتى بأدلة على هذا المدعى ثم قال ـ وتبين ان معنى الآية وأحل الله البيع المطلق الذي فيه العوض على صحة القصد والعمل وحرم منه ماوقع على وجه الباطل وقد كانت الجاهلية تفعله كما تقدم فتزيد زيادة لم يقابلها عوض وكانت تقول انما البيع مثل الربا أي انما الزيادة عند حلول الاجل آخراً مثل أصل الثمن في اول العقد فرد الله تعالى قولهم وحرم مااعتقدوه حلالا عليهم (أحكام القرآن)

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى (لاتأكلوا الربا) قال ابن عطية ولا أحفظ في ذلك شيئاً قلت قال مجاهد كانوا يبيعون البيع الى أجل فاذا حل الاجل زادوا في الثمن على أن يؤخروا فأنزل الله عز وجل (لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) أحكام القرآن) و — دلالة — كما نقل عن حبر الأمة وسيد المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى (قالوا انما البيع مثل الربا) الزيادة في آخر البيع بعد ماحل الاجل كالزيادة في أول البيع اذا بعت بالنسيئة (وأحل الله البيع) الزيادة الاولى (وحرم الربا) الزيادة الاخيرة، قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في درج الدرر (قالوا انما البيع مثل الربا) قاسوا ان الزيادة في آخر العقد كهي في أول العقد، قال الواحدي في تفسيره الوجيز (انما البيع) وهو ان المشركين قاسوا ان الزيادة على رأس المال بعد محل الدين كالزيادة في الربح

وقال الواحدي في تفسير قوله تعالى (لا تأكلوا الربا) قال المفسرون هو انهم كانوا يزيدون على المال ويؤخرون الاجل كلما أخر عن أجل الى غيره زيد زيادة قال مجاهد يعني ربا الجاهلية(١) وقال في تفسير (انما البيع) وذلك ان المشركين

(١) (حاوي مجمع المعانى قلمي ص ١٥٩)

قاسوا الزيادة على رأس المال بعد محل الدين كالزيادة في الربح في أول البيع اه

وفي فتح البيان: أي انما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله فان العرب لاتعرف ربا إلا ذلك [1] وفي نيل المرام: ومعنى الآية أن الله أحل البيع وحرم نوعا من أنواعه وهو البيع المشتمل على الربا اه قال العلامة الطحاوي في شرح معاني الآثار تحت تفسير حديث «انما الربا في النسيئة» إن ذلك الربا انما عنى به القرآن الذي كان أصله في النسيئة وذلك ان الرجل كان يكون له على صاحبه الدين فيقول له أجلني منه الى كذا وكذا درهماً أزيدكها في دينك اه فالعلامة الطحاوي يقول ان اللام في الربا الذي رواه أسامة في الحديث للعهد والمراد به ربا القرآن فعنده هـذا الحديث لايحمل على العموم بل أخرج مخرج التفسير في تفسير ربا القرآن الذي كان أصله في النسيئة وقد عرفت ان النسيئة لاتكون إلا في البيع وهو الثمن المؤجل فتعيين العلامة الطحاوي ربا الجاهلية بربا البيع موافق للتفسير الذي أثر عن ابن عباس في الربا انه زيادة في آخر البيع بعد ماحل الاجل اذا بيع نسيئة

* * *

وبعض الآثار تدل على ان ربا الجاهلية كان في دين مؤجل وحق الى أجل وجميع هذه الآثار متفق على انه كان في دين مؤجل والدين المؤجل ليس بقرض لغة قال الامام الرازي في تفسيره قال اهل اللغة القرض غير الدين لان القرض أن يقرض الانسان دراهم أو دنانير أو حباً اوتمراً وما أشبه ذلك ولا يجوز فيه الاجل والدين يجوز فيه الاجل اه ثم قال والقول الثاني انه (أي الدين) القرض هو ضعيف لما بينا ان القرض لايمكن فيه أن يشترط فيه الاجل والدين المذكور قد اشترط فيـه الاجل وفي المغرب هو (القرض) مال يقطعه الرجل من امواله فيعطيه عيناً فأما الحق الذي يثبت له ديناً فليس بقرض. وفي الكليات لأبي البقاء والدين بالفتح عبارة عن مال حكمي يحدث في الذمة ببيع أو استهلاك أو غيرهما وايفاؤه واستيفاؤه لايكون إلا بطريق المقاصة عند أبي حنيفة والدين ماله أجل

(١) (ص ٣٣٦ ج ـ ١)

واقرض مالا أجل له اه ثم أورد ماقال صاحب المغرب وقال: وهو المعول عليه اه (تحت لفظ الدين) وقال وأما اطلاق لفظ الاداء والقضاء على الدين فليس لاتحاد معناهما بل باعتبار ان له شبهاً بتسليم العين وشبهاً بتسليم المثل اه (تحت لفظ الرد) فيشرط الاجل مناف لحقيقة القرض فالقرض لايندرج في الدين المؤجل فلا يجوز ان يراد بالدين القرض اذا كان فيه أجل وأما ماذكر الراغب الاصفهاني وابن الاثير ووجيه الدين التهانوي انه يشمل اقرض ففيه أولا انه خلاف التحقيق ومع هذا لايدل على ان الدين المؤجل أيضاً يشمل القرض

والحجة القوية على ان المراد في كلام الذين ذكروا في تفسير ربا الجاهلية لفظ الدين مطلقا هو الثمن المؤجل هي ان شراح قولهم قد فسروه به قال البيهقي: قال الشافعي وكان من ربا الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الدين فيحل الدين فيقول له صاحب الدين أتقضي أم تربي؟ فان أخره زاد عليه وأخره ثم نقل في توضيحه ثانياً (قال الشافعي وأحمد) وهذا فيما رواه مالك بن أنس في الموطأ عن زيد بن أسلم انه قال كان ربا الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الحق الى أجل فاذا حل الحق قال له غريمه أتقضي أم تربي؟ فان قضاه أخذ وإلا زاده في حقه وأخر عنه في الاجل (قال الشافعي) فلما رد الناس الى رءوس أموالهم كان ذلك فسخاً للبيع الذي وقع على الربا[1]

ظهر من كلام الشافعي أمران: الاول ان ربا الجاهلية كان في البيع والثاني ان المراد برأس المال الذي ورد في القرآن هو الثمن الذي جعل في ابتداء البيع وكذا المراد من حق الى أجل هو الثمن المؤجل وكذا العلامة الزرقاني أتى برواية زيد بن أسلم في البيع حيث قال وهو أيضاً يشبه حديث زيد بن أسلم في بيع أهل الجاهلية: انهم كانوا اذا حلت ديونهم قالوا للذي عليه الدين إما أن تقضي وإما أن تربي فان قضى أخذوا وإلا زادوهم في حقوقهم وزادوهم في الاجل اه

وأما ﴿ ماقال الامام الرازي ﴾ وتبعه النيسابوري: أما ربا النسيئة فهو الامر الذي كان مشهوراً متعارفا في الجاهلية وذلك انهم كانوا يدفعون المال على أن

(١) كتاب المعرفة باب الربا

يأخذوا كل شهر قدراً معيناً ويكون رأس المال باقياً ثم اذا حل الدين طالبوا المديون برأس المال فان تعذر عليه الاداء زادوا في الحق والاجل فهذا هو الربا الذي يتعاملون به اه — فلا ثبوت له من النقل وهو أيضاً خلاف ماصرح به نفسه من ان الآية مجملة والدين غير القرض — هذا

فان سئل عن حكم النفع المشروط في القرض شرعا عند الفقهاء يجاب ان نفع القرض مكروه كما قال عطاء كانوا يكرهون كل قرض جر منفعة وكما نقل الامام محمد رحمه الله في العالمكيرية بلفظ قال محمد (رح) في كتاب الصرف ان أبا حنيفة (رح) كان يكره كل قرض جر منفعة قال الكرخي هذا اذا كانت المنفعة مشروطة في العقد بأن أقرض غلة ليرد عليها صحاحا أو ما أشبه[1] ذلك فان لم تكن المنفعة مشروطة في العقد فأعطاه القرض أجود مما عليه فلا بأس به اه

واستدل[2] عليه بوجوه : الاول قياسه على الربا المنصوص والمقيس عليه عند البعض الربا الذي يكون في بيع الشيء بجنسه متفاضلا والامر المشترك المبادلة وهو كما يكون في البيع يكون أيضاً في القرض فكما يكون هذا الفضل في البيع ربا يكون في القرض أيضاً ربا كما صرح به ملك العلماء الكاساني وعند البعض المقيس عليه ربا الجاهلية والامر المشترك الزيادة في مقابلة الاجل لان في ربا الجاهلية كما تكون الزيادة بمقابلة الاجل اذا لم يقض الثمن عند حلول الاجل كذا في القرض كما صرح به ابن رشد وفيه نظر وهو ان القياس لا يصح للفرق بين المقيس والمقيس عليه أما في الاول فلان القرض ليس فيه مبادلة أصلا عند الشارع فكيف يصح هذا القياس مع هذا الفارق؟ وأما في الثاني فلأن الزيادة في الجاهلية كانت بعد حلول الاجل لا في ابتداء العقد والكلام في الزيادة التي تكون من أول العقد وليس هذا من ذاك

---

(١) أي بأن رد زائدا على القدر المدفوع

(٢) ولا يجوز أن يستدل على حرمة نفع القرض بأنه حرم في التوراة وشرائع من قبلنا حجة عند الحنفية لانها حجة بشرط النقل في شرعنا وعدم الرد عليها وهو لم ينقل في شرعنا فلا حجة فيه

(والثاني) حديث[1] «كل قرض جر منفعة» وهو وإن كان ضعيفاً غير صالح لثبوت الربوية لكن أدناه أن تثبت به الكراهة *

(والثالث) قال النبي صلى الله عليه وسلم «القرض صدقة» وقال ابن عمر السلف على ثلاثة أوجه: سلف تريد به وجه الله فلك وجه الله - وفي المدونة - قال ابن وهب عن رجال من أهل العلم عن ابن شهاب وأبي الزناد وغير واحد من أهل العلم ان السلف معروف أجره على الله فلا ينبغي لك أن تأخذ من صاحبك في سلف أسلفته شيئاً ولا تشترط إلا الاداء - فعلى هذا أي اذا كان القرض عبادة وصدقة فحكم الاستئجار والاستنفاع عليه كحكم الاستئجار على الصدقات والعبادات كالاستئجار على تعليم القرآن وتعليم الفقه والحديث والاستئجار على قرآن التراويح والاستئجار على سائر أمور الدين من الوعظ والتذكير والافتاء وخدمة المدارس الدينية والأذان والامامة وغيرها وعلم الصواب عند الله *

* * *

﴿ ما قولكم أيها العلماء الكرام في أجوبة الاسئلة المذكورة؟ ﴾

﴿ هل هي صحيحة أم لا؟ بينوا ونوروا قولكم بالدليل ﴾

﴿ الأسئلة ﴾

(١) لفظ الربا في آية (أحل الله البيع وحرم الربا) مجمل أم لا؟ سيما عند الاحناف وعلى الاجمال ما التفسير الذي ورد عن الشارع؟ أعني في القرآن والحديث الصحيح *

(٢) بينوا معنى الربا عن القرآن والاحاديث الصحيحة؟

(٣) النفع المعين المشروط في القرض ربا منصوص أم لا؟

(٤) النفع المشروط في القرض لو قيل هو ربا فما الدليل عليه من الادلة المعتبرة عند الفقهاء الكرام؟ *

---

(١) وأثر عبدالله بن سلام مضطرب ومعلول كما مر تفصيله وأما الآثار الأخر فضعاف كلها وبعضها مع ضعفه لا يدل على كون المنافع ربا والكلام في حجية الآثار مشهور لا سيما اذا كان مدركها القياس واما اتيانها موضع تفسير إجمال القرآن فلم يقل به أحد.

﴿ الاجوبة ﴾

هو المصوب

(١) الربا المذكور مجمل عند الأحناف وغيرهم من الائمة حتى يصح أن يقال اتفقت عليه الأمة وحديث عبادة وغيره تفسير له عند الجمهور (انظروا ص ٢٧٤ - ٢٧٨ ج ٤ المنار)

(٢) الربا هو الفضل الخالي عن العوض [١] في البيع (مبسوط - عناية شرح هداية - انظروا ص ٢٨١ و ٢٨٢ منه) والدليل على هذا المعنى مارواه عبادة وغيره «الحنطة بالحنطة» الخ (انظروا ص ٢٧٨ و ٢٧٩ منه)

وعلى هذا المعنى تدل أيضاً (آية واحل الله البيع وحرم الربا) لان على تقدير اجمال الربا وكون الحديث تفسيراً لها لا يكون ربا القرآن غير ربا السنة فربا القرآن عين ماثبت كونه ربا بالحديث (انظروا ص ٢٨٢ منه)

(٣) النفع المشروط في القرض ليس هو ربا منصوصاً لعدم ثبوته من القرآن ومن حديث صحيح (انظروا ص ٢٨٣ الى ص ٢٩١ منه)

(٤) النفع المشروط في القرض لما لم يثبت كونه رباً بالقرآن والحديث استدل على كونه ربا تارة بالقياس (انظروا ص ٤٣٦ ج ٦ منه) وتارة بحديث «كل قرض جر منفعة» وفي كليهما نظر أما في الاول فلانه قياس مع الفارق (انظروا ص ٤٣٧ فلا يصح وأما في الثاني فلانه ليس بصحيح بل هو ضعيف فغير صالح للاحتجاج ولو سلم صحة القياس ففيه ان الاحكام القياسية [٢] تقبل التغير بتغير الازمان كما هو ثابت في

---

(١) زاد الفقهاء في تعريفه قيد المشروط لكن ينبغي تركه كما مر

(٢) في مجلة الاحكام - لاينكر تغير الاحكام بتغير الازمان - وفي شرحه كغلق باب المسجد في غير وقت الصلاة يجوز في زماننا صيانة عن السرقة - قال ابن عابدين في رد المحتار وأنت خبير بان اكثر الاحكام تغيرت لتغير الازمان (كتاب الصوم ج ٢ ص ١٤٧) وقال في نشر العرف - فكثير من الاحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله او لحدوث ضرورة أو فساد أهل الزمان بحيث لو بقي الحكم على ماكان عليه أولا للزم منه المشقة والضرر بالناس ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد لبقاء العالم على أتم نظام

موضعه ومن كان له وقوف على حال هذا الزمان وخبرة بأهله فلامحيص له بدون أن يفتي بجوازه كما في الاستئجار على تعليم [1] القرآن والأذان والامامة وغيرها والاستدلال عليه بالتعامل والتوارث عن السلف ففيه ان التعامل مبني على القياس لا على غيره من الادلة ومن ادعى فعليه البيان والله أعلم بالصواب المستفتي

(تكملة)

لما تنبه الشيخ سناء الله رحمه الله على أن نفع القرض المشروط لا يدخل في الربا المحرم بالنص على المسلكين فقال مخالفاً لما عليه الجمهور : إن المراد بالربا معناه اللغوي وهو الزيادة وهي عبارة عن فضل يعلو على المماثلة والمساواة [2] فأوجب تعالى في المبايعة والمقارضة المماثلة والمساواة فالمعتبر فيها المماثلة بالاجزاء كيلا أو وزناً إن اتحد جنس البدلين وكانا من ذوات الامثال وعند اختلاف الجنس تكفي المماثلة المعنوية وهي القيمة وجعلت القيمة مماثلة للبدل لان مالكي البدلين رضيا عليه عند المبادلة فيصير كل من البدلين مثلا لمجموع [3] البدل الآخر باصطلاحهما انتهى ملخصا عن عبارته الشريفة في التفسير المظهري ويختلج في صدري أنه على هذا لايجوز للمشتري أن يبيع ما اشتراه بأكثر من الثمن الذي اشتراه به لأنه الفضل لغة مع أنه جائز باتفاق الأمة وعند الشيخ أيضا .

وأحسن إحكام (ص ١٢٥ رسائل ابن عابدين ج ٢) وأيضا وقد أسمعناك ما فيه الكفاية من اعتبار العرف والزمان واختلاف الاحكام باختلافه (١٢٨) ونقل في هذه الرسالة أن العلامة شمس الأئمة نقل عن الامام الفضلي في نزع الناس عن عاداتهم حرج ثم قال ولقد صدق الفضلي في قوله ولهم في ذلك عادة ظاهرة وفي نزع الناس عن عادتهم حرج فهو نظرا الى أن ذلك غير ممكن عادة فأثبت الضرورة وقال إن المستحيل العادي لاحكم له وان أمكن عقلا ١٤٠

١) مع أن حرمة الاستئجار في البعض منصوصة ولكن بحسب حاجة الناس أفتى الفقهاء الكرام بجوازه فعلى هذا النفع المشروط في القرض أولى بأن يفتى بجوازه لأنه ليس منصوصاً عليه بالحرمة (إذالناس ناس والزمان زمان) «٢» قد مر أن المماثلة لاتوجد في القرض لانه ليس فيه وجود الطرفين «٣» فيه أن القرض ليس فيه المبادلة عند الشرع وهذا الشيخ أيضا أقام عليه الادلة ثم قال: أعطى الشرع لمثله حكم عينه (تفسير مظهري)

« انتهى الاستفتاء وسنبين رأينا فيه في الجزء الآتي »

ملاحظات على كتاب المسيو درمانغام

المعنون بحياة محمد

الحمد لله رب العالمين * والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

مقدمة وتمهيد

حياة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: اشترك في درسها الكتاب والفلاسفة والمؤرخون ورواة الاخبار منذ ماينيف على العشرة قرون وإن منهم إلا من بخسه حقه، وقصر عن وصف نقطة من بحر مزاياه، ومع هذا فلا لوم عليهم ولا عتاب مهما تفاوتت مداركهم، واختلفت أساليبهم، وتباينت مذاهبهم ومللهم، لانه عظيم بل أعظم من أظلته السماء. ولا ترتقبوا مني دليلا على ما أدعي فاني أقصر باعا ممن تقدمني لهذا الباب، والقصور لا يمنع من ابتلي به عن إدراك النقص فيما يرى ويسمع، فها أنت ذا تأخذ على ممثل التصنع في القول أو تعيب عليه الخفة في الحركات ولكنك لا تستطيع أن تأتي بأحسن من صنعه. وهذا مثل واضح ضربته حتى تعلم انه ليس من شروط المنتقد ان يكون أعلم ممن تصدى لانتقاده أو — على الاقل — في درجته، فاذا فهمته حق فهمه علمت انني لا أدعي تفوقا او علماً وانما ألاحظ أن خزائن الكتب العربية خالية من تأليف يحتوي على درس دقيق لحياة سيدنا محمد ﷺ وليس كل ما كتب إلى الآن في هذا الموضوع الا بمثابة مواد يجب على طائفة من العلماء أن يحللوها ثم يرتبوها ويبوبوها بعد أن يضيفوا إليها ماغفل عنه المتقدمون وعند ذلك يضعون بين يدي الخاص والعام أحسن تعريف بذلك النبي العظيم الذي لم يأت التاريخ بمثله

فهو الرسول الوحيد الذي استطاع أن يأتي أمته في ظرف عشرين سنة بخير دنياها وسعادة أخراها. شرع لها العبادات - سن لها قوانين الزواج والطلاق والارث - شرح لها طرق الكسب والمعاش — أشرع لها منهج المعاملات علمها سياسة البلاد — قرر لها أنواع الاحكام — بين لها آداب الأكل واللبس والزيارة — زرع في قلوب أهلها الرأفة والشفقة — وحد صفوفهم - حرم عليهم مافيه مضرهم. على حين كان مشتغلا بحاجات بيته الطاهر

ناشراً لدعوته الصادقة محاربا للمشركين الذين كانوا يكيدون له الكيد ليل نهار

أرجو أن يسمع علماء المسلمين ندائي على خمول مصدره فيصنفوا لنا كتابا تستنير به بصائر الجاهلين وترتاح اليه قلوب الحائرين ، ويزيد المهتدين إيمانا مع إيمانهم .

بمثل هذا الكتاب ينقطع سيل الحملة التي ارسلتها الكنيسة على الملة الاسلامية بان قلدت الجيوش من الدجالين أمضى ما لديها من الاسلحة وأوعزت اليهم أن ينالوا من الديانة الاسلامية ما استطاعوا حتى تبطئ في السير أو ترجع القهقرى .

أنا مستيقن وأنتم معي -معشر المسلمين- بانهم لن يصيبوا منها شيئا لان الله يأبى الا أن يظهرها على الدين كله بالرغم من المعاند والملبس ، ومع هذا يجب علينا - وخصوصا العلماء منا - أن نعارض خطة الكنيسة في هذا الصدد وان لانغفل عن جماعة المفسدين المضلين الذين يريدون أن يزعزعوا بسطاء العقول والجهلة ويزيغوهم عن معتقداتهم ثم يقودوهم الى النصرانية .

فالتدارك التدارك قبل أن يتسرب الخراب إلى الطائفة المحمدية لأن خصومنا لايذرون طريقاً مستقيمة ولا معوجة الاسلكوها ، ولا تركن إلى مايدعونه من اللادينية والتسامح والاخلاص للعلم وغير ذلك من زخرف القول وخادع الالفاظ ، فما فرط في دينهم اليوم الا المسلمون ، وماجاوز حدود التسامح إلا هم ، فلو أنهم أقاموا شعائره واتبعوا أوامره لما تجاسر أحد أن ينسب إليه الجمود . بل أن يطعن فيه وفي صاحبه عليه الصلاة والسلام فيدعي ان القرآن المرسوم في المصاحف غير القرآن المنزل من السماء وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأخذ عن اليهود والنصارى .

نعم ذلك ماجاء في كتاب ظهر منذ عام باللغة الافرنسية بعنوان «حياة محمد» صلى الله عليه وسلم وقد سبقني إلى انتقاده صديقي أحمد بلافريج حيث نشر عنه في العدد ١٤٦ من مجلة الفتح الغراء كلمة لاحظ فيها على المؤلف — مسيو درمانغام (M. E. Dermenghem) خطأين عظيمين ثم بين كلا منهما وناقش مرتكبهما الحساب وبذلك أدى واجبه نحو الامة الاسلامية فجزاه ربنا خيراً

وأنا أريد ان اقتفي أثره وأعرض على قراء المنار الكرام مابدا لي من الملاحظات عند تلاوة « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم

اقتنيت هذا المؤلف وأملي أن اجد فيه مالم أقف عليه في غيره من الكتب لما عرف به أدباء الغرب اليوم من البحث والتنقيب . فلم يخب ظني إذ عثرت فيه حقيقة على آراء هي - في نظر المؤلف - أنفس من أن تسكن بطون كتبنا القديمة وقد أشرت إلى البعض منها آنفا وبقي علي أن أنقل إلى القارىء كلام المسيو درمانغام فيها ثم أعلق عليه ماخطر لي من الافكار عندتلاوته وسأقتصر في انتقادي على نقطتين بارزتين في الكتاب ولو أردت أن أبين كل ما احتوى عليه من الزلات كبائرها وصغائرها لما اكتفيت بضعف صحائفه وليس ذلك من المتيسر لي

***

قال في صفحة ١٣٥ عند كلامه على كتاب الله العزيز « القرآن أقرب إلى المسيحية من السنة على ماهو عليه الآن . وأما اذا اعتبرنا كيفية تدوينه فيمكننا أن نتساءل هل كان أصله (كذا) يزيد شبهاً بها من القرآن الموجود الآن ؟ وعلى كل حال فالحديث هو الذي حفر هوة بين الديانتين »

ثم خط على صفحة ٢٧٦ مامعناه « غير صعب على عقولنا وهي أشد معرفة بأفعال الله من معاصري النبي (عليه السلام) ومن علماء المسلمين[١] أن نؤمن بوجود فرق بين كلام الله القديم وبين القرآن المحفوظ في الصدور المرسوم على الاوراق وقد يظهر ذلك الفرق بعد الدرس والتفكير وربما برز عند مجرد النظر »

ثم كتب على صفحة ٢٨٣ « لم يدون القرآن إلا بعد نزوله بمدة وقد ضعفت عندئذ ذاكرة القوم وكثر بينهم الخلاف فيه و كان ذلك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة »

وقال في الصفحة التي بعدها « بأية وسيلة يمكننا ان نتوصل إلى معرفة

---

(١) المنار : وغير صعب على عقول المسلمين أن يؤمنوا بأن هذا الكاتب وأمثاله يفترون ويقولون في القرآن والحديث مالا يعلمون ومالا يعتقدون لتشكيك المسلمين واضعاف دينهم ليخنعوا لهم ويقبلوا ظلمهم ، فان بناء سياستهم على الكذب والخداع مر مشهور يعرفه حتى الرعاع . ودعواه انهم أعلم بأفعال الله تعالى من معاصري محمد (ص) غرور باطل ودعوى لاتقوم عليها بينة ، فهم أجهل الخلق بأفعال الله

الشروح والتاويلات التي أدرجت في القرآن وما هي نسبتها منه ؟ ترى هل هو مجرد عن الحديث النبوي ؟ »

تلك آراء المسيو درمانغام في القرآن الكريم وإلى هذا الحد وصل سوء ظنه بالصحابة الاجلاء الذين يابى حتى البليد أن يتهمهم بتحريف أو تزوير في كتاب الله[1] لما عرفوا به من الاخلاص لهذا الدين الحنيف والاعتصام بحبله والاعتناء بقانونه ودستوره الذي هو القرآن العزيز. لاشك انه لاينكر هذا كما انه لاينازع في قوة الحافظة عند العرب لرواية أخبارهم وأشعارهم مع الغريب من ألفاظها والمعتمد من معانيها. فكيف وما ذكرت يجوز في حقهم نسيان آيات من كتاب نزل عليهم من عند الله واستولى على حواسهم بفصاحته وسلاسة معانيه وعذوبة ألفاظه وصدق روايته ؟ وكيف ننسب اليهم زيادة أو نقصاً فيه وهم يعلمون أن من بدل منه حرفا يصلى سعيراً ؟ عار على المفكر أن يرميهم بشيء من ذلك لمجرد شكوك ساورت عقله أو شبه ضعيفة تراءت لخياله.

على أنهم كانوا رضي الله عنهم يكتبون القرآن عند نزوله إما من تلقاء أنفسهم وإما بأمر صاحب الشريعة ﷺ. وقد جمعه كثير منهم إلا أن ثلاثة مصاحف هي التي اختصت وقتئذ بالثقة. منها: مصحف سيدنا زيد بن ثابت، وقد كان عرضه على النبي ﷺ في أواخر حياته ووافق عليه، وزيد هذا هو الذي كلف من لدن سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه أيام خلافته بكتب المصحف. وبقي ذلك المصحف عند أبي بكر حتى مات رحمه الله ثم انتقل إلى سيدنا عمر رضي الله عنه حتى توفي فبقي عند ابنته أم المؤمنين حفصة إلى أن طلبه منها سيدنا عثمان رضي الله عنه ثم أمر زمرة من الصحابه الاعلام أن ياخذوا منه عدة نسخ ليفرقها في أنحاء المملكة

«١» المنار: لاشك أن هذا الرجل سيىء النية متعمد للكذب لتشكيك قراء كتابه من عوام المسلمين فما كتبه تقولات لا آراء، أملاها الجهل وقلة الحياء، وأي جهل ووقاحة أشد من دعوى من يزعم أن القرآن كتب بعد انتهاء مدة الخلفاء الراشدين ويزيد ومعاوية الاصغر ومروان - أي في عهد عبد الملك و٤ من بني أمية أي في عهد عبدالملك بن مروان فهل كان المسلمون في هذه المدة بغير قرآن؟؟

وكل ذلك مبسوط في محله وإنما أوردته لأبين للمسيو درمانغام ان القرآن جمع أول مرة بعد ممات النبي عليه السلام بنحو سنتين وثانياً بعده بمادون العشرين، وأما حديث السبعين عاما فلم يقله إلا هو وله أن يراجع التاريخ الاسلامي ليتأكد لديه صحة ماذكرت . وعليه أن يدرس حياة سادتنا أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم ليعلم أنه يستحيل في حقهم أي تحريف او تبديل في القرآن . أليس عمر هو الذي كاد يقضي على اعرابي سمعه يتلو آيات بقراءة مخالفة لما أخذه هو عن رسول الله ؟ — بلى هو ذاك الفاروق الذي لو روى لنا القرآن وحده لما ارتبنا في صحته لأننا لا ننقاد لسلطان الخيال وندع نور الحق جانباً، ولا ننا لا نعقل وجود « فرق بين كلام الله القديم وبين القرآن المحفوظ في الصدور »

ولكننا نعلم ان في نفس المسيو درمانغام حاجات يحول دون الوصول اليها القرآن . وقد حسب انه ينال مقصوده بالتكلم في الذكر الحكيم والطعن في خاتم المرسلين . وما غايته إلا تقريب الديانة الاسلامية من الملة المسيحية حتى يسهل على أصحاب الاولى أن يعروا إلى الثانية لانه من المخلصين لها (دينا او سياسة) . فكأنه يقول : الاسلام فرع من النصرانية وقد كان القرآن « الاصلي » أقرب اليها من الفرقان الموجود الآن ، وإنما بعد عنها بتحريف من الصحابة والفقهاء، فالاوفق والانسب الرجوع إلى الاصل(١)

وهذه مكيدة من سياسة الكنيسة اليوم في التبشير فقد أمرت خدامها أن لا يصادموا المسلم باديء بدء بدعوته إلى النصرانية بل أن يقوضوا دعائم الاسلام واحدة فواحدة ويشككوا بسطاء العقول من أهله في معتقداتهم حتى إذا مابقوا حيارى ومرت بهم قافلة أخرى من المبشرين ساقتهم معها إلى الصليب

غير ان المسلمين لا ينخدعون لها ولا يخالجهم ريب في القرآن (وإنه لكتاب عزيز *

---

(١) المنار: لاحاجة الى مزاعم هذا الرجل في ارجاع المسلمين الى القرآن فعقيدتهم التى يكفر عندهم كل من خالفها أنه هو الاصل القطعي وان الحديث الذي يخالفه مخالفة حقيقية لا يمكن أن يكون صحيحا ولكن هذا الاصل ينقض النصرانية المعروفة بأشد مما تنقضها الاحاديث كما يأتي

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) لأنهم يتلون ويسمعون (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) فيقولون صدق الله العظيم

ولو أقامت الكنيسة الانجيل كما انزل من عند الله لكنا وأهلها امة واحدة ولكن رجالها بدلوا فيه وغيروا (١) ثم أبوا ان يرضوا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يتبع ملتهم . فنهانا الله تعالى أن نؤمن لهم .

واما مسيو درمانغام فنظره ان مسئلة الصلب وحدها هي التي ابعدت الاسلام عن النصرانية وهو لا يستبعد ان تكون تلك المسئلة من المحرفات في الكتاب قال في صحيفة ١٣٠ (130)

« إذا اعتبرنا ان القرآن لم يجمع إلا في عهد عثمان والحجاج (كذا) ... وان الالفاظ لم تكن مشكولة بنقط او حركات بحيث كان في الامكان النطق بها بكيفيات مختلفات يبقى لنا ان نتساءل فيما إذا كانت هذه الآية (وما قتلوه وماصلبوه ...) تكفي لان تكون سداً مانعاً بين ديانتين متحدتين في كل ماسوى هذه المسئلة . زد على ذلك أن تلك الآية تناقض ماجاء في سورة آل عمران (إذ قال الله ياعيسى اني متوفيك ورافعك إلي ...) وفي سورة المائدة (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) وفي سورة مريم (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ...) » اه

نحن لانرى تناقضاً بين آيات « الوفاة » وبين آية نفي « الصلب » وقد قال

(١) المنار : إن النصارى أضاعوا الانجيل الذي اوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السلام وانما هذه الكتب المسماة بالاناجيل عندهم تاريخ أو تواريخ له فيها شيء من ذلك الانجيل الذي نقل عنه لوقا ذكره بقوله (١٦ : ١٥ وقال لهم اذهبوا إلى العالم واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها اه وقال الله تعالى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به) فالقرآن هو المهيمن على هذه الكتب كلها ، وهو دين الله الاخير المكمل لما جاء به جميع الانبياء من دين الله الواحد في أصوله وأهمها وأعظمها التوحيد ، والناسخ لجميع ماخالفه من شرائعهم وهو الذى حفظ دونها فالنصرانية هي التي يجب أن ترجع اليه دون العكس الذى يحاوله المبشرون بدين الكنائس بل بأديانها المتعارضة ، وانجيل برنابا أصح عندنا من هذه الاناجيل الكنسية وهو ناطق بالتوحيد وبراهينه وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

بعض المفسرين إن الله توفى المسيح قبل أن يرفعه . وهو تأويل معقول المعنى لان سيدنا عيسى عليه السلام كان لابد له من الموت لانه إنسان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتعب كسائر الناس ، والموت لايقتضي أن يكون بسبب الصلب أو القتل بل المتبادر من التوفي انه عليه السلام مات حتف أنفه بدون فعل أحد وذلك لاينافي الرفع . ألم تر أن الله يقول (إني متوفيك ورافعك إلي ؟) فلم العناد إذاً وقد ذكر في القرآن أن اليهود قتلوا أنبيائهم كيحيي وزكريا ؟ ثم هب أننا عمدنا إلى آية الصلب فغيرناها حسب رغبتك . أفتظن ان ديانتينا تصيران متشابهتين ؟ - كلا إننا نقول (الله أحد) وقومك يقولون الله ثالث ثلاثة ونحن نقول إن عيسى المسيح عبدالله ورسوله وهم يقولون (ان الله هو المسيح عيسى بن مريم) وقد قال الله تعالى لرسوله محمد خاتم النبيين . (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) فأينك وما أحدثته - في زعمك - آية الصلب من التباين ؟ وأينك وتآخي الديانتين والمسلمون لايزالون يتلون ؟ « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى اولياء . بعضهم أولياء بعض »

اتكون كل هاته الآي وما في معناها مما ذكره مزيدة في القرآن بقصد إبعاده عن المسيحية ؟ ام تريد ان تحذف كل مافي هذا المعنى من القرآن ولنندمج في النصارى ؟ ذلك مالسنا بفاعليه وإن بدل الهلال غير الهلال ، لان الخلاف بيننا في اس الاعتقاد اعني « التوحيد » (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة .ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك)

اللهم اجعلنا من المخلصين في الايمان بك والاتباع لرسولك إلى الابد !

***

والآن سأرجع بك ايها القارىء إلى الصحيفة ١١٧ (117) من كتاب المسيو درمانغام ، حيث يستخدم قوة خياله وسوء نيته في الحط من قدر صاحب الشريعة عليه السلام .

قال هنالك « والذي لاريب فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم تأثر بديانة المسيح . بل ان الرهبان والنصارى المقيمين بمكة وبعض المفكرين من العرب كزيد بن ثابت هم الذين زرعوا فيه العاطفة الدينية قبل عهد الرسالة » (١)

هذا مما لايشك فيه كاتب « حياة محمد » ولكن ما ادلته وحججه ؟ أأنزل عليه الوحي بذلك ؟ ام تسار مع النبي صلى الله عليه وسلم بطريق استحضار الارواح ؟ ذلك ما اهمل ذكره ، وكل مابرهن به على ماادعى هوزعمه وجود بعض النصارى بمكة وضواحيها ! مع انه لايجهل ان الانجيل كان في ذلك العهد محفوظاً عند رجال الكنيسة بحيث كان يستحيل ان تجد من بين مطلق المسيحيين من يروي شيئا من تعاليمه . واليك كلامه عن ذلك في الصحيفة ٦٣ (63) : « كان محمد صلى الله عليه وسلم يميل إلى ديانة المسيح غير انه كان لايعرف عنها إلا شيئا نذراً وما كان يمكنه ان يأخذ عن النصارى المقيمين بمكة لانهم جهلاء لايتفقون على رواية »

الله أكبر ! الآن حصحص الحق وظهر تناقض المؤلف وخباله ! فمن جهة يزعم أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يأخذ عن النصارى الذين كانوا بمكة ، ومن جهة كان يثبت أنه ما كان يمكنه الأخذ عنهم لانهم يجهلون تعاليم المسيح ولا يتفقون على شيء منها . اللهم إن عقولنا تعجز عن الجمع بين هذين المعنيين . بيد أنها تعلم أن جل النصارى اليوم لايعرفون من الانجيل شيئاً مع تعدد طرق النشر واساليبه . فما بالك في عهد لم تكن فيه مطبعة ولاجريدة ؟... وعليه فممن أخذ صلى الله عليه وسلم التفاصيل عن اخبار الامم السالفة ؟ ندع الجواب للمسيو درمانغام . وربما يجيبنا بانه كان عليه السلام يتلقى ذلك من طريق الوحي حيث أنه لاينكر تلك المعجزة وان حاول غير مرة في كلامه عنها أن يظهر لنا نبينا

(١) المنار : من حسن حظ المسلمين ان هؤلاء الذين يطعنون في دينهم يفضحهم في كذبهم وافترائهم جهلهم بالاسلام وتاريخه فزيد بن ثابت الذى زعم هذا المفترى انه كان يزرع عاطفة النبوة والرسالة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم انصاري من يثرب كان عند هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة طفلا فيراولم يره قبلها ، وقد استصغر يوم بدر فلم يؤذن له بالقتال لصغره ! !

في صورة « درويش هندي » أو « فقير صوفي » في لجة الارتباك. قال في صحيفة ٦٢ (62) مامعناه «انقطع محمد (عليه السلام) عن الناس وحببت اليه الخلوة. وكل هذا لايخلو من فائدة عند الشرقيين. فكأنه كان بتأمله وبطول تفكيره في خلوته يستجمع قواه العقلية وينمي حاسة الاختراع فيه وبذلك لايصيبه تعب ولا ملل من بعد ... وبعبارة كان محمد ﷺ مقر ازمة وكان يفزع إلى الجبال ليحلها»

مفهوم هذا الكلام انه عليه السلام كان يعتزل الناس ليخترع لهم ديناً جديداً وإلا فمامعناه؟قوله « وكل هذا لايخلو من فائدة عند الشرقيين ..» نعم نحن لا ننكر انه كان قبيل إبان الوحي يتردد الى غار حراء ولكن عسير علينا – والله – ان ندرك ما كان يدور في خلده آنئذ وإن كنا من الشرقيين الذين ينسب اليهم واسع الخيال. فان استطاع المسيو درمانغام أن يأتينا بحجة على مايقول فانا مستعدون لقبولها بل ولقبول ماجاء في الصحيفة (66) من كتابه واليك ترجمته

« علم محمد ﷺ من طريق نصارى سورية ومكة أن هناك ديناً سماويا وان الله كان يبعث باوامره لبعض الامم ليلقنهم الحقيقة. وذلك بواسطة رجال يصطفيهم ليرشدوا الناس ويردوهم إلى الجادة كلما حادوا عنها. كما علم أن ذلك الدين كان واحداً وإنما الناس يحرفونه في مدة الفترة. وطالما تمنى أن يقيض الله للأمة العربية من يرشدها لانها كانت تائهة في فيافي الضلال.»

فعاطفة مثل هاته غير مستحيلة في حق النبي عليه أفضل الصلاة والسلام مع ماعرف عنه من مكارم الاخلاق (وإنك لعلى خلق عظيم) كما أننا لانشك أن الدين الذي أتى به كل الرسل واحد في أصوله الاعتقادية وهي توحيد الله والوحي والبعث والجزاء وأصوله العملية وهي الفضائل والاعمال الصالحة — وإنما يختلفون في الفروع والشرائع العملية (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقد أمرنا بأن نؤمن بهم وأن لانفرق بين أحد منهم فما جاء به سيدنا محمد ﷺ هو عين ماأنزل على كل من سادتنا نوح وابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين في أصوله. إلا ان قومهم من بعدهم حرفوه حسب أهوائهم وأغراضهم وإلا لاتبع اليهود والنصارى سيدنا محمدا عليه السلام (الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل)

وأما دعواه أن النبي عليه السلام علم ذلك من طريق نصارى سورية فهي من الغرابة بمكان، بل مثال متناه في الجسارة على البهتان

وبعد هذا كله إذا فرضنا انه عليه السلام أخذ ذلك عنهم فمن أين يا ترى تلقى ما يحويه الفرقان من الحكم والاحكام والآداب؟ - إذا كان من طريق الوحي وهو الحق واعترف به المسيو درمانغام فاذاً ماوجه الحاجة إلى النصارى أو غيرهم؟ أليس الذي علمه ماذكر بقادر على أن يقص عليه أخبار الامم الماضية؟ بلى! وهو العليم القدير.

فكفوا معشر المسيحيين عن غلوكم وتحاملكم وحولوا جهودكم شطرا لهمج من الوثنيين. وأما المسلمون فهم لايرضون بدينهم بديلا لما يجدون فيه من خير الدارين. ولقد كانوا أرقى الامم وأعزها وأكرمها وأشدها بأساً يوم كانوا متمسكين به. ولديهم من المجلدات القناطير المقنطرة شهادة على ذلك، وهذه الآثار لاتزال قائمة ناطقة في كل بلد فتحوها، ولكنهم اشتغلوا بعد ذلك بالسفاسف وتمسكوا بالقشور من أمر دينهم فحقت عليهم كلمة العذاب، ولئن لم يستدركوا مافاتهم بان يعلموا اولادهم تعليما دينياً عربياً فانهم لايلبثون ان يصبحوا مذبذبين بين الاسلام والنصرانية والالحاد. لاإلى هذا ولا الى تلك ولا إلى الآخر. والوقت حرج لايدع مجالا للتردد. فاما علينا واما لنا.

الرباط (المغرب الاقصى) «البزيدي»

في (8) جمادى الاولى عام (1348) (12) اكتوبر (1929)

(المنار) اذا كان درمانغام هذا يؤمن بالله تعالى ويعقل أفعاله وحكمه أحسن مما كان يعقلها الناس في عصر النبي ﷺ كما ادعى فليخبرنا بالبرهان الذى قام عنده على نبوة موسى وسائر أنبياء بني اسرائيل التابعين لشريعته وآخرهم المسيح عليهم السلام وعلى انها وحي من الله دون نبوة محمد ﷺ وشريعته مع أن القرآن أعلى من التوراة وغيرها من كتبهم في العلوم الالهية والتشريع الادبي والمدني واخباره بالغيب أصح من اخبارهم رواية وأصرح منها وأثبت، وقد كان أمياً نشأ بين أميين من حيث نشأ موسى في بيت ملك كان أرقى مافي الارض علما وتشريعاً؟؟ فان كان يعقل هذا ويتكلم عن اعتقاد ورغبة في الجمع بين الديانتين فعليه ان يدعو النصارى الى الاسلام مصلح النصرانية، وخاتمة الاديان الالهية

ثورة فلسطين - أسبابها ونتائجها

﴿حقائق في بيان حال اليهود والانكليز والعرب والرأي في مستقبل العرب والشرق﴾

(٢)

حقيقة حال الانكليز

قد بينا في الفصل الاول من هذا المقال حقيقة حال اليهود مايعدُّ لهم وما يعد عليهم ومنه ماهو خفي عن أكثر الناس ، وأما الانكليز فأمرهم مشهور عند قراء الصحف وغيرهم لكثرة خوضها في سياستهم وأعمالهم ونقلها مناقشات برلمانهم فيها ونقل أقوال صحفهم وصحف الامم الاخرى في نقدها مدحاً وذما ، وانما تخفى على الكثير منهم اخلاقهم وصفاتهم العامة وما طرأ عليها من تغير فنذكر مايعنينا من ذلك

كان القوم مشهورين بالصدق والعدل والحزم والتدبير ومراعاة حرية الناس في اديانهم وآرائهم ، وبالوفاء بالوعود والعهود في معاملاتهم الشخصية والدولية ، كما اشتهروا بالدسائس والحيل والكيد والمكر ، والعجب والكبر ، والرياء والافك ،(*) ولم يكن كل مايقال في الشهرتين حقاً ولا كله باطلا ، وإنما مرجع أكثر ما يوصفون به من فضيلة إلى أخلاق الافراد ومزايا الشعب يفيض شعاعه على الحكومة ، كما أن مردّ أكثر مايوصفون به من رذيلة إلى الحكومة وقد يثور غباره في وجوه الشعب ، وما كانت تمدح به حكومتهم وحدها فمنه ماهو حق الا انه نسبي لا تام في الغالب ، ومنه ماهو من تأثير الدعاية (البور بغنده) التي لم يتقنها أحد كاتقانهم ، ولا تنفق في سبيلها دولة كانفاقهم ، وأعني بالنسبي أمرين (احدهما) مايكون من المقايسة بين الانكليز وغيرهم من المستعمرين ولا شك انهم أمثل وأعقل وأنبل (وثانيهما) ما يكون من التوازن بينهم وبين الحكومات الوطنية للبلاد التي يتولون أمرها بالاسماء المختلفة أو المختلقة التي يضعونها لها كغيرهم (كالحماية والاحتلال والاجارة والانتداب) وما غلب أولو سلطان وإمارة على حكمهم وانتزعت منهم

(*) الافك صرف الشيء عن وجهه الحق الى غيره

بلادهم، إلا بظلمهم وإسرافهم في أمرهم. فهؤلاء القوم يتحرون أن يكونوا أقل منهم ظلماً . وأمثل حكما ، ولو لم يفعلوا إلا النظام في الظلم ، والمساواة بين كبير الناس وصغيرهم في الحكم ، لكفى ذلك مروجا للدعاية لهم ، والتنويه بفضلهم على غيرهم ، على انهم لا يساوون أنفسهم بغيرهم من اهل هذه البلاد ، ولا يتنزهون عن محاباة صنائعهم وأعوانهم على تمكين نفوذهم فيها ، ولا يتقون ظلم أي زعيم وإذلال أي عزيز يطالب باستقلالها، أو يأنسون منه خطراً على حكمهم، او اشمئزازاً من ظلمهم،

وللانكليز مزية أخرى على غيرهم من المستعمرين ولا سيما اللاتين وهي - كما قال لنا الدكتور يعقوب صروف من دعاتهم وسماسرة سياستهم — انهم يسمحون لأهل البلاد التي يسوسونها بشيء من ثروتها ومظاهر الحكم والجاه فيها يتمتعون به في ظلهم ، من حيث يعترق الآخرون لحمها، وينتقون المخ من عظمها . ويستأثرون بالكبير والصغير من الحكم والنفوذ فيها، وقد قلدتهم دولة أخرى في نصب تماثيل للحكم في بعض مستعمراتها من أهلها ، لكنها لم تدع لهم أدنى نصيب من مسمى الاسماء التي تفضلت عليهم بها، فكانت أضر على أهل بلادهم منها على أهل البلاد التي لم تنصب فيها شيئاً من هذه التماثيل

وأما فضيلة الانكليز العليا فهي أنهم أدنى إلى مراعاة سنن الاجتماع ، ومسايرة مايتجدد فيه من الاطوار والاحوال، ولكن بعد طول الروية والاختبار، والتنازع بين طرفي التفريط والافراط ، كما يعلم من الفرق البين بين إدارتهم في مصر والسودان ، وفي الهند وزنجبار ، بسبب اختلاف حال كل من القطرين الزوجين المتقابلين في العلم والجهل والقرب والبعد من قوة الرأي العام ، وكما ظهر أخيراً من التفاوت في تصرفهم وسياستهم في القطرين العربيين المتجاورين : فلسطين وشرق الاردن من جهة والعراق من جهة أخرى بسبب التفاوت بين حاليهما في القوة والضعف، ففي العراق مئات من الالوف الشاكي السلاح ، وألوف كثيرة من الضباط العلماء بفنون القتال ، وقد أضرموا نار ثورة قتل فيها عشرات الالوف من الرجال ، وأنفق فيها الملايين من المال ، ومن ورائهم زعماء سياسيون يعرفون كيف يطالبون بالحرية والاستقلال ، وقد قربوا منهما، ولن يرضوا بما دونهما.

فأما أهل شرق الاردن فقد سيموا من الخسف والاستعباد، مالا نظير له في بلد من البلاد، إذ باعهم أميرهم الملك الانكليز بيعاً سياسياً بعقد معاهدة لايطيق ذلها أحد، ولا يقيم على خسفها إلا آعير الحي والوتد. فاكتفى أذكاهم فهماً وأقواهم عزماً، باسترحام الامير لتعديل بعض مواد العقد، وتخفيف وطأة مافيه من أحكام الرق، وهم قادرون الآن على تمزيق ذلك الصك، ونبذ ماانتحله عاقده من حق الملك، وهي قدرة لاتدوم لهم، إذا طال امد هذا الحكم عليهم

وأما أهل فلسطين، فقد انحصر همهم في مقاومة الوطن القومي للصهيونيين، ومطالبة الانكليز بنظام حكم نيابي يساوي بينهم وبين غرباء اليهود المعتدين، ونرى الانكليز لا يسمعون لهم شكوى، ولا ينصفونهم في دعوى، بل يحابون اليهود وينصرونهم عليهم، ويمهدون لهم انتزاع رقبة أرضهم من ايديهم، والاستيلاء على مرافقها ومنافعها، والاستئثار معهم بمصالح حكومتها، وغرضهم الباطن من ذلك تفريق الوحدة العربية في قلب بلادها، وايجاد أعداء للعرب من غير الانكليز يشغلونهم بهم عن عداوتهم، ويعلقون أمل الفريقين ببقاء حكمهم عليهم.

وأما سببه الظاهر فهو أن اليهود أقوى من العرب اهل البلاد مالا واتحاداً ونفوذاً ماديا ومعنويا في انكلترة وسائر أوربة وفي الولايات المتحدة الامريكية وغيرها- لا الوفاء بما يسمى وعد بلفور والابرام لعهده، فكم من وعد أخلفوه، وكم من عهد نكثوه؟ - كوعودهم لمصر ومعاهدة السودان معها - ولقد وعدوا العرب بما عاهدوا عليه الملك حسيناً من قبل أن يعدوا اليهود، وكان وعدهم له باستقلال جميع البلاد العربية بحدودها الطبيعية الشاملة لجزيرة العرب والعراق وفلسطين وسورية ومنها كليكية صريحاً جلياً مع استثناء لعدن وتحفظ في سواحل سورية الشمالية (لبنان) والبصرة. وان للعرب لقوة في بلادهم أعظم من قوة اليهود ولكنهم كانوا يجهلون قدرها، وإقامة البرهان المقنع للانكليز عليها، وهي قوة الوحدة، فيما لهم من الكثرة، وستبين قيمتها في الفصل الثالث من هذا المقال

فالانكليز كغيرهم من اهل أوربة لايعرفون حقا إلا للقوي، ولا يفون بوعد ولا عهد الا للقوي، ولا يعدلون في حكم الا مع المتساوين في القوة أو الضعف، فان

تنازع الاقوياء مع الضعفاء كانوا مع الاولين على الآخرين، بل أقول انهم لا يحترمون ولا يخافون ولا يرجون الا القوة ، ولا يستحيون من وصف الشرقيين عامة والعرب خاصة بهذه الصفة ، ولعمري انها عامة في البشر ، ولكنها في الغربيين أقوى واظهر، وأعم وأشمل ، لاستحواذ الافكار المادية عليهم ، وانحلال عرى الملكات الادبية من قلوبهم ، حتى ان أحد كتاب فرنسة طعن في الجيوش المغربية الاسلامية التي استبسلت في الدفاع عن وطنه وقومه بأن الدافع لهم الى ذلك حب الشهرة بالشجاعة والنجدة ، لا الاخلاص لدولته في الطاعة والمحبة ، فالاوربيون يحتقرون الشرقيين ويسخرون منهم ، كلما رأوا أثراً من آثار السلطة الادبية في أعمالهم

ولقد شهد فيلسوف الانكليز ومفخرهم بل شيخ فلاسفة أوربة كلها في علوم الاخلاق والاجتماع بأن الافكار المادية التي ظهرت أولا في الشعب اللاتيني فأفسدت اخلاقه قد دب دبيبها الى الشعب الانكليزي فطفقت تفتك بأخلاقه، فهي تعدو في سيرها فيه المرطى ، وتنهزم من طريقها الفضيلة فترجع القهقرى . وقال ان هذه الافكار المادية لاتزال تعمل عملها في أوربة الى ان تسوق دولهم الى حرب ساحقة ليعلم أيها الاقوى ليسود العالم ، وقد وقعت هذه الحرب من بعده ، وكان فتكها بأخلاق الشعوب وفضائلها ، أضعاف فتكها بجحافل جيوشها وفصائلها، وصياصيها ومعاقلها ،وأساطيلها الحربية والتجارية . بل سرت عدوى هذا الفساد الى جميع الامم في سائر البلاد

كان لكل من انكلترة وفرنسة اسم سمي ومقام علي في العالم بما نبغ في بلادهما من العلماء والادباء والشعراء والمخترعين والفنيين ، وبما كانتا تبثان من الدعاية لأنفسهما في برقيات شركاتهما وصحفهما وكتبهما ، وألسنة من يتربى ويتعلم في مدارسهما ، وكذا ألسنة من يستميلون ويصطنعون في البلاد المختلفة وأقلامهم، وقد كان من الافراط والغلو في هذه الدعاية في مدة الحرب على طولها ما أعقب رد الفعل على مدى أطول وسوء تأثير أعرض وأعمق

كانوا يذيعون في كل يوم ان الدولة الالمانية دولة عسكرية قاسية القلب ،

فظة الطبع ، مسرفة في الطمع والجشع ، والضراوة بسفك الدماء، والنهم بسلب الاموال، وأنها لاتبغي من هذه الحرب إلا استعباد البشر، والاستبداد في حكم الامم وأما هم فلا يبغون من قتالها إلا الدفاع عن أنفسهم وعن اخوانهم في الانسانية، ووقايتهم من الخطر الذي يتهدد حريتهم ، واستقلال جميع الشعوب كبيرها وصغيرها ، قويها وضعيفها ، لان الحرية القومية كالحرية الشخصية حق طبيعي عام للبشر ، فان ظفروا كانت العاقبة سعادة جميع البشر ، وإن خسروا حاق الشقاء بجميع البشر !! وقد كان القدح المعلى في تعميم هذه الدعاية للدولة البريطانية ، وكان ممن خدع بها دولة الولايات المتحدة، وكان أول مخدوع رئيس حكومتها الدكتور ولسن ذو النزعة الدينية، والعاطفة الانسانية الادبية ، فانبرى لمساعدتهم، وانما كان النصر الاخير لهم بمساعدته المادية، وبما وضعه للصلح من القواعد (الاربع عشرة) السياسية الادبية، وكان أول من خدع بهذه القواعد الاشتراكيون والعمال من الالمان ومنهم بحارة الاسطول، فأكرهوا دولتهم على طلب الصلح ، حتى إذا ماقضي الامر، قلب الحلفاء للرئيس ولسن ودولته ولجميع البشر ظهر المجن، وظهر من طمعهم وقسوتهم وضراوتهم وجشعهم ونهمهم أضعاف ما كان من قبل

أخلفوا الوعود ، ونقضوا العهود ، وكان جزاء العرب من الانضواء اليهم ، والخروج معهم على دولتهم العثمانية طلباً لاستقلالهم ، أن عاملتهم انكلترة وفرنسة شراً مما عاملت به جميع أعدائها من استعباد واستبداد، وسفك دماء وسلب أموال ، حتى انهم كانوا يدمرون القرية الآمنة المطمئنة من البلاد التي كانت تحارب دولتها تحت رايتهم على من فيها من رجل ونساء وأطفال لتهمة واهية لم تقرن ببحث ولا تحقيق ، وحتى انهم سابوا من مملكة الحجاز سكة الحديد الاسلامية التي جعلها الشريف حسين تحت تصرفهم في الحرب ، وكان جيشه يدمر بديناميتهم جسورها ويقلع حديدها في ارض الحجاز نفسها، معتقداً انها تبنى بأموال الانكليز بعد الحرب وتكون له هي والبلاد المنشأة فيها !! فلا غرو أن يزول كل ما كان لهاتين الدولتين من حرمة ومكانة ادبية في الشرق ،وان يعتقد شعوبه انهم شر البشر على البشر ، وانه لاحرية ولاحرمة ولا حياة للانسانية إلا

بنقض غزلهم ، ونكث فتلهم ، بل بتقليص ظلهم الاستعماري من الوجود ، وهذا ما افادت الحرب شعوب الشرق في مقابلة ماخسروا بها

كان سبب نجاح الانكليز في الاستعمار الذي استولوا به على مايقرب من ربع البشر انهم لم يكونوا يدخلون قطراً إلا بدعوى قصد الخير له ولأهله ، تارة لانقاذ الشعب من ظلم أمرائه وحكامه ، وتارة لحفظ عروش اولئك الامراء من الثورات والفتن والفوضى ، كما كان سبب نجاحهم في السياسة انهم لم يكونوا ينقضون عهداً أو يتفصون من عقاله إلا بضرب من التأويل يظهرون فيه انهم على حق ، كما قال أعظم ساسة اوربة في القرن التاسع عشر البرنس بسمارك وزير ألمانية ومؤسس وحدتها للسنيور كريسبي وزير ايطالية في حديث لهما في تسيير سياسة اوربة : وماذا نفعل بانكلترة ؟ قال كريسبي نقيدها بمعاهدة . قل بسمارك ولكن الانكليز ابرع الناس في التفصي من عقل المعاهدات بالتأويل ... ونقول نحن انهم انما يحتاجون الى التأويل مع الدول القوية وأما الشعوب الضعيفة كالعرب فلا يحتاجون معهم إلى تأويل . على انهم سموا استعباد البلاد العربية التي وعدوها الاستقلال انتدابا يراد به المساعدة على النهوض باعباء الاستقلال بعد زمن غير طويل !!

لكن هذا الظلم والاستبداد الذي ابتدعوه في فلسطين شيء غريب في تاريخهم وتاريخ الاستعمار والاستعباد ، لم يخلق مثله في البلاد . وهو لا يتفق في صورة من الصور ولا معنى من المعاني التي وضع لها لفظ الانتداب

هو خلق شعب جديد يجتلب من أوشاب أوطان كثيرة في مشارق الارض ومغاربها إلى وطن شعب آخر لينزعه منه ويحل محله فيه ، وتمكينه من ذلك بالظلم والمحاباة اللذين لم يعهد لهما نظير في تاريخ البشر ، وان فيما نشر من انباء هذا الظلم والمحاباة في هاتين السنتين ولا سيما اثناء الثورة الفلسطينية ماعجب منه واستغرب به جميع الناس في جميع أقطار الارض

فلئن كان هذا من غرائب ظلم الانكليز فأغرب منه قدرة اليهود على توريطهم فيه ، وإصرارهم عليه بعد ظهور فضيحتهم ، وهتك سريرتهم ، ولهذا يخاف اليهود أن لايدوم هذا الاصرار ، وان يكره الشعب الانكليزي حكومته

على إنصاف العرب والاعتراف بحقوقهم في يوم من الايام . وهذا ماجرأهم على محاولة انتزاع هذا الوطن من العرب بالمناجزة ، دون ما ألفوه هم والانكليز من نيل مآربهم بالمطاولة ، فأوقدوا نار الثورة الحاضرة ، ظانين انه يمكنهم اقناع الشعب البريطاني وسائر شعوب المدنية من وضع تبعته على العرب بالدعاية الكاذبة، فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وظهر للشعب الانكليزي ولغيره ما لم يكونوا يعرفون ، وكانت هذه الفتنة نصراً من الله للعرب والمسلمين ، إذ نبهت شعوبهما كلها الى التعاون على حفظ حقوقهما الوطنية والدينية في فلسطين

وجملة القول في الانكليز انهم لا يزالون أقرب إلى العقل والفضيلة من غيرهم ، وبذلك يمكن الاستعانة بشعبهم على حكومتهم . وقد كان اليهود أقدر من العرب على ذلك الى ان أحبطت الثورة التي أثاروها عملهم ، وعلمت العرب كيف يظهرون له حقهم . ثم وجد في هذا الشعب من بحث حتى عرف حق العرب واعترف به في بعض جرائده الكبرى وأخذ يقيم الحجج على ما للدولة من المصلحة في اتباعه . ثم على العرب دون غيرهم اقناعها بالقول والعمل ، بما في مودتهم من النفع وبما في عداوتهم من الضرر بل الخطر ، وانهم لفاعلون ان شاء الله تعالى

(٣)

ماضي العرب وحضارتهم

(١) العرب أعرق الامم في التاريخ ذكراً ، وأرسخهم في الحضارة قدماً ، فقد ثبت عند المحققين من علماء التاريخ والآثار واللغات ، الذين يستمدون علومهم من العاديات ، ان قدماء المصريين والكلدانيين والفينقيين كانوا من جزيرة العرب ، وهم مؤسسو أقدم الحضارات ، وأن شريعة حمورابي التي عثر عليها منقبو الآثار في العراق من الألمان عربية ، وهي أقدم الشرائع التامة المدونة ، وكان معاصراً لابراهيم عليه الصلاة والسلام ، وابراهيم من أنباط العرب القحطانيين ، وجد العرب العدنانيين ، اخوة العبرانيين ، فبنو اسرائيل فرع من الارومة العربية السامية

ذلك أصل الحضارة القديمة التي استمد منها اليونان فلرومان مدنيتهم ، وأما الحضارة الحديثة فواضعو أساس علومها وفنونها هم العرب العدنانيون في العهد الاسلامي كما يشهد لهم بذلك الحكماء والمؤرخون المنصفون من علماء الافرنج على ما بينهم وبين الدول الاوربية ودعاة الدين من التنازع والتخاصم

ولا ننكر أن العرب استمدوا من كتب اليونان والفرس والهنود الذين كانت حضاراتهم قد درست وعفت رسومها ودفنت كتبها في ارماس خزائن الملوك والبيوتات، فنبشوا تلك القبور ، وأحيوا تلك الرمم ، وصححوا واستدركوا، وزادوا واستنبطوا، وقرنوا العلم بالعمل، واستقلوا في ذلك حتى صار لهم فن مستقل خاص بهم ، ووضعوا من العلوم ما لم يكن لغيرهم ، وكان ذلك كله في وقت قريب خارق للعادة ، فقد حقق حكيم الاجتماع الفرنسي الاكبر الدكتور (غوستاف لوبون) في كتابه [تطور الامم] ان ملكة الفنون لا تحصل في الامم إلا في ثلاثة أجيال : جيل المقلدين وجيل المخضرمين وجيل المستقلين ،قال :وشذ العرب وحدهم فاستحكمت لهم ملكتها في جيل واحد صار لهم فيه فنون خاصة بهم . وفي كتابه (حضارة العرب) الذي صنفه قبل هذا الكتاب بعشرات السنين تفصيل لهذه الشهادة والدلائل عليها والرسوم الممثلة لها ، وقد صرح فيه وفي غيره ولا يزال يصرح بأن العرب أساتذة أوربة في مدنيتها الحاضرة

أنبياء العرب وملوكهم

(٢) قد كان في العرب انبياء مرسلون، وكان فيهم ملوك استشاريون مقيدون، كملكة سبأ التي قالت لرجال الدولة (افتوني في امري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) وكان الدين هو المرشد الاول إلى الحضارة فيهم وفي جميع الامم، وأكثر ما بقي من آثار فنون الأقدمين وصناعاتهم عليه الصبغة الدينية الباعثة عليه كاهرام مصر وبرابيها ونواويسها ، وكذلك شرائعهم وآدابهم ، وإنما كانت تغلب البدع الوثنية على عقائد الدين الصحيحة وأحكامه التي يجمعها الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، ومن أهم أركان العمل الصالح العدل والصدق والامانة كما ان أعظم أركان الايمان التوحيد، وفي آثارهم المنقوشة ومخلفاتهم الباقية ما يدل على جميع ذلك

وممن حفظ لنا القرآن ذكرهم من أنبياء العرب هود وصالح وشعيب حمو موسى الكليم ومؤويه مدة فراره من فرعون ، واختلف العلماء في نبوة تبَّع ، وذي القرنين أعظم ملوك الحضارة والفنون والسياحة في الارض ولقمان الحكيم ، وحسب العرب ان منهم محمداً رسول الله وخاتم النبيين ، وهو الذي أكمل الله به الدين ، وأتم نعمته ورحمته على العالمين (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)

منهج الاسلام والعرب في اصلاح شأن البشر

(٣) ان منهج الاسلام في رفع شأن البشر هو ان إصلاح الانفس بالعقائد الصحيحة الداحضة للاوهام والخرافات ، والاعمال الصالحة الصادة عن الفواحش والمنكرات ، والاحكام العادلة المساوية بين الناس في الحقوق والمعاملات ، مقدم على الترقي في العلوم والفنون والصناعات

وهذا المنهج هو الذي سار عليه العرب المسلمون في أنفسهم وفي غيرهم في أثناء الفتوحات ، وقد شهد لهم به المؤرخ الصادق ، والاجتماعي المنصف (غوستاف لوبون) بكلمة تشبه كلمات بلغائهم في ايجازها وسعة معانيها وهي قوله « ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب » ويؤيد هذه الشهادة العقل كالنقل ، فانه لولا فضائلهم ورأسها العدل والرحمة ، لما أمكنهم أن يثلوا عرش كسرى وقيصر في الشرق في أقصر مدة ، وكانت حكوماتها أرقى حكومات الارض قوة وحضارة وثروة ونظاما ، وإنما ثل العرشين التليدين الراسخين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بسيوف الصحابة (رض) في الربع الاول من القرن الاول للهجرة ، ثم امتدت الفتوحات في الشرق والغرب ، وقبل أن يتم القرن حاصروا الروم في القسطنطينية وفتحوا كاشغر من ممالك الصين ودخلوا أرضها من أقصى الشرق ، وفتحوا افريقية ومراكش والأندلس من أقصى الغرب ، فلولا عدلهم وفضلهم ، وتفضيل جميع الشعوب إياهم على حكامهم ، لما أمكنهم ذلك مع البعد الشاسع عن وطنهم ، ومهد سلطانهم في جزيرة العرب ، بل كانت تلك الفضائل هي السبب في دخول الناس من جميع الشعوب في دين الله أفواجا طائعين مختارين ، وتبع ذلك تعلمهم

اللغة العربية لغة هذا الدين وشريعته وناشريه بمحض الرغبة ، لا بدعاية الجمعيات ولا بالزام الحكومة او نفوذها (كما يفعل الافرنج في هذا العصر)

المانع من استيلاء العرب على العالم كله

(٤) لقد كان مقتضى هذا الاصلاح الاسلامي العربي أن يعم الارض ، ويملك أهله من العرب سائر ممالك الشرق والغرب ، ولكن حال دون ذلك تعارض المانع والمقتضي ، أما المقتضي فقد عرّفناه إجمالا بما تقدم . وأما المانع الذي حال دونه فهو (على قاعدة تقابل العدم بالملكة) عدم الاستقامة على ذلك المنهج الاصلاحي الذي شرعه الاسلام وسار عليه الرسول وخلفاؤه الراشدون ، وكان أول من سن الخروج عنه معاوية بن أبي سفيان ، ببغيه على أمير المؤمنين علي عليه السلام والرضوان ، ثم باكراهه الناس على بيعة ولده الفاسق يزيد ، واحتكار السلطان لبني أمية ، فهدم بذلك الحكم الاسلامي الشوروي المبني على أساس سلطة الامة ، وأقامه على الاساس الوراثي المبني على تغلب القوة ، فما زالت القوة تعمل عملها حتى سلبتهم هذا الملك المغصوب ، وتغلغل نفوذ أعاجم الفرس في الدولة العباسية ، ثم قضى عليها همج الشعوب التركية ، فتفرقت السلطة ، وتمزقت الوحدة ، وزلزلت العدالة ، وزالت الخلافة

من ثم قال أحد علماء الألمان المتعصبين لجنسيتهم انه ينبغي لنا أن نقيم لمعاوية تمثالا من الذهب في أعظم ساحة من عاصمتنا (برلين) وينبغي مثل ذلك لجميع شعوب أوربة : إذ لولاه لكانت هذه الشعوب كلها عربية تدين بالاسلام . وبين ذلك بنحو ماقلناه آنفا . ولكن قال أحد أحرار فرنسة مامعناه : لقد كان من سوء حظ أمتنا ان كان أكثر الجيش الذي فتح به العرب القسم الجنوبي من بلادنا من بربر افريقية الذين لم يتمكن الاصلاح الاسلامي من أنفسهم فكانوا ينقضون العهود ويعتدون على الكنائس وغيرها ، حتى أثاروا العصبية والنخوة في أنفسنا ، وراجت دعوة الاستنفار العام لقتالهم وإخراجهم من ديارنا ، ولو كان أكثرهم من العرب الذين عرفنا سيرتهم العادلة في الشرق والاندلس لما وقع من ذلك العدوان شيء ، ولما راجت الدعوة إلى قتالهم وإخراجهم ، وإذاً لسبقنا أوربة في الحضارة بضعة قرون

إسقاط حرمة الخلافة وإضاعتها

(٥) كان إسقاط حرمة الخلافة أولا بقتل الخليفة الثالث ثم بالخروج على الرابع، من مقدمات سقوط وحدة السلطة العربية التي انتهت بتعدد السلاطين ودول الطوائف، وكان اتساع دائرة الفتوحات في الشرق والغرب وصعوبة المواصلات مما يتعذر معه وحدة السلطة بدون خضوع ديني لمقام الخلافة يملك على النفس وجدانها وعملها. فيحول بذلك دون الخروج على الحكومة والاستبداد دونها، ولئن رتق بنو أمية ما فتقوا بتمكنهم من جمع الكلمة، وتوحيد السلطة، وتوجيه المسلمين إلى الجهاد في الكفار، وفتح الامصار، وحمد لهم الجمهور هذا على كراهته لفسوق أكثرهم، فلقد كان رتقهم له بالعصبية مع الاسراف في الترف والتفريط في العلم والتقوى رتقاً واهياً، ولمقام الخلافة منافياً، ولذلك كان أمده قريباً

قضى بنو العباس على بني أمية بقوة العصبية التي ابتدعوها، ثم قضوا بها على خلافة النبوة التي تقلدوها، واعتمدوا فيها على الاعاجم فكانت بذلك شراً مما قبلها، وانما امتاز أوائلهم بالعلم، فبلغ الذروة في عهد المأمون، كما كان لهم مزيد حرمة عند الامة بقرابة الرسول ﷺ ولكن شان علم المأمون نصره للبدعة، وما كان ينبغي للخليفة أن يتعدى حدود قطعيات الكتاب والسنة، ويضطهد حرية الاجتهاد في العلم والدين، بنصر فريق على فريق من الباحثين، فالملك يجب أن يكون كما يقول ساسة هذا العصر بمعزل عن المذاهب والاحزاب، ثم ما زال يضعف العلم، ويتضاءل نفوذ النسب، وتتفرق قوى العرب، وتحل محلها عصبية العجم، حتى صار الخليفة شبحاً من أشباح اللعب، يزين بالحرير والذهب، ويستنطق بما لا يريد أو بما لا يفهم، ويوقع على ما لا يقرأ أو على ما لا يعلم، ويتحرك بتحريك البطانة والحاشية والحرس، وانما يعظم تعظيما صوريا، ويمكن من اللذات البدنية مادام مواتياً فان نبا أو أبى قتلوه ونصبوا شبحاً آخر مكانه، لا يرى وسيلة لاستدامة اللذة والفخفخة والزينة، إلا التجرد من الامر والنهي والرأي والارادة

سعي الفرس لاسقاط ملك العرب

(٦) بدأ زنادقة الفرس بالسعي لهدم ملك العرب لاستعادة دولتهم الفارسية وملتهم المجوسية ، من طريق الدسائس الدينية والسياسية ، وإحياء العصبية الشعوبية ، وتوسلوا إلى ذلك بتفريق الكلمة من طريق التشيع لأئمة البيت من آل علي وفاطمة عليهم السلام ، فشعر بذلك آل العباس (رض) فنجحوا باستمالة دعاية الثورة والقوة ، وبقيت للعلويين دعايتا الالوهية والعصمة ، وقد فطن الخليفة العباسي الاول لخطر زعامة الثورة في الدولة ، فقطع رأسها من أول وهلة ، فسعى ساسة الفرس لها من طريق الثروة وإدارة الحكومة ، فاحتكروا موارد الاموال ، واصطنعوا الرجال ، وتم هذا الامر للبرامكة منهم في عهد الرشيد أو كاد ، ولكنه فطن لذلك فبطش بالبرامكة تلك البطشة الكبرى ، بيد أن قوة الترك الجندية الوحشية ، قد قدرت على ما عجزت عنه سياسة الفرس الدينية والادبية ، فانما أثمرت دسائس شيعتهم الباطنية في افريقية دون بلادهم وما يقرب منها ، فكانت الدولة التي أسسوها بمصر - هي الفاطمية أو العبيدية - عربية محضة باقتضاء موقعها ، ولم تستطع التغلب على الدولة العباسية بتعميم دعايتها . وأما الذين سلبوا ملك العرب وقوضوا هيكل حضارة العرب فهم الترك ، وكان الجاني الاكبر في إدخالهم في الدولة والاعتماد على جندهم في حفظ سلطان الخلافة هو المعتصم الجاهل بالسنة والناصر للبدعة ، وأنى له أن يفهم مغزى قول الرسول ﷺ « اتركوا الترك ما تركوكم » او يحذر ويتقي مضمون قوله ﷺ « اول من يسلب امتي ملكهم وماخولهم الله بنو قنطوراء » يعني الترك

سلب الترك لملك العرب

(٧) مهد التتار السبيل لبني عمهم الترك باجتياح سلطنة الخلافة العباسية العربية بالتقتيل والتدمير والتتبير ، وكان الفرس قد سبقوا الى إضعافها بالتفريق والتدبير ، أفرطوا في تقديس الخلفاء العباسيين وتفخيمهم بالالقاب والزينة والاحتفالات الرسمية ، ولكنهم فرطوا في طاعتهم ، وأزالوا ماكان من حصر وحدة الرياسة فيهم ، ففرقوا السلطة ، واستبدوا بالدولة ، وغلبوا الخليفة على أمره ، وافتاتوا عليه في حكمه ، حتى

تجرؤا على قتله ، فوهت قوة الوحدة ، وكثر السلاطين في الدولة ، ووقف سير العلم والحضارة ، لان العلم كان عربياً وكان المرشد اليه القرآن العربي ، وكان العرب هم الذين أحيوا منه ما أماته الزمان ، وجددوا ما أخلقته صروف الحدثان ، وجاراهم فيه مواليهم وتلاميذهم من الفرس والسريان ، وكانت الحضارة عربية بالتبع للعلوم والفنون العربية . وكان الترك أبعد شعوب البشر عن العلم والحضارة ، وانما عندهم من آلة الملك الحرب والعصبية ، فكانت دولتهم دولة حرب وفتح ، لا دولة علم وفن

وكان أكبر سيئات الترك العثمانيين إيثار لغتهم الهمجية ، على اللغة العربية ، لغة الدين والعلم والادب والحضارة . وتحريهم إضعاف الامة العربية واستذلالها لئلا يعود اليها حقها في الخلافة الاسلامية وحكم المسلمين ، فان الله تعالى بعث رسوله محمداً خاتم النبيين في الامة العربية ، وأنزل عليه كتابه المعجز للبشر باللغة العربية ، فجعل هدايته لهم عربية وحكمهم به عربياً فقال (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) ولذلك انتهت عداوة دولتهم للغته بعداوتها له . وهؤلاء خلفاؤهم الكماليون يعدون التكلم بالعربية والتعلم للعربية وكتابة التركية نفسها بالحروف العربية من أكبر الجرائم السياسية التي يعاقب قانونهم مجترحها ، فلاغرو أن يقول رسول الله النبي العربي فيما يعد من دلائل نبوته بخبر الغيب «أول من يسلب أمتي ملكهم وما خولهم الله بنو قنطوراء » وهو يدل بالاشارة أو فحوى العبارة إن لم يكن بنصها على أن سالبي ملك أمته لا يعدون منها ، وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري ان المراد هنا بالامة أمة الجنس لا أمة الدين . ونحن لا نطعن في إسلام الشعب التركي نفسه ، وانما نطعن في جهل دولته وعصبيتها ، التي انتهت بضعف دينها ودنياها ، ثم بما يشكو منه كل مسلم منهم ومن غيرهم من نبذ خلفها لكتاب الله وشرعه ظهريا

استقلال العرب وحالهم بعد الحرب

(٨) تغلب الترك العثمانيون على الدولة العباسية في الشرق ، وخذلوا الدولة الاموية في الغرب (إذ استنصرت بهم على الاسبانيين فلم تنصرهم) واستولوا على مهد الحضارة العربية في العراق وسورية ومصر ، فأضعفوا الحضارة والعلم في هذه البلاد ولكنهم لم يستطيعوا إماتة اللغة العربية فيها ، ولا الادالة للغة التركية منها ،

ودان لهم أمراء الحجاز ولكنهم ظلوا أصحاب السيادة والنفوذ فيه وحاولوا بعد ذلك كله قهر عرب الجزيرة وإخضاعهم لحكمهم فظلوا يقاتلونهم عليها أربعة قرون ونيف، فنقصوها من أطرافها ، واستولوا على ثغورها البحرية ، ولكنهم عجزوا عن قهر أئمة اليمن وأمراء نجد وإخضاعهم لحكمهم ، فالعرب الصرحاء الخلص ظلوا في عقر جزيرتهم مستقلين في حكم أنفسهم ، لم يقهرهم الترك عليها ، بل ظلوا يدافعونهم عنها وينتصرون عليهم فيها ، حتى إذا مزقت الحرب الاخيرة سلطتهم الواسعة ، ظهرت جزيرة العرب في الوجود مستقلة تامة الاستقلال سالمة من كل نفوذ أو امتياز للدول الاجنبية فيها ، إلا ثغر عدن الذي اغتصبته الدولة البريطانية في القرن الماضي والمقاطعات التسع اليمنية التي تدعي حمايتها ولا تتدخل في أمر حكوماتها ـ وإلا ما كان وهبه الملك علي بن حسين من أرض مملكة الحجاز لامارة شرق الاردن وهو ثغر العقبة المنيع على البحر الاحمر والمنطقة الممتدة منه إلى معان اهم المحطات لسكة الحديد الحجازية . فكل من هذا وذاك موضع نزاع بين الانكليز والدولتين العربيتين المستقلتين في جزيرة العرب : مملكة اليمن الامامية ومملكة الحجاز ونجد الملكية ، وقد اعترفت الدولة البريطانية بالاستقلال التام المطلق لهذه الدولة دون تلك ، وعقدت معها معاهدة على قاعدة المساواة ، ولكن بقيت منطقة العقبة ومعان موقوفة لتحل عقدتها بالمفاوضة السياسية ، وأما الاعتراف باستقلال اليمن فقد تعددت فيه المراسلات والمفاوضات بين الدولتين البريطانية واليمانية ، ولا بد ان تنتهي قريباً برجوع الاولى عن كل حق تدعيه فيما عدا منطقة عدن ، فانه يستحيل تركها إياها لليمن

حال الممالك العربية اليوم

(٩) ذلك شأن مهد الامة العربية ومنبت أرومتها ، ومعقل قوتها ، لم يغلبها عليه كله أحد ، فهي لا تزال فيه عزيزة النفس ، قوية البأس ، مرفوعة الرأس ، وأما ما يتصل به من مواطن حضارتها وعمرانها ، وعواصم خلافتها وسلطانها ، وهي مصر وسورية والعراق فقد احتل اكثره الانكليز وبعضه الفرنسيس قبل الحرب وبعدها ، وجعلوا حكوماتها العربية تحت سيطرتهم العسكرية بدعوى مساعدتها على اصلاح شؤونها ، إلى أن تقوى على النهوض بأعباء استقلالها المعترف لها به بنفسها ، ولا تزال

هذه الشعوب العربية تنازع هاتين الدولتين في دعواهما ما تسميانه حق الاحتلال والانتداب، ولا بد من وصولها الى حقها في الاستقلال المطلق في يوم من الايام،

(ولا ننسى الممالك العربية الافريقية الاربع فهي لابد من استقلالها أيضاً فان استعباد الامم الكبيرة بالقهر العسكري لن يدوم اذا هي عرفت نفسها وحال العالم وسنن الاجتماع فيه ولكن كلامنا الآن ليس فيها)

استحالة ظهور اليهود على العرب

(١٠) علم مما تقدم ان الأمة العربية أقوى وأعز وأفضل من الشعب اليهودي ماضياً وحالا، وأرجى منه استقبالا، فهي لا تزال ذات ملك وسلطان، وممالك وأوطان، ولغة حية، وشرع نافذ وعادل فان كانت ثروة اليهود النقدية أكبر، فان ثروة العرب الطبيعية أعظم، ألا وهي ثروة الارض التي هي أصل كل ثروة بأقواتها ومعادنها، وهم يملكون عشرات الالوف والاميال منها. وإن كان اليهود أقدر على تسخير القوة البريطانية بدهائهم ومكرهم وأموالهم، فالعرب أقدر على ابطال كيدهم هذا بكثرتهم، اذا هم جمعوا كلمتهم، وبنفوذهم في العالم الاسلامي الذي يعطف عليهم لانهم قوم نبيهم، وأرومة دينهم، وحفظة قبلتهم وعمار مساجدهم الثلاثة المقدسة: المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الاقصى. فان لم يقدروا على ذلك بالاقناع البرهاني الذي يفضلونه، فسيقدرون عليه بالدفاع الحربي الذي لايخافونه، وقد علم زعماء الامتين، ان ما بذلتاه من الدماء والاموال في سبيل الدفاع عن الدولتين، لو بذلتاه في سبيل حريتهما واستقلالهما، لكان كافياً لهما، وان تلك الملايين من رجالهم التي سخرتها الدولتان لأنفسهما في الحرب ما كان يمكنهما تسخيرها بالقوة، وانها لو ثارت عليهما في وقت ضعفهما لما فقدت في قتالها عشر ما فقدته في قتال أعدائهما، وإذاً لخسرتا الحرب وفاز بها أعداؤهما

وقد رأوا بأعينهم، وخبروا بأنفسهم، ما كان من تأثير الثورة المصرية الصغيرة العزلاء على بريطانية العظمى بعد الحرب الظافرة هي فيها على حين كان جيشها من جميع الاسلحة يموج في أرض مصر، كما تموج أساطيلها في كل بحر، وعلموا انه لولاها لم ترفع تلك الحماية التي ضربت عليها، ولم يعترف لهم بالاستقلال المقيد فيها، ثم رأوا ثورة العراق التي فتحتها الدولة البريطانية فتحاً، وأخذتها عنوة لا صلحاً، وجعلتها تابعة للامبراطورية

الهندية، وكيف كانت سبباً لتأسيس حكومة وطنية فيها كما تقدم قريباً . ثم رأوا الثورة السورية ، وما أبلت في القوى الفرنسية ، على قلة الموقدين لنارها ، وقلة ما أتيح من الوقود لها، وكونها كانت في دائرة ضعيفة من البلاد لم تتعد النار الى غيرها

فهل تظن هذه الطغمة من اليهود الصهيونيين انهم ينتزعون من قلب هذه الامة العزيزة قطراً من أشرف أقطارها وأعزها، بعد أن استيقظت من رقدتها ، وشعرت بقيمة نفسها، وهبت لاستعادة وحدتها، على اختلاف مواطنها وعقائدها وتربيتها ؟ وما كان ضعفها الماضي الا بتفرقها ، وجهلها بقوتها ومكانتها ، ومتى كان الغنى والثراء، والمكر والدهاء ، والكيد والرياء ، من الضعفاء الجبناء ، يطرد الامم القوية من اوطانها، ويغلبها على ملكها وسلطانها ، والحق لها ،والسيف بيدها؟ وهم انما يعتمدون على قوة غيرهم ،ولن يدوم لهم تسخيرهم لهم،وعلى تفرق خصومهم وقد زال ،ولم يبق لاتحادهم إلا النظام وهو ان شاء الله قريب المنال

تأثير ثورة فلسطين في العرب والمسلمين

(١١) لقد كانت الثورة التي اوقد اليهود الصهيونيون نارها في فلسطين بعد تلك الثورات الموضعية على أقوى دول الارض ، وبعد تلك اليقظة الشرقية العامة التي أحدثتها الحرب ، وبعد خيبة آمال بعض الشعوب الشرقية ، التي كانت مخدوعة ببعض الدول الغربية ، آخر صيحة داعية الى وحدة الشعوب العربية ، وتعاطف الشعوب الاسلامية ، فقد اضطرب لها المسلمون والنصارى جميعاً في سورية ولبنان والعراق والحجاز ونجد واليمن ومصر وتونس والجزائر ومراكش ، واهتز لها المهاجرون من العرب في العالم الجديد من الشمال الى الجنوب ، وظهر أثر ذلك جلياً قوياً في جرائد هذه البلاد وجماعاتها بالاحتجاج والانتصار وجمع الاعانات ، وهي أول حركة عربية سياسية أظهر العطف عليها ملوك العرب المستقلون ،فقد أرسل صاحب الجلالة السعودية عدة كتب وبرقيات في إظهار عطفه وعطف اهل مملكته النجدية والحجازية على عرب فلسطين — على بعده واشتغاله بقمع ثورة داخلية في نجد — منها ما هو باسم سماحة زعيمها السيد أمين

الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الاسلامي الأعلى لفلسطين، ومنها ماهو للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بمصر (وسننشر ذلك) ومنها ماهو لصاحب الجلالة البريطانية ملك الانكليز، وقد تبرع ملكا العرب في هذه الثورة بخمسمائة جنيه، وتبرع نجله ونائبه في الحجاز بمائة جنيه، وألفت بأمره لجنة لجمع الاعانات بمكة جمعت مبلغا يعد كبيراً من أهل الحجاز، وتبرع صاحب الجلالة اليمانية الامام يحيى حميد الدين بثلاثمائة جنيه. وشارك العرب في هذا الشعور والعطف على أهل فلسطين مسلمو الاعاجم ولاسيما في الهند وجاوة بالاحتجاج والاعانات بل شارك الهندوس مسلمي الهند في عطفهم هذا وتمنى الجميع لو يرسلون جيشاً منهم إلى فلسطين لحماية المسجد الاقصى وأهله من عدوان اليهود

بل هذه أول مرة صرح فيها شيخ الأزهر ورئيس المعاهد الدينية في مصر بالعطف على المسلمين في أثناء ثورة سياسية بينهم وبين شعب أجنبي تؤيده الدولة البريطانية، بعد أن أجرّت السلطة المصرية ألسنة علماء الازهر وألجمتهم، وحرمت عليهم ماهو مباح لجميع المصريين من إبداء رأيهم في الامور السياسية، وقد كانوا من قبل أصحاب الرأي الأعلى والقدح المعلى في جميع المصالح الاسلامية والوطنية، حتى انهم هم الذين ولوا محمد علي باشا على مصر

ومما يصح أن يذكر بالاعجاب ان صوت الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر ورئيس المعاهد الدينية قد ارتفع في هذه المسألة في وقت خرست فيه ألسنة جميع أمراء مصر وكبرائها الاحرار حتى غير المقيدين بسياسة الحكومة ومشربها، لا الوزراء والرؤساء الرسميين وحدهم وهو من كبارهم. فهذا فتح جديد في النهضة العربية واليقظة الاسلامية معاً (وسننشر كلامه)

وقد كنت اقترحت على سلفه المرحوم الشيخ أبي الفضل الجيزاوي في أول العهد بظهور الطمع الصهيوني في المسجد الاقصى والعثور على صورة لقبة الصخرة يعلوها العلم الصهيوني أن يكتب فتوى على سؤال في ذلك تتضمن مايجب على المسلمين من استنكار ذلك ووجوب حماية المسجد الاقصى عليهم ... فاعتذر رحمه الله فألححت عليه وأكثرت من اللوم حتى غضب فقال: ياسيد رشيد أتظن انه مابقي

أحد يغار على الاسلام غيرك ؟ والله اننا نغار مثلك ، ولكنك أنت مطلق ونحن مقيدون، وأنت تعلم اننا ممنوعون من كل شيء يتعلق بالسياسة ...

مستقبل العرب مع الانكليز

(١٢) اننا نرجو ان يحيط الشعب الانكليزي العاقل بما ذكرناو ذكر غيرنا من الحقائق فنجد منه عوناً على حكومته بتغيير سياسته مع الامة العربية، والجلاء عما تحتله من بلادها الحجازية واليمنية وغيرها، والاتفاق مع حكوماتها على مايضمن له مصالحه الاقتصادية ونفوذه الادبي في جميع بلادها . فوالله لو أن في الشعب الفرنسي من الروية والتدبير مثل مافي الشعب الانكليزي لأمكنه إكراه دولته على تأليف دولة سورية واحدة تقضي على نفوذ الدولة البريطانية في الامة العربية كلها ثم في سائر الشعوب الشرقية المتصلة بها

كان من آفات الظفر في هذه الحرب أن الغرور قد استحوذ على عقول الظافرين وان كان ظفرهم بقوة غيرهم لابقوتهم، فلولا الولايات المتحدة لاستولت ألمانية على جميع ممالكهم ، وكان من آفات هذا الغرور أن الدولة البريطانية ظنت أن قوة السلاح، خيرلها من قوى التدبير والعقل والاصلاح ، وانها قد ورثت جميع السلطنة (الامبراطورية) العثمانية ، باحتلال القسطنطينية، وانها ستملك بلاد ايران والافغان بالاساطيل الجوية، كما رسخ قدمها في مصر وسائر البلاد العربية، وانه قد تم ما كانت تحلم به من امتداد امبراطوريتها من حدود برقة إلى حدود الصين من الغرب الى الشرق ، ومن الاسكندرية الى الكاب من الشمال إلى الجنوب ، فبدا لها من جميع هذه البلاد مالم تكن تحتسب ، بل بدا لها من الهند ينبوع ثروتها الثرور ، وسوق تجارتها التي لا تبور، ما لم يكن يخطر لها ولا لغيرها ببال ، إذ هب مئات الملايين فيها يطالبون الاستقلال ، وينذرون الدولة قرب الزوال، وطفق الباحثون من علمائها يبحثون في هرمها ، ويقدرون مابقي من عمرها ، على قاعدة قول الشاعر

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

ولكن هذا كله قد كبح جماح ذلك الغرور ، وتغلب حزب العمال المعتدل على حزب المحافظين المغرور ، وجنح حزب الاحرار الى العمال ، فمن ثم قويت الآمال ، بمراعاة هذه الدولة العظيمة لمقتضى الحال ، وطول بقائها في أوربة كلسان الميزان

بشارات أنبياء اليهود في المسيح والملك

(١٣) اليهود الماديون واللادينيون يتكلون على انكلترة في إعادة ملك سليمان وهيكله اليهم كما تقدم ولكن دين الانكليز وشرفهم ومصالحهم المرتبطة بأربعمائة مليون من المسلمين ومن العرب غير المسلمين أيضاً تأبى عليهم ذلك على تقدير قدرتهم عليه

واليهود المتدينون يعتمدون على بشارات أنبيائهم ، وهذه البشارات مبهمة ومشروطة باتباعهم لوصايا التوراة كلها وقد تركوا هذا عندما كان ممكنا وقد أصبح غير ممكن ، ثم انه مقيد بمجيء المسيح وجريان ذلك على يديه ، وقد جاء المسيح الحق عليه السلام فكفر أكثرهم به فأيد الله تعالى من آمن به على من كفر كما قال عز وجل في آخر سورة الصف (٦١: ١٤ فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) وقد كتبنا مقالا طويلا في بيان تلك البشارات وما كان من قيودها وشروطها وما تقتضيه من حرمانهم من أرض الميعاد والملك الى الابد سننشرها في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

أنباء خاتم النبيين في أمر اليهود مع المسلمين

(١٤) ان عندنا معشر المسلمين بشارات من خاتم النبيين وواسطة عقد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أوضح وأفصح وأصرح من بشارات أنبياء اليهود كأخبار المسيح الدجال الذي يظهر فيهم فيتعصبون له ويقاتلون المسلمين والنصارى في فلسطين وغيرها فيخذلون ويغلبون على أمرهم . ومنها ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يامسلم هذا يهودي ورائي فاقتله » وله روايات أبسط من هذه الرواية ، فاحذروا أيها الصهيونيون المتهورون ان تعجلوا بفتح باب البلاء على أنفسكم بل احذروا وقد فتحتموه أن تصروا عليه ، وارجئوه إلى مجيء مسيحكم فانا له مرجئون ، وانتظروا فانا منتظرون

السيد عبد الباسط فتح الله

﴿ وفاته وملخص ترجمته ﴾

في غرة جمادى الاولى من هذا العام رزئت مدينة بيروت بل القطر السوري بل الامة العربية والملة الاسلامية بوفاة فرد من أفرادها وبدل من أبدالها وشهيد من شهداء الحق ، وحجج الله تعالى على الخلق ، صديقنا الوفي وأخونا في الله عز وجل ، وأحد تلاميذ شيخنا الاستاذ الامام ، ومريديه في ديار الشام ، وبتربيته وإرشاده كان من أركان الاصلاح في العلم والعمل ، والاخلاق والادب ، ومن الكتاب المجيدين ، والخطباء المؤثرين الاستاذ السيد عبد الباسط فتح الله ، رحمه الله تعالى وأثابه ، وأحسن مرجعه اليه ومآبه ، ثم احسن عزاءنا وعزاء أهله ووطنه عنه ، وعظم أجرنا جميعاً بمصابنا فيه . توفاه الله تعالى عن ستين سنة هجرية كاملة ، إثر مرض طويل أعيا الاطباء ، وتعذر الشفاء ، وقد كبر مصابه على عارفي فضله فأبنوه عند دفنه ، ثم أقاموا له حفلة تأبين في اليوم الاربعين من تاريخ فقده ، تبارى فيه خطباء بيروت وشعراؤها في رثائه وذكر مناقبه نظما ونثراً

واننا نقتبس ترجمته التاريخية مما ألقاه في تلك الحفلة صديقنا وصديقه الاستاذ الشيخ احمد عمر المحمصاني الشهير ، وهو مأخوذ من ترجمته لنفسه التي نشرتها مجلة المجمع العربي في دمشق ومما عرفه المترجم بنفسه منه وعنه بطول المعاشرة في القرب ، وكثرة المكاتبة في البعد ، كنا قد كلفناه كتابة ذلك لاجل نشره في المنار ، فكتبه وألقاه في حفلة التأبين ثم أرسله الينا فلخصنا بعضه وتركنا أقله وأثبتنا أكثره بحروفه

فمما ذكره المترجم ان كلا من والديه رحمهما الله تعالى « من اسر بيروت القديمة ولنسبهما صلة بأهل البيت النبوي الكريم » ومما بلغنا من صفة والده انه كان رجلا صالحا تقياً . وحدثنا الفقيد عنه ان الشيخ يوسف النبهاني الخرافي الحشوي المعروف حمله عند سفره الى الحج بعض كتبه لاجل توزيعها في المدينة

المنورة فكان من امره أنه قبل وصوله إلى المدينة بليلة واحدة — على ما ذكر — رأى النبي ﷺ في منامه فأمره لا يدخل مدينته بتلك الكتب وفهم منه انه ﷺ غير راض عنها ، فألقاها أو دفنها في مكان قبل دخولها . ولما عاد من الحج جاء الشيخ النبهاني للسلام عليه في داره وكان عنده كثير من الزائرين فلما دخل عليه ودنا منه ليعانقه لم يملك لسانه ان قال له يا شيخ يوسف ان رسول الله ﷺ غير راض عنك ، فبهت النبهاني وأحجم لقوله ،واستغرب الحاضرون ذلك ووجموا لسماعه ، فذكر لهم رؤياه المذكورة .ثم قال المترجم

﴿ نشأته ﴾ ولد عام ١٢٨٨ هجرية ،وتعلم القراءة والخط وأوليات الحساب في مدرسة المرحوم الشيخ حسن البنا . ثم في سنة ١٣٠٠ دخل المدرسة السلطانية التي فتحت في بيروت فتعلم فيها العربية والتركية والافرنسية وما اليها من الفنون . وكان من أساتذته فيها استاذنا الامام المرحوم الشيخ محمد عبده وعنه اخذ علوم البيان والمنطق والتوحيد والاحكام العدلية (مجلة الاحكام الشرعية) وكانت له به عناية خاصة فقرأ له في بيته أثناء العطلة المدرسية وليالي رمضان فصولا من متن التهذيب في علم الكلام والسيرة النبوية

«ولما اضطرب نظام المدرسة بتدخل السلطة العسكرية في إدارتها برحها الاستاذ الامام فتبعه المترجم ولزم مجلسه حتى أشار عليه بدخول الكلية البطركية لاتمام ما كان حصله في المدرسة السلطانية من اللغة الافرنسية والفنون،فدخلها عام ١٨٨٨ وحضر فيها دروس استاذ اللغة العربية الشيخ ابراهيم اليازجي ودروس غبطة الحبر العلامة البطريرك ديمتريوس القاضي في الآداب الافرنسية والتاريخ القديم والحكمة الطبيعية ، واكتسب من ميل هذا الحبر ورعايته ، ما لا يقل عن اهتمام الاستاذ وعنايته ، ثم خرج من هذه الكلية وقد نال شهادتها العلمية، مع جائزة الشرف في العلوم العربية

«وكان يختلف أثناء العطلات المدرسية وفي اوقات الفراغ بعدها إلى مجالس الاستاذ المحدث الشهير الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت السابق رحمه الله ،فسمع منه مع فريق من طلبة العلم جملة صالحة من صحيح البخاري

[وهنا ذكر المترجم شيئاً من سيرته في حياته العملية ثم قال]

﴿ خدمته للعلم ﴾ بيد أن مشاغله الادارية والتجارية لم تكن لتمنعه مما يهوى اليه فؤاده من خدمة العلم ونشره . فقد دعاه الاستاذ الناهض المقدام الشيخ احمد عباس إلى معاونته على تأسيس مدرسته الشهيرة [بالمدرسة العثمانية] فلبى الدعوة ، ونشط للخدمة ، إذ وجد فيها متسعاً لتحقيق امانيه في الاصلاح ، وظل يتبرع بمشاطرة الاستاذ — المشار اليه — تدبير مدرسته وتنظيمها ، ويلقي فيها المحاضرات الادبية ويعطي الدروس في الجغرافية والطبيعيات والتعريب ، إلى أن قضت السياسة التورانية باقفالها اوائل ايام الحرب

« على ان سعيه نحو غايته من بث العلم لم يكن لينحصر في سبيل تعليم البنين وتربيتهم بل كان تثقيف البنات والوفاء لهن بحقهن من العلم والتهذيب مناط همه الاكبر فبالرغم من المصاعب الجمة التي كانت تعترض الساعين في تنوير الامة (خصوصاً العربية) أيام عبد الحميد قد وفق مع طائفة من المفكرين الناهضين لتأسيس (جمعية ثمرة الاحسان) بغية تحسين حالة الانثى المسلمة وأنشؤا لها مدرسة حوت العدد الجم من البنات. ومن تلميذاتها اليوم من تدير إحدي مدارس الحكومة. واشترك كذلك مع فريق من أصحاب الشان في تأسيس (جمعية مآثر التربية) التي غايتها معاونة الطلبة المعوزين على تحصيل العلم العالي أو الاخصاء في أحد فروعه في كليات بيروت أو جامعات أوربا. ومن أبنائها من هم اليوم في عداد الاطباء، والمحامين وأهل القضاء

« وانتخب لعضوية (جمعيـة المقاصد الخيرية) وما زال يدأب في خدمة مدارسها وأنظمتها على نحو خدمته للمدرسة العثمانية ومدرسة ثمرة الاحسان من قبل . كما انه قام بتدريس الديانة والتهذيب للصفوف المؤلفة من البنات المسلمات (في المدرسة السورية الاهلية)

﴿ أثر قلمه ﴾ تراه وهو في غضون تلك الاعمال السابقـة يغتنم الفرصة ، ويفترص المناسبة لبثّ الافكار الصحيحة والمبادىء السليمة ، ويلفت الانظار إلى حقائق الامور وتعرف المصلحة العامة والاعتدال في الاخذ بالجديد والمحافظة

على القديم ، عاملا بسنة أستاذه الامام في الدعوة إلى ترك الجمود على التقليد الضار، وخلط الدين في كل شأن من شؤون الدنيا

«تلك المقاصد والموضوعات تراها منبثة في مقالاته وخطبه جارية من بيانه مجرى الدم من جثمانه. فمن غرر مقالاته المشهورة : النهضة الاقتصادية . الالفة التمدن. الصدق. التعصب . العلم روح المدنية ، والمدنية معنى الانسانية . الميسر وأضراره . ذكرى من سفر في وصف قلعة بعلبك . المداواة الحديثة. تأثير السجايا في الاعمال . لبوس الصيف والنسيج الوطني. الرقيقة امبراطوره (كتبها عن هنري امبراطورة الصين) العافية نور على هام الأصحاء لايدركه إلا الضعفاء. غريبة في عالم الصناعات. العبادة عادة والدين المعاملة . بحث في الصحافة . اللجان الخيرية. في الكستنا أوالشاه بلوط. الاسلام (مقالة رد فيها على مقال للمسيو كولرات نشرت في جريدة الديبش كولونيال بعنوان ضد الاسلام) تصويت النساء. في شأن المرأة. في المدافعة الملية . الهرم . وصية منتحر . احتفال الجمعية السماوية . الحكم على الكلاب بالاعدام . (يداعب فيها البلدية) المحاميات ، عبد الله باشا فكري والهيئة الجديدة (قرظ بها رسالة عبد الله باشا فكري وزير معارف مصر في المقارنة بين الهيئة الجديدة وتطبيقها على النصوص القرآنية) ذكرى العاقل وتنبيه الغافل (قرظ بها رسالة بهذا العنوان للامير الكبير السيد عبد القادر الجزائري) مجالس الوعظ في رمضان . الظاهر المألوف من المفروش والملبوس . كلمة في بلدية بيروت . وهذه نشرت في جريدة ثمرات الفنون مع كثير من المقالات

«وله مقالة عنوانها (التجارة محور السياسة) نشرت في الثمرات عدد ١٢٨٤ أتى فيها بالعجب العجاب في بيان سر الاقتصاد عند الامم الراقية وأن التجارة هي حفاظ السعادة وقوام العمارة — إلى أن ختمها بقوله — ولو بحثت من الامور السياسية في أدقها وما قد لا يشتم منه ريح التجارة لتحققت ان التجارة سره ولبابه ، مهما اختلفت مظاهره وتلونت أثوابه ، ولأدركت أن التجارة هي غاية السلم ، غاية الحرب ، محور السياسة ، فضلا عن انها قطب رحى الحياة المدنية

«وله مقالة عنوانها (الاصلاح من طريق العلم والتهذيب) نشرت في العدد الاول من مجلة الكشاف، ومما يناسب أن يخص بالذكر في هذا المقام دلالة على شعوره الادبي ما كتبه بعيد خروجه من المدرسة في بيان حاجة العربية إلى تأسيس مجمع علمي ينقسم إلى شعب تتفرغ كل منها للعمل في سد جانب من عوز اللغة (الامر الذى لم يتم لنا إلا بعد ثلاثين سنة)

«وإذا تأملت في مقالاته فانك تجد رجلا اجتماعياً يخوض في مواضيع شتى، وهو هو بقلمه المتين وعبارته الجيدة وحجته الناصعة، فبينا تراه يكتب في موضوع اخلاقي يشبعه درساً فاذا به في مقال آخر يصف شيئاً فيقربه اليك كأنك تراه ماثلا أمامك، وتارة تجده في موضوع أدبي أو علمي أو اجتماعي أو زراعي او تاريخي يوضح لك المحجة، ويقرع الحجة بالحجة

« وأما خطبه الممتعة فحدث عن البحر ولا حرج ؛ ومن الذي لا يذكر مواقفه في المدرسة العثمانية (الكلية الاسلامية الآن) وأقواله التي تملك الآذان، بلا استئذان، مع ثبات جأش، وقوة عارضة، ومتانة في الجمل والكلمات، ورقة في الاسلوب والعبارات، والذين شهدوا خطبه في معنى المسلم وفي الاخوة الدينية، وعن المدرسة الاسلامية في أول نشأتها، وفي الروايات الادبية وتأثيرها، ومحاضرته عن أبي العلاء المعري وعن التمثيل وفوائده — يعرفون المواهب التي وهبه الله إياها، ويدركون عظيم الخطب بفقد الامة له وهي في أشد الحاجة الى العاملين المخلصين المصلحين

رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس الكرام

ثم ذكر مما ترجمه بالعربية عن الفرنسية (كتاب التدريس العلمي ليول برت احد نظار المعارف الافرنسية. وكتاب فلسفة السياسة لغوستاف لوبون. وكتاب الرين ووستفاليا لجول هوره. وترجمة فصل من كتاب سر تقدم الألمان. وهذه الاربعة لم يتمكن من اتمامها. وقد أتم تعريب رسالة (مسألة النساء) لارنست لوكوفي وجعل لها مقدمة جليلة جداً

«ومن أهم مميزات الفقيد : الانصاف في المناظرة والمحاورة وهذا مما امتاز به

وعرفه له مخالطوه ومعاشروه ، كما انه من أكبر الادلة على المتانة والرسوخ في العلم، ومن أجل المواهب التي يؤتاها النابغون ، ولا يوجد بعد العلم حلية لأهل العلم مثل الانصاف فيه (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)

« ومن أعظم مميزاته اعتناؤه الكلي بالتنظيم في الاعمال التي أدارها وبالاخص فيما يتعلق بالعلم والتعليم وما دخل في مصلحة الا و كان له فيها الاثر الخالد

« وقد ظهرت هذه الميزة في رآسته لنادي رأس بيروت فقد وضع نظامه واحكم اساسه وتولى بنفسه إلقاء المحاضرات الممتعة والمواضيع النافعة مع بعض اخوانه ، ولو قدر لهذا النادي البقاء لكان من مفاخر بيروت الجميلة ومن أهم الاندية في البلاد ولكن مداهمة الحرب العامة ذهبت بكل ما كان ينتظر من هذا النادي الجليل في الاصلاح المطلوب

« إن الفقيد بسيرته هذه وعلمه الجم ، وعمله الخالص الاتم ، كان حجة الله على كثير ممن عرف العلوم العصرية واللغات الاجنبية ولم يكسب أمته من علمه ومعرفته شيئاً يرقيها ويفيدها بنقل او تعريب ، او دفاع عن حوزتها وكيانها وعما يتهمها به الاعداء من الطعن في معتقداتها او الحط من مفاخر اسلافها

« وحجة الله أيضاً على كثير ممن تذوقوا العلم فوقفوا عند القشور ، واشتغلوا بسفاسف الامور ، ولم ينفذوا إلى اللباب ، فأضاعوا أنفسهم وأمتهم وضاعوا عن الصواب

« حياة كلها علم وعمل ، وجهاد وأمل ، ودعوة إلى الحق ، وثبات وصدق ، وصبر واحتمال ، وسير حثيث إلى الكمال ، مع انصاف في المناظرة ، وأنس في المحاورة ، ووقوف عند الحدود الشرعية ، ودعاء إلى السنة السنية ، ونفور من البدع ، لا تأخذه في الحق لومة لائم

« فهذه آثار ناطقة بسمو مداركه وعلو مكانته ، في أي بحث طرقه ، أو أي موضع تناوله كان ابن بجدته فقد جمع ما تفرق في غيره » اه

هذا واني أختم هذه الترجمة بالتنويه بمقال كتبه لنا باقتراحنا عن سيرة الاستاذ الامام في بيروت لينشر في الجزء الاول من تاريخنا له ، فرحمهما الله تعالى وحشرنا وإياهما مع (الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

أنباء العالم الإسلامي

فريضة الحج

﴿ ودعاية ملاحدة السياسة الشريفية لتركها بفتاوى يفترونها ﴾

لما ولى الله إمام السنة الملك عبدالعزيز بن سعود أمر حرمه وحرم رسوله لم يجد أعداؤه وسيلة للحيلولة بين العالم الاسلامي وبين رؤية عدله وإقامته لشرع الله وإحيائه لسنة رسوله ﷺ إلا دعوتهم إلى ترك فريضة الحج وهدم هذا الركن العام من أركان الاسلام انتقاماً منه لهدمه هياكل الوثنية التي بنيت على قبور آل البيت والصالحين برغم السنة النبوية

ومن المعلوم من دين الاسلام بالضرورة ان الله فرض الحج بنص كتابه المحكم على من استطاع اليه سبيلا وقال عقب ذلك (ومن كفر فان الله غني عن العالمين) فمن استحل تركه بغير فقد هذا الشرط « الاستطاعة » فهو كافر خارج من دين الاسلام. ولذلك لم تؤثر تلك الدعاية إلا في بعض الجاهلين ، والحجاج يزدادون عاماً بعد عام وينشرون فضل ابن السعود في العالم

وقد علمنا في هذه الايام ان دعاة بيت الملك المفقود من الحجاز جددوا هذه الدعاية نفسها وأرسلوا الكتب من مصر إلى جاوة وسنغافورة وعدن واليمن والهند وسائر الاقطار الاسلامية التي لهم معارف فيها يحثونهم على صد الناس عن الحج بدعوى ان ملك ابن سعود في الحجاز وفي نجد أيضاً على وشك السقوط بانتصار بعض الخارجين عليه في نجد بقيادة ابن الدويش ، ويستندون في هذه الدعوى على ماينشرون في جرائد مصر من الاراجيف ، ولكنهم من جهة أخرى يشيعون أن الدويش هذا متفق مع أولاد الملك حسين والانكليز على ثل عرش ابن سعود ليعيدوا الحجاز إلى الملك حسين أو نجله علي ، فان كانوا واثقين بهذا وبقرب وقوعه فالمعقول أن يدعوا الناس إلى الاقبال على الحج لا على تركه

وقد ورد عليَّ اليوم كتاب من بعض المسلمين الغيورين على دينهم في عدن ذكروا فيه ان دعاة هدم ركن الاسلام العام عادوا إلى الدعاية الاولى بتفنن جديد في الكذب فقد جاء فيه بعد رسم المخاطبة:

« لا يخفاكم يا سيدي انه جاء أخيراً إلى هذه البلدة فرقة من الناس أذلهم الله وأصابهم بداء البغض لجلالة الملك عبد العزيز آل السعود أيده الله، ولا عمل لهم إلا التجول في الاسواق وثلب هذا الملك الجليل الوافر العرض. وكنا لا نلتفت إليهم ولا نأبه بما يقولون حتى ابتدؤا ينشرون الفتاوى بأن الحج لا يجب في هذه الايام بسبب وجود الحكومة النجدية في البلدان المقدسة

« وأخيراً أظهروا للناس أنهم كاتبوكم وأقنعوكم بالادلة وأجبروكم على الموافقة على فتواهم هذه

« أما نحن فاننا أخبر بهم ونعلم انه لا يرضى بقولهم إلا مخبل، ولكن خشينا على عامتنا أن يسرى إليهم هذا الداء - أي داء بغض العرب الناشيء عن بغض مليكها الجليل

« فبادرنا بكتابة هذه الاسطر اليكم راجين منكم جوابا تخدمون به الدين والدولة. ونرجو أن يكون ردكم على صفحات الشورى الغراء لانها أشهر الجرائد هنا وتطلع عليها أكثر أهالي هذه البلدة. وفي الختام اقبلوا فائق الاحترام » اه

(الجواب) كنت أود لو أرسل إليَّ هؤلاء الغيورون نسخة من الفتوى التي أشاروا إليها لنرى على أي قاعدة من قواعد الجهل والكفر استحل هؤلاء المساكين، هدم هذا الركن الاسلامي الركين، وأي نص من نصوص الكتاب والسنة أو من اجتهاد الأئمة أوردوا في فتواهم استدلالا على أن وجود الحكومة السعودية في الحجاز مسقط لفريضة الحج عن المستطيع خلافاً لنص كتاب الله تعالى؟ إذ لا يبعد أن تدل الفتوى على أن فرض استقبال الكعبة المشرفة في الصلاة قد سقط عن المصلين بوجود هذه الحكومة هنالك وولايتها على بيت الله تعالى! فان الجهل ليس له حد يقف عنده

يسهل علينا أن نقنع كل مسلم وإن كان عامياً جاهلا بضلالة هؤلاء الداعين لهم إلى هدم بعض أركان دينهم اتباعاً لأهواء السياسة والملك، إذ لا يجهل أحد

منهم أن الحج من أركان الاسلام المفروضة على كل مستطيع له، وكتاب الله وكتب السنة الصحيحة موجودة بين أيديهم فكذبهم عليها مفضوح ، وإذا كان كذبهم علينا ظاهراً أنكره العقلاء بدلالة عقولهم وها نحن أولاء نظهره لغيرهم على صفحات هذه الجريدة وغيرها — فكيف بكذبهم على الله ورسوله وأئمة المسلمين ؟

وأما الذي يصعب إظهار كذبهم وافترائهم فيه فهو ما يرجفون به في تعظيم أمر ثورة الدويش في نجد على ملكه وإمامه ، وبيان أن ما يتوقعونه من الشر ويفرحون به ليس خيراً لهم بل هو شر لهم ولغيرهم ، ولماذا يصعب إظهار افترائهم فيه ؟ لانهم يدعون أن ما يقوله كل أحد غيرهم كذب ، وان ما يقولونه هم هو الحق والصدق وحده ، فليس علينا إلا أن ننتظر قليلا كما انتظرنا كثيراً في حادثة حصر الامام ابن سعود لجدة والمدينة المنورة وما كانوا يذيعونه من أخبار ضعفه وقرب طرده من الحجاز ، فظهر كذبهم وإرجافهم للعالمين ، والعاقبة للمتقين

(علاوة) هذا ما كتبناه في اليوم الذي وصلت الينا فيه رسالة عدن ونشرناه في جريدة الشورى إجابة لطلبهم ، وقد كتبنا في الجزء الماضي مقالة مستقلة في فتنة نجد : أسبابها ونتيجتها وأهمها الدسائس الشريفية . ومن توفيق الله تعالى لابن السعود حماقة أعدائه وجهل دعاتهم التي تنتهي دائما بظهور خذلان الله تعالى لهم (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون)

(استدراك على التفسير)

﴿ نص التصحيح الذي اشرنا اليه في آخر ص ٤١٨ من هذا الجزء ﴾

(المبحث الثالث) وهو لغوي محض أن لفظ أخ أصله أخوٌ ومثناه أخوان وفي لغة أخان . ويجمع على اخوة واخوان بكسر الهمزة فيهما ، وكل منهما يستعمل في أخوة النسب القريب أي الاخوة من أحد الابوين أو كليهما والنسب البعيد كالجنس والقبيلة وفي اخوة الرضاع وأخوة الدين وأخوة الصداقة ، وقد نطقت هذه الآية باستعمال لفظ الاخوان في أخوة الدين ومثلها في الموالي (فاخوانكم في الدين) وجاء في اخوة الكفر (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) الخ وأما استعمال جمع إخوة في أخوة الدين ففيه قوله تعالى (إنما المؤمنون اخوة) وسائر استعماله في اخوة النسب

اصلاح الازهر والمعاهد الدينية

استبشر طلاب الاصلاح الاسلامي في مصر وجناحيها من الشرق والغرب بما ظهر من الشيخ محمد مصطفى المراغي منذ ولي أمر الازهر من فكر ثاقب، وعقل راجح، وعلم واسع، وهمة عالية، وشجاعة أدبية، ظاهرة، وما انتجت هذه المزايا من قانون للاصلاح مبين لأقوم مناهجه، وأرفع معارجه، وأبعد مقاصده، وما بذل من جهد، وأنفق من وقت، في السعي لاقرار الحكومة إياه، وصدور المرسوم الملكي بتنفيذه. ثم راعهم في آخر يوم أو آخر ساعة من هذه المرحلة ان علموا أن الاستاذ الاكبر قد استقال من منصبه، لان جلالة الملك توقف عن إصدار المرسوم به، فوجمت النفوس، وضاقت الصدور، وأكبر الناس الاستاذ المراغي في استقالته، وعدم مبالاته بجاه المنصب الرفيع وما يتقاضاه من ألوف الجنيهات فيه، أضعاف ما أكبروه فيما أشرنا اليه من مزاياه، إذ به ثبت لهم أن الرجل قد وقف حياته على خدمة دينه وان بذل في سبيله دنياه، وعلى رفعة شأن ملته وأمته، لا على منفعة نفسه وأهله وولده، وان نفسه الزكية نسخة من نفس شيخه الاستاذ الامام، وانه لابد للمسلمين ان يستفيدوا من مواهبه في يوم من الايام. وقد نوهت بذلك الجرائد وعدُّوا استقالته إحدى الكبر، والنذر والعبر

ويظن الكثيرون ان لدسائس خصوم الاصلاح تأثيراً في الصد عنه اليوم كدأبهم بالامس، ولكننا نعلم ان ذلك القانون الاصلاحي هو رغبة جلالة الملك فلا قنوط بما عرض دونه ولا يأس، وقد عادت الحياة الدستورية إلى البلاد، ولن ترضى الامة أن يظل الازهر على ما انتهى اليه أمره من اضطراب

ولما أصر الاستاذ المراغي على استقالته بعد مراجعة أولي الشأن له في الرجوع عنها صدرت إرادة جلالة الملك بجعل صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخاً للازهر ورئيساً للمعاهد الدينية، وهو من تلاميذ الاستاذ الامام أيضاً فلا يخفى عليه شيء من حاجة الازهر الى الاصلاح، ولكنه يؤثر التريث فيما يراه منه ومداراة المعارضين فيه. ونسأل الله تعالى أن يوفقه ويوفق ولاة الامور الى لما فيه الخير للمسلمين، واغتنام الفرص قبل فواتها آمين

تقريظ المطبوعات الجديدة

﴿ كتب التاريخ العصرية في مصر وسورية ﴾

كنا من أول العهد بهجرتنا إلى مصر منذ ثلث قرن نعجب لتقصير المصريين في تأليف كتب لتاريخ هذا القطر وغيره على الطريقة العلمية الحديثة التي درسوها وعرفوا فلسفتها ومناهجها وأساليبها ، ثم زال العجب فرأينا القوم ينسلون للتأليف في أنواع هذا التأريخ من كل حدب . وقد قرظنا في العام الماضي كتاب ﴿حوليات مصر السياسية﴾ لصاحب السعادة صديقنا احمد شفيق باشا ، ثم صدر في هذه الايام ﴿ الحولية الثالثة ﴾ من هذه الحوليات ، وهي تدخل في المجلد السادس من تاريخه الكبير اذ كانت الاولى والثانية في الجزأين ٤ و٥ وهما لحوادث سنتي ١٩٢٤ و١٩٢٥ فالثالثة لحوادث ١٩٢٦ وثمن هذا الجزء ثلاثون قرشاً يضاف اليها أجرة التجليد والبريد لمن طلبه من الخارج وهو يباع في مكتبة المنار

﴿ تواريخ سعادة أمين سامي باشا ﴾

امين سامي باشا عالم نحرير ، ومؤرخ محقق ، ومهذب متدين ، ولعله فاق جميع علماء فن التربية والتعليم عندنا في الجمع بين العلم به والعمل . وقد خدم وزارة المعارف عشرات السنين خدمة جليلة من أهمها نظارة مدرسة دار العلوم التي يتخرج فيها معلمو الدين والفنون العربية في جميع المدارس الاميرية ، فكانت التربية في عهده ، خيراً مما آلت اليه من بعده ، على ما كان من مراقبة الانكليز للمدارس التي كان من مقاصدها الخفية إطفاء نور الاسلام ، والوقوف بالعلم عند حدود التقليد ومظاهر النظام . ولعله لو ظل ناظراً لها إلى اليوم لما تفرنج طلابها في الازياء ، ولما نزعوا العمائم وتركوا الصلاة - لا أقول كلهم ، بل أكثرهم أو كثير منهم

وقد أخرج للناس في شيخوخته كتابين جليلين لم يسبقه إلى مثلهما سابق ، وهيهات أن يدركه في موضوعهما لاحق

﴿ الاول : كتاب التعليم في مصر ﴾ وهو كتاب جامع لما يهم العلماء والخواص معرفته من أحوال التعليم في مصر في العصور الاولى بالاجمال وفي هذا

العصر بالتفصيل . وقد وضع فيه لحالة المدارس في أيامنا احصاء دقيقاً في جداول متنوعة يرى المطلع عليها عدد المشتغلين بالتعليم ونسبتهم إلى الالف على مقدار انتشار التعليم في كل محافظة او مديرية بالنسبة إلى سكانها . وعلى نسبة المصريين والمصريات الذين في مدارس الاجانب ونسبة الاجانب الذين في المدارس المصرية ونسبة المحرومين من التعليم الى المتعلمين من بالغي سن التعليم الاولي والابتدائي إلى غير ذلك من البيانات المفيدة التي تظهر من الجداول الاحصائية الموضوعة بدقة لا يعادلها إلا الحذق في استخراج النتائج منها . وفيه بيان مناهج التعليم كلها ولوائح الشهادات والدبلومات من وقت تقريرها الى الآن ، ويزدان بعشرات من الصور لولاة الامور ووزراء المعارف وأعضاء البعثات التي أرسلتها الحكومة الى أوربة. فهو كتاب لا نظير له ، ولا غنى عنه ، وهو مطبوع في المطبعة الاميرية على ورق جيد من القطع الكامل ومجلد بالقماش تجليداً حسناً وثمنه جنيه مصري

﴿ الثاني : كتاب تقويم النيل وعصر محمد علي باشا ﴾ وهو جزآن : الاول منه مؤلف من مقدمة في ١٣٤ صفحة ما عدا الخرائط تضمنت كل الحقائق المتعلقة بأمر النيل وفيها رسوم (خرائط) ملونة تمثل حركات الرياح وضغط الجو وبحيرة تسانا ومخارج الانهر التي تسبب الفيضان ووقوع الامطار ، ويلي المقدمة المقصد الاول من الكتاب وهو تقاويم النيل من ابتداء السنة الاولى من الهجرة الى سنة ٩٢٢ هـ ٦٢٢م - ١٦١٦ م ويليه المقصد الثاني وهو الفوائد التاريخية الصحيحة وسلسلة تاريخ مصر على التفصيل وتاريخ الخلافة الاسلامية على الوجه العام في ذلك الزمن كله وصفحاته ٢٥١ وهو كسابقه طبعاً وقطعاً وتجليداً وثمنه جنيه مصري

﴿ الجزء الثاني منه ﴾ وهو يشتمل على ما علم من أمر النيل في كل سنة ابتداء من سنة ٩٢٣ هـ لغاية سنة ١٢٦٤ هـ ١٥١٧ م الى ١٨٤٨ م وصحفه حافلة بالفوائد التاريخية المحققة الدقيقة الصحيحة في ذلك الزمن وبالاخص عصر محمد علي باشا الذي أنقذت مصر في عهده من وهدة الانحطاط التركي وارتقت مرتبة عالية من مراتب الرقي وهو مزدان باحدى وخمسين صورة من صور محمد علي باشا وصور رجال عصره النادرة مع نهاية الاتقان والوضوح وصحفه ٦٢٢ صفحة وطبعه كسابقه من كل وجه وثمنه ١٥٠ قرشاً وتطلب هذه الكتب كلها من مكتبة المنار في شارع الانشاء بمصر

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

أنشئ ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صُوى «ومنارا» كمنار الطريق

٣٠ شعبان سنة ١٣٤٨ه‍ ٩ برج الدلو سنة ١٣٠٩ ه‍ ش ٣٠ يناير سنة ١٩٢٩

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

(٢٩) قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ

كان كل ماتقدم من أول السورة في أحكام قتال المشركين ومايتعلق بهم، وهذه الآية في حكم قتال أهل الكتاب والغاية التي ينتهي اليها، وهي تمهيد للكلام في غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب بالشام والخروج اليها في زمن العسرة والقيظ، ومايتعلق بها من فضيحة المنافقين، وهتك الاستار عن إسرارهم الكفر، ومن تمحيص المؤمنين، ولم يقاتل النبي صلى الله عليه وسلم فيها الروم الذين خرج لقتالهم بسببه

الذي سيذكر بعد، وانما حكمة وقوع ذلك بيان هذه الاحكام، والتزييل بين المؤمنين والمنافقين ممن كانت تقع عليهم أحكام الاسلام، قبل وفاته عليه افضل الصلاة والسلام

روى ابن ابي حاتم في تفسيره عن ابن زيد رضي الله عنه في هذه الآية: قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتال من يليه من العرب أمره (تعالى) بجهاد أهل الكتاب

وروى ابن المنذر عن ابن شهاب قال: أنزلت في كفار قريش والعرب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وأنزلت في أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر — إلى قوله — حتى يعطوا الجزية) فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران، قبل وفاته عليه افضل الصلاة والسلام

وروى ابن ابي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ ابن حبان والبيهقي في سننه عن مجاهد قال نزلت هذه الآية حين أمر محمد صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك. وروى ابن ابي شيبة والبيهقي في سننه عن مجاهد أيضاً قال: يقاتل أهل الاوثان على الاسلام، ويقاتل أهل الكتاب على الجزية

وروى ابن ابي شيبة وابو الشيخ عن الحسن قال: قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذه الجزيرة من العرب على الاسلام لم يقبل منهم غيره وكان أفضل الجهاد، وكان بعده جهاد آخر على هذه الآية في شأن أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله) الآية (أقول) وهذا أصح وأدق مما قبله من رأي مجاهد ومن وافقه من الفقهاء في قتال الوثنيين وانه لا فرق بينهم وبين مشركي العرب في الحجاز والجزيرة فقد بينا مراراً أن سياسة الاسلام في عرب الجزيرة خاصة بهم وبها

واعلم أن هذه الآية في قتال أهل الكتاب وما قبلها في قتال مشركي العرب ليس أول ما نزل في التشريع الحربي وانما هو في غايته. وأما اول ما نزل في ذلك فقد بينا مراراً أنه آيات سورة الحج (٢٢: ٣٩ أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا) الخ ثم قوله تعالى من سورة البقرة (٢: ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) الآيات وفي تفسيرها ما اختاره شيخنا من ان القتال الواجب في الاسلام انما شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ولذلك اشترط فيه أن يقدم عليه الدعوة الى الاسلام، وقال ان غزوات النبي صلى الله عليه وسلم كانت كلها دفاعا

وكذلك حروب الصحابة في الصدر الاول ، ثم كان القتال بعد ذلك من ضرورة الملك، وكان في الاسلام مثال الرحمة والعدل (راجع ص ٢١٠ — ٢١٢ ج ٢ تفسير) وسنفصل ذلك بعد تفسير هذه الآية

قال تعالى ﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ﴾ فوصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم باربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للاسلام ووجوب خضوعهم لحكمه في داره لأن إقرارهم على الاستقلال وحمل السلاح فيه يفضي الى قتال المسلمين في دارهم أو مساعدة من يهاجمهم فيها كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي صلى الله عليه وسلم إياهم وجعلهم حلفاءله ، وسمح لهم بالحكم فيما بينهم بشرعهم فوق السماح لهم بأمور العبادة كما تقدم في سورة الانفال (٤٨ - ٦٠ ج ١٠) وكما فعل نصارى الروم في حدود البلاد العربية كما يأتي عند الكلام على غزوة تبوك . وهذه الأمور الاربعة التي أسند اليهم تركها هي أصول الدين الالهي عند كل أمة كما بينه تعالى في آية (٢ : ٦٢) وقد أمر هنا بقتال الذين لايقيمونها عند مايقوم السبب الشرعي لقتالهم حتى يعطوا الجزية بشرطها، فذكر الايمان بالله واليوم الآخر، ووضع تركهم لتحريم ماحرم الله ورسوله وترك الخضوع لدين الحق في موضع العمل الصالح من تلك الآية وسيأتي الكلام فيه

وإنك ترى في بعض كتب التفسير المتداولة أن هذه الآية تدل على عدم ايمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر الخ وزعم بعضهم انها نص في ذلك ، وغرضهم من هذا ان هذه الصفات ليست قيوداً في شرعية قتالهم بل هي بيان للواقع لامفهوم لها فلا يقال انه اذا وجد من أهل الكتاب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويحرم ماحرم الله ورسوله اليهم على المختار من ان المراد بالرسول عند كل منهم رسولهم، ويدين دين الحق باعتقادهم — فانهم لايدخلون في هذا الحكم . وقالوا إن أولئك الذين دلت آية سورة البقرة على إقامتهم لاركان الدين الالهي هم الذين كانوا متبعين لانبيائهم في زمانهم، أو قبل تحريفهم لكتابهم، والابتداع في دينهم حتى الشرك ، أو الذين اتبعوا خاتم الرسل الذي نسخ كتابه الكتب التي قبله، والشرائع المخالفة

لشرعه، بعد بعثته وبلوغ دعوته. وقد بيناهذه الاقوال في تفسير تلك الآية. وصرح الفخر الرازي بأن هذه الصفات السلبية قيود تشترط في قتالهم ولكنهم فاقدون لها فان وجد منهم قوم متصفون بها حرم علينا بدؤهم بالقتال

فأما الايمان بالله تعالى فقد شهد القرآن بأن الفريقين فقدوه بهدم ركنه الاعظم وهو التوحيد، فانهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله يشرعون لهم العبادات والحلال والحرام فيتبعونهم وذلك حق الرب وحده فقد أشركوهم به في الربوبية، ومنهم من اشرك في الالوهية كالذين قالوا عزير ابن الله والذين قالوا المسيح ابن الله أو هو الله، وسيأتي هذا وذاك في هذا السياق من السورة.

وقد توسع الرازي في المسألة بأساليبه الكلامية فقال « التحقيق ان أكثر اليهود مشبهة والمشبه يزعم أن لاموجود إلا الجسم وما يحل فيه فأما الموجود الذي لايكون جسما ولا حالا فيه فهو منكر له وما ثبت بالدلائل ان الاله موجود ليس بجسم ولا حالا في جسم فحينئذ يكون المشبه منكراً لوجود الاله، فثبت أن اليهود منكرون لوجود الاله

«فان قيل فاليهود قسمان منهم مشبهة ومنهم موحدة كما أن المسلمين كذلك فهب أن المشبهة منهم منكرون لوجود الاله فما قولكم في موحدة اليهود؟ قلنا أولئك لايكونون داخلين تحت هذه الآية، ولكن إيجاب الجزية عليهم بأن يقال لما ثبت وجوب الجزية على بعضهم وجب القول به في حق الكل ضرورة انه لاقائل بالفرق » اه بنصه

وهذا الكلام الذي سماه تحقيقاً ليس فيه شيء من التحقيق ولا من العلم الصحيح وانما هو نظريات كلامية مبنية على اصطلاحات جماعة الاشاعرة حتى في الالفاظ المفردة، فالجسم في اللغة هو الشيء الجسيم الضخم. وقال ابن دريد هو كل شخص مدرك، وقال ابو زيد الجسم الجسد وفي التهذيب ما يوافقه قال الجسم مجمع البدن وأعضاؤه من الناس والابل والدواب ونحو ذلك مما عظم من الخلق الجسيم اه من المصباح واليهود لايقولون بان الاله جسم بشيء من هذه المعاني. وتعريفه للجسم بما ذكره غير صحيح لغة ولا اصطلاحا، والاله في اللغة المعبود

واليهود لاتنكر وجود المعبود ، والله هو الرب الخالق لكل شيء واليهود يثبتون هذا وانه واحد لاشريك له ، ولكن لهم أفهاما في نصوص التوراة يختلفون فيها كالمسلمين ، ومنها ماظاهره التشبيه، والذين يسميهم المجسمة من المسلمين ليسوا مجسمة بالمعنى الذي ذكروه وانما يسميهم هو وأمثاله مجسمة لمخالفتهم لامثاله المتكلمين في اثبات ماوصف الله به نفسه بلا تأويل ،ولا تشبيه ولا تعطيل ، وهو من متكلمي التأويل الذي يكفرون من يخالفهم في بعض تأويلاتهم لها بدعوى أن عدم تأويلها يستلزم كونه تعالى جسما ،وهي دعوى باطلة ولازم المذهب ليس بمذهب عند الجمهور ولو لم يصرح صاحبه بنفي اللزوم فكيف اذا صرح به كالسلف ومن تبعهم من الحنابلة الذين ينبزهم أمثاله بلفظ المجسمة بغير علم ولاهدى، وتأويلات امثاله للكثير من تلك الآيات قد تستلزم التعطيل او تخطئة التنزيل، أو قصوره عن بيان عقائد الدين وأصوله بدون كلامهم المبتدع، حتى ان بعضهم حرم قراءتها على العوام كما انزلها الله تعالى غير مقرونة بتأويل يخرجها عن مدلول لغة القرآن، فان كان لازم المذهب مذهباً مطلقا فهم الكافرون

وهو قد انتقل من بحثه في اليهود واختلافهم في فهم صفات الاله إلى اختلاف المسلمين مبتدئا بالاعتراف بان حاصل كلامه « ان كل من نازع في صفة من صفات الله كان منكراً لوجود الله تعالى(قال) وحينئذ يلزم أن تقولوا ان أكثر المتكلمين منكرون لوجود الله لان اكثرهم مختلفون في صفات الله تعالى »وضرب الامثال أولا في اختلاف اصحابه الاشعرية ثم في اختلاف غيرهم، وتحكم في التكفير لبعض المختلفين دون بعض بالنظريات الكلامية الباطلة . وإنما اوردنا كلامه لتنفير المسلمين عن إضاعة الوقت في مثله وفيما رتبه عليه من الحكم الشرعي المتعارض وهو زعمه ان غير المجسمة من اليهود لايدخلون تحت حكم هذه الآية في القتال ولكن يدخلون تحتها في إيجاب الجزية عليهم ، واستدلاله على هذا بأنه لما وجبت الجزية على بعضهم «وجب القول به في حق الكل إذ لا قائل بالفرق» !

ويرد عليه (أولا) أنه لاقائل ايضا بالفرق بين حكم القتال وحكم الجزية الذي هو غاية له فليت شعري ماذا يفعل بهم إذا امتنعوا عن أداء الجزية؟ و (ثانياً) انه لم يقل أحد بما قاله من تقسيم اليهود إلى مجسمة وغير مجسمة وان غير المجسمة لايدخلون في

حكم الآية ، و (ثالثا) انه إذا قام الدليل من القرآن على ثبوت حكم فلا يجوز أن يتوقف قبوله على قول بعض الفقهاء به أو المتكلمين به وجعل عدم نقل ذلك عن احد منهم سببا لتركه !! و (رابعاً) ان الشرك بالله تعالى في العبادة كالدعاء مع الايمان بأنه موجود ليس بجسم ولا حالا في جسم ينافي ايمان الانبياء الذي دعوا اليه ، ولكن النظريات الكلامية صرفته عن ذلك

وما يقال في الموحدين من اليهود يقال في الموحدين من النصاري كاتباع آريوس من المتقدمين والعقليين المعاصرين من أهل أوربة وغيرهم ، ويبقى النظر في سائر ما اشترط في قتالهم

وأما مخالفة جماهير النصارى المسلمين ولسائر كتب الله ورسله في الايمان لله تعالى وما يجب من توحيده فهو ظاهر لايحتاج إلى نظريات كلامية. فأصحاب المذاهب الرسمية منهم كلهم يقولون بألوهية المسيح وربوبيته ويعبدونه جهراً بغير تأويل ويقولون بالتثليث . ومنهم من يعبد أمه مريم وغيرها من الرسل والصالحين وتماثيلهم ، ولا يعدون الموحدين منهم ، وهؤلاء الموحدون لم يبلغوا أن يكونوا أمة ، وأولي دولة ، بل هم متفرقون في جميع أممهم ، مع أن المسيح عليه السلام جاء مصدقاً للتوراة في جميع العقائد وانما نسخ بعض الاحكام العملية ، كما نقل عنه رواة الاناجيل في قوله : « ما جئت لانقض الناموس وانما جئت لأتمم » وأول ركن من أركان التوراة في الايمان التوحيد المطلق والوصية الاولى من وصاياها العشرة التي هي أساس الدين التوحيد ، والنهي الصريح عن اتخاذ الصور والتماثيل . ونقلوا عنه أيضاً أنه قال « وهذه هي الحياة الابدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته » وقد بينا هذا بالتفصيل في تفسير المائدة وكذا تفسير سورتي آل عمران والنساء بالشواهد من كتبهم .

وأما اليوم الآخر فالفريقان يخالفان فيه المسلمين وكذا الموحدون من النصارى فانهم انما يقولون بأن حياة الآخرة روحانية محضة يكون فيها أهلها من الناس كالملائكة ، ونحن نؤمن بان الانسان يكون فيها انسانا لا تنقلب حقيقته ، بل يبقى مؤلفاً من جسد وروح ويتمتع الكاملون الناجون بجميع نعيم الارواح والاجساد ،

وليس في التوراة التي في أيدي اليهود والنصارى بيان صريح للبعث والجزاء بعد الموت وانما فيها وفي مزامير داود اشارات غير صريحة

وأما كونهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ففيه قولان للمفسرين. أحدهما أن المراد به ما حرم في شرعنا ، ويرد عليه أنه لا يعقل أن يحرموا على أنفسهم ماحرم الله ورسوله علينا إلا اذا أسلموا ، وانما الكلام في أهل الكتاب لا في المسلمين العاصين ، (والثاني) أنه ما حرم في شرعهم الذي جاء به موسى ونسخ بعضه عيسى عليهما السلام ، وحينئذ يكون المراد به في اليهود أنهم لا يلتزمونه كله بالعمل كاتباعهم عادات المشركين في القتال والنفي ومفاداة الاسرى [1] الذي قال تعالى فيه لهم (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) واستحلالهم لأكل أموال الناس بالباطل كالربا وغير ذلك. والمراد به في النصارى أنهم استباحوا ماحرم عليهم في التوراة مما لم ينسخه الانجيل واتبعوا مقدسهم بولس في اباحة جميع محرمات الطعام والشراب فيها إلا الميتة والدم وما ذبح للاصنام ، وقوله في تعليله ان ما يدخل الفم لا ينجس الفم وانما ينجسه ما يخرج منه . وحرم الزنا من غير الطعام . وهذا بعض ما يقال في النصارى في عصر التنزيل ، وأما نصارى هذا الزمان ولا سيما أهل أوربة فانهم أبعد خلق الله عن كل مافي أناجيلهم من الزهد والسلم والتقشف كما بينا ذلك مراراً . ولكنهم بعد الاسراف في الشهوات ، والطغيان في العدوان ، والالحاد في الديان ، طفقوا يبحثون في حقيقة الاديان ، فتظهر لهم أنوار الاسلام ، والمرجو أن يهتدوا به في يوم من الايام

اختار السيد الآلوسي القول الاول وضعف الثاني فقال في تفسير الجملة : المراد به أي ماثبت تحريمه بالوحي متلواً وغير متلو، فالمراد بالرسول نبينا ﷺ وقيل رسولهم الذين يدعون اتباعه فانهم بدلوا شريعته وأحلوا وحرموا من عند أنفسهم اتباعاً لأهوائهم فيكون المراد لا يتبعون شريعتنا ولا شريعتهم ، ومجموع الامرين سبب لقتالهم ، وإن كان التحريف بعد النسخ ليس علة مستقلة اه

(١) راجع الآية ٨٤ و ٨٥ من سورة البقرة وتفسيرهما في ص ٣٦١ ج ١

واختار السيد محمد صديق حسن الثاني فقال في فتح البيان (ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله) مما ثبت في كتبهم فان الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها . قال سعيد بن جبير في الآية : يعني لا يصدقون بتوحيد الله وما حرم الله من الخمر والخنزير . وقيل معناه لا يحرمون ما حرم الله في القرآن ولا ما حرم رسوله في السنة . والاول أولى. وقيل لا يعملون بما في التوراة والانجيل بل حرفوهما وأتوا بأحكام من قبل أنفسهم ، وقلدوا أحبارهم ورهبانهم فاتخذوهم أربابا من دون الله اه

وأما كونهم لا يدينون دين الحق فمعناه على القول الاول فيما قبله انهم لا يدينون الله بدينه الحق الكامل الاخير المكمل والمبين لما اختلفوا فيه من قبل، والناسخ لما لا يصلح للبشر منه فيما بعد ، وهو الاسلام . يقال دان دين الاسلام أو غيره ودان به . ومعناه على القول الثاني ان الدين الذي يتقلده كل منهم انما هو دين تقليدي وضعه لهم أحبارهم وأساقفتهم بآرائهم الاجتهادية وأهوائهم المذهبية لا دين الله الحق الذي أوحاه إلى موسى وعيسى عليهما السلام . ذلك بأن اليهود لم يحفظوا ما استحفظوا من التوراة التي كتبها موسى وكان يحكم بها هو والنبيون من بعده ، ويخالفهم الفاسقون الناقضون لعهده الذي أخذه عليهم قبل موته ، إلى أن عاقبهم الله تعالى بتسليط البابليين عليهم فجاسوا خلال الديار ، وأحرقوا الهيكل وما فيه من تلك الاسفار ، وسبوا بقية السيف منهم ، وأجلوهم عن وطنهم إلى أرض مستعبديهم ، فدانوا لشريعة غير شريعتهم ، ولما أعتقوهم من الرق ، وأعادوهم إلى تلك الارض ، وكانوا قد فقدوا نص التوراة وإنما حفظوا بعضها دون بعض ، كتبوا ما حفظوا من شريعة الرب ، ممزوجا بما دانوا من شريعة ملك بابل كما امر كاهنهم عزرا (عزيرا) ثم انهم حرفوا وبدلوا ولم يقيموها كما أمروا

وكذلك النصارى لم يحفظوا كل ما بلغهم عيسى عليه السلام من العقائد والوصايا والاحكام القليلة الناسخة لبعض تشديدات التوراة وهو دين الله الحق بل كتب كثيرون منهم تواريخ له أودعها كل كاتب منهم ما عرفه من ذلك ومن غيره ، فجاءت المجامع الرسمية بعد ثلاثة قرون فاعتمدت أربعة اناجيل من زهاء

سبعين انجيلا رفضتها وسمتها [ابو كريف] اي غير قانونية ، وقد وصل الينا انجيل القديس برنابا منها وهو من أصحاب المسيح ورسله لهداية الناس فاذا فيه من أصول التوحيد والصفات الالهية والحكم والمواعظ العالية ما يفوق ما في الأربعة القانونية

ثم انهم نقضوا شريعة التوراة من بعده وأخذوا بتعاليم بولس كما تقدم وهو فيلسوف يهودي تنصر بعد المسيح وقبل تنصره الحواريون الذين يسمونهم [الرسل] بشفاعة برنابا لانه كان عدواً لهم مع انهم ينقلون عن المسيح انه قال: ماجئت لأ نقض الناموس وانما جئت لأ تمم . والناموس هو شريعة موسى ، وهذا موافق لما حكاه الله تعالى عنه بقوله في سورة آل عمران (٣ : ٤٩ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) وانما قال (لما بين يدي من التوراة) اي الشريعة لان بعضها كان فقد باحراق البابليين لنسخة موسى التي كتبها بيده كما ذكرنا آنفا وتقدم من قبل مفصلا . ولم يكتف النصارى بهذا بل وضع لهم أحبار رومية وغيرهم من اساقفتهم ورهبانهم شرائع كثيرة في العبادات والحلال والحرام يخالف فيها كل فريق منهم مذهب الآخر

يقول الله تعالى فيما ذكرناه آنفاً عن اهل الملتين بعد ذكر ما أخذه على أمة موسى من الميثاق من سورة المائدة (٥ : ١٤ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين ١٥ ومن الذين قالوا إنا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وفي الآيتين من الحقائق التي كانت مجهولة ومن أخبار الغيب عن الماضي والمستقبل ما يعد من حجج القرآن على انه وحي من الله ليس للنبي الأمي صلى الله عليه وسلم منه إلا تبليغه والعمل به

فعلم من هذا ان كلا منهم نسي حظاً عظيما مما ذكرهم به نبيهم ولم يعملوا بالبعض الآخر كله ، بل اكثر عباداتهم وما يسمى الطقوس والناموس الادبي هو من وضع احبارهم ورهبانهم كما سيأتي قريباً في تفسير (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وانما كان دين الحق عندهم ما جاءهم به موسى وعيسى عليهما السلام ، ولو

انهم حفظوه وأقاموه كما انزل اودانوا بما حفظوا منه دون غيره لهداهم إلى اتباع المصلح الأعظم الذي بعثه الله تعالى مكملا لدينه ولا تزال بشارات أنبيائهم به محفوظة فيما بقي لهم من كتبهم، وهو محمد خاتم النبيين صلوات الله عليهم أجمعين

فقوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب) بعد ماتقدم من الصفات السلبية بيان للمراد من المتصفين بها، والمراد بالكتاب جنس الكتاب الالهي الذي يشمل التوراة والانجيل وزبور داود وغيرها، ولكن لقب «اهل الكتاب» و «الذين أوتوا الكتاب» وإن كان لفظه عاماخص به اليهود والنصارى لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين عندها كما قل تعالى مخاطباً لمشركي العرب (٦: ١٥٦ أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين) وفي نصوص القرآن الصريحة ان الله تعالى أرسل رسلا في جميع الأمم يأمرونهم بعبادته تعالى وحده وباجتناب الطاغوت وينذرونهم يوم الجزاء، وان منهم من قصه على خاتم الانبياء والمرسلين في كتابه ومنهم من لم يقصص عليه، ومن المعقول أن يكون أولو الحضارة منهم كالصينيين والهنود والفرس والمصريين واليونان قد كتبوا كلهم أو بعضهم ماأوحي الى رسلهم فضاع بطول الأمد أو خلط بغيره ولم يعد أصله معروفا، واذا كان اليهود والنصارى قد كان من أمر كتبهم ماعلمنا من ضياع بعضها وانقطاع سند مابقي منها والعهد قريب، فلا غرو أن يكون ماسبقها من الكتب أضيع ـ والعهد بعيد أي بعيد

وقد ذكر الله تعالى الصابئين والمجوس منهم في كتابه لاتصال بلادهم ببلاد العرب فلم يدخلهم في عموم المشركين ولا نظمهم في سلك أهل الكتاب، لانه جعل لقب المشركين خاصاً بوثني العرب، ولقب اهل الكتاب خاصاً باليهود والنصارى، وإن كان قد دخل عليهم الشرك، والتاريخ يدل على ان الفريقين كانا أهل كتاب، أما الصابئون فقد ذكروا مع المؤمنين واليهود والنصارى في آية سورة البقرة (١: ٦٢) وآية سورة المائدة (٥: ٧٢) وأما المجوس فقدذكروا مع أولئك كلهم في قوله تعالى من سورة الحج (٢٢ : ١٦ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم

القيامة إن الله على كل شيء شهيد) فقد جعل المجوس قسما مستقلا ، وجاءت السنة بمعاملتهم كأهل الكتاب في انتهاء قتالهم بالجزية ، فدل ذلك على انهم كانوا أهل كتاب وإن لم يحفظ منه مايصحح اطلاق اللقب عليهم ، وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه وجزم به الشافعي في الأم ، والصابئون أولى بذلك منهم ، كما يؤخذ من آيتي البقرة والمائدة المشار اليهما آنفا

﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ هذه غاية للأمر بقتال اهل الكتاب ينتهي بها اذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود مايقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد امنكم وسلامتكم ، كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك حتى تأمنوا عدوانهم باعطائهم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما ، فالقيد الاول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أي قدرة وسعة ، فلا يظلمون ويرهقون ، والثاني لكم وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم الى الاسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التي يرونكم أقرب بها إلى هداية أنبيائهم منهم . فان أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل ولم يكونوا حائلا دونهما في دار الاسلام . والقتال لما دون هذه الاسباب التي يكون بها وجوبه عينياً أولى بأن ينتهي باعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم بالشروط التي تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم مالا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون أهل الذمة لان كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وأما الذين يعقد الصلح بيننا وبينهم بعهد وميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين وتقدم بيان ذلك في تفسير سورة الانفال[1] ولا بأس بأن نبسط القول في مسألة الجزية لتقصير المفسرين في بيانها فنقول :

---

(١) راجع القواعد ٦ — ٩ ص ١٤٠ و ١٤١ ج ١٠ تفسير وما تحيل عليه من الآيات

﴿ فصل في حقيقة الجزية والمراد منها ﴾

الجزية ضرب من الخراج يضرب على الاشخاص لا على الارض ، جمعها جزى كسدرة وسدر ، واليد السعة والملك أو القدرة والتمكن ، والصغار (بالفتح) والصغر (كعنب) وهو ضد الكبر ويكون في الامور الحسية والمعنوية والمراد به هنا الخضوع لأحكام الاسلام وسيادته الذي تصغر به انفسهم لديهم بفقدهم الملك ، وعجزهم عن مقاومة الحكم . قال الراغب الصاغر الراضي بالمنزلة الدنية . وقال الامام الشافعي (رح) في الام : وسمعت عدداً من اهل العلم يقولون الصغار أن يجري عليهم حكم الاسلام اهـ ومن المفسرين من قال في الآية اقوالا يأباها عدل الاسلام ورحمته

وظاهر كلام اللغويين والمفسرين ان لفظ الجزية عربي محض من مادة الجزاء وهل هي جزاء حقن الدم ، أو جزاء الحماية لهم والدفاع عنهم من غير تكليفهم التجند للقتال معنا ، او جزاء إعطاء الذمي حقوق المسلمين ومساواتهم بأنفسهم في حرية النفس والمال والعرض والدين ؟ وجوه ، أضعفها أولها وسيأتي بسط القول في ثانيها

قال صاحب اللسان : والجزية خراج الارض وجزية الذمي منه . الجوهري : والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة والجمع الجزى مثل لحية ولحى ، وقد تكرر في الحديث ذكر الجزية في غير موضع وهي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذمة ، وهي فعلة من الجزاء كأنها جزت عن قتله . ومنه الحديث « ليس على مسلم جزية »(١) أراد ان الذمي اذا أسلم وقد مر بعض الحول لم يطالب من الجزية بحصة ما مضى من السنة . وقيل أراد ان الذمي اذا اسلم وكان في يده ارض صولح عليها خراج توضع عن رقبته الجزية وعن أرضه الخراج الخ

وقد حقق شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني الهندي (رح) في رسالة له نشرت في المجلد الاول من المنار ان لفظ الجزية معرب وأصله فارسي [كزيت] وأن معناها الخراج الذي يستعان به على الحرب ، وأورد على الاول بعض الشواهد من الشعر الفارسي ثم ذكر ان في المسألة احتمالين (أحدهما) ان هذا اللفظ وجد في اللغتين

١) رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس وصححوه

فالأولى ان يقال انه مما اتفقتا فيه وتوافق اللغات في الامور التي توجد معانيها عند الامم الناطقة بها شائع معروف (والثاني) ان الكلمة أصيلة في الفارسية دخيلة في العربية كأمثالها مما اخذه العرب من مجاوريهم من الفرس وهضمها لغتهم ، واستدل على ذلك بأمور منها ما لا يدل على الدعوى دلالة صحيحة كثبوت أخذ العرب عن العجم بعض الالفاظ كالكوز والابريق والطست ، وكزعمه ان العرب لم يتفق لهم وضع ألفاظ للمعاني الخاصة بالمدنية والعمران كالوزير والصاحب والعامل والتوقيع لما كانوا عليه من البؤس وعدم الاستيلاء والاستعباد لغيرهم من الامم ، والاول حق غير دال ، والثاني باطل في نفسه فعدم دلالته على ماذكر اولى . والحق ان كل امة تجاور امة وتخالطها تأخذ شيئاً من لغتها فتعتاده فيدخل في لغتها وإن كان عندها مرادف له وهذا ماوقع بين العرب والعجم ومعرفة السابق لبعض الالفاظ المشتبهة من الامتين فيه عسر شديد ، وقد سبق للعرب مدنيات قديمة في جزيرتهم وفي العراق الذي جاوروا فيه الفرس في تاريخهم الحديث ، فقوله « ولما كانت الجزية ايضاً من خصائص الملكية كفوا مؤنة وضع لفظ بازائها » محتمل غير حقيق . وأقوى منه مابعده وهو مفيد سواء كان اللفظ اصيلا في العربية او معرباً دخيلا لانه بيان للمعنى المراد من اللفظ بدلالة الاستعمال فننقله بنصه وهو:

(ومنها) ان الحيرة — وكانت منازل آل نعمان — كانت تدين للعجم وتؤدي اليهم الاتاوه والخراج ، ولما كان كسرى أنوشروان هو الذي سن الجزية أولا كما نبينه فيما سيأتي يغلب على الظن ان العرب أول ماعرفوا الجزية في ذلك العهد وتعاوروا اللغة العجمية بعينها . ومن مساعدة الجد أن اللفظ كانت زنته زنة العربي فلم يحتاجوا في تعريبه الى كبير مؤنة بعد ما أبدل كافها جيما صارت كأنها عربي الاصل والنجار . ومع هذه كلها فان هذا البحث لايهمنا ولا يتعلق به كبير غرض فان اثبات ما نحن بصدده لايتوقف على الكشف عن حقيقة اللفظ فنحن في غنى عن إطالة الكلام وإسهابه في أمثال هذه الابحاث

(الثاني) أول من سن الجزية فيما علمنا كسرى أنوشروان وهو الذي رتب أصولها وجعلها طبقات . قال الامام العلامة المحدث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

يذكر ما فعله كسرى في أمر الخراج والجزية : وألزموا الناس ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والمرازبة والكتاب ومن كان في خدمة الملك وصيروها على طبقات اثني عشر درهماً وثمانية وستة وأربعة بقدر إكثار الرجل أو إقلاله ولم يلزموا الجزية من كان أتى له من السن دون العشرين وفوق الخمسين »

ثم قال « وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس » وقال المؤرخ الشهير أبو حنيفة احمد بن داود الدينوري — وهو أقدم زمانا من الطبري — في كتابه الاخبار الطوال في ذكر كسرى أنوشروان «ووظف الجزية على أربع طبقات وأسقطها عن أهل البيوتات والمرازبة والاساورة والكتاب ومن كان في خدمة الملك ، ولم يلزم أحداً لم تأت له عشرون سنة أو جاوزوا الخمسين »

ومن وقف على هذه النصوص يظهر له ان الجزية مأثورة من آل كسرى وان الشريعة الاسلامية ليست بأول واضع لها وان كسرى رفع الجزية عن الجند والمقاتلة وان عمر بن الخطاب اقتدى بهذه الوضائع

أما المعنى الذي توخاه كسرى في هذا الاستثناء فبينه العلامة ابن الاثير في كتابه الكامل ناقلا عن كلام كسرى فقال «ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتلة أجراء لاهل العمارة وأهل العمارة أجراء للمقاتلة فانهم يطلبون أجورهم من اهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ومجاهدتهم عمن وراءهم، فحق على اهل العمارة أن يوفوهم أجورهم فان العمارة والأمن والسلامة في النفس والمال لايتم إلا بهم ورأيت أن المقاتلة لايتم لهم المقام والأكل والشرب وتثمير الاموال والاولاد إلا بأهل الخراج والعمارة فأخذت للمقاتلة من اهل الخراج مايقوم بأودهم وتركت على اهل الخراج من مستغلاتهم مايقوم بمؤنتهم وعمارتهم ولم أجحف بواحد من الجانبين»

وحاصله انه يجب على كل فرد من افراد الملة المدافعة عن نفسه وماله فمن كان يقوم بهذا العبء بنفسه فليس عليه شيء — وهؤلاء أهل الجند والمقاتلة — وأما من كان يشغله أمر العمارة وتدبير الحرث عن المخاطرة بالنفس فيحق عليه أن يؤدي شيئاً معلوما في كل سنة يصرف في وجوه حمايته والدفاع عنه — وهذا هو المعني بالجزية

فانها تؤخذ من اهل العمارة وتعطى للمقاتلة والجند الذين نصبوا أنفسهم لحماية البلاد واستتباب وسائل الأمن والسلامة لكافة العباد

(الثالث) أن الشريعة الاسلامية وإن لم يكن شأنها شأن الملكية والسلطنة بل الغاية التي توخاها الشرع ليست الا تكميل النفس وتطهير الاخلاق والحث على الخير والردع عن الاثم ، ولكن لما كانت هذه الامور يتوقف حصولها على نوع من السياسة الملكية لم تكن الشريعة لتغفل عنها كايا فاختارت جملة من الوضائع تكون مع سذاجتها كافلة لانتظام أمر الناس واصلاح ارتفاقاتهم

ومن ذلك الجهاد والقتال المقصود بهما الذب عن حمى الاسلام والدفع عن بيضة الملك وازاحة الشر وبسط الامن واستتباب الراحة فجعل الجهاد فرضاً محتوما على كل أحد ممن دخل في الاسلام اما كفاية وهذه اذا لم يكن النفير عاما ، وعيناً اذا هاجم العدو البلد وعم النفير . قال في الهداية الجهاد فرض على الكفاية اذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين فان لم يقم به أحد أثم جميع الناس بتركه الا أن يكون النفير عاما فحينئذ يصير من فروض الاعيان

فالمسلم لايخلو من إحدى الخطتين إما مرتزق وهو من دخل في العسكر ونصب نفسه للقتال أو متطوع وهو من لم يأخذ نصيبه من الجهاد ولكن اذا جاءت الطامة ووقع النفير لايمكنه الاعتزال عن القتال والتنحي عنه بل عليه أن يدخل فيما دخل المسلمون طوعا أو كرهاً

واذا كان من المسلم الثابت أن المرتزق والمتطوع سيان في الحقوق الكلية التي تمنح للعسكر كان من الحق الواضح أن يعفى المسلمون كلهم من ضريبة الجزية ، أما أهل الذمة فما كان يحق للاسلام أن يجبرهم على مباشرتهم القتال في حال من الاحوال بل الامر بيدهم إن رضوا بالقتال عن أنفسهم وأموالهم عفوا عن الجزية وان أبوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقل من أن يسامحوا بشيء من المال وهي الجزية ، ولعلك تطالبني باثبات بعض القضايا المنطوية في هذا البيان أي اثبات ان الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين إلا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم وان الذميين لو دخلوا في الجند او تكفلوا

أمر الدفاع لعفوا عن الجزية فان صدق ظني فاصغ إلى الروايات التي تعطيك الثلج في هذا الباب وتحسم مادة القيل والقال.

(فمنها) ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وأوغل فيها وهذا نصه: « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه: إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة وما منعناكم (أي حميناكم) فلنا الجزية وإلا فلا ؟ كتب سنة اثنتي عشرة في صفر »

(ومنها) ما كتب نواب العراق لأهل الذمة وهاك نصه « براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها خالد والمسلمون . لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكنتم . أمانكم أمان ، وصلحكم صلح ، ونحن لكم على الوفاء » .

(ومنها) ما كتب أهل ذمة العراق لأمراء المسلمين وهذا نصه « انا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد على ان يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم »

(ومنها) المقاولة التي كانت بين المسلمين وبين يزدجرد ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الاسلام وكان هذا في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب وكان من جملة كلام نعمان الذي كان رئيس الوفد « وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم ».

(ومنها) المقاولة التي كانت بين حذيفة بن محصن وبين رستم قائد الفرس وحذيفة هو الذي أرسله سعد بن ابي وقاص وافداً على رستم في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب وكان في جملة كلامه « او الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك » فانظر إلى هذه الروايات الموثوق بها كيف قارنوا بها بين الجزية والمنعة وكيف صرح خالد في كتابه بأنا لا نأخذ منكم الجزية إلا إذا منعناكم ودفعنا عنكم وإن عجزنا عن ذلك فلا يجوز لنا أخذها.

وهذه المقاولات والكتب مما ارتضاها عمر وجل الصحابة فكان سبيلها سبيل المسائل المجمع عليها . قال الامام الشعبي وهو أحد الأئمة الكبار أخذ « أي سواد العراق » عنوة وكذلك كل أرض الا الحصون فجلا أهلها فدعوا إلى الصلح

والذمة فأجابوا وتراجعوا فصاروا ذمة وعليهم الجزاء ولهم المنعة، وذلك هو السنة كذلك منع رسول الله ﷺ بدومة

ولا تظنن ان شرط المنعة في الجزية انما كان يقصد به مجرد تطييب نفوس أهل الذمة واسكان غيظهم ولم يقع به العمل قط، فان من أمعن النظر في سير الصحابة واطلع على مجاري أحوالهم عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهدا ولا ذكروا شرطا الاوقد عضوا عليها بالنواجذ، وأفرغوا الجهد في الوفاء بها، وكذلك فعلهم في الجزية التي يدور رحى الكلام عليها - فقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن مكحول أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيونا للمسلمين على اعدائهم، فبعث أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بان الروم قد جمعوا جمعاً لم ير مثله، فاتى رؤساء أهل كل مدينة الأمير الذي خلفه أبو عبيدة عليهم فاخبروه بذلك، فكتب والى كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة الى أبي عبيدة يخبره بذلك، وتتابعت الاخبار على أبي عبيدة فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين فكتب أبو عبيدة الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ماجبي منهم من الجزية والخراج، وكتب اليهم أن يقولوا لهم انما رددنا عليكم اموالكم لانه قد بلغنا ماجمع لنا من الجموع، وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وانا لانقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم. فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا «ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقي حتى لايدعوا شيئا»

وقال العلامة البلاذري في كتابه فتوح البلدان: حدثني أبو جعفر الدمشقي قال حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك، ردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج قالوا «قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على امركم» فقال اهل حمص «لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن

المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص الاان نغلب ونجهد . فاغلقوا الابواب وحرسوها ، وكذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا على ما كنا عليه ، والا فانا على امرنا مابقي للمسلمين عدد

وقال العلامة الازدي في كتابه فتوح الشام يذكر اقبال الروم على المسلمين ومسير أبي عبيدة من حمص « فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من اهل البلد ما كنا أخذنا منهم فانه لاينبغي لنا إذ لا نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً ، وقل لهم نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح ولا نرجع عنه إلا ان ترجعوا عنه ، وانما رددنا عليكم اموالكم لأنا كرهنا ان نأخذ اموالكم ولا نمنع بلادكم » فلما اصبح امر الناس ان يرتحلوا الى دمشق. ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا اخذوا منهم المال فأخذ يرده عليهم ، واخبرهم بما قال ابو عبيدة وأخذ اهل البلد يقولون « ردكم الله الينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ، ولكن والله لو كانوا هم ماردوا الينا بل غصبونا واخذوا مع هذا ماقدروا عليه من اموالنا » وقال ايضاً يذكر دخول أبي عبيدة دمشق « فاقام ابو عبيدة بدمشق يومين وأمر سويد بن كلثوم القرشي ان يرد على اهل دمشق ما كان اجتبى منهم الذين كانوا أمنوا وصالحوا ! فرد عليهم ما كان اخذ منهم ، وقال لهم المسلمون نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم ونحن معيدون لكم امانا »

أما ماادعينا من ان اهل الذمة اذا لم يشترطوا علينا المنعة او شاركونا في الذب عن حريم الملك لايطالبون بالجزية أصلا فعمدتنا في ذلك ايضاً صنيع الصحابة وطريق عملهم فانهم اولى الناس بالتنبه لغرض الشارع واحقهم بادراك سر الشريعة . والروايات في ذلك وإن كانت جمة نكتفي هنا بقدر يسير يغني عن كثير

(فمنها) كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبان واهل دهستان وهاك نصه بعينه « هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان واهل دهستان وسائر اهل جرجان ، إن لكم الذمة وعلينا المنعة على ان عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في

معونته عوضاً عن جزائه، ولهم الأمان على انفسهم واموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيء من ذلك. شهد سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة ابن النهاس وكتب في سنة ١٠٨ اه (طبري ص ٢٦٥٨)

(ومنها) الكتاب الذي كتبه عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصه:

« هذا ما اعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب امير المؤمنين اهل اذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على انفسهم واموالهم ومللهم وشرائعهم على ان يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ومن حشر[1] منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن اقام فله مثل ما لمن اقام من ذلك اه (طبري صحيفة ٢٢٦٢)

ومنها العهد الذي كان بين سراقة عامل عمر بن الخطاب وبين شهر براز كتب به سراقة الى عمر فأجازه وحسنه وهاك نصه:

«هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل امير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والارمن من الأمان أعطاهم امانا لانفسهم واموالهم وملتهم أن لا يضاروا ولا ينقضوا وعلى ارمينية والابواب الطرّاء منهم والتنّاء[2] ومن حولهم فدخل معهم ان ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل امر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحا على ان توضع الجزاء عمن اجاب الى ذلك ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على اهل أذربيجان من الجزاء فان حشروا وضع ذلك عنهم. شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبدالله. وكتب مرضي بن مقرن وشهد اه (طبري صحيفة ٢٦٦٥ و ٢٦٦٦

(ومنها) ما كان من أمر الجراجمة وقد أتى العلامة البلاذري على جملة من تفاصيل احوالهم فقال حدثني مشايخ من أهل انطاكية ان الجراجمة من مدينة على جبل لكام عند معدن الزاج فيما بين بيامن وبوقا يقال لها الجرجومة وان أمرهم كان في استيلاء الروم على الشام وانطاكية إلى بطريق انطاكية وواليها فلما قدم ابو عبيدة

(١) الحشر هنا جمع الناس وسوقهم للقتال أو مساعدة المقاتلة

(٢) الطراء الغرباء الذين يطرءون جمع طارىء والتناء المقيمون

انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على انفسهم فلم يتنبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم ثم ان اهل انطاكية نقضوا وغدروا فوجه اليهم ابو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلم الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله اهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على أن يكونوا اعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام، وان لا يؤخذوا بالجزية » ثم ان الجراجمة مع انهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤخذوا بالجزية قط حتى ان بعض العمال في عهد الواثق بالله العباسي ألزمهم جزية رءوسهم فرفعوا ذلك الى الواثق فامر باسقاطها عنهم . اه

وقد اختصر النعماني رحمه الله خبر الجراجمة بقوله : ثم ان الجراجمة الخ وفي سائر خبرهم في البلاذري من غدرهم ونقضهم للعهد ومظاهرتهم للعدو وحسن معاملة الأمويين والعباسيين لهم ولغيرهم مايفتخر به التاريخ الاسلامي العربي بالعدل والفضل . والشاهد هنا وضع الجزية عنهم بعد تكرار غدرهم

﴿ غلط واستدراك ينبغي تصحيحه وتداركه ﴾

(في تفسير هذا الجزء)

في س ٩ صفحة ٤٨٦ كلة ولسائر تصويبها ولجميع . ويزاد في آخر سطر من هذه الصفحة مانصه : وتكون أرواحهم أقوى

وفي س ١٢ ص ٤٨٧ استثناء صوابه (الا ماذبح للاصنام) فيرمج منه « الميتة والدم » ويرمج من س ١٣ منها جملة : وحرم الزنا من غير الطعام . وقد صححنا هذه المسالة في التفسير المجرد من المنار بمانصه :

واتبعوا مقدسهم بولس في إباحة جميع محرمات الطعام والشراب فيها إلاماذبح للاصنام اذا قيل للمسيحي انه مذبوح لوثني فيراعى ضمير القائل أمامه ، وعلله بان كل شيء طاهر للطاهرين وان مايدخل الفم لا ينجس الفم وانما ينجسه مايخرج منه.

فتاوى المنار

جوابنا عن أسئلة الربا في الفتوى الهندية

أشهد أن رسالة الاستفتاء في مسألة الربا رسالة نفيسة ، وأن كاتبها المستفتي المفتي قد حقق الموضوع أحسن تحقيق في مذهب الحنفية ، فهو حقيق بأن يعد بها مجتهداً في المذهب — لا في الكتاب والسنة — على سعة اطلاعه في التفسير والحديث . وإننا نبين رأينا مجملا مختصراً في المسائل الاربع التي لخص بها الرسالة وأفتى فيها وعرض فتواه على علماء المسلمين في الأمصار مستفتياً عنها ، ثم نعود إلى تحقيق البحث بما أرانا الله تعالى من فقه الاسلام ، غير مقيد بمذهب من مذاهب أئمته الاعلام ، لان الموضوع من المسائل التي تنازعوا فيها في جملتها والله تعالى يقول (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) وأخونا العلامة الهندي الفقيه الحنفي قد حاول هذا وأراده ولكنه نظر في أدلة الكتاب والسنة بمنظار الفقه الذي انطبع في نفسه وغلبت عليه ملكته ، فأقول متوجهاً الى الله تعالى داعياً ضارعاً أن يلهمني الصواب . ويؤتيني الحكمة وفصل الخطاب :

﴿ الفتوى الأولى ﴾

(قال) الربا المذكور (يعني في آية البقرة) مجمل عند الاحناف وغيرهم من الائمة ، حتى يصح أن يقال اتفقت عليه الامة ، وحديث عبادة وغيره تفسير له عند الجمهور

(أقول) قوله ان الربا المذكور مجمل عند الاحناف صحيح وقوله باتفاق الامة عليه غير صحيح ، وقوله إن حديث عبادة و غيره « الحنطة بالحنطة » تفسير له غير مسلم ، بل المتبادر منه بحسب القواعد ان الالف واللام فيه للعهد ،

والمعهود من الربا عند المخاطبين به في عصر التنزيل شيئان (الاول) ربا الجاهلية الذي وضعه وأبطله النبي (ص) وجعله تحت قدميه كدماء الجاهلية وثاراتها ، وهذا ما سمي في اصطلاح النحاة بالعهد الخارجي (الثاني) قوله تعالى (٣ :١٣ يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) فهو قد نزل قبله بلا نزاع لانهم قالوا ان آيات أواخر سورة البقرة في الربا وقوله تعالى بعدها (واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) الآية آخر مانزل من القرآن، وان عمر رضي الله تعالى عنه قال ان رسول الله (ص) توفي ولم يفسرها لنا. ولو كان حديث عبادة وغيره تفسيراً لها لما قال عمر هذا وهو من رواة هذا الحديث والعاملين بمضمونه كما هو مقرر في كتب السنة . وانما يعني (رض) أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يقل فيها شيئاً زائداً على ما كانوا يعلمونه من آية سورة آل عمران ومن ربا الجاهلية وابطاله (ص) له وهذا الربا هو الربا الذي يصدق عليه تعليل التحريم بقوله تعالى (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون) والقاعدة ان المعرفة اذا أعيدت يكون المراد بالثاني عين الاول

﴿ الفتوى الثانية ﴾

(قال) « الربا هو الفضل الخالي عن العوض في البيع » وذكر أن الفقهاء زادوا فيه قيد « المشروط » وأنه لا حاجة اليه . واستدل عليه بحديث عبادة وبالآية بناء على تفسير الحديث المذكور لها

(أقول) هذا الحد غير مسلم لان مابني عليه وجعل دليلا له غير مسلم كما تقدم ، وقد ذكرهو في رسالته كغيره حدوداً أخرى أعم منه حتى علماء الحنفية أنفسهم لم يقيدوا فيها الربا بالبيع

﴿ الفتوى الثالثة ﴾

قال : « النفع المشروط في القرض ليس هو ربا منصوصاً لعدم ثبوته من القرآن ومن حديث صحيح »

(أقول) لو كان يريد بكونه غير منصوص نص القرآن لسلمنا قوله فان ربا القرآن خاص بربا النسيئة الذي تكون الزيادة فيه لأجل تأخير الدين لا في العقد الاول فان الزيادة فيه عوض مقابل للانتفاع بالمال لا لاجل الانساء وتأخير القضاء ، ولكنه يريد ما هو أعم منه ، وقوله « ومن حديث صحيح » يعني به « ولا من حديث صحيح » كما يعلم من القرائن (وهو على سعة فقهه غير دقيق في اللغة العربية كما هو شأن علماء الأعاجم الذين يتعلمون العلوم الشرعية والفنون العربية بترجمة كتبها ولا يدرسونها دراسة مستقلة) وقد بنى هذا على ماجزم به من أن القرض غير الدين كما أنه لا يدخل في معنى البيع الذي حصر الربا فيه ، فهو موافق لاصطلاح الفقه عندهم ، ولكن القرض في اللغة العربية دين (*) والأصل في الربا أن يكون في الديون سواء كان أصلها ثمن مبيع أو عيناً كما سنحققه وآفة العلم بالكتاب والسنة المانعة من الاستقلال في فهمهما تحكيم الاصطلاحات الفقهية الحادثة وغيرها من الاصطلاحات في لغتهما العربية التي كان يفهمها أهلها منهما . وحديث النهي عن بيع النقدين وأصول الأقوات إلا يداً بيد مثلا بمثل ليس تفسيراً لربا القرآن ولا حصراً للربا في البيع وإنما هو لسد الذريعة لارتكاب ربا القرآن ، وإلا فهو لذاته ليس فيه من المفسدة ما يقتضي هذا الوعيد الشديد في آيات البقرة

﴿ الفتوى الرابعة ﴾

(قال) النفع المشروط في القرض لما لم يثبت كونه ربا بالقرآن والحديث استدل على كونه ربا تارة بالقياس وتارة بحديث « كل قرض جر منفعة فهو ربا » وفي كليهما نظر ، أما في الأول فلأنه قياس مع الفارق فلا يصح ، وأما في الثاني فلأنه غير صحيح بل هو ضعيف فغير صالح للاحتجاج . ولو سلم صحة القياس ففيه أن الأحكام القياسية تقبل التغيير بتغير الأزمان كما هو ثابت في موضعه . ومن كان له وقوف على حال هذا الزمان وخبرة بأهله فلا محيص له بدون (كذا) ان يفتي

(*) قال في حقيقة الاساس : ودنت وتداينت واستدنت : استقرضت . ودنته وأدنته وديّنته : اقرضته اه ونصوص سائر كتب اللغة في ذلك معروفة

بجوازه كما في الاستئجار على تعليم القرآن والأذان والامامة وغيرها ، والاستدلال عليه بالتعامل والتوارث عن السلف ففيه أن التعامل مبني على القياس لا على غيره من الادلة ومن ادعى فعليه البيان والله أعلم بالصواب . اه

(أقول) الظاهر أن هذه الفتوى هي المقصودة بالذات من وضع هذه الرسالة وخلاصتها أن النفع المشروط في القرض ليس من الربا المنصوص في القرآن ولا الثابت بحديث صحيح ، ولا بقياس صحيح ، وعلى فرض صحة القياس تجوز مخالفته للضرورة أو الحاجة إليه في هذا الزمان كما هو الشأن في الأحكام القياسية ، وقد أورد بعض أقوال الفقهاء على هذا في الحاشية ، وهو اجتهاد في مسألة اختلف فيها الفقهاء له وجه فقهي ظاهر ، وحسبنا هذا بياناً لرأينا في الفتوى ، وسنبين رأينا في أصل مسألة الربا في مقال خاص كما وعدنا ، والله الموفق

(رأينا في رسالة الفتوى من مراجعتها بعد الطبع أغلاطاً بعضها من الاصل ولعل بعضها من الطبع ، وسنبين ذلك في جدول مع أغلاط أخرى عثرنا عليها في الاجزاء السابقة)

﴿ أسئلة مختلفة من بيروت ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(س ٣٩ ـ ٤٦) من صاحب الامضاء في بيروت

حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الامام ، مفتي الانام ، ومرجع العلماء الاعلام ، شيخ الاسلام ، الاستاذ الجليل السيد محمد رشيد افندي رضا صاحب مجلة المنار الغراء حفظه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فانني لما رأيت الاحوال الحاضرة في مصر من التهتكات الموبقة التي تصرع شرف الانسانية وتهدم دعائم الفضيلة تزداد حينا بعد حين وتفشو في تلك البلاد من أدناها إلى أقصاها دفعتني الغيرة الدينية الى استجواب فضيلتكم عما يأتي

(١) ان تهتك النساء وتلبسهن بجميع أنواع التبرج الشائن من لبس الرقيق الشفاف والضيق الذي يجسم أعضاءهن ويصفها فضلا عن القصير الذي تبدو دونه السيقان والسواعد والاعناق وأعالي الصدور مع كمال زينتها وتمام تحليتها ـ لمن أكبر دواعي الفساد ، وأقوى أسباب الفتنة في الدين والاخلاق والحياة وانه يتفاحش الى حد مستفظع ، فلم تغض الحكومة المصرية الاسلامية الطرف عن ذلك وما معنى كونها إسلامية ؟ ألم يكن من واجبها كبح جماح الفتن وقضم علائق الفحش الذي يؤدي الى ضعف قوتها ووهن شوكتها بانغماس رعيتها فيه؟

(٢) أليس من الواجب على علماء هذا القطر أن يقوموا بصد ذلك التيار الجارف بكل ما استطاعوا من قوة سواء لدى الحكومة أو الشعب الغافل؟ ألم يكن سكوتهم عن ذلك ذنباً عظيما وإثما مبينا؟

(٣) ما السبب الداعي لسكوت الحكومة والعلماء عن ذلك مع انه أكبر ضرر وأعظم خطر على الامة المصرية وما جاورها من البلاد الاسلامية كالسودان وكذلك الحجاز ونجد وغيرها؟

(٤) ان مجلتكم المنار من الامور المهمة التي تبث في نفوس المسلمين في جميع الاقطار روحا إسلامية عالية وتنفي عنها كل جرثومة من الرذائل حتى غدت مطمح أنظار المسلمين جميعاً ومحط آمالهم في جميع الاصقاع والانحاء فكان عليها أن لا تألو جهداً في محاربة كل هذه النقائص والمنكرات بعزيمة لا تعرف الفتور وهمة لا يعتورها وهن ، فما سبب الاحجام عن الاستمرار في ذلك الجهاد الشريف مع أنها عنوان الفضائل الاسلامية ؟

(٥) ان انتشار الالحاد بصورة هائلة في جميع العالم الاسلامي ليدعو إلى الدهشة والحيرة فما سبب ذلك؟ على انه يوجد في تلك البلدان التي وقعت تحت أنياب الالحاد علماء إسلاميون بكثرة لا تقع تحت حصر ، فهل العلماء يقومون بواجبهم الديني في الاغارة على جنود المادة والطبيعة بكل وسيلة تستطاع تحصينا للدين وحفظاً له أن يمسه شر ذلك وخطره منها؟ قد اعتنق الجم الغفير من المسلمين هذه العقيدة الباطلة ونبذوا الدين وراءهم ظهريا ، أما كان الواجب على العلماء الفطاحل

أن يتخذوا جميع الاحتياطات اللازمة في تفنيدآرائهم، وبيان فساد معتقداتهم، حتى يتضح الحق ويزهق الباطل ليكون ذلك حصناً منيعاً لحفظ الدين في نفوس أبنائه ؟

(٦) هل يحسن من المسلمين أن يأخذوا أزواجهم إلى البلاد الاوربية للنزهة فيتزيون بزيهم ويخلع النساء عن أنفسهن ثياب الحشمة التي هي من شعائر الدين والفضيلة ، ولا ندري ما يكون سبب ذلك من أضراب المنكر فما حكم هذا ؟

(٧) فما دواء كل ذلك ؟ وما هي الطريقة التي يجب على الحكومة والعلماء عملها لمنع هذه المسائل كلها ؟

(٨) إن في مصر بل في جميع البلاد الاسلامية مدارس أجنبية أنشئت للدعاية إلى الالحاد أو المسيحية ومقاومة الاسلامية ، وآثارها الفاسدة ظاهرة للعيان ، فما السبب الداعي لانكباب المسلمين عليها ووضع أبنائهم وبناتهم تحت نيرانها وضلالها ؟ حتى انه يبلغ عدد البنات المسلمات في هذه المدارس مبلغاً عظيما ، رأيت ذلك وأنا في مصر ورأيتهن لابسات القبعة [البرنيطة] سافرات عن وجوههن وغير ذلك ، فما الواجب على المسلمين تجاه هذه الحالة ؟

(٩) هل يجوز للعامي الذي لا يعرف نحواً ولا صرفا مطلقاً أن يقرأ الكتب الدينية الاسلامية ككتب الفقه وفتاوى العلماء وغيرها لاجل أن يعمل بها وهو يلحن في القراءة أم لا ؟ تفضلوا بالجواب على صفحات مجلة المنار الاغر ليكون النفع عاما ولكم الاجر والثواب

محمد علي اليماني الطالب
سابقا بالازهر الشريف

[أجوبة المنار، على هذه الاسئلة على ما فيها من التكرار ، الموجب للاختصار]

﴿ ٣٩ — تهتك النساء وإقرار الحكومة المصرية له ﴾

تهتك النساء في مصر يفحش ويتفاقم شره ويستشري ضره عاما بعد عام حتى صار يخشى منه انفصام عرى الأُسَر (العائلات) وانتكاث فتل الامة . وأما سبب سكوت الحكومة المصرية عليه وإقرارها له فهو يرجع إلى التفرنج وسيطرة الافرنج على البلاد بامتيازاتهم وبمساعدة أعوانهم المتفرنجين من رجال الحكومة وغيرهم .

والافرنج المستعمرون يعنون بافساد دين الامة وأخلاقها لتنحل جميع الروابط التي تكون بها أمة لها كون خاص ومقومات ومشخصات تحيا بها وتأبى بطبعها أن تكون مستعبدة مستعمرة لغيرها . وكان بدء هذا الفساد الديني الاخلاقي في عهد اسماعيل باشا أي قبل الاحتلال البريطاني، فكان ممهداً لكل ما فعله رجاله من مقاومة التعليم الديني على ضعفه في مدارس الحكومة ومن حرية الفسق والفجور، وقد صار الالوف من رجال الحكومة ملاحدة معطلين أو فاسقين لا يصلون ولا يصومون ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله من السكر والزنا والقمار، بل منهم من يهزءون بمن يرونه يصلي ويصوم ويعدونه متأخراً أو رجعياً !!

وأما تسمية الحكومة إسلامية فمعناه انها تمثل شعباً أكثر أفراده مسلمون فهي تراعي شعائرهم ومواسمهم وتقاليدهم الدينية سواء كانت ثابتة في أصل دينهم أو مبتدعة فيه كالموالد وبناء المساجد والقباب على قبور الصالحين وتشييدها ووضع السرج عليها من اموال الاوقاف، وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة لعن من يفعلون هذا، وليس معناه انها حكومة إسلامية كحكومة الخلفاء السابقين أو الحكومة السعودية في نجد والحجاز والحكومة الامامية في اليمن تقيم الشريعة وتلتزمها في سياستها جميع قوانينها، وتمنع المنكرات الدينية كلها. وجملة القول ان مافشا في البلاد من تبرج النساء وتهتكهن ما كان ليفشو إلى هذه الدركة السفلى لولا استحسان الكثيرين من رجال الحكومة ومن في طبقتهم من الاغنياء المترفين له، ومجاهرتهم في اقترافه

﴿ ٤٠ — مايجب على العلماء من مقاومة هذا الالحاد والفساد ﴾

إن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — وأنكره الالحاد والفساد — من الأمور المعلومة من دين الاسلام بالضرورة، وهذه الفريضة هي سياج الدين وحفاظ الفضيلة في الأمة ووقايتها من الرذيلة أن تفشو فيها، با إنكار المنكر واجب في الاسلام باليد فاللسان فالقلب وهذا أضعف الايمان كما ثبت في الحديث الصحيح المشهور والعلماء أول المطالبين باقامة هذه الفريضة لعلمهم بوجوبها وشدة حظر تركها ومالها من أحكام، ولأن كلامهم أجدر بالقبول والتأثير، وسبب تقصير أكثرهم في إقامتها ضعفهم في الدين والأخلاق، وامتهان الحكام لهم بامتهانهم لأنفسهم، كما قال شاعرهم الحكيم

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

وقد كان من سيرتنا في المنار من سنته الأولى (سنة ١٣١٥) الى اليوم مطالبتهم باقامة هذه الفريضة والانحاء عليهم باللائمة لتقصيرهم فيها ، حتى إنهم كرهونا وقاومونا وصاروا يصدون العامة عن قراءة المنار لأجل ذلك ، وكان أول من لامنا واعتذر عن العلماء في سكوتهم عن انكار المنكرات شيخنا الأستاذ العالم العاقل الشيخ حسين الجسر عفا الله عنه فقد رد علينا في جريدة طرابلس واضطررنا إلى الرد عليه في المجلد الثاني من المنار من غير تصريح باسمه . ونحمد الله تعالى أن كثر في هذه السنين العلماء والوعاظ الذين يقاومون الالحاد والفساد، وينهون عن الفواحش والمنكرات الفاشية والبدع والخرافات المزمنة ، ووزارة الأوقاف تساعدهم على ذلك وهذا من فوائد كون دين الحكومة الرسمي الاسلام، وأن تألفت في مصر جمعيات تعني بذلك كجمعية مكارم الأخلاق الاسلامية وجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية في القاهرة ، وقد سبقتها ولحقتها جمعيات أخرى في البلاد المصرية تدعو إلى هداية السلف الصالح وترك البدع كلها ، واننا ولله الحمد نساعد أكثر هذه الجمعيات ولنا فيها الاخوان والمريدون المخلصون، وأنشئت لبعض هذه الجمعيات ولبعض الأفراد مجلات وجرائد تقوم بهذا الواجب أيضاً

﴿ ٤١ — عمل مجلة المنار وما وصفها به السائل من الاحجام ﴾

إننا قد أنكرنا تبرج النساء وتهتكهن مراراً كثيرة باساليب مختلفة في مجلدات المنار المتعددة ، ولا نزال نعود إلى الانكار عند سنوح المناسبة ، كما ننكر دائماً على سائر المعاصي والبدع ، ونرد على أهل الالحاد والتشيع ، ونفند شبهات المبشرين ، وزيغ الماديين ، ونبين في مقابلة هذا الكفر والضلالة ، ما جاء به الاسلام من الهداية ، وكونها هي السبب الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة ، والجامع الاعظم لكل مايجب من تخلية وتحلية ، هو تفسيرنا للكتاب الحكيم ، الذي شهد له العلماء في مصر وغيرها العارفون بما يحتاج اليه المسلمون وسائر البشر في هذا

العصر من الاصلاح بأنه خير تفسير لكتاب الله عز وجل الذي أكمل الله به الدين ، ويليه باب الفتاوى العامة التي نشرح فيها ما يسألنا عنه القراء من جميع الاقطار من حل المشكلات ، والترغيب في الواجبات ، والترهيب عن المنكرات ، ويليه باب المقالات الشارحة لاهم مايهم المسلمين من أمر دينهم وأمتهم وحكومتهم الخ وكثيراً ما لامنا القراء على عدم فتح أبواب في المنار للمباحث الادبية واللغوية والفنية وغيرها مما يحبه جماهير الناس فيكون مرغباً في قراءته لانهم يملون بالطبع من جعل جميع مباحثه في المسائل الاسلامية التي يقصد منها إحياء هداية الدين والدفاع عنه ، فلا نجد فيه سعة لما يقترحونه وان كان فيه مصلحة لنا

فاذا كان السائل يرى من الواجب ان نكتب في كل جزء منه مقالا في انكار تبرج النساء وتهتكهن وان ترك هذا إحجام عن الواجب فنحن لا نوافقه على هذا الرأي ولا نظن ان أحداً من أهل الرأي يوافقه عليه . وقد ثبت في الصحيح أن النبي (ص) كان يتخول الناس بالموعظة خشية السآمة والملل من التكرار

﴿ ٤٢ — سبب فشو الالحاد وما يجب على العلماء من مقاومته ﴾

أما سبب فشو الالحاد فقد بيناه في المنار مراراً وهو أمران أهمهما عدم التعليم الاسلامي الصحيح الذي يقتضيه حال هذا العصر وعدم التربية الملية الوجدانية على هدايته ، والثاني فشو الافكار المادية والشبهات العلمية على الدين في المدارس العصرية من أجنبية وأميرية وتولي المتخرجين فيها الامور الحكومات وسائر المصالح العامة

وأما مايجب على العلماء من مقاومة ذلك وصد تياره فالقول فيه كالقول في مسألة مقاومة البدع والمنكرات ، أكثر العلماء الرسميين المقلدين يعجزون عن مقاومة شبهات الالحاد إما لانهم لايفهمونها ولا يفهمون الدين كما يجب أن يفهمه من يقوم بذلك بالحجة والبرهان ، وإما لضعفهم في البيان أو في الغيرة على الدين . على أنه قد وجد فيهم وفي غيرهم أفراد يقومون بهذا الواجب على قوة أو ضعف . ولو تم للاستاذ الامام رحمه الله تعالى ما كان يحاوله من إصلاح الازهر ولم يصده عنه الجمود والاستبداد ، أو لو تم لنا ماقمنا به بعده من إنشاء جمعية ومدرسة للدعوة والارشاد ، ولم يقض عليها نفوذ الاستعمار وفشو الالحاد ، لما خطر هذا السؤال لملقيه علينا ببال .

﴿ ٤٣ — سفر النساء المسلمات إلى اوربة مع ازواجهن الخ ﴾

من الغريب ان يسأل مسلم هل يحسن هذا الأمر ام لا ؟ وان يسأل عن حكمه مع علمه بما فيه من المنكرات التي ذكر بعضها ، وان من النساء من صرن يسافرن إلى اوربة منفردات أو مع اخدانهن من الرجال ، وأمثال هؤلاء لا يخطر لهم الدين ببال ، ولا مراعاة أحكامه في حرام ولا حلال ، ويقل فيهم من يسافر مع امرأته ويكون ملازما لها في سفرها فلا يخالف أحكام الاسلام وآدابه إلا فيما يجب عليها من الستر وعدم الخلوة بأجنبي وعدم حضور مجالس السكر ورقص الخلاعة وأمثال ذلك

﴿ ٤٤ — تعليم ابناء المسلمين وبناتهم في المدارس الاجنبية من إلحادية وتبشرية ﴾

تقدم ان أحد سببي فشو الالحاد والاباحة في المسلمين تعلمهم في هذه المدارس مع تركهم لتعلم دينهم وتربيته ، وأما سبب انكبابهم عليها فثلاثة أمور (١) الشعور العام بان ما فيها من العلوم والفنون ضروري للحياة المدنية الراقية في هذا العصر (٢) الجهل بما فيه من الضرر والفساد الديني والقومي مع ظهور نتائجه (٣) عدم وجود حكومة اسلامية أو جمعيات اسلامية راقية تكفل لهم تحصيل ما يشعرون بانه لا بد منه من العلوم والفنون على الوجه الذي يرجى نفعه ويؤمن ضرره ، بانشاء مدارس راقية في تعليمها وتربيتها ونظامها ، تشتمل على التعليم في جميع مراتبه لجميع العلوم النافعة . وما وجد من المدارس الاسلامية لبعض الافراد أو الجمعيات لم يقصر المسلمون في الاقبال عليها وان لم تبلغ درجة الكليات والجامعات الاجنبية في استعدادها ومرغباتها

وهنالك سبب رابع هو أعم الاسباب وهو التقليد والتيار الاجتماعي الذي يجرف الجماهير ، إلى حيث لا يعلمون من المصير ، وقد سألت رجلا عطارا لمَ ترسل ابنتك الى المدرسة وماتقصد أن تستفيد منها؟ قال لا أدري أنا أعمل كما يعمل الناس

﴿ ٤٥ — الدواء لجميع هذه العلل والواجب على الحكومة والعلماء عمله ﴾

قد طرقنا ابواب هذا البحث مئات من المرات منذ انشىء المنار إلى اليوم — أي في مدة ثلث قرن — بعنوان الداء والدواء وباسم الاصلاح وبغير هذا من

الاسماء . ولا يزال المسلمون يتساءلون عنه ولا يفقه أكثرهم ما كتب ولا ما قيل ، وذلك أنه ليس لهم حكومة اسلامية ولا هيئات اسلامية تقوم بما يجب من ذلك ، والخلاصة المختصرة التي نجيب بها هذا السائل ان الدواء الوحيد لذلك هو قيام حكومة اسلامية راشدة توفق لاعوان من عقلاء العلماء بكل مصلحة من المصالح ولا سيما التعليم والارشاد ، ومساعدة العالم الاسلامي لها اينما وجدت ، وكان هذا رأي حكيم الاسلام وموقظ الشرق الاكبر السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى الذي سعى طول حياته لأجله ، فان لم توجد هذه الحكومة فالدواء تربية عدد كثير من المسلمين وتعليمهم ما يجب من مداواة الداء والعمل بعد الشفاء ، وكان هذا رأي حكيم الاسلام الثاني شيخنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) وقد بيناهما مراراً .

هذا وإننا نرى فى آفاق الاقطار الاسلامية المظلمة وما يحيط بها من الاخطار نوراً يبشرنا بتحقيق أمل حكيمينا المصلحين كليهما ، فأما أمل الثاني فما أشرنا اليه في هذه الاجوبة من وجود أفراد من العلماء المصلحين وجماعات للهداية الصحيحة واكثرهم من تلاميذه أو الآخذين عنهم . وأما أمل الاول فهو وجود الحكومة السعودية في نجد والحجاز ، فاذا كان ماظهرت آياته في الاقطار الاسلامية من التنبه والشعور بالحياة الملية والاصلاح الاسلامي قويا فانه يؤيد هذا الرجل النادر المثال في استعداده للاصلاح الاسلامي الديني المدني (ألا وهو عبد العزيز آل السعود) يؤيده بالرجال وبالمال وبالرأي العام

﴿ ٤٦ — قراءة العامي لكتب الدين ﴾

قد سبق ان سئلنا هذا السؤال واجبنا عنه . وخلاصة مايقال فيه أنه لا ينبغي للعامي ان يعتمد على فهمه قراءة كتب الفقه والعقائد بل عليه ان يتلقى ذلك عن العلماء ثم يطالع مايسهل فهمه مع مراجعتهم فيما يشكل منه

﴿ حكم من يتجسس على المسلمين من توبة وامامة وغيرهما ﴾

(س ٤٧ — ٥٣) من صاحب الامضاء في الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

حضرة صاحب الفضيلة العلامة شيخ الاسلام الاستاذ سيدي محمد رشيد رضا حرسه الله تعالى وحفظه لدين الاسلام آمين

بعد واجب السلام والاحترام ، فارجو من فضيلتكم الجواب عن الاسئلة الآتية

ما حكم الشرع في رجل مسلم كان في أثناء الحرب العظمى متوظفاً عند دولة أوربية مسيحية إماماً يصلي على قتلى رعاياها من المسلمين ، ثم هذه الدولة المسيحية أرسلته جاسوساً لها في بلاد اسلامية ، وقد علمت دولة إسلامية بتجسسه وعزمت على القاء القبض عليه وشنقه ومع الاسف قد علم بذلك وهرب الى تراب الدولة المسيحية التي يتجسس لها ! ثم بعد ماقضت هذه الدولة مآربها به أرجعته لوطنه وأعطته في مستعمرتها وظيفة إمام في مسجد إسلامي جزاء لخدمته إياها وهو الى الآن يصلي خلفه المسلمون ويدعى مصلحاً !!!

(١) هل من فعل هذه الجرائم يقبل إسلامه ؟ (٢) هل يقتله الشرع الاسلامي ؟ (٣) هل تجوز الصلاة خلفه ؟ (٤) هل توبته « وفيها ريب » تقبل بعدما تجسس لدولة مسيحية على إخوانه المسلمين ؟ (٥) هل صلاته وصومه يكفر عنه هذه السيئات ، ويعد مؤمناً بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ (٦) هل يجوز للمسلم أن يتجسس على إخوانه المسلمين لينال حطام الدنيا ، ثم بعد ذلك يتوب توبة نصوحا هل تقبل منه وتغفر سيئاته ؟ (٧) هل يجوز للمسلمين ان يسمعوا إرشادات خائنين مثل هذا الجاسوس التائب ؟

نرجو من فضيلتكم الجواب الكافي ، لقد كثر بوطننا أنواع هذا الخائن لامتهم ودينهم حتى تكشف خزعبلات هؤلاء الجناة وينقطع تيارهم ، فهم أكثر سبب مصائبنا ودمارنا ولولا هؤلاء الخائنين لما وصلنا إلى مانحن فيه

وانا منتظرون الجواب بالمنار الاغر ودمتم للاسلام والمسلمين

السائل — عبد القادر الجزائري

(ج) من يرضى لنفسه ان يكون جاسوسا لاعداء المسلمين في حربهم لهم يبين لهم عورات المسلمين ومواضع ضعفهم وقوتهم وغير ذلك مما يعد من أسباب

تمكينهم بهم وانتصارهم عليهم لا يعقل ان يكون مؤمنا صادقاً لان هذه ولاية لاعداء المسلمين عليهم في الحرب (ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) فهو في الغالب منهم في دينهم ومذهبهم أو منافق يعد منهم في الكفر الجامع بينهم والفاصل بينه وبين الاسلام كما قال تعالى في منافقي المدينة (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وان قوتلتم لننصرنكم) الآية

وقد استدل عمر بن الخطاب على نفاق حاطب ابن أبي بلتعة (رضي الله عنهما) بارساله كتابا إلى مشركي مكة يخبرهم فيه بعزم النبي صلى الله عليه وسلم على فتح مكة ليتخذ له يداً عندهم مع اعتقاده أن الله تعالى لا بد ان ينصر رسوله عليهم علموا أو لم يعلموا ، واستأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله فلم يأذن له بذلك لما ثبت عنده صلى الله عليه وسلم من ايمان أهل بدر (وكان حاطب منهم) ومن مغفرة الله لهم ، وسأل حاطباً عن سبب إرسال الكتاب فاعتذر له وقبل عذره ، وفي هذه المسألة نزلت سورة الممتحنة . ويؤخذ منها ان بعض القرائن التي تدل على الكفر والنفاق قد تكون دلالتها غير قطعية في الباطن ، مهما تكن واضحة في الظاهر ، لان صاحبها قد يكون متأولا وقد تكون له نية صحيحة في التجسس بان تكون لدرء الضرر عن المسلمين الذين يتجسس عليهم ، فهذا الفعل نفسه معصية لا كفر ، ولكن قد يكون سببه الكفر ، ولا يجوز لأحد من الناس قتله بسابق عمله . وانما يرجح حسن الظن في الرجل الذي يكون حاله في الاعتصام بدينه قبل ذلك وبعده قويا ظاهراً وقليل ما هم

حدثني المعاون المسلم لوالي (بنارس الهندية) في بنارس وكنت ضيفاً عنده وهو افغاني الاصل ان حكومة الهند الانكليزية جعلته من الرجال الذين يقومون بخدمة الامير حبيب الله خان أمير الافغان مدة زيارته لبلاد الهند وان غرضها من ذلك ان يكون جاسوسا عليه .

قلت له وكيف اعتمدت عليك حكومة الهند في هذا وانت مسلم مستمسك بعروة دينك وافغاني الاصل وهي تعلم ان الافغان من أشد الناس تعصباً لدينهم

ولجنسهم كما علمنا نحن من حكيمهم بل حكيم الاسلام والشرق السيد جمال الدين الحسيني رحمه الله تعالى؟ قال نعم إن الحكومة كانت تعلم أنني لا يمكن أن أخبرها بشيء يضر الأمير وتعلم مع هذا أنني لا أكذب، فكل فائدتها أن أقول الحق فيما لا يضر فانه ينفعها في تمحيص ما يخبرها به سائر الجواسيس الذين كانوا يحفون من حول الامير

وأما توبة الجاسوس من ذنبه والمنافق من نفاقه والكافر من كفره فهي صحيحة مقبولة إذا كانت توبة نصوحا، ويترتب عليها صحة صلاته والصلاة خلفه ولكن لا يجوز لمسلم أن يقدم على مثل هذا التجسس طمعاً في حطام الدنيا واعتماداً على التوبة بعد ذلك، كما أنه لا يجوز فعل أي ذنب ومعصية اتكالا على التوبة والمغفرة، ولكنه ان فعل وكان صحيح الايمان على ضعف فيه فلا يبقى أمامه إلا التوبة والاكثار من الاعمال الصالحة رجاء في قوله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)

وأما سماع المسلمين لارشاده ونصحه بعد علمهم بما سبق من جرمه فيتوقف على ما يظهر لهم من حاله بعد التوبة فمن ثبت عنده صدق توبته وحسن حاله بعدم اجتراحه لما يجعله محلا للتهمة فلا بأس بسماعه لنصحه وإرشاده فيما لا محل له فيه للشك والتهمة، ومن كان لا يزال يسيء الظن به فهو بالضرورة يعرض عن سماع نصحه، وينبغي للجمهور أن يظهروا المقت من سابق عمله فيما لا مفسدة فيه ليكون ذلك عبرة لغيره

تفسير الشيخ طنطاوي جوهري

(س ٥٤) من حاضرة تونس لصاحب الامضاء

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، محمد بن عبد الله، وآله ومن والاه

حضرة صاحب الفضيلة العالم الهمام، مرشد الانام لحقيقة الاسلام، سيدي محمد رشيد رضا منشيء مجلة المنار الغراء، حاطه الله بالرعاية وأطال له البقاء، آمين.

بعد إهداء طيب سلامي، وأداء لائق احترامي، لسامي مقامكم، وشريف قدركم الاسنى، فأنهي لجنابكم الأعلى، اني طالعت بعض ما كتبه الشيخ سيدي

طنطاوي جوهري المحترم على سورة البقرة ووسمه بالتفسير ، وبما أن نفسي لم تطمئن لبعض ما قرأته فيه لتطبيقه الآيات على الاختراعات العصرية ، والسنن الطبيعية ، مما يظهر لمثلي القاصر ان آي الذكر الحكيم ، وحديث رسوله الكريم ، بعيدة كل البعد عن هذا المسلك الذي سلكه الشيخ المذكور ، وبناء على ظني بأنكم اطلعتم على كله أو جله لاهتمامكم المتزايد وغيرتكم على السنة والكتاب الحكيم وتسرون بخدمتها الخدمة المرضية ، كما انكم تفحمون من يتنكب الصراط السوي ، تقدمت لفضيلتكم مؤملا أن تبينوا لنا ولجميع قراء المنار الأغر رأيكم وحكم الله في التفسير المذكور بياناً شافياً واضحاً حتى يصح لنا أن نقول بأن كل ما خطه قلم الشيخ طنطاوي الموقر وجزم بانه ماخوذ من الآيات القرآنية ، ومستمد من الاحاديث النبوية ، هو في محله موافق لما أراد الله من الآية ، مطابق لمغزى حديث رسوله ﷺ مقبول من لدن العلماء الفضلاء ولا محل لنقده ، ولا سبيل لتفنيده ، بل عمله هذا مصيب فيه كل الاصابة ، الجائز عليه الثواب والاثابة ، يوجب من المسلمين له الشكر والثناء الجزيل ، ويرغب النشء وغيرهم مطالعته ، والتعويل على كتابته ، مع ادامة النظر والاعتبار في دقائقه ، وختاما نكرر القول باننا نترجى الجواب السريع الشافي ، والحكم النزيه الوافي ، من رأيكم المصيب ، وإنصافكم المعهود ، ولكم من الله جزيل الشكر والاحسان ، والثواب والاعانة من الله الرحمن

محمد خوجه

(ج) إنني كنت رأيت الجزء الأول من هذا التفسير في دار صديق لي منذ بضع سنين وقلبت بعض أوراقه في بضع دقائق فرأيته احق بان يوصف بما وصف به بعض الفضلاء تفسير الفخر الرازي بقوله : فيه كل شيء إلا التفسير . وقد ظلم الرازي بهذا القول فان في تفسيره خلاصة حسنة من أشهر التفاسير التي كانت منتشرة في عصره مع بعض المباحث والآراء الخاصة به ، كما ان فيه استطرادات طويلة من العلوم الطبيعية والعقلية والفلكية والجدليات الكلامية التي بها اعطي لقب « الامام » لرواج سوقها في عصره . والاستاذ الشيخ طنطاوي مغرم بالعلوم والفنون التي هي قطب رحى الصناعات والثروة والسيادة في هذا

العصر، ويعتقد بحق ان المسلمين ماضعفوا وافتقروا واستعبدهم الاقوياء إلا بجهلها، وأنهم لن يقووا ويثروا ويستعيدوا استقلالهم المفقود إلا بتعلمها على الوجه العملي بحذقها مع محافظتهم على عقائد دينهم وآدابه وعباراته وتشريعه، ويعتقد حتماً ان الاسلام يرشدهم إلى هذا بل يوجبه عليهم، فألف اولا كتبا صغيرة في الحث على هذه العلوم والفنون والتشويق اليها من طريق الدين وتقوية الاسلام بدلائل العلم، ثم توسع في ذلك بوضع هذا التفسير الذي يرجو ان يجذب طلاب فهم القرآن الى العلم ومحبي العلم إلى هدي القرآن في الجملة والاقناع بانه يحث على العلم لا كما يدعي الجامدون من تحريمه له اوصده عنه، ولكن الأمر الاول هو الاهم عنده، فهو لم يعن ببيان معاني الآيات كلها وما فيها من الهدى والاحكام والحكم بقدر ما عنى به من سرد المسائل العلمية واسرار الكون وعجائبه (ولهذا قلنا إنه احق من تفسير الرازي بتلك الكلمة التي قيلت فيه)

ولا يمكن ان يقال ان كل ما اورده فيه يصح ان يسمى تفسيراً له ولا أنه مراد الله تعالى من آياته وما اظن أنه هو يعتقد هذا، اذ يصح ان يقال حينئذ إنه يمكن تفسير كلمة (رب العالمين) بألف سفر أو أكثر من الاسفار الكبار تضعه جمعيات كثيرة كل جمعية تعني بعالم من العالمين فتدون كل مايصل اليه علم البشر فيه. ولا يمكن ان يقال إنه لا يمكن انتقاده بل الانتقاد على ما فيه من التفسير ومن مسائل العلوم ممكن (وفوق كل ذي علم عليم) وقد قلنا إنه لم يعن بقسم التفسير منه كثيراً ولا سيما التفسير المأثور. واما هذه العلوم فالبشر يتوسعون فيها عاما بعد عام فينقضون اليوم بعض ما أبرموا بالامس فليس كل مادونه أهلها صحيحاً في نفسه، فضلا عن كونه مراداً لله من كتابه. وانما أنزل الكتاب هدى للناس لا لبيان مايصلون اليه بكسبهم من العلوم والصناعات، ولكنه أرشد إلى النظر والتفكر فيها ليزداد الناظرون المتفكرون ايمانا بخالقها وعلما بصفاته وحكمه

وأما السؤال عن رضاء الله عنه واثابته عليه فلا يقدر بشر على الجواب عنه بالتحقيق لان علمه عند الله تعالى وحده وانما نقول بحسب قواعد الشرع الالهي إنه إذا كان قد ألفه لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته فان الله تعالى يثيبه عليه فما

أصاب فيه فله عليه اجران أجر الاصابة وأجر الاجتهاد وحسن النية ، وما اخطأ فيه فله عليه الاجر الثاني مع رجاء العفو عن الخطأ ، وهذا ما نظنه فيه .

وجملة القول ان هذا الكتاب نافع من الوجهين اللذين اشرنا اليهما في اول هذا الجواب ، وصاحبه جدير بالشكر عليه والدعاء له ، ولكن لا يعول عليه في فهم حقائق التفسير وفقه القرآن لمن أراده فانه انما يذكر منه شيئاً مختصراً منقولا من بعض التفاسير المتداولة ، ولا يعتمد على ما يذكره فيه من الاحاديث المرفوعة والآثار لانه لا يلتزم نقل الصحيح ولا ذكر مخرجي الحديث ليرجع إلى كتبهم فلا بد من مراجعتها في مظانها . وما ينفرد به من التأويلات فهو يعلم أنه يخالف فيه جماهير العلماء وهم يخالفونه. وانما راجعت بعضه في أثناء كتابة هذا الجواب فزادني ثقة بما قلته فيه من قبل ، والله أعلم

جدال في شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعائه والاستغاثة به

(س ٥٥ من صاحب الامضاء في عدن)

حضرة السيد الفاضل الاجل العلامة السيد محمد رشيد رضا ، أمتع الله بحياته الاسلام والمسلمين

سلاماً واحتراماً . سيدي العلامة الفاضل أولا أرجوكم أن تعذروني ولا تؤاخذوني إذا وجدتم في كتابي هذا لحنا أو ركاكة أو سوءا في التعبير لاني قبل كل شيء عدني والتعليم عندنا لا يكاد يكون له وجود

كثر عندنا في هذه الايام لفظ المتوهبين لا الوهابيين وزاد ، وليس عندنا من ينكر على الامام محمد بن عبد الوهاب مذهبه ولكن لسوء الحظ أوقع القدر لهذا المذهب بين ناس يجهلون حقيقته حق الجهل ، وإليكم ما صار اليوم في محفل كان يضم جمعاً من الناس

قام رجل من القوم بعد جلوس طويل أضناه قائلا : يا رسول الله أنت لها . فعترضه أحد المتوهبين بقوله: ان الرسول له الشفاعة لا غير ،قال له نعم. قال ولا يمكن لرسول الله أن يشفع إلا باذن ربه . قال نعم . ثم رجع قائلا الرجل الاول ان

رسول الله هو الشفيع المشفع يوم القيامة وردده نحو مرتين أو ثلاثا ، الا ان ذلك الرجل المتوهب كما يسمي نفسه كما سمع ذلك الرجل يلفظ بهذه الكلمات ويأتي إلى يوم القيامة إلا ويلحقه : باذن ربه . وهكذا عدة مرات فرد عليه بأن الشفاعة حقيقة باذن الله وهذا معلوم أن الشفاعة لا تكون الا باذن الله . فلم يرق هذا الجواب في عين صاحبنا المتوهب وقال لا يمكن أن تلفظ بتلك الكلمات مالم تلفظ بالاذن. فأجاب ذلك الرجل على متوهبنا: حسبما يظهر أن تعقيبك باذن الله هو كرهك لأن تسمع هذه الخصوصيات خالية من ذكر (باذن الله) مع انه معروف، فاجابه لا . ولكن بقي ذلك الرجل يردد كلمات أن رسول الله ﷺ هو الشفيع المشفع فلم يتركه ذلك الرجل الا لاحقاً به في كل مرة باذن الله .

فما الذي يفهمه سيادة مولانا من هذا هل الرجل بلفظه تلك الكلمات خالية من باذن الله محذور عليه فيها؟ وهل مجبور ذلك بتلفظها؟ وهل يفهم من حضرة المتوهب أنه يريد إفهام من حضر انه لا يمكن للرسول أن يشفع إلا باذن الله مع معرفتهم لذلك ومصارحتهم له به مراراً ؟ أو المراد به أنه لا يطيق هذا سماع تلك الكلمة خالية من باذن الله لئلا يتوهم ان النبي يشفع بدون إذن الله ؟

ثم طار البحث إلى أن توصلوا إلى فضل رسول الله وجاهه العظيم عند الله وان الله سبحانه وتعالى يغار على رسوله من كل ما يمس كرامته . فلم يسع ذلك المتوهب إلا ان قال لأحد الحاضرين عند ماقام من مجلسه وقال يارسول الله الى أن قال له ماذا تعني بذلك ؟ أتظن ان رسول الله يقدر ينفعك أو يرد عنك أي ملمة ؟ ها أنا الآن في ملمة ادع رسول الله الآن يحضر يرحني منها وهل في وسعه ذلك ؟ فلم يسع أولئك القوم عند ماسمعوا ذلك التهكم الا أن قالوا ان رسول الله ﷺ لا يضر ولا ينفع وان النافع والضار هو الله وانما محبتنا للرسول دائما تجعلنا نناديه ونصلي عليه . وما كان أليق بك يا حضرة الواهب تطلب حضور رسول الله لأن يدفع عنك الملمة لتمتحن اقتداره وقدرته . هذا ما صار بحضورنا وجمع من الناس ورجانا من سيدي الامام حرسه الله أن يفيدنا بما يراه في كلام

الفريقين وهل يليق التعريض لكرامة الرسول إلى هذه الدرجة ؟ أفيدونا حزتم خير الدنيا والآخرة سواء بالكتابة الينا حسب عنواننا أو في مجلتكم الغراء حفظكم الله

الداعي لكم بالخير

جعفر علي

(ج) هذه الملاحاة والمجادلة والمماراة قبيحة يمقتها الله تعالى والمؤمنون العارفون بدينهم . وقد أخطأ فيها الفريقان : أخطأ هذا الرجل الذين تسمونه المتوهب في صفة إنكاره العنيف وفي قوله انه لايجوز لأحد أن يسند الشفاعة إلى رسول الله ﷺ إلا مقترنة بكلمة باذن الله تعالى . واننا نجد علماء السنة من الحنابلة الوهابيين ومن سائر المنتمين الى المذاهب والمجتهدين يذكرون شفاعته ﷺ عند المناسبة بدون وصلها بهذا القيد الذي يعتقدونه لقوله تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) كما يعتقدون ان المشفوع له لابد أن يكون ممن ارتضى له هذه الشفاعة لقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فلماذا لم يوجب هذا الرجل هذا القيد أيضاً ؟

وأما ذكر النبي ﷺ بما يعد منافياً لكرامته عرفا ولو بالاسلوب دون النص ففيه خطر عظيم على الايمان وقد حرم الله تعالى أن يدعى باسمه في حياته ولم يكن الاعراب الذين كانوا ينادونه « يا محمد » يقصدون الاخلال بالتعظيم الواجب له ﷺ ولكنه مخل به في عرف أدباء الحضارة ولذلك علمهم الله تعالى مايجب عليهم من الادب بنهيهم عن ذلك في قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) وكون النافع الضار بالذات هو الله تعالى لا ينافي نفع المخلوقات بالسببية قال الله تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقال حكاية عن امرأة فرعون التي شهد بايمانها (عسى أن ينفعنا) تعني موسى عليه السلام . وقد نهى الله ورسوله عن المضارة وهي المشاركة في الفعل الضار

وأخطأ ذلك الرجل في ملاحاته ومماراته المثيرة للغضب بالتكرار وباتهامه بانه لايجب أن يسمع وصف الرسول ﷺ بالشفيع الخ . وكاتبه الاولى التي أنكرها المتوهب وهي (يارسول الله أنت لها) لا يفهم منها الشفاعة يوم القيامة إلا بقرينة

سابقة وهي تستعمل عند الجاهلين بحقيقة التوحيد المصابين بدخائل الشرك بمعنى الاستغاثة والدعاء الذي هو عين العبادة بنص الحديث ونصوص القرآن أيضاً . فدعاء الانبياء والصالحين بعد موتهم لقضاء الحاجات عبادة لهم لانه ليس من الاسباب التي يكون فيها الدعاء والطلب من العادات، وهو غير دعاء الاحياء فيما هو داخل في العادات والاسباب كما شرحناه مراراً كثيرة، وهذا هو الذي أنكره الرجل لما يعهده من كثير من الجاهلين من جعله كدعاء الله تعالى لانه في غير الاسباب التي مكن الله الناس منها .

وجملة القول أن دعاء المخلوق للمخلوق لكشف ضر أو جلب نفع إن كان دعاء لأمر عادي داخل في سنة الله في الاسباب والمسببات كأن يدعو رجلا حياً لمساعدته على رفع حمل وقع أو إطفاء نار اشتعلت في داره أو متاعه أو للصدقة عليه فهذا يسمى دعاء عادة وسبب لا عبادة للمدعو، وان كان لاجل ضر أو نفع ليس مما يقدر عليه المدعو بكسبه أو دعاء لميت قد انقطع عمله الدنيوي بموته فان دعاءه يكون عبادة للمدعو سواء كان يعتقد أنه يقدر أن يقضي حاجته بنفسه أم انه يقضيها بوساطته عند الله تعالى . وثبوت الشفاعة يوم القيامة عند الله تعالى باذنه لمن ارتضى لا يبيح للمسلم أن يدعو من كان أهلا لهذه الشفاعة كما يدعى الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من أمور هذا العالم، بل هو عين ما أنكره في التنزيل من المشركين في قوله (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض؟ سبحانه وتعالى عما يشركون) فالرجل المتوهب خاف على منادي الرسول ﷺ مثل هذا الشرك الفاشي فأنكر عليه فأغلظ كل منهما فيما ينكر عليهما وعلى من يشار كهما في جدلهما . فعسى أن يتوب كل منهم الى الله تعالى

﴿ حكم الأعياد السياسية ، والوسامات الدولية ﴾

(س٥٦و٥٧) من الحجاز

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحكم الشرعي في عيد جلوس الملك ابن السعود ﴾

الأستاذ الحكيم والعلامة العظيم ، مولانا السيد محمد رشيد رضا منشىء مجلة المنار الغراء لازال في مقام كريم آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فلما كان سيادتكم الركن الركين للسلفيين أهل السنة والجماعة جئت مسترشداً عن جواز عمل الحكومة الحجازية باحداث عيد ثالث سموه (عيد جلوس الملك الامام عبد العزيز السعود) أيده الله آمين ، وإن ماورد في السنة من إبطال النبي صلى الله عليه وسلم للأعياد السابقة وجعله للأمة الاسلامية عيدين : عيد الفطر والأضحى — وما ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم والامام ابن شامة في كتابه (الباعث على إنكار البدع والحوادث) رحمه الله تعالى لايخفى على فضيلتكم فأرجو بيان الحكم الشرعي في المسألة لان بعض الاخوان السلفيين منكرون لاحداث هذا العيد فعسى أن يظهر لنا الحكم فيه

﴿ إحداث الأوسمة من غير النقدين الذهب والفضة ﴾

هل يجوز إحداث أوسمة مثل سائر الدول تكون من المعدن الجيد غير الذهب والفضة فانه يحسن بالحكومة الحجازية النجدية أن تحدث أوسمة تعطيها لمن قام يخدمها من رجالها ورجال الدول فهل يسوغ شرعاً أم لا ؟

مستفيد من الحجاز

(ج) بلغني أن بعض الاخوان الذين أشار إليهم السائل قالوا بتحريم فعل هذه الحكومة الاسلامية ماتفعله سائر الحكومات من إحداث الأعياد السياسية

كعيد جلوس ملك البلاد في الحكومات الملكية وعيد الجمهورية في الحكومات الجمهورية وعيد الاستقلال في البلاد التي استقلت بعد عبودية. وإني لأعجب من جرأة كثير من العلماء المتقدمين والمتأخرين على التحريم الذي جرأ العوام على مثل ذلك وهو تشريع ديني من حق رب الناس على عباده. قال تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) الآية وقال (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟) وقد عرف علماء الاصول التحريم بانه « خطاب الله المقتضي للترك اقتضاء جازما » والدليل على اشتراطهم كون دلالة الخطاب الالهي على وجوب الترك قطعية ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (رض) لم يعدوا قوله تعالى في الخمر والميسر (وإثمهما أكبر من نفعهما) تحريما قطعياً على الامة وفي حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم لما نهى في خيبر ان يقرب المسجد من أكل شيئاً من الثوم فقال الناس: حرمت حرمت. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال « أيها الناس إنه ليس لي تحريم ما أحل الله لي ولكنها شجرة اكره ريحها » ولكن الذين يتجرءون على تحريم ما أحل الله تعالى لا يتدبرون هذه الآيات والاحاديث. وحديث ابي سعيد هذا صريح في ان أكل الثوم مما أحل الله تعالى والظاهر أنه أحله بالآيات العامة في اباحة ما أخرجته الارض وهي الدليل على كون الاصل فيها الاباحة من غير نص على كل نوع منها

فان استدلوا على تحريم هذه الاعياد السياسية بحديث انس عند النسائي وابن حبان: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان في كل سنة يلعبون فيهما فقال « قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما يوم الفطر ويوم الاضحى » قلنا ان الحديث لا يدل على ذلك دلالة قطعية ولا ظنية راجحة بل غايته أنه اراد صلى الله عليه وسلم ان يجعلوا العيدين الاسلاميين بدلا من ذلك العيد الجاهلي، وما ندري ماذا كانوا يعملون في ذلك اليوم من منكر، وحسبنا ان نعلم أنه من عادات الجاهلية وان من المصلحة إزالتها ونسيانها، والاستغناء عن عيدهم فيها بالعيدين الاسلاميين اللذين يجمع فيهما بين ذكر الله تعالى بالتكبير وصدقة الفطر والاضاحي وبين

السرور واللهو المباح كغناء الجاريتين وضربهما الدف عند عائشة (رض) باذنه ﷺ ورضاه. واللعب المباح كلعب الحبشة في المسجد

وقد ذكر الحافظ ابن حجر حديث أبي سعيد هذا في الفتح وقفى عليه بقوله: واستنبط منه كراهة الفرح في أعياد المشركين والتشبه بهم وبالغ الشيخ أبو حفص الكبير النسفي من الحنفية فقال: من أهدى فيه بيضة إلى مشرك تعظيما لليوم فقد أشرك اه فأمثال هذا الحنفي من الفتانين من المنفرين عن الاسلام بتشديداتهم بغير علم

ولا يصح بحال من الاحوال أن تقاس الاعياد السياسية الدنيوية، على أعياد المشركين الدينية، وإنما يظهر القياس عليها في أعياد الموالد التي يحتفلون فيها بتعظيم الانبياء والصالحين فيجعلونها من قبيل الشعائر الدينية الاسلامية فهذا من قبيل التشريع الذي لم يأذن به الله، والاعياد السياسية ليس فيها من هذا المعنى شيء، وإنما يحكم عليها بما يفعل في احتفالاتها فان كان فيه منكرات محرمة كشراب الخمر مثلا كانت حراماً وإلا فلا

فان قيل وما تقول في انفاق المال فيها؟ فالجواب ان انفاق المال في المباح مباح وفيما فيه مصلحة راجحة مستحب، وهذا ظاهر في انفاق الافراد لاموالهم. وأما انفاق الحكام لاموال الامة فلا يظهر فيها الاول بل لابد في حل الانفاق لولي الامر ان يكون فيما يرى فيه مصلحة للامة.

وكذلك احداث ما يدل على خدمة بعض الافراد للامة وحكومتها من وسام وغيره إذا ثبت لأولي الامر ان فيه مصلحة كان جائزاً لهم أو مستحبا وان اشتمل على مفسدة محرمة كان محرما وان لم تكن فيه مصلحة ولا مفسدة كان عبثاً مكروها والله أعلم

السيرة النبوية

﴿ بقلم المسيو مونته المستشرق السويسري ﴾

تقدم لنا في الجزء الماضي من المنار كلام على ترجمة جديدة للقرآن بقلم المسيو مونته مدرس الألسن الشرقية في جامعة جنيف . ونقلنا إلى العربي المقدمة التي صدر بها هذه الترجمة

وترانا الآن ناقلين بعض فصول مما حرره الاستاذ مونته بعد المقدمة لما فيها من الآراء الجديرة بالمطالعة ولما فيها من الانصاف وان كنا ننبه القراء إلى أن المسيو مونته لم يكن مسلماً وان شهادته بحق الاسلام لايمكن أن تحمل على تأثير عقيدة أو تربية اسلامية

تكلم المسيو مونته على العرب قبل الاسلام توطئة لموضوع البعثة المحمدية فقال:

« جاء الاسلام في الشرق انقلابا عميقاً إلى أقصى ما يمكن في الافكار السياسية والدينية والفلسفية والادبية قد قلب الادب الذي كان في الشرق رأساً على كعب بحيث نجد من الضروري أن نبين ببعض لمحات كيف كانت بلاد العرب مهد الاسلام قبل ان قام محمد بالاصلاح الذي قام به

ان التقاليد العربية قد هضمت كثيراً من حق الدور العربي الذي سبق الاسلام وحقرت الاجداد الذين كانوا وثنيين ولم تنظر إلى الاحوال الاجتماعية التي كانت عليها بلاد العرب القديمة وأطلقت على ذلك الدور لقب (الجاهلية) وليس هذا مطابقاً للواقع (*

فيكفي أن نذكر تلك (المعلقات) الخالدة طرائف ابداع أولئك الشعراء الوثنيين وان نروي أشعار امرىء القيس وطرفة وزهير وعنترة الخ لنحكم بظلم

---

*) المنار : قد بينا مزايا العرب قبل الاسلام بما لم يبلغ موسيو مونته أقله ونقول مع هذا أن المراد بتسميتهم جاهليين وثنيتهم وأميتهم فهي جاهلية بالنسبة الى الاسلام وما نالوا من سيادة وحضارة وعلم

هذه التقاليد. كلا. لا يجوز أن نسمي الدور الذي فيه ارتقت الفصاحة العربية هذا الارتقاء كله وبلغت فيه لغة العرب درجة الكمال (جاهلياً)

ثم اورد الاستاذ مونته شواهد على عبقرية أولئك الشعراء من كلام عنترة وأخذ يبين مافيها من ابداع وانتهى إلى القول « بأن الروايات التقليدية والاشعار الباقية من الدور المتقدم على الاسلام والاغاني الهُذَلية أناشيد شهيرة طبعها مع ترجمتها فلهاوزن الالماني سنة ١٨٨١ قد تظهر عرب الجاهلية بمظهر أمة غير قارئة ولا كاتبة وغير مهذبة بل أمة من بعض الجهات بربرية إلا انها امة كانت على بعض أخلاق عظيمة هي الاصل في عظمة الامة العربية في كل عصر » قال:

ان العرب قبل الاسلام كانوا بحسب هذه التقاليد ماديين لا يعرفون سوى الحرب والعشق والخمر والميسر، وانه لم يكن ثمة مبادىء عالية يلوون عليها، وفي ذلك بدون شك مبالغة لاننا في الحقيقة نجد في جانب هذه المعيشة المادية الخشنة عند العرب عاطفة شديدة للحرية تجعل هذا الشعب محبوبا عندنا. وان فضائل الانفة والحمية هي كلها من مزايا العرب فالعربي يبذل حياته بلا مبالاة دفاعاً عن قضية يراها حقاً، ويرى على نفسه فرضاً لا محيد عنه أخذ ثارات ذوي قرباه. وانك تجد حس الشرف والحياء بالغاً عنده الحد الذي ليس وراءه حد. وقد قال أحد شعراء الحماسة: ان الشجرة لاتعيش إلا اذا دامت لها قشرتها وان الانسان لاحياة له إلا اذا بقي فيه الحياء.

نعم بجانب هذه الفضائل الباهرة ظلمات شديدة مثل إباحة تعدد الزوجات بدون تحديد، والاذن للرجل بالطلاق بدون ادنى قيد، والنظر إلى المرأة بنظر احتقار زائد، ووأد البنات، والغزو والسلب وقتل الانسان للانسان لأخذ ماله. فأما الديانة فعبادة اوثان فظة وعادات مناسبة لهذه العبادة. وكانوا يعبدون الاشجار والاحجار، وكانت الكعبة هي مركز الوثنية وفيها ثلاثمائة وستون صنما من اصنام القبائل المتعددة. وكانت قريش سادة مكة وأسواقها تحرص على سدانة هذا المعبد لاجل أن تستجلب اليها العرب بواسطته

ثم ذكر مونته الاصنام وعدد اسماءها كاللات والعزى ومناة وسواع

ويغوث الخ ولكنه قال ان عبادة هذه الاصنام قبل الاسلام بقليل كان عراها الفتور وأصبحت من قبيل العادة وكانت الشكوك تحوم حول مسئلة الآخرة وإنما كانوا يزورون القبور ويقولون للميت لاتبعد

ثم ذكر انه مذ القرن السادس للمسيح ظهرت روح دينية كان يقال لأصحابها [الحنفاء] فكانوا يؤمنون بإله يجعلونه فوق كل شيء (١) وكانت اليهودية والنصرانية دخلتا الى جزيرة العرب وانما كان يمثلهما بعض تجار لاسيما تجار الخمر . وكان منهما بعض نساك متعبدين مبعثرين في الفلوات لكن لم يكن لهم تأثير من جهة مصير الامة العام . وبالاجمال كانت حالة العرب الاجتماعية من الجهة الدينية والادبية من الانحطاط الشديد بحيث كان من الضروري لها [ظهور مصلح كبير]

ثم ذكر ولادة النبي صلى الله عليه وسلم عام الفيل وذكر معنى اسمه المشتق من الحمد وروى قصة أبرهة وغزوة مكة على فيل ابيض الى أن قال

ان عبد المطلب كان قد مسه الفقر بسبب ما كان ينفقه على الحجاج في مكة فلما مات عبد الله والد محمد بعد ولادة ابنه بقليل لم يترك له من الارث سوى بيت سكن وجارية وخمسة جمال . وبحسب عادة القوم أعطي محمد صلى الله عليه وسلم إلى مرضع بدوية وربي في البادية ولما كان في السادسة من عمره توفيت أمه فكفله جده عبد المطلب ولما مات عبد المطلب بعد ذلك بسنتين كفله عمه أبو طالب. ورعى محمد الغنم في حداثة سنه . ولما صار في الرابعة والعشرين من عمره اتجر لخديجة أرملة كانت موسرة فكان يذهب بقوافلها ويأتي فأحسن العمل حتى مالت خديجة إليه وتزوجت به وهي في الاربعين من العمر وكان هو ابن خمس وعشرين سنة ، ومع هذا الفرق في العمر كان الزواج سعيداً جداً حتى ان عائشة التي تزوجها محمد صلى الله عليه وسلم فيما بعد كانت تغار من خديجة بعد موتها لشدة ما كانت تسمعه من تذكر محمد صلى الله عليه وسلم لخديجة وكان محمد صلى الله عليه وسلم معروفا بالاستقامة وكان الجميع يلقبونه بالامين «وليس في أيدينا صورة خلقية حقيقية لمحمد تمثل لنا شكله بل جميع الصور

---

(١) المنار : الحنيفية هي دين ابراهيم واسماعيل والثاني هو الذى بثها في العرب ثم طرأت عليها الوثنية

والتماثيل التي نشرت عنه (الافرنج المولعون بالصور والتماثيل جعلوا منها أيضاً للنبي ﷺ) هي من عمل الخيال »

إلى أن قال :

« ان الروايات العربية تركت لنا عنه هذه الصورة وهي انه كان مهيباً عظيم الرأس عريض المنكبين مستدير الوجه يشعر وجهه الصدق أسود العينين مستطيل الحواجب أقنى الانف كث اللحية . وكان زائد الشعور رقيق الاحساس الى الدرجة القصوى »

« وقد زعم بعضهم ان شدة إحساس محمد ﷺ الذي كانت تحصل له منه نوبات شديدة قد تحولت الى مرض عصبي هو مرض الصرع . وليس في اليد ما يثبت هذا القول الذي منشؤه رواية عربية لم تسمع الا بعد عصر محمد بمدة طويلة وآراء بعض المؤرخين البيزنطيين المعروفين بالعداوة لشريعته فلانجد في هذه الاقاويل شيئاً متيناً نبني عليه »

قال : « وكان محمد (ص) معروفا ببساطة المشرب محبوب الاخلاق حلو الحديث ذا تأثير خاص في حديثه . وكان من أخص مزاياه صحة الحكم وصراحة القول وشدة الاقتناع »

ثم ذكر مونته ماقاله ابو الفدا من شمائله ﷺ مما لم نجد لازما ترجمته لان أصله عربي فجدير بالقاريء أن يراجعه في تاريخ ابي الفدا بنصه الاصلي ولكننا نقول ان على كل من يعنى بتهذيب النشء وبطبع الشبان على الاخلاق الفاضلة ان يقرأ لهم هذه الشمائل النبوية التي ليس في تحريرها شيء من المبالغة المعهودة في وصف الانبياء والرسل ، وإنما هي حكاية أحوال النبي الكريم كما كانت بدون زيادة ولا نقصان . ولعمري لايقرؤها من كانت له صفحة نفس صافية شفافة ويتأمل فيها الا استهل الدمع من محاجره

ثم أشار مونته إلى تعدد زوجات النبي ﷺ وقال انه اجتمع له إحدى عشرة زوجة وذلك ان العرب يومئذ كانوا يكثرون جداً من الزوجات قال « فلايصح لنا أن نشتد في الحكم من هذه الجهة ونطبق عليها قاعدة الزوجة الواحدة التي هي

عمدة المدنية الحديثة ثم ذكر الاستاذ مونته انه مع عاطفة محمد ﷺ إلى النساء لم يكن يرى فيهن درجة الرجال وانما وصف منهن بالكمال آسية امرأة فرعون ومريم ام عيسى وخديجة زوجته الاولى وفاطمة ابنته

قال « ولم يوح إلى محمد حتى بلغ الاربعين من العمر الا انه كان قبل ذلك كثير التأمل في الخلوات، وكانت تعتريه نوبات عصبية [1] يشهد اثناءها مشاهد الى أن تمثل له الملك السماوي . ولا شك أن هذه الحوادث الروحية التي وقعت له انما جرت من ثورة نفسه القوية في أعماق ضميره على عبادة الاوثان وعلى حطة الآداب اللتين كان عليهما أهل عصره »

ان المسيو مونته ليس مسلما ليعتقد في البعثة مانعتقده نحن بتمامه . لكنه في كلامه هذا يثبت ان النبي ﷺ لم يأت بشيء زعمه من نفسه بدون أن يعتقده وهذا خلافا لكثير من مؤلفي الافرنجة الذين كانوا يطعنون في محمد ﷺ ويجعلونه قائلا مالا يعتقد . ولقد ضعف هذا الرأي في الاعصر الاخيرة ومال أكثر المؤرخين من عهد كارليل الانكليزي إلى اليوم الى الرأي الذي عليه الاستاذ مونته وهو أن محمداً كان صادقاً وانه لم يحدث بما لم يشهد ولم يسمع . واننا اذا أنعمنا النظر في عبارة مونته نفسها لانجد فيها شيئاً ينافي نزول الوحي من الله على محمد ﷺ لانه في قوله انه كانت تحدث له نوبات عصبية تتمثل له في أثنائها الملك لايفيد بالضرورة أن النوبات العصبية هي نفسها التي مثلت الملك . وكذلك في قوله ان نفس محمد ﷺ ثارت في أعماق ضميره على ما كان فيه

---

(١) المنار : الحق ان النبي ﷺ لم تكن تعتريه قبل النبوة نوبات عصبية الخ وانما صار يعرض له في حالة تجلي الملك له مايشبه ذلك وهو ما عبر عنه ابن خلدون بالانسلاخ من البشرية والاتصال بالملكية

وكان عند انجلاء هذا التجلي يتلو ما تلقاه فيه من القرآن وقد يكون سورة طويلة كسورة الانعام ، وما كان للنوبات العصبية أن تثمر في أثنائها هذا العلم والعرفان، وفي عاقبتها هذه القوة في الايمان والايقان ، والمضاء في اصلاح العقول والارواح والابدان ، وكل مايرفع قدر الانسان

أبناء عصره من عبادة الاصنام وانحطاط الآداب لايوجب أن يكون الوحي هو عبارة عن ثورة نفسية لاغير

بل الحق عز وجل الذي له خرق العوائد في المعجزات له أن يهيء المعجزة بأسباب طبيعية تمشي على النواميس الكونية الى أن تتجلى أخيراً بالأمر الالهي المباشر (١) فالله تعالى الذي أراد أن يهدي البشر وأن يردعهم عما كانوا منغمسين فيه من إلحاد في الدين واباحة في العرض، قد أراد أن يؤيد رسالاته السابقة اليهم التي طال عليها الامد وقست من بعدها قلوبهم، وان يعززها برسالة جديدة مبنية على العقل الذي ليس وراءه للمرء مذهب، وأن يجعل هذه الرسالة خاتمة الرسالات كما كان العقل هو خاتمة الادوات التي بها يعرف المخلوق خالقه. فكذلك ابتعث من البشر أشدهم قبولا للوحي السماوي وأعظمهم ثورة على عبادة الاوثان وأكثرهم استعداداً (فطريا لا كسبيا) لادراك طرف من خزائن الغيب الذي لايعلمه بأجمعه الا الله. وما محمد الا الذي أوجد فيه الله هذا الاستعداد التام. فانت ترى ان كلام مونته وان لم يكن مسلما لايناقض عقيدة الاسلام في كيفية الوحي الذى أوحاه الله لرسوله.

ثم قال مونته ما ترجمته بالحرف:

« فالرسول الالهي الملك جبريل تجلى على محمد لاول مرة في جبل حراء بقرب مكة وبيده ورقة وقال له مرتين « اقرأ » فاجابه محمد « لست بقارىء » فتلا جبريل الآيات الآتية التي تجدها في السورة السادسة والتسعين (اقرأ باسم ربك الذي خلق) السورة (٢)

« ثم غاب الملك بعد ان ألقى هذه الكلمات. فذعر محمد ﷺ من هذه الرؤيا ولم يعرف ماذا يقول عنها ولجأ إلى زوجته خديجة التي وجد عندها المعونة

---

(١) المنار: في هذه العبارة غموض سيأتي بيان الحق فيه (ص ٥٣٣) والاصل في المعجزات أن تكون خرقا للعوائد ومخالفة للاسباب الطبيعية مع جواز أن تكون جارية على سنن ونواميس غيبية

(٢) الذي نزل منها يومئذ هو الآيات الخمس الأولى وآخرها (علم الانسان مالم يعلم)

الروحية التي كان ينشدها . ولما لم تكرر عليه هذه الرؤيا في المدة التالية لتلك الليلة الخالدة الذكر خشي ان يكون قد مسه الشيطان لان الاعتقاد بقوة الارواح الخفية وتأثيرها كان منتشراً في بلاد العرب . ولقد كان محمد في أوقات أخرى معتقداً بانه مظنة لطف مخزون خاص، وان كل ما كان يراه كان حقاً، إلا انه أخذته الشكوك هذه المرة ووقع في الحيرة . فأصبح لايعلم أهناك رسالة إلهية ام اصابه مس ؟ ففي هذا الدور الذي تطاول نحو ثلاث سنوات كانت زوجته خديجة واسطة إلهية في انعاشه وتسرية مابه واقصاء الافكار السيئة عنه وتشجيعه على القيام بتأدية الرسالة التي كان يعتقدها في نفسه

« وفي أثناء هذه الازمة ظهر له الوحي ثاني مرة بواسطة جبريل الذي بحسب الروايات ناداه : يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فجاء إلى زوجته خديجة وقد ثقلت عليه الافكار إلى حد ان أخذ يرتجف وقال لخديجة أن تغطي رأسه أملا بان يتفادى ثقل مايرى . وإذ ذاك سمع صوتاً إلهياً يقول له (ياأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر) السورة (١)

ومن ذلك الوقت تتابع الوحي وكانت وحدانية الله ورسالة محمد هما قاعدة ذلك الوحي الذي كان محمد مقتنعاً انه نزله الله عليه »

انتهى كلام الاستاذ مونته في هذه المسئلة فلنقابل به كلام علمائنا أنفسهم ولنتخذ مثالا طبقات ابن سعد قال

الروايات في بدء الوحي

« أخبرنا محمد بن حميد ابو سفيان العبدي (٢) عن معمر عن قتادة في قوله (وأيدناه بروح القدس) قال هو جبريل . أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني معمر ابن راشد ومحمد بن عبد الله عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت كان أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح قالت فمكث على ذلك ماشاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن

(١) المنار : الذي نزل منها يومئذ سبع آيات آخرها (ولربك فاصبر)

(٢) كذا في الاصل والصواب المعمري نسب الى شيخه معمر لانه رحل اليه ولازمه

شيء أحب اليه منها وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله (تحنث وتحنف بمعنى تعبد) ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء . أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني ابراهيم بن اسماعيل بن ابي حبيبة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال فبينا رسول الله ﷺ على ذلك وهو باجياد إذ رأى ملكا واضعاً إحدى رجليه على الاخرى في أفق السماء يصيح يامحمد انا جبريل يامحمد انا جبريل فذعر رسول الله ﷺ من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء فرجع سريعاً إلى خديجة فأخبرها خبره وقال ياخديجة والله ماأبغضت بغض هذه الاصنام شيئاً قط ولا الكهان واني لأخشى ان أكون كاهناً ، قالت كلا ياابن عم لاتقل ذلك فان الله لايفعل ذلك بك أبداً انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الامانة وان خلقك لكريم . ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهي أول مرة أتته فأخبرته ماأخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة والله ان ابن عمك لصادق وان هذا لبدء نبوة وانه ليأتيه الناموس الاكبر فمريه ان لايجعل في نفسه إلا خيراً . أخبرنا عفان بن مسلم أخبرنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة ان رسول الله ﷺ قال « ياخديجة إني أرى ضوءاً واسمع صوتاً لقد خشيت ان أكون كاهناً فقالت إن الله لايفعل بك ذلك ياابن عبد الله انك تصدق الحديث ، وتؤدى الامانة ، وتصل الرحم » ثم أورد ابن سعد روايات أخرى كلها في هذا المعنى وبألفاظ لاتكاد تفترق عما ذكرناه (١)

ثم أورد بن سعد الروايات عن كيفية بدء التنزيل فحذفنا الاسانيد حبا بالاختصار واعتماداً على تواتر ذلك قال : كان اول ماأنزل على النبي ﷺ (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم) فهذا صدرها الذي أنزل على النبي يوم حراء ثم نزل

١) المنار : رواية الصحيحين في هذه المسألة أوسع وأتم وأصح ومنه أنه ﷺ لخديجة « لقد خشيت على نفسي » فقالت :كلا والله لايخزيك الله ابداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق

آخرها بعد ذلك بما شاء الله .

ثم روى روايات متعددة حذفنا أسانيدها : بأن رسول الله لما نزل الوحي عليه بحراء مكث أياما لا يرى جبريل فحزن حزنا شديداً حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء مرة يريد أن يلقي نفسه منه ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك عامداً لبعض تلك الجبال الى أن سمع صوتا من السماء فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم صعقاً للصوت ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسي بين السماء والارض متربعاً عليه يقول يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل. قال فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وربط جأشه ثم تتابع الوحي بعد وحمي .

والحاصل ان ماذكره مونته يطابق روايات اصحاب السير التي اتفقوا عليها وتواترت ولم يفعل مونته ومن في ضربه من مؤرخي الافرنج المتأخرين ما كان يفعله مؤرخوهم في القرون الوسطى أو مايفعله المكابرون منهم اليوم الذين يريدون ايجاد الحوادث على وفق هواهم فيوردون في تواريخهم مايوافق مقصدهم وينبذون مايخالفه أو يكذبونه بدون دليل أو بأدلة واهية كأدلة لامنس اليسوعي

فالاستاذ مونته يقول بالحرف :

« كان محمد نبياً صادقا كما كان انبياء اسرائيل القديم . كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه . وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء اسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم هذا الالهام النفسي وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يوجدان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي هي من بابها »

فالاستاذ مونته لايتهم بمقدار ذرة محمداً بعدم الصدق والامانة وكأنه يقول لاهل أوربة : لماذا لاتعتقدون بمحمد مادمتم معتقدين بنبوات انبياء التوراة؟ فان نبوتهم مثل نبوته ونبوته مثل نبوتهم. نعم ان مونته يريد أن يكون الوحي واقعاً باسباب طبيعية من قبل شدة الاعتقاد وانفعال النفس بمؤثرات خارجية من جهة استفظاع عبادة الاوثان وما أشبه ذلك. ولكن هذا التعليل لاينفي وقوع الوحي بالامر الالهي وتهيئة مايتمثل للانبياء بالامر الالهي وأن ماينفث في روعهم ويقع في أسماعهم انما

هو بالامر الالهي [1] واذا أراد الله شيئاً هيأ اسبابه (ألا له الخلق والامر)

ثم تساءل مونته عما اذا كان محمد تلقى علماً وما العلم الذي تلقاه؟ وأجاب انه يستحيل الجواب على هـذا السؤال وانما بحسب القرآن والسنة ينبغي أن يكون أرقى اهل عصره وقطره . ثم بحث في أمية النبي الكريم وذكر ماقيل فيها وذهاب بعضهم الى كونه أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة وذهاب الآخرين الى انه يبعد ان يكون أمياً من نطق بمثل هذا الكتاب البالغ حد الكمال البياني

وعلماؤنا متفقون على ان النبي ﷺ كان أمياً لانهم لم يجدوا دليلا ولا شبهة على انه كان يحسن القراءة والكتابة . وليس إعجاز القرآن البياني بالذي يصادم روايات أمية الرسول . فان شعراء العرب الكبار كأصحاب المعلقات مثلا بلغوا أمد الفصاحة الاقصى الذي يمكن البشر ولم يكونوا يقرءون ولا يكتبون . فالنبي ﷺ أولى بأن ينزل على لسانه هـذا الكلام الأعلى وأن يبقى مع ذلك

---

(١) هذه العبارة أوضح مما سبق في معناها في ص ٥٢٩ ويظهر منها أن الكاتب أراد أن يوجه كلام مونته فيما فهمه في معنى الوحي ويجعله غير مناف لما نعتقده من معناه . ولعلنا نوضح هذا باصطلاحاتنا العلمية اذا قلنا إن مونته يجعل وحي النبوة والرسالة حالة نفسية او كوحي الالهام فان كلا منهما عبارة عن معنى يلقى في نفس الانسان في حالة وجدانية خاصة يثق بها ويعمل بموجبها غير متردد كما وقع لجان درك الفرنسية وكما ينطلق النحل بوحي غريزته في عمله المنظم ، وكل من هذا وذاك يسند الى الله تعالى لان كل شيء في الكون بخلقه قال تعالى (وأوحي ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا) الخ وقال في الالهام (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه) الخ ولكن وحي الرسالة والتشريع فوق وحي الالهام من عدة وجوه أولها صفة الوحي بالمعنى المصدري وثانيها متعلقه أي المعنى الحاصل بالمصدر ثالثها وضوح هذا المعنى وهو الموحى به وكثرته ودوامه واشتماله على علم كثير كله فوق علم الموحى اليه وأعلى من جميع خواطره النفسية رابعها علمه القطعي بصدره وانه الله تعالى وضبطه اياه وعدم تفات شيء منه خامسها وهذا ماعناه الامير بالامر الالهي ولعلنا نشرح ذلك كله في مقال خاص مع بيان الطرق الثلاثة للمعنى الاول المبينة في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء)

أمياً لا يقرأ ولا يكتب [١] قال مونته :

« ومن أشد الآيات سطوعا في دعوة محمد الدينية ان الذين آمنوا به قبل كل الناس كانوا اهله وأقرب الناس اليه ، وهو بين مؤسسي الديانات الوحيد الذي كان له الامتياز على الجميع بأن يستجلب الى عقيدته اقرب الخلق اليه بالدم أو بالمودة . فقد آمنت به قبل الجميع خديجة امرأته ودعيت بحق ام المؤمنين ثم ابن عمه علي بن أبي طالب ومعتقه زيد أحب الناس اليه وصديقه عثمان وأبو بكر أبو امرأته عائشة » انتهى

وهذا الرأي في ان الايمان بمحمد من أقرب الناس الى محمد هو من أنصع الدلائل على صدقه لانه لو كان ثمة اقل داع للشبهة لكان هؤلاء الخلطاء الملازمون الاقربون أجدر بأن يلحظوه هو رأي عدد كبير من الباحثين والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين المعاصرين ومنهم المستر ولز الانكليزي الشهير الذي أخرج في سنه ١٩٢٦ كتابا عظيما في التاريخ العام ولم يخل في كلامه على السيرة النبوية من بعض أوهام إلا انه أنصف في كثير من المواضع من جملتها هذه النقطة ، وسننقل الى المنار طائفة من كلام ولز عن الرسول وعن الخلفاء الراشدين وعن مدنية العرب الباهرة كما اننا سنعود إلى كتابي الاستاذ السويسري مونته وعلى الله التوفيق

لوزان ٥ يناير سنة ١٩٣٠ شكيب أرسلان

---

(١) هذا التعليق غير كاف بل يجب ان يعلم مونته ان كونه ﷺ أميا امر قطعي رواية وعقلا فانه منصوص في عدة آيات من القرآن المتواتر. والمعقول الذي لا يعقل غيره انه لو كان القرآن من كلام (محمد) بالهام أو بغير إلهام لما صح عقلا ان يصف فيه نفسه بهذا الوصف اذا كان غير صحيح وان يحتج به على المكذبين له بمثل آية (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . اذا لارتاب المبطلون) ولانه لو احتج عليهم بهذا وهم يعلمون خلافه لاعطاهم حجة على تكذيبه في أنفسهم وأسنتهم . وأما قول مونته بذهاب آخرين الى أنه يبعد أن يكون أميا من نطق بهذا الكتاب البالغ حد الكمال البياني - فيقال فيه انه رأي لا رواية ، والمثير لهذا الرأي إرادة الهرب من البرهان اللازم اللازب على كون هذا القرآن لا يمكن أن يصدر عن أمي فلا مفر لمن يؤمن بالله عن الايمان بانه وحي من لدنه ، وأنه ليس لمحمد ﷺ شيء منه الا وعي هذا الوحي وحفظه ما كان يلقى اليه وتبليغه للناس كما أنزل ، وهذا الحفظ والتبليغ ليس ببعيد عن العقل

مناظرة

في مساواة المرأة للرجل في الحقوق والواجبات

(في كلية الحقوق من الجامعة المصرية)

وقعت هـذه المناظرة بالصفة المبينة في المقالة الأولى من المقالات الآتية فكان لها تأثير عظيم في جميع الطبقات المصرية في العاصمة وسائر البلاد، وظهر لنا من هذا التأثير بما رأيناه منه وما سمعناه عنه وما قرأناه بشأنه في الصحف — أن ماكان يذيعه دعاة الالحاد من انتشار إلحادهم في النابتة المصرية المتعلمة حتى كاد يكون عاماً فيهم كذب وبهتـان، بل السواد الاعظم من شباننا سليم العقيدة يؤمن بالله وبكتابه العزيز المعجز للبشر الى آخر الدهر، ورسوله محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم اجمعين ويغارون على الاسلام ويؤيدون من يدافع عنه، على ضعف تعليم الدين في المدارس كلها، واهمال تربيته الصحيحة فيها وفي أكثر البيوت أيضاً، وعلى مافي هذه البلاد ولا سيما عاصمتها من حرية الكفر والفسق

واننا ننشر هذه المقالات التي كتبناها ونشرناها في جريدة كوكب الشرق الشهيرة إجابة لاقتراح بعض طلاب الجامعة الغيورين، وسننشر بعدها بعض مانشر في الجرائد في موضعها وما كان من تأثيرها

المقالة الاولى في صفة المناظرة

كان بعض طلبة كلية الحقوق من الجامعة المصرية زاروني في مكتبي وأخبروني أن لجنة الخطابة والمناظرات للجامعة تختارني لمناظرة الاستاذ عبد الوهاب عزام في موضوع «حرية المرأة كالرجل» اذا كنت أقبل أن أكون المعارض له فيه، فقلت لا مانع لدي من القبول

ثم زارني اثنان آخران بعد المغرب من يوم الثلاثاء (سابع شعبان ويناير معاً) وألقيا إلي طائفة من رقاع الدعوة من تلك اللجنة «لحضور مناظرتها الاولى التي تقام في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الاربعاء ٨ يناير سنة ١٩٣٠ بكلية الحقوق بحدائق الاورمان بالجيزة برياسة النائب المحترم محمد توفيق دياب موضوعها «يجب مساواة المرأة بالرجل»[1]

«وسيؤيد الرأي الدكتور محمود عزمي والآنسة هانم محمد الطالبة بكلية العلوم — وسيعارض الرأي حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد رشيد رضا ومحمد افندي شوكت التوني الطالب بكلية الحقوق» هذا نص الدعوة

فلم أجد بداً من قبول الدعوة مع العتاب على ترك استشارتي في الأمر قبل يومين أو ثلاثة أيام، لعلمي[2] انها مناظرة بين الدين والالحاد — وقد ذهبت قبيل الموعد ولما دخلنا حجرة المناظرة ألفينا مدارجها مكتظة بطلبة كليات الجامعة وغيرها من المدارس وبعض مجاوري الازهر الشريف وفي أدناها كثير من كبار الفضلاء والاستاذين كان تجاهي منهم صديقنا أحمد شفيق باشا من عشاق العلم والعمل، ثم اشتد الزحام حتى كثر الواقفون في أثناء المدارج وجوانبها وأعلاها وفي طريقها أيضاً وقدرهم الرئيس بألف نسمة أو أكثر

وما زال الناس يهرعون حتى غص بهم المكان وصاروا يتدافعون في

---

١) وضع هذا العنوان خطأ من لجنة المناظرة لانه حكم بالباطل في موضوع تطلب المناظرة فيه (٢) هذا تعليل لقبول الدعوة على شذوذها وعدم لياقة المناظرة بي، ووجهه انني أريد اظهار ضلال هذه الآراء في المدرسة الجامعة

الابواب وكاد يتعذر حفظ النظام، ولكن الرئيس الموكول اليه ذلك تمكن بحزمه وفصاحته وصوته الجهوري من تسكين المتحركين، وتسكيت المتكلمين، ثم من كف تصدية المصفقين، وافتتح الكلام ببيان موضوع المناظرة والتعريف بالمتناظرين: الموجب منهم للموضوع، والسالب المعارض له، والمؤيد لكل منهما، وما للسامعين من حق ابداء الرأي بالكلام في كل من جانبي السلب والايجاب، وبيان الوقت المحدد لكل متكلم — وهو عشرون دقيقة لكل من الاولين، وخمس عشرة دقيقة لكل من الرديفين، وخمس دقائق لمن يريد تأييد أحد الجانبين

ثم طريقة أخذ الاصوات وهي أن يخرج الذين يرون عدم المساواة من الباب الايمن، ويخرج الذين يرون وجوب المساواة من الباب الايسر، فيجد كل منهم صندوقا خارج الباب يضعون فيهما البطائق المطبوعة التي وزعت عليهم بعد أن يكتب كل منهم فيها اسم من يؤيده ويرى رأيه وامضاءه هو. ثم على لجنة المناظرات أن تحصي بطاقات أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وتعلن النتيجة لمن شاء الانتظار، ومن لم يشأ قرأها في الصحف غدا — ثم أذن للدكتور محمود عزمي بالكلام

خطاب محمود عزمي

كان هذا الخطاب مكتوبا بالاسلوب الخطابي الذي يقصد به التأثير بخلابة القول وما يزينها من المعاني الشعرية، ولعله ينشره في بعض الجرائد اليومية التي يبث فيها دعايته وآراءه (١) وقد بدأه بقضايا ظن انها كليات لاشكال منطقية يلزم من تسليمها النتيجة المطلوبة، والحق انها في عرف المنطق الصحيح إما شخصية وإما جزئية لايصح تأليف الاشكال المنتجة منها، وان ماقد يضاف اليها من الكليات لايمكن أن يكون مسلما فيحتج بنتيجتها، وقد سماها منطقية وهي تسمية مردودة عند من له إلمام بعلم المنطق، وما في باب الحجة والقياس من الشروط في تأليف الاشكال المنتجة للبرهان

ذلك أنه ذكر أسماء بعض النساء في أوربة وفي الشرق من معاصرات

(١) كنت ظننت انه ينشره ولعله لم يفعل لما ظهر من قوة حجتنا على بطلانه

وغابرات «كمدام كوري» وملكة هولندة وأميرة «لوكسمبرج» وخالدة أديب والأميرة نازلي هانم وهدى هانم ومي و(سيزا نبراوي) وإحسان أحمد وأم المحسنين وأم المصريين من المعاصرات، وكسارة وهاجر ومريم وفاطمة وعائشة وكليوبترة وشجرة الدر وغيرهن من نساء التاريخ

فالقضايا التي تتركب من هذه الاسماء تسمى في المنطق قضايا شخصية لا يصح أن يتألف منها منفردة ولا مجتمعة قياس برهاني على وجوب مساواة النساء للرجال في جميع الحقوق والواجبات، وذكر أيضاً بعض أعمال النساء العامة في أوربة وما كان من جهودهن في إبان الحرب العظمى وهؤلاء وإن كن كثيرات لا يصح الاحتجاج بهن على المطلوب، لانها جزئيات لم تصل الى حد الاستقراء التام الذي يفيد البرهان اليقيني، ولا الاستقراء الناقص المنطقي الذي يفيد الظن دون اليقين

فالاستقراء عند المنطقيين: قول مؤلف من قضايا ناطقة بالحكم على الجزئيات لاثبات الحكم الكلي، فان كان الحكم فيها على جميع الجزئيات سمي استقراء تاما كقولنا كل جسم متحرك بالقوة أو بالفعل، وإن كان الحكم فيه على أكثر الجزئيات سمي استقراء ناقصاً ومثلوا له بقولهم: كل حيوان يتحرك فكه الاسفل عند المضغ، بناء على أن أكثر ماعرف من أنواع الحيوان كذلك لا كلها

وقد قال موجب المساواة بعد ذكر ماتقدم إنه يدل عليها دلالة منطقية ولهذا ذكرنا الاصطلاح المنطقي في ابطال قوله وان المنطق لا يدل على ذلك دلالة يقينية ولا ظنية، وأما أسلوبه الخطابي أو الشعري في منطقه هذا فهو أنه قال: ما كنت أحسب وقد ملأت الدنيا أنباء الفضليات من النساء اللاتي يضربن الآن بسهم في مختلف نواحي النشاط البشري الراقي وفي الملك الدستوري النابه (؟) وفي ادارة شؤون الدول وفي كذا وكذا — ما كنت أحسب ولا يزال يطن في آذاننا جميعاً دوي تلك الجهود الهائلة التي قام بها النساء خلال الحرب الكبرى وقد استحلن عمالا خشنين (؟) يبرزن (؟) على الرجال في المعامل والمصانع المدنية منها والعسكرية وفي كذا وكذا — ما كنت أحسب وتعاليم التاريخ العام والخاص

منتشرة بينكم فتعرفون منها ما كان على البشرية من فضل لسارة وهاجر وأم هارون ومريم وفاطمة وعائشة الخ — ما كنت أحسب وأنتم تتبعون أثر الاميرة نازلي واجتماعات قصرها في تكييف ملكة التفكير العام عند من تدينون له بالزعامة فيما شهدت منكم من حركة قومية الخ

وما زال يقول « ما كنت أحسب » ويذكر جملا حالية معروفة حتى جاء بإتمام الجملة فقال: ما كنت أحسب وكل هذه الظروف تكتنفنا أن وجوب تسوية المرأة بالرجل في الحقوق والواجبات يمكن أن يكون محل مناظرة . — لانها في رأيه كما نقل عن الاستاذ (لالند) قد « كانت يوم قال بها (المفتون الاول) خيالا من الخيالات، ولانها أصبحت اليوم بدهية من البدهيات ، وحقيقة من الحقائق العلمية التي لا يماري فيها إنسان »

ولعمري إن هـذا قول لا يقوله انسان يفهم معنى البداهة ومعني الحقيقة العلمية إلا على سبيل الخلابة ، إذ ليست المسألة من البديهيات ولا من الحقائق العلمية في عرف هذا العصر، فالبديهي في عرف أهل المنطق مالا يتوقف حصوله على نظر ولا كسب كتصور الحرارة والبرودة والتصديق بأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ولو كانت كذلك لما احتيج الى المناظرة فيها كما قال ، ولما كانت نتيجة التصويت فيها تأييد المعارضة ونبذ بدعة المساواة المطلقة بالا كثرية الساحقة الماحقة ، بل لما كانت هذه النظرية من البدع العصرية التي نجم قرنها في هذا القرن المضطرب، الذي لم يستقر بعد على حال من القلق

بعد إلقاء الدكتور عزمي لهذه المقدمات العقيمة ، التي لا تنتج على تقدير تسليمها وما هي على علات بعضها بمسلمة ، شرع في بيان الحقوق فقال إن أولها حق الوجود واستنشاق الهواء كالرجل لانها كائن موجود مثله سواء ، وإن النتيجة المنطقية لذلك هي تمزيق الحجاب وهتك الستر والاختلاط مع الرجال في كل مجال . فهو القاعدة الاولى لحق الوجود . وأفاض في مدح هذا الاختلاط وعده من مهذبات الرجل في ملبسه وزينته وكلامه وتفكيره ، واستشهد على

ذلك برحلته الاخيرة إلى فرنسة فذكر انه كان يحلق ذقنه كل يوم مرة اومرتين لأجل الاجماع بالنساء !؟

وذكر أيضاً من مزايا هذا الاجماع بهن التفكير الطاهر البريء !! (سبحان الله وبحمده) ثم ثنى بذكر حق تعلم المرأة لأجل التثقف وتهذيب نفسها وغيرها كالرجل وانتقل منه إلى حق الحياة في المجتمع ، ومنه أن يكون لها حق اختيار الزوج وحق الطلاق ، واتقاء مايهدد حياتها من عواصف تعدد الزوجات

وقفى عليه بحق الاشتراك مع الرجل في تربية الاولاد وتوجيه أنفسهم الى الاعمال وعطف على هذا حق الامتلاك بالارث والكسب ، فارتطم ههنا في حمأة مصادمة الشرع ، إذ زعم انه يجب مساواة الانثى للذكر في الارث ، فكان كعاصفة على البحر ، اضطرب جمهور الموجودين لها كاضطراب الموج ، واصطخبوا كاصطخابه عند ما يتكسر على الصخر ، وأرادوا منعه من الكلام ، فقام الرئيس ورفع عقيرته بالتضرع اليهم أن يحفظوا النظام ، ولما أمكن إتمام القول لجأ الى التأويل ، فزعم أن مسألة الارث عند كثير من علماء الشرع ليست كمسائل العبادات التي يجب المحافظة عليها والجمود على نصوصها بل هي من مسائل المعاملات المالية التي يجوز تعديلها وتغييرها بحسب تطور الزمان والمكان (!!)

قال : وإذا تعنتت معنا أصحاب الجمود على الآراء الدينية فلماذا لا يتعنتون في تعديل قواعد الحدود الشرعية كرجم الزاني والزانية وقطع يد السارق ورجله من خلاف (أو قال ايدي وأرجل وفيه ما فيه على كل حال) فان الحدود قد عطلت وهم ساكتون فليسكتوا إذاً على تغيير احكام الميراث . والدليل على ان هذه الاحكام لا يمكن الاستمرار عليها ان المسلمين انفسهم قد شعروا بذلك فرأوا الخروج من هذا الجمود بالوقف الذي هو عبارة عن حيلة يجيزها الاسلام الصحيح للخروج من الشيء إلى ما هو اوسع منه . وقد جزم الحكم ، بان أبناءنا سيرون هذا التغيير ان لم نره نحن ! !

وختم هذه الحقوق بالحق السياسي وهو أنه لما كانت المرأة عنده كالرجل من كل وجه وجب ان يكون لها الحق في جميع أعمال الحكومة ووظائفها والانتخاب

لمجالسها . وقد حال انتهاء مدة كلامه بيان افاضته فيها ، فسكت مسخوطا عليه من الكثيرين ، وصفق له الاقلون ، وقد علمت بعد الخروج ان أكثرهم من غير المسلمين وأقلهم من ملاحدتهم ، وقد عبر عن ذلك من نقل أخبار المناظرة لجريدة الاهرام (أحمد الصاوي) بغير تدقيق بقوله « الى هنا هتف الشباب لحامي الشباب » وما كان ثمة من هتاف ، ولولا راوية الاهرام لم نذكر هذه المسألة

ردنا الاجمالي

ما كان الوقت الذي وقت لنا بالذي يتسع للرد التفصيلي وبيان ما في هذه المسائل من حق وباطل ، ولا بالرد الاجمالي المفيد على كل منها ، فاكتفيت بتفنيد مقدماتها في فاتحة الكلام ، وأرجيء الرد التفصيلي الى المقالات التالية التي اقترحها عليّ الكثيرون من أولئك الطلاب النجباء ، وأذكر أولا ملخص الرد الاجمالي الذي ألقيته في مجلس المناظرة ، مع شرح قليل أميزه عنه لتعميم الفائدة

قمت باذن الرئيس فقوبلت بتصفيق قوي شديد من جميع الجوانب طال أمده ، حتى تعبت مع حضرة الرئيس في التوسل الى الجمهور بالكف عنه ، وقد سكت عن ذكر هذا راوية الاهرام ، وما قاله عني بعضه غير صحيح ، وبعضه غير دقيق ، كما يعلم من بياني الآتي له

المقالة الثانية

(في ردي الاجمالي في المناظرة)

شهادة راوية الاهرام

أراد راوية الاهرام (أحمد الصاوي) أن ينصر ما خذل الله والمؤمنون من دعاية الالحاد ، ويخذل ما أيد الله والمؤمنون من حق الدين وإصلاح الاسلام ، فسمى الداعي الى ترك القرآن و نبذ الاسلام «محامي الشباب» وزعم أن الشباب هتفوا له ، وهذا يتضمن الشهادة على جميع أولئك الشبان بالالحاد ، وهي من شهادة الزور التي يسجلها عليه الدكتور عزمي نفسه ويبرىء منها ذلك الاجتماع ، فقد قال لي الدكتور عزمي على مسمع من الناس : انك غلبتني فان الذين أعطوني أصواتهم ٢٦١ وليس لي

غيرهم ، وان الذين أعطوك أصواتهم ٣٦٣ وان الاكثرين خرجوا من غير أن يعطوا أصواتهم (إذ لم يكن معهم بطائق التصويت) ولو أعطوها لكانوا كلهم معك و لعلهم ٧٠٠ أو يزيدون. وهذا من حرية عزمي وصراحته النادرة

ثم قال راوية الاهرام: وقام الاستاذ صاحب الفضيلة الشيخ رشيد رضا فكان من اللباقة بحيث لا يصطدم بالصخر مغمض العينين فاعتذر بأنه لم يحضر الموضوع وانه لم يسمع به إلا يوم أمس ، وما كان له نصف ساعة يستجمع فيها ما هو بحاجة اليه من وثائق الدفع » الخ

وأقول ما كان له لولا ما ذكرت من نزعته وشهادته أن يسمي دفاعي بالحجة والبرهان ، عن الحق الذي أنزله الله تعالى في القرآن ، اصطداما بالصخر الجلمود ، ويزعم انني اعتذرت عن ضعفي بعدم الاستعداد لهذا اليوم الموعود ، فوالحق الذي قام به الوجود ، ما كان صخره عندي إلا زبداً أو غثاء سيل ، او ضغثاً جمعه حاطب ليل ، وماذكرت ماتقدم شرحه في صدر المقال الاول إلا بياناً للواقع ومخالفته للمعتاد. ويعلم انني قبلت لانني لا أراني في حاجة إلى الاستعداد ، ويشهد لي طلبة الحقوق الذين كلموني في أول مرة انني اشترطت عليهم أن أتكلم بالارتجال ، وذلك ان هذه المسائل قد قتلتها بحثاً بالقول والكتابة ، والدرس والخطابة ، ومن فروعها مسألة الجمع بين الذكران والاناث في المدارس الثانوية والعالية ، وكانت الجامعة المصرية قد جعلتها موضوع مناظرة بيني وبين الدكتور محمود عزمى نفسه في السنة الماضية ، ثم أمرت الحكومة بمنعها قبل موعدها بساعة أو نصف ساعة ، فكتبت رأيي في مقال للمنار ، وجعلته قبل نشره موضوع محاضرة ألقيتها في جمعية الشبان المسلمين ، فعسى أن تنشرها جريدة كوكب الشرق بعد انتهاء هذه المقالات

قاعدتان أساسيتان للرد

ذكرت قاعدتين أساسيتين لمعارضة الخصم (إحداهما) الحاجة الى الدين وفائدته في الامم وبيان نصوص الاسلام القطعية الدائمة التي لا يجوز فيه لأحد نقضها ولا تغييرها ولا التبديل لأحكامها ، والنصوص التي يجوز الاجتهاد فيها ، ومن النوع

الاول آيات المواريث وبناؤها على كون الانثى ترث نصف مايرث الذكر خلافا لما زعمه الخصم من جواز تعديلها . وذكرت في هذا البحث حكمة وجود أحكام ثابتة في الشرع وفائدته في ثبات الامة ، كما بينت فيه حكم الضرورة التي تبيح المحرم لذاته كأكل الميتة ، والحاجة التي تبيح المحرم لسد الذريعة كرؤية الطبيب لبدن المرأة وعورة الرجل

(الثانية) معنى الحق والواجب ، ومن يجعل الحق حقاً على الناس والواجب واجباً ؟ أأفراد الناس من الخطباء وغيرهم كمحمد رشيد ومحمود عزمي ؟ أم رب الناس وخالقهم ؟ ومن شرع لهم الرب هذا الحق من أهل الحل والعقد الذين يمثلون الامة في سياستها ومعاملاتها الاجتهادية . وراوية الاهرام لم يفهم ماقلناه في هاتين القاعدتين ولم يذكره كما قيل ،

كلامنا الوجيز في الحقوق السبعة

قلت فيماذكره الخصم في المقدمات من نابغات النساء : ان المرأة انسان فلا يستنكر أن يظهر في بعض النسوة عالمات فاضلات ومهذبات نابغات الخ أشرت بهذا اشارة يفهمها الذكي الآن وجود من ذكرهن ليس دليلا على مساواتهن للنابغين من الرجال على قلة أولئك وكثرة هؤلاء ، أعني أن قداسة مريم أم عيسى وفاطمة بنت محمد عليهما السلام هي دون قداسة عيسى ومحمد عليهما صلوات الله وسلامه وان فقه عائشة رضي الله عنها لايساوي فقه الخلفاء والعبادلة (ض) وان سياسة الاميرة نازلي لاتسمو فتصل الى سياسة سعد باشا وإن زعم أن اجتماعات قصرها كانت هي العاملة في « تكييف ملكات التفكير العام عنده » وانني أعرف تلك الاجتماعات وقد حضرت بعضها مع سعد وأستاذه وأستاذنا الامام (رحمهم الله أجمعين) وانما الفضل الاول لتكوين ملكات التفكير في عقل سعد هو الاستاذ الامام وكان سعد يعترف بهذا قولا وكتابة ، وقد نشرنا بعض مكتوباته له في المنار ، ونقلها عنا كوكب الشرق المنير ، وعلى هذا يقاس سائر النابغات في الشرق والغرب

بطلان كلامه في السفور والمخالطة

ثم قلت فيما سماه « حق الوجود واستنشاق الهواء » انه ثابت بنفسه في الواقع

وخلق الخالق ، فالكلام فيه من تحصيل الحاصل ، فلا يحتاج وجود النساء إلى اثبات الخطيب لحقيته بالدلائل، فالنساء موجودات بدون حاجة إليه ، وإنما الباطل هو استدلاله به على وجوب تمزيق المرأة للحجاب والستور ، الذي يعبرون عنه بالسفور ، واختلاط النساء بالرجال الذي ذقنا مرارته وتجرعنا غصصه بخروجهن كاسيات عاريات يسبحن مع الرجال على شواطىء البحار ، ويرقصن معهم في مواخير الفساد، وكان من سوء تأثيره ما تردد الجرائد الشكوى منه من إعراض الشبان عن الزواج ، وان عقلاء اوربا يشكون منه كما يشكو عقلاؤنا وفضلاؤنا ، ويخافون ان يقضي على تكوين الاسرة (العائلة) الذي يفضي الى القضاء على الامة ، ولا منجاة من هذا الخطر الا بأحكام الاسلام وآدابه في الستر والصيانة كما سنبينه في التفصيل الآتي

حق المرأة في التعلم

وأما حق المرأة في التعلم فقد قلت فيه ان الله تعالى فرض طلب العلم على النساء كما فرضه على الرجال - فهو واجب عليهن في الدين ، وحق لهن على الوالدين والاولياء ، ومن العلم ما هو واجب عيني على الصنفين ، وما هو واجب كفائي ، ومنه ما هو واجب عيني على أحدهما دون الآخر كالاحكام الخاصة بالنساء فيما هو خاص بطبيعتهن كبعض أحكام الطهارة المعروفة وما يحرم عليهن في تلك الاحوال ، فهي أحكام تجب على كل امرأة ولا تجب إلا على بعض الرجال حفظاً للعلم الخ

فكل علم تنتفع به المرأة في تهذيب نفسها وتربية أولادها وتدبير منزلها فهو حق مشروع وقد جعل الشرع لها حق حضانة الاطفال دون الرجل ولا يمكنها القيام بها كما يجب الا بمعلومات كثيرة تدخل في عدة علوم من أهمها علم الصحة . ولها أن تتعلم كل علم نافع للبشر وان لم يكن مفروضاً عليها إذا كان لا يشغلها عن المفروض من علم وعمل

قلت وما ظلم النساء من ظلمهن من الرجال إلا بسبب امتهان الاقوياء غير المهذبين بتهذيب الدين للضعفاء وذلك شأن كل قوي غير مهذب من ذكر وأنثى

مع من هو أضعف منه حتى الوالدين مع الاولاد ، والعلم قوة يحترم المتسلح بها بالطبع، فتعلم النساء العلم الصحيح النافع يثمر لهن احترام أزواجهن وغير أزواجهن لهن، كما يحترم الوالدان الولد المتعلم المهذب ويحتقران أخاه الجاهل الفاسد الاخلاق

ومما أزيده على ذلك الاجمال في المناظرة أنني قد بينت هذا الموضوع أحسن البيان في مواضع من المنار أعمها ماقلته وما نقلته عن الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة) في الجزء الثاني من تفسير المنار وسأذكر بعضه في هذه المقالات

وأما حق الحياة في المجتمع فقد بينت حكم الشرع فيما ذكره منه وهو حق اختيار الزوج وحق الطلاق كالرجل وحق صيانة نفسها من ضرر تعدد الزوجات

قلت ان الرضى بالزوج حق شرعي قررته السنة الصحيحة للمرأة وان من قال من الفقهاء بجواز إجبار الاب لبنته البكر على الزواج قد اشترطوا له شروطا ولصحته شروطا منها الكفاءة وعدم العداوة الظاهرة بينها وبين الولي ، وعدم العداوة الظاهرة أو الباطنة بينها وبين الرجل الذي يراد تزوجها به. وقرأت أبياتاً فقهية في هذه الشروط

وأما الطلاق فلو جعل حقا مطلقا للنساء كالرجال لفسدت البيوت وانقطع سلك نظام (العائلات) بالافراط فيه كما تحدثنا الصحف عن أعظم أمم الغرب مدنية ولا سيما الاميركان على أن للمرأة أن تشترط في عقد النكاح أن يكون أمرها بيدها وهذا الشرط يعطيها حق تطليق نفسها ،وقد فعل هذا كثيرات . ومن الفقهاء من أباح للزوجة أن تشترط على الزوج أن لا يضارها بزوج أخرى،وسنبين هذا في مقال آخر ان شاء الله تعالى

وأما حق الامتلاك للنساء كالرجال فالشرع الاسلامي فيه أوسع الشرائع وأرحمها ومن رحمته وحكمته أحكام الارث وقد تكلمت في ذلك حتى أسكتني الرئيس بانتهاء الوقت فلا اذكر مما قلته شيئا في هذا الاجمال ،بل أدعه للتفصيل تفادياً من التكرار وكذلك الحق السياسي .وحسبنا ما كتبناه اليوم (ينظر الجزء التالي)

ملك اليهود وهيكلهم ومسيحهم والمسيح الحق

[خلاصة تاريخية دينيـة في ملك اسرائيل ومسيحهم ، وحكم النصرانية والاسلام فيهم ، وما ورد في ذلك من أنباء النبيين ، ننشرها إيضاحا لما كتبناه في مسألة الصهيونية وثورة فلسطين]

كان اسرائيـل — وهو نبي الله يعقوب بن اسحاق بن ابراهيـم عليهـم السلام — يعيش هو وأولاده في براري فلسطين . ولمـا مكن الله تعالى لولده يوسف في أرض مصر جذبهم اليها فكثروا فيها حتى صاروا شعباً كبيراً ولكنهم ظلوا محافظين على نسبهم ومقوماتهم فسامهم الفراعنة في مصر سوء العذاب ، واضطهدوهم أشد الاضطهاد ، ولم يقووا على سحقهم ، ولا على إدغامهم في قومهم ، حتى أرسل الله تعالى فيهم نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فنجاهم بما أيده به من الآيات من ظلم آل فرعون ، ورباهم في التيه أربعين سنة رأوا فيها من آيات الله ما لم يره غيرهم من الشعوب ، وقاسى موسى في سياستهم من العناد واللدد، والادلال والصلف ، مايقضي التاريخ منه العجب، حتى ان التوراة وصفتهم عن وحي الله تعالى بالشعب الصلب الغليظ الرقبة

وكان استذلال الفراعنة لهم قد سلبهم الشجاعة والبأس فجبنوا عن دخول الارض المقدسة إذ كان لابد من قتال أهلها الجبارين فقضى التيـه على أولئك الجبناء الاذلاء ، ونشأ فيه جيل جديد قوي الابدان ، قوي الجنان والايمان ، فقاتل أهل البلاد المقدسة التي خرج من مصر ليتبوأها ، فكتب الله له النصر عليهم فغلبهم على وطنهم ليديل للتوحيد من الشرك ، وللعدل من الظلم ، وللفضيلة من الرذيلة ، وكان له هنالك تاريخ مجيد : أنبياء وملهمون ، وقضاة عادلون ، وملوك معمرون (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)

ثم دب اليه الفساد فعبـد الاوثان ، وفسق عن أمر الديان ، وكفر بنعم الرحمن ، وقتل الانبياء ، وظلم الابرياء ، فسلط الله عليه الامم القوية فانتقمت منه أشد الانتقام : ثلت عرشه وخربت عاصمة ملكه (أورشليم) وهدمت بيت الرب

المعروف بهيكل سليمان المرة بعد المرة ، وسلبت ما كان فيه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، التي ضاعف قيمتها ما فيها من لطيف الصنعة ، والاثارة الدينية والتاريخية للملة والامة ، وسبت النساء والرجال والاطفال وأجلتهم عن الديار ، وكان هذا تربية بالشدة والذلة، بعد أن أبطرتهم تربية النعمة والعزة . ثم رحمهم الله تعالى فعطف قلب ملك بابل عليهم فأعادهم إلى وطنهم وأذن لهم باعادة هيكلهم ، وإقامة ماحفظوا من شريعته وشريعتهم . كما قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) حتى إذا ما استمرءوا مرعى النعمة، وأنسوا من أنفسهم القوة عادوا إلى طغيانهم وبغيهم ، فعاد نزول العقاب الالهي عليهم . وما زالوا كذلك حتى أحاط غضب الله تعالى بهم وقضى القضاء الاخير بزوال ملكهم ، وتسجيل الذل الدائم عليهم بجعلهم تابعين لغيرهم ، كما أنذرهم أنبياؤهم وقص الله ذلك في آخر كتبه السماوية الانجيل فالقرآن على لسان آخر رسله عيسى فمحمد عليهما الصلاة والسلام قال الله عز وجل (وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيراً * ان أحسنتم احسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها . فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيراً * عسى ربكم ان يرحمكم . وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً) سورة بني اسرائيل — او الاسراء ١٧ : ٤ — ٩)

أفسدوا اولا بعبادة الاوثان والظلم فسلط عليهم البابليين الوثنيين فجاسوا خلال مملكتهم وجعلوها تابعة لهم تؤدي اليهم الخراج وكان ذلك في القرن السابع قبل المسيح . ثم اعاد لهم الكرة وأمدهم بالمال والقوة فأفسدوا المرة الثانية فأعاد انتقامه منهم ، وهو المراد بوعد الآخرة ثم عطف عليهم بالرحمة، منذراً لهم بأنهم إن عادوا الى الفساد عاد الى النقمة، فعادوا فسلط الله عليهم الرومان الوثنيين المصريين وغير المصريين فالمسيحيين فالمسلمين

كانت اولى تلك النكبات الكبرى نكبة بختنصر ملك بابل في سنة ٥٨٦ قبل الميلاد بعد عصيان اليهود عليه وكانوا خاضعين لملكه فأثخن في جيشهم فكان يقطع اجساد العسكر اربا اربا وسمل عيني ملكهم وأرسله الى بابل ودمر المدينة المقدسة (اورشليم) والهيكل وأحرقهما بالنار (وكان في الهيكل تابوت العهد وفيه توراة موسى بخطه وألواح العهد) وقتل جميع اهلها الا قليلا منهم ارسلهم الى بلاده عبيداً

ولما عاد بعضهم من السبي الى بلادهم سنة ٥٣٥ قبل الميلاد بأمر ملك بابل شرعوا في اعادة بناء الهيكل بمساعدة أهل الجوار فلم يتيسر لهم فتركوه سنة ٥٢٢ ثم عادوا اليه سنة ٥١٩ وأتموه سنة ٥١٥ قبل الميلاد . وحسنت حالهم بعد السبي اذ كان خير تربية لهم فمقتوا عبادة الاوثان ، ثم أحسن معاملتهم الاسكندر المقدوني وفي أيامه خلصوا من سلطة الفرس . ثم وقعوا بعده تحت سلطان مصر تارة وسلطان سورية أخرى ، ولم يكن المصريون يعرضون لهم بشيء من أمور دينهم . ولكن بطليموس الرابع غضب عليهم فأهانهم ودخل قدس الاقداس في هيكلهم فنجسه وأهان الدين فيه سنة ٢١٧ فدخلوا في حماية ملك سورية باختيارهم فراراً من ظلمه ، وكانوا متقلبي الاحوال مع هؤلاء الحكام المجاورين حتى إذا ما استولى الرومان على هذه البلاد كلها كانت بلاد اليهودية ولاية رومانية فظلمهم الروم أيضاً ظلما شديداً لا يطاق

ولما عجزوا عن حمل أعباء الظلم يئسوا من الحياة وخرجوا على الروم مستبسلين طالبين للاستقلال ، وذلك في سنة ٦٦ بعد الميلاد فضيق الروم عليهم الخناق وكانت البطشة الكبرى خاتمة هذا القتال إذ استولى (تيطوس) على اورشليم سنة ٧٠ وتبرها تتبيراً وتركها أكواماً من الرماد الاسود وأحرق الهيكل مع المدينة ، ولم يبق من تلك الابنية الفخمة شيئاً الا بعض ابراج السور تركها مراصد للجيش الروماني وذلك بعد حصار خمسة أشهر يقال انه هلك في أثنائه ألف ألف نفس ومائة ألف نفس واسترق الباقي من اليهود فهاجر كثير منهم إلى ايطالية وجرمانية من أوربة واستوطنوها . وزال استقلال اليهود السياسي من الارض فلم يقم لهم بعد ذلك ملك مستقل ، وقطعهم الله في أقطار الارض كما

أوعدهم على ألسنة أنبيائه الذين يؤمنون بهم والذين كفروا بهم — أي من داود إلى عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام

إنما تم عز القوم وبلغوا ذروة المجد في الملك على عهد داود وسليمان عليهما السلام وكانا نبيين مؤيدين بوحي الله وتوفيقه ، وكان داود عليه السلام رجل حرب وهو الذي فتح مدينة الرب (القدس) ووطد دعائم الملك وبعد استوائه عليها جمع الذهب والفضة والنحاس وغير ذلك من أدوات البناء لاجل بناء بيت للرب تقام فيه شعائر الدين ، فأوحى الله تعالى اليه - كما في تاريخهم المقدس - بأن بيت عبادته لا يبنيه رجل سفك دماء عباده وانما الذي يبني بيته هو ابنه وخليفته سليمان ، وكذلك كان ، ذلك بأن الله لا يحب الفساد ولا سفك الدماء ولا يأذن بالقتال لرسله وعباده المؤمنين الا لضرورة الدفاع عن الحق والعدل، والادالة لهما من البغي والظلم، كما قال في كتابه العزيز (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) وكما قال في تعليل إذنه لنبينا ﷺ وأصحابه (أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق - الا ان يقولوا ربنا الله - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)

وكان داود وسليمان وغيرهما من الانبياء يوصون بني اسرائيل باقامة شريعة موسى ووصاياه ويقيدون كل وعود الرب لهم بالارض المقدسة والملك فيها وهم غرباء عنها باقامة هذه الوصايا كلها وينذرونهم فقد كل شيء باخلالهم بشيء منها وفاقاً واتباعاً لما جاءهم به موسى عليه السلام عن الله تعالى كما ترى في الفصل (٢٧ — ٣٢ من سفر التثنية خاتمة التوراة) ومن تلك النذر بعد النذر واللعنات التي تقشعر منها الجلود قوله بعده (٢٨ : ٦٣ وكما فرح الرب ليحسن اليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتُستأصلون من الارض التي أنت داخل اليها لتمتلكها ٦٤ ويبددك الرب في جميع الشعوب من أقصاء الارض الى اقصائها)

وتكررت هذه الوصية والنذر التي علق الرب عليها اطالة أيام شعب اسرائيل في الارض التي وعدهم اياها او عدم اطالتها ، فهو - تعالى عن الظلم والمحاباة - لم يهبهم اياها لذواتهم ولا لنسبهم بل لاقامة الحق والعدل فيها فكانت هبة مشروطة بشرط فسلبت بفقده

وفي الفصل التاسع من سفر الملوك الاول ان الرب تراءى لسليمان بعد أن اتم بناء بيت الرب (الهيكل) ووعده بأنه اذا سلك كما سلك أبوه داود بسلامة القلب والاستقامة وعمل بجميع الوصايا وحفظ جميع الفرائض والاحكام فانه يجعل كرسي ملكه على اسرائيل الى الابد كما وعد أباه داود ، وأنذره انتقامه منهم اذا كانوا ينقلبون هم أو أبناؤهم ولا يحفظون وصاياه وفرائضه ويذهبون فيعبدون آلهة اخرى قال (٧ فاني اقطع اسرائيل عن وجه الارض التي اعطيتهم اياها ، والبيت الذي قدسته لاسمي (اي الهيكل) انفيه من امامي ، ويكون اسرائيل مثلا وهزأة في جميع الشعوب ٨ وهذا البيت يكون عبرة) الخ وأعاد هذا بعينه في الفصل السابع من سفر الايام الثاني ، ومثله في أسفار اشهر أنبيائهم ، وكذلك كان ، ومرت على ذلك القرون بعد القرون ، وهم لا يزالون يزعمون ان ان أرض فلسطين ملك لهم بوعد ربهم ، فهم يحفظون وعده وينسون شرطه ولا يحفظون وعيده ، وهو الصادق في وعده ووعيده والشرط ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده الوجود بل يجوز ، فهم لا حق لهم في هذه البلاد لا بنصوص كتبهم ووعد ربهم ولا بعرف سائر الشرائع وقوانين الامم .

ومن اغرب احوال هذا الشعب انه استحوذ عليه الغرور والعجب بكتبه وأنبيائه ورسله حتي صار يحتقر جميع البشر بل حتي صار يرى نفسه فوق الانبياء والكتب التي لولاها ولولاهم لم يكن شيئاً مذكوراً ، فقد خالف عقائد التوراة وأحكامها ووصاياها ونذرها وتهديدها ، ووصايا سائر أنبيائهم ونذرهم ، وقد حل به ما انذروه من العقاب والشقاء المرة بعد المرة ، حتى قضي عليه القضاء الاخير الذي لا مرد له . واننا نفصل ذلك بعض التفصيل

ان القوم ألفوا الشرك وعبادة الاوثان في مصر فأخرجهم الله تعالى منها

ليعبدوه وحده مع نبيه موسى عليه السلام ، خرجوا وجاوزوا معه البحر فراراً من فرعون وقومه بعد أن رأوا من آيات الله ما رأوا (فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ! قال انكم قوم تجهلون) ولما ذهب موسى لمناجاة ربه في الجبل اتخذوا العجل الذهبي وعبدوه حتى عاد وحرّقه (سحقه بالمبرد) ونسفه في اليم نسفاً . ثم ان سلائلهم الذين نشئوا في حجر التوحيد والمعجزات لما رأوا ما عليه اهل البلاد التي أعطاهم الله إياها ونصرهم على أهلها ليقيموا التوحيد مقام الشرك ، أعجبهم عبادتهم للاوثان فعبدوها مثلهم وبنوا مذابح لصنمهم [بعل] وبعد أن ضعفت عبادة بعل وغيره في زمن صموئيل وداود عليهما السلام عادت في ايام سليمان حتى جاء في سفر الملوك الاول (١١ : ٤) ان سليمان نفسه مال وراء الآلهة الغريبة ، وكان لنسائه مذابح وثنية خاصة لانهن كن وثنيات (برأه الله مما قالوا) ولما انقسمت المملكة بعده إلى مملكتين ليهوذا واسرائيل كان تاريخها جهاداً مستمراً بين عبادة الله وعبادة الاصنام ، حتى قيل انه لم يكن في زمن ايليا النبي في جميع اسرائيل من لم يسجد لبعل الا بضعة آلاف

بشارة الانبياء بالمسيح والنبي

كان أنبياء بني اسرائيل ينذرونهم سخط الله عليهم وعقابه على كفرهم وتركهم لوصاياه ، وكذلك كانوا يبشرونهم برفع عذابه عنهم اذا تابوا من ذنبهم ، وأنابوا الى ربهم ، ومما بشروهم به أنه تعالى سيرسل فيهم مسيحاً ملكاً يجمع شملهم ، ويعيد لمملكة صهيون مجدها ، وانه سيبعث نبياً رسولا من بني اخوتهم (أي العرب) كموسى أي صاحب شريعة وسيف * يجدد ملة ابراهيم وينصر التوحيد وأهله على

*) في الفصل ١٨ من سفر تثنية الاشتراع يقول موسى (ع م) للشعب (١٧ قال لي الرب قد احسنوا فيما تكلموا ١٨ اقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيتكلم بكل ما أوصيه به) ولم يقم الرب من بعد موسى نبيا مثله صاحب شريعة مستقلة غير محمد ﷺ فجميع انبيائهم كانوا تابعين لشريعته حتى عيسى عليه وعليهم السلام وانما نسخ الله تعالى على لسان عيسى قليلا من احكام التوراة) وفي الفصل ٣٣ منه) جاء الرب من سينا واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران » وفاران مكة كما يعلم من سفر التكوين ٢١ : ٢١ اذ يقول في اسماعيل « ٢١ وسكن في برية فاران »

الشرك وأهله ، فكانوا ينتظرون مسيحا مبشرا به يعبرون عنه بالمسيح معرَّفا ، ونبيا مبشرا به يتناقلون خبره معرَّفا أيضاً . وفي آخر نبوة ملاخي آخر انبيائهم قبل المسيح ان الرب سيرسل اليهم «ايليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم والمخوف» وايليا عندهم هو الياس عليه السلام وكان قد خفي عليهم ما آل اليه أمره

فكان اليهود ينتظرون ايليا والمسيح والنبي ، ففي انجيل يوحنا أنه لما ظهر يوحنا أي الذي يلقبونه المعمدان (هو يحيى عليه السلام) أرسل اليه اليهود من أورشليم بعض الكهنة واللاويين ليسألوه من هو ؟ فسألوه : أأنت المسيح ؟ قال لا . أإيليا أنت ؟ قال لا . آلنبي أنت ؟ قال لا . قالوا اخبرنا من أنت لنجيب الذين أرسلونا ؟ قال: انا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبي (١ : ٩ - ٢٣)

اما ايليا فلم يأت ولكن النصارى يقولون ان الوعد بمجيئه رمزي وقد حصل، وأما المسيح فقد ظهر مؤيداً بالآيات البينات فكذبه أكثرهم وطعنوا في والدته الطاهرة وحاولوا قتله كما قتلوا زكريا ويحيى من خيار انبيائهم، فنجاه الله تعالى منهم واشتبه امره عليهم وعلى غيرهم . وكذلك النبي الأعظم (محمد ﷺ) الذي بشر به اشهر أنبيائهم وفاقا لبشارة التوراة ، ومن اوضحها بشارة انجيل عيسى عليه السلام في كثير من الآيات والامثال التي ظهر مصداقها فيه دون غيره ـ جاء مؤيداً بالكتاب العزيز الذي هو آية في نفسه ، متضمنة للآيات الكثيرة في نظمه واسلوبه وأخباره وعلومه وتشريعه ، فكذبوه كما كذبوا عيسى وقتلوه بعد أن حاولوا قتله اغتيالا كدأبهم في قتل الانبياء من قبله، فنصره الله عليهم وفاقا لاخبار التوراة والنبوات أيضا [تراجع نصوص البشارات التي اشرنا اليها في تفسير قوله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) في الجزء التاسع من تفسيرنا (ص ج ٩

ذلك بانهم صاروا قوما ماديين لايهمهم من أمر الحياة الا الغنى والملك فلما رأوا ان المسيح ليس هو الملك الذي يطلبونه كذبوه ورأوا أن ماذكره الانبياء عن (مسيا) من الملك والسلطان لاتصدق نصوصه بحملها عليه ، اذ كان يقول

إن ملكه ليس من هذا العالم ، وإنما يريدون ملكا من هذا العالم ، كما هو ظاهر بشارات داود وأرميا وزكريا وغيرهم . ولولا الآيات الباهرة التي أيد الله بها عيسى عليه السلام لكان تأويل المسيحيين لتلك البشارات مردوداً بالبداهة كما قال السيد جمال الدين في مقام الاحتجاج على بعض النصارى انهم فصلوا من قطع متفرقة من العهد العتيق قميصا وألبسوه ليسوعهم .

وقد كانت نذره النبوية عليه السلام أوضح من نذر غيره من الانبياء ومتأخرة عنهم اذ قال كما في انجيل متى في سياق توبيخ الكتبة والفريسيين (٢٣ : ٣٧ ياأورشليم ياأورشليم ! ياقاتلة الانبياء وراجمة المرسلين ، كم مرة اردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا ٣٨ هوذا بيتكم يترك لكم خرابا) - يعني الهيكل - ...وقال أيضاً (٢٤ : ١ ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل فتقدم تلاميذه لكي يروه ابنية الهيكل ٢ فقال لهم يسوع : أما تنظرون جميع هذه ؟ الحق أقول لكم انه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض) ثم أخبرهم بأنه سيظهر كثيرون كل منهم يدعي انه هو المسيح ويضلون كثيرين وتكون فتن كثيرة وتقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة الخ ومثله في لوقا (٢١ : ٥) الخ

وقد صدق قوله عليه السلام بما فعله تيطس بعد اجتماع الاسباط في اورشليم من تدميرها وإحراق الهيكل (سنة ٧٠ م) كما تقدم ، وصدق أيضاً فيما أخبر من قيام المسحاء الكذبة وكان أشهرهم (ياركوكبة) الذي قام سنة ١٣٥ ب م فثار معه اليهود فقاتلهم الرومانيون حتى روي انهم قتلوا منهم نصف مليون أو ٦٠٠ الف نفس وخربوا أورشليم وجعلوها مستعمرة رومانية ، وبقي آخرهم وهو المسيح الدجال الاكبر الذي يمهدون البلاد له

وقوله عليه السلام : انه لا يترك ههنا حجر على حجر لا ينقض — يقتضي صدقه أن تيطس لم يبق من بناء الهيكل شيئا وان الذين يزعمون انه قد بقي شيء من بعض جدران السور الخارجي له كاذبون ، وكل من صدقهم يكون مكذباً للانجيل

وقد كانت أحداث الزمان مؤيدة لقوله عليه السلام وزيادة في إيمان المؤمنين به وأعظمها ان الامبراطور يوليانس أراد إعادة بناء الهيكل سنة ٣٦٣ بعد الميلاد

ونشط اليهود في تنفيذ إرادته فلما حفر الفعلة الاساس فاجأتهم براكين جهنمية مزعجة أظلم المكان بما أحدثته من الدخان والغبار، وتكسرت أدوات العمل بما أثار الانفجار من قذائف النار، فولوا الادبار، ولم يعقبوا بعد ذلك الفرار . وحاول اليهود العمل ثانية فشعروا بقوة خفية تدفعهم بعنف عظيم ذعروا له فولوا مدبرين، وتركوا أدوات العمل يائسين

ومن ثم اعتقد النصارى أن جميع بشارات أنبياء بني اسرائيل انتهت بظهور المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وانه لن يعود لليهود ملك مستقل، ولا هيكل تقام فيه شعائر دينهم المنسوخ . وان جميع تلك البشارات المخصصة لتلك النذر والتخويفات قد انحصرت بمن اتبع المسيح الحق منهم إذ لا مسيح بعده، وصار أتباعه هم شعب الله الخاص والكافرون به هم أعداء الله

ثم جاء الاسلام فكان أعظم مظهر لبشارات المسيح ونذره من الوجوه التي فهمها أتباعه الاولون قبل البدع والتقاليد التي أيدها ونشرها ونصرها الامبراطور قسطنطين ومن بعده . فأورث الله أهله البلاد المقدسة وبنوا مسجد الله المسمى بالاقصى في مكان الهيكل المدمر لاقامة عبادة الله تعالى وحده فلم يصدهم عنه من الموانع الخارقة للعادة التي صدت الامبراطور يوليانس واليهود لان الاسلام جاء مصدقا لموسى وعيسى والنبيين الذين بشروا به، لا مكذبا كاليهود

ومما أخبر به الله تعالى في كتابه القرآن انه جعل الذين آمنوا بالمسيح واتبعوه فوق الذين كفروا به إلى يوم القيامة وانه ضرب على اليهود الذلة بفقد الملك إلى يوم القيامة، ومما أخبر به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر دجالون يكون آخرهم الدجال الأكبر الذي يدعي انه هو المسيح الموعود به فيتخذه اليهود ملكا ويحاربون تحت رايته في البلاد المقدسة وان الله تعالى يظهر المسلمين عليهم فيقتلونهم تقتيلا، ويظهر المسيح الحق بما شاء الله فيقضي على المسيح الدجال، وتظهر لجميع الامم حقية الاسلام وبعد ذلك تقوم الساعة العامة الكبرى كما أنبأ القرآن، دون ما ينتظر الاقوام

ونتيجة ما تقدم كله ان اليهود الصهيونيين والمؤيدين لهم من المغرورين يحاولون نقض عقائد المسلمين والنصارى وتكذيب عيسى ومحمد عليهما الصلاة

والسلام وهم زهاء نصف البشر في الارض وأصحاب الملك والملك في الشرق والغرب وكان من أعظم أسباب غرورهم تمكنهم من استخدام عظمى الدول المسيحية في الارض على التمهيد لهذا التكذيب وهي الدولة البريطانية

إننا نعلم ان الانكليز استخدموا اليهود لاضعاف العرب بايجاد عدو لهم في بلادهم يقطعون صلة بعضها ببعض ويشغلون كلا منهما بالآخر متكلا على الانكليز · وأقل فائدة لهم في ذلك ان يحولوا مقاومة العرب لاحتلالهم بلادهم إلى اليهود ، كدأبهم الذي ضربنا له مثل السيل يتقذف جلموداً بجلمود، وانما عجبنا من سكوت الدول والامم المسيحية لهم على إيواء أعداء المسيح إلى بلده، وهو يستلزم تكذيب نذره

وأعجب من ذلك ان دسائس اليهود تمكنت من إغواء كثير من نصارى أوربة وأمريكة وإقناعهم بأن الايمان بالكتاب المقدس يقتضي مساعدتهم على العودة إلى فلسطين وامتلاك أورشليم الخ تصديقا للانبياء وتحقيقا لظهور المسيح الذي يختلف الفريقان في شخصه وعمله، فاليهود يعنون مسيحهم الملك الدنيوي الذي يعيد ملك سليمان لهم، والنصارى يعنون المسيح عيسى بن مريم الذي يجيء في ملكوته ليدين العالم

وقد بلغ الهوس بجمعية تلاميذ التوراة ان نشرت في سنة ١٩٢٠ كتابا عنوانه (ملايين من الذين هم أحياء اليوم لن يموتوا أبداً) ملخصه ان نبوات العهدين القديم والجديد تفسر بأن استعمار اليهود الصهيونيين لفلسطين تمهيد لتفسيرها كلها باقامة (مملكة مسيا) على حساب نظام اليوبيل اليهودي وان هذا الامر يتم سنة ١٩٢٥ فيقوم الاموات من قبورهم ويرجع ابراهيم واسحاق ويعقوب وقدماء الانبياء المؤمنين إلى أورشليم ويتم الامر فلا يموت بعد هذا احد!!

وسننشر بعض نصوص هذا الهوس المسيحي الذي كذبه الزمان بعد خمس سنين من نشره . وانما غرضنا هنا التنبيه لهذه الدسائس اليهودية والاوهام الدينية وإعلام الانكليز بأن حكومتهم قد فتحت باب فتنة دينية دنيوية تكون عاقبتها شراً عليهم وعلى البشر عامة مما يظنون ويقدرون ، فاتفاق العرب مع الذين يريدون سلب وطنهم وتقطيع روابط أمتهم ، والجناية على دينهم ودنياهم ضرب من المحال وانه لا علاج لهذه الفتنة إلا القضاء على هذه المطامع ، وقد أعذر من أنذر

تقريظ المطبوعات الجديدة

﴿ الجزء الثالث من كتاب الاعلام ﴾ سبق لنا تقريظ لهذا الكتاب بعد صدور الجزأين الاول والثاني منه وقد بدىء هذا الجزء بحرف الكاف وتم بحرف الياء فبلغت صفحات الأجزاء الثلاثة به ١١٨٧ صفحة . فحق على جميع كتاب العربية ولا سيما المصنفين والمؤرخين ومحرري الصحف أن يشكروا لمؤلفه أديب الشام وشاعرها الاستاذ (خير الدين الزركلي) الشهير هذه المنة التي لا يستغني عنها أحد منهم فلعمري ان حاجتهم إلى هذا الكتاب كحاجتهم إلى معجم من معاجم اللغة، وينبغي أن لا يخلو منه مكتب، وأن يكون بين الأيدي بجانب أساس البلاغة والقاموس ونحوه . كذلك خزائن الكتب العامة والخاصة ينبغي أن يكون في كل منها عدة نسخ من هذا الكتاب لانه كما ادعى واضعه في فاتحته وصدق قد ملأ فراغا في الخزانة العربية قد ترك له مدة هذه القرون الطويلة بجمعه أسماء أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين من عهد الجاهلية وأول الاسلام إلى هذا العصر – ما عدا الاحياء من أهله – وضبط الاسماء والالقاب وحدد سني الوفاة لمن عرفت سنة وفاته وهم الاكثرون بالتاريخين الهجري والميلادي، وبين أهم المزايا والكتب التي صنفها المصنفون منهم مع الرمز إلى ما طبع منها وما لم يطبع ، وانه قد لخص ترجمة أعظم رجل ذكر فيه بل أعظم رجل خلقه الله (محمد رسول الله وخاتم النبيين) في ٣ صفحات وبضعة أسطر فقط

وقد وعد بوضع جزء رابع يستدرك به ما فاته في هذه الاجزاء . ولما كان قد دعا قراء الكتاب إلى نقده فالمرجو من قرائه من أهل العلم وأصحاب الاطلاع على المطبوعات أن يبينوا له ما يعثرون عليه من سهو أو غلط ليدونه في جزء المستدرك ليتم به ضبط الكتاب بالدقة اللائقة به

وأذكر من ذلك انه غلط في ترجمة الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) فذكر انه ولد في عين شمس وهو انما سكنها في بضع السنين الاخيرة من عمره، وذكر من مؤلفاته «تفسير القرآن الحكيم» وقل انه لم يتمه والصواب انه ليس له الا تفسير

(جزء عم) فقط ، وله كتب أخرى لم يذكرها أشهرها كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) و (رسالة الواردات) ومنها حاشيته على عقائد الجلال الدواني وكلها مطبوعة
وقد راجعت أخيراً ترجمة الحافظ الذهبي فرأيته يضع عند ذكر كتابه (ميزان الاعتدال) حرف خ للاشارة إلى انه مخطوط لا مطبوع والصواب انه قد طبع في الهند ثم في مصر ولعل هذا من غلط الطبع ولا بد من تصحيحه في المستدرك

صحف اسلامية عربية

يسرنا ان تكثر الصحف الاسلامية الرشيدة في أوطاننا العربية في هذا العصر الذي طغى فيه طوفان الالحاد، واستشرى وباء الفساد، وكثرت صحفهما في البلاد، وجهر كتابها بالدعوة، مساعدة للمبشرين على نكث فتل الامة، وتقطيع روابط الملة، وانا نذكر المهم من هذه الصحف

(مجلة الشبان المسلمين) «مجلة إسلامية علمية تهذيبية تصدرها جمعية الشبان المسلمين مرة في الشهر ويحررها نخبة من أعضائها . رئيس التحرير المسؤول: الدكتور يحيى احمد الدردير» وانه ليسرنا أن يوفق الله تعالى هذه الجمعية النافعة لاصدار مجلة إسلامية تكون أكبر عون لها على ما تقصد من تأسيسها وهو التهذيب الاسلامي مع العلم العصري والتربية الملية الوطنية . وهذا ضرب من التجديد النافع المطلوب، المقاوم لتجديد الالحاد والفسق والفجور، الذي تنحله أفراد مكنتهم فوضى الآداب وحرية الفساد من انتحال لقب التجديد لأنفسهم وهم لا يبغون منه إلا الكسب، بافساد الشعب
وانه ليسرنا أن يكون صديقنا الدكتور احمد يحيى الدردير رئيس التحرير لهذه المجلة النافعة فقد عرفناه من اختلافنا إلى نادي الجمعية — لالقاء بعض المحاضرات أو رد الشبهات أو لسماع مثل ذلك، أو لمحض الزيارة والمذاكرة — انه خير اهل لهذه الخدمة بما له من الاطلاع الواسع على العلوم والفلسفة ، ولا سيما علم النفس والتربية، مع البصيرة والوجدان في الدين واليقين فيه. والغيرة عليه ، وانه ليسرنا أيضا أن تبارى

أقلام خيار الكتاب المسلمين في تحرير هذه المجلة في العلوم والاعمال المختلفة . فهي بذلك قد استكملت الاسباب العلمية الادبية لها وقيمة الاشتراك السنوي في مصر ٢٥ قرشاً لعضو الجمعية و ٣٠ قرشاً لغير العضو وفي غير مصر ٣٠ لعضو الجمعية و ٤٠ لغير العضو وهو مبلغ قليل فنحث المسلمين كافة وطلاب العلوم وطوالبها خاصة على الاقبال على هذه المجلة والاشتراك فيها وعلى الاشتراك في جمعيتها ايضا

وبهذه المناسبة يسرنا أن نعلن للعالم الاسلامي انه صار لدينا بمصر ثلاث مجلات لجمعيات إسلامية، تؤازرها مجلات اخرى في سائر الاقطار وهي

﴿ مجلة مكارم الاخلاق ﴾ وهي اقدمها لانها تناهز عمر المنار في نشأتها الاولى وقد جدد شبابها تولي الاستاذ الشيخ محمود محمود من استاذي مدرسة المعلمين العليا رياسة تحريرها وناهيك به علماً وفضلا وغيرة، فهي الآن خير مما كانت منذ وجدت ، و (مجلة الهداية ولدينا في خارج مصر (مجلة الاصلاح) الحجازية و (مجلة الكويت) وقد دخلتا مع مجلة الهداية جميعاً في السنة الثانية فنهنئهن بذلك ، و (مجلة الشهاب) الجزائرية و (جريدة الاصلاح) الجزائرية

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾ « صحيفة إسلامية : علم . أخلاق . أدب . تاريخ » تصدر في حلب مرتين في الشهر موقتاً . مديرها ومحررها الاستاذ محمد علي الكحال ، قيمة الاشتراك السنوي فيها اربعون قرشاً مصرياً ولطلاب العلم وطوالبه ٣٢ قرشاً وإنا لنتمنى لهذه الجريدة النجاح والفلاح

﴿ المستقبل ﴾ « صحيفة نقد وأدب وفن ودعاية — لصاحبها ورئيس تحريرها الاستاذ ابراهيم صالح شاكر » تصدر مرتين في الشهر في مدينة بغداد ، وعسى أن يقبل عليها قراء العربية في جميع البلاد ، فانها تعنى بالدعاية العربية ، بلغة فصيحة عربية ، يتغلغل الاخلاص للوحدة العربية في أحشائها ، ويفيض من جميع جوانبها ، وعسى أن تجد من الاقبال ومن الحرية ما يمكن صاحبها الغيور من جعلها أسبوعية ، ثم من تكبير حجمها مع بقائها أسبوعية ، ومن إبقاء اشتراكها على ما هو الآن : عشر روبيات في العراق و ١٥ روبية في سائر الآفاق

المجمع المصري للثقافة العلمية

بيان عام

صحت عزيمة طائفة من المشتغلين بالعلم ونشره في هذا القطر على تأسيس مجمع علمي يدعونه « المجمع المصري لثقافة العلمية » تكون اغراضه :

(أولا) نشر الثقافة العلمية باللغة العربية

(ثانياً) ترقية اللغة العربية بكتابة المباحث العلمية بها ونشرها

(ثالثاً) إنشاء رابطة للمشتغلين بالعلم من أبناء اللغة العربية

والطريقة التي ينوي ان يجري عليها لتحقيق أغراضه هذه هي :

(اولا) عقد مؤتمر سنوي لالقاء الخطب العلمية وتلخيصها ونشرها ملخصة في الصحف السيارة والمجلات ثم طبعها كاملة في مجموعة توزع وتباع

(ثانياً) القاء خطب علمية دورية

(ثالثاً) عدم تعرضه للسياسة والدين

أما لغته فاللغة العربية وأما مركزه فالقاهرة عاصمة المملكة المصرية

وفيما يلي أسماء الفضلاء الذين قبلوا حتى كتابة هذه السطور أن ينتظموا في هيئة مجلسه التأسيسي :

الدكتور علي ابراهيم بك — رئيس المجمع لسنة ١٩٣٠
الدكتور محمد شاهين باشا
الدكتور فارس نمر
الدكتور خليل عبدالخالق
الدكتور عبدالعزيز احمد
الدكتور علي مصطفى مشرفه
الدكتور حسن بك صادق
الدكتور محمد شرف
الدكتور محمد رضا مدور
الدكتور كامل منصور
الدكتور جرجي صبحي
الدكتور علي حسن
الدكتور أحمد زكي ابو شادي
الدكتور شخاخيري
الاستاذ اسماعيل مظهر
الاستاذ سلامه موسى
الاستاذ فؤاد صروف سكرتير عام دائم
الاستاذ كامل كيلاني مساعد سكرتير

وقد اجتمع المجلس التأسيسي وقرر أن يعقد مؤتمره السنوي الأول في الثاني من فبراير الذي يبتدىء في يوم الجمعة ٧ فبراير وينتهي في ١٤ منه . وسيعلن عن برنامج هذا المؤتمر وأسماء الخطباء وموضوعات خطبهم ومكان القائها في أواسط يناير القادم

فؤاد صروف

السكرتير العام الدائم

﴿ المنار ﴾ استغربنا تأليف إدارة المقطم والمقتطف لهذا المجمع من الدكاترة الكرام وبعض الملاحدة المفسدين للأديان والآداب الذين جهر بعضهم بالدعوة إلى الالحاد، ولاسيما الطعن في الاسلام، وإلى إفساد الآداب الدينية والمدنية بما يسميه الادب المكشوف ، وأما الاطباء فالخدمة التامة الخاصة بهم موضوعها حفظ أبدان البشر من الامراض ومعالجة ما يعرف لها منها ، ويقل فيهم من يجد وقتاً للعناية بالثقافة التي هي موضوع هذا المجمع إن كان مستعداً لها من قبل

وكان يجب أن يكون أكثر أعضاء هذا المجمع من كبار المدرسين في المدارس العالية ومنها الازهر الشريف ، ومن كبار الكتاب المحرزين والعلماء المؤلفين للكتب النافعـة ، وأن يكون فيها من يمثل الجمعيات الادبية والاخلاقية ومنها جمعيتا الشبان المسلمين والشبان المسيحيين، ولا يعقل أن تبحث اللجنة المؤسسة لهذا المجمع عن عقائد من تعرف فيهم الصفات المؤهلة له وتشترط فيها شيئاً ، ولكن يجب أن لا تقبل من يكون داعية للالحاد والفوضى الاباحية في الآداب مشهوراً بالطعن في رجال الدين ولا من يكون معروفا عنه انه يبغي بالثقافة العلمية نسخ الثقافة الدينية وإقامتها مقامها ولا يكفي في تأمين المتدينين على أديانهم أن يشترط في خطب المؤتمر عدم التعرض فيها للسياسة والدين فان أشد المتعرضين للدين وقاحة وطعناً يدعي عدم التعرف له

ثم ان المقاصد التي ذكرت في البيان مجملة مبهمة وحاصلة بدون تأليف مجمع خاص لاجلها إلا مسألة المؤتمر وهي مسألة قد سبقت جمعية الرابطة الشرقية إلى درسه والسعي له فما معنى افتئات هؤلاء عليها فيه؟ ولماذا لم يشتركوا معها في سعيها حتى إذا ما اجتمع المؤتمر اقترح عليه تأسيس المجمع اللغوي الادبي المطلوب إن لم تسبق إلى تأسيسه الحكومة المصرية ؟ وكذلك الرابطة بين رجال العلم هو من موضوعها

نبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

أنشئ ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى « ومنارا » كمنار الطريق

٣٠ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ ١٠ برج الحوت سنة ١٣٠٨ هـ ش ١ مارس سنة ١٩٣٠

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

فصل فيمن تؤخذ منهم الجزية

﴿ ومقدار ما يؤخذ ﴾

نص الآية الكريمة أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب وقد تقدم في تفسيرها آنفا أن المراد بأهل الكتاب الذي كان يتبادر إلى الاذهان بدلالة القرآن اليهود والنصارى ، ونقل الحافظ في الفتح الاتفاق على هذا أي وإن كان اللفظ عاما ، وكان القرآن نفسه يدل في آيات أخرى على بعثة رسل كثيرين في الامم منهم من كانوا أصحاب كتب . ولا فرق في أهل الكتاب بين العرب والعجم خلافا للحنفية . وقد ثبت بالسنة القولية والعملية أخذ الجزية من المجوس

واختلف في كونهم أهل كتاب أو شبهة كتاب وقد تقدم ذلك مجملا ، وسيعاد مفصلا . وجمهور الفقهاء على أن حكم جميع الوثنيين حكم مشركي العرب في أنهم لا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف وقال بعضهم تقبل منهم الجزية ، فالاصناف أربعة (الاول) مشركو العرب وهؤلاء لا تقبل منهم الجزية بالاجماع (الثاني) اليهود والنصارى على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم - وهؤلاء تقبل منهم الجزية بنص القرآن . وقيل الا العرب منهم (الثالث) المجوس والصابئون وقد قبل الصحابة ومن بعدهم من أمراء المسلمين الجزية منهم وسنذكر ما قال الفقهاء في ذلك (الرابع) ما عدا هذه الاصناف الثلاثة من الوثنيين وغيرهم ولا نص عليهم في الكتاب ولا في السنة ، وعندنا أن أمرهم اجتهادي يحكم فيهم أولو الأمر من المسلمين بما يرون فيه المصلحة ككل مسكوت عنه . وجمهور الفقهاء يدخلونهم في عموم المشركين ولا سيما الآية التي يسمونها آية السيف . والحق ما قررناه في تفسيرها من أن المراد بالمشركين فيها مشركو العرب فهو عام مراد به الخصوص من أول وهلة كأهل الكتاب ويؤيد هذا ما تقدم من الآيات في تعليل قتالهم وأدلته وكذا الاحاديث الناطقة بوجوب جعل جزيرة العرب خاصة بالمسلمين وما ذكرناه من حكمة ذلك ، وقد لاحظ هذه الحكمة الامام أبو حنيفة وصاحبه الامام أبو يوسف (رح) ولكنهما جعلا غرض الشارع أن يكون جنس العرب كله مسلما سواء كان في جزيرته أو غيرها فلا تقبل من أحد منهم الجزية عندهما ، وفي هذا من مخالفة السنة ما يأتي . وانما أصابا في قولهما إن الجزية تقبل من جميع العجم مهما تكن مللهم وأديانهم ، وعلى هذا المذهب جرى عمل الدول الاسلامية في كل فتوحاتهم لبلاد الملل الوثنية كالهند وغيرها فلم يحاولوا استئصال أهل ملة منهم . وأما كونهم مشركين بالفعل فمثلهم فيه أهل الكتاب كما شهد عليهم القرآن ولكن الشرك طرأ عليهم وليس من كتابهم ، ولوثني الهند والصين وغيرهم كتب قديمة مشتملة على التوحيد كما بيناه في موضع آخر .

وانا نفصل أحكام الجزية بايراد جملة ما أورده صاحب منتقى الاخبار من الاحاديث المرفوعة والموقوفة ونقفي عليه ببيان مذاهب أئمة علماء الامصار في ذلك

وإن كان فيه تكرار ، فهذا آخر اسهاب في تفسيرنا لاحكام القتال

الاخبار والآثار في الجزية

عن عمر أنه لم يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذها من مجوس هجر رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي * وفي رواية ان عمر ذكر المجوس فقال ما أدري كيف اصنع في أمرهم ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » رواه الشافعي وهو دليل على أنهم ليسوا من أهل الكتاب * وعن المغيرة بن شعبة أنه قال لعامل كسرى أمرنا نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية رواه أحمد والبخاري * وعن ابن عباس قال مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشكوه إلى أبي طالب فقال يا ابن أخي ما تريد من قومك ؟ قال « أريد منهم كلمة تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية . قال كلمة واحدة ؟ قال كلمة واحدة ، قولوا لا اله إلا الله » قالوا إلهاً واحداً ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق . قال فنزل فيهم القرآن (ص والقرآن ذي الذكر - الى قوله - ان هذا إلا اختلاق) » رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن [1] * وعن عمر بن عبد العزيز أن النبي صلى الله عليه وآله كتب الى أهل اليمن « ان على كل إنسان منكم ديناراً كل سنة أو قيمته من المعافر [2] » يعني أهل الذمة منهم رواه الشافعي في مسنده وقد سبق هذا المعنى في كتاب الزكاة في حديث لماذ * وعن عمرو بن عوف الانصاري [3] ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح الى البحرين يأتي بجزيتها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صالح اهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي متفق عليه * وعن الزهري قال قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجزية من اهل البحرين وكانوا

(١) ورواه النسائي أيضاً وصححه الترمذي والحاكم (٢) المعافر قبيلة والحديث مرسل ولكن له شاهداً يقويه (٣) الصواب أنه مهاجري وقيل أن أصله من الانصار وكان بمكة فهاجر

مجوسا رواه أبو عبيد في الاموال * وعن أنس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث خالد بن الوليد الى اكيدردومة فاخذوه فأتوا به فحقن دمه وصالحه على الجزية رواه أبو داود(١)* وهو دليل على أنها لا تختص بالعجم لان اكيدردومة عربي من غسان * وعن ابن عباس قال صالح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل نجران على ألف حلة النصف في صفر والبقية في رجب يؤدونها الى المسلمين وعارية ثلاثين درعا وثلاثين فرساً وثلاثين بعيرا وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم ان كان باليمن كيد ذات غدر على ان لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنوا عن دينهم ما لم يحدثوا حدثا أو يأكلوا الربا، أخرجه أبو داود (٢) اه

ملخص أقوال أئمة الفقه في الجزية

نورد من مذاهب الفقهاء ما لخصه الشيخ موفق الدين بن قدامة في المغني لاختصاره وحسن جمعه وبيانه قال

﴿مسئلة﴾ قال (ولا تقبل الجزية الا من يهودي أو نصراني أو مجوسي إذا كانوا مقيمين على ما عوهدوا عليه) وجملته أن الذين تقبل منهم الجزية صنفان من له كتاب ومن له شبهة كتاب، فاهل الكتاب اليهود والنصارى ومن دان بدينهم كالسامرة يدينون بالتوراة ويعملون بشريعة موسى عليه السلام وانما خالفوهم في فروع دينهم وفرق النصارى من اليعقوبية والنسطورية والملكية والفرنجة والروم والارمن وغيرهم ممن دان بالانجيل وانتسب إلى عيسى عليه السلام والعمل بشريعته فكلهم من أهل الانجيل، ومن عدا هؤلاء من الكفار فليس من أهل الكتاب بدليل قول الله تعالى (أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) واختلف أهل العلم في الصابئين فروي عن أحمد أنهم جنس من النصارى وقال في موضع آخر بلغني أنهم يسبتون فهؤلاء إذا سبتوا فهم من اليهود وروي عن عمر أنه قال هم يسبتون، وقال مجاهد هم بين اليهود والنصارى، وقال السدي والربيع هم من أهل الكتاب

(١) سكت عليه أبو داود والمنذري ورجال اسناده ثقات وفيه عنعنة محمد بن اسحاق
(٢) هو من رواية السدي وفي سماعه من ابن عباس نظر ولكن له شواهد تقويه

وتوقف الشافعي في أمرهم والصحيح أنه ينظر فيهم فإن كانوا يوافقون أحد أهل الكتابين في نبيهم وكتابهم فهم منهم وإن خالفوهم في ذلك فليس هم من أهل الكتاب ويروى عنهم أنهم يقولون ان الفلك حي ناطق وان الكواكب السبعة آلهة فان كانوا كذلك فهم كعبدة الاوثان ، واما أهل صحف ابراهيم وشيث وزبور داود فلا تقبل منهم الجزية لانهم من غير الطائفتين ولان هذه الصحف لم تكن فيها شرائع إنما هي مواعظ وأمثال كذلك وصف النبي صلى الله عليه وسلم صحف ابراهيم وزبور داود في حديث أبي ذر

وأما الذين لهم شبهة كتاب فهم المجوس فانه يروى أنه كان لهم كتاب فرفع فصار لهم بذلك شبهة أوجبت حقن دمائهم وأخذ الجزية منهم ولم ينهض في إباحة نكاح نسائهم ولا ذبائحهم دليل. هذا قول أكثر أهل العلم ، ونقل عن أبي ثور أنهم من أهل الكتاب وتحل نساؤهم وذبائحهم لما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال انا أعلم الناس بالمجوس كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه ، وان ملكهم سكر فوقع على بنته وأخته فاطلع عليه بعض أهل مملكته فلما صحا جاءوا يقيمون عليه الحد فامتنع منهم ودعى أهل مملكته وقال أتعلمون ديناً خيراً من دين آدم وقد أنكح بنيه بناته؟ فانا على دين آدم، قال فتابعه قوم وقاتلوا الذين يخالفونهم حتى قتلوهم فأصبحنا وقد أسري بكتابهم ورفع العلم الذي في صدورهم فهم أهل كتاب وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر - وأراه قال وعمر - منهم الجزية رواه الشافعي وسعيد وغيرهما ولان النبي صلى الله عليه وسلم قال «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»

ولنا قول الله تعالى (أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) والمجوس من غير الطائفتين ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » يدل على أنهم غيرهم ، وروى البخاري باسناده عن بجالة أنه قال ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى حدثه عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر ولو كانوا أهل كتاب لما وقف عمر في أخذ الجزية منهم مع أمر الله تعالى بأخذ الجزية من أهل الكتاب وما ذكروه هو الذي صار لهم به شبهة الكتاب . وقد قال أبو عبيد لا أحسب ما رووه عن علي في

هذا محفوظ (١) ولو كان له أصل لما حرم النبي ﷺ نساءهم وهو كان أولى بعلم ذلك ، ويجوز أن يصح هذا مع تحريم نسائهم وذبائحهم لان الكتاب المبيح لذلك هو الكتاب المنزل على احدى الطائفتين وليس هؤلاء منهم ، ولان كتابهم رفع فلم ينتهض للاباحة . ويثبت به حقن دمائهم

فاما قول أبي ثور في حل ذبائحهم ونسائهم فيخالف الاجماع فلا يلتفت اليه (٢) وقوله عليه السلام « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » في أخذ الجزية منهم. اذا ثبت هذا فان أخذ الجزية من أهل الكتاب والمجوس ثابت بالاجماع لانعلم في هذا خلافا فان الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على ذلك وعمل به الخلفاء الراشدون ومن بعدهم الى زمننا هذا من غير نكير ولا مخالف وبه يقول أهل العلم من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وغيرهم مع دلالة الكتاب على أخذ الجزية من أهل الكتاب ودلالة السنة على أخذ الجزية من المجوس بما روينا من قول المغيرة لاهل فارس أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية . وحديث بريدة وعبد الرحمن بن عوف ، وقول النبي ﷺ « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ولا فرق بين كونهم عجما أو عربا ، وبهذا قال مالك والاوزاعي والشافعي وأبو ثور وابن المنذر ، وقال أبو يوسف لا تؤخذ الجزية من العرب لانهم شرفوا بكونهم من رهط النبي ﷺ

ولنا عموم الآية وان النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد الى دومة الجندل فأخذ أكيدر دومة فصالحه على الجزية وهو من العرب رواه ابو داود واخذ الجزية من نصارى نجران وهم عرب وبعث معاذاً الى اليمن فقال « انك تأتي

---

(١) رواه الشافعي وعبد الرزاق عنه باسناد حسن

(٢) نقل الحافظ ابن حجر هذا وقال : وفيه نظر فقد حكى ابن عبد البر عن سعيد بن المسيب أنه لم يكن يرى بذبيحة المجوسي باساً اذا أمره المسلم بذبحها ، وروى ابن أبي شيبة عنه وعن عطاء وطاوس وعمرو بن دينار انهم لم يكونوا يرون بأسا بالتسري بالمجوسية اه

قوما اهل كتاب » متفق عليه . وأمره ان يأخذ من كل حالم ديناراً وكانوا عربا. قال ابن المنذر ولم يبلغنا ان قوما من العجم كانوا سكانا باليمن حيث وجه معاذا . ولو كان لكان في امره ان يأخذ من جميعهم من كل حالم ديناراً دليل على ان العرب تؤخذ منهم الجزية ، وحديث بريدة فيه ان النبي ﷺ كان يأمر من بعثه على سرية ان يدعو عدوه إلى اداء الجزية ولم يخص بها عجميا دون غيره وأكثر ما كان النبي ﷺ يغزو العرب ولان ذلك اجماع فان عمر رضي الله عنه اراد الجزية من نصارى بني تغلب فابوا ذلك وسألوه ان يأخذ منهم مثلما يأخذ من المسلمين فابى ذلك عليهم حتى لحقوا بالروم ثم صالحهم على ما يأخذه منهم عوضا عن الجزية فالمأخوذ منهم جزية غير أنه على غير صفة جزية غيرهم وما انكر اخذ الجزية منهم احد فكان ذلك اجماعا وقد ثبت بالقطع واليقين ان كثيراً من نصارى العرب ويهودهم كانوا في عصر الصحابة في بلاد الاسلام ولايجوز اقرارهم فيها بغير جزية فثبت يقينا أنهم اخذوا الجزية منهم، وظاهر كلام الخرقي انه لا فرق بين من دخل في دينهم قبل تبديل كتابهم او بعده ولا بين ان يكون ابن كتابيين او ابن وثنيين او ابن كتابي ووثني

وقال أبو الخطاب من دخل في دينهم بعد تبديل كتابهم لم يقبل منه الجزية ومن ولد بين ابوين احدهما تقبل منه الجزية والآخر لا تقبل منه فهل تقبل منه ؟ على وجهين وهذا مذهب الشافعي

ولنا عموم النص فيهم ولانهم من اهل دين تقبل من اهله الجزية فيقرون بها كغيرهم وانما تقبل منهم الجزية إذا كانوا مقيمين على ما عوهدوا عليه من بذل الجزية والتزام احكام الملة لان الله تعالى امر بقتالهم حتى يعطوا الجزية اي يلتزموا اداءها فما لم يوجد ذلك يبقوا على إباحة دمائهم واموالهم

(فصل) ولا يجوز عقد الذمة المؤبدة الا بشرطين

(احدهما) ان يلتزموا اعطاء الجزية في كل حول

(والثاني) التزام احكام الاسلام وهو قبول ما يحكم به عليهم من اداء حق او ترك محرم لقول الله تعالى (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وقول

النبي ﷺ في حديث بريدة « فادعهم إلى اداء الجزية فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » ولا تعتبر حقيقة الاعطاء ولا جريان الاحكام لان إعطاء الجزية انما يكون في آخر الحول والكف عنهم في ابتدائه عند البذل والمراد بقوله (حتى يعطوا) اي يلتزموا الاعطاء ويجيبوا إلى بذله كقول الله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) والمراد به التزام ذلك دون حقيقته فان الزكاة انما يجب اداؤها عند الحول لقوله عليه السلام « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول »

﴿ مسئلة ﴾ قال (ومن سواهم فالاسلام او القتل)

يعني من سوى اليهود والنصارى والمجوس لاتقبل منهم الجزية ولا يقرون بها ولا يقبل منهم الا الاسلام فان لم يسلموا قتلوا ، هذا ظاهر مذهب احمد وروى عنه الحسن بن ثواب انها تقبل من جميع الكفار الا عبدة الاوثان من العرب لان حديث بريدة يدل بعمومه على قبول الجزية من كل كافر الا انه خرج منه عبدة الاوثان من العرب لتغلظ كفرهم من وجهين (احدهما) دينهم (والثاني) كونهم من رهط النبي ﷺ

وقال الشافعي لا تقبل الا من اهل الكتاب والمجوس لكن في اهل الكتب غير اليهود والنصارى مثل اهل صحف ابراهيم وشيث وزبور داود ومن تمسك بدين آدم وادريس وجهان (احدهما) يقرون بالجزية لانهم من اهل الكتاب فاشبهوا اليهود والنصارى ، وقال ابو حنيفة تقبل من جميع الكفار الا العرب لانهم رهط النبي ﷺ فلا يقرون على غير دينه وغيرهم يقر بالجزية لانه يقر بالاسترقاق فاقروا بالجزية كالمجوس ، وعن مالك انها تقبل من جميعهم إلا مشركي قريش لانهم ارتدوا ، وعن الاوزاعي وسعيد بن عبد العزيز انها تقبل من جميعهم وهو قول عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لحديث بريدة ولانه كافر فيقر بالجزية كاهل الكتاب

ولنا قول الله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقول النبي ﷺ « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها » وهذا عام خص منه اهل الكتاب بالآية والمجوس

بقول النبي صلى الله عليه وسلم « سنوا بهم سنة اهل الكتاب » فمن عداهم من الكفار يبقى على قضية العموم وقد بينا ان اهل الصحف من غير اهل الكتاب المراد بالآية فيما تقدم . اهـ

استدلاله بعموم المشركين ممنوع لأنه مخصوص كما تقدم فالحق المختار أن قبول الجزية من أهل الكتاب والمجوس حتم وعدم قبولها من مشركي العرب حتم ، وما عداهما فموكول إلى اجتهاد أولي الامر ، كجميع المصالح التي ليس فيها نص قطعي . ومقدار الجزية اجتهادي أيضا بشرطه

﴿ استطراد في حقيقة معنى الجهاد أو الحرب والغزو ﴾

﴿ وإصلاح الاسلام فيها ﴾

الجهاد كلمة اسلامية تستعمل بمعنى الحرب عند بقية الامم بمعنى كون كل منها مصلحة من مصالح الدولة العامة لها أحكام خاصة. وتستعمل بمعناها اللغوي الأعم ، وهي مصدر جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً كقاتل يقاتل مقاتلة وقتالا ، فهي صيغة مشاركة من الجهد وهو الطاقة والمشقة ، كما ان القتال مشاركة في القتل، قال الراغب في مفردات القرآن : والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو . والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده — وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله — ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) وقال صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » والمجاهدة تكون باليد واللسان . قال صلى الله عليه وسلم « جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » اهـ والجهاد بالألسنة إقامة البرهان والحجة

لا أذكر من خرج الحديثين اللذين استشهد بهما الراغب في الجهاد المعنوي، وفي معناهما احاديث اخرى كحديث فضالة بن عبيد عند الترمذي « المجاهد من جاهد نفسه » وحديث أبي ذر عند ابن النجار « افضل الجهاد ان يجاهد الرجل نفسه وهواه » ورواه الديلمي بلفظ « ان تجاهد نفسك وهواك في ذات الله تعالى »

وحديث جابر عند الخطيب « قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الاصغر إلى الجهاد الاكبر ، مجاهدة العبد هواه » وحديث علي عند ابي نعيم في الحلية « الجهاد أربع : الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، والصدق في مواطن الصبر ، وشنآن الفاسق » وغيرها . وانما اكثرنا من هذه الشواهد لان الافرنج ومقلديهم وتلاميذهم من نصارى المشرق يزعمون ان الجهاد هو قتال المسلمين لكل من ليس بمسلم لاكراههم على الاسلام وان لم يعتدوا عليهم ولم يعادوهم ، وقد علمت مما تقدم آنفا وما سنفصله به تذكيراً بما فصلناه من قبل ان هذا كذب وافتراء على الاسلام، ومنه ماتقدم في سورتي الانفال والبقرة ان من غايات القتال فيه منع الفتنة في الدين أي اضطهاد الناس لاجل ايمانهم ودينهم وإكراههم على تركه [1] وقوله تعالى (٢٥٦:٢ لا إكراه في الدين) ونص الامر بقتال من يقاتلنا ويعادينا في ديننا والنهي عن الاعتداء المحض [2] ونص تفضيل السلم على الحرب ووجوب الجنوح اليها إذا جنح العدو [3] ونص جعل الغرض الاول من الاستعداد للقتال إرهاب الاعداء رجاء ان يكفوا عن الاعتداء [4] ونصوص أحكام المعاهدين للمسلمين، وتحريم قتالهم ما داموا محافظين على العهد ، ومن اعجبها قوله تعالى في المسلمين غير الخاضعين لامام المسلمين في دار الاسلام ، كالذين أسلموا ولم يهاجروا الى المدينة في عهده عليه الصلاة والسلام (٧٢:٨ وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق [5]) وقد بينا مراراً انه كان من سياسة الاسلام إبطال الوثنية وعبادة الاصنام من جزيرة العرب وجعلها موئله ومأرزه وان النبي ﷺ ماقاتل مشركيها فيها الا دفاعاً كما تقدم في هذه السورة

أما الحرب والقتال لمحض البغي والعدوان، والضراوة بسفك الدماء كحروب بعض الملوك المستبدين والغابرين — أو لغرض الانتقام والبغض الديني كالحروب الصليبية _ أو لاجل الطمع في المال وسعة الملك وتسخير البشر وإرهاقهم لتمتع القوي بثمرات كسب الضعيف كحروب أوربة الاستعمارية في هذا العصر _ فكل هذه الحروب

(١) ص ٢٠٧ ج ٢ وص ٦٦٥ ج ٩ تفسير (٢) ص ٢٠٤ ج ٢ (٣) ص ٦٩ ج ١٠
(٤) ص ٦١ و ٦٦٠ و ١٤٠ ج ١٠ (٥) ص ١٠٨ و ١٤٠ ج ١٠

محرمة في الاسلام لا يبيح شيئا منها، لانها الحظوظ الدنيا وشهواتها، ومن اهانة الدين المغضبة لشارع الدين أن يتخذ الدين وسيلة لها . وقد علم مما بسطناه من أحكام الجزية وعمل الصحابة بها انها ليست مما ذكر في شيء، وأنها مال حقير قليل لا يفقر معطيه، ولا يغني آخذيه، ومن شروطها ان تكون عن قدرة وسعة، وان لا يكلف أحد منها مالا يطيق

وأما كونها عنوان الدخول في حكم الاسلام وقبول سيادة أهله فهو صحيح ولكن هذا الحكم لا يبيح للمسلمين شيئاً من الظلم والارهاق واستنزاف ثروة الذين يقبلونه من أهل الملل الأخرى على الوجه المعروف المشاهد في جميع المستعمرات الاوربية، وانما تجب المساواة بينهم وبين المسلمين في العدل والحقوق والضرائب مع ان المفروض على المسلمين في أموالهم أكثر كانواع الزكاة المفروضة، والصدقات المندوبة، حتى قال الفقهاء إنه يجب على المسلم نفقة المضطر من ذمي ومعاهد اذا لم يوجد من يقوم له بها من قريب وغيره . وانما زاد بعضهم ما يؤخذ من المكس من الذميين على ما يؤخذ من المسلمين بربع العشر في مقابلة الزكاة . ومع هذا يقول بعض العلماء انه لا يجب بدء الحربيين بالقتال لاجل الجزية والدخول في حكمنا اذا لم يوجد سبب آخر خلافا لمن يظن ان هذا واجب في الاسلام بالاجماع لما يراه في بعض كتب الفقه

وقد لخص الحافظ ابن حجر أقوال علماء الاسلام في حكم الجهاد التي يحتج ببعضها هؤلاء القليلو الاطلاع - في شرح البخاري عند قوله (باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية) فذكر أولا ان الكلام في حالين : زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده فأما زمنه فالتحقيق من عدة أقوال ان وجوبه فيه كان عينا على من عينه صلى الله عليه وسلم في حقه . وأما بعده « فهو فرض كفاية على المشهور الا أن تدعو الحاجة اليه كأن يدهم العدو ، ويتعين على من عينه الامام [أي الاعظم] ويتأدى فرض الكفاية بفعله في السنة مرة عند الجمهور، ومن حجتهم أن الجزية تجب بدلا عنه ولا تجب في السنة أكثر من مرة اتفاقا فليكن بدلها كذلك، وقيل يجب كلما أمكن وهو قوي، والذي يظهر انه استمر على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم الى أن تكاملت فتوح معظم البلاد وانتشر الاسلام في أقطار الارض ثم صار الى ما تقدم ذكره ، والتحقيق ان جنس جهاد الكفار متعين على كل مسلم إما بيده وإما بلسانه وإما بماله وإما بقلبه والله أعلم » اه

فعلم من هذا التفصيل انه ليس في مسألة جهاد العدو بالسيف اجماع من المسلمين إلا في حال اعتداء الاعداء على المسلمين ، وحينئذ اذا أعلن الامام النفير العام وجبت طاعته ، واذا استنفر بعضهم كالجند المرابط والمتعلم وغيرهم وجبت طاعته ، لأنه يطاع في الواجب الكفائي كالواجب العيني ، وقال الشيخ الموفق في المغني . ويتعين الجهاد في ثلاثة مواضع : (الاول) اذا التقى الزحفان وتقابل الصفان الخ (الثاني) اذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم (الثالث) اذا استنفر الامام قوما لزمهم النفير معه اه بدون ذكر الادلة . وتقدم بيان الاول في تفسير (٨ : ١٥ اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار) وانه كان في غزوة بدر اذ كان المشركون هم المعتدين . وقد تقدم في تفسير قوله تعالى (٨ : ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ان الاستعداد للحرب واجب على الحكومة الاسلامية كما هو المعلوم الذي عليه العمل عند جميع دول الارض ، وان الغرض الاول من هذا الاستعداد ارهاب عدو الله وهم كل من يقاوم دينه ويمنع نشره ويضطهد اهله ، وعدو المسلمين الذي يعاديهم ولو لغير دينهم كالطمع في بلادهم ، والضراوة باستعبادهم ، ليخشوا بأسهم فلا يعتدوا عليهم ، فان اعتدوا لم يجدوهم ضعفاء ولا عاجزين

والمعلوم من تاريخ البشر أن الحرب سنة من سنن الاجتماع البشري أو أكبر مظهر وأثر لسنة تنازع البقاء ، وتعارض المصالح والمنافع والاهواء ، ولا سيما اهواء الملوك والرؤساء ، رؤساء الدين ورؤساء الدنيا ، بل هي سنة من سنن بعض الحشرات التي تعيش عيشة التعاون والاجتماع كالنمل فهو يغزو ويبيد ويسترق ويستخدم رقيقه في خدمته وترفيه معيشته وغزو أعدائه ، وعلم من التاريخ أيضاً ان شعوب أوربة أشد البشر ضراوة وقسوة في الحرب في اطوار حياتها كلها من همجية ، ووثنية ، ونصرانية مذهبية ، وصليبية ، ومدنية مادية . ومن علمائهم وفلاسفتهم الغابرين والمعاصرين من يرى منافع الحرب العامة في البشر أكبر من مضارها ، وان كان الخسار فيها عاماً شاملا للغالبين والمغلوبين ، ولا تزال جميع دولهم تنفق على الاستعداد لها فوق ماتنفق على غيرها من مصالح الدولة والأمة ، وترهق

شعوبها بالضرائب لاجلها فوق ماتستنزفه من ثروة مستعمراتها وما تقترضه بعد هذا وذاك من الديون الفاحشة ، هذا مع علم كل أحد من ساستهم وعلمائهم بسوء نية كل دولة وعدم ائتمانها للأخرى . وعلم كل منهم بأنه لولا سوء النية ، وفساد الطوية ، لأمكن الاتفاق سراً وجهرا على مايقترحه فضلاء العقلاء من تقليل الاستعداد للحرب الذي كثرت أسبابه ، واتسعت بالاختراعات أبوابه ، حتى صار خطراً على البشر وحضاراتهم وعمرانهم يخشى أن يدمر أكبر مملكة من أوربة ويبيد أهلها في أيام معدودات ، وهم على هذا كله لايزدادون إلا غلواً فيها . ولو انهم اهتدوا بالاسلام ـ الذي صار واأسفاه مجهولا حتى عند أهله ـ لاهتدوا الطريق، ووجدوا المخرج من هذا المضيق .

وقد كان من اصلاح الاسلام الحربي منع جعل الحرب للاكراه على الدين أو للابادة أو للاستعباد الشخصي أو القومي أو لسلب ثروة الامم والتمتع بالشهوات ومنع القسوة كالتمثيل ومنع قتل من لا يقاتل كالنساء والاطفال والعباد ، ومنع التخريب والتدمير الذي لاضرورة تقتضيه . ولا تزال هذه الفظائع كلها على أشدها عند دول أوربة إلا استعباد الافراد باسم الملك الشخصي فهذا هو الذي يجتنبونه مع بقاء استعبادهم للاقوام والشعوب على ما كان ، مع نظام ودسائس يقصد بها افساد الآداب والاديان .

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام صفة الحرب الاسلامية مع الاشارة الى حروبهم بقوله في رسالة التوحيد[1]

« ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزئوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فغزاهم بنفسه ، وبعث اليهم البعوث في حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلباً للأمن وإبلاغا للدعوة »

ثم ذكر سيرتهم العادلة الرحيمة في حربهم ثم في سلمهم ، وما أثمرته من سرعة انتشار الاسلام وقفى عليها بقوله (ص ٢١١)

١) راجع ص ٢٠٣ من الطبعة الخامسة لمطبعة المنار

« قل من لم يفهم ماقدمناه أو لم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته .

« سبحانك هذا بهتان عظيم ! ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لايقبل الريبة في جملته ، وإن وقع اختلاف في تفصيله ، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن انفسهم ، وكفاً للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام ، أو كانت الحاجة لاصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه »

ثم كتب كلمة بليغة في بيان ما كان من فتوحات النصارى الاوربيين ونشرهم لدينهم بالقهر والتقتيل وإبادة المخالفين مدة عشرة قرون كاملة لم يبلغ السيف من كسب عقائد البشر فيها ما بلغه انتشار الاسلام في أقل من قرن، ونقول نحن أيضاً ان من المعلوم من التاريخ بالضرورة لكل مطلع عليه ان العرب المسلمين لم يكن لهم في ذلك القرن من القوة العددية والآلية ولا من سهولة المواصلات ما يمكنهم من قهر الشعوب التي فتحوا بلادها على ترك دينها ، ولا على قبول سيادة شعب كالشعب العربي كان دونها في حضارتها وقوتها، فهم لم يخضعوا للمسلمين ويدينوا بدينهم ويتعلموا لغتهم إلا لما ظهر لهم من ان دينهم هو دين الحق الموصل لسعادة الدنيا والآخرة - أو من انهم أفضل الحكام وأعدلهم

ثم أشار الاستاذ الى ما كان من شأن الاسلام فيما سماه الفتح الذي تقتضيه ضرورة الملك ، أو الحرب التي يقول علماء أوربة إنها سنة من سنن الاجتماع البشري تقتضيها الضرورة وتترتب عليها فوائد كثيرة في مقابلة غوائلها الكثيرة فقال ما نصه (ص ٢١٢)

« جلت حكمة الله في امر هذا الدين: سلسبيل حياة نبع في القفار العربية ، ابعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية ،

علامده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر اهل السماء في رفعتها ، وتعلو أهل الارض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ،

« قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى أن يقضي الله قضاءه فيه.

« اذا ساق الله ربيعاً الى أرض جدبة ليحيي ميتها ، وينقع غلتها ، وينمي الخصب فيها ، أفينقص من قدره ان أتي في طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

هذا بعض ما بينه الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في الحرب والقتال من الوجهة الدينية الاسلامية ، ثم من الوجهة الاجتماعية ، ومذهب جماهير الفقهاء كلها ان هذا الجهاد والقتال لدفع الاعتداء الذي يقع على الدين أو الوطن فرض عين ، وتوافقهم عليه جميع شرائع أمم الافرنج كلها ، ويعذرون كل أمة فقد من وطنها شيء اذا هي ظلت تستعد لاستعادته الى ان تظفر بذلك كما فعلت فرنسة باستعادة ولايتي الالزاس واللورين من ألمانية في الحرب الاخيرة ، وكانت انتزعتهما منها منذ نصف قرن ونيف وربت اهلهما تربية ألمانية، وفي أهلهما كثيرون من العرق الألماني، ويقال ان السواد الاعظم من سكانها الآن يفضل ان يكون تابعاً للدولة الالمانية ولكنه مقهور مغلوب على أمره

ولما كان تفسيرنا هذا تفسيراً علمياً عملياً أثرياً عصرياً وجب علينا في هذا المقام ان نبين حال مسلمي عصرنا فيه مع مغتصبي بلادهم والجانين على دينهم ودنياهم ليكون اهل البصيرة والعلم من الفريقين على بينة من التنازع والتخاصم الواقع بينهما فيجدوا له صلاحاً معتدلا إن أمكن

﴿ فصل ﴾

(في دار الاسلام والعدل ودار الحرب والبغي، وحقوق الاديان والاقوام في هذا العصر)

جرى اصطلاح فقهاء المسلمين على تسمية البلاد التي تنتظم في سلك دولتهم وتنفذ فيها شريعتهم باسم ﴿ دار الاسلام . ودار العدل ﴾ لان العدل واجب فيها في جميع أهلها بالمساواة ويسمون ما يقابلها (دار الحرب) ولكل منها أحكام مبسوطة في كتبهم ، ويسمى اهل دار الحرب «الحربيين» ان كانوا معادين مقاتلين للمسلمين ، «والمعاهدين» ان كان بين الفريقين عهد وميثاق على السلم وحرية المعاملة في التجارة وغيرها ، وان خرج على امام المسلمين طائفة منهم سموا البغاة ، فان اسسوا حكومة تغلبوا بها على بعض البلاد سموا المتغلبين او المتغلبة ، وتسمى دار الاسلام في مقابلة ذلك بدار العدل ، ولكل دار أحكام ، فاين دار الاسلام؟

تقدم آنفاً ان الحربيين اذا هاجموا دار الاسلام واستولوا على شيء منها صار القتال فرضاً عينيا على المسلمين ، فاذا اعلن الامام النفير العام وجب على كل فرد منهم ان يطيعه بما يقدر عليه من الجهاد بنفسه وماله ، وتجب طاعته فيما دون ذلك بالاولى كأن يستنفر بعضهم دون بعض ، ويفرض المال الناطق والصامت على بعض الناس دون بعض ، على ما يجب عليه في هـذا وغيره من مراعاة العدل وهذا الحكم هو الذي تجري عليه الدول الاوربية وغيرها في هذا العصر، وانما أعدنا ذكره لنذكر المسلمين وغير المسلمين من العارفين باحكام الاسلام بأن السكوت عن هذه المسئلة لا يمكن ان يطول بعد ان استيقظ العالم الاسلامي كغيره من شعوب الشرق من رقاده الطويل وطفق يبحث في ماضيه وحاضره . وما ينبغي ان يكون عليه الامر في مستقبله، وهاتف الايمان يهتف في اعماق سريرته، مذكرا اياه بما أوجبه الله عليـه من اعادة تلك الدار الواسعة أو الممالك الشاسعة، واقامة تلك الشريعة العادلة، واحياء تلك الهداية الشاملة ، لتضيء للبشر الطريق للخروج من ظلمات هذا الاضطراب النفسي، والفوضى الاجتماعية والسرف الشهواني، التي احدثتها الافكار المادية ونزعات الالحاد والحكم البلشفي الذي هو شر نتائجهما،

فقد عجزت بقايا هداية النصرانية عن صد غشيان هذه الظلمات لأعظم ممالكها، بعد ان ثارت سحبها من افق مدارسها ، فكيف تقوى على تقشيع هذه السحب بعد تكاثفها ، وقد كانت هي نفسها من اسباب حدوثها ؟

هذا ما يفكر فيه خواص المسلمين في هذا العهد ويشاركهم الدهماء فيما هو من ضروريات الاسلام، وهو انه دين سيادة وسلطان وتشريع وحكومة شورية يحميها نظام حربي جامع بين القوة والرحمة والعدل ، وانه قد اعتدى عليه الفاتحون المستعمرون فسلبوا ممالكه العامرة الخصبة اولا، ثم هاجموه في مهد ولادته ، وبيت تربيته، ومعقل قوته (وهو جزيرة العرب) حتى وصل عدوانهم الى مشرق نوره، وقبلة صلاته، ومشاعر نسكه، وروضة رسوله صلى الله عليه وسلم (وهو الحجاز) حيث حرم الله وحرم رسوله باستيلائهم على السكة الحديدية الحجازية في سورية وفلسطين وبما ألحقوه بشرقي الاردن من أرض الحجاز نفسها

كان المعتدون على دار الاسلام يحسبون كل حساب لقيام المسلمين بنهضة عامة باسم (الجامعة الاسلامية) لاستعادة ما سلب منهم ، وكانوا يحسبون كل حساب لتعلقهم بالدولة العثمانية ، وقد اعترفوا لها بمنصب (الخلافة الاسلامية) فما زالوا يجاهدون هذه الخلافة وتلك الجامعة بأنواع الجهاد المقرر في الشريعة الاسلامية وهي السيف والمال و اللسان والقلم (أي العلم) حتى صرفوا وجوه الشعوب الاسلامية عن الجامعة الاسلامية الى الجامعتين الجنسية والوطنية ، وهدموا هيكل الخلافة العثمانية بأيدي حماتها من الترك أنفسهم ، ودفعوا حكومة هذا الشعب الاسلامي الباسل من حيث لاتدري الى محاربة الدين الاسلامي نفسه بأشد من محاربتهم هم له بمدارسهم التبشيرية واللادينية ، وبكتبهم وصحفهم ونفوذهم، فاعتقدوا أنه قد تم لهم بهذا فتح العالم الاسلامي، وانه لم يبق عليهم لاتمام هذا الفتح الا القضاء الاخير على مهده الديني ، وعلى شعبه وأنصاره من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا ما جرأهم على ما اشرنا اليه آنفا وكانوا فيه مخطئين ، وفي محاولته مسيئين ، وكنا من إساءتهم مستفيدين

أما الخلافة العثمانية المتغلبة فكانت هيكلا وهمياً خادعا للمسلمين باتكالهم

عليه، فلم تتوجه هممهم الى الرجوع الى قواهم الذاتية، ولا سيما قوة الولاية والتعاون وما تقتضيه من علم وعمل، وانما كانت الدولة العثمانية سياجا لمن يعمل للاسلام ولها باعتراف الدول لها بالحقوق الدولية، وبما كانت تحافظ عليه من القوة العسكرية، وكان أفراد العلماء والسياسيين كالاستاذ الامام يعلمون أن هذا السياج ضعيف، وعرضة للزوال القريب، وأنه يجب العمل من ورائه مع عدم الاتكال عليه بحال من الأحوال، بعد ما ثبت أنه لا سبيل إلى تقويته بضرب من ضروب الاصلاح. ولكن الجهل العام حال دون الاهتداء بآراء هؤلاء العقلاء التي جرينا عليها في مجلتنا (المنار) بأصرح مما كانوا يصرحون أو يبيحون، ومن ثم كان زوال الخلافة العثمانية نافعاً لا ضارا

وأما الجامعة الاسلامية فلم تكن أمراً واقعاً بالفعل، كما حققنا ذلك في المنار من قبل، وانما كانت أمرا تقتضيه العقيدة والمصلحة، ويحول دونه الجهل العام ولا سيما جهل الرؤساء والزعماء من الحكام وغيرهم، ويقظة المقاومين لهم، وستدخل في هذا العصر في طور من النظام تبلج نور فجره في المؤتمر الاسلامي الأول بمكة المكرمة

وأما التفرقة الجنسية والوطنية بين الشعوب الاسلامية فقد كان له أصل ووجود بما كان من عصبية الاعاجم لأجناسهم ولا سيما الترك الذين كان من قواعد سياستهم احتقار العرب وهضم حقوقهم حتى في مصر التي كان الاعاجم الحاكمون فيها فئة قليلة، وكان احتقارهم للمصريين والتعبير عنهم بلقب فلاح وفلاحين اكبر أسباب الثورة العرابية، واحتلال الانكليز لمصر - ولكن التعاليم الاوربية قد أفادت هذه الشعوب المستيقظة قوة جديدة عصرية تجاهد بها المستعبدين بسلاحهم المعنوي الذي لا يفل حده، ولا يجزر مده، وهو قوة وحدة الشعب ومطالبته بحقه الطبيعي في حكم نفسه بنفسه، مع عطف أهل كل دين ومذهب فيه على اخوانهم الوطنيين في كل ما يرونه من حقوقهم الملية العامة حتى في خارج وطنهم. كما نرى في عطف وثنيي الهند ومساعدتهم للمسلمين فيما يطالبون به من حقوق الاسلام في فلسطين

وأهم المسائل الاسلامية التي تدور في هذا العهد بين كبار عقلاء المسلمين من جميع الأقطار ويتهامسون بها سرا - مسألة « دار الاسلام » التي يفترض على العالم الاسلامي كله الجهاد بالنفس والمال والعلم والعمل لاعادتها. وأرى أنه

يجوز لي أن أفشي الآن من سرها مايعين على تمحيصها ، فأقول إن لهم فيها أربعة آراء :

(١) الرأي الاول — وهو أقرب الآراء الى نصوص جمهور الفقهاء — ان كل مادخل من البلاد في محيط سلطان الاسلام ونفذت فيها احكامه وأقيمت شعائره قد صار من (دار الاسلام) ووجب على المسلمين عند الاعتداء عليه ان يدافعوا عنه وجوبا عينيا كانوا آثمين كلهم بتركه ، وان استيلاء الاجانب عليه لايرفع عنهم وجوب القتال لاسترداده وان طال الزمان . فعلى هذا الرأي يجب على مسلمي الارض ازالة سلطان جميع الدول المستعمرة لشيء من الممالك الاسلامية وارجاع حكم الاسلام اليها مااستطاعوا الى ذلك سبيلا . وعجزهم الآن عن ذلك لايسقط عنهم وجوب توطين انفسهم عليه واعداد ما يمكن من النظام والعدة له وانتظار الفرص للوثوب والعمل

وهذا الرأي يوافق القاعدة التي وضعها احد وزراء الانكليز للتنازع بين المسلمين والنصارى في الغلب والسلطان وهي (ماأخذ الصليب من الهلال لايجوز أن يعود الى الهلال ، وماأخذ الهلال من الصليب يجب ان يعود الى الصليب) وعلى هذا الرأي يجري اليهود الذين يطالبون باعادة ملك اسرائيل الى بلاد فلسطين ، بل هم لايكتفون باعادة الملك (بضم الملك) بل يطلبون جعل الملك (بالكسر) وسيلة له فهم يحاولون سلب رقبة الارض من أهلها العرب بمساعدة الانكليز

ونحن معاشر المسلمين ننكر على الانكليز واليهود ماذكر ونعده غلوا وبغيا وأثرة منهم ، ومن قلة الانصاف ان نرضى لانفسنا ماننكره على غيرنا . دع مافي الدعوة الى هذا المطلب الكبير ، من الغرور والتغرير ،

(٢) الرأي الثاني ان ﴿ دار الاسلام ﴾ ما كان داخلا في حكم الخلافة الاسلامية الصحيحة وهي خلافة الراشدين والامويين والعباسيين جميعاً دون غيره مما فتحته دول الاعاجم ولم ينفذ فيه حكم خليفة قرشي . وهذا الرأي قريب مما قبله في بعده عن المعقول ، على نزاع في دليله من المنقول .

(٣) الرأي الثالث ان دار الاسلام الحق هي ما فتح فتحاً إسلامياً روعي في حربه وسلمه دعوة الاسلام وجزيته وصلحه وتنفيذ حكم الله فيه وإعلاء كلمته واقامة

الحق والعدل في الناس كلهم. ولا يمكن الجزم بذلك الا فيما فتحه أصحاب رسول الله ﷺ اذ كان الغالب على من بعدهم طلب الملك والتمتع بالسلطان والنعيم. فالواجب على جميع المسلمين ان يسعوا لاعادة هذه البلاد الى حكم الاسلام الحق بان يضع عقلاؤهم لذلك نظاما يدعون اليه دعوة عامة ويجمعون المال الذي يمكنهم من السعي اليه

(٤) الرأي الرابع ان دار الاسلام قسمان (الاول) مهده ومشرق نوره ومصدر قوته وموطن قوم الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وهو جزيرة العرب (والثاني) بيئة حضارته العربية ومظهر عدالته التشريعية ، وينبوع حياته الاقتصادية ، وهو سورية الشاملة لفلسطين ، والعراق العربي ، ومصر ، وهذه الاقطار الثلاثة هي التي عمت فيها لغة الاسلام العربية ورسخت فنسخت ما كان فيها من لغات أخرى لان أكثر سكانها الاصليين من السلائل العربية الذين تغلغلوا فيها من عصور التاريخ الاولى فلم يبق عند علماء الاجناس البشرية ولغاتها شك في ان الفينيقيين سكان سواحل سورية الاولين المعمرين — من عرب سواحل البحرين ونجد ، وان امتزاج اللغة العربية بالهيروغليفية القديمة دليل على ان قدماء المصريين والعرب من عرق واحد ان لم يكونا من عرقين امتزجا واتحدا منذ الوف السنين.

ولكن المصريين قد رسخت في زعمائهم المدنيين عصبية الوطنية فلا مجال الآن لمطالبتهم بعمل سياسي لاعادة دار الاسلام بعد ما كان من مقاومتهم لمؤتمر الخلافة الذي عقده علماء الازهر وبعض أهل الرأي من غيرهم ، وحسب الاسلام منهم إعلاء شأنه باحياء لغته وعلومه وهدايته . فانحصر الرجاء في جزيرة العرب وما يتصل بها من سورية والعراق اللذين يعدهما بعض الناس منها

دار الاسلام في جزيرة العرب

أوجب الاسلام أن تكون جزيرة العرب داره الدينية المحضة فقضى على ما كان فيها من الشرك على الوجه الذي بيناه في تفسير هذه السورة كما بينا في تفسير سورة الانفال ما ورد من الاحاديث النبوية في اخراج اليهود والنصارى منها واهمها وصيته ﷺ في مرض موته باخراج اليهود والنصارى منها وبان لا يبقى

فيها دينان ، وقد صرح الامام الشافعي في الام بان ثغور الحجاز البحرية ومايوجد في بحره من الجزائر لها حكم أرضه وبلاده فلا يجوز لامام المسلمين وسلطانهم ان يمكن أحداً من غير المسلمين بالاقامة فيها لتجارة ولا لغيرها . وقد ظهر لمسلمي هذا العصر من حكمة الاسلام في هذا مالم يكن يخطر ببال دولهم القوية من قبله التي تساهلت وقصرت في تنفيذ الوصية المحمدية فسمحت ببقاء بعض أهل الكتاب في بعض بقاع جزيرة العرب (كاليمن) ثم بوجود بعضهم في جدة

ظهر لهم ان اساس السياسة المتفق عليه بين جميع الدول العزيزة هو ان لكل أمة الحق في حماية وطنها بحدوده الطبيعية والعرفية وما يعد سياجا وحريما له من سواحله البحرية ، ومن طرق الملاحة والتجارة المؤدية اليه من كل جهة ، وان الحرب التي توقد نارها لاجل هذه الحماية ومنع العدوان هي حق وعدل يقره القانون الدولي العام اذا لم يكن منه بد ، ولا يعد منافياً للفضيلة والحقوق الانسانية بل مؤيداً لها . ودول الاستعمار الفاتحة تعد ما تتغلب عليه من أوطان سائر الامم كوطن أمتها في ان لها الحق في حمايته ومنع الاعتداء عليه وعلى طرقه البرية والبحرية . فهي تبيح لنفسها الاعتداء بحجة منع غيرها من الاعتداء ، كما فعلت انكلترة في الاعتداء على مصر ، فالسودان ومن قبلهما على عدن بحجة حماية طريق الهند التي اعتدت عليها من قبل ، وبعد هذا وذاك اعتدت على العراق وفلسطين وشرق الاردن من الوطن العربي ، ثم امتد طمعها الى الحجاز نفسه وهو قلب جزيرة العرب المادي وقلب الاسلام المعنوي بجعل أهم ثغوره الحربية والجغرافية (العقبة) وأهم مواقع سكة الحديد الحجازية فيه (معان) وما بينهما تابعاً لشرقي الاردن الذي وضعته تحت سيطرتها باسم الانتداب ، دع ذكر الخط الحديدي الممتد من حدود الحجاز الى حيفا ، فبهذا انتهكت هذه الدولة حرمة الحجاز المقدسة وبهذا صار الحرمان الشريفان تحت رحمة هذه الدولة الباغية من البر والبحر ، وصارت هذه البقية الصغيرة من دار الاسلام الدينية والسياسية على خطر ، فان تم لهذه الدولة الباغية هذا فستمد سكة حديدية تجارية في الظاهر عسكرية في الباطن من العقبة الى العراق ثم تقول عند سنوح الفرصة للاستيلاء على الحرمين ان وجود

قوة إسلامية فيهما يهدد سكة الحديد البريطانية ولا سبيل الى الامن عليهما إلا بازالة كل قوة اسلامية عربية من سائر الحجاز أو جعل القوة المحافظة على الامن تحت أشرافها ونفوذها

ولو كان في الحجاز سكان من غير المسلمين لفتحت لنفسها باب التدخل في أمر حكومته بحجة حماية هؤلاء السكان ولاسيما اذا كانوا من النصارى كما انتحلت لنفسها حق حماية الاقليات غير الاسلامية بمصر ، وكما فعلت في اعطاء اليهود حق تأسيس وطن قومي لهم في فلسطين وحمايتهم فيها بل اعانتهم وساعدتهم على أهلها من العرب وأكثرهم مسلمون ، وكما خلقت في العراق أقلية من بقايا الاشوريين ، وان تم لها الاستيلاء على منطقة العقبة ومعان من أرض الحجاز فستجعل جل ما لكي رقبة الارض فيها من الانكليز وغيرهم من اليهود والنصارى ليكون لها من حق الحكم فيها والحماية لها حماية هؤلاء السكان فوق حماية الارض وسكة الحديد وما يتعلق بذلك من المنافع الاقتصادية والمصالح السياسية — أعني ان هذه البقعة العظيمة من وطن الحجاز الاسلامي العربي يخشى أن يخرج فيها الحجاز كله عن كونه عربياً أو اسلاميا . كما يدعون الآن في فلسطين

أقول ان تم لهذه الدولة ما ذكر لانه لما يتم لها ذلك ولن يتم ان شاء الله فان ملك الحجاز ونجد عارضها في دعوى إلحاق هذه المنطقة بحكومة شرقي الاردن واتفقا على إرجاء البت النهائي في أمرها بضع سنين . وقد أجمعت كلمة المؤتمر الاسلامي العام الذي عقد في مكة المكرمة سنة ١٣٤٤ على انكار إلحاق هذه المنطقة بشرقي الاردن ووجوب جعلها تابعة للحجاز وتكليف الملك عبد العزيز بمطالبة هذه الدولة باعادتها الى الحجاز واتخاذ كل الوسائل الممكنة لذلك ويجب على كل العالم الاسلامي أن يطالبه بذلك ويؤيده فيه

هذا مجمل مايدور فيه البحث بين بعض أهل العلم والرأي من المسلمين في الأحكام الشرعية والآراء السياسية في دار الاسلام والحكومة الاسلامية وما يتعلق بها من منصب الامامة (الخلافة) وما يجب على العالم الاسلامي من السعي لذلك وإلا كان جميع المسلمين عصاة لله تعالى مستحقين لعقابه في الآخرة كما وقع عليهم

عقابه في الدنيا بالذل والنكال ، بفقد السيادة والاستقلال ، الذي عم جميع الشعوب والأجيال، إلا هذه البقية القليلة الفقيرة من العرب والعجم ، وهي مهددة في كل آن بالخطر ، وهذا السعي الواجب لايرجى نجاحه إلا بنظام سري محكم يراعي فيه حال الزمان واختلاف استعداد الشعوب الاسلامية المختلفة الحكومات والمذاهب والمشارب تقوم به جمعيات دينية وسياسية وخيرية توجه جهودها كلها إلى غرض واحد لايعرف حقيقتة الا أفراد قليلون من القائمين بها

وأما الأمر الجهري الذي يجب على العالم الاسلامي في جملته ومختلف شعوبه والسعي له قبل كل شيء فهو صيانة الحجاز من النفوذ الأجنبي الذي يهدده باستيلاء دولتي انكلترة وفرنسة على سكة الحديد الحجازية وبالحاق منطقة العقبة ومعان بشرقي الأردن الواقع تحت السيطرة الانكليزية . بل يجب على كل مسلم أن يفعل كل مايقدر عليه في هذه السبيل من عمل إيجابي أو سلبي بالانفراد أوالاشتراك مع غيره ومنه المقاطعة التجارية وغيرها وبث الدعاية لذلك . أعني أنه يجب على كل مسلم البدء بالجهاد الديني بأنواعه الثلاثة التي تقدمت من قول ومال ونفس بقدر الامكان ، وبث الدعوة لذلك في كل مكان .

يقول بعض علماء الاحصاء البشري العام إن عدد المسلمين قد بلغ أربعمائة مليون نسمة أو يزيدون فهل يرضون لأنفسهم وهم يملكون من بقاع الأرض مايزيد على مساحة أوربة كلها أضعافاً أن يكونوا أذل وأحقر واجبن من اليهود الصهيونيين الذين لايبلغون عشر عشرهم وهم يرونهم يقدمون على انتزاع فلسطين منهم ؟ ويرون مع هذا أن حرم الله تعالى وحرم الرسول صلوات الله وسلامه عليه مهددان بالخطر بعد ثالثهما وهو المسجد الاقصى ، قد انتقصا من أطرافهما ، واغتصبت السكة الحديدية الوحيدة الموصلة إليهما ، وهم ساكنون ساكتون ، ودينهم يوجب عليهم إعادة دار الاسلام وحكم الاسلام ، الى ما كان عليه في سالف الأيام ، على اختلاف الدرجات التي بيناها في صدر هذا الفصل . فمم يخافون ؟ وعلى أي شيء يحرصون ؟ ولم يعيشون ؟

لقد دلت أفعال المسلمين في الحرب العامة اذ كانوا يقاتلون دفاعا عن مستذليهم

ومستعبديهم ، ودلت الثورة العربية الحجازية في أثناء الحرب ، والثورات المصرية فالعراقية فالسورية فالمغربية الريفية بعد الحرب على أنهم لا يزالون أشجع الأمم وأشدها احتقارا لهذه الحياة الدنيا ، ولا سيما العرب منهم ، وإنما كان سبب كل ما أصابهم من البلاء والشقاء وفقد الاستقلال أولا وآخرا فساد رؤسائهم وخيانة امرائهم ، وجهل عامة دهمائهم ، وقد آن للجاهل أن يعلم ، وللفاسد أن يصلح وللخائن أن يتوب أو يقتل

فيا أيها المسلمون تدبروا قول ربكم العزيز القدير ، الولي النصير ، العلي الكبير ، (وكان حقا علينا نصر المؤمنين * ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد * ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا * ولن يخلف الله وعده) ولكنكم نقضتم عهده ، (فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين)

فتاوى المنار

حقيقة الربا القطعي المحرم لذاته

والربا الظني المنهي عنه لسد الذريعة والبيع والتجارة

ليس في الشريعة الاسلامية مسألة مدنية وقع فيها الخلاف والاضطراب منذ العصر الاول ثم ما زالت تزداد إشكالا وتعقيدا بكثرة بحث العلماء إلا مسألة الربا فهي تشبه مسألة القدر في العقائد ، فأما ما جاء من النصوص القرآنية في المسألتين فبين كالشمس لا مجال للشبهات فيه . وأما السنة العلمية القطعية في مسألة الربا فهي تنفيذ لحكم الكتاب الالهي ، وأما الاحاديث النبوية القولية فهي قسمان (الاول) نص صحيح الرواية قطعي الدلالة في حصر الربا فيما حرمه الله منه في كتابه وهو « ربا النسيئة » ، الذي لم تكن العرب تفهم منه غيره لانه هو

المعروف عندهم دون غيره وهو حديث أسامة المرفوع المتفق عليه « لا ربا إلا في النسيئة » هذا لفظ البخاري ولفظ مسلم « إنما الربا في النسيئة » و (الثاني) نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن البيوع التي قد تؤدي اليه لسد الذريعة دون ارتكابه (كنهيه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله عن خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية سد الذريعة الزنا المحرم بنص كتاب الله تعالى) وهو حديث عبادة وغيره الذي كرره المفتي الهندي وهذا هو الذي سموه « ربا الفضل »

ولما حرم الله الربا في كتابه وتوعد عليه قرن تحريمه بحل البيع وحل التجارة التي هي أعم من البيع ، فعلم من ذلك أن حقيقة الربا المحرم غير حقيقة البيع والتجارة المحللين ، وذلك أن البيع والتجارة معاوضات في الاعيان والمنافع بين طرفين يتراضيان باختيارهما على المبادلة فيها — وأما الربا المنصوص في القرآن فليس فيه معاوضة بين متعاقدين في شيئين بل هو عين يأخذه أحد الطرفين من الآخر بغير مقابل له من عين ولا منفعة بل لأجل تأخير قضاء دين مستحق عليه إلى أجل جديد لعجزه عن قضائه حالا

وقد بين بعض العلماء المستقلين في الفهم هذه المعاني كلها ولكن الذين أولعوا بتكثير الاحكام في الحلال والحرام وضعوا لأنفسهم قواعد للاستنباط ومناطات للتشريع أدمجوا بمقتضاها الربا المحرم القطعي بالنص الالهي — المتوعد عليه فيه بالوعيد الشديد لما فيه من الضرر الفظيع والظلم العظيم — في البيع المنهي عنه لسد الذريعة اذ لاضرر فيه يقتضي الوعيد الشديد بحسب أصول الشرع وحكمة الحكيم الرحيم فيه ، ومنهم من سوى بينهما . ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا بآرائهم أحكاما جديدة في الربا ليس فيها نص من الشارع قطعي ولا ظني ولا تتفق مع أصول الدين ولا حكم التشريع ولا تعليل النص لتحريم الربا بقوله عز وجل (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) كقولهم ان علة الربا هي كون ما يتبايع به الناس مكيلا أو موزونا ، فكثروا بذلك مسائل الربا وخرجوا بها عن محيط المعقول والمنقول معا فجعلوها من التعبديات التي لا تثبت إلا بنص صريح قطعي من الشارع وخالفوا بهذا أئمتهم وسلفهم الصالح الذين كانوا يتقون الجرأة على التحليل والتحريم بالاجتهاد والرأي لما ورد فيه من الوعيد الشديد في كتاب الله تعالى

قاعدة السلف في التحريم الديني

قال الله تعالى (١٦ : ١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) وقال عز وجل (٦ : ٥٩ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ! قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) وقال جل جلاله (٧ : ٣٣ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقال تبارك اسمه (٤٢ : ٢١ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) يعني ان شرع الدين هو حق الله تعالى وحده حتى ان جمهور الائمة المحققين على أن رسول الله ﷺ لم يحرم على الأمة شيئاً برأيه وان ما ثبت عنه من تحريم شيء غير منصوص في القرآن فهو استنباط من القرآن بما أراه الله تعالى فيه باذن الله له فيه بمثل قوله (٤ : ١٠٥ إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) وقوله (١٦ : ٤٤ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) مثال ذلك تحريمه ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح اخذه ﷺ من تحريم الجمع بين الاختين لعلمه بأن علتهما وحكمتهما عند الله تعالى واحدة وتحريمه الشرب والأكل في آنية الذهب والفضة أخذه من قوله تعالى (٨ : ٣١ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) بجعل الاسراف فيما يلابس الاكل والشرب كالاسراف فيهما . كما يظهر لنا . وأما نهيه ﷺ عن أكل ذوات الناب والمخلب من الوحش والطير المخالف لنصوص القرآن من حصر محرمات الطعام في اربع فهو للكراهة لا للتحريم كما فصلناه في تفسير (٦ : ١٤٥ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه) الآية فكل ما زاده الفقهاء على ما ذكر بقياس جميع أنواع استعمال الذهب والفضة على الاكل والشرب ينافي هذا الاستنباط على مخالفته للنص فمن اعتقده فله ان يعمل به في نفسه ولكن ليس له جعله حكما عاما للامة فيكون تشريعا لم يأذن به الله ، وهو مما عده الله تعالى شركا في آية (٤٢ : ٢١) وفي معناها قوله تعالى في أهل الكتاب (٩ : ٣٢ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) روى أحمد

والترمذي وابن جرير في حديث اسلام عدي ابن حاتم وكان نصرانيا أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية فقال له انهم لم يعبدوهم فقال صلى الله عليه وسلم «بلى انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم» وله ألفاظ أخرى . وقال الربيع قلت لابي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل ؟ قال انهم ربما وجدوا في كتاب الله مايخالف قول الاحبار فكانوا ياخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى

وقال الرازي في تفسيره بعد ذكر هذا الحديث والاثر في تفسير الآية : قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين (رض) قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالي في بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون إلي كالمتعجب ، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت عن خلافها . ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الاكثرين من اهل الدنيا اه

واقول قد ذكرت في (رسالة اختلاف الامة وسيرة الائمة) التي بينت فيها مزايا كتابي المغني والشرح الكبير في الفقه الاسلامي ثم جعلتها خاتمة لكتاب (يسر الاسلام وأصول التشريع العام) ان ائمة الامصار وغيرهم من علماء السلف لم يكونوا يجزمون بتحريم شيء على سبيل القطع وجعله تشريعاً عاماً إلا اذا ثبت عندهم بنص قطعي الرواية والدلالة . وأوردت الشواهد من سيرتهم في ذلك ثم إنني وجدت نصا لفظيا صريحا في الموضوع اعم مما ذكرت وهو مافي كتاب الام للامام الشافعي (رض) فانه قال في مسألة (سبايا الملاك) من (كتاب سير الاوزاعي) مانصه (ص ٣١٩ ج ٧)

« قال ابو حنيفة رحمه الله تعالى اذا كان الامام قد قال من اصاب شيئا فهو له ـ فأصاب جارية لا يطؤها ما كان في دار الحرب. وقال الاوزاعي له ان يطأها وهذا حلال من الله عز وجل بأن (ولعله قال فان) المسلمين وطئوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اصابوا من السبايا في غزاة بني المصطلق قبل ان يقفلوا ، ولا يصلح للامام ان ينفل سرية ما اصابت ولا ينفل سوى ذلك إلا بعد الخمس فان رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة كان ينفل في البدأة الربع وفي الرجعة الثلث

« قال أبو يوسف : ماأعظم قول الأوزاعي في قوله „ هذا حلال من الله ‟ أدركت مشايخنا من أهل العلم يكرهون في الفتيا أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام

إلا ماكان في كتاب الله عز وجل بينا بلا تفسير : حدثنا ابن السائب عن ربيع ابن خيثم وكان أفضل التابعين أنه قال : إياكم أن يقول الرجل إن الله أحل هذا أو رضيه ، فيقول الله له : لم أحل هذا ولم أرضه . ويقول إن الله حرم هذا (١) فيقول الله كذبت لم أحرم هذا ولم أنه عنه . وحدثنا بعض أصحابنا عن ابراهيم النخعي أنه حدث عن أصحابه أنهم كانوا إذا أفتوا بشيء أونهوا عنه قالوا هذا مكروه، وهذا لابأس به ، فاما أن نقول هذا حلال وهذا حرام فما أعظم هذا ؟ اه

هذا مانقله الشافعي عن أبي يوسف ثم نقل عنه أن ماقاله الأوزاعي من حل السبية فهو مكروه . وهو تفسير لقول أبي حنيفة « لايطؤها ماكانت في دار الحرب » ولم يستحل أحدهما أن يقول هذا حرام . وقد رد الشافعي هذا القول وصحح قول الأوزاعي ولكنه لم ينكر مانقله أبو يوسف عن السلف في التحليل والتحريم وانما صحح قول الأوزاعي بأن دار الحرب لاتحرم ماأحل الله من السبي والغنائم في أول سورة الأنفال وفي آية الخمس منها ثم قال « فان الخمس في كل ماأوجف عليه المسلمون من صغيره وكبيره بحكم الله الا السلب للقاتل في الاقبال الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن قتل اه وتراجع عبارته هنالك فانما غرضنا هنا أن الشافعي موافق مقر فيما يظهر لما نقله أبو يوسف من سيرة السلف في اجتناب التحليل والتحريم إلا ماكان في كتاب الله بينا بنفسه لايحتاج إلى تفسير، والشافعي ممن قالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل في الدين شيئا الا من كتاب الله تعالى. على انه لايضيره ان يخالفه هو أو غيره بالتحريم الديني بالقياس فالحق أن القياس غير حجة في التعبديات ولا إثبات عبادة ولا تحريم ديني لم يرد به نص صريح من الشارع كما بينا في التفسير وغيره ولا سيما كتاب (يسر الاسلام وأصول الشرائع العام)

وبهذا أخذ علماء الاصول في تعريفهم للفرض أو للايجاب بأنه خطاب الله المقتضي

(١) لعله سقط من هنا : أو نهى عنه بدليل ما بعده

للحرام بأنه خطاب الله المقتضي للترك اقتضاءاً جازما وقد مثلنا لهذا في تلك الرسالة وغيرها بأن آية البقرة في الخمر والميسر تدل على طلب تركهما دلالة ظنية راجحة ولكن رسول الله ﷺ لم يجعلها تشريعاً عاما موجبا لتركهما على الامة حتى اذا ما أنزلت آيات سورة المائدة الصريحة في الامر باجتنابهما تركهما جميع الصحابة (رض) وصار رسول الله ﷺ يعاقب من شرب الخمر وكذلك خلفاؤه من بعده.

(فان قيل) ان ما ذكرت مخالف لقول جمهور علماء الامة من أن الأدلة القطعية انما تشترط في العقائد وأصول الدين وأن الاحكام العملية تثبت بالادلة الظنية وإن علماء الاصول أدخلو القياس في تعريف الايجاب بأنه خطاب الله المقتضي للفعل اقتضاء جازما وتعريف التحريم بأنه خطاب الله المقتضي للترك اقتضاء جازما بقولهم إنه دليل على خطاب الله تعالى المقتضي لذلك

(قلت) ان القياس الاصولي المعروف ليس من خطاب الله تعالى الذي ذكره الامام ابو يوسف وغيره في موضوعنا ولا مما هو أعم منه، وليس دليلا عليه أيضا وامام أدخلوه في القياس الجلي من الاحكام التي نص الشارع على علتها أو قطع فيها بنفي الفارق فمنكرو حجية القياس شرعا لا يسمونه قياسا بل يدخلونه في معاني النص من منطوق أو مفهوم ويجد القارئ تفصيل هذا البحث في كتاب (يسر الاسلام وأصول التشريع العام) وانما ذكرناه هنا مقدمة تمهيدية وسيعاد عند ذكر المسائل العملية المتعلقة بالربا في آخر هذا البحث. اذا تمهد هذا أقول

ربا الجاهلية المحرم بالقرآن

كان الربا معروفا عند العرب في الجاهلية بالمعنى الذي ذكرناه وسننقل الشواهد عليه فليس هو من الاصطلاحات الشرعية الحادثة في الاسلام وقد ذكره تعالى في سورة الروم المكية التي نزلت قبل الهجرة ببضع سنين بالذم مقرونا بمدح الزكاة قبل فرض الزكاة الذي كان في السنة الثانية من الهجرة وقبل تحريمه (الربا) بالنهي الصريح عنه في أواخر سني الهجرة ثم بالوعيد الشديد عليه في آخر ما نزل من القرآن. وإنما جاء في السور المكية بيان أصول الواجبات والمحرمات بوجه إجمالي (كآية ٧ : ٣٣.)

قال تعالى في سورة الروم (٣٠ : ٣٩ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو

عند الله . وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون)

ثم قال في سورة آل عمران (٣: ١٣٠ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) قال بعض العلماء ان تحريم الربا كان سنة ثمان او تسع من الهجرة واسقط النبي ﷺ ربا الجاهلية في حجة الوداع سنة عشر

ثم نزلت آيات سورة البقرة المشتملة على الوعيد الشديد قبل وفاة النبي ﷺ بقليل فكانت مع آية الوصية العامة بالتقوى المتصلة بها آخر ما نزل من القرآن كما رواه البخاري في كتاب البيوع وكتاب التفسير من صحيحه . وقد روي أنه ﷺ مكث بعدها سبع ليال وقيل تسعا وقيل ٢١ كما ذكره الحافظ في الفتح ، وروى أحمد وابن ماجه نحو هذا عن عمر (رض) وزاد عليه أنه ﷺ لم يقل فيها شيئا

هذا — وان ومن أصول التشريع ان الوعيد الشديد لا يكون إلا على كبائر الاثم والفواحش التي يعظم ضررها ومفاسدها ولكن المفتي الهندي الحنفي اعتمد في فتواه قول من قال من فقهاء مذهبه وغيرهم ان لفظ الربا فيها مجمل بينه النبي ﷺ بنهيه عن بيع الاجناس الستة إلا يدا بيد مثلا بمثل كما تقدم شرحه ، ومقتضاه أن من صرف قطعة الريال من الفضة بالاربع القطع المساوية لها في الوزن مع تأخير القبض يكون ظالما محاربا لله ولرسوله بنص القرآن وملعونا مرتكبا لاحدى كبائر الموبقات بنص الاحاديث الصحيحة الواردة في حظر الربا — فهل يعقل هذا في دين الرحمة وسنة نبي الرحمة ؟فنحن نورد ما يخالف رأيه والاقوال التي احتج بها ثم نلخص الموضوع في مسائل معدودة فنقول

﴿ أقوال أئمة الفقه والتفسير والحديث في الربا والبيع ﴾

قد تقدم أن الاساس الذي بنى عليه المفتي الهندي الفاضل فتواه هو أن لفظ الربا في آية البقرة مجمل لا يعلم المراد منه إلا ببيان الكتاب أو السنة وأن هذا البيان هو حديث عبادة وأبي موسى وغيرهما في بيع الاشياء الستة كما تقدم ، ولذلك كان ربا القرآن هو عين الربا المراد بهذا الحديث لا معنى له غيره ،

والحق أن القول بأن لفظ الربا في الآيات مجمل قول ضعيف مرجوح وأن أكثر علماء الائمة المجتهدين والمنتسبين إلى المذاهب المشهورة على خلافه فزعمه

اتفاقهم عليه باطل ، بل ذكره بعضهم احتمالا ورد الآخرون هذا الاحتمال وجزموا ببطلانه ، وأنه على فرض كونه مجملا لا يصح أن يكون حديث عبادة في بيع الاشياء الستة يداً بيد مثلا بمثل بيانا له لان هذا الحديث في الصرف وما في معناه ولا تنطبق عليه نصوص الآيات في أحكامها ولا في حكمتها ، ولا في تعليلها ، ولا في وعيدها ، فهو قد خرج بها عن موضوعها من كل وجه. وجمهور علماء السلف والخلف على أن الربا في جميع الآيات مراد به ربا الجاهلية وأنه كان في تأخير الديون المؤجلة ، فان شمل غيرها فانما يشمله بعموم اللفظ . ونحن نورد الشواهد على صحة قولنا من الكتب المشهورة المعتبرة حتى كتب بعض الحنفية أنفسهم الذين اعتمد المفتي الهندي على أقوال بعضهم دون بعض ، ثم نحقق أصل الموضوع كما وعدنا وإن كنا قد سبقنا إلى هذا التحقيق في تفسيرنا للآيات من زهاء ربع قرن كما يراه القارىء في الجزء الثالث من تفسير المنار فعسى أن يكون ما نحققه أتم وأبين بما فيه من التطبيق ورد الشبهات والرجوع إلى أصول التشريع

(١) ماقاله الامام الشافعي في البيع

ذكر بعض العلماء عن الامام الشافعي ان لفظ البيع في القرآن مجمل بينته السنة وقالوا عنه ان لفظ الربا مجمل مثله نقل ذلك المفتي الهندي عن الرازي وانه اختاره . ولكن الشافعي ذكر في الأم ان لفظ البيع عام أريد به الخاص ويحتمل أن يكون مجملا وترجيحه للأول هو المصرح به في كتب فقهاء الشافعية . وهذا نص عبارته في كتاب البيع (ص ٢ ج ٣)

أخبرنا الربيع قال أخبرنا الشافعي رحمه الله قال قال الله تبارك وتعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) وقال الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) (قال الشافعي) وذكر الله البيع في غير موضع من كتابه بما يدل على إباحته فاحتمل احلال الله عز وجل البيع معنيين أحدهما أن يكون أحل كل بيع تبايعه المتبايعان جائزي الامر فيما تبايعاه عن تراض منهما وهذا أظهر معانيه

(والثاني) أن يكون الله عز وجل أحل البيع إذا كان مما لم ينه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عز وجل معنى ما أراد فيكون هذا من الجمل التي أحكم الله فرضها بكتابه وبين كيف هي على لسان نبيه او من العام الذي أراد به الخاص ، فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أريد باحلاله منه وما حرم ، او يكون داخلا فيهما ، او

من العام الذي أباحه إلا ما حرم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم منه وما في معناه كما كان الوضوء فرضا على كل متوضيء لا خفي عليه لبسهما على كمال الطهارة ، وأي هذه المعاني كان فقد ألزمه الله تعالى خلقه بما فرض من طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ماقبل عنه فعن الله عز وجل قبل لانه بكتاب الله تعالى قبل . (قال) فلما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيوع تراضى بها المتبايعان استدللنا على أن الله عز وجل أراد بما أحل من البيوع ما لم يدل على تحريمه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم دون ما حرم على لسانه

(قال الشافعي) فأصل البيوع كلها مباح إذا كانت برضا المتبايعين الجائزي الامر فيما تبايعا إلا مانهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ، وما كان في معنى مانهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم باذنه داخل في المعني المنهي عنه ، وما فارق ذلك أبحناه بما وصفنا من اباحة البيع في كتاب الله تعالى اه

(٢) ما نقله الحافظ في عموم لفظ البيع :

قال الحافظ ابن حجر في شرح أول كتاب البيع وقول الله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) وقوله (الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم) من صحيح البخاري ما نصه :

«والبيوع جمع بيع وجمع لاختلاف أنواعه والبيع نقل ملك الى الغير بثمن والشراء قبوله ويطلق كل منهما على الآخر وأجمع المسلمون على جواز البيع ، والحكمة تقتضيه لان حاجة الانسان تتعلق بما في يد صاحبه غالبا وصاحبه قد لا يبذله له ففي تشريع البيع وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير حرج والآية الاولى أصل في جواز البيع وللعلماء فيها أقوال أصحها انه عام مخصوص فان اللفظ لفظ عموم يتناول كل بيع فيقتضي اباحة الجميع لكن قد منع الشارع بيوعا أخرى وحرمها فهو عام في الاباحة مخصوص بما لايدل الدليل على منعه ، وقيل عام أريد به الخصوص ، وقيل مجمل بينته السنة وكل هذه الاقوال تقتضي ان المفرد المحلى بالالف واللام يعم والقول الرابع أن اللام في البيع للعهد وأنها نزلت بعد ان اباح الشرع بيوعا وحرم بيوعا فأريد بقوله (وأحل الله البيع) أي الذي أحله الشرع من قبل ومباحث الشافعي وغيره تدل على أن البيوع الفاسدة تسمى بيعا وان كان لا يقع بها الحنث لبناء الايمان على العرف والآية الاخرى تدل على اباحة التجارة في البيوع الحالة وأولها في البيوع المؤجلة اه

(للبحث بقية)

نظرية داروين والاسلام

جواب إشكال ألقيناه في نادي الخطابة لجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وكنت أردت ان أكتب في موضوعه محاضرة طويلة فلما لم أجد فراغا لذلك اخترت نشره لأنه مفيد في موضوعه بالاجمال وهذا نصه:

أعطاني أحد الشبان في الليلة التي تكلمت فيها على مسألة القدر في موقفي على هذا المنبر ورقة وضعتها في جيب جبتي ثم قرأتها بعد عدة أيام إذ كنت نسيتها فإذا فيها مقدمة فيما يسمى مذهب داروين يتلوها بضعة أسئلة يرى كاتبها انها من أقوى الحجج والبراهين القطعية الناقضة الهادمة لما عبر عنه «بنظرية الخلق الالهي» والحق المقرر عند علماء الكون المحققين من المتلقين لمذهب داروين بالتسليم وغيرهم انه نظرية أو مجموع نظريات قابلة بذاتها للثبوت والبطلان، أي بصرف النظر عما يعارضها من نصوص الأديان المستندة عند أهلها على أصول قطعية مؤيدة بالبراهين، ومن مذهب الروحانيين الذين لا يقتصرون في تعليل أمور الخلق والتكوين على سنن المادة ونواميسها وحدها

وأما خلق الله لكل شيء فليس مسألة نظرية إلا عند ملاحدة الماديين وهم شرذمة قليلة من مجموع الشعوب. والسواد الاعظم من علماء الكون والفلاسفة وغيرهم من البارعين في جميع العلوم والفنون، ومن العوام السليمي الفطرة يوقنون بأن للعالم خالقا عليما حكيما، ويقيمون على ذلك الدلائل العقلية والعلمية اليقينية. والمليون من أهل العلم والفلسفة يؤيدون بهذه الادلة نصوص مللهم، وغير المليين منهم وهم قليل فريقان، أحدهما ينكر بعض نصوص الاديان والآخر لا يثبتها ولا ينفيها. ومن هؤلاء عالم كبير من علماء الانكليز نقل الينا المقتطف عنه أنه سئل قبل موته هل يؤمن بالاله الخالق؟ فقال ما معناه: ليس عندي أدنى شك في وجود إله الطبيعة، فانه لا يمكن لعاقل أن ينظر في هذا الكون العظيم وما فيه من دقائق النظام وعجائب الابداع ويعتقد انه وجد بالمصادفة أو أنه يستند

الى مبدإ ضرورة، فالمعقول الذي لا أعقل غيره ان للطبيعة مادتها وقواها خالقا قادراً ذا علم وحكمة، وربما قل عاقلا. وأما إله الكنيسة فليس عندي ما يثبته ولا ما ينفيه اهـ

ولقد سبق هـذا العالم الانكليزي الى مثل كلمته في إثبات وجود الخالق عالم من كبار علماء الكلام في الاسلام لا أذكر الآن أهو النسفي صاحب العقائد المشهورة أو غيره؟ قال اتفق البشر على الايمان بوجود صانع خالق للعالم ما عدا شرذمة قليلة ذهبت الى أن وجود العالم أمر اتفاقي وهو - أي زعمهم هذا - بديهي البطلان

وقد انقسم علماء الغرب في نظرية داروين الى أنصار يؤيدونها بمقالاتهم ومصنفاتهم بمعنى انها أقرب ما وصل اليه علم البشر من التمليل المعقول لاختلاف الانواع ونظام الخلق، لا بمعنى انها حقائق قطعية كالقواعد الرياضية لا يمكن نقضها، وكم نقض تقدم العـلوم نظريات كانت مسلمة مثلها لانها كانت أقرب ما عرف في موضوعها الى العقل - والى خصوم يردون عليها ويوردون الشكوك والاحتمالات في أصولها وفروعها، وقد كان الرجحان العلمي لأنصارها الى عهد قريب، إذ دخل العـلم المادي في طور جديد، واتسعت دائرة علم النفس، وكثر أنصار الروحيين الذين يثبتون بالاختبار ما أثبتته جميع الاديان من أقدم عصور التاريخ، من ان للبشر أرواحا مستقلة لهـا أعظم التأثير في خلقهم وتكوينهم وعلومهم وأعمالهم

إنني بعد قراءة تلك الورقة ذكرت هذه المسألة في أول مرة حضرت هذا النادي فلخصت المسألة وذكرت بالاجمال الموجز رأي علمـاء المسلمين فيها وصرحت بأنني مستعد لالقاء محاضرة مفصلة فيها، فكان أن ادارة جمعية الشبان المسلمين جعلت هذه الليلة موعدا للمحاضرة بدون استشاري، وطبعت ذلك وآذنتني به أول من أمس، وأنا في شغل شاغل عن المراجعة والفكر في الموضوع، وعن كتابة ما ينبغي فيه لانه ليس من الموضوعات التي يكفي فيها الجواب عن الاسئلة التي كتبها صاحب الورقة والجواب عنهـا في غاية السهولة بل هنالك أصول وفروع تتعلق بها أهم من تلك الاسئلة أرى ان شبابنا في أشد الحاجة الى تمحيصها ولما لم أجد فراغا في هذين اليومين لـكتابة محاضرة حافلة كافلة لذلك رأيت أن اكتفي الليلة بذكر نص الورقة المشار اليها والاجوبة عن سئلتها بالاجمال، وما لا يدرك كله لا يترك قله .

نص الورقة

« لقد غفل المسلمون واستهتروا بدينهم حتى تركوا الملحدين يأخذون منه ما ربهم ، وينالون منه ويتطاولون عليه بحججهم الناصعة الواضحة القوية يريدون هدم صرحه . أولئك الذين غفل عنهم المسلمون وتركوهم يعملون بنشاط حتى تغلبوا على الاسلام . وذلك مما دفعني لأن أقف موقفي هذا راجياً من حضرة الاستاذ أن يدلي بواضح حججه وبيانه مجيبا على ما سأقدمه من الاسئلة ، ولا أريد تخلصا من الاجابة فقد تخلص مني الكثيرون لقلة اطلاعهم

« هنالك نظرية علمية حديثة ظهرت في القرن الماضي وشاعت الآن في جميع أنحاء العالم لما لها من حجج وأدلة لا يمكن أن يخطئها احد . تلك هي نظرية التطور التي تقول ان جميع الاجناس ترجع إلى اصل واحد . قامت هذه النظرية وناقشت نظريتنا وهي نظرية (الخلق الالهي)

(١) هل خلق الله جميع الكائنات في عصر واحد أم استمرت عمليته إلى عصور متفاوتة ؟ وهل لا يزال الخلق مستمراً ؟

(٢) ما معنى وجود حفريات جيولوجية مشابهة لحيوانات موجودة الآن مثل (اوفبوس) Evobeppus التي تشبه الحصان ، والهومتدرتال التي تشبه الانسان الحالي ؟ وهل هناك صلة ما بين هذا الحصان مثلا والحيوان الذي يشبهه مثل الصلة بين الحصان والبغل ؟

(٣) ما معنى وجود أعضاء في جسم الحيوان أو النبات لا وظيفة لها مطلقا بل قد تكون هذه الاعضاء مضرة في الانسان أكثر مما تفيده ؟

(٤) ما معنى قدرة بعض الناس على حركة آذانهم وعجز الآخرين عن ذلك ؟

(٥) ما فائدة العضلات الصغيرة التي في نهاية الشعر ؟

(٦) لماذا يمر الجنين بأطوار مختلفة من الحياة : تراه في حداثته جرثومة ، ثم يصير مثل الاسماك ، ثم مثل الزواحف ... الى أن يصل الى شكله النهائي ؟ وهل

هذا يدل على أن هناك علاقة بين الانسان وتلك الحياة التي مر بها الجنين؟ وان صح ذلك كان هذا أقطع دليل على صحة نظرية التطور. اهـ بحروفه

انني قبل الجواب أنصح لاخواني وأبنائي في السن من السامعين على حفظي لدرجاتهم في العلم والفضل أن يكون غرضهم من السماع لما أقوله هو التعاون بيني وبينهم فيما أوتينا من علم وبيان على تحقيق ما بين هذه النظرية وما بين نصوص ديننا من خلاف ووفاق على قاعدتنا التي نقررها دائما وهي أن من معجزات الاسلام أنه قد جاء به نبي أمي مر على بعثته ١٣ قرنا ونصف ولم تقم حقيقة علمية قطعية تنقض نصا من نصوصه القطعية، ولا تنفي أصلا من أصوله الاعتقادية. وإياكم ثم إياكم أن تعدوا الكلام الذي ألقيه من قبيل المناظرات العلمية أو المذهبية بين خصمين يكون هم كل منهما الظهور على خصمه، وتتبع عثراته ومؤاخذته في تقصيره، وسيعلم من لم يكن يعلم أنه ليس بين نظرية الخلق التدريجي ونصوص الاسلام تعارض حقيقي كما يوجد بينها وبين نصوص التوراة وان اليهود والنصارى الذين يدينون لله تعالى بقداسة التوراة لم يكبروا أمر هذه النظريات ودلائلها كما كبرها حضرة الفاضل الذي كتب هذه الورقة ولا عدّوها قطعية ولا أبطلت ثقتهم بالتوراة

ولعله ما كبرها هذا التكبير إلا لحفز الهمة للعناية بها وإقامة الحجج البالغة على تأييد الدين الذي هو مناط سعادتنا في الدنيا والآخرة، بعد هذا أقول

(أولا) ان الملحدين لم ينالوا من المسلمين ما نالوا « بحججهم الناصعة الواضحة القوية » كما قال، بل لانهم يتلقون الكفر عنهم قبل أن يعرفوا الاسلام معرفة صحيحة وبدون أن يتربوا عليه تربية عملية تغذي المعرفة الصحيحة، فمنهم من يتعلم ويتربى في مدارس دعاة النصرانية التي أسست لاجل هدم الاسلام وتحويل أهله عنه الى النصرانية أو الى الالحاد، وقد قال موسيو جول سيكار الفرنسي في كتابه الحديث (العالم الاسلامي في الممتلكات الفرنسية) ما معناه: ان المسلم يتعذر أن يتحول عن الاسلام الى النصرانية فالطريقة المثلى لتنصير المسلمين ايقاعهم في الالحاد والتعطيل أولا حتى إذا ما أصبحوا بغير دين وزال ما للقرآن من السلطان على عقولهم سهل حينئذ تنصيرهم لان البشر لا يستطيعون أن يعيشوا بغير دين.

ومنهم من يتعلم في المدارس المصرية وأمثالها مدارس وزارة المعارف وليس فيها من التربية الدينية شيء حتى ان الصلاة لا تقام فيها، وقد قل من يصلي فيها حتى ان الذين يناط بهم تعليم الدين فيها وهم خريجو مدرسة دار العلوم صاروا يتركون الصلاة الا قليلا، ولا سيما الذين استبدلوا الزي الافرنجي بالعمامة والجبة والقباء

(ثانيا) ان الملاحدة ما تغلبوا على الاسلام كما قال وانما تغلبوا على بعض التلاميذ والاحداث من المسلمين الجغرافيين فانتزعوهم من حظيرة الملية الاسلامية لما لهم في هذا من المقاصد الدينية والسياسية التي يجهلها هؤلاء التلاميذ وآباؤهم الاغبياء

(ثالثا) ان قوله ان الحجج والادلة على نظرية التطور لا يمكن أن يخطئها أحد مخالف للواقع فقد خطأها كثيرون بحق وبغير حق

الاجوبة المجملة عن أسئلته

أما السؤال الاول فجوابه ان النصوص تدل على أن الله تعالى خلق الخلق بالتدريج على نظام مقدر في علمه ، مثاله ان الله تعالى قال في سورة الانبياء (٢١ : ٣٠ أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي؟) الرؤية هنا علمية معناها أو لم يعلموا ، والرتق المادة المتصل بعضها ببعض وهي التي عبر عنها في سورة فصلت بالدخان وهو اسم المادة الرقيقة الخفيفة التي دون الماء ومنها بخار الماء ودخان النار وغيره مما يسمى في الاصطلاح العلمي بالسديم والغاز . ومنه قوله تعالى (٤٤ : ١٠ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ١١ يغشى الناس هذا عذاب أليم)

والفتق هو الفصل بين اجزاء المادة ، فهذه الآية توافق رأي علماء الكون في هذا العصر كما هو ظاهر، ولم يكن رأيهم هذا مما يخطر في بال أحد من العرب الأميين ولا من غيرهم في ذلك العصر ، وهي جديرة بأن تعد من معجزات القرآن العلمية عند الذين استنبطوا هذا الرأي من مباحث علمية دقيقة بعد بطلان نظرية قدماء علماء الهيئة من اليونان وغيرهم

وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة بأنه خلق السموات والارض في ستة أيام وفي بعضها زيادة (وكان عرشه على الماء) واليوم في اللغة العربية هو الزمن الذي

يعرف أو يحد بوقوع شيء فيه طال أو قصر، وقد قال الله تعالى (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقال (تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ومنه أيام العرب المشهورة في وقائعهم وحروبهم كيوم ذي قار ويوم اوارات الخ. فالمراد بأيام خلق السموات والارض عصور تم في كل عصر منها طور من أطوار خلقها وقد فصلت بعض التفصيل في سورة فصلت. وهذه الآيات تتفق مع مذهب النشوء دون نص التوراة الذي أذكره إن شاء الله في البحث التفصيلي ان قدر لي كتابة محاضرة فيه، ويقول الله تعالى في خلق الانسان (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين) وقال (وقد خلقكم أطوارا) فهو تعالى لايزال خلاقا عليما حكيما

وأما السؤال الثاني فجوابي عنه انني لا أعلم سبب التشابه بين الحيوانات الجيولوجية بعضها مع بعض ولا مشابهة بعضها لبعض الحيوانات الباقية، كما انني لا أعلم سبب التشابه بين الحيوانات التي لم يوجد ما يدل على وجودها في عصور طبقات الارض القديمة، وسبب التشابه بين النبات الذي من فصيلة واحدة أو فصائل مختلفة كالتشابه بين ورق الزيتون وورق الرمان، ومذهب داروين في تعليل امثال هذا التشابه لايقوم دليل قطعي ولا قريب من القطعي على صحته وان كان أكثر مافيه من تعليل يعد الى الآن أقرب من غيره الى اثبات حكمة الله تعالى في نظام خلقه، واذا فرضنا وصوله الى درجة اليقين لم يكن ناقضاً لنص من نصوص الدين القطعية مادام لاينافي كون الله هو الخالق لذلك بهذا النظام

وانه ليوجد بين بعض الجماد وبعض النبات من التشابه وبين بعض النبات وبعض الحيوان من التناسب ماتحار العقول في سببه ويمكن استنباط أسئلة لاتحصى من هذه الامور لايمكن الجواب العلمي عنها (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

ومما يقال فيه على غير طريقة داروين ان الخالق الحكيم المختار جعل من آيات النظام في خلقه هذا التشابه وهذا الاختلاف بين أنواع المخلوقات وجعلها درجات بعضها أعلى من بعض في الاجناس والانواع الدنيا والوسطى والعليا تشترك في بعض مقوماتها ومشخصاتها وتختلف بالفصول التي تميز بعضها من بعض كما يقول علماء المنطق، وقد قال بعض علمائنا من قبل وجود داروين ان المخلوقات في جملتها من جماد

ونبات وحيوان وانسان وملك تقوم بنظام متناسب ذو درجات ترتقي من الادنى الى الأعلى فأعلى أفق الجماد يتصل بأدنى أفق النبات، وأعلى أفق النبات يتصل بأدنى أفق الحيوان، وأعلى أفق الحيوان يتصل بأدنى افق الانسان، وأعلى افق الانسان يتصل بافق الملائكة الذين هم الواسطة بين الخالق تعالى وبين عباده في الخلق والامر، ولكن هذا التشابه والتناسب بين هذه الدرجات لا يقتضي أن يكون بعضها قد تحول عن بعض، وانما تقتضي هذه الوحدة في نظام الوجود أن يكون صادرا عن خالق واحد عليم حكيم (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت)

وأما الجواب عن السؤال الثالث وهو مامعنى وجود أعضاء في أجسام الاحياء ليس لها وظيفة؟ فاقول فيه أولا: ان عدم علمنا إلى اليوم بانه ليس لها وظيفة ولا فائدة لا يقتضي عدم وجود ذلك وإمكان الوقوف عليه في وقت من الاوقات وان يكون غير قول داروين بانها اعضاء أثرية وقد كان مجهولا الى القرن الماضي، وثانيا ان العلم بسبب وجود هذه الاعضاء وحكمتها ليس من علم الدين الذي يسئل مثلي عنه، واني لاعلم مما اقرأ من مباحث علماء الكون في الكتب والصحف انهم يعترفون بأن مايجهلون من اسرار هذه الموجودات اضعاف اضعاف ماعلموا منها، وانهم كلما ازدادوا علما بكشف شيء جديد منها علموا من جهلهم مالم يكونوا يعلمون، كما قال الامام الشافعي رضي الله عنه:

كلما أدبني الدهـ ـر أراني نقص عقلي
واذا ماازددت علما زادني علما بجهلي

ويعجبني قول الدكتور يعقوب صروف في مقالة له في أعجب ما وصل اليه علماء العصر من عجائب علم الفلك وغيره انهم لايزالون مع هذا يجهلون كنه حبة الرمل، ومخ النمل، علم واسع وجهل مطبق، يدل على سعة علم الخالق عز وجل

(وثالثا) يقولون انها كانت أعضاء تؤدي وظيفتها في طور من أطوار الحياة للحاجة اليها فيه ثم زالت هذه الحاجة فزالت الوظيفة كما يقولون في المعى الذي لا يهضم الا النبات، وهذا - وان صح - لا ينقض عقيدة من عقائد الاسلام ولا يعارض نصا من نصوصه القطعية، كما انه ليس برهانا قطعيا على تحول نوع من أنواع

الحيوان الى آخر ، ولا سيما الانسان الذي هو سيد عوالم هذه الارض ، وان دارون وأمثاله من العلماء الذين عرفوا كثيراً من أسرار خلقته الجسدية الحيوانية ، قد جهلوا ماهو أعظم منها من أسرار حياته الروحية والعقلية ، وكذا مزية النطق الذي عدها الحكماء الاولون هي الفصل الظاهر المميز له على جميع الحيوانات حتى القريبة الشبه الحيواني منه ، ويصدق عليهم قول المتنبي في الخيل

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وأما الجواب عن السؤال الرابع وهو مامعنى قدرة بعض الناس على تحريك آذانهم دون بعض؟ فجوابه ان معناه انه يوجد في الناس من يتمرنون على تحريك بعض أعضائهم بأعمال يعجز عنه من لم يتفق له ذلك ، والاقرب أن مسألة تحريك الأذان من هذا القبيل ، وقد يكون سبب سهولته على بعض الناس دون بعض أن بعض أجدادهم كانوا يعيشون عيشة يحتاجون فيها إلى إصغاء شديد يؤثر في الأذن والاستدلال به على كون الانسان كان حماراً أو حصانا أو قردا ثم صار انسانا وقد بقيت في بعضه هذه المزية من مزايا أصوله السابقة استدلال ضعيف وسخيف ، فاذا لم تصل تلك التعليلات المعقولة في نفسها والمبينة من نظام الكون وحكمة الخالق فيه ماليس في غيرها الى كونها دليلا على نظرية التحول فهل يصح أن تدعم بتحريك بعض الناس لأذنيه؟ ولماذا لم يكن هذا التحريك عاما اذا كان سببه ماذكر؟

وإنني لما علمت بهذه المسألة منذ سنين كثيرة حاولت أن أمرن أذني على الحركة فصعب علي ذلك ولكنني كررت المحاولة فحركتهما .

وأما جواب السؤال الخامس عن فائدة العضلات الصغيرة التي في نهاية الشعر فهو ماقاله بعض أئمة سلفنا : من قال لاأدري فقد أفتى ، وإنني لست من علماء هذا الشأن وقد قلت فيهم مانقلته عن جمهورهم من ان ما يجهلون من أسرار خلق الانسان وغيره حتى حشرتي النمل والنحل أضعاف مايعلمون ، ولكن من استطاع أن يقيم لي من جوابه عن هذا السؤال حجة أو شبهة على بطلان نص من نصوص كتاب الله فانه يجدني مستعداً لدحض حجته ، أو بطلان شبهته ، ان شاء الله تعالى

الانتداب في البلدان العربية

(بقلم الكبتن غوردون كاننج)

آراء حرة حكيمة في امكان الجمع بين مصالح الانكليز والعرب. ترجمت بالعربية ونشرت في جريدة العهد الجديد البيروتية خادمة القومية العربية منذ أشهر فاخترنا نقلها الى المنار مع توجيه أنظار الدولة السعودية العربية اليها وهذا نصها:

كان من أعظم أسباب سقوط الامبراطوريات القديمة إسراف القوة الرئيسية تدريجاً بالتوسع المطرد في الممتلكات ،ونرى في عصرنا هذا ان الامبراطورية الفرنسوية في خطر الانحلال لهذا السبب نفسه ، ان مستشاري الامبراطوريتين ويلوح انهم من طراز قديم (سابق لتاريخ البشر) ممن لهم خبرة بفنون الحرب يصرحون ان الضرورة تقضي بصيانة الممتلكات الموجودة بضم ممتلكات أخرى

معلوم ان زيت البترول بات من أهم مطالب العالم في هذه الايام فأصبحت موارده من الضرورات الاولية لكيان الدول العالمية . فالبترول اذاً كان من العوامل التي اجتذبت انكلترا الى العراق وفلسطين وايران التي اضطرت بحكم أحوال خصوصية الى الانسحاب منها، ومتى كانت انكلترة موطدة في العراق وفلسطين ففرنسا لا يمكنها أن تتخلى عن بقعة مجاورة ترتكز اليها وتتخذها قاعدة لحماية مصالحها ، وهذا مابعث على عقد اتفاق « سيكس — بيكو » وتنفيذ هذا الاتفاق كان مضراً بالاتفاق الذي عقد بين الملك حسين والحكومة البريطانية مع انه كان في تاريخ سابق لاتفاق « سيكس - بيكو » ومما يدل على ان انكلترة قد سلمت أنها حنثت (في يمينها ونقضت) عهدها مع الملك حسين انها أوجدت عرش العراق للملك فيصل بعد ما طردته السلطات الفرنسية من سورية

وقد أثر ذلك تأثيراً سيئاً في سمعة انكلترا وهيبتها في الشرق الأدنى والشرق الاوسط لان العناصر العربية أدركت أنها بيعت لمشتر أقوى وأقدر ، فقد كانت مقتضيات مواصلة الحرب أهم من كل شيء وفوق كل شيء حتى ان

الشرف البريطاني ترك جانباً وعد من سقط المتاع، وكانت هذه الاتفاقات الحربية المختلفة هي السبب الاكبر الذي جعل معاهدة فرساي وغيرها من المعاهدات شؤما وهولا وأسبابا للقلق الحالي

والغاية من مقالتي هذه ان اقترح علاجا لمسألة بلدان الانتداب في الشرق الادنى والشرق الاوسط التي عانت هول تلك المعاهدات وفي أي علاج يتناول مصالح عدة أمم لا يمكن لاية أمة منها ان تكون راضية كل الرضاء . ولا بد من مراعاة مبدأ الاخذ والعطاء من كل جانب

وللبحث في هذه المسألة لا أرى من الضرورة الدخول في تفاصيل ادارة شؤون بلدان الانتداب خلال السنوات الثمان الاخيرة، لان هذه الوجهة من المسألة كانت موضوع البحث في عدة جرائد ومؤلفات، فالغلطات التعسة والاخطاء المحزنة التي ارتكبتها فرنسة وانكلترة قد اعترف بها، وليست المصاعب التي جابهها كلاهما مما يستحق العطف لانها من المصاعب التي أوجدتها انكلترا وفرنسا، وقد أصلحت انكلترة جانباً عظيما من أخطائها ولا سيما علاقاتها مع العراق، وأخذت فرنسا بارشاد المسيو بونسو تحاول اصلاح عواقب اداراتها الوضعية في سورية

ان الغلطة الرئيسية التي ارتكبها كل من انكلترة وفرنسة هي عدم العمل بمقتضى البند الثامن والعشرين من عهد جمعية الأمم، وقالت المس هويت في كتابها عن الانتداب مايلي :

« أما اذا كانت هذه الرغائب قد نفذت فأمر مبهم غامض، وأما اذا كان هنالك لأولئك الناس رغائب جلية فأمر أغمض وأكثر إبهاما، وبالحقيقة وواقع الأمر ان أهل بلدان الانتداب لم يستشاروا » والاسلوب الذي اتبع في هذه البلدان في تقسيمها الى دويلات أوجد على سطح الكرة الارضية بلقانا آخر، وهو أسلوب سقيم من الوجهة الاقتصادية نظراً للتعريفات الجمركية بين تلك الدويلات وعرقلتها لحركة التجارة

وبلدان الانتداب المعروفة بحرف (ا) هي كما يلي :

١ — العراق : وضع انتدابه في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الامم في سبتمبر سنة ١٩٢٤ ويبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين نسمة

٢ — سوريا : وضع انتدابها في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الامم في يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٢٬٢٥٠٬٠٠٠ من المسلمين و ٤٠٬٠٠٠ من الدروز و ٤٠٠٬٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠٬٠٠٠ ماروني

٣ — فلسطين : وضع انتدابها في شهر ابريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليها جمعية الامم في شهر يوليو سنة ٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٧٥٠٬٠٠٠ نفس ٨٧ في المئة منهم عرب

٤ — شرقي الاردن — ويبلغ عدد سكانه ٢٠٠٬٠٠٠ نفس

وفي شبه جزيرة العرب بلدان تحت الحماية البريطانية وهي عدن وعمان والكويت ، وبلدان مستقلة وهي نجد والحجاز والعسير واليمن وحضرموت ، ومجموع عدد سكان هذه البلدان كلها يتراوح بين خمسة عشر مليون نسمة ، (هي لاتقل عن ٢٥ مليونا)

أما اذا كان اصلاح الانتداب قد وضع على قاعدة المثل الأعلى أو ابتكر كمرادف للضم والتملك فليس من موضوع البحث في مقالتي هذه ، ولكن الارجح ان جانبا عظيما من عدد السكان المبين آنفا متحد في مطالبه ورغبته في التخلص من الوصاية الاجنبية وإن كان مختلف الاجزاء غير متفق على شكل الحكومة التي يجب أن تحل محل حكومة الانتداب أو دولة الحماية

فهل مقتضيات الامبراطورية البريطانية تتطلب أن تكون انكلترة في فلسطين والعراق وشرقي الاردن ؟ وهل من الضروري أن تكون فرنسة في سورية ؟ ان جواب البلدين [1] هو « نعم » فاذا كانت إحدى الدولتين في سورية لابد أن

---

(١) يعني ان جواب الدولتين معا أن وجود كل منهما في موضعها يقتضي الاخرى لان مقتضى الشركة في الحرب الاشتراك في الغنيمة وفي انفراد احداهما غبن وخسار الاخرى. وذكر بعد هذا الجواب المشترك ما تقوله كل منهما في الاحتجاج لنفسها ومنه ماتدعيه أو توجده من الشقاق بين الاقلية والاكثرية من الاهالي =

تكون الأخرى في فلسطين والعكس بالعكس ، وتقول انكلترة نعم لا دافع عن قناة السويس ضد مهاجميها من الشرق ولا دافع عن مصالح بريطانيا في بترول الموصل والمحمرة . وتقول فرنسا نعم لا دافع عن خط أنابيب البترول وسكة الحديد المزمع مدها الى الموصل وبغداد ومن كل منهما الى حيفا. وهذه الفكرة الثانية لتنمية التجارة ومصالح الصناعات، ويتبعها ويترتب عليها الحماية العسكرية ، وهكذا تظل الدول الاوربية الادارية تثير كتلة متجمعة من الرأي العدائي في تلك البلاد التي قد تصبح بقوة الاتحاد قوة خطرة خطيرة ، فالافضل والحالة هذه الاعتماد على عقل سكان البلاد وعلى عهد صداقة يقوم على قاعدة التعاون التجاري والكسب المتبادل .

[illegible]ب الاول يمكن درؤه باتفاق متبادل يعقد بين انكلترة وفرنسة للانسحاب في وقت واحد من سورية وفلسطين وشرقي الاردن ، ولكن فرنسة تقول : محال عليَّ أن لا أحمي الاقلية المسيحية. ونحن نرى اليوم ان هذه الاقلية المسيحية هي أيضاً تطلب جلاء فرنسة عن البلاد .

وتقول انكلترة : ان ذلك مستحيل، لا يمكننا أن ننسحب وندع الاسرائيليين تحت رحمة العرب ، والحال أن اليهود والعرب كانوا في عهد تركية عائشين معاً في وفاق تام، وان تصريح بلفور هو سبب الاضطراب الحالي بين العرب واليهود وتأسيس هذا الوطن القومي لليهود لم يلق تعضيداً حقيقياً من زعماء اليهود فقد أيدوا الفكرة عن غير طيبة خاطر مالياً وأدبياً ، ولم يوافقوا قط على فكرة مغادرة مواطن إقامتهم للاقامة بذلك الوطن القومي .

وكان معظم المهاجرين من اليهود القاطنين في شرقي أوربا الذين ذاقوا

= لتبني عليه أن العدل والرحمة توجب عليها ان تبقى في البلاد لمنع القوي بكثرته من ظلم الضعيف بقلته ! والحال ان هذه الدعوى ان صحت تكون من دفع الظلم القليل المحتمل بالظلم الكثير العام المحقق وهو ظلم جميع أهل البلاد باستذلالهم وسلب استقلالهم والتصرف في رقبة بلادهم !!

الذل والهوان وعانوا الشيء الكثير من الاضطهاد والظلم ، وقد برهنت الايام على ان الصهيونية صناعة خائبة عقيمة وجناية سياسية ، فالصهيونيون المقيمون الآن بفلسطين قد وجدوا هناك بمساعي انكلترة وجهودها ، ولا بد من الاعتراف بهم وحمايتهم ومساعدتهم

يعتقد معظم الناس أن العرب يعجزون عن إظهار مقدرتهم بتقديم خطة انشائية وأما أنا فاعتقد أنهم قادرون، ليس بناء على تاريخ عنصرهم الماضي فقط، بل لما يحرزه ابناء العرب المهاجرون من النجاح الباهر في المراكز الصناعية والتجارية العصرية في بونيس ايرس ونيويورك وغيرها من أنحاء العالم المتمدن . وليس من الضروري الرجوع بالقاريء الى الحكومات العربية السديدة الخطوات في العهود الغابرة، وحسبي أن أقول إنه في القرن الثامن بعد الميلاد في عهد الخلفاء الراشدين(١) ببغداد كان في وسع التاجر المتجول أن يسافر من البصرة إلى دمشق مثقلا بالسلع والنضار بغير أن يعتدي عليه أحد، وفي عام ٩٨٠ ميلادية كان المسافر يقطع الشقة بين المهدية(٢) والقاهرة بلا خوف ولا وجل من قطاع الطرق ، فاذا كان العرب قد استطاعوا في تلك الايام تأمين الطرق بهذه الكيفية فمن الاكيد المحقق انهم قادرون على ذلك في هذه الايام(٣) ولا بد لنا من تسليم أنهم يحرزون هذه المقدرة بالارث ،ولكن هل يحرزون الارادة والعزيمة على اظهار هذه المقدرة ؟؟ ان على العرب أن يبرهنوا على ذلك الآن ، ولا يكفي أنهم شديدو الرغبة في طرد المعلم من بلادهم فهذا لا يعدو سياسة الهدم ، ولكن يجب عليهم أن يظهروا مقدرتهم على التعمير والانشاء

أما فيما يتعلق بالمخاوف التي قد تتطرق الى قلوب الانكليز بان الاقليات المسيحية واليهودية لا تطيق الاغلبية الاسلامية فلا بد من قول شيء في ذلك : ان الاقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة في

---

(١) لعل الاصل العباسيين لانه هو الصواب (٢) بلد بتونس (٣) هذا الدليل النامي الصحيح مستغنى عنه الآن بتأمين الملك السعودي ما بين خليج فارس الى الاحمر مثل ذلك التأمين أو أشد وأكمل وهو مالم تصل الى مثله فرنسة ولا انكلترة

البلدان الاسلامية الى أن تأتي دولة أوربية وتستخدم تلك الاقليات لقلب الحالة كما حدث في مسألة الارمن والاتراك (١) ثم إنه في الأنحاء البعيدة المنعزلة من العالم الاسلامي قد لايخلو الامر من تعصب ضد المذاهب الاخرى ولكن هذا كان كذلك بين مختلف الطوائف المسيحية، على ان زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائما يعملون على تلافي هذا التنافر واصلاح ذات البين، فاذا كان التعصب الديني قد أخذ مجراه في زمن من الازمنة فقد كان المسلمون من غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ماينال المسيحيين ومن الواجب أن تتخذ مبادىء نجران كالمثل الاعلى للزعيم المسلم، وكلمة الامام علي: « ان دم الذمي كدم المسلم » هي أيضا خير مثال

واليوم نرى الموارنة في لبنان والمسيحيين العرب في فلسطين ومسلمي الشام وفلسطين والعراق قد أخذوا يعرضون عن الفوارق في المذاهب والعقائد ويجنحون الى المثل الاعلى والمذهب العميم وهو اننا جميعا اخوان في الانسانية وأول خطوة في هذا السبيل هي السعي الى توحيد بلاد العرب، وقد أخذ أبناء العرب المثقفون المتنورون في هذه الايام يتطلعون الى هذه الغاية ويبثون الدعوة اليها في عدة أنحاء. وزعماء العرب أدرى مني بالمنهج الذي يجب أن ينهجوه للحصول على الوحدة العربية والتخلص من وصاية الأجنبي والتقدم الحثيث في التعاون مع خير الطبقات الاوربية وإني أقترح مايلي على سبيل التجربة:

أولا — المبادرة الى عقد مؤتمر في القاهرة يدعى اليه مندوبون من جميع البلدان العربية

ثانياً — ينتخب هذا المؤتمر مجلسا دائما يكون مقره في القاهرة أو جدة أو الشام (ولما كانت القاهرة مركزا حسناً تتوفر فيها أسباب المواصلات مع جميع بقاع الارض العربية قد تكون لائقة لان تصبح بمثابة جنيف للغرب)

---

(١) مازلنا منذ أنشأنا المنار نبين أن هذا التعصب لم يكن العرب يعرفونه في عصور الدول العربية وإنما أوجده الاعاجم ولا سيما الافرنج وكل ماجهر به نصارى لبنان وحكومتهم من ذلك في هذا العهد فالفرنسيون هم الداعون لهم اليه

ثالثاً — على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر كل سنة أو سنتين

رابعاً — على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الاجراآت اللازمة لايجاد اتحاد عربي وأن ينتخب زعماءه ويتفق على زعيمه الأكبر

خامساً — تكون مهمته توحيد الامة العربية ببث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة

سادساً — يجب وضع خطة لتعليم تمكن كل دولة في خلال الخمس عشرة سنة المقبلة من الحصول على سبيل مطرد من الشبان المتدربين على فن الادارة الحكومية والعلوم والفنون والشؤون الصحية وما الى ذلك

فاذا استطاع العرب أن يصلوا الى هذا التوحيد فيحتمل ان تتمكن انكلترة من رفع حمايتها عن جميع البلدان العربية عدا عدن، وان تعقد معاهدة ومحالفة بين سلطات الاتحاد العربي والامبراطورية البريطانية. واني اعتقد ان حلا كهذا يكون أفضل ضمان لسلامة المواصلات الامبراطورية، وتوطيد أركان القوة في هذه البلدان من الشرق الاوسط وتوحيدها بتخليص الامبراطورية البريطانية من انفاق عدة ملايين من الجنيهات كل عام

ويغلب على ظني ان العرب يجب ألا يتصوروا وهم يتصورون انه يتسنى لهم الوصول الى هذه الغاية بغير مساعدة من الغرب، ويجب ألا يغرب عن بال انكلترة وفرنسة ان أمة تحت التدرب والتعليم لا يمكن أن تحرز المسئولية اللازمة إلا بالممارسة والاختبار وبهما دون سواهما تتعلم هذه الامة اجتناب الاخطاء والوصول الى مستوى مرض من الحكم الذاتي

وزعامة الدعوة الى الوحدة العربية يجب أن تخرج من دمشق، وربما قبل مضي وقت طويل يعود العالم العربي الى ازدهاره ويناعته ويدهش العالم بثقافته وعلمه كما كان في سالف الاحقاب

وما هو تأثير هذا كله في انكلترة فيما يتعلق بالامبراطورية البريطانية ؟ الجواب عن ذلك من الوجهة السلبية انه يوجد القوة العسكرية في مركز واحد، ويقلل من تبعة التورط، ويؤدي الى اقتصاد المال، ومن الوجهة الايجابية

الابتكارية يضم جميع العنصر العربي الى دائرة الصداقة الخالصة ، ويوجد زبائن أقوياء اغنياء بالتقدم في المعيشة العصرية وبالتعاون التجاري الوثيق مع الغرب ، وحيث كان زبون واحد في الماضي يقوم اثنا عشر زبونا جديداً محله

ان مشروعا هكذا يتطلب وقتاً للنضوج ،ولكن الوقت لايجدي ولا يغني فتيلا اذا كان زعماء العرب في هذا العصر لايعدون التربة ويتعهدونها بسماد العقل والفطنة وينثرون فيها بذور الاتحاد والوئام

لانعاش هذا المشروع وابلاغه طور الازهار والاينـاع يجب أيضاً أن تنقى أرضه من الاعشاب البرية، وان تروى وتسقى ليس بمساعي زعماء العرب الشجعان فحسب، بل بمساعي الاوربيين أيضاً ولا سيما رجال الانكليز ذوي البصيرة النيرة والنية الحسنة

ولكي ينتج هذا المشروع خير النتائج من الضروري الحصول على تعضيد انكلترة ومعاونتها، فللعرب أن يقتبسوا العلوم عن الالمان والفنون عن الفرنسويين ولكن العلوم السياسية وفن معاملة المذاهب المختلفة وتحمل الفوارق الدينية وواجبات الشرف والنزاهة يجب أن يتعلموها من انكلترة ومن الرجال الانكليز

وقد يطول العمر على ثقافة انكلترة وتبقى مكرمة محترمة مرغوبا فيها خلال اجيال كثيرة مقبلة ويكون مثلها في هذا العصر مثل ثقافة الرومان والعرب من قبل وأختم مقالي هذا بكلمات اوناموتو : اني أقصد الحث واذكاء وطيس الحماسة والاقتراح لا الارشاد والتعليم

نعم يجب الوصول الى اتفاق متبادل بين فرنسا وانكلترة تتفقان فيه على سحب كل شيء فيه شبهة للعسكرية من سورية وفلسطين وشرق الاردن، وأن تقدما للبلاد خبراء لتنمية فن الادارة الحكومية والفنون والصناعات عند مايطلب منهم العرب ذلك بانفسهم

والحامية البريطانية التى تسحب من مصر وفلسطين يمكن ان تعسكر لمدة ١٥ سنة في جوار بورت فؤاد بعد استئذان الحكومة المصرية فتكون منها قوة مركزية متأهبة في أية لحظة للدفاع عن مصالح بريطانيا العظمى في شرقي البحر

الابيض المتوسط وللتعاون مع الحكومة المصرية على حماية القناة ودرء الاعتداء على حرية الشعب المصري

ولكن قبلما يتسنى نقل هذا الاقتراح الى حيز الفعل يجب على العرب أن يمدوا أيديهم للعمل ويقدموا برهانا حاسما على استطاعتهم إيجاد مشروع ابتكاري يتسنى به ملافاة حدوث الفوضى عند ما تنسحب القوات البريطانية والفرنسوية من البلاد فعلى نواب العرب أن يقدموا مشروعاً يبينون به مايلي :

١ — أنهم أهل لادارة شؤون بلادهم بأنفسهم وان الانتداب غير لازم

٢ — ان جميع المشروعات التجارية مثل سكك حديد بغداد — حيفا ومنابع البترول في الموصل والمحمرة تقدم لها التسهيلات اللازمة لترقيتها وانمائها وان يسمح للمشروعات الاوربية بالاشتراك مع المشروعات العربية ان ترقي مؤهلات البلاد التجارية والصناعية تحت شروط عادلة مرضية للجميع

٣ — أن تستطيع الحكومات العربية تقديم الضمان الوافي لتأمين معاملة الاقليات المسيحية في سورية والاقلية اليهودية في فلسطين وتنفيذه وان تمنح الوطن القومي اليهودي قسطا معينا من الحكم الذاتي وهذا الوطن القومي يجب أن يكون مثالا مصغراً لمركز روحي تثقيفي فقط

٤ — أن يستطيع زعماء نواب العرب أن يقدموا برهانا حاسما على موافقتهم على انشاء اتحاد دول عربية تحت سيطرة ابن سعود اذا كان ذلك ممكنا

(المنار) هذا كلام كله حسن لو ايده العمل من جانب انكلترة وفرنسة، واما زعماء العرب فانه يسهل عليهم كل مااقترحه الكاتب المنصف عليهم ولعلهم عندما قرءوه تبادر الى اذهان اكثرهم المثل «اقرأ تفرح جرب تحزن» وان كانوا يعلمون أنه خير لهم وللدولتين معا لان الوحدة العربية المشار اليها لابد ان تكون لان جميع أهل الرأي والمكانة في الاقطار السورية والعراقية والحجازية والنجدية متفقون على بذل الانفس والنفائس في سبيلها، فاذا لم يوجد في عقلاء الدولتين احداهما أو كلتيهما من يواتيهم على ذلك بالسلم والمودة فسيكون سببا لسفك دماء غزيرة واضاعة ملايين كثيرة (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

مناظرة

في مساواة المرأة للرجل في الحقوق والواجبات

(في كلية الحقوق من الجامعة المصرية)

— ٣ —

رأي الآنسة هانم محمد

نهضت الآنسة هانم محمد الطالبة في كلية العلوم لتأييد الاستاذ محمود عزمي في وجوب المساواة* فصفق لها الجمهور تصفيق الترحيب والتكريم . فشرعت في قول كان مكتوبا واضطرت الى الخروج عنه أو الزيادة فيه المرد علي ، فكانت مظهر الانوثة المهذبة في خشوع الصوت ولين القول وضعف الحجة ، وحكاية الاقوال المشهورة في الموضوع كقولهم : ان النساء نصف الامة فاذا منعن من العلم والعمل كالرجال كان هذا المنع قضاء على نصف الامة بالشلل ، وحينئذ يتعذر عليها العمل وضربت مثلا قول الغربي للشرقي « محال يا صاحبي أن تلحقني وأنا أسير الى المحطة متكئاً على ذراع زوجتي وأنت تسير حاملا زوجتك على ظهرك »

واحتجت أيضاً بمساواة نساء الفلاحين لرجالهم في جميع الاعمال الزراعية ، ومثل هذا وذاك ليس في شيء من وجوب المساواة التي هي موضوع المناظرة وإن أُخِذ على ماصوَّرته به فجعل من القضايا المسلمة ، فالآنسة كانت بحالها ومقالها وجدالها آية بينة على تفاوت استعدادي الذكر والانثى وعدم جواز تساويهما في جميع الحقوق والواجبات

وأحسن ما قالته بداهة ، وألطفه في الجدال موقعاً ، وأدله على ثبات الجأش

---

*) يجب أن تعلم هذه الفتاة هي وأهلها انها اذا كانت تعتقد مايعتقده عزمي في هذه المساواة وتنكر حقية ما قرره الاسلام وحسنه فهي مرتدة لا يجوز لمسلم أن يتزوجها ولا ترث المسلمين ولا يرثونها

وتعود محاورة الرجال، كلمة لها أزالت بهاسوء تأثير كلمة قبلها استنكرها السامعون منها فابتدروها يتنادرون عليها . فصاح بهم رئيس الجلسة صيحة منكرة ورفع عقيرته بعذلهم والتثريب عليهم ، واننا نشير الى هفوتها ألطف إشارة، ليدرك القارئ حسن موقع تلك العبارة

ذلك انها أرادت أن تحتج على وجوب المساواة في الحقوق والواجبات بالمساواة في القوى والحواس والملكات ، فذكرت المساواة في الاعضاء ، بعبارة ساذجة تسيغها غرارة العذراء ، دون أبناء البلد من الادباء ، الا ان تكون بحضرة النساء، وكأن الذين اضطربوا لها، وتهامسوا يتنادرون عليها ،قد راعوا عقيدتها ومذهبها في مساواتهم ،فجعلوها كواحد منهم ، ولكن رئيس الجلسة خالفهم في ذلك واشتد في الانكار عليهم كما تقدم ، وهذا دليل على انه لا يرى وجوب المساواة المطلقة ولا جوازها

وبعد أن سكنت الزعازع ، وسكت المنازع ، جهرت الفتاة بكلمتها ملقية إياها بهدوء وسكينة وهي « لو كنتم معتادين على الاختلاط لما حدث مثل هذا الضجيج » وانما يصح هذا القول في الرجال الذين اعتادوا مخالطة النساء وهم يعتقدون ان ما بينهم و بينهن من الفرق بل الفروق في المدارك والعواطف وغيرها لا يبيح لهم من الحرية في حضرتهن ما يستبيحونه عادة فيما بينهم ، ولعمري ان الرجل الذي يتفق له حضور مجلسهن وهو غير معتاد له لأجدر بالادب والحياء فيه من غيره ، وانما ترجل المرأة ومزاحمتها للرجل فيما يعده من خصائص الرجال هو الذي يذهب بكرامتها النسائية من نفسه حتى يظهر ذلك في معاملته لها . وقد حدثونا عن ظهور هذه المعاملة لهن في أوربة في هذا العهد الذي قوين فيه على مباراة الرجال في الكسب وزاحمنهم بالمناكب بما اضطرتهم اليه ضرورات الحرب وللضرورات أحكام تقدر بقدرها ،ولا يجوز أن تتجاوزها فتجعل أصلا دائما

كتب بعضهم مقالا في استقلال المرأة الغربية الاقتصادي الذي انتزعت به حق الاستقلال السياسي فصارت ترى نفسها مساوية للرجل في كل شيء قال فيه

« يدهش الرجل الشرقي منا إذا زار أوربة وكان يسمع أن المرأة عندهم محل

كل تبجيل واحترام – يدهش إذ يرى في قطار مزدحم امرأة تفتش عن محل خال فلا تراه ، والرجال من دونها قعود لا يخلون لها محالهم» أي خلافا للمعهود منهن من قبل ولا يزال معهوداً عندنا من إيثار الرجل المرأة على نفسه في مكان جلوسه

ثم ان الآنسة طفقت ترد علي حتى في إنكار سباحة النساء مع الرجال ورقصهن معهم ، وكان خيراً لها لو لم تفعل بل كان خيراً لها وأليق بها أن تقول ان هذا إسراف من الفريقين في الشر ، ونحن انما نريد المساواة في العلم الصحيح والعمل النافع للامة ، وان أطلقته وجعلته عاما

وأما الطلاق فقد ذكرت في الرد علي ان الرجل كثيراً ما يرسل الى المرأة كتاب طلاقها وهي لا تدري له سبباً ، وأنا لا أنكر وقوع هذا وقبحه ولكني أقول لو أعطيت المرأة حق الطلاق أيضاً وهي أكثر من الرجل انفعالا ، وأسرع هرباً مما يسوءها إذا استطاعت اليه سبيلا ، فان هذا الطلاق القبيح الضار يتضاعف أضعافاً ، وهو مخرب البيوت ، ومقطع سلك النظام

رد شوكت افندي التوني

ولما انتهى وقت الآنسة هانم محمد نهض الشاب الاديب شوكت افندي الطالب في كلية الحقوق فاستقبله الشبان بتصدية الفتوة والقوة لانه من أفصحهم لسانا ، وأقواهم جنانا ، فاستهل رده عليها بأسجاع فصيحة بدأها بذكر ما كان من عادته وآدابه في تكريم النساء ومقابلته لمن تلقاه منهن بالاحترام والود ، ونثره بين يديها زهر النرجس وورق الورد ، (وكأنه ذكر ورقه دون زهره اجتنابا لشوكه وان كان هو نفسه شوكة وردية) وأنه لما رآهن قد شببن عن طوقهن ، وخرجن من قرارة ضعفهن وضؤولتهن ، اضطر ان يصارحهن بحقيقة حالهن

وما كاد ينطق بهذه الالفاظ حتى استشاط الرئيس غضباً ، وألقى عليه من سماء الرياسة شهباً ، وحرم عليه ان ينطق بمثل هذه الالفاظ التي تخدش منهن ملمس الكرامة ، فاعترض عليه كثير من الشبان ، وعدوا هذا المنع تحكما منافياً لحرية الكلام ! فاجاب بانه يحترم الحرية كل الاحترام ، بشرط أن لا تمس الكرامة ، وتعد من الاهانة .

ثم عاد الخطيب الى سياق دفاعه ، مصرحا بطاعته لحضرة الرئيس في اسلوبه مع إصراره هو على رأيه، وطفق يرد على الدكتور عزمي أولا فبين ان العلماء والاطباء متفقون على ان المرأة أضعف من الرجل جسما وعقلا وأعجز عن اتقان الاعمال ولا سيما الشاقة، وان النابغات منهن لا يبلغن شأو النابغين من الرجال ولا يقربن منهم . ولما شرع في التفصيل بدأ بذكر من تولين الملك والحكم فعارضه الرئيس بما بدأ به من وصف مذموم لهن، رأى أنه لا يليق ذكره في ذلك المجلس الذي يحضره جماعة العقائل والاوانس ، وهذا مبني على عدم جواز المساواة بين الرجال والنساء ، فهو يتضمن ترجيحه لرأينا ، وان استنبط بعض الحاضرين من جملة مسلكه انه كان علينا لا على الحياد ، وقد كلمني بعضهم في ذلك فلم أوافقه عليه، فانا موافق للرئيس شعوراً ووجدانا على تقييد حرية اللسان في مجالس النساء ، بحيث لا يذكر فيه كل ما يذكر عادة في مجالس الرجال ، وان كان النساء يقبلن مثله وأكثر منه في مجالسهن الخاصة .

وأرى مع هذا الشعور الذي مكنته في نفسي التربية والعادات أن النساء اللواتي يدعين مساواة الرجال ويناظرنهم في ذلك ويزاحمنهم بالمناكب ، لا يكرهن أن يقال على مسامعهن كل مايقال على مسامعهم ، وان من تكره منهن ذلك أو ترى فيه امتهانا لها لا ينبغي لها أن تكون مترجلة ولا طالبة مساواة، ولا تعذر في مطالبة الرجل بهذا الادب معها ، ولا في لومه على تركه وحسبانه اهانة لها .

وجملة القول ان شوكت افندي ما جاء شيئاً فريا في مناظرته، ولا خرج عن حد المعقول في نظريته ، ولا تعدى قوانين علمه (الحقوق) في مرافعته ، وانما خالف فيها شعور الذين يبالغون في التفرقة بين الرجال والنساء ، ومذهب الذين يحرمون تمزيق الحجاب بينهما ولا يبيحون المخالطة المطلقة حتى في الرقص و"السباحة والسياحة والخلوة عملا بحكم الدين فيهن وصيانة لامزجتهن الرقيقة وعواطفهن الدقيقة عن مهاب الاهواء التي يخشى عليهن من عواقبها ماهو شر وأدهى وأمر مما يخشى على الرجال ، وانما خالف هذا الشعور وهو من أهله ، وخرج عن جادة هذا المذهب وهو مذهبه ليقنع طوالب المساواة المطلقة وأنصارهن ، أنها شر

لاخير لهن ، وان أنصارهن لا يطيقون احتمال عواقبها فضلا عنهن ، والا فلماذا أنكروا على جمهور الشبان انتقاد هفوة الفتاة وهم يعترفون بانها هفوة ، ولم يعذروا الفتى فيما أداه اليه اجتهاده من جفوة ؟

وأختم هذا الوصف الاجمالي للمناظرة بانتقاد لجنة المناظرات في الجامعة على تقصير وقت المتناظرين في الموضوعات الكبيرة ، ذات القضايا الكثيرة ، مع عدم حصر الموضوع وبيانه لكل منهما قبل الدخول فيها . وقد اضطر الرئيس الحافظ للنظام في مناظرتنا الى منع السامعين من بيان آرائهم في تأييد كل منا لضيق الوقت ، وضياع طائفة كبيرة منه في الاخلال بالنظام ، وسأتكلم في سائر فصول هذا المقال في تفصيل ما أجملت من المسائل كما وعدت .

(٤)

تأثير المناظرة والآراء فيها

لخصت في مقالاتي الثلاث الاولى ما دار في مجلس المناظرة ثم عرض لي من الشواغل ما صرفني عن الشروع في التحقيق التفصيلي الذي اقترحه علي بعض طلاب الجامعة النجباء ولا سيما طلاب كلية الحقوق منهم ، وقد زارني في هذه الايام بعض الافاضل من أساتذي المدارس الثانوية والعالية وغيرهم شاكرين ومهنئين بالفلج والظفر في نصر الحق على الباطل ، والدين على الالحاد ، ومستحسنين لنشر الموضوع في جريدة كوكب الشرق ، ومقترحين لنشره في المنار أيضا . وجاءتني مكتوبات وبرقيات في ذلك في بعضها اطراء لي واغراق في الطعن والزراية على مناظري ، ورأيت من المتكلمين معي في ذلك من يعتقدون أن هذه المناظرة كانت ممالأة مدبرة من دعاة الالحاد والاباحة على الدين ورجاله ، أعدوا لها عدتهم ، ولم يخبروني بها قبل موعدها بيوم واحد الا لاخذي على غرة . حتى لا أجد وقتاً للاستعداد ، ولا للاستشارة ، ولا لدعوة من اعلم أنهم على عقيدتي ورأيي ، وهذا خلاف للمعروف والمألوف وللأدب أيضاً ، وأنه لولا « طيبة القلب » لما قبلت ، وأنه كان ينبغي لي أن أدعو اخواني وتلاميذي لحضور المناظرة لتكثير الانصار

وان كان الوقت الذي أعطي لي قصيراً لا يتسع لرؤية كثير منهم أو مخاطبتهم بالتيلفون — وأن أشترط اخراج الفتاة من المناظرة الخ

قلت لاخلص أصدقائي من هؤلاء الذين كلموني في مكتبي : اما إجابة الدعوة بالقبول فلم يكن منه بدولا عنه مندوحة بعد طبع اللجنة لرقاع الدعوة ونشر خبرها في الصحف، لما يتوقع لردها من سوء التأويل، و كثرة القال والقيل

وأما ما ذكرتم من التدبير والسعي من جماعة الملاحدة فمعقول ، ومن دلائله ما علمته علم اليقين من توزيع بعض أركانهم لرقاع الدعوة على من يختارون قبل أن أراها وان أعلم بموضوعها وموعدها، ومن براهينه ما صرح به مناظري بعد انتهاء المناظرة لبعض أصحابه من ان فلانا من غلاة دعاتهم الى ترك الشريعة الاسلامية هو الذي لقنه ما قاله في مجلس المناظرة من ان بعض علماء الاسلام - ويعني نفسه - يقولون ان جميع أحكام المعاملات الشرعية يجوز للمسلمين تركها إذا رأوا ذلك من مقتضيات الزمان والمكان، وأما الذي لا بد منه في الاسلام فهو العبادات فقط . ولا يبعد أن يكون من آيات ذلك أنهم لم يرسلوا لي الاعشر رقاع من رقاع الدعوة، بناء على أن حضور المناظرة مباح لا يتوقف على حملها ، وقد أعطيت بعضها لبعض من قبل من أعضاء مجلس ادارة الرابطة الشرقية عندما ألقيت الي (وعلمت ان بعضهم كان يحمل طائفة منها !!) وبقي سائرها عندى إلى الآن

هذا وانني بعد ان عدت من نادي الرابطة الشرقية الى الدار رأيت فيها ورقة من بعض طلبة الاقسام العالية في الازهر الشريف يطلبون مني أن أضع لهم في مكتبة المنار طائفة كبيرة من تلك الرقاع ليحضروا المناظرة مؤيدين لي لعلمهم بانني أنصر الدين وما شرعه الله تعالى للناس — وكانوا قد أرسلوا إلى المكتبة بعض اخوانهم لطلب الرقاع قبل أن أعلم بخبرها ، على أنني لم أترك لهم شيئاً من القليل الذي بقي معي

ولعل من آيات ذلك التدبير ما ظهر عند أخذ بطائق التصويت ممن حضر المناظرة من الازهريين على قلتهم وغيرهم ان أكثرهم لم يعطوا عنها شيئا، ويمكن الرد على هذا الاحتمال بأن رئيس الجلسة خاطب جمهور الحاضرين على مسمع منا بأن من لم يكن

أخذ منها قبل المناظرة بمكنه أن يأخذ بعدها ، ولكن تبين أن هذا لم يكن ممكنا

وأما طعن من ذكرت آنفاً على محمود عزمي أفندي نفسه بالالحاد وسوء النية فقد شاركهم فيه كثيرون من طلبة الجامعة الذين مشوا معي بعد الخروج من مجلس المناظرة وطعنوا في استاذ آخر من اخوانه ومدرسي الجامعة وناقشهم في ذلك بعض الطلبة من القبط وأنكروا عليهم رميهم للاستاذين بسوء النية وكونهما يتقاضيان على الطعن في الاسلام أجرا ، فرد عليهم الطلبة المسلمون بقولهم: وماذا يعنيكم منا في دفاعنا عن ديننا وأنتم أقباط لا علاقة لكم بذلك ؟

مع هذا كله ومع العلم بأن بعض الجرائد الافرنجية انتصرت للاستاذ محمود عزمي افندي علي وطعنت على الجمهور الذين أيدوني بما يطعن به الافرنج على كل مسلم معتصم بدينه — مع هذا وذاك — لا أزال مصراً على ما كتبته من اعجابي بحرية الرجل وصراحته وانصافه فيما صرح به امامي وامام غيري من الثناء علي والاعجاب بما قلت في الرد عليه، ومنه قوله لي على مسمع من صاحب جريدة كوكب الشرق وعبد الخالق باشا مدكور وعبدالله بك البشري في ادارة الكوكب: اننا نبالغ فيما نطالب للنساء من الحقوق في مقابلة ما نعلم من مبالغة رجال الدين في هضم حقوقهن لنصل إلى الاعتدال الذي يقول به مثلك . أونحن نعلم أنه لا سبيل إلى اجابتنا إلى كل ما نطلب لانه من المحال ـ وما هذا مؤداه

نعم لقد أكبرت من انصافه في هذا المقال ، وزاد اعجابي به ما علمته من أنه قال هذا أو ما يقرب منه في مجالس أخرى ، ومنه ما كتبه عنه صديقه صاحب جريدة الشورى الغراء فقد كتب في العدد الذي صدر في ١٥ شعبان (وينابر) خبر المناظرة وكان من حاضريها ثم قال في آخر ما كتبه:

« وجاء الاستاذ عزمى ثاني يوم الاجتماع الى ادارة الشورى مسرورا مبتهجا فقلنا وكيف تسر وقد انتصر عليك السيد رشيد بالامس ؟ فقال انني لم استغرب هذا وكنت أتوقعه ، ولكنني طلبت للمرأة كل شيء ليصرح رجال الدين الاسلامي للمرأة ولو ببعض الشيء . وقد رأيت ان السيد رشيد كان عظيما جدا في رده علي إذ أنه أجاد وأحسن ، وكان مثلا لمشايخ المسلمين . ولولا الضجة

التي قامت في النهاية لألقيت كلمة في الثناء عليه » اه فأنا أثني على نيته هذه كما اثنيت على كلماته المنصفة ، وما رأيت له شبهاً في دعاة الالحاد الا زعيمهم السابق الدكتور شبلي شميل فقد كان يعترف بما يظهر له من الحق في المسائل ولو كان مخالفاً لرأيه . وأما الالحاد فهو مجاهر بشر أنواعه وهو التعطيل المطلق لا نبذ الشرائع الالهية فقط ، ويروى أنه لما سأله رجال الاحصاء عن دينه قال ا كتبوا «لا ديني» ويقال ان زوجه اليهودية الاصل مثله.

وقد كثر كلام الناس في رئيس الجلسة النائب المحترم توفيق أفندي دياب أيضاً فانتقدوا شدته وحدته في الانكار، وضعفه في حفظ النظام، ورموه بالمحاباة للفريق الموجب لمساواة النساء بالرجال بما حباه من عطف، على الفريق السالب بما قابله به وقابل مظهري الميل له من عنف .

فأما الشدة والحدة، فقد اعتذر هو عن بوادرها في الجلسة، وأما الضعف في حفظ النظام الذي أثار الشدة والحدة ،فسببه شذوذ كثير من حاضري المناظرة في اظهار ما استحسنوا وما استهجنوا بما لا يبيحه النظام في أثناء المناظرة ، وعدم طاعتهم له بما به أمر من معروف، وما نهي عنه من منكر ، فمن لم يسمع منهم نغم جرس المدرسة الصغير الذي كان يدقه بيده ، فقد صخ سمعه جرس صوته الخارج من حنجرته ، وانما سبب هذا الشذوذ كثرتهم وقلة حضور بعضهم لامثال هذه المناظرات في مثل هذا المكان ، وعدم تعود ما يلزم فيها من نظام

وأما المحاباة لخصمنا علينا واظهار ضلعه معه فلا أوافق لا مزيه بتوخيه له ، وإنما كان الذى أظهره علنا هو ما بينته من قبل من استنكاره الشديد لاي مغمز أو ملمز للنساء جنسهن وأفرادهن، كالاثي ولين أمر الملك في غابر التاريخ فيما حظره علي شوكت افندى حظراً باتاً لا هوادة فيه ، وهذا أدل على انكار فطرته وذوقه لمساواة النساء بالرجال منه على وجوب المساواة المطلق كما بينته في المقالة الثالثة ، وكنت أريد الاقتصار على ما تقدم في شان المناظرة ورئيسها وخصمي فيها بيد أن كثرة كلام الناس فيها وكتاباتهم أيضا اوجبا على هذا البيان وساشرع غداً في التحقيق التفصيلي في الموضوع ان شاء الله تعالى

التحقيق التفصيلي في موضوعات المناظرة

— ٥ —

معنى الحق وموضوعه وأقسامه

كتبت منذ أربع وعشرين سنة مقالة طويلة عنوانها (الحق والباطل والقوة) نشرتها في (ج ١ م ٩ من المنار الذي صدر في غرة المحرم سنة ١٣٢٤) قلت فيها: الحق عبارة عن الشيء او الامر الثابت المتحقق في الواقع، والباطل هو ما لا ثبوت أو لا تحقق له في نفسه، وما لا ثبوت له ولا تحقق لا يمحق ما كان ثابتاً متحققاً، كما هو الشأن في الموجود والمعدوم، والمعلوم والموهوم، وهذا مما لا مجال فيه لاختلاف العقلاء. إن يختلفون إلا في الحقوق العرفية والوضعية، والدينية والشرعية، وما يحكم فيه الشرائع من الامور الاجتماعية. وفي كل ذلك حق وباطل ...

ثم بينت ان الحق والباطل يتنازعان في الفلسفة والنظريات العقلية والوجود والسنن الكونية (أي الطبيعية) والسنن الاجتماعية والقوانين والمواضعات العرفية والدين والشريعة الالهية، وفصلت القول في هذه الامور الكلية تفصيلا بالبينات والدلائل

والذي يقتضيه المقام من الكلام في الحقوق هنا ان ماجعله الله تعالى حقا بالخليقة والفطرة لا يدخل في موضوع بحثنا ولا مناظرتنا لانه لانزاع فيه كما بيناه في ردنا على ماسماه مناظرنا «حق الوجود واستنشاق الهواء» ومنها ماجعله الله تعالى حقاً فيما شرعه لنا من الدين، وهذا لا يتنازع فيه اثنان ممن يدين الله بالدين الذي جعله حقاً ماداموا يؤمنون به، وانما يجوز لهم التنازع فيما تختلف فيه أفهامهم من أدلته اذا لم تكن قطعية كما سنبينه. ولهذا قلنا ان المناظرة التي دعينا اليها مناظرة بين الدين والالحاد، وما أجبنا الدعوة اليها على ما كان من شذوذ لجنة المناظرة والخطابة معنا فيها الا للدفاع عن الدين، وبيان علو حقه على باطل الملحدين والمعطلين (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين

ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) سورة الانفال ٨ : ٨٧

وأما مايسمى حقا بالعرف العام أو الخاص أو القوانين الوضعية فان أهله يلتزمونه مادام الاصطلاح والعرف متبعاً والقانون نافذا ، وقد يكون في نفسه حقا بموافقته المصلحة واقامة العدل ، وعدم منافاته لهداية الدين وقطعيات الشرع ، وقد يكون باطلا باشتماله على شيء من المفاسد أو الظلم ، فتحسن المناظرة فيه للتمييز بين الحق والباطل ، واقناع أهل العرف أو الحكومة الواضعة للقانون بالرجوع الى مايقوم الدليل على أنه هو الحق ، إذ لايمكن تقرير الحق فيه إلا بارجاعهما عن اقتناع ، فاما الحكومات فيسهل اقناعها على العالم بالاصول التشريعية التي تعتمد عليها في وضع قوانينها ، وأما الامم فلا بد في اقناعها من معرفة عقائدها وتقاليدها ومراعاتها في ذلك، على ان إرجاعها بالعقل عن عرف عام بمجرد اقامة الدليل على كونه باطلا أو ضاراً غير ممكن فلا بد من الاستعانة على ذلك بالتربية والتعليم

وأما الحق في النظريات العقلية والفلسفة فسبيله أدق ومسلكه أعسر ، والاتفاق عليه أعز ، والذين يقتنعون به أقل ، وإنما تفيد هذه النظريات في التقوية عند بعض الناس دون جمهورهم لما فيها من الخلاف وكثرة المذاهب ، وكدورة المشارب .

الحقوق العشرة المدعاة للنساء

بعد هذا التمهيد أقول إننا إذا لفتنا نظرنا عن تعبيرات مناظرنا الضعيفة ، ومؤيدته النحيفة فيما سماه حق الوجود واستنشاق الهواء وحق الحياة في المجتمع ، وحصرناه في الحقوق الشرعية والعملية التي تقابل الواجبات ، ألفيناه قد ادعى للنساء الحقوق العشرة الآتية لتحقيق مساواتهن للرجال التي يدعي وجوبه ، وهي : (١) رفع الحجاب وتمزيق الاستار (٢) الاختلاط بالرجال بلا شرط ولا قيد (٣) تعلم المرأة ما تثقف به وتثقف غيرها (٤) الاشتراك مع الرجل في تربية الاولاد (٥) الامتلاك بالارث والكسب (٦) المساواة بين الذكور والاناث في الميراث (٧) وجوب الاعتراف بما تشاء (٨) جميع أعمال الحكومة ومصالحها

(٩) التصويت في انتخاب المجالس البلدية والتشريعية وغيرها (١٠) عضوية هذه المجالس ورياستها . هذا ماقرره محمود افندي عزمي ولكنه أجمل القول في الحقوق الانتخابية والتشريعية لانتهاء الوقت المحدد له كغيره

ان بعض هذه الامور حق لانزاع فيه . وبعضها منكر ديناً وشرعا وعقلا وأدبا وقانوناً وعرفا ، وبعضها منكر في بعض هذه المناطات للحقوق دون بعض، ومن العجيب ان مناظرنا الموجب للمساواة بين الجنسين ومؤيدته فيه لم يذكرا الوظائف الطبيعية التي تخالف فيها المرأة الرجل فتكسبها من الحقوق ما ليس له، وتفرض عليها من الواجبات مالا تفرضه عليه كالحمل والولادة والرضاعة، ولم يلما بالسنن الاجتماعية التي هي قوام تكوين الاسرة التي هي قوام تكوين الامة، وهي تقتضي توزيع الاعمال المنزلية وغيرها بين النساء والرجال

ولكن الشرع الاسلامي الذي هو نظام دين الفطرة لم ينسهما ، فأعطى كلا من الرجل والمرأة من الحقوق وفرض عليه من الواجبات ما يناسب فطرته وقواه البدنية والعقلية ، وهما وأمثالهما من النساء الثوائر والرجال الثائرين على الدين المطلق ، يجهلون هذا الدين القويم وهذا الشرع العادل أصوله وفروعه

ألم تر أن محمود عزمي افندي وهو من حملة لوائهم يقول إننا نطلب المرأة كل شيء ليسمح لها رجال الدين ببعض الشيء ، ويقول بعبارة أخرى إننا نبالغ ونغلو في حقوقها في مقابلة مبالغة رجال الدين في هضم حقوقها ؟ وهو يخص علماء الازهر في هذا بالذكر وان لم ننقله عنه ، وعلماء الازهر لا يقولون إلا بما في كتب المذاهب الاربعة المتبعة المشهورة ، وهذه الكتب تبالغ في حقوق النساء مبالغة لا يعد ما يقابلها من الواجبات عليهن فيها شيئاً . وسنشير الى ذلك في محله ..

وجملة القول ان الشرع الاسلامي قد أبطل كل ما كان عليه جميع أمم الارض من هضم حقوق النساء واهانتهن واحتقارهن واعطاهن من الحقوق مالم يسبق له نظير في دين ولا شرع ولاعرف أمة من الامم . وما لم يبلغ شأوه فيه قانون مدني إلى هذا العهد ، وان هذا الغلو فيهن الذي ابتدع في هذا العهد شراهن سيظهر فساده الكبير وضرره الخطير بعد حين .

وإننا قبل بيان الحق التفصيلي في ذلك نقول كلمة في معنى الدين ووجه حاجة البشر اليه ، وما في الاعتصام به من المصالح وما في ترك هدايته من المفاسد ، وما يهدد مصر من الخطر في دعاية الالحاد والاباحة التي فشت فيها في هذا العهد ، وموعدنا المقالة الآتية .

(٦)

هداية الدين وجناية الالحاد

لا شك في أن الذين يدعوننا الى المساواة المطلقة بين النساء والرجال حتى في أحكام المواريث والطلاق ، وإلى اباحة الاختلاط بينهما في كل شيء حتى الرقص والسباحة في البحر — يقصدون بهذه الدعوة أن نترك ديننا وننبذه وراءنا ظهريا ، وربما كان هذا هو المقصد الاصلي لهم وكان ذاك وسيلة له أو مقصداً ثانويا ، فان هذه الدعوة ليست كدعوة أحد الفساق صاحباً له الى شرب الخمر أو لعب القمار معه ، أو دعوة أحد الاشقياء لآخر منهم الى مساعدته على سرقة دار او قتل نفس ، فان كلا من هذين الفاسقين يعلم أنه يدعو الى شر محرم له فيه منفعة متوهمة أو مظنونة وقد يتوب من العودة اليها في يوم من الايام ، وربما تلومه نفسه أو يحيك في صدره استقباح فعله في أثناء اقترافه له ، وهو على كل حال لا يدعي أنه يعمل حسناً أو أنه يدعو الى خير

وأما أولئك الدعاة إلى مخالفة الدين حتى فيما هو قطعي من نصوصه ، ومجمع عليه بين أهله ، فيدعون أنهم يدعون الامة الى ما هو خير لها وأصلح لأمورها ، وانهم لا يريدون على ذلك جزاء ولا منفعة ، ولا يصدقهم احد من العقلاء في هذه الدعوى ، فانهم يعلمون انه لا توجد امة من الامم مجردة من الدين بل يعلمون ان الامم الافرنجية التي يوهمون الاغرار من الشبان والشواب أنهم يقلدونها ويتبعون خطوات حضارتها هي أشد أمم الارض عصبية لدينها وعناية تنشره ، وأنهم ما أسسوا المدارس الكثيرة في بلادنا إلا لأجل دعوتنا اليه وادغامنا فيه ، وهم يبذلون في سبيل ذلك الملايين من الجنيهات على جمعيات الدعوة اليه والتبشير به

الدين هداية روحية لا تتم تربية الانفس على الاخلاق الكريمة والفضائل وصدها عن الرذائل وتثقيفها بالعمل الصالح بدونه ، لما سنشير اليه في هذا المقال وطالما بسطناه في التفسير والمنار ، وهم يبغون حرماننا من ذلك كله

الدين رابطة من أقوى الروابط البشرية ، وجامعة من أعظم الجامعات السياسية ، وفصل من الفصول المنطقية المقومة للشعوب التي يتألف منها أو ينقسم اليها نوع الانسان ، ودين الاسلام أقواها في هذه الروابط والجوامع والمقومات ، فهو يهب كل فرد من أفراده ملايين من الاخوة الروحيين يعطفون عليه ويحنون اليه في كل قطر من الاقطار التي يقيمون فيها كما جربنا ذلك في سياحاتنا الواسعة ، وهؤلاء الدعاة إلى الالحاد يريدون حرماننا من هذا كله

الدين حاجة من حاج الفطرة البشرية ، بل ضرورة من ضروراتها الاجتماعية ، بل غريزة من غرائزها النفسية ، فان اختلف بعض الحكماء في بعض هذه الثلاث فلن يتفقوا على انكارها كلها ، وقد قال حكيمنا الاسلامي المصري الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده قدس الله روحه في رسالة التوحيد : « فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن أهم حاجاته في بقائه ، ومنزلتها من النوع ، منزلة العقل من الشخص »

وجد أفراد من البشر في أمم مختلفة اهتدوا بعقولهم إلى كثير من الفضائل والآداب ودعوا اليها وهم الذين يسمون الحكماء ، ولكنهم لم يبلغوا من القداسة والهداية أدنى ما بلغ الانبياء ، ولم تهتد أمة من الامم وتصلح وتتهذب بعلوم أحد منهم وفلسفته كما اهتدت كل أمة باتباع رسول الله اليها مادامت متبعة له ، وهؤلاء الملاحدة يتوخون ابعادنا عن هذه الهداية

ان من أصحاب العلم الناقص كثيرا من المعجبين بعلوم هؤلاء الحكماء القاصرين عن ادراك علو رتبة الانبياء عليهم ، اذ لم ينقل عن الانبياء من العلوم والفنون الكسبية ما نقل عنهم ، ولكن الحكماء المهتدين بالدين الذين يعقلون ماله من العلو والسلطان على العقول وعلومها الكسبية يدركون ذلك

كان للفيلسوف الاسلامي الاكبر الرئيس أبي علي بن سينا (الذي لقب

بالمعلم الثاني عند من يلقبون فليسوف اليونان الاكبر اريسطوا بالمعلم الاول) خادم ذكي لزم خدمته في السفر والحضر لاعجابه بعلومه ومعارفه الواسعة ، حتى إنه كان يفضله على الرسول الاعظم ومصلح البشر الاكبر محمد ﷺ ، وكان لا يخجل من مصارحته بذلك ومكاشفته بتعجبه منه لاتباعه لمن يزعم هو أنه دونه ، فصبر عليه الفيلسوف إلى أن وجد فرصة لاقناعه بضلاله

ذلك أنه كان في أصفهان في ليلة من ليالي الشتاء الشديدة البرد فأيقظه من نومه ليأتيه بماء يتوضأ به ، فاعتذر لكسله وتألمه من البرد بان الليل لايزال طويلا ، فأيقظه مرة ثانية فاعتذر ، فايقظه الثالثة في وقت آذان الصبح اذ كان المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله . وسأله : ما هذا الذي نسمع ؟ قال الاذان ، قال ماذا يقول المؤذن ؟ قال : أشهد ان محمداً رسول الله . قال له الرئيس حينئذ ما معناه : لقد آن لى أن أفهمك الفرق بيني وبين محمد رسول الله ﷺ فاستمع لما أقول . إنني لم أر أحداً من الناس معجباً بي كاعجابك وأنت خادمي وانا ادعوك في داخل الدار لا تياني بالماء المرة بعد المرة وانت تخالفني وتعتذر لي وهذا المؤذن الفارسي يقف في هذا البرد القارس في اعلى المنارة يشيد بالشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة احتسابا لوجه الله تعالى بعد وفاته بزهاء اربعمائة سنة فتاب ذلك الخادم المغرور وأناب ، ولكن ملاحدة زماننا لايتوبون بمثل حجة الرئيس ابن سينا ولا بما هو أنصع منها ، ولا يعقلون سر سلطان النبوة على الانفس

وأراني ههنا قد وجدت مناسبة قوية لبيان حقيقة يجهلها هؤلاء المغرورون ببعض قشور الفلسفة التقليدية لبعض علماء الافرنج ، وهي أن الدين لم يكن له من التأثير في هداية البشر واصلاحهم ماليس للعلوم والفلسفة البشرية إلا لان مصدره السلطان الالهي الاعلى الذي هو فوق قوى البشر العقلية والحسية ، ذلك بان الانسان يشعر بغريزته ان كل ما هو تحت ادراك عقله ومشاعره فهو دونه وهولا يدين لما هو دونه ولا لمن هو مثله ، وانما يدين لمن هو فوقه لا في شخصه فقط ، بل في نوعه وجنسه الاعلى ذي السلطان الغيبي الذي يشعر به وجدانه ، ولا يحيط به عقله وجنانه ، وهو لا يتم تهذيبه وصلاحه باقناع أمثاله من البشر له

باتباع الحق والهدى وترجيحهما على الباطل والهوى ، ان أمكن هذا الاقناع ، ووقع عليه الاجماع ، فكيف إذا اختلفت فيه الآراء ، وعصفت باهلها الاهواء ، كدأب البشر في كل آرائهم ونظرياتهم في الآداب والسياسة وشؤون الاجتماع ، قلما يتفقون وقلما يعملون بما يتفقون على حسنه إذا خالف شهواتهم النفسية ، أو عارض مصالحهم القومية أو الدولية ، وانما تذعن الانفس البشرية للحق اذا كان ايمانا وجدانيا ، وتقف عند حدود الفضائل اذا كان وضعها وحيا الهيا ، وتطيع الامر بالخير والنهي عن الشر اذا كان الوازع فيهما نفسيا . ولا معنى للدين الا هذا ، ولهذا لا يكون إلا وضعاً الهياً ، وقد وضع بعض فلاسفة اوربة قواعد جميلة معقولة سموها الديانة الطبيعية ولكن لم يتدين بها أي شعب من شعوبهم ولا فرد من أفرادهم . (للمقالات بقية)

باب المراسلة والمناظرة

تفسير الشيخ طنطاوي

حضرة الاستاذ الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار

قرأت ما كتبتموه تحت عنوان تفسير الشيخ طنطاوي جوهري وشكرتكم على حسن ظنكم بما أفضتم من الثناء كقولكم ويعتقد بحق أن المسلمين ماضعفوا وافتقروا واستعبدهم الاقوياء إلا بجهلهم العلوم الخ

فهذا بعض ما أشكركم عليه ولكني لا يتسنى لي أن أغض الطرف عما جاء مخالفاً لما ذكرتم كقولكم انه لا يعول عليه في حقائق التفسير فانه انما يذكر شيئاً مختصراً منقولا من بعض التفاسير المتداولة الخ ما ذكرتم بعد ما قلتم ويعتقد حقا أن الاسلام يرشدهم إلى العلوم بل يوجبها عليهم وقلتم : وجملة القول أن هذا الكتاب نافع من الوجهين اللذين أشرنا اليهما في أول هذا الجواب وصاحبه جدير بالشكر عليه والدعاء له

وإذن أقول : يظهر لي أن الاستاذ إذ جمع بين الثناء والنقد رمى لثلاثة أغراض

﴿ الغرض الاول ﴾ انه يهيج بالأول أذكياء الامة وعقلاءها لقراءته

﴿ الثاني ﴾ أنه يثير بالنقد حمية الجامدين الذين هو يجاهدهم إذ يطمعون أن يجدوا فيه مواطن ضعف أو نقص فيقرأوه وتكون النتيجة انتشار العلم عند الطائفتين لان الحقيقة يخدمها الضدان من هولها ومن هو عليها

﴿ والغرض الثالث ﴾ أن يحثني أن أكتب في المنار مقاصد الكتاب بدليل أنه صرح فيه بأنه ما قرأ إلا بعض أوراق في بضع دقائق

ولا ريب أن الذي انتشر الآن من تفسير الجواهر خمسة عشر مجلداً انتهت إلى آخر سورة السجدة فاذن وجب عليَّ أن أبين ما في الكتاب فاذا وسع المنار ما أسطره في صحائفه كنت شاكراً للاستاذ ولذلك أقول ان صاحب الدار أدرى بما فيها والضيف الذي لا يمكث فيها بمقدار زمن يشرب فيه الشاي له العذر فيما يصفها به. ولذلك أقول إن طريقتي في التفسير أن أقسم كل سورة أقساما كل قسم منها تذكر آياته أولا مشكلة ، ثم أقفي بالتفسير اللفظي ملخصاً مستوفياً مفصلا جميع الاحكام وهي قليلة في القرآن ومبيناً التفسير المأثور وقد نبذت خلاف الفرق الضالة والجدل الممقوت فهذا لا سبيل اليه لانه ضياع لوقت هذه الأمة بل أوفق بين الاقوال بقدر طاقتي ولست أذكر من الاعراب إلا ما تمس الحاجة اليه باسلوب يوافق ذوق العقلاء المسلمين في زماننا وعدلت عن الطريقة العتيقة إلى طريقة مدرسية صالحة لفهم المسلمين ، وإنما نهجت هذا المنهج ليكون الاسلوب سهلا يسر القارئين ، لا معقداً يقعد بهمم الكثيرين

ثم بعد ذكر التفسير لكل قسم أبين ما يشير اليه من الحقائق العلمية الصادقة وأبين كيف يكون تكذيب الخرافات ليرتقي الشعب الاسلامي مراقي الفلاح ، وإنما اخترت ذلك ليأخذ كل قارىء من التفسير ما شاء فمن شاء التفسير المتداول فلديه خلاصته منقاة مصفاة ، ومن أراد العلم وجماله فانه يجده في مكان خاص غير ملتبس بالتفسير اللفظي

وأنا أحمد الله عز وجل إذ وفقني أن أبين للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها أن العلوم التي غفل عنها المتأخرون وامتلأت بها الاقطار ونبذها المسلمون

وكرهوها ظنوها ضد الدين وهذه هي المصيبة الدهياء التي حلت بديار الاسلام كما ذكره الاستاذ ووافقني عليه أليس هذا بعينه هو فقه التفسير ؟

أفلم يقل بهذا المتقدمون مثل الامام الغزالي ونصه « ان من زعم أنه لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الاخبار عن نفسه ولكنه مخطيء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه بل الاخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم قال علي رضي الله عنه : إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن ، فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال أيضا : إنه ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » فان كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك ؟

وقال ايضا : أعظم علم القرآن تحت اسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا اموراً لائقة بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها ، واما افعاله فكذكره خلق السموات والارض وغيرها - إلى ان قال - ولهذا اذا قرأ التالي (افرأيتم ما تحرثون؟ افرايتم ما تمنون ؟ أفرأيتم الماء الذي تشربون؟ أفرأيتم النار التي تورون؟) لا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني فليتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الاجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والكبد والعصب وكيفية تشكيل أعضائها بالاشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر منها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والتكذيب والمجادلة - إلى أن قال - فليتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى أعجب العجائب وهو الصفة التي صدرت منها هذه الاعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع ‍. أقول ولقد استوفيت هذه المباحث وأمثالها في التفسير واضحة بالصور الشمسية ظاهرة للعيان مورثة لليقين ... ثم ذم من يقتصر من فهم ملكوت السموات والارض على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب فقال وذلك مما تعرفه البهائم ...(وأقول حرام علي أن أسمع

هذا القول ولا أرفع هذا العار والجهل عن هذه الامة التي هي خير أمة أخرجت للناس) .. ثم قال ولله تعالى في ملكوت السموات والانفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من أحب عالماً فانه لا يزال مشغولا بطلب تصانيفه اه وقال أيضا رحمه الله تعالى انه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعم إلا بعد معرفتها ثم انهم إذا عرفوا النعمة ظنوا ان الشكر عليها ان يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله الخ)

انا لا اود ان اطيل النقل فاكابر العلماء المتقدمون في القرون الاولى لما رأوا صغار علماء زمانهم ليس لهم إلا حفظ الروايات والجدل والفتاوى والاقتصار على علم الفقه وانهم اتخذوه سلما لتولي القضا والافتاء في ذلك الزمن تبرؤوا منهم وأخذوا يقولون للمسلمين . كلا . ايها المسلمون .·. ان هؤلاء يقصدون الدنيا .·. هم طلاب مال .·. لا تقفوا عند حدهم .·. هنالك اجتمع صغار العلماء وكادوا لهم ، وسلطوا عليهم ضعاف الملوك حسدا وبغيا فأمر الخليفة العباسي في بغداد رجلا يسمى (ابن المارستانيه) فأحرق كتب الفلك والنبات والحيوان وغيرها في الرحبة ببغداد فأزال الله ملك اولئك الجاهلين بدخول التتار لما جهلوا علوم القرآن

ولما حسد علماء المغرب — الامام الغزالي اذا انتشرت كتبه في بلادهم ايام حكم المرابطين — أمر علي بن تاشقين فأحرق تلك الكتب فمزق الله ملكهم وخلفهم الموحدون ، فلما امر الله بغروب شمس الدولة لهولاء ايضا في القرن السادس نفى امير المؤمنين العلامة ابن رشد لانه قال ايها المسلمون هذه العلوم يطلبها القرآن وهي تفسير لآياته فحسده فقهاء زمانه فصار الامير يقرأ كتبه سرا ويأمر جهراً ألا تقرأ . فلهذه الاسباب نشر تلاميذ ابن رشد بعد اضطهادهم هذه العلوم في ألمانيا أولا ثم في سائر أوروبا وصارت بلاد الاسلام قفراً منها وحوشا يبابا (اقرأ ما كتبه العلامة سديو الفرنسي والاستاذ سنتلانه التلياني الاول في كتابه خلاصة تاريخ العرب، والثاني في كتابه تاريخ الفلسفة العربية)

ومن عجب أن دولة العباسيين بالمشرق ودولتي المرابطين والموحدين بالمغرب كانوا على وتيرة واحدة فهم جميعا في أول الدولة أحرص الناس على العلوم فترتقي الدولة، وفي

آخرها أزهد الناس فيها فيزول الملك ، تشابهت قلوبهم ، ومثلهم في ذلك دولة الترك البائدة كما جاء في كتاب كشف الظنون نقلا عن رسالة الخبايا في الزوايا

يقول طنطاوي الذي احترق فؤاده أسفا على الامة المحمدية: لقد قرأت هذا التاريخ في كتب مختلفة فتقطع قلبي اسى وحسرة وعرفت ان الناس يسارعون الى الجهل كابرا عن كابر، وهم يتلاحقون غافلين، ويظن قوم ان العلم شيء والدين شيء آخر وهذا جهل فاضح وهذا هو الذي جعل المسلمين - في مصر وفي غير مصر - أقل الامم علما بهذه العلوم، فالمتعلمون من المسلمين القراءة والكتابة في بلادنا يعدون على الاصابع في كل قرية من القرى، وهذا لان وعاظنا لم يحثوهم على ذلك كما يحث الواعظون من الامم الاخرى في سائر الاقطار. ولقد وفقني الله عز وجل وسهل لي تعلم هذه العلوم في المدارس أولا ثم قرأتها في كتب عربية ، وأخرى أجنبية، افلا يجب علي نشرها ؟ ألم يكن ظهور التصوير الشمسي آية كبرى في زماننا ؟ حتى تمكنت به من إظهار عجائب تشريح الانسان وتبيان الاعضاء الباطنة مصورة كالكبد والطحال والبنكرياس وهكذا عجائب النبات والقاحه المصور المفسر لآية (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وآية (وأرسلنا الرياح لواقح) وبهذه الصور ظهر في تفسير الجواهر معجزات جمة في هذا الزمان مصداقا لقوله تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟) افلاترى صوراً جميلة من العجائب في تفسير قوله تعالى (ان في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام فان هذه لم تظهر حق ظهورها للخاصة الا في هذا الزمان

ومن ذا كان يظن ان جبال الثلج تظهر مرسومة في الجو ومعها الطيارة في زماننا وترسم في الجواهر تفسيراً لقوله تعالى (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) ؟ وقد كان المفسرون قبلنا يؤولونها، اليست هذه معجزة اسلامية لم تعرف عيانا إلا الآن في تفسير الجواهر ؟ اليس هذا وأمثاله من أسرار القرآن كانت خافية فظهرت؟ فانا احمد الله وأقول وجب علي نشرها وعلى كل من قرأ هذا التفسير

ولما رأى المسلمون في الاقطار صور النبات وأوراقه الموضوعة وضعا هندسيا بدرجات محددة، مرسوما على هيئة دوائر افقية تارة ورأسية تارة أخرى لآية

(وانبتنا فيها من كل شيء موزون) ورأوا الوزن ظاهراً في الكيمياء العضوية للذرات الداخلة في تركيب النبات في جداول موضحة في الجواهر طلبوا المزيد من هذه العجائب فهل يتسنى لي ان انام عن نشر هذه العلوم التي انعم الله علي بها وجعل أفئدة من المسلمين تهوي الى تفسير الجواهر ووفقني ان أكون على منهج السلف الصالح وان أكسر هذا الجمود المخيم على العقول واتباعد عن المناقشات اللفظية والمجادلات المخزية التي انحطت بها المدارك في الامم الاسلامية، وان افسر القرآن باليقين لا بالظن، ولا اضيع على المسلمين أوقاتهم بتضارب الروايات، وان أرجع بالامة الى سبيلها أيام مجدها وانا واثق بما أقول؟ واذا لم يكن هذا أسرار القرآن وفقه القرآن فهل يكون فقهه في آيات الفقه المعروف وحدها وما هي الا مائة وخمسون آية من نحو ستة آلاف ؟ كلا والله كلا، الفقه علم واحد والعلوم تعد بالعشرات موزعة على آي القرآن وتركها يجل جميع المسلمين آثمين

اني اذا ما كتمت هذا العلم خوفا من حاسد أو جاهل متبلد فاني اخاف الله رب العالمين، ومن نكب عن هذه الطريقة فذلك لانه مقتصر على ما غلب عليه ونافع بوجهته (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) هذا ما أشهد الله عليه واشهد خواص المسلمين . ان هذه الطريقة قد أرضت الخواص في الشرق والغرب حتى إنهم في الهند وبلاد جاوى وسومتره وشمال افريقيا والفرس وبلاد العراق وبلاد البوسنة والهرسك ببلاد النمسا حفزوني ان أزيد هذه المباحث إيضاحا فلبيت طلبهم وقرأت (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة) الآية فهي هدى وشفاء للذين اوتوا العلم والمقلدون والجهال لا يعلمون، وها هوذا الاستاذ صاحب المنار فتح لهم الباب بالاسلوب الحكيم الذي لاجله كتبت هذا المقال وسأتبعه بآخر متى اتسع لي الوقت واتسع صدر المنار ان شاء الله تعالى .

طنطاوي جوهري

[المنار] إنني لا أبخل على هذا الكتاب بنشر هذا الاعلان الطويل له حبا في العلم، ومن حق العلم علي أيضاً أن أقول إنني قد راجعت هذا التفسير بعد إعطاء مؤلفه صديقي هذه الرسالة حتى إنني سهرت احدى الليالي في تصفح الجزء الأول الذي ذكرته في

الفتوى فرأيتني قد ازددت علمت بصحة ما كتبته ولم يظهر لي أنني أخطأت في شيء منه، وإنما ذكرت أحسن ما علمت من فائدة ورأيت كل ما ذكره من المزايا هنا تفصيلا لما أجملت. واقتصرت في انتقاده ما قصر فيه على كلمة وجيزة لئلا أكون منفرا عن كتاب صديق أكرمه وأحسن الظن بعمله وإخلاصه ورأيت أن ما كتبه في انتقادها أو الجواب عنها لا ينقض حرفا منها، وبيانا لهذا أقول الآن ما يوضح تلك الكلمة في هذا التفسير

الجزء الأول منه يحتوي تفسير الفاتحة والبقرة وهما زهاء جزئين ونصف من أجزاء القرآن الثلاثين وفيهما من أصول الدين وفروعه ما ليس في عدة أجزاء منه. وصفحات هذا الجزء ٢٣٨ صفحة كبيرة أكثر ما فيها لا يصح أن يرجع إليه في حقائق تفسيرها ولكنه نافع في نفسه، ومنه ما ليس له مناسبة قوية بالموضع الذي وضع فيه ولبعضه مناسبات قوية في سور أخرى. فأول ما ذكره في تفسير البسملة أنه جعل متعلق الظرف في « بسم » التبرك وفسر (الرحمن) بالمنعم بجلائل النعم و(الرحيم) بدقائقها وهذا هو المشهور الذي يذكره شراح الكتب لخطبها وليس من التحقيق في شيء، وقد بينا التحقيق في الظرف ومعنى الاسمين الكريمين في تفسير المنار ، ولم يذكر حقيقة معنى صفة الرحمة أيضاً. هذا مثل للتقصير في تفسير أول آية في كتاب الله تعالى

ثم إنه شرع بعد هذا التفسير المختصر المنقول في الكلام على عجائب الحشرات من الاكسيلوكوب والنحل والنمل والعنكبوت وغيرها... وكان المناسب أن يؤخر الكلام في عجائب النحل والنمل إلى السورتين المسماتين باسميهما

وأما تفسير سورة البقرة فكان يجب أن نجد فيها البيان المفصل الأوفى لتفسير آيتي التحدي بإعجاز القرآن منها وهي قوله تعالى (٢ : ٢٣ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) الخ ورأيته قد اقتصر من تفسيرها على كلمة وجيزة ثانوية في موضعها تقل عن سطر واحد فقال

« ولما لم يكن من المعاندين من العقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم ويدركون أن الأصنام لا تستحق العبادة أخذ يصف لهم ما جاء على لسان الرسول من البلاغة ويتحدى بما يعجزهم كأنه يقول: إذا اعجزتم عن ادراك ما أبدعته في الارض والسماء ولم تبلغ عقولكم كنهه وغلبت عليكم الجهالة ولم تفهموا إلا

مادار في أنديتكم من أحاديث البلاغة وآيات الفصاحة فاسمعوا لهذا القرآن وإلا فأتوا بمثله . فلما عجزوا أوعدهم بالنار ووعد المتقين بالجنة اه

فهل يصح أن يعد هذا من حقائق تفسير الآيتين اللتين هما أهم آيات السورة بل أهم آيات القرآن كلها في إثبات حقية الرسالة وصدق خاتم النبيين فيما جاء به عن الله تعالى بالبرهان القطعي ؟ اللهم لا ، بل ليس هذا مبينا لمعنى ألفاظ الآيتين ونظمهما ولا مما يفهم منه معناهما الاجمالي فضلا عن بيان مابه كانت سورة من القرآن معجزة وبيان القطع بأنهم لن يأتوا بسورة من مثله .

ولما كان هذا التحدي بالقرآن قد ذكر في سورتي يونس وهود أيضاً راجعت ماكتبه في تفسيرهما لعله استدرك فيه مافاته في تفسير آيتي البقرة فلم أجد فيه ماغناء.

ولو شئت أن أورد كثيرا من الشواهد على قولي بانه لايرجع اليه في حقائق تفسير الآيات لفعلت ولا محاباة في العلم والدين

وأما مايورده في التفسير من الاحاديث والآثار فهو ينقله من أي كتاب رآه فيه لايلتزم كتب أئمة الحديث ولا يلتفت إلى تخريجهم وتصحيحهم فيكون منها ماليس بحديث أصلا كالموضوعات ومنها الضعاف والواهيات ولا حاجة إلى إيراد الشواهد على ذلك الا اذا أنكره الاستاذ علينا

واذا كان الاستاذ لم يعن بالتزام الأحاديث الصحيحة والحسنة فيما يورده في تفسيره مع سهولة ذلك بالرجوع الى كتب الصحاح والسنن وكتب الجرح والتعديل فأجدر به أن لايعنى بتمحيص التفسير المأثور عن التابعين ومن بعدهم ولا باجتناب الأسرائيليات الباطلة منها أو التنبيه على بطلانها ، كما ترى في تفسيره لقصة البقرة وهاروت وماروت والذين قال لهم الله موتوا ثم أحياهم والذي أماته الله مائة عام ثم بعثه .

ومما أشرنا إلى انتقاده بعض التأويلات التي انفرد بها ونذكر منه تأويله لمسألة الشفاعة في الجزء الاول فهو قد ذكر تأويلا لابن عربي في غير محله ووعد بأن يرد اليه الآيات والاحاديث الواردة في الشفاعة ولم يفعل ، وقد حررنا هذا في تفسيرنا غير مرة ولا حاجة الى بسطه هنا ، وأما تأويله لنزول المسيح فلم ينفرد به وكان حسبه منه أنه ليس مما ثبت في القرآن

وجملة القول أن مزية هذا التفسير الصحيحة هي مابينا في الفتوى التي ينتقد صديقنا بعض مافيها ، وكنت أظن أنه يتعمد ذلك لما كتبه في تقريظ الجزء التاسع من تفسير المنار وهو أن من المفسرين من جعل جل عنايته في مباحث اللغة والبلاغة ومنهم من جعلها في الأحكام الفقهية أو الكلامية وما يتعلق بها الخ فاراد هو أن يجعل جل عنايته في التذكير بعجائب صنع الله تعالى في الخلق وحث المسلمين على العلوم التي تتوقف على اتقانها سيادة الدنيا وعزة الامة وقوتها فيها ، ويدل على هذا ما يضعه من الفهارس للأجزاء فان المؤلف يكتب في فهرس كتابه أهم مسائله عنده ، وأنت تجد أول فهرس الجزء الاول الحث على العلوم الكونية في الخطبة وعجائب الحيوان والحشرات والنبات في تفسير الفاتحة الخ ولكن لانرى فيه ذكرا لاعجاز القرآن والتحدي به، ولا لهدايته، ولا لأهم أصول التشريع التي بيناها بالعدد في أول تفسير السورة من الجزء الاول من تفسيرنا .

ثم إنه ذكر انه اقتدى في طريقته هذه في التفسير بالامام الغزالي أي ما قاله في كتابه جواهر القرآن وكتابه الاحياء — ونقول إنه قد فاته منه غرضه الاسمى ، وهو ما يسميه الغزالي فقه الدين وهو غير فقه الفقهاء الذي يعنون به الاحكام العملية من ظواهر العبادات ووسائلها والمعاملات التي هون صديقنا أمرها تبعا له، وظن أنه عني بما فضله عليها وهو الفقه الحقيقي عنده ، ولكنه لم يعط هذا حقه فيما نرى .

ذلك ان الذي اشرب به قلبنا من كتب الغزالي من نشأتنا العلمية الاولى هو ان فقه الدين ولبابه هو ما شرع الله الدين وأنزل القرآن لاجله وهو الهدى والتقوى وتزكية النفس بمعرفة الله تعالى وخشيته والزهد في الدنيا والاقبال على الآخرة ، وتفسير صديقنا لايعنى بهذا كما يجب ، وما ينقله من كتب علماء الكون من عجائب المخلوقات جله غير موجه الى هذا الغرض الاسمى وانما هو موجه الى الترغيب في هذه العلوم من جهة كونها وسيلة الى ترقي الحضارة والعمران وأسباب الاستقلال والملك ، ولعمري ان هذا من فروض الكفايات وهو مطلوب في الاسلام كعلم الاحكام العملية ولذلك حمدناه منه وشكرناه . وحسبنا هذا التذكير وعسى أن يكون سببا لاستدراك اخينا الاستاذ المفسر لما قصر فيه فيما بقي منه ،

أنباء العالم الإسلامي

عيد الجلوس لملك الحجاز ونجد

احتفلت الحكومة الحجازية والشعب الحجازي في شهر شعبان الماضي بذكرى مبايعة الحجاز للملك عبد العزيز آل سعود احتفالا رسميا دعيت اليه كبرى صحف مصر اليومية فأرسلت كل منها مندوبا من محرريها إلى الحجاز حضر الاحتفال وعاد ينظم عقود الثناء على ما رأى وسمع في جدة ومكة من الاصلاح المدني والديني وعلى شمائل الامير فيصل نائب ملك الحجاز (والده) وفضائله وقد كان هذان الثناء آن اللذان اتفق فيهما أولئك المندوبون الذين تختلف آراؤهم ومذاهب جرائدهم في كل شيء ذا قيمة عظيمة وتأثير حسن جدا في مصر وفي قراء هذه الجرائد في غير مصر بالطبع بسبب الاتفاق من المختلفين في الرأي والسياسة عليه من ناحية وعدم شبهة المصانعة والمداهنة من الناحية الاخرى، فكان من الدعاية المفيدة التي جاءت من نفسها

وقد أنكر بعض اخواننا السلفيين من هذه الحكومة الشرعية السنية مجاراة الحكومات الدنيوية في ابتداع الاعياد السياسية لذاتها ولما يلزمها من المنكرات عادة كانفاق المال في غير المصارف الشرعية وتكليف الرعية بعض النفقات والاعمال التي ربما لا يفعلونها مختارين، وقد رأى القراء الاستفتاء الذي نشرناه عن بعضهم في الجزء الماضي وان بعضهم أسرف فقال بتحريمه مطلقا فأنكرنا هذا الاطلاق الذي يتجرأ على مثله كثير من المتدينين بغير علم وفيه من الخطر على الدين فوق ما يدعون تحريمه (كما يعلم مما نقلناه عن الامام أبي يوسف في باب الفتاوى من هذا الجزء) ولا يتضمن انكارنا هذا أننا لم ننكر ذاك بل أنكرناه وان لم نحرمه تحريما، وكتبنا إلى بعض رجال الحكومة بذلك وخصصنا انفاق المال بالذكر، ولو كان لنا رأي فيه لنهينا عنه لأننا نعلم أن جماهير أهل الدين والرأي من المسلمين ومن غيرهم من العقلاء يرون أن التزام هذه الحكومة الاسلامية السذاجة

والقصد واجتنابها للفخفخة ومظاهر العظمة الدنيوية وتقليد المفتونين بها ، هو خير لها ولشعبها ، وأرجى لما يحب جميع المسلمين من قوتها وعزتها ،

وأقول على سبيل الاستطراد انني أحب لهذه الدولة وامامها وآله ورجال دولته ان لا يعنوا بسائر الاحتفالات الدنيوية وما يكون فيها من المدائح الشعرية فوالله ان عمر بن الخطاب كان أعظم في أنفس العرب والعجم من جميع الامم من معاوية وغيره من ملوك الامويين والعباسيين الذين فتنتهم زينة الحياة الدنيا

واننا نقرأ في أخبار العالم عن العلماء والكتاب الذين لقوا الامام عبد العزيز آل سعود أنهم قد اكبروا من أخلاقه وشمائله التواضع والسذاجة العربية التي تقرب من البداوة مع عنايته بأسباب الحضارة النافعة للشعب كالعمران وتسهيل المواصلات ومراعاة الصحة ونشر التعليم ، وما نحن في نصيحته بمتهمين

فتنة نجد ـ عاقبتها

كتبنا في الجزء الخامس الذي صدر في سلخ جمادى الاولى من هذا العام مقالة عنوانها (الفتنة في نجد — أسبابها ونتائجها) بينا فيها ما ينبغي ان يعتبر به المسلمون منها ، وما للناس ولا سيما أصحاب الصحف من الآراء المختلفة فيها ، وان الذين كبروها في نظر غير العارفين بكنه قوة ملك الحجاز ونجدهم (دعاة الهاشميين) كمحرري جريدة القبلة للملك حسين من قبل عبد الرؤف الصبان وطاهر الدباغ فالأول تولى كبر الارجاف في مصر والثاني تولى كبره في سنغافورة وجاوة ، وكان لسان حالهم في مصر جريدة الاهرام وفي جاوة جريدة حضرموت ، وكانت الاهرام تنشر مقالات بامضاء (عربي مطاع) فلما كتب أحد في الاختلاق ومكابرة الحقائق مثلها . وقد انتهت الفتنة وقبض على فيصل الدويش وجريدة حضرموت تنشر مقالات الدباغ الخبيثة

وفي أثناء هذا النصر المبين نشر مراسل الاهرام (عربي مطلع) ان كل ماينشر من أخبار انهزام فيصل الدويش ومن قرب استيلاء ابن السعود عليهم كذب وارجاف وان الفتنة قد عمت نجد كلها ووصلت الى الحجاز !! فيالله العجب

من جرأة هذا الجاهل ولكن من نشر عجوز الصحف العربية له هذا البهتان المفضوح الذي لا يخفى على محرريها

وكان من أهم مقاصد هؤلاء الناشرين صرف قلوب المسلمين عن أداء فريضة الحج بايهامهم أن أعراب الحجاز قد شرعوا في التألب على الحكومة السعودية وإيقاد نار الثورة عليها بالتبع لقبائل نجد وأنه لا يجيء موسم الحج في آخر سنة ١٣٤٨ الا وقد تقلص ظل الحكومة السعودية عن الحجاز ونجد معا وربما بقي للحرب والقتال بقية تحول دون أداء الفريضة !!

ثم نشرنا في الجزء السادس الذي نشر في سلخ جمادى الآخرة استفتاء من عدن ذكر مرسلوه ان بعض دعاة الفتنة من اعداء ابن السعود شرعوا في نشر فتاوى زعموا فيها أن الحج لا يجب في العام على المسلمين - أو مادام علمه - علم التوحيد منشورا في الحجاز، وقد فندنا زعمهم وبينا ان من يستحل صد الناس عن أداء فريضة الحج يكون مرتدا عن الاسلام.

وقد كثر سؤال الناس إيانا في أثناء الفتنة بالمشافهة والمكاتبة عن حقيقة الامر فيها ومانرى من عاقبتها؟ ومما كنا نقوله ان الله تعالى يقول (والعاقبة للمتقين) وستعلمون لمن تكون هذه العاقبة؟ ومما كتبناه من الاجوبة في المنار اننا لا نظن كما يظن الكثيرون ان الانكليز ينقضون عهدهم مع ملك الحجاز ونجد وكذلك كان

ألف الملك عبدالعزيز جيشا من حضر نجد يبلغ زهاء أربعين ألفاً فطاردوا العصاة حتى فروا الى حدود الكويت والعراق ثم اضطر فيصل الدويش وابن مشهور من زعماء الدولة وابن حثلين أكبر زعمائهم الى تسليم أنفسهم للانكليز حماة الكويت والعراق وطلبوا أن يكونوا تحت حمايتهم ومن رعيتهم، وهكذا يكون أهل الدين الخارجين على امامهم بدعوى منعه اياهم من جهاد الكافرين والمشركين !! وكان من هنالك من رجال الانكليز يريدون حمايتهم وجاء في البرقيات العامة أنهم قرروا ارسالهم الى الهند وجعلهم ضيوفا سياسيين في جزيرة سيلان. ولكن ملك الحجاز ونجد ألح في طلبهم ولم يمكن اقناعه بمادون ذلك فجاءت الاوامر من حكومة لندرة باسلامهم له، فحملوا الى معسكره لدى الحدود في طيارة عسكرية فتسلمهم معتقلين،

أذلاء صاغرين مخذولين ،وكان ذلك اليوم يوما مشهودا أعز الله فيه عبده وهو العزيز المقتدر الذي وعد بنصر من ينصره ، وكانت العاقبة للمتقين ، كما كنا نقول بهداية الكتاب المبين .وكان تأثير ذلك في معسكره ثم في سائر نجد وغيرها من بلاد العرب عظيما جداً

﴿ الاتفاق العربي بين مملكة الحجاز ونجد ومملكة العراق ﴾

قد كان بدء خروج فيصل الدويش على ملكه وإمامه اعتداؤه على نجد بغزو القبائل والسلب والنهب كدأب قبائل الاعراب في كل حياتهم البدوية ، وكان كثير من الناس يظنون أن ذلك العدوان بايعاز خفي من الملك عبدالعزيز وإن أنكره وتنصل منه في الظاهر، ثم ظهرت الحقيقة فكانت عاقبة نجاح الملك في تأديب الخارجين وماخسره في ذلك من المال وما أدت اليه الفتنة من سفك الدماء النجدية من الجانبين حجة حسية قطعية على حسن نية الملك عبد العزيز ورغبته في الاتفاق وحسن الجوار بين الممالك العربية ولاسيما العراق ،وبذل السعي من قبله وقبل الحكومة العراقية ، في أثناء وجوده بقرب الحدود لعقد مؤتمر عربي يضع قواعد لهذا الاتفاق وأوعزت الحكومة البريطانية الى ممثليها في العراق والخليج الفارسي أن يدخلوا في ذلك وأن يجتمع ملك الحجاز ونجد وملك العراق ويعقدا رابطة الاتفاق بحضرتهم بل في بارجة بريطانية حتى لا يفوتهم شيء مما يجري بينهما، بل يكون كل شيء بموافقتها وكذلك كان ،فالتقى الملكان العربيان في بارجة إنكليزية في ثغر الكويت فتعانقا وتبادلا عبارات الود والاخوة ، واجتمع رجالهما فوضعا بمراجعتها مواد مكتوبة لتكون أساساً لكتابة معاهدة رسمية بين الحكومتين مبنية على اعتراف كل منها بالاخرى وتبادل المفوضين الرسميين بينهما ومنع تعدي قبائل كل منهما على الاخرى وتبادل تسليم المجرمين وتنقل العشائر وحل ما يقع من المشكلات على الحدود بالتحكيم ، وأما المشكلة الكبرى ومنشأ كل خلاف وتنازع بينهماوهو ما بنته حكومة العراق من المخافر أو المعاقل العسكرية في المنطقة المختلف عليها بين العراق ونجد فقد تقرر ارجاؤها

ستة أشهر لتأليف لجنة تحكيم من الفريقين يكون حكمها فيه قطعيا يقبله كل منهما . ان لم يتفق كل منهما فيها بالمفاوضة وقد سر جميع زعماء الامة العربية وأهل الرأي فيها ومحبيها من غيرها هذا الاتفاق، وكانوا يودون أن لا يكون الاجنبي شأن في ذلك ولكن هذا فوق الامكان

﴿ كلمة شيخ الازهر السابق في حوادث فلسطين ﴾

نوهنا في مقالنا الذي نشرناه في جزء المنار السادس في موضوع ثورة فلسطين أن أعظم رجال الاسلام في الحكم والعلم قد أيدوا مسلمي فلسطين تجاه عدوان اليهود عليهم ولا سيما ملك الحجاز ونجد وشيخ الازهر واننا نسجل هنا حديثالثاني نشر في المقطم الذي صدرفي ١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ تحت عنوان (رأي ناضج) في حوادث فلسطين وهذا نصه

كتب أحد مندوبي المقطم في الاسكندرية يقول :—

رأيت اهتمام الناس في مصر شديداً بما هو واقع في جارتنا فلسطين من الحوادث الجسام الموجبة للاسف فخطر لي أن أقصد حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر، الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر، وأكبر رأس بين مسلمي الشرق لأستطلع رأي فضيلته في الحوادث المذكورة

قصدت وزارة الاوقاف ببولكلي حيث يشتغل فضيلة الاستاذ من أوائل هذا الصيف في أعماله الخطيرة فلما دخلت مكتبه وكان مكبا على ما بين يديه من الاوراق المكدسة رفع رأسه وقابلني بابتسامته العذبة الخلابة

ولما كنت أعلم أن وقت فضيلته ثمين لا يتسع للتحيات المألوفة بادرته باعلان الغرض الذي جئت لأجله، ثم وجهت الى فضيلته ما عن لي من الاسئلة التي أجابني عليها بصراحة وبلا تردد، وقد دونت ما دار في شكل حديث استأذنت فضيلته في نشره على صفحات المقطم فتفضل وأذن لي بذلك خدمة للمصلحة العامة

وإظهاراً لرأي يمثل الرأي العام في مصر في هذا الشأن وهذا نص الحديث :—

س — ما رأي فضيلتك في حوادث فلسطين ؟

ج — ان حوادث فلسطين مأساة تدعو الى أشد الاسف والحزن

س — هل ترى أن سبب هذه الحوادث يرجع الى الدين ؟

ج — لا أعتقد هذا فان المسلمين وسعوا مخالفيهم في الدين في جميع العصور الماضية وعاملوهم بمنتهى الكرم حتى كانت هذه المعاملة من أهم الاسباب الباعثة على انتشار الدين الاسلامي . ولكن أرى ان أسبابا مدنية خلطت أو سترت باسباب دينية فاثارت كوامن الحقد . والخلاف الديني سواء كان حقيقا أم مصطنعا يفعل في الجماهير ما لا تفعله الاسباب المدنية وحدها

ويظهر ان العرب والمسلمين في فلسطين يرون نفوذهم يتقلص في بلادهم ويخشون عاقبة خروج البلاد من أيديهم ووقوع الآثار المقدسة والمسجد الاقصى تحت سلطان غيرهم وهذا في نظرهم موت مادي وأدبي

س — ما هو طريق استئصال هذه الفتن ؟

ج — لقد عهد الناس في الدولة البريطانية المحافظة على التقاليد واحترام العقائد والعواطف والرجاء معقود بأن تعمل بريطانيا العظمى على استئصال أسباب الخلاف ليعيش الناس في سلام وتهدأ تلك النفوس الثائرة ، والمسلمون لا يحتملون أي اعتداء كان على المسجد الاقصى ومن شأن ذلك أن يستفز عواطفهم في جميع الاقطار الاسلامية

س — قيل ان العلماء يريدون بحث الحالة والاحتجاج على حوادث فلسطين

ج — لا شك أن علماء الازهر يشاركون اخوانهم العرب في مصائبهم وآلامهم ويستنكرون الاعتداء عليهم ولكنهم لا يريدون الاسراع في حكمهم ويفضلون انتظار نتيجة التحقيق الذي نؤمل أن يتم بطريقة منزهة عن الغرض بعيدة عن التحيز وأن يؤدي آخر الامر الى اصدار حكم في مصلحة العرب والمسلمين

﴿تهنئة المنار لجريدة الفطرة الاسلامية﴾

لما وصلت الينا الاعداد الاولى من جريدة الفطرة بعد جعلها يومية بادرنا الى تهنئتها بكتاب خاص ولم نحب ان نؤخر التهنئة الى ان يصدر جزء من المنار يفتح فيه باب التقريظ ، فنشرت كتابنا مع مقدمة له تتضمن ذكر التعاون بين الصحيفتين فرأينا ان ننشر ذلك لهذا الغرض نفسه ، وهذا نص ما جاء فيها .

كتاب كريم من علامة أكرم

ورد علينا الكتاب الكريم ، الذي سنتشرف بنشره في هذه الصحيفة ، من حضرة العلامة المفضال والفهامة الاسنى الاستاذ السيد محمد رشيد رضا منشيء مجلة « المنار » الاسلامية وصاحبها التي نشاركها في بث الدعوة الاسلامية جهارا ونزامها في قطع دابر الزندقة والزنادقة والالحاد والملحدين من بني قومنا وسواهم ، ويرى حضرة القارئ شدة تيتظ الاستاذ الرشيد الجليل الى صحيفتنا وشدة طربه بظهورها يوميا وتقديره قدرها من الجهاد في تعزيز المبادئ الاسلامية ، والغاية التي فيها مجد هذه الملة الحنيفية ، ما لو شاركه فيه بقية العلماء لكان في مصر اليوم صحيفة يومية اسلامية تتفوق على اكبر جريدة في العالم

على انا نحن أعرف الناس بما يقيم حضرة الاستاذ من اقامة الدين الحق والجهاد في تعزيزه ، وما يكابده في تلك الشرعة العظمى من الجهاد الدائب والنصب ما هو من شمائل أولي العزم الذين لا تلويهم لاوية عن نصرة هذا الدين الذي كثر محاربوه اليوم حتى ممن يدعون الانتساب اليه

على أن ما يلاقيه جناب الاستاذ الاكبر من مثالب عباد الوسطاء والشفعاء وأهل الغلو في الدين ، والمبتدعة من نابتة التفرنج ، وعشاق التبرج الجاهلي المسمى بالتجدد العصري للخنا والفجور ، لا يمكن أن يكافحه ويجالده إلا من كان مثله صابراً مرابطا معتمدا في جهاده على العزيز العليم . وقد اندمجنا في طريقته (طريقة أهل اليقين) ونحن على وثاق في أننا سنكون الغالبين ان شاء الله ، لان هذا هو وعد الله وإن وعد الله حق وهو أصدق القائلين (ألا إن حزب الله هم الغالبون)

ننشر كتاب جناب الاستاذ الذي رفعنا به ـ بفضله ومحض كرمه ـ ونحن نحض جميع الغيورين على التضافر في الاشتراك بمجلة (المنار) التي يجاهد فيها الاستاذ ويناضل عن الدين

وفضائله والاسلام ومجددوا آدابه في سائر مرافق الحياة الراقية. ونأمل من كل من يستلمها من قبل ، أن يكون عند الحد المفروض على كل شهم ذي مروءة فيبعث لجنابه بالاشتراك فورا ويسلفه به وبكل متأخر في الذمة ، إيفاء بالحق وقياما بالواجب

وهذا هو كتاب فضيلته حقق الله له ولنا كبار الآمال. أمدنا بروح منه ، انه هو الكبير المتعال، قال حضرته لا فض فوه ولا كل في الحق قلمه

مصر في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٤٨ هجري الموافق ٢٢ تشرين ٢ سنة ١٩٢٩م

حضرة الزميلين الكريمين خادمي الملة الاسلامية والامة العربية صاحب ورئيس تحرير صحيفة الفطرة الغراء .

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فاني أهنئكما بما وفقتما له وما صادفتماه من الفوز بجعل الفطرة جريدة يومية، وأشكر لجاليتنا الكريمة في الارجنتين مساعدتها الثمينة على ذلك ولا سيما المتبرعين بالدراهم وأتمنى للفطرة دوام التوفيق والارتقاء؛ وأحمد الله تعالى أن رأيت اخواننا المسلمين قد تنبهوا لما كانوا غافلين عنه من أسباب ضعفهم في دينهم ودنياهم، وما بين سعادتي الدارين من الارتباط والاشتراك في الاسلام على فشو الالحاد والفسق في هذا الزمان ، ولقد شرعت في ايقاظ المسلمين ودعوتهم الى الاصلاح الديني والمدني والسياسي منذ ثلث قرن فلقيت منهم مقاومة وايذاء شديدا ، وبقيت الى السنة الخامسة من انشاء المنار مدينا لبعض الاصدقاء بشيء من المال، ولم ألق من أحد من أغنيائهم وكبرائهم مساعدة مالية تذكر، فالحمد لله ثم الحمد لله ان أحياني حتى شاهدت الصحف التي تخدم الاسلام تؤيد وتعضد، وان كانت الفطرة لم تصر جريدة يومية إلا بعد سلخ سبع سنين كاملة في مضيق الاسبوع ، فان هذا ليس بكثير في جالية قليلة لا يبلغ عدد المسلمين فيها عدد مدينة كبيرة من مدن القطر المصري ، وقد عجز مسلمو مصر الى اليوم عن انشاء جريدة يومية تخدم الاسلام وتناضل دونه وان لم تكن دينية محضة كما كانت جريدة المؤيد. والسلام عليكم وعلى من لديكم من الاعوان والاخوان

من الزميل المخلص منشيء المنار

محمد رشيد رضا

المنار
أنشئ ١٣١٥

نبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى « ومناراً » كمنار الطريق

٣٠ ذي القعدة سنة ١٣٤٨ هـ ٨ برج الثور سنة ١٣٠٨ هـ ش ٢٩ إبريل سنة ١٩٣٠

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي

(٣٠) وَقَالَتِ الْيَهُودُ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ. ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣١) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣٢) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٣) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

تقدم في الآية (٢٩) السابقة لهذه الآيات ان أهل الكتاب المراد بهم اليهود والنصارى لايؤمنون بالله تعالى على الوجه الحق الذي جاءت به رسله من توحيد وتنزيه لذاته وصفاته - ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح من ان الناس يبعثون بشراً كما كانوا في الدنيا ، أي أجسادا وأرواحا ، وانهم يجزون بإيمانهم وأعمالهم ، وعليها مدار سعادتهم وشقائهم ، لا على أشخاص الانبياء والصديقين - ولايحرمون ماحرم الله ورسوله الى كل منهم ايمانا وإذعانا وعملا - ولا يدينون دين الحق . أي انما يتبعون تقاليد وجدوا عليها آباءهم وأحبارهم ورهبانهم - فلما بين تعالى هذا في سياق قتالهم وما ينتهي به اذا لم يؤمنوا بما جاء رسول الله وخاتم النبيين ﷺ وهو أداء الجزية بشرطها - عطف عليه مايبين مبهمه ، ويفصل مجمله ، ويبين غايته ، وهو هذه الآيات الأربع فقال عز وجل :

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ الخ نبدأ في تفسير هذه الآية بذكر شيء من تاريخ عزير هذا ومكانته عند القوم ثم ببيان من سموه ابن الله من اليهود ، ونقفي على ذلك بذكر قول النصارى : المسيح ابن الله وتفنيده ، ثم من قال بمثل هذا القول من الوثنيين القدماء وهو من معجزات القرآن : وقد تقدم هذا مفصلا في تفسير سورتي النساء والمائدة

عزير هذا هو الذي يسميه أهل الكتاب (عزرا) والظاهر ان يهود العرب هم الذين صغروا بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه وعنهم اخذ المسلمون والتصرف في أسماء الاعلام المنقولة من لغة الى أخرى معروف عند جميع الأمم ، حتى ان اسم يسوع قلبته العرب فقالت عيسى . وهو كما في أول الفصل السابع من السفر المعروف باسمه عزرا ابن سرايا ابن عزريا بن حلقيا - وساق نسبه الى العازار بن هارون (عليه السلام)

جاء في دائرة المعارف اليهودية الانكليزية (طبعة ١٩٠٣) ان عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملي لليهودية الذي تفتحت فيه أزهاره وعبق شذا ورده . وانه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة (وفي الاصل عربة أو مركبة الشريعة) لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ ب) فقد كانت نسيت ولكن عزرا أعادها أو أحياها . ولولا خطايا بني اسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات (المعجزات) كما رأوها في عهد موسى اه وذكر فيها انه كتب الشريعة بالحروف الاشورية وكان يضع علامة على الكلمات التي

يشك فيها — وان مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده

وقال الدكتور جورج بوست في قاموس الكتاب المقدس : عزرا (عون) كاهن يهودي وكاتب شهير سكن بابل مدة ملك (ارتحشَشتا) الطويل الباع » وفي السنة السابعة لملكه أباح لعزرا بأن يأخذ عدداً وافراً من الشعب الى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ ق . م . (عزرا ص ٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر

(ثم قال) وفي تقليد اليهود يشغل عزرا موضعاً مهما يقابل بموضع موسى وايليا ، ويقولون انه أسس المجمع الكبير ، وانه جمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة ، وانه ألف أسفار الأيام وعزرا ونحميا (ثم قال) ولغة سفر عزرا من ص ٤ : ٨ — ٦ : ١٩ كلدانية وكذلك ص ٧ : ١ — ٢٧ وكان الشعب بعد رجوعهم من السبي يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية اه

وأقول ان المشهور عند مؤرخي الامم حتى أهل الكتاب منهم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه (تث ٣١ : ٢٥ و ٢٦) قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام فانه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما تراه في سفر الملوك الاول ، وأن (عزرا) هذا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها . ويقول اهل الكتاب ان (عزرا) كتبها كما كانت بوحي أو بالهام من الله ، وهذا مالا يسلمه لهم غيرهم وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن حتى من تآليفهم كذخيرة الالباب للكاثوليك وأصله فرنسي ، وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الاسفار الخمسة لموسى ، ومنها قوله:

(٧ ـ جاء في سفر عزرا ٤ ف ١٤ عد ٢١ ان جميع الاسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد نبوخذ نصر حيث قال « ان النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لاي امريء أن يعرف ماصنعت » اه ويزاد على ذلك ان عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الاسفار المقدسة التي أبادتها النار وعضده فيها كتبة خمسة

معاصرون . ولذلك ترى ترثوليانوس والقديس ايريناوس والقديس ايرونيموس والقديس يوحنا الذهبي والقديس باسيليوس وغيرهم يدعون عزرا مرمم الاسفار المقدسة المعروفة عند اليهود اه

ثم أجاب المؤلف عن هـذا الاعتراض بأن السفر الرابع من سفر عزرا (كذا) ليس بقانوني ، وان نسخ الكتاب المقـدس لم تكن كلها محفوظة في الهيكل أو في أورشليم . وان الآباء القديسين الذين استشهد المعترضون بأقوالهم انما يؤخذ بتعليمهم لا برأيهم قال « يستحيل أن يكون رأيهم غير التعليمي غير مصيب ، إلا ان الأظهر أنهم إذسموا عزرا مرمم الاسفار المقـدسة انما أرادوا ان هذا النبي بعد السبي البابلي جمع كل ماتمكن من جمعه من نسخ الكتاب المقدس وقابلها وجعل منها مجموعا منقحا مجردا عن الاغلاط التي كانت قد اندست فيه » اه

ونقول ان هذه الاجوبة تأويل لأقوال القديسين المذكورين لاتدل عليه ، ولا نسلم ان تعليمهم كان مخالفاً لرأيهم - واحتمالات ودعاوى في أصل المسألة لا دليل عليها إذلم ينقل أحد انه كان يوجد قبل عزرا كتاب اسمه الكتاب المقدس ، ولا ان اسفار موسى كان يوجد منها نسخ متعددة ، وفي التاريخ ان ما كتبه عزرا منها قد فقد أيضا ، وكان يوجـد فيه الألوف من الالفاظ البابلية - وعبارات كان عزرا يشك فيها - وأغلاط كثيرة متفق عليها عند أهل الكتاب يتمحلون في الاجوبة عنها - فنسخة عزرا ليست عين الشريعة التي كان كتبها موسى قطعاً .

وقد جاء في ص ١٦٧ من الجزء الاول من اظهار الحق (طبعة الاستانة) بعد نقل نحو مما ذكر عن سفر عزرا وإحراق التوراة وجمع عزرا لها باعانة روح القدس - مانصه :

« وقال كليمنس اسكندريانوس : ان الكتب السماوية ضاعت فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى. اه وقال ترتولين : المشهور أن عزرا كتب مجموع الكتب بعد ماأغار أهل بابل بروشالم(؟) اه وقال تهيوفلكت : ان الكتب الالهية انعدمت رأساً فأوجدها عزرا مرة أخرى بالهام . اه وقال جان ملنر كاتلك في الصفحة ١١٥ من كتابه الذي طبع في بلدة دربي سنة ١٨٤٣ « اتفق أهل العلم على ان نسخة

التوراة الاصلية وكذا نسخ كتب العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بخت نصر (١) ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة عزرا ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة أنتيوكس انتهى كلامه بقدر الحاجة اه

ثم ان صاحب إظهار الحق ذكر في بحث اثبات تحريف كتبهم (ص ٢٣٥ ـ ٢٣٩) مافي تواريخهم المقدسة (سفر الملوك وسفر الايام) من خبر ارتداد أكثر بني اسرائيل من آخر مدة سليمان الذي كان أول من ارتد وعبد الاوثان وبنى لها المعابد بزعمهم وولديه اللذين اقتسما ملكه فكان مملكتين مملكة اسرائيل المؤلفة من عشرة أسباط ومملكة يهوذا المؤلفة من السبطين الآخرين وغلبة الوثنية وعبادة الاصنام عليهما معاً وإن كانت على الاولى أغلب . وامتد ذلك زهاء أربعة قرون لم يعد للمملكتين فيها حاجة الى التوراة الى أن جاس (يوشيا) بن (آمون) على سرير السلطنة فتاب من الشرك وأراد اعادة دين موسى الى الشعب ولكنه لم يجد نسخة من التوراة الى سبع عشرة سنة من ملكه اذ ادعى حلقيا الكاهن في السنة الثامنة عشرة انه وجد نسخة من شريعة موسى في بيت الرب (ويقول صاحب قاموس الكتاب المقدس في هذه النسخة ربما كانت «سفر التثنية» وحده) ويدعون ان العمل جرى على تلك النسخة مدة الثلاث عشرة سنة التي بقيت من ملكه وقد ارتد من بعده من الملوك وسلط الله على أولهم ملك مصر وعلى ثالثهم بخت نصر ولم تذكر نسخة الشريعة من بعده فلا يعلم أحد ما أصابها

وأما ما كتبه عزرا فقد فقد أيضاً في أثناء استيلاء انطيوكس امبراطور الرومان على أورشليم كما تقدم عنه وقد وضحه بقوله في (ص ٢٣٨ ج ١) فقال « لما كتب عزرا عليه السلام كتب العهد العتيق مرة أخرى على زعمهم وقعت حادثة أخرى جاء ذكرها في الباب الاول للمكابيين هكذا :

« لما فتح انتيوكس ملك ملوك الافرنج أورشليم أحرق جميع نسخ العهد العتيق التي حصلت له من أي مكان بعد ما قطعها وأمر أن من يوجد عنده نسخة من نسخ كتب العهد العتيق أو يؤدي رسم الشريعة يقتل، وكان تحقيق

(١) هذا الضبط هو المشهور في التواريخ العربية وضبطه المدققون (نبوخذ نصر)

هذا الأمر في كل شهر فكان يقتل كل من وجد عنده نسخة من كتب العهد العتيق أو ثبت انه أدى رسما من رسوم الشريعة وتعدم تلك النسخة » اه ملخصا

وذكر أن هذه الحادثة كانت سنة ١٦١ ق . م . وامتدت الى ثلاث سنين ونصف كما فصلت في تواريخهم وتاريخ يوسيفوس .(قال) فانعدمت في هذه الحادثة جميع النسخ التي كتبها عزرا كما عرفت في الشاهد ١٦ من المقصد الاول من كلام جان ملنر كاتلك . ثم ذكر انه في حادثة استيلاء الامبراطور تيطس الرومي على أورشليم وبلاد اليهود أتلفت نسخ كثيرة كانت عندهم وذلك بعد المسيح كما بينه يوسيفوس وغيره من المؤرخين

نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه غرضان (أحدهما) ان جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم (وثانيهما) ان هذا المستند واهي البيان متداعي الاركان . وهذا هو الذي حققه علماء أوربة الاحرار ، فقد جاء في ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعد ذكر مافي سفره وسفر نحميا من كتابته للشريعة : انه جاء في روايات أخرى متأخرة عنها انه لم يعد اليهم الشريعة التي أحرقت فقط بل أعاد جميع الاسفار العبرية التي كانت أتلفت وأعاد سبعين سفراً غير قانونية (أبوكريف) ثم قال كاتب الترجمة فيها : وإذ كانت الاسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا في شيء منها الى كتاب آخر - فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقا (انظر ص ١٤ ج ٩ من الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩)

وجملة القول ان اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيرا هذا حتى إن بعضهم اطلق عليه لقب ابن الله ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على اسرائيل وداود وغيرهما أم بالمعنى الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثني الهند التي هي اصل عقيدة النصارى . وقد اتفق المفسرون على أن اسناد هذا القول اليهم يراد به بعضهم لا كلهم ، وهو مبني على القاعدة التي بيناها في تفسير بعض آيات سورة البقرة التي تحكي عنهم أقوالا وأفعالا مسندة اليهم في

جملتهم ، وهي مما صدر عن بعضهم ، وهي ان المراد من هذا الاسلوب تقرير أن الأمة تعد متكافلة في شؤونها العامة ، وأن ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء منها يكون له تأثير في جملتها ، وان المنكر الذي يفعله بعضهم اذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم، وبينا في تفسير قوله تعالى (٨: ٢٥ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ان من سنن الاجتماع البشري ان المصائب والرزايا التي تحل بالأمم بفشو المفاسد والرذائل فيها لاتختص الذين تلبسوا بتلك المفاسد وحدهم ، كما أن الاوبئة التي تحدث بكثرة الاقذار في الشعب وغير ذلك من الاسراف في الشهوات تكون عامة أيضا .

وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة كالذين قال الله فيهم (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) الآية، والذين قال فيهم (لقد كفر الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) رداً على قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا) ويحتمل أن يكون قد سبقهم اليه غيرهم ولم ينقل الينا

روى ابن إسحق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لاتزعم ان عزيراً ابن الله ؟ وانما قالوا هو ابن الله من أجل ان عزيراً كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ماشاء الله تعالى أن يعملوا ، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم فلما رأى الله تعالى انهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالاهواء رفع عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم (وذكر الراوي حكاية اسرائيلية قال في آخرها ان عزيراً صلى ودعا الله أن يرد اليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فاستجاب له فصار يعلمهم إياها ثم نزل التابوت عليهم فعرضوا عليه ماعلمهم عزير فوجدوه مثله)

فنحن نأخذ بما قاله ابن عباس رواية عمن جاؤا النبي (ص) من اليهود وقالوا ماقالوا فانه رواية عن شيء وقع في زمنه فأخبر عما رأى وسمع ، وأما ماحكاه من سبب قولهم فما هو إلا رواية عن بعضهم كذبوا فيه عليه أو على من حدثه به ؛

والظاهر انه مما سمعه من كعب الاحبار إذ روى عنه كثيراً من الاسرائيليات ، فقد أخرج أبو الشيخ عن كعب انه قال دعا عزير ربه عز وجل أن يلقَّى التوراة كما أنزل على موسى عليه السلام في قلبه. فأنزلها الله تعالى عليه فبعد ذلك قالوا عزير ابن الله .

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور روايات أخرى اسرائيلية خرافية في هذا المعنى منها مارواه ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس وملخصه ان الله سلط بختنصر على بني اسرائيل فحرق التوراة وخرب بيت المقدس وعزير يومئذ غلام فلحق بالجبال يتعبد فيها وان الدنيا تمثلت له في صورة امرأة فأخبرته بأنه سينبع في مصلاه عين ماء وتنبت فيه شجرة فاذا شرب من العين وأكل من الثمرة جاءه ملكان... (الى أن قال) فجاء الملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه الله التوراة !! وروى ابن أبي حاتم هذه الخرافة عن السدي بأطول مما روي عن ابن عباس . وما ذكرنا هذا إلا لنبين للناس انه من شر الخرافات الاسرائيلية التي كان يغش المسلمين بها كعب الاحبار وأمثاله مما ليس في كتب اليهود، وقد راجت على أكثر المفسرين لعدم أطلاعهم على كتب العهد العتيق ولا سيما سفر الايام الثاني وسفري عزرا ونحميا ولا على غيرها من كتبهم ولا على تاريخ يوسيفوس اليهودي وغيره من التواريخ . دع كتب أحرار الافرنج ومؤرخيهم مما لم يكن في زمنهم

ومن المعلوم ان بعض النصارى الذين قالوا ان المسيح ابن الله كانوا من اليهود وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الاسكندري المعاصر للمسيح يقول ان لله ابنا هو كلمته التي خلق بها الاشياء ـ فعلى هـذا لايبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا ان عزيراً ابن الله بهذا المعنى

﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ هذا القول كان يقوله القدماء منهم ويقصدون به معنى مجازيا كالمحبوب والمكرم ثم سرت اليهم فلسفة الهنود في (كرشنا) وغيرهم من قدماء الوثنيين ثم اتفقت عليه فرقهم المعروفة في هذه الازمنة وعلى أنه حقيقة لا مجاز. وعلى أن (ابن الله) بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) لان هؤلاء الثلاثة عندهم واحد حقيقة لا مجازاً ، هذا تعليم الكنائس الذي قررته المجامع الرسمية، بتأثير الفلسفة الرومية. ولكن بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون

ويخالفه خلق كثير منهم أعظمهم شأنا الموحدون والعقليون . والكنائس الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستنتينية لاتعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم. وهاك خلاصة تاريخية في أطوار هذه العقيدة وهي ما في دائرة المعارف العربية للبستاني. قال

ثالوث Trinité - y

كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معاً في اللاهوت تعرف بالآب والابن والروح القدس، وهذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت إلا ماندر، والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون الى انه مطابق لنصوص الكتاب المقدس، وقد أضاف اللاهوتيون اليه شروحا وايضاحات اتخذوها من تعاليم المجامع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام وهي تبحث عن طريقة ولادة الاقنوم الثاني وانبثاق الاقنوم الثالث وما بين الاقانيم الثلاثة من النسبة وصفاتهم المميزة وألقابهم، ومع أن لفظة ثالوث لاتوجد في الكتاب المقدس، ولا يمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير الى وجود صورة جمعية في اللاهوت ولكن إذ كانت تلك الآيات قابلة لتفاسير مختلفة كانت لايؤتى بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث بل كرموز الى الوحي الواضح الصريح الذي يعتقدون انه مذكور في العهد الجديد وقد اقتبس منه مجموعان كبيران من الآيات كحجج لاثبات هذا التعليم (احدهما) الآيات التي ذكر فيها الآب والابن والروح القدس معاً (والآخر) التي ذكر فيها كل منهم على حدة والتي تحتوي على نوع أخص صفاتهم ونسبة احدهم الى الآخر

والجدال عن الاقانيم في اللاهوت ابتدأ في العصر الرسولي وقد نشأ على الاكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوسطيين فان ثيوفيلوس أسقف انطاكية في القرن الثاني استعمل كلمة ثرياس باليونانية، ثم كان ترتليانوس أول من استعمل كلمة ترينيتاس المرادفة لها ومعناها الثالوث . وفي الايام السابقة للمجمع النيقاوي

حصل جدال مستمر في هذا التعليم وعلى الخصوص في الشرق وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها اراتيكية (١) ومن جملتها آراء الابيونيين الذين كانوا يعتقدون أن المسيح انسان محض والسابيليين الذين كانوا يعتقدون أن الآب والابن والروح القدس انما هي صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس ، والآريوسيين الذين كانوا يعتقدون أن الابن ليس ازلياً كالاب بل هو مخلوق منه قبل العالم ولذلك هو دون الاب وخاضع له ، والمكدونيين الذين أنكروا كون الروح القدس اقنوما

وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥ للميلاد ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وقد حكما بأن الابن والروح القدس مساويان للاب في وحدة اللاهوت ، وان الابن قد ولد منذ الازل من الاب ، وان الروح القدس منبثق من الاب ، ومجمع طليطلة المنعقد سنة ٥٨٩ حكم بأن الروح القدس منبثق من الابن أيضاً . وقد قبلت الكنيسة اللاتينية بأسرها هذه الزيادة وتمسكت بها وأما الكنيسة اليونانية فمع انها كانت في اول الامر ساكتة لا تقاوم قد اقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة

وعبارة (ومن الابن ايضا) لاتزال من جملة الموانع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليونانية والكاثوليكية ، وكتب اللوثيريين والكنائس المصلحة أبقت تعليم الكنيسة الكاثوليكية لثالوث على ما كان عليه من دون تغيير ، ولكن قد ضاد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة كالسوسينيانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم ، حاسبين ذلك مضاداً للكتاب المقدس والعقل ، وقد اطلق سويد نبرغ الثالوث على اقنوم المسيح معلما بثالوث ولكن لاثالوث الاقانيم بل ثالوث الاقنوم وكان يفهم بذلك ان ما هو إلهي في طبيعة المسيح هو الاب ، وان الالهي الذي اتحد بناسوت المسيح هو الابن وان الالهي الذي انبثق منه هو الروح القدس ، وانتشار مذهب العقليين في الكنائس اللوثيرية والمصلحة اضعف مدة من الزمان اعتقاد

---

(١) المراد بالاراتيكية المبتدعة من الارتقة والاشهر الهرتقة وبعضهم يقول هرطقة بقلب التاء طاء وأصله تفخيمها

الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين

وقد ذهب (كنت) الى ان الاب والابن والروح القدس انما تدل على ثلاث صفات اساسية في اللاهوت وهي القدرة والحكمة والمحبة ، او على ثلاثة فواعل عليا وهي الخلق والحفظ والضبط ، وقد حاول كل من هيجن وشلنغ ان يجعلا لتعليم الثالوث اساساً تخيلياً ، وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون ، وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية ، وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحي لايتمسكون بتعليم استقامة الرأي الكنائسية بالتدقيق كما هي مقررة في مجمعي نيقية والقسطنطينية المسكونيين ، وقد قام محامون كثيرون في الايام المتاخرة لعضد آراء السابيليين على الخصوص اه

وأقول قد حدثت في هذا العهد مذاهب جديدة في النصرانية في أوربة وأمريكة قرب بعضها كثيرون من إصلاح الاسلام لها ، سيفضي هذا إلى رجوع السواد الأعظم اليه بعد تنظيم الدعاية الصحيحة له وتعميمها ، ونحن نبين هذه الاطوار في المنار في اوقاتها.

ونعود الآن إلى الرد على قولهم المسيح ابن الله لان هذا آخر موضع له في التفسير فنقول كنا بينا في تفسير سورة المائدة (٥ : ٢١ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أن لقب « ابن الله » أطلق في كتب اليهود والنصارى على آدم كما تراه في نسب المسيح في آخر الفصل الثالث من انجيل لوقا وهو « ابن شيث بن آدم ابن الله » وعلى يعقوب كما في الفصل الرابع من سفر الخروج (٤ : ٢٢ هكذا يقول الرب : اسرائيل ابني البكر » -وعلى أفرايم كما في سفر أرميا (٣١ : ٩ لاني صرت أبا وأفرايم هو بكري » - وعلى داود (مز ٨٩ : ٢٦ هو يدعوني أبي أنت إلهي وصخرة خلاصي ٢٧٠ أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من كل ملوك الارض » وانه أطلق أيضاً على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين وسمي الله أبا لهم في مواضع كثيرة من كتب العهدين ، ويقابله اطلاق المسيح لقب «أولاد إبليس » على غير الصالحين وتسمية إبليس أباهم كما ترى في انجيل يوحنا (٨ : ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم ، قالوا اننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني -إلى أن قال — أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم

تريدون أن تعملوا) وهنالك شواهد أخرى من استعمال كلمة ابن الله في الافراد كسليمان (ع م) وفي المؤمنين الصالحين وتسميتهم مولودين من الله تعالى وتسميته سبحانه أباً لهم وبينا أيضا أن هذا الاستعمال مجازي قطعاً لا يحتمل المعنى الحقيقي بحال من الاحوال، ولكن النصارى قد خرجوا عن قوانين العقل واللغات بجعل اطلاق لفظ «ابن الله» على المسيح وحده حقيقياً وعلى غيره مجازيا، ووعدنا بتوضيح ذلك في تفسير هذه الآية (وقالت النصارى المسيح ابن الله)[١] على أننا كنا قد بيناه ووضحناه قبل ذلك في تفسير (٤ ١٦٩ يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد) الآية من سورة النساء[٢] وكذا في مواضع من (المنار) ولعلنا ماوعدنا بايضاحه إلا ونحن ذاهلون عن هذا. وكثرة الكلام في المحال لا تزيده إلا غموضاً واشكالا، فالنصارى قد تحكموا في تفسير (ابن الله) وتفسير (الكلمة) وتفسير (روح القدس) وتفسير اسم الجلالة (الله) بما ينافي العقل ونصوص العهد القديم والعهد الجديد فجعلوها متعارضة متناقضة. كل ذلك لادخال عقيدة قدماء الوثنيين من الهنود والمصريين واليونان على دين أنبياء بني اسرائيل المبني على أساس التوحيد المطلق، ولكننا نأتي بخلاصة أخرى في الموضوع نرجو أن تكون أوضح وأظهر مما سبق، وأدل على نوع من أنواع إعجاز القرآن، وهو تحديد الحقائق فيما اختلف فيه أهل الكتاب من أمر دينهم، مما كان مجهولا لهم ولغيرهم من البشر، كما وعد الله عز وجل في آيات منه كاختلافهم في المسيح نفسه وفي معنى اسم الله وكلمته وروحه أو روح القدس فنقول:

قال جورج بوست في قاموس الكتاب المقدس:

(الله) اسم خالق جميع الكائنات والحاكم الاعظم على جميع العوالم والمعطي كل المواهب الحسنة. والله «روح غير محدود، أزلي غير متغير في وجوده وحكمته وقدرته وقداسته وعدله، وجودته وحقه» وهو يظهر لنا بطرق متنوعة وأحوال مختلفة في أعماله وتدبير عنايته (رو ١: ٢٠) ولا سيما في الكتب المقدسة حيث

(١) راجع ص ٣١٤ ج ٦ تفسير (٢) ص ٨١ - ٩٥ ج ٦ أيضا

يتجلى غاية التجلي في شخصيته وأعمال ابنه الوحيد المخلص يسوع المسيح (ثم قال)

﴿ طبيعة الله ﴾ عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر (مت ٢٨ : ١٩ و ٢ كو ١٣ : ١٤) الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، فالى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن (مز ٣٣ : ٦ وكو ١ : ١٦ وعب ١ : ٢) وإلى الابن الفدى ، وإلى الروح القدس التطهير . غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الاعمال الالهية على السواء . أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم كما هي في العهد الجديد وقد أشير إلى هذا الامر في تك ص ١ حيث ذكر «الله» و«روح الله» (قابل مز ٣٣ : ٦ ويو ١ : ١ و ٣) والحكمة الالهية المشخصة أم ص ٨ تقابل «الكلمة» في (يو ص ١) وربما تشير الى الاقنوم الثاني . وتطلق نعوت القدير على كل أقنوم من هذه الاقانيم الثلاثة على حدته (ثم قال)

﴿ وحدة الله ﴾ ظاهرة في العهد القديم أكثر منها في العهد الجديد والتثليث بين في العهد الجديد خفي في العهد القديم . والداعي الاعظم لهذا الامر انما هو اظهار خطأ الشرك بالله ومنع عبادة الاوثان التي كانت كثيرة الشيوع في الازمنة الاولى قديماً ، ففي تث ٦ : ٤ يدعى الله « ربا واحداً » وكان يدعى «الاله الحي» تمييزاً له عن آلهة الوثنيين الكاذبة . والاعتقاد بان الله واحد بين جداً في ديانة اليهود (ثم قال)

﴿ ابن الله ﴾ - دا ٣ : ٢٥ ابن الآلهة - لقب من ألقاب الفادي ولا يطلق على شخص آخر سواه إلا حيث يستفاد من القرينة أن المقصود بالملقب غير ابن الله الحقيقي . وقد تسمت الملائكة بني الله (اي ٣٨ : ٧) وأطلق هذا الاسم على آدم (لو ٣ : ٣٨) إذ أنه هو الشخص الاول المخلوق من الباري رأساً . وقد تسمى المؤمنون أبناء الله (رو ٨ : ١٤ و ٢ كو ٦ : ١٨) وذلك لانهم أعضاء في عائلة الله الروحية . وأما اذا أريد بهذا اللقب المسيح فيذكر مع التفخيم والعظمة حتى ان القاريء يعرف القصد بكل سهولة

وهذا اللقب يدل على طبيعة المسيح الالهية كما أن القول بانه «ابن الانسان» يدل على طبيعته البشرية . والمسيح هو ابن الله الازلي والابن الوحيد (قابل يو ١ : ١٨ و ٥ : ١٩ - ٢٦ و ٩ : ٣٥ - ٣٨ ومت ١١ : ٢٧ و ١٦ : ١٦ و ٢١ : ٣٧

وآيات أخرى غير هذه في الرسائل) ومع أن المسيح يأمرنا بأن ندعو الله «أبانا» فهو لايدعوه كذلك إنما يدعوه « أبي » وذلك إيماء لما هنالك من الالفة العظيمة، والعلاقة الشديدة الكائنة بينهما مما تفوق علاقته كل علاقة بشرية . واشارة إلى اننا نحن أولاده ليس على سبيل البنوة التي للمسيح ربنا بل من قبيل البنوة التي أنعم علينا بها بواسطة التبني والتجديد اهـ بحروفه

أقول ان ملخص صاحب هذا القاموس من عقيدة النصارى ، هو أوضح ماتعرف به هذه العقيدة بالاختصار المتوخى في هذا القاموس ، على غموضه وضعفه في نفسه ، وما يذكرونه في عامة كتبهم قلما يفهم المراد منه لما في عباراتها من التعقيد اللفظي والمعنوي في موضوع غير معقول في نفسه . وفيما ذكره مؤاخذات كثيرة نذكر أهم ما يتعلق بموضوعنا هنا منها ولذلك نغض الطرف عما قاله في بيان المراد من اسم الجلالة لاننا نقلناه تمهيداً لما بعده فنقول :

(١) ماذكره فيما سماه « طبيعة الله » لايدل عليه لفظ الاسم الكريم ، ولا شيء من كتب الانبياء في العهد القديم، ولا مما جاء عن متقدميهم في سفر التكوين. فثبت بهذا أن هذه الطبيعة المدعاة لم تكن معروفة عند أنبياء أهل الكتاب قبل النصرانية التقليدية وهي أصل الدين فيها، ونتيجة هذا أن هذه العقيدة مبتدعة بعدهم وهم برآء منها

(٢) ان ما أشار اليه من نص الأنجيل فيها لايدل عليها وهو مافي انجيل متى من قوله في آخره رواية عن المسيح عليه السلام ٢٨ . ١٩ « وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » فهذا اللفظ لايدل على أن هذه الاسماء الثلاثة عبارة عن ثلاثة اقانيم متساوية الجوهر، وان كلا منها عين الآخر، وانه يطلق عليه اسم (الله) الخالق لجميع الكائنات الخ ماذكره في معنى اسمه عز وجل، ولا على انها تتقاسم الاعمال الالهية على السواء كما ادعاه فيما سماه طبيعة الله

وكذلك ماأشار اليه من رسالة بولس الثانية الى كورنثوس وهو قوله في آخرها (١٣ : ١٤ نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعهم) على أننا نعتقد أن بولس هو واضع أساس الديانة النصرانية الحاضرة وجاء فيها بما لم يؤثر عن المسيح عليه السلام ولا عن تلاميذه الحواريين رضي الله عنهم

(٣) ان ماذكر في كتب العهدين من استعمال ابن الله والروح القدس ينافي هذا المعنى ولا يتفق معه بوجه من الوجوه كما بيناه في تفسيرنا عند ذكرها في الآيات من سورتي آل عمران والنساء. وقد أشرنا الى أهمها آنفا

(٤) إن ما أشار اليه من عبارة المزمور (٣٣ . ٦) ليس فيه أدنى إشارة الى هذه الطبيعة المبتدعة في هذا التثليث وهذا نصها « بكلمة الرب صنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها » وهو يزعم هنا أن المراد [بكلمة الرب] المسيح تفسيراً لها برأي يوحنا في أول انجيله ، وهذا المعنى للكلمة لم يكن معروفا لداود عليه السلام ولا لغيره من أنبياء اليهود بل هو معنى اخترعه الذي كتب انجيل يوحنا والمرجح عند بعض المحققين انه أحد تلاميذ بولس . وكان الدكتور جورج بوست كتب هذا الشاهد هنا قبل أن يكتب تفسير «الكلمة» في قاموسه وكأنه لما كتبه نسي ما كان كتبه هنا فانه قال في الجزء الثاني منه ما نصه: يقصد بالكلمة السيد يسوع المسيح ، ولم ترد هذه "الكلمة" بهذا المعنى إلا في مؤلفات يوحنا اهـ فكيف فسر بها عبارة المزمور إذاً؟

وكذلك ما نقله عن رسالتي بولس الى كولوسي والى العبرانيين لا يدل على ماذكره ، ولو دل عليها لكان أحد دلائلنا على أن هذه العقيدة قد وضع بولس أساسها إذ لم يعرفها أحد من انبياء التوراة قبله (ع ٠ م) ولا المسيح

(٥) قوله ان مسألة التثليث غير واضحة في العهد القديم ، صوابه غير موجودة فيه البتة لا بالنص ولا بالظاهر ولا بالفحوى والاشارة الواضحة ، على أن هذه العقيدة عند النصارى هي أساس الدين أو ركنه الاعظم فلو كانت عقيدة إلهية موحى بها الى الانبياء لصرحوا كلهم بها تصريحاً لا يقبل التأويل كما صرحوا بالتوحيد الذي اعترف هو وغيره بأنه ظاهر [وبين جداً] في العهد القديم وهاتان العقيدتان على أتم التناقض . وماذكره من الاشارة اليها في أول سفر التكوين بذكر اسم الله ولفظ [روح الله] غير مسلم فانه لم يفهم ذلك منها أحد من اليهود ولا غيرهم قبل ابتداع هذه العقيدة ، ولا يجوز بل لا يعقل أن يكون أساس العقيدة في كتاب الله مبهما لا يفهمه المخاطبون منه كما علمت آنفا من استشهاده بالمزمور ٣٣ . ٦ . وهذان اللفظان موجودان في القرآن المجيد الذي يصرح بكفر القائلين بالتثليث.

(٦) ما ذكره في مسألة (وحدة الله) من سبب التصريح بتوحيد الله تعالى بأقوى النصوص في العهد لقديم وهو سد ذريعة الوثنية التي كانت كثيرة الشيوع في الازمنة الاولى هو حجة عليه ، فان تلك الوثنية التي أراد الله تعالى سد ذرائعها بنصوص التوحيد القطعية لموسى وغيره من الانبياء (ع.م) كان من أركانها عقيدة التثليث الهندية المصرية اليونانية ، فما وقع فيه النصارى من الوثنية هو الذي اريد وقاية أتباع الانبياء منه بتلك النصوص الالهية في كتبهم ولاسيما الوصية الاولى من وصايا التوراة ، وانما أوقعهم فيه هذه الالفاظ المجملة في رسائل بولس وأناجيل تلاميذه وعدم تأويلهم لها بما يوافق توحيد جميع الانبياء ونصوص التنزيه فيها وفي الانجيل ايضاً

(٧) إن استشهاده على كلمة « ابن الله » بما جاء في الفصل ٣ من سفر دانيال غريب جداً جداً فان عادته في قاموسه أن يذكر بجانب كل كلمة تفسيراً لها وشاهداً عليها من كلام الله أو كلام الانبياء ، والعبارة التي ذكرها هنا هي كلمة لملك بابل نبوخذ نصر الوثني قالها في أحد الافراد الذين ألقاهم في أتون النار ولم يحترقوا وهي « ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة » فلينظر المسلمون وغيرهم من العقلاء بم يؤيد هؤلاء النصارى تسميتهم المسيح ابن الله؟ وبم يثبتون أن لله ابناً حقيقياً؟ إنهم يحاولون اثبات هذا او يؤيدونه بكلام الوثنيين في عقائدهم ، ثم ينكرون أنهم وثنيون

(٨) انه حاول أن يفرق بين ما أمر المسيح به المؤمنين من خطابهم لله تعالى في الصلوات بقوله في أول الصلاة الربانية « آبانا الذي في السموات » الخ وما في معناه كقوله « أبي وأبيكم » وبين روايتهم عنه في بعض المواضع من قوله « أبي » فهو يزعم تقليداً لرؤساء ملته أن اضافة الاب إلى ضمير المتكلم منه عليه السلام واضافته إلى ضمير الجميع فيما أمرهم به من قول « أبانا » دليل على أن أبوته تعالى له حقيقية وأبوته للمؤمنين على سبيل التبني .

وهذا من أغرب ما يؤثر عنهم من التحكم والابتداع المخالف للغة وللعقل وللنقل المأثور عن الانبياء ، فأبوة الله الحقيقية لبعض البشر أو غيرهم من الخلق لا تعقل ، وأبوة التبني تزوير يجل الله عنه كما يتنزه عن مجانسة الخلق بالابوة الحقيقية ، والاظهر في هذه الابوة في كل موضع ان صح النقل

انها مجاز عن الرحمة والرأفة والتكريم ، ولا ننكر أن حظ المسيح عليه السلام منها جدير بأن يكون أعلى من حظ يعقوب وافرايم وداود وسليمان ممن أطلق عليهم هذا اللقب في أسفار العهد القديم . ومن الكفر الصريح والطعن في تنزيه الله عز وجل عندنا وعند كل عاقل مستقل الفكر ان يقال انه سبحانه ابناً حقيقياً ، وأبناء بالتبني ، أي أدعياء ، وهو عز وجل يقول في أبناء التبني الذي كان معهوداً عند العرب وأبطله بالاسلام (٣٣: ٤ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل (٥) ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم)

وأما الفرق بين ضمير الجمع وضمير المفرد فيما نقلوه فسببه يعرفه العوام كالخواص وهو ان الجمع للجماعة والمفرد للفرد ، ولو نقلوا عن المسيح عليه السلام انه كان يقول في صلاته « أبي الذي في السموات » لكان لهم شبهة في هذه التفرقة . على أنه معارض بقول الرب في داود (مز ٨٩ : ٢٦ هو يدعو ني أنت أبي) فاذا كانت إضافة لفظ أب الى ضمير المفرد المتكلم تقتضي أن يكون المضاف اليه ابناً حقيقياً لله تعالى فقد كان هذا الفخر لداود قبل المسيح ، وان لاضافة ابن إلى ضمير الرب المفرد من الاختصاص مايساوي بل يفوق إضافة لفظ الاب الى ضمير العبد . وقد تقدم مافي سفر الخروج من قول الرب (٤: ٢٢ ابني بكري اسرائيل) ومثله قوله في سفر ارميا (٣١ : ٩ اني صرت أباً لاسرائيل وافرايم هو بكري) ووصف الاب الابن بكونه بكراً له يقرب به من الحقيقة أو الاختصاص ما لا يقرب مثله باضافة الابن اسم أبيه إلى ضمير نفسه ، إذ من المعلوم أن المتبنى يخاطب متبنيه ويخبر عنه بقوله « أبي » كالابن من الصلب ، ولكن الرجل لا يصف من تبناه ولا يخبر عنه بقوله ابني البكر

(٩) قوله ان المؤمنين أعضاء في عائلة الله الروحية ما أملاه عليه الا ان عقله لا يفهم من لفظ « ابن الله وأبناء الله » إلا المعنى المجازي ومقتضاه ان كل مايعتل من نصوص العهد الجديد في إطلاق اللفظ على المسيح بكثرة أو نوع امتياز إنما يراد به انه عليه السلام كان أفضل من غيره من أعضاء هذه العائلة الروحية المدعاة

والمسلمون لا ينكرون هذا الامتياز فانهم يفضلونه عليه السلام على أجداده اسرائيل وداود وغيرهما ممن أطلق عليه لقب «ابن الله» في العهد القديم . بل يفضلونه على جميع الانبياء ماعدا ابراهيم وموسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

(١٠) اننا على بحثنا هذا في كلامه لاقامة الحجة على النصارى كلهم ننكر لفظ «عائلة الله» وأمثاله مما يخل بتنزيه الله رب العالمين عما يقتضيه من المجانسة ، فهو عز وجل ليس له جنس مادي ولا روحي (ليس كمثله شيء * سبحان ربك رب العزة عما يصفون * قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد)

وأما معنى «روح القدس» وبطلان ما زعموه من كونه هو الله فقد تقدم بيانه مفصلا في تفسير آية (٢ : ٨٧ وأيدناه بروح القدس) وآية (٤ : ١٧١ وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) وآية ٤ : ١٦٩ من سورة النساء المشار اليها فيما تقدم قريبا

(١١) انه من أجل عداوته للتوحيد ، ولتنزيه الخالق عز وجل عن الجنس والولد والشريك ، لم يذكر في صفاته عز وجل ما ورد في العهدين القديم والجديد ، من تنزهه تعالى عن الند والنظير والشبيه ، الذي يجب بحكم العقل أن تؤول لاجله أو تحمل عليه وتقيد به جميع النصوص الدالة على التشبيه ، كما جعل المسلمون قوله عزوجل (ليس كمثله شيء) وقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) أصل عقيدة التنزيه ، وقيدوا بها معاني الآيات الموهمة للتشبيه . وقد جاء في سفر الاستثناء من أسفار التوراة (٤ : ١٢ فكلمكم الرب من جوف النار فسمعتم صوت كلامه ولم تروا الشبه البتة (١٥) فاحفظوا أنفسكم بحرص فانكم لم تروا شبهاً يوم كلمكم الرب في حوريب من جوف النار) والعقلاء من اليهود يردون جميع العبارات التي ظاهرها التشبيه والاعضاء للرب تعالى الى هذا النص النافي للتشبيه

وقد جاء في انجيل يوحنا الذي تفرد بأقوى الشبهات على التثليث ما يدل على التنزيه قال (١ : ١٨ الله لم يره أحد قط . الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو الذي خبر) ومثله في الرسالة الاولى ليوحنا (٤ : ١٢ الله لم ينظره أحد قط) بل قال مثل ذلك أستاذه بولس في رسالته الاولى الى تيموتادس فانه وصاه بحفظ الوصية الى ظهور المسيح وقال عن هذا الظهور (١٥ الذي سيبينه في أوقاته المبارك الوحيد

ملك الملوك ورب الارباب ١٦ الذي وحده له عدم الموت ساكنا في نور لا يدنى منه الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه أحد الذي له الكرامة والقدرة الابدية)

فتبين بما تقدم ان هذه عقيدة التثليث وألوهية المسيح المخالفة لحكم العقل ليس لها أصل في كتب الانبياء عليهم السلام لا قطعي ولا ظني وان شبهاتها في العهد الجديد ضعيفة ليست نصا ولا ظاهرة فيها . على أن كتب العهد الجديد لا يوثق بها فان النصارى قد أضاعوا أكثر ما كتب من انجيل المسيح في عصره ثم رفضت مجامعهم المسكونية الرسمية بعد دخول التعاليم الوثنية فيهم من قبل الرومانيين أكثر ماوجد عندهم من الاناجيل التي كانت تعد بالعشرات وقيل بالمئات واعتمدت أربعا منها ليس فيها إلا قليلاً مما رووه من أقوال المسيح وأفعاله كما قال يوحنا في آخر انجيله « وأشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع ان كتبت واحدة واحدة فلست أظن ان العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة آمين » اه ومن المعلوم بالبداهة انه كان يقول عند ما كان يفعل فلم تكتب أقواله ولا أفعاله الكثيرة

وقد تكرر في كتب العهد الجديد ومنها الأناجيل الأربعة ذكر انجيل المسيح وفي بعضها يسمى « انجيل الله » ومن المعلوم بالبداهة انه لا يراد بهذا الانجيل أحد هذه التواريخ الاربعة التي تحدث عنه . وفي هذه الكتب أيضاً انه كان يوجد أناجيل كاذبة وأناجيل محرفة ورسل كذبة . وقد فصلنا القول في مسألة انجيل المسيح وهذه الأناجيل وأثبتنا عدم الثقة بها وان مجموعها يثبت ما نطق به كتاب الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو ان النصارى كاليهود نسوا حظا عظيما مما ذكروا به وانهم أوتوا نصيبا منه ، وانهم انتحلوا عقائد وثنيي الهند وغيرهم من القدماء في الثالوث (فراجعه في ص ٢٨٩ — ٣٠٢ ج ٦)

وقال الله تعالى ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ أي ذلك الذي قالوه في عزير والمسيح هو قولهم الذي تلوكه ألسنتهم في أفواههم ، ما أنزل به من سلطان ، ولا يتجاوز حركة اللسان ، إذ ليس له مدلول في الوجود ، ولا حقيقة في مدارك العقول ، فهو كقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا) وفي معناه قوله في التبني

﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ وقوله في أهل الافك ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ فذكر الافواه ـ وكذا الألسنة ـ مع العلم بها بالحس لبيان ما ذكر أي انه قول لا يعدوها ولا يتجاوزها الى شيء في الوجود فهو كما يقول العوام « كلام فارغ »

﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي يشابهون ويحاكون فيه قول الذين كفروا من قبلهم فقالوا هذا القول أو مثله ، قيل ان المراد بهم مشركو العرب الذين قالوا ان الملائكة بنات الله . وقيل ان المراد سلفهم الذين قالوا هذا القول قبلهم ، وهذا مبني على أن الكلام في اليهود والنصارى الذين كانوا في عصر نزول القرآن، ولكن لم يصل الينا أن أحدا من سلف اولئك اليهود في بلاد العرب أو غيرها قالوا عزير ابن الله وان كان غير بعيد في نفسه، ولو كانت الآية نصاً فيه لجزمنا به لان عدم وصول نقل الينا فيه لا يقتضي عدم وقوعه. والراجح المختار أن المراد بكل من اليهود والنصارى في الآية الجنس وهو يصدق بوقوع ذلك من بعضهم في أي عصر كان والمختار في مضاهاتهم للذين كفروا من قبلهم يصدق في كل من وقع ذلك منهم والله أعلم بهم ، وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين في الشرق والغرب ان عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة في الهند والبوذيين فيها وفي الصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومان ، وقد بينا هذا في تفسير آية (٤ : ١٩٦) التي تقدمت الاشارة اليها آنفا [1] وهذا البيان لهذه الحقيقة من معجزات القرآن، فانه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم بل لم تظهر إلا في هذا الزمان، كما يقال مثل هذا فيما بينه من حقيقة أمر كتبهم وسيأتي بيانه قريبا في فصل خاص

﴿ قاتلهم الله ﴾ هذه الجملة تستعمل في اللسان العربي للتعجب فهو المراد بها لا ظاهر معناها . قل في مجاز الاساس : وقاتله الله ما أفصحه . اهـ وحكى النقاش ان اصل « قاتله الله » الدعاء ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء اهـ وفسره بعضهم بالدعاء على أن المراد به اللعنة

(١) راجع (فصل في عقيدة التثليث) من ص ٨٨ — ٩٤ ج ٩ تفسير

أو الهلاك . والاول أظهر ﴿ أنى يؤفكون ﴾ تقدم مثل هذه الجملة في الرد على قول الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة إذ قال تعالى، (٥: ٧٨ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر كيف أنى يؤفكون) ومثله في سورة الانعام بعد الاستدلال على الخالق عز وجل (٦: ٩٥ ذلكم الله فأنى تؤفكون) والافك صرف الشيء عن وجهه [وبابه من وزن وضرب] ويقال أفك بالبناء للمفعول بمعنى صرف عقله عن إدراك الحقيقة، ورجل مأفوك العقل، فمادة أفك تستعمل في صرف العقل والنفس عن الحق إلى الباطل ونحوه . والمعنى هنا كيف يصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق عز وجل، وهو الذي تجزم به العقول ، والذي بلغه عن الله تعالى كل رسول، فهو جمع بين المعقول والمنقول، ويقولون هذا القول الذي لا يقبله عقل، ولم يصح به عن أنبياء الله ورسله نقل ، فأين عزير والمسيح من رب العالمين، الخالق لهذا الكون العظيم، الذي وصل من عجائب سعته الى علم البشر القايل ان بعض شموسه لا يصل نورها الى الارض إلا بعد قطع الملايين من السنين النورية - فهل يليق بعاقل من هذه الدواب التي تعيش على هذه الذرة الصغيرة منه (وهي الارض) أن يجعل لخالقه كله، ومدبر أمره، ولداً وعائلة من جنسه، وأن يرتقي به الغرور إلى أن يجعل واحداً منهم هو الخالق له والمدبر لأمره ، مع العلم بأنه ولد من امرأة وكان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم الخ (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون * وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه، بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين)

وفي الآية من القراءات تنوين (عزير) بناء على انه عربي مما تصرفت به العرب فجعلته بصيغة اسم التصغير ، وان (ابن الله) خبر عنه لا وصف له، وهو المروي عن عاصم والكسائي ويعقوب وقرأه الباقون بغير تنوين بناء على انه اسم أعجمي فاجتمع فيه علتا العلمية والعجمة . وفيه وجه آخر في الاعراب ، وقرأ عاصم ومن أخذ عنه (يضاهئون) بالهمز والباقون (يضاهون) من الناقص وهما لغتان

فصل استطرادي

﴿ في هيمنة القرآن على التوراة والانجيل وشهادته لهما وعليهما ﴾

(إن قيل) ان ماذكرت يبطل الثقة بالكتب التي بها سمى الله اليهود والنصارى أهل الكتاب حتى التوراة والانجيل ، وقد شهد القرآن المجيد لليهود بأن عندهم التوراة فيها حكم الله وأمرهم بان يحكموا بما أنزل الله فيها على سبيل الاحتجاج عليهم كما أمر أهل الانجيل بمثل ذلك وقال في نبيه ﷺ ووصف الناجين منهم بقوله (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) وهم يحتجون على المسلمين بهذه الآيات ومن دعاة النصارى (المبشرين) من ألف كتابا في ذلك سماه (شهادة القرآن لكتب انبياء الرحمن) فبطلان الثقة بما عندهم من التوراة والانجيل يستلزم بطلان الثقة بالقرآن ، ويكون حجة للملاحدة التعطيل على بطلان جميع الاديان، فما جوابك عن هذا ؟

(قلت) قد سبق الجواب عن هذه الشبهة في هذا التفسير وفي (المنار) ونعيده الآن باسلوب آخر لزيادة البيان، فأما أهل الكتاب فحجتهم علينا بما قالوا إلزامية لاحقيقية لأنهم لايؤمنون بالقرآن فلا تنفعهم فيما ذكر من الطعن في ثبوت كتبهم، وهم يكتفون من إغواء المسلمين بتشكيكهم في دينهم، ظنا منهم بأنهم اذا كفروا بدينهم يسهل إدخالهم في النصرانية ولو نفاقا كالكثير من أهلها ، لانها أدنى إلى استباحة جميع شهوات الدنيا (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) ولكن هذا الالزام لايتم لهم علينا إلا اذا أخذت شهادة القرآن على هذه الكتب مع شهادته لها وقبول حكمه فيها، لأنه نص على انه مهيمن رقيب له السيطرة عليها ، إذ قال بعد ذكر التوراة والانجيل من سورة المائدة (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) ومما حكم به على اليهود والنصارى جميعاً انهم نسوا حظا عظيما مما ذكروا به فيما أنزله الله عليهم ، وأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب لا الكتاب المنزل كله ، وانهم مع هذا حرفوه وبدلوه ، وقد بينا هذا كله في مواضعه من

تفسير الآيات الناطقة به (١) وفي الرد على المبشرين ومواضع أخرى من المنار (٢)

وأما الملاحدة الذين استدلوا بنصوص التواريخ مع دلائل العقل على فقد تلك الكتب وعدم الثقة بشيء من الموجود منها، فجوابنا لهم أن حكم الله ورسوله ﷺ قريب من حكمهم عليها من ناحية فقد الثقة بها ولكن في جملتها . لافي كل جملة منها. فحكمه أدق وأصح في نظر العقل ، مع صرف النظر عن كونه لايعقل أن يكون إلا بوحي الله عز وجل . ذلك بأن قوله في اليهود (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به) مع قوله (أوتوا نصيباً من الكتاب) هو المعقول فان العقل لايتصور أن تنسى أمة كبيرة جميع شريعتها بفقد نسخة الكتاب المدونة فيه وقد عملت به في عدة قرون . وكذا قوله انهم حرفوا الكلم عن مواضعه ،وذلك ثابت بالشواهد الكثيرة من زيادة ونقصان وتغيير وتبديل، كما بينه الشيخ رحمة الله في كتابه إظهار الحق وغيره. واليهود يعترفون بان عزيراً (عزرا) كتب ما كتب من الشريعة بعد فقدها باللغة الكلدانية لا بلغة موسى عليه السلام وكان يضع خطوطا على مايشك فيه. فالمعقول أنه كتب ماذكره وتذكره هو ومن معه دون مانسوه وكان منه الصحيح قطعاً ومنه المشكوك فيه ومنه الغلط ، ومن ثم وجد التحريف ولا محل هنا للاتيان بالشواهد على هذا.

وبناء على هذا قال النبي ﷺ « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا » الآية . رواه البخاري في صحيحه، وسببه أن عمر (رض) كان قد نسخ شيئاً من التوراة بالعربية وجاء به الى النبي ﷺ فأنكره ﷺ عليه كما رواه احمد والبزار من حديث جابر وقال « لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وانكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ماحل له إلا اتباعي » فعلم من ذلك أن فيما عندهم ماهو حق وهو ما أوتوه ، وما هو باطل وهو ماحرفوه ،وما فقد وهو مانسوه

(١) راجع ص ١٥٥ -١٦٠ و ٢٦٥ ج ٣ و ١٣٦ ج ٥ و ٩٣ و ٢٨٢ -٢٨٥ و ٢٨٧- ٣٠٣ و ٣٨٩ -٤٠٢ و ٤١٠ -٤١٢ ج ٤١٢ و ٢٥١ ج ٦ و ٢٩٩ ج ٩

(٢) راجع ص ١٠٦ من المجلد السادس وهو أهمها

ومن ثم كان التحقيق عندنا معشر المسلمين أن نؤمن بالتوراة والانجيل بالاجمال، وبأن ماورد النص عندنا بأنه من حكم الله تعالى كحكم رجم الزاني الذي ورد فيه (وعندهم التوراة فيها حكم الله) نجزم بأنه مما أوحاه الله الى موسى عليه السلام، وما دل النص على كذبهم فيه ككون هارون عليه السلام هو الذي صنع لهم العجل الذهبي الذي عبدوه، وكون سليمان قد ارتد وعبد الاوثان وكون لوط زنا بابنته - فاننا نجزم بكذبه ، وأما ما احتمل الصدق والكذب فاننا لا نصدقهم ولا نكذبهم فيه . واليهود والنصارى في هذا سواء عندنا ، وتقدم بيان حالهم في نسيان حظ عظيم من انجيل عيسى عليه السلام (١)

ويمكننا أن نستدل بهذا التحقيق وبتحقيق مسألة كلمة الله وروح الله (روح القدس) التي ضل فيها قدماء الوثنيين وتبعهم النصارى، الذي جاءنا على لسان النبي الامي الذي لم يقرأ شيئاً من كتب أهل الكتاب ولا من التواريخ العامة ولا الخاصة على أنه وحي من الله تعالى عالم الغيب والشهادة ، فانه هو التحقيق المعقول الذي ينطبق على نقول التواريخ وحكم العقل ،ولم يسبق الى بيانه أحد من أهل الكتاب ولا من غيرهم . كما انه لايسع عاقلا منصفاردة.ولا يعقل ان محمد (ص) عرفه برأيه لان الراي في مثل هذا يبنى على معلومات كثيرة لم يكن له ولا لقومه علم بشيء منها، وقد قال الله تعالى له بعد ذكر قصة نوح من سورة هود المكية (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) ولم يعترض عليه احد من اعدائه من قومه المشركين فيقول بل نعلمها، وهي من القصص المشهورة عن اهل الكتاب،واين كانوا من علم اهل الكتاب؟ ولا يعقل ايضا ان يكون اخذ حكمه على التوراة والانجيل عن احد من اليهود او النصارى لا لانه لم يكن يوجد أحد منهم في بلده فقط بل لانهم لم يكونوا يعلمون ذلك ولانهم لو علموه لما قالوه الا انه طعن فيهم وفي دينهم - فلم يبق بعد ظهور صدقه الا الجزم بكونه وحيا من عالم الغيب ووجها من وجوه إعجاز القرآن السافرة النيرة

(في تفسير الاية بقية فيها بيان حال النصرانية في الافرنج وسبب عدم دخولهم في الاسلام)

---

(١) راجع ص ١٠٦ من مجلد المنار السادس

فتاوى المنار

تتمة البحث في حقيقة ربا القرآن

اقوال أشهر المفسرين في ربا القرآن

﴿ من المجتهدين والمنتسبين الى المذاهب المشهورة ﴾

ماقاله ابن جرير

قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ في تفسيره (جامع البيان) في الكلام على قوله تعالى (الذين يأكلون الربا) الخ مانصه:

« يعني بذلك جل ثناؤه الذين يربون . والارباء الزيادة على الشيء يقال منه: أربى فلان على فلان — إذا زاد عليه — يربي إرباء ، والزيادة هي الربا . وربا الشيء إذا زاد على ما كان عليه فعظم فهو يربو ربواً . وانما قيل للرابية لزيادتها في العظم والاشراف على ما استوى من الارض مما حولها من قولهم ربا يربو ومن ذلك قيل فلان في ربا قومه ، يراد انه في رفعة وشرف منهم . فأصل الربا الانافة والزيادة ثم يقال أربى فلان أي أناف صيره زائداً (١)

« وانما قيل للمربي مرب لتضعيفه المال الذي كان على غريمه حالا أو لزيادته عليه فيه لسبب الاجل الذي يؤخره اليه فيزيده الى أجله الذي كان له قبل حل دينه عليه . ولذلك قال جل ثناؤه (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) وبمثل الذي قلنا قال اهل التأويل »

ثم روى عن مجاهد انه قال في الربا الذي نهى الله عنه : كانوا في الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين فيقول لك كذا وكذا وتؤخر عني ، فيؤخر عنه . وعن

(١) كذا في الأصل المطبوع في المطبعة الاميرية ويظهر أنه سقط منه مرجع الضمير المنصوب في « صيره » ولعله المال

قتادة قال ان ربا الجاهلية يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى فاذا حل الاجل ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه [وهنا ذكر تفسير الوعيد بتشبيه آكلي الربا بمن يتخبطه الشيطان من المس] ثم قال في تفسير (ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) مانصه:

يعني بذلك جل ثناؤه ذلك الذي وصفهم به من قيامهم يوم القيامة من قبورهم كقيام الذي يتخبطه الشيطان من المس من الجنون ، فقال تعالى ذكره هذا الذي ذكرنا انه يصيبهم يوم القيامة من قبح حالهم ووحشة قيامهم من قبورهم وسوء ما حل بهم من أجل انهم كانوا في الدنيا يكذبون ويفترون ويقولون انما البيع الذي أحله الله لعباده مثل الربا . وذلك ان الذين يأكلون الربا من اهل الجاهلية كانوا اذا حل مال احدهم على غريمه يقول الغريم لغريم الحق زدني في الاجل وأزيدك في مالك . فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك هذا ربا لايحل فاذا قيل لهما ذلك قالا سواء علينا زدنا في اول البيع او عند محل المال فكذبهم الله في قيلهم فقال (وأحل الله البيع) إلى آخر الآية ذكرها ، وقال في تفسيرها مانصه :

يعني جل ثناؤه وأحل الله الأرباح في التجارة والشراء والبيع ، وحرم الربا يعني الزيادة التي يزاد رب المال بسبب زيادة غريمه في الاجل وتأخير دينه عليه يقول عز وجل وليست الزيادتان اللتان إحداهما من وجه البيع والاخرى من وجه تأخير المال والزيادة في الاجل سواء الخ

فأنت ترى انه حصر الربا المراد من الآية في ربا الجاهليـة وبين ان ربا الجاهلية خاص بأخذ الزيادة من المال لاجل تأخير اجل الدين بعد استحقاقه ، وهذا يشمل ماكان من الدين قرضاً وماكان ثمن مبيع على قول قتادة ومن المفسرين من يقول ان كل ديونهم في الجاهلية كانت قروضا ولم يكونوا يعرفون البيع الى أجل كما ستراه في النقول الآتية . ولم يفهم المفتي الهندي هذا مع شدة ظهوره لما تمكن في نفسه من تقليد الحنفية وما فهمه منه فجعله أصلا يرد اليه غيره فان وافقه وإلا رده من أصله وحكم بأنه خطأ

ماقاله الجصاص

قال العلامة ابو بكر احمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي المتوفي سنة ٣٧٠ في تفسيره (أحكام القرآن) بعد ان بين في تفسير آيات البقرة لفظ الربا في اللغة وإطلاق النبي صلى الله عليه وسلم اياه على ربا النسيئة في حديث اسامة بن زيد وجعل عمر منه السلم في السن. وقول جماعة الحنفية انه مجمل بينته السنة وبينه صلى الله عليه وسلم نصاً وتوقيفا - بعد هذا قال

« والربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله انما كان قرض الدراهم والدنانير الى أجل بزيادة على مقدار ما استقرض على مايتراضون به . ولم يكونوا يعرفون البيع بالنقد واذا كان متفاضلا من جنس واحد (؟) هذا كان المتعارف المشهور بينهم ولذلك قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله) فأخبر أن تلك الزيادة المشروطة انما كانت ربا في المال العين لانه لاعوض لها من جهة المقرض . وقال تعالى (لا تاكلوا الربا اضعافا مضاعفة) اخباراً عن الحال التي خرج عليها الكلام من شرط الزيادة اضعافا مضاعفة ، فأبطل الله الربا الذي كانوا يتعاملون به ، وأبطل ضروبا اخرى من البياعات وسماها ربا فانتظم قوله تعالى (وحرم الربا) تحريم جميعها لشمول الاسم عليها من طريق الشرع ، ولم يكن تعاملهم بالربا إلا على الوجه الذي ذكرنا من قرض دراهم ودنانير الى أجل مع شرط الزيادة اهـ وقد ذكر بعده مايدخل في عموم اللفظ من المعاني بناء على قول اصحابه بأنه مجمل بينته الاحاديث

ماقاله الكيا الهراسي (*)

قال العلامة الكيا الهراسي من محققي الشافعية في تفسيره لآيات سورة البقرة

(*) هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري وكان لقبه عماد الدين ثم اشتهر بلقب الكيا الهراسي والكيا بكسر الكاف وفتح الياء المثناة ومعناها باللغة العجمية الكبير القدر المقدم بين الناس قاله ابن خلكان ولم يذكر الهراسي الى أي شيء ينسب . ولد سنة خمسين وأربعمائة وتوفي سنة اربع وخمسمائة . قال التاج السبكي في طبقات الشافعية : الامام شمس الاسلام أبو الحسن الجويني الكيا الهراسي الملقب عماد الدين احد فحول العلماء ورءوس الائمة فقها وأصولا وجدلا وحفظا لمتون احاديث الاحكام . ثم ذكر انه تخرج بامام الحرمين وقال - كابن خلكان - وكان ثاني الغزالي بل أملح وأطيب في النظر والصوت، وأبين في العبارة والتقرير منه، وان كان الغزالي أحد وأصوب خاطرا وأسرع بيانا وعبارة منه. ومما قاله فيه: وكان يحفظ الحديث ويناظر فيه وهو القائل:
اذا جالت فرسان الاحاديث في ميادين الكفاح ، طارت رءوس المقاييس في مهاب الرياح .

من كتابه (أحكام القرآن) المحفوظ في المكتبة المصرية العامة مانصه :

الربا في اللغة الزيادة وربما لا تعرف العرب بيع الدرهم بالدرهم نساء إلا أن الشرع أثبت زيادات جائزة وحرم أنواعا من الزيادة ، فجوز الزيادة من جهة الجودة ولم يجوز (الزيادة) من جهة المدة . وإذا اختلف الجنس يجوز بيع بعضه ببعض متفاضلا نقدا متماثلا نسيئة . وكل ذلك لا يقتضيه لفظ الربا . ولكن ذلك لا يمنع التعلق بعموم اللفظ ، وعموم اللفظ يقتضي تحريم الزيادة مطلقا إلا ما خصه الشرع

قال :(وأحل الله البيع) يقتضي جواز ما لا زيادة فيه إلا ما خصه الشرع فنحن نحتاج الى البيان فيما لم يرد باللفظ ، وفي تخصيص بعض ما أريد باللفظ ، والله تعالى حرم الربا ، فمن الربا ما كانوا يعتادونه في الجاهلية من إقراض الدنانير والدراهم بزيادة ، والنوع الآخر اسلام الدراهم في الدراهم والدنانير من غير زيادة

(قال) ورأى ابن عباس أن سياق الآية يدل على أن المذكور في كتاب الله ربا النساء لا ربا الفضل فانه قال (فله ما سلف * وذروا ما بقي من الربا) وقال (وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) وقال تعالى (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع « كل ربا موضوع ولكم رءوس أموالكم ...(وذكر الحديث)

(ثم قال) واذ كان الربا ينقسم أقساما فلذي في القرآن يدل على تحريم الزيادة من غير نظر في جنس المال لان ذلك يعد زيادة في الشيء ولا يقال كل الربا (؟)

ومن أجل ذلك جوز بعض العلماء وهو مالك الأجل في القرض إلا أنا منعنا من ذلك لا من جهة الآية بل من جهة أخرى . والذي كان في الجاهلية كان القرض زيادة وما كانوا يؤجلون الا (١) ة في نفس الشيء

ونقل عن الشافعي أن لفظ الربا لما كان غير (٢) معلوم أورث إجمالا في البيع . والصحيح ان الربا غير مجمل ولا البيع كما ذكرناه فان مالا زيادة فيه جار على حكم عموم البيع . نعم خص من الربا زيادة أبيحت وخص من البيع بياعات نهي عنها وعموم اللفظ معتبر فيما سوى المخصص

(١) ههنا كلمة مطموسة أيضا ولعلها نسيئة (٢) قد طمس أول هذه الكلمة

ورد الله تعالى على المشركين في قولهم (ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) وذلك أنهم زعموا بأنه لافرق بين الزيادة المأخوذة على وجه الربا وبين الارباح المكتسبة بضروب البياعات من حيث غاب عنهم وجه المصلحة وتحريم الزيادة على وجه دون وجه فأبان الله تعالى أنه عز وجل إذا حرم الربا وأحل البيع فلابد أن يشتمل المنهي على مفسدة والمباح على مصلحة وان غائبا عن مرأى نظر العباد فعلى هذا كل ماوجد فيه حد البيع فيجوز أن يحتج فيه بعموم البيع اه ماقاله الكيا الهراسي في الموضوع ، وقد علمت ان الامام الشافعي رجح ان لفظ البيع عام لا مجمل

(٢) ماقاله القرطبي

قال العلامة الشيخ عبدالله بن محمد بن أحمد الانصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ وهو من محققي المالكية في مسائل آيات البقرة من تفسيره المشهور (جامع أحكام القرآن) وهو المتعلق بموضوعنا

(الرابعة عشرة) قوله تعالى (إنما البيع مثل الربا) أي ان الزيادة عند حلول الاجل آخراً كمثل أصل الثمن في اول العقد . وذلك ان العرب كانت لاتعرف ربا إلا ذلك ، فكانت إذا حل دينها قالت للغريم اما أن تقضي واما أن تربي ـ أي تزيد في الدين . فحرم الله سبحانه ذلك ورد عليهم قولهم بقوله الحق (وأحل الله البيع وحرم الربا) وأوضح ان الأجل إذا حل ولم يكن عنده مايؤدي أنظر إلى الميسرة . وهذا الربا هو الذي نسخه النبي ﷺ بقوله يوم عرفة « الا ان كل ربا موضوع وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله» فبدأ ﷺ بعمه وأخص الناس به

(ثم قال) (الخامسة عشرة) قوله تعالى (وأحل الله البيع) هذا من عموم القرآن والالف واللام للجنس لا للعهد إذ لم يتقدم بيع مذكور يرجع اليه كما قال تعالى (والعصر ان الانسان لفي خسر) ثم استثنى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) واذ ثبت ان البيع عام فهو مخصوص بما ذكرنا من الربا وغير ذلك مما نهي عنه ومنع العقد عليه كالخمر والميتة وحبل الحبلة وغير ذلك مما هو ثابت في السنة واجماع الامة النهي عنه . ونظيره (اقتلوا المشركين) وسائر الظواهر

هي التي تقتضي العمومات ويدخلها التخصيص. وهذا مذهب أكثر الفقهاء وقال بعضهم هو من مجمل القرآن الذي فسر بالمحلل من البيع وبالمحرم من الربا فلا يمكن أن يستعمل به إحلال البيع وتحريمه الا أن يقترن به بيان من سنة الرسول ﷺ وان دل على اباحة البيوع في الجملة والتفصيل . وهذا فرق مابين العموم والمجمل فالعموم يدل على اباحة البيوع في الجملة والتفصيل ما لم يخص بدليل، والمجمل لايدل على إباحتها في التفصيل حتى يقترن به بيان . والاول أصح والله أعلم

(المسألة الثامنة عشرة) قوله (وحرم الربا) الألف واللام هنا للعهد وهو ماكانت العرب تفعله كما بيناه. ثم تناول ماحرمه رسول الله ﷺ ونهى عنه من البيع الذى يدخله الربا وما في معناه من البيوع المنهي عنها اه

(٤) ما قاله الطبرسي

قال العلامة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطبرسي المتوفى سنة ٥٦١ في تفسيره (مجمع البيان) وهو من محققي الامامية :

(ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا) معناه بسبب قولهم انما البيع الذي لا ربا فيه مثل البيع الذي فيه الربا قال ابن عباس كان الرجل منهم إذا حل دينه على غريمه فطالبه به قال المطلوب منه : زدني في الاجل وأزيدك في المال، فيتراضيان عليه ويعملان به، فاذا قيل لهم هذا ربا قالوا هما سواء يعنون بذلك أن الزيادة في الثمن حال البيع والزيادة فيه بسبب الاجل عند محل الدين سواء، فذمهم الله به وألحق الوعيد بهم، وخطأهم في ذلك بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربا) أي أحل الله البيع الذي لا ربا فيه وحرم النوع الذي فيه الربا، والفرق بينهما أن الزيادة في احدهما لتأخير الدين وفي الآخر لاجل البيع وأيضا فان البيع بدل لبدل، لان الثمن فيه بدل المثمن، والربا زيادة من غير بدل للتأخير في الاجل أو زيادة في الجنس. والمنصوص عن النبي تحريم التفاضل في ستة أشياء الذهب والفضة والحنطة والشعير والتمر والملح وقيل الزبيب قال (ع) « الا مثلا بمثل يدا بيد من زاد أو استزاد فقد أربى » لا خلاف في حصول الربا في هذه الاشياء الستة وفي غيرها خلاف بين الفقهاء اه

اقوال المحدثين فى ربا القرآن

روى مالك عن زيد بن أسلم في تفسير آية آل عمران قال كان الربا في الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل حق الى أجل فاذا حل قال أتقضي أم تربي ، فان قضاه أخذ وإلا زاده في حقه وزاد الآخر في الأجل . ذكره الحافظ في الفتح . وذكر الحنابلة عن أحمد مثله وانه سئل عن الربا الذي لايشك فأجاب بمثله

وروى الطحاوي محدث الحنفية في أول باب الربا من كتابه (معاني الآثار) حديث ابن عباس عن أسامة بن زيد (رض) «انما الربا في النسيئة» (وسيأتي) ثم قال:

(قال أبو جعفر) فذهب قوم الى أن بيع الفضة بالفضة والذهب مثلين بمثل جائز اذا كان يداً بيد ، واحتجوا في ذلك بما رويناه عن أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم وخالفهم في ذلك آخرون فقالوا لايجوز بيع الفضة بالفضة ولا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل سواء بسواء يداً بيد

وكانت الحجة لهم في تأويل حديث ابن عباس عن أسامة (رض) الذي ذكرناه في الفصل الاول ان ذلك الربا انما عنى به ربا القرآن الذي كان أصله في النسيئة ، وذلك ان الرجل كان يكون له على صاحبه الدين فيقول أجلني منه الى كذا وكذا بكذا وكذا درهما أزيدكها في دينك ، فيكون مشتريا لاجل بدل فنهاهم الله عز وجل عن ذلك بقوله (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين) ثم جاءت السنة بعد ذلك بتحريم الربا في التفاضل في الذهب بالذهب والفضة بالفضة وسائر الاشياء المكيلات والموزونات على ماذكره عبادة بن الصامت (رض) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رويناه عنه فيما تقدم من كتابنا هذا في باب بيع الحنطة بالشعير فكان ذلك ربا حرم بالسنه وتواترت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قامت بها الحجة ، والدليل على ان ذلك الربا المحرم في هذه الآثار هو غير الربا الذي رواه ابن عباس عن أسامة رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجوع ابن عباس رضي الله عنهما الى ماحدثه به أبو سعيد (رض) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قد ذكرناه في هذا الباب فلو كان ماحدثه به-

ابو سعيد (رض) من ذلك في المعنى الذي كان أسامة (رض) حدثه به إذاً لما كان حديث أبي سعيد عنده بأولى من حديث أسامة (رض) ولكنه لم يكن علم بتحريم رسول الله ﷺ هذا الربا حتى حدثه به أبو سعيد (رض) فعلم ان ما كان حدثه به أسامة (رض) عن رسول الله ﷺ كان في ربا غير ذلك الربا اه

أقول أما حديث أسامة فقد رواه الشيخان وغيرهما كما تقدم ومنهم الطحاوي من طريق ابن عباس وكان ابن عباس يفتي به وروى مسلم ان أبا نضرة سأله عن الصرف فقال أيداً بيد؟ قلت نعم قال فلا بأس — ورووا ان ذلك ذكر لأبي سعيد الخدري (رض) وان أبا سعيد سأل ابن عباس عن قوله؟ أسمعته من النبي ﷺ أم وجدته في كتاب الله تعالى فقال كل ذلك لا أقول وأنت أعلم برسول الله مني ولكن أخبرني اسامة ان النبي ﷺ قال «لا ربا إلا في النسيئة» هذا لفظ البخاري وذكر الطحاوي ان أبا سعيد قال له: أشهد إني سمعت رسول الله ﷺ يقول «الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما» وذكر انه نزع عن هذه الفتوى. وروى الحاكم من طريق حيان العدوي ان أبا سعيد ذكر له حديث التمر بالتمر الخ فاستغفر وتاب عن ذلك. وحيان ضعفه غير واحد

قال الحافظ في الفتح: واتفق العلماء على صحة حديث اسامة واختلفوا في الجمع بينه وبين حديث أبي سعيد فقيل منسوخ، ولكن النسخ يثبت بالاحتمال. وقيل المعنى في قوله «لا ربا» الربا الاغلظ المتوعد عليه بالعقاب الشديد كما تقول العرب: لا عالم في البلد إلا زيد — مع ان فيها علماء غيره وانما القصد نفي الاكمل لا نفي الأصل. وأيضاً فنفي تحريم ربا الفضل من حديث اسامة انما هو بالمفهوم فيقدم عليه حديث أبي سعيد لان دلالته بالمنطوق ويحمل حديث اسامة على الربا الاكبر كما تقدم والله أعلم اه

وهذا الاخير هو الصحيح المعتمد كما وضحه الطحاوي والقول بأن دلالة حديث اسامة على نفي ربا الفضل دلالة مفهوم غير صحيح فان قوله «لا ربا» نفي لجنس الربا فيدخل في عمومه ربا الفضل بالنص، وقوله «إلا في النسيئة» استثناء من العموم فبقي غيره منفياً، وهل يقول الحافظ ان نفي كلمة التوحيد لألوهية غير الله تعالى بالمفهوم؟

تحقيق معنى السنة

وبيان الحاجة اليها

﴿ ترجمة مقال للعلامة السيد سليمان الندوي الهندي ﴾

﴿ كلمة للمترجم ﴾ من المصائب التي ابتلي بها المسلمون في هذا العصر انتشار فرقة دعواها أن قانون الاسلام هو (القرآن وحده) وان السنة انما كانت أحكاما مؤقتة لأهل عصر النبي عليه السلام، والآن أصبحت عديمة الجدوى ، فهي تنكر الاحتجاج والعمل بالحديث مهما بلغت درجته من الصحة والشهرة والقبول عند علماء المسلمين ، وهذه الطائفة توجد في سائر الممالك الاسلامية ولكنها في الهند أخذت شكلا منظما وسمت نفسها (أهل القرآن) وألفت كتبا ورسائل كثيرة ، ولا زالت تنشر المقالات في المجلات الهندية ، وقد رد عليها علماء الهند أحسن رد جزاهم الله خيراً ومنهم حضرة الاستاذ السيد سليمان الندوي فانه كتب مقالة نفيسة في مجلته الشهيرة (معارف) الهندية في الرد على هؤلاء بكلام معقول ، فأحببت ترجمتها بتصرف يسير لعل الله ينفع بها من لا يمكنه الاطلاع على أصلها ، والله الموفق ؟

المترجم

عبد الوهاب بن عبد الجبار الدهلوي

بمكة المكرمة

قال الاستاذ حفظه الله :

تمهيد

يسرنا ويسوءنا معا حال بعض شباننا المتعلمين ، يسرنا أنهم وجهوا قسطا من عنايتهم إلى البحث عن المسائل الدينية ولم يعتبروا ذلك تضييعاً لأوقاتهم ، ولم يعدوا الدين شيئا عبثا لا يستحق العناية والاهتمام ، فمن هذه الجهة يستحقون المدح والشكر . ويسوءنا أنهم ينشرون آراءهم ونتيجة أبحاثهم ويدعون المسلمين اليها قبل التحقيق التام ، وعرضها على العلماء الاعلام ، وهذا يؤدي الى إضلال كثير من العوام واشاعة الحق وان كانت واجبة يجب على من يقوم بها ان يتثبت ويتحقق اولا كون ذلك الشيء حقا ثم يسعى في نشره والا كان اثمه أكبر من نفعه

هؤلاء الشبان يدعون أنهم قادرون على استنباط كل شيء من القرآن الشريف بدون رجوع الى بيان صاحب الرسالة الذي أنزل عليه القرآن فتراهم يكثرون من ذكر المسائل العجيبة التي استنبطوها بزعمهم من القرآن ، ويردون كل ما ثبت بالسنة ولم يجدوه في القرآن . ومن الغريب أن كثيراً من الاحكام التي يردونها نجد أصلها موجوداً في القرآن عند امعان النظر ، وأغرب من ذلك تناقضهم واختلافهم في ما يستنبطون من القرآن فكل واحد منهم مستقل بنفسه مخالف للآخر

كيف نفهم القرآن

قد كتبت مراراً ان البحث في هذه المسائل الجزئية — التي يستنبطونها والتي يردونها — لا تجدي نفعاً بل يجب ان نبحث في المسائل العامة ، والقواعد الكلية التي تشمل هذه الجزئيات كلها ، فاول ما يجب تمحيصه من هذه المسائل هو : كيف نفهم القرآن ؟ أو بعبارة أعم من هذه : كيف نفهم مراد القائل من كلامه ؟ لا يخفى ان علم أصول الفقه جل مباحثه تدور حول هذه المسئلة أعني طريقة فهم معنى الكلام والاستنباط منه مثلا اذا وردت في القرآن الكريم كلمة لها معاني متعددة عند العرب ، أو كلمة لها معنى حقيقي ومعنى مجازي ، فكيف نعين المعنى المراد بتلك الكلمة ؟ أو ورد لفظ عام فكيف نعلم ان المقصود منه جميع

أفراده أو بعضها ؟ أوورد حكم مطلق فكيف نعرف هل هو باق على إطلاقه أم استثني منه شيء ؟[1] الى غير ذلك من المسائل

وهناك أمر آخر وهو ان المعاني المفهومة من الكلام على انواع فمنها ما يفهم من ألفاظه صراحة ، ومنها ما يفهم منه بطريق الاشارة والكناية، ومنها ما يفهم من سياق الكلام ، فلا يقال لشيء منها ان هذا الكلام لا يشمله فكذلك الامر في القرآن أعني اذا كان الشيء غير مذكور فيه صراحة ولكنه يفهم من سياقه أو اشاراته فلا يقال إنه ليس في القرآن مطلقاً

النبي كان مأموراً بتبيين القرآن

قال الله تعالى مخاطبا لنبيه عليه السلام (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون) فلاجل هذا كان الصحابة يرجعون اليه في فهم كل ما اشكل عليهم فهمه أو استنباطه من القرآن ، ويستفتونه فيما يقع لهم من الحوادث، فيبين لهم النبي عليه السلام ما أشكل عليهم ويعلمهم ما خفي عليهم، مثلا نزلت آيات الصيام ولم يذكر فيها حكم الأكل والشرب بالنسيان في الصوم فجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال يارسول الله أكلت ناسياً في الصوم فافتاه النبي ﷺ بان صومه صحيح ، لان الخطأ والنسيان معفو عنهما مستنبطا من قوله تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) فهل يقال ان هذا الحديث مخالف للقرآن لانه ليس فيه ان الصوم لا يفسده الاكل بالنسيان أو يقال إنه لم يكن للنبي عليه السلام ان يستنبط هذا الحكم من الآية الاخرى التي لا تتعلق بالصوم ؟

وهنا نريد ان نسأل هؤلاء المنكرين على الحديث. اذا كان يجوز لكم ان تستنبطوا من القرآن كل ما تريدون ؟ وتفسرونه كما تفهمون، مع بعدكم عن العصر والمحيط اللذين نزل فيهما القرآن ،ومع كونكم أعجاما من غير أهل

---

١) المنار : الذي يقابل الاطلاق هو التقييد ، والاستثناء مما يخصص العام ، ولا ندري هل عبر الاستاذ باللفظ الاصطلاحي فيهما وتصرف فيه المترجم أم هو الذي تعمد ترك الاصطلاح لافهام الجمهور ،

اللسان ، أفما كان يحق هذا لمن نزل عليه القرآن وأمر بتبيينه و كان أفصح أهل اللسان؟ بلى هو أحق الناس بالبيان والاستنباط من القرآن.

تفاوت الأفهام

ثم لايخفى على أحد أن كل الناس ليسوا سواء في الاستعداد والفهم ، وصفاء الذهن ، ولهذا السبب يقرأ القرآن الحكيم كل أحد ولكنهم يختلفون في فهم معانيه ، فالعالم يفهم منه مالا يفهمه الجاهل ، والعلماء أيضا متفاوتون في الفهم والعلم — (وفوق كل ذي علم عليم) وقد أمرنا الله تعالى بالرجوع إلى العلماء في قوله (فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) وبين اختلاف الناس في درجات الفهم بقوله (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)

كيف وجدت الأحاديث

إذا سلمنا هذين الامرين أعني أن النبي عليه السلام كان مأموراً بتبيين القرآن وأحق الناس به وبالاستنباط منه ، وأن الناس متفاوتون في الاستعداد والفهم فلنتصور أنه إذا نزل حكم في القرآن في واقعة ما ثم بعد ذلك حدثت حادثة أخرى مثلها أو تشابهها أو تختلف عنها قليلا في الظاهر واشتبه على بعض الصحابة أن ذلك الحكم هل ينطبق على هذه الحادثة الجديدة أم لا ؟ فما الطريقة المعقولة لحل هذا الاشكال ؟ أليست الطريقة المعقولة أن يرجعوا إلى صاحب الوحي ويسألوه عن ذلك ؟ فاذا سألوا النبي عليه السلام فماذا كان يجب عليه أن يعمله ؟ أيسكت عن جوابهم ويتركهم حيارى ؟ أم يكتفي بتلاوة الآية التي مافهموها تماما ولم يظهر لهم وجه انطباقها على الواقعة الجديدة ؟ أم يوضح لهم ماأشكل عليهم بحيث يطمئن اليه الخاطر ؟ لاشك أن الصورة الأخيرة هى المتعينة ؟ فاذا أجاب على سؤالهم وبين لهم ماشتبه عليهم فهل كان يحرم عليهم أن يخبروا غيرهم بتلك القصة ، أو اذا وقعت تلك المسئلة لغيرهم فهل كان محظوراً عليهم أن يعلموه كما علمهم الرسول عليه السلام ؟ لا أظن أن عاقلا يقول بهذا ، بل كل عاقل يقول انه كان الواجب

عليهم تعليم الجاهل وهداية الحيران وكذلك فعلوا فهذا هو (الحديث) في اصطلاح المسلمين —

الرواية أمر ضروري

لا مندوحة لعلم من العلوم ولا لشأن من شؤون الدنيا عن النقل والرواية — لأنه لا يمكن لكل انسان أن يكون حاضراً في كل الحوادث فاذاً لا يتصور علم الوقائع للغائبين عنها إلا بطريق الرواية شفاهاً أو تحريراً، وكذلك المولودون بعد تلك الحوادث لا يمكنهم العلم بها إلا بالرواية عمن قبلهم. هذه تواريخ الأمم الغابرة والحاضرة والمذاهب والاديان ونظريات الحكماء والفلاسفة وتجارب العلماء واختراعاتهم هل وصلت إلينا إلا بطريق النقل والرواية؟

فهل كان الدين الاسلامي بدعاً من الحوادث حتى لا تنقل أحكامه وأخباره بهذا الطريق؟ أم كان الواجب اتخاذ طريق آخر لنقل أقوال الرسول عليه السلام وأخباره غير الرواية؟

لنفرض ان هؤلاء المنكرين على رواية الحديث أصبحوا زعماء لمن كان على شاكلتهم فهل هناك طريقة — غير الرواية — لتبليغ استنباطاتهم وتحقيقاتهم لافراد جماعتهم البعيدين عن حلقات دروسهم أو الذين سيولدون بعدهم، خصوصا إذا كانوا في بلاد لا توجد فيها المطابع ووسائط الاستخبار الحديثة مثل البريد والبرق وتكون صناعة الورق معدومة والامية منتشرة (كما كان الحال في جزيرة العرب عند ظهور الاسلام)؟

القرآن أيضا منقول بالرواية

ثم نسأل هؤلاء أليس القرآن الكريم أيضا منقولا بالرواية؟ نعم ان هناك فرقا بينه وبين الحديث، وهو ان القرآن منقول بالتواتر والحديث منقول برواية رجال معدودين، ولكنهم ليسوا مجاهيل بل رجال مشهورون، أحوالهم معلومة، واسانيدهم محفوظة، وهذا الفرق يقتضي التفاوت في درجات اليقين والوثوق، لا في نفس القبول والاعتبار — وهذا الفرق مسلم عند كل مسلم لا يقول أحد منهم بانهما متساويان من كل جهة.

اصول الحديث :

ولما كانت الاحاديث أخبارا وجب ان نستعمل في نقدها وتمييز الصحيح من غيره أصول النقد التي نستعملها في سائر الروايات والاخبار التي تبلغنا ، اعني اذا سمعنا خبراً فماذا نعمل ؟ ننظر اولا في حال الراوي الذي سمعنا منه هـذا الخبر هل هو ممن يعوّل على روايته ام لا ؟ ثم ننظر في حال من روى عنه هـذا الرجل وهكذا الى ان تنتهي الوسائط ، ثم نتحقق ان الراوي الاعلى كان حاضر الواقعة ام لا ؟ وهل كان بامكانه فهمها وحفظها ؟ ثم ننظر في الأمر المروي هل يلائم أحوال الرجل الذي نسب اليه وهل يمكن وقوعه في ذلك العصر والمحيط املا ؟

فهذه القواعد واشباهها استعملها المحدثون في نقد الاحاديث وسموها . (أصول الحديث) وبذلك ميزوا الاحاديث الصحيحة من غيرها ، ولا زال الباب مفتوحا لمن أراد ان يأتي البيوت من أبوابها .

الحديث تاريخ الاسلام .

لا يخفي ان القرآن الحكيم انما نزل لهداية البشر الى مصالحهم الدينيـة والدنيوية ولهذا بين لهم طريق العمل وسبل النجاح ، وأعلن ان الامة التي تعمل بهذا القانون تكون لها الخلافة في الارض وتنال من السعادة والسيادة مالامزيد عليه ، وتكون خير أمة اخرجت للناس ، وكل من لم يعمل بهذا القانون يكون ذليلا مهانا في الارض وشقيا في الدنيا والآخرة .

فاذا سألنا أحد هل وجدت أمة في زمن من الازمان عملت بهذا القانون ؟ وهل نالت به ما وعدت ؟ ومتى كانت تلك الامة وكيف كانت طريقة عملها بهذا القانون واين التاريخ الصحيح لاعمالها ؟ نقول له نعم وجدت امة عظيمة عملت بهذا الكتاب الحكيم واتخذته قانونا اساسيا لها مدة كبيرة فصدقها الله وعده ، وأنعم عليها بالخلافة والسيادة في الارض ، وأمتد سلطانها الى مشارق الارض ومغاربها ، وكانت امة لا نظير لها في تاريخ العالم ، وتاريخ أعمالهم المجيدة وطريقة تنفيذهم لاحكام القرآن وكيفية عملهم بها كل ذلك ثابت ومحفوظ بصورة عديمة المثال ، فانه لا يوجد تاريخ لامة من الامم يبين عملها وتمسكها في

كل شؤنها بقانونها مثل تاريخ هذه الامة ، وهذه الامة هي الرسول عليه السلام وأصحابه والتابعون لهم باحسان، وهذا التاريخ هو الحديث ! — فبالحديث يعلم كيف عمل الرسول وأصحابه بالقرآن، وبه يعرف ان القرآن قانون قد عمل به ونجحت أصوله الادارية والسياسية والمدنية والاخلاقية الخ وليس هو مجموعة نظريات محتاجة للاثبات بالتجربة والتطبيق . واما إذا عملنا برأي المنكرين للحديث فيضيع تاريخ الاسلام الذهبي ولا يقدر أحد ان يثبت ان القرآن قد عملت به أمة من الامم ونجحت في تأسيس حكومة مدنية مطابقة لتعليماته ، فهل يرضى المسلمون بهذا ؟ لا والله لا المسلمون يرضون بهذا ولا العلم ولا التاريخ يرضيان به (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) ؟

اقسام الحديث

ولننظر ماذا يوجد في الحديث وأي مقدار منه يصلح ان يكون مجالا للبحث والمناقشة :

(١) لا يخفي ان القسم الاعظم من الحديث هو تاريخي اعني أنه يشتمل على أخبار الرسول عليه السلام وأصحابه الكرام ووقائعهم وبيان جليل أعمالهم ، وهذا القسم غير قابل للبحث والمناقشة عند كل ذي عقل سليم لانه عبارة عن جزء من تاريخ العالم مثل سائر تواريخ الامم الا أنه يمتاز عنها بصحة المأخذ ، وضبط الرواية وتسلسل الاسانيد ، ومطابقتها لاصول النقد ، بحيث ان هذا الوصف لا يشاركه فيه تاريخ امة من الامم ، لا الرومان ولا الفرس ولا اليونان ولا الهند ولا مصر الخ

(٢) والقسم الثاني أخلاقي تهذيبي يحتوي على الحكم والآداب والنصائح مثل مدح الصدق والعدل والاحسان والاتحاد والتعاون وسائر الفضائل والحث عليها ، وذم الكذب والظلم والفسق والفساد وسائر الرذائل والصد عنها . فهذه الامور تؤيدها الفطرة الانسانية ، وأصولها موجودة في القرآن فهل فيها شيء يستحق الرد ؟

(٣) العقائد — أصول العقائد مذكورة في القرآن مثل التوحيد والصفات

الالهية والرسالة والبعث وجزاء الاعمال ، ولا يوجد في الحديث الصحيح الاما يؤيد هذه الاصول ويوضحها ويقررها أو يكون من جزئياتها ونظائرها، ولا يوجد فيها ما يكون مخالفا لعقائد القرآن أو زائداً عليها بحيث لايكون له أصل في القرآن ، وكل ما يستشكل من الاحاديث الصحيحة في العقائد تجد مثلها في القرآن ويجري فيها ما يجري في القرآن من التفويض أو التأويل حسب اختلاف مدارك الافهام والطبائع الانسانية ، فمنها ما يقبل التسليم والتفويض ، ومنها ما لايقنعه الا التأويل الموافق لعقله والذي يطمئن به قلبه. واما الاحاديث التي فيها مخالفة للقرآن أو العقل السليم فلا تجدها الا من الموضوعات[1] والواهيات ومثلها لايجوز ذكرها فضلا عن التمسك بها ، وهذا باجماع المسلمين ، وفوق هذا العقد أجمع المسلمون أيضا على ان العقائد لا تثبت الا بالقرآن لان مبنى العقائد على اليقين واليقين لايحصل الا بالوحي المتواتر وهو القرآن أو الحديث المتواتر ، ولكن الحديث المتواتر حسب تعريف الاصوليين وشروطهم غير موجود فرجع الامر في العقائد الى القرآن وحده ، وهذا الاجماع انما حصل لعلمهم ان الاحاديث الصحيحة ليس فيها ما يعارض العقائد القرآنية أو يكون زائداً مستقلا عليها .

(٤) الأحكام — هذا القسم أكثره ثابت بالأحاديث المستفيضة المشهورة وهي مارويت بطرق كثيرة صحيحة ولكنها لم تبلغ حد التواتر ، وبعضه بالآحاد ولكنها صحاح ، وأما الاحاديث الضعيفة فقد أجمع المحدثون والفقهاء أنها لاتقبل في الأحكام[2] والمحققون لايقبلونها في غير الاحكام أيضاً —

فأما الاحتجاج بالخبر المستفيض المشهور فلا يتصور وجود عاقل ينكر ثبوت الحكم بمثل هذا الخبر ولزوم العمل لمن يبلغه، وإلا بطل نظام العالم، فهذه قوانين الحكومات

---

(١) المنار : هذا غير مسلم إلا إذا أريد بالصحيح صحيح المتن والاسناد معا وبالموضوع مايجزم بوضعه لمخالفة معناه للقطعي في الدين أو في الوجود والحس أو في العقل ، ومنه بعض ما استشكله شراح الصحيحين وغيرهما وأجابوا عنه حتى بما لايرضاه المستقل الفهم في بعضه (٢) هذا الاجماع غير مسلم على اطلاقه أيضاً

إذا نشرت في عدة جرائد معتبرة يلزم العمل بها الكل أحد من رعايا تلك الحكومة ولا يسعه الاعتذار بأنها لم تبلغه بالتواتر —

وأما الآحاد الصحاح فكذلك العمل بها جار في سائر أنحاء العالم مثلا إذا أتانا رجل معتبر وبلغنا أن فلانا يطالبك فحالا نلبي طلبه ولا نسأله أن يأتينا بالشهود على صحة قوله إلا إذا وجدت هناك قرينة مانعة عن قبول خبره فحينئذ نتثبت قبل الذهاب،

وهكذا الامر في الاحاديث الآحادية الصحيحة: تقبل في الاحكام ويعمل بها مالم يوجد أمر مانع من قبولها مثل كونها مخالفة للقرآن أو الحديث المشهور أو كونها متروكة العمل في زمن الخلفاء الراشدين والصحابة ففي هذه الحالة يحق لكل عالم ان يتوقف عن العمل بها، وأن يبحث عنها الى ان يزول الاشكال ويطمئن اليه الخاطر — وأما ترك العمل بالآحاد الصحاح مطلقاً من غير وجود علة مانعة من قبولها فغير معقول ومخالف لما هو جار في سائر المعاملات الدنيوية

السنة مأخوذة من القرآن .

على اننا نعتقد مثل كثير من العلماء المحققين ان الاحكام التي توجد في الاحاديث الصحيحة هي مأخوذة ومستنبطة من القرآن الكريم، استنبطها النبي عليه السلام من القرآن بتأييد الهي، وشرح رباني، ولذلك يجب علينا قبولها والعمل بها بشرط ثبوتها الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الفهم والاستنباط يسمى في اصطلاح القرآن تارة (تبيينا) وتارة (إراءة) قال الله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وقال جل شأنه (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)

تقصير العلماء في خدمة القرآن .

الحق يقال ان علماءنا قصروا في خدمة القرآن من هذه الناحية أعني أنهم لم يؤلفوا كتبا كافية في علوم القرآن — اعني عقائد القران وفقه القرآن واخلاق القرآن وسياسة القرآن إلى غير ذلك — بل نبذوه وراءهم ظهريا وصدقت علينا الآية (وقال

الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القران مهجوراً) والحال أن الصحابة رضي الله كانوا يقدمون القرآن على كل شيء في استنباطاتهم واستدلالاتهم ولكن عصرهم لم يكن عصر تدوين وتأليف ولهذا لم يؤلفوا فيه الكتب وإنما كان هذا من فرائض الذين جاءوا بعدهم ، ولكنهم غفلوا عن أداء الفرض واشتغلوا بآراء الرجال والحكايات الاسرائيلية والمسائل الخلافية والجدل ، والسبب في ذلك أن القرآن الكريم ليس مرتبا على الابواب فيصعب على كثير من الناس البحث عن مطلوبهم فيه ، حتى المسائل المنصوصة فيه ، فضلا عن الاستنباط منه ، والعلماء الذين الفوا الكتب في أحكام القرآن أيضا تبعوا ترتيب التفاسير ولم يرتبوها على الابواب فبقيت الصعوبة كما كانت ، ولما كانت كتب الحديث والفقه والفتاوى مبوبة مرتبة انصرف الناس بسهولة الى الاخذ منها وتركوا النظر والتدبر في القرآن ، والرجوع اليه قبل كل شيء حين الاستنباط والاستدلال ، والخلاصة ان الحاجة داعية الى ان يوجه علماؤنا عنايتهم الى تأليف كتب مبسوطة سهلة مبوبة في علوم القرآن (١) ويبينوا وجه التوفيق والارتباط بين الآيات والاحاديث الثابتات ، ويقربوها لافهام أهل هذا العصر ، وبذلك يخدمون الدين خدمة كبيرة ويكون ذلك أكبر باعث لاتحاد كلمة المسلمين ، وصيانة الشبان عن الالحاد والمروق من الدين وما نظنهم الا فاعلين ذلك ان شاء الله —

معنى السنة والفرق بينها وبين الحديث :

كنا عقدنا مقالنا هذا لبيان السنة والدعوة اليها ولكن اقتضت الحال ان نبحث اولاً عن الحديث الذي هو أعم من السنة واذ انتهى ذلك فلنبحث في معنى السنة ولنذكر الفرق بين السنة والحديث فان كثيراً من الناس لا يفرقون بينهما ويجعلونهما في منزلة واحدة وينشأ من ذلك ضرر كبير —

الحديث كل واقعة نسبت الى النبي عليه السلام ولو كان فعلها مرة واحدة في حياته الشريفة ولو رواها عنه شخص واحد واما السنة فهي في الحقيقة اسم

---

(١) المنار : هذا ما ننويه ووعدنا به منذ عشرات السنين على وجه أوسع مما اقترحه صديقنا الكاتب ونسأل الله التوفيق.

للعمل المتواتر اعني كيفية عمل الرسول عليه السلام المنقولة الينا بالعمل المتواتر، بان عمله النبي عليه السلام ثم من بعده الصحابة، ومن بعدهم التابعون وهلم جرا، ولا يشترط تواترها بالرواية اللفظية، فيمكن ان يكون الشيء متواتراً عملا ولا يكون متواتراً لفظا، كذلك يجوز ان تختلف الروايات اللفظية في بيان صورة واقعة ما فلا يسمى متواتراً من جهة السند ولكن تتفق الروايات العملية على كيفية العمل العمومية فيكون متواتراً عملياً، فطريقة العمل المتواترة هي المسماة بالسنة وهي المقرونة بالكتاب في قوله عليه السلام (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله) وهي التي لايجوز لاحد من المسلمين كائنا من كان تركها أو مخالفتها والا فلاحظ له في الاسلام —

مثلا: اذا علمنا ان النبي عليه السلام من حين فرضت الصلوات الخمس واظب عليها مدة حياته الشريفة في هذه الاوقات المعلومة وبهذه الهيئة المعروفة، وكذلك الصحابة بعده، والتابعون بعدهم، ثم المسلمون الى يومنا هذا سواء منهم الذين وجدوا قبل تدوين كتب الحديث والذين وجدوا بعدهم، واتفق المسلمون قرناً بعد قرن مع اختلاف اعصارهم وبلدانهم وأفكارهم ونحلهم على ان النبي عليه السلام والصحابة كانوا يصلون خمس مرات في اليوم والليلة في هذه الاوقات المعلومة بهذه الصورة المخصوصة وبهذه الاركان، فهذا هو التواتر العملي وإنكاره مكابرة بل جنون لايتجرأ عاقل ان يقول ان تعيين هذه الاوقات للصلاة او هذه الاركان هو من وضع المحدثين أو الفقهاء وقلدهم فيها المسلمون، لاننا لو فرضنا ان كتب الحديث والفقه ما وجد منها شيء ففي تلك الحالة أيضاً كانت الصلاة تكون معروفة بهذا الشكل منقولة الينا بالتواتر العملي، و كذلك الامر في الزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض والمحرمات —

وتدوين كتب الحديث انما كان بمنزلة تسجيل لتاريخ هذا العمل المتواتر بصورة صحيحة محفوظة، فهل هذا التسجيل لكونه وقع في القرن الثاني أو الثالث يسقط ذلك التواتر العملي عن درجة الاعتبار أو ينقص من قيمته؟ كلا بل زادت قيمته ودرجته بهذا التسجيل التاريخي الخالد الذكر العديم المثال —

حقيقة السنة .

قد ظهر مما تتقدم ان بين الحديث والسنة فرقا كبيراً فالحديث هو الرواية اللفظية لاقوال الرسول عليه السلام وأعماله وأحواله، وأما السنة فهي الطريقة المتواترة للعمل بالحديث بل بالقرآن أيضا مثلا ورد في القرآن الامر باقامة الصلاة وبين فيه بعض تفاصيلها أيضا فالرسول عليه السلام صلى بموجب ذلك وقال لنا « صلوا كما رأيتموني أصلي » واستمر على تلك الكيفية وكذلك الصحابة فالتابعون وسائر المسلمين، وهكذا الامر في الصيام والزكاة والحج وسائر الاوامر القرآنية، فالصورة العملية التي رسمها الرسول عليه السلام لالفاظ القرآن هي السنة، وهي في الحقيقة تفسير عملي للقرآن، وهي من هذه الحيثية أعلى من الروايات اللفظية بمراتب كثيرة

الالفاظ المرادفة للسنة .

وردت في القرآن الكريم وكلام الرسول وأقوال الصحابة كلمات أخرى مؤدية لمفهوم السنة مثل السبيل، والصراط المستقيم، والاسوة الحسنة . وكلها تفيد معنى الطريقة المسلوكة ومعنى الاتباع، يعني ان الطريق الذي سلكه النبي عليه السلام وأصحابه والمؤمنون هو السنة، هو السبيل، هو الصراط المستقيم، وهذا المفهوم هو الذي وضع له امام أهل السنة مالك رحمه الله كلمة (الموطأ) وسمى به مجموعة رواياته (١) ومعنى الموطأ في اللغة الطريق الممهد الذي وطئه الناس كثيراً، فكأنه يعني به الطريق الذي مهده ووطأه النبي عليه السلام وأصحابه الكرام، وهو طريق الاسلام والتفسير الصحيح للقرآن —

(١) المنار : هذا غير مسلم ففي الموطأ كثير من الاحاديث القولية الآحادية من مرفوع وموقوف ومرسل ومنها مالم يبلغ أن يكون سنة متواترة بعمل جميع الصحابة والتابعين به على ماقاله الكاتب في معنى السنة . ولأجل مافيه من المسائل المختلف فيها أبى الامام مالك ماعرضه عليه هارون الرشيد من تعليق الموطأ في الكعبة وحمل الناس على مافيه وعلل إباءه بقوله له : لاتفعل فان أصحاب رسول الله (ص) اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيب اه وإنما سماه الموطأ لان علماء المدينة واطؤه ووافقوا عليه

الكتاب والسنة .

كثيراً ما ترد في الحديث كلمتا (الكتاب والسنة) مقرونتين كما ورد في الوصايا النبوية الشريفة قبيل وفاته (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله) فالمراد بهذه السنة المقرونة بالكتاب هو عمل الرسول المتواتر ، وطريقه المسلوك الممهد الذي هو التفسير العملي الصحيح للقرآن ، وليس المراد بها كل رواية رويت بالسند اللفظي فلان عن فلان —

السنة والبدعة .

لعلك فهمت الآن حقيقة السنة التي ورد الامر باتباعها والوعيد الشديد لتاركها المخالف لها كقوله عليه السلام (عليكم بسنتي) وقوله (من رغب عن سنتي فليس مني) فهذا الشيء اعني السنة يقابلها (البدعة) ومعناها اللغوي (الامر المستحدث) والشرعي مابينه النبي عليه السلام بقوله (من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد) وهاتان الكلمتان تستعملان دائما ككلمتين متضادتين ، لان السنة هي الطريق الذي كان عليه الرسول وأصحابه ، والبدعة هي ترك ذلك الطريق والانحراف عنه وسلوك طريق آخر مخترع [1] فلهذا كانت الاولى هداية والثانية ضلالة —

أثر السنة في جمع كلمة المسلمين

المسلمون متفقون في أشياء كثيرة ومختلفون في أشياء أخرى ، وهذا الاختلاف يرجع ابتداؤه إلى القرن الاول ، ولكن إذا دققنا النظر وجدنا أن المسائل التي اختلفوا فيها هي من قبيل النظريات التي لا يمكن فيها التمسك بالشهادة العملية ، مثلا اكبر المسائل النزاعية بين أهل السنة والشيعة هي مسئلة الخلافة هل هي بالنص أو بشورى المسلمين ؟ وأهم المسائل الخلافية بين المعتزلة والاشاعرة والماتريدية هي

(١) المنار : لا يشترط في تحقيق البدعة ترك شيء من السنة فكل ما أحدثه الناس من قول وعمل في الدين وشعائره مما لم يؤثر عنه (ص) وعن أصحابه فهو بدعة وضلالة . فبين ترك السنة والابتداع عموم وخصوص يجتمعان في بعض الامور ويوجد كل منهما وحده

رؤية الله تعالى يوم القيامة هل تكون بهذه الابصار أم لا ؟ فهذه وأمثالها كلها أمور نظرية أعني أنها ليست من الامور العملية المحسوسة ولا يتأتى فيها شهادة العمل(١) وأما المسائل العملية كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد فلم يختلف المسلمون فيها اختلافا كبيرا والسبب في ذلك أن سنة الرسول عليه السلام كانت دائما نصب أعينهم ، ومثلا أعلى لهم ، وهذا من الخصائص الكبرى للاسلام

وأما الاختلاف في مثل الفاتحة خلف الامام ووضع اليدين في الصلاة ورفع اليدين فاذا طرحنا الغلو والتعصب من الفريقين رجع الامر إلى المناقشة في الافضلية ، وكذلك الامر في المسائل الاجتهادية والامور المتجددة في المعاملات والقضاء والسياسة الاسلامية فالاختلاف فيها انما هو في اختيار الجانب الراجح حسب اختلاف الازمنة والامكنة وعقلية الشعوب الاسلامية

معيار السنة والبدعة

من القواعد المسلمة في جميع الاديان والمذاهب ، أن أحسن العصور لكل دين ومذهب انما هو عصر صاحب المذهب نفسه ثم عصر خلفائه وأصحابه الذين أخذوا منه الدين ولازموه في السراء والضراء ثم يطرأ عليه الضعف شيئاً فشيئاً ويتسرب اليه الخلل وتختلط فيه الاشياء الدخيلة المنافية لروحه وتعاليمه — فاذا طبقنا هذه القاعدة الكلية (التي هي موافقة للعقل وللناموس الطبيعي أيضا) على الاسلام وجب أن يكون عصره الذهبي الخالي عن التحريف والشوائب ، هو عصر الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ، فكل أمر وجدناه معمولا به في ذلك العصر علمنا أنه من الدين ويقال له سنة ، وكل ماحدث بعده عرفنا أنه دخيل في الدين ويسمى بدعة . فهذا هو المعيار للسنة والبدعة ، أو بعبارة أخرى لما هو من الدين ولما ليس منه — فكل من يدعي أن الامر الفلاني من الدين والامر الفلاني

(١) فيه أن الخلافة من الامور العملية ولكنها من عمل جماعة المسلمين لا من سنة الرسول (ص) فلا يكفر مخالفها ، واجماعهم العملي دليل على عدم وجود نص قطعي فيها، وسيدنا علي وآله عليهم السلام لم يحتجوا على ما يعتقدون من أولويته بالنص بل وافقوا الجمهور وبذلك كان اجماعاً عملياً

ليس منه فعليه أن يزن دعواه بهذا الميزان ويثبت أن الشيء الذي يزعم أنه من الدين كان موجودا في زمن الرسول وأصحابه، وأن الشيء الذي يعده دخيلا فيه لم يكن في ذلك العصر

مثلا : ادعت طائفة في زماننا أن الصلوات المفروضة على المسلمين في اليوم والليلة إنما هي مرتان أو ثلاث ، وان طريقة الصلاة كذا وكذا لا كما يصليها المسلمون ، فلواجب على هؤلاء أن يثبتوا أن النبي عليه السلام وأصحابه ما كانوا يصلون في اليوم والليلة إلا مرتين أو ثلاثا ، وأنهم ما كانوا يصلون إلا بالطريقة التي يدعيها هؤلاء ، وأنه بعد تدوين كتب الحديث صار المسلمون يصلون خمس مرات، وزادوا فيه كذا وكذا من الاركان تبعا للمحدثين والفقهاء ، فان لم يستطيعوا اثبات ذلك — ولن يستطيعوه إلى يوم القيامة — يكون مآل دعواهم أن النبي عليه السلام أخطأ في فهم الوحي الذي أنزل عليه (حاشاه من ذلك) وأن هؤلاء الاعاجم الجهلة وفقوا لاصلاح ذلك الخطأ وبيان الصواب فهل يمكن لمسلم بل لعاقل أن يتفوه بهذا الكلام الجنوني ؟ أعاذنا الله من ذلك

اشتقاق كلمة السنة

زعم بعض الجهلة من أعداء السنة أن كلمة السنة مأخوذة من كلمة ” مسناة “ العبرانية وعلل دعواه بأنه كما أن اليهود تركوا التوراة وعملوا بمجموعة الروايات الاسرائيلية وسموها ” مسناة “ فكذلك المسلمون لما تركوا القرآن وعملوا بالاحاديث اشتقوا لها اسما من ” مسناة “ اليهودية وسموها (سنة) ، وهذا زعم باطل ، وادعاء فاسد ، ويكفي في الرد عليه ان كلمة السنة ، وردت في القرآن الكريم في مواضع متعددة بهذا المعنى أعني معنى العادة والطريقة المستمرة مثل قوله تعالى في سورة الاسراء (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) وقوله في سورة الانفال (فقد مضت سنة الاولين) وفي سورة فاطر (فان تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) فالمسلمون اقتبسوا كلمة السنة من القرآن وخصصوها في الاستعمال بسنة الرسول وأصحابه

هذا ما أردنا بيانه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تعليق المنار

نشكر لصديقنا العلامة السيد سليمان الندوي هذا المقال النفيس في الرد على أعداء السنة المبتدعين ، وهذه البدعة قديمة العهد ، ولكن لم نعلم أنها صارت مذهبا يدعى اليه في الهند الا من مقاله هذا . وقد كنا فتحنا باب المناقشة في هذه البدعة في المجلدين التاسع والعاشر من المنار أي منذ سنة ١٣٢٤ (الموافق سنة ١٩٠٦م) فكانت موضوع مناظرة وكان حكم المنار فيها في الجزء ١٢ من ذلك المجلد ان الاسلام هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومما قلناه في الحكم «وانما السنة سيرته ﷺ في الهدي والاهتداء بالقرآن وهو أعلم الناس به وأحسنهم هديا ، وإطلاقها على ما يشمل الاحاديث اصطلاح حادث — إلى ان قلنا — فما مضت السنة على أنه حتم في الدين فهو حتم ، وما مضت على أنه مستحسن مخير فيه فهو كذلك في الدين . وفصلنا ذلك . ثم أعدنا هذا البحث مراراً آخرها ما نشرناه في فتاوى الجزء السابع من المجلد التاسع والعشرين

ومن الغريب أننا نرى أمم العلم والحضارة تعنى بحفظ ما ينقل عن علمائها وادبائها في التشريع والحقوق والحكم والآداب ويفاخر بعضها بعضا بهم وبآثارهم ونرى هؤلاء المخذولين من مبتدعة المسلمين لا يكتفون بهضم حقوق علماء ملتهم ومؤسسي حضارتها ومجدها بالعلم والعمل والسياسة والآداب ، بل ينبذون سنة الرسول الذي يدعون اتباع ملته وما روى سلفهم عنه من التشريع والحكم والآداب ، ومنهم من يدعي اتباع سنته العملية التي تلقاها عنه أصحابه بالعمل دون ما ثبت عنه بالاحاديث القولية وان كانت صحيحة المتون والاسانيد لا يعارضها معارض من القرآن ولا قطعي آخر يثبته العلم والعقل ، ويدعون أنهم يتبعون نصوص القرآن كأن فهمهم وبيانهم له وحرصهم على العمل به فوق فهم من أوحي اليه وكلفه الله تعالى بيانه بالقول والعمل وعصمه من الخطأ في كل ما يبلغه عنه من نصوصه ومن المراد منها أي من كل ما هو دين وشرع .

وإذا كان السيد الندوي يعجب من صدور هذا الضلال عن بعض الاعاجم في الهند فنحن أحق بالعجب منه عند ما نرى بعض هؤلاء المعادين لهديه ﷺ من الناشئين في البلاد العربية الذين تلقوا شيئا من فنون لسان العرب كان يجب ان

يكونوا به اصح فهما للقرآن من اولئك الاعاجم الذين عناهم أخونا السيد الندوي، واغرب ما رأيناه من تأويل هؤلاء لآيات القرآن بما تتبرأ منه لغته وما مضت به السنة النبوية وإجماع الامة سلفها وخلفها من قول وعمل - هو زعم بعضهم ان القرآن يدل على بطلان التسري ، وتأويله بل تحريفه لمثل قوله تعالى (فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم) وقوله (ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) بأن المراد بما ملكت الايمان الخوادم الحرائر !! ونحمد الله تعالى أنه لم يوجد في هذه البلاد أتباع لهذا الرجل كما وجد أمثاله في الهند في هذه الاثناء ومن قبلها حين قام مرزا غلام أحمد القادياني يدعي أنه هو المسيح ، وحرف الآيات القرآنية والاحاديث النبوية بما تتبرأ منه اللغة العربية حقيقتها ومجازاتها وكناياتها

وقد علم الاستاذ الندوي وغيره أنه كان قام في هذه البلاد من زعم أن الاسلام الذي يجب على الناس الاهتداء به هو العبادات فقط ، أي كما يفهمه هؤلاء المبتدعة الذين لا يقيم أكثرهم لها ركنا ، وأما ما في القرآن والسنة من الشرائع والاحكام السياسية والاجتماعية والمدنية والعقوبات فلا يوجب الله بزعمه عليهم اتباعها !! بل يبيح لهم ان يتبعوا أي قانون بشري يخالفها !

والذي نعلمه بالاختبار ان بعض هؤلاء الدعاة إلى هدم الاسلام جاهل غبي قد فتن بحب الظهور ، وبعضهم ملحد يدعو المسلمين الى الالحاد لهوى في نفسه ، أو خدمة لبعض الدول الطامعة في بلاد الاسلام واستعباد المسلمين ، التي علمت بالاختبار أنهم لا يقبلون الاستعباد ماداموا مستمسكين بعروة الاسلام دين السيادة والعزة والملك ، الذي نسخ جميع الشرائع وجعله الله الدين الآخير الكامل للبشر كلهم الى أن تقوم الساعة. فيجب على جماعة المسلمين في كل قطر ان يقيموا الحجج المعقولة على ضلالة جميع هؤلاء المبتدعة ووجوب الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي سلف الاسلام الصالحين ، وعدم الاعتداد باسلام من لا يهتدي بالسنة ولا بمن يحرف القرآن بتفسير يخالف قواعد اللغة وضروريات الدين واجماع السلف الصالحين فان غايتهم ان لا يبقى من الاسلام شيء خذلهم الله اجمعين

مساواة المرأة للرجل في الحقوق والواجبات

الرد التفصيلي في موضوع المناظرة

— ٧ —

سلطان الدين الأعلى

ان الشعور بقوة فوق قوى الطبيعة ، وسلطان غيبي أعلى من نواميس الخليقة، وجدان غريزي في أنفس البشر ، لذلك كانوا ولا يزالون يخضعون خضوع التعبد لكل ما يظهر لهم أنه صادر عن ذلك السلطان الغيبي الاعلى لمخالفته السنن الطبيعية ومجيئه على غير نظام الاسباب والمسببات ، وانما يخطئون أحيانا في التمييز بين الحقيقي والوهمي من خوارق العادات ، فالاول كالآيات التي أيد الله تعالى بها انبياءه المرسلين، والثاني كالمصادفات والسحر وشعوذة الدجالين، وأشهر الامثلة لهما الآيات التي أيد الله بها نبيه موسى (ع . م) والتخيلات الصناعية التي جاء بها سحرة فرعون .

ولما كانت تلك الآيات الكونية لا يؤمن بها الا من شاهدها مدركا للفرق بينها وبين السحر والشعوذة ومن ثبت عنده الامران بالتواتر القطعي، ولما كان اجتماع الامرين عزيزاً نادراً بعد طول الزمان ، وكان ذلك محتملا للشك والتأويل والاحتمال ، جعل الله تعالى آية خاتم النبيين حسية عقلية ، دائمة باقية ، وجعل دلالتها على رسالته علمية برهانية ، ألا وهي ظهور أعلى العلوم الالهية ، والقواعد الادبية ، وأرقى الاصول التشريعية ، من سياسية ومدنية وشخصية ، وأنفع الوصايا الصحية ، وأصلح السنن الاجتماعية ، والارشاد إلى العلوم الصحيحة ،وأبلغ الحكم العقلية ، والمواعظ التاريخية ، في كتاب معجز للبشر باسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وبلاغته، واشتماله على أخبار الغيب الماضية والحاضرة والمستقبلة — وكون هذا كله جاء على لسان نبي أمي لم يقرأ قبل هذا الكتاب سطراً ، ولا نظم شعراً ، ولا ارتجل خطبة ، ولا نطق بحكمة . وقد جاءه هذا كله دفعة واحدة بعد بلوغ أشده،

واستكماله للاربعين من عمره، ثم كان من تأثيره في قلب نظام الكون كله، واستيلاء قومه الاميين بهديه وتأثيره على أعظم أمم الارض ودولها علما وحضارة وقوة وثروة، حتى صاروا يدخلون في دينه أفواجا الخ. فأي برهان على الوحي الالهي والتشريع السماوي أظهر وأبهر وأنور وأقهر للقلوب والعقول من هذا؟

من أعظم ما انفرد به هذا التشريع الالهي دون سائر الشرائع السماوية والارضية — إبطال ظلم جميع البشر وتحقيرهم للنساء وهضمهم لحقوقهن فيما سنبين نماذجه العليا في مقالاتنا هذه، ولو لم يكن منه إلا قوله تعالى (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم) وإلا قول نبيه صلوات الله وسلامه عليه في تربيتهن وتعليمهن «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» رواه الامام أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود من حديث أبي موسى الاشعري (رض) وإلا قوله ﷺ في تكريمهن «ما أكرم النساء إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر من حديث علي كرم الله وجهه — لولم يكن إلا هذا وذاك لكفى تفضيلا للاسلام على جميع الشرائع والقوانين، وإذا لم يكن هذا الاصلاح العظيم وحيا لذلك النبي الامي فمن أين جاء؟

ولكن هؤلاء الملاحدة يدعوننا إلى نبذ هذا الاصلاح الذي تخضع له أنفس المؤمنين سراً وجهراً متى علموه وتربوا عليه، وإلى تقليد البلاشفة وامثالهم من ملاحدة الافرنج وممن سرت اليهم عدواهم وهم يئنون منها، ويود حزب تجديد الالحاد والاباحة لو يزجوننا فيها.

مع هذا كله نرى السواد الاعظم من شعوب أوربة كلها يخضعون لغير المعقول من الدين مما ليس له نظير في الاسلام كالتثليث والوهية المسيح واستحالة الخبز والخمر الى لحمه ودمه حقيقة لامجازاً، بل يخضع الملايين منهم للخرافات الوهمية باسم الدين كالعين المقدسة التي يزعمون أنها تشفي المرضى في فرنسة

نعم ان هذه العقائد وأمثالها كانت سببا لكثرة الالحاد في أوربة ولرواج الافكار المادية التي أفسدت الاخلاق وقوضت أركان الفضائل حتى في المتدينين،

كما كان سلطان البابوات الشديد الوطأة على العقول والابدان والحكام، سبباً لما نجم في القرون الوسطى من قرون الالحاد ، ولحدوث ما يسمى مذهب الاصلاح . وقد بلغ طغيان الافكار المادية والاسراف في الشهوات البدنية حدهما الاقصى في أثناء حرب المدنية الاخيرة وبعدها ، ثم طفق الناس هناك يتلمسون هداية الدين للخروج من هذه الفوضى التي دمرت تلك القيصرية الروسية الواسعة بالحكم البلشفي أو كادت ، فالحكومة البلشفية هي الدولة الوحيدة التي تكره الشعوب المقهورة بقوتها على ترك أديانهم واباحة الفجور لنسائهم ورجالهم، وقطع أسلاك عقود الزوجية ، ونثر ما كان يجمعه نظامها من أفراد الاسرة ، وجعل القول للمرأة فيمن تلصق به ولدها ، فالقانون البلشفي يجبر كل رجل على نفقة من تلصقه به من أولادها [١] فعظمت الخطوب ، وتفاقمت الكروب . واستشرى الفساد ، وخرب كثير من البلاد ، وهلك الملايين من العباد، وحل الرعب في كبريات الدول ، أن تسري إلى شعوبها عدوى هذا الخلل. وصارت كل حكومة من حكومات الارض تضرب الحجر السياسي لمنع هؤلاء الناس من دخول بلادها ، وتخشى من عاقبة تفلت أحدهم أشد مما تخشى من المصاب بأشد الامراض الوبائية أن يندس فيها ، اذ لا عاصم من عدواها إلا الاعتصام بالدين، وقد كادت تنفصم عروته بالفوضى الادبية ، وشعر العلماء والحكماء وكذا الحكام بوجوب تجديد هدايته، وطفقوا يؤلفون الجمعيات ويصنفون الكتب في ذلك، وقد ذهبوا فيه خمسة مذاهب : مذهب العصريين ، ومذهب الاصوليين ، ومذهب الروحانيين ، ومذهب العلم المسيحي ، ومذهب الكاثولوكية البابوية

يجد القارىء بيان هذه المذاهب في الجزء الثالث من مجلد المنار الثلاثين (أي مجلد هذا العام الهجري) وإنما نقول بالاجمال إن العصريين يرجحون استقلال العقل في العقائد ويلتزمون تعاليم الكنيسة في الامور الادبية والمواعظ، وقد كثروا بعد الحرب في بلاد الانكليز ، وأما الاصوليون فيرجعون في الدين إلى عقائد أهل القرن السابع عشر وهو التسليم والاذعان لنصوص التوراة

(١) أثبت هذا كاتب أمريكاني وانتقده الامير شكيب وسننشر انتقاده

بظواهرها حتى التاريخية ورد كل ما يخالفها من أحكام العقل ومقررات العلم ولا سيما مذهب النشوء والارتقاء، وأكثر اتباع هذا المذهب في الولايات المتحدة ، وأما الكتب التي يؤلفونها فمنها ما هو مدح في الاسلام وكتابه ونبيه ﷺ ومنها ما هو في التنفير عنه خوفا من انتشاره ، ومنها ما هو نفي لالوهية المسيح . وتفصيل هذا كله في المنار

أفلسنا نحن المسلمين أحق وأجدر باتباع نصوص ديننا القطعية ، وكلها موافقة للعقل والعلم والمصلحة ، وباتباع الراجح من نصوصه الظنية الاجتهادية أيضا ، وهي واقية لنا من مفاسد الباشفية ، ونزغات المادية، ومفاسد الاباحية، وحافظة لصحتنا الجسدية ، وفضائلنا النفسية ؟

أوليست مصر أولى البلاد الاسلامية بالاعتصام بهذا الدين القويم من سائر الاقطار الاسلامية لان لها فيه من الفوائد والمصالح الدينية والادبية والسياسية والاقتصادية ما ليس لغيرها . . ؟

بلى، ان مصر مرشحة بل مرجحة بعد سقوط الدولة العثمانية لزعامة العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه ، وهؤلاء الملاحدة يريدون حرمانها من هذه الزعامة بما يبثون فيها من دعاية الالحاد الذي يضرها ولا يفيد الا الاجانب الطامعين فيها.

بلى، إن مصر كانت مع وجود الدولة العثمانية زعيمة الامة العربية في لغتها وعلومها الادبية والدينية ،وهؤلاء الملاحدة يريدون اسقاطها من هذه الزعامة بالطعن في اللغة العربية والآداب العربية والثقافة العربية والمدنية العربية والديانة العربية، ويحاولون ان يبتدعوا لها ثقافة أوربية ،ومدنية فرعونية، ولو كان للفراعنة لغة حية مدونة لقلدوا الترك بوجوب استبدالها باللغة العربية، وتحريم تعلم اللغة العربية فانظروا أيها المسلمون الغافلون فيما يريده منكم هؤلاء الملحدون الاباحيون، وما يظاهرهم به اخوانهم المنافقون (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء ، ـ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وان حزب الله هم المفلحون

﴿ حكم الله في المساواة بين الرجال والنساء ﴾

— ٨ —

أبدأ هذا الرد التفصيلي بالكلام العام في موضوع المساواة الذي فسرت به الآية الكريمة التي ذكرتها في المقالة السابقة وقد كنت نشرته في الجزء العاشر من مجلد المنار الثامن الذي صدر في جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ (يوليو ١٩٠٥) أي قبل أن تخلق الآنسة هانم محمد وقبل أن يصير محمود عزمي كاتباً. وهذا نصه نقلا عن الجزء الثاني من التفسير مع اختصار قليل ، قال تعالى :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة)

هذه كلمة جليلة جداً جمعت على ايجازها ما لا يؤدى بالتفصيل إلا في سفر كبير ، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله (وللرجال عليهن درجة) وهذه الدرجة مفسرة بقوله تعالى (٤ : ٣٤ الرجال قوامون على النساء) الآية وقد أحال في معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس في معاشراتهم ومعاملاتهم في أهليهم ، وما يجري عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم . فهذه الجملة تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجه في جميع الشئون والاحوال ، فاذا هم عطالبتها بأمر من الامور يتذكر أنه يجب عليه مثله بازائه ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما « انني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي لهذه الآية . »

وليس المراد بالمثل المثل لأعيان الاشياء وانما أراد أن الحقوق بينهما متبادلة وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا للرجل عمل يقابله لها إن لم يكن مثله في شخصه ، فهو مثله في جنسه ، فهما متماثلان في الحقوق والاعمال ، كما أنهما متماثلان في الذات والاحساس والشعور والعقل ، أي أن كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه ، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً

يستذله ويستخدمه في مصالحه ، لاسيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه

قال الاستاذ الامام قدس الله روحه : هذه الدرجة التي رفع النساء اليها لم يرفعهن اليها دين سابق ، ولا شريعة من الشرائع ، بل لم تصل اليها أمة من الأمم قبل الاسلام ولا بعده ، وهذه الامم الاوربية التي كان من تقدمها في الحضارة والمدنية أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن وعنيت بتربيتهن وتعليمهن العلوم والفنون ، لا تزال دون هذه الدرجة التي رفع الاسلام النساء اليها ، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف في مالها بدون اذن زوجها ، وغير ذلك من الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الاسلامية من نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف ، وقد كان النساء في اوربا منذ خمسين سنة بمنزلة الارقاء في كل شيء كما كن في عهد الجاهلية عند العرب او أسوأ حالا ، ونحن لا نقول ان الدين المسيحي أمرهم بذلك لاننا نعتقد أن تعليم المسيح لم يخلص اليهم كاملا سالما من الاضافات والبدع ، ومن المعروف أن ما كانوا عليه من الدين لم يرق المرأة وانما كان ارتقاؤها من أثر المدنية الجديدة في القرن الماضي

وقد صار هؤلاء الافرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في اعلاء شأن النساء يفخرون علينا بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء ، ويزعم الجاهلون منهم بالاسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا . ذكر الاستاذ الامام في الدرس ان أحد السائحين من الافرنج زاره في الازهر وبيناهما ماران في المسجد رأى الافرنجي بنتا مارة فيه فبهت وقال ماهذا ؟ أنثى تدخل الجامع !!! فقال له الامام وما وجه الغرابة في ذلك ؟ قال اننا نعتقد أن الاسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح وليس عليهن عبادة . فبين له غلطه وفسر له الآيات فيهن . قال فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا ، وإلى جهل هؤلاء الناس بالاسلام حتى مثل هذا الرجل الذي هو رئيس لجمعية كبيرة فما بالكم بعامتهم ؟

إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل مالهم عليهن إلا ماميزهم به من الرياسة ، فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرياسة ان يعلموهن مايمكنهن من

القيام بما يجب عليهن ، ويجعل لهن في النفوس احتراما يعين على القيام بحقوقهن ويسهل طريقه ، فان الانسان بحكم الطبع يحترم من يراه مؤدبا عالما بما يجب عليه عاملا به ، ولا يسهل عليه أن يمتهنه او يهينه ، وإذا بدرت منه بادرة في حقه رجع على نفسه باللائمة فكان ذلك زاجراً له عن مثلها

خاطب الله تعالى النساء بالايمان والمعرفة والاعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال ، وجعل لهن عليهم مثل ماجعله لهم عليهن ، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة ، وبايع النبي ﷺ المؤمنات كما بايع المؤمنين ، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما امرهم ، واجمعت الامة على مامضى به الكتاب والسنة من انهن مجزيات على اعمالهن في الدنيا والآخرة : أفيجوز بعد هذا كله ان يحرمن من العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق لربهن ولبعولتهن ولاولادهن ولذي القربى وللامة والملة ؟

العلم الاجمالي بما يطلب فعله شرط في توجه النفس اليه إذ يستحيل ان تتوجه الى المجهول المطلق ، والعلم التفصيلي به المبين لفائدة فعله ومضرة تركه يعد سببا للعناية بفعله والتوقي من اهماله ، فكيف يمكن للنساء ان يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالا وتفصيلا ؟ وكيف تسعد في الدنيا او الآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدي مايجب عليه لربه ولا لنفسه ولا للناس ؟ والنصف الآخر قريب من ذلك لانه لا يؤدي إلا قليلا مما يجب عليه من ذلك ، ويترك الباقي ومنه اعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه او إلزامه إياه بما له عليه من السلطة والرياسة .

ان ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود ، ولكن مايطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات — ان كانت في بيت غني ونعمة — يختلف باختلاف الزمان والمكان والاحوال ، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال ، إلا ترى الفقهاء يوجبون على الرجل النفقة والسكني والخدمة اللائقة بحال المرأة ؟ ألا ترى أن فروض الكفايات قد اتسعت دائرتها فبعد ان كان اتخاذ السيوف والرماح والقسي

كافياً في الدفاع عن الحوزة صار هذا الدفاع متوقفاً على المدافع والبنادق والبوارج وعلى علوم كثيرة صارت واجبة اليوم ولم تكن واجبة ولا موجودة بالامس ؟ ألم تر ان تمريض المرضى ومداواة الجرحى كان يسيراً على النساء في عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء رضي الله تعالى عنهم ، وقد صار الآن متوقفاً على تعلم فنون متعددة وتربية خاصة ؟ أي الامرين أفضل في نظر الاسلام ؟ أتمريض المرأة لزوجها اذا هو مرض أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكتشف مخبآت بيته ؟ وهل يتيسر للمرأة أن تمرض زوجها أو ولدها اذا كانت جاهلة بقانون الصحة وباسماء الادوية ؟

نعم يتيسر لكثيرات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الادوية السامة أو بجعل دواء مكان آخر .

(وقد ذكرنا في التفسير ههنا كلاما للمحدثين والفقهاء في حقوق كل من الزوجين على الآخر كقول الاكثرين ان المرأة لا يجب عليها للرجل غير الطاعة في نفسها دون خدمة الدار ورده بأمر النبي ﷺ بنته فاطمة بخدمة البيت وأمر علي بما كان في خارجه وجزم بعض المحققين من الحنابلة ان ذلك يرجع الى عرف الناس . ثم قلنا)

وما قضى به النبي ﷺ بين بنته وربيبه وصهره (عليهما السلام) هو ما تقضي به فطرة الله تعالى وهو توزيع الاعمال بين الزوجين : على المرأة تدبير المنزل والقيام بالاعمال فيه ، وعلى الرجل السعي والكسب خارجه ، وهذا هو المماثلة بين الزوجين في الجملة ، وهو لا ينافي استعانة كل منهما بالخدم والاجراء عند الحاجة الى ذلك مع القدرة عليه ، ولا مساعدة كل منهما للآخر في عمله أحياناً إذا كانت هناك ضرورة ، وانما ذلك هو الاصل والتقسيم الفطري الذي تقوم به مصلحة الناس وهم لا يستغنون في ذلك ولا في غيره عن التعاون (٢ : ٢٨٦ لا يكلف الله نفساً الا وسعها — وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله) وما قاله الشيخ تقي الدين وما بينه في الانصاف من الرجوع الى العرف لا يعدوما في الآية الشريفة قيد شعرة

وإذا أردت أن تعرف مسافة البعد بين مايعمل أكثر المسلمين ومايعتقدون

من شريعتهم فانظر في معاملتهم لنسائهم تجدهم يظلمونهن بقدر الاستطاعة لا يصد أحدهم عن ظلم امرأته إلا العجز، ويحملونهن ما لا يحملنه إلا بالتكلف والجهد، ويكثرون الشكوى من تقصيرهن، ولئن سألتهم عن اعتقادهم فيما يجب لهم عليهن ليقولن كما يقول أكثر فقهائهم إنه لا يجب لنا عليهن خدمة ولا طبخ ولا غسل ولا كنس ولا فرش ولا ارضاع طفل ولا تربية ولد ولا اشراف على الخدم الذين نستأجرهم لذلك، إن يجب عليهن إلا المكث في البيت والتمكين من الاستمتاع، وهذان الامران عدميان، أي عدم الخروج من المنزل بغير اذن وعدم المعارضة بالاستمتاع، فالمعنى أنه لا يجب عليهن للرجال عمل قط بل ولا للأولاد مع وجود آبائهم

وأما قوله تعالى (وللرجال عليهن درجة) فهو يوجب على المرأة شيئا وعلى الرجل أشياء، ذلك ان هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى (٤ : ٣٤ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ولا بد لكل اجتماع من رئيس لان المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الامور، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف، لئلا يعمل كل على ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة لانه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف الخ

انتهى ما أردنا نقله من تفسيرنا للآية

﴿ مسألة المساواة في الميراث ﴾

— ٩ —

اول من ابتدع الدعوة إلى المساواة بين الذكران والاناث في الارث وغيره شاب قبطي اسمه سلامه موسى اشتهر عنه شدة البغض والشنآن للاسلام وللعرب لانهم فتحوا بلاده وجعلوها اسلامية عربية، وكان يفضل على ذلك أن تظل

خاضعة للرومان المسيحيين على ظلمهم لقومه القبط، وما هو معلوم بالتواتر من عدل العرب فيهم الذي لولاه لم يدخلوا في الاسلام افواجا بمحض اختيارهم، حتى كان هذا سبباً لتبرم بعض عمال المسلمين بذلك وشكواه منه للخليفة الاموي العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بتقليله مال الجزية فأجابه عمر بتلك الكلمة المأثورة التي تشبه كلمات جده لامه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي «ان محمداً صلى الله عليه وسلم بعث هاديا ولم يبعث جابياً» فلهذا البغض والشنآن للعرب والاسلام — ولسبب آخر يتعلق بالمبشرين كما يقال – أخذ سلامه موسى عهداً على نفسه أن يطعن فيهما، وينفر مسلمي مصر ويصدهم عنهما، بالدعوة الى الالحاد تارة والى الاندغام في الانكليز تارة، وآخر ما رأيناه له دعوتهم الى دين البابية البهائية الذين جعلوا أساس دينهم القول بالوهية بهاء الله المدفون في عكا، وعبادته. وغرضه من هذا تحويل المسلمين عن الاسلام، ولو الى عبادة الشيطان، وقد راجت دعايته الالحادية عند بعض الملاحدة من المسلمين بعنوان التجديد فشايعوه عليها عدة سنين [1] ولكننا نراهم في هذه الايام قد شعروا أنهم مخطئون خاطئون، إلا قليلا منهم لايزالون مخدوعين.

منذ سنتين القى سلامه أفندي موسى محاضرة في جمعية الشبان المسيحيين! بدعوى وجوب مساواة المرأة للرجل في الارث أيا كان مصدره بناء على ان الاسلام ظلمها بتفضيل الرجل عليها، ثم تمكن من نشر هذه الدعاية الباطلة في مجلة الرابطة الشرقية في العام الماضي حتى اضطر رئيس الجمعية الى الرد عليه فيها، وكاد هو وأمثاله يحدثون في الجمعية شقاقا يقضي عليها. وقد رد عليه كثيرون في ذلك الوقت، وأخلفت ظنه (جمعية الاتحاد النسوي المصري). اذ حاول اغواءها باغرائها بالمطالبة بهذه المساواة فكتبت هدى شعراوي هانم يومئذ رداً عليه نشرته في الجرائد صرحت فيه بانه ليس من موضوع هذه النهضة النسائية الخروج عن الشريعة أو عليها بتغيير أحكام الارث في الاسلام

---

(١) ان جريدة السياسة قد عنيت بنشر الدعاية الالحادية وسلامه موسى يصرح بان عقيدته وعقيدة صديقه محمد حسين بك هيكل رئيس تحرير السياسة واحدة

ثم ان محمود عزمي افندي من زملائه أعاد هذه الدعاية في مناظرته لنا في كلية الحقوق من الجامعة المصرية ، واستند فيها الى شبهات عاطلة ، ودعاوى باطلة ، بينا فسادها هنالك بالبرهان ، وأيدنا فيها الرأي الاسلامي العام ، وأنكر الامير عمر طوسون باشا الشهير على الحكومة السماح للملاحدة بمثل هذا الجهر في الطعن على الاسلام والدعوة الى ترك نصوصه القطعية في مدارسها الرسمية وهي حكومة إسلامية ، وكتب بذلك الى سعادة وزير المعارف وهو وزير متدين ولله الحمد ، لا يسمح بما كان يسمح به غيره من قبل .

بيد أننا رأينا بعد هذا كله قبطياً آخر كاثوليكياً يقدس نصوص الكتب السماوية سواء أكانت معقولة أم غير معقولة ، وهو لم يشتهر بالالحاد ، ولم نعرف عنه قبل اليوم طعناً في الاسلام ، قام يعزز سلامه موسى ومحمود عزمي في الغلو في مسألة مساواة النساء للرجل فجهر بمسألة وجوب مساواة الميراث في محاضرة ألقاها في الجامعة الاميركانية التبشيرية محتمياً بما لها من الامتيازات الاجنبية ، فكان أشد قذعاً وفحشاً في الطعن على الاسلام وعلى المتدينين به ، واستهزاء بمن أنكر حق النساء في هذه المساواة منهم من أمير ووزير وعالم نحرير (وهو الدكتور فرج ميخائيل)

ولم يكتف بالجهر بهذا السوء باللسان ، بل طبعه لتعميم الدعاية في البلاد ، وقد بدهه بعض الشبان المسلمين بالانكار في وجهه عند التصريح بهذه المسألة ، ثم ذهب أفراد منهم الى مكاتب جميع الجرائد اليومية فأخبروها بما كان ، ومنهم من كتب اليها بالرد والانكار ، فأجمعت على استقباح ذلك واستفظاعه ، ثم دعته النيابة العامة للتحقيق معه تمهيداً للحكم عليه بما يستحقه جرمه ، وكانت فعلته داعية لسؤال بعض نواب الامة حكومتها في المجلس : ماذا فعلت في مقاومة هذا الهجوم على دين الامة وحكومتها الذي يخشى ان يكون موقداً لنار الشقاق الديني فيها ؟

اننا ندع هذا المتهور وشأنه مع الحكومة فلا نتصدى للبحث في العقاب القانوني الذي يستحقه ، ونختص بكلامنا ما يجب علينا شرعا من الدفاع عن ديننا في جملته ، وتحذير المسلمين من دسائس الطاعنين به ، ومن تفنيد شبهاتهم على

مايدعون من ظلم الاسلام للنساء في هذه المسألة وغيرها

أول ما أقوله في الواجب الاول ان أمر الدين ليس كأمر القوانين والعرف القومي في جواز وضع نصوصه موضع البحث والنظر لنترك مالا نستحسنه منها ونبقي ما نستحسنه ، بل مقتضى الدين عند جميع الامم ان يخضعوا ويدينوا الله تعالى بقبول كل ماهو قطعي منه كما هو ، سواء أدركوا وجه حسنه ومنفعته أم لا. فشأنهم فيه كشأن المريض مع الطبيب النطاسي الماهر يقبل قوله في مرضه وما يصف له من الدواء من غير ان يقيم له الدلائل والبراهين على فائدة الطب وعلى وجوب جعل الدواء مركباً من أجزاء معدودة ، على نسب بينها محدودة . هذ مع القطع بان الاطباء كثيراً ما يجهلون حقيقة المرض ، وكثيراً ما يخطئون في وصف الدواء له ، وان طبيب الارواح والاجتماع بهداية الدين وأصول الشرع هو الله المنزه عن الجهل والخطأ ، وانما يجوز للناس ان ينظروا في أدلة الاحكام الدينية للتمييز بين القطعي منها وغير القطعي وعن حكمة التشريع والمصلحة التي ناط بها الشارع الحكم .

حضرت منذ ثلاثين سنة ونيف مجلسا من أرقي مجالس أركان النابغين من هذه الامة في دار المرحوم سعد باشا زغلول في حي الظاهر كان منهم أحمد فتحي زغلول وقاسم امين ، وكان واسطة عقدهم الاستاذ الامام رحمهم الله أجمعين وبقي من الاحياء الذين حضروا تلك الجلسة الشيخ محمد زيد بك الفقيه المشهور ، دارت المذاكرة بينهم كعادتهم في الاحكام الفقهية والقانونية والمقابلة بينها وما ينتقد منها ، فجري على لسان أحدهم التمثيل بمسألة الربا ، فقال المرحوم قاسم امين : هذه المسألة منصوصة في القرآن الكريم فيجب علينا أن نأخذها قضية مسلمة بدون بحث وإلا كنا غير مسلمين ، وانما نبحث في الاحكام الشرعية الراجعة إلى اجتهاد المجتهدين . فوافق الجميع على قوله هذا

وللفيلسوف ابن رشد حكيم الاسلام في الاندلس الذي كانت فلسفته من أعظم أسباب نهضة أوربا العلمية كلمة في هذا الموضوع وهي ان الفيلسوف لايستبيح لنفسه جعل الدين موضع بحث ونظر في قبوله والحاجة إلى الاهتداء به

أم لا ؟ (أو قال كلمة بهذا المعنى) وعلل ذلك بقوله : لان هـذا بمعنى التشكيك في الفضيلة هل هي حاجة من حاج البشر أم لا ؟

وسأبين تفنيد ما زعمه عزمي من جواز ترك جميع أحكام الاسلام الدنيوية ومنها الارث واستبدال غيرها اذا ظهر بمقتضى تغير أحوال الزمان والمكان عدم صلاحيتها ، وافصل ما أجملته في الجامعة من انقسام نصوص الدين الى قطعي الرواية والدلالة لامجال للاجتهاد فيه ، وما هو غير قطعي فيجوز الاجتهاد فيه ، وما يبيح ترك كل منهما باذن الشارع من اضطرار وغيره وحكمة هذا التقسيم ومصلحة المكلفين فيه .

وإنما أقول هنا بالاختصار ان مثل هؤلاء الثلاثة الجاهلين بنصوص الاسلام ومعانيها وأصولها وحكمها ، والكافرين بكتابه ورسوله ، ليسوا أهلا لأن يأخذ المسلمون بآرائهم وأقوالهم في شيء مما ذكر ، حتى ان ما يتعلق من ذلك برأي الاطباء كالمرض المبيح للفطر في رمضان وترك استعمال الماء في الوضوء والغسل ، والاضطرار المبيح لا كل المحرم أو شربه — لايجوز الاخذ فيه بقول مثل الطبيب فخري ميخائيل في تعصبه وظهور تحامله على الاسلام واهانته للمسلمين

وما جرأ هؤلاء على هذا العدوان واحتقار المسلمين وحكومتهم معا إلا الاسراف في حرية الالحاد والفسق في هذه العاصمة الذي لا نظير له في أوربا ولا أمريكة حتى صاروا يعتقدون ان المسلمين لم يبق عندهم مسكة من الغيرة الدينية والحمية الملية ، وهم يعلمون أنه لا يستطيع أحد في مدرسة من مدارس أوربا ان يجاهر بالطعن في الانجيل ولا في التوراة من الجهة التي يؤمن النصارى بها ، وقد بلغ من تعصب طلبة العلم في الولايات المتحدة ان أقاموا النكير على استاذ مدرسة قرر فيها نظرية دارون المشهورة المخالفة للتوراة حتى اضطرت حكومة تلك الولاية الى اخراج الاستاذ من المدرسة وتحريم تقرير هذه النظرية في مدارسها كلها

انني لا أعقل أن تكون هذه المسألة التي اضطرب المسلمون كلهم لها (مسألة الارث) هي المقصودة بالذات من هذه الدعاية ، ولا ان المقصود بالذات اعطاء النساء ما يعتقد هؤلاء الدعاة أنه حق لهن حبا بالعدل وكراهة للظلم ، ولا اعقل انهم يعتقدون أن استحسانهم لهذه المساواة واستقباحهم لما هي مخالفة له من حكم

الله يقنع المسلمين أمة وحكومة برفع هذا الظلم المزعوم، وتقرير ذلك العدل الموهوم، كيف وهم يدعون النساء دعاً الى مهاوي الهلكة لهن ولبيوتهن (عائلاتهن)

وانما المقصود بالذات صدهم للمسلمين عن الاسلام نفسه وتحويلهم عنه بابطال ثقتهم به وغيرتهم عليه، وتقطيع الروابط التي تربطهم بالامة العربية العظيمة، وفصم عروة الجامعة التي تضم اليهم ٣٥٠ مليونا من البشر لايرون لمتهم زعيما بعد الدولة العثمانية أولى من مصر، ولا يخفى ماوراء ذلك وما يلزمه من الفوائد لهم ولمن يستخدمهم..

وما أطمعهم في هذه الامنية إلا اخوانهم من ملاحدة المسلمين الذين كانوا أجرأ منهم وأسبق الى الجهر العريان بالطعن في الثقافة الاسلامية والحضارة العربية والآداب العربية كما تقدم في مقال سابق، والا ماعلموا من حرمان النشء الاسلامي الحديث من التعليم الاسلامي والتربية الاسلامية في البيوت والمدارس معا، وما يشاهدون من ثورة النساء وخروجهن إلى الاباحة لا إلى التبرج فقط، فأرادوا أن يجعلوا جندهم في تجديد الالحاد من الشبان والنساء وكذلك يكثرون اللهج بالثقة بهما

والدليل على أن هذا غرضهم ماصرحوا به في الاستدلال على وجوب قبول المساواة بين المرأة والرجل في الميراث وهو ان المسلمين قبلوا ورضوا بترك حكومتهم لاقامة حدود القرآن على السارقين والزناة، وبحكم المحاكم الاهلية في الدماء والاموال وترك حكم الشريعة، فلماذا لايرضون اذاً بترك أحكام الاسلام في الامور الشخصية؟ وأما أحكام العبادات فهم يشاهدون درجة التهاون بها، ولا يشكون بقرب زوالها

وقد فندتُ هذا القياس الشيطاني الفاسد في محاضرتي الاخيرة في الجمعية الجغرافية الملكية من بضعة وجوه. وضربت له مثل من قصر في حفظ ماله وصيانته لغصب بعضه ولم يسع لرده فقيل له انك عرضت بعض مالك للزوال، فيجب عليك أن تعرض الباقي حتى تبقى معدما!!

وسأذكر في الفصل الآتي تلك الادلة بل الشبهات التي أوردها كل من عزمي وفخري مع تفنيدها وأحذف ذلك من المحاضرة

﴿ تفنيد شبهات المساواة في الميراث ﴾

— ١٠ —

ان لنا في الكلام في هذه المسألة مسلكين (احدهما) ماهون به دعاة الالحاد على المسلمين ترك حكم الله في المسألة (وثانيهما) ما يرجحون به حكمهم على حكم الله عز وجل ، ويحتجون به على تفضيله عليه ، مع علمهم بان أعظم شعوب أوربة وأعدلها في نظرهم وعرفهم - كالدولة البريطانية - لا تورث النساء البتة، ومن هؤلاء الملاحدة من دعا أهل هذه البلاد الى تسليم أمرهم اليها ، وترك قوميتهم الى قوميتها ، ووطنيتهم الى وطنيتها

اما المسلك الاول فاننا نبدأ القول فيه بتفنيد ما زعمه عزمي أفندي من ان بعض علماء المسلمين قال انه يجوز لهم ترك جميع أحكام الشريعة الدنيوية حتى الثابت منها بالنصوص القطعية الى مايرونه خيراً منها لانها أحكام تختلف المصلحة فيها باختلاف الزمان(١) ومنها الاحكام المالية كالميراث وغيره وانما الذي يجب المحافظة عليه أحكام العبادات فقط ثم نفند ما اشترك فيه معه غيره كالدكتور فخري ميخائيل فرج فنقول .

تفنيد دعوى كون الاحكام الدنيوية في الاسلام اختيارية .

ان هذا الزعم الذي جهر به عزمي في مجلس المناظرة لم يقل به عالم من علماء المسلمين المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا يتجرأ عليه الا بعض الزنادقة الذين لا يبالون ما يقولون ، فانه مخالف لنصوص الكتاب والسنة وللاجماع والقياس، فالقول به كفر صريح يعد صاحبه به مرتداً عن الاسلام بالاجماع

(١) قد رأينا هذا الزعم الباطل مكرراً في كتاب (السفور والحجاب) الذي نشر في بيروت باسم الآنسة نظيرة زين الدين فرد عليه كثير من علماء المسلمين وكتابهم وكان جل ماعنوا بالرد عليه مسألة الحجاب وهذا الزعم شر ما فيه لأنه هدم لنصف الاسلام سيلزم هدم النصف الآخر

لا فرق عند علماء المسلمين بين أحكام العبادات وأحكام المعاملات في أدلة ثبوتها ووجوب العمل بها، الا مايقوله بعض أئمتهم من ان مدار ثبوت العبادات كالتحريم الديني على نصوص الكتاب والسنة دون الرأي والاجتهاد وانما يختص الاجتهاد بصفة العمل بها كالاجتهاد في القبلة مثلا — ومن أن المعاملات المالية والسياسية وغيرها هي التي فوض الشارع الى الامة الاجتهاد فيها واستنباط الاحكام للمصالح التي لانص له فيها. ومن القواعد المسلمة عند جميع الفقهاء أنه لا اجتهاد في مورد النص، وعلماء القوانين الوضعية يوافقون علماء الشرع على ان الاجتهاد المخالف لنص القانون باطل، وانما محله تفسير القانون وتطبيقه على القضايا، وفي هذه المسائل تفصيل يتوقف بيانه على ذكر مذهب الظاهرية ومذهب أهل الرأي ومذهب فقهاء الحديث، وليس هذا المقام بالذي يتسع لهذا كله ولا بالذي يقتضيه. وحسبنا ان نفند ذلك الزعم الالحادي باثبات الاجماع الذي لانزاع فيه على ان نصوص الشارع القطعية الرواية والدلالة تجب المحافظة عليها ولا يجوز رد شيء منها، ولا تركه بدون عذر شرعي، وان من جحد شيئا منها عالما به فهو مرتد عن الاسلام خارج من الملة.

وأما ما كان غير قطعي الرواية أو غير قطعي الدلالة فهو محل للاجتهاد عند من كان أهلا له من العلماء، وقد ضربت له المثل في مجلس المناظرة بآية البقرة في تحريم الخمر والميسر وهي قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) فانها تدل على التحريم دلالة ظنية راجحة ولكنها غير قطعية، والحكم في مثلها ان من فهم منها الدلالة على التحريم وجب عليه العمل بمقتضى فهمه كما وقع من بعض الصحابة رضي الله عنهم فانهم تركوا الخمر والميسر عقب نزولها، وبقي بعضهم يشرب الخمر ولم ينكر النبي ﷺ عليهم ذلك لانه اجتهاد في موضعه، حتى اذا ما نزل النص القطعي الدلالة على التحريم في آيات سورة المائدة أهرق الصحابة كلهم ما كان عندهم من الخمر حتى صارت تجري كالسيل في شوارع المدينة وصار النبي ﷺ يعاقب من ثبت عليه شربها.

هذا حكم المسائل الظنية التي يجوز فيها الاجتهاد ، أعني حكمها في حق الافراد من الناس ، وأما ما كان منها متعلقا بالمصالح العامة والحقوق فاذا ثبت منها شيء عند أولي الامر وأمر به الامام وجبت طاعته فيه ، فلا يجوز لأحد أن يخالف الحكومة في أمور المصالح العامة ولا في الحقوق عملا باجتهاده

ومسألة الميراث التي هي موضوع مناظرتنا مع الملاحدة وبعض النصارى المعتدين على ديننا من المسائل القطعية الرواية والدلالة ، أما الرواية فهي آيات القرآن وكلها متواترة قطعية بغير خلاف ، وأما دلالتها على ما ذكر فهي قطعية أيضا لانها لا تحتمل في لغة القرآن معنى غير المعنى المتبادر منها،ولا يشتبه في هذا أحد له أدنى المام بهذه اللغة . وأولها قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) ويلي هذا النصوص في الاخوة والاخوات والازواج وكلها صريحة قطعية ، وإنما يوجد في مسائل الارث قليل من الاحكام الاجتهادية الاخرى .

والدليل من نص القرآن على أن أحكام الارث محكمة لا اختيار لأحد في تركها وأن الله تعالى يعاقب من عصى أمره فيها يوم القيامة ويثيب من أطاعه قوله عز وجل عقبها (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم * ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين)

فأي مسلم يؤمن بالله وكتابه وبرسوله يرضى بأن يعرض نفسه للحرمان من ذلك الفوز العظيم بمثوبة الله بتلك الجنات الخالدة الدائمة ، ولصليّ تلك النار الخالدة والعذاب المهين فيها ، بايثاره للنظريات الفاسدة التي يدعوه اليها أفراد من الملاحدة والقبط المساعدين لدعاة النصرانية (المبشرين) على افساد عقائد المسلمين وتحويلهم عن شريعتهم، ليسهل عليهم استعباد الاجانب لهم ؟؟

حسبنا في المسلك الاول هذا التفنيد الموجز لزعم عزمي أنه يوجد في علماء المسلمين من يبيح لهم ترك ما شرعه الله تعالى من أحكام المعاملات الدنيوية المالية والشخصية والسياسية وهو ما صرح به الالأن هؤلاء الملاحدة يبغون غش الصحيحي العقيدة من المسلمين وخداعهم لهدم الاسلام كله فانهم إذا تركوا

قسم الاحكام المذكورة من شريعتهم يسهل عليهم أن يكون جميع حكامهم من الملاحدة والافرنج ، فلا يبقى للاسلام حكومة في هذه الارض ، فيكونون كاليهود بل أذل ، فان اليهود استعاضوا عن عزة الملك بعزة الثروة التي لها الشأن الأكبر في ادارة أمور الدنيا ، على انهم على قلتهم وتفرقهم لا يزالون يسعون لاعادة ملكهم ، فان كان اكثر الناس يجهلون سعيهم فقد ذكرتهم به ثورة فلسطين الاخيرة ، وهم يعتقدون أن اقامة دينهم لا تتم بدون ملك ، لأنه دين تشريع وحكم ، والمسلمون أحق منهم بهذا الاعتقاد ، وان اكبر الجهاد الذي يجاهدهم به أعداء دينهم موجه إلى هدم سيادته الحكمية التشريعية ، وهم يعلمون أن القسم التعبدي الروحي لا يلبث بعد ذلك أن يزول معظمه ، ويبقى قاصراً على عدد قليل في كل بلد أو قطر

هذا ما انفرد به عزمي بوحي شيطاني من أحد أركان حزبه . وأما ما اتفق عليه عزمي وفخري فهو محاولة اقناع المسلمين بترك أحكام دينهم في الميراث وكذا في الطلاق وغيره من أحكام الزوجية بقياسه على ترك الحكومة المصرية لاقامة الحدود الشرعية وغيرها من أحكام العقوبات والمعاملات المدنية .

والفرق بين هذا وما قبله في ايذاء المسلمين واحتقارهم أن هذا دعوة لهم إلى ترك ما يؤمنون بأنه من أحكام الله التي وعد من أطاعه فيها بسعادة الدنيا والآخرة ، وأوعد من عصاه فيها بالعذاب المهين ، أي إلى نبذ عقيدتهم ، وتوطين أنفسهم على سخط ربهم وغضبه وعقابه بدعوى أنه لا مندوحة لهم في هذا العصر عن ذلك ، فهذا احتقار لهم وسخرية منهم ما بعدها غاية في الايذاء المعنوي . واننا قد اطلعنا على كثير مما كتبه أعداء الاسلام والمسلمين في الدين والسياسة فلم نرهم على تعصبهم وتشويههم لمحاسن الاسلام يدعون ان تفضيل الذكور على الاناث في شريعته كان سببا من أسباب ضعفهم المدني أو الاجتماعي ، بل هذا مما انفرد به هذان القبطيان وأعوانهما من ملاحدة مصر

وأما ما قبله فهو خداع يتضمن رمي مسلمي مصر بالجهل بدينهم وأنهم بلغوا من ذلك ما يؤهل مثل عزمي في مجاهرته بالالحاد بل التعطيل التام ، لأن يقبل

قوله في الصد عن أكمل هذه الاديان ، وأقواها حجة وأعظمها أثراً في الحضارة والعمران ، ويُصدق بان بعض علماء المسلمين قال بجواز ترك أحكام القرآن الدنيوية، لانها بزعمه اختيارية

وقد بدا لهم من هذا التهور ما لم يكونوا يحتسبون ، فصاح شبان المسلمين المتعلمين في وجوههم الصيحة بعد الصيحة في الجامعة المصرية ، ثم في الجامعة الاميركية، وكانوا يظنون أنهم جندهم الذي يدين لهم بالطاعة العمياء والتقايد لخدعة التجديد ، وتبارت أقلام الكتاب المرهفة في حلبة الصحف في تفنيدهم والازراء بهم

نعم غر فخري ميخائيل قول راوية الاهرام في مناظرة الجامعة « ان الشباب صفق لحامي الشباب» اذ لم يقرأ أو لم يصدق مما كتب في الصحف عن تلك المناظرة الا شهادة الزور التي رواها للاهرام (أحمد الصاوي) من أنصار التجديد الالحادي، غره هذا وصدقه فصرح في محاضرته المنكرة بانه يعتمد على الشباب المسلمين في مناقشة الذين يتحككون بالشريعة الاسلامية في هذه المسألة دفاعا عن حق المرأة — فجبهه من حضر من أولئك الشبان الاباة الضيم في وجهه، ودمغوه بالانكار في أثناء إلقائه لسخفه، ولكن كان قد طبعه ووزعه على الناس ، وإننا ننقل نص عبارته ، لانها أوسع وأوضح من عبارة عزمي في مناظرته ، ثم نقضي عليها بتفنيدها من الوجوه التي أجملناها في محاضرتنا في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية كما وعدنا . وهذا نص عبارته الركيكة المسلطة :

عبارة الدكتور فخري في المساواة في الارث .

« وإذا تحكك المدافعون عن نظرية حق البنت في الميراث فاننا نتركهم يتحككون باحكام الشريعة في هذه المسألة ، ونتركهم يصرخون ويستصرخون وزير المعارف وغيره لحماية الاسلام كما يدعون ، نترك عليهم المفكرين الحديثين من شبان المسلمين يناقشونهم الحساب دفاعا عن حق المرأة ،ولكن قبل تركهم نسألهم سؤالا واحداً في خشوع واحترام لاشخاصهم بغض النظر عن ادعاءاتهم.

« أيها السادة : لماذا لا تطالبون بتطبيق أحكام الشريعة الاسلامية في مسائل السرقة والزنا والقتل ؟ ولماذا تجيزون للقاضي الاهلي ان يحكم على أي

واحد منا بالاعدام ولا يحكم في مسألة نفقة شهرية ؟

«ولما تجيزون للقاضي الاهلي ان يحكم على أي واحد منا بتجريده من ثروته وإعلان افلاسه ، ولا يحكم في مسألة طلاق بسيطة ؟ لا تتذمرون من ان القاضي الاهلي أصبح مختصاً في الحكم على كل ما يتعلق بكرامتنا وبشرفنا وباعراضنا وبثروتنا وبحريتنا وباعدامنا أو تخليصنا من الاعدام ، وتعرضون لمجرد مناقشتنا في مسألة بسيطة وهي حظ الانثى في الميراث . حقا ما أكثركم غيرة على الشريعة ، وما أحركم هياما بالدين ..

« أيها السادة . ان كنتم غيورين على الشريعة فنادوا — ان كنتم شجعاناً بتطبيق أحكام الشرع الشريف في كل شيء

« وأما كنتم لاتغارون على الشرع أو الدين ، بل إنكم تغارون على « ميراث العمارات والافدنة والطين ،، فسيروا في طريقكم ، ودعوا المفكرين الحديثين في طريقهم كل يعمل بعقيدته وايمانه ، والله ولي التوفيق » اه

وهذا الكلام يتضمن الطعن على جميع المسلمين بجعلهم فريقين أحدهما منافق وهو الذي يدعي الغيرة على الدين والمحافظة على أحكامه وهو فريق الشيوخ والكهول ، وغير المفكرين الحديثين من الشبان . وفريق مارق ملحد وهو فريق الشبان المفكرين الذين هم محل أمله وأمل أمثاله في القضاء على البقية الباقية من الاسلام اتباعا لاهوائهم وشهواتهم . وانخداعا بأوهامهم التجديدية ، ولولا سوء اعتقاده بغرارة هؤلاء الشبان ، وانسلاخهم من كل وجدان وغيرة على شرف دينهم ، لما تجرأ على التهكم باستصراخ أمير من أكبر أمراء هذا الشعب[1] لوزير المعارف بان يمنع مثل هذه التصريحات المنكرة في الاسلام على مسمع من طلاب العلم في مدارس هذه الحكومة الاسلامية

وما كررنا هذا المعنى في كشف عوار هذه الدعاية الالحادية إلا لتستقر في أذهان الشبان وغيرهم وليعرفوا قيمتهم عند هؤلاء الناس وما يريدون .

وموعدنا المقال الحادي عشر في الرد العلمي العقلي عليهم

(١) هو الامير عمر طوسن باشا المشهور .

أنباء العالم الإسلامي

مشروع فرنسي عظيم الشأن في الحجاز

رأينا في بعض الجرائد الفرنسية ان بعض مسلمي أفريقية الفرنسية طلبوا من الدولة الفرنسية ان تبني للحجاج منهم داراً فرنسية كبيرة في مكة المكرمة وأخرى في المدينة المنورة يأوون اليهما ويجتمعون فيهما مدة وجودهم في البلدين المكرمين لأداء مناسك الحج وزيارة النبي ﷺ فتلقت الدولة هذا الطلب بالقبول والارتياح وكان أول من تبرع له بالمال وزارة الحربية في باريس تبرعت بمائة ألف فرنك

نبأ عجيب غريب ، وتبرع أعجب وأغرب ، متى كان مسلمو المستعمرات الفرنسية يعتقدون ان فرنسة تحرص على تسهيل اداء فريضة الحج لهم وتهتم براحتهم ورفاهتهم في سفرهم الى الحجاز وإقامتهم فيه ، وهم يرون باعينهم ويسمعون بآذانهم ما كانت تضعه من العوائق في سبيل اداء هذه الفريضة ، وما فعلته باوقافهم وبتعليمهم الديني وغيره في الجزائر وما تفعله الآن في المغرب الاقصى؟ وهل يعقل أن يطلبوا منها ان يكونوا في البلاد المقدسة الحرة مستظلين بعلمها وتحت مراقبة جواسيسها كما يكونون في بلادهم ؟ لا يعقل بشر أن يحبوا هذا ويطلبوه

ثم ما شأن وزارة الحربية الفرنسية من هذا المشروع فتتبرع له ؟ أليس لان المرجع اليها في حفظ العلم الفرنسي وكرامته والدفاع عنه اذا أهين حقيقة او ادعاء عند الحاجة الى هذا الادعاء ، وانه تمهيد لتدخلها في شؤون الحجاز ؟

لا يرتاب عاقل في ان هذا الطلب تدبير سياسي في هذه الدولة نفذه لها بعض صنائعها من المغاربة كالسي قدور بن غبريط ، وهي معذورة في السعي الى سبق دول أوربة كلها الى تأسيس مكان نفوذ لها في البلاد المقدسة التي لا يبيح الاسلام لأحد من غير المسلمين ان يملك شبراً من ارضها او ان يدخلها زائراً او تاجرا او عابر سبيل ، ولكن يستغرب ان يطلب مثل هذا من الملك عبد العزيز

آل سعود مع العلم بصلابته في دينه وشجاعته وعدم امكان التسلط على ارادته بشيء من الترهيب او الترغيب . لهذا نقول ان الذين دبروا لفرنسة هذه المكيدة لم يحسنوا التدبير ، ولو احسنوه لوضعوه في صورة غير مشوهة كهذه الصورة ، ولأقنعوها بان تقدم بين يديه تودداً أمثل من التودد الذي كانوا شرعوا فيه مع الملك حسين لمثل هذا الغرض وهو ماحملته بعثة الحج المغربية من الهدايا

كان من المعقول ان تمهد فرنسة بالاعتراف لحكومة الحجاز بأن سكة الحديد الحجازية هي وقف إسلامي على مصالح الحرمين لتسهيل الحج — وأن الحق في ادارتها واستغلالها لهذه الحكومة ، وان تقدم لها حاصل ريع مااستولت عليه منها في سورية من عهد ادارتها له الى اليوم ، وأن تعترف لها ايضاً بحق صافي ريع اوقاف الحرمين في تونس والجزائر والمغرب الاقصى وتطلعها على حساباتها وتؤدي اليها مافضل منها ولو بعد ماأنفقته على مسجد باريز .

بعد مثل هذا التودد تطلب او تشترط على حكومة الحجاز أن تبني من ريع هذه الاوقاف معهداً صحياً لحجاج المغاربة في مكة المكرمة وآخر في المدينة المنورة يكون خاصاً بهم ، لا تباح الاقامة فيه لغيرهم بتقديمه عليهم اذا وجدوا ، وأن يكون الحق في ادارته لمصلحة الاوقاف الحجازية ، وحسب فرنسة من فائدته سهولة مراقبة حجاج المغاربة في الحجاز على من يتولون تدبير أمورهم في السفر الى الحجاز ، واستمالتها للمسلمين بالعناية المعقولة بأمرهم — مثل هذا يحتمل أن تقبله الحكومة السعودية لما يظهر فيه من أمارات حسن النية ، وأمن سوء العاقبة التي عرفت من الاوربيين وسائلها ومقاصدها ، ومنها ان التساهل معهم بإباحة الانتفاع بشيء ما من بلاد الشرق يجعلونه حقاً لهم الى الابد ، ومن هذا القبيل مايسمونه بالامتيازات الاجنبية في مصر وسائر البلاد التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية بالفعل أو تحت سيادتها ، ومنه وجود قناصلهم في جدة . وأعجب منه مسألة زيارة اليهود لجدار المسجد الأقصى المسمى بالبراق ... كان تساهلا من المسلمين ورحمة باليهود الذين لم يرحمهم أهل ملة في الارض غيرهم ، والآن يحاولون أن يجعلوه بنفوذ الدولة الانكليزية حقا لهم ، ووسيلة الى ماهو أعظم منه ...

﴿ تعليم البنات ونفقته على الوالد ﴾

تناقلت الجرائد في هذه الايام ان أحد قضاة الشرع في مصر حكم لامرأة على رجل بنفقة ابنته منها إلا أجرة تعليمها في المدرسة ، فقد أثبت في الحكم انها عليه شرعا — فكان هذا الحكم مدعاة الاستغراب والقيل والقال لان تعليم البنات صار في هذا العصر من أهم الواجبات عند جميع طبقات الناس فترى بعضهم يقدح في هذا القاضي وبعضهم وهم الملاحدة يقدحون في الشرع نفسه، وكل منهما جاهل مسيء . ولا يمكن العلم بخطأ هذا القاضي إلا من نص الحكم الذي كتبه ونطق به فان من تعليم البنات ماهو واجب مفروض شرعا، ومنه ماهو فضيلة مندوب شرعا، ومنه ماهو محرم أو مكروه شرعا، وما يدرينا لعل هذا القاضي علم ان تلك الوالدة تعلم بنتها في مدارس الراهبات أو غيرها من مدارس دعاة النصرانية التي يلقن فيها التلاميذ عقائد دين أهلها ويجبرون على حضور عباداته في كنيسة المدرسة ، فهل يقول مسلم يؤمن بالله وبما جاء به رسوله ﷺ ان التعليم في هذه المدارس شرعي يوجب الشرع نفقته على والد البنت ؟ كلا انه لا يقول هذا إلا ملحد في الاسلام او جاهل لعقائده واحكامه كالذين يعلمون بناتهم وابنائهم في هذه المدارس ولا يبالون ما تجنيه على دينهم

واذا بحث المسلم العالم بدينه عن كثير من مدارس البنات التي تسمى إسلامية يجد في تعليمها من المنكرات الشرعية مالا يسعه القول بإباحته ، وقد بلغنا ان خير هذه المدارس في أصل وضعها وهي مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية لا يمرن فيها البنات على صلاة الفريضة فماذا يقال في غيرها ؟

احتج بعض الجرائد على حكم هذا القاضي بحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وزادوا فيه نقلا عن أمثالهم من الجاهلين بالحديث «ومسلمة» وما هي منه ولكنها مرادة كسائر نصوص الشرع العامة التي يذكر فيها المسلمون أو المؤمنون من باب التغليب ، فالأصل في جميع احكام الشرع أن تكون للمؤمنين والمؤمنات إلا ماخص بأحدهما كأحكام الحيض والنفاس الخاصة بالنساء وأحكام الجهاد الخاصة بالرجال مثلا . وقد بينا ذلك في مواضع آخرها مقالات (المساواة بين الرجال والنساء) التي تنشر في جريدة كوكب الشرق وفي المنار

مسألة مصر والسودان

ومشروع المعاهدة بين مصر والانكليز

علم الانكليز بما علمتهم ثورة مصر سنة ١٩١٩ أن قولهم اننا ندير الاحكام في مصر برجال - أي بآلات - من اهلها قد بطل وتعذر بقاؤه، فوطنوا أنفسهم على الاعتراف باستقلال مصر المقيد بما علمنا والاستقلال بالحكم في مملكة السودان الشاسعة الواسعة وطرد المصريين منها مع الاستمرار على أخذ المال الكثير من خزينة مصر باسم السودان في كل سنة، فانتهزوا الوقت المناسب لتنفيذ ذلك فنفذوه، وأما مصر فسلكوا في معاملتها مسلك المضايقة لحكومتها في كل تصرف والمعارضة لما يقرره (برلمانها) حتى في الامور الداخلية حتى رموها بالشلل، وكان ما كان من إفضاء ذلك الى إلغاء حكومة الدستور وتعطيل البرلمان وتأليف وزارة محمد محمود باشا سليمان زعيم الحزب الدستوري الذي يعتمدون عليه بمصر، وفي إثر ذلك سقطت وزارة المحافظين البريطانية المثيرة لهذه المشاغبات، والمدبرة لهذه المضايقات، والمدبرة لهذه المكايدات - وتبعها إلجاء المندوب السامي البريطاني المنفذ ما أشرنا اليه من السياسة السوءى الى الاستقالة من منصبه، ثم وضع أساس الاتفاق على حل عقد المشكلة المصرية بمعاهدة تعقد بين الحكومتين كما بينا ذلك كله في أجزاء منار هذا العام (الهجري) الثاني والثالث والرابع

ورأى الانكليز ان المعاهدة التي عرضوا مسائلها على محمد محمود باشا وتراضوا معه عليها لا تكون شرعية الا اذا وافق عليها برلمان مصري ومن ثم سعوا الى تغيير الوزارة (الدكتاتورية) وإعادة الحكم الدستوري الى مصر بعد أن آنسوا من رئيس الوفد المصري ميلا الى الاتفاق معهم على هذا الاساس في الجملة وقد كان ذلك أمراً مفعولا - فتألفت وزارة موقتة برياسة عدلي باشا يكن لاعادة انتخاب النواب المصريين فكان ذلك وكانت الاكثرية العظمى في مجلس النواب الجديد للوفد المصري وكذلك مجلس الشيوخ، ومن ثم تألفت الوزارة الدستورية الجديدة برياسة مصطفى باشا النحاس رئيس الوفد وتلا ذلك تأليف وفد من وزارته لمفاوضة الحكومة البريطانية في المعاهدة الجديدة على ذلك الاساس بعد الاتفاق على مايعرضه الوفد

من التحوير والتعديل الذي أشرنا اليه في جزء المنار الرابع (ص ٥ ٣ م ٣٠) بقولنا في المشروع: «ومن الناس من يظن كما نظن ان البرلمان الوفدي لا يرده ردا، ولكنه يتوخي خدمة البلاد بما يبين به ما فيه من إجمال، ويوضح ما فيه من إبهام، ويقيد ما تخشى مغبته من اطلاق» وقد كتبنا هذا قبل تأليف البرلمان الجديد

ذهب وفد المفاوضة الى لندن للمفاوضة فتلقته الحكومة البريطانية بالحفاوة والاكرام والمآدب وكان من اكرامه مقابلة «الملك صاحب الجلالة البريطانية» له بالمجاملة ثم دارت المفاوضات بينه وبين حكومة العمال وتواترت الانباء البرقية اليومية بأن الفريقين المتفاوضين حريصان على الاتفاق لم يظهر منهما إلا حسن النية التي تبشر بكل خير، حتى إذا ماجاء دور البحث في السودان تصادما فيه تصادماً كاد يحبط كل ماتقدمه من تساهل، ويعيد مصطفى باشا النحاس بخفي حنين كما عاد سلفه سعد باشا قبله

ظهر للوفد المصري أن الانكليز يريدون الانفراد بالحكم في السودان أي جعله بريطانيا محضا لاحظ لمصر من الشركة الفعلية فيه، وان يكون ذلك باقرار الوفد وتصديق البرلمان المصري على الحالة الحاضرة فيه، ويأبون أن يكونوا شركاء لمصر فيه بالمساواة الفعلية، وهو حق مصر وحدها وليس لهم أدنى حق قانوني بهذه الشركة التي عقدوها سنة ١٨٩٩ مع بطرس باشا غالي الذي كان وزير الخارجية المصرية، إذ لاحق له بعقد هذه الشركة، وكان لورد كرومر أراد يومئذ أن يحمل مجلس النظار المصري على عقد تلك الشركة فكلم رئيسه مصطفى فهمي باشا في ذلك فأجابه ان الفرمانات السلطانية بالاستقلال الاداري لمصر لاتبيح للحكومة المصرية ذلك فهو حق السلطان العثماني وحده، فلما لم يمكن جعل عقد الشركة بقرار من مجلس النظار بناء على انه لا حق له في عقدها رضوا بما دونه وهو عقدها مع وزير الخارجية

وقد قلنا في آخر الجزء الثالث (ص ٤٢٠ م ٣٠) بعد بيان مشروع الاتفاق الذي حمله محمد محمود باشا مانصه «مسألة السودان أهم مسائل هذا الاتفاق على الاطلاق لأن مصر لاحياة لها بدون السودان، فهو منها بمنزلة القلب من البدن، والنيل الآتي منه بمنزلة الدم الذي يغذي الجسد ويحفظ حياته»

في خزي أخزى من أعطاء مصر السودان العظيم الشأن للانكليز بصفة رسمية تتفق عليها الحكومة والامة الممثلة في برلمانها ؟ وحرمان نفسها من هذه المملكة العظيمة التي هي أصل وجودها ولا بقاء لها الابها ؟

نعم ان الانكليز مستولون على السودان بالقوة التي مكنتها فيه اهمال مصر السابق من عهد ارسال اسماعيل باشا اليه (غوردون) الانكليزي واعطائه حق التصرف فيه واعانته على ذلك بالمال - ولكن هذا الاستيلاء غصب همجي لاحق قانوني ، فاذا لم يقره البرلمان المصري فلمصر الحق في كل وقت بالمطالبة به بلسان القانون الدولي والحق الطبيعي ، ثم بالقوة عند سنوح الفرصة ، ولا ييأس من فرص الزمان إلا الجبناء الجاهلون، كما انه (لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

لا يخفى على أحد من رجال الوفد ولا غيرهم أن هذه المعاهدة التي تدور المفاوضة بشأنها مقيدة لاستقلال مصر بقيود ثقيلة فيها خطر كبير ، وأن النص فيها على انتهاء الاحتلال لا معنى له في الواقع إلا انتقال الجيوش المحتلة من القاهرة إلى منطقة الاسماعيلية وما وراءها الى السويس من أهم المواقع العسكرية في البلاد - وانها تتضمن خطراً آخر هو شر من التحفظات الاربعة التي قيد به تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ المشهور وهي القيود العسكرية المعروفة. وما عدا ذلك من المزايا فيها كالدخول في عصبة الامم وحماية الاجانب وإلغاء المحاكم القنصلية فهو قليل ضئيل حقير ، اذا بيع به السودان العظيم الضخم الكبير

لذلك نجزم بأن قطع المفاوضات وفشل مشروع المعاهدة خير وأبقى على مصر وأضمن لحياتها في المستقبل من إعطاء السودان للانكليز عطاء رسميا

ان طبيعة الاجتماع البشري سائرة سيراً سريعا الى القضاء على استعباد أقوياء الشعوب لضعفائها باسم الاستعمار ، وغيره من الاسماء الخادعة كالحماية والانتداب ، وإذا كانت الهند مصدر ثروة الانكليز وعظمتهم وهيكل امبراطوريتهم قد هبت تطلب الاستقلال المطلق وهي تسير اليه سيراً طبيعيا لاشك في وصولها الى الغاية منه - فهل يليق بمصر أن تهب السودان لهم هبة رسمية ؟

ان هذا لا يعقله أحد أوتي مسكة من العقل والشرف

﴿ مصر والحجاز — ومفسدة عالم جريدة الاهرام ﴾

كل مسلم مخلص لدينه في الحجاز ومصر يتمنى الاتفاق والاتحاد والتعاون بين حكومتيهما ، وكذلك غير المسلمين من سكان مصر المخلصين لها يتمنى ذلك ، وقد أظهرت هذا التمني جميع الجرائد المصرية المعتبرة وأكثرت من التساؤل عن المانع للحكومة المصرية من الاعتراف بحكومة الحجاز السعودية وقد اعترفت بها الدول الاوربية العظمى والدول الشرقية وهي التركية والايرانية والافغانية وآخرها العراقية

بعد هذا كله رأينا مقالا كليالي الشتاء في ظلمتها وبردها وطولها ينشر تباعا في أعداد الشهر الماضي من الاهرام بامضاء (عالم حاج) يشهد على كاتبه بأنه جاهل لا عالم ، ومنافق لا صادق . وأما وصف نفسه «بحاج» في غير زمن الحج فلا معنى له ولا وضعه في الامضاء مما يجعل شبهاته حججا ، بل مقاله حجة على أنه ما حج إذ سافر الى الحجاز ولكن حجت العير ، وما كل من حج بيت الله مبرور

من أدلة جهله بعقائد الاسلام ، وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، جعله بدعة « المحمل المصري » من شعائر الاسلام ، واباحته لحرس المحمل ترك لباس الاحرام ، وحمل السلاح بمكة وغيرها من الحرم بغير ضرورة ، بل مع ما علم من اثارة أمير الحج لتلك الفتنة ، ولكن مع جهله طبعا بما رواه مسلم في صحيحه من قوله ﷺ « لا يحل لاحدكم أن يحمل بمكة السلاح » وما في معناه

وأما الدليل على نفاقه وابتغائه الفتنة بين الحكومتين فهو تذكيره للحكومة السعودية بما كان من قتال محمد علي باشا لسلفها في الحجاز ثم في نجد وتهديدها باعادة هذه الحرب سيرتها الاولى ، مع علمه أو جهله بعدم إمكانها ، وبأنها اذا أمكنت كانت أعظم الشرور والمفاسد بين المسلمين ، وكانت ثمرتها للاجانب غير المسلمين ، وأولهم الانكليز المحتلون لمصر المانعون لها من استقلالها ومن انشاء قوة تدافع بها عن نفسها . فمثل عالم الاهرام وحاجها فيما نشرته له وهي أعلم منه بأنه مفسدة كمثل ذلك المفسد الذي كان يكتب لها المقالات بامضاء (عربي مطلع)

في تأييد خروج فيصل الدويش على امامه وملكه، والتوسل به الى الصد عن الحج، ثم تبين كذبه في كل ما كتبه.

كنت شرعت في كتابة رد مفصل على مقالة (عالم حاج الاهرام) لتنشر في بعض الجرائد اليومية لازالة مايمكن أن يكون لها من الأثر الافسادي السيء في أنفس بعض العوام ثم كففت عن اتمامه لانني رأيت أن بسط الحقائق فيه قد يسوء أناسا لانحب أن نسوءهم، وان الامساك عن نشرها قد يكون أرجى لنجاح السعي في التوفيق والتأليف بين الحكومتين.

ولكنني أشير عن بعد الى مسألة تكلم فيها بغير علم غير هذا (العالم الحاج) ممن لانتهمهم بمثل ماتتهمه به من سوء النية، وهي المن على الحجاز وحكومة الحجاز وأهل الحجاز باحسان حكومة مصر وتفضلها عليهم قديما وحديثا بالصدقات والبرات والاحسانات التي منها كسوة الكعبة المعظمة والتكيتان اللتان تطعمان بعض الفقراء في البلدين المكرمين

ربما يجهل بعض هؤلاء مالا يجهله عالم الأهرام وحاجه من انه ليس لحكومة هذا المصر منة على بيت الله ولا على حرمه وحرم رسوله ولا على أهلهما فضلا عن حكومتهما، بل هذه الحكومة المصرية هاضمة لحقوق شرعية موقوفة على ماذكرنا من الملوك السابقين وغيرهم من أغنياء المسلمين تقربا إلى الله تعالى - فهي لاتؤدي منها إلا قليلا من كثير، (أو من الجمل أذنه كما يقول المثل العامي)

ان هذه الحكومة تتصرف بألوف الجنيهات من ريع أوقاف الحرمين الشريفين فتنفقها في مصر وغير مصر من دون الحجاز، ومن هذا التصرف مايعده الناس في محله ولو كان من جيوبهم أو من الأوقاف الخيرية المطلقة التي ليس لها جهة صرف معينة، ومنها مايعدونه في محله بصرف النظر عن كونه من أوقاف الحرمين، ولا نعرف منها الا صرف خمسة آلاف جنيه من أوقاف الحرمين للمساعدة على عمارة المسجد الاقصى

ان حكومات مصر الاخيرة قد أضاعت كثيراً مما وقفه المحسنون من أغنياء مصر وغيرهم على الحرمين الشريفين، ومابقي معروفاً وضبط حسابه بالنظام العصري

لا يؤدي كله الى الحرمين ، ولو كان الواقفون له أحياء لما استباحوا لأنفسهم إيذاء جيران الله وجيران رسوله بالمن عليهم به، لأنه انما وقف قربة واحتسابا لوجه الله تعالى فكيف يستبيح هذا المن والاذى لله ولرسوله ولجيرانهما من لا حظ لهم من هذا البر الا كراهته وحض الحكومة على منعه وتهديد أهل الحرمين بذلك ؟

من شاء أن يعرف شيئا عن الكسوة الشريفة وما وقف عليها وعن بدعة المحمل ومفاسدها فليراجع كتاب (مرآة الحرمين) لأفضل من تولى امارة الحج من قبل حكومتنا المصرية في عصرنا هذا وهو اللواء ابراهيم رفعت باشا ، ومنه يعلم أن هذه الاوقاف الواسعة قد ذهب أكثرها ..

كان أكبر خطأ جناه عبد الخالق ثروت باشا على مصر منعه إرسال كسوة الكعبة المشرفة الى مكة المكرمة وحرمان مصر من هذا الشرف العظيم لها وللجلالة ملكها الذي تطرز الكسوة باسمه ، وإلجاؤه ملك الحجاز إلى إنشاء دار جديدة لنسج الكسوة فيها فأحسن اليه من حيث أراد أن يسيء ، وأغرب من جنايته هذه اعتذاره عنها في مجلس النواب بأنه خشي أن لا تقبلها الحكومة السعودية وتعتذر عن ذلك بأن الوهابيين يعدونها بدعة كالمحمل ، وأغرب من هذا الاعتذار قبول المجلس له بعد العلم بأن ملك الحجاز صرح رسمياً بقبول الكسوة اذا أرسلت . ومع علم الكثير من أعضائه بأن كسوة الكعبة قديمة لا يقول الوهابيون ولا غيرهم ببدعيتها، وان المحمل بدعة سيئة ابتدعتها شجرة الدر لا يختلف عالمان بقبحها، وان استحسنها عالم الاهرام وحده .

باب المراسلة والمناظرة

« الكتابة بالحروف اللاتينية في جاوه »

جاءنا من الاستاذ صاحب الامضاء من جزيرة سمباس برنيو في جاوه ما يأتي :

إنني لا أعلم ما فائدة استعمال الدولة التركية الكمالية للحروف اللاتينية أو استبدالها لها بالحروف العربية في كتابة لغتها ، ولعلها ترى أن تعلم الكتابة بالحروف اللاتينية أسهل من تعلمها بالحروف العربية . وانما نكتب لغتنا الملاوية بالحروف العربية واللاتينية معاً ولكن استعمال اللاتينية الآن في جزائر جاوه

وسومطرة وبورنيو من المستعمرات الهولاندية اكثر من استعمال الحروف العربية (الملاوية) تبعاً للحكومات الهولاندية والتجار الاجانب . ولهذا لاتجد جرائد ومجلات هذه الجزائر الملاوية مكتوبة بالحروف العربية (الملاوية) إلا قليلا جدا بالنسبة الى الجرائد والمجلات التي تكتب بالحروف اللاتينية

وأما فوائد استعمال الحروف اللاتينية عندنا فمنها ان لغتنا الملاوية يعرفها الملايين ممن ليسوا من اهلها كالأوربيين (لا سيما الهولانديين والانكليز) والصينيين وغيرهم، وأنها يتخاطب بها فيما بيننا وبينهم من أمور الحكومات والتجارات وغيرها ، وهم لا يقرءون ولا يكتبون اللغة الملاوية إلا بالحروف اللاتينية. ومنها اننا اذا اردنا أن نفهمهم حقيقة الدين الاسلامي وأن نبين لهم آدابه ومحاسنه بالكتابة مثلا فلا يفيدهم ذلك إلا باستعمال الحروف اللاتينية فيها . ولهذا طبعوا ترجمة تفسير سورة « والعصر » للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده باللغة الملاوية وترجمة سورة «الفاتحة» من تفسير المنار بالحروف اللاتينية ، واظن ان ذلك بأمر الاستاذ الشيخ احمد سوركتي زعيم الارشاديين في جاوة. وهل توجد مثل هذه الفوائد عند الدولة التركية الكمالية باستعمال الحروف اللاتينية في كتابة لغتها ؟

ومع ذلك اقول ان ضرر استعمال الحروف اللاتينية دون العربية (الملاوية) ظاهر بين بسوء تأثير الاستعمار الذي احاط بالبلاد من كل جانب ، فان من تعلموا في مدارس الدولة الهولاندية قلما يكتبون لغتهم الملاوية بالحروف العربية (الملاوية) وهم اكثر من يقرءون ويكتبون، بل يكتبون ويقرءون باللاتينية وإن كانوا يعرفون الملاوية. ولو تركت الحروف العربية الملاوية بالمرة كتابة وقراءة لكان ضرره اكبر على اهل ملايو فان جميع الكتب الدينية والآداب المحمدية وغيرها مطبوعة بالحروف العربية (الملاوية) وان اللغة العربية يتعذر أن تكتب باللاتينية إلا قليلا ، فكيف تكتب إذن آيات القرآن والاحاديث النبوية باللاتينية ؟ ثم ان ذلك خسران عظيم على اهل ملايو فانه يضيع عليهم علم ورثوه من آبائهم الاولين، وهو علم الكتابة بهذه الحروف العربية (الملاوية) الذي هو من أكبر العلوم ، وبه يخرج الانسان من الامية

هذا واني أرى انه ينبغي لنا اهل ملايو أن نعرف ونستعمل الحروف اللاتينية

في ضرورياتنا كما نعرف ونستعمل الحروف العربية الاصلية والملاوية، ولكن لايحسن بل لايجوز لنا أن نترك الحروف العربية (الملاوية) مستبدلين اللاتينية بها، كما لايحسن لنا أن نستعمل الملاوية فقط دون اللاتينيــة فان ذلك ضروري لبعض أمورنا الدنيوية التي تكون عونا لأمورنا الدينية، وخير لنا أن نأخذ عن اهل أوربا أوغيرهم ماهو نافع لنا في ديننا ودنيانا وأن نترك ماهوضار لنافي ديننا ودنيانا

سمبس ١٤ رمضان سنة ١٣٤٨ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٩٣٠

محمد بسيوني عمران

(المنار) ما كان لكاتب هذه الرسالة وهو ممن يقرءون المنار منذ سنين كثيرة أن يظن ان الترك الكماليين قد آثروا الحروف اللاتينية على الحروف العربية في كتابة لغتهم لاجل سهولة التعليم بها، فقد بينا في المنار ان سبب هذا الايثار إبعاد شعبهم عن دين الاسلام وقطع كل صلة كانت تربطهم به مهما يكن في ذلك من المضار الأخرى كاضاعة ماتعب فيه علماؤهم وأذكياؤهم في ترقية هذه اللغة وتأليف المصنفات الكثيرة بها في جميع العلوم والفنون العصرية في مدة ثمانين سنة، ودفن الدفاتر والسجلات الكثيرة التي تحفظ تاريخهم السياسي والاجتماعي والحربي - ومحاولة مالا يستطيعون من خلق شعب جديد ملحد بما يشبه التكوين الذاتي الذي لا ثبوت له في أي نوع من أنواع الحيوان أو الحشرات، ليس له من العلاقة بالماضي إلا لفظ (تورك) والحروف اللاتينية لاتعبر عن لغتهم تعبيراً صحيحا فهي مضيعة لها لا مسهلة لتعلمها. والامر على خلاف ذلك في لغة الملايو. واننا نجزم مع هذا بأن أهل هذه اللغة اذا عملوا برأي الكاتب في الجمع بين كتابتها بالحرفين العربي واللاتيني فانه ينتهي الامر باماتة الثاني للأول ويضيعون دينهم الذي هو خيرلهم في الدنيا والآخرة من لغتهم بأي حرف كتبت. وما ذكره من فائدة نشر الدين وغيره مما يريدون اطلاع حكامهم وغيرهم عليه فهو يحصل بقيام أفراد به في كل مدينة كبيرة، ولا يتوقف على تعليم هذه الحروف لجميع أولادهم. نعم اذا كان يمكنهم ان يجعلوا تعليم اللغة العربية اجباريا ويعمموها فان كتابة الملاوية حينئذ بالحروف اللاتينية لا تضرهم، فليتدبروا الامر قبل أن يغلبوا عليه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب

المنار

أنشئ ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا أولوا الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى « ومناراً » كمنار الطريق

٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ هـ ٦ برج الجوزاء سنة ١٣٠٨ هـ ش ٢٨ مايو سنة ١٩٣٠

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري ارشادي اجتماعي سياسي

(فصل استطرادي آخر)

نصرانية الافرنج ولماذا لا يسلمون ؟

(فان قيل) انكم معشر علماء المسلمين ماوقفتم على كل هذه الحقائق التاريخية التي تبطل الثقة بنقل كتب اليهود والنصارى وعلى مافيها من التعارض والتناقض والخطأ العلمي والتاريخي وكذا التعاليم الضارة التي تدل على استحالة كونها كلها وحياً من الله تعالى - ولا على مصادر عقيدة التثليث والصلب والفداء من أديان قدماء الوثنيين - ماوقفتم على كل هـذا مما لخصتم بعضه هنا وبعضه من قبل - إلا من كتبهم الدينية والعلمية والتاريخية ولاسيما كتب علماء أوربة من أحرار الماديين والمتدينين جميعاً، وبالاطلاع على هذه الكتب كان المتأخرون منكم كالشيخ رحمة الله الهندي والطبيب

محمد توفيق صدقي المصري رحمهما الله وغيرهما أعلم بما ذكر من فحول المتقدمين الذين ردوا على النصارى كالامام ابن حزم وشيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنهما — فكيف نرى أكثر هؤلاء النصارى ثابتين على دينهم هذا في الشرق والغرب ؟ ولا سيما الافرنج الذين نشروا تلك الحقائق في شعوبهم بجميع لغاتهم، ولا يزال أغنياؤهم يبذلون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لنشر هذا الدين في العالم وتؤيدهم دولهم في ذلك ؟

بل كيف لايستحيون وهذه حالهم في دينهم من دعوة المسلمين اليه ؟ بل كيف لايدخلون في الاسلام أفواجا وقد اختبروا جميع الأديان والتواريخ وآن لهم أن يعلموا انه هو الدين القطعي الرواية الموافق للعقل والفطرة، الحلال لجميع مشاكل الاجتماع المفسدة للحضارة، الذي بين لهم حقيقة دينهم وما عرض عليه من البدع فأيدته فيه ابحاث المحققين من علمائهم الاحرار ؟

(قلنا) ان حل هذه المشكلات والاجوبة عن هذه الشبهات لايمكن بسطها إلا في سفر كبير، فنكتفي هنا بالالمام بقضاياها الكلية المهمة بالاجمال، وهي مبسوطة في مواضع من المنار والتفسير بالتفصيل، فنقول :

(١) أسباب بقاء النصرانية في أوربة

ان للدين المطلق سلطانا على أرواح البشر لانه غريزة فيها فهو عبارة عن علاقتهم بعالم الغيب مبدأ وغاية وهي من عالم الغيب ولذلك ينكر وجودها المحجوبون بعالم الشهادة (المادي) وهو مع هذا حاجة من الحاجات الطبيعية لهذا النوع الاجتماعي الذي خلق لحياة لا نهاية لها فأعطي استعداداً لعلم لا حد له، يهدي الى أعمال اجتماعية لا حد لها ولا نهاية، فلا بد لجماعاته في التعاون عليها من وازع نفسي وجداني يزع كلا منهم ويردعه عن البغي والعدوان على غيره ممن لايتم عمله وبروز استعداده إلا بهم أينما كان وكانوا، وحيث لا وازع من قوة السلطان والميزان بالأولى. ولم يعرف السواد الأعظم من هذه الشعوب ديناً تعليمياً يتوجه اليه الدين الفطري المطلق ويتقيد به إلا هذا الدين الذي لايزال فيه آثارة من هداية طائفة من أنبياء الله ورسله لم تقو أحداث الزمان القديمة على محوها، على كل ما أشرنا اليه من

عبثها بها ، فهو بها مظهر لما كان من تعرف الخالق العظيم اليهم بالآيات وخوارق العادات والانباء بالمغيبات ، : وقد أتقن رؤساؤه نظام تربيتهم الوجدانية عليه ، وتلقينه لهم بالاساليب المؤثرة ، ودفع الشبهات عما يرد عليه من الاعتراضات الكثيرة ، وارتبطت سياستهم ومصالحهم العامة والخاصة به ، وصار وسيلة من أقوى وسائل الاستعمار والاستيلاء على الشعوب لدولهم ، فاتفقت مع الجمعيات الدينية على نشره في جميع الامم بدعاية التبشير ، فاجتمع لهم من وسائل هذه الدعاية القوة والمال الكثير ، والعلم والنظام الدقيق - فبمجموع هذه القوى والاسباب بقي هذا الدين حياً في هذه الشعوب على تفاوت عظيم بين أهلها في فهمه

(٢) غلو الافرنج في الالحاد وشعورهم أخيراً بالحاجة الى الدين

إن المطلعين على تلك الحقائق التي تبطل الثقة برواية كتبهم وكثير من معانيها المخالفة للعلم والتاريخ وبعقائدهم أيضاً قليلون بالنسبة الى غير المطلعين عليها ، وقد فشا فيهم الكفر والتعطيل أو الكفر بدين الكنيسة خاصة من التثليث وألوهية المسيح والفداء والاستحالة في العشاء الرباني - أي استحالة الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمه - وقد كانوا غلوا في الالحاد عقب تمكن الحرية فيهم والتوسع في العلوم بقدر ما كان من غلو سيطرة الكنيسة على الافكار والاعمال ، وألفوا كثيراً من الكتب والرسائل في الطعن في هذا الدين ، حتى كان يخيل الى زوار أوربة من أهل الشرق أن أوربة أصبحت مادية لا تدين بدين ، وانما بقي فيها بعض رسوم النصرانية يدين بها العامة المقلدون ، والمتمتعون بأوقاف الكنائس وسلطانها الروحاني ، ولكن الفوضى الدينية بلغت غاية مدها في إثر حرب المدنية العامة فشعر العقلاء بشدة الحاجة الى الدين المطلق بسنة « رد الفعل » وألفوا عدة جمعيات لارجاع هدايته على قواعد مختلفة بعضها قريب من العقل وبعضها بعيد عنه ، بناء على ان الدين يجب أن يؤخذ كله بالتسليم بغير بحث ولا عقل ، حتى قيل انه قد كثر في البروتستانت من الانكليز من يميلون الى الرجوع الى الكاثوليكية ، لأن لرسومها وتقاليدها ، وصورها وتماثيلها ، ونغمات نشيدها من السلطان والتأثير في القلب ما ليس للكنيسة الاصلاحية اللوثرية ومن أعظم اثر هذا الانقلاب تودد جمهورية فرنسة الالحادية الى البابا واعادتها

لما سلبت من أوقاف الكنائس - و اتفاق الدولة الايطالية مع البابا على ارجاع سلطانه السياسي والاعتراف بمملكته الدينية ورد املاكها اليها ، ثم اجابة طلبه الى اعادة التعليم الديني الكاثوليكي الى جميع المدارس الايطالية لما ثبت عند رجل هذه الدولة ورئيس حكومتها في هذا العصر من ان حفظ اخلاق الامة من الفساد وجامعتها من الانحلال لايتم إلا بالدين - أيّ دين يحرم الفواحش والمنكرات ويجمع الكلمة - وأن دين الامة الموروث اولى بذلك من غيره إن فرض ان غيره ممكن قريب المنال. ومثل هذه الافكار لا يعقلها ملاحدة هذه البلاد وأمثالهم لأنهم لا يفكرون فيما ينفع الامة ويضرها، ولا في تأثير الدين في أخلاقها ووحدتها، فمنهم من ينشر إلحاده تلذذاً بتقليد ملاحدة أوربة وتشرفاً بالتشبه بهم، لصغاره وخسة نفسه، ومنهم من ينشره خدمة للمستعمرين، ومساعدة للمبشرين ، بأجر حقير، وإثم كبير .

(٣) محافظة الكنيسة على عقائدها وتأويلات المخالفين لها

اننا نعتقد بما تيسر لنا من البحث والاختبار الطويل ان علماء الشعوب الاوربية ومستقلي الفكر فيهم لايؤمنون بعقائد الكنيسة التي اشرنا اليها في هذا السؤال وفي المسألة الثانية من قضايا الجواب عنه ، ولا بأن جميع ما في كتب العهدين القديم والجديد ولا اكثره حق موحى به من الله عز وجل، بل نعلم ان كثيراً منهم قد اهتدى بعقله واستقلال فكره الى مايقرب من إصلاح الاسلام للنصرانية التقليدية وهو أن المسيح بشر مخلوق، ونبي رسول لا إله خالق، بل حدثني رجل كان من كبار رجال الدين الكاثوليكي فجهر بما يعتقده مما يخالف تعاليمها فحرمه الرئيس الأكبر منها - حدثني بأن رؤساء الكنيسة أنفسهم الذين أدركوا حقائق العلوم لا يعتقدون ألوهية المسيح ولا التثليث ولا الاستحالة في العشاء الرباني بل يعلمون انها دخيلة في دين المسيح ، ولكنهم يرون انهم اذا صرحوا بهذا تبطل ثقة النصارى بالدين من أصله، فيتعذر على رجال الكنيسة بسقوط رياستها جماهم على الاصول الصحيحة من الدين وهي الفضائل والآداب وتقوى الله الصادة عن الشرور والرذائل .

هذا وان لكبار الاذكياء منهم تأويلات يتفصون بها من منكرات تلك الكتب والتقاليد ، كتأويل عاهل الالمان الاخير (غليوم الثاني) بعد عثور علماء

قومه على شريعة حمورابي في العراق وقولهم ان جل شريعة التوراة مأخوذ عنها فانه كتب كتابا لصديق له في كون هذا الامر لا ينقض دينهم المبني على أساس التوراة أي كتب العهد القديم ، لانه مبني على مايسمونه الروح الذي فيها ، لا على نصوصها وتشريعها ، وقد قال في آخر ذلك الكتاب :

« ومن البديهي عندي ان التوراة تحتوي على عدة فصول تاريخية هي من البشر لا من وحي الله . ومن ذلك الفصل الذي ورد فيه ان الله أعطى موسى على جبل سيناء شريعة بني اسرائيل ، فانني أعتقد انه لا يمكن اعتبار تلك الشريعة موحى بها من الله الا اعتباراً شعرياً رمزياً ، لان موسى قد نقل تلك الشرائع عن شرائع أقدم منها على الأرجح ، وربما كان أصلها مأخوذاً من شرائع حمورابي . ويوشك أن يجد المؤرخ اتصالا بين شرائع حمورابي صاحب ابراهيم الخليل وبين شرائع بني اسرائيل باللفظ والفحوى . وذلك لا يمنع قطعياً من الاعتقاد بوحي الله لموسى وظهوره لبني اسرائيل بواسطته » ثم قال : وانني أستنتج مما تقدم ما يأتي

(١) انني أومن باله واحد

(٢) اننا معشر الرجال نحتاج في معرفة هذا الاله العظيم الى شيء يمثل إرادته وأولادنا اشد احتياجا منا الى ذلك

(٣) ان الشيء الذي يمثل إرادة الله عندنا هو التوراة التي وصلت الينا بالتقاليد ، واذا فندت المكشوفات الأثرية بعض رواياتها وذهبت بشيء من رونق الشعب المختار — شعب اسرائيل — فلا ضير في ذلك لان روح التوراة يبقى سليما مهما يطرأ على ظاهرها من الاعتلال والاختلال ، وهذا الروح هو الله وأعماله

ان الدين لم يكن من مستحدثات العلم فيختلف باختلاف العلم والتاريخ ، وانما هو فيضان من قلب الانسان ووجدانه بما له من الصلة بالله » اه

وأما مسألة المسيح فانه فسرها قبل ذلك في كتابه المذكور بأن الله تعالى يظهر دائما في الجنس البشري الذي هو خليفته وصنيعته بما نفخ فيه من روحه (قال) أعني انه منحه شيئاً من ذاته إذ أعطاه نفساً حية ، وإن ظهوره هذا قد يكون في كاهن وقد يكون في مِلك سواء كان من الوثنيين أو اليهود أو النصارى ، وقد كان حمورابي

من هؤلاء الرجال كما كان موسى وابراهيم وهوميروس وشارلمان ولوثر وشكسبير وجوت وقنت (أو كونت) والامبراطور غليوم الكبير (يعني جده) . . . .
ثم ذكر ان ظهور الله في الاشخاص يكون على حسب استعداد أممهم ودرجتها في الحضارة وانه لايزال يظهر الى عصرنا هذا (يعني في شخصه)[1]

فبمثل هذه التأويلات والآراء يدين أهل العقل والعلم في أوربة لا بدين الكنيسة كما يزعم دعاة النصرانية (المبشرون) الكذابون الخداعون ليغشوا عوام المسلمين بعظمة الافرنج الدنيوية ، وبتسميتهم حضارة أوربة مسيحية

وقد كان الفيلسوف تولستوي الروسي الشهير تأويل للانجيل قريب مما قلناه في بيان حقيقته بهداية الاسلام . وخلاصته ان انجيل المسيح الصحيح هو عبارة عن حكمه ومواعظه التي كانت جواهر ألقيت في مزابل من الخرافات والأوهام ، وانه هو قد عني باستخراجها وتنظيفها مما علق بها ، وشبهها بتمثال مكسر ملقى فيها فعثر هو عليه قطعة بعد أخرى حتى اذا تم وكمل علم أن عمله حق صحيح . وألف في ذلك كتابا كبيراً سماه الاناجيل وسمى ما استخلصه منها الانجيل الصحيح . وقد سبق لنا تلخيص مقدمته التي بين فيها ماحققه في الموضوع (ص ١٣١ و ٢٢٦ و٢٥٩ م ٦ منار)

ومما قاله فيها : « ان القاريء لاينبغي له أن ينسى ان من الخطأ الفاحش والكذب الصراح أن يقال ان الاناجيل الاربعة هي كتب مقدسة في جميع آياتها » وأيد ذلك بما هو مسلم عندهم من « ان المسيح لم يؤلف كتابا قط كما فعل افلاطون وغيره من الفلاسفة وانه لم يلق تعاليمه مثل سقراط على رجال من أهل العلم والأدب وانما عرضها على قوم من الجهال قد خشنت طباعهم كان يصادفهم في طريقه » أي فلم يحفظوها ولم يكتبوها ، وفي هذه الاناجيل نصوص صريحة بأنهم لم يكونوا يفهمون كل كلام المسيح ولا سيما أمثاله التي كان يضربها لهم

ثم ذكر تولستوي انه جاء بعده بزهاء مائة عام رجال أدركوا مكانة كلماته فخطر في بالهم أن يدونوها بالكتابة فكانت مدوناتهم كثيرة ومنها ماكان محشواً بالخطأ والغلط ـ وان الكنيسة اختارت بعد ذلك من ألوف المصنفات مارأته أقرب الى الكمال

---

(١) يراجع هذا البحث كله من شاء في ص ٨٧ ـ ١٠٩ من مجلد المنار السادس

« وان الغلط في الاناجيل القانونية هو بقدر الغلط في الاناجيل المهملة لاعتبارها محلا للشك والارتياب ، وان هذه الاناجيل المتروكة تشتمل على أشياء جميلة قد تعادل ماتضمنته الاناجيل الرسمية » الخ ومما حققه في هذه المقدمة ان دين المسيح الصحيح أجنبي عن العقيدة العبرانية ، وعقيدة الكنائس النصرانية، وان بولس لم يفهم دين المسيح البتة

فهذه نصرانية هذا الفيلسوف الكبير، وتلك عقيدة ذلك العاهل الكبير ، وما أتعب الاول في التفكير ، والآخر في التأويل ، إلا سلطان الدين الفطري على النفس، ومشاقة الدين الكنسي للعقل والعلم، ولو انهما اطلعا على حكم القرآن في أمر التوراة والانجيل والمسيح وكونه من روح الله وآية من آياته وان معنى كونه كلمة الله انه وجد بكلمة التكوين « كن » — لكان هذا وحده برهانا كافياً لاهتدائهما بالاسلام، واتباعهما لمحمد عليه الصلاة والسلام، فكيف لو اطلعا على غير ذلك من الحقائق والحكم والاحكام؟ على ان القليل الذي بلغهما منه قد أنطقهما بما يدلان على إكباره فللفيلسوف رسالة جليلة في (حكم محمد صلى الله عليه وسلم) وللامبراطور كلمة قالها لموسى الكاظم شيخ الاسلام في الاستانة إذ زارها في ايام الحرب الكبرى تغني عن مؤلف كبير وهي : فسروا القرآن التفسير الذي تظهر فيه علويته . . . فهو قد علم انه علوي لا أرضي بل هو لايعلو ولا يعلى ويحطم مادونه

(٤) احصاءات نسبية في عقائد الانكليز النصرانية

لاتقل ان هذه آراء لبعض كبراء العقول ومفرطي الذكاء وانه يقل مثلهم في الافرنج فقد نقلت الينا الصحف ان جريدتين من أشهر الجرائد الانكليزية نشرتا أسئلة في العقائد على أوف من الناس وذكرت خلاصة أجوبتهم بالنسبة المئوية علم منها ان الملايين من المتعلمين منهم لايدينون بدينهم البروتستنتي الذي هو على علاته أسلس من الدين الكاثوليكي والدين الارثوذكسي لقيادة العقل وإذعان النفس

ومنها: «هل تعتقد بإله مجسد ؟ فاجاب إحداهما ٤٠ في المائة نعم و ٥٥ في المائة لا ، و ٤ لم يجيبوا ، واجاب الأخرى ٧١ نعم و ٢٦ لا واثنان لم يجيبا

ومنها: هل تعتقد ان المسيح ذو ألوهية بمعنى انه لايمكن ان يقال ان جميع الناس

هم أولو ألوهية مثله ؟ أجاب الاولى ٣٥ في المائة نعم و٦١ لا و ٢ لم يجيبا ، وأجاب الأخرى ٦٨ نعم و٢٩ لا واثنان لم يجيبا .

ومنها : هل تعتقد بمذهب الرسل أي تلاميذ المسيح ؟ أجاب الاولى ٢١ نعم و٧١ لا، و ٧ لم يجيبوا - وأجاب الأخرى ٥٣ نعم و ٣٦ لا ، و١٠ لم يجيبوا

ومنها : هل تعتقد بالمذهب الذي ترسمه الكنيسة ؟ أجاب الاولى ٢٤ نعم و ٦٨ لا و ٧ لم يجيبوا - وأجاب الثانية ٥٢ نعم، و ٣٧ لا ،و ١٠ لم يجيبوا

ومنها : هل تعتقد ان التوراة موحى بها ؟ أجاب الاولى ٢٩ نعم، و ٦٨ لا، و ٣ لم يجيبوا - وأجاب الثانية ٦٣ نعم ، و٣٣ لا و ٣ لم يجيبوا

ومنها : هل تعتقد باستحالة العشاء الرباني الى لحم ودم كأنه من جسد المسيح ؟ أجاب الاولى ٤ نعم و ٩٣ لا و ٢ لم يجيبا - وأجاب الاخرى ١٠ نعم و٨٦ لا و ٣ لم يجيبوا

وسبب التفاوت بين أجوبة الجريدتين ان أكثر قراء الاولى الذين لا يدينون بتلك العقائد من الخواص المستقلين وأكثر مسؤلي الأخرى الذين يدينون بها من العوام المقلدين

(٥) عقائد علماء الافرنج في هذا العهد

ملخص القول في الدين عند الافرنج كما يتراءى لنا ان العوام لا يزالون يخضعون لدين الكنائس ونظم رجالها، ولعلهم يبلغون النصف في مجموع شعوبها . وان الملاحدة المعطلين فيهم على كثرتهم هم الأقلون في النصف الآخر ، وسائر النصف يؤمنون بأن للعالم خالقا وانه واحد عليم حكيم ، يعرف بأثره في نظام العالم الكبير، وأما ذاته فهي غيب مطلق لا تتصور كنهها العقول . ضرب له الفيلسوف الالماني (اينشتين) الشهير مثلا غلاما مميزاً دخل داراً من دور الكتب الكبري فرأى في خزاناتها ألوفا من الكتب منضودة مرتبة من أدنى الحجرات الى سقوفها - فهو يدرك ان في هذه الكتب علوما كثيرة مكتوبة بلغات متعددة وان الذين وضعوها في مواضعها أولو فهم ونظام هندسي دقيق ، وأما مادوّن فيها من العلوم والفنون فلا يصل عقله الى أقل القليل منها

وأما الايمان ببقاء النفس بعد الموت وجزائها بعملها بقدر تأثيره الحسن أو القبيح فيها فقد كان قليلا في هؤلاء الناس ولكنه كثر في هذا القرن بانتشار مذهب الروحيين الذين أدرك كثير منهم بعض الارواح تتجلى لبعض المستعدين لادراكها (وهم قليلون) وتخاطبهم وتملي عليهم كلاما لم يكونوا يعلمونه ، وتحرك أيديهم بكتابة أشياء ربما كانت بلغة غير لغتهم ، ويكثر عدد المصدقين بهذه التجليات الروحية سنة بعد سنة ولهم جرائد ومجلات ومدارس خاصة بهم ، ومنهم العلماء بكل علم من علوم العصر العالية من طبيعية وطبية ورياضية ، الذين لم يؤيدوا هذا المذهب إلا بعد تجارب دقيقة أمنوا أن يكون ماراًوه وسمعوه من جانب الارواح خداعا

ورؤية أرواح الموتى وغيرها من الارواح العلوية والسفلية مما نقل عن جميع الامم ولا سيما الصوفية ، ومجموع المنقول منها يدل دلالة عقلية على ان لها حقيقة ثابتة ، ولكن الصحيح منها قد اختلط بالتخيلات والأوهام وبالشعوذة وصناعة السحر ، فقلت ثقة العقلاء المستقلين بأخبارها لتعسر التمييز بينها ، وانما تجدد في هذا العصر جعل استحضار الارواح ومخاطبتها صناعة تعليمية تثبتها التجارب لكل من يطلب معرفتها ، ولكن بوساطة المستعدين لرؤيتها ، وقد كثر في منتحليها الدجالون الذين اتخذوها ذريعة للكسب ، فكان ماعرف من خداعهم ، أقوى صارف للعقلاء المستقلين عن تصديق غيرهم ، ومن الناس من يعتقد ان هذه الارواح التي يستحضرونها من شياطين الجن لا من أرواح البشر ، وهو حجة على الماديين بوجود عالم حي عاقل غير عالم المادة وسننها (نواميسها) أيضاً

ورجال الدين يكذبونهم غالباً لان ماينقلونه عن هذه الارواح يخالف بعض تعاليم الدين وإن كان من جهة أخرى يؤيد ركنا من أركان العقيدة وهو بقاء النفس والحياة الأخروية بعد الحياة الدنيا . وقد بالغ بعض الباحثين من المسلمين بمصر في اثبات هذه المسألة حتى زعم زاعم منهم انه لايمكن ثبوت الدين إلا بثبوتها . قلت له مرة إن صح قولك فالدين لم يثبت في الزمن الماضي ! !

ومن الناس من يطعن في هذه الروايات عن الارواح بالاختلاف والتعارض بين ماينقلونه عنها ، وانما يتجه هذا الطعن بأمرين (أحدهما) ان تكون جميع أرواح الموتى

تعلم الحقائق كما عليه وتكون معصومة من الكذب والخطأ فيما تخبر به عنها للوسطاء الذين تتجلى لهم (ثانيهما) ان يكون هؤلاء الوسطاء يدركون كل ماتلقيه اليهم الارواح كما هو لا يفوتهم منه شيء، ثم يؤدونه كما سمعوه لايخطئون في شيء منه، ولا يقوم دليل على اثبات هذا ولا ذاك ، بلى قرأنا مما نقلوه عن الارواح انها على درجات متفاوتة في عالمها ، وان الدنيا منها لاتدرك ماتدركه العليا ، وانها لاتعلم كل شيء مما تسئل عنه ، وانها لاتستطيع أن تبلغ كل ما تعلم منه ، وان منها مالا يؤذن لها بتبليغه ، وجملة القول ان هذه المسئلة تفتقر الى تمحيص وتحقيق ليس هذا الاستطراد في التفسير بمحل له

وأما الوحي فمن المؤمنين بالله من هؤلاء الافرنج وأمثالهم من يؤمن ومنهم من لايؤمن بصحته ، ومنهم الذين لايؤمنون بأن للبشر أرواحا مستقلة من غير عالم المادة، ومنهم من يعتقد أن الوحي حالة من حالات النفس تستحوذ عليها فتفيض عليها بعض المعارف ، وتنطقها بما تكون متوجهة اليه في هذه الحالة من الحقائق، ولكن صاحب هذه النفس لايكون معصوماً من الخطأ فيما ينبع في نفسه من الاخبار كلها، ولا من التعاليم العملية ونفعها . وقد بينا حقيقة الوحي في الاسلام المزيل لشبهاتهم عليه من قبل، وسنعود اليه في أول تفسير سورة يونس بما هو أوضح ان شاء الله تعالى

(٦) آراء الافرنج وأمثالهم في الدين والتدين

للمتدينين من الافرنج ومن على شاكلتهم في العلم والفلسفة والسياسة كاليابانيين والهندوس وغيرهم آراء في الدين تصرف أكثرهم عن النظر والتأمل فيه بمثل النظر في المسائل العلمية الذي يراد به استبانة الصحيح الراجح أو الارجح لاجل اعتماده والأخذ به ، فأكثرهم يرى ان الدين تعاليم أدبية تهذيبية من ناحية ورابطة اجتماعية سياسية من ناحية أخرى ، وان فائدته من الناحيتين تكون بقدر حسن تلقينه وتعليمه والبراعة في تربية النشء عليه — لا بقدر صحة عقائده في نظر العقل — وجودة آدابه وأحكامه في نفسها أو بالاضافة الى غيرها ، فهم لايبحثون عن أقوى الاديان حججاً وأقومها منهجاً ليعتصموا بحبله ، ويدعوا قومهم للاهتداء به .

ومنهم من يرى ان محاولة تحويل الشعب عن دين ورائي تلقاه بالاذعان والقبول الى دين آخر لانه أصح برهانا منه لا يخلو من مضار منها الخلاف والشقاق في الشعب وضعف ارتباطه بأمته ودولته ، فهم يجتهدون في صيانة عقائد شعبهم ودفع الاعتراضات التي ترد عليها لاجل ذلك

وأما الاحرار المستقلون الذين لاينظرون الى هذه الاعتبارات السياسية والاجتماعية فيرون ان مسألة العقائد مسألة وجدانية شخصية لايثبتها العلم العصري المبني على الحس والتجربة ، فالصواب لمن قام الدليل عنده على حقية شيء منها أن يدين الله تعالى به في نفسه ولا يعرض لغيره بدعوة اليه ، ولا تخطئة له فيما يدين به ، لان ذلك ينافي الحرية المشتركة ، وهذه الحرية لا تكاد تخلص من دخائل التقاليد الدينية وتسلم من الشوائب الاجتماعية والسياسية إلا للافراد من كل شعب ، وشرح هذا بالتفصيل يخرج بنا عن الغرض من هذا الاستطراد الذي يجب أن نقتصر منه على مايختص بالعبرة من سياق موضوعنا في التفسير ، وهو أن علاقة الدين بالسياسة والاجتماع وقوة الشعب الادبية ، ومحافظته على مقوماته ومشخصاته الملية ، تحول دون البحث عن حقيقة أقوم الاديان وأحقها بالتقديم والايثار للاهتداء به ، ويستعان على هذه الحيلولة بنظام التربية والتعليم الذي بلغ الغاية من النظام

ولا بد لنا مع هذا من التذكير بما بيناه قبل من ان الدين لايكون ديناً تتحقق به هداية من يؤمن به إلا اذا كان مصدره أعلى من جميع مصادر العلم الكسبي لتذعن له النفس وتخضع الارادة ولا يكون هذا الاذعان والخضوع من الانسان إلا لما يعتقد انه أعلى منه وله السلطان والقهر عليه ، وكل مايدركه بكسبه فهو دونه ومقهور لارادته ، لذلك لايخضع البشر لكل مايعتقدون انه صواب وحق في نفسه إلا اذا وافق أهواءهم كما هو معلوم بالقطع من سيرة أفرادهم وجماعاتهم على اختلاف أنواعها . فالدين الذي لابد منه لاصلاح البشر لايكون إلا بوحي من عالم الغيب ، ولا يثبت هذا في عصرنا هذا إلا بالاسلام

(٧) مبلغ علم الافرنج بالاسلام وحكمهم عليه

بزغت شمس الاسلام في عصر كانت فيه جميع شعوب الارض متسكعة في

دياجير الجهل والظلم والاسراف في الشهوات الحيوانية ، وكان آخر عهد لأوربة بالعلم والادب والحضارة عهد الروم (الرومان) الذين فتحوا أعظم ممالك الشرق المصاقبة لاوربة ، وكانوا قوماً وثنيين ثم سطع عليهم بريق من نور الانجيل وانتشرت فيهم النصرانية ديانة الزهد والايثار والسلام ولكن كان إفسادهم لها أقوى من اصلاحها لهم ، فأحالوا توحيدها وثنية ، وحولوا سلمها حربا ، وبدلوا زهدها إسرافا وطمعاء وطهارتها فحشاً ودنسا ، فلما جاء النبي الذي كانوا ينتظرونه وهو المصلح الاعظم ، الذي بشر به المسيح وسماه روح الحق ووعدهم بأنه سيعلمهم كل شيء لم يلبث الحفاة العراة البائسون من أتباعه أن دكوا لهم ما بنوه من المعاقل والحصون في الشرق ، وقوَّضوا لهم ما أسسوا من الممالك ، وطردوهم من سورية ومصر وأفريقية ، فارزوا وانكمشوا الى أوطانهم الاصلية في أوربة ، فصار العرب المسلمون من أتباع محمد (ص) يغزونهم وغيرهم في أوربة نفسها ، وتلاهم الترك المسلمون في ذلك ، فصبروا إلى أن أمكنهم جمع كلمة دول أوربة على قتال المسلمين في هذه الممالك الشرقية بالدعاية إلى انقاذ بيت المقدس مهد النصرانية منهم فكانت الحروب الصليبية المشهورة في التاريخ بفظائعها وفجورها ومفاسدها وفواحشها ومطامعها التي اقترفت باسم المسيحية الطاهرة البريئة منها ومن أهلها

كان من تمهيد رجال الكنيسة دعاة هذه الحرب ومرقدي نارها أن ألفوا كتباً ورسائل كثيرة ، وزوَّروا خطباً بليغة ، ونظموا أناشيد وأغاني مهيجة كلها في الطعن على الاسلام وتشويه سيرة المسلمين لم يعرف في تاريخ البشر لها نظير في الكذب والبهتان وقلب الحقائق ، وتشويه المحاسن ، ومحاولة جعل النور ظلاما ، والحق باطلا ، والفضيلة رذيلة ، حتى ان المسلمين الذين اطلعوا على شيء من تلك المكتوبات بعد تلك الحروب بقرون أدهشهم العجب من تلك الاباطيل المخترعة التي لم تخطر لاحد منهم في بال ، ولم تلح له صورة في خيال ، لمباينتها للقرآن المنزل والسنة المطهرة والسيرة النبوية ، والفتوحات العربية ، رحمة وعدلا ، وكرما وفضلا ، وشرفا ونبلا ، وكذا مادونها من الحروب الاسلامية

ومن غرائب ذلك البهتان المشوه انهم جعلوا دين التوحيد المطلق المجرد

من جميع أوهام الوثنية دين وثنية وعبادة أصنام — وانهم اختلقوا له «ثالوثا» وأصناما وزعموا ان محمداً نفسه (ص) ادعى الألوهية ، واخترعوا له من المطاعن الفظيعة ماتعجز غير تلك العقول المظلمة القذرة عن تخيله ، ويتنزه كل ذي وجدان بشري سليم عن افترائه ، ويستحي غير الشيطان الرجيم من النطق به أو كتابته ، ومن ليس له إلمام من المسلمين أو غيرهم بشيء من ذلك فلينظر في (كتاب الاسلام . خواطر وسوانح) للمستشرق الفرنسي (الكونت هنري دي كاستري) وترجمته العربية لأحمد فتحي باشا زغلول ، وحسبه الفصل الاول منه في هذا الموضوع فقد ذكر فيه أسماء بعض تلك الكتب التي لفقوها ، والاناشيد والاغاني التي نظموها فيما ذكر لتهييج المسيحيين على الزحف من أوربة الى الشرق لابادة المسلمين والقضاء على دينهم ، وكانت كل تلك المفتريات التي تقشعر منها الجلود ، ويكاد يتصدع لتصورها الحجر الجلمود ، تتلقى بالقبول والاذعان من جماهير الشعوب الأوربية لصدورها عن رجال الكنيسة المعصومة عندهم ، ولا تزال سمومها تسري في أرواح الملايين من نابتهم بما ينفثه فيها القسيسون المربون ، وما يكتبه وينشره المبشرون ، كما بينه اللورد هدلي الانكليزي بعد إسلامه في كتاب مستقل ترجم بالعربية ولانزال نرى في كل سنة من مفترياتهم بمصر وغيرها مانجزم بأن الذين يدونونه في الكتب يعلمون انه كذب وبهتان ونستدل بهذا على أنهم لايدينون بالنصرانية نفسها لاستحالة إباحتها للكذب الذي هو شر الرذائل كلها .

زحفت الشعوب الأوربية على سورية وفلسطين ومصر لابادة المسلمين واقترفوا فيها باسم المسيح مثال الكمال والطهارة والفضيلة والزهد والرحمة من النقائص والارجاس والرذائل والاطماع والقسوة مالم يتدنس بمثله شعب من شعوب الوثنية ولا القبائل الهمجية في تاريخ البشر ، ثم عادوا من الشرق مخذولين مغلوبين مقهورين ولكنهم استفادوا من معرفة حال المسلمين من العلم والفضائل والعدل ما كان هو السبب لنهضة أوربة الاخيرة في العلوم والفنون والسياسة يعترف بذلك فلاسفة الاجتماع والتاريخ منهم ، وأما رجال السياسة ودعاة النصرانية

فلا يزالون يفترون على المسلمين في دينهم ودنياهم ولا تزال سياسة أوربة مع المسلمين حرباً صليبية الى اليوم (١)

أليس هذا الذي ذكرناه بالايجاز سبباً كافياً لجهل السواد الاعظم من شعوب أوربة بحقيقة الاسلام ، وكتمان كثير من العارفين لما يعرفونه منه ، وتشويه رجال السياسة والدعاية الدينية له ، ومحاولة طمس نوره كلما لاح لهم شيء منه ؟ بلى وانهم ليجدون من سيرة المسلمين الجغرافيين والخرافيين في هذا العصر ما يجعلونه حجة على الطعن في الاسلام نفسه ، بدعوى ان سوء حالهم ما جاءتهم إلا من تعاليم دينهم ، والحق انها ما جاءتهم إلا من جهلهم له وتركهم لهدايته ، وإنهم ليجدون من الملاحدة الذين أفسدهم التفرنج ومن المنافقين والفاسقين عن دينهم من يشايعهم أو يؤيدهم في مطاعنهم . زد على هذا سبباً ثالثا وهو ضعف رجال لدين الاسلامي أنفسهم وعجزهم عن إظهار حقيقة الاسلام لتلك الشعوب بل لنابتة المسلمين العصرية أيضاً بالبيان والحجج المناسبة لحال هذا العصر ، ونفاق بعضهم للاجانب في البلاد التي استولوا عليها وهؤلاء شر آفات الاسلام وأعدى أعدائه وفتنة للذين كفروا تصدهم عنه (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم) (٢)

هذا ملخص ما يصرف الاوربيين وأمثالهم عن معرفة الاسلام والاهتداء به

(٩) الرجاء الجديد في اهتداء الافرنج بالاسلام

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾

كان نظام التربية والتعليم الذي يتولى أمره رجال الدين في بلاد النصرانية كلها وحيث وجدت لهم مدارس وكنائس في غيرها - كان ولا يزال - مهيمنا على العقول

---

(١) انظر كتاب خيبة أوربة الادبية لاحمد رضا بك التركي وقد ترجم بالعربية في تونس ونشر في جريدة النهضة التونسية وطبع على حدة تعلم منه حقيقة قولنا

(٢) بلغنا بعد كتابة هذا البحث كله وقبل طبعه أن بعض علماء جامع الزيتونة في تونس ومنهم رئيسهم رضوا بان يكونوا أعضاء شرف بالاسم المؤتمر الكاثوليكي الذي عقد هنالك وسمي الباي رئيس الشرف له وجل أعماله تنصير المسلمين ، فان صح هذا الخبر كما شرته بعض الجرائد ولا نخاله صحيحاً فهو اقبح خزي تلوث به تاريخ المسلمين ومن يسمون علماءهم يعلمون أنه لا يستطيع أحد أن يجبرهم عليه؛

والقلوب أن يتسرب البهائي يخالف عقيدتهم، فإن علموا شيئاً منها نفذ اليها بادروا الى نزعه وإزالة تأثيره كما يبادر الاطباء الى معالجة من يصاب بمرض معد أو جرح خطر

بيد أن حرية الفكر وحب العلم اللذين تغلغلا في أوربة بعد الحروب الصليبية قاوما هذه السيطرة الكنسية، فوجد تعليم حر، وتفكير حر، وتصنيف حر، ولكن التربية الحرة لا تزال قليلة وضعيفة بما لتأثير السياسي والديني من القوة والسلطان

أعقبت هذه الحريات وما اقتضاه الاخصاء في فروع العلوم والمعارف من عناية بعض العلماء بدراسة الكتب الاسلامية، وكان مما أثمرته سياحة العلماء من قبلها في بلاد الاسلام أن اطلع الافراد بعد الافراد من كل شعب من شعوب الافرنج على كتب الاسلام الصحيحة ، وترجموا كثيراً من مؤلفاتهم العلمية، وشاهدوا عبادات المسلمين وأحاطوا علما بتاريخهم وسمح اتساع حرية العلم لمستقلي الفكر منهم أن يصرحوا قولا وكتابة بما علموا من ذلك ، فشهد الكثيرون من علماء القرن الماضي والحاضر بأن عقيدة الاسلام أكمل عقائد التوحيد والتنزيه التي يتقبلها العقل السليم بالتسليم ، وان عباداته موافقة لفطرة البشرية ، وان أحكامه عادلة، وقد ألفوا في ذلك كتباً كثيرة فندوا فيها مطاعن رجال الكنيسة على الاسلام، ومحمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام. وقد نشرنا بعض هذه الشهادات في مواضع كثيرة من المنار، من أهمها ماجاء في المجلد الخامس مقالات الاسلام والنصرانية للاستاذ الامام رحمه الله تعالى وقد جمعت في كتاب مستقل. ومنها كتاب الدعوة الاسلامية للاستاذ أرنولد الانكليزي وقد كتب فيلسوف التاريخ والاجتماع غوستاف لوبون الفرنسي رقعة بريدية لأديب تركي بعد الحرب الكبرى قال فيها انه ألف كتابا كبيرا في (حضارة العرب) ليثبت لقومه ان العرب المسلمين أساتذة أوربة كلها في مدنيتها الحاضرة وعلومها (قال) ولكن التربية الاكليركية (المسيحية) المسيطرة على أكثر الشعب حالت دون علمه وإذعانه لذلك ، ولا نزال ننشر بعض هذه الشهادات وكان آخرها ما نشرناه في هذا العام (١٣٤٨) من مقدمة ترجمة القرآن للعالم السويسري (مسيو مونتيه) الذي أظهر فيها تعجبه من ايمان نصارى أوربة بانبياء بني اسرائيل وعدم ايمانهم بمحمد (ص) وذكر من خبر نبوته ماهو خلاصة لما ورد في كتب الحديث الصحيحة والسيرة النبوية.

وانما عثرت أفكارهم ببعض المسائل التي عثرت فيها أقلام علماء المسلمين من المتكلمين والفقهاء كمسألة القضاء والقدر فلم يوفقوا لفهمها ولا لبيانها كما يجب ، وأنكر كثير منهم بعض المسائل المخالفة لتقاليدهم وعاداتهم وتربيتهم كالطلاق وتعدد الزوجات ، وهي في الاسلام من مسائل الضرورات ، ثم قبلت جميع شعوبهم وحكوماتهم حكم الطلاق وأفرطوا فيه بما لا يبيحه الاسلام . ولولا فشو الزنا في بلادهم لاضطروا الى قبول تعدد الزوجات أيضاً ولاسيما أهل أوربة الذين اغتالت حرب المدنية الأخيرة زهاء عشرين مليونا من رجالهم

وتصدى بعض المسلمين في هذا القرن للدعوة الى الاسلام في بلاد الانكليز ثم في غيرها فأسلم بعض الناس بدعوتهم ، على ان الدعوة الى الاسلام لاتزال ضعيفة بضعف علم أكثر دعاتها وابتداع في بعض الهنود منهم ، وكما أسلم آخرون منهم باطلاعهم على ترجمة القرآن الحكيم بلغاتهم على كثرة ما في هذه التراجم من الخطأ والغلط ، كما ان كثيرا من نصارى الشرق يسلمون في كل عام ولكن بعض الوجهاء منهم وأصحاب العلاقات المالية والاجتماعية بعشائرهم وعشرائهم يكتمون اسلامهم ويخفون عباداتهم الاسلامية عنهم ، وقد اعترف لي واحد منهم ممن يلبسون (البرنيطة) باسلامه بعد معاشرة طويلة كان يسألني فيها سؤال المستفيد عن بعض المسائل الدينية ويتلقى أجوبتي بالارتياح - ولكنه اشترط علي كتمان خبره

وكان رئيس من رؤساء الادارة (قائمقام) في لبنان صديقا لوالدي . وكان يزورنا فيكثر من هذه الاسئلة ثم مرض فعاده والدي بداره في مركز عمله فخلا به فاعترف له في هذه الخلوة باسلامه واضطراره لكتمانه عدة سنين ، ثم قال وإنني أشعر الآن بقرب الأجل فأشهدك علي بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، وعلى هذه الشهادة أموت . ولو كان للاسلام دولة قوية عزيزة تحيي حضارته وتقيم شريعته لرأينا الناس من جميع الشعوب يدخلون فيه أفواجا

هذا وإن الذين يعاشرون علماء المسلمين الذين يعرفون الاسلام الصحيح ويقدرون على بيانه من عقلاء الافرنج المستقلي الفكر يعجبون مما يسمعونه منهم حتى ليشك أكثرهم في انه هو الاسلام الذي جاء به محمد النبي الامي (ص)

ذكرت في مواضع من المنار أنني عاشرت رجلا من خيار الانكليز الذين تقلدوا بعض أعمال الحكومة بمصر(١) فكنت كلما ذكرت له شيئاً من حقيقة الاسلام يتعجب ويقول لي انه هو يعتقد هذا أو هذا فلسفة لا دين، وانه قال لي مرة إن كان ما تقوله هو الاسلام حقيقة فأنا مسلم، وقال مرة أخرى: إما أن أكون أنا مسلماً وإما أن تكون أنت كافراً!! وفسر هذا بكلمة ثالثة قالها في مجلس آخر خلاصتها: اذا سألنا علماء الازهر عما تقوله أنت والشيخ محمد عبده في الاسلام فوافقوا عليه فأنا أعلن اسلامي، ولكنني أرى انكما أوتيتما من العلم والفلسفة العالية في الدين مالا ينكره عالم عاقل فأنتما تسندانه الى الاسلام، وما عليه المسلمون من الاسلام يباينه. قلت له انني مستعد لاثبات كل ما أقوله لك في الاسلام بآيات القرآن. وكنا نتكلم في مسألة فاستدللت عليها بآية من سورة الروم ودللته عليها في ترجمة القرآن الانكليزية، ولكنه لم يصدق ان كل ما أقوله له كذلك

ونشرت في المنار شهادة لورد كروم، بنجاح الاسلام في عقائده القائمة على أساس التوحيد ونظامه المدني وعدله(٢) ثم نشرت شهادة لورد كتشنر لشريعة الاسلام بالعدل وبأنها خير للمسلمين من قوانين أوربة(٣). نشرت هاتين الشهادتين في أيام حياة اللوردين فكانتا مثار العجب لبعض الناس لان رجال السياسة قلما يصرحون بمثل هذه الشهادة للاسلام وهم خصوم أهله

وقد حدثني تاجر مسلم مقيم في مدينة مانشستر الانكليزية انه حضر وعظ قسيس من الانكليز الموحدين في كنيسته فكان من وعظه اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على مفتريات المبشرين وأمثالهم عليه ومنها زعمهم انه كان شهوانياً همه في التمتع بالنساء. قال القس إن من كان كذلك يحتقره جميع الناس ولا يمكنه أن يؤثر تأثيراً صالحاً في قلوب الالوف والملايين من الناس فكيف أمكن لمحمد إذاً أن يهدي هذه الامة

---

(١) هو مستر متشل أنس الذي كان وكيل وزارة المالية (٢) راجع ص ٢٢١ و٣١٢ من مجلد المنار العاشر (٣) راجع ص ٧٧ م ١٧ منه

العظيمة ، وتنتشر في هدايته في الشعوب الكثيرة ؟ ثم انه صلى بالناس وقرأ في صلاته شيئاً من ترجمة القرآن .

الخلاصة أن الاسلام هو الخلاصة الصحيحة لدين الله الحق على ألسنة أنبيائه عليهم السلام الذين لم يحفظ كتاب من كتبهم كله كما بلغوه لاقوامهم ، وما في أيديهم منها ينافي مصالحهم كتشديدات التوراة في أمور المعيشة والحرب واثرة بني اسرائيل على البشر ، وتشديد الاناجيل في الزهد وترك الدنيا . وقد نسخ الله بالاسلام جل ماجاءوا به لانه كان خاصاً بشعوبهم في أزمنتها وزاد عليها ماأكملها به على لسان خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم مبيناً إياها أكمل البيان ، مؤيداً بأوضح البرهان ، مع أصول التشريع العام ، الموافق لمصالح البشر في كل زمان ومكان ، وكان من براهين صحته ظهور هذه العلوم والحقائق على لسان رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعاشر المتعلمين العارفين بالكتب السابقة . ومن معجزات كتابه الخالدة — وراء إعجازه للبشر بعلومه وتشريعه واخباره عن الغيب وبلاغته وأسلوبه الذي يعلو جميع كلام البشر — أن ماوصل اليه علم البشر من العلوم والحقائق السماوية والارضية لم ينقض شيئاً منه

فلا وسيلة لانقاذ العالم المدني العصري مما انتهى اليه من المفاسد المادية ، والفوضى الدينية والادبية ، وتعارض المذاهب الرأسمالية والشيوعية ، إلا بهذا الدين الوسط كما يعترف الذين عرفوه في الجملة حتى من الماديين (١) وقد قوي استعداد الشعوب الاوربية للاهتداء به اذا أمكن بيانه لهم كما أنزله الله تعالى وبينه رسوله الاعظم بسنته المتبعة التي كان عليها أهل العصر الاول سليمة من البدع والآراء المذهبية ، والخرافات التصوفية ، وكان حكيما الاسلام السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده يعتقدان ان مآل الافرنج الى الاسلام إسلام القرآن لا إسلام مسلمي هذا العصر وكثير ممن قبلهم ، وانه ربما آل الأمر

---

(١) كان الدكتور شبلي شميل يقول لايوجد دين يمكن أن يتفق مع الترقي الاجتماعي والعلمي الا دين القرآن . ويقول إن محمدا أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ولا يتصور وجود مثله في الآتين . وكتب داود افندي مجاعص من أدباء نصارى لبنان مقالا في هذا المعنى نشره في بعض الجرائد منذ بضع عشرة سنة

الى أخذ الشعوب الاسلامية بالوراثة دون العلم والحكمة الى أخذ الاسلام عنهم .
وها نحن أولاء نرى كثيراً من المسلمين يأخذون علوم الاسلام عن المستشرقين من الافرنج وبدؤا يقلدون دولة الولايات المتحدة في أمريكة بالدعوة الى ترك شرب الخمر .
إن الافرنج ولا سيما أولي التربية الحرة الاستقلالية منهم يقربون من الاسلام يوما بعد يوم وانما يرجى اهتداؤهم به في أقرب وقت بتأليف جمعية غنية لنشر دعايته في أوربة وأميريكة ، وهذا ما كنا شرعنا فيه منذ بضع عشرة سنة إذ أنشأنا جمعية الدعوة والارشاد ومدرسة الدعوة والارشاد لها وكنا وفقنا لتقرير وزارة الاوقاف الاسلامية بمصر النفقة على المدرسة ولكن الدسائس الاجنبية فازت بحمل وزارة الاوقاف على إلغاء هذه الاعانة في زمن الحرب الكبرى ، ولم يوجد من أغنياء المسلمين الاغبياء السفهاء ولا من أمرائهم المسرفين المتكبرين من يقوم بها ، ونحمد الله تعالى أن لاح في مهد الاسلام نور جديد لاحياء هذا الدين ، هو الآن محل الرجاء لجميع عقلاء المسلمين المصلحين (ولتعلمن نبأه بعد حين)

﴿ تفسير بقية الآيات في اليهود والنصارى ﴾

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ﴾ هذا استئناف بين به ما في قوله (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) من الاجمال ، فان أهل الكتاب لو أطلقوا لقب ابن الله على عزير والمسيح إطلاقا مجازيا كما أطلق في كتبهم ولم يضاهئوا به من قبلهم من الوثنيين لما كانوا به كفارا وانما كانوا كفاراً بهذه الوثنية التي أشير اليها بهذه المضاهأة وبينها بهذه الآية .
الأحبار جمع حبر بفتح الحاء المهملة وكسرها وهو العالم من أهل الكتاب (١) والرهبان جمع راهب ومعناه في اللغة الخائف ، وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة (٢) والرهبانية في النصرانية بدعة كما قال تعالى في سورة الحديد (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) وكانت نيتهم فيها صالحة كما قال تعالى (إلا ابتغاء رضوان الله) ذلك بان الاصل فيها تأثير مواعظ المسيح عليه السلام في الزهد

(١) راجع اشتقاقه في ص ٣٩٨ ج ٦ تفسير (٢) راجع ص ١١ ج ٧ تفسير

والاعراض عن لذات الدنيا ، ثم صار أكثر منتحليها من الجاهلين والكسالى فكانت عبادتهم صورية أعقبتهم رياء وعجباً وغروراً بأنفسهم وبتعظيم العامة لهم ولذلك قال تعالى (فما رعوها حق رعايتها) ولما صارت النصرانية ذات تقاليد منظمة في القرن الرابع وضع رؤساءهم نظما وقوانين للرهبانية ولمعيشتهم في الاديار . وصار لها عندهم فرق كثيرة يشكو بعض أحرارهم من مفاسدهم فيها . فكان ذلك مصداقا لقوله تعالى في سلفهم المخلصين (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) وفي خلفهم المرائين (وكثير منهم فاسقون) وهذه الآية من تحرير القرآن للحقائق في المسائل الكبيرة بعبارة وجيزة هي الحق المفيد فيها ، وقد نهى النبي (ص) عن الرهبانية في الاسلام لما سنبينه في تفسير سورة الحديد ان شاء الله تعالى أن يحيينا ويوفقنا لتفسيرها .

والمعنى اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أربابا ، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين فيهم أربابا بما أعطوهم من حق التشريع فيهم وأطاعوهم فيه، والنصارى اتخذوا رهبانهم أي عبادهم الذين يخضع العوام لهم أربابا كذلك . والاظهر أن يكون المراد من الاحبار والرهبان جملة رجال الدين في الفريقين أي من العلماء والعباد ، فذكر من كل فريق ماحذف مقابله من الآخر على طريقة الاحتباك — أي اتخذ اليهود أحبارهم وربانيهم والنصارى قسوسهم ورهبانهم أربابا غير الله وبدون إذنه باعطائهم حق التشريع الديني لهم وبغير ذلك مما هو حق الرب تعالى . والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين فاتخاذهم أرباباً يستلزم اتخاذ من فوقهم من الاساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولى ، فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوناً كان أو غير مدوّن ، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدوّن سواء قالوه بالتبع لمن فوقهم ، أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم . وكذلك اتخذوا المسيح بن مريم رباً وإلهاً . أشرك تعالى بين اليهود والنصارى في اتخاذ رجال الدين أرباباً وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه ، واليهود لم يعبدوا عزيراً ولم يؤثر عمن قال منهم انه ابن الله انهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم في المسيح انه هو الله الخالق المدبر لأمور العباد ، ومن النصارى من يعبدون أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك،

وجميع الكاثوليك والارثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين في عرفهم: يتوسلون بهم، ويتخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم، ولكنهم لا يسمون ذلك عبادة في الغالب. والظاهر أن من كان قد تنصر من مشركي العرب لم يكونوا يعبدون هؤلاء الرؤساء والكبراء في الملة إلا قليلا. وأما اتخاذهم أربابا بالمعنى المأثور في تفسير الآية فقد كان عاما عند الفريقين فان اليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة بل لم يلتزموها بل أضافوا اليها من الشرائع اللسانية عن رؤسائهم ما كان خاصا ببعض الاحوال من قبل أن يدونوه في المشنه والتلمود. ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم

وأما النصارى فقد نسخ رؤساؤهم جميع أحكام التوراة واستبدلوا بها شرائع كثيرة في العقائد والعبادات والمعاملات جميعا. وزادوا على ذلك انتحالهم حق مغفرة الذنوب لمن شاؤا وحرمان من شاؤا من رحمة الله وملكوته. وهذا حق الله وحده (ومن يغفر الذنوب إلا الله)؟ أي لا أحد. والقول بعصمة البابا رئيس الكنيسة في تفسير الكتب الالهية ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من العبادات وتحريم المحرمات

روى الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وغيرهم عن عدي بن حاتم (رض) قال أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) فقال «أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، واذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» كذا في الدر المنثور. قال ابن كثير: وروى الامام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه انه لما بلغته دعوة رسول الله (ص) فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله (ص) على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الاسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله (ص) وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال فقلت انهم لم

يعبدوهم ، فقال « بلى انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله (ص) « ياعدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ مايضرك أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله » ثم دعاه الى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال « ان اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية . اه

ولبعض المفسرين أقوال في الآية جديرة بأن تنقل بنصها لما فيها من العبرة لاهل هذا العصر :

قال العلامة الشيخ سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي في تفسير هذه الآية من كتابه (الاشارات الالهية ، الى المباحث الاصولية) أي مايتعلق باصول العقائد وأصول الفقه في القرآن — مانصه : « أما المسيح فاتخذوه ربا معبوداً بالحقيقة . وأما الاحبار لليهود والرهبان للنصارى فانما اتخذوهم أربابا مجازاً ، لانهم أمروهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وانكار رسالته فأطاعوهم وغير ذلك مما أطاعوهم فيه فصاروا كالارباب لهم بجامع الطاعة ، والنصارى يزعمون أن المسيح قل لتلاميذه عند صعوده عنهم : ماحللتموه فهو محلول في السماء وما ربطتموه فهو مربوط في السماء . فمن ثم اذا أذنب أحدهم ذنبا جاء بالقربان الى البترك أو الراهب وقال ياأبونا اغفر لنا . — بناء على أن خلافة المسيح مستمرة فيهم وانهم أهل الحل والعقد في السماء والارض على مانقلوه عن المسيح وهو من ابتداعاتهم في الدين (وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحداً) الآية — بدليل قول المسيح (يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار) اه

أقول أما عبارته في الحل والربط فهي موافقة لترجمة اليسوعيين في التعبير بالفعل الماضي ، وأما الترجمة الاميركانية فهي بالفعل المضارع هكذا (متى ١٨ : ١٨ الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الارض يكون مربوطاً في السماء وكل ماتحلونه على الارض يكون محلولا في السماء) وأما أمر المسيح إياهم بعبادة الله ربه وربهم وكذلك موسى عليهما السلام فسيأتي

وقال الامام الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) : الاكثرون من المفسرين قالوا ليس المراد من الارباب انهم اعتقدوا انهم آلهة العالم بل المراد انهم أطاعوهم في اوامرهم ونواهيهم. نقل أن عدي بن حاتم كان نصرانيا فانتهى الى رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة براءة فوصل الى هذه الآية قال فقلت: لسنا نعبدهم، فقال «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ - قلت بلى قال - فتلك عبادتهم» وقال الربيع قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني اسرائيل؟ (١) فقال انهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الاحبار والرهبان فكانوا يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى

(ثم قال الرازي) قال شيخنا ومولانا (٢) خاتمة المحققين والمجتهدين (رض) قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض مسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون الي كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع ان الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الاكثرين من اهل الدنيا اهـ

ثم قال (فان قيل) انه تعالى لما كفرهم بسبب انهم أطاعوا الاحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره كما هو قول الخوارج ﴿ والجواب ﴾ ان الفاسق وان كان يقبل دعوة الشيطان الا انه لا يعظمه لكن يلعنه ويستخف به، أما أولئك الاتباع كانوا (؟) يقبلون قول الاحبار والرهبان ويعظمونهم فظهر الفرق

قال (والقول الثاني) في تفسير هذه الربوبية ان الجهال والحشوية اذا بالغوا

(١) الظاهر انه انما سأله عن الفريقين لانه موضوع الاية ولذكر الرهبان في الجواب وأنه سقط لفظ النصارى من السؤال بغلط الطبع أو النسخ من قبله. فان تحقق ان السؤال عن بني اسرائيل دون النصارى فيوجه بأن اليهود موحدون لا يعبدون أحبارهم والنصارى يعبدون رؤساءهم كما تقدم. وعلى هذا يكون ذكر الرهبان في الجواب سهواً من النساخ أو مبنياً على أن المراد بالرهبان العباد من اليهود والنصارى جميعاً (٢) أشهر شيوخ والده عمر ضياء الدين ومحيي السنة البغوي، فأيهما يعني هنا؟

في تعظيم شيخهم وقدوتهم فقد يميل طبعهم الى القول بالحلول والاتحاد ، وذلك الشيخ اذا كان طالبا للدنيا بعيداً عن الدين فقد يلقي اليهم ان الامر كما يقولون ويعتقدون ، وشاهدت بعض المزورين ممن كان بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له ، وكان يقول لهم انتم عبيدي ، فكان يلقي اليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه فربما ادعى الالوهية، فاذا كان هذا مشاهداً في هذه الامة فكيف يبعد ثبوته في الامم السالفة

(قال) وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل ان يكون المراد منها انهم اطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله — وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا منهم انواع الكفر فكفروا بالله - فصار ذلك جارياً مجرى انهم اتخذوهم اربابا من دون الله - ويحتمل انهم اثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد ، وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع في هذه الامة اه كلام الرازي

(يقول محمد رشيد) اننا اوردنا هذا عن هذين المفسرين من اشهر مفسري القرون الوسطى وأكبر نظارها ليعتبر به مسلمو هذا العصر الذين يقلدون شيوخ مذاهبهم الموروثة بغير علم في العبادات والحلال والحرام بدون نص من كتاب الله قطعي الدلالة ، أوسنة رسوله القطعية المتبعة بالعمل المتواتر، ولا من حديث صحيح ظاهر الدلالة أيضا، بل فيما يخالف النصوص وكذا أصول أئمتهم ايضاً — والذين يتبعون مشايخ الطرق في بدعهم وغلوهم وضلالهم، ويوجد فيهم في هذا الزمان من هم مثل من ذكر الرازي ومن هم شر منهم ، وقد بلغني عن معاصر من الدجالين المنتحلين للتصوف فى مصر انه قال لبعض الزائرين له ممن يظن انه لا يقول بالخرافات: ان مريدي وأتباعي يعتقدون انني اعلم الغيب فماذا أفعل؟ وبلغني عن رجلين لا يعرف أحدهما الآخر أن كلا منهما رأى في المسجد الحرام احد تلاميذ هذا الدجال يقول نويت أن اصلي ركعتين لسيدي الشيخ فلان - أو قال لوجه الشيخ فلان

وأما المقلدون لمنتحلي الفقه المذهبي في كل مايقولون بآرائهم وتناليدهم انه حلال أو حرام ، وان خالف السنة ونص القرآن ، فهذا داء عام قلما كنت تجد قبل هذه السنين الاخيرة في البلد الكبير أحداً يخالفه فيؤثر ما صح في كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ على قول مشايخ مذهبه الا أفرادا غير مجاهرين ، ونحمد الله تعالى ان رأينا تأثيراً كبيراً لدعوتنا المسلمين الى هداية الكتاب والسنة فصار يوجد في مصر وغيرها ألوف من الناس على هذه الهداية ، ومنهم الدعاة اليها وأولو الجمعيات التي أسست للتعاون على نشرها، على تفاوت بينهم في العلم بهما، وجهل بعضهم أصل هذه الدعوة ومن جدد نشرها

(وقال) السيد حسن صديق في تفسيره (فتح البيان في مقاصد القرآن) ما نصه: وفي هذه الآية مازجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير(١) مايقوله الاسلاف على مافي الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فان طاعة المتمذهب لمن يقتدي بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للاحبار والرهبان أربابا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم وحرموا ماحرموا وحللوا ماحللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمرة بالتمرة والماء بالماء.

فياعباد الله، ويا أتباع محمد بن عبدالله، مابالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً وعمدتم الى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما ، وطلبه للعمل منهم بما دلا عليه وأفاداه؟ فعملتم بما جاؤا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة، بل تنادي بأبلغ نداء، وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك، ويباينه، فأعرتموها آذانا صما، وقلوبا غلفا، وأفهاما مريضة، وعقولا مهيضة، وأذهانا كليلة ، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزيّة أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبها لكم الاموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ، ومتعبدهم ومتعبدكم ، ومعبودهم ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤكم به من الرأي أقوال إمامكم وإمامهم ، وقدوتهم وقدوتكم ، وهو الامام الأول محمد بن عبد الله ﷺ

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن في دينه كمخاطر

١) كذا في طبعة الهند ولعله إيثار

اللهم هادي الضال مرشد التائه موضح السبيل اهدنا الى الحق وأرشدنا الى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية . اه

(أقول) والتحقيق إن اتخاذ الارباب غير اتخاذ الآلهة وأنهما يجتمعان ويفترقان، فان رب العالمين هو خالقهم ومربيهم بنعمه ومدبر أمورهم بسننه الحكيمة وشارع الدين لهم، وأما الاله فهو المعبود بالفعل أي الذي تتوجه اليه قلوب العباد بالاعمال النفسية والبدنية والتروك للقربة ورجاء الثواب ومنع العقاب عن اعتقاد أنه صاحب السلطان الأعلى والقدرة على النفع والضر بالاسباب المعروفة وغير المعروفة إذ هو مسخرها وبغيرها إن شاء . والحقيق بالعبادة هو الرب الخالق المدبر وحده، ولكن من البشر من يترك عبادته ومنهم من يعبد غيره معه أو من دونه . وكانت العرب تتخذ أصناما تعبدها ولكنهم لم يتخذوها أربابا بل شهد القرآن بأنهم كانوا يعتقدون ويصرحون بأن الله الخالق لكل شيء هو رب كل شيء ومليكه ومدبر أمره، وهو يحتج عليهم بأن الرب هو الحقيق بالعبادة وحده دون غيره، فلا ينبغي لهم أن يعبدوا أحداً من دونه لا بشراً ولا ملكا ولا شيئاً سفلياً ولا علويا .

فمن اعتقد ان انسانا أو ملكا أو غيرهما من الموجودات يخلق كما يخلق الله أو يقدر على تدبير شيء من أمور الخلق والتصرف فيها بقدرته الذاتية غير مقيد بسنن الله تعالى العامة في الاسباب والمسببات كأمثاله من أبناء جنسه فقد اتخذه ربا . وكذلك من أعطى أي انسان حق التشريع الديني بوضع العبادات كالأوراد المبتدعة التي تتخذ شعائر موقوتة كالفرائض، وبالتحريم الديني الذي يتبع خوفا من سخط الله ورجاء في ثوابه — فقد اتخذه ربا، وأما اذا دعاه فيما لا يقدر عليه المخلوقون بما لهم من الكسب في دائرة السنن الكونية والاسباب الدنيوية أو سجد له أو ذبح القرابين له وذكر عليها اسمه أو طاف بقبره وتمسح به وقبله تقربا اليه وابتغاء مرضاته وعطفه أو إرضائه الله عنه وتقريبه اليه زلفى كما يطوف بالكعبة ويستلم الحجر الاسود ويقبله — ولم يعتقد مع هذا انه يخلق ويرزق ويدبر أمور العباد فقد اتخذه إلهاً لا ربا، فان جمع بين الامرين فهو المشرك في الربوبية والالوهية معاً كما بينا هذا مرارا كثيرة وقد ثبت في الآيات المحكمة القطعية الدلالة ان الله تعالى هو شارع الدين

وان رسوله ﷺ هو المبلغ له عنه (إن عليك إلا البلاغ — ما على الرسول الا البلاغ – فانما عليك البلاغ) فهذه انواع الحصر التي هي أقوى الدلالات. وأركان الدين التي لا تثبت إلا بنص كتاب الله تعالى أو بيان رسوله ﷺ لمراده منه ثلاث (١) العقائد و (٢) العبادات المطلقة والمقيدة بالزمان أو المكان أو الصفة أو العدد ككلمات الاذان والاقامة المعدودة المشروط فيها رفع الصوت – و (٣) التحريم الديني. وما عدا ذلك من أحكام الشرع فيثبت باجتهاد الرأي فيما ليس له فيه نص ، ومداره على إقامة المصالح ودفع المفاسد كما بيناه في محله بالتفصيل ، ونصوص الكتاب وهدي السنة وعمل السلف الصالح وكلامهم كثير في هذا ولاسيما التحريم الديني الذي هو موضوعنا هنا وكونه لا يثبت إلا بدليل قطعي الرواية والدلالة

نقل ابن مفلح عن شيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية ان السلف لم يطلقوا الحرام إلا على ما علم تحريمه قطعاً (١) وذكر عقبه أن في إطلاق الحرام على ما ثبت بدليل ظني روايتين في المذهب. ونحن نقول يكفينا هدي السلف الصالح المتفق عليه بينهم ترجيحاً للرواية الموافقة لما نقله ابن تيمية وغيره وتضعيفاً للرواية الاخرى وان جرى عليها الكثيرون أو الاكثرون من المؤلفين المقلدين ومن بعدهم وتبعهم العوام حتى عسروا ما يسره الله من دينه وأوقعوا انفسهم والناس في اشد الحرج الذي نفى الله تعالى قليله وكثيره بقوله (وما جعل عليكم في الدين من حرج – ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج – يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)

وروى الامام الشافعي في الام عن القاضي أبي يوسف معنى ما ذكره الشيخ تقي الدين ابن تيمية عن السلف رحمهم الله تعالى ولكن بعبارة اخص وأقوى وهي (٢) :

« ادركت مشايخنا من اهل العلم يكرهون في الفتيا أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، الا ما كان في كتاب الله عز وجل بيناً بلا تفسير . حدثنا ابن السائب عن ربيع بن خيثم وكان أفضل التابعين انه قال : اياكم أن يقول الرجل ان الله احل هذا او رضيه ، فيقول الله له لم احل هذا ولم أرضه – ويقول ان الله حرم هذا (٣)

(١) راجع ص ١٢٥ من الجزء الاول من كتاب الآداب الشرعية (٢) راجع ص ٣١٩ ج ٧ من الام (٣) لعله قد سقط من هنا : ونهى عنه بدليل ما بعده

فيقول الله كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه ، وحدثنا بعض اصحابنا عن ابراهيم النخعي أنه حدث عن اصحابه انهم كانوا اذا أفتوا بشيء او نهوا عنه قلوا هذا مكروه وهذا لا بأس به . فأما ان نقول هذا حلال وهذا حرام فما اعظم هذا »اه ولم ينكر عليه الشافعي هذا النقل ولا مضمونه، بل أقره وما كان ليقر مثله إلا اذا اعتقد صحته

وما نقله الامام أبو يوسف وشيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف هو الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكبار علماء التابعين وأئمة الامصار . فأما السنة وعمل الصحابة فأقوى الحجج فيهما ماعلم نصاً وعملا من عدم تحريم الخمر والميسر تحريماً عاما تشريعياً بآية البقرة التي تدل عليه دلالة ظنية بقوله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) بل ترك الامر فيها لاجتهاد الافراد فمن فهم من الآية التحريم تركها ومن لم يفهم ذلك ظل على الأخذ بالاباحة اعتقاداً وعملا أو اعتقاداً فقط كعمر بن الخطاب (رض) الذي ظل يراجع النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك ويدعو الله تعالى أن يبين لهم في الخمر بيانا شافياً الى ان نزلت آيات المائدة القطعية الدلالة كما بينا هذا في تفسيرها وفي مواضع اخرى

وأما أئمة الامصار فمن النقل العام عنهم ما ذكرناه آنفاً ومنه النصوص الخاصة الكثيرة المنقولة عنهم في المسائل التي يرون حظرها والتعبير عما ليس فيه نص قطعي منها بمثل أكره كذا، أو لا أراه أو لا أفعله . وفاقا لما ذكره ابراهيم النخعي من أئمة التابعين عن علماء الصحابة وأمثاله من التابعين . ولكن قسم بعض أتباع أئمة الامصار لهم ما كانوا يصرحون بكراهته الى كراهة تحريم وكراهة تنزيه، وجعل بعضهم التحريم هو الاصل المراد عند الاطلاق غلواً في الدين .

قال ابن مفلح في مقدمة كتابه الفروع في بيان ماجرى عليه الحنابلة فيما يسمونه مذهب الامام أحمد (رض) : وقوله لا ينبغي، أو لا يصلح ، أو أستقبحه ، أو هو قبيح ، أو لا أراه — للتحريم اه ومنه يعلم الفرق بين احتياط الامام أحمد واتقائه تحريم شيء على عباد الله بغير بينة قطعية عن الله تعالى وتساهل بعض الفقهاء من اتباعه وغيرهم وتشديدهم في ذلك . وأحمد الله انهم لم يتفقوا على ان ماذكر للتحريم فقد نقل عنهم ابن مفلح نفسه قولا آخر مستنده روايات عن أحمد في عدم التحريم،

ثم قال: وفي «أكره» أو «لا يعجبني» أو «لا أحبه» أو «لا أستحسنه» أو «يفعل كذا احتياطا» وجهان. و: أحب كذا أو يعجبني أو أعجب إلي ً للندب، وقيل للوجوب الخ

وقوله وجهان يعني للأصحاب أحدهما انه لكراهة التنزيه والثاني انه للتحريم.

وفي تصحيح الفروع عن بعضهم ان الأولى أن ينظر الى القرائن في كل مسألة فيحمل على ماتدل عليه من الاحكام الخمسة. وأقول: ما كان أغناهم عن مجاراة غيرهم بجعل كلامه رحمه الله للتشريع واستنباط الاحكام الشرعية منه ولو بالاحتمال، واذا كان كلام الله عز وجل الدال على التحريم بالظن الراجح المحتمل لعدمه بالاجتهاد لم يجعله الرسول (ص) وأصحابه دليلا على التحريم العام المطلق ويلزموا الأمة العمل به بل تركوه لاجتهاد الافراد فكيف يجوز أن نجعل كلام من لا يحتج بكلامه مطلقا باجماع المسلمين دليلا على التحريم العام؟ مع العلم بأن اجتهاد العالم حجة عليه لا على غيره؟ وقد تقدم بطلان الأخذ بالتقليد ومنع الائمة له في مثل ذلك في مواضع كثيرة.

وجملة القول ان الله تعالى أنكر في كتابه على من يقول برأيه وفهمه: هذا حلال وهذا حرام، وسماه كذابا وسمى أتباعه شركا، وصح عن رسول (ص) أنه لم يحرم على الناس شيئاً مما أحل الله تعالى لهم في حديث الثوم والبصل وغيره، وانما أحل الله هذين بالنصوص العامة كقوله (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعاً) وجعله العلماء أصلا من أصول الاحكام فقالوا الاصل في جميع الاشياء أو المنافع الاباحة

والعمدة في تفسير اتخاذ رجال الدين أربابا بما تقدم في حديث عدي بن حاتم وما في معناه من الآثار — هي الآيات التي أشرنا اليها في كون التحريم على العباد انما هو حق ربهم عليهم، وكونه تشريعاً دينياً وانما شارع الدين هو الله تعالى، فاذا نيط التشريع الديني بغيره تعالى كان ذلك إشراكا بنص قوله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله؟) وقد فصلنا هذا في مواضعه الخاصة به

فليتق الله تعالى من يظنون بجهلهم أن جرأتهم على تحريم مالم يحرمه الله تعالى على عباده من كمال الدين، وقوة اليقين، سواء حرموا ما حرموا بآرائهم وأهوائهم، و بقياس في غير محله، مع كونهم من غير أهله، أو بالنقل عن بعض مؤلفي

الكتب الميتين وإن كبرت ألقابهم ، وكذا إن كان أخذا من نص شرعي لا يدل عليه دلالة قطعية ، على ماتقدم بيانه في الخمر والميسر ، وليتق الله من يضعون للناس الأوراد والاحزاب الكثيرة ، ويجعلونها لهم كشعائر الدين المنصوصة ، بحملهم عليها في الاجتماعات ، واشتراكهم فيها برفع الاصوات ، أو توقيتها لهم كالصلوات ، فكل ذلك حق لله تعالى وحده ، ولم يكن عند أكمل البشر في الدين من اهل القرون الاولى شيء من ذلك . ووالله ان المأثور في كتاب الله وسنة رسوله من الاذكار والدعوات ، خير من حزب فلان وورد فلان وأمثل دلائل الخيرات ، وما هي بقليل ، فليراجعوها في كتب الاذكار للمحدثين كأذكار النووي ، وكتاب الحصن الحصين للجزري ، ففيهما مايكفيهم من الاذكار والادعية المطلقة والمقيدة بالعبادات المختلفة ، وبالازمنة والامكنة وحدوث الحوادث

(قد يقول) نصير للبدعة ، خذول للسنة ، ان هذه الاوراد والاحزاب والصلوات التي وضعها شيوخ الطريقة العارفين ، وكبار العلماء العاملين ، من البدع الحسنة التي جربت فائدتها ، وثبتت منفعتها بمواظبة الألوف من المسلمين عليها وخشوعهم بتلاوتها ، دون غيرها من الصلوات والاذكار والادعية المأثورة فكيف يصح لأحد أن يأفكهم عنها ؟

(وأقول) ان كاتب هذا ممن جربوها باخلاص وحسن اعتقاد ، وكان يبكي لقراءة ورد السحر ولا يبكي لتلاوة القرآن ، ثم رفعه الله تعالى بعلم الكتاب والسنة فعلم ان ذلك كان من الجهل وضعف الايمان ، وانه عين ما وقع لمن قبلنا من العباد والرهبان . واننا نكشف الغطاء عن هذه الشبهة القوية ، التي قد تعد عذراً للجاهل بما ذكرنا من الآيات القرآنية ، وسيرة السلف الصالح المرضية ، دون من تقوم عليه حجة العلم ببيان الحقائق الآتية :

(١) ان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم بما يرضيه عز وجل من عبادته وما يتزكى به عابدوه منها ، ولا يبيح الايمان لأحد من أهله أن يقول أو يعتقد ان أحداً من شيوخ الطريق والاولياء يساوي علمه علم الله تعالى أو علم رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك . دع الاعتقاد بأنهم يعلمون مالا يعلم الله ورسوله أو فوق مايعلمان من ذلك فانه أصرح في الكفر بقدر ماتدل عليه صيغة (افعل) في الموضوع

(٢) انه تعالى يقول (اليوم أكملت لكم دينكم) فكل من يزيد في الاسلام عبادة أو شعارا من شعائر الدين فهو منكر لكماله مدع لاتمامه ، وانه أكمل في الدين من محمد (ص) وآله وصحبه ، ولله در الامام مالك القائل من زعم انه يأتي في هذا الدين بما لم يأت به رسول الله (ص) فقد زعم ان محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، والقائل لا يصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها .

(٣) انه تعالى يقول (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر وغير المنبر « وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وقد بين العلماء المحققون ان هذه القضية الكلية عامة في الامور الدينية المحضة كالعبادات كما تقدم مراراً ، وان البدعة التي تنقسم الى حسنة وسيئة هي البدعة اللغوية التي موضوعها المصالح العامة من دينية ودنيوية كوسائل الجهاد وتأليف الكتب وبناء المدارس والمستشفيات وتنوير المساجد

إن قيل ان هذه الزيادة التي أتى بها الصالحون هي من المشروع باطلاقات الكتاب والسنة العامة كقوله تعالى (اذكروا الله ذكراً كثيرا) وقوله (صلوا عليه وسلموا تسليما) فلا تنافي ما تقدم — قلنا :

(٤) ان حقيقة الاتباع المأمور به أن يلتزم اطلاق ما أطلقته نصوص الكتاب والسنة وتقييد ما قيدته ، ولذلك قال الفقهاء « وصلاة رجب وشعبان بدعتان قبيحتان مذمومتان » — وهذه عبارة المنهاج — وما ذلك إلا انهما قيدتا بعدد معين وكيفية مخصوصة وزمن مخصوص ، وهذا حق الشارع لا المكلف — وإلا فهما من الصلاة التي هي أفضل العبادات ، وقد فصل هذا الموضوع الامام الشاطبي في كتابه الاعتصام

(٥) ان الزيادة على المشروع في العبادة كالنقص منه ، وان التكلف والمبالغة في المشروع منها غلو في الدين وهو مذموم شرعا بالاجماع ، وصح عن النبي (ص) النهي عنه ، والأمر بالمستطاع منه .

(٦) ان الزيادة لا يتحقق كونها زيادة إلا مع الاتيان بالاصل فمن ترك شيئاً من المأثور المشروع وأتى بشيء من هذه العبادات المبتدعة فهو مفضل له على

ماشرعه الله تعالى أو سنه رسوله صلى الله عليه وسلم، وكفى بذلك ضلالا واتباعاً للهوى، ولا يمكن لاحد أن يدعي انه يأتي بشيء منها إلا بعد اتيانه بجميع ماصح في الكتاب والسنة في ذلك، وأكثر المتعبدين بهذه الاوراد والاحزاب لايعنون بحفظ المأثور ولا يعلمونه إلا قليلا من المشهور بين العامة كالوارد عقب الصلوات وهم يبتدعون فيه بالاجتماع له ورفع الصوت به كما بينه الشاطبي وسماه البدعة الاضافية ورد بحق على من تساهل فيه من المتفقهة

(٧) ان هذه الاوراد والاحزاب لايخلو شيء منها فيما اطلعنا عليه من أمور منكرة في الشرع وأمور لايجوز فعلها إلا بتوقيف منه كوصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله أو القسم عليه بخلقه، أو بحقوقهم عليه بدون إذنه، أو القسم بغيره وقد سماه الرسول (ص) شركا، وكذا وصف رسوله صلى الله عليه وسلم بما لايصح وصفه به، وإسناد أفعال اليه لم تصح بها رواية، وكذا الغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه بما لايليق إلا بربه وخالقه وخالق كل شيء. ومنها ماهو كفر صريح. ولبعض الدجالين المعاصرين صلوات وأوراد فيها من هذه المنكرات مالا يوجد في غيرها من أمثالها، والذين يعرفون سيرة هؤلاء الدجالين يعلمون انهم وضعوها للتجارة بالدين واكتساب المال والجاه عند العوام(*) ولا تنس مانقلناه آنفا

(*) زعم بعض هؤلاء الجاهلين أن الممنوع من اطرائه (ص) هو ادعاء الألوهية له كما فعلت النصارى وكل ماعداها هذا جائز ومن هذا الجائز عندهم ماهو مخالف للقرآن كقولهم إنه كان يعلم الغيب مطلقا ومتى تقوم الساعة ويزعمون أن الآيات الصريحة في خلاف ذلك نزلت قبل إعلام الله له به جاهلين أن الآيات الخاصة بالعقائد لا تنسخ وأن النسخ فيما يصح نسخه لايكون الا بنص متأخر في التاريخ عن المنسوخ يبطل الاول، ومنهم من يحتج ببعض الاحاديث الموضوعة والمنكرة لترويج هذا الغلو الذي يفتن العوام كحديث جابر المنسوب الى عبد الرزاق في خلق النبي (ص) قبل كل شيء من نور الله تعالى، وأن الملائكة وغيرهم خلقوا من ذلك النور بل خلق منه كل شيء، وأنه (ص) أصل هذا الوجود ومنه خلق كل موجود. وقد يقال فيه من جهة المعقول أن كان ذلك النور الذي خلق منه هو ذات الله سبحانه فهو كما يقول النصارى أو أفظع، وان كان نورا مخلوقا واضافته الى الله تعالى للتشريف فهو المخلوق الاول والمخلوق منه هو الثاني. وقد بينا بطلان هذا الحديث رواية ودراية وكذا مافي معناه في ص ٨٦٥ ـ ٨٦٩ من مجلد المنار الثامن

من تفسيري مفاتيح الغيب وفتح البيان (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)

(٨) اذا بحث العالم البصير عن سبب عناية كثير من العوام بهذه الاوراد والاحزاب والصلوات المبتدعة وايثارها على التعبد بالقرآن المجيد وبالاذكار والادعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم مع ايمانهم بأن تلاوة القرآن وأذكاره وأدعيته أفضل من كل شيء وان ماثبت في السنة هو الذي يليها في الفضيلة، وفي كون كل منهما حقا في درجته -لايجد بعد دقة البحث إلا ما أرشدت اليه الآية الكريمة من شرك أهل الكتاب باتخاذ رؤسائهم أرباباً من دون الله باعطائهم حق التشريع للعبادات والتحليل والتحريم غلواً في تعظيمهم، ومضاهأة مبتدعة المسلمين لهم في ذلك كما ضاهؤا هم من قبلهم من الوثنيين كما أنبأ عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله المروي في الصحيحين وغيرهما « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟» وماقص الله علينا ماقص من كفرهم إلا تحذيرا لنامن مثله

فأنت اذا بحثت عن عبادات هؤلاء النصارى من جميع الفرق تجد في أيديهم أوراداً وأحزابا كثيرة منظومة ومنثورة كلها من وضع رؤسائهم ولكنها ممزوجة بشيء من كتب أنبيائهم كصيغة « الصلاة الربانية » وبعض عبارات المزامير عند النصارى. وأنّى لأهل الكتاب بسور كسور القرآن أو بأدعية وأذكار نبوية كالاذكار والأدعية المحمدية في وصف جلال الله وعظمته وأسمائه الحسنى وطلب أفضل مايطلب منه تعالى من خير الدنيا والآخرة ؟ وهل كان أهل العصر الاول من المسلمين سادة للأمم كلها في فتوحهم وأحكامهم إلا بهداية الكتاب والسنة ؟ وهل صارت الشعوب تدخل في دين الله أفواجا إلا اهتداءاً بهم ؟ ثم هل صارت الشعوب الاسلامية بعد ذلك الى ماصارت اليه من الذل والصغار، وتنفير الامم عن الاسلام، إلا بترك هدايتهما الى البدع أو الالحاد ؟ (ومن يضلل الله فما له من هاد)

والغلاة المبتدعون لهذه الاوراد والصلوات يخدعون العوام بما يمزجونه فيها من الآيات مع تحريفهم لها عن مواضعها التي نزلت لاجلها ، ومن الاحاديث وكلام

الائمة والصالحين، ومنها ماهو كذب صراح، وما ليس له سند يعتد به، ويردون على دعاة الكتاب والسنة بأنهم لا يعظمون النبي (ص) أو يكرهون تعظيمه صلوات الله وسلامه عليه، ـ لأنهم يقفون فيه عند الحد الشرعي ـ وبأنهم يكرهون الاولياء وينكرون مكاشفاتهم وكراماتهم، والعوام يقبلون هذا منهم لجهلهم بعقيدة الاسلام وباجماع المسلمين على انه لا يحتج بقول أحد معين ولا بفعله في دين الله تعالى إلا رسول الله (ص) إلا الشيعة الامامية فانهم يقولون بعصمة ١٢ رجلا من آل البيت (رض) أيضا

وقد أرسل رجل من دجالي عصرنا صلواته وكتبه مع بعض الحجاج الصالحين الى المدينة المنورة لتوزيعها فيها على نفقة بعض الاغنياء الاغبياء فرأى ذلك الحاج النبي (ص) في نومه قبل دخول المدينة بليلة يأمره بأن لا يدخل تلك الكتب في مدينته (ص) فدفنها في ذلك المكان، ثم أخبر صاحبها بما رأى بعد عودته على مسمع من الناس فبهت الدجال.

ان في بعض كتب الصوفية كثيراً من المعارف والفوائد والمواعظ المؤثرة، ولكن أكثرها قد أفسد في دين هذه الامة مالم تبلغ إلى مثله شبهات الفلاسفة وآراء مبتدعة المتكلمين لان هذين النوعين لا ينظر فيهما إلا بعض المشتغلين بالعلم العقلي، وأما كتب الصوفية فينظر فيها جميع طبقات الناس وإن كانت أدق عبارة وأخفى إشارة من كتب الفلاسفة. ولا شك ان خير صوفية هذه الامة السابقون الذين كانوا لا يتصوفون إلا بعد تحصيل علم الكتاب والسنة والفقه والاعتصام بالعمل على طريقة السلف كالامام الجنيد وطبقته، ثم ظهر فيهم الغلاة ومن يسمون صوفية الحقائق فابتدعوا ما أنكره عليهم الأئمة حتى قال الامام الشافعي: من تصوف أول النهار لا يأتي آخره إلا وهو مجنون

وأنت ترى ان الحارث المحاسبي من أجل علماء الصوفية وقد روى عنه الجنيد وكان من التمسك بالسنة بحيث لم يأخذ مما خلفه والده من المال الكثير دانقا واحداً على شدة فقره وعلل ذلك بأنه لا توارث مع اختلاف الدين، وما كان والده الا واقفياً أي لا يقول ان القرآن غير مخلوق كما أنه لا يقول هو مخلوق. وقد ألف الحارث في أصول الديانات والزهد على طريق الصوفية فسئل الامام ابو زرعة عنه وعن كتبه فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، بدع وضلالات، عليك بالأثر فانك تجد فيه

مايغنيك عن هذه الكتب ، قيل له في هذه الكتب عبرة، فقال من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه عبرة - بلغكم ان مالكا أو الثوري أو الاوزاعي أو الائمة صنفوا كتباً في الخطرات والوساوس وهذه الاشياء ؟ هؤلاء قوم قد خالفوا أهل العلم ، يأتوننا مرة بالمحاسبي ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ومرة بحاتم الاصم - ثم قال - ماأسرع الناس إلى البدع ! وروى الخطيب بسند صحيح أن الامام أحمد سمع كلام المحاسبي فقال لبعض أصحابه : ماسمعت في الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، ولا أرى لك صحبتهم اه من تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر وتعقبه بقوله (قلت) انما نهاه عن صحبتهم لعلمه بقصوره عن مقامهم فانه مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ويخاف على من يسلكه أن لا يوفيه حقه اه.

فاذا صح هذا التعليل الذي قاله الحافظ في بعض أصحاب الامام أحمد من خيار علماء السنة أفلا يكون غيرهم كدجاجلة هذا الزمان وعوامه أولى بأن لا ينظروا في كتب من لا يعدون من طبقة الحارث المحاسبي في العلم والعمل بحيث ان امام السنة الاعظم في عصره (أحمد بن حنبل) لم ينكر شيئاً مما سمع من كلامه بمخالفته للكتاب والسنة وانما أنكره هو وأبو زرعة لانه شيء جديد مبتدع في أمر الدين يشغل الناظر فيه عن كتاب الله وسنة رسوله (ص) ونهى عن صحبتهم لذلك أو لضيق مسالكهم وكونه لا يفهمها ويستفيد منه إلا من هو مثلهم كما علله الحافظ

فما قول بعد هذا بكتب من جاء بعد هؤلاء من أصحاب القول بوحدة الوجود وغير ذلك من البدع المصادمة للنصوص كمحيي الدين بن عربي الذي يقول في خطبة فتوحاته

الرب حق والعبد حق　　يا ليت شعري من المكلف
ان قلت عبد فذاك ميت　　أو قلت رب أنَّى يُكلف

وغير هذا مما ينقض أساس التكليف ويصرح بأن الخالق والمخلوق واحد في الحقيقة وانما الاختلاف في الصورة ، ومن شعره في ديوانه :

* وما الكلب والخنزير إلا إلهنا *

فهل يجوز لمسلم أن يجعل كلامه وكلام أمثاله حجة ويتخذه قدوة في عقيدته وعبادته ويدعو العامة الى ذلك؟ ونحن نرى المفتونين به من المتصوفة المتفقهين يقولون

انه لايجوز النظر في أمثال هذه الكتب إلا لاهلها من العارفين برموز الصوفية واشاراتهم الخفية مع العلم بالكتاب والسنة ، وقد ذكر الشعراني وهو أشهر داعية في عصره الى خرافات الصوفية أنه سأل شيخه في التصرف علياً الخواص لماذا يتأول العلماء مايشكل ظاهره من نصوص الكتاب والسنة دون المشكل من كلام العارفين؟ فاجابه بأن سبب ذلك القطع بعصمة القرآن وماصح عن الرسول ﷺ من أمر الدين وعدم عصمة هؤلاء الشيوخ من الخطأ . اه بالمعنى من كتابه الدرر والجواهر، وهو حق

وانني أضرب لك مثلا للغرور بكتب هؤلاء الصوفية عن الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى : نقل عنه الشعراني انه قال: عملت كتابا في المعرفة وأعجبت به فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسنا له إذ دخل علي شاب عليه ثياب رثة فسلم علي وقال ياأبا عبدالله المعرفة حق للحق على الخلق أو حق للخلق على الحق؟ فقلت حق على الخلق للحق، فقال هو أولى أن يكشفها لمستحقها، فقلت بل حق للخلق على الحق ، فقال هو أعدل من أن يظلمهم. ثم سلم علي وخرج .قال الحارث فاخذت الكتاب وحرقته وقلت لا عدت أتكلم في المعرفة بعد ذلك اه

(أقول) يعني بالمعرفة هنا المعرفة المصطلح عليها عند الصوفية وانما رجع عنها الحارث لاقتناعه بقول الشاب وتذكره أنها لو كانت مشروعة مرضية لله تعالى لبينها في كتابه فانه قال (١٦: ٨٩ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) ويروى عن ذي النون الصوفي الشهير انه قال : ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف عند أبناء الدنيا ؟ يعني ان وصفها لايجوز الا لاهلها العارفين ولهذا اتفق العلماء على أن من خاض في كلام صوفية الحقائق غير عالم برموزهم ضل وربما كفر، وانه لايجوز سلوك طريقتهم إلا على يد شيخ عارف من الواصلين، والعلماء العاملين. وقد كان الشيخ محمد أبو المحاسن القاوقجي من كبار العباد المشتغلين بالعلم والحديث وقد تلقيت عنه الاحاديث المسلسلة وغيرها وكان من شيوخ طريقة الشاذلي فقلت له يوماً انني لا أحب أن أكون من أهل الطريق المقلدين الذين يجتمعون على قراءة حزب البر وهذه الاذكار الاجتماعية في المساجد وغيرها وانما أريد السلوك الصحيح بالرياضة والتعبد السري كالمتقدمين فهل لك أن تتولى ذلك معي؟

قال يا بني إنني لست أهلا لذلك فلا أغشك وأغش نفسي ، أو كما قال

ومن كان من أهل العلم والفهم وأحب أن يستفيد من كلام خيار الصوفية في الحقائق مع التزام السنة وسيرة السلف في العبادة فعليه بكتاب (مدارج السالكين) المحقق ابن القيم شرح (منازل السائرين) لشيخ الاسلام الهروي الانصاري ، فان فيه خلاصة معارف الصوفية التي لا تخالف الكتاب والسنة مع الرد على ما خالفهما ، وأما كتبهم في الاخلاق والآداب الدينية فيغني عنها كلها (كتاب الآداب الشرعية ، والمنح المرعية) لابن مفلح الفقيه الحنبلي فانه مستمد من نصوص الكتاب والسنة ، وكلام أئمة الحديث والفقه المتفق على جلالتهم من جميع المسلمين . فهذا ما ننصح به لجمهور المسلمين الذين يطلبون العلم الصحيح للعمل . وثم كتب كثيرة لعلماء الصوفية مفيدة في فلسفة الاخلاق وعلم النفس وخواص الارواح ، والاستفادة الصحيحة منها خاصة بأهل البصيرة من العلماء

ومن خيار الصوفيـة الوعاظ من المتقـدمين منصور بن عمار وقد ذكر ابن مفلح في كتاب الآداب الشرعية ان الامام أحمد نهى عن كلامه والاستماع للقاص به وان القاضي أبا الحسين قال: انما رأى امامنا أحمد الناس لهجين بكلامه وقد اشتهروا به حتى دونوه وفصلوه مجالس يحفظونها ويلقونها ويكثرون فيما بينهم دراستها فكره لهم أن يلهوا بذلك عن كتاب الله ويشتغلوا به عن كتب السنة وأحكام الملة لا غير اه

فاذا كانت حال الناس هكذا في زمن الامام احمد زمن حفظ السنة وروايتها والتفقه والعمل بها واشتراك الصوفية في ذلك فماذا عسى أن يقال في هذا الزمن وأهله وأنت لا تجد في علماء مصر حافظا ولا من يصح أن يسمى محدثا ، دع متصوفته الذين يستحوذ على أكثرهم الجهل ويوجد فيهم المنافقون الذين يتخذهم الاجانب جواسيس ودعاة للاستعمار ، بشبهة الرضا بالاقدار ، وهم أكبر مصائب الاسلام في المستعمرات الفرنسية الافريقية ، ومن شيوخهم من يأخذ الرواتب المالية من حكامها ومن نال بعض أوسمتها الشرفية

فهذا نموذج من كلام أئمة الاسلام ندعم به ما ذكرناه من الحجج والنصوص

في دعوة المسلمين الى فهم القرآن والاهتداء به وبما ورد في السنة من بيانه والاكتفاء بعباداتهما وأذكارهما والاستغناء بها عن كل ماعداها من غير غلو ولا تكلف لما لا يسهل المواظبة عليه ، والتفرغ بعد ذلك الى القيام بفروض الكفايات من الدفاع عن الاسلام وتعزيزه ودفع الأذى والاستعباد والظلم عن أهله، وإعزاز الأمة بالقوة والثروة المبنية على الفنون الصحيحة والنظام، فهذا أفضل من تلك الأوراد التي لم تبلغ أن تكون من نوافل العبادات ، على ما فيها من البدع والضلالات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أي اتخذوا اليهود والنصارى رؤساءهم أرباباً من دون الله تعالى والربوبية تستلزم الألوهية بالذات اذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده - واتخذ النصارى المسيح رباً وإلهاً ، والحال انهم ماأمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به عن الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً بما شرعه هو لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه

﴿لا إله إلا هو﴾ هذه الجملة استئناف بياني لاصفة ثانية لإله فهي تعليل للأمر بعبادة إله واحد بأنه لا وجود لغيره في حكم الشرع ، ولا في نظر العقل، وانما اتخذ المشركون آلهة من دونه بمحض الهوى والجهل ، إذ ظن هؤلاء الجاهلون ان لبعض المخلوقات من السلطان الغيبي والقدرة على الضر والنفع من غير طريق الاسباب المسخرة للخلق مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة عنده تعالى والشفاعة لديه وهي الشفاعة الشركية المنفية بنصوص القرآن ﴿ سبحانه عما يشركون ﴾ أي تنزيهاً له عن شركهم في ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني

أما أمر الله تعالى إياهم بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام فهو في مواضع من التوراة أظهرها وأشهرها أول الوصايا العشر التي جاءت في سفر الخروج ان الله تعالى كتبها لموسى عند مناجاته في سيناء بأصبعه على لوحي العهد وهذا أولها « أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء من فوق ولا مما في الارض من تحت ، ولا مما في الماء تحت الارض ، لا تسجد لهن ولا

تعبدهن ، لاني أنا الرب إلهك إله غيور » الخ [١]

وأما أمره تعالى إياهم بها على لسان عيسى المسيح عليه السلام فتجد منه فيما رواه يوحنا عنه في انجيله قوله : (٧ : ٣ وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته » وفي انجيل برنابا الذي تعده الكنيسة غير قانوني من آيات التوحيد المطلق المجرد من جميع شوائب الشرك ماهو أجدر من الاناجيل الاربعة القانونية بأن يكون من انجيل المسيح الصحيح الموحى اليه من ربه عزوجل . ثم وصفهم الله تعالى بوصف ثالث في تفصيل حال كفرهم المجمل المتقدم بعدوصفهم باتخاذابن الله،ورؤسائهم أربابا من دون الله — وهو

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ أي يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله الذي أفاضه على البشر بهداية دينه الحق الذي أوحاه الى موسى وعيسى وغيرهما من رسله ثم أتمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين محمد (ص) بالطعن في الاسلام والصد عنه بالباطل،بمثل تلك الاقوال في عزير والمسيح ، التي لم تتجاوز أفواههم الى معنى صحيح،وبما ابتدعه الرؤساء لهم من التشريع،حتى صار التوحيد الذي أمروا به عندهم شركا ، و"العبد المربوب ربا ، والعابد المألوه إلهاً ، على تفاوت بين فرقهم في ذلك كما تقدم شرحه في تفسير الآيتين اللتين قبل هذه الآية

والارادة في الاصل القصد الى الشيء ، وقد تطلق على ما يفضي اليه وان لم يتصوره فاعله . يقال في الرجل المسرف المبذر:يريد أن يخرب بيته .أو :أن يترك أولاده فقراء ، أي ان تبذيره يفضي إلى ذلك فكأنه يقصده لان فعله فعل من يقصد ذلك . وأهل الكتاب الذين عادوا الاسلام منذ البعثة المحمدية كانوا يقصدون إبطاله والقضاء عليه بالحرب والقتال من جهة وبافساد العقائد والطعن من جهة أخرى كما يأتي قريباً ،وكل من الامرين يصح التعبير عنه بارادة إطفاء النور لانه تمثيل لحالهم معه . وأما ما كان من إفسادهم في دينهم فمنه ما كان بقصد من المنافقين

---

(١) ذكرنا نص هذه الوصايا كلها في تفسير الوصايا التي هي أكمل منها في سورة الانعام ص ٢٠٢ ج ٨ تفسير

والمبتدعين فيه ولا سيما الروم الذين اتخذوا النصرانية عصبية سياسية منذ عهد قسطنطين، ومنه ما كان بغير قصد الى إطفاء نوره ، بل كان بعضه بقصد خدمته، (كما فعل بعض مبتدعة المسلمين الذين اتبعوا سنهم من حيث لا يشعرون بوضع الاحاديث والعبادات المبتدعة ونشر الخرافات) وهو ما بيناه مراراً في مواضع آخرها وأقربها ماقلناه آنفا في هذا السياق

قال السدي المراد بالنور هنا الاسلام، وقال الضحاك هو محمد (ص) وقال الكلبي هو القرآن. وقال بعض المفسرين المراد بالنور الدلائل على التوحيد ونبوة محمد (ص) لانها يهتدى بها الى الحق في العقليات ، كما يهتدي بالنور في رؤية الحسيات ، ؟ وأقول ان المعنى الجامع بين النور الحسي والنور المعنوي هو انه الشيء الظاهر في نفسه المظهر لغيره ، ولك أن تقول ان النور المعنوي للبصيرة كالنور الحسي للبصر . وقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (٥ : ١٦ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير (١٧) قد جاء من الله نور وكتاب مبين) ان في هذا النور الاقوال الثلاثة التي ذكرناها آنفا [١] وبينا وجه كل منها واخترنا الثالث منها وهو القرآن لموافقته لقوله تعالى (٤ : ١٧٢ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) [٢] وقوله تعالى في رسوله الاعظم (٧ : ١٥١ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) وقوله (٦٤ : ٨ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا) وأما التوراة والانجيل فقد قال الله تعالى في كل منهما إن فيه نوراً وهدى (٥ : ٤٧ و ٤٩) ولم يجعله عين النور كالقرآن . ونختار هنا القول الاول وهو دين الاسلام بالمعنى العام الشامل لكل ماجاء به رسل الله ، ولا سيما دين التوراة والانجيل والقرآن . وقد كان كل منها نوراً لأهله في الزمن الذي نزل به بقدر حاجتهم حتى اذا نزل القرآن كان هو النور الاعظم الكافي لهداية جميع البشر الى آخر الزمان ، ولله در البوصيري حيث قال في لاميته بعد ذكر تلك الكتب :

الله أكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا

«١» راجع ص ٣٠٤ ج ٦ تفسير «٢» راجع ص ٩٨ - ١٠٢ ج ٦ تفسير

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديلا

نعم ان القوم قد أطفأوا جل ذلك النور فزجوا بأنفسهم في ظلمات لا يلوح لهم فيها إلا وميض ضئيل منه ، وهم يريدون اطفاء الآخر الأخير أيضاً . والنور الحسي قد يطفأ بنفخ الفم كسرج الزيت القديمة واطفاؤه إزالته وإطفاء النار إزالة لهبها واتقاد جمرها معاً فهو أبلغ من اخمادها لان الاخماد إزالة اللهب فقط . واذا كان إطفاء السراج سهلا فاطفاء نور الشمس غير ممكن

وانما اخترت هنا ان المراد بالنور دين الله الذي بعث به رسله في كل قوم بما يناسب حالهم في زمنهم لانه هو الذي يقبل التمام المراد بقوله تعالى

﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ الذي أضافه الى اسمه ببعثة محمد خاتم النبيين (ص) إلى الخلق أجمعين ، مبيناً لهم كل ما يحتاجون من أمر الدين ، من عقائد يؤيدها البرهان ، ويطمئن لها الوجدان ، وتبطل بها عبادة الانسان للانسان ، فضلا عن الاصنام والاوثان . وعبادات تتزكى بها النفس ، وتطهر من كل رجس ، وتجعل كفاية الاغنياء للفقراء حقوقا إلهية ، تكفلها العقائد الوجدانية ، ويبطل ثوابها المن والاذى ، وآداب تطبع في الأنفس ملكات الفضائل ، وتتوثق بها عرى المصالح ، وتشريع سياسي وقضائي يجمع بين العدل والرحمة ، ويجعل السلطان الحكمي للامة ، ويقرر المساواة بين جميع الناس في الحق ، مع تعظيم شأن العلم والعقل ، واحترام حرية الارادة والرأي والوجدان ، ومنع الاكراه على الاديان ، والتوحيد المصلح للاجتماع البشري في العقائد والتعبد والتشريع واللغة ، لازالة التعادي بين الشعوب والقبائل ، فمن لم يقبلها كلها ، كان تشريع المساواة بالعدل كافياً لحفظ حقوقه فيها

أتم الله تعالى ذلك كله على لسان خاتم النبيين ، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وجعل آيته الكبرى علمية عقلية وهي هذا القرآن ، وكفل حفظها الى آخر الزمان ، ولم يكفل ذلك لكتاب آخر لان سائر الكتب كانت أديانا خاصة موقتة ، وأنزل عليه بعد أن أتم الدعوة ، وأقام الحجة ، وأوضح المحجة (٥ : ٣ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)

وجملة المعنى في هذا التركيب أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذي شرعه

لهداية عباده، وانما قطبه الذي تدور عليه جميع عباداته توحيد الربوبية والألوهية، فتحولوا عنه الى الشرك والوثنية، والله تعالى لا يريد ذلك ، لا يريد في هذا الشأن إلا أن يتم هذا النور الذي بدا في الاجيال السابقة كالسراج على منارته، أو كنور الهلال في بزوغه ، فالقمر في منازله — فيجعله بدرا كاملا ، بل شمسا ضاحية يعم نوره الارض كلها ،وما يريده الله كائن لامرد له ﴿ ولو كره الكافرون ﴾ ذلك بعد اتمامه ، كما كانوا يكرهونه من قبل عند بدء ظهوره ،وجواب لو محذوف للعلم به مما قبله كما يقول النحاة . فهم يكيدون له ، ويمكرون عليه ويطعنون فيه وفيمن جاء به . ويحاولون اخفاءه ، أو «خنق دعوته،وحصد نبتته » كما قال شيخنا رحمه الله . فأما اليهود فكان من أمرهم في مقاومة دعوته ، ومساعدة المشركين عابدي الاصنام في قتال أهله ، ومن خذلان الله تعالى إياهم،ونصر رسوله والمؤمنين عليهم ، ما بيناه في تفسير سورة الانفال [1] فكانوا في أول الاسلام أشد الناس عداوة لأهله كمشركي العرب سواء ، ولما عجزوا عن اطفاء نوره بمساعدة المشركين على قتال النبي ﷺ قصدوا اطفاء نوره ببث البدع فيه وتفريق كلمة أهله بما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشيع لعلي كرم الله وجهه، والغلو فيه وإلقاء الشقاق بين المسلمين في مسألة الخلافة وكان لشيعته من الدسائس في قتل عثمان (رض) ثم في الفتنة بين علي ومعاوية أقبح التأثير،ولولاهم لما قتل أولئك الالوف الكثيرون من صناديد المسلمين، فان السعي إلى الصلح والاتفاق نجح غير مرة فأفسدوه بدسائسهم ،ثم كان لليهود الذين أظهروا الاسلام والقيام بفرائضه نفاقا مكيدة أخرى لا تزال مفاسدها مبثوثة في كتب التفسير والحديث والتاريخ وهي الاسرائيليات التي بينا بعضها في مواضع من هذا التفسير ولا نزال نبين ما يعرض لنا فيه وفي المنار

وأما النصارى فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة لهم ، وأكرم ملكهم النجاشي من لجأ اليه من مهاجريهم ،ومنعهم من تعدي المشركين عليهم، بل أسلم هو على أيديهم ، كما تقدم بيانه في تفسير (٥ : ٨٢ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين

---

(١) راجع ص ٤٨ — ٦٩ ج ١٠ تفسير

قالوا إنا نصارى) الآية (١) ثم انقلب الامر وانعكست القضية بعد انتشار الاسلام وراء جزيرة العرب، فكان اليهود يتوددون للمسلمين لانهم أنقذوهم من ظلم النصارى واستبدادهم، وصار نصارى أوربة المستعمرون لممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم، دون نصارى هذه البلاد ولا سيما سورية ومصر الاصليين، فانهم رأوا من عدل المسلمين وفضائلهم مافضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم، حتى آل الامر الى ما بيناه في تفسير الآية السابقة من الحروب الصليبية وغلو نصارى أوربة في عدواة المسلمين وما بيناه قبلها في تفسير قتال أهل الكتاب من حال مسلمي هذا العصر مع دول أوربة المستولية على أكثر بلادهم، المهددة لهم فيما بقي لهم من مهد دينهم ومشاعره وحرم الله ورسوله ﷺ

وقد بين الله هذا المعنى في سورة الصف بمثل هذه الآية إلا انه قال هنالك (٦١: ٨ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره) وباقي الآية ونص الآية بعدها كآيتي براءة سواء. فأما قوله (ليطفئوا) فمن علماء العربية من يقول انه بمعنى «أن يطفئوا» لان اللام فيه مصدرية أو بمعنى المصدرية، ومنهم من يقول انها للتعليل و المعلل محذوف للعلم به من القرينة وهو التحقيق، وبيانه انه قبل هذه الآية ذكر بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ، تكذيب اليهود له في رسالته وبشارته، وقال بعدها (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين) فالمعنى على التعليل ان هؤلاء الضالين الظالمين لانفسهم بانكار نبوة محمد (ص) الذي بشرهم به عيسى عليه السلام (سواء كانوا من بني اسرائيل أو من غيرهم) بعد بعثته ودعوته اياهم الى الاسلام وظهور نوره بالحجج الساطعة الدالة على صدقه — يريدون افتراء الكذب بانكار تلك البشارات وتأويلها بما يصرفها عن وجهها لاجل أن يطفئوا نور الله تعالى بافترائهم الذي يخرج من أفواههم ظناً منهم ان الافتراء بانكارها وتأويلها وبالطعن في محمد ﷺ يطفيء هذا النور، ثم قال (والله متم نوره) أي والحال ان الله تعالى متم نوره بالفعل فلا يطفئه الافتراء، بل هو كمن ينفخ في نور قوي ليطفئه فيزيده بذلك اشتعالا، أو كمن يحاول إطفاء

١) راجع أول الجزء السابع من التفسير

نور الشمس فلاينال منها منالا . فالفرق بين الآيتين ان آية سورة الصف تعليل لافترائهم بارادتهم اطفاء النور به — وآية براءة لما جاءت بعد بيان شركهم بمضاهأتهم لاقوال الوثنيين من قبلهم جعل ذلك نفسه بمعنى ارادة إطفاء النور بلا واسطة

ثم ان بينهما فرقا آخر وهو التعبير في آية سورة الصف بقوله (والله متم نوره) وفي سورة براءة بقوله: (ويأبى الله إلا أن يتم نوره) والاول يفيد أنه متمه بالفعل في الحال، والثاني وعد بأن يتمه في الاستقبال، فيجتمع منهما إثبات هذا الاتمام في الحال والاستقبال، فهو النور التام الكامل الذي لاينطفىء بالقيل والقال، بل يبقى مشرقا الى أن يأذن الله لهذا العالم بالزوال، ولما كان هذا الوعد الذي يتعلق بالمستقبل المغيب عن علم الخلق من شانه أن يرتاب فيه الناس، أكده الله تعالى بما لم يؤكد به الخبر الاول لان صدقه مشاهد لايحتاج الى التاكيد، وناهيك بقوله (ويابى الله إلا أن يتم نوره) أي انه لايرضى ولا تتعلق ارادته بشيء في هذا الشأن إلا شيئا واحدا وهو أن يتم نوره فلا يجعل في قدرة أحد أن يطفئه

والآية تشعر بأن هؤلاء الكافرين الكارهين له سيحاولون في المستقبل إطفاء هذا النور كما حاولوا ذلك في عصر من أتمه وأكمله بوحيه اليه وبيانه له. وهذا ماوقع من قبل وأشرنا اليه في هذا السياق وأفظعه الحروب الصليبية ومقدماتها، وما هو واقع الآن، فان دعاة النصرانية (المبشرون) من الافرنج يغلون في الطعن على الاسلام والقرآن والنبي ﷺ في كل بلد لدولهم فيه حكم أو نفوذ أو امتياز، كمصر والهند وغيرهما، ولولا شدة غلوهم ووقاحتهم في الافتراء والبهتان لما أطلنا في هذا السياق بما أطلنا به من بيان حالهم في دينهم وكتبهم. وهذاما يتوقع في الازمنة الآتية، وقد صدق الله وعده (ومن أصدق من الله حديثا)

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ هذا بيان مستأنف للمراد من إتمام نور الله عز وجل. وهو ان الله الذي كفل إتمام هذا النور هو الذي أرسل رسوله الأكمل الذي أخذ العهد على النبيين من قبل (ليؤمنن به ولينصرنه) إن جاء في زمن أحد منهم، أرسله بالهدى الاتم الاكمل الاعم الاشمل، ودين الحق أي

الثابت المتحقق الذي لا ينسخه دين آخر ولا يبطله شيء آخر (الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وهو في مقابلة قوله في أهل الكتاب الذي ذكر في أول هذا السياق (ولا يدينون دين الحق) لانهم أضاعوا حظا عظيما من كتب أنبيائهم ومواعظهم وحرفوا الباقي منها فلم يقيموه على وجهه، بل استبدلوا به تقاليد وضعها لهم الرؤساء بأهوائهم، كما تقدم شرحه في هذا السياق . فعلم بهذا ان المراد بالحق الامر الثابت المتحقق ، وان إضافة الدين اليه من إضافة الموصوف إلى الصفة كمسجد الجامع ، وفيه وجه آخر صحيح يجامعه ولا يباينه وهو أن معناه دين الله المحض الذي لا شائبة فيه كالشوائب التي عرضت للاديان السابقة ولما بقي من كتبها. وكلمة الحق من أسماء الله تعالى كما قال (فذلكم الله ربكم الحق)

ومن المعلوم عند جميع علماء التاريخ العام ولا سيما تاريخ الاديان انه لا يوجد دين منقول عمن جاء به من رسل الله تعالى أو من غيرهم نقلا صحيحاً متواتراً بالقول والفعل متصل الاسانيد إلا دين الاسلام . وقد ذكرنا في الفصل الذي عقدناه لاثبات ضياع كثير من الانجيل وتحريف النصارى لكتبهم المقدسة في آخر تفسير (٥: ١٥) من سورة المائدة ان فيلسوفا هندياً درس تواريخ الاديان كلها وبحث فيها بحث حكيم منصف لا يريد إلا استبانة الحق ، وأطال البحث في النصرانية لما للدول المنسوبة اليها من الملك وسعة السلطان، ونظر بعد ذلك كله في الاسلام، فكانت غاية ذلك الدرس أن عرف بالبرهان ان الاسلام هو الدين الحق، فأسلم وألف كتابا باللغة الانكليزية عنوانه (لماذا أسلمت) أظهر فيه مزاياه على جميع الاديان وكان من أهمها عنده انه هو الدين الوحيد الذي له تاريخ ثابت محفوظ ... وكان من مثار العجب عنده أن ترضى أوربة لنفسها ديناً ترفع من تنسبه اليه عن مرتبة البشر فتجعله إلهاً وهي لا تعرف من تاريخه شيئاً يعتد به ...(١)

ثم بين غاية إرسال خاتم النبيين والمرسلين بدين الحق أو علته بقوله ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ يقال أظهر الشيء : أوضحه وأبانه فجعله ظاهراً لا خفاء فيه . وأظهر

(١) راجع البحث فى ص ٣٠٢ ج ٦ تفسير وص ٨٣١ م ١٦ منار

فلانا على الشيء أو على الخبر: أطلعه عليه وأخبره به. ومنه قوله تعالى (فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) وقوله (وإذ أسر النبي الى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه) الخ وأظهره على الشيء أو على الشخص جعله فوقه مستعلياً عليه. والاستعلاء هنا بالعلم والحجة، أو السيادة والغلبة، أو الشرف والمنزلة، أو بها كلها، وهو المختار وان كان الوعد يصدق ببعضها، والدين جنس يشمل كل دين.

وفي الضمير المنصوب هنا قولان (أحدهما) انه الرسول ﷺ وهو مروي عن ابن عباس (رض) والمعنى حينئذ انه تعالى يظهر هذا الرسول على كل ما يحتاج اليه المرسل هو اليهم من أمور الدين: عقائده وآدابه، وسياسته وأحكامه، لان ما أرسله به هو الدين الاخير الذي لا يحتاج البشر بعده الى زيادة في الهداية الدينية . بل يوكلون فيما وراء نصوصه الى اجتهادهم واختبارهم العلمي والعملي مع الاهتداء بها، حتى لا يضلوا ولا يتفرقوا بتركها. ونحن نعلم من كتب الاديان وتاريخها انها ليست كذلك بل لا تعدو كتب كل منها حاجة المخاطبين بها من قوم رسولها، فاليهودية دين شعب نسبي أراد الله تربيتهم بشريعة شديدة التضييق عليهم لتطهيرهم من الوثنية وعبادة البشر ليقيموا التوحيد في بلاد مباركة استحوذ عليها الشرك، وقد كان ذلك زمناً ما ثم فسدوا وصار أكثرهم وثنيين ماديين فبعث الله اليهم المسيح (عم) بتعاليم شديدة المبالغ في الزهد ومقاومة المفاسد المادية، وكبح جماح الشهوات الجسدية، فكان له ما كان من التأثير فيهم وفي الروم وغيرهم زمنا ما، ولكن غلا بعضهم في الزهد وعرض لهم فيه الغرور مع الجهل، وعاد الأكثرون الى الاسراف في الشهوات والعلو في الارض. وكان هذا بعد ذلك تمهيداً للدين التام الوسط الجامع بين المصالح المادية والمعنوية، ومزايا الروحية والجسدية، ليكون عاما للبشر الى أن يرث الله الارض ومن عليها.

وهذه النصرانية التي يدعي أهلها انها دين عام بالرغم مما في أناجيلها من قول المسيح لهم انه لم يرسل ولم يرسلهم إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالة [1] يعترفون بانه قال [مت ٥: ١٧ لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الانبياء ما جئت

(١) متى ١٠: ٥و٦

لا أنقض بل لأكمل الخ ونقلوا عنه أيضاً انه مع هذا قال (يو ١٦: ١٢ ان لي أموراً كثيرة أيضا لأقول لكم ولكنكم لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ١٣ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق، لانه لا يتكلم من نفسه بل كل مايسمع يتكلم به ويخبركم بامور آتية، الخ

وهذا لا يصدق ولا يمكن تأويله لا بمحمد ﷺ الذي أخبرهم وأخبر غيرهم بكل شيء من أمر الدين (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وانما أخبر عن الله عز وجل لا من عند نفسه (وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي يوحى) وأخبرهم بامور آتية كثيرة جداً صريحة بعضها في القرآن وأظهرها غلب الروم الفرس في مدى بضع سنين وبعضها في الاحاديث الصحيحة ومن المتواتر منها قوله (ص) لعمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية» وفي روايات بالغيبة أي قال هذا له ولغيره، وقوله على المنبر في الحسن عليه السلام «ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وإخباره فاطمة عليها السلام بموته وبأنها أول من يلحق به، وإخباره بموت النجاشي يوم موته وصلاته عليه الخ الخ ولا يزال الزمان يظهر صدقه في كل ما أخبر به في وقته — وقد مجد المسيح صلوات الله وسلامه عليهما بنفي طعن اليهود فيه وفي أمه، واثبات كونه ولد طاهراً من الدنس بكلمة الله، وكونه من روح الله، ومؤيداً بآيات الله. وبينا كل ذلك في تفسير الآيات الواردة فيه، وقد سماه المسيح باسمه الدال على الحمد الكثير (أحمد) ومثله محمد، وهو في نسخ الاناجيل اليونانية والعربية القديمة البارقليط، ثم غيروه في التراجم الاخيرة فسموه المعزي كما فصلنا ذلك في تفسير سورة الاعراف [1]

والوجه الثاني ان الضمير لدين الحق الذي أرسل به ﷺ ومعناه انه تعالى يعلي هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الاديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، وكذا السيادة والسلطان (كما قلنا آنفا) ولم يكن لدين من الاديان مثل هذا التأثير الروحي والعقلي والمادي والاجتماعي والسياسي إلا للاسلام وحده لا ننكر أن جميع أتباع الانبياء قد صلحت حالهم باهتداء كل منهم بنبيهم مدة

(١) راجع ص ٢٧٧-٢٩١ ج ٩ تفسير

اهتدائهم به ، ولكن التاريخ لم يرو لنا أنه كان لدين من الاديان كل هذه الفوائد بتأثيره فيهم

أما ظهور الاسلام بالحجة والبرهان ، فلا يختلف فيه عاقلان مستقلان ، عرفاه وعرفا غيره من الاديان ، وقد ذكرنا في هذا السياق بعض الشواهد على هذا من كلام علماء الافرنج المستقلين وأشرنا إلى غير ماذكرناه منهامما يمكن لمقتني مجلدات مجلة المنار أن يراجعوه في أكثرها بالاستعانة بالفهرس العام ، ولا سيما لفظ الاسلام

وأما ظهوره عليها بالعلم والعمران ، والسيادة والسلطان ، فالذي يتراءى للناس بادي الرأي في هذا الزمان ، انه معارض بما عليه دول الافرنج واليابان ، وضعف ما بقي من دول الاسلام ، وانه انما يظهر وجهه في دول العرب الأولى وكذا دولة الترك في أول عهدها

ونجيب عن ذلك بأن ماعليه دول الافرنج واليابان وشعوبهما ليس من تأثير ادیانهما في تعاليمها ولا في العمل بها ، ولو كان كذلك لظهر عقب وجود الدين فيهم وأخذهم به ، وقد نقلنا في هذا السياق عن علماء الافرنج الاحرار المستقلين أن مدنيتهم الحاضرة وما بنيت عليه من العلوم والفنون لم يكن إلا من تأثير الحضارة الاسلامية والاقتباس من كتبها ومن المعلوم لكل ملم بالتاريخ الحديث ان اليابان اقتبست حضارتها وقوتها من أوربة في القرن الماضي. وحضارة العرب لا يمكن أن يكون لها سبب الا هداية دينهم

وقد قصر جميع المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في تفسير هذه الآيات لانهم انما يأخذون تفاسيرهم من معاني الالفاظ دون تحقيق لمدلولاتها في الخارج ، ومن الروايات المأثورة على قلتها وقلة مايصح منها ، وقد صح في بعضها قوله (ص) « ان الله زوى لي الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوي لي منها » وهو حديث طويل رواه مسلم من حديث ثوبان [١] وفي مسند احمد عن شاب من محارب مرفوعا « انه ستفتح لكم مشارق الارض ومغاربها » وهو مطلق غير مقيد بمازوي له ﷺ وأطلعه الله عليه من الارض ، ومن علماء الاصول من يوجب حمل المطلق على المقيد ، وفي بعضها تعيين مصر وأوصى بالقبط خيراً والشام وملك كسرى وقيصر

(١) راجعه مع مباحثه فى هلاك الامة في ص٤٩٥ وما بعدها ج٧ تفسير

وكل هذا قد تم. فان كان شيء مما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سيفتح للمسلمين ولما يفتح فلا بد أن يفتح

روى الامام احمد عن عدي بن حاتم (رض) قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ياعدي أسلم تسلم» قلت اني من أهل دين، قال «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بديني مني؟ قال «نعم ألست من الركوسية[1] وأنت تأكل مرباع[2] قومك؟ قلت بلى، قال فان هذا لايحل لك في دينك» قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها. قال «أما إني أعلم ماالذي يمنعك من الاسلام: تقول انما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب «أتعرف الحيرة؟ قلت لم أرها ولكن سمعت بها، قال «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الامر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد[3] ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت كسرى بن هرمز؟ قال «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد» قال عدي فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد. ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز. والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها. اه من تفسير العماد ابن كثير

ومن العلماء من يقول ان بعض هذه البشارات لايتم إلا في آخر الزمان عند ظهور المهدي وما يتلوه من نزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء وإقامته لدين الاسلام الذي جاء به محمد (ص) واظهاره بالحكم والعمل به، خلافا لما يتوقعه اليهود والنصارى على اختلافهما في صفته. وقد كان شيوع هذا بين المسلمين من أسباب تقاعدهم عما أوجبه الله تعالى في كل وقت من إعلاء دينه واقامة حجته، وحماية دعوته، وتنفيذ شريعته، وتعزيز سلطته، اتكالا على أمور غيبية مستقبلة، لاتسقط عنهم فريضة حاضرة، وقد تقدم في الكلام على أشراط الساعة من تفسير سورة الاعراف ان أحاديث المهدي لايصح منها شيء يحتج به، وانها مع ذلك متعارضة متدافعة، وان مصدرها

---

(١) الركوسية بالفتح اهل دين بين الصابئين والنصارى وقال ابن الاعرابي هو نعت للنصارى اه من القاموس وشرحه (٢) المرباع ما كان ياخذه رئيس القوم وعصبته منهم أو من غنائمهم وهو من عادات الجاهلية وذكر في تفسير آية الغنائم والخمس من أول هذا الجزء «٣» اي من غير حماية أحد لها في طريقها

نزعة سياسية شيعية معروفة[١] وللشيعة فيها خرافات مخالفة لاصول الدين، لا نستحل نشرها في هذا التفسير . وأما احاديث نزول عيسى فبعض أسانيدها صحيحة وهي على تعارضها واردة في أمر غيبي متعلق بأحاديث الدجال المتعارضة مثلها كما تقدم بيانه أيضاً في ذلك البحث[٢] فينبغي أن يفوض أمرها الى الله تعالى وأن لا تكون سبباً للتقصير في إقامة الدين والدنيا بما شرعه الله تعالى فيهما

وقد كان اليهود يتكلون في إعادة ملكهم في فلسطين وما جاورها على ما في كتب أنبيائهم من البشائر بظهور المسيح (مسيا) الذي يعيده لهم بخوارق العادات فلما طال عليهم الامد ومرت ألوف السنين ولم يقع ذلك هبوا الى إعادته بالاسباب الكسبية حتى انهم سخروا الدولة الانكليزية لمساعدتهم عليه، ومعاداة العرب وسائر المسلمين في سبيله، أفلسنا أحق بحفظ ما بقي من ملكنا، واستعادة ما فقدنا منه بكسبنا واجتهادنا، من هؤلاء اليهود على قلتهم وكثرتنا؟ بلى والله، وان من الجهل بالدين وسنن الله في الخلق أن نقصر في ذلك اتكالا على المستقبل الذي لا يعلمه الا الله عز وجل ، ومتى جاء وكنا مقيمين لديننا كنا أجدر بالانتفاع به، بل لا يعقل أن يعتد المهدي والمسيح بدين أحد لا يفعل ما يستطيع في إقامة فرائض الله وحدوده ، وسبق لي أن أطلت في بيان هذه المسألة في كتابي (الحكمة الشرعية) الذي ألفته في عهد طلبي للعلم في طرابلس الشام، وقد بينت في هذا السياق ما نرجوه ونتوقعه من ظهور الاسلام في المستقبل القريب وبذلك تتم هذه البشارات على أكمل وجه، وكذا ما في معناها كقوله تعالى (٢٤: ٥٣ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية.

﴿ولو كره المشركون﴾ ذلك الاظهار، وفيه ما تقدم في مثله من الآية السابقة ، والشرك أخص من الكفر ، وفي الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه وإظهاره على جميع الاديان سيكون بالرغم من أنوف جميع الكفار المشركين منهم بالله تعالى وغير المشركين (٣٠: ٤ لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٥) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم (٦) وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٧) يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾

(١) ص ٤٩٩ - ٥٠٧ ج ٩ تفسير (٢) ص ٤١٩ — ٤٩٩ منه

فتاوى المنار

تتمة البحث فى حقيقة ربا القرآن

نموذج من أقوال الفقهاء المحققين

موضوع علم الفقه أحكام الفروع العملية فمن الفقهاء من يذكرها مقرونة بأدلتها المعتمدة في مذهبه ومنهم من لايعنى بذكر الدليل مطلقا ومنهم من يذكر دليل ترجيح بعض أقوال علمائه على بعض. ولكنهم يعنون بذكر الأدلة في كتب الخلاف العام أو الخاص ببعض المذاهب دون بعض ككتب الحنفية التي تعني بترجيح مذهبهم على مذهب الشافعي وحده لما كان بين علماء المذهبين من التنازع على المناصب في الدولة، وليس من مسائل هذه المذاهب تحقيق مسألة ربا القرآن وحده والتمييز بينه وبين الربا الوارد في الاحاديث أو المستنبط بأقيسة الفقه وانما يأتي ذلك في كلام بعضهم دون بعض ولاسيما المحققين منهم فننقل شيئا مماذكروه في مسألتنا

ماقاله بعض الحنفية

أما الحنفية فقد نقلنا في فصل كلام المفسرين والمحدثين ماقاله الامام الجصاص في بيان ربا القرآن من تفسيره ـ وما قاله الامام الطحاوي في ذلك وهما من أئمة فقهائهم أهل الدليل. وأما فقهاؤهم الاقحاح فكلامنا كله في الرد عليهم

ماقاله بعض المالكية

وأما المالكية فقد تكلم بعضهم في المسألة في كتب الفقه فنذكر أهم مااطلعنا عليه منه:

قال الامام قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ في كتابه (المقدمات المهدات، لما اقتضته رسوم المدونة من الاحكام الشرعيات) يعني مدونة الامام مالك (رح) وذلك بعد (فصل ماجاء في تحريم الربا) قال مانصه

وأصل الربا الزيادة والانافة يقال ربا الشيء يربو اذا زاد وعظم. وأربى فلان على فلان اذا زاد عليه — يربى ارباء. وكان ربا الجاهلية في الديون أن يكون

للرجل على الرجل الدين فاذا حل قال له أتقضي أم تربي ؟ فان قضاه أخذه وإلا زاد في الحق وزاده في الأجل، فأنزل الله في ذلك ما أنزل. فقيل للمربي مرب للزيادة التي يستزيدها في دينه لتأخيره الى أجل. فمن استحل الربا فهو كافر حلال الدم يستتاب فان تاب وإلا قتل: قال الله عز وجل (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله - الى قوله - فأذنوا بحرب من الله ورسوله) الخ

ثم عقد فصلا للخلاف الاصولي في لفظ الربا في القرآن هل هو عام أو مجمل واستدل بحديث عمر في عدم تفسير النبي ﷺ له على انه مجمل — وهذا الاستدلال مردود بالبداهة لانه لايجوز أن يترك النبي ﷺ هذا المجمل بغير بيان مع الحاجة اليه وانما اختلف علماء الاصول في تأخير البيان لا في تركه فان الله تعالى قال (ثم ان علينا بيانه) وقال لرسوله (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) على اننا إن قلنا بجوازه وتركه للاجتهاد صارت المسألة اجتهادية ولم تكن مما ثبت بالنص. وما اعتمده أخونا المفتي الهندي من كون حديث عبادة في بيع الاصناف الستة بيانا له فقد بينا بطلانه بالاجمال وما نحن فيه من التفصيل

ثم ذكر هذه المسألة في كتابه (بداية المجتهد) فقال الباب الثاني من كتاب البيوع (ص ١٠٦) مانصه:

واتفق العلماء على ان الربا يوجد في شيئين في البيع وفيما تقرر في الذمة من بيع أو سلف أو غير ذلك. فأما الربا فيما تقرر في الذمة فهو صنفان صنف متفق عليه وهو ربا الجاهلية الذي نهي عنه. وذلك أنهم كانوا يسلفون بالزيادة وينظرون (أي يؤخرون) فكانوا يقولون: أنظرني أزدك. وهذا هو الذي عناه عليه الصلاة والسلام بقوله في حجة الوداع «ألا وان ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب» والثاني «ضع وتعجل» وهو مختلف فيه وسنذكره بعد[1]

(قال) وأما الربا في البيع فان العلماء أجمعوا على انه صنفان: نسيئة وتفاضل إلا ماروي عن ابن عباس من إنكاره الربا في التفاضل لما رواه عن النبي ﷺ

(١) المعتمد انه ليس بربا لانه نقص مما في الذمة لتعجيل الدفع والربا زيادة فيه

انه قال « لا ربا إلا في النسيئة » وانما صار جمهور الفقهاء الى أن الربا في هذين النوعين لثبوت ذلك عنه ﷺ اه

فهو قد صرح بأن ربا الجاهلية خاص بتأخير ماثبت في الذمة مهما يكن سببه الى أجل بزيادة في المال ، وانه هو الذي وضعه النبي (ص) في حجة الوداع لنهي الله تعالى عنه . وان ربا التفاضل الذي أثبته جمهور الفقهاء انما ثبت بحديث رسول الله (ص) أي لا بنص القرآن

ونقفي على هذا بكلمة أخرى لبعض محققي المالكية وهو الامام الحافظ الاصولي الفقيه أبو اسحاق ابراهيم الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ صاحب كتاب (الموافقات) في أصول الدين ومقاصده و (كتاب الاعتصام) وهما الكتابان اللذان لم يسبقه بمثلهما سابق ، ولم يلحق غباره فيهما لاحق ، وقد ساعده على الاستقلال فيه وفي غيره انه لم يكن ينظر في كلام الفقهاء المعاصرين ، بل يعتمد على كتب المتقدمين . وقد ذكر هذه المسألة في الشواهد التي جاء بها في مبحث الاصول الكلية من الموافقات وهي التي تدور عليها أحكام القرآن في جلب المصالح ودفع المفاسد من الضروريات والحاجيات والتحسينيات وكون كل مافي السنة يرجع الى القرآن وبيان له في الضروريات الخمس الكلية وهي حفظ الدين والنفس والمال والعقل والعرض ، وأورد الأمثلة على ذلك في كل منها فقال في أصل المال مانصه (ص ٢٠ ج ٤ طبعة تونس)

« أحدها ان الله عز وجل حرم الربا . وربا الجاهلية الذي نزل فيه (انما البيع مثل الربا) هو فسخ الدين في الدين ، يقول الطالب : إما أن تقضي وإما أن تربي . وهو الذي دل عليه قوله تعالى (وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) فقال عليه السلام « وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله » واذا كان كذلك وكان المنع فيه انما هو من أجل كونه زيادة على غير عوض ، ألحقت السنة به كل ما فيه زيادة بذلك المعنى فقال عليه السلام « الذهب بالذهب » الخ

فهو قد أثبت أن الربا المحرم بنص القرآن هو ربا الجاهلية فقط : وان السنة ألحقت به ربا الفضل بالقياس عليه على قاعدته التي قدمها . وأصرح منه ومما قبله قول القرطبي من كبار فقهائهم وقد تقدم

ماقاله بعض الشافعية

قال الامام الحافظ الفقيه أبو زكريا محيي الدين النووي محرر فقه الشافعية المتوفى سنة ٦٧٦ في شرح المهذب وهو أجمع كتب الفقه والخلاف ما نصه (ص ٣٩١ ج ٩)

قال الماوردي اختلف أصحابنا فيما جاء به القرآن من تحريم الربا على وجهين (أحدهما) انه مجمل فسرته السنة وكل ما جاءت به السنة من أحكام الربا فهو بيان لمجمل القرآن نقداً كان أو نسيئة (والثاني) ان التحريم الذي في القرآن انما تناول ما كان معهوداً للجاهلية من ربا النسأ وطلب الزيادة في المال بزيادة الاجل. وكان احدهم إذا حل أجل دينه ولم يوفه الغريم أضعف له المال وأضعف الاجل، ثم يفعل كذلك عند الاجل الآخر، وهو معنى قوله تعالى (لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة)

قال ثم وردت السنة بزيادة الربا في النقد مضافا إلى ما جاء به القرآن. قال وهذا قول أبي حامد المروذي اه وأقره النووي على هذا النقل

أقول ان القول الاول احتمال أخذه القائلون به من الشافعية من عبارة الشافعي في الام في آية (وأحل الله البيع وحرم الربا) وقد ذكرنا عبارته في الام وان المعتمد عنده رضي الله عنه العموم لا الاجمال في الآية. وقد ذكر الشمس الرملي ذلك في شرح المنهاج وان المعتمد عندهم عدم الاجمال وهو الذي حققه الكيا الهراسي من فقهائهم وقد أطال في أول كتاب البيع من شرح المهذب في كلام الشافعية في الآية من جهة العموم والاجمال وذكر لهم فيها أربعة أقوال، فيراجعها من شاء

وقال العلامة فقيه الشافعية في عصره احمد بن حجر المتوفى سنة ٩٧٣ في الكلام على كبيرة الربا من كتابه (الزواجر. عن اقتراف الكبائر) بعد افتتاح الكلام بآيات سورة البقرة وذكر أنواع الربا عند الفقهاء وهي اربعة ما نصه (ص ١٢٤ ج ١ طبعة سنة ١٢٩٢) «وربا النسيئة هو الذي كان مشهوراً في الجاهلية لان الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره الى أجل على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً ورأس المال باق بحاله فاذا حل طالبه برأس ماله فان تعذر عليه الأداء زاد في الحق والاجل. وتسمية هذا نسيئة مع انه يصدق عليه ربا الفضل أيضاً (اي لغة) لان النسيئة هي المقصودة فيه بالذات. وهذا النوع مشهور الآن بين الناس وواقع

كثيراً ، وكان ابن عباس (رض) لا يحرم الا ربا النسيئة محتجاً بأنه هو المتعارف بينهم فينصرف النص اليه ، لكن صحت الاحاديث بتحريم الانواع الاربعة السابقة من غير مطعن ولا نزاع لأحد فيها ، ومن ثم أجمعوا على خلاف قول ابن عباس على انه رجع عنه الخ

فهو قد بين ان ربا الجاهلية هو المحرم بنص القرآن وان ماعداه قد حرم بما ورد من الاحاديث فيه كما تقدم عن غيره

ماقاله بعض علماء الحنابلة

قال العلامة المحقق المفسر المحدث الاصولي الفقيه الحنبلي صاحب التصانيف المتفق على جلالتها أبو عبدالله محمد شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١ في كتابه اعلام الموقعين عن رب العالمين مانصه :

الربا نوعان : جلي وخفي (فالجلي) حرم لما فيه من الضرر العظيم (والخفي) حرم لأنه ذريعة الى الجلي ، فتحريم الاول قصداً وتحريم الثاني وسيلة . فأما الجلي فربا النسيئة وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل ان يؤخر دينه ويزيده في المال وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة عنده آلافا مؤلفة ، وفي الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج ، فاذا رأى ان المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس ويدافع من وقت إلى وقت ، فيشتد ضرره وتعظم مصيبته ، ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابي مع غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال اخيه بالباطل ويحصل أخوه على غاية الضرر . فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه ، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره ولهذا كان من أكبر الكبائر

وسئل الامام احمد عن الربا الذي لاشك فيه فقال هو أن يكون له دين فيقول له أتقضي ام تربي ؟ فان لم يقضه زاده في المال وزاده هذا في الاجل . وقد جعل الله سبحانه الربا ضد الصدقة فالمرابي ضد المتصدق قال الله تعالى (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) وقال (وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله ، وما

آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون* واتقوا النار التي اعدت للكافرين) ثم ذكر الجنة التي اعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء ، وهؤلاء ضد المرابين. فنهى سبحانه عن الربا الذي هو ظلم للناس وأمر بالصدقة التي هي إحسان اليهم

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن أسامة بن زيد ان النبي ﷺ قال «انما الربا في النسيئة» ومثل هذا يراد به حصر الكمال وان الربا الكامل انما هو في النسيئة كما قال تعالى (انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون — الى قوله — أولئك هم المؤمنون حقا) وكقول ابن مسعود: انما العالم الذي يخشى الله

(فصل) وأما ربا الفضل فتحريمه من باب سد الذرائع كما صرح به في حديث أبي سعيد الخدري (رض) عن النبي ﷺ «لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فاني اخاف عليكم الرماء» والرماء هو الربا . فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة وذلك انهم إذا باعوا درهما بدرهمين ولا يفعل هذا الا للتفاوت الذي بين النوعين إما في الجودة وإما في السكة وإما في الثقل والخفة وغير ذلك تدرجوا بالربح المعجل فيها الى الربح المؤخر وهو عين ربا النسيئة ، وهذه ذريعة قريبة جداً فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة ومنعهم من بيع درهم بدرهمين نقداً ونسيئة ، فهذه حكمة معقولة وهي تسد عليهم باب المفسدة ،فاذا تبين هذا فنقول

الشارع نص على تحريم ربا الفضل في ستة أعيان وهي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح ، فاتفق الناس على تحريم التفاضل فيها مع اتحاد الجنس وتنازعوا فيما عداها فطائفة قصرت التحريم عليها ، وأقدم من يروى هذا عنه قتادة وهو مذهب اهل الظاهر واختيار ابن عقيل في آخر مصنفاته مع قوله بالقياس قال لان علل القياسيين في مسئلة الربا علل ضعيفة ، واذا لم تظهر فيه علة امتنع القياس. اه المراد منه ههنا

(وسنذكر في الجزء الاول من المجلد الحادي والثلاثين نتيجة هذه النقول وتحقيق الربا المنصوص القطعي بنص القرآن والربا الوارد في الحديث — وربا الفقهاء ، مع تحقيق الحق في ذلك كله والانتقال منه الى المعاملات الربوية وغيرها في هذا العصر)

مساواة المرأة للرجل في الحقوق والواجبات

المحاكم الشرعية والاهلية وعلاقة كل منهما بالدين

— ١١ —

كان الحكم في البلاد الاسلامية كلها بالشريعة الغراء لأنها كاملة كافلة لجميع مصالح البشر على أساس العدل والمساواة بين الناس لافرق فيهما بين مؤمن وكافر، وبر وفاجر، ولا بين غني وفقير، او ملك وسوقة، كما يرى الناس من نصوصها إذ يدخلون المحاكم حتى الاهليـة في الالواح المعلقة فوق رؤس القضاة من نص قوله تعـالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وهو معطوف على قوله قبله (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها)

وفي القرآن الحكيم آيات أخرى في إيجاب العدل والمساواة، كقوله تعالى في أهل الـكتاب ٥ : ٤١ (فان جاءوك فاحكم بينهم او أعرض عنهم - إلى قوله - وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين)وقوله عز وجل ٤ : ١٣٥ (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم اوالوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) فهذه الآية تأمر المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط أي العدل في الحكم والشهادة التي يستند اليها الحكم بالمساواة كما تقدم. وفي معناها قوله جل شأنه ٥ : ٨ (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء القسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) تعبدنا الله بالعدل في الحـكم والشهادة حتى بيننا و بين الاعداء والمبغضين بقوله (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن تعدلوا) اي ولا يحملنكم عداوة قوم وبغضهم على عدم العدل فيهم، فان العدل حق الله أوجبه لجميع الناس فصار حقاً لهم بحكمه واحقاقه تعالى

ولما كان بعض القضايا يتعلق بأحكام الاديان في الحلال والحرام التعبديين

بلغ من حرية الاسلام ومراعاته للوجدان أن سمح للداخلين في حكمه من غير أهله أن يتحاكموا إلى علماء دينهم في ذلك ، وكل من هذا السماح وذلك العدل بالسواء مما امتاز به الاسلام على جميع الشرائع والاديان ، ولما كان المسلمون ينفذونه كما أمر الله تعالى دخل أهل الملل التي فتحوا بلادها في دين الله أفواجا باختيارهم واقتناعهم ، ومن بقي منهم مطمئناً بدينه كانوا يفضلون أحكام المسلمين على أحكام أهل دينهم في الغالب

ولما صار الملك والحكم في المسلمين الى الجاهلين بهذه الشريعة العادلة وغير المتربين على التدين باتباع الحق والعدل كالأولين — ولما صار الوقوف على أحكام الشريعة عسراً وعر المسلك بسوء تأليف الكتب كتعقيد عباراتها وكثرة الخلاف في أحكامها — ولما جمد فقهاؤها على الاقوال التي اختارها للحكم بعض من قبلهم من علماء الترجيح والتصحيح ، وحرموا الاستقلال في الفهم والاستنباط في الاقضية التي تتجدد بأطوار الازمنة والامكنة ، واختلاف العرف والمصالح المرسلة — لما كان ماذكر كله كما ذكر صار بعض حكام المسلمين يضعون لبلادهم قوانين عرفية للامور المدنية والسياسة التي لا تمس الوجدان الديني فيما أحل الله وما حرمه من أحكام الزوجية والارث والوقف بل تركوا ذلك كله للشريعة وقضاتها وخصوا به المحاكم الشرعية دون غيرها

ثم بلغ من ضعف المسلمين وسيطرة الافرنج على بعض حكوماتهم، ونفوذهم السياسي والادبي في بلادهم، وتوليهم أمر التعليم والتربية فى مدارسهم، وما كان وراء ذلك من زلزلة العقائد ، وزعزعة قواعد العبادات والفضائل ، ان طمع الطامعون من الاجانب وأعوانهم في إلغاء المحاكم الشرعية وهدم هذه البقية الماثلة من التشريع الاسلامي ، وحدث من الشكوى من اختلال هذه المحاكم ماحمل وزارة الحقانية بمصر على اقتراح وسيلة للاصلاح استنكرتها العقول لغرابتها وهي أن يعين مستشاران من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين في المحكمة الشرعية العليا ، فهاج المسلمون لهذا الحدث هيجة عامة ، وحملوا على الحكومة في الجرائد حملة

منكرة، واجتمع علماء الازهر أول مرة في هذا العصر للانكار على الحكومة فاضطرت الى الاحجام عن تنفيذه.

يومئذ سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن واضع هذا المشروع وعن سببه وكنت دهشت لصدوره عن وزارة الحقانية في عهد ذلك الوزير الفقيه المسلم (ابراهيم باشا المناسترلي)؛ فقال الاستاذ: ان الواضع له غير مسلم (وهو بطرس باشا) وان الغرض منه التمهيد لالغاء المحاكم الشرعية وجعل الحكم في الامور الشخصية من خصائص المحاكم الاهلية لان طلبة الحقوق يتعلمون الفقه الاسلامي، فهو يريد أن يتعود المسلمون بالتدريج حكم لابسي الطرابيش في القضايا الشرعية حتى لا يبقى لهم في الحكومة المصرية شيء من المشخصات الملية، هذا ماقاله الاستاذ الامام يومئذ وعلمت انه قاوم المشروع سراً بالوسائل المؤثرة

ولا يزال خصوم الشرع الاسلامي والكارهون للصبغة الاسلامية في هذه البلاد التي يدين سوادها الاعظم بالاسلام يجددون الحملات الظاهرة والدسائس الباطنة لمحو كل ماهو اسلامي فيها، ولعل غرضهم من هذه المناظرات والمحاضرات الآن التمهيد لمطالبة البرلمان بالغاء المحاكم الشرعية باسم (توحيد القضاء) فبدا لهم من الشعب الاسلامي عامة وشبانه العصريين خاصة ماراوا أثره في الحكومة وفي البرلمان أيضاً، وأما نحن علماء الاسلام فنجيبهم عما سألونا عنه وتحدونا به في هذا الموضوع وظنوا أنهم أقاموا به علينا الحجة — وقد تقدم نصهم فيه — في المقالة التي قبل هذه فنقول:

الفروق بين الاحكام الشخصية والمدنية

(أولا) ان بين حكم المحاكم الاهلية في الدماء والاموال وبين الاحكام الشخصية في المسائل الزوجية من ثبوت عقد نكاح وطلاق وفسخ وعدة ونفقة وفي المواريث فرقا بل فروقا يكفي واحد منها لبطلان قياس أحدهما على الآخر (أهمها) ان أكثر احكام العقوبات والاموال في الاسلام اجتهادية لا نصوص قطعية ثابتة في كتاب الله أو سنة رسوله القطعية الرواية والدلالة التي يجب أن يلتزمها كل مسلم علم بها في

نفسه وفي حكمه ان كان حاكما كما تقدم شرحه ، بخلاف حكم الميراث فانه قطعي بالنص كما تقدم أيضاً ، فلا يقاس أحدهما على الآخر

(ثانيا) ان الحدود القطعية المنصوصة قال بعض الفقهاء انها منوطة بالامام الاعظم (الخليفة) أو نائبه ، والحكمة في شدتها الارهاب المانع من الجرأة على ازهاق الارواح وانتهاك الاعراض بالفاحشة الكبرى وابتزاز الاموال والاخلال بالأمن العام ، وهي تدرأ بالشبهات ، ولو كانت الحكومة المصرية تقيم هذه الحدود كما أمر الله تعالى ورسوله لما نشأ في هذه البلاد مايشكو منه جميع الناس من اختلال الامن وكثرة القتل وفشو الفحش وأمراضه ، كما هو الشأن في نجد وفي بلاد الحجاز الآن ، وكذا غيرهما من بلاد العرب وان لم يبلغ شأوهما في عموم الامن ، ولصارت السنون تمر ولا يثبت على أحد إقامة حد .

حكي لنا ان والي عدن الانكليزي سأل مرة سلطان لحج : هل تقطعون يد السارق حقيقة كما يقال ؟ قال نعم . قل الوالي : أليست هذه قسوة فظيعة ؟ قال السلطان انها قسوة عادلة ترهب الجناة فتمر السنون ولا يسرق أحد في بلادنا شيئاً ، وأما أنتم فان سجونكم مكتظة باللصوص والمجرمين

واني لأعجب من تقليد الناس بعضهم لبعض في استهجان قطع يد السارق المجرم واختصاصهم إياه بالرحمة والرأفة والرقة واللطافة (والنزاكة والجنتلمانية أيضاً) دون القاتل ، مع ان قطع اليد من الكوع الى الكرسوع أهون عند المجرمين من قطع الرقبة ، ومن عساه يخشى الفضيحة الدائمة برؤية يده مقطوعة لبقية من شعور الشرف في نفسه يكفيه هذا وازعا يزجره عن الاقدام على السرقة على ان كثيراً من هؤلاء المجرمين يقطعون أيدي النساء وأرجلهن لسلب أسورتهن وخلاخيلهن اذا تعذر أو تعسر عليهم نزعها بدون قطع ، فما معنى هذه الرأفة والرقة المدنية في مجازاة هؤلاء القساة الوحشيين بوضعهم في سجون هي خير لهم من بيوتهم ؟ وقد اشتهر عن بعض المجرمين في مصر انهم يرتكبون الجرائم أحيانا لأجل أن يسجنوا فيتمتعوا بمعيشة السجن . وان سرق ذو مروءة مرة واستحق الحد فلا يعجزه أن يجد شبهة تدرأه عنه ، وللقاضي العادل الرحيم أن يتساهل في قبولها منه ،

وقد قال بعض الفقهاء ان السارق اذا ادعى ان المسروق ملك له وقد استرده بالسرقة كانت هذه الدعوى شبهة دارئة لحد القطع ، فان لم يثبت دعواه حكم عليه بالتعزير الذي يراه القاضي لا بقطع اليد

(ثالثا) ان ما تحكم به المحاكم الاهلية من قتل أو مال مخالفا لنصوص الشرع القطعية أو لما يعتقده القاضي من أحكامه الظنية فانما اثمه عليه دون أفراد الامة الذين لا يملكون منعه من هذا الحكم ، وليس هذا كأحكام النكاح والطلاق والميراث متعلقا بوجدان الدين للافراد الدين يحكم لهم أو عليهم . فاذا أعطت الحكومة للمرأة حق الطلاق تستقل به وطلقت زوجها ، فان طلاقها هذا يكون باطلا في عقيدته وعقيدتها إن كانا مسلمين كما هو المفروض ، وعصمة الزوجية بينهما باقية ، فلا يباح لها أن تتزوج بغيره فان تزوجت كانت زانية ، وان استباحت ذلك كانت مرتدة عن الاسلام ، ويقال مثل هذا فيما تعطيها الحكومة من الميراث مخالفا لحكم الله تعالى ، لا يحل لها أخذه والتصرف فيه – لهذا قلنا ان دعوة المسلمين الى هذا النوع من المساواة دعوة لهم الى ترك دينهم لان من يستجيز ذلك يكون كافراً مرتداً عن الاسلام

(رابعاً) ان الذين يدعون المسلمين إلى هذا يبنون دعوتهم على انه هو العدل والحق والصواب ، وان حكم الله باطل وظلم وخطأ . ومن اعتقد هذا كان مرتداً عن الاسلام أيضاً وإن لم يعمل به (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) قال هذا في المنافقين الذين يرغبون عما أنزل الله إلى حكم الطاغوت (راجع تفسير الآيات ٥٩ — ٦٥ من سورة النساء)

(خامساً) إن الحكومة المصرية لما قررت العمل بقوانين فرنسة المقتبس أكثرها من الشريعة الاسلامية ولا سيما مذهب المالكية لم يكن للامة المصرية التي يدين سوادها الاعظم بالاسلام قول ولا رأي في شئون الحكومة وكان من أسبابه تقصير علماء الازهر في القيام بما يجب عليهم من إغنائها باحكام الشريعة الغراء عن سواها ، ومن المشهور أن اسماعيل باشا طلب منهم ذلك فلم يستجيبوا له

حدثني علي باشا رفاعة قال حدثني والدي ان اسماعيل باشا الخديو استحضره وقال له يارفاعه بك انك أزهري تعلمت وتربيت في الازهر فأنت أعلم الناس بعلماء الازهر وأقدرهم على اقناعهم بما ندبتك له: إن الافرنج قد صار لهم حقوق ومعاملات كثيرة في هـذه البلاد، وتحدث قضـايا بينهم وبين الاهالي، وهم يشكون إلي انهم لايعلمون بماذا يحكم لهم أو عليهم في هذه القضايا ليراعوه ويدافعوا به عن أنفسهم، لان كتب الفقه التي يحكم بهـا علماؤنا معقدة وكثيرة الخـلاف فاطلب من علماء الازهر أن يضعوا كتابا في الاحكام المدنية الشرعية مثل كتب القوانين في تفصـيل موادها وعدم وجود خلاف فيهـا يترتب عليه اختلاف القضاة في أحكامهـم، فان لم يفـعلوا فانني أضطر إلى العـمل بقـانون نابليون الفرنسي — أو ماهذا مؤداه.

قال علي باشا رفاعه فأجابه والدي بقوله: ياأفنديـنـا انني سافرت إلى أوربة وتعلمت فيهـا، وخدمت الحـكومة وترجمت كثيراً من الكتب الفرنسية باللغـة العربية، وقد شخت ووصلت إلى هذه السن ولم يطعن أحـد في ديني، فاذا أنا اقترحت الآن هذا الاقتراح على علماء الازهر بأمر أفندينا فانني أخشى أن يقولوا إن الشيخ رفاعه قد ارتد عن الاسلام في آخر عمره برضاه بتغيير كتب الشريعة وجعلها كالقوانين الوضعية، فأرجو أن يعفيني أفندينا عن تعريض نفسي لهذا قبل موتي لئلا يقال انه مات كافراً اه. فلما يئس الخديو منهم أمر بالعمل بالقوانين الفرنسية وتأسيس المحاكم الاهلية، ولم يبال بالعلماء ولا بغيرهم

أما وقد صارت الحكومة المصرية دستورية نيابيـة. وقد دخل كثير من علماء الازهر والمعاهد الدينيـة في طور جديد من إسـتقلال الفكر ومعرفة حال العصر. — وقد قرب زوال السيطرة الاجنبية التي كانت السبب الاول في ترك التشريع الاسلامى في الاحكام المدنية والعقوبات ـ فقد تمهدت الاسباب الاصلية لاعادته سيرته الاولى. واظهار عدالته العليا. وما على العلماء المجددين الآن يقوموا بما اقترحناه مراراً من تصنيف كتب شرعيـة في الاحكام المدنيـة والتأديبيـة موافقة للمصالح العامة في هـذا العصر وكافلة للعـدل والمساواة بين جميع الناس

وانتظار الفرص لتقرير البرلمان المصري لها . بما يظهر له من وجوه تفضيلها على غيرها

وليس في القوانين الحاضرة ما يخالف المجمع عليه بين علماء المسلمين من الاحكام الثابتة بالنصوص القطعية إلا أحكام قليلة كاباحة الفاحشة والخمر والربا الذي قال الامام احمد وغيره انه لاشك فيه — لا كل مايسميه الفقهاء ربا بالقياس غير الجلي (وهو ماحققناه من قبل في تفسير آيات الربا من الجزء الثالث والرابع ونعيد تحقيقه في هذه الايام)

ولو وجدت حكومة اسلامية تقيم الشريعة السمحة الرحيمة العادلة كما أنزلها الله تعالى حتى منع الربا المخرب للبيوت الذى يجعل المال الكثير دولة بين الاغنياء الذى كان سبباً لحدوث هذه المذاهب البلشفية التي تدفع الفاسد بالفاسد — لو وجدت حكومة اسلامية بهذا المعنى لكانت قدوة للعالم المدني الذى يئن ويتوجع من مفاسد المدنية المادية « الرأسمالية » من جهة ومن اسراف البلشفية في معارضتها من جهة أخرى

دع مفاسد الاسراف في الشهوات البدنية وخروج النساء من حظيرة الزوجية والامومة الى الاباحة المطلقة أو مايقرب منها . وفي الشريعة الاسلامية علاج لجميع هذه المفاسد اذا وجدت حكومة غنية قوية تقيمها بالقسطاس المستقيم الذي شرعه الله تعالى

نعم إن هذا يتعذر الآن على مصر — وهي على مانعلم — ولهذا يتحدانا الدكتور فخري وملاحدته بان نطلب العمل بجميع أحكام الشريعة . وإننا نطلبه غير هايبين ونقول انه ممكن . فان تعذر على مصر اليوم فلا يتعذر على حكومة اسلامية أخرى تسبقها اليه، ومتى وجدت القدوة وظهر أثرها المنتظر في العالم المدني تيسر لحكومة مصر أن تخطو خطواتها الواسعة اللائقة بمكانتها العلمية وما ذلك على الله بعزيز

(للمقالات بقية)

احمد تيمور باشا

﴿ وفاته وملخص ترجمته ﴾

في صبيحة ٢٧ من شهر ذى القعدة الماضي انتهت حياة رجل لا كالرجال وفرد لا كالافراد — إلا أن يراد بالافراد نحو مما يريده الصوفية — الا وهو صديقنا وأخونا في الله عز وجل الاستاذ العالم المؤرخ الاديب السلفي احمد تيمور باشا المشهور باخلاقه العالية وعلمه وأدبه ، ولكنه على شهرته يكاد يكون مجهولا عند الاكثرين بخصوصيته ، فهو من شهداء الله وحججه على خلقه في دينه وفضائله ، ونادرة من نوادر الزمان هذا الزمان في مجموعة مزاياه ، رحمه الله تعالى وأكرم مثواه ، وقد خسرت الامة العربية بفقده ركنا من أركان علماء لغتها الخادمين لها بما تقتضيه حال العصر ، وخسرت الامة الاسلامية مسلما مخلصاً لدينه وأمته مدافعاً عنهما غيوراً عليهما

ذكر في بعض الصحف انه ولد في ٢٢ شعبان سنة ١٢٧٨ وانه لما دخل في سن التمييز اختار له والده اسماعيل باشا تيمور رئيس الديوان الخديوي من المعلمين من يلقنه مبادىء القراءة والكتابة في داره . وانه تلقى التعليم الابتدائي العصري في مدرسة مارسيل الفرنسية ، وان نفسه جنحت بعد ذلك لدراسة الفنون العربية والعلوم الدينية فأخذ أولا عن الشيخ رضوان محمد المخللاتي ، ثم عن الشيخ حسن الطويل الشهير الذي كان جامعاً بين العلوم الشرعية والعقلية والتصوف ، وانه كان يتردد على الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي الكبير فيتلقى منه ماشاء من اللغة العربية وآدابها

ثم أقول ان الفقيد رحمه الله تعالى قد اشترك في صحيفة المنار من أول العهد بانشائها ثم عرفته معرفة شخصية منذ شهر رمضان سنة ١٣١٦ إذ كان يحضر كل يوم درسي الذي كنت ألقيه في المسجد الحسيني في عقائد الدين وأصوله الاصلاحية العالية باسلوب خطابي اهتزت له مصر وكاد يحدث فيها ثورة دينية بما كنت أفنده فيه من البدع والخرافات التي شوهت تعاليم الاسلام الصحيحة حتى

كنت كثيراً من الايام ألقاه عند خروجي من المسجد فنمشي في خان الخليلي ثم في السكة الجديدة نتحدث في موضوع الدرس ، وحال المسلمين في هذا العصر ، فوجدته موافقاً لي في كل ما كنت أنكره من تغلغل نزغات الشرك في القلوب وانتشار البدع والخرافات في الاعمال وفيما يجب من الاصلاح الاسلامي، وجدته موحداً خلا ، لا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه، يتفصى من النصوص بخلابة التأويل

ثم كان يحضر معنا دروس الاستاذ الامام في الازهر وفي أثناء ذلك اقترحت على الاستاذ أن يعقد مجلساً خاصا لبعض اخواننا المستعدين لتلقي حكمة الاسلام العليا من خريجي دار العلوم وأساتذة المدارس الاميرية وغيرهم يتخولنا بها في بعض أوقات الفراغ، فقبل الاقتراح ، واخترنا دار احمد بك تيمور في درب سعادة لهذه الدروس العالية اذ كان هو أحد الراغبين فيها ، فاجتمعنا فيها مراراً ، وكنا نذهب في بعض الايام إلى (عين شمس) فنتلقى الدرس أو المحاضرة في دار الاستاذ الامام نفسه هنالك. ثم ابتاع فقيدنا اليوم داراً في عين شمس بقرب دار الامام فأقام فيها

تسنى لي في تلك المدة معاشرة احمد تيمور وكثرة مجالسته فرأيت منه شابا غنياً توفيت زوجته عن أولاد صغار فأبى أن يتزوج على كثرة البيوتات التي تتنافس في صهر مثله في كرامة بيته وسعة ثروته وحسن سيرته ، وانما أبى خوفا من كراهة الزوج الجديدة لأولاده ومضايقتهم له في تربيتهم، فاختار العزوبة مع العفة والصيانة التامة لأجلهم على حين نرى أمثاله من الاغنياء لا تحصنهم الزوج الواحدة ولا الزوجان ولا الثلاث ، ولا يبالون في طاعة شهواتهم مايكون من سوء تأثيرها في الاولاد، وأما الآخرة فلا تكاد تخطر لأكثرهم في بال

وكانت لذته من الدنيا أو في الدنيا جمع الكتب العربية النفيسة، ولا سيما المخطوطات القديمة النادرة ، وجرى في هذا على عرق وراثة ، وجد في دارهم مكتبة صغيرة فما زال يزيد عليها حتى أسس خزانة لها احتوت عشرين ألفا من الاسفار في جميع العلوم والفنون، منها مالا يوجد او لا يوجد مثله في غيرها حتى دار الكتب المصرية العامة ، ولم يكن حظه منها مجرد الجمع والتلذذ بالاحتواء والملك كما يعرف

عن بعض عشاق الكتب الذين ينظرون اليها نظرهم الى غيرها من أعلاق العاديات والآثار التاريخية ، بل كان يقضي جل أوقاته في المطالعة والمراجعة ، وبعضها في كتابة المقالات والرسائل وتصنيف الكتب، وكان يتروى فيما يخطه ويكثر التأمل والمراجعة حتى يكون محرراً منقحاً كما يحب وأكثر مايعنى به التاريخ واللغة

وله مصنفات مفيدة منقحة لعل نجليه الكريمين يطبعانها كلها إحياء لذكره الحميد، فلا سبيل لهما الى بره مثل هذه السبيل . فمما علمنا من أسماء مصنفاته:

(١) كتاب معجم اللغة العامية . استقصى فيه ماعلمه بالبحث الطويل من الالفاظ العامية وبين ماله أصل عربي وماورد في معنى ماليس له أصل . وغرضه من هذا دحض شبهة بعض ملاحدة أدعياء التجديد ، الذين يدعون إلى جعل اللغة العامية لغة العلم والتعليم ، ويدَّعون انها أصلح وأوفى بحاجة العصر من العربية الصحيحة ، وكان يمقت هؤلاء المتفرنجين ويحتقر دعواهم التجديد

(٢) ذيل لهذا المعجم في الامثال العامية

(٣) كتاب معجم الفوائد . وهو كتاب كان يجمع فيه مايعثر عليه من الفوائد المهمة في الفنون العربية والتعبيرات البليغة والمسائل الشرعية وغيرها مما حققه بعض العلماء ويحتاج اليه أهل العلم وقلما يهتدون اليه بالمراجعة لخفاء مظانه فكان يرتب ذلك على حروف المعجم لتعبيد طريقها لمن يريدها . ومن المعلوم بالبداهة أن هذا الكتاب لم يتم ولكن الموجود منه لا يتوقف على غيره، لانه فوائد متفرقة ، لا ابواب علمية متسقة، فلانتفاع بها، ليس مرهونا باستيفاء مباحثها

(٤) ترجمة ابي العلاء المعري ، والمرجو أن يكون فيها فصل الخطاب في كل مااختلف فيه الناس من أمره ولا سيما عقيدته لان فقيدنا رحمه الله قد اطلع على مالم يطلع عليه غيره من أقوال المعاصرين والغابرين فيه

(٥) كتاب وفيات القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة ، وقد استعان عليه بمكاتبة من عرفهم من أهل العلم في الاقطار المختلفة ولم يقتصر على ما اطلع عليه في الكتب الكثيرة ، وكان هذا التصنيف ديناً على علماء التاريخ العربي قام به من هو أجدر به، والظاهر انه كان يتوقع فيه المزيد من العلم كمعجم الفوائد ، وانه لذلك لم يبيضهما

(٦) مفتاح الخزانة - وهو ١٣ فهرساً لخزانة الادب الكبرى للبغدادي لاتتم الاستفادة من هذا الكتاب النفيس الجامع في آداب اللغة وتاريخها وتراجم رجالها بدونها، لمن يريد مراجعة المسائل والتراجم عند الحاجة اليها

(٧) نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الاربعة في فقه أهل السنة وانتشارها في الاقطار وأين يكثر كل مذهب منها

(٨) تاريخ اليزيدية وأجدر به أن يكتب حقيقة تاريخهم

(٩) رسالة في العلم العثماني - أي علم الدولة العثمانية - بين فيها أصله ومأخذه وتاريخه وأخذ العلم المصري منه وهي مطبوعة

(١٠) رسالة في قبر الحافظ السيوطي وهي مطبوعة

(١١ و١٢) رسالتان في تنقيح لسان العرب والقاموس المحيط وهما مطبوعتان

وله مقالات في بعض المجلات آخرها ما كانت تنشره مجلة الهداية الاسلامية في (الآثار النبوية) والمراد بالآثار هنا ما يسميه بعضهم المحفوظات وبعضهم المخلفات النبوية كشعره ﷺ وبردته وغير ذلك وكذا مايذكر من الاحجار التي فيها أثر الكف او القدم ، وقد نشر في الهداية بضع مقالات من ذلك يظهر ان لها تتمة ، ومع هذا يمكن طبعها مستقلة

وقد جعل خزانة كتبه وقفاً وبنى لها داراً في ضاحية (الزمالك) من ضواحي القاهرة ووقف عليها أرضاً (أطيانا) يكفي ريعها لنفقاتها والزيادة فيها . ولكن وجودها هنالك يحول دون الانتفاع العام بها .

ولم أر له ميلا في صباه إلى شيء من اللهو المباح فضلا عن المحظور او المكروه إلا أنه كان يرتاح الى شيء من سماع الاقوال الشاذة المستغربة من رأي او خبر وكان هذا من أسباب ارتياحه إلى مجالسة الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري رحمهما الله تعالى فقد كان لديه من ذلك الجم الكثير ، وأما أول أسباب عشرته وحبه له فهو كونه من علماء الدين الميالين الى الاصلاح العارفين بحال العصر، وماله من الاطلاع الواسع على نفائس الكتب العربية في خزائنها المشهورة في الشرق والغرب مع العلم بقيمتها العلمية والتاريخية، وهو الذي دله على الكثير منها، وكان الشيخ طاهر جمع كثيراً

من هذه الكتب المخطوطة النادرة وقد اضطر إلى بيع بعضها عند الحاجة إلى الدراهم في مدة إقامته بمصر ، فاشترى صاحب الترجمة كثيراً منها فيما بلغني ، ولو كان الشيخ طاهر يقبل من أحد مواساة مالية لكان له من صديقه الوفي المخلص احمد تيمور مايكفيه وفوق مايكفيه مع الاخفاء والكتمان، ولكن كان له من عزة النفس بالعلم وشرف البيت ومن العفة والقناعة بأدب الدين ما يربأ به عن ذلك ، رحمه الله تعالى

ومما عرفناه وشاهدناه من ترويح فقيدنا الكريم نفسه بسماع الآراء الشاذة أنه كان يختلف اليه في داره بدرب سعادة شيخ كبير السن سبق له اشتغال بطلب العلم، ثم صار له خواطر في التصوف والمهدي المنتظر، بل كان يعتقد أنه هو، فكان الفقيد يكرمه ويسمع له ماينطلق به لسانه من الخواطر الغريبة والافكار الشاذة ويضحك كثيراً ، وربما فتح له هو او من حضر من أصدقائه أبواب الحديث

ومما سمعناه منه مراراً في تلك الدار الانتقاد على الاستاذ الامام باغراء المجاس أن اسماعيل باشاصبري قال له مرة ان الشيخ محمد عبده المفتي يضع الشال الكشمير أحياناً على ذراعه كما يفعل الافرنج بوضع أرديتهم ومعاطفهم على أذرعتهم، وقال له مرة إن المفتي يدخن بالسجاير الافرنجية دون السجاير الاسلامية!! فكان يرفع عقيرته في الانكار والاستعاذة بالله تعالى من هذا الزمان الذي صار فيه مفتي الاسلام يفعل فعل النصارى ويستعمل سجاير النصارى !! وتارة يستبعد تصديق ذلك ويقول لاسماعيل باشا أو لتيمور بك : بالله العظيم يا باشا، بالله العظيم يا بك، مفتي الاسلام يشرب سجاير نصرانية ؟ فيقولان نعم نحن رأيناه بأعيننا ، فيقول أعوذ بالله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، فسد الزمان ... وكنا كلنا نضحك من هذه السذاجة والغفلة ، وتصديق الرجل بانه يوجد سجاير اسلامية وسجاير نصرانية !!

كان الفقيد يرتاح الى هذا ولكنه كان يفهم ذلك الشيخ المجذوب بعد ذلك حقيقة المسألة ، وانها ممازحة ، وما كان يقبل من أحد دون ذلك طعنا في الاستاذ الامام

وقد زعم بعض الذين كانوا يدينون بافتراء الكذب عليه انه لا يصلي فرد عليهم بلطف وهم في داره وقال مايعلمه من قوة دين الامام وعبادته ، ولم يلبثوا أن دخل عليهم خادم كان يتردد عليه للخدمة مدة وعلى علي باشا رفاعه أخرى بالتناوب لخدمة

خاصة ، فلما دخل عليه في غير موعده سأله عما جاء به فأجاب بما حاصله انه جاء الباشا ضيف اسمه الشيخ محمد عبده فوكلني بخدمته فاذا هو يقوم بعد نصف الليل بقليل فيتوضأ ولا يزال يصلي الى قرب طلوع الفجر ولا ينام إلا قليلا بعد صلاتها . وأنا مضطر لانتظار خدمته مادام مستيقظا فلم أطق صبراً على ذلك ففررت من هذا الضيف الثقيل . فقال الفقيد لمن حضر : الحمد لله الذي أظهر لكم الحق بما لا شبهة فيه لأحد . فوالله انني لم أر هذا الخادم منذ كذا من الايام .

وأقول : أن الامام رحمه الله كان يتردد أحيانا على صديقه علي رفاعه باشا في داره بمهمشة بالقرب من ادارة السكة الحديدية للمطالعة والمراجعة في كتب والده المرحوم الشيخ رفاعه ، وأما قيام الليل فلم يكن يتركه في إقامة ولا سفر .

ذكرت هذا لأبين لقراء المنار أنني ماعهدت من هذا الرجل في شبابه شيئاً من اللهو والهزل للتسلية غير هذا ، وقد تركه كما أظن في كهولته ، وقلما يوجد في الدنيا شاب غني وجيه يترك جميع لذات الدنيا وشهواتها المباحة غير المعتاد من الطعام اللائق ببيته ويصرف جميع أوقاته في الدارسة والمطالعة والكتابة ، ثم انه في السنين الاخيرة توجه إلى بعض الاعمال النافعة للامة وأهمها مساعدة الجمعيات الاسلامية كجمعية مكارم الاخلاق وجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية وهو صاحب الفضل الاول في تأسيس الجمعية الاخيرة ، وفي انشاء مجلتها وجريدة الفتح بماله وبنفسه وبقلمه

وجملة القول فيه انه كان موحداً سلفي العقيدة ، مهذب الاخلاق ، عالي الآداب ، محباً للاصلاح ، ومبغضاً للتفرنج والالحاد ، وقد تجدد له أمل في نهضة الاسلام بالدولة السعودية ، وما عزته اليه بعض الصحف من ارتيابه في حقيقة الوهابية ، وقوله في شيخي الاسلام ابن تيمية وابن القيم انهما كانا عالمين لا زعيمين ينافيه علمه الواسع بالتاريخ فهو افتراء عليه أو سوء فهم من الناقل عنه .

وذكر لي بعض أصدقائي وأصدقائه ان له صدقات سرية كان يتحرى فيها أن لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، وحسبه من الصدقة الجارية وقف كتبه الثمينة وما وقف للنفقة عليها . قد يقال إنه لو كان يظهر زكاة ماله للاقتداء به لكان أفضل من اخفائها ، ولكنه كان أعلم بحال نفسه وحال وقته وما هو أفضل له

توفي رحمه الله تعالى فجأة بسكتة قلبية ، وكان عرض له ضعف القلب من سنين مع مرض الصدر واشتدت عليه وطأته بمصابه بنجله الكبير محمد بك . ثم انه ترك التدخين فحسنت حاله الصحية بعد ان انقطع عن العمل زمناً طويلا فعاد اليه بنشاط

واذكر أنه كان يشكو الضعف وسوء الهضم من أوائل عهدي بمعرفته أي منذ ثلث قرن وكانت سنه دون الثلاثين ، وان الاطباء كانوا يقولون له انه ليس مصابا بمرض يخشى منه . واذكر انني قلت له مرة ان هذا الضعف لاسبب له إلا الافراط في الراحة والترف ، وأنه لا علاج له بالادوية وانما علاجه في شيء واحد وهو أن تحدث لنفسك مايحملها على التعب الجسدي بالرياضة البدنية العنيفة وعلى التعب النفسي والعقلي أيضاً في وقت آخر ، وجميع الاطباء يوافقون على هذا الرأي ويقولون به ، ولكن الذي يعمل به باختياره من غير باعث نفسي اضطراري أو متكلف بحيث يكون كالاضطراري قليل من الموسرين

وجملة القول أن هذا الرجل كان في مجموعة فضائله ومزاياه وجده وغيرته على الدين وعلمه وعمله ونأيه عن الهزل واللهو أمة وحده ، فهو من نوادر هذا العصر ، وشهداء الله وحججه على الخلق ، ولاسيما الاغنياء والمتفرنجين في مصر ، فان أكثر أغنياء مصر وكذا غيرهم من مسلمي هذا العصر شر من أغنياء سائر الأمم في جهلهم وبخلهم ، مع إسراف أكثرهم في شهواتهم . وأكثر المتفرنجين مصيبة على بلادهم ، يزعمون ان التهذيب العصري لايتفق مع الدين ، فليأتونا بمثل أحمد تيمور من كبراء ملاحدتهم إن كانوا صادقين؟

كان له ثلاثة أبناء نجباء عني بتعليمهم وتربيتهم فاحتسب أكبرهم في حياته لآخرته ، وترك اثنان يحيا بهما ذكره من بعده : اسماعيل بك من رجال التشريف في خدمة جلالة ملك مصر كما كان جده وسميه اسماعيل باشا وجد أبيه من قبله في خدمة أبي جلالته وجده ــ ومحمود بك الذي فاق أدباء العصر في انشاء القصص التمثيلية وغير التمثيلية ، فنعزيهما بل نعزي الامة الاسلامية عنه ، وندعو له بالرحمة والرضوان ، ولهما بطول البقاء مع طاعة الله ، وللامة بأن يعوضها عنه بالرجال العاملين المخلصين . وستقيم له جمعية الهداية حفلة تأبين حافلة وأول من رثاه بالشعر صديقنا وصديقه الاستاذ عبد الله بك الانصاري وكنا جعلنا مرثيته خاتمة لهذه الترجمة ثم اضطررنا الى تأخيرها الى الجزء الآتي

تقاريظ للجزء التاسع من التفسير ﴿ تأخر نشرها ﴾

﴿ الاول لصاحب الفضيلة الاستاذ الكبير الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ﴾

حضرة العلامة الجليل المفضال السيد محمد رشيد رضا المكرم زاده الله تعالى فضله

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . وبعد فقد وصلتني هديتك أيها الاستاذ الكريم وتلقيتها شاكراً لك مثنياً على فضلك وهي الجزء التاسع من تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار . ولما تصفحت هذا الجزء المبارك وتأملت في مباحثه ومسائله الجليلة ، وما حواه من فرائد الفوائد الجزيلة ، لم أجد له نظيراً في سهولته وبلاغته وطلاوته ، واتقان أسلوبه وترتيبه وحسن ارشاده ، فهو من أفضل كتب التفسير التي ألفت في هذا العصر لحفظ الدين وتأييده ، ولبيان ماترشدنا اليه الآيات القرآنية من العقائد والعبادات والآداب ومكارم الاخلاق والعمل للدين والدنيا ، والتعاون على البر والتقوى ، وما فاز السلف الصالح وساد إلا باقامة الدين ، واتباع سبيل المؤمنين ، فعلى المسلمين أن يقتفوا أثر هذا السلف ان أرادوا ارتقاء صحيحاً وتقدما لا تأخر بعده : وبالجملة فان تفسير منارك ياذا الفضل فيه للامة نفع عظيم ، وارشاد الى طريق الاصلاح القويم ، فعلى أهل العلم والمعلمين وغيرهم أن يقتنوه ويعتنوا بمطالعته لينتفعوا به وينفعوا ، ويصلحوا به مااختل من أحوال المسلمين بسبب تقليد أكثرهم للاغيار وتهاونهم بالدين . وبالختام أسأله سبحانه وتعالى أن يجزيكم عن المسلمين خير الجزاء ويوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه :

٢٧ رمضان سنة ١٣٤٧ أخوكم المخلص مصطفى نجا

مفتي بيروت

﴿ الثاني لصاحب الفضيلة والسيادة الاستاذ الكبير السيد عبد الفتاح الزعبي الجيلاني نقيب السادة الاشراف بطرابلس الشام والخطيب المدرس بجامعها الكبير المنصوري ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . من الفقير اليه سبحانه وتعالى عبد الفتاح الزعبي الجيلاني إلى السيد الشريف ،

والامام الغطريف ، السيد محمد رشيد آل رضا ،حفظه الله من سوء القضا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فانه وصلني ماتكرمتم به من الجزء التاسع من تفسيركم المفيد فاذا هو مظهر لقوله تعالى (ثم ان علينا بيانه) وقد غدوت شاكراً أفضلكم وممنوناً ، وقد نذرت لله تعالى متى شفا الباري عيني أقرأه درساً وندعو لكم وللمسلمين بخير . أدامك الله مرشداً ومجدداً كما أشار الى ذلك المرحوم الاستاذ الامام في آخر أيامه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نقيب أشراف طرابلس

في ٨ شعبان سنة ١٣٤٨

السيد عبد الفتاح الزعبي الجيلاني

(الثالث لجريدة أم القرى الغراء بمكة المكرمة في ٨ شوال سنة ١٣٤٧)

تفسير القرآن الحكيم

نجز الجزء التاسع من تفسير القرآن الحكيم للعلامة الجليل السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، من أول (قال الملأ) في الاعراف إلى قوله تعالى (واعلموا انما غنمتم) وهو ذلك التفسير الجليل الغني عن التعريف الذي تقصر العبارة عن وصفه غير أننا نشير إلى بعض ما امتاز به عن سائر التفاسير على كثرتها .

فأول ما امتاز به ذلك التفسير أنه راعى الزمان ونبه فيه على ماأغفله المفسرون من تطبيق الآيات القرآنية على الآيات الكونية (ثانيها) اتباع طريقة القرآن في الوعظ والارشاد فان الاستاذ بعد أن يفرغ من تفسير المفردات وبيان الاساليب يرشد المسلمين إلى مافي الآيات من العبر ، ويريهم مواضع الضعف ، ويقفهم على أسباب المرض ويرشدهم إلى العلاج (ثالثها) الرد على الملحدين والمبتدعين (رابعها) رد الخرافات التي راجت على كثير من المفسرين والحكايات الاسرائيلية ونقد الاحاديث (خامسها) حل مشكلات كثيرة وتحقيق مسائل لم يسبق اليها كبيان الحكومة في الاسلام وكون القرآن صالحاً لكل زمان ومكان ، (سادسها) التزام طريق السلف في آيات الصفات ، واشباع كل موضوع بما يليق به من البيان ، هذا الى تحقيق في مفردات اللغة وأساليبها وتناسب الآيات والسور واجمال ماورد فيها بعد تفصيلها مما لم تكد تجده في تفسير آخر . وبالجملة فهذا

التفسير لا يستغنى عنه مسلم في هذا العصر ، وحسبك بصاحبه صاحب المنار وحيد دهره ، ونسيج وحده ، الذي ينم تفسيره ومناره عن غزارة علمه وعلو كعبه ، ومن قرأ تصانيفه ولا سيما هذا التفسير عرف عجز واصفيه ، وكان حسبه تعريفاً مايراه فيه ، وانا نسأل الله تعالى أن يبارك في عمره حتى يتمه ، وينفع الامة به

كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية

طالما كنت أتمنى العثور على كتاب في الآداب الشرعية ، والاخلاق الدينية ، حافل الري بالمسائل النفسية واللسانية والاجتماعية والصحية ، حاوٍ للصحيح من الاخبار النبوية ، والآثار السلفية ، خالٍ من البدع والخرافات ، وحكاية غرائب الاسرائيليات ، ومن المجون والخلاعة ، والفحش والرقاعة ، ينتفع بقراءته الرجال والنساء ، ولا تخجل من الاطلاع عليه ذوات الخفر والحياء ، فيكون جامعاً لفوائد العلم الصحيح ، والقدوة بأهل الكمال ، من أهل العلم والصلاح ، مازلت أتمنى هذا وأرقب العثور عليه حتى ظفرت بهذا الكتاب (الآداب الشرعية والمنح المرعية) تصنيف العلامة الفقيه المحدث الواسع الاطلاع الشيخ محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي المتوفى بصالحية دمشق سنة ٨٨٥ فاذا هو الضالة المنشودة ، قد جمع مؤلفه فيه خلاصة مصنفات عديدة ، وزاد عليها زيادات مفيدة ، إلا انه أطال في المباحث الطبية وما يتعلق بها ومنه أمور الوقاع مما كنا نود أن يجعله كتابا مستقلا

أرسله إليّ الامام العادل محيي السنة وناشر علوم الملة ، ومقيم شريعة الاسلام بالحكم والعلم والعمل ، عبد العزيز آل سعود ملك والحجاز ونجد ، ليكون مما أطبعه له من الكتب النافعة التي يوزعها في الحجاز ونجد ابتغاء وجه الله تعالى . ولما كان من المحال أن تصل صدقات الامام الى جميع بلاد الاسلام ، زدت على ماطبعته لجلالته نسخاً أخرى لمكتبة المنار ، تبيعها بثمن معتدل لتعميم نفعه في الاقطار ، ويكون له حظ عظيم من الثواب

ويتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء تم طبع الجزء الاول منها وهو يدخل في ٥١١ صفحة أصلية وجعلنا ثمنه خمسة عشر قرشا مصريا يضاف اليها أجرة البريد والتجليد لمن أراد

أهم حوادث الشرق في هذا العام

ثورة الهند

من حسن حظ الهند أنه يوجد فيها عدة زعماء في كل من طوائف الهندوس والمسلمين، وانه نبغ فيهم زعيم كبير أذعنوا له بالقداسة الدينية والسياسة العصرية، تدين له شعوب الهند كلها بالزعامة العامة. وهذا من النوادر التي حرم منها الأمم منذ قرون كثيرة، ألا وهو (مهاتما غندي) الذي يقدسه الوثنيون، ويجله المسلمون، لانه لم يوجد في الوثنيين من ينصفهم ويعترف لهم بحق المساواة في المصالح الوطنية مثله، وقد كان رضي من الدولة البريطانية بأن تمنح الامبراطورية الهندية نظام الممالك المستقلة، وكانت وزارة العمل الحاضرة وعدت بذلك ولكنها المعارضة سائر الأحزاب لها ولاسيما المحافظين غلاة الاستعمار وعشاق الاستعباد البشري اضطرت الى المراوغة والتسويف وتعليل البلاد بدرس اللجان لحالها، ووعدها بتأليف مؤتمر في لندن ينظر في شأنها، ولم تعتبر بامتناع بلاد الهند من الاحتفال بولي عهد الامبراطورية عند زيارته لها، حتى شاهد مدنها العظيمة كالمقابر خالية من الزائرين غيره وغير من معه من قومه. ولقد أنذرها الزعيم الاكبر غاندي ثورة العصيان المدني عليها والبدء فيها بعصيان قانون احتكار الملح الذي يألم من حيفه كل فرد من أفراد الأمة، وضرب لهذا العصيان أجلا، وجعل له موعدا، فتمارى رجالها في الهند وفي لندن بانذاره، واستكبروا عن الاستجابة له، لعدهم ذلك مخلا بالعظمة البريطانية، التي لاتقل كثيراً عن دعوى الربوبية، وخيل لها احتقارها للبشر، عجزه عن تنفيذ تلك النذر، ولكنه شرع في التنفيذ وشرعت هي في المقاومة، فكان فوزها جزئيا موضعيا، وفوزه عاما كليا، فقد امتدت الثورة وانتشرت، واستشرت وتفاقمت، وهي تدنو من العصيان العام، والامتناع من دفع الضرائب الزراعية والعقارية، أعني أنها تدنو من الثورة الدموية العامة بتدريج منتظم ثابت، بدئ بمقاطعة البضائع الانكليزية والمواد الكحولية، وسحب الاموال الوطنية من المصارف الانكليزية، ثم بمقاومة رجال البوليس بالقوة، ثم بتهييج القبائل على

الحدود الافغانية ، حتى شعرت كبرياء الحكومة البريطانية بالخطر ، ولا تزال في حيرة من تلافي الخطب المنتظر ، وسنرى ما يخبيء لها القدر

المفاوضة المصرية البريطانية

نوهنا في الجزء الماضي بخبر هذه المفاوضة وما اعترض في سبيلها من عقبة مسألة السودان وإصرار الحكومة البريطانية على اعتراف الوفد المصري المفاوض لها بإقرار الحالة الحاضرة فيه ، أي امتلاكها للسودان كله امتلاكا شرعياً بإقرار الحكومة المصرية والأمة المصرية ، ورضاهما بان تكون حياة مصر الاقتصادية والزراعية بل حياته الحقيقية التي يقابلها الموت والخراب في قبضة الحكومة البريطانية القهارة الجبارة ... وقد امتنع الوفد المصري من قبول ذلك بالطبع ، فانقطعت المفاوضة مع الاتفاق بين الفريقين على بقاء بابها مفتوحا ، وعد كل ما تقرر فيها مقبولا ، الى أن يرجع أحدهما الى رأي الآخر في مسألة السودان

وكان الجمهور يخشى أن تنقطع المفاوضة على جفاء ومشاكسة ، فيعود الانكليز الى العبث بالحكومة وإلغاء الدستور ثانية ، ولكن كان من علم مصطفى باشا النحاس وحلمه ، وكياسته وفهمه ، ودهاء أعضاء وفده ، ما مكنهم من تمكين المودة بينهم وبين الحكومة الانكليزية ، بحيث لا يخشى أن تتدخل في أمور هذه الحكومة النيابية ، وهي براعة لم تتح لوفد من الوفود السابقة ، لذلك أكبرت البلاد أمر وفدها ، وازدادت استمساكا بعروته ، وثقة بخدمته ، وقد انصرفت همة الحكومة الوفدية الآن الى النهوض بالمصالح الوطنية الداخلية بلا معارض ولا منازع .

الوفد الفلسطيني

سافر الوفد إلى لندن برياسة شيخ الشعب صاحب السعادة السيد موسى كاظم باشا الحسيني ، وكان من أركان أعضائه في هذه المرة روح النهضة الفلسطينية صاحب السماحة السيد محمد امين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الشرعي الاسلامي الفلسطيني الأعلى ، وكان قد سبق الوفد الى لندن رائده الشاب الذكي البارع السيد جمال الدين الحسيني ، فمهد له السبيل بما ألقاه من الخطب في المحافل المختلفة ، ومن المقالات في الجرائد الكبرى ، ومن الاحاديث مع كبار الرجال في المسألة الفلسطينية ، فكان ذلك موضع

الاعجاب والتقدير، ولولا أن نفوذ اليهود في بلاد الانكليز لا يعلوه نفوذ آخر لنجح الوفد في سعيه الى تأليف حكومة نيابية في البلاد، فانه مطلب يقتضيه النظام المسمى بالانتداب، ولم يوجد أحد من الانكليز حتى أعوان اليهود منهم يصف العرب الفلسطينيين بما يصفون به الوطنيين من الهنود والمصريين والعراقيين من التطرف او عداوة الحكومة البريطانية.

وقد ثبت للفلسطينيين الآن بعد خيبة الوفد أنهم كانوا مخطئين في نوط أملهم بالحكومة الانكليزية وغرورهم بكلام بعض المنصفين من الانكليز الذين يكرهون اليهود — وأن خصمهم الحقيقي في وطنهم هو الدولة الانكليزية، وان اليهود ليسوا إلا جنداً من جنودها تستعين بهم على نزع أرض هذه البلاد منهم حتى لايكون لهم حق في حكومتها من بعد، وان من مقاصدها أن تقطع اوصال الامة العربية فتفصل بين مصر والعراق بشعب أجنبي تخرج به البلاد عن كونها عربية واسلامية، فالواجب يحتم عليهم أن يوجهوا كل قواهم الى مقاومة الاستعمار الانكليزي في بلادهم بالاتحاد مع جيرانها العرب — من أهل شرق الاردن وسورية والعراق وكذا نجد والحجاز — على استقلال هذه البلاد كلها وتأليف الوحدة العربية التي وطن الانفس عليها جميع المفكرين من العرب. وعليهم مع ذلك أن يستعينوا على خطتهم بمسلمي سائر الاقطار كما يفعل اليهود ولا سيما مسلمي الهند الذين لم يقصروا في إظهار العطف عليهم، ومخاطبة الحكومة الانكليزية في وجوب اجابة مطالبهم، لانه يعز على كل مسلم في الارض أن يستولي اليهود على بيت المقدس ويجعلوا المسجد الأقصى ثالث الحرمين هيكلا يهوديا، وهم يحفظون ماورد في أخبار مسيح اليهود الدجال، ومحاربة اليهود للمسلمين تحت رايته وماوعدهم رسول الله وخاتم النبيين من نصرهم عليهم.

مؤتمر شرق الاردن

لا حاجة بنا الى وصف ما كان من نبأ ذلك المؤتمر الشريف وهو الثالث، ولا الى نشر مقرراته بالتفصيل، وقد نشرتها جرائد مصر وسورية وفلسطين، وحسبنا منها تقريره تأليف حكومة نيابية مستقلة وعدم اعترافه بشيء مما قررته حكومته الحاضرة مع الانكليز وقصاراه جعل البلاد منطقة بريطانية عسكرية محضة !! وانما نقول ان عرب شرق الاردن أقدر من غيرهم من أهل فلسطين وسورية على تنفيذ

مايقررونه وإلزام حكومتهم العمل به اذا جدوا وعرفوا قيمة قوتهم بالوحدة وبالسلاح ، وعرفوا ماينذرهم من الخطر اذا طال العهد على البركان الذي عليه البلاد ، فهم لا بد أن يجرّدوا من القوتين في يوم من الايام اذا لم يظفروا في هذه الفرصة بجعل حكومتهم نيابية شعبية ، خالية من قوة الاحتلال الاجنبية ، بل الخطر على كل بلاد العرب حتى الحجاز كامن في بلادهم ، فليستيقظوا من رقادهم .

القانون الاساسي لسورية

وضع موسيو بونسو العميد الفرنسي لسورية قانونا أساسياً لسورية سماها به جمهورية نيابية ، وحصرها في مضيق عدة حكومات أو دويلات من ملحقاتها مستقلة بالاسم كاستقلالها وهي لبنان الكبير وجبل الدروز والعلويين أو اللاذقية وانطاكية والصحراء أو البادية ... وقيدها بكل ماتعرف به سلفه المندوبون الساموون من المظالم قبله ، وبكل ماتفرضه عليهم فرنسة باسم الانتداب في الحال والاستقبال ؛ وخلاصة هذا القانون الذي يفرضه على سورية أن يبقى الاستبداد الفرنسي فيها كما كان إلا أن رئيس هذه الحكومة السورية التي لاتتجاوز دمشق وحمص وحماه وحلب يسمى رئيس جمهورية ويكون لها مجلس نيابي لايستقل بشيء من التشريع إلا ماتريده فرنسة

جزيرة العرب والعراق

خمدت نيران الفتن في جزيرة العرب وظفر إماماها يحيى وعبدالعزيز باخضاع العصاة لهما في بلادهما . وانتهى موسم الحج في هذا العام بصحة وأمن وسلام ، وقد اعترفت دولة بولونية بمملكة ابن السعود بما نبينه في الجزء الآتي ان شاء الله

ومن أكبر الحوادث فيه اجتماع ملك نجد والحجاز بملك العراق ووضع أساس الاتفاق بين حكومتيهما وقد كان ذلك في أواخر رمضان ولما يظهر لذلك أثر فعلي في تنفيذ مواد الاتفاق .

مملكة الافغان

وأكبر الحوادث التي فرح بها المؤمنون ، واغتم بها الملحدون ، استواء الشاه محمد نادر خان على عرش الافغان ، واقامته للاحكام والاصلاح على قواعد الاسلام ، وجعل التجديد الالحادي الذي ابتدعه أمان الله خان مما دخل في خبر كان

خاتمة المجلد الثلاثين

باسم الله وبحمده نختم المجلد الثلاثين من المنار كما بدأناه ، وقد تمكنا بحول الله وقوته من إصداره في سنة كاملة، إذ جعلنا شهري الراحة فيها متفرقين لا متصلين كعادتنا ، واستدار الزمان فعدنا الى جعل صدور المجلة في السنين الهجرية القمرية كما كان من قبل ، فلا محل لشكوى أحد من قرائه بتأخير صدور بعض أجزائه ، وعسى أن لا ينسى المقصرون منهم في أداء حقه ما يجب عليهم منه ، وأن يتقوا الله فيه ، وأن يفكروا فيما نبذله من حياتنا وصحتنا ومالنا في سبيل هذه الخدمة ، وأن لا يرضى المفكر في ذلك أن يكون هو الهاضم لحق العامل ، المعرقل للعمل بالباطل ، ولا أن يكون غيره من القراء المؤدين لما وجب عليهم خيراً منه ...

وقد بدا لنا في أواخر هذه السنة أن نجيب الملحين علينا بوجوب الاسراع في إنجاز تفسير المنار الى اقتراحهم فأكثرنا منه في الاجزاء الاخيرة حتى كان أكثر الـ... من ستة اعشار هذا الجزء منه فان كان قد نشر نصف الجزء العاشر من التفسير في ... سنتين ونيف فالمرجو أن يتم النصف الثاني منه في هذا العام وحده الذي يصدر فيه ... المجلد ٣١ وقد سبق لنا الوعد للمقترحين بعزمنا على اختصار التفسير من أول الجزء ... الحادي عشر ، ونرجو حينئذ أن يوفقنا الله تعالى إلى كتابة تفسير جزءين في كل عام ...

وسيكون أهم مواد المجلد الآتي بعد التفسير إتمام تحرير مسألة الربا التي كانت ... زالت أعقد مسائل الاحكام المدنية في الاسلام ، وقد عم الحرج والبلوى بها جميع المسلمين في ... في جميع الأمصار ، ولدينا كثير من المسائل المهمة في باب الفتوى أرجأنا الافتاء ... فيها على إلحاح مرسليها بها ، وسنجيب عنها إن شاء الله تعالى ونقدم أهمها فأهمها ...

ولدينا بعد اتمام مقالات (المساواة بين النساء والرجال) التي من فروعها ... مسألة السفور والحجاب محاضرتنا التي ألقيناها في شهر رمضان في مسألة (التجديد والمجددين) وهي مهمة جداً أقمنا فيها أدعياء التجديد الالحادي الحجر ، وكان ... لمجددي الاصلاح الاسلامي بها الظفر ، وقد حضرها بعض علماء أوربة من ... المستشرقين فاستحسنوها ، وشهدوا لنا بالاعتدال فيها .

وسيرى القراء فيه رداً على بعض الجامدين على التأويل والتقاليد من الشيوخ ...

المعاصرين إذ تصدى منهم شيخ تركي شايعه آخر مصري لتشويه مذهب السلف والطعن في بعض كبار حفاظ السنة وفي المهتدين بها في هذا العصر ، لان هذا أضر على الاسلام من طعن المبشرين والملحدين فيه

وقد اضطرنا في هذا العام إلى الرد على كتاب آخر جديد من كتب شيعة سورية ولبنان بما حرف فيه من آي القرآن، للطعن القطعي في جمع من رضي الله عنهم من المهاجرين والانصار، ورميهم بالجبن وخذلان الرسول ونكث ما عاهدوا الله عليه . . والغلو في علي كرم الله وجهه بجعل المنة له وحده في حياة الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم وبقاء الاسلام، اذ أقسم أغلظ الايمان بانه لولاه لقتل النبي صلى الله عليه وسلم في حنين ولذهب الاسلام وأطفيء نوره بالرغم من وعد الله تعالى باتمام نوره، واظهاره على الدين كله، ونصر رسوله الخ

وقد اطلعنا في مجلة العرفان على رد علينا للسيد عبد الحسين صاحب هذا الكتاب وهذه اليمين أخاف فيه ما كنا نظنه فيه من النزاهة وحسن الادب في الرد وامتيازه فيه على خصمنا القديم السيد محمد محسن ، فاذا هما سيان في المراوغة والمراء والمجادلة في الحق بعد ما تبين، وفي القذع والسباب، والنبز بالالقاب، ولو رأينا في ردودهما شيئا من الاعتراف ولو ببعض الحق ، والتزام الصدق ، لدخلنا معهما في المناظرة وحكمنا لجنة من أهل العلم واستقلال الرأي فيها، وانما نقول مع الاسف والحزن انهما ليسا أهلا لذلك لأن المقلد المتعصب الذي تربى على الجدل والتأويل لا يطلب الحق في شيء من جدله، ووالله انه ليعز علينا أن يكونا كذلك،وان الشاب الشيعي الاستاذ مصطفى جواد أحد محرري مجلة لغة العرب، لأدنى منهما الى مراعاة قوانين العلم والادب على تعصبه للمذهب،وقد انتقد الجزء التاسع من التفسير في تلك المجلة بما سنراجعه وننصفه فيه عند سنوح أول فرصة ان شاء الله تعالى فاننا انما لمحناه في أثناء مرضنا لمحا

أنا لا أجادل فيما أنكر السيد محسن على السيد الآلوسي في مسألة فتاوى المهدي المنتظر، ولا في المتعة الدورية التي هي أقبح فضائح البشر، ولكنني أتحداه وأتحدى مجلة العرفان بان ينشرا فيها صورة الكتاب الذي يزعمان ان السيد محمود شكري الالوسي قرظ فيه كتاب السيد محمد بن عقيل (النصائح الكافية) ... بعد أخذها عن الاصل (بالزنكوغراف) فاننا نعرف خط السيد محمود ونعلم انه كان لا يداهن ولا يتكلم

بلسانين، ولا يكتب بقلمين، فلا بد أن يكون ذلك الكتاب لغيره أو مزوراً عليه

هذا وقد بلغنا عن بعض أصدقائنا من الجالية الايرانية انهم استاؤا من تعبيرنا في الرد على الشيخين صاحبي الكتابين المنكرين بلفظ « الرافضة » الذي يكرهونه، وانما عبرت به حتى لايكون ردي موجهاً الى الشيعة في جملتهم. فاني صرحت بأن المراد من الرافضة الغلاة في بغض الصحابة والطعن فيهم رضي الله عنهم وفي سائر أهل السنة ولا سيما حفاظ الحديث رحمهم الله أجمعين. وترويج ذلك بادخاله في باب الغلو في علي وأهل البيت النبوي عليهم السلام. وان لديَّ من الكتب المدونة في غرائب هذا الغلو مايعد طعناً في القرآن، وهدما للاسلام، ومن الرسائل والمقالات في تعصب القوم ومن العلم بما يربي عليه الغلاة منهم أولادهم وما يفعلونه في بيوتهم في جبل عامل وغيره يوم عاشوراء من نتف صوف الجلود أو شعرها تمثيلا ا ه ... مايمنعني مشربي القديم ومذهبي القويم في محاولة التأليف من نشره، ولو نشرته لما كان إنكار هذين المؤلفين ولا مجلة العرفان له إلا كانكار كثير من الحقائق التي كتبها السيد محمود شكري الآلوسي وغيره بما ليس بمقنع لاحد ممن يطلع عليه، وسنتكلم في فرصة أخرى على مانرجوه من الاتفاق بين أهل السنة والشيعة ولاسيما شيعة ايران فقد زارني عالم كردي ايراني فأخبرني بما سرني من حالة ايران واصلاح الشاه الجديد الذي كنت مرتابا في أمره، وأخشى أن يكون كأمان الله في تفرنجه، فبشرني هذا العالم بأن الأمر ليس كذلك وبأن علماء ايران من الشيعة يغلب على أكثرهم الانصاف، ويرجى منهم مانطلب من الاصلاح

الانتقاد على المنار

واننا لانزال نطالب محبي الحق وأهل الغيرة على العلم والدين ومصالح المسلمين أن يذكرونا إن نسينا، وينتقدوا علينا مايرونه خطأ أو مخالفا للمصلحة من كلامنا مع مراعاة الاختصار والاقتصار على الموضوع في كل مسألة بدون مقدمة ولا استطراد، ولا قدح ولا اطراء، فبهذه الشروط تقبل النقد وننشره ونبين ماعندنا فيه ونترك الحكم للقراء فيما نختلف فيه، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا في عامنا الجديد لخير ماوفقنا له فيما قبله، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه، وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.